

# تيسير الكريم الرحمن

في تفسير كلام المَنَّان

تأليف  
العلامة الشيخ  
عبد الرحمن بن ناصر السعدي

وسم له

فضيلة الشيخ  
عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل  
فضيلة الشيخ  
محمد الصالح العثيمين

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة  
عبد الرحمن بن محمد بن معاذ اللويحي

طبعة جديدة محققة عنه نسخ خطية مع زيادات  
طبع لأول مرة

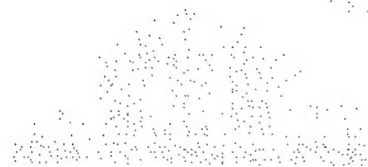
مؤسسة الرسالة



$$\begin{array}{r} 17 \\ \hline 14 \end{array}$$

...

...



...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

مخبر الطباعة

شارع عينات في القاهرة

مصر - ١١٥١١١١

هاتف: ١١٥١١١١ - ١١٥١١١٢

فاكس: ١١٥١١١٣ - ١١٥١١١٤

بريد إلكتروني: ١١٥١١١٥

مستودع: ١١٥١١١٦

Resalah  
Publishers

Tel: 338619 - 338613

Fax: 338613 - 338614

P.O. Box: 117460

Ramot - Lebanon

Email:

resalah@resalah.com

Web: Resalah.com

http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة للنَّاشِرِ

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٠ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



# تفسير الكبرياء الحبيب

## في تفسير كلام المثنان

تأليف  
العلامة الشيخ  
عبد الرحمن بن ناصر السعدي  
١٣٠٧ هـ - ١٣٧٦ هـ رحمه الله تعالى

قدم له

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل      فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة

عبد الرحمن بن معاذ اللويحي

مؤسسة الرسالة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## بسم الله الرحمن الرحيم

المحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده  
 فإن من نعم الله عز وجل ما من به على والدنا الشيخ : عبد الرحمن بن ناصر  
 السعدي من تأليف تفسيره المعروف بدلائر الكرم الرحمن من تفسير كلام  
 المنان ) فقد كتب الله لهذا التفسير القبول فانتفع به الجسم الفقير من الناجين  
 فطبع مرات عديدة أولاها : طبعة الملتقى السلفية ومطبعتها لمحمد الدين  
 الخطيب - رحمه الله - أعقبتها طبعة المؤسسة السعيدة بمراجعة وتصحيح  
 محمد زكري النجار ، ولكن كثيرا من العلماء وطلبة العلم لاحظوا  
 على هاتين الطبعتين - خاصة طبعة النجار - ملاحظات عديدة ، جرت  
 عليها الطباعات اللاحقة جميعها ، وقد تبين صدق هذه الملاحظات  
 فظهرت أضعافها عند مراجعة التفسير على نسختيه المخطوطين ، فإن  
 ما في المطبوع من الأخطاء والنقص والزيادة .  
 ولقد علمنا جهد : عبد الرحمن بن معلا اللويحه - الاستاذ السامي عيني عليه شرف  
 بالرياض - من تصحيح تفسير والدنا ، ومقابلته على النسختين الخطيتين مع  
 أخراجه في مجلد واحد على هامش المصحف ، فرأينا أن هذا العمل  
 قد سلم من عوار الأعمال السابقة فتميز عنها بطباعة التفسير على  
 النسخة التي بخط الوالد رحمه الله - ومراجعة على النسخة الخطية التي أعقبتها  
 المطبعة السلفية ، نحصار التفسير بهذا أمر بما يكون لما أراد مؤلفه  
 رحمه الله - فأنهذه الاعتبارات فإننا نعتقد هذه الطبعة بتحقيق ومقابلة  
 عبد الرحمن بن معلا اللويحه ، ونقدتها الطبعة التي يجب أن تكون أصلا  
 لغزها من الطباعات اللاحقة ، ونأمل أن تكف المطابع ودور النشر عن  
 إعادة طباعة الطباعات السابقة لما فيها من أخطاء وتعين براءة حقة  
 لهذا العمل المبارك .

مع دعائنا الله عز وجل أن يفر للموالد الشيخ : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، وأن  
 يجزل له الأجر والثوبة وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم  
 محمد بن عبد الرحمن السعدي  
 ٢/١٤  
 ١٤٤٥

محمد بن عبد الرحمن السعدي  
 محمد بن عبد الرحمن السعدي  
 ٢/١٤  
 ١٤٤٥



## المقدمات

مقدمة فضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيـل.

مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين.

مقدمة الحقـق.







## مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وجعله هدى وبرهاناً لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقبض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيليّات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرأها مهما كان مستواه العلمي فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافاً لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منَّ الله عليَّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهاً في حلقات الدروس في مسجد الجامع بعنيزة، كما أنني ممن أشار عليه بطبعه فطبع الجزء الخامس فقط في حياته عام ١٣٧٥هـ في المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا في طبع بقيته، وساهمت في ذلك أيام كنت قاضياً في عنيزة فطبع باقيه بعد وفاته في عامي ٧٦ و ٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله النامس بالقراءة والتدريس، ودرسناه لإخواننا وأبنائنا الطلاب وحصل بذلك خير كثير وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عباراته. وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مؤاخذه.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابنا الشيخ الفاضل: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه كل جزء (٢٠) صفحة مراعيّاً في كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها. وقد عرض عليَّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبني، وسررت بها جداً مؤملاً أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظاً وفهماً، لأنه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالي القرآن لسهولة

التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة بدلاً من الرجوع إليها من كتب التفسير البعيدة. كما أنه سيعتني بتصحيح الأصل وجودة الطبع، فأسأل الله أن يشكر للابن الشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق هذا الصنيع المبارك وأن يجزيه أفضل الجزاء وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء وأن يتغمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته إنه جواد كريم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر في ٩/٢٧ / ١٤١٦ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)



## مقدمة

## صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة

للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه فهو

عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم وهذا يظهر جلياً في بعض

الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين حكماً وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة

الأعراف ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارئه إنه كريم جواد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله

وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function  $f(x)$  defined by the equation  $f(x) = \int_0^x f(t) dt$ . It is shown that  $f(x)$  is a constant function, and its value is determined by the initial condition  $f(0) = 1$ .

2. In the second part, we consider the function  $g(x)$  defined by the equation  $g(x) = \int_0^x g(t) dt$ . It is shown that  $g(x)$  is a constant function, and its value is determined by the initial condition  $g(0) = 1$ .

3. In the third part, we consider the function  $h(x)$  defined by the equation  $h(x) = \int_0^x h(t) dt$ . It is shown that  $h(x)$  is a constant function, and its value is determined by the initial condition  $h(0) = 1$ .

4. In the fourth part, we consider the function  $k(x)$  defined by the equation  $k(x) = \int_0^x k(t) dt$ . It is shown that  $k(x)$  is a constant function, and its value is determined by the initial condition  $k(0) = 1$ .

5. In the fifth part, we consider the function  $l(x)$  defined by the equation  $l(x) = \int_0^x l(t) dt$ . It is shown that  $l(x)$  is a constant function, and its value is determined by the initial condition  $l(0) = 1$ .

6. In the sixth part, we consider the function  $m(x)$  defined by the equation  $m(x) = \int_0^x m(t) dt$ . It is shown that  $m(x)$  is a constant function, and its value is determined by the initial condition  $m(0) = 1$ .

7. In the seventh part, we consider the function  $n(x)$  defined by the equation  $n(x) = \int_0^x n(t) dt$ . It is shown that  $n(x)$  is a constant function, and its value is determined by the initial condition  $n(0) = 1$ .

8. In the eighth part, we consider the function  $o(x)$  defined by the equation  $o(x) = \int_0^x o(t) dt$ . It is shown that  $o(x)$  is a constant function, and its value is determined by the initial condition  $o(0) = 1$ .



## مقدمة المحقق

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظيمة؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغواية: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا﴾.

ولكن الاستفادة الحقة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً، وفهماً: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ ومن سبل ذلك التدبر، والفهم: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عز وجل لهذا الذكر الحكيم أن قيض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ فألفوا في ذلك كتباً بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكتليات، ودفعوا التعارضات المتوهمه، وبيّنوا مراجع الضمائر، وعينوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهاً متعددة وكانوا طرائق قدداً في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي رحمه الله فجعل جلّ عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحاً في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانته على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الضرفية، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني، وبيان المراد إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد منّ الله عليّ بالعناية بهذا التفسير، ومحبة صاحبه رحمه الله وقراءة التفسير وإقرائه، والنصح بقراءته، ومنّ الله عليّ بالعناية بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادة عن قراءته في مجلداته السبعة التي كان عليها في أشهر طبعاته السابقة، وكان الهم منصرفاً إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتاً إلى طبعات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى هاتفتني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما ومقابلة للشيخ: عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير وينسخه المخطوطة، وطبعاته فتبين أن في الطبعات عواراً كثيراً، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تاريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طباعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلاً في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله الكتيون والناشرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنهاء في عام ١٣٤٤هـ.

وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه إذ يمثل كتابة عالمٍ ناضجٍ متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾.

وقد كتب نسخة واحدة ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، وبالتتبع والسؤال يبدو لي أنه لم ينسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

### النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكون هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

### المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي)<sup>(١)</sup> وفوقها بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير (هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقوله: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ وفي وسط الصفحة وبخط الشيخ أيضاً: «شرعت في هذا التفسير الميمون غرة شهر ( ) سنة ١٣٤٢ هـ أرجو الله أن يتمه بنعمته».

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش وتعديلات بخطه أيضاً، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة إلى تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ الآية (١٢٩) من سورة آل عمران.

### المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير الآية (١٣٠) من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعكم تفلحون﴾ وآخره: آخر تفسير سورة الأنعام.

### المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة في كل صفحة (٢٥) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة الأعراف، وآخره آخر تفسير سورة هود.

### المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٦) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة يوسف، وآخره آخر تفسير سورة الإسراء.

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين... أمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لجامعة الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي).

(٢) الكلمة غير واضحة في الأصل والذي يبدو أنه شهر صفر أو محرم لأن الشيخ أتم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

## المجلد الخامس:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الكهف وآخره آخر تفسير سورة النمل.

## المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥هـ) وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يربك القارى.

وعلى هذا الجزء هوامش. وتعديلات بخط الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة القصص، وآخره آخر تفسير سورة الصافات.

## المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله: تفسير سورة (ص) وآخره: آخر تفسير سورة الفتح.

## المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً، أوله أول تفسير سورة الحجرات، وآخره آخر تفسير سورة القيامة.

## المجلد التاسع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الإنسان، وآخره آخر تفسير سورة الناس.

## النسخة الثانية:

## المجلد الأول:

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت هذه العبارة أو قريباً منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد.

وفي وسط الصفحة ما يلي: (تنبيه: أعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما يتعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثاني» تشني فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

## المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي الحسن البريكان، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ



عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة في كل صفحة (٣١) سطرًا تقريباً.

#### المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان بدأ الأول بنسخ اثني عشرة صفحة ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل الثاني فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسماً للناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة كل صفحة (٣١) سطرًا. وبداية المجلد ونهايته كمثيله في النسخة الأولى.

#### المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد البسام وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله ويقع في (١٠٣) صفحات في كل صفحة (٢٨) سطرًا وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى.

#### المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بعث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر. وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصول من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله وقد جعلتها ملحقة بهذه الطبعة في آخر التفسير.

وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله وقد أرخ في ٣١/٢/١٣٧٤ هـ ونص الخطاب تجده في هذه المقدمة وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطرًا، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنى.

#### المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة في كل صفحة ما بين (٢٥-٢٨) سطرًا وبدايته ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

#### المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبد الله البسام رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢) صفحة في كل صفحة (٢٢) سطرًا، وبداية الجزء ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

#### المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة..

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.

هذا عن نسخ التفسير المخطوطة وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ١٣٧٤ هـ / ٢ / ٣٠. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الآمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه وقع النظر على الاختصار على طبعه فجعلنا له مقدمة وختمناه بأصول وكمليات من أصول وكمليات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأحببت أن يكون الاختيار لجنابكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب أو الشيخ حامد أو من ترجح وتحثه على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصروف، وقد وصيت الشيخ: عبد الله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه وأرجو الله أن يثيكم الثواب الجزيل، ويشكر مسامعكم ويجزيك عنا أفضل الجزاء فأنت طال عمرك عوض النفس في كل شيء والله الموفق والسلام.

محبك<sup>(١)</sup> عبد الرحمن الناصر السعدي

وتنبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكمليات التفسير للحاجة الشديدة إليها

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من أفراد هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء<sup>(٢)</sup> فقال: وقد تكرر علي السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥ هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فأتم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦ هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبد الله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خبر)<sup>(٣)</sup> وبعدها بعشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازه، يسر الله ذلك وسهله)<sup>(٤)</sup>. وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً وبدوا أنه لم يبد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

\*\*\*

وتتميز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطباعات، وهي أصل جميع الطباعات السابقة فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائداً إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيقات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول عن كتابة الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط .

(٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة.

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦).

(٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨).

## الملحظ الأول:

التصرف في طريقة الشيخ في تفسير الآيات، حيث يعتمد الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إلخ القصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية فيغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويغيرون كلامه ويشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

## ومن أمثلة ذلك:

إن الشيخ رحمه الله أورد قصة قارون هكذا: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر القصة فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ إلى قوله: ﴿قال رب انصرني على القوم المفسدين﴾ فأتوا الآيات إلى قوله: ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

## الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تفسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ولبه المجلد الثاني وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)<sup>(١)</sup> وليس الأمر كما قالوا بل تقسيم النسخة التي اعتمدها على خلاف ما ذكروا.

## الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القائمون على هذه الطبعة في التفسير زيادات وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنواناً في وسط الصفحة (الجزء الثالث)<sup>(٢)</sup> وكذا عند الجزء الرابع وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يسيروا إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد البسملة<sup>(٣)</sup>.

٣- زيادة قوله من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة من ديارهم فصار النص

(١) (٢٨٨/١).

(٢) (١٤٩/١).

(٣) المخطوطة ب (٢٣/٢) وطبعة السلفية (٣/٢).



هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي (و) أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة (شعياً) فأمرهم).  
فعدل النص حتى صار بزيادته هكذا: (أي: (و): أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعياً الذي أمرهم).

وبعدها بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله فعدلت فصارت (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله<sup>(١)</sup>.

وهذا كثيراً جداً، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما يعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما بنقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولاً في الأصل إلا إنه لم ينبه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

#### الملحظ الرابع:

التصحيح في بعض الجمل تصحيحاً خاطئاً - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾: ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجباً من العجب حيث غيرت عنه إلى عند أو كلمة (عرفاً) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عند عرفات فهذا الذي يجب عليه الهدى)<sup>(٢)</sup>.

وقد تابعت كل الطباعات مقلدة هذا الخطأ.

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو بمسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل ومثال ذلك:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ الآية، (وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله). غيرت كلمة زعم إلى: (أخبركم أنه من عند الله)<sup>(٣)</sup>.

#### الملحظ الخامس:

##### بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

(فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين وجاء في طبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)<sup>(٤)</sup> وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تابعت الطباعات<sup>(٥)</sup>.

\*\*\*

وبعد ظهور هذه الطبعة بسنين طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدية، التي كلفت الأستاذ

(١) ينظر الطبعة السلفية (٤٣/٦)، والمخطوطة ب (٢٣/٦).

(٢) المخطوطة ب (٨٢)، طبعة السلفية، (١١٧/١).

(٣) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١).

(٤) (١٣٨/١).

(٥) ينظر طبعة النجار (٢٨٧/١).

محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها بل اعتمدت طبعها الرئاسة العامة للافتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظ تظهر غوار تلك الطبعة أذكر هنا جملة منها:

### الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتماداً كلياً على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقاً على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضاً، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

### الملحظ الثاني:

#### التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة ثم يشرع في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبياء فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرع في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطأ ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات أو الإضافة أو نحو ذلك.

### الملحظ الثالث:

#### التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة وهي قول الله عز وجل: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالقاموس والصحاح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفحتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارى للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا ينقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥ - ١٠٧) من سورة الأنعام حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من

الجزء الثاني، ولم يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشيخ حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم﴾، ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير وزيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً<sup>(١)</sup> ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظنّها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبه إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً<sup>(٢)</sup>.

ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زياداته وكأنها تعليق على كلام الشيخ رحمه الله<sup>(٣)</sup>.

#### الملحظ الرابع:

#### الحواشي والتعقيبات:

لقد قام النجار بتعقب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هامش لتلك التعقيبات فتعدى مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بآراء بعدت عن الصواب، وجانب الحق في أجلى معانيه مما شوه به هذا الكتاب، وأساء إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة كما أنه اعترض على المؤلف، ورد أقواله بآراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النص وتصحيحه<sup>(٤)</sup>.

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقيبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف لكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتنقص للعلماء وكذب عليهم)<sup>(٥)</sup>.

ولقد كان في معظم تعليقاته متهماً للشيخ وأسلوبه وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلقة كما ترى)<sup>(٦)</sup>، (العبارة مبهمه تحتاج إلى إيضاح)<sup>(٧)</sup>، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)<sup>(٨)</sup>، (وفي العبارة غموض كما ترى)<sup>(٩)</sup>.

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة.

(٢) ينظر طبعة النجار (٣٥٠/٥).

(٣) ينظر طبعة النجار (٢٥٤/١).

(٤) الشيخ محمد سليمان البسام: كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

(٥) المصدر السابق (٩).

(٦) (١٠٤/١).

(٧) (١٥٩/١).

(٨) (٢٤٠/١).

(٩) (٣٤٦/١).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنوانها: (كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكتفي بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار وأشار هنا إلى ثلاث تعقبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١ - وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به:

قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ «أي نكاحاً صحيحاً ويطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق) هكذا في النسختين وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً» وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢ - إقحام تعليقات لا محل لها فمن ذلك. قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهره التوحيد:

ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه»

٣ - الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم. . الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»<sup>(١)</sup> فكأنه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ وليس هذا بخطأ بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحظ الخامس:

### سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليقه في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

\*\*\*

إن هذه الملاحظ ليست إلا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجممل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطبعات كانت نسخاً مكرورة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النسخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أراده الشيخ رحمه الله فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل



سأداً للثلثة ومبرئاً للذمة.

العمل الذي قمت به:

لقد من الله علي بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطباعات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سعت إليه جاهدًا هو: إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي:

أولاً: نسخ التفسير كما هو ويتضمن ذلك: إثبات الآيات المفسرة كما كتبها الشيخ - رحمه الله - فحين يورد الآيات كاملة، أو ردها كاملة كما فعل، وحين يورد جزءاً منها ويقول: إلخ القصة، أثبتها على هذا الوجه، وحين تفترق النسختان أطبق قواعد المقابلة التي سأبينها لاحقاً بحول الله، وقد راعيت في النسخ ما يلي:

١- توزيع النص توزيعاً جيداً، بحيث يكون تقسيم فقرات الكلام وأجزائه متصلاً بمعانية، واجتهدت ألا أقطع السياق الواحد بين فقرتين مختلفتين، وأن أبدأ تفسير الآية أو الآيات من أول السطر.

٢- ترقيم الآيات المفسرة في بداية تفسيرها، وهذا لم يكن من عمل الشيخ - رحمه الله - ولكن وجدته مهماً لأجل سهولة معرفة مواضع الآيات.

٣- تصحيح بعض الأخطاء الإملائية الظاهرة التي لا تخفى على الشيخ - رحمه الله - ولكنها سبق قلم.

ولقد حرصت على عدم التدخل في التفسير والتعديل فيه بأي وجه من الوجوه إلا في ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون الخطأ في الآيات فهنا أثبت الصواب ولا ألفت إلى الخطأ، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يكون قلم الشيخ سبق إلى آيات في غير السورة، أو في السورة نفسها، وليست في ذلك الموضع، ثم يفسر الآيات التي كتب، فأنبت الصواب في الآيات، وأبقي التفسير كما هو، وأشير إلى ما عملت في الهامش.

الثانية: أن يكون الخطأ ظاهراً، ولا يمكن أن يقبل به المؤلف - رحمه الله - فهنا أثبت التعديل الذي أراه صواباً، وأشير في الهامش إلى ما في الأصل من خطأ، أو سبق قلم.

الثالثة: أن يكون التعديل طفيفاً كأن يكون تعديلاً في ضمير فيقول: (خالقهما) والصواب (خالقها) أو العكس أو يقول (التي) والصواب (الذي) ونحو ذلك، فهنا أصوب الكلام، وأشير في أحيان يسيرة إلى ما عملت، خاصة وأن الشيخ - رحمه الله -: (كان سريع الكتابة، ويكتب بخط دقيق، وبدون نظارة، لكنه على قاعدة صحيحة)<sup>(١)</sup> وكانت جل عنايته بالمعاني، ولذلك قال في رسالة للشيخ عبد الله بن عقيل - حفظه الله - (فحسن الإملاء والجري مع المعاني أولى من اعتبار حسن الخط، فذاك أهميته بالنسبة لحسن الإنشاء قليلة).<sup>(٢)</sup>

ثانياً - المقابلة:

وابتغاء توضيح الأمر أبين ما قمت به في نقاط:

أولاً: اعتمدت النسخة (أ) وجعلتها أصلاً لأمور:

الأول: أن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله -.

والثاني: أنها النسخة التي كانت بيد الشيخ - رحمه الله - إلى حين وفاته.

(١) الشيخ عبد الله بن عقيل: الأجوبة النافعة (المقدمة) (٧).

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٦٧).

الثالث: أنها سالمة من التعديل والشطب اللذين وقعا من النساخ أو الطابعين أو المصححين بعكس النسخة (ب) فإن هذه النسخة سلمت للمطبعة السلفية، فكان المصححون للطبعة يعدلون عليها ويشطبون، بل تجد على هوامشها أسماء (عمال الصف) فنجد اسم (محمود) أو فلان منهم وذلك لتوزيع العمل عليهم، بينما النسخة (أ) لم تمسها الأيدي بشطب أو تعديل.

الرابع: سلامة هذه النسخة من الخروم والنقص لأن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - بينما النسخة (ب) كتب معظمها بخطوط النساخ فوق وقع فيها بعض النقص والخروم.

الخامس: أنها أجود كثيراً من النسخة الأخرى في إملائها بينما تجد في النسخة (ب) أخطاء ظاهرة.

ثانياً: يلاحظ أنني ذكرت في وصف النسختين أن معظم النسخة الأولى كان بخط الشيخ - رحمه الله - وأن النسخة الثانية في جملتها بخطوط النساخ وهذا توضيح تفاوت الكتابة على التفصيل مع بيان ما قمت به حيال ذلك التفاوت:

١- أجزاء كانت في النسختين بخط الشيخ - رحمه الله - وذلك مثل كثير من المجلد الأول، والمجلد الثامن، والتاسع، وفي هذه الأجزاء يلاحظ وجود الاشكالات الآتية:

( أ ) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد فسر الآيات من قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٣٨، إلى نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٢٩ تفسيراً جديداً فليس ما في النسختين متوافقاً بل هو متغاير من حيث الألفاظ والصياغة والأسلوب وكأن الشيخ - رحمه الله - كتب ذلك مرتين، ولم يكن هناك احتمال لأن يكون الكلام ليس بكلامه، لأن ما في النسختين بخطه - رحمه الله - وروح الكلام وأسلوبه هو ذات أسلوب الشيخ - رحمه الله - وقد قلبت النظر بين خيارات عدة، وكان ما استقر الرأي عليه أن أجعل في صلب التفسير ما كان في النسخة ( أ ) وهي النسخة التي توفي الشيخ - رحمه الله - وهي في بيته، وأما ما في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبعات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات وينقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستفدت من (ب) في المقابلة وجعلت جل اعتمادي عليها إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى وقد جعلت الزيادات بين قوسين مركنين [ ] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كليهما.

الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقتضاء السياق وعدم استقامته بدونها فقد جعلتها بين قوسين مركنين وأشرت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيها السياق).

وبعد، فيلاحظ إنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً يمكن الاستغناء عنها بقراءة الكتاب لمريد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والاعلام أو القبائل... ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزيد والتكثُر لا حاجة له.

\*\*\*

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه. قدر الإمكان - وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل. وفضيلة والدي الكريم الشيخ معلا اللويحق، والمشايخ الفضلاء الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملحوظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الهبدان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضير، والاخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأَمْضَوْا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتني الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادوا، والأخ فيصل بن طلع المطيري فلجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد.

وأسأل الله المغفرة عما وقع من تقصير، واستمد منه العون فهو وحده المستعان.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩ هـ





## تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنى) تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضع النافعة لحكم عظمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها<sup>(١)</sup>.

---

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .

$\mathcal{L}_1(\mathbf{y}, \mathbf{y}_0) = \sum_{i=1}^n |y_i - y_{0i}|$  is the  $\ell_1$  norm of the difference between the observed data  $\mathbf{y}$  and the predicted data  $\mathbf{y}_0$ . The  $\ell_2$  norm is defined as  $\mathcal{L}_2(\mathbf{y}, \mathbf{y}_0) = \sqrt{\sum_{i=1}^n (y_i - y_{0i})^2}$ . The  $\ell_\infty$  norm is defined as  $\mathcal{L}_\infty(\mathbf{y}, \mathbf{y}_0) = \max_{i=1, \dots, n} |y_i - y_{0i}|$ . The  $\ell_p$  norm is defined as  $\mathcal{L}_p(\mathbf{y}, \mathbf{y}_0) = \left( \sum_{i=1}^n |y_i - y_{0i}|^p \right)^{1/p}$ . The  $\ell_0$  norm is defined as  $\mathcal{L}_0(\mathbf{y}, \mathbf{y}_0) = \sum_{i=1}^n \mathbb{1}_{\{y_i \neq y_{0i}\}}$ , where  $\mathbb{1}_{\{y_i \neq y_{0i}\}}$  is the indicator function that is 1 if  $y_i \neq y_{0i}$  and 0 otherwise.

## مقدمة المؤلف

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.

وجعله برحمته هدىً للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها<sup>(١)</sup>. وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيه، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، فهو هادٍ لدار السلام، مبينٌ لطريق الوصول إليها، وحاتٌ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كَتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين<sup>(٢)</sup> الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يُتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله<sup>(٣)</sup> بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وتبصرة وتذكراً، وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها.

وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِرٍ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. [بقطع النظر عن المراد]<sup>(٤)</sup>.

(١) في ب: وأسقامها.

(٢) في ب: وأنزله.

(٢) في ب: بتميز.

(٤) زيادة من هامش ب، مشطوبة من أ.

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة [بنا] أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولأقيدة خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً.

والله أرجو، وعليه أعتمد، أن ييسر ما قصدت، ويذلل ما أردت، فإنه إن لم ييسره الله، فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العيم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.



فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من  
بدائع الفوائد  
لابن القيم رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup>

[قال: فصل] التَّكْرَرُ في سياق النفي تَعَمُّ، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِنَّمَا تَرَيُّنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾، ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾. وإذا أُضِيفَ إليها «كل» نحو ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

### فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلَّى باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ﴾ (وكتابه)<sup>(٢)</sup>.

وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلَّى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها. والمضاف من قوله: ﴿كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ﴾.

وعن أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظِلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، [وقال] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾، وقوله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾، وقوله: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خبراً ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا﴾ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾.

وإن كان مستقبلاً، فالتزموا ردَّ العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

(١) جاءت هذه الفوائد في: أ بعد تفسير سورة الفاتحة، وقد كتب الشيخ - رحمه الله - في هامش النسخة: (حق هذه المقدمة أن تتقدم على الفاتحة).

(٢) كتبت الكلمة مرتين مرة بالافراد، ومرة بالجمع، وجاء في هامش أ ما نصه: (قرأ أهل البصرة وحفص (وكتبه)، وقرأ الآخرون (وكتابه) على التوحيد).

## فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمّه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالعاجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم، من ذمّه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله. ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكثب، ولفظة «على»، ولفظة: حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل.

وقوله: «لا ينبغي» فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلاً وشرعاً. ولفظة «ما كان لهم كذا وكذا» و «لم يكن لهم»، وترتيب الحد على الفعل، ولفظة «لا يحل» و «لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزيكي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرَج والاثم والمؤاخذه، والإخبار بأنه يغفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإلكار على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذام لهم عليه. فإن اقترن بإخباره مدح، دلّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

## فصل

وكل فعل عظمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحبّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبه أو لثواب عاجل أو آجل<sup>(١)</sup>، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهديته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله<sup>(٢)</sup> بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها<sup>(٣)</sup>، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والتدب.

## فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لدم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبيث<sup>(٤)</sup>، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربتة، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبيث أو احتقار، أو نسه إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلماً أو بغياً، أو عدواناً أو إثماً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا

(١) في ب: أو لثوابه عاجلاً أو آجلاً.

(٣) في ب: وإثارتها.

(٢) في ب: فاعليه.

(٤) في ب: بالخبيث.

إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تيرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرّن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما<sup>(١)</sup> بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله «هل أنت منته» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة «قتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزكّيه»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبّه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاحة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: «لم تصدون عن سبيل الله من آمن»، «لم تلبسون الحق بالباطل»، «ما منعك أن تسجد»، «لم تقولون ما لا تفعلون» ما لم يقترون به جواب من المسؤول<sup>(٢)</sup> فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروه، فأكثر ما يستعمل في المحرّم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالمحقق<sup>(٣)</sup> منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل متكئاً». وأما لفظة «ما يكون لك» و «ما يكون لنا» فاطرد استعمالها في المحرّم، نحو «ما يكون لك أن تتكبر فيها»، «ما يكون لنا أن نعود فيها»، «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

### فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و «إن شئت فافعل» و «إن شئت فلا تفعل»، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: «ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين» ونحو «وبالنجم هم يهتدون». ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

### فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: «وإن تعجب فعجب قولهم» وقوله: «بل عجب ويسخرون». وقوله: «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله». وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله». ويدل على حسن المنع منه قدرأ، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم».

(١) في ب: عنه.

(٢) في ب: فالمحقق.

(٣) في ب: من السؤال.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بعد.

## فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾.

وقد يأتي بين الجزئين كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ الآيات.

## فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

## فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم<sup>(١)</sup> احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذوق إنك أنت العزيز الكريم﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

## فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظة وتذكيرة.

ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتغال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

(١) في ب: نظر إلى.

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثاً للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عامليها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن مَنْ فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حث تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى<sup>(١)</sup> أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساد، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعيد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت<sup>(٢)</sup> له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه<sup>(٣)</sup> عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة

(١) في ب: أن يثبت.

(٢) في ب: ويتزهد.



بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله. فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أممهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيماناً بهم، ومحبة لهم، وتعظيماً لهم، وتعزيزاً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون<sup>(١)</sup> مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسببهم.

فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه.

وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصيل للمؤمن<sup>(٢)</sup> الأسوة والقُدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً.

فلو أراد إنسان<sup>(٣)</sup> أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله<sup>(٤)</sup>، وغير

(١) كذا في ب، وفي أ: المؤمن.

(٢) في ب: للمؤمنين.

(٣) في ب: الإنسان.

(٤) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفاسير من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً عنها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوق الخلل الكثير).

ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك. ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امثالها، [أو اجتنابها،] <sup>(١)</sup> إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها] <sup>(٢)</sup> وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل. فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه، امثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهييه، وامثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أحوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه <sup>(٣)</sup>.

ومنها: أن العلم بذلك <sup>(٤)</sup> حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفضعة.

وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة، والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة العقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: إيمان العبد به.

(٤) في ب: أن معرفة ذلك.

المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقيسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقيح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه<sup>(١)</sup> لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتزويهم عنها، وتكريمهم وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات<sup>(٢)</sup> على الصلاح، والمحرمات مشتملات<sup>(٣)</sup> على المفساد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباء منثوراً.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] موارد، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

(٢) في ب: مشتملة.

(٣) في ب: مشتملة.

### تفسير الفاتحة وهي مكية

﴿١-٧﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الرحيم الحمد لله رب العالمين \*  
الرحمن الرحيم \* مالك يوم الدين \*  
إياك نعبد وإياك نستعين \* اهْدِنَا  
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \* صِرَاطَ الَّذِينَ  
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ \* غَيْرِ الْمَغْضُوبِ  
عَلَيْهِمْ \* وَلَا الضَّالِّينَ \* أي: ابتدء  
بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم»  
مفرد مضاف، فيعمُّ جميع الأسماء  
[الحسنى]، ﴿الله﴾: هو المألوه المعبود،  
المستحق لإفراده بالعبادة لما انتصف به  
من صفات الألوهية، وهي صفات  
الكمال، ﴿الرحمن الرحيم﴾: اسمان  
دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة  
العظيمة التي وسعت كل شيء،  
وعمت كل حي، وكتبها للمتقين  
المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم  
الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم<sup>(١)</sup>  
نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها  
بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان  
بأسماء الله وصفاته، وأحكام  
الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن  
رحيم، ذو الرحمة التي انتصف بها،  
المتعلقة بالرحوم، فالنعم كلها أثر من  
آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء.  
يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم  
[به] كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على  
كل شيء.

﴿الحمد لله﴾: [هو] الشناء على الله  
بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين  
الفضل والعدل، فله الحمد الكامل  
بجميع الوجوه. ﴿رب العالمين﴾  
الرب: هو المربي جميع العالمين - وهم  
من سوى الله - بخلقه لهم، وإعزاده  
لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم  
العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم  
البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.  
وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة  
وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين،  
ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم،  
التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم  
بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم لهم،  
ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة  
بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق  
لكل خير، والعصمة عن كل شر،  
ولعل هذا [المعنى] هو السرف في كون  
أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن  
مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته  
الخاصة.

فدلَّ قوله: ﴿رب العالمين﴾ على  
انفراده بالخلق والتدبير والنعم، وكمال  
غناه، وتام فقر العالمين إليه، بكل وجه  
واعتبار.

﴿مالك يوم الدين﴾ المالك: هو من  
اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه  
يأمر وينهى، ويشيب ويعاقب،  
ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع  
التصرفات، وأضاف الملك ليوم  
الدين، وهو يوم القيامة، يوم يُدان  
الناس فيه بأعمالهم خيرها وشرها،  
لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام  
الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته،  
وانقطاع أملاك الخلاق، حتى [إنه]  
يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا  
والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون  
لعظمته خاضعون لعزته، منتظرون  
لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من  
عقابه، فلذلك خصّه بالذكر، وإلا فهو  
المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

وقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾  
أي: نخصُّك وحدك بالعبادة  
والاستعانة، لأن تقديم المعلوم يفيد  
الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور  
ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك،  
ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا  
نستعين بغيرك.

وقدَّم<sup>(٢)</sup> العبادة على الاستعانة، من  
باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً  
بتقديم حقه تعالى على حق عبده،

و «العبادة»: اسم جامع لكل ما  
يحببه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال  
الظاهرة والباطنة، و «الاستعانة»: هي  
الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع  
ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل  
ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو  
الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من  
جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا  
بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة  
إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ  
مقصوداً بها وجه الله، فهذهين الأمرين  
تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد  
«العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج  
العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله  
تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له  
ما يريد من فعل الأوامر واجتناب  
النواهي.

ثم قال تعالى: ﴿اهدنا الصراط  
المستقيم﴾ أي: دلِّنا وأرشدنا ووفقنا  
لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وهو الطريق  
الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته،  
وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى  
الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية  
إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك  
ما سواه من الأديان، والهداية في  
الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل  
الدينية علماً وعملاً: فهذا الدعاء من  
أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا  
وجب على الإنسان أن يدعو الله به في  
كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى  
ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو:  
﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ من  
النبیین والصديقين والشهداء  
والصالحين، ﴿غير﴾ صراط  
﴿المغضوب عليهم﴾ الذين عرفوا الحق  
وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير  
صراط ﴿الضالين﴾ الذين تركوا الحق  
على جهل وضلال، كالنصارى  
ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد

(٢) في ب: وتقديم.

(١) في ب: فله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ① الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ ② مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ③ إِيَّاكَ  
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ④ اهْدِنَا  
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑤ صِرَاطَ  
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ  
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑥

وَالْيَا أَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَعْيُنَ

الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: «الذين يؤمنون بالغيب»، حقيقة الإيمان: هو التصديق الثام بما أخبر به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحواس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم تره ولم تشاهده، وإنما يؤمن به بخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُمَيِّز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسوله، فالؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأُمُور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصورة لم يهتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومرجحت أحوالهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب [الإيمان بـ] جميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفية، [وما أخبر به الرسل من

وقوله: «ذلك الكتاب» أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين، ف «لا ريب فيه» ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: «هدى للمتقين»، والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال: «هدى» وحذف المعمول، فلم يقل هدى للمتقين، بل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم.

وقال في موضع آخر: «هدى للناس» فعمم، وفي هذا الموضع وغيره «هدى للمتقين» لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقايتهم، وأما المتقون الذين اتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى، التي حقيقتها: اتخاذ ما بقي سخط الله وعذابه بامتنثال أوامره واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا» فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم

احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: «رب العالمين»، وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: «الله» ومن قوله: «إياك نعبد»، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتنا لنفسه، وأثبتنا له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ «الحمد» كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» لأن ذلك يتمتع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: «مالك يوم الدين»، وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرية والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: «إياك نعبد وإياك نستعين» فالحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة البقرة وهي مدنية

١- هـ \* بسم الله الرحمن الرحيم الم \* ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين \* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون \* والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون \* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون \* تقدم الكلام على البسملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها، [من غير مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ ۝ ذَلِكُمُ الْكِتَابُ لِأَرْبَابٍ هُدًى  
لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ  
الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝  
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ  
قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى  
هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝

## وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

ذلك [فيؤمنون بصفات الله ووجودها،  
ويتقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ لم  
يقُل: يفعلون الصلاة، أو يأتون  
بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد  
الإنيان بصورتها الظاهرة، لإقامة  
الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها  
وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنياً<sup>(١)</sup>  
بإقامة روحها، وهو حضور القلب  
فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها،  
فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها:  
﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء  
والمنكر﴾ وهي التي يترتب عليها  
الثواب، فلا ثواب للإنسان<sup>(٢)</sup> من  
صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في  
الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾،  
يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة،  
والنفقة على الزوجات والأقارب  
والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات  
المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر  
المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله،  
ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله،  
وأتى بـ «من» الدالة على التبعية،  
لينبههم أنه لم يُرد منهم إلا جزءاً يسيراً  
من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل،  
بل يستفعلون هم بإنفاقه، وينتفع به

(١) كذا في ب، وفي أ: وباطنها.

(٢) في ب: للعبد.

(٣) في ب: بجميع الكتب.

(٤) في ب: بالكتب السماوية كلها.

إخوانهم. وفي قوله: ﴿رزقناهم﴾ إشارة إلى  
أن هذه الأموال التي بين أيديكم،  
ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما  
هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به  
عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم  
على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج  
بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا  
إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة  
والزكاة في القرآن، لأن الصلاة  
متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة  
والنفقة متضمنة للإحسان على عبده،  
فنحن سادة العبد إخلاصه للمعبود،  
وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان  
شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه،  
فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل  
إليك﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى:  
﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾  
فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به  
الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما  
أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا  
يؤمنون ببعضه، إما بحجده أو تأويله  
على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل  
ذلك من يفعله من المتدعة، الذين  
يؤولون النصوص الدالة على خلاف  
قولهم، بما حاصله عدم التصديق  
بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم  
يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿وما أنزل من قبلك﴾  
يشمل الإيمان بالكتب<sup>(٣)</sup> السابقة،  
ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان  
بالرسل وبما اشتملت عليه، خصوصاً  
التوراة والإنجيل والزبور، وهذه  
خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب  
السماوية<sup>(٤)</sup>، وبجميع الرسل فلا  
يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾،  
و «الآخرة»: اسم لما يكون بعد  
الموت، وخصه بالذكر بعد العموم،  
لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان

الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة  
والرهبة والعمل، و «اليقين»: هو  
العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك،  
الموجب للعمل.

﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بتلك  
الصفات الحميدة ﴿على هدى من  
ربهم﴾ أي: على هدى عظيم، لأن  
التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من  
تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة  
الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل  
الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما  
سواها [مما خالفها]، فهو<sup>(٥)</sup> ضلالة.

وأتى بـ «على» في هذا الموضع،  
الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة  
يأتي بـ «في» كما في قوله: ﴿وإنا أو  
إياكم لعللى هدى أو في ضلال مبين﴾  
لأن صاحب الهدى مستعمل بالهدى،  
مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس  
فيه مختقر.

ثم قال: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾  
والفلاح [هو] الفوز بالمطلوب والنجاة  
من المروء، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه  
لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك  
سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي  
سبيل الشقاء والهلاك والخسار التي  
تفضي بسالكها إلى الهلاك، فلهذا لما  
ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات  
الكفار المظهرين لكفرهم، المعاندين  
للرسول، فقال:

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿إن الذين كفروا سواء  
عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم  
لا يؤمنون﴾ \* ختم الله على قلوبهم  
وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة  
ولهم عذاب عظيم﴾، يحجر تعالى أن  
الذين كفروا، أي: اتصفوا بالكفر،  
وانصغوا به، وصار وصفاً لهم لازماً  
لا يزدعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم  
وعظ، إنهم مستمرون على كفرهم،  
فسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم  
لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو  
الاجحود لما جاء به الرسول، أو جحد  
بعضه، فهؤلاء الكفار لا تفيدهم

(٥) في ب: فهي ضلالة.

خاصم فَجَر».

الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكأن في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يُعَوَّن ما يفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي: غشاء وغطاء وأكثت تمنعها عن النظر الذي يتفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل، فقال: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهروهم الإسلام وباطنهم الكفر، فقال:

﴿٨ - ١٠﴾ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين \* يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون \* في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون \* وأعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «وإذا

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة «بدر»<sup>(١)</sup> وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل<sup>(٢)</sup> من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً وخادعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلاً أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضاً عن كثير من فجورهم [قال تعالى]: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ فوصفهم الله بأصل النفاق، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا خادعة لله ولعباده المؤمنين.

والخادعة: أن يُظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً ويُبطن خلافه، لكي يتمكن من مقصوده من يخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن<sup>(٣)</sup> هذا من العجائب؛ لأن المخادع إما أن يُنتج خداعه ويحصل ما يريد<sup>(٤)</sup>، أو يسلم لا لة ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم<sup>(٥)</sup> يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتبرز بخداعهم، [شيئاً] وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا

يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وضار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه الفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحقاقهم لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿في قلوبهم مرض﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن<sup>(٦)</sup> القلب يعرض له مرضان يُخرجه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا وعجبة [الفواحش] والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ وهي شهوة الزنا، والمعاق من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فَرَقَل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة المرجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

(٦) في ب: وذلك أن.

(٤) في ب: ويحصل له مقصوده.

(٥) في ب: عاد خداعهم على أنفسهم.

فكانهم.

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت

وقعة بدر.

(٢) في ب: فذل.

(٣) في ب: وهذا.

مستهزؤون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأه بهم يوم القيامة أنه يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفيء نور المنافقين، وبقيوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، ﴿ينادونهم ألم نكن معكم، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم﴾ الآية.

قوله: ﴿ويمدهم﴾ أي: يزيدهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿يعمهون﴾ أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:

﴿١٦﴾ ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان<sup>(٩)</sup> النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبةً عنه بالضلالة، رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم<sup>(١٠)</sup>.

وإخراباً لها عما خلقت له.

﴿١٣﴾ ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا يزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - السفهاء رضي الله عنهم، يزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنبههم إلى السفه؛ وفي ضمنه<sup>(٨)</sup> أنهم هم العقلاء أرباب الحجي والنهي.

فرد الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه<sup>(٩)</sup>: جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجاء، معرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه ولا في ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على [الصحابة] والمؤمنين وصادقة عليهم، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة والأقوال الفارغة.

ثم قال تعالى: ﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون هذا من قولهم بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقته وأنها معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن

﴿١١ - ١٢﴾ ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم ومواليتهم للكافرين ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية<sup>(١)</sup>، فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ فإنه لا أعظم فساداً<sup>(٢)</sup> ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخمداد الله وأوليائه، وإلى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساداً<sup>(٣)</sup> ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات، بما<sup>(٤)</sup> يحصل فيها من الآفات بسبب<sup>(٥)</sup> المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمّر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدر لهم<sup>(٦)</sup> الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيًا بالفساد فيها،

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.

(٥) في ب: التي سببها.

(٦) في ب: عليهم.

(٧) في ب: لزعمهم.

(٨) في ب: وفي ضمن ذلك.

(٩) كذا في ب، وفي أ: الفسقة.

(١٠) في ب: الأموال.

(١١) في ب: وهذه صفقتهم فبئس الصفقة.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿مِثْلَهُمْ كَمِثْلَ الَّذِي  
اسْتَوْقَدْنَا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ  
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظِلْمَاتٍ  
لَا يَبْصُرُونَ \* صُمُّ بَكْمٌ عَمِيٌّ فَهُمْ  
لَا يَرْجِعُونَ \* أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ  
فِيهِ ظِلْمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ  
أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرُ  
المَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ \* يَكَادُ  
الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ  
مَشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا، وَلَوْ  
شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ،  
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي:  
مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي  
استوقد ناراً، أي: كان في ظلمة  
عظيمة وحاجة إلى النار شديدة  
فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده  
معدة، بل هي خارجة عنه، فلما  
أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل  
الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف  
وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها  
عنه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو  
كذلك إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه  
النور وذهب معه السرور، وبقي في  
الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب  
ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من

فمكذا حال<sup>(٧)</sup> المتأففين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده، فيروعونهم وعيده وتزعجهم

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا

(٧) في ب: حالة.

صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه ثم قال تعالى:

﴿٢٣ - ٢٤﴾ «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين \* فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، فقال:

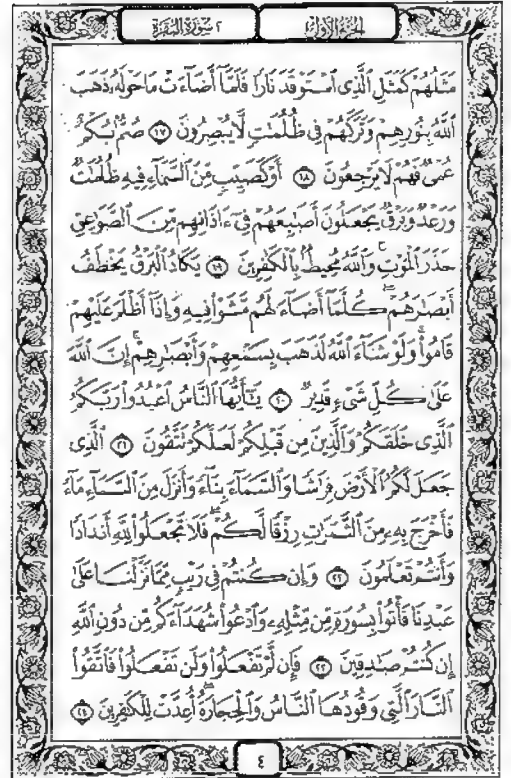
﴿وإن كنتم﴾ معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فها هنا أمر نصف، فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم<sup>(١)</sup>، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقلتم أنتم أنه تقوله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم<sup>(٢)</sup> على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي إنما تتقد

﴿وأنزل من السماء ماء﴾ والسماء: [هو] كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿فأخرج به من الثمرات﴾ كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه [وزروع] وغيرها، ﴿رزقاً لكم﴾ به ترتزقون وتقوتون، وتعيشون وتفكهنون.

﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وأشباهاً من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، ﴿وأنتم تعلمون﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة<sup>(٣)</sup>، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية المتضمن لانفراد به بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين



ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون \* الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون \* هذا أمر عام لكل<sup>(١)</sup> الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

ثم استدلل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتنتفعون بالأنية والزراعة والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع<sup>(٢)</sup> الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

(١) في ب: لجميع.

(٢) في ب: وجوه.

(٣) في ب: ولا في الألوهية والكمال.

(٤) هكذا في أ، وفي ب: شطب قوله (بأفصحكم ولا بأعلمكم) وفي هامش المؤلف جملة أخرى هي (من جنس آخر) فتكون الجملة هكذا (ليس من جنس آخر).

(٥) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا العرض.



بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله، فاحذروا الكفر برسوله بعدما تبين لكم أنه رسول الله.

وهذه الآية ونحوها يسمونها آيات  
التحدي، وهو تعجيز الخلق أن يأتوا  
بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ لئن  
اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا  
بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو  
كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من كل الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة [بأنواع] الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفي قوله: ﴿وإن كنتم في ريب﴾  
إلى آخره، دليل على أن الذي يرجى له  
الهداية من الضلالة: [هو] الشاك  
الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال،  
فهذا إذا بين له الحق فهو حري  
بالتوفيق<sup>(١)</sup>، إن كان صادقاً في طلب  
الحق.

وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه، لأنه ترك الحق بعدما تبين له، لم يتركه عن جهل، فلا حيلة فيه.

وكذلك الشاك غير الصادق<sup>(٢)</sup> في طلب الحق، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه، فهذا في الغالب أنه لا يوفق.

وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم، دلالة على أن أعظم أوصافه ﷺ، قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين.

كما وصفه بالعبودية في مقام الإسرءاء، فقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ وفي مقام الإنزال، فقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾.

وفي قوله: ﴿أعدت للكافرين﴾  
 ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل  
 السنة والجماعة، أن الجنة والنار  
 مخلوقتان خلافاً للمعتزلة، وفيها أيضاً،  
 أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر  
 لا يخلدون في النار، لأنه قال:  
 ﴿أعدت للكافرين﴾ فلو كان [عصاة  
 الموحدين] يخلدون فيها لم تكن معدة  
 للكافرين وحدهم، خلافاً للخوارج  
 والمعتزلة.

وفيه دلالة على أن العذاب مستحق  
بأسبابه ، وهو الكفر وأنواع المعاصي  
على اختلافها .

﴿٢٥﴾ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴿٢٦﴾ لما ذكر جزاء الكافرين، ذكر جزاء المؤمنين أهل الأعمال الصالحات على طريقته تعالى في القرآن<sup>(٣)</sup>، يجمع بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد راغباً راهباً، خائفاً راجياً، فقال: ﴿وبشر﴾ أي: يا أيها الرسول ومن قام مقامه<sup>(٤)</sup>، ﴿الذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة.

ووصفت أعمال الخير بالصالحات ،  
لأن بها تصلح أحوال العبد ، وأمور  
دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية  
والآخروية ، ويزول بها عنه فساد  
الأحوال ، فيكون بذلك من الصالحين  
الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في  
جنته .

فبشرهم ﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ أي :  
بساتين جامعة من الأشجار العجيبة ،

وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُفِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ  
رُفِقُوا بِهَا هِيَ هَذِهِ الَّتِي رُفِقُوا مِنْ قَبْلُ وَأُولَئِكَ مُتَّكِفِينَ  
وَلَهُمْ فِيهَا أَنْجُمٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾  
\* إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا يَحْكُمُ بِهِ قَضَا  
وَقَدْ فَتَمَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ الْحَاقُّ مِنْ  
زَيْبِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا  
مَثَلًا بَلْ يَصِفُ لَهُمْ كَيْثًا وَكَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِمْ كَثِيرًا وَمَا  
يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ  
عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهٖ أَنْ  
يُوصَلَ وَيَفْعَلُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾  
كَيْفَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ أَفَاجِبُكُمْ  
قُلْ يَسِّرْكُمْ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الْيَاثِرِ وَيُخَوِّضَكُمْ  
خَلْقَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْمُوا إِلَىٰ سَاءِ  
مَقُولِهِمْ سَمِعَ سَمَوَاتٌ وَقُرُونٌ كُلٌّ عَلَىٰ عِلْقٍ ﴿٥٣﴾

والشمار الأنيقة والظل المديد،  
[والأغصان والأفنان وبذلك] (٥)

صارت جنة يحتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي :  
أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر،  
يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين  
أرادوا، وتشرب<sup>(٦)</sup> منها تلك الأشجار  
فثبت أصناف الثمار.

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي: هذا من جنسه وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائماً متلذذون بأكلها.

وقوله: ﴿وَأَتَوَابَهُ مِثْلَ مِثْلِهِ﴾ قيل:  
متشابهاً في الاسم، تختلف الطعوم<sup>(٧)</sup>،  
وقيل: متشابهاً في اللون مختلفاً في  
الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضاً في  
الحسن واللذة والفكاهة، ولعل هذا هو  
الصحيح<sup>(٨)</sup>.

ثم لما ذكر مسكنهم وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ فلم يقل «مطهرة من

(۱) فی ب: باتباعه.

(٢) في ب: الذي ليس بصادق.

(۳) فی ب: کما ہی طریقہ تعالیٰ فی

(٤) في أ: أي: يا محمد.

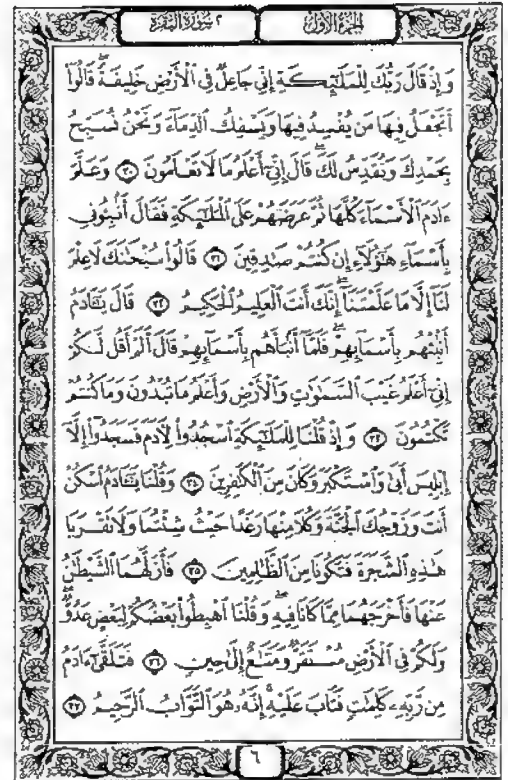
(۵) فی ب: المدید ما صارت به جنة.

(٦) في ب: وتسقى.

(٧) في ب: مختلفاً في الطعم.

(٨) في ب: أحسن.





العيب الفلاني» ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عُرِبَ متحبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح.

ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المبشر والمبشرة، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشر هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشرة هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشرة به هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق،

بأفضل الأسباب.

وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها [وثمراتها]، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم (١).

﴿٢٦- ٢٧﴾ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ \* الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ أي: أي مثل كان «بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا» لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكأن في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على الله في ذلك، فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ فَيَتَفَكَّرُونَ فِيهَا».

فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً، بل لحكمة بالغة ونعمة سابعة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون

ويتحIRON، فيزدادون كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون \* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة [وضلالة] وزيادة شر إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال.

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى (٢) فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسول الله؛ الذين صار الفسق وصفهم، فلا يبغيون به بدلاً، فاقترض حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة.

والفسق نوعان: نوع مخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان، كالذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير مخرج عن الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَا فِتْنِيًّا﴾ [الآية].

ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه (٣)؛ والذي بينهم وبين عباده (٤)؛ الذي أكد عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق.

(٣) في ب: وبين ربهم.

(٤) في ب: الخلق.

(١) في ب: نسأل الله من فضله.

(٢) في ب: ثم ذكر حكمته وعدله في إضلال من يضل.

﴿ويقتطمون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبة وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق<sup>(١)</sup> التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق؛ وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض.

فـ ﴿أولئك﴾ أي: من هذه صفته ﴿هم الخاسرون﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسراتهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفريطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي [كان] العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿٢٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون،

فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره وبزه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيلق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماسة؟<sup>(٢)</sup> بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه، وتحافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿٢٩﴾ ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي: خلق لكم برأ بكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للانتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة<sup>(٣)</sup> دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث، فإن [تحريمها أيضاً] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيهاً لنا.

وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾

﴿استوى﴾: ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و «ارتفع»، وذلك إذا عدت بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾<sup>(٤)</sup>، «لستوا على ظهوره» وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عدت بـ «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات ﴿فسواهن سبع سماوات﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها، وهو بكل شيء عليم. فـ ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾، و ﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ يعلم السر

وأخفى.

وكثيراً ما يقرن بين خلقه للمخلوق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿ألا يعلم من خلقه وهو اللطيف الخبير﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿٣٠ - ٣٤﴾ ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم ما لا تعلمون. ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر<sup>(٥)</sup>، أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ [و] هذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدة] مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعل في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ونقدس لك. ﴿يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي:

(٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله.

(٤) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

(١) في ب: بحقوقهم.

(٢) في ب: وسفه كبير، بل.

(٣) في ب: الكريمة.

نظهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إني أعلم﴾ من هذا الخليفة ﴿ما لا تعلمون﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته لخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم<sup>(١)</sup> من الخير والشر بالامتحان، ولتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، ف﴿علم آدم الأسماء كلها﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصعة، والمصغر كالقصعة.

﴿ثم عرضهم﴾ أي: عرض المسميات ﴿على الملائكة﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟

﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ في قولكم وظنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿قالوا سبحانك﴾ أي: نزهك عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، ﴿لا علم لنا﴾ بوجه من الوجوه، ﴿إلا ما علمتنا﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً،

﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها أمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعتراقهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحيث قال الله: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها.

﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ تين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة، ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي: تظهرون ﴿وما كنتم تكتمون﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إلا إبليس أبى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أسجد لمن خلقت طيناً﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حيث عدوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكليماً يقول ما شاء ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والأمورات فالواجب عليه التسليم، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما

جهلوا، وتنبههم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف للملائكة بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عزّهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداء، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة والأكل منها﴾ ﴿رغداً﴾ أي: واسعاً هنيئاً، ﴿حيث شئتما﴾ أي: من أي أضاف الشمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾ وأنت لا تظلم فيها ولا تضحي.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاءً [أو لحكمة غير معلومة لنا]<sup>(٢)</sup>، ﴿فتكونا من الظالمين﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نها عنه، حتى أزلهما، أي: جعلهما على الزلل بتزيينه، ﴿وقاسمهما﴾ بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ فاعترّيا به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والبرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) في ب: المكلفين.

﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾.

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض، فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: مسكن وقرار، ﴿ومتاع إلى حين﴾ انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقتكم لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

﴿٣٧﴾ ﴿فتلقى آدم﴾ أي: تلقف وتلقن، وألهمه الله ﴿من ربه كلمات﴾ وهي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فتاب﴾ الله ﴿عليه﴾ ورحمه ﴿إنه هو الثواب﴾ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توبيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرحيم﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿كرّر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم من رضائي، ﴿فمن تبع هداي﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتنال للأمر

والاجتناب للنهي، ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فرتب على اتباع هداي أربعة أشياء: نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداي، وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداي وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداي حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداي فكفر به وكذب بآياته.

ف ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون. وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمته عليهم وإحسانه، فقال:

﴿٤٠-٤٣﴾ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما منكم ولا تكونوا أول كافرين ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴿يا بني إسرائيل﴾ المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من

أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه.

﴿وأوفوا بعهدي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسوله وإقامة شرعه، ﴿أوف بعهدكم﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ ويعثنا منهم اثني عشر نقيباً، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة لوآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي﴾ إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشية أوجبت له خشية امتثال أمره واجتناب نهيه.

ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي: موافقاً له لا مخالفراً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب

ببعض ما أنزل إليه فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ﴾ أبلغ من قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا بِهِ﴾ لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمأكّل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها وأثروها.

﴿وإياي﴾ أي: لا غيري ﴿فانقون﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل القوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الحق بالباطل وتكتموا الحق﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وتكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو

من دعاة جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرًا وباطنًا ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ مستحقيها، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعت بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأسمى العقل<sup>(١)</sup> عقلًا لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالمًا بذلك، قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك

أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الآخر، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقترادهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴿أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحسن النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور﴾ ﴿وإنها﴾ أي: الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الخاشعين﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، متشراحاً صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوه إليها، وإذا فعلها ضارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه.







لنا مما تنبت الأرض من بقلها ﴿أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه، ﴿وقشائها﴾ وهو الخيار ﴿وفومها﴾ أي: ثومها، والعدس والبصل معروف، قال لهم موسى ﴿أستبدلون الذي هو أدنى﴾ وهو الأطعمة المذكورة، ﴿بالذي هو خير﴾ وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم، فهو خير الأطعمة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلاً؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم، فقال: ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿والمسكنة﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم هم عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم، ﴿وبأؤوا بغضب من الله﴾ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبست الغنيمة غنيمتهم، وبست الحالة حالتهم.

﴿ذلك﴾ الذي استحقوا به غضب ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ الدالات على الحق الموضحة لهم، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم، وبما كانوا يقتلون النبيين بغير الحق

وقوله: ﴿بغير الحق﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم.

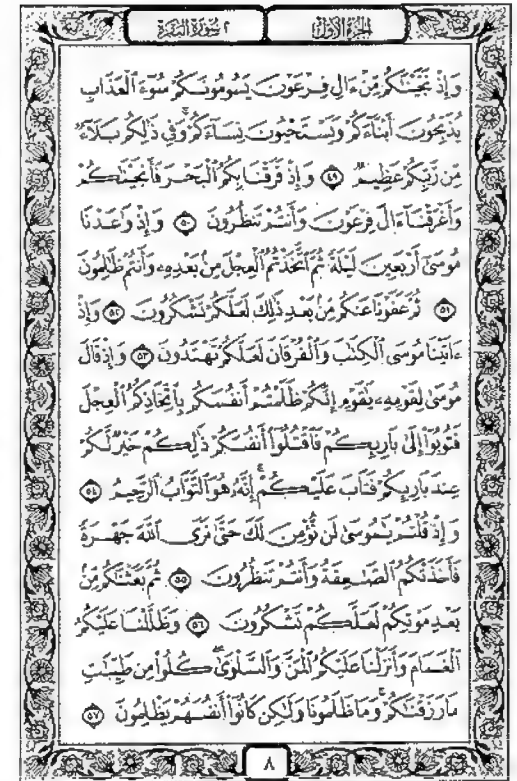
﴿ذلك بما عصوا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وكانوا يعتدون﴾ على عباد الله، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، ففسأل الله العاقبة من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال

فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا ﴿قولا غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة، استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ منهم ﴿رجزاً﴾ أي: عذاباً ﴿من السماء﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿٦٠﴾ ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿استسقى أي: طلب لهم ماء يشربون منه، ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس، ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قد علم كل أناس﴾ منهم ﴿مشربهم﴾ أي: حلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضاً، بل يشربونه متهئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب، ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ أي: تحربوا على وجه الإفساد.

﴿٦١﴾ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك فخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقشائها وفومها وعدسها وبصلها قال أئستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي: واذكروا، إذ قلتم لموسى على وجه التمليل لنعم الله والاحتقار لها: ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ أي: جنس من الطعام، وإن كان كما تقدم أنواعاً، لكنها لا تتغير، ﴿فادع لنا ربك فخرج



ويقبضهم ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين، فلم يشكروا هذه النعم، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب.

﴿وما ظلمونا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفع طاعات الظالمين، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فيعود ضرره عليهم.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة تغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً وسكناً، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب ﴿سجداً﴾ أي: خاضعين ذليلاً، وبالقول وهو أن يقولوا: ﴿حطة﴾ أي: أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرته.

﴿تغفر لكم خطاياكم﴾ بسؤالكم المغفرة، ﴿وسنزيد المحسنين﴾ بأعمالهم، أي: جزاء عاجلاً وآجلاً، ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ منهم، ولم يقل

وجعل الله هذه العقوبة ﴿نكالاً﴾ لمن  
بين يديها ﴿أي: لمن حضرها من  
الأمم، وبلغه خبرها من هوفي  
وقتهم، ﴿وما خلفها﴾ أي: من  
بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله،  
وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها  
لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين،  
وأما من عاداهم فلا يتفعلون بالآيات.

القتيل ببعضها، أي: بعضو منها، إما معين أو أي: عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فضريره ببعضها فأحياء الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل على إحياء الله الموتى، ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتتزوجون عن ما يضركم.

﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة، ﴿من بعد ذلك﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أو أشد قسوة﴾ أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل». ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ فهذه الأمور فضلت قلوبكم، ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب

وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أنتخذنا هزوا﴾ فقال نبي الله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي: ما سنها؟ ﴿قال إنه يقول: إنها بقرة لا فارض﴾ أي: كبيرة ﴿ولا بكر﴾ أي: صغيرة ﴿عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ واتركوا التشديد والتعنت.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، قال إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ أي: شديد تسر الناظرين من حسنها.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾ فلم نهد إلى ما تريد ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول، أي: مدللة بالعمل، ﴿تشير الأرض﴾ بالحرثة، ﴿ولا تسقي الحرث﴾ أي: ليست بساقية، ﴿مسلمة﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لا شية فيها﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي: بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها، ﴿فذبحوها﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات، ﴿وما كادوا يفعلون﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ  
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَاقْتَرِبُوا  
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِذْ  
أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَفَعَّلْنَا قُلُوبَكُمْ حَدُودًا أَنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ إِذْ كَرَّمَ  
وَأَمَّا يَاقِبَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ وَكَلَّمْنَا  
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ قُلُوبَنَا فَفَعَّلْنَا قُلُوبَكُمْ وَرَحْمَةً لَكُمْ  
مِنَ الْخَيْرِ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَنِيَّانَ أَنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلٌ قَدَرَةٌ خَسِيَّةٌ  
فَلَمَّ بَيْنَهُمَا وَطَافَ وَمَوْعِظَةً لِّلنَّاسِ ﴿٧٩﴾ وَإِذْ قَالَ  
مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بِقُرَّةٍ قَالُوا  
أَنْتُمْ نَادِيَهُمْ قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَالِبِينَ  
﴿٨٠﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨١﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨٢﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨٣﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨٤﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨٥﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨٦﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨٧﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨٨﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٠﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩١﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٢﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٣﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٤﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٥﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٦﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٧﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٨﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿٩٩﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ  
﴿١٠٠﴾ قَالُوا أَوَ لَنَا رَبٌّ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ رَبُّكُمْ  
لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَهُونَ يَكُنْ ذَلِكَ فَاذْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ

﴿٦٧ - ٧٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى

لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أنتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكهم آياته لعلكم تعقلون﴾ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلاً وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلفتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة،

ولا تكذبوهم»، فإذا كان مرتبتها أن تكون مشكوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به، والقطع بالفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

﴿٧٥-٧٨﴾ «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون \* أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون \* ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون \* هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم<sup>(١)</sup> لا تقتضي الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهما الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يروونه شرفهم ودينهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.

ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا» فأظهروا لهم الإيمان قولاً بالستهم، ما ليس في قلوبهم، «وإذا خلا بعضهم إلى بعض» فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم لبعض: «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم» أي: أنظروا لهم الإيمان وتخبروهم أنكم مثلهم، فيكون

ذلك حجة لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم «أفلا تعقلون» أي: أفلا يكون لكم عقل فتتروكون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض.

«أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون» فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلمهم، فيظهر لعباده ما أتم عليه.

«ومنهم» أي: من أهل الكتاب «أميون» أي: عوام، ليسوا من أهل العلم، «لا يعلمون الكتاب إلا أماني» أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم.

فذكر في هذه الآيات علماءهم وعوامهم، ومنافقيهم ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم لا بصيرة عندهم، فلا مطمع لكم في الطائفتين.

﴿٧٩﴾ «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» توعده تعالى المخرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: «هذا من عند الله» وهذا فيه إظهار الباطل وكتنم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم «ليشتروا به ثمناً قليلاً» والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم

قالوا أنع لنا ربك بين لنا ما هي إن البصر شبه علينا وإن إن شكنا الله أهتدون ﴿٧٥﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تير الأرض ولا تسقى البحر مسكة لا يشية فيها قالوا ألن جنت بالحي فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴿٧٦﴾ وإذا قلتم فداكم فادركم فيها والله عجز ما كنتم تكفون ﴿٧٧﴾ قلنا أمرؤ به يصنعها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياتهم لعلكم تعقلون ﴿٧٨﴾ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يسقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴿٧٩﴾ أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿٨٠﴾ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴿٨١﴾

بغير حق، بل بأبطل الباطل، أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: «فويل لهم مما كتبت أيديهم» أي: من التحريف والباطل، «وويل لهم مما يكسبون» من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: «أفتطمعون» إلى «يكسبون»: فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة.

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده مخالفاً لكتاب الله لينال به دنيا، وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتبه ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله.





عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله ورجاءاً لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثم﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله إلى عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ الموائيق عليكم ﴿توليتهم﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فتعوز بالله من الخذلان.

وقوله: ﴿إلا قليلاً منكم﴾ هذا استثناء لثلاث يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ ﴿وإذا أخذنا ميثاقكم﴾

لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون \* ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون \* أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون \* وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا

يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.

فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم<sup>(١)</sup> الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالآخر وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ وهو فداء الأسير، ﴿وتكفرون ببعض﴾ وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسب من سبى منهم، وأجل من أجل.

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ أي: أعظمه ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختاروا النار على العار، فلماذا قال: ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي:

يدفع عنهم مكروهه.

﴿٨٧﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي: قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ عن الإيمان بهم، ﴿ففريقاً﴾ منهم ﴿كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿٨٨﴾ ﴿وقالوا قلوبنا غلفت بل لعنهم الله بكفرهم قليلاً ما يؤمنون﴾ أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غلفت، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم، قليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ \* بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا

(١) كذا في ب، وفي أ: يعينونهم.



واستجابة، ﴿قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: صيغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشربها<sup>(٢)</sup> بسبب كفرهم.

﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمت بالقول ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتهم، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسل الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ \* وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَضَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمْنُوا الْمَوْتَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير

ورغم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بِيَعُضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا رداً شافياً، وألزمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيماً عليه.

فلم تؤمنوا بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟

وأيضاً فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينه ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيته، ثم يأتي هو لبيته وحجته فيقذح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كفراً بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد مجيئه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة

بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به وتيقنوه، حتى إنهم كانوا إذا وقع<sup>(١)</sup> بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا كفروا به، بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضباً بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم.

ولهم في الآخرة عذاب مهين، أي: مؤلم موجه، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وبكتبه وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿٩١ - ٩٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمَنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ \* وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن، استكبروا وعتوا، و﴿قَالُوا نُوْمَنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقاً، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله.

وأما التفريق بين الرسل والكتب،

(١) في ب: على أنهم إذا كان وقع.

(٢) في ب: وشربها.

عليهم، وهو تمني الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا من ذلك.

فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحاددة لله ولرسوله، مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَتَّوهَ أَبَداً بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة، فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب.

ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا، فقال: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هي من المجالات، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور، لم يغن عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من العذاب شيئاً. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

﴿٩٧ - ٩٨﴾ ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من كان عدوًّا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴿أَيُّ قُلْ لَهُؤُلَاءِ الْيَهُودُ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنِ الَّذِي مَنَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ أَنِ وَلِيكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ، لَأَمْنُوا بِكَ وَضَدَّقُوا، إِنَّ هَذَا الزَّعْمَ مِنْكُمْ تَنَاقُضٌ وَتَهَاوُتٌ، وَتَكْبَرٌ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي نَزَلَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى قَلْبِكَ، وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ وَأَرْسَلَهُ بِذَلِكَ، فَهِيَ رُسُولٌ مُحْضٌ.

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل - مصدق لما تقدمه من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف

بذلك كفر بالله وآياته، وعداوة لله ولرسوله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله.

فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحججة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغاً عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا فيه التعجب<sup>(١)</sup> من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها.

فـ «كلمات» تفيد التكرار، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض، ما السبب في ذلك؟ السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

﴿١٠١ - ١٠٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْكِتَابَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكَ لَا نَسْفِكُ دِمَاءَكُمْ وَلَا نُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَفَرَأَيْتُمْ وَأَنْتُمْ تُنْفِذُونَ ﴿٩٥﴾ ثُمَّ أَشْرَكْتُمْ بِهِ فَأَنقَلَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ كَمَا قَدْ كُنْتُمْ ﴿٩٦﴾ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فَخُذُوا إِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حُجُوبًا ﴿٩٧﴾ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فَخُذُوا إِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حُجُوبًا ﴿٩٨﴾ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فَخُذُوا إِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حُجُوبًا ﴿٩٩﴾ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فَخُذُوا إِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حُجُوبًا ﴿١٠٠﴾ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فَخُذُوا إِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حُجُوبًا ﴿١٠١﴾ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فَخُذُوا إِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حُجُوبًا ﴿١٠٢﴾ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فَخُذُوا إِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَلَا تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حُجُوبًا ﴿١٠٣﴾

علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون \* ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون \* أي: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به - نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله الذي أنزل إليهم، أي: طرحوه رغبة عنه وراء ظهورهم \* وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين، وهم يعلمون صدقه، وحقية<sup>(٢)</sup> ما جاء به.

تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفراً بكتابهم من حيث لا يشعرون. ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم يتفق ماله في طاعة الله، أنفق في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي

(١) في ب: التعجب.

(٢) في ب: وحقية.

حجة .

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علماً يشمر العمل ما فعلوه .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا زاعماً وقولوا انظرونا واسمعوا للكافرين عذاب أليم﴾ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿راعنا﴾ أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحاً، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فتهدى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، فقيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ، التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال: ﴿وقولوا انظرونا﴾ فإنها كافية بحصل بها المقصود من غير محذور، ﴿واسمعوا﴾ لم يذكر المسموع ليعلم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة، وفيه الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم المرجع، وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون أن ينزل عليكم من خير﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً ﴿من ربكم﴾ حسداً منهم، وبغضاً لكم أن يختصكم بفضله، فإنه ﴿ذو الفضل العظيم﴾ ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة .

﴿١٠٦ - ١٠٧﴾ ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفسد السحر، فقال: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ ومع أن عبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة، أو خيرها أكثر من شرها . ﴿ولقد علموا﴾ أي: اليهود ﴿لن اشتراه﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة .

﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم



بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين وتخلق من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قوله: ﴿وما كفر سليمان﴾ أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه، ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ بذلك .

﴿يعلمون الناس السحر﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر .

﴿وما يعلمان من أحد حتى ينصحا، و﴾ يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام . وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم

تعلم أن الله على كل شيء قدير \* ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير \* النسخ: هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه، وكان اليهود ينكرون النسخ ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ من آية ﴿أو ننسها﴾ أي: ننسها العباد، فنزيلها من قلوبهم، ﴿نأت بخير منها﴾ وأنفع لكم ﴿أو مثلها﴾.

قدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قدح في النسخ فقد قدح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير \* ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض﴾ فإذا كان مالكا لكم، متصرفاً فيكم تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه، فكما أنه لا حرج عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام. فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟

وهو أيضاً ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم.

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم من حيث لا يشعرون بلطفه.

﴿١٠٨ - ١١٠﴾ ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى من

قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل \* ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير \* وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ ينهى الله المؤمنين أو اليهود، بأن يسألوا رسولهم ﴿كما سأل موسى من قبل﴾ والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة﴾.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾. ويقرهم<sup>(١)</sup> عليه، كما في قوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ و ﴿يسألونك عن اليتامى﴾ ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم أحوال أنهم ودوا ﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾ وسعوا في ذلك، وأعملوا المكاييد، وكيدهم راجع عليهم، [كما] قال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم.

فأمرهم الله بمقاابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم والصفح

قل إن كانت لكم الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴿١٠٩﴾ ﴿وَلَمَّا قُتِلَ إِبْرَاهِيمُ إِذْ كَانَ مِنَ الْمُرْتَضِينَ خَلَّاهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَأَنبَتَ الْوَيْسَرَ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ أَحْمَسُ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَعْتَدَهُمُ لَوْيَعَزَّ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هِيَ بِمِئَاتِ عَشْرِينَ ﴿١١١﴾ الْعَذَابُ إِن يَصْرُوهَ إِلَّا يُبَصِّرُونَ ﴿١١٢﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْحَبِشِيِّ فَإِنَّهُ ذُو عَدُوٍّ لَكُمْ يَأْتِيكُمْ مِنْ عَدُوِّ قَائِمٍ يَأْتِيكُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَةُ مِنْ قَدَمٍ مِّنَ الْمَشْرِقِ ﴿١١٣﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى آلِ نِجْمٍ بَنَاتٍ بَيْنَتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١١٥﴾ أَوْ كَلَّمَآ عَاهِدَ وَأَعَاهِدَ نَبِيَّةً وَقَوْمٍ لَّيْسَ لَهُمْ كَذِبٌ لَّا يُوَفُّونَ ﴿١١٦﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ شَبَّهِوا الَّذِينَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ كَافُرٍ فَكَتَبَ اللَّهُ وَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٧﴾

حتى يأتي الله بأمره.

ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشقى الله أنفسهم المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

ثم أمرهم [الله] بالاشتغال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجوده عنده وافراً موفراً قد حفظه ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾.

﴿١١١ - ١١٢﴾ ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانتهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقال النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أمانى غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان

فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد.

لهم خزي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتِ أَذُنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿١١٥﴾ ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمُّ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: ﴿والله المشرق والمغرب﴾، خصَّهما بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاريها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذوراً بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً.

وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه ﴿فَشَمُّ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فيه

بعضاً، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم.

فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتلأ أواصر ربه واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسُمِّيَ فِي خُرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمياً، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وسمى﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿في خرابها﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقديرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة. فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرأ، إلا خائفين ذليلاً، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً، حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى، سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه. وهكذا كل من اتصف بوصفهم،

وَأَنبَعُوا مَاتَلُوا الشَّيْطَانِ عَلَى مَلَكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَرَّ سَلِيمٌ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا بِمُؤْمِنِ النَّاسِ الْيَحْيَى وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِسَابِلِ هَدًى وَمَرُوتٍ وَمَا يُعْمَلَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ قَتْلٌ فَلَا تَكْفُرُ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَقُورُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَلِكِ وَرُجُوعِهِ وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ مَا يَصْنَعُونَ وَلَا يَفْقَهُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَيْنَهُ مَا لَمْ يَكُنِ الْآخِرَةُ مِنْ خَلْقِهِ وَلَكِنَّ مِثْلًا شَرَّاءَ يَوْمِهِ أَنْفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَقْبَلُوا لِلتَّوْبَةِ لَمُنَّ عِنْدَ اللَّهِ حَيْرَتُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١٦﴾ يَتَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَوْعًا وَقُولُوا نَظَرْنَا وَأَنصَبْنَا وَأَلَّكَ الْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ مَا يَدْعُ الْيَوْمَ كُفْرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَرْجُوا عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ رَحْمَةً مِنْ نَحْوِهَا وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١١٨﴾

لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان عليم كذبهم بتلك الدعاوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس بأمانيتكم ودعاويكم، ولكن ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي: أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه، ﴿وهو﴾ مع إخلاصه ﴿محسن﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشره، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم.

فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.

ويفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضاً، وكفر بعضهم



إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهاً لا تشبهه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسر أئركم ونياتكم.

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿١١٦-١١٧﴾ وقالوا

اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون \* بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿١﴾ وقالوا ﴿٢﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿اتخذ الله ولداً﴾، ففسوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تنقصهم إياه.

﴿سبحانه﴾، أي: تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله. فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعثر به نقص بوجه من الوجوه.

ومع زده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾، أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام: وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة.

فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى:

﴿وقوموا لله قانتين﴾.

ثم قال: ﴿بديع السموات والأرض﴾، أي: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق.

﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

﴿١١٨-١١٩﴾ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون \* إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴿١﴾، أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا، كما كلم الرسل. ﴿أو تأتينا آية﴾، يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ الآية وقالوا: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة﴾، الآيات وقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾.

فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾، فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخل في قوله: ﴿إنا أرسلناك﴾، والثالث دخل في قوله: ﴿بالحق﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصليبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد غمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد أنقروا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فيمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها وسبر أحواله، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بشيراً﴾ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، ﴿نذيراً﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿١٢٠﴾ ﴿ولن ترضى عنك اليهود



جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟

ودل مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، خاطئاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿وَوَجَّعْنَاهُ لِّلْوَاحِشِ﴾ يأمّن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويحذ أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا مِنْكُمْ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركنها الطواف، يستحب أن تكون خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً، فيعبر جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف والسعي، والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار، والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج.

فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾ أي: معبداً، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات

إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين \* وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود \* يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في ابتلائه لعباده، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء والامتحان، من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره ويزكو عمله، ويخلص ذنبه، وكان من أجلهم في هذا المقام الخليل عليه السلام.

فأتم ما ابتلاه الله به وأكملته ووفاه، فشكر الله له ذلك، ولم ينزل الله شكوراً، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: يقتدون بك في الهدى، ويمشون خلفك إلى سعادتهم الأبدية، ويحصل لك الشناء الدائم والأجر الجزيل، والتعظيم من كل أحد.

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمر إليه العاملون، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم، من كل صديق متبع لهم، داع إلى الله وإلى سنيله.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبه أن يكثر فيهم المرشدون، فلله عظمة هذه الهمم العالية والمقامات السامية.

فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضررها، وحط قدرها، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آله الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على

ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير \* يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِن هُدَىٰ اللَّهُ الْبَشَرَ لَلَّهِ الْبَازِغَاتُ بِيهِ هُوَ الْهَدَىٰ﴾

وأما ما أنتم عليه فهو الهوى، بدليل قوله: ﴿وَلِئِنْ اتَّبَعْتِ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين \* واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون \*

يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ومن عليهم به منة مطلقة، أنهم يتلونه حق تلاوته أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون خلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم.

فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا من قال منهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ﴾

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿١٢٤ - ١٢٥﴾ ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ

والأقذار، ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فيه  
﴿وَالْمَاكِفِينَ وَالرَّكَعَ السَّجُودَ﴾ أي:  
المصلين، قدم الطواف لاختصاصه  
بالمسجد [الحرام]، ثم الاعتكاف لأن  
من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة  
مع أنها أفضل، لهذا المعنى.  
وأضاف الباري البيت إليه لفوائد،  
منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام  
إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه  
بيت الله، فيبذلان جهدهما،  
ويستفرغان وسعهما في ذلك  
ومنها: أن الإضافة تقتضي  
التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر  
عباده بتعظيمه وتكريمه.  
ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب  
الجاذب للقلوب إليه.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ  
اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ  
الثَّمَرَاتِ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ  
إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإذ  
دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله  
بلدًا آمناً، ويرزق أهله من أنواع  
الثمرات، ثم قيد عليه السلام هذا  
الدعاء للمؤمنين تأديباً مع الله، إذ كان  
دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء  
الجواب فيه مقيداً بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالرزق وقيد  
بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمنين  
والكافرين والعاصي والطائع، قال تعالى:  
﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: أرزقهم كلهم،  
مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين  
بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى  
نعيم الجنة، وأما الكافر فيمتنع فيها  
قليلاً ثم اضطره ﴿أي: الجحيم﴾  
وأخرجه مكرهاً إلى عذاب النار  
وبئس المصير.

﴿١٢٧ - ١٢٩﴾ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ  
إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ  
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ  
الْعَلِيمُ﴾ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ  
وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا  
مَنَاسِكَنَا وَتَبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ

الرحيم﴾ ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا  
مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واذكر إبراهيم  
وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من  
البيت الأساس، واستمرارهما على هذا  
العمل العظيم، وكيف كانت حالهما  
من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع  
هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما  
عملهما، حتى يحصل <sup>(١)</sup> فيه النفع  
العميم: ودعوا لأنفسهما، وذريتهما  
بالإسلام، الذي حقيقته خضوع  
القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد  
الجوارح: ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي:

علمناهما على وجه الإراءة والمشاهدة،  
ليكون أبلغ. يحتمل أن يكون المراد  
بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل  
عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون  
المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين  
كله والعبادات كلها، كما يدل عليه  
عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد،  
ولكن غلب على متعبدات الحج تغلياً  
عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع  
إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل  
الصالح، ولما كان العبد مهما كان -  
لا بد أن يعتريه التقصير ويحتاج إلى  
التوبة، قال: ﴿وَتَبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ  
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في ذريتنا  
﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ليكون أرفع  
لدرجتهم، ولينقادوا له، وليعرفوه  
حقيقة المعرفة: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾  
لفظاً وحفظاً وتحفيظاً، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ معنى.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال  
الصالحة، والتبهي من الأعمال الردية  
التي لا تزكو النفوس <sup>(٢)</sup> معها. ﴿إِنَّكَ  
أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكل شيء،  
الذي لا يستنفع على قوته شيء  
﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء  
مواضعها، فبعزتك وحكمتك ابعث  
فيهم هذا الرسول، فاستجاب الله لهما  
فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي

\* مَا تَسْخَرُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا  
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٨﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ  
اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ  
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٩﴾ أَمْ يُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلَ رَسُولَكَ كَمَا  
سَأَلُوهُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَسْتَبْدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ  
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣٠﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
لَوْ يَرَوْهُمْ إِلَّا بِمِثْرِ نَسْتِ بِمِثْرِ كَيْفَارٍ أَحَسُّ مَنْ بَدَّلَ  
أَنفُسَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَاصْفَحُوا  
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣١﴾  
وَأَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُؤَدُّونَ لِأَنفُسِكُمْ  
مِنْ خَيْرٍ جَدُّوا عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣٢﴾  
وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى  
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ هَكَّتْ وَهُمْ لَمَّا هَكَّ إِذَا إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ  
بَلَىٰ مِنْ أَسْفَرِ نَفْسِهِمْ وَهُمْ مَحْجُورُونَ فَلَهُ أَجْرُهُ  
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٣﴾

رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر  
الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة  
والسلام: «أنا دعوة أبي إبراهيم».

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم،  
وأخبر عن صفاته الكاملة، قال تعالى:

﴿١٣٠ - ١٣٤﴾ ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ  
مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ  
اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ  
الصَّالِحِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ  
أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَوَصَّى بِهَا  
إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ  
اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ  
مُسْلِمُونَ﴾ ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ  
يَعْقُوبُ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ  
مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ  
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً  
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ  
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا  
تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ما يرغب ﴿عن ملة إبراهيم﴾  
بعدها عرف من فضله ﴿إلا من سفه  
نفسه﴾ أي: جهلها وامتنعها ورضي  
لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون،  
كما أنه لا أرشد وأكمل، ممن يرغب  
في ملة إبراهيم، ثم أخبر عن حاله في  
الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ولقد  
اصطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: اخترناه  
ووقفناه للأعمال، التي صار بها من

(١) في ب: حتى يجعل.

(٢) في ب: النفس.



المصطفين الأخيار.

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾  
الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿إذ قال له ربه أسلم قال﴾ اعتسلاً  
لربه ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ إخلاصاً  
وتوحيداً، ومحبة وإنابة، فكان  
التوحيد لله نعته.

ثم ورثه في ذريته ووصاهم به،  
وجعلها كلمة باقية في عقبه وتوارثت  
فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى  
بها بنيه، فأنتم - يا بني يعقوب - قد  
وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب  
عليكم كمال الانقياد واتباع خاتم  
الأنبياء، قال: ﴿يا بني إن الله اصطفى  
لكم الدين﴾ أي: اختاره وتخيره لكم  
رحمة بكم، وإحساناً إليكم، فقوموا به  
واتصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه،  
حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم  
الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش  
على شيء مات عليه، ومن مات على  
شيء بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على  
ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال  
تعالى منكراً عليهم: ﴿أم كنتم شهداء﴾  
أي: حضوراً ﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾ أي: مقدماته وأسبابه، فقال  
لبنيه على وجه الاختبار، ولتقر عينه في  
حياته بامتثالهم ما وصاهم به: ﴿ما

تعبدون من بعدي﴾؟ فأجابوه بما قرأت  
به عينه، فقالوا: ﴿نعبد الهك وإله  
آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً  
واحداً﴾ فلا نشرك به شيئاً، ولا نعدل  
به أحداً، ﴿ونحن له مسلمون﴾  
فجمعوا بين التوحيد والعمل  
ومن المعلوم أنهم لم يحضروا  
يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم  
يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى  
بنيه بالحنيفية لا باليهودية.

ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد  
خلت﴾ أي: مضت ﴿لها ما كسبت  
ولكم ما كسبتم﴾ أي: كل له عمله،  
وكل سيجازي بما فعله، لا يؤخذ<sup>(١)</sup>  
أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحد إلا  
إيمانه وتقواه فاشتغالكم بهم وإدعائكم  
أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد  
القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل  
الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي  
أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

﴿١٣٥﴾ ﴿وقالوا كونوا هوداً أو  
نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً  
وما كان من المشركين﴾ أي: دعا كل  
من اليهود والنصارى المسلمين إلى  
الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم  
المهتدون وغيرهم ضال.

قل له<sup>(٢)</sup> حججاً جواباً شافياً: ﴿بل﴾  
نُشِعَ ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: مقبلاً  
على الله، معرضاً عما سواه، قائماً  
بالتوحيد، تاركاً للشرك والتنديد.

فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي  
الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

﴿١٣٦﴾ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل  
إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل  
وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي  
موسى وعيسى وما أوتي النبيون من  
ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له  
مسلمون﴾ هذه الآية الكريمة قد  
اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق  
القلب التام بهذه الأصول، وإقراره  
المتضمن لأعمال القلوب والجوارح،  
وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام،

وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها،  
فهو من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث  
أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر،  
وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه  
الإيمان، فإذا قرن بينهما، كان الإيمان  
اسماً لما في القلب من الإقرار  
والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال  
الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان  
والأعمال الصالحة. فقوله تعالى:  
﴿قولوا﴾ أي: بالسنتكم متواطئة عليها  
قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب  
عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق  
باللسان بدون اعتقاد القلب، نفاق  
وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل  
القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن  
كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيراً  
ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين  
القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قولوا﴾ إشارة إلى  
الإعلان بالعقيدة، والصدع بها  
والدعوة لها، إذ هي أصل الدين  
وأساسه.

وفي قوله: ﴿آمناً﴾ ونحوه مما فيه  
صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة  
إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام  
بجيل الله جميعاً والحث على الائتلاف،  
حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم  
متحداً، وفي ضمنه النهي عن  
الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد  
الواحد.

وفي قوله: ﴿قولوا آمنا بالله﴾ الخ،  
دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه  
الإيمان على وجه التقييد، بل على  
وجوب ذلك، بخلاف قوله: ﴿أنا  
مؤمن﴾ ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقروناً  
بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تزكية  
النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: ﴿آمنا بالله﴾ أي: بأنه  
موجود، واحداً أحداً، متصف بكل  
صفة كمال، منزّه عن كل نقص  
وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها،  
وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه  
من الوجوه.

(٢) في ب: قال له.

(١) في ب: لا يؤخذ.

﴿وما أنزل إلينا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

﴿وما أنزل إلى إبراهيم﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرفهم، ولإتيانهم بالشرائع الكبار فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: ﴿لا تفرق بين أحد منهم﴾ أي: بل تؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به، وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: ﴿وما أوتي النبيون من ربهم﴾ دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع.

وفيه أن الأنبياء مبلّغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿من ربهم﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل

عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملاً.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا الخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿له﴾ على العامل، وهو ﴿مسلمون﴾.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى تخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدياً ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿١٣٧﴾ ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في

شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم﴾ أي: فإن آمن أهل الكتاب ﴿بمثل ما آمنتم به﴾ - يا معشر المؤمنين - من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا الله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿فقد اهتدوا﴾ للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، و«الهدى» هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاقة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، كفك الله شرهم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوق طبع ما أخبر.

﴿١٣٨﴾ ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي: من الله صبغة ونحن له عابدون ﴿أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام

أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴿١٣٩﴾ وهذه دعوى أخرى منهم، ومحااجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أأنتم أعلم أم الله﴾ فالله يقول: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً.

فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلاته لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى:

﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعدّها وأذخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئس النار مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيفيد ذلك الوعد والوعيد،

وقال: ﴿ونحن له عابدون﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قل أتحتاجونني في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ المحااجة هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق في المسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقين الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوتنا نحن وإياكم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء، من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفریق بين متماثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الإخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحااجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿١٤٠﴾ ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل

للتوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحيث الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور، فلهذا قال: على سبيل التعجيب المتقرر للعقول الزكية: ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته<sup>(١)</sup>.

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضمه، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوضّعه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده، فقسه بعبد كفر بربه وشرده عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخذاع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده.

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحرص.

(١) كذا في ب، وفي أ: من صبغته.



والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنی بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

﴿١٤١﴾ ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ تقدم تفسيرها، وكررها لقطع التعلق بالخلقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿١٤٢-١٤٣﴾ ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ قد اشتملت الآية الأولى على: معجزة، وتسليية، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المسلم لحكم الله ودينه.

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف لما الله تعالى في ذلك من الحكم التي تشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم

مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفیه، ولا يلقي له ذهنه. ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفیه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية، ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ وقد كان في قوله «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به.

ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها عما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مجيباً: ﴿الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخلية تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم، معترض على فضل الله حسداً لكم وبغياً.

ولما كان قوله: ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنة الله عليها، فقال:

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يظهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يجرمون شيئاً، بل أباحوا ما دبر ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكب، وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكملته، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها.

وهيهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان، ما لم يهيه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أمة وسطاً﴾ [كاملين] ليكونوا ﴿شهداء على الناس﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود، فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصم غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شكك شكاً في فضلها، وطلب مزيكاً لها فهو أكمل الخلق نبياً ﷺ، فلهذا قال تعالى: ﴿ويكون الرسول



عليكم شهيداً

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاهما نبيها.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿وَلَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿١٤٣﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً، لثمام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن من يتبع الرسول ويؤمن به، فيثبته على كل حال، لأنه عبد مأمور مندبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول.

وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه، فإنه يزداد كفراً إلى كفره، وحيرة إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

﴿وَأَنْ كَانَتْ﴾ أي: صرفك عنها

﴿لَكَبِيرَةٍ﴾ أي: شاقة إلا على الذين هدى الله فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركناً من أركان الإسلام، وهادماً للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من المستنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن آمن بالله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيمانهم، فكما ابتدأكم بأن هذاكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازاً عما يقال إن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها.

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: شديد الرحمة بهم

عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

﴿١٤٤﴾ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَجْهَكَ﴾ ولم يقل: «بضرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقلب الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ أي: نوجهك لولايتنا إياك، ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي: تحبها وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: جهته.

ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها ونقلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشئ نهى عن ضده، ولما ذكر تعالى فيما تقدم المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبغياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب.

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعارض عليه، وأن المعارض معاند، عازف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعارض العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال تعالى: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعارضين، وتسلية للمؤمنين.

﴿١٤٥﴾ ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾ كان النبي ﷺ من كمال حرصه على هداية الخلق يبذل لهم غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهديتهم، ويحزن إذا لم ينقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمداً وعدواناً، فمنهم اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين لا عن جهل، فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ﴿أي: بكل برهان ودليل يوضح قولك، ويبين ما تدعو إليه، ما تبعوا قبلتك﴾ أي: ما تبعوك، لأن اتباع القبلة دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبلة، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد ويستفاد منها من يطلب الحق وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه.

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبلة بعض، فليس بغريب منهم مع ذلك أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد، وهم الأعداء حقيقة الحسدة، وقوله: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ أبلغ من قوله: ﴿ولا تتبع﴾ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ اتصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع

ذلك منه، ولم يقل: ﴿ولو أوتوا بكل آية﴾ لأنهم لا دليل لهم على قولهم.

وكذلك إذا تبين الحق بأدلة اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الزائدة عليه، لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم ببطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ إنما قال: ﴿أهواءهم﴾ ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية<sup>(١)</sup> نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾.

﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل، ﴿إنك إذا﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز لثلاث تفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، ﴿لن الظالمين﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فأثر الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك، وأيضاً فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته<sup>(٢)</sup>، فغيزه من باب أولى وأحرى.

﴿١٤٦ - ١٤٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين.

يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن عمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفةهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، لكن فريقاً منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنهم، وهم يعلمون ﴿ومن أظلم ممن

وَلَنُرِيَنَّكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى حَتَّى تَبْعَ يُلَاقَهُمْ فَلْإِنْ هَدَى اللَّهُ هَؤُلَاءِ لَهْدًى وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْلَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا وَلَئِنْ جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاعٍ ۚ وَلَئِنْ جَاءَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا وَاعِيَّ إِلَيْهِمْ أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ ۚ وَأَنْتُمْ أَوْفُوا بِمَا عَاهَدْتُمْ بِهِمْ فَتُخَفَّفَ عَنْ نَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا دُعِيَ إِلَى اللَّهِ فَيُجِبْ ۚ وَأَنْتُمْ أَوْفُوا بِمَا عَاهَدْتُمْ بِهِمْ فَتُخَفَّفَ عَنْ نَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا دُعِيَ إِلَى اللَّهِ فَيُجِبْ ۚ وَأَنْتُمْ أَوْفُوا بِمَا عَاهَدْتُمْ بِهِمْ فَتُخَفَّفَ عَنْ نَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا دُعِيَ إِلَى اللَّهِ فَيُجِبْ ۚ وَأَنْتُمْ أَوْفُوا بِمَا عَاهَدْتُمْ بِهِمْ فَتُخَفَّفَ عَنْ نَفْسِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ

كتم شهادة عنده من الله. وفي ضمن ذلك تسلية للرسول والمؤمنين، وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم يكتسبوا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن [به] ومنهم من كفر [به] جهلاً، فالعالم عليه إظهار الحق وتبيينه وتزيينه، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق، وتشيينه وتقبيلحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك، فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

﴿الحق من ربك﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ودفع مفسادها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فلا تكونن من الممتريين﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك، موصل لليقين.

﴿١٤٨﴾ ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت



بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ﴿١﴾ أي: كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكوات<sup>(١)</sup> وحج وعمرة وجهاد، ونفع متعدد وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على

(١) في ب: وزكاة.

(٢) في ب: القبلة.

(٣) في ب: رأس.

المسارعة إلى الخير وينشطها، ما رتب الله عليها من الشواب، قال: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً﴾ إن الله على كل شيء قدير ﴿٢﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله ﴿٣﴾ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴿٤﴾.

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وأدائها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

﴿١٤٩ - ١٥٠﴾ ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾ \* ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشون ولا تم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ أي: ﴿ومن حيث خرجت﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي: جهته.

ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ وقال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ أكده بـ «إن» واللام، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشبي لا الامتثال.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقال هنا: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم

احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركون، فإنه لو بقي مستقبلاً بيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم وأنه من ملة إبراهيم وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟

فباستقبال الكعبة<sup>(٢)</sup> قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركون، وانقطعت حججهم عليه.

إلا من ظلم منهم، أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فلهذا قال تعالى: ﴿فلا تحشوهم﴾ لأن حججتهم باطلة، والباطل كاسمه تغدول، تغدول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل<sup>(٣)</sup> كل خير، فمن لم يخش الله لم يكف عن معصيته، ولم يمثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فلهذا بسطها الله تعالى وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

منها الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فول وجهك﴾ والأمة عموماً في قوله: ﴿فولوا وجوهكم﴾

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾.

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: ﴿ولأنتم نعمتي عليكم﴾.

فأصل النعمة الهداية لديته، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

فلله الحمد على فضله، الذي لا يبلغ له عدأ، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿ولعلمكم تهتدون﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته - بالعباد، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، ويضدها تبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما

اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً، فلله الحمد على ذلك.

﴿١٥١-١٥٢﴾ ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإقامتها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك ببدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه.

﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني.

﴿ويزكيكم﴾ أي: يظهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿ويعلمكم الكتاب﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، ﴿والحكمة﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها.

فيكون - على هذا - تعليم السنة داخل في تعليم الكتاب، لأن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعبّر عنه، ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين،

لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعله يده ﷺ وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فللهذا قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضل ما تواظاً عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبه وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فللهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال: ﴿واشكروا لي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعترافاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهى عن ضده، فقال: ﴿ولا تكفرون﴾ المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاماً، فيكون الكفر أنواعاً كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿١٥٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

الصابرين ﴿أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية بالصبر والصلاة﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفقودة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرح المارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مقتضاها وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه، واللجأ إليه والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه ﴿مع الصابرين﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة، وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصرته وقربه، وهذه [منقية عظيمة] (١) للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرفاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما

في قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ وهذه عامة للخلق. وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً، وداعياً يدعو إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿١٥٤﴾ ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموال بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ لما ذكر تبارك وتعالى، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور (٢)، ذكر نموذجاً عما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقتها في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضادها. ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفته الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون. فالشهداء ﴿أحياء عند ربهم

يرزقون﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾.

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني من المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح والاستبشار (٣)، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أزواج الشهداء في أجواف طيور (٤) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش. وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجر العظيمة والغنائم، لم لا يكون كذلك والله تعالى قد: ﴿أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾.

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿١٥٥ - ١٥٧﴾ ﴿ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿أولئك

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: وهو الاستبشار.

(٣) في ب: طير.

(٤) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: الأحوال.



عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿١٥٨﴾ أخبر تعالى أنه لا بد أن يتبلى عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عباده؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيتبلى عباده ﴿بشيء من الخوف﴾ من الأعداء ﴿والجوع﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاههم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

﴿ونقص من الأموال﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق وضياع، وأخذ الظلمة للأموال، من الملوك الظلمة وقطاع الطريق، وغير ذلك.

﴿والأنفس﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿والثمرات﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر؛ ببرد أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية من جراد<sup>(١)</sup> ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقع كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبة، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له [السخط الدال على شدة النقصان].

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن

التسخط قولاً وفعلًا، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امثال أمر الله وفاز بالثواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وبشّر الصابرين﴾ أي: بشّرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبخسة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما بما تقدم ذكره.

﴿قالوا إنا لله﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم عبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه من أقوى أسباب الصبر.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عليهم صلوات من ربهم﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿ورحمة﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر قلبه ضد ما لوهم، فحصل له الذم

من الله والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلقت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

﴿١٥٨﴾ ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ يحجز تعالى

أن الصفا والمروة هما معروفان ﴿من شعائر الله﴾ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم».

﴿فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفرداً إلا مع انضمامه لحج أو

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش وفي



عمرة، بخلاف الطواف بالبيت فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿خَيْراً﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فهو خير له﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شراً له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتلأ طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، فمن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجودها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿١٥٩ - ١٦٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ \* إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم \* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين \* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون \* هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتتمان ما أنزل الله ﴿من البيِّنات﴾ الدلالات على الحق المظهرات له، ﴿والهدى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتُموه، فمن نبذ ذلك وجع بين المفسدتين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يلعنهم الله﴾ أي: يبعدهم ويظردهم عن قربه ورحته.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزله الله، مضاد لأمر الله

مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها وهذا يطمسها ويعميها<sup>(١)</sup>، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً، وعزماً على عدم المعاودة، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبيدي ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التواب﴾ أي: الرجاء على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا، ﴿الرحيم﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنبأوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفًا وكرماً، هذا حكم التائب من الذنب.

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب، فأولئك ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، ﴿خالدين فيها﴾ أي: في اللعنة أو في العذاب والمعنات<sup>(٢)</sup> متلازمان.

﴿لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتدرون.

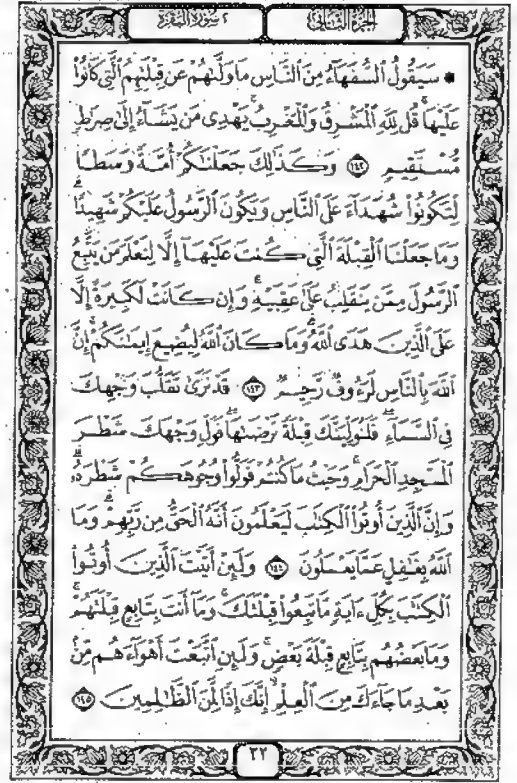
﴿١٦٣﴾ ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ يخبر تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إله واحد﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له

(١) في ب: وهذا يسعى في طمسها

وإخفائها.

(٢) في ب: وهما متلازمان.





وخضعت لجبروته .

وغاية العبد الضعيف، أن يجعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم .

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ وهو المطر النازل من السحاب .

﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها .

أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟ ﴿وبث فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من كل دابة﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع .

(١) في ب: ومنها أنه بث فيها .

فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وخراساتهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع<sup>(١)</sup> أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها .

وفي ﴿تصريف الرياح﴾ باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تشير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تليقجه، وتارة تدبره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب .

فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنواب، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع ومحبة وإناية وعبادة؟

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته أمسكه عنهم، فيتزله رحمة ولطفاً، ويصرفه عناية وعطفاً، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه، والطف امتنانه!!

أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا بيرة، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره وعفوه وصفحه، وعميم لطفه؟

فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً .

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في

هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مديرها ومصرفها .

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه ضامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه .

﴿١٦٥ - ١٦٧﴾ ثم قال تعالى:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ .

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الناطقة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿من الناس﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله، أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة .

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب .

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد

يتمنونها، حنفاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرؤوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قُضي الأمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

﴿١٦٨ - ١٧٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أُولَئِكَ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وحوانات، حالة كونها ﴿حلالاً﴾ أي: محلاً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معيناً على محرم.

﴿طيباً﴾ أي: ليس بخبيث كالهيئة والدم ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأتى تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خطوات الشيطان﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوايب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم،

ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول تيجتها انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

وحيث يمتنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعيههم، بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيئات، فإت الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأمانى

مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿اتَّخِذُوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجْعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُومَهُمْ أَمْ تَتَّبِعُونَهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهَرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن﴾ فالمخلوق ليس ندأ لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداة مرزوق، والله هو الغني وأتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشْدَّ حُباً لِلَّهِ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدقهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم.

﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ﴾ جميعاً وأن الله شديد العذاب. أي: لعلوا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فيتبين لهم في ذلك اليوم

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، وتبهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتبع الباطل ونبذ الحق. أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم. هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إتمامه باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾. فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً» لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله فلم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويحلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينقر النعم المفقودة وينزِيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ

وَالْأَخْرُوقَ، الَّذِي كُلُّ الْفَلَّاحِ بِطَاعَتِهِ، وَكُلُّ الْفُوزِ فِي خِدْمَتِهِ، وَجَمِيعَ الْأَرْبَاحِ فِي مُعَامَلَتِهِ الْمُنْعَمِ بِالنَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الَّذِي لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ الشَّرِّ، أَمْ تَتَّبِعِ دَاغِي الشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ عَدُوُّ الْإِنْسَانِ، الَّذِي يَرِيدُ لَكَ الشَّرَّ، وَيَسْعَى بِجَهْدِهِ عَلَى إِهْلَاكِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ الَّذِي كُلُّ الشَّرِّ فِي طَاعَتِهِ، وَكُلُّ الْخُسْرَانِ فِي وِلَايَتِهِ، الَّذِي لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ خَيْرٍ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ؛ إِذَا أَمَرُوا بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ - مِمَّا تَقَدَّمَ وَصَفَهُ - رَغِبُوا عَنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا: ﴿بَلْ تَتَّبِعِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فَاكْتَفُوا بِتَقْلِيدِ الْأَبَاءِ، وَزَهَدُوا فِي الْإِيمَانِ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَمَعَ هَذَا قَابَأَهُمْ أَجْهَلُ النَّاسِ وَأَشَدَّهُمْ ضَلَالًا، وَهَذِهِ شَبْهَةٌ لِرَدِّ الْحَقِّ وَاهِيَةٍ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَرَغْبَتِهِمْ عَنْهُ، وَعَدَمِ انْصَافِهِمْ، فَلَوْ هَدُوا لِرَشْدِهِمْ وَحَسَنَ قَصْدِهِمْ، لَكَانَ الْحَقُّ هُوَ الْقَصْدُ، وَمَنْ جَعَلَ الْحَقَّ قَصْدَهُ، وَوَاظَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ قَطْعًا، وَاتَّبَعَهُ إِنْ كَانَ مُنْصَفًا.

ثم قال [تعالى]: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً، صَمٌّ بِكُمْ عَمِّي فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لما بين تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينطق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم، فلهذا كانوا صمماً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكماً فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهيها عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوتها الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء وأعظمها مفسدة، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿وَالْفَحْشَاءُ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تنهى قبحه، كالزنا وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل، وتحو ذلك مما يستفحشه من له عقل، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله ندأ، وأوثاناً تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات لليلة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معانٍ اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدر على.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فليُنظر العبد نفسه مع أي: الداعين هو، ومن أي: الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية



والعذاب على المغفرة، فهو لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟! **﴿ذلك﴾** المذكور، وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية، ممن أباهوا واختار سواها.

**﴿بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾** ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأيضاً ففي قوله: **﴿نزل الكتاب بالحق﴾** ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

**﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾** أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، أو الذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم **﴿لفي شقاق﴾** أي: محادة، **﴿بعيد﴾** عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يظهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة. ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة

ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها. أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن [فله الحمد والشكر أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً].

**﴿١٧٤ - ١٧٦﴾** **﴿إن السذجين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾** أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار **﴿ذلك﴾** بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد **﴿هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله، أن يبينوه للناس ولا يكتُموه، فمن تعرض عنه بالحطام الدنيوي ونبتذ أمر الله، فأولئك: ﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، ﴿ولا يزكيهم﴾ أي: لا يظهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها الحمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهو لا نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى،**

عليكم الميتة **﴿وهي ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرّة لردائها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر﴾** <sup>(١)</sup>، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسمك البحر، فإنه حلال طيب.

**﴿والدم﴾** أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى.

**﴿وما أهل به لغير الله﴾** أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: **﴿طيبات﴾** فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: **﴿حلالاً طيباً﴾** كما تقدم.

وإنما حرّم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفاً بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا **﴿فمن اضطر﴾** أي: ألجئ إلى المحرم بجوع وعدم، أو إكراه، **﴿غير باغ﴾** أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، **﴿ولا عاد﴾** أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، فلا إثم [أي: جناح] عليه، وإذا ارتفع الجناح <sup>(٢)</sup> رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهى أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمة تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: **﴿إن الله غفور رحيم﴾**.

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة

(١) في ب: مرض.

(٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب، وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).



والمخاصمة، والله أعلم.

﴿١٧٧﴾ ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت.

﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿وَالْكِتَابِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنته من الأخبار والأحكام، ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: حب المال، بين به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرج العبد.

فمن أخرجه مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح صحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال

يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر.

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك. من الأقارب الذين تنوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاضدون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم.

ومن اليتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمة [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، قاله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقد أبائهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيّم غيره رُحِمَ يتيّمه.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه وبما يتيسر، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحث الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الخوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرشي جنائية، أو ضريبة عليه من ولادة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة

عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرب بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والعهد: هو الالتزام بالزام الله أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنذور، ونحو ذلك.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبِئْسَاءِ﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم.

فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿وَالضَّرَاءِ﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح وزناح ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى].

﴿وحين البأس﴾ أي : وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ، لأن الجلال يشق غاية المشقة على النفس ، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر ، فاحتيج إلى الضيق في ذلك احتساباً ، ورجاء لشواب الله [تعالى] الذي منه النصر والمعونة التي وعدّها الصابرين .

﴿أولئك﴾ أي : المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة ، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره ، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية ، فأولئك هم ﴿الذين صدقوا﴾ في إيمانهم ، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم ، ﴿وأولئك هم المتقون﴾ ؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور ؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضمناً ولزوماً ، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله ، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات ، ومن قام بها كان بما سواها أقوم ، فهو لاء هم الأبرار الصادقون المتقون .

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي ، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضع .

﴿١٧٨ - ١٧٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم \* ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين ، بأنه فرض عليهم ﴿القصاص في القتلى﴾ أي : المساواة فيه ، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول ، إقامة للعدل والقسط بين العباد .

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين ،

فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم ، حتى أولياء القاتل ، حتى القاتل بنفسه ، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص ، وتمكينه<sup>(١)</sup> من القاتل ، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص ، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين .

ثم بين تفصيل ذلك ، فقال : ﴿الحر بالحر﴾ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر ، ﴿والأنثى بالأنثى﴾ والأنثى بالذكر ، والذكر بالأنثى ، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله : «الأنثى بالأنثى» مع دلالة السنة ، على أن الذكر يقتل بالأنثى ، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا ، فلا يقتلان بالولد ؛ لورود السنة بذلك ، مع أن في قوله : ﴿القصاص﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده ، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة ، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله ، أو أذية شديدة جداً من الولد له .

وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة ، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة .

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه ، والعبد بالعبد ، ذكرراً كان أو أنثى ، تساوت قيمتهما أو اختلفت ، ودل بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد ، لكونه غير متساو له ، والأنثى بالأنثى ، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم ، فلم يجوز قتل الرجل بالمرأة ، وتقدم وجه ذلك .

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل ، وأن الدية بدل عنه ، فلهذا قال : ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ أي : عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية ، أو عفا بعض الأولياء ، فإنه يسقط القصاص وتحجب الدية ، وتكون الخيرة في القود واختيار

(٢) في ب : بالإحسان .

(١) في ب : ويمكنه .



الدية إلى الولي .

فإذا عفا عنه وجب على الولي [أي : ولي المقتول] أن يتبع القاتل بالمعروف<sup>(٢)</sup> من غير أن يشق عليه ، ولا يحمله ما لا يطيق ، بل يحسن الاقتضاء والطلب ، ولا يجرجه .

وعلى القاتل ﴿أداء إليه بإحسان﴾ من غير مطلق ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية ، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء ، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان ، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف ، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان<sup>(٣)</sup> .

وفي قوله : ﴿فمن عفي له من أخيه﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدية ، وأحسن من ذلك العفو مجاناً .

وفي قوله : ﴿أخيه﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر ، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان ، فلم يخرج بالقتل منها ، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها ، وإنما ينقص بذلك إيمانه .

وإذا عفا أولياء المقتول ، أو عفا بعضهم ، احتقن دم القاتل ، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم ، ولهذا قال : ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ أي :

في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري.

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث بعد أن كان مجملاً، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين المتنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء، وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلاً من القائلين بهما كل منهما لحظ ملحظاً، واختلف المورد.

فهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، لأنه<sup>(١)</sup> مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يستمتع من الوصية، لما يتوهمه أن من بعده قد يدل ما وصى به، قال تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ﴾ أي: الإيصاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ [أي: بعدما عقله، وعرف طرقة وتنفيذه، فإنما إثمه على الذين يبدلونه] وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجوز في وصيته، ﴿عَلِيمٌ﴾ بيته، وعليم بعمل الموصي إليه، فإذا اجتهد الموصي وعلم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصي إليه من التبدل، فإن الله عليم به، مطلع على ما فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة، وأما الوصية التي فيها حيف وجنث وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهائه

وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

﴿١٨٠ - ١٨٢﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم \* فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم \* أي: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ترك خيراً [أي: مالا] وهو المال الكثير عرفاً، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل.

وقوله: ﴿حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية الموارث وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن



بعد العفو ﴿فله عذاب أليم﴾ أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئاً له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جانيه لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أي: تتحقق بذلك الدماء، وتنقمع به الأبقية، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا روي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكر «الحياة» لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم

أي: يطيقون الصيام **﴿فدية﴾** عن كل يوم يفطرونه **﴿طعام مسكين﴾**. وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطبق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم، ولهذا قال: **﴿وأن تصوموا خير لكم﴾**.

ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطبق، وغير المطبق يفطر ويقضيه في أيام آخر [وقيل: **﴿وعلى الذين يطيقونه﴾** أي: يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير فدية عن كل يوم مسكين<sup>(١)</sup>، وهذا هو الصحيح<sup>(٢)</sup>].

**﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾** أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتغل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام.

فلما قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخفيف بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة، [فقال] **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾** أي: يريد الله تعالى أن يسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد<sup>(٣)</sup> تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية

لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمصارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصتكم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: **﴿لعلكم تتقون﴾** فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلّهم باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثّر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهلاً آخر، فقال: **﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر﴾** وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام آخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: **﴿فعدة من أيام﴾** فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: **﴿وعلى الذين يطيقونه﴾**

عن الجور والجنف، وهو الميل بها عن خطاً، من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبrette ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال: **﴿إن الله غفور﴾** أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غص من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح ساعه الله، غفور لميتهم الجائز في وصيته إذا احتسبوا بمساعمة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدلّت هذه الآيات على الخث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

**﴿١٨٣ - ١٨٥﴾** **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** أي: أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون \* شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون \* يخبر تعالى بما من به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام

مسكين.

السهولة في أصله.

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات. وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿ولتكمّلوا العدة﴾ وهذا - والله أعلم - لثلاثتهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، رفع هذا الزهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

﴿١٨٦﴾ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي: يحصل لهم الرشد

الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾.

﴿١٨٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروههن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروههن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ كان في أول فرض الصيام، يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به.

﴿فتاب﴾ الله ﴿عليكم﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجبا للآثم ﴿وعفا عنكم﴾ ما سلف من التخون.

﴿فالآن﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿باشروههن﴾ وطأ وقبله ولساً وغير ذلك.

﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي: انووا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح.

وما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها

وتضيعوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك.

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه.

وفيه: دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخير أخذ من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد.

وفيه: أيضاً دليل على أنه يجوز أن يترك الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يتركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق.

﴿ثم﴾ إذا طلع الفجر ﴿أتموا الصيام﴾ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إلى الليل﴾ وهو غروب الشمس ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست بإباحته<sup>(١)</sup> عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناه بقوله: ﴿ولا تباشروههن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي: وأنتم متصفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد.

ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس.

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

﴿تلك﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حدود الله﴾ التي حدها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فلا تقربوها﴾ أبلغ من قوله: «فلا تفعلوها» لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة

(١) في ب: إباحة.



إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات ، والبعد منها غاية ما يمكنه ، وترك كل سبب يدعو إليها ، وأما الأوامر فيقول الله فيها : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ فينهى عن مجاوزتها .

﴿ كذلك ﴾ أي : بين [ الله ] لعباده الأحكام السابقة أتم تبين ، وأوضحها لهم أكمل إيضاح .

﴿ يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه ، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم ، ولو علم تحريمه لم يفعله ، فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سبباً للتقوى .

﴿ ١٨٨ ﴾ ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ أي : ولا تأخذوا أموالكم ، أي : أموال غيركم ، أضافها إليهم ؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله كما يحترم ماله ؛ ولأن أكله لمال غيره مجرىء غيره على أكل ماله عند القدرة .

ولما كان أكلها نوعين : نوعاً بحق ، ونوعاً باطل ، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل ، قيده تعالى بذلك ، ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في ودیعة أو عارية ، أو نحو ذلك ، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة محرمة ، كعقود الربا والقمار كلها ، فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس في مقابلته عوض مباح ، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة ، ونحوها ، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرهم ، وكذلك أخذهم أجره على عمل لم يقوموا بواجبه ، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح ، حتى يقصد بها وجه الله

تعالى ، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف ، والنوصايا لمن ليس له حق منها ، أو فوق حقه .

فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع ، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة الحق ، وحكم له الحاكم بذلك . فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً ولا يحلل حراماً ، إنما يحكم على نحو مما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية ، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة ، ولا استراحة .

فمن أدلى إلى الحاكم بخجة باطلة وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ، ويكون أكلاً لمال غيره بالباطل والإثم وهو عالم بذلك . فيكون أبلغ في عقوبته وأشد في نكاله .

وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه ، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ .

﴿ ١٨٩ ﴾ ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ يقول (١) تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ جمع هلال ، ما فائدتها وحكمتها ؟ أو عن ذاتها ، ﴿ قل هي مواقيت للناس ﴾ أي : جعلها الله تعالى بلطفه ورحمته على هذا التدبير يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع في النقص إلى كماله ، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم من الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ، وأوقات الحج .

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات ، ويستغرق أوقاتاً كثيرة ، قال : ﴿ والحج ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات ، ومدة

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاقِ الَّذِي يَجْرِي فِي الْبَحْرِ مَا يَشْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعَذَابِ ﴿٢١﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّعْبُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَنُقِطَتْ يَوْمَئِذٍ الْأَسْبَابُ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّعْبُوا لَئِنْ لَمْ تَنَالُوا كَرَّةً فَسَتُنَالُنَا مِنْهُمْ كَرَّةً وَآيَاتُكَ كَذِبٌ يُفْسَدُ اللَّهُ أَعْلَمُكُمْ حَرَبٍ عَلَيْهِمْ وَأَمَّا هُمْ فَيَنسَوْنَ مِنَ النَّارِ أَلَّا يَأْتِيَهَا النَّاسَ كُرًّا مِمَّا فِي الْأَرْضِ فَكَأَيًّا لَا تُفَكَّرُ تَطَوُّرُ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾

الإجازات ، ومدة العدد والحمل ، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق ، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد من صغير وكبير ، وعالم وجاهل ، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس .

﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، تعبدوا بذلك ، وظناً أنه بر ، فأخبر الله أنه ليس ببر (٢) ، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم ، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله ، فهو متعبد ببدعة ، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم ، التي هي قاعدة من قواعد الشرع .

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب ، الذي قد جعل له موصلاً ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور ، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه ، والتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به مقصوده ، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه ،

(٢) في ب : ليس من البر .

(١) في ب : فقول .





فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

﴿واتقوا الله﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهرب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

﴿١٩٠-١٩٣﴾ ﴿وقاتلوهم﴾ سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين \* واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم \* وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾

هذه الآيات، تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به، بعدما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال

﴿في سبيل الله﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين.

﴿الذين يقاتلونكم﴾ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال.

والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها] لغير مصلحة تعود للمسلمين.

ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز.

﴿واقتلوهم حيث ثقتموهم﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا، في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة ثم استثنى من هذا العموم قتالهم عند المسجد الحرام، وأنه لا يجوز إلا أن يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمة وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يزكك أخف المفسدين لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن يكون الدين لله. تعالى فيظهر دين الله [تعالى]، على سائر الأديان،

ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال، ﴿فإن انتهوا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

﴿١٩٤﴾ ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهداء، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكمالهم.

ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام (٢) فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج وعلى هذا فيكون قوله: ﴿والحرمات قصاص﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله، ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة، [من الإنفاق عليه] فإنه يجوز أخذه من ماله.

(١) في ب: ويستدل في هذه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: بالشهر الحرام.

وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره، أو خانه في ودعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على جدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿١٩٥﴾ ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ إن الله يحب المحسنين ﴿يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ، وَهُوَ إِخْرَاجُ الْأَمْوَالِ فِي الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى اللَّهِ، وَهِيَ كُلُّ طَرِيقٍ الْخَيْرِ مِنْ صَدَقَةٍ عَلَى مُسْكِينٍ، أَوْ قَرِيبٍ، أَوْ إِنْفَاقٍ عَلَى مَنْ تَجِبُ مُؤَنَّتُهُ.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهادٌ بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازة، فإلجتهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على سباق النفقة، فالنفقة له كالزواج، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً

لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسببة أو حينات، أو يصعد شجراً أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة (١) الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ إن الله يحب المحسنين وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجناه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، وتحذير ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج

فقال:

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يستدل بقوله [تعالى]: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على أمور: أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نقلاً.

الخامس: الأمر باتقائهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فلماذا قال: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ أي: منعت من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدي، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صدهم

والمقصود من الحج : الذل

والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتشبه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت بمنوعة في كل مكان وزمان، فإنها<sup>(١)</sup> يتغلظ المنع عنها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي بـ «من» لتتضمن العموم، فكل خير وقربة وعبادة، داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، وخصوصاً في تلك اليقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة وصيام وصدقة وطواف وإحسان قولي وفعلي.

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم سؤالاً واستشرفاً، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة قربية لرب العالمين، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية بلغة ومتاع. وأما الزاد الحقيقي المستمر بنفعه لصاحبه في دنياه وآخره، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبداً، ومن ترك هذا الزاد، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، ومنعوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولى الأبواب فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

﴿١٩٨ - ٢٠٢﴾ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن

كتتم من قبله لمن الضالين \* ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم \* فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذاكم أباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق \* ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار \* أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب \* لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسبواً إلى فضل الله، لا منسبواً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه.

وفي قوله: ﴿فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف، يكون ليلة النحر بائناً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً، ويدخل في ذكر الله عنده، إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل كما هو مفهوم التقيد بـ «مزدلفة».

«واذكروه كما هداكم وإن كتتم من

\* ليس اليرقان نولاً ومبركاً قبل المشرق والمغرب ولكن اليرقان من آمن بالله واليوم الآخر والملك والكتب والنبين وإن المال على حبة ذرى الفري والتسبي والتسكين وإن السبيل والسكابين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكاة والمؤنك بعدهم إذا عهدوا بالصبر في البأساء والفقر وسين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴿١٩٨﴾ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الحج إذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام كما هداكم أباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتينا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق \* ومنهم من يقول ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار \* أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب \* لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسبواً إلى فضل الله، لا منسبواً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه.

قبله لمن الضالين \* أي: اذكروا الله تعالى كما من عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم في القلب واللسان.

ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس \* أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت بـ «منى» ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك.

ولما كانت [هذه] الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمئة الحسنة.

وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل، كما أن

ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿٢٠٤-٢٠٦﴾ «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام \* وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد \* وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد».

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصراً في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا» أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه «يشهد الله على ما في قلبه» بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال: «وهو ألد الخصام» أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيتهم.

﴿وإذا تولى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك «سعى في الأرض ليفسد فيها» أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض «ويهلك الحرث والنسل» فالزروع والثمار والمواشي تتلف وتنقص وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، «والله لا يحب الفساد» وإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمل، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه.

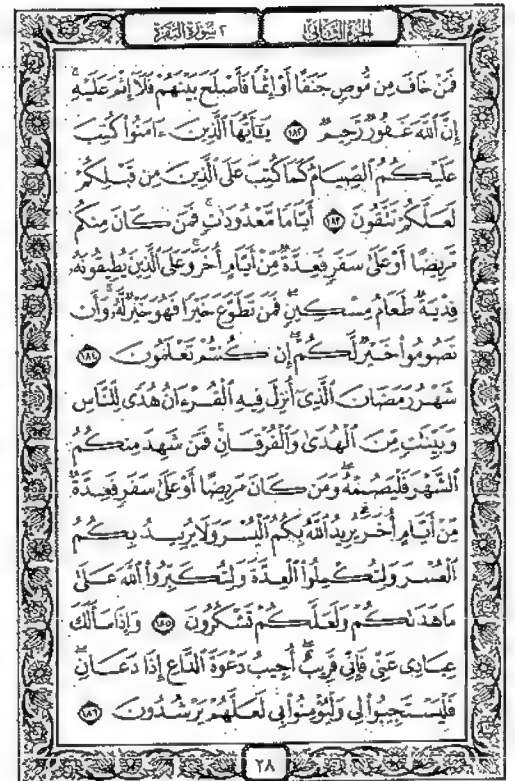
﴿٢٠٣﴾ «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون» يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم ضيामها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله».

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، وليس ببعيد.

﴿فمن تعجل في يومين﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني «فلا إثم عليه، ومن تأخر» بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد «فلا إثم عليه» وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيع كلا الأمرين، فالتأخر أفضل لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم، والمتأخر فقط قيده بقوله: «لمن اتقى» أي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان الجزاء من جنس العمل.

﴿واتقوا الله﴾ بامتنال أوامره واجتناب معاصيه، «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده،



الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: «من يقول ربنا آتنا في الدنيا» أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء هؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنئ واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقربه العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف، والنار،



ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها المزمكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحقق والمبطل من الناس بسير أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتركيتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و﴿أخذته العزة بالإثم﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين.

﴿فحسبه جهنم﴾ التي هي دار العاصين والتكبرين، ﴿ولبس المهادر﴾ أي: المستقر والمسكن عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الشواب، جزاء لجنایاتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياداً بالله من أحوالهم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاء لشوابه، فهم يذلوا الثمن للملء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشترى أنفسهم وبذلوا، وأخير برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم<sup>(٢)</sup>.

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين \*

فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا ﴿في السلم كافة﴾ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه نيته.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ والعدو المبين لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم. ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات﴾ أي: على علم ويقين ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر<sup>(٣)</sup> الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

﴿٢١٠﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر إلى الله ترجع الأمور﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب. يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحرق به الجزاء السيء على المفسدين،

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري [تبارك] تعالى: ﴿في ظلل من الغمام﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل.

فتوضع الموازين، وتنتشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهناك بعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء والنزول والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيققتها القدر في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالاتها على مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر

(١) في ب: والتكبر.

(٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام النجار بتفسير الآية من عند نفسه انظر طبعة النجار (١/٢٥٢ - ٢٥٤) ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

(٣) في ب: العزيز المقام.

على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن الله ذاتاً لا تشبهها الذوات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفاته خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه وأثبت رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته وما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيت.

والحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً بما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

﴿٢١١﴾ «سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَم آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَةٍ وَمَنْ يَدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» يقول تعالى: «سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَم آتَيْنَاكُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَةٍ» تدل على الحق وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها.

بل كفروا بها وبدلوا نعمة الله كفرًا، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله

تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقر بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿٢١٢﴾ «زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ولم يتقادوا لشرعه، أنهم زينت لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم، وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره، ما لا يكون لغيره.

وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور.

والكفار تحتهم في أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا ينتهي له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين: ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ» فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

﴿٢١٣﴾ «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (أي: كان الناس) [أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع ويعتد الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم، وقيل بل كانوا<sup>(١)</sup> مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم مبشرين من أطاع الله بثمرات الطاعات، من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة.

﴿ومُنْذِرِينَ﴾ من عصى الله بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما.

ولما ذكر نعمته العظيمة بأنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا

(١) زيادة في هامش ب، لم يجد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن الأقرب أن هذا محلها، ولهذا وليتسق الكلام يكون آخره هكذا (وقيل بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي كان الناس) مكرراً.

يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف.

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

**﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** من هذه الأمة **﴿لما اختلفوا فيه من الحق﴾** فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة **﴿بإذنه﴾** تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

**﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** . فعم الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلا يقولوا: **﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾** وهدى - بفضلته ورحمته، وإعانتة ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

**﴿٢١٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾** يخبر تبارك وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا يد أن يثليه، فإن صبر على أمر الله ولم يبال بالمكاره الواقفة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كمالها، ومن السيادة ألتها.

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صنته المكاره عما هو بصدده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس بالإيمان بالتحلي والتمني ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم **﴿مستهم البأساء﴾** أي: الفقر **﴿والضراء﴾** أي: الأمراض في

أبدانهم **﴿وزلزلوا﴾** بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال وآل بهم الزلزال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به.

ولكن لشدة الأمر وضيقه قال **﴿الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾**.

فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: **﴿ألا إن نصر الله قريب﴾** فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.

فكلما اشتدت عليه وصعبت، إذا صبر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحات، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء، وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾**.

وقوله [تعالى: ] **﴿أَلَمْ أَحْصِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾** ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين **﴿فَعِنْدَ الْامْتِحَانِ﴾** يكرم المرء أو يهان.

**﴿٢١٥﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَقْرَبِينَ وَ لِلْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** أي: يسألونك عن النفقة، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابه عنهما، فقال: **﴿قل ما أنفقتم من خير﴾** أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقاً عليك، وهم الوالدان الواجب برهما والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما، النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، على الولد الموسر، ومن بعد الوالدين الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب

أُولَئِكَ لَكُمْ يَتْلُو آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ  
لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَسْتُمْ بِأَعْيُنِ اللَّهِ أَنْتُمْ تَنْتَحِرُونَ  
أَنْتُمْ قَاتِبٌ عَلَيْكُمْ وَعَمَّا عَلَيْكُمْ فَأَلَّن  
بَيْنَهُمْ وَأَنْتُمْ مَا كَلَّمَ اللَّهُ لَكُمْ وَكَلَّمَ وَأَسْرُوا  
حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ لِيُطْلَى الْأَيْسَرُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَخْوَرِ  
مِنَ الْمَجْرَمِ وَأَنْتُمْ الْيُسْبِيحُ إِلَى الْبَلَدِ وَلَا تَبْشُرُوا  
وَأَنْتُمْ عَمَلَكُمْ فِي السَّجْدَةِ تَلْكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُهَا  
كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ  
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ إِلَى  
الْحَكْمِ وَأَكْلُوا مِنْ بَيْنِ أَيْمَانِ النَّاسِ بِالْإِنْفِرِ وَأَنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ  
• تَعْلَمُونَ عَنْ الْأَهْلِ قَدْ هِيَ مَرَّتٌ لِلنَّاسِ  
وَالْحُجْ وَلَسَّ الْبَرُّ أَنْ تَأْتُوا الْيُسْبِيحُ مِنْ ظُهُورِهِمَا وَلَكِنَّ  
الْيُسْبِيحُ أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ الْيُسْبِيحُ مِنْ بَيْنِهِمَا وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ  
لَمَّا كُنْتُمْ تَقْلَحُونَ  
وَقُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ  
يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة، **﴿واليتامى﴾** وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد رحمة منه بهم ولطفاً، **﴿والمساكين﴾** وهم أهل الحاجات وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

**﴿وابن السبيل﴾** أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عمم تعالى، فقال: **﴿وما تفعلوا من خير﴾**: من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير، **﴿فإن الله به عليم﴾** فيجازيكم عليه ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

**﴿٢١٦﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكثر



ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل رده، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

﴿٢١٨﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾  
هذه الأعمال الثلاثة هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الرنج والخسران، فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل.

وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلاته، تقرباً إلى الله، ونصرة لدينه.

وأما الجهاد: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصرة دين الله وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتخنن وغرور، وهو دال على ضعف همة صاحبه ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: لمن تاب توبة نصوحاً ﴿رَحِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة حصل على كل خير في الدنيا والآخرة؛ بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقدارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخرأ، وهو الذي من بالسبب والمسبب.

﴿٢١٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ أي: يسألك - يا أيها الرسول - المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكانه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألوها عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهما منافعهما ومضارهما، ليكون ذلك مقدمة لتجريسهما وتحتيم تركهما.

فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء - أكبر مما يظنونه من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر وتخصيله بالقمار، والطرب للنفوس عند تعاطيهما، وكان هذا

الخمير أشهر معلومت فمن رخص فيه من الخمر فلا رخص ولا فسوق ولا إكسال في الخمر وما نفعوا من خير يعلمه الله وتسرؤوا فإني خير الزاوي التقوى وأنتمون يتأول الألبس ﴿٢١٩﴾ لئن عليكم جناح أن تسبوا فضلاء من دينكم فكأنما أفضت من عمرتي فاذكروا الله عند الشكر الحرا وأذكروه كما هدبكم وإن كنتم من قبلهم لن أنكرن ﴿٢٢٠﴾ ثم أفاض من حيث أفاض الثاني واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴿٢٢١﴾ فإذا قضيت منكم فاذكروا الله كذكركم ما أساءكم أو أشد ذكراً فإن الثاني من يقول ربك أنيسا في الدنيا والآخرة في الآخرة من خلق ومنهم من يقول ربك أنيسا في الدنيا والآخرة حسنة وفي الآخرة حسنة وفنا عذاب النار ﴿٢٢٢﴾ لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴿٢٢٣﴾

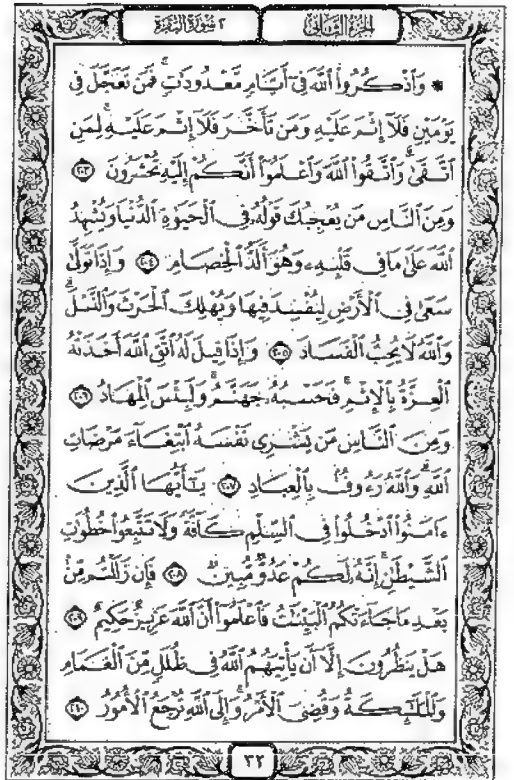
البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويحتجب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحنين بتركهما أول وهلة، قدم هذه الآية مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ إلى قوله: ﴿منتهم﴾ وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا.

فأما الخمر: فهو كل مستكر خامز العقل وغطاه، من أي نوع كان، وأما الميسر: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من التزد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية بعوض<sup>(١)</sup> سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام، فإنها مباحة لكونها معينة على الجهاد، فلهذا رخص فيها الشارع.

﴿٢٢٠ - ٢٢١﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم، فيسر الله لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو الميسر من أموالهم، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى

(١) زيادتان في ب بخط مغاير.





كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق قمرة.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم. ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفاً لنا [بما يشق] <sup>(١)</sup>، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا وإخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه، قال: ﴿كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات﴾ أي: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها، فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿٢٢٠﴾ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ

في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي خرج وأثم، و «الوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المأكول والمشرب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله [تعالى] وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا ف «لو شاء الله لأعنتكم» أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فخرجتم، وشق عليكم وأثمت، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له القوة الكاملة والقهر لكل شيء، ولكنه مع ذلك «حكيم» لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حكمته ورحمته.

﴿٢٢١﴾ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَئِمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ

حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ أي: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾؛ لأن المؤمنة ولو بلغت من الدفاعة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه.

ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجوز التزوج مع <sup>(١)</sup> أن فيه مصالح كثيرة فالمخالطة المجردة من بناب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ دليل على اعتبار التولي [في النكاح].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتخصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَيبين آياته﴾ أي: أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيرجب لهم ذلك التذكير لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامثال لما ضيعوه.





والنيات، ومنه سماعه لأقوال الخالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

﴿٢٢٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: «لا والله»، و «بلى والله»، وكحلفه على أمر ماض يظن صدق نفسه، وإنما المؤاخذه على ما قصده القلب.

وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

﴿والله غفورٌ﴾ لمن تاب إليه، ﴿حليمٌ﴾ بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر، وصفح مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

﴿٢٢٦-٢٢٧﴾ ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم. وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة، في أمر خاص، وهو حلف الزوج على ترك

وطء زوجته مطلقاً، أو مقيداً، بأقل من أربعة أشهر أو أكثر.

فمن آلى من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حث كفر، وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وليس لزوجه عليه سبيل، لأنه ملكه أربعة أشهر.

وإن كان أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة وهو الوطء، فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم.

ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ فاءُوا﴾ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الخلف بسبب رجوعهم. ﴿رَحِيمٌ﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضاً، حيث فاءوا إلى زوجاتهم وحنوا عليهن ورحمهن.

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ أي: امتنعوا من الفيئة، فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهن، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به.

﴿فإن الله سميع عليم﴾ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة، لقوله: ﴿مَنْ نَسَاهُمْ﴾ وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة، يجبر إما على الوطء، أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجباً.

﴿٢٢٨﴾ ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْنِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ

مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾ أي:

النساء الباتيات طلقهن أزواجهن ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ أي: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ثلاثة قُرُوءٍ﴾ أي: حيض، أو أطهار، على اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القرء الحيض، ولهذه العدة عدة حكم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة الأقراء، علم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يقضي إلى اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن ﴿ما خلق الله في أرحامهن﴾ وحرّم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يقضي إلى مفاسد كثيرة، فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له، رغبة فيه واستعجالاً لانقضاء العدة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصل من قطع الرحم والإرث واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه، وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة وهي الزنا، لكفى بذلك شراً.

وأما كتمان الحيض، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره، وما يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدة فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هي سحت عليها محرمة من جهتين.

من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبتها إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة، فيكون ذلك سفاحاً لكونها أجنبية عنه، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

يؤمن بالله واليوم الآخر﴾

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه<sup>(١)</sup>.

ثم قال تعالى: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحتهن ﴿إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي: رغبة وألفة ومودة.

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا الترتيب، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكرامته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعته، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع

إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لمثلها، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطيهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً.

﴿ولللرجال عليهن درجة﴾ أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾.

ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كالإيراث ونحوه.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدتهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات<sup>(٢)</sup> يدل على أن المراد بها الحرة.

﴿٢٢٩﴾ ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يَخافا ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يُطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارته طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن ﴿الطلاق﴾ أي: الذي تحصل به الرجعة ﴿مرتان﴾ ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الثنتين فيما متجرى على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بمعروف﴾ أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها ﴿بإحسان﴾ ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يَخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، ﴿فإن خفتن أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾، لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تلك﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حدود الله﴾ أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها، ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ وأي: ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟ والظلم ثلاثة أقسام:

ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

﴿٢٣٠ - ٢٣١﴾ ﴿فإن طلقها فلا

(١) في ب: ونحوهما.

(٢) في ب: الآية.

تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون \* وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمته الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم \* يقول تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي: نكاحاً صحيحاً ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.

ويشترط<sup>(١)</sup> أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني رغباً ووطئها ثم فارقها وانقضت عدتها ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أن يتراجعا﴾ أي: يجداً عقداً جديداً بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أن يقيما حدود الله﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عسرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبداها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من

الأمور، خصوصاً الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه<sup>(٢)</sup>، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم وإلا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي: شرائعه التي حددها وبينها ووضحها.

﴿يبينها لقوم يعلمون﴾ لأنهم هم المتفعون بها، النافعون لغيرهم.

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصاً بهم، وأهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ أي: طلاقاً رجعياً بواحدة أو

ثنتين.

﴿فبلغن أجلهن﴾ أي: قاربن انقضاء عدتهن.

﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي: إما أن تراجعوهن ونيتم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا

قال: ﴿ولا تمسكوهن ضرراً﴾ أي: مضارة بهن ﴿لتعتدوا﴾ في فعلكم هذا

الحلال، إلى الحرام؛ فالحلال: الإمساك بمعروف<sup>(٣)</sup>، والحرام: المضارة،

ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه. ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف

معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق

والجد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم

الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة

الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة، رفقا

به وسعياً في مصلحته.

﴿واذكروا نعمته الله عليكم﴾ عموماً، باللسان ثناءً وحمداً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله، ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعزفكم نفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يعظكم به﴾ أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو الترهيب، فالحكم به يزول الجهل. والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإتقان والإحكام، التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان [فله الحمد والمنة].

﴿٢٣٢﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن

أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف

ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ هذا

خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها،

أي: يمنعها من التزوج به حنقاً عليه وغضباً، واشتمزازاً لما فعل من الطلاق

الأول.

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من العضل، فإن ذلك أزكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن

(٣) في ب: بالمعروف.

(٢) في ب: أن ينظر.

(١) في ب: ويتعين.



الولي أن عدم تزويجه هو الرأي :  
واللائق، وأنه يقابل بطلاقه الأول بعدم  
التزويج له<sup>(١)</sup>، كما هو عادة المترفعين  
المتكبرين .

فإن كان يظن أن المصلحة في عدم  
تزويجه، فالله يعلم وأنتم  
لا تعلمون فامثلوا أمر من هو عالم  
بمصالحكم، مريد لها، قادر عليها،  
ميسر لها من الوجه الذي تعرفون  
وغيره .

وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد  
من الولي في النكاح، لأنه نهي الأولياء  
عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر  
هو تحت تدبيرهم ولهم فيه حق .

﴿٢٣٣﴾ ثم قال تعالى :  
﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين  
كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى  
المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا  
تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة  
بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث  
مثل ذلك فإن أراداً فصلاً عن تراض  
منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن  
أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح  
عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف  
واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون  
بصير﴾

هذا خبر بمعنى الأمر، تنزيلاً له  
منزلة المقرر الذي لا يحتاج إلى أمر بأن  
يرضعن أولادهن حولين .

ولما كان الحول يطلق على الكامل  
وعلى معظم الحول، قال : ﴿كاملين لمن  
أراد أن يتم الرضاعة﴾ فإذا تم للرضيع  
حولان فقد تم رضاعه، وضار اللبن  
بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية، فلهذا  
كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر  
لا يحرم .

ويؤخذ من هذا النص، ومن قوله  
تعالى : ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾  
أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأنه  
يمكن وجود الولد بها .  
﴿وعلى المولود له﴾ أي : الأب  
﴿رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ وهذا

شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة،  
فإن على الأب رزقها، أي : نفقتها  
وكسوتها، وهي الأجرة للرضاع .

ودل هذا على أنها إذا كانت في  
حباله، لا يجب لها أجرة غير النفقة  
والكسوة، وكل بحسب حاله، فلهذا  
قال : ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾  
فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني،  
ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد،  
﴿لا تضار والدة بولدها، ولا مولود له  
بولده﴾ أي : لا يحل أن تضار والدة  
بسبب ولدها، إما أن تمتنع من  
إرضاعه، أو لا تعطي ما يجب لها من  
النفقة والكسوة أو الأجرة، ﴿ولا  
مولود له بولده﴾ بأن تمتنع من إرضاعه  
على وجه المضارة له، أو تطلب زيادة  
عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع  
الضرر .

ودل قوله : ﴿مولود له﴾ أن الولد  
لأبيه، لأنه موهوب له، ولأنه من  
كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله  
رضي أو لم يرض، بخلاف الأم .  
وقوله : ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾  
أي : على وارث النطفة إذا عدم الأب  
وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على  
الأب من النفقة للمرضع والكسوة،  
فدل على وجوب نفقة الأقارب  
المعسرين على القريب الوارث الموتر،  
﴿فإن أراداً﴾ أي : الأبوان ﴿فصلاً﴾  
أي : فطام الصبي قبل الحولين، ﴿عن  
تراض منهما﴾ بأن يكونا راضيين  
﴿وتشاور﴾ فيما بينهما، هل هو  
مصلحة للصبي أم لا ؟ فإن كان مصلحة  
ورضيا ﴿فلا جناح عليهما﴾ في فطامه  
قبل الحولين . فدللت الآية بمفهومها  
على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر،  
أو لم يكن مصلحة للطفل، أنه لا يجوز  
فطامه .

وقوله : ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا  
أولادكم﴾ أي : تطلبوا لهم المراضع  
غير أمهاتهم على غير وجه المضارة،  
﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم  
بالمعروف﴾ أي : للمرضعات، ﴿والله

في الدنيا والآخرة ويشترونك عن البغي قل إصلاح لهم  
خير وإن غفلوا فهم يأخونكم والله يعلم المقصد من  
الضلع ولو شاء الله لأنتهزكم إن الله عزيز حكيم ﴿٢٣٤﴾  
ولا تشكوا للشركاء حتى يؤمن ولا لله مؤمنة خير  
من مشرك ولو أعجبكم ولا تشكوا للمشركين حتى  
يؤمنوا ولعدو مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك  
يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والنعمة بالآية ويبين  
آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴿٢٣٥﴾ وكتبوا عن  
الحبيص قل هو أذى فاعزوا النساء في الحبيص ولا تقرهن  
حتى يظهرن فإذا ظهرن فأقرهن من حيث أمركم  
الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴿٢٣٦﴾  
يسألكم حث لكر فأنوا أمركم أن لا تشركوا بالله  
لا تشركوا بالله وأنتوا الله وأعلموا أنكم ملقوه وتب  
الزومين ﴿٢٣٧﴾ ولا تجعلوا لله غرضاً لا تشكوا أن قدراً  
وتشتقوا وتصلحوا برك الناس والله سميع عليم ﴿٢٣٨﴾

بما تعملون بصير﴾ فمجازيكم على  
ذلك بالخير والشر .

﴿٢٣٤﴾ والذين يتوفون منكم  
ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة  
أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا  
جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن  
بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾ أي :  
إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة  
أربعة أشهر وعشرة أيام وجوياً،  
والحكمة في ذلك، ليتبين الحمل في  
مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في  
الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص  
بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل،  
وكذلك الأمة عدتها على النصف من  
عدة الحرة، شهران وخمسة أيام .

وقوله : ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي :  
انقضت عدتهن ﴿فلا جناح عليكم فيما  
فعلن في أنفسهن﴾ أي : من مراجعتها  
للزينة والطيب، ﴿بالمعروف﴾ أي :  
على وجه غير محرم ولا مكروه .

وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة  
على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها  
من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع  
عليه بين العلماء .

﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي : عالم  
بأعمالكم ظاهرها وباطنها، جليها  
وخبئها، فمجازيكم عليها .

وفي خطابه للأولياء بقوله : ﴿فلا

(١) في ب : بعدم تزويجه .



جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن ﴿٢٣٧﴾ دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.

﴿٢٣٨﴾ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلیم ﴿٢٣٩﴾ هذا حكم المعتدة من وفاة، أو المبانة في الحياة، فيحرم على غير مبينها أن يصرح لها في الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ وأما التعريض فقد أسقط تعالى فيه الجناح.

والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم خوفاً من استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحق زوجها الأول بعدم مواعدها لغيره مدة عدتها.

وأما التعريض، وهو الذي يحتمل

النكاح وغيره، فهو جائز للبائن، كأن يقول لها: إني أريد التزوج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس بمتزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي إليه.

وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أو أكننتم في أنفسكم، علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد.

وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أي: تنقضي العدة.

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ أي: فانووا الخير ولا تنووا الشر، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.

﴿واعلموا أن الله غفور﴾ لمن صدرت منه الذنوب فتاب منها، ورجع إلى ربه ﴿حلیم﴾ حيث لم يعاجل العصاة على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

﴿٢٣٦﴾ ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفضوا لهن فريضة وتمتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ أي: ليس عليكم يا معشر الأزواج جناح وإثم بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها، فإنه ينجر بالمتعة، فعليكم أن تمتعوهن بأن تعطوهن شيئاً من المال، جبراً لحواطرهن: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر﴾ أي: المعسر ﴿قدره﴾.

وهذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿متاعاً بالمعروف﴾ فهذا حق واجب على المحسنين ليس لهم أن يبخسوهن.

فكما تسببوا لتشفوهن واشتياقهن وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن

فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة. فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارع ورحته!! ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون!!، فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر.

ثم ذكر حكم المفروض لهن، فقال:

﴿٢٣٧﴾ ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه.

هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن يعفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها، ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ وهو الزوج على الصحيح<sup>(١)</sup>، لأنه الذي بيده حل عقدته؛ ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل.

ثم رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحصاناً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحصان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملته الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة أو مخالطة، فإن الله يحاز المحسنين بالفضل

(١) جاء في هامش ما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، هو الأصح لمساعدة اللفظ له والمعنى كما هو ظاهر للمتدبر).

وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة).

﴿٢٤٠﴾ ﴿والذين يتوفون منكم﴾

﴿۲۳۸-۲۳۹﴾ ﴿حافظوا علی﴾

مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك  
وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة  
بما قبلها وهي قوله: ﴿والذين يتوفون  
منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن  
أربعة أشهر وعشراً﴾ وقيل لم تنسخها  
بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر  
وعشر واجبة، وما زاد على ذلك فهي  
مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق  
الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على  
أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح  
عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل  
الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً لم  
ينف الحرج عنهم.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ﴾

(١) من هنا بدأ الاختلاف بين النسختين،

ملحق في آخر التفسير.

الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي: حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم قال تعالى:

﴿٢٤٣ - ٢٤٥﴾ ﴿ألم تر إلى الذين﴾

خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** \* وقالوا في سبيل الله وإعلموا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون \* يقص تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم على كفرتهم واتفقوا مقاصدهم ، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره ، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت ، ولكن لا يعني حذر عن قدر ، **فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ مَوْتُوا** \* فماتوا **ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى** \* **أَحْيَاهُمْ** \* إما بدعوة نبي أو بغير ذلك ، رحمة بهم ولطفها وحلماً ، وبياناً لآياته لخلقهم بإحياء الموتى ، ولهذا قال : **إِنَّ اللَّهَ**



لذو فضل ﴿أي: عظيم﴾ على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظننتم أن في القعود حياتكم وبقاءكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل أتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالتفقه وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرضاً فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ فينفق ما تيسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصاً في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى، ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾. الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المتفق ونيته ونفع نفقته والحاجة

اليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذه الوهم بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عن من يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلماذا قال ﴿والله يرجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي تترك بها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى أعياناً في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحثية عليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط والله يرجعون.

﴿٢٤٦ - ٢٤٨﴾ ﴿ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ يقص تعالى على نبيه قصة الملاء من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملاء بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام

فقالوا له ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلمهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تنسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة قال لهم نبيهم ﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أي: لعنكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذراريها، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقو توكلمهم على ربهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ فجنوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستول على أكثرهم الخور والجن ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فجازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلماذا قال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وقال لهم نبيهم ﴿مجيئاً لطلبتهن﴾ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فكان هذا تعييناً من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وترك الاعتراض، ولكن أبرأ إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه. ومع هذا فهو



فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فهذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وَزَادَهُ اللَّهُ بِسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي: والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي: المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالماً بالأمر وليس له قوة على تنفيذها لم يفذه الرأي: الذي لا ينفذه شيئاً ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحداً عن أحد، ولا شريفاً عن وضيع، ولكنه مع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتیه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضاً آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زماناً طويلاً وفي ذلك التابوت سكنة تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم، وفيه بقية بما ترك آل موسى وآل هارون، فأثبت به الملائكة حامله لهم وهم يرونه عياناً.

﴿٢٤٩-٢٥٢﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ

طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع

الصابرين \* ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين \* فهزمموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين \* تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين \* أي: لما تمكك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عدداً كثيراً وجهاً غفيراً، امتحنهم بأمر الله ليتبين الثابت المطمئن من ليس كذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فهو عاصي ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته ولعصيته ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: لم يشرب منه فإنه مني ﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن قتال عدوهم وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتناول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلاً على الله، وتضرعاً واستكانة وتبرؤاً من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقتلهم وكثرة عدوهم، فلماذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ﴾ أي: طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فرأوا... قتلهم وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لكثرتهم وعددهم وعُددهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقَا اللَّهِ﴾ أي: يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم، وأمرين

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَطَّلَوْنَهَا وَرُمُْوا أَلِفَاتٍ قَلِيلَةً ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْسَأَ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَتَّبِعُونَ ۖ وَالَّذِينَ يَبُوءُونَ بِوَعَدِهِمْ يَنْصَرُّونَ ۖ وَأَنْزَلْنَا وَصِيَّةً لَّأَدْرَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْيَوْمِ عِذْرًا إِخْرَاجَ ۖ فَإِنْ خَرَجْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْتَبِهْتُمْ مِنْ تَعْرِيفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۖ وَالْمُطَلَقَاتُ مَتَّعْنَ بِالْعُرُوفِ حَقًّا عَلَى الْقَيْدِ ۖ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۖ ۝ الرَّاغِبِينَ إِلَى الدِّينِ حُرِّمُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَنْزَلْنَا حُدُودَ الْوَيْتِ فَقَالَ اللَّهُ مُؤَيَّدًا لِحُجَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۖ وَيُنَادِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرُغُ اللَّهُ فَرَسًا حَكِيمًا فَضْلُهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَبَيِّنُ وَيُضَيِّقُ وَيُضَيِّقُ وَيُضَيِّقُ وَيُضَيِّقُ ۖ

لهم بالصبر ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ أي: بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى، والعزير من أعزه الله، والدليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قالوا﴾ جميعهم ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرنا على القوم الكافرين: من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفاراً، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم ﴿فهزمموهم بإذن الله﴾ وقتل داود عليه السلام، وكان مع جنود طالوت، ﴿جالوت﴾ أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره ﴿وآتاه الله﴾ أي: أتى الله داود ﴿الملك والحكمة﴾ أي: من عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصرط المستقيم، ولهذا قال ﴿وعلمه ما يشاء﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك



أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ قَالُوا  
 لِنَبِيِّهِمْ إِنَّهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ لَنَفْسٍ تُجَادِلُنَا فِسْقًا ۖ قَالَ  
 هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ كَفِيبًا أَنْ تُبْعَثُوا ۖ قَالُوا  
 قَالُوا وَمَا نَا الْآفَتِينَ ۖ قَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا  
 مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمُ الْغِنَاءُ ۖ قَالُوا  
 إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ  
 لَهُمْ رَبُّهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُلْكًا لَكُمْ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ  
 قَالُوا أَنْ يَكُونَ لَكَ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ  
 مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَطَهُ  
 عَلَيْهِمْ ۖ وَرَأَاهُ سَطَطَةً ۖ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ  
 يُؤْتِي مَلَكًا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾  
 وَقَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ إِنْ بَرَأَيْتُمْ لِي آيَةً فَلْيَكُونَنَّ مِنْكُمْ  
 آفَتَاتٌ فِيهِ ۖ سَيَكُونُ مِنْ رَبِّكُمْ وَيَبْعَثُ  
 سَارَكَ ۖ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ  
 إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾

لغيرهم ، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض ، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله ، فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلهذا قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ أي : لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى ، وإظهار دينه ﴿ ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكتهم من الأرض بأسباب يعلمونها ، وأسباب لا يعلمونها ، ثم قال تعالى ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ أي : بالصدق الذي لا ريب فيها المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفة والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور ، فدل أنه رسول الله حقاً ونبيه صادقاً الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والخل والعقد وبحشهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجعوا بينهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن الحق كلما عورض وأوردت عليه شبه ازداد وضوحاً وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجيوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال شبه والريب. ومنها: أن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، ويفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها. ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ فكانه نتيجة ذلك أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ فهزموهم بإذن الله . ومنها: أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز. ومنها: أن من رحمته وسنته الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٣﴾ ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو

شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴿١﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيجائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السليمة النفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿٢﴾ وآتيناه عيسى ابن مريم البينات ﴿٣﴾ الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿٤﴾ وأيدناه بروح القدس ﴿٥﴾ أي بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿٦﴾ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ﴿٧﴾ المرجحة للاجتماع على الإيمان ﴿٨﴾ ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴿٩﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله يعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال ﴿١٠﴾ ولكن الله يفعل ما يريد ﴿١١﴾ فأرادته غالبية ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والتزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية، فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل

القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وغيوب مزريية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحية، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَّةٍ وَلَا شَفَاعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٥﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ أَنْ أَمَرَهُمْ بِتَقْدِيمِ شَيْءٍ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، مِنْ صَدَقَةٍ وَاجِبَةٍ وَمُسْتَحَبَةٍ، لِيَكُونَ لَهُمْ ذَخْرًا وَأَجْرًا مَوْفِرًا فِي يَوْمٍ يَحْتَاجُ فِيهِ الْعَامِلُونَ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ، فَلَا بَيْعَ فِيهِ وَلَوْ افْتَدَى الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَيَفْتَدِي بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُ، وَلَمْ يَنْفَعِهِ خَلِيلٌ وَلَا صَدِيقٌ لَا بِوَجَاهَةٍ وَلَا بِشَفَاعَةٍ، وَهُوَ الْيَوْمَ الَّذِي فِيهِ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَيَحْصُلُ الْخِزْيُ عَلَى الظَّالِمِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَتَرَكُوا الْوَاجِبَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ عِبَادِهِ وَتَعَدُّوا الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ، وَأَعْظَمَ أَنْوَاعَ الظُّلْمِ الْكُفْرُ بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ وَضَعَ الْعِبَادَةَ الَّتِي يَتَعَيَّنُ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ فَيَصْرِفُهَا الْكَافِرُ إِلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ الْحَصْرِ، أَيُّ: الَّذِينَ ثَبَتَ لَهُمُ الظُّلْمُ التَّامُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿٢٥٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٦﴾ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَعْظَمُ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَأَفْضَلُهَا وَأَجْلُهَا، وَذَلِكَ لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ وَالصِّفَاتِ الْكَرِيمَةِ، فَلِهَذَا كَثُرَتْ الْأَحَادِيثُ فِي التَّرْغِيبِ فِي قِرَائَتِهَا وَجَعَلَهَا وَرْدًا لِلْإِنْسَانِ فِي أَوْقَاتِهِ صَبَاحًا وَمَسَاءً وَعِنْدَ نَوْمِهِ وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ: لَا مَعْبُودٌ بِحَقِّ سِوَاهُ، فَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي تَتَعَيَّنُ أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ وَالتَّأَلُّهِ لَهُ تَعَالَى، لِكَمَالِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ وَعَظِيمِ نَعَمِهِ، وَلِكُونَ الْعَبْدِ مُسْتَحَقًّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِرَبِّهِ، مِمَّا تَشْتَلُّ أَوَامِرُهُ مَجْتَنِبًا نَوَاهِيَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى بَاطِلٌ، فَعِبَادَةُ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ، لِكُونَ مَا سِوَى اللَّهِ مَخْلُوقًا نَاقِصًا مُدْبِرًا فَقِيرًا مِنْ جَمِيعِ الرُّجُوعِ، فَلَمْ يَسْتَحِقْ شَيْئًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هَذَا مِنَ الْأَسْمَاءِ الْكَرِيمَةِ يَدُلُّ عَلَى سَائِرِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى دَلَالَةً مُطَابِقَةً وَتَضْمِينًا وَلِزُومًا، فَالْحَيُّ مَنْ لَهُ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ الْمُسْتَلْزِمَةُ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الذَّاتِ، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْقَيُّومُ: هُوَ الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ وَقَامَ بِغَيْرِهِ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِجَمِيعِ الْأَفْعَالِ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ فَعْلِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَسْتَوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْإِحْيَاءِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ: إِنَّهُمَا الْأَسْمَاءُ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ اللَّهُ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَمِنْ تَمَامِ حَيَاتِهِ وَقَيُومِيَّتِهِ أَنَّهُ ﴿لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وَالسَّنَةُ النَّعَاسُ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمَالِكُ وَمَا سِوَاهُ مَمْلُوكٌ وَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ وَغَيْرُهُ مَخْلُوقٌ مَرْزُوقٌ مُدَبَّرٌ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أَيُّ: لَا أَحَدٌ يَشْفَعُ عِنْدَهُ بَدُونِ إِذْنِهِ،

فَالشَّفَاعَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْحِمَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَوْ أَنْ يَكْرِمَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ، لَا يَسْتَدِيءُ الشَّفَاعَةَ قَبْلَ الْإِذْنِ، ثُمَّ قَالَ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ: مَا مَضَى مِنْ جَمِيعِ الْأُمُورِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَيُّ: مَا يَسْتَقْبِلُ مِنْهَا، فَعَلِمَهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِتَفَاصِيلِ الْأُمُورِ، مُتَقَدِّمٌ وَمُتَأَخِّرٌ، بِالظُّوْهِرِ وَالْبُيُوتِ، بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَالْعِبَادِ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَلَا مِنَ الْعِلْمِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ إِلَّا مَا عَلِمَهُمْ تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَسِعَةِ سُلْطَانِهِ، إِذَا كَانَ هَذِهِ حَالَةُ الْكَرْسِيِّ أَنَّهُ يَسِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ عَلَى عَظَمَتِهِمَا وَعَظْمَةٍ مِنْ فِيهِمَا، وَالْكَرْسِيُّ لَيْسَ أَكْبَرَ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ هُنَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ وَهُوَ الْعَرْشُ، وَمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، وَفِي عَظْمَةِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ تَحْيِيرُ الْأَفْكَارِ وَتَكْلُّ الْأَبْصَارِ، وَتَقْلُقُ الْجِبَالِ وَتَكْثُرُ عَنْهَا فَحُولُ الرِّجَالِ، فَكَيْفَ بِعَظْمَةِ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا، وَالَّذِي أَوْدَعَ فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْأَسْرَارِ مَا أَوْدَعَ، وَالَّذِي قَدْ أَمْسَكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ أَيُّ: يَثْقُلُهُ ﴿حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بِذَاتِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ، الْعَلِيُّ بِقَهْرِهِ لَجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْعَلِيُّ بِقُدْرَتِهِ لِكَمَالِ صِفَاتِهِ ﴿الْعَظِيمُ﴾ الَّذِي تَتَضَائَلُ عِنْدَ عَظَمَتِهِ جَبَرُوتُ الْجَبَابِرَةِ، وَتَضَعُ فِي جَانِبِ جَلَالِهِ أَنْوُفُ الْمُلُوكِ الْقَاهِرَةِ، فَسَبِّحَانَ مَنْ لَهُ الْعَظْمَةُ الْعَظِيمَةُ وَالْكَبَرِيَاءُ الْجَسِيمَةُ وَالْقَهْرُ وَالْغَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَقَدْ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَعَلَى إِحَاطَةِ مُلْكِهِ وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَسِعَةِ سُلْطَانِهِ وَجَلَالِهِ وَمَجْدِهِ، وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَعِلْوِهِ عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَهَذِهِ الْآيَةُ بِمَقَرِّهَا عَقِيدَةُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، مُتَضَمِّنَةٌ لِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿٢٥٦-٢٥٧﴾ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبين أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالوفق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس له حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المخاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وأمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم ﴿والله سميع عليم﴾ فيجازي كلا

منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يغون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد اتخذوه حبيباً وولياً، ووالوا أولياءه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليةً ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤذونهم إلى المعاصي أژاً، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الخسرة، فلهذا قال تعالى: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

﴿٢٥٨﴾ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿يقول تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي: إلى جرائته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حمله على ذلك إلا ﴿أن آتاه الله الملك﴾ فطغى وبغى ورأى نفسه مترئساً على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بأنواع التصرف،

وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويستحيي شخصاً فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة، اطرده معه في الدليل فقال إبراهيم ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ أي: عياناً يقربه كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فأت بها من المغرب﴾ وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحاً يقدر في سبيله ﴿بهت الذي كفر﴾ أي: تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة الميطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بل يبيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه وسرلهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقيور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على

صورته، ويعبد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للبحر هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتتقاد لأمره ومشيتها، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله: «من مفتاح دار السعادة»، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٩﴾ «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» وهذا أيضاً دليل آخر على توحيد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها» أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجباً و«قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها» استبعاداً لذلك وجهلاً بقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي حمارة، وكان معه طعام وشراب، «فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم» استقصاراً لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وخواسه وكان عهد حاله قبل موته، فقليل له «بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه» أي: لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً «وانظر إلى حمارك» وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتثرت عظامه، وتفرقت أوصاله «ولنجعلك آية

للناس» على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجاً محسوساً مشاهداً بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل «وانظر إلى العظام كيف ننشزها» أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض «ثم نكسوها لحماً» فنظر إليها عياناً كما وصفها الله تعالى، فلما تبين له ذلك وعلم قدرة الله تعالى «قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيراً، وأن يجعله آية ودليلاً للناس لثلاثة أوجه أحدها قوله «أنى يحيي هذه الله بعد موتها» ولو كان نبياً أو عبداً صالحاً لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حمارة وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث في قوله: «فلما تبين له» أي: تبين له أمر كان يحمله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿٢٦٠﴾ «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم» وهذا فيه أيضاً أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأل أن يريه بنصره كيف يحيي الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عياناً ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلماذا قال الله له «أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» وذلك أنه

فلما فصل طائفت من الجن قال إن الله متممكم  
بهرق من شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه  
منى إلا من أغرف غرقه يسقيه فشر يوايه إلا قليلاً  
منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا  
لأطاعة لنا اليوم بحالوت وجنودهم قال الذين  
يطئرون أنهم ملقوا الله كم من فئة قليلة  
غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين  
﴿٢٦١﴾ ولكتاب زواجر آل لوط وجنودهم قالوا زنا  
أفريح علينا صبراً وثبت أقدامنا وأنصرتنا  
على القوة الكافرين ﴿٢٦٢﴾ فصرهم يدي  
الله وقيل داود جالوت وإني لله الملتزم  
والجحمة وعلم من أتتكم ولو لا دفع  
الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن  
الله ذو فضل على العالمين ﴿٢٦٣﴾ ذلك ما أتتكم الله  
تألوها عليكم بالحق وإني لكم المرسلين ﴿٢٦٤﴾

بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيته أولوا العرفان، فقال له ربه «فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك» أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك. «ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً» أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء «ثم ادعهن يأتينك سعياً» أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين» ثم قال: «واعلم أن الله عزيز حكيم» أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي متقادة لعزته خاضعة لحلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئاً عبثاً، ثم قال تعالى:

﴿٢٦١﴾ «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في





قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ وهنا قال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاهما إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كمثل حبة أُنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شهادته بالإيمان مع شاهد العيان، فتتقاد النفس مذعنة للإنفاق ساعحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمئة الجليلة، ﴿والله يضاعف﴾ هذه المضاعفة ﴿لمن يشاء﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها وموقعها، ويحتمل أن يكون ﴿والله يضاعف﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لمن يشاء﴾ فيعطيه أجرهم بغير حساب ﴿والله واسع﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاضد شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عليم﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته. ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم

أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه ويطلب منه مقابله، ولا أذى له قولية أو فعلية، فهو لاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندمع عنهم الشر لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالماً من المفسدات ﴿قول معروف﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿ومغفرة﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل عما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضاً بترك المؤاخذه، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنه لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمن عليه، والذل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، ﴿والله غني﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿عليم﴾ على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم

تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيدهم المثالات أنزل بهم عقابه وحرّمهم جزيل ثوابه.

﴿٢٦٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ينهى عباده تعالى لطفاً بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى ففيه أن المن والأذى يبطل السيئة تبطل الأعمال على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قبلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سدى، وقوله: ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنه والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمزاةة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور، فمثله المطابق لحالة ﴿كمثل صفوان﴾ وهو الحجر الأملس الشديد عليه تراب فأصابه وابل﴾ أي: مطر غزير ﴿فتركه صلداً﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرئي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح



لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهذا لا يقدرون على شيء من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً وأنصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

﴿٢٦٥﴾ ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْتَفِقُونَ﴾  
أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من  
أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل  
فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل  
فطل والله بما تعملون بصير ﴿هذا مثل  
المنتفقين أموالهم على وجه تزكو عليه  
نفعاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى :  
﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْتَفِقُونَ أموالهم ابتغاء  
مرضاة الله﴾ أي : قصدهم بذلك رضى  
ربهم والفوز بقرية ﴿وتثبيتاً من  
أنفسهم﴾ أي : صدر الإنفاق على وجه  
منشرجة له النفس سخية به ، لا على  
وجه التردد وضعف النفس في  
إخراجها وذلك أن النفقة يعرض لها  
أفتان إما أن يقصد الإنسان بها عمدة  
الناس ومدحهم وهو الرياء ، أو يخرجها  
على خور وضعف عزيمة وتردد ،  
فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا  
ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من  
المقاصد ، وتثبيتاً من أنفسهم ، فمثل  
نفقة هؤلاء ﴿كمثل جنة﴾ أي : كثيرة  
الأشجار غزيرة الظلال ، من الاجتنان  
وهو الستر ، لستر أشجارها ما فيها ،  
وهذه الجنة ﴿بربوة﴾ أي : محل مرتفع  
ضاح للشمس في أول النهار ووسطه  
وآخره ، فثمارة أكثر الثمار وأحسنها ،  
ليست يمحل نازل عن الرياح  
والشمس ، ف ﴿أصابها﴾ أي : تلك  
الجنة التي بربوة ﴿وابل﴾ وهو المطر  
الغزير ﴿فأتت أكلها ضعفين﴾ أي :  
تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود  
الأسباب الموجبة لذلك ، وحصول الماء  
الكثير الذي ينميها ويكملها ﴿فإن لم

يصبها وابل فطل\* أي: مطر قليل يكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمي له ما أنفق أتم تنمية وأكملها والمتمني لها هو الذي أرحم بك من نفسك. الذي يريد مصلحةك حيث لا تريدها، فيالله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتا وشدة نصيبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرجات، ومع هذا تجرد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهداً في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو يقن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء الثوابات، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى:

﴿٢٦٦﴾ ﴿أَيُّودُ أَخَذَكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ  
جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ  
الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ  
فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ  
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا المثل  
مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى  
من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالاً  
تُفْسِدُهُ، فمثله كمثل صاحب هذا  
البستان الذي فيه من كل الثمرات،  
وخص منها النخل والعنب لفضلهما  
وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتاً  
وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها<sup>(١)</sup>  
الأنهار الجارية التي تسقيها من غير  
مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها  
وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن

اللَّهُ وَلِيَ الْدِّينِ ؕ آمَنُوا بِحُجَّتِهِمْ مِنْ الطَّلَافِ إِلَى التَّوْبِ  
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْكَبَ أَهْلَهُمُ الطَّلَافُ حُجَّتَهُمْ مِنْ  
 التَّوْبِ إِلَى الطَّلَافِ أَوْ تَكَبَّرَ أَهْلُهَا  
 خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاتَمُوا بِرِجْلَيْ زَيْدٍ  
 أَنْ أَمَنَهُ اللَّهُ أَتْلُكَ إِذْ قَالَ لِلْزَيْدِ رَبِّكَ الَّذِي يُبْعِي  
 وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَنْعِي ؕ وَأَمِيتُ قَالَ لِلْزَيْدِ رَبِّكَ اللَّهُ بَأَنِّي  
 بِالسَّمْسِ مِنَ الشَّرْقِ قَاتِلٌ بِهَا مِنَ الْعَرْبِ فَمِيتَ إِلَى  
 كَفَرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي  
 مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَبَنَى حَائِطًا عَلَى مَرْشَاهَا قَالَ أَنَّى يُبْعِي  
 هَذِهِ اللَّهُ يُعَذِّبُهَا فَأَمَّاكَ اللَّهُ مَاءَهُ عَابِرٌ ثُمَّ عَبَسَ  
 قَالَ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ  
 لَيْتَ مَاءَهُ عَابِرٌ فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ أَمْ  
 بِسَخْنَةٍ وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَاكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ  
 وَأَنْظِرْ إِلَى الْعُطَاكَ كَيْفَ نَبِّئُهُمْ بِمَا تَكْسِبُهَا خِيَامًا  
 فَلَمَّا تَبَيَّنَ قَالَ لَمْ أَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٩﴾

العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كل عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة، فينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبير من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملاً لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثوراً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

والله سريع الحساب فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية خسرتة ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيماً وخطره جسيماً، فلهذا أمر تعالى

الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً وأي: خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصالة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفضلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

﴿٢٧٠﴾ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ وهذا فيه المجازاة على النفقات، واجبتها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف ما أوجبه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق

هذا غاية الغش ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يعيدكم مغفرة﴾ لذنوبكم وتطهيراً لعيوبكم ﴿وفضلاً﴾ وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانسراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه لأنه ﴿واسع﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عليم﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فلينظر العبد نفسه إلى أي: الداعين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب المرجوة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من النقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله ﴿أخرجنا لكم﴾ فمن أخرجت له وجبت عليه ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربحها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدوراً عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهى عن إخراجه ولا يجزىء في الزكاة ثم قال تعالى:

﴿٢٦٩﴾ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن من عليه وآتاه الله

وَأَذَانٌ لَكَ وَلَمْ يَكُنْ لِيُطْمَئِنِّ قَلْبِي قَالَ فَخَذَارِيعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَرَأَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَلْبَسَتْ سَبْعَ سَائِلٍ فِي كُلِّ سَائِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٩﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ مَا أَنْفَقُوا مَآ أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٠﴾ قَوْلٌ مُعْتَرِفٌ وَمُفْعَلٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧١﴾ يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَطْلُوهَا صَدَقَاتُكُمْ يَأْتُنَّ وَالَّذِي كُنَّا الَّذِي يُفِي مَا لَهُ مِنْ نِعْمَةٍ النَّاسِ وَلَا يُؤْتُونَ اللَّهَ وَآلِيَهُ الْيَوْمَ الْقَائِلَ كُلُّ مَسْكِينٍ عَلَيْهِ رَبُّهُ فَاصْبِرْ وَلَا تَكْفُرْ كُفُّوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ أَنْ تَنظُرُوا فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي نَقَضْنَا كَيْفَ يَكْفُرُونَ وَالَّذِينَ لَا يَهْدِي الْقَوْمُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧٢﴾

بالتفكر وحث عليه، فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يُعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض فكما من عليكم بتسهيل تحصيله فانفقوا منه شكراً لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمساعدة ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحاً لكم، بل

العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من  
الخلق ولم ينصره، فلماذا قال: ﴿وما  
للظالمين من أنصار﴾.

﴿٢٧١﴾ ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ﴾  
فنعمما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴿أَي: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ﴾ فظهروها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله ﴿فَنِعْمَا هِيَ﴾ أَي: فنعمة الشيء ﴿هِيَ﴾ لحصول المقصود بها ﴿وإن تخفوها﴾ أَي: تسروها ﴿وتؤتوها﴾ الفقراء فهو خير لكم ﴿ففي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات للفقراء فمفهوم الآية أن السر ليس خيراً من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الأسرار، ودل قوله: ﴿وتؤتوها الفقراء﴾ على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجاً وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدق ويتضمن ذلك حصول الثواب قال: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ ففيه دفع العقاب ﴿والله بما تعملون خبير﴾ من خير وشر، قليل وكثير والمقصود من ذلك المجازاة.

﴿٢٧٢ - ٢٧٤﴾ ﴿ليس عليك  
هذاهم ولكن الله يهدي من يشاء وما  
تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون  
إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير  
يوف إليكم وأنتم لا تظلمون \*  
للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله  
لا يستطيعون ضرباً في الأرض  
يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف  
تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس  
إحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به  
عليم \* الذين ينفقون أموالهم بالليل  
والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند  
ربهم ولا خوف عليهم ولا هم

يخزنون ﴿ يقول تعالى لنبيه ﷺ ليس عليك هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين، والهداية بيد الله تعالى، ففيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهتد، فلهذا قال: ﴿وما تنفقوا من خير﴾ أي: قليل أو كثير على أي: شخص كان من مسلم وكافر ﴿فلأنفسكم﴾ أي: نفعه راجع إليكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي: تنقصون من أعمالكم شيئاً ولا مثقال ذرة، كما لا يزداد في سيئاتكم، ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها فوصفهم بست صفات أحدها الفقر، والثاني قوله: ﴿أحصروا في سبيل الله﴾ أي: قصروها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبسون له، الثالث عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي: سافراً للتكسب، الرابع قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم. الخامس: أنه قال: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا ينافي قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء﴾ فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرس بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرس فمجرد ما يراهم<sup>(١)</sup> يعرفهم بعلامتهم، السادس قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلجأوا على من سألوا، فهو لاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جميل الصفات، وأما النفقة من حيث هي على أي: شخص

وَمَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَتَفَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ  
وَيُزَكِّيَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصْبَاهَا وَابِلٌ  
فَاقَتْ أَكْطَافَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ اللَّهُ  
بِمَا تَسْلَوْنَ بِهِمْ ۝ أَوَدَّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ  
جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْشَابُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ  
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفُهُ  
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ  
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ يَأَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِنْ طَبْعِ مَا كَسَبْتُمْ وَمَا أَخْرَجْنَا  
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ  
وَلَسْتُمْ بِتَائِيْدِهِ إِلَّا أَنْ تُخْضَرُوا فِيهِ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ  
عَزِيزٌ ۝ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ  
وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنِّهِ وَضُلَّالَةً وَسِعَ عَلَيْهِمْ  
۝ يَوْنَىٰ الْحِكْمَةُ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ بَنَاتِ الْحِكْمَةِ  
فَقَدْ أَوْنَىٰ حَبْرًا كَبِيرًا وَمَا ذِكْرُ الْأَوْنِ إِلَّا ۝

كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر، فلهذا قال: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طاعته وطريق مرضاته، لافي المحرمات والمكروهات وشهوات أنفسهم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فلهم أجرهم عند ربهم ﴿أَيُّ: أَجْرٍ عَظِيمٍ مِنْ خَيْرٍ عِنْدَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ﴾ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف المقصرون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزن المفرطون، ففازوا بحصول المقصود المطلوب، ونجوا من الشرور والهروب، ولما كمل تعالى حالة المحسنين إلى عباده بأنواع النفقات ذكر حالة الظالمين المسيئين إليهم غاية الإساءة فقال:

﴿٢٧٥ - ٢٨١﴾ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ  
الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي  
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ  
وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ  
فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ  
عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ ﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي  
الصَّالِحَاتِ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ كِفَافٍ  
أَثِيمٍ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا





الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازية على الصغير والكبير والجلي والخفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

﴿٢٨٢﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴿هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث أنه لا بد للمسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوباً وإما استحباباً لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس أن يكون عدلاً في نفسه لأجل

اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقربة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر قوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملئ من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجب ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حقاً من الحقوق التي البينة<sup>(١)</sup> على مقدارها وصفته من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئاً من مقداره، أو طيه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من تبابعة ولواحقه، السابع عشر أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَوْمَ الَّذِي  
يَسْجُطُهُ السَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّا الْبَائِعُونَ  
رِبَا الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ  
مِّن رَّبِّهِ فَاسْتَمَاعًا فَلْيَمْسِكْ بِهَا وَرَأَى نَارَ اللَّهِ وَكَانَ فِي يَمِينِهِ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨٣﴾ يَمْحُو اللَّهُ الرَّيْبَ  
وَيَبْقِي الصِّدْقَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي قَوْمًا كَافَرًا ﴿٢٨٤﴾ إِنَّا  
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا  
الزَّكَاةَ لَمْ نُجْزِمْ عَذَابَهُمْ وَلَا نُخَوِّفْ عَلَيْهِمْ وَلَا  
هُمْ يُخَوِّفُونَ ﴿٢٨٥﴾ يَتْلُوهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَذُّرُ  
مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨٦﴾ وَإِن لَّفَعَلُوا  
فَأَذْنُوبًا يَحْيِي مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبَسِّرْ لَهُمْ رَسُولُ  
أَمْرًا لَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٧﴾ وَإِنْ كَانَ دُونَ  
عُسْرٍ قِطْرَةٍ إِلَى مَيْسِرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا لَكُمْ إِن  
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٨﴾ وَالْقَوَا أَرْبُوعٌ فِيهِ إِلَى  
اللَّهِ تُرَدُّ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٩﴾

يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله ﴿بالعدل﴾ التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت السولية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدائنون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل، وأقرب ما يكون أنها على ما أثبت والله أعلم.



الرابع والأربعون والخامس والأربعون: السادس والأربعون أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ السابع والأربعون أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تشجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: ﴿فإنه فسوق بكم﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. الشامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿من ترضون من الشهداء﴾. التاسع والأربعون أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكيم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

﴿٢٨٣﴾ ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ أي: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتباً يكتب بينكم ويحصل به التوثيق ﴿فرهان مقبوضة﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثيق، ودل أيضاً على أن الزامن والمرتهن لوراختلفا في قدر ما رهنه به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضاً عن الكتابة في توثيق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنه به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثيق جاز حضراً أو سفراً، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة

شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا﴾ السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السأمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشبه وشك في شهادته لم يجوز له الإقدام عليها بل لابد من اليقين، الأربعون: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرة بإحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: ﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾ الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَا يَشْرُونَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتَبُوا وَلْيَكُتَبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتَبْ وَلِيُمْلَلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلَلْ بِالْأَعْدِلِ وَأَسْأَلُ شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمَا فَمَنْ حُكِمَ بِمَا اشْتَرَا إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَحْشَرُوا أَنْ تَكُونُوا ضَعِيفاً أَوْ كَافِرِينَ إِلَى أَجَلِكُمْ ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْنَكُمْ حَاضِرَةٌ يَذَرُوكَ بَيْنَكُمْ فَلْيَسْ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا مَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَاذْكُرُوا فُسُوقَ بَعْضِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَكُونُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً

المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الشامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿فاستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكوراً كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان

﴿٢٨٥﴾ ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلا، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله ﴿وقالوا سمعنا﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا ﴿وأطعنا﴾ لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا ﴿غفرانك﴾ أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب ﴿وإليك المصير﴾ أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزئهم بما عملوا من خير وشر.

﴿٢٨٦﴾ ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا سَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا كَتَبَتْ رَبُّنَا لَا تُؤَاخِذُنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبُّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلُنَا رَبُّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِنْ تَبَيَّنُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ بِحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَمَّا تَوَهَّمُوا أَنَّ مَا يَقَعُ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْأُمُورِ الْإِزْمَةِ وَالْعَارِضَةِ الْمُسْتَقْرَّةِ وَغَيْرِهَا

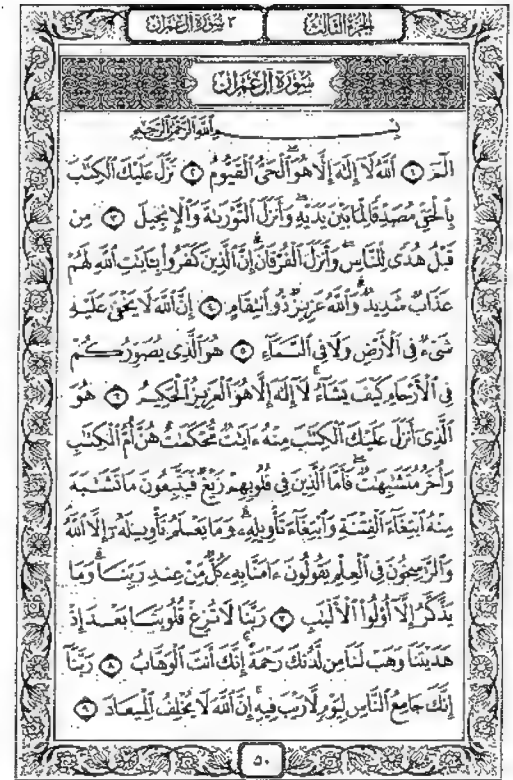
مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي: أمراً تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فأصل الأمر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعداء التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغيره، وفي الإتيان بـ «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمل به ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسل والمؤمنين، معه وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطيق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ

ربنا ومليكننا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فتعمك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتخذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصلى الله على محمد وسلم.

### تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة التصاري وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

﴿١-٦﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الم \* الله لا إله إلا هو الحي القيوم \* نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل \* من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام \* إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء \* هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم \* افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بالوحيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام \* القيوم \* الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره



أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغصوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه معفو عنه، وكذلك لا يحث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فاتلف نفساً أو مالا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ أي: تكاليف مشقة \* كما حملته على الذين من قبلنا \* وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿واعف عنا وَاغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكروه والشروع، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور \* أنت مولانا \* أي:

والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كیفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكیفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكیفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حدثنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكلمون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف «الراسخون» على «الله» فيكون الله قد أخبر أن تفسير المشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون «كل من المحكم والمشابه من عند ربنا» وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض<sup>(٢)</sup>، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع المشابه قال «وما يذكر» أي: يتعظ بمواعظ الله ويقل نصحه وتعليمه إلا «أولوا الألباب» أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد المشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين «فأما الذين في قلوبهم زيغ» أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصلهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد «فيتبعون ما تشابه منه» أي: يتركون المحكم الراضح ويذهبون إلى المشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المشابه «ابتغاء الفتنة» لمن يدعوهم لقولهم، فإن المشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله «وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله» للمفسرين في الوقوف على «الله» من قوله «وما يعلم تأويله إلا الله» قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها «والراسخون في العلم» وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على «إلا الله» لأن المشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله «الرحمن على العرش [استوى]<sup>(١)</sup>» فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم،

«هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء» من كامل الخلق وناقضه، وحسن وقبيح، وذكر وأثنى «لا إله إلا هو العزيز الحكيم» تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

﴿٧-٩﴾ «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب \* ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب \* ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد» القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» فهو مشتمل على غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله «منه آيات محكمات» أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال «هن أم الكتاب» أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، «و» منه آيات «آخر متشابهات» أي:

(١) سقطت كلمة استوى من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفيه تنبيه على الأصل الكبير وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المشابه علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يتبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا.



ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تملأها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا عما<sup>(١)</sup> ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازهم بأعمالهم حسناتها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ لمتشابهه إلى محكمه، بقوله ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمة المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

﴿١٠ - ١٣﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار﴾ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا

بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعلبة لأولي الأبصار﴾ يخبر تعالى أن الكفار به ويرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يندو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿ويدأبهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال وأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظلماً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود

والتصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحواس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم، ﴿قد كان لكم آية﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿في فئتين التقتا﴾ وهذا يوم بدر ﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وأخرى كافرة﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورتاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلماذا قال ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله ﴿رأي العين﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزم موهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبذلة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والعدد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفايته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿١٤ - ١٧﴾ ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ ﴿قل أولئك هم بخير من ذلكم للذين اتقوا﴾

(١) في الأصل: ممن، ولعل الثواب ما أثبت.





الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقَسَا  
عَذَابَ النَّارِ ٥ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِمِينَ  
وَالْعَصِيَّةِينَ ٦ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ٧ سُبْحَانَ  
اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَوَّلَ  
يَالْقُسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٨ إِنَّ الَّذِينَ  
عِنْدَ اللَّهِ لَا يُخْلَفُونَ ٩ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعَهْدَ إِلَّا  
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعَهْدُ بِغِيَابَتِهِمْ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ  
اللَّهِ فَأَنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ١٠ فَإِنْ حَاجَّكَ قَوْمٌ  
أَسْلَمْتَ فِجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ تَقِيَنَّ وَفَى لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ  
وَالْأَمْنِ ١١ مَا أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اسْتَمْسَكُوا  
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ يَصِيرُ بِالْعِبَادِ ١٢ إِنَّ الَّذِينَ  
يَكْفُرُونَ يَكْفُرُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَقُولُونَ الْكَافِرِينَ يَكْفُرُونَ  
وَيَقُولُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقُسْطِ مِنَ النَّاسِ  
مَقْتُلُهُمْ بَعْدَ بَيْعِهِمْ ١٣ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقِطَ  
أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ١٤

المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وخجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهداه تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تركيتهم وتعديلهم وأنهم أمتاء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿قَاتِمَا

من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المذبرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعبرة يعتبر بها المعبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحث عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، ولما فقد جاءهم الشيب الأكبر الموجب أن يتبعوا

بالقسط أي: لم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة العقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة العقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقريره، وعبه أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة العقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصورة للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جداً، ومن الأدلة العقلية أيضاً على ذلك ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئاً، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة

الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلهذا قال تعالى ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصاً من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام، عليه أن يقول لهم: قد أسلمت وجهي لله ومن اتبعن أي: أنا ومن اتبعني قد أقرزنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا ببطلانه، ففي هذا تأييس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيد به بأهل العلم من عباده ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلة الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين وانتفى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطلة، فلهذا قال ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ من النصارى واليهود ﴿والأمة﴾ مشركي العرب وغيرهم ﴿أسلمتم فإن أسلموا﴾ أي: بمثل ما أمنت به ﴿فقد اهتدوا﴾ كما اهتديتم وصاروا إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وإن تولوا﴾ عن الإسلام ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلهذا قال ﴿والله بصير بالعباد﴾

﴿٢١-٢٢﴾ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق

ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم \* أولئك الذين حبست أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين \* هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا هذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحوهم، قبحهم الله ما أجراهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

﴿٢٣-٢٥﴾ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون \* ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون \* فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون \* يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقياداً لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعالهم، فيصينا

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون \* ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون \* فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون \* قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعزعه الملك من تشاء وتزيغ الذين تشاء وتولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الميت من الميت وتخرج الحي من الميت وتزيغ الذين تشاء وتولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الميت من الميت وتخرج الحي من الميت \* قل إن تحقوا ما في صدوركم أو تبدوه بعامة الله ويعلم ما في السُّور وما في الأرض والله على كل شيء قدير

من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله هو قولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم متهم وغرهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلهذا قال تعالى ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي: كيف يكون حالهم ووخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما كسبت ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

﴿٢٦-٢٧﴾ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير \* تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج

أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مديرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

﴿٢٨ - ٣٠﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذرهم الله نفسه وإلى الله المصير \* قل إن تحفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير \* يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله تعالى بالعباد \* وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة الكافرين بالمحبة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ فمن وإلى - الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويفتوا أوليائه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصادقتهم، والميل إليهم

واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرها عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وعذ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ الآية وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وتعز من تشاء﴾ بمعصيتك ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضيء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته وزحمته ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٠﴾ إِنْ أَلَّاهُ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ إِذْ قَالَتِ امْكُرِّي عَنْ رَبِّكِ بَعْضُ نَارٍ يُدْرِكُكَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ مَالٌ بَطْنِي خَرًا فَقَبَّلْ بِئْسَ الَّذِي أَنْتَ التَّائِبُ الْعَلِيمُ ﴿٣٢﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ انِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَكِنَّ الذَّكَرَ لَأَنْثَىٰ وَإِنِّي سَكَنْتُهَا رَحِيمٌ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٣﴾ فَتَنَادَىٰ رَجُلًا يَحْمِلُ حَسَنًا وَابْنَهَا نَافَا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَ حَرْفِهَا قُلُوبًا رَاسِمَةً إِنَّ لَكَ هَذَا نَذِيرًا فَهَبْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُكَ مِنْ شَيْءٍ يَعْرِضُ ﴿٣٤﴾

الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يقول الله لنبيه ﷺ ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفا الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياسرة ومن تبعهم ويؤتاه أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المناهج»: وأما قوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعَل ما أقدر عليه كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً أَلَّه الخ، فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتُم إيمانه، وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبيحه الله إلا لمن أكرهه الخ.



يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مريد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلماذا قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكان في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

﴿٣٣-٣٧﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلق بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم

الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَدْعُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴿يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴿فَوَاللَّهِ لَتَرَكُ كُلَّ شَهْوَةٍ وَلَذَّةٍ وَإِنْ عَسَرَ تَرْكُهَا عَلَى النَّفْسِ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَيْسَرَ مِنْ مَعَانَاةِ تِلْكَ الشَّدَائِدِ وَاحْتِمَالِ تِلْكَ الْفَضَائِحِ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ مِنْ ظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ لَا يَنْظُرُ إِلَّا الْأَمْرَ الْحَاضِرَ، فَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ كَامِلٌ يَلْحَظُ بِهِ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَقْدِمُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ عَاجِلًا وَآجِلًا، وَيُحْجِمُ عَنْ مَا يَضُرُّهُ عَاجِلًا وَآجِلًا، ثُمَّ أَعَادَ تَعَالَى تَحْذِيرَنَا نَفْسَهُ رَافَةً بِنَا وَرَحْمَةً لِّثَلَا يَطُولُ عَلَيْنَا الْأَمَدُ فَتَقْسُو قُلُوبُنَا، وَلِيَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ التَّرْغِيبِ الْمَوْجِبِ لِلرَّجَاءِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّرْهِيْبِ الْمَوْجِبِ لِلْخَوْفِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ، فَقَالَ ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فنسأله أن يمن علينا بالحد من الدوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: ادعيتهم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لابد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاه، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول

والركون إليهم، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي: تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية. ثم قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصى أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القبيح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السماء والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلاً لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور ويبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله، وفي ضمن أخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي توفى به النفوس بأعمالها فلماذا قال ﴿يَوْمَ تُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ



والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووقفه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتياؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقرآن وماله للضيغان، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلماذا قال تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿ومن آبائهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط

مستقيم﴾ ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن تحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نترى<sup>(٢)</sup> أنفسنا متأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكّارهم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي: والدة مريم لما حملت ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل المبارك ﴿إنك أنت السميع العليم﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى﴾ كأنها تشوفت أن يكون ذكر ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقفاً، ففي كلامها [نوع]<sup>(٣)</sup> عذر من ربها، فقال الله: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وليس الذكر كالأُنثى وإني سميتها مريم﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للآم تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيدهم الله من الشيطان الرجيم

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿وأنتها نباتاً حسناً﴾ أي: نبتت نباتاً حسناً في بدنها وخلقها وأخلاقها، لأن الله تعالى قبض لها زكريا عليه السلام ﴿وكفلها﴾ إياه، وهذا من رفقه بها ليزيها على أكمل الأحوال، فتنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربها، ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا ﴿أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ فضلاً واحساناً ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي: من غير حسابان من العبد ولا كسب، قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافاً لمن نفى ذلك، فلمّا رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاه بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلماذا قال تعالى:

﴿٣٨-٤١﴾ ﴿هنالك دعا زكريا

ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصواً ونبياً من الصالحين ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدنيوية والدنيوية بهم، فاستجاب له

(٣) الكلمة غير واضحة في الأصل ويبدو

والله أعلم - أنها كما أثبت.

(١) في الأصل: ومن.

(٢) في الأصل: نردي.

دعاه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنْ اللَّهَ يَبْشُرَكَ بِحَيٍّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيداً يرجع إليه في الأمور ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: ممنوعاً من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالا بخدمة ربه وطاعته ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبياً من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رَبِّ أَنْتَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتماعاً، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجد لهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجالاً لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة على وجود الولد قال ﴿آيَتِكَ لَا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجد بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: أول النهار وآخره.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا

مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ \* يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ

الراكعين \* ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون \* ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك ﴿وطهرك﴾ من الآفات المنقصة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يتناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلها قالت لها الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم، ما أمرت به شكراً لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي قبضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ أي: عندهم ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقتربوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأبهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبياً وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنت رسول الله حقاً، فوجب عليهم الانقياد لك وامثال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآيات.

هَذَا كَمَا رَوَاهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٥٨﴾ فَادَّعَى الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْ يَكُونَ لِي عِلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٦٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي غُلَامًا فَقَالَتْ إِنَّهُ لَا يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَكُنْ لِي زَوْجٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي خَاسِرَةً ﴿٦١﴾ فَقَالَتْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ يَمْزِجُ امْقِنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٦٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ يُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَهْلُكُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

﴿٤٥ - ٥٨﴾ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا

مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ الْمُقَرَّبِينَ \* وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمَنْ الصَّالِحِينَ \* قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون \* ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل \* ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين \* ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون \* إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم \* فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون \* ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتسبنا مع الشاهدين \* ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين \* إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إني ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم



فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون \*  
فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً  
في الدنيا والآخرة وما لهم من  
ناصرين \* وأما الذين آمنوا وعملوا  
الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا  
يحب الظالمين \* ذلك نتلوه عليك من  
الآيات والذكر الحكيم \* يخبر تعالى أن  
الملائكة بشرت مريم عليها السلام  
بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده  
ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة  
الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته  
خارجة عن الأسباب، وجعله الله من  
آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله  
جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في  
جيب درعها فوجد فيها تلك النفخة  
الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله  
منها تلك الروح الزكية، فكان روحانياً  
نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي  
روح الله \* وجيهاً في الدنيا والآخرة \*  
أي: له الوجهة العظيمة في الدنيا،  
جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين  
أصحاب الشرائع الكبار، والأتباع،  
ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين  
المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً  
عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين  
 والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر  
العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى  
الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه  
السلام من سادات المقربين \* ويكلم  
الناس في المهد وكهلاً \*

التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس  
بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو  
تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله  
ودعوته الخلق إلى ربهم، وفي تكليمهم  
في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع  
بها المؤمنون، وتكون حجة على  
المعاندن، أنه رسول رب العالمين، وأنه  
عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته  
مما رميت به \* ومن الصالحين \* أي:  
يمن عليه بالصلاح، من من عليهم،  
ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة  
بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه  
بذكر المسيح عليه السلام \* قالت رب  
أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر \*  
والولد في العادة لا يكون إلا من مس  
البشر، وهذا استغراب منها، لا شك  
في قدرة الله تعالى: \* قال كذلك الله  
يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول  
له كن فيكون \* فأخبرها أن هذا أمر  
خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر  
أراد: كن فيكون، فمن تيقن ذلك زال  
عنه الاستغراب والتعجب، ومن  
حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار  
العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه،  
فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين  
أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر  
أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود  
عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل  
عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان  
وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن  
منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى  
عليه السلام، فقال \* ويعلمه الكتاب \*  
يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب،  
فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً  
لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما  
على الأحكام والشرائع التي يحكم بها  
أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك  
يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه،  
ويحتمل أن يكون المراد بقوله \* ويعلمه  
الكتاب \* أي: الكتابة، لأن الكتابة من  
أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن  
تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في  
أول سورة أنزلها فقال \* اقرأ باسم ربك  
الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ  
 وربك الأكرم الذي علم بالقلم \*

والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع،  
ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك  
امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه  
الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو  
الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له  
كمالاً آخر وفضلاً زائداً على ما أعطاه  
الله من الفضائل، فقال \* ورسولاً إلى  
بني إسرائيل \* فأرسله الله إلى هذا  
الشعب الفاضل الذين هم أفضل  
العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله،  
وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول  
الله حقاً ونبيه صدقاً ولهذا قال \* أنى قد  
جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من  
الطين طيراً، أي: أصوره على شكل  
الطير \* فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن  
الله \* أي: طيراً له روح تطير بإذن الله  
\* وأبرئ الأكمه \* وهو الذي يولد  
أعمى \* والأبرص \* بإذن الله \* وأحيي  
الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون وما  
تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية  
لكم إن كنتم مؤمنين \* وأي: آية أعظم  
من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي  
العاهات التي لا قدرة للأطباء في  
معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار  
بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه  
الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها  
إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟  
فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان  
\* ومصدقاً لما بين يدي من التوراة \*  
أي: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة  
وما جاء به موسى عليه السلام،  
وعلاوة الصادق أن يكون خبره من  
جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق،  
ويأمر بالعدل من غير تحالف ولا  
تساقض، بخلاف من ادعى دعوى  
كاذبة، خصوصاً أعظم الدعاوى وهي  
دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن  
يظهر لكل أحد كذب صاحبه وتناقضه  
ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته  
لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن  
الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية  
بعباده، إذ لا يشتبه الصادق بالكاذب  
في دعوى النبوة أبداً، بخلاف بعض  
الأمور الجزئية، فإنه قد يشتبه فيها  
الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه

يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال ﴿ولأحلي لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمماً لها ومقرراً ﴿وجئتكم بأية من ربكم﴾ تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله ﴿فاتقوا الله﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مدبر مخلوق، كما قال ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ وقال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾ إلى قوله ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ وقوله ﴿هذا﴾ أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ﴿صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبین، وهما يقتله وسعوا في ذلك ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله ﴿قال الحواريون﴾ وهم

الأنصار ﴿نحن أنصار الله﴾ أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: ﴿أما بالله﴾ ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه أمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلهذا قال تعالى هنا ﴿ومكروا﴾ أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره ﴿وسكر الله﴾ بهم جزاء لهم على مكروهم ﴿والله خير الماكرين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وياؤوا بالإثم العظيم ينتهم أنه رسول الله، قال الله ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبيئات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾ ثم قال تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع

عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ ﴿ثم إلي مرجعكم﴾ أي: مصير الخلائق كلها ﴿فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطيء، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمة بينهم بالقسط والعدل، فقال ﴿فأما الذين كفروا﴾ أي: بالله وآياته ورسوله ﴿فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، ﴿وأما الذين آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسوله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به ﴿وعملوا الصالحات﴾ القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم سيخطه وعذابه ﴿ذلك نلتوه عليكم من الآيات والنذكر الحكيم﴾ وهذا منة عظيمة على رسوله



محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبارة وتثبت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

﴿٥٩ - ٦٠﴾ «إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ \* يُخْبِرُ تَعَالَى مُحْتَجاً عَلَى النَّصَارَى الزَّاعِمِينَ بَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ، بِغَيْرِ بَرَهَانٍ وَلَا شَبْهَةٍ، بَلْ بَزَعْمِهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ وَالِدٌ اسْتَحَقَّ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ابْنُ اللَّهِ أَوْ شَرِيكاً لِلَّهِ فِي الرِّبَوِيَّةِ، وَهَذَا لَيْسَ بِشَبْهَةٍ فَضْلاً أَنْ يَكُونَ حِجَّةً، لِأَنَّهُ خَلَقَهُ كَذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى تَفَرُّدِ اللَّهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّنْذِيرِ وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ طَوْعٍ مَشِئَتِهِ وَتَبِعَ لِإِرَادَتِهِ، فَهُوَ عَلَى نَقِضِ قَوْلِهِمْ أَدْلٌ، وَعَلَى أَنْ أَحَدًا لَا يَسْتَحِقُّ الْمِشَارَكَةَ لِلَّهِ بِوَجْهِ مِنَ الْوَجْهِ أَوَّلَى، وَمَعَ هَذَا فَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ تُرَابٍ لَا مِنْ أَبٍ وَلَا أُمٍّ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ لَا يُوْجِبُ لِآدَمَ مَا زَعَمَهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ، فَالْمَسِيحُ الْمَخْلُوقُ مِنْ أُمِّ بَلَا أَبٍ مِنْ بَابِ أَوَّلَى وَأُخْرَى، فَإِنْ صَحَّ ادِّعَاءُ الْبَنُوَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ فِي الْمَسِيحِ، فَادِّعَاؤُهَا فِي آدَمَ مِنْ بَابِ أَوَّلَى وَأُخْرَى، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \* الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ شَأْنِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي فِي أَعْلَى رَتَبِ الصَّدَقِ، لِكَوْنِهِ مِنْ رَبِّكَ الَّذِي مِنْ جَمَلَةِ تَرْبِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ لَكَ وَلَا مَتَكَ أَنْ قَصَّ عَلَيْكُمْ مَا قَصَّ مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أَيُّ: الشَّاكِينَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَخْبَرَكَ بِهِ رَبِّكَ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا

بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورده عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، وإن حلها الإنسان فهو تبرج منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

﴿٦١ - ٦٣﴾ «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ \* إِنْ هَذَا إِلَّا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيُّ: «فَمَنْ» جَادَلَكَ «وَحَاجَّكَ» فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزَعَمَ أَنَّهُ فَوْقَ مَنَزَلَةِ الْعِبَادِيَّةِ، بَلْ رَفَعَهُ فَوْقَ مَنَزَلَتِهِ «مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَبَيَّنَّ لِمَنْ جَادَلَكَ مَا عِنْدَكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، دَلَّ عَلَى عِنَادٍ مِنْ لَمْ يَتَّبِعْكَ فِي هَذَا الْعِلْمِ الْيَقِينِي، فَلَمْ يَبْقَ فِي مَجَادَلَتِهِ فَائِدَةٌ تَسْتَفِيدُهَا وَلَا يَسْتَفِيدُهَا هُوَ، لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ تَبَيَّنَ، فَجَدَالُهُ فِيهِ جِدَالُ مَعَانِدٍ مِثْلَاقِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَصْدُهُ اتِّبَاعُ هَوَاهُ، لَا اتِّبَاعُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَهَذَا لَيْسَ فِيهِ حِيلَةٌ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى مِهَاْلَتِهِ وَمَلَاعَتِهِ، فَيَدْعُونَ اللَّهَ وَيَتَهَلَّلُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ لَعْنَتَهُ وَعَقُوبَتَهُ عَلَى الْكَاذِبِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، هُوَ وَأَحِبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ، فَدَعَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ذَلِكَ فَتَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا وَنَكَلُوا، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنْ لَاعَنُوهُ رَجَعُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ فَلَمْ يَجِدُوا أَهْلًا وَلَا مَالًا وَعَوَّجَلُوا

بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلهذا قال تعالى ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأخبر تعالى ﴿إِنْ هَذَا﴾ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ هُوَ «الْقَصَصُ الْحَقُّ» وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تتبني العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء «الْحَكِيمُ» الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ويجاهدونهم ويجاهدونهم بالقول والفعل<sup>(١)</sup>.

﴿٦٤﴾ «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أَيُّ: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى «تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ» أَيُّ: هَلُمُّوا نَجْتَمِعْ عَلَيْهَا وَهِيَ الْكَلِمَةُ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، وَلَمْ يَخَالَفْهَا إِلَّا الْمَعَانِدُونَ وَالضَّالُّونَ، لَيْسَتْ مَخْتَصَةً بِأَحَدِنَا دُونَ الْآخَرِ، بَلْ مَشْرُكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَهَذَا مِنَ الْعَدْلِ فِي الْمَقَالِ وَالْإِنْصَافِ فِي الْجِدَالِ، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ «أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً» فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبياً ولا ملكاً ولا ولياً ولا صنماً ولا وثناً ولا حيواناً ولا جاداً «وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» بَلْ تَكُونُ الطَّاعَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَلَا نَطِيعُ الْمَخْلُوقِينَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، لِأَنَّ ذَلِكَ جَعَلَ لِلْمَخْلُوقِينَ فِي مَنَزَلَةِ الرِّبَوِيَّةِ، فَإِذَا دَعَى أَهْلَ الْكِتَابِ أَوْ غَيْرَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنْ أَجَابُوا كَانُوا مِثْلَكُمْ، لَهُمْ مَا لَكُمْ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَيُفْهِمُ مَعَانِدُونَ مُتَبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ فَاشْهَدُوهُمْ

(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير يسير فقد أخرج تفسير قوله: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ» وقد أبقيتها على ما هي عليه.





إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَنْ يَدِّ الَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ الْقَسِيدِينَ ﴿٥١﴾ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُ مَا يَكُونُ لَكُمْ إِلَهًا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ مِمَّا يَنْتَحِبُكُمْ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا تَجِدَ بَعْضًا مِمَّا أَنْتَابُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ يَتَّخِذُ الْكَافِرُ لِلشَّكَاكِينِ فِي دِينِهِمْ وَمَا أُوتِيَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٣﴾ هَذَا الَّذِي كَذَّبَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ بِأَعْلَمَ بِهِ مِنْهُ فَلَمْ تَعْلَمُوا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٤﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا يَتَّخِذَ الْكَافِرِينَ وَلَكِنْ كَانَ حَقِيقًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِذْنِهِمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا هَذَا النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يُصَلُّوا نَحْنُ وَنُصَلُّوا وَإِلَّا اتَّبَعْنَاهُمْ مَا يَشْرُونَ ﴿٥٧﴾ يَتَّخِذُ الْكَافِرُ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ اللَّهَ وَأَشْرَفَتُهُمْ ﴿٥٨﴾

ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين قال تعالى ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾. ثم أخبر تعالى عن ما همت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا بآخِرِهِ﴾ أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه عجباً بأنفسهم وظناً أن الناس سيحسنون ظنهم بهم ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تَوَاسَوْا إِلَّا مَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا<sup>(١)</sup> أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالخاصل أنهم جعلوا عدم إخبار

المؤمنين بما معهم من العلم قاطعاً عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجباً للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن ﴿الهدى هدى الله﴾ فمادة الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إشارة، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لحث نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم والله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلهذا قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن أتى بأنسابه ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة وهي نعمة الدين ومتمماته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يصفه الواصفون ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

﴿٧٥-٧٧﴾ ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ بل من أوفى بعهدته واتقى فإن الله يحب المتقين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب في

الوفاء والخيانة في الأموال، لما ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكتبتهم الحق، فأخبر أن منهم الخائن والأمين، وأن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ وهو المال الكثير ﴿يؤده﴾ وهو على أداء ما دونه من باب أولى، ومنهم ﴿من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ وهو على عدم أداء ما فوقه من باب أولى وأحرى، والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه ﴿ليس﴾ عليهم ﴿في الأميين سبيل﴾ أي: ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، لأنهم بزعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار، ورأوا أنفسهم في غاية العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون، فلم يجعلوا للأميين حرمة، وأجازوا ذلك، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله وكان هذا كذباً على الله، لأن العالم الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يخبر عن حكم الله ليس يخبر عن نفسه، وذلك هو الكذب، فلهذا قال ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وهذا أعظم إثماً من القول على الله بلا علم، ثم رد عليهم زعمهم الفاسد، فقال ﴿بلى﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم.

﴿من أوفى بعهدته واتقى﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهدته ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل بمن يبغضه الله، وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوا الله وعدم

(١) المراد - والله أعلم - : واكتموا أمركم عن غير من تبع دينكم.

التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهو لاء ﴿لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم من الخير ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿وَلَا يَزْكِيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

﴿٧٨﴾ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللى والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله ﴿لَتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ

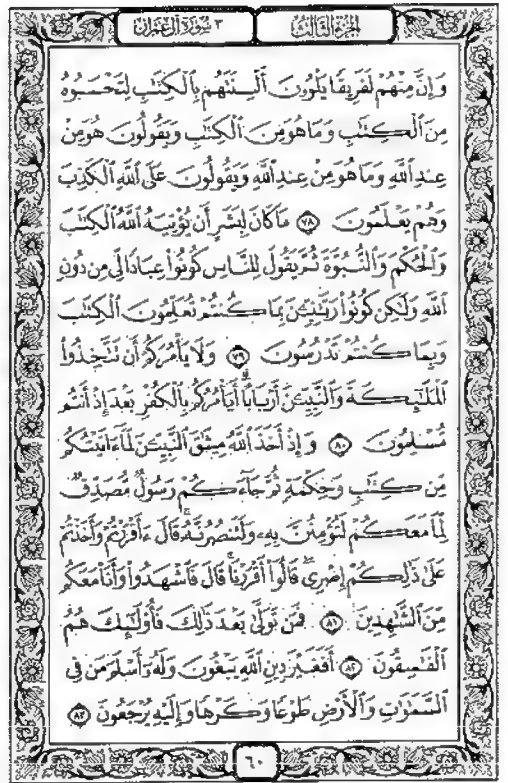
الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

﴿٧٩ - ٨٠﴾ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الكتاب وبما كنتم تدرسون \* ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون \* وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقوله ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق ﴿أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فهذا من أجل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أقبح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بمعالي الأمور وهم أعظم الناس شياً عن الأمور القبيحة، فلهذا قال ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الكتاب وبما كنتم تدرسون \* أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخ، باء السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ وهذا تعميم بغد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد

يَأْخُذُ الْكِتَابَ لِتَحْسَبُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ أَكْفَرُوا لِمَ يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿٨٠﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْتَهُ بِقِطْعٍ مِنْ فُتُوحٍ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْتَهُ بِدِيكَارٍ لَا يُؤْذِيكَ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَتَّبِعُ الْهَوَىٰ فَوَقَعَ فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي الْفَاسِقِينَ ﴿٨٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا تَخْلُقُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨٣﴾

من الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثماً عظيماً وكفراً وخيماً.

﴿٨١ - ٨٢﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ \* فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسولاً مصداقاً لما بتعهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ويأخذوا ذلك على أجمعهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن محمداً ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قرره تعالى



﴿قالوا أقررنا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الراس والعين ﴿قال﴾ الله لهم: ﴿فاشهدوا﴾ على أنفسكم وعلى أممكم بذلك، قال ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ فمن تولى بعد ذلك العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

﴿٨٣﴾ ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ أي: أيطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن ديناً من دين الله ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره مستسلمون له طوعاً واختياراً، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرهاً وهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

﴿٨٤﴾ ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى:

﴿٨٥﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي: من يدين لله غير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

﴿٨٦﴾ ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴿خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغياً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم

ينظرون﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا بإزالته أو إزالة بعض شدته، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أخذهم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴿يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديته في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشيد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ﴿فلما زغوا أزواغ الله قلوبهم﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿وأولئك هم الضالون﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياًذاً بالله من حالهم.



﴿٩٢﴾ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال ﴿لَنْ تَنَالُوا﴾ أي: تدرکوا وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع الثوابات الموصل لصاحبه إلى الجنة، ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم ويقين تقواكم، فیدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي: وجه كان مثاباً عليه العبد، سواء كان قليلاً أو كثيراً، محبوباً للنفس أم لا، وكان قوله ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احتترز تعالى عن هذا الوهم بقوله ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه.

﴿٩٣ - ٩٥﴾ ﴿كل الطعام كان  
حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل  
على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل  
فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم  
صادقين ﴾ فمن افتري على الله الكذب  
من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾  
قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً  
وما كان من المشركين ﴾ وهذا رد على  
اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير  
جائز، فكفروا بعبسى ومحمد صلى الله  
عليهما وسلم، لأنهما قد أتيا بما  
يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل  
والتحريم فمن تمام الإنصاف في  
المجادلة إلزامهم بما في كتابهم التوراة  
من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني

إسرائيل ﴿إلا ما حرم إسرائيل﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿على نفسه﴾ أي: من غير تحريم من الله تعالى، بل حرمة على نفسه لما أصابه عرق الثَّنا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرم أحب الأَطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل وألبانها وتبعه بنوه على ذلك وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعناد، فلماذا قال تعالى ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ وأي: ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عناداً وتكبراً وتجبراً، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلماذا قال تعالى ﴿قل صدق الله﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بالنتهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً ويقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركة حصول الشقاوة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:

﴿٩٦ - ٩٧﴾ ﴿إِنْ أُولَٰئِكَ بِمَنْزِلَةِ رَبِّكَ لَبَئِذٍ مُّحْسَرَاتٍ﴾

قُلْ مَا سَأَلَ اللَّهُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ نَبِيِّهِمْ وَلَا يُمْسِكُ  
وَأَمْسَحُ وَيَغْفِرُكَ وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ  
عِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَّبِّهِمْ لَا تَعْرِفُ بَيْنَ أَكْثَرِهِمْ  
وَمَنْ لَمْ يُسْلِمُوا ۝١٥ وَمَنْ يَمِيعَ عَنِ الْإِسْلَامِ دِينًا  
فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْأَفْجَاءِ مِنَ الْعَذَابِ ۝١٦  
كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ  
الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ ۝١٧ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ  
وَاللَّعْنَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٨ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ  
عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْقَرُونَ ۝١٩ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ  
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢٠ إِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ زَادُوا بُغْضَ لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ  
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّالُونَ ۝٢١ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ  
كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا الْأَرْضُ ذَهَابًا وَلَوِ افْتَدَىٰ  
بِهَا أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُنْ عَذَابُ اللَّهِ أَلِيسَ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝٢٢

للناس للذي بسكة مباركاً وهدى  
للعالمين \* فيه آيات بينات مقام إبراهيم  
ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج  
البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر  
فإن الله غني عن العالمين ﴿١﴾ يخبر تعالى عن  
شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت  
وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم  
فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم،  
ويحصل لهم به من الطاعات والقربات  
ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه  
والنجاة من عقابه، ولهذا قال:  
﴿مباركاً﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في  
المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى  
﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله  
على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾  
﴿وهدى للعالمين﴾ والهدى نوعان:  
هدى في المعرفة، وهدى في العمل،  
فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل  
الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به،  
وأما هدى العلم فيما يحصل لهم بسببه  
من العلم بالحق بسبب الآيات البينات  
التي ذكر الله تعالى في قوله ﴿فيه آيات  
بينات﴾ أي: أدلة واضحة، وبراهين  
قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية  
والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده  
ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله  
وكمال علمه وسعة جوده، وما من به  
على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات





هذا القرض العظيم .

وتأمل سر البديل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين ، مرة بإسناده إلى عموم الناس ، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين ، وهذا من فوائد البديل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته .

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين ، اعتناء به وتأكيده لشأنه ، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحجته وإن لم يطلب ذلك منها ، فقال : ﴿إن أول بيت﴾ الخ ، فوصفه بخمس صفات : أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض ، الثاني : أنه مبارك ، والبركة كثرة الخير ودوامه ، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق ، الثالث : أنه هدى ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة ، حتى كأنه نفس الهدى ، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية ، الخامس : الأمن الحاصل لداخله ، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجة وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات ، وهذا يدل على الإعثناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم ، والتنويه بذكره ، والتعظيم لشأنه ، والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿وطهر بيتي﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً ، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه ، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته ، فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً ، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً ، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم ، كما قيل :

يقدمون في كلامهم ما هم به أهم  
وبيانه أعني هذا تقرير السهلي ، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ، ولا يليق بالآية سواء ، وهو الوجوب المفهوم من قوله «على الناس» ، أي : يجب لله على الناس الحج ، فهو حق واجب لله ، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها ، ففي غاية البعد فتأمل ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية ، وهذا كما تقول : الله عليك الصلاة والزكاة والصيام .

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجهه ويمر به يذكره بلفظ الأمر والنهي ، وهو الأكثر ، ويلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿كتب عليكم الصيام﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكيد الوجوب من عشرة أوجه ، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أبدل منه أهل الاستطاعة ، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي : سبيل تيسرت ، من قوت أو مال ، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً ، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ومن كفر﴾ أي : لعدم التزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه ، والله تعالى هو الغني الحميد ، ولا حاجة به إلى حج أحد ، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم «العالمين» عمومياً ، ولم يقل : فإن الله غني عنه ، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار ، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجه عليه ، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التأكيد ، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكيد

باب «يعجبني ضرب زيد عمراً» وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) ، فلا يصار إليه . وإذا ثبت أن «من» بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى «الناس» كأنه قيل : من استطاع منهم ، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن ، وحسنه هاهنا أمور منها : أن «من» واقعة على من لا يعقل ، كالاسم المبدل منه فارتبطت به ، ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد ، ومثال ذلك إذا قلت : رأيت إختك من ذهب إلى السوق منهم ، كان قبيحاً ، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : البس الثياب ما حسن وجل ، يريد منها ، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز ، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب .

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه ، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ، وما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول .

وأما المجزور من قوله «الله» فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون في موضع من سبيل ، كأنه نعت نكرة قدم عليها ، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل ، والثاني : أن يكون متعلقاً بسبيل ، فإن قلت : كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل ؟ قيل : السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما ، كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق ، فصلح تعلق المجزور به ، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجزور وإن كان موضعه التأخير ، لأنه ضمير يعود على البيت ، والبيت هو المقصود به الاعتناء ، وهم

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداني وألثم منه الركن أطلب بزدما بقلبي من شوق ومن هيمان فتوالله ما ازداد إلا صابية ولا القلب إلا كثرة الخفقان فياجنة المأوى وبيا غاية المنى وبيا منيتي من ذون كل أمان أبت غلبات الشوق إلا تقربا إليك فما لي بالعباد يذان وما كان صدى عنك صدمالة ولي شاهد من مقلتي ولسان دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا فلبى البكا والصبر عنك عصاني وقد زعموا أن المحب إذا نأى سبلى هواه بعد طول زمان ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا دواء الهوى في الناس كل زمان بلى إنه يبلى والهوى على حاله<sup>(١)</sup> لم يبله الملتوان<sup>(٢)</sup> وهذا محب قاده الشوق والهوى بغير زمام قائد وعنان أذاك على بعد المزار ولو ننت مطيته جاءت به القدمان انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

﴿٩٨-١٠١﴾ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون \* قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون \* يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق \* ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن إيمانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجها والجزم بمقتضاها وعدم الشك

فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فضلت الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ولم يترك لجالل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

﴿١٠٢-١٠٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشبثوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيباً إليه على الدوام، ثبته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها

(١) في الهامش كتب: أي الهوى.

(٢) في الهامش: (لعل صواب هذا البيت قوله:

بلى إنه يبلى المحب وإنه

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي:

بلى إنه يبلى المتصبر والهوى

(٣) في الأصل: بأعمالهم ولعل الصواب ما أثبت.

على حاله لم يبله الملتوان

على حاله لم يبله الملتوان

فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالا اجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وأمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تآلف قلوبهم وموالات بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحَتْ نِعْمَتُهُ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قد استحققتهم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بما منَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرهما، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته يقلوبهم وألستهم ليزدادوا شكراً له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ أي: ولكن منكم أيها المؤمنون الذين منَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أمة﴾ أي: جماعة ﴿يدعون إلى الخير﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿ويأمرُونَ بالمعروف﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس والزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكثفت المكايل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ الخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والتعليم، ومساعدة الثواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب،

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَوْا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتُلِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٨﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَذِكْرُكَ أَكْثَرُ لَعَلَّكَ تَلْذِكُ الْكَرِيمَ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١١﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١٥﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١٦﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١٨﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١١٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا شِدْقَهُ وَمَنْ تَبِعَ مَا جَاءَهُمْ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْمَكِينِ ﴿١٢٠﴾

الناجون من المهووب، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البالغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٠٦ - ١٠٨﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وأما الذين أبيضت وُجُوهُهُمْ ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴿تلك آيات الله تلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿وتسود وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وُجُوهُهُمْ بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك أبيضت وُجُوهُهُمْ، لما في قلوبهم من البهجة

على الحكمة والرحمة والعدل الخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك فلا ينقص أحد شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

﴿١٠٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

﴿١١٠-١١٢﴾ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَكَانَ خَيْرًا لَّكُمْ إِنْ أَتَىكُمْ الْأُذَى وَإِنْ يَأْتِكُمُ الْاِذْيُ فَلَا تَظْلِمُونَ﴾

أي: عهد من الله وحبل من الناس، فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى وقد بؤوا، مع ذلك بغضب من الله، وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجهة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعداوةً ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الحراسة والحماية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿١١٣-١١٥﴾ ﴿لَيْسَ سَوَاءً مَن أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ \* يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَصَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ \* وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

﴿١٠٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها.

﴿١١٠-١١٢﴾ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَكَانَ خَيْرًا لَّكُمْ إِنْ أَتَىكُمْ الْأُذَى وَإِنْ يَأْتِكُمُ الْاِذْيُ فَلَا تَظْلِمُونَ﴾

أي: عهد من الله وحبل من الناس، فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى وقد بؤوا، مع ذلك بغضب من الله، وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجهة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعداوةً ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الحراسة والحماية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿١١٣-١١٥﴾ ﴿لَيْسَ سَوَاءً مَن أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ \* يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَصَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ \* وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَكَانَ خَيْرًا لَّكُمْ إِنْ أَتَىكُمْ الْأُذَى وَإِنْ يَأْتِكُمُ الْاِذْيُ فَلَا تَظْلِمُونَ ﴿١١٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١١﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَكَانَ خَيْرًا لَّكُمْ إِنْ أَتَىكُمْ الْأُذَى وَإِنْ يَأْتِكُمُ الْاِذْيُ فَلَا تَظْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٣﴾ لَيْسَ سَوَاءً مَن أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٤﴾ يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَصَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٥﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٦﴾

والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى: ﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾ نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فاما الذين اسودت وجوههم، فيقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: كيف أثرتكم الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الحزى والفضيحة والعار ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ فيهنئون أكمل تهنئة ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضى ربهم ورحمته ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿تلك آيات الله نتلوها﴾ أي: نقصها ﴿عليك بالحق﴾ لأن أوامره ونواهيه مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل



بين هاهنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخبر أنهم لا يستوون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى منهم ﴿أمة قائمة﴾ أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما أزمها الله به من الأمور، ومن ذلك قيامها بالصلاة ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: كإيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخض الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿ويسأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمن محمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿وإنهم ينسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها قيتهم في الفرض فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بقوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الحسنة من الصالحين الذين يدخلهم الله في رحمته ويتغمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿من خير﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿فلن يكفروا﴾ أي: لن يجرموا ويفوتوا أجره، بل يشبههم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلهذا قال ﴿والله عليم بالمتقين﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴿يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، بينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صير، أي: برد شديد محرق، فأهلك زرع، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فستنفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ وما ظلمهم الله بإبطال أعمالهم ﴿ولكن﴾ كانوا ﴿أنفسهم يظلمون﴾ حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

﴿١١٨ - ١٢٠﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبائلاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ ها أنتم أولاء تحبونهم

إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ يتألم الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبائلاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالله وباللذين كفروا وإذا أتواكم عترة أئمتهم فقلوا هؤلاء هم أبناءنا وأولادنا والله أعلم بألوان النفاق﴾ وإذا أتواكم عترة أئمتهم فقلوا هؤلاء هم أبناءنا وأولادنا والله أعلم بألوان النفاق ﴿وإذا أتواكم عترة أئمتهم فقلوا هؤلاء هم أبناءنا وأولادنا والله أعلم بألوان النفاق﴾

ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴿إن تمسككم حسنة تسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهرهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ مما يسمع منهم فلهذا ﴿لا يألونكم خبائلاً﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدينية ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلعه من باطنه على شيء ولو تعلق له وأقسم أنه من أوليائه قال الله مهيجاً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبيناً شدة عداوتهم ﴿ها أنتم

إِذْ هَبْتَ طَائِفَيْنِ مِنْكُمْ إِنْ مَثَلُوا اللَّهَ وَلَهُمْ  
 وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفَ اللَّهُ  
 يَدَكَ وَأَنْشَأَ أَوَّلَ فَاظِقُوا أَنَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾  
 إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ دُكْرَكُمْ بِشَاةٍ  
 مِنَ النَّحْلِ مِنَ النَّحْلِ كَذَلِكَ يُبَدِّلُكُمْ دُكْرَكُمْ بِشَاةٍ مِنَ النَّحْلِ  
 وَيَأْتُوكُمْ مِنْ قُرُونِهِمْ هَذَا يُبَدِّلُكُمْ دُكْرَكُمْ بِشَاةٍ مِنَ النَّحْلِ  
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ ﴿١٣﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُرْهَانًا لَكُمْ  
 وَلَظْمَةً لِلظَّالِمِينَ وَلَقَدْ صَرَّفَ اللَّهُ الْأَمْزَجَ الْأَمْزَجَ لِلَّذِينَ  
 لَمْ يَطْعَمُوا طَرَفًا مِنَ الْأَمْزَجِ الْأَمْزَجِ وَأَوْفَى بِهِمْ فَبَقُوا وَأَخَافُونَ  
 ﴿١٤﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ  
 ظَالِمُونَ ﴿١٥﴾ وَهِيَ مَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَقُورٌ  
 مِنَ السَّمَاءِ وَيُعَذِّبُ مِنَ السَّمَاءِ وَاللَّهُ جَوَّادٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا  
 الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَيْنَكُمْ مَضْمُونَةً وَأَقْرَبُوا  
 اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ وَأَقْرَبُوا النَّارَ إِلَى الْأَعْدَةِ لِلْكَافِرِينَ  
 ﴿١٨﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٩﴾

﴿إِنْ تَسْكُمُ حَسَنَةً﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿تَسْوَهُمْ﴾ أي : تغمهم وتحزنهم ﴿وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضركم مكرهم ، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء .

﴿١٢١ - ١٢٢﴾ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ \* إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ



السفر الأول من هذا التفسير المبارك يسر من الله وإعانة فله الحمد والشكر والثناء وأسأله المزيد من فضله وكرمه وإحسانه، ويليه المجلد الثاني، أوله قول الباري جل جلاله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة الآية وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثالث وأربعين وثلاث مئة وألف من الهجرة النبوية وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا كثيرًا بقلم جامعته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المجلد الثاني من تيسير التكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه والمسلمين أمين.

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا قال تعالى:

﴿١٣٠ - ١٣٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون \* واتقوا النار التي أعدت للكافرين \* وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون \* وسارعوا إلى مفقرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين \* الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الفيت والعافين عن الناس والله يحب المحسنين \* والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون \* أولئك جزاؤهم مفقرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾

تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي

بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر متهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال ﴿أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال ﴿والله ما في السماوات وما في الأرض﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون متصرف فيهم تصرف المالك، فإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه، ﴿ويعذب من يشاء﴾ بأن يكمله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال ﴿والله غفور رحيم﴾ ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يختصها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين. ثم



من يشاء والله غفور رحيم لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشج رأسه وكسرت رياعيته، قال «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نبياً له عن الدعاء عليهم باللعة والطرده عن رحمة الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسبوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولى، ففيها أعظم رد على من تعلق



في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به، ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهى عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه، وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي، وهذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أوامر وخضال من خضال الخير، وأمر الله [بها] وحث على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإن تصبروا وتقا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾.

ثم قال: ﴿بلى إن تصبروا وتقا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم﴾ الآيات.

فكأنَّ النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى ، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة ، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأجرى ، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات : مرة مطلقة وهي قوله : ﴿أَعِدْتُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومرتين مقيدتين ، فقال : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ و﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ فقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا كذا ، أو اتركوا كذا ، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامثال ذلك الأمر ، واجتناب ذلك النهي ؛ لأن الإيمان هو العصديق الكامل بما يجب التصديق به ، المستلزم لأعمال الجوارح ، فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة ، وذلك هو

ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك. فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك، اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد - بذلك - ما في ذمته أضعافاً مضاعفة، من غير نفع وانتفاع.

ففي قوله: ﴿أضعافاً مضاعفة﴾  
تنبیه على شدة سناخته بكثرته، وتنبیه  
لحكمة تحریمه، وأن تحریم الربا حکمته  
أن الله منع منه لما فيه من الظلم.

وذلك أن الله أوجب إظهار المعسر،  
وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فلزامه  
بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيمتعين  
على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه،  
لأن تركه من موجبات التقوى.

والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ \*  
 وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿وَلَا تَكُن مِمَّنْ يَبْذُرُونَ مَالَهُمْ يُوجِبُ دَخُولَهُمْ فِيهَا، مِنَ الْكُفْرِ  
 وَالْمَعَاصِي، عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا، فَإِنَّ الْمَعَاصِي كُلَّهَا - وَخُصُوصاً الْمَعَاصِي  
 الْكُبَارَ - تَجْرُ إِلَى الْكُفْرِ، بَلْ هِيَ مِنْ خِصَالِ الْكُفْرِ الَّتِي أُعِدَّ اللَّهُ النَّارَ  
 لِأَهْلِهَا، فَتَرْكُ الْمَعَاصِي يَنْجِي مِنَ النَّارِ، وَيَقِي مِنَ سَخَطِ الْجَبَّارِ، وَأَفْعَالُ الْخَيْرِ  
 وَالطَّاعَةُ تَوْجِبُ رِضَا الرَّحْمَنِ، وَدُخُولَ الْجَنَّةِ، وَحُصُولَ الرَّحْمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ \* بِفِعْلِ  
 الْأَوْامِرِ امْتِثَالاً، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾

فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَأَسْأَلُكُمْ لَهَا لَعْنَةً وَاللَّذِينَ يُتَّقُونَ يَمُوتُونَ الزَّكَاةَ﴾ (الآيات).

ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرة  
وإدراك جنته التي عرضها السموات  
والأرض، فكيف بطولها، التي  
أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال  
التقوى هي الموصلة إليها، ثم وصف  
المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ  
يَتَّقُونَ فِي الْبُزْءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي: في

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَهَيَّأُوا لِلْزَيْبِ كَقُرْأِ  
يَزِيدُكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَقْبَلُوا خَيْرِينَ  
(١١٦) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١١٧﴾  
سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا  
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُرَكِّبْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا هُمْ  
بِالنَّازِعِينَ مِنْ قُلُوبِهِمُ الظَّالِمِينَ ﴿١١٨﴾ وَلَقَدْ  
صَدَقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُمُ يَمِينَهُمْ بِإِذْنِهِ حِينَ  
إِذَا فَعَلْتُمْ وَتَرَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَنَعَصْتُمْ مِنْ  
بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْبُوتُ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ  
الْأُتْيَا وَنَعَصْتُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ  
عَنْهُ لِيَبْلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ  
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ \* إِذْ صُودِرْتُمْ وَلَا تَلُوتُ  
عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُلُ يَنْدَعِبُونَ مِنْكُمْ فِي أَحْزَانٍ  
فَلَمَّا كُنْتُمْ فُتَاتًا يَغْمُرُ لَكُمْ كَيْلًا تَحَدُّثُوا عَلَى مَا  
فَأَنصَحَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾

حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا  
أكثرُوا من النفقة، وإن أعسروا لم  
يحتقروا من المعروف شيئاً ولو قل.

﴿وَالكَائِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، وينصرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿والعافين عن الناس﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السامح عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتحلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجز مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكرامة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال [تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾] والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق. [والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة



الخالق<sup>(١)</sup>

فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل السدي وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنائياتهم وذنوبهم، فقال: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم» أي: صدر منهم أعمال [سيئة]<sup>(٢)</sup> كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعده به العاصين ووعده به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

قال: «ولم يصبروا على ما فعلوا وهم يعلمون».

«أولئك» الموصوفون بتلك الصفات «جزاءهم مغفرة من ربهم» تزيل عنهم كل محذور، «وجنات تجري من تحتها الأنهار» فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، «خالدين فيها» لا يحولون عنها، ولا يفتنون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم، «ونعم أجر العاملين» عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً. «عند الصباح يحمد القوم السرى»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: «سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله» فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: «أعدت للمتقين». ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبذنية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

«١٣٧ - ١٣٨» ثم قال تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين.

وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة «أحد» يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزلوا في مداولة ومجاوله، حتى جعل الله العاقبة

للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم.

«فسيروا في الأرض» بأبدانكم وقلوبكم «فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل!!!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: «هذا بيان للناس» أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

«وهدى وموعظة للمتقين» لأنهم هم المستفعدون بالآيات فتهدىهم إلى سبيل الرشاد، وتعظمهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم، تقوم [به] عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.

ويحتمل أن الإشارة في قوله: «هذا بيان للناس» للقرآن العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

«١٣٩ - ١٤٣» «ولا تنسوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» \* إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين \* ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين \* أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين \* ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون» يقول تعالى مشجعاً

ثم ويخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله [تعالى] لهم: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمْوهُ﴾ أي: رأيتم ما تمنيتُم بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿١٤٤ - ١٤٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامثال أمر به، فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ

مَنْ أَرْفَعَ الْمَنَازِلَ، وَلَا سَبِيلَ لِنَيْلِهَا إِلَّا بِمَا يَحْصُلُ مِنْ وَجُودِ أَسْبَابِهَا، فَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ قَيِّضَ لَهُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا تَكْرَهُهُ النُّفُوسُ، لِنَيْلِهِمْ مَا يَجِبُونَ مِنَ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَقَاعَدُوا عَنِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، وَكَأَنَّ فِي هَذَا تَعْرِيفاً بِذَمِّ الْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّهُمْ مَبْغُضُونَ لِلَّهِ، وَلِهَذَا تُبْطَلُهُمْ عَنِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لِأَعْبُدُوا لَهُ عِدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿وَلِيَمْحَضِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَهَذَا أَيْضاً مِنَ الْحُكْمِ أَنَّ اللَّهَ يَمْحَضُ بِذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَعَيْبِهِمْ، يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الشَّهَادَةَ وَالْقِتَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكْفِرُ الذُّنُوبَ، وَيُزِيلُ الْعَيْبَ، وَلِيَمْحَضِ اللَّهُ أَيْضاً الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَيَتَخَلَّصُونَ مِنْهُمْ، وَيَعْرِفُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَمِنْ الْحُكْمِ أَيْضاً أَنَّهُ يَقْدَرُ ذَلِكَ، لِيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ، أَيْ: لِيَكُونَ سَبَباً لِمُحَقِّقِهِمْ وَاسْتِثْصَالِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا انْتَصَرُوا، بَغَاوْا، وَازْدَادُوا طَغْيَاناً إِلَى طَغْيَانِهِمْ، يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْمَعَاجِلَةَ بِالْعُقُوبَةِ، رَحْمَةً بِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ هَذَا اسْتِفْهَامُ انْكَارِي، أَيْ: لَا تَظُنُّوْا، وَلَا يَخْطُرُ بِأَلْبَابِكُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ مِنْ دُونِ مُشَقَّةٍ وَاحْتِمَالِ الْمَكَارِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ أَعْلَى الْمَطَالِبِ، وَأَفْضَلُ مَا بِهِ يَتَنَافَسُ الْمُتَنَافِسُونَ، وَكَلِمَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ عَظُمَتْ وَسِيلَتُهُ، وَالْعَمَلُ الْمَوْصِلُ إِلَيْهِ، فَلَا يَوْصَلُ إِلَى الرَّاحَةِ إِلَّا بِتَرْكِ الرَّاحَةِ، وَلَا يَدْرِكُ النَّعِيمَ إِلَّا بِتَرْكِ النَّعِيمِ، وَلَكِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا الَّتِي تُصِيبُ الْعَبْدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِنْدَ تَوْطِينِ النَّفْسِ لَهَا، وَتَمَرُّنِهَا عَلَيْهَا وَمَعْرِفَةِ مَا تَوْوُلُ إِلَيْهِ، تَنْقَلِبُ عِنْدَ أَرْبَابِ الْبَصَائِرِ مِنْحاً يَسْرُونَ بِهَا، وَلَا يَبَالُونَ بِهَا، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَقْوِيّاً لِعِزَائِمِهِمْ، وَمِنْهُضاً لِهَمَمِهِمْ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أَي: وَلَا تَهِنُوا وَتَضَعُفُوا فِي أَبْدَانِكُمْ، وَلَا تَحْزَنُوا فِي قُلُوبِكُمْ، عِنْدَمَا أَصَابَتْكُمْ الْمَصِيبَةُ، وَابْتَلَيْتُمْ بِهِذِهِ الْبَلَاءُ، فَإِنَّ الْحَزْنَ فِي الْقُلُوبِ، وَالْوَهْنَ عَلَى الْأَبْدَانِ، زِيَادَةُ مَصِيبَةِ عَلَيْكُمْ، وَعَوْنٌ لِعَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ، بَلْ شَجَعُوا قُلُوبَكُمْ وَصَبَرُوا، وَادْفَعُوا عَنْهَا الْحَزْنَ وَتَصَلَّبُوا عَلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ بِهِمُ الْوَهْنُ وَالْحَزْنُ، وَهُمْ الْأَعْلَوْنَ فِي الْإِيمَانِ، وَرَجَاءِ نَصْرِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ، فَالْمُؤْمِنُ الْمُتَيَقِّنُ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ لَا يَنْبَغِي مِنْهُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ [تعالى]: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ثم سألهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ فَأَنْتُمْ وَإِيَاهُمْ قَدْ تَسَاوَيْتُمْ فِي الْقَرْحِ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هَذَا أَيْضاً مِنَ الْحُكْمِ أَنَّهُ يَبْتَلِي اللَّهُ عِبَادَهُ بِالْهَزِيمَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ، لِيَتَبَيَّنَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ اسْتَمَرَ النَّصْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْوَقَائِعِ لَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَرِيدُهُ، فَإِذَا حَصَلَ فِي بَعْضِ الْوَقَائِعِ بَعْضُ أَنْوَاعِ الْإِبْتِلَاءِ، تَبَيَّنَ الْمُؤْمِنُ حَقِيقَةً الَّذِي يَرْغَبُ فِي الْإِسْلَامِ، فِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ، وَالْيُسْرِ وَالْعُسْرِ، مِمَّنْ لَيْسَ كَذَلِكَ.

﴿وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وَهَذَا أَيْضاً مِنْ بَعْضِ الْحُكْمِ، لِأَنَّ الشَّهَادَةَ عِنْدَ اللَّهِ

الشاكرين ﴿ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال . وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعمهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه ، فقد رُئِيس ولو عظم ، وما ذلك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه ، إذا فقد أحدهم قام به غيره ، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ، بحسب الإمكان ، لا يكون لهم قصد في رُئِيس دون رُئِيس ، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم . وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ ، لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجالاتها بإذن الله وقدره وقضائه ، فمن حُتْم عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب ، ومن أراد بقاءه ، فلو أتى <sup>(١)</sup> من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله ، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى : ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إراداتهم ، فقال : ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ كلاً نمُدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً .

﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرتهم وعظمتهم ، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر ، قلة وكثرة وحسناً .

﴿ ١٤٦ - ١٤٨ ﴾ ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴿ هذا تسلياً للمؤمنين ، وحث على الاقتداء بهم ، والفعل كفعالهم ، وأن هذا أمر قد كان متقدماً ، لم تزل سنة الله جارية بذلك ، فقال : ﴿ وكأين من نبي ﴾ أي : وكم من نبي قاتل معه ربيون كثير ﴾ أي : جماعات كثيرون من أتباعهم ، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة ، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك .

﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ أي : ما ضعفت قلوبهم ، ولا وهنت أبدانهم ، ولا استكانوا ، أي : ذلوا لعدوهم ، بل صبروا وثبتوا ، وشجعوا أنفسهم ، ولهذا قال : ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ .

ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم ، فقال : ﴿ وما كان قولهم ﴾ أي : في تلك المواطن الصعبة ﴿ إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ والإسراف : هو مجاوزة الحد إلى ما حرم ، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان ، وأن التخلي منها من أسباب النصر ، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر ، بل اعتمدوا على الله ، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين ، وأن ينصرهم عليهم ، فجمعوا بين الصبر وترك ضده ، والتوبة والاستغفار ، والاستنصار بربهم ، لا جرم أن الله نصرهم ، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ من النصر والظفر

والغنيمة ، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الفوز برضا ربهم ، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكبات ، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال ، فجازاهم بأحسن الجزاء ، فلهذا قال : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق ، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء ، كفعل هؤلاء الموصوفين <sup>(٢)</sup> .

﴿ ١٤٩ - ١٥١ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ . سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وماؤاهم النار وبئس مئوى الظالمين ﴾ .

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين ، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر ، وهم [قصدهم] <sup>(٣)</sup> ردهم إلى الكفر الذي عاقبه الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاكم وناصرهم ، ففيه إخبار لهم بذلك ، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه ، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده ولياً وناصراً من دون كل أحد ، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب ، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم ، وقالوا : كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمناهم ولما نستأصلهم ؟ فهموا بذلك ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، فأنصرفوا خائئين ، ولا شك أن هذا من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن يقطع

(٢) في ب : المؤمنين .

(٣) زيادة من هامش ب .

(١) في ب : فلو وقع .

طرفاً من الذين كفروا، أويكبتهم  
فينقلبوا خائبين، وهذا من الثاني

ورسولہ .

﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ وثبتوا حيث أمروا.

﴿ثم صرفكم عنهم﴾ أي : بعدما وجدت هذه الأمور منكم ، صرف الله وجوهكم عنهم ، فصار الوجه لعدوكم ، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً ، ليتين المؤمنين من الكافر ، والطائع من العاصي ، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم ، فلهذا قال : ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي : ذو فضل عظيم عليهم ، حيث منّ عليهم بالإسلام ، وهداهم لشرائعه ، وعفا عنهم سيئاتهم ، وأثابهم على مصيبتهم .

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿١٥٣ - ١٥٤﴾ ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ  
وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ  
فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا  
تَعْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ  
وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ \* ثُمَّ أُنْزِلَ  
عَلَيْكُمْ مِنَ بَعْدِ النِّعَمِ أَمْنَةٌ نَّعَاسًا يَفْشَى  
طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ  
يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ  
يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ  
إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا  
لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ  
الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي  
بَيوتِكُمْ لَبُرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ  
إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي  
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ  
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يَذْكُرُهُمُ  
تَعَالَى حَالَهُمْ فِي وَقْتِ انْهِزَامِهِمْ عَنِ  
الْقِتَالِ، وَيُعَاتِبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ:  
﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ أَي: تَجِدُونَ فِي الْهَرَبِ  
﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أَي: لَا يَلْوِي  
أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ،  
بَلْ لَيْسَ لَكُمْ هُمْ إِلَّا الْفِرَارُ وَالنَّجَاءُ عَنِ

ثم ذكر السبب الموجب للإلقاء  
الرعب في قلوب الكافرين، فقال :  
﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ  
سُلْطَانًا﴾ أي : ذلك بسبب ما اتخذوا  
من دونه من الأنداد والأصنام، التي  
اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم  
الفاصلة، من غير حجة ولا برهان،  
وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن،  
فمن ثم كان المشرك مرعوباً من  
المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق،  
وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق،  
هذا حاله في الدنيا، وأما في الآخرة  
فأشد وأعظم، ولهذا قال : ﴿وَمَا وَاهِمُ  
النَّارِ﴾ أي : مستقرهم الذي يأوون إليه  
وليس لهم عنها خروج، ﴿وَبَشِّرِ  
الظَّالِمِينَ﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم  
صارت النار مثواهم .

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إِذْ تَحْسَبُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدِ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بِالْغَنَةِ فَتَصَرَّفَكُمْ عَلَيْهِمْ، حَتَّى وَلَوْ كُمْ أَكْتَافُهُمْ، وَطَفَقْتُمْ فِيهِمْ قِتْلًا، حَتَّى صَرَفْتُمْ سَبَبًا لَأَنْفُسِكُمْ، وَعَوْنًا لِأَعْدَائِكُمْ عَلَيْكُمْ، فَلَمَّا حَصَلَ مِنْكُمْ الْفَشَلُ وَهُوَ الضَّعْفُ وَالْخَوَرُ ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الَّذِي فِيهِ تَرُكُ أَمْرُ اللَّهِ بِالْإِتِّتِلَافِ وَعَدَمِ الْإِخْتِلَافِ، فَاخْتَلَفْتُمْ، فَمَنْ قَائِلٌ نَقِيمٌ فِي مَرْكَزِنَا الَّذِي جَعَلْنَا فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ، وَمَنْ قَائِلٌ: مَا مَقَامُنَا فِيهِ وَقَدْ أَنْهَزْنَا الْعَدُوَّ، وَلَمْ يَبْقَ مَحْذُورٌ، فَعَصَيْتُمُ الرُّسُولَ، وَتَرَكْتُمْ أَمْرَهُ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ اللَّهُ مَا تَحْبُونَ وَهُوَ أَنْتِخَالَ أَعْدَائِكُمْ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا أَحَبَّ، أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهِ.

فالواجب في هذه الحال خصوصاً،  
وفى غيرها عموماً، امتثال أمر الله

وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ أَقْبَلَهُ إِلَّا اللَّهُ يُخَوِّدُ ۖ فَمَا رَحِمَهُ مِنْ  
أَنفُسِهِمْ لَمْ يَرَوْكَ كُنْتَ فَوْقَ غَيْطِ الْغَابِ لَا تَهْتَفُونَ  
بِهِ حَوْلَكُمْ قَاعُ غَفْ عَنَّهُمْ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْأَفْرَافِ  
فَإِذَا غَمَسَتْ نَوَاصِرُ كُلِّ آلٍ إِلَىٰ أَنْفِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٤  
يَمُرُّكُمْ إِلَهُ فَلَغَابِ لَكُمْ وَإِنْ يَحْدُثْ لَكُمْ فَنَآءٌ الَّذِي يَصْرِفُ  
مَنْ يُعَذِّبُ عَلَىٰ إِلَهِ فَلْيَسْأَلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٢٥ وَمَا كَانَ  
لِيَئْتِيَ أَنْ يَمْلَأَ مِنَ الْعِلْمِ بِأَن يُعَالَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَوَقَّعَ  
نَفْسٌ مَا كُتِبَ لَهُمْ لَا يُلَاقُونَ ۝١٢٦ أَفَمِنْ أَعْيُنِ رِضْوَانِ  
إِلَهِكُمْ يُبَاطِلُ حُجُوجَ اللَّهِ وَمَا يُدْخِلُكُمْ فِيهِ مِنَ الْغَايِبِ  
لَمْ تَكُنْ مِنْكُمْ رَحْمَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ يُفَصِّرُ مَا يَشَاءُ ۝١٢٧  
لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ  
أَنْفُسِهِمْ تَلَا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّاهُمْ وَوَعَلَمَ الْاِكْبَارِ  
وَالْحِكْمَةِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ نَزْلِ سَبِيلِ مُحَمَّدٍ  
أَوَّلًا أَصْبَحَتْكُمْ صِبْغَةً نَدَّ أَصْبَغَ مِنْهَا فَلَمَّا أَنِ هَذَا  
قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَدِيرٌ ۝١٢٨

القتال .

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير ،  
إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء ،  
وبإشر الهيحاء ، بل ﴿الرسول  
يدعوكم في أخراكم﴾ أي : مما يلي  
القوم يقول : «إلى عباد الله» ، فلم  
تلتفتوا إليه ، ولا عرجتم عليه ، فالفرار  
نفسه موجب للوم ، ودعوة الرسول  
الموجبة لتقديمه على النفس ، أعظم لوماً  
بتخلفكم عنها ، ﴿فأنا بكم﴾ أي :  
جازاكم على فعلكم ﴿غماً بكم﴾ أي :  
غماً يتبع غماً ، غم بفوات النصر  
وفوات الغنيمة ، وغم بانهزامكم ، وغم  
أنساكم كل غم ، وهو سماعكم أن  
عمداً ﷺ قد قتل .

ولكن الله - بلطفه وحسن نظره لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققت أن الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واعتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لَكِيلًا﴾

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَذَنُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ  
 ١٥٥ وَيُعَلِّمُ الَّذِينَ يَتَّقُونَ قُلُوبَهُمْ تَعَلُّمًا يَنْفَعُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 أَوْ يَدْفَعُوهُنَّ أَتَالْوَالِدِينَ إِلَّا لَتَنْتَضِرُنَّ كُرْسِيَّ اللَّهِ عَذَابًا  
 يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ يَدْعُونَ لِلْإِيمَانِ يُدْعَوْنَ بِأَفْوَاهِهِمْ إِلَى  
 قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٥٦ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ  
 وَقَعَدُوا أَلَا طَاعُونَا مَا قِيلُوا قُلْ فَادْرَأْ وَأَعْنِ أَفْعَلْكُمْ  
 لَقَوْلُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٥٧ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَعْيَتْ عَنْ دَرَجَتِهِمْ وَرُفُوحِهِمْ ١٥٨  
 وَجُنَّ عَنْ عَمَلِهِمْ اللَّهُ مِنْ قَضَائِهِمْ وَتَسْتَشِيرُوكَ بِالَّذِينَ  
 لَزِمُوا حَقُّوهُمُ مِنْ حَلْفِهِمْ أَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٥٩  
 \* تَسْتَشِيرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ وَنُصْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِلُّ فِي  
 الْإِتْمَانِ ١٦٠ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُعْطُوا أَجْرَهُمْ  
 أَجْرًا كَثِيرًا ١٦١ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَتَوْا  
 أَلَيْنَ قَالَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْزَعُوا  
 فَرَأَوْهُمُ اتَّخَذُوا الرَّحْمَنَ إِلَهًُا وَوَعَدَ اللَّهُ لَكُمْ الْجَنَّةَ ١٦٢

٧٢

تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم  
 يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة  
 عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتمرنوا  
 على الصبر على المصيبات، وتخف  
 عليكم تحمل المشقات: «ثم أنزل  
 عليكم من بعد الغم» الذي أصابكم  
 «أمنة ناعسا يغشى طائفة منكم».

ولا شك أن هذا رحمة بهم،  
 وإحسان وتشبث لقلوبهم، وزيادة  
 طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس  
 لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف  
 عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها  
 بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم  
 هم إلا إقامة دين الله، ورضاه الله  
 ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين.

وأما الطائفة الأخرى الذين «قد  
 أهتمهم أنفسهم» فليس لهم هم في  
 غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم،  
 فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب  
 غيرهم، «يقولون هل لنا من الأمر من  
 شيء» وهذا استفهام إنكاري، أي: ما  
 لنا من الأمر - أي: النصر والظهور -  
 شيء، فأسأروا الظن برهبهم وبدينه  
 ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر  
 رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفصلة  
 والقاضية على دين الله، قال الله في  
 جوابهم: «قل إن الأمر كله لله» الأمر

يشمل الأمر القدري، والأمر  
 الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله  
 وقدره، وعاقبة النصر والظفر  
 لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى  
 عليهم ما جرى.

«يخفون» يعني المنافقين «في  
 أنفسهم ما لا يبدون لك» ثم بين الأمر  
 الذي يخفونه، فقال: «يقولون لو كان  
 لنا من الأمر شيء» أي: لو كان لنا في  
 هذه الواقعة رأي: ومشورة «ما قتلنا  
 هاهنا» وهذا إنكار منهم وتكذيب  
 بقدر الله، وتنفيه منهم لرأي:  
 رسول الله ﷺ، ورأي: أصحابه،  
 وتركهم لأنفسهم، فرد الله عليهم  
 بقوله: «قل لو كنتم في بيوتكم» التي  
 هي أبعد شيء عن مظان القتل «لبرز  
 الذين كتب عليهم القتل إلى  
 مضاجعهم» فالأسباب - وإن  
 عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها  
 القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم  
 تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما  
 كتب في اللوح المحفوظ من الموت  
 والحياة، «وليتلي الله ما في  
 صدوركم» أي: يختبر ما فيها من نفاق  
 وإيمان وضعف إيمان، «وليمحص ما  
 في قلوبكم» من وساوس الشيطان،  
 وما تأثر عنها من الصفات غير  
 الحميدة.

«والله عليم بذات الصدور» أي:  
 بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه  
 وحكمته أن قدر من الأسباب، ما به  
 تظهر مخبات الصدور وسرائر الأمور.

«١٥٥» ثم قال تعالى: «إن الذين  
 تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما  
 استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد  
 عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم» يخبر  
 تعالى عن حال الذين انهمزوا يوم «أحد»  
 وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من  
 تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم  
 ببعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه على  
 أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من  
 المعاصي، لأنها مركبة ومدخله، فلو  
 اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم

من سلطان.  
 قال تعالى: «إن عبادي ليس لك  
 عليهم سلطان» ثم أخبر أنه عفا عنهم  
 بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذه، وإلا  
 فلو واخذهم لاستأصلهم.

«إن الله غفور» للمذنبين الخطائين  
 بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار،  
 والمصائب المكفرة، «حلیم» لا  
 يعاجل من عصاه، بل يستأني به،  
 ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه.

ثم إن تاب وأتاب قبل منه، وصيره  
 كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر منه  
 عيب، فله الحمد على إحسانه.

«١٥٦ - ١٥٨» «يا أيها الذين  
 آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا  
 لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو  
 كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما  
 قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم  
 والله يحيي ويميت والله بما تعملون  
 بصير» \* ولئن قتلتم في سبيل الله أو  
 متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما  
 يجمعون \* ولئن متم أو قتلتم لإلى الله  
 تحشرون» ينهى تعالى عباده المؤمنين أن  
 يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون  
 برهبهم، ولا يقضائه وقدره، من  
 المنافقين وغيرهم.

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء،  
 وفي هذا الأمر الخاص وهو أنهم  
 يقولون لإخوانهم في الدين أو في  
 النسب: «إذا ضربوا في الأرض»  
 أي: سافروا للتجارة «أو كانوا غزى»  
 أي: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو  
 موت، يعارضون القدر ويقولون:  
 «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا»  
 وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى:  
 «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين  
 كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم»  
 ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا  
 أن الله يجعل هذا القول، وهذه العقيدة  
 حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم،  
 وأما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن  
 ذلك بقدر الله، فيؤمنون ويسلمون،



فيهدي الله قلوبهم ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة.

قال الله رداً عليهم: ﴿والله يحیی ويمیت﴾ أي: هو المنفرد<sup>(١)</sup> بذلك، فلا يغني حذر عن قدر:

﴿والله بما تعملون بصیر﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلهم إليه، فيجازي كلاً بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله!!

﴿١٥٩﴾ ﴿فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن أنت<sup>(٢)</sup> لهم جانبك، وخففت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك.

﴿ولو كنت فظاً﴾ أي: سيئ الخلق ﴿غليظ القلب﴾ أي: قاسيه، ﴿لانفضوا من حولك﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول،

فكيف بغيره؟!

أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان.

﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره: منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا جمع أهل الرأي: والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث - اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمنشبد<sup>(٣)</sup> عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فيذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي: المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً، وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً -: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ فكيف بغيره؟!

فَاتَّخَذُوا بَيْنَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا لِيُسْهِمَهُمْ بِشَئِئِهِمْ وَاسْتَعْوَضُوا مِنْهُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ١٦٠ ﴿إِنَّمَا ذَكَرَ الشَّيْطَانُ يَحْزَنُ ١٦١﴾ وَلَا تَحْزَنْكَ الْذِّكْرُ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبَصَرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ خَطَأً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٦٢ ﴿إِنَّ الْذِّكْرَ أَشَدُّ وَحْشًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ لَنَبَصَرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٦٣﴾ وَلَا تَحْزَنْكَ الْذِّكْرُ كُفْرًا وَالْمَنَّا عَلَىٰ طَمَعٍ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَعْمَىٰ لَهُمْ لَوْ دَاوُوا إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦٤ ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِمِيزٍ الْبَحِيثِ مِنَ الطَّبِيعِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ ١٦٥﴾ وَإِنْ تُؤْمُرُوا فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ١٦٦ وَلَا يَحْزَنُ الْذِّكْرُ يَسْرِعُونَ بِمَا أَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِمْ هُوَ الَّذِي لَمْ يَلْهُو سَرَفُهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَجْعَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ يَمِزُ السَّوَابَ وَالْأَرْضُ لِلَّهِ يَمْعَمُونَ حَبِيرٌ ١٦٧

ثم قال تعالى: ﴿فإذا عزمت﴾ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فتوكل على الله﴾ أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه، اللاجئين إليه.

﴿١٦٠﴾ ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فلا غالب لكم﴾ فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وإن يخذلكم﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده؟﴾ فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق.

وفي<sup>(٤)</sup> ضمن ذلك الأمر بالاستئصال بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تقديم المعمول يؤذن بالحصر، أي: على الله

(٤) في ب: وقد.

(٣) في ب: يستبد.

(١) في ب: المنفرد.

(٢) في الأصل: (لنت).

حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأمناء الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها.

﴿١٦٤﴾ ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ هذه المنة التي امتن الله بها على عباده، أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحا لهم، مشفقا عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها.

﴿ويزكيهم﴾ من الشريك، والمعاصي، والردائل، وسائر مساوئ الأخلاق.

و ﴿يعلمهم الكتاب﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب - هنا - الكتابة، فيكون قد امتن عليهم، بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ، ﴿والحكمة﴾ هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة.

فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين، ﴿وإن كانوا من قبل﴾ بعثة هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزيكي النفوس ويظهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض

أعدائهم، لأن معرفته بنيتهم، مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته.

ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: ﴿ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة﴾ أي: يأت به حامله على ظهره، حيوانا كان أو متاعا، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة، ﴿ثم توفي كل نفس ما كسبت﴾ الغال وغيره، كل يوفي أجره ووزره على مقدار كسبه، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئا من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة.

لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيقه وجزاءه، وكان الاختصار على الغال يوهم - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره.

﴿١٦٢﴾ - ﴿١٦٣﴾ ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ﴿يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك، ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله، وحكمة الله، وفي فطر عباد الله﴾ ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا، لا يستويان﴾ ولهذا قال هنا: ﴿هم درجات عند الله﴾ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيه الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدرجات إلى أسفل سافلين، كل على



توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار.

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿١٦١﴾ ﴿وما كان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، [والخيانة في كل مال يتولاه الإنسان] <sup>(١)</sup> وهو محرم إجماعا، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغفل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأشر العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يندسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقا، وأطهرهم نفوسا، وأزكاهم وأطيبهم ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمته ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلا متهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من





الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أحياء عند ربهم﴾ في دار كرامته.

ولفظ: ﴿عند ربهم﴾ يقتضي علو درجتهم، وقرابهم من ربهم، ﴿يرزقون﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنعص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم <sup>(١)</sup> النعيم والسرور، وجعلوا ﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا، ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي: يستبشرون بزال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ أي: يبنون بعضهم بعضاً، بأعظم مهناً

(١) في النسخين: فتم له.

(٢) في النسخين: الخائفين له، ولعل الأقرب ما أثبت.

به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ بل ينميهم ويشكرهم، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

﴿١٧٢ - ١٧٥﴾ ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل \* فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم \* إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين \* لما رجع النبي ﷺ من «أحد» إلى المدينة، وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا - على ما بهم من الجراح - استجابة لله ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حراء الأسد»، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ وهموا باستئصالكم، تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالا عليه.

﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي: كافينا كل ما أمنا ﴿ونعم الوكيل﴾ المقوض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم. ﴿فانقلبوا﴾ أي: رجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء.

وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،

حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فيسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم ثم قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عدم إيمانهم، أو ضعف. ﴿فلا تخافوهم﴾ وخافون إن كنتم مؤمنين \* أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه <sup>(٢)</sup> المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿١٧٦ - ١٧٧﴾ ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم \* كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم عليه \* إنهم لن يضروا الله شيئاً \* فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وخصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له









إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه،  
فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم  
مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى،

ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أَي :  
من الأمور التي يعزم عليها ، وينافس  
فيها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم  
والهمم العالية كما قال تعالى : ﴿وَمَا  
يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا  
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ .

﴿١٨٧ - ١٨٨﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ \* لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه [الله] الكتب وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتُمهم ذلك، ويخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل.

فأما الموفقون، فقاموا بهذا أتم  
القيام، وعلموا الناس بما علمهم الله،  
ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق،  
وخوفاً من إثم الكتمان.

وأما الذين أوتوا الكتاب، من  
اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا  
هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم،  
فلم يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا  
الباطل، تجرؤاً على معارم الله، وتهاوناً  
بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا  
بذلك الكتمان ثمناً قليلاً، وهو ما

يحصل لهم إن حصل من بعض  
الرياسات، والأموال الحقيرة، من  
سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين  
شهواتهم على الحق، ﴿فبئس ما  
يشترون﴾ لأنه أخس العوض، والذي  
رغبوا عنه - وهو بيان الحق، الذي فيه  
السعادة الأبدية، والمصالح الدينية  
والدنيوية - أعظم المطالب وأجلها،  
فلم يختاروا الدنيء الخسيس وتركوا  
العالى النفيس، إلا لسوء حظهم  
وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما  
خلقوا له .

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾  
أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق  
الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر  
وقوله، والفرح بذلك وسجدة أن يحمدوا  
على فعل الخير الذي ما فعلوه.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعمه

يستطع فعلی جنب، وأنهم **﴿يتفكرون﴾** في خلق السماوات والأرض **﴿أي﴾** ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، فيقولون: **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه﴾** عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

**﴿فقنا عذاب النار﴾** بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

ويتضمن ذلك سؤال الجنة، لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم، **﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيت﴾** أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها، ولهذا قال: **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

**﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾** وهو محمد **﴿ص﴾**، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه.

**﴿فأما﴾** أي: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك، أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

**﴿وتوفنا مع الأبرار﴾** يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات.

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سأله الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز

عذاب النار **﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيت﴾** وما للظالمين من أنصار **﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾** ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد **﴿يخبر تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار﴾** وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأهم قوله: **﴿آيات﴾** ولم يقل: «على المطلب الفلاني» إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الأحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضع الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، من لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وخص الله بالآيات أولي الأبصار، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الأبصار بأنهم **﴿يذكرون الله﴾** في جميع أحوالهم: قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم **﴿وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم**



أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد ويشنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: **﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾** وقال: **﴿سلام على نوح في العالمين، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾** وقد قال عباد الرحمن: **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾** وهي من نعم الباري على عبده، ومنته التي تحتاج إلى الشكر.

**﴿١٨٩﴾** **﴿ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير﴾** أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما، من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

**﴿١٩٠ - ١٩٤﴾** **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار﴾** الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم **﴿يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه﴾** فقنا

برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم، وقبل تضرعهم، فلهذا قال:

﴿١٩٥﴾ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب، أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً، ﴿بعضكم من بعض﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلباً لرضا ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل.

﴿والله عنده حسن الثواب﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك، فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه، بما يقدر عليه العبد.

﴿١٩٦-١٩٨﴾ لا يفرنك قلب الذين كفروا في البلاد \* متاع قليل ثم ماؤهم جهنم وبئس المهاد \* لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار \* وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعيمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات،

وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله \* متاع قليل \* ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً، ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

وأما المتقون لربهم، المؤمنون به - فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها \* لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها \*.

فلنقدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة، وعتاء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزراً يسيراً، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من برة أجر عظيم، وعطاء جسيماً، وفوزاً دائماً.

﴿١٩٩-٢٠٠﴾ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب \* يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون \* أي: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض.

ولهذا - لما كان إيمانهم عاماً حقيقياً - صار نافعاً، فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ومن تمام خشيتهم لله، أنهم \* لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً \*.

وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآنتن إحدنكم فطارا فكلأ تأخذوا منه شيئاً أناخذ منه شيئاً وأنسا نينا \* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذت منكم نكاحاً غليظاً \* ولأنك حراماً لكم آياتكم من النساء إلا ما قد سلف إن كنات فجنه ومفنا وساء سبيلاً \* حرمت عليكم أمهاتكم ومهاتكم وأخواتكم وعمهاتكم وأمهاتكم ونسباً الأنح ونسباً الأخن وأمهاتكم التي أرضعنكم وأمهاتكم نسباًكم وأخواتكم التي أرضعنكم وأخواتكم نسباًكم التي تملكنهم وإن لم تملكنهم فكلأ جحاح عليكم ومكليل آياتكم الذين ين أسلككم وأت تخمروا آيات الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان عفواً رحماً \*.

الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران، الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو: أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فأثروا الحق وبينوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل، والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستبطؤون ما وعدهم الله، لأن ما هوأت محقق حصوله، فهو قريب.

ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر، الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

والمصابرة أي<sup>(١)</sup>: الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال. والمرابطة وهي<sup>(٢)</sup>: لزوم المحل

(١) في بزمي.

(٢) في السخين وهو: ولعل الصواب ما أثبت.



على ذلك .

وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه لأنه ﴿ربكم الذي خلقكم﴾ ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة، التي من جملتها خلقكم ﴿من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ ليناسبها، فيسكن إليها، وتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور، وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم، توسلتم لها بالسؤال بالله . فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سأله بالله، فكما عظيمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته وتقواه .

وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي: مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكنوتهم، وسرهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقباً لهم فيما مما يوجب مراقبته، وشدة الحياء منه، يلزوم تقواه .

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض . وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به، وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها . فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجل منها، موضحة لما أهم .

وفي قوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج

والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال، وأقرب (١) علاقة .

وقوله تعالى: ﴿وأتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾، هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة . وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين (٢) لهم، وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم .

فأمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقرّبوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا، كاملة موفرة، وأن لا ﴿تبدلوا الخبيث﴾

الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق . ﴿بالطيب﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة . ﴿ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ أي: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقيح أكل مالهم بهذه الحالة، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله، فمن تجرأ على هذه الحالة، فقد أتى ﴿حوباً كبيراً﴾ أي: إثماً عظيماً، ووزراً جسيماً .

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس . وفيه الولاية على اليتيم، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية المؤتي على ماله .

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله حفظه، والقيام به بما يصلحه وينميّه، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار .

﴿٣ - ٤﴾ ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما ظاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعملوا﴾ وأتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء



الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والديني والأخروي، وينجون من المكروه كذلك .

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمراعاة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإخلاص بها أو ببعضها .

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به .

تم تفسير «سورة آل عمران» والحمد لله على نعمته، ونسأله تمام النعمة .

#### تفسير سورة النساء وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه، والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث

(١) في ب: وأوثق .

(٢) كذا في ب، وفي أ: الذين فقدت آباؤهم الكافلون .



وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحاً - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطى العبد.

لهم قولاً معروفاً السفهاء، جمع «سفيه»، وهو من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعته، ونحوهما، وإما لعدم رشد كالصغير وغير الرشيد. فنهى الله الأولياء أن يؤثروا هؤلاء أموالهم، خشية إفسادها وإتلافها، لأن الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها، فأمر الولي أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبدل منها ما يتعلق

﴿٦﴾ ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا  
بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا  
فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا  
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا  
فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ  
بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ  
فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾  
الابتلاء: هو الاختبار والامتحان.  
وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد،  
الممكن رشده، شيئاً من ماله،  
ويتصرف فيه التصرف اللائق بحالة،  
فيمتحن بذلك رشده من سفهه. فإن



استمر غير محسن للتصرف، لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً.

فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ كاملة موفرة. ﴿ولا تاكلوها إسرافاً﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وبنداراً أن يكبروا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم، التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوك منها.

وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال، حال فرصة، فيغتتمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿٧﴾ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴿كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم<sup>(١)</sup> وقسوتهم،

لا يورثون الضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء، لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقويأؤهم وضعفأؤهم. وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملًا، لتوطن على ذلك النفوس.

فيأتي التفصيل بعد الإجمال، قد تشوفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: ﴿للرجال نصيب﴾ أي: قسط وحصّة ﴿مما ترك﴾ أي: خلف ﴿الوالدان﴾ أي: الأب والأم ﴿والأقربون﴾ عموم بعد خصوص ﴿وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾.

فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي: قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي - إن شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فها هنا توهم آخر، لعل أحداً يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿مما قل منه أو كثر﴾ فبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿٨﴾ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴿وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجارية للقلوب، فقال: ﴿وإذا حضر القسمة﴾ أي: قسمة الموارث ﴿أولو القربى﴾ أي: الأقارب غير الوارثين، بقرينة قوله: ﴿القسمة﴾ لأن الوارثين من المقسوم عليهم. و﴿اليتامى والمساكين﴾ أي: المستحقون من الفقراء.

﴿فارزقوهم منه﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب، فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم

متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم. ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين» أو كما قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حق سفهاء، أو ثم أهم من ذلك - فليقولوا لهم قولاً معروفاً يردوهم<sup>(٢)</sup> رداً جيلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴿قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت وأجنف في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها، بدليل قوله: ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ أي: سداداً، موافقاً للقسط والمعروف. وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده، بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف. ﴿فليتقوا الله﴾ في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملوهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد

(٢) في ب: يردونهم.

(١) في النسختين: جبروتهم.

العذاب فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظلماً﴾ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم، من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى.

فَمَنْ أَكَلَهَا ظُلْماً، ذ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بطونهم ناراً﴾ أي: فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم وهم الذين أدخلوها في بطونهم. ﴿وَيَصِلُونَ سَعيراً﴾ أي: ناراً محرقة متوقدة. وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر. نسأل الله العافية.

﴿١١- ١٢﴾ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنْثَىٰ فَإِنْ كُنَ نَسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِمَّا بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ آبَائِكُمْ وَأَيُّكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ ولَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ وَلَهُنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاءَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مِضَارٍ وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ هذه الآيات، والآية التي هي آخر السورة هن آيات الموارث المتضمنة لها: فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت في صحيح البخاري «أَلْحَقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوَّلَى رَجُلٍ ذَكَرَ» - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات

فإنه غير مذكور في ذلك. لكنه قد ثبت في السنن، عن المغيرة بن شعبه، ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

فَقُولَهُ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي: أولادكم - يا معشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم، وتكفونهم عن المفسد، وتأمرهم بطاعة الله، وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فالأولاد عند والديهم موصى بهم، فإما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب. وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرخم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم، عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾ أي: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثى، إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه - مع وجود أولاد الصلب - فالميراث لهم. وليس لأولاد الابن شيء، حيث كان أولاد الصلب، ذكوراً وإناثاً، هذا مع اجتماع الذكور والإناث. وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها. وانفراد الإناث، وقد ذكره بقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي: بنات صلب أو بنات ابن، ثلاثاً فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ أي: بنتاً أو بنت ابن ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وهذا إجماع.

بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثلثين الثلث بعد الإجماع على ذلك؟

فالجواب أنه يستفاد من قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة، انتقل

وَالَّذِينَ يَبْذُرُونَ آمُورَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ رِثَاءً وَمَا دَاغَ عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّ آيَاتَ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمْثُلُ مَا رَفَعَهُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴿١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُظِلُّهُ شَيْءٌ ذَرِيرٌ وَإِنْ تَكْ حَسْبُهُ يَصْلِحُهَا وَيُؤْتِي مَنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصْعَقُونَ الْأَرْضُ وَالْأَرْضُ لَا يَكْتُمُونَ أَنَّهُ حَدِيثُكَ ﴿١٨﴾ بِكَلِمَاتٍ الْإِنْسَانُ أَمَرٌ لَّا تَفْقَهُوا الصَّلَاةَ وَأَنَّهُمْ شَكَرُوا حَتَّى تَقُولُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جِبَالٌ إِلَّا غَوَارٍ سَبِيلُ حَتَّى تَنْتَبِهُوا وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ أَوْعَىٰ سَفَرًا أَوْجَاءَ لَحْدِكُمْ رَبِّ الْقَائِلِ أُولَئِكَ الْكَافِرُ فَتَجَدَّدُوا مَاءً فَتَسَمُّوا صَعِيداً أَيْباً فَتَسْحَرُوا بِمُحَرِّكُمْ وَأَيْدِيكُمْ رَبُّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُوًّا غَفُوراً ﴿٢٠﴾ الرَّزَّاقِ الَّذِينَ أَتَوْا نَصِيْبَاتَهُنَّ الْكِتَابِ بِشَرِّهِ وَالصَّلَاةِ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٢١﴾

الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان. وأيضاً فقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾ إذا خلف ابناً وبنتاً، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبتين الثلثين.

وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضرراً عليها من أخيها، فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى. وأيضاً فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ، فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ﴾ نص في الأختين الثلثين.

فإذا كان الأختان الثلثان - مع بعدهما - يأخذان الثلثين، فالابنتان - مع قربهما - من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين كما في الصحيح.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾؟ قيل: الفائدة في ذلك - والله أعلم - أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان، لا يزيد بزيادتهن على الثلثين، بل من الثلثين فصاعداً. ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين للذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن، أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ صَبِيرًا ⑤  
 مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَيَقُولُونَ  
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَبَّنَا إِنَّا أَلَيْنَاهُمْ  
 وَطَعْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَلَوِ اتَّخَذَ اللَّهُ لَكُمْ خِزْفًا مِمَّا تَكْفُرُونَ  
 لَكَانَ خَيْرًا لَّكُمْ وَأَقْوَمُ وَلَكِنْ لَنَعْلَمَنَّ اللَّهُ خِيَرَتَهُ فَلَا تُؤْمِنُونَ  
 إِلَّا قَلِيلًا ⑥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكُفْبَاءُ امُوتُوا مِمَّا زَكَّيْتُمْ  
 مِمَّا كَانَتْ أَلْفَاظُكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُطْلِقُوا مِنْ رُوحِهِمْ دَهْرًا عَالِيًا  
 أَذْبَحْ رِجَالًا وَأَنْتُمْ كَمَا كُنْتُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ وَكَانَ اللَّهُ  
 مُتَعَوِّدًا ⑦ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْفُو عَمَّا دُونَ  
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ⑧  
 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ رَكِبُوا أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يَرَى مِنْ شِعَارِهِمْ  
 وَأَلْفَاظِهِمْ قِتْلَةً ⑨ أَنْظِرْكَ بِقُرْآنِكَ عَلَى اللَّهِ  
 الْكُفْبَاءُ وَكَفَى بِعَمَّا شَيْبْنَا ⑩ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا  
 مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ  
 كَفَرُوا هَمُّؤَلَاءُ أَهْدَى مِنَ الْإِيمَانِ أَتَمُوا سُبُلًا ⑪

ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن  
 اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات  
 أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من  
 دونهن من بنات الابن، لأن الله لم  
 يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم. فلو لم  
 يسقطن، لزم من ذلك أن يفرض لهن  
 أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص.  
 وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين  
 العلماء، والله الحمد.

ودل قوله: ﴿مما ترك﴾ أن الوازئين  
 يرثون كل ما خلف الميت، من عقار،  
 وأثاث، وذهب وفضة، وغير ذلك،  
 حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته،  
 وحتى الديون التي في الذمم<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال:  
 ﴿ولأبويه﴾ أي: أبوه وأمه ﴿لكل  
 واحد منهما السدس مما ترك إن كان له  
 ولد﴾ أي: ولد صلب أو ولد ابن،  
 ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً.  
 فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد  
 من الأولاد.

وأما الأب فمع الذكور منهم،  
 لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان

الولد أنثى أو إنثاء، ولم يبق بعد الفرض  
 شيء - كأبوين وابنتين - لم يبق له  
 تعصيب. وإن بقي بعد فرض البنت أو  
 البنات شيء، أخذ الأب السدس  
 فرضاً، والباقي تعصيباً، لأننا ألحقنا  
 الفروض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل  
 ذكر، وهو أولى من الأخ والعمة،  
 وغيرهما.

﴿فإن لم يكن له ولد، وورثه أبواه،  
 فلأُمّه الثلث﴾ أي: والباقي للأب،  
 لأنه أضاف المال إلى الأب والأم،  
 إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم،  
 فدل ذلك، على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب مع عدم  
 الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصيباً  
 المال كله، أو ما أبقت الفروض، لكن  
 لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين -  
 ويعبر عنهما بالعمريتين - فإن الزوج أو  
 الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم  
 ثلث الباقي والأب الباقي.

وقد دل على ذلك قوله: ﴿وورثه  
 أبواه، فلأُمّه الثلث﴾ أي: ثلث ما ورثه  
 الأبوان. وهو في هاتين الصورتين،  
 إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع  
 في زوجة وأم وأب. فلم تدل الآية على  
 إرث الأم، ثلث المال كاملاً، مع عدم  
 الأولاد حتى يقال: إن هاتين  
 الصورتين قد استثنيتا من هذا.

ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج  
 أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء،  
 فيكون من رأس المال، والباقي بين  
 الأبوين.

ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم  
 زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو  
 أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها  
 نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن  
 المعهود مساواتها للأب، أو أخذه  
 ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فإن كان له إخوة فلأُمّه السدس﴾  
 أشقاء، أو لأب، أو لأم، ذكوراً كانوا

أو إنثاء، وارثين أو محجوبين بالأب، أو  
 الجد [لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله:  
 ﴿فإن كان له إخوة﴾ شاملاً لغير  
 الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب  
 بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن  
 الثلث من الإخوة إلا الإخوة  
 الوارثون. وينويده أن الحكمة في  
 حجبتهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر  
 لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله  
 أعلم<sup>(٢)</sup>، ولكن بشرط كونهم اثنين  
 فأكثر، ويشكل على ذلك إتيان لفظ  
 «الإخوة» بلفظ الجمع. وأجيب عن  
 ذلك بأن المقصود مجرد التعدد  
 لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين.

وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان،  
 كما في قوله تعالى عن داود وسليمان.  
 ﴿وكنّا لحكمهم شاهدين﴾ وقال في  
 الإخوة للأم: ﴿وإن كان رجل يورث  
 كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل  
 واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من  
 ذلك فهم شركاء في الثلث﴾

فأطلق لفظ الجمع والمراد اثنان فأكثر  
 بالإجماع. فعلى هذا لو خلف أم وأباً  
 وإخوة، كان للأم السدس، والباقي  
 للأب، فحجبتوها عن الثلث، مع  
 حجب الأب إياهم [إلا على الاحتمال  
 الآخر فإن للأم الثلث والباقي  
 للأب]<sup>(٣)</sup>.

ثم قال تعالى: ﴿من بعد وصية  
 يوصي بها أو دين﴾ أي: هذه الفروض  
 والأنصباء والموارث، إنما ترد  
 وتستحق بعد نزع الديون التي على  
 الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا  
 التي قد أوصى الميت بها بعد موته،  
 فالباقي عن ذلك، هو التركة الذي  
 يستحقه الورثة.

وقدم الوصية مع أنها مؤخره عن  
 الدين للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها  
 شاقاً على الورثة، وإلا فالديون مقدمة  
 عليها، وتكون من رأس المال.

(١) في ب: الذمة.

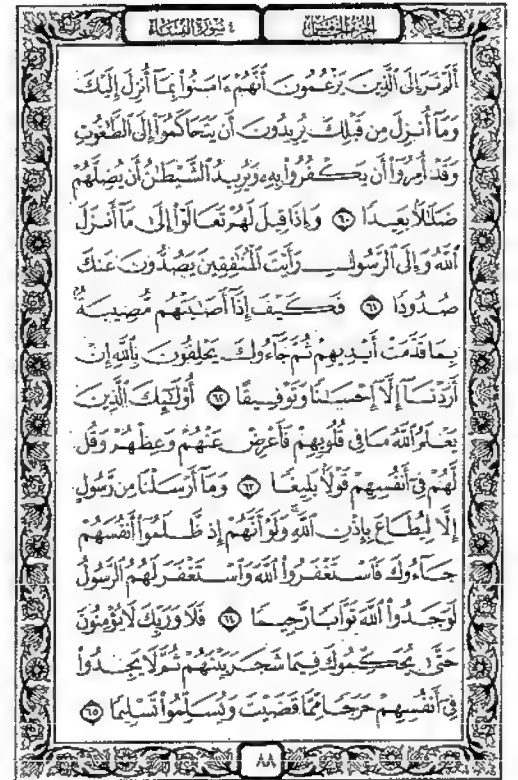
(٢) زيادة من هامش ب وهناك زيادة أخرى في هامش أ وإن لم يبين محلها، لكنها ذات صلة بهذا الموضوع وهي قوله: [وعند شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم] وبعد كلمة الأم كلمة غير واضحة في الأصل.

(٣) زيادة من هامش ب.









رتب عليه الإرث. فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه».

وهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانع الذي هو المخالفة في الدين، الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوي المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به. فيكون قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة، دون المرأة، كما في قوله

تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾. إيداناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين»<sup>(١)</sup> [انتهى].

وأما (الزريق) فإنه لا يرث ولا يورث، أما كونه لا يورث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾ - ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ - ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، فأما الزريق فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له. وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تتبع بعض أحكامه. فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبته الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك، فإذا يكون البعض يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية. وإذا كان العبد يكون محموداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

وأما (الخنثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنثويته، أو مشكلاً. فإن كان واضحاً فالأمر فيه واضح. وإن كان ذكراً فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم. وإن كان أنثى فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالأخوة للأُم - فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنثويته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين،

لا احتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل، لا احتمال ظلمنا له. فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور. و ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فافتقوا الله ما استطعتم.

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبْنِي مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ الآية. وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

فسمى الله الجد وجد الأب أباً. فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني الإخوة والأعمام وبنيهم، وسائر أحكام<sup>(٢)</sup> الموارث، فينبغي أيضاً أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه. فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورث الإخوة مع الجد، نص ولا إشارة، ولا تشبيه ولا قياس صحيح.

وأما مسائل (الحول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل الموارث أنصبا،

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

(١) في ب: العاقلين.

وهم بين حالتين:

إما أن يجنب بعضهم بعضاً، أو لا.

فإن حجب بعضهم بعضاً، فالمنحجب ساقط لا يزاحم ولا يستحق شيئاً، وإن لم يجنب بعضهم بعضاً، فلا يخلو، إما أن لا تستغرق الفروض التركية، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركية، ففي الحالتين الأولين كل يأخذ فرضه كاملاً. وفي الحالة الأخيرة، وهي ما إذا زادت الفروض على التركية فلا يخلو من حالين:

إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له، ونكمل للباقي منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعينت الحال الثانية، وهي: أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم (الرد). فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضهم التركية، وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد، فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاؤه غيرهم ممن ليس بقريب للميت، جنف وميل، ومعارضة لقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾. فتعين أن يرد على أهل الفروض بقدر فروضهم.

ولما كان الزوجان ليسا من القرابة، لم يستحقا زيادة على فرضهم المقدر [هذا عند من لا يورث الزوجين بالرد، وهم جمهور القائلين بالرد فعلى هذا تكون

علة الرد كونه صاحب فرض قريباً، وعلى القول الآخر أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يرد عليهما؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزدان بالرد كغيرهما فالعلة على هذا كونه وارثاً صاحب فرض، فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسنة، والقياس الصحيح والله أعلم<sup>(١)</sup>.

وبهذا يعلم أيضاً (ميزاث ذوي الأرحام) فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ولا عاصباً، وبقي الأمر دائراً بين كون ماله يكون لميت المال لمنافع الأجانب، وبين كون ماله يرجع إلى أقاربه المدلين بالورثة المجمع عليهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾. فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعين تورث ذوي الأرحام. وإذا تعين تورثهم، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدّر بأعيانهم في كتاب الله. وأن بينهم وبين الميت وسائط، صاروا يسببها من الأقارب. فيتزولون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

وأما (ميراث بقية العصبه) كالبنوة، والأخوة وبنوهم، والأعمام وبنوهم إلخ فإن النبي ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلاولى رجل ذكر». وقال تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾. فإذا ألحقنا الفروض بأهلها، ولم يبق شيء، لم يستحق العاصب شيئاً، وإن بقي شيء أخذه أولى العصبه، وبحسب جهاتهم ودرجاتهم.

فإن جهات العصبية خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، فيقدم منهم الأقرب جهة. فإن كانوا في جهة واحدة، فالأقرب منزلة، فإن كانوا في منزلة واحدة، فالأقوى وهو الشقيق،

وَأَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا وَعَدُوا غَدْرُوا بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيكًا ﴿١٤﴾ وَإِذَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا تَحِزُّوا عَلَيْهِمْ قُلُوبُكُمْ وَلَقَدْ يَنْبَغُ لَهُمْ سِرًّا عَلَيْهِمْ وَمِنْ يَنْبَغِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رِيفًا ﴿١٥﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿١٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَتُدْعَوْنَ أَمْ نَاقُصُكُمْ فَأَتُفَرُّوا ثَبَاتٍ أَوْ تُفَرُّوا وَاجْتِمَاعًا ﴿١٧﴾ وَإِنْ يَنْكَرُوا لَكُمْ يُبَيِّنْ فَإِنَّ أَمْرَكُمْ مَتَّيْبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شُهَدَاءَ ﴿١٨﴾ وَلَكِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقْبِلُ رِيفًا لَكُمْ لَكُمْ لَكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ بَلَّيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾ فَلَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُضِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْبَلْ أَوْ يُغْلَبْ قَسُوفٌ تُوْبُهُ أَعْرَافًا عَظِيمًا ﴿٢٠﴾

فإن تساوا من كل وجه اشتركوا. والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات، أو بنات الابن عصابات، يأخذن ما فضل عن فروضهن، فلا أنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات.

فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضيهن، فإنه يعطى للأخوات، ولا يعدل عنهن إلى عصبه أبعد منهن، كابن الأخ والعم، ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

﴿١٣ - ١٤﴾ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم \* ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين \* أي: تلك التفاصيل التي ذكرها في الموارث حدود الله التي يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها، وفي ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصبا الوراثين. ثم قوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾<sup>(٢)</sup> فالوصية للوارث بزيادة

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وقد جاء في ب بدل هذه الزيادة ما نصه: [عند القائلين بعدم الرد عليهما. وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقي الورثة في الرد فالدليل المذكور شامل للجميع، كما شملهم دليل العول].

(٢) هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فالآية ﴿تلك حدود الله﴾ وأثبت الشيخ - زيادة ﴿فلا تعتدوها﴾ وليس هنا محلها، وعلى مقتضى ما أثبت فسر، فأبقيت الكلام كما هو، وعدلت الآية.



على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله ﴿لَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ﴾. ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً، ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك، فيقال: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾. فمن أدى الأوامر، واجتنب النواهي، فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. ﴿وذلك الفوز العظيم﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالتعظيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب.

وَمَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَعْصِيَةً تَامَةً، يَدْخُلْ فِيهَا الشَّرْكَ فَمَا دُونَهُ،

دخل النار وخلد فيها، وَمَنْ اجْتَمَعَ فِيهِ مَعْصِيَةٌ وَطَاعَةٌ، كَانَ فِيهِ مِنْ مُوجِبِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ بِحَسَبِ مَا فِيهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿١٥- ١٦﴾ ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ \* واللذان يأتيناها منكم فأذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً﴾ أي: النساء ﴿اللاتي يأتين الفاحشة﴾ أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشاعتها وقبحها.

﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي: من رجالكم المؤمنين العدول. ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت﴾ أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً فإن الحبس من جملة العقوبات ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أي: هذا منتهى الحبس. ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ أي: طريقاً غير الحبس في البيوت، وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغية إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿وكذلك﴾ ﴿اللذان يأتيناها﴾ أي: الفاحشة ﴿منكم﴾ من الرجال والنساء ﴿فأذوهما﴾ بالقول والتوبيخ والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسن ويؤذبن.

فالحبس غاية إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: ﴿فإن تابا﴾ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه، وعزما على أن لا يعودا ﴿وأصلحا﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي: عن أذاهما ﴿إن الله كان

تواباً رحيماً﴾ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وفقهم للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا، لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن بناب أولى وأخرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، ستراً لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء متفردات، ولا مع الرجال، ولا مادون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتوسى إليه هذه الآية لما قال: ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾. لم يكتب بذلك حتى قال: ﴿فإن شهدوا﴾ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً، من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس، قد شرعه الله تعزيراً لحسن المعصية الذي يحصل به الزجر.

﴿١٧- ١٨﴾ ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ \* وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمأ منه وجوداً، لمن عمل السوء، أي: المعاصي ﴿بجهالة﴾ أي: جهالة منه بعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقب عليها. ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ثم

يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعاً. وأما بعد حضور الموت، فلا يقبل من العاصين توبة، ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَكُفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ، لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا، سِتَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

وقال هنا: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: المعاصي فيما دون الكفر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار. ويحتمل<sup>(١)</sup> أن يكون معنى قوله: «من قريب» أي: قريب من فعلهم للذنوب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنوبه<sup>(٢)</sup>، وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة.

والغالب أنه لا يوفق للتوبة، ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم تام<sup>(٣)</sup> ويقين، ومهاون<sup>(٤)</sup> بنظر الله إليه، فإنه سد<sup>(٥)</sup> على نفسه باب الرحمة.

نعم قد يوفق الله عبده المصّر على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة<sup>(٦)</sup> تامة<sup>(٧)</sup>، [التي] يمحوها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا

ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلا منهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه. والله أعلم.

﴿١٩ - ٢١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا \* وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ

مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإنما مبيناً \* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته، رأى قريبه كأخيه وابن عمه ونحوهما أنه أحق بزوجه من كل أحد، وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت. فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها عضلها، فلا يزوجه إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه أو من صداقها، وكان الرجل أيضاً يعضل زوجته التي [يكون] يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها، فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول، كما هو مفهوم قوله: ﴿كَرِهًا﴾. وإذا أتت بفاحشة مبينة كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها، فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها، عقوبة لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا \* وَيَمُوتُونَ طَاعَةً فَإِذَا رَأَوْا مِنْ عَيْنِكَ بَيْتَ طَافِكَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنْزِلُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا \* أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَارَىٰ وَأَنْ لَّوْكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا \* وَإِذَا جَاءَهُمْ مُنْزَرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَتَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ بَعْضَ الَّذِي يُفْقَهُونَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا \* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجه المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تتركوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً. من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبة لها - فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة. وربما أن الكراهة تزول وتخلقها المحبة، كما هو الواقع في ذلك. وربما رزق منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة. وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق، وليس

(٥) في ب: يسد.

(٦) في ب: للتوبة.

(٧) في ب: النافعة.

(٢) في ب: ذنبه.

(٣) في ب: قائم.

(٤) في ب: متهاون.

(١) في هامش أ: لويؤيد هذا الاحتمال

أن الله قال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ

الحاضرة ولم يقل: إنما يتوب الله،

وبين اللفظين فرق ظاهراً.



في النسب فهن السبع اللاتي ذكرهن الله.

الأم، يدخل فيها كل من لها عليك ولادة، وإن بعدت. ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم. والعمة: كل أخت لأبيك، أو لجدك، وإن علا. والخالة: كل أخت لأمك، أو جدتك، وإن علت، وارثة أم لا. وبنات الأخ، وبنات الأخت، أي: وإن نزلت.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ وذلك كينت العمة والعم، وبنات الخال والخالة.

وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله متنهن الأم، والأخت. وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتتيهه على أن صاحب اللبن، يكون أباً للمرتضع فإذا ثبت الأبوة والأمومة، ثبت ما هو فرع عنهما، كإخوتهما وأصولهم وفروعهم<sup>(٢)</sup>.

وقال النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». فينتشر التحريم من جهة الرضعة ومن له اللبن، كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط. لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين، كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع. حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الإبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين. وأمّهات الزوجة وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرم من بمجرد العقد.

والرابعة: الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجه كما قال هنا ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ الآية.

وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿اللاتي في حجوركم﴾ قيد خرج مخرج

ذلك، التي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى المعوض، فثبت عليه العوض، فكيف يستوفي المعوض، ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور، وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد، والقيام بحقوقها. ثم قال تعالى:

﴿٢٢﴾ ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾ أي: لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آبائكم، أي: الأب وإن علا. ﴿إنه كان فاحشة﴾ أي: أمراً قبيحاً يفحش ويعظم قبحه ﴿ومقتاً﴾ من الله لكم ومن الخلق، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه، والأب ابته، مع الأمر بيره.

﴿وساء سبيلاً﴾ أي: بثس الطريق طريقاً لمن سلكه، لأن هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالتره عنها والبراءة منها.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمّهات نساءكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ والمحصات من النساء إلا ما علكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً﴾ هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحلات من النساء. فأما المحرمات

الله لا إله إلا هو لجمعكم إلى يوم القيامة لا رب و من أصدق من الله حديثاً ﴿٢٥﴾ قال كوفي التقيين فتبين والله أنكمهم بما كسبوا أريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن يجد له سبيلاً ﴿٢٦﴾ ودواؤهم فكفروا كما كفروا فتكفرون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم وأقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وآلياً ولا نصيراً ﴿٢٧﴾ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقاً وما كسبوا حصرت صدورهم أن يقاتلكم أو يمددوا فمهم ولو مشاة الله أسلطهم عليكم فقتلواكم وإن أصركم فقتلواكم وألقوا إليكم السرقة فاجعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴿٢٨﴾ سجدون آخرين يريدون أن يأمنواكم ويأمنوا فمهم كل ما ردوا إلى الفسقة الأسوأ فإن لم يعزّلواكم ويأمنوا إليكم السرقة ويحكموا أيديهم فخذوهم وألقواهم حيث يفسقون وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴿٢٩﴾

للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم. بل متى أردتم استبدال زوج مكان زوج، أي: تطليق زوجة، وتزوج أخرى. أي: فلا جناح عليكم في ذلك ولا حرج. ولكن إذا أتيتم إحداهن، أي: المفارقة، أو التي تزوجها قنطاراً، أي: مالا كثيراً. ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ بل وفروه لهن، ولا تمطلوا بهن.

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر. ووجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم، ولم ينكره عليهم. فدل على عدم تحريمه [لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحة تقاوم]<sup>(١)</sup>.

ثم قال: ﴿أتأخذونه ببتاناً وإثماً مبيناً﴾ فإن هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل، فإن إثمه واضح.

وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾. وبيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج، ولم ترض بنحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل بها وأفضى إليها، وباشرها المباشرة التي كانت حراماً قبل

(٢) في ب: وأصولهما وفروعهما.

(١) زيادة من هامش ب.



الغالب، لا مفهوم له، فإن الريبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحداها: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الريبة، وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالريبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمته. وحرم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداها ذكراً والأخرى أنثى، حرمت عليه، فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح المحصنات من النساء أي: ذوات الأزواج. فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق وتنقضي عدتها. **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾** أي: بالسبي، فإذا سببت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين، بعد أن تستبرأ. وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت، فإنه لا يفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريدة حين خيرها النبي ﷺ.

وقوله: **﴿كتاب الله عليكم﴾** أي: الزموه واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: **﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾** كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب. فالجرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله ورحمة، وتيسيراً للعباد.

وقوله: **﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾** أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم **﴿محصنين﴾** أي: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم.

**﴿غير مسافحين﴾** والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته، لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك﴾**.

**﴿فما استمتعتم به منهن﴾** أي: ممن تزوجتموهن **﴿فآتوهن أجورهن﴾** أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع. ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقها، **﴿فريضة﴾** أي: إتيانكم إياهن أجورهن، فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده. أو معنى قوله فريضة: أي: مقدرة قد قدرتموها، فوجبت عليكم، فلا تنقصوا منها شيئاً.

**﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة﴾** أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس [هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم<sup>(١)</sup>].

**﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾** أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة. فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

**﴿٢٥﴾** ثم قال تعالى: **﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات**

أخذان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾ أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات، أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت، أي: الزنا أو المشقة الكثيرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات. وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمر الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.

**﴿فانكحوهن﴾** أي: المملوكات **﴿بإذن أهلهن﴾** أي: سيدهن، واحداً، أو متعدداً.

**﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾** أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحر، فكذلك يجب للأمة. ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن **﴿محصنات﴾** أي: عفيفات عن الزنا **﴿غير مسافحات﴾** أي: زانيات علانية **﴿ولا متخذات أخذان﴾** أي: أخلاء في السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة، إلا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهن، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طول الخرة، وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن.

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل، لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب. وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك. ولهذا قال: **﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾**.

وقوله: **﴿فإذا أحصن﴾** أي: تزوجن أو أسلمن، أي: الإماء **﴿فعليهن نصف ما على المحصنات﴾** أي: الحرائر **﴿من العذاب﴾**.

وذلك الذي يمكن تنصيفه، وهو

(١) زيادة من هامش ب، وزيادة غير واضحة، وقد أتممتها من طبعة السلفية.

وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك، أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ \* وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا \* وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نَصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا \* يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ بَيْنَهُمْ بِالْبَاطِلِ، وَهَذَا يَشْمَلُ أَكْلَهَا بِالْغُصُوبِ وَالسَّرَقَاتِ، وَأَخْذَهَا بِالْقَمَارِ وَالْمَكَاسِبِ الرَّدِيئَةِ. بَلْ لَعَلَّه يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَكْلُ مَالِ نَفْسِكَ عَلَى وَجْهِ الْبَطْرِ وَالْإِسْرَافِ، لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْبَاطِلِ وَلَيْسَ مِنَ الْحَقِّ.

ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارَات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَقْتُلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ. وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْإِلْقَاءُ بِالنَفْسِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَفَعْلُ الْأَخْطَارِ الْمَفْضِيَةِ إِلَى التَّلَفِ وَالْهَلَاكِ. «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» ومن رحمته، أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وتلافها، ورتب على ذلك ما رتب من الحدود.

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ» كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك، وقتل نفسك وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: «لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ» و«لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» مع قصور هذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير فقط.

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى

بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده. ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأورع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له. فله الحمد والشكر على ذلك.

وقوله: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أي: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويغفر لمن اقتضت حكمته وعذله من لا يصلح للتوبة.

وقوله: «وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ» أي: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم. «وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ» أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون «أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا» أي: [أَنْ] تنحرفوا عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين.

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم، وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرؤنكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، وتخبروا أحسن الطريقتين.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: بسهولة ما أمركم به. و[ما] نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع، أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم، كاليتة والدم ونحوهما للمضطر، وكتزويج الأمة للحزب بتلك الشروط السابقة. وذلك لرحمته التامة

الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدة. وأما الرجم فليس على الإمام رجم، لأنه لا يتنصف، فعلى القول الأول إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة.

وعلى القول الثاني: إن الإمام غير المسلمات، إذا فعلن فاحشة أيضاً عزرن.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور الرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة.

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث. وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

﴿٢٦ - ٢٨﴾ «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَاللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا \* يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا \* يُخَيِّرُ تَعَالَى بِمَنْتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَمَنْحَتِهِ الْجَسِيمَةِ، وَحَسَنَ تَرْبِيَتِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَهَوَلَةَ دِينِهِ، فَقَالَ: «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ» أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام، «وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيزهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشماثلهم الكاملة، وتوفيقهم التام. فلذلك نفذ ما أراده، ووضح لكم، وبين بياناً ما يُبين لمن قبلكم، وهذاكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيَتُوبُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يلطف بكم في أحوالكم وما شرعه لكم، حتى تمكثوا<sup>(١)</sup> من الوقوف على ما حذره الله، والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم

(١) في ب: تتمكنوا.





قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا﴾ أي: معجباً بنفسه، متكبراً على الخلق. ﴿فَخُورًا﴾ يشني على نفسه ويمدحها، على وجه الفخر والبطر على عباد الله. فهو لاء ما بهم من الاختيال والفخر، يمنعهم من القيام بالحقوق. ولهذا ذمهم بذلك، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من العلم الذي يهدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق. فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، فلهذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه وتسبوا في منع غيرهم، من البخل وعدم الاهتداء، أهانهم بالعذاب الأليم، والحزني الدائم. فعباداً بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن النفقة الصادرة، عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ليروهم ويمدحوهم، ويعظموهم، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ليس إتفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله، ورجاء ثوابه. أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير. وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: بشس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكما أن من بخل بما آتاه الله،

خلتهم، وبدفع فافتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه.

﴿وَالْجَارُ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: الجار القريب الذي له حقان، حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿الْجَارُ الْجَنِبِ﴾ أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب باباً، كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة، والدعوة، واللطافة بالأقوال والأفعال، وعندم أذيته بقول أو فعل.

﴿وَالصَّاحِبُ بِالْجَنبِ﴾ قيل: الرفيق بالسفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة.

فعلى الصاحب لصاحبه، حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكرة، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحة تأكد الحق وزاد.

﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده [ويكرامه وتأنسه] (٢).

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من الأدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه الأمور فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا

ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذللاً وإخلاصاً له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

وينهى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه، أمر بالقيام بحقوق العباد، الأقرب فالأقرب. فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلته الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان، الإساءة، وعدم الإحسان. وكلاهما منهي عنه.

﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: الذين فقدوا آباءهم (١) وهم صغار، فلهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم وبرهم، وجبر خواطرهم، وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية، في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يملكون. فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد

(١) كذا في ب، وفي أ: الذين فقد آبائهم.

(٢) زيادة من هامش ب.



يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالسجدة، فإنه لا يمكن السكران من دخوله. وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم، بما يقول السكران. وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرّم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الآية.

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها وليها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخشين، والتوقى لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿وَلَا جُنَا إِلَّا عَاطِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تكون أحدكم جنياً، إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل، أي: تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه، ﴿حتى تغتسلوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم، فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط.

﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم

كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أركى الخلق، وهم الرسل على أممهم، مع إقرار المحكوم عليه؟! فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها.

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقربين له لكمال الفضل والعدل، والحمد والشأن. وهنالك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح. ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهين.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي: تبتلعهم ويكونون تراباً وعدماً، كما قال تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ أي: بل يقرون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيههم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

فأما ما ورد من أن الكفار يكتُمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حيث ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

﴿٤٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنَا إِلَّا عَاطِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما

وكنتم ما من به الله عليه عاص آثم مخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبّد لغير الله، فإنه آثم عاص لربه، مستوجب للعقوبة، لأن الله إنما أمر بطاعته وامتنثال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیُعْبَدُوا اللَّهَ مَخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فلماذا حث تعالى عليه بقوله:

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ أي: أي شيء عليهم، وأي: حرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله، الذي هو الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سراً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً؟ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيد لها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾.

﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿ويؤت من لَدُنْهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير.

ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من

النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا». فأباح التيمم للمريض مطلقاً مع وجود الماء وعدمه، والعلة المرض الذي يشق معه استعمال الماء، وكذلك السفر فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقدته المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه، جاز له التيمم.

وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط أو ملامسة النساء، فإنه يُباح له التيمم إذا لم يجد الماء، حضراً وسفراً، كما يدل على ذلك عموم الآية. والحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين:

حال عدم الماء، وهذا مطلقاً في الحضر والسفر. وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

واختلف المفسرون في معنى قوله: «أو لا تمس النساء» هل المراد بذلك الجماع، فتكون الآية نصاً في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟

واستدل الفقهاء بقوله: «فلم تجدوا ماء» بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت، قالوا: لأنه لا يقال: «لم يجد» لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب، واستدل بذلك أيضاً على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: «فلم تجدوا ماء» وهذا ماء. وتوزع في ذلك بأنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر.

وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء والله الحمد، وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يختص ذلك بذبي الغبار، لأن الله قال: «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه». وما لا غبار له لا يمسه به.

وقوله: «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم» هذا محل المسح في التيمم: الوجه جميعه، واليدان إلى الكوعين، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة، كما دل على ذلك حديث عمار، وفيه أن تيمم الجنب كتيمم غيره، بالوجه واليدين.

### فائدة

اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحماية عنها. وقد نبه تعالى عليها في كتابه العزيز.

أما حفظ الصحة والحماية عن المؤذي، فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر، حفظاً لصحتهما، باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضره.

وأما استفراغ المؤذي، فقد أباح تعالى للمحرم التأذي برأسه أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه، ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أول منها، من البول والغائط والقيء والمني والدم، وغير ذلك، نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم ولو لم يصب الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب والله أعلم.

ثم ختم الآية بقوله: «إن الله كان عفواً غفوراً» أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيخرج بذلك.

ومن عفوه ومغفرته أن رحم هذه الأمة بشرع طهارة التراب بدل الماء، عند تعذر استعماله. ومن عفوه ومغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ودعاهم إليه، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم. ومن عفوه ومغفرته، أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم

وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليتكفوا من وراءكم ولتأت طائفة أخرى ليصلوا فليصلوا معك وليأخذوا أسلحتهم وأسلحتهم وذال ذلك كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمركم فلا يبطلون عليكم صلاة واحدة ولا جناح عليكم إن كان فيكم أذى من مطر أو كنتم فرسخاً أن تضعوا أسلحتكم وخذوا أسلحتكم إن الله أعلم بالظالمين عذاباً مبيناً ﴿٥٠﴾ فإذا قضيت الصلاة فادكروا لله ولشأنكم وكونوا جُثًى بكم فإذا أقمتم الصلاة فاقموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴿٥١﴾ ولا يأتوا في أيكاه القلوب إن تكروا أن تكونوا فليكن بآلئكم كتاباً الموقوت وتكونون من الله ما لا يحسبون وكان الله عليماً حكيماً ﴿٥٢﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أرتك الله ولأنك كن للظالمين حجيماً ﴿٥٣﴾

لقية لا يشرك به شيئاً، لآتاه بقرابها مغفرة.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ «ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل» \* والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً \* من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لئنا بالسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً» \* هذا ذم لمن «أتوا نصيباً من الكتاب» وفي ضمنه تحذير عباده عن الاعتزاز بهم، والوقوف في أشراكهم، فأخبر أنهم، في أنفسهم «يشترون الضلالة» أي: يحبونها حبة عظيمة، ويؤثرونها إثارة من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه، فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة، ومع هذا «يريدون أن تضلوا السبيل».

فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلول جهدهم في ذلك، ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم، بين لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال: «وكفى بالله ولياً» أي: يتولى أحوال عباده، ويلطف بهم في جميع أمورهم،

يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه، بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أديارها﴾ وهذا جزء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا

الباطل، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردّها على أديارها، بأن تجعل في أفتابهم، وهذا أشنع ما يكون ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ بأن يطردهم من رحمة، ويعاقبهم بجعلهم قردة، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت، ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾. ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك<sup>(١)</sup> من الذنوب، صغائرها وكبائرها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين. ومن فوق ذلك كله رحمة التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن الشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئاً وما لهم يوم القيامة ﴿من شافعين﴾ ولا صديق حميم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يشرك بالله

الرعونته، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ - لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين، والعيب للرسول، وينصرحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال: ﴿ليأ بالستهم وطمعنا في الدين﴾.

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم﴾. وذلك لما تضمنه هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه. ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله، بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أديارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيم على غيره من الكتب السابقة الذي قد صدقها، فإنها أخرجت به فلما وقع الخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر.

وأيضاً فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً. فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض، دعوى باطلة، لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم﴾ حث لهم، وأنهم ينبغي أن

وَأَسْتَغْفِرَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَلَا تَحْمِلُوا عَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ فَتَحَقُّوا مِنْ النَّاسِ وَلَا تَسْخَرُوا مِنْهُمْ إِنَّهُمْ يُسَخَّرُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا لَا تَبْصُرُونَ مِنَ الْقَوْلِ ۝ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ فَكَانَتْ هَذِهِ آيَةً ۝ فَجَاءَتْهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْخَبْرُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَهُودِ اللَّهِ يُعَذِّبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝ يَوْمَ أَقْبَلْتُمْ أَمْرًا مِنْ رَبِّكُمْ يُكُونَ عَلَيْهِمْ وَجُوبَةٌ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَمَنْ يَكُفِبْ إِثْمًا فَإِنَّ اللَّهَ يَكُفِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ۝ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَنَنْكِحُ الْحَوَارِثَ أَوْ إِمَّا نَا نَزِيرِينَ أَوْ إِمَّا نَا فَتَقْدِرُ عَلَيْنَا حَرْبًا وَإِنَّا مُبَاتِلُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتَ بِمَا يَفْتَكُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَصُوتُوا وَيَأْمُرُواكَ بِمَا أَنْتَ حَكِيمٌ ۝ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ سَوَاءٌ أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّكَ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَعَلَيْكَ مَا نُنْزِلُكَ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝

ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم. ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم. فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر. ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم، وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿من الذين هادوا﴾ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم.

﴿يخرفون الكلم عن مواضعه﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً. فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم، التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك.

فهذا حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم ﴿يقولون سمعنا وعصينا﴾ أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد، والشروء عن الانقياد، وكذلك مخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعد عن الأدب، فيقولون: ﴿اشمخ غير مُسَمَّح﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره، ﴿وراعنا﴾ قصدهم بذلك

• أَخْبَرَنِي كَثِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِهِمْ لِأَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ  
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ  
أَيْتَانَهُ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥٦﴾  
وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَسْعَ  
عِزَّ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ  
وَسَاءَ لِمَنْ هَاهُنَا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ  
وَيَغْفِرَ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ  
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٥٨﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا إِنْسًا  
وَأَنْ يَدْعُوا لِلْأَسْطِنَةِ مَبْرُوكًا ﴿٥٩﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ  
لَأَجْعَلَ مِنَ عَمَلِكُمْ نَصِيبًا مَفْرُوسًا ﴿٦٠﴾ وَأَجْعَلَ لَكُمْ  
وَلَهُمْ وَلَهُمْ وَلَهُمْ فَلْيَسْتَعِزُّوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ  
وَلَا تَرْهَقُهُمْ فَلْيَعْبُرُوا خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ  
وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا عَظِيمًا ﴿٦١﴾  
يَعِدُّهُمْ وَمَنْعُهُمْ وَمَا يَدْعُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا لِلْغُرُورِ ﴿٦٢﴾  
أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا عَجْصًا ﴿٦٣﴾

وعبادته غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الحب والطاغوت، وكذلك حلهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة الأصنام - على طريق المؤمنين، فقال: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أي: لأجلهم، تملأ لهم ومداينة، وبغضاً للإيمان: ﴿هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي: طريقاً. فما أسمعهم وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم، والوادي الذميم!! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء، فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالخلق، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى ضلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من الهذيان، وضاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وعمداً ومراغمة للحق،

لهم وحدهم - فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا بظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿ولا يظلمون فتيلًا﴾. وهذا لتحقيق العموم، أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار الفتيل الذي في شق النواة، أو الذي يقتل من وسخ اليد وغيرها.

قال تعالى: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي: بتزكيتهم أنفسهم، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله. لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم، الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً. وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً. ولهذا قال: ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي: ظاهراً بيناً، موجباً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

﴿٥١ - ٥٧﴾ ﴿ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد أتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴿فمنهم من آمن به وامنهم من صده عنه وكفى بجهنم سعيراً﴾ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات ستدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ وهذا من قبائح اليهود وحسدكم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث، حلهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعويض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة غير الله، أو حكم بغير شرع الله.

فدخل في ذلك السحر والكهانة،

فقد افتري إثماً عظيماً﴾ أي: افتري جرماً كبيراً، وأي: ظلم أعظم ممن سوى المخلوق - من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه - فضلاً عما عمن عبده - نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضرر، والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين، إلا فمنه تعالى، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار﴾. وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب وأما التائب، فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطروا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب.

﴿٤٩ - ٥٠﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلًا﴾ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً ﴿هذا تعجيب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم، من كل من زكى نفسه، بأمر ليس فيه. وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نحن أبناء الله وأحباءه﴾ ويقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي: بالإيمان والخمائل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتحلي بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب



والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم  
الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً  
الأمانات كل ما أوثمن عليه الإنسان  
وأمر بالقيام به . فأمر الله عباده بأدائها  
أي : كاملة موفرة ، لا منقوصة ولا  
مبخوسة ، ولا مخطوئاً بها ، ويدخل في  
ذلك أمانات الولايات والأموال  
والأسرار ، والمأمورات التي لا يطلع  
عليها إلا الله .

وقد ذكر الفقهاء، على أن مَنْ أُوْتِمِنَ أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا: لأنه لا يمكن أدائها إلا بحفظها، فوجب ذلك.

وفي قوله: ﴿إِلَى أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤمن، ووكيله بمنزلة؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤدياً لها.

﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا  
بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في  
الدماء، والأموال، والأعراض،  
القليل من ذلك والكثير، على القريب  
والبعيد، والبر والفاجر، والولي  
والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به. ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمَ يَعْظَمُكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيها، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله،  
وذلك بامتنال أمرهما، الواجب  
والمستحب، واجتناب نيهما. وأمر  
بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على  
الناس، من الأمراء والحكام والمفتين،  
فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم  
ودنياهم إلا بطاعتهم والانتقاد لهم،  
طاعة الله، ورغبة فيما عنده، ولكن  
بشرط أن لا يأمرُوا بمعصية الله، فإن  
أمرُوا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في

أعطاه من أنبيائه كـ: «داود»  
و «سليمان». فإنعامه لم يزل مستمراً  
على عباده المؤمنين.

فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة  
والنصر والملك لحمد ﷺ أفضل الخلق  
وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله  
وأخسأهم له ۱۱۹

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي :  
بمحمد ﷺ ، فقال بذلك السعادة  
الدنيوية والفلاح الآخروي . ﴿وَمِنْهُمْ  
مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عناداً وبعياً وحسداً ،  
فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ،  
ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكُفَى  
بِجَهَنَّمَ سَعيراً﴾ تشعر على مَنْ كفر  
بالله ، ووجد نبوة أنبيائه من اليهود  
والنصارى ، وغيرهم من أصناف  
الكفرة .

ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: عظمة الوقود، شديدة الحرارة، ﴿كَلِمًا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: احترقت ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: ليلغ العذاب منهم كل مبلغ. وكما تكرر منهم الكفر والعناد، وصار وصفاً لهم وسجية؛ كرر عليهم العذاب جزاءً وأفاقاً، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة العظيمة، والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله، وما أوجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿إِنْ يَأْمُرْكُمْ أَنْ  
تُودُوا الْأَمْثَالَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ  
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنْ اللَّهُ  
نَعَمًا يُعْظِمَكُمْ بِهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ سَمِيعًا  
بَصِيرًا﴾ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ  
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ  
تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

[illegible]

وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن رحمته، وأحل عليهم نقمته. ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنُ يُجَدِّ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي: يتولاه، ويقوم بمصلحته، ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أي :  
 فيفضلون مَنْ شَاؤُوا عَلَى مَنْ شَاؤُوا  
 بمجرد أهوائهم ، فيكونون شركاء الله  
 في تدبير المملكة ، فلو كانوا كذلك  
 لشحوا وبخلوا أشد البخل ، ولهذا  
 قال : ﴿فَإِذَا﴾ أي : لو كان لهم نصيب  
 من الملك ﴿لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾  
 أي : شيئاً ، ولا قليلاً . وهذا وصف  
 لهم بشدة البخل ، على تقدير وجود  
 ملكهم المشارك لملك الله . وأخرج هذا  
 مخرج الاستفهام المتقرن إنكاره ، عند كل  
 أحد .

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله، فيفضلون مَنْ شَاءُوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس بيدع ولا غريب على فضل الله.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ  
وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ وذلك  
ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من  
النُبوَّة والكتاب والملك الذي أعطاه من







ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿والصديقين﴾ وهم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعملوا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً، ودعوة إلى الله، ﴿والشهداء﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فقتلوا، ﴿والصالحين﴾ الذين صلح ظاهراً وباطناً، فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم، ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأنس بقربهم في جوار رب العالمين.

﴿ذلك الفضل﴾ الذي نالوه من الله ﴿فهو الذي وفقهم لذلك﴾، وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وكفى بالله علماً﴾ يعلم أحوال عباده، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة، التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿٧١ - ٧٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾ وإن منكم لمن ليبطن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً ﴿ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين. وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب، التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم، من استعمال الحصون والخنادر، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مدخلهم ومخارجهم، ومكرهم، والنفير في سبيل الله.

ولهذا قال: ﴿فانفروا ثبات﴾ أي: متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش، وقيم غيرهم ﴿أو انفروا جميعاً﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية، والراحة للمسلمين في دينهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وإن منكم﴾ أي: أيها المؤمنون ﴿لمن ليبطن﴾ أي: يتشاقل عن الجهاد في سبيل الله، ضعفاً، وخوراً، وجبناً، هذا الصحيح.

وقيل معناه: ليبطن غيره، أي: يزهد عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون ولكن الأول أولى، لوجهين:

أحدهما: قوله ﴿منكم﴾ والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ فإن الكفار من المشركين، والمنافقين، قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة. وأيضاً فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين:

صادقون في إيمانهم، أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد.

وضعفاء دخلوا في الإسلام، فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد.

كما قال تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ إلى آخر الآيات. ثم ذكر غايات هؤلاء المتشاقلين، ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحظاها فقال: ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ أي: هزيمة، وقتل، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال، لما لله في ذلك من الحكم. ﴿قال﴾ ذلك المتخلف ﴿قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة. ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه

الذين يترصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا الزكوا مكرراً كان للذين كفروا نصيب قالوا الزكوا عنكم وعنه من المؤمنين قاله جبريل بن جبريل يوم القيمة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴿١٠﴾ إن المنافقين خلدوا لله وهو خلدوهم وإذا قاموا إلى الصلوة قاموا كسالى برأى من الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿١١﴾ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴿١٢﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا بالكافرين أولياء من دون المؤمنين أريدون أن يجعلوا عليكم سلطاناً ميثاقاً ﴿١٣﴾ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴿١٤﴾ إلا الذين تابوا وأمسكوا وأعصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجر عظيم ﴿١٥﴾ ما يفعل الله بعذابه وإن شكرتم إنه أكثر إن شاء الله سبحانه ﴿١٦﴾

الطاعة الكثيرة، التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب، ورضا الكريم الوهاب.

وأما القعود فإنه وإن استراح قليلاً، فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويقوته ما يحصل للمجاهدين.

ثم قال: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ أي: يتمنى أنه حاضر لينال من المغنم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية، التي <sup>(١)</sup> من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين <sup>(٢)</sup>، وبألمون بفقداء، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها. بل من حصل منه غير ما يليق، أمره ودعاه إلى جبر نقصه، وتكميل نفسه،

(١) في النسختين: الذي.

(٢) في النسختين: على يد غيره من إخوانه.

﴿وَمَنْ يقاتل في سبيل الله﴾ بَأَن  
يكون جهاداً، قد أمر الله به ورسوله ،  
ويكون العبد مخلصاً لله فيه قاصداً







فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير، ما رتب على طاعة الله، ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن طاعة الله ورسوله، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلك مبلغاً ومبيناً وناصحاً، وقد أدبت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتدوا أم لم يهتدوا. كما قال تعالى: ﴿فَذَكَرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لِّسِتْ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطَرٍّ﴾ الآية.

ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهراً وباطناً، في الحضرة والمغيب. فأما من يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام، فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه، ترك الطاعة وأقبل على ضدها، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك. ﴿فَإِذَا بَرِزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يطلع فيها عليهم. ﴿بَيْتِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: بيتوا ودبروا غير طاعتك ولا ثم إلا المعصية.

وفي قوله: ﴿بَيْتِ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ﴾ دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة؛ لأن التثبيت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأي، ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ أي: يحفظه عليهم، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، ففيه وعيد لهم.

ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف، فإنهم لا يضررونه شيئاً إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه، وإقامة شرعه. ولهذا قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم

وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإذا علم أن الله تعالى، كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيدته، ونصره نصراً عظيماً، تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقارب، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

﴿٨٠ - ٨١﴾ ﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه فقد أطاع الله تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله، وشرعه، ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مطلقاً، فلو أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك.

وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة:

حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.

وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة.

وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهم وطاعتهم كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

• إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلِ عِيسَى وَآلِ إِبْرَاهِيمَ وَيُؤْتُونَ وَهُمْ رُسُلًا وَمَا كُنَّا نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿٢﴾ رُسُلًا ثَمِينِينَ وَنُفِذْنَا فِي مَا أَنْزَلْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْنِ لَكَ الْقُرْآنَ لِتُدْرِكَ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بِعَدْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَذُنَّ عَذَابُ اللَّهِ الْكَلِيمَ ﴿٣﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَى عَنِ الْإِسْكَارِ أَنْ يَأْتِيَ الْبَيْتَ الْكَافِرَ وَاللَّاتِيكَةَ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَطَلَعُوا لِرَيْكَنِ اللَّهِ يُعْرِضُونَ وَلَا لَهُمْ فِيهِمْ طَرِيقٌ إِلَى الْأَطْرَافِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَلَبَسَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦﴾ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٧﴾ يَتْلُوهَا النَّاسُ فَتَدْنَاهُ نَكْمُ الرَّسُولِ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَقَدْ خَلَّ الْأَنْزِيلُ وَأَنْ تَكْفُرَ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨﴾ مَا لِلشَّكْرَةِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَلِيظًا حَكِيمًا ﴿٩﴾

وقدره وخلقته. ﴿فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمُ﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة. ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفهمون حديثاً بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهماً ضعيفاً، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه. فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك.

وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا يكونون سبباً لشر يحدث، هم ولا ما جاؤوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ هو الذي من بها ويسرها بتيسير أسبابها. ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ في الدين والدنيا ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أي: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر.

فإنه تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره

ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته:

فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب:

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب﴾ وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند مَنْ أحاط بعلمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

﴿٨٣﴾ ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذعنوا به ولو ردهه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه

مضية عليهم، أن يثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولى الأمر منهم، أهل الرأي: والعلم والنصح، والعقل والبرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إداعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم، فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة<sup>(١)</sup>، أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى مَنْ هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا؟ فيحجم عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي: في توفيقكم وتأييدكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر. فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿٨٤﴾ ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما، فلماذا قال

يَا أَهْلَ الْحَكِّ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكُنْتُمْ أَشْقَىٰ أَلْفُهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحَ قَوْلِهِ فَتَعَالَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَىٰ خَيْرُ الْكَلِمَاتِ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِكُنِّي بِاللَّهِ وَكَيْلًا ﴿٨٥﴾ لَنْ يَسْتَنْصِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكُ الْمَلَكُوتُ وَمَنْ يَسْتَنْصِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَيَسِيحْ جُحُومَ إِلَهٍ جَمِيعًا ﴿٨٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِمَّنْ فَمِمَّا أَتَىٰ الْكُفُورَ أَتَيْنَا قَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدُوا لَهُمْ رَحْمَتُنَا وَفَضْلٌ وَهَدَيْهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿٨٨﴾

لرسوله: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي: ليس لك<sup>(٢)</sup> قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

﴿وحرّض المؤمنين﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي: بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً. ﴿والله أشد بأساً﴾ أي: قوة وعزة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ بالذنوب في نفسه وتنكيلاً لغيره، فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته ولم يجعل لهم باقية.

ولكن من حكمته ينلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطراب والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

﴿٨٥﴾ ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ المراد بالشفاعة هنا:

(١) في باب ما فيه مصلحة.

(٢) في النسختين: ليس عليك.



العاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء، ومن عاون غيره على أمر من الشر، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ أي: شاهداً حفيظاً، حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كل ما يستحقه.

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِذَا حُيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِهَا أَوْ رَدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترب بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها.

وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع، من السلام ابتداء ورداً. فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة، أو مثلها في ذلك. ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردها بدونها.

ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية، من وجهين: أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها، أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

الثاني: ما يستفاد من أفعل التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركة التحية وردّها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيثما حال غير مأمور بها، كـ «على مشغل بقراءة»، أو استماع خطبة، أو فصل ونحو ذلك فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره، وعدم تحيته، وهو العاصي غير التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى.

ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً، فإنه مأمور بردها أو أحسن منها، ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، حسناتها وسيئاتها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿٨٧﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ يخبر تعالى، عن انفراد بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والنعم الظاهرة والباطنة.

وذلك يستلزم الأمر بعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية. لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: أولكم

وأخركم في مقام واحد. وفي يوم القيامة لا ريب فيه: أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، بالدليل العقلي والدليل السمعي، فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً، يحيون ثم يموتون، وأما الدليل السمعي، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغَيِّرَ اللَّهُ وَرَبِّ لَتُبْعَثَ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] (١) والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لماقضته للخبر الصادق اليقيني، فلا يمكن أن يكون حقاً.

﴿٨٨ - ٩١﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾ ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فيخذلهم واقتلهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولداً ولا نصيراً \* إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً \* ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة

احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون<sup>(١)</sup> لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح اتصافاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: المسالمة والمواذعة. ﴿ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

﴿٩٢﴾ ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبة وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي: أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب

فرقتين أمر بتركهم وحتم [على] ذلك، إحداهما<sup>(٢)</sup> من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم «حصر صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم» أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

فهؤلاء «إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً».

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: «ستجدون آخرين» أي: من هؤلاء المنافقين. «يريدون أن يأمنوكم» أي: خوفاً منكم «ويأمنوا قومهم كلما زدوا إلى الفتنة أركسوا فيها» أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين

أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً<sup>(٣)</sup> المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم، وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققت ذلك منهم «فلا تتخذوا منهم أولياء» وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها «فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم» أي: في أي وقت، وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة، على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، عموماً على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

(١) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا. فأنزل الله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد». وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٣) في ب: سيقدمون.

بعضكم رقاب بعض». فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإن المخطيء الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجرىء على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط، فإن على القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزىء عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضع بعته، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزىء عتقه، مع أن في قوله: ﴿تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخلص مَنْ استجقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد.

﴿مُسْلِمَةً إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما

ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصْدُقُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دماهم وأموالهم.

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ وتحرير رقبة مؤمنة وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿تُوبَةُ مَنْ﴾ الله ﴿أَي: هَذِهِ الْكُفَّارَةُ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ تُوبَةُ مَنْ﴾ الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي: وقت كان وأي: محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما

صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبّد لله تعالى بتركها تقرباً إلى الله.

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة. بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفسدات ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل جذراً من تحمّلهم<sup>(١)</sup>، ويخفف عنهم<sup>(٢)</sup> بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقاتهم، وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القاتل عن مضيبتهن، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفتدة، وتزعج منه أولو العقول.

فلم يزد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو

(٢) في ب: عليهم.

(١) زيادة من هامش: ب.



مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبوا إن الله كان بما تعملون خبيراً» يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة.

فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبت في هذه الأمور يحصل

فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرو

عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله

ورزاقته، بخلاف المستعجل للأمور في

بدايتها<sup>(١)</sup>، قبل أن يتبين له حكمها،

فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما

جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في

الآية، لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم

عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال

غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم،

وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلهذا

عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى

إليك السلام لست مؤمناً تبتغون عرض

الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

أي: فلا يحملنكم العرض الفاني

القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي

فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل

الباقى، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له

إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له

فيها هوى، وهي مضرة له أن يذكرها

ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها،

وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن

في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال

أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم

الاولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام:

﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله

عليكم﴾ أي: فكما هداكم بعد

ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم،

وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدأ يدافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية،

وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل

الطبيعة، وفعل القوة، والحكم للغالب

منهما، وكذلك قوى الأدوية

والأمراض. والعبد يكون فيه مقتضى

للصحة، ومقتضى للعطب، وأحدهما

يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا

ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من

يدخل الجنة ولا يدخل النار،

وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج

منها، ويكون مكته فيها بحسب ما فيه

من مقتضى المكث في سرعة الخروج

وبعثه. ومن له بصيرة منورة يرى بها

كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر

المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده

رأى: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى الهيته

سبحانه، وربوبيته، وعزته، وحكمته،

وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة

ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،

فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة

الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي

يحرق السيئات، كما تحرق النار

الخطب، وصاحب هذا المقام من

الإيمان يستحيل إصراره على السيئات،

وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه

من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل

وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه،

وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى

كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن

الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا

ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا

لن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً

تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله

الإخبار بأن جزاء جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياداً بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكيائز والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين. والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها - فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضى لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص: فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب وموانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وارتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتين فقال: ﴿فتبينوا﴾.

فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تَعَوِذاً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويبين الرشد والصواب.

﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازي كلاً ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿٩٥ - ٩٦﴾ ﴿لا يستنوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً﴾ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴿أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومن لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاسل والقفود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدین من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في

سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدین بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصحیحین»، أن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتین كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وبشر

المؤمنين﴾. وكما في قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ أي: ممن لم يكن كذلك. ثم قال: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ وكما قال تعالى: ﴿ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال. كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر.

والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرّمها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين ﴿الغفور الرحيم﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فيم كنتم﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم





«رحيماً» بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقتهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك. رحيماً بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله أن لا يجرمنا خيره بشر ما عندنا.

﴿١٠١-١٠٢﴾ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً \* وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وذ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة

(١) في ب: الترخيص.

الخوف، يقول تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ أي: في السفر، وظاهر الآية: [أنه] يقتضي الترخيص<sup>(١)</sup> في أي: سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخيص<sup>(٢)</sup> في سفر المعصية، تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره، لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ إلى آخر الآية.

وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة الثامنة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما يتأفقه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره.

والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان:

إحدهما: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير متضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿من الصلاة﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود

(٢)

في ب: الترخيص.

مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.

الثانية: أن «من» تفيد التبعية، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المقررات، لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود

الأمرين كليهما، السفر مع الخوف. ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: ﴿أن تقصروا﴾ قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أو كما قال.

فعلى هذا يكون هذا القيد أي به نظراً لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنهى ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز

قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتتم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله.

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلْتَقِمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: الذين معك، أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود، ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُّوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلْيَصَلُّوا مَعَكَ﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلّة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكيد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به

لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغفلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به حربه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم، وبأخذوهم ويحصروهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

فلله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين، وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وأن الرسول ﷺ يثبت منتظراً للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له. ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُّوا فَلْيَصَلُّوا مَعَكَ﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝ يَتَأْتُوا اللَّهَ نَاجِبَاتٍ خِثَابَتٍ يُخَسِّرُونَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَبْسُطَ إِلَيْكَ يَدَيْهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكَ ۖ وَأَتُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ قَوْلُهُمْ ۖ وَالْمُؤْمِنُونَ ۝ \* وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بِدَلِيلٍ مِنْكُمْ فَقَدْ صَلَّى سِوَاةَ السَّبِيلِ ۝ فَمَا تَقْضِيهِمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلَيَسِيَ يَكْفُرُونَ الْكُفْرَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ۝

صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكماً في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمتأمل.

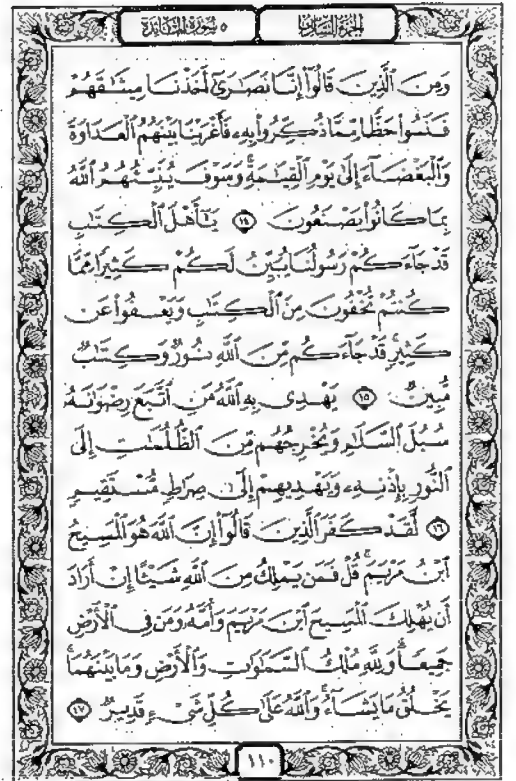
﴿١٠٣﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فادكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإناية إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه.

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه





من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فأمر بالاكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا أمنت من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل، ظاهراً وباطناً، بآركانها وشروطها، وخشوعها، وسائر مكملاتها.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ أي: مفروضاً في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصِلِي».

ودل قوله: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، وتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن

كانوا يعاقبون عليها، وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء. بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم.

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك، فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساوتما فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا تضعف إلا من توالى عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية، وآمال رفيعة، من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من قاوت بين العباد، وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كامل العلم، كامل الحكمة.

﴿١٠٥ - ١١٣﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ واستغفر الله إن الله كان غفوراً

رحيماً \* ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً \* يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً \* هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً \* ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً \* ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً \* ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً \* ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمهت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً \* يجبر تعالى، أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل بل نزل بالحق، ومشتتلاً أيضاً على الحق فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل \* وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً \* وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس، في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبين جميع الدين، وأصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كليهما، معناه واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام.

وقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي: لا بهواك، بل بما علمك الله وألهمك، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. وفي هذا دليل على عظمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام

ها أنت تركت أمره كسلاً وتفريطاً، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحerman والخيبة والخسران؟

وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهي من الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتيت، فإن لذته تنقضي، ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي<sup>(٤)</sup> يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: مَنْ تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً، يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد، بالمغفرة والرحمة.

فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره وإذا غفره، غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عاملة بعاقبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن

مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما يبتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنایات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإضرار على ذنبهم، الموجب للعقوبة البليغة.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما تحذرون<sup>(٢)</sup> من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ وَمَنْ يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

فَمَنْ يجادل عنهم، مَنْ يعلم السر وأخفى، وَمَنْ أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟ وفي هذه الآية إرشاد<sup>(٣)</sup> إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها.

فيقول مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله

وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم<sup>(١)</sup> العلم والعدل، لقوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهى عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيائته، من مدع ما ليس له، أو منكر حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿واستغفر الله﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾. «الاختيان» و«الخيانة» بمعنى الخيانة والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن مَنْ أذنب وتوجه عليه عقوبة، من جد أو تعزيز، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إن الله لا يحب مَنْ كان خواناً أثيماً﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول» وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من

(١) في أ: الحكم.

(٢) في ب: ما يحذرون.

(٣) في ب: الإرشاد.

(٤) في ب: من.

عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها للصراط المستقيم، علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة، وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: «وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ» وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فَمَنْ كَسِبَ سِئَةً فَإِنَّ عِقَابَهَا الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْآخِرِيَّةَ عَلَى نَفْسِهِ، لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر، عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن مَنْ ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحداً بذنب أخذ، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب، بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء، منع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر

له ويوفقه للتوبة.

وإن صدر منه بتجرته على المحارم، استخفافاً بنظر ربه، وتهاوناً بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة.

ثم قال: «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ ذَنْبًا كَبِيرًا» أو إثمًا ما دون ذلك. «ثُمَّ يَرْمِ بِهِ» أن يتهم بذنبه «بِرِيئًا» من ذلك الذنب، وإن كان مذنباً. «فَقَدْ احْتَمَلَ بَهْتَانًا وَإِثْمًا مَبِينًا» أي: فقد حل فوق ظهره بهتان للبريء وإثماً ظاهراً بيناً، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها، فإنه قد جمع عدة مفاصد: كسب الخطيئة والإثم، ثم رَمَى مَنْ لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك، من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على مَنْ لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاسد التي نسأل الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر مثته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله فقال: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ». وذلك أن هذه الآيات الكريمات قد ذكر المفسرون، أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت مَنْ هو بريء من ذلك.

واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق مَنْ وجدت السرقة ببيته، وهو البريء. فهم رسول الله ﷺ أن يبرئ أصحابهم، فأنزل الله هذه الآيات

تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال [كما حفظه عن الضلال في الأعمال] (١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال: «وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» لكون ذلك المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه نقصودهم، ولم يحصل لهم (٢) إلا الخيبة والخرفان والإثم والخسران. وهذه (٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن.

وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

«وَعَلِمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ» «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى».

ثم لم يزل يوحى الله إليه ويعلمه ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذر وضوله على الأولين والآخرين،

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر.

(٣) في النسختين: وهذا.

فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ فضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق<sup>(١)</sup>.

وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به، لا يمكن استقصاؤها<sup>(٢)</sup> ولا تيسر إحصاؤها<sup>(٣)</sup>.

﴿١١٤﴾ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فلما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ من مال أو علم، أو أي: نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة، كالتمسيح والتحميد، ونحوه، كما قال النبي ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» الحديث.

﴿أو معروف﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهاي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

وأما عند الاقتران، فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي. ﴿أو إصلاح بين الناس﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب، يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره،

فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. وقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿والصلح خير﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾. فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، ولتتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية خصلت، واقترب بها ما يمكن من العمل.

﴿١١٥-١١٦﴾ ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ بالدلائل القرآنية

وقالت اليهود والنصارى نحن آمنوا بالله وأحسنوه فقل لكم يعد بكم بدوكم بل أشركتم من خلق يعبدون من يشاء ويعذب من يشاء والله ملك الأسرار والأرض وما بينهما والي المصير ﴿١﴾ يتأهل الكتيب قد جاء ذكر رسولنا ﷺ لكره من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴿٢﴾ وأد قال موسى لقومه يقولوا ذكرنا نعم الله علينا لكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعل لكم ملوكاً وآتاكم ما لا رزق أحد من العالمين ﴿٣﴾ يقولوا أدخلوا الأرض المقدسة التي كذب الله لكم ولا تردوا على أنبياءكم فتنقلبوا خاسرين ﴿٤﴾ قالوا يا موسى إن فيها آياتاً لعلنا نرجعون ﴿٥﴾ قال تعالى من الذين عاهدوا أنم الله عليهم أندخلوا عليه ألياً فآذوا مشركه فآذوا غيرهم ﴿٦﴾ وعلى الله فتوحكم لو أن كثرت المؤمنين ﴿٧﴾

والبراهين النبوية.

﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾

وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نوله ما تولى﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذه فلا نوفره للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزأوه من الله عدلاً أن يبقيه في ضلاله حائراً، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله.

كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾. ويدل مفهومها، على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها، ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يولي نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه، ويعصمه من السوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل

(١) في ب: الخلق.

(٢) في النسختين: استقصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في النسختين: إحصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.





ومع ذلك<sup>(١)</sup> فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة. وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنة الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله. ﴿إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي: مقدراً. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه، وأثر طاعته على طاعة مولاه.

وأقسم في موضع آخر ليفوينهم ﴿لأغوينهم أجمعين﴾، إلا عبادك منهم المخلصين. فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله أنه يتخذهم<sup>(٢)</sup>، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿ولأضلنهم﴾ أي: عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

﴿ولأمنينهم﴾ أي: مع الإضلال، لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم، ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، تلك أمانيهم ﴿وكذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾.

هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الآية.

وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿ألم نكن معكم؟﴾ قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور﴾.

وقوله: ﴿ولأمرنهم فليستكن آذان الأنعام﴾ أي: بتقطع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فنبه ببعض ذلك على جميعه. وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال. ﴿ولأمرنهم فليغيرون خلق الله﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوش، والنمص، والتفلج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسيخ من خلقته، والقدر في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتديره، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده جنفاء، مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد، من توحيده، وحبه ومعرفته، فافتروا عليهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئب للغنم المنفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم<sup>(٣)</sup>، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ وأي: خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوبقته معاصيه وخطاياها؟! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن من تولي مولاه وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يعدهم ويمنيهم﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم. والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾. فإنه يعدهم إذا أففقوا في سبيل الله أففقوا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ الآية. ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾، أولئك مأواهم جهنم﴾ أي: من انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار. ﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾ أي: خلاصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

﴿١٢٢﴾ ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وعد الله حقاً، ومن صدق من الله

(١) في ب: ومع هذا.

(٢) في النسختين: إنهم يتخذهم.

(٣) كذا في ب وفي أ: وفاطرهم.

قِيْلَا<sup>(١)</sup> أَي: ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علماً وتصديقاً وإقراراً. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان.

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح. كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح.

ويفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله.

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المأكول والمشرب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابعة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، فله ما أحلى ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون، وتما ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وعد الله حقاً، ومن أصدق من الله قيلاً.

فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله

وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخيره حقاً، كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمناً، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

﴿١٢٣ - ١٢٤﴾ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ ولا أمان أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً \* ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً. أَي: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتركية ﴿بِأَمَانِيكُمْ﴾ ولا أمان أهل الكتاب. والأمان: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها. وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟

فإن أمان أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ تلك أمانهم وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان، لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه. فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل، لأي ذنب كان<sup>(٢)</sup>، من صفات الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزاء، قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً، فإذا مات من

دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم.

ومن كان عمله صالحاً، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، و [بعض]<sup>(٣)</sup> الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبته، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قيصها الله لطفاً بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام، مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يُجْدِلُهُمْ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدينية، ودخل أيضاً كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى. ولهذا قال: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ أَي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ

(١) في ب: أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان.

(٣) زيادة من هامش: ب.

الجنة\* المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين\* ولا يظلمون نقيراً\* أي: لا قليلاً ولا كثيراً بما عملوه من الخير، بل يحدونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿١٢٥﴾ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً\* أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وهو﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿محسن﴾ أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم.

﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ والخلّة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفق بما أمر به وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذ خليلاً، ونوه بذكره في العالمين.

﴿١٢٦﴾ والله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً\* وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمع به جميع المسموعات، ونفذ مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿١٢٧﴾ ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليمًا\* الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك السؤال عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهن فتولى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعاف من يتامى والولدان، اهتماماً بهن، وزجراً عن التفريط في حقوقهن، فقال: ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن يتامى من النساء. ﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن تزوج بها، أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿والمستضعفين من الولدان﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث

وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بالزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحايون فيهن صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه وفقد أبيه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وما تفعلوا من خير﴾ لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعبداً أو لازماً، ﴿فإن الله كان به عليمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلا بحسب عمله.

﴿١٢٨﴾ وإن امرأة خافت من بعلها نشوراً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتفقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً\* أي: إذا خافت المرأة نشور زوجها، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حيثما لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿والصلح

خير» ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين مَنْ بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرّم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: «وأحضرت الأنفس الشح» أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرضوا على قلع هذا الخلق الذي من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والافتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حيثئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف مَنْ لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: «وإن تحسنوا وتتقوا» أي: تحسنوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك. «وتتقوا» الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات. أو تحسنوا بفعل

المأمور، وتتقوا بترك المحظور «فإن الله كان بما تعملون خبيراً» قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿١٢٩﴾ «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً» يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قذرتهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطيع، ونهى عما هو ممكن بقوله: «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة» أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالفقة والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس، فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. «فإن الله كان غفوراً رحيماً» يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

﴿١٣٠﴾ «وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً» هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا

تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: «وإن يتفرقا» أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك «يغن الله كلاً» من الزوجين «من سعته» أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على التكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه، «وكان الله واسعاً» أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك «حكيماً» أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان حرمة عدلاً وحكمة.

﴿١٣١ - ١٣٢﴾ «ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً» «ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كيبلاً» يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بنأيم العذاب.

ولهذا قال: «وإن تكفروا» بأن تركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضررون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضررون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم، وأكثر مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: «وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً» له الجود الكامل والإحسان

الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه.

ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي، في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومن عليهم بلطفه وهداهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد، ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين «الغني الحميد»!! فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على

تنفيذه، وتديره وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزّه عن كل نقص.

﴿١٣٣ - ١٣٤﴾ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ \* من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴿١﴾ أي:

هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشئة النافذة فيكم، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ غيركم، هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم، وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعابهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنه يمهّل ويخلي ولا يهمل.

ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبها منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام.

وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وفي عطاءه ومنعه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿١٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق، على من كان، والقيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه،

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، والقوام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل

من أجل ذلك كَتَبَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يَدْرُسُوا قِسْطَ بَعْضِ نَفْسٍ أَوْ فَكَاوِفِ الْأَرْضِ فَكَانُوا قَدَرُوا النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ لَحِيكَاهَا فَكَانُوا أَيُّهَا النَّاسُ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِالْهُدَىٰ وَكَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّهَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلْفٍ أَوْ يُنْفَخُوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي النَّفْسِ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٨﴾ يَتْلُوهُ الَّذِينَ هَمُّوا أَنْتَقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا الْوَسِيلَةَ وَجْهَهُ فِي سَبِيلِهِ لِمَنْ لَكُمْ مُلْحُوتٌ ﴿١٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ أَنَّهُمْ تَأَمَّلُوا الْأَرْضَ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْقَهُنَّ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤٠﴾

أحوالكم قائمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته.

والقسط في حقوق الآدميين، أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك<sup>(١)</sup>، كما تطلب حقوقك. فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من الأخلاق والمكافأة، وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين، أو أحد المتنازعين، لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي: وجه كان، حتى على الأحابيل على النفس، ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق، على من كان.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه،

(١) في النسخين: الذي عليك.







(۱) فی ب: واللہ.

إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الجرح الذي تمكّن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً لكل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال:

﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب<sup>(١)</sup> عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تدرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين، مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه، فقال:

﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأى شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع

بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمة على معاصيه.

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً \* إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً \* يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغيض ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يغيضه الله.

ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويتشكى<sup>(٢)</sup> منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابله أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيء والحسن والمباح، أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغيض ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عليماً﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبْدُوا خَيْراً أَوْ تَحْفُوهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزء من جنس العمل. فَمَنْ عَفَا اللَّهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسَنَ اللَّهُ

إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَفْوَاً قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغني عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿١٥٠ - ١٥٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْرَقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بَعْضُ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً \* والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً \* هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجي من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمانى. فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسوله.

فإن من تولي الله حقيقة تولي جميع رسوله، لأن ذلك من تمام توليه، ومن عادى أحداً من رسوله فقد عادى الله، وعادى جميع رسوله كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لئلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما

(٢) في ب: ويشتكى.

(١) في ب: يترتب.

زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدغوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: ﴿واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

﴿والذين آمنوا بالله ورسوله﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. ﴿ولم يفرقوا بين أحدٍ من رسله﴾ بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله. ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

﴿١٥٣-١٦١﴾ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً \* ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً \* فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً \* وبكفرهم وقولهم على مريم هتاناً عظيماً \* وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم

وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً \* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً \* وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً \* فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً \* وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً \* هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم. وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مدبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ، ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾.

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال، مما يدل على عظيمته واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾.

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله

عيناً، واتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالفوا القول والفعل. ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة.

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق. ومن قولهم: أنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه.

وادعائهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله، فصدهم عن الحق، ودعوههم إلى ما هم عليه من الضلال والغي. وبأخذهم السجدة والربا مع نهي الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فإن الذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا



به، فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها، دالة ومقررة لنبو محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة، لم يبسطها في هذا الموضع، بل أشار إليها، وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق ببسطها.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا يرفع، إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون خالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قبل موته﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار.

فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟

وحينئذ لا يشهد إلا بظلال كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا

عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

﴿١٦٢﴾ ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ لما ذكر معائب أهل الكتاب، ذكر المدوحين منهم، فقال: ﴿لكن الراسخون في العلم﴾ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأنم لهم الإيمان التام العام ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾.

وأثمر لهم الأعمال الصالحة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، اللذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد. وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد.

﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب والرسائل السابقة واللاحقة.

﴿١٦٣ - ١٦٥﴾ ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين

﴿يأتينا الذين آمنوا لا نتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يولهم منهم فإنه لا يهدى الله لهدى القوم الظالمين﴾ ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسرعون فيهم يقولون تخشى أن تضييعنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيضيح أمرنا ما نستر وفي أنفسهم ظمير﴾ ﴿وقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لعمركم حطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ ﴿يأتينا الذين آمنوا من يزدبرون عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أولئك على المؤمنين أعززون على الكثيرين يحيدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ ﴿إنما أولئك الله ورسوله والذين آمنوا الذين يتبعون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم ركعون﴾ ﴿ومن يول الله رسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ ﴿يأتينا الذين آمنوا لا نتخذوا الذين اتخذوا دينهم هواً ولوليت الذين آمنوا أو كثر الكافرين يذكركم والكفار أولياء والله أن الله أنتم مؤمنين﴾

العدد الكثير والجم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد. ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بياخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين؛ ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم، من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم، واستئناساً بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ ﴿سلام على إبراهيم﴾ ﴿سلام على موسى وهارون﴾ ﴿سلام على إيل ياسين، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾.

فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه. والرسول - خصوصاً هؤلاء المسمون - في المرتبة العليا من الإحسان.

ولما ذكر اشتراكهم بوجيه، ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف، المزبور



بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون، وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم، غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغى من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته.

وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله.

وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم، وديانهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل، فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه، من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه، لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فإن الله ما في السماوات والأرض﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وكان الله عليماً﴾ بكل شيء ﴿حكيماً﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق

الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿١٧١﴾ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعته عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: مأموره وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نص على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل المثوبات.

وأنه ﴿كلمته﴾ التي ألقاها إلى مريم أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وروح منه﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكمليها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام،

فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، بعيسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إنما الله إله واحد﴾ أي: هو المنفرد بالالهوية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس ﴿أن يكون له ولد﴾ لأن ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى.

﴿١٧٢-١٧٣﴾ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً \* فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فمعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً

لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿ولا الملائكة المقربون﴾. فنزهمهم عن الاستنكاف، وتزبيهم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: فعيسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم،

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفضل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده. ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشرب، والمساكن، والمناظر، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا مَنْ ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تخلى عنهم أرحم الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً﴾ فأما الذين آمنوا بالله

واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴿يَمْتَنُ تَعَالَى عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بِمَا أَوْصَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ وَالْأَنْوَارِ السَّاطِعَةِ، وَيَقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَيُوضِّحُ لَهُمُ الْمَحْجَّةَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سُورِهِمْ آيَاتُهَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وفي قوله: ﴿مَنْ رَبُّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية، فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب. ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: فسيغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويميز لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

أي: وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَاعْتَصِمَ بِهِ وَيَتَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ، مَنَعَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَحَرَمَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ يَهْتَدُوا، بَلْ ضَلُّوا ضَلَالاً مَبِيناً، عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى تَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ، فَحَصَلَتْ لَهُمُ الْخِيبَةُ وَالْحَرَمَانُ، نَسَأَهُ تَعَالَى الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمَعَافَاةَ.

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين بين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ﴿أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أي: في الكلاله بدليل قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَمْرُ هَلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وله أخت﴾ أي: شقيقة أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها. ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وهو﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿فَإِنْ كَانَتَا﴾ أي: الأختان ﴿اثنتين﴾ أي: فما فوق ﴿فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً﴾ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فيسقط فرض الإناث ويعضهن إخوتهن.

﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي:



يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحساناً لكي تهتدوا ببيانها، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم. ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي: عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبل، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء  
فله الحمد والشكر

### تفسير سورة المائدة وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم.

والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع. فهذا الأمر شامل لأصول الدين

وفروعه، فكلها داخلية في العقود التي أمر الله بالقيام بها. <sup>(١)</sup>

ثم قال ممتناً على عباده: ﴿أحلت لكم﴾ أي: لأجلكم، رحمة بكم ﴿بهيمة الأنعام﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحمر الوحش، ونحوها من الصيد.

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجثث الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح.

﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ إلى آخر الآية. فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثنى منها الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، أي: متجرؤون على قتله في حال الإحرام، وفي الحرم؛ فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيداً، كالظباء ونحوه.

والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش.

﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ أي: فمهما أرادته تعالى حكم به حكماً موافقاً لحكمته، كما أمركم بالوفاء بالعقود لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم. وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صوناً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام احتراماً للإحرام وإعظاماً.

﴿٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشعائر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم

ولو أن أهل الكتاب آمنوا وأنفقوا لكانوا معكم سياتينهم ولأدخلناهم جنت النجس ﴿١﴾ ولأنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأحكموا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مفسدة وكثير منهم ساء ما عملوا ﴿٢﴾ يتأبها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴿٣﴾ قل يتأهل الكتاب لسم على شيء حتى يثبتوا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ولا يريدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأمن على القوم الكافرين ﴿٤﴾ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابغون والصنبري من أمة والله وألوه الأخير وعمل صليماً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٥﴾ لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل أن نسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا يؤمنون أنفسهم فبغوا كذباً ورفيقاً يقتلون ﴿٦﴾

شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها، وعدم فعلها والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي، عن فعل القبيح، وعن اعتقاده.

ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام، ومحرمات الحرم. ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم كما قال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾.

والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقاً.

(١) في هامش ما نصه: (ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل

لإطلاقها) وليس هناك علامة تدل على موضع الزيادة. ويبدو أن موضعها هنا - والله أعلم -.





وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه، وحلوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

وحلوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «جنين» في «شوال». وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتداء الكفار المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾ أي: ولا تحلوا الهدي الذي يهدي إلى بيت الله في حج أو عمرة، أو غيرها من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحملوه ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

﴿ولا القلائد﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يقتل له قلائد أو عرى، فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحلاً للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة، ويعرف أنه هدي فيحترمه، ولهذا كان تقليد الهدي من السنن والشعائر المستنونة.

﴿ولا أمين البيت الحرام﴾ أي: قاصدين له «يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً» أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموا، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صدق من هذه حالة عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وإذا حليتم فاصطادوا﴾ أي: إذا حليتم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾

أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جنى عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو التجرد على المعاصي التي يأثم صاحبها، ويخرج. ﴿والعدوان﴾ وهو التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه وتحراً على محارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿٣﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتريدة والطبيعة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾. واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا بين.

فأخبر أنه حرم «الميتة» وانفراد

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم.

واليوم المشار إليه يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يئسوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع - لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: «فلا تخشوهم واخشون» أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

«اليوم أكملت لكم دينكم» بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.

«وأتممت عليكم نعمتي» الظاهرة والباطنة «ورضيت لكم الإسلام ديناً» أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

«فمن اضطر» أي: الجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

وقوله: «إلا ما ذكيت» راجع لهذه المسائل، من منخنقة، وموقوذة، ومتردية، ونطيحة، وأكلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها» [وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكاهها وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الحشوة وهو ظاهر الآية الكريمة<sup>(١)</sup>].

«وأن تستقسموا بالأزلام» أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا هم أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القدام المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدامين فيعمل به.

فحرمه<sup>(٢)</sup> الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

«ذلكم فسق» الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق، أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنّ على عباده بقوله: «اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرب بآكلها. وكثيراً ما تموت بعلة تكون سبباً لهلاكها، فتضر بالآكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسّمك، فإنه حلال.

«والدم» أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. «ولحم الخنزير» وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصاري يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث.

«وما أهل لغير الله به» أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يفيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى.

«والمنخنقة» أي: الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو ادخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجه حتى تموت.

«والموقوذة» أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد.

«والمتردية» أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك.

«والنطيحة» وهي التي تنطحها غيرها فتموت.

«وما أكل السبع» من ذئب أو أسد أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيد، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: كعدمه.

(٢) كذا في النسختين، ولعل الأقرب: فحرم.

السابقة، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ ﴿فِي مَحْمَصَةٍ﴾ أي: جماعة ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ﴾ أي: مائل ﴿لِإِثْمٍ﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿٤﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ من الأطعمة؟ ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبائث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرَمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور: أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكوه مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليماً، بأن يترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿مَنْ الْجَوَارِحِ﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يباح [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنبياءها أو مغاليها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم -] (١).

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموماً، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً، لم يباح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿٥﴾ ﴿الْيَوْمَ أَحْلَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامَكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَخَدِّي أَعْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كرر تعالى إجلال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب يتسبون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أباح ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالحبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.

وأيضاً فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاماً، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

﴿وَطَعَامَكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿حَلَّ لَهُمْ﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه. ﴿وَأَحْلَلَّ لَكُمْ﴾ المحصنات ﴿أَي: الحرائر العفيفات﴾ من المؤمنات ﴿وَالْحَرَائِرَ الْعَفِيفَاتِ﴾ من الذين أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿أَي: من اليهود والنصارى﴾.

وهذا تخصص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾







الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد [وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء]<sup>(١)</sup>.

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزى أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فامسحوا﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخصون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعليماً، ويزداد شكراً لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿٧﴾ واذكروا نعمة الله عليكم

وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴿١﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه. ﴿وميثاقه﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي واثقكم به﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتها، ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويجرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿٨﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا قوامين لله شهداء بالقسط. بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة

والباطنة وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قوم على ألا تعدلوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي: ﴿وعد الله﴾ الذي لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين - المؤمنين به ويكتبه ورساله واليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالعفو عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا

نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٢﴾ يذكر تعالى عبادته المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم - كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة - فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء قد هسوا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه.

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويتقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿١٢-١٣﴾ ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً ولا دخلتكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ ﴿١٣﴾ فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴿١٤﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم

يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أمروا به، مطالباً يدعورهم.

﴿وقال الله﴾ للنبياء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إني معكم﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً، بالآتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وآتيتم الزكاة﴾ لمستحقها ﴿وآمنتم برسلي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ، ﴿وعزتموه﴾ أي: عظمتوهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا أقمتم بذلك ﴿لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.

﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ بالعهد والميثاق المؤكد بالإيمان، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه. ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب. فكأنه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه، أم نكثوا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أننا ﴿لعناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي

هو سببها الأعظم. الثانية: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراد الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نسوا حظاً مما ذكروا به﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبة منه لهم.

وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم [عن] من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإبقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة. وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم.

فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يتلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به خطأ، لأنه هو أعظم الخطوط، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما

أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم ﴿١٠﴾ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴿١١﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي: فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه فوقهم وهذا لهم للضراط المستقيم.

﴿فاعف عنهم واصفح﴾ أي: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى، الذي يقتضي أن يعفى عنهم، واصفح، فإن ذلك من الإحسان ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ والإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وفي حق المخلوقين : بذل النفع  
الديني والدنيوي لهم .

﴿١٤﴾ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا  
نُصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا  
ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ  
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ  
يَنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أَي :  
وَكَمَا أَخَذْنَا عَلَى الْيَهُودِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ ،  
فكَذَلِكَ أَخَذْنَا عَلَى الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا  
نُصَارَى لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَزَكَّرُوا  
أَنْفُسَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا جَاؤُوا  
بِهِ ، فَنَقَضُوا الْعَهْدَ ، ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا  
ذُكِّرُوا بِهِ﴾ نَسْيَانًا عِلْمِيًّا ، وَنَسْيَانًا  
عَمَلِيًّا .

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي : سلطنا بعضهم على بعض ، وصار بينهم من الشرور والإحسان ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة ، وهذا أمر مشاهد ، فإن النصراني لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق . ﴿وَسَوْفَ يَنْبُتُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فيعاقبهم عليه .

﴿١٥-١٦﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ  
جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ  
تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ  
جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ \*  
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ  
السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لَمَّا  
ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ

من اليهود والنصارى ، وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم ، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته ، وهي : أنه بين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس ، حتى عن العوام من أهل ملتهم ، فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم ، فالخبر يص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم ، فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكاثفونه بينهم ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته ، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم ، ووجود البشائر به في كتبهم ، وبيان آية الرجم ونحو ذلك .

﴿ويعنفوا عن كثير﴾ أي: يترك بيان  
 ما لا تقتضيه الحكمة .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعماية الضلالة.

﴿وكتاب مبين﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم . من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية .

ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: يهتدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً - سبيل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنْ ظُلُمَاتٍ الْكُفْرِ  
وَالْبُدْعَةِ وَالْعَصِيَّةِ، وَالْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ.  
إِلَى نُورٍ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، وَالطَّاعَةِ،  
وَالْعِلْمِ، وَالذِّكْرِ.

وكل هذه الهدايا بإذن الله، الذي  
ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.  
﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿لقد كفر الذين﴾

[illegible]

قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل  
فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن  
يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في  
الأرض جميعاً والله ملك السماوات  
والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله  
على كل شيء قدير \* وقالت اليهود  
والنصارى نحن أبناء الله وأحباءه قل  
فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر من  
خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء  
والله ملك السماوات والأرض وما  
بينهما وإليه المصير ﴿١﴾ لما ذكر تعالى أخذ  
الميثاق على أهل الكتابين ، وأنهم لم  
يقوموا به بل نقضوه ، ذكر أقوالهم  
الشنيعة .

فذكر قول النصارى، القول الذي  
ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح  
ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من  
غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد  
الباطل. مع أن حواء نظيره، خلقت  
بلا أم، وآدم أولى منه، خلق بلا أب  
ولا أم، فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما  
ادعوها في المسيح؟

فدل على أن قولهم اتباع هوى من  
غير برهان ولا شبهة. فرد الله عليهم  
بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿قل فمن  
يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك  
المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض  
جميعاً﴾.

فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم،



ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

ومن الأدلة أن ﴿الله﴾ وحده ﴿ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يخلق ما يشاء﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم [كآدم] (١).

فتوع خليقته تعالى بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نحن أبناء الله وأحباءه﴾.

والأبن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا النبوة الحقيقية، فإن هذا ليس

من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله رداً عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم﴾ [لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه] (٢).

﴿بل أنتم بشر من خلق﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ إذا أتوا بأسباب الغفرة أو أسباب العذاب، ﴿والله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ أي: فأى شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة الممالك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿١٩﴾ ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فترة من الرسل﴾ وشدة حاجة إليه.

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية.

وقد قطع الله بذلك حاجتهم، لئلا يقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعاً لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يشيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

﴿٢٠ - ٢٦﴾ ﴿واذ قال موسى

لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين \* يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ إلى آخر القصة (٣). لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومنساكنهم، وهي بيت المقدس وما حوالیه، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بقلوبكم وألسنتكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

﴿وآتاكم﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ أي: المطهرة ﴿التي كتب الله لكم﴾.

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿ولا ترتدوا﴾ أي: ترجعوا ﴿على أدباركم، فتنقلبوا خاسرين﴾ قد

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.



خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر  
على الأعداء وفتح بلادكم . وأخرتكم  
بما فاتكم من الثواب ، وما  
استحققتكم - بمعصيتكم - من  
العقاب ، فقالوا قولاً يدل على ضعف  
قلوبهم ، وخور نفوسهم ، وعدم  
اهتمامهم بأمر الله ورسوله ﴿ قالوا  
يا موسى إن فيها قوماً جبارين ﴾ شديدي  
القوة والشجاعة ، أي : فهذا من الموانع  
لنا من دخولها .

﴿وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ . وهذا من الجبن وقلة اليقين، وألا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعداً خاصاً.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم. ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الوطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه  
فإنكم غالبون﴾ أي: ليس بينكم وبين  
نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم،  
وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه  
عليهم فإنهم سينهزمون، ثم أمراهم  
بعدة هي أقوى العدد، فقالا:  
﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

فإن في التوكل على الله - وخصوصاً  
في هذا الوطن - تيسيراً للأمر، ونصراً  
على الأعداء. ودل هذا على وجوب  
التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد  
يكون توكله، فلم ينجع فيهم هذا  
الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا  
قول الأذلين: ﴿يَا مُوسَى، إِنَّا لَن  
ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت  
وربك فقاتلنا إنا هاهنا قاعدون﴾.

فما أثنى هذا الكلام منهم،

ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام  
الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة  
والضرورة إلى نصرته نبيهم، وإعزاز  
أنفسهم.

وهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين  
سائر الأمم، وأمة محمد ﷺ حيث قال  
الصحابة لرسول الله ﷺ - حين  
شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم  
يحتج عليهم: يا رسول الله، لو خضت  
بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت  
بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا  
نقول كما قال قوم موسى لموسى:  
«أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا  
قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك  
فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين  
يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن  
يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام  
عتوهم عليه ﴿قَالَ: رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ  
إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أَي: فَلَا يَدَانِ لَنَا  
بِقَاتِلِهِمْ، وَلَسْتُ بِجَبَّارٍ عَلَى هَؤُلَاءِ.

﴿فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾  
 أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم  
 من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل  
 ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر  
 العظيمة الموجبة للفسق.

﴿قَالَ﴾ اللهُ حَجِيْبًا لِدَعْوَةِ مُوسَى :  
﴿فَإِنهَا حَرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ  
فِي الْأَرْضِ﴾ أَي : إِنْ مِنْ عَقُوبَتِهِمْ أَنْ  
نَحْرَمَ عَلَيْهِمْ دُخُولَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّتِي  
كُتِبَ لَهَا اللهُ لَهُمْ ، مَدَّةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ،  
وَتِلْكَ الْمَدَّةُ أَيْضًا يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ ،  
لَا يَهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقٍ وَلَا يَسْقُونَ ،  
مُطْمَئِنِّينَ ، وَهَذِهِ عَقُوبَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ ،  
لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى كَفَرَ بِهَا عَنْهُمْ ، وَدَفَعَ  
عَنْهُمْ عَقُوبَةً أَعْظَمَ مِنْهَا ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ  
عَلَى أَنَّ الْعَقُوبَةَ عَلَى الذَّنْبِ قَدْ تَكُونُ  
بِزَوَالِ نِعْمَةٍ مُوجُودَةٍ ، أَوْ دَفْعِ نِقْمَةٍ قَدْ  
أَنْعَقَدَ سَبَبُ وَجُودِهَا أَوْ تَأَخَّرَ حَاشَا إِلَى  
وَقْتٍ آخَرَ .

ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه

[illegible]

المقالة: الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقىها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تربي عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذلل المانع من السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى  
في غاية الرحمة على الخلق، خصوصاً  
قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته  
الشفقة على الحزن عليهم في هذه  
العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع  
أن الله قد حتمها، قال: ﴿فلا تأس  
على القوم الفاسقين﴾ أي لا تأسف  
عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا،  
وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم  
لا ظمناً منا.

﴿٢٧-٣١﴾ ﴿واتل عليهم نبأ ابني  
آدم بالحق﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup>. أي:  
قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي  
جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر  
بها المعتبرون، صدقاً لا كذباً، وهدى  
لا لعباً، والظاهر أن ابني آدم هما ابناء  
لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية  
والسياق، وهو قول جمهور المفسرين.  
أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقرّيهما  
للقربان، الذي أداهما إلى الحال

(١) في ب: كُتِبَ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ التَّائِمِينَ﴾.





المذكورة.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانَا﴾ أي: أخرج كل منهما شيئاً من ماله لقصده التقرب إلى الله، ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم، أن علامة تقبل الله للقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه. ﴿قَالَ﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسداً وبغياً ﴿لَا قَتْلَكَ﴾. فقال له الآخر - مترفعاً له في ذلك - ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فأبى: ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟ إلا أبى اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبه علي وعليك، وعلى كل أحد، وأصبح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

ثم قال له مخبراً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة فقال: ﴿لَنْ يَسُطَ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي، مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ وليس ذلك جناً مني ولا عجزاً. وإنما ذلك لأني أخاف الله رب العالمين والخائف لله لا يقدم<sup>(١)</sup> على الذنوب، خصوصاً الذنوب الكبار. وفي هذا تخويف لمن يريد القتل،

وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه. ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ﴾ أي: ترجع بيائمي وإيماني. أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني فإني أؤثر أن تقتلني، فتبوء بالوزرين ﴿فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار. فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويحزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه. ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنياهم وأخراهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل.

﴿وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعلیه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة﴾. ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها، لأنه أول من سن القتل». فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يثريها ليدفن غراباً آخر ميتاً ﴿ليريه﴾ بذلك ﴿كيف يوارى سوء أخيه﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿٣٢﴾ ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمته وخسارة في الدنيا والآخرة، ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغير حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾؛ لأنه ليس

معه داع يدعو إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأتقار بالسوء. فتجرؤه على قتله، كأنه قتل الناس جميعاً. وكذلك من أحيا نفساً أي: استبقى أحداً، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعاً، لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل. ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين:

إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفاً مكافئاً، ليس بوالد للمقتول.

وإما أن يكون مفسداً في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرمهم إلا بالقتل.

وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصول على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من الناس ﴿بَعَدَ ذَلِكَ﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المحاربون لله ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض

(١) في ب: لا يقوم.

بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتقطع بذلك.

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم - عند إقامة الحد عليهم - أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكماتها وموافقتها لحكمة الله تعالى. وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختروا ويرتدع غيرهم.

وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا تحتتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالا، نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿ذلك﴾ النكال ﴿لهم خزي في الدنيا﴾ أي: فضيحة وعار ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ولرسوله.

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده

إفساد في الأرض.

﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ أي: من هؤلاء المحاربين، فاعلموا أن الله غفور رحيم. أي: فيسقط عنه ما كان الله، من تحت القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الأدمي أيضاً، إن كان المحارب كافراً ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلماً فإن حق الأدمي، لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال، ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب - بعد القدرة عليه - أنها لا تسقط عنه شيئاً، والحكمة في ذلك ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليهم، تمنع من إقامة الحد في الحاربة، فغيرها من الحدود - إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه - من باب أولى.

﴿٣٥﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴿هذا أمر من الله لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد، ويبدل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله، من معاصي القلب واللسان والجوارح، الظاهرة والباطنة. ويستعين بالله على تركها، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه.

﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل. والبدنية: كالزكاة والحج. والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها، من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه، والبدن، والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله. ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه الله، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها] ويستجيب الله له الدعاء.

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات

قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأفئتنا ولعزائنا وآية منك وأنزلنا وأنت خير الرزقين ﴿٣٦﴾ قال الله إني منزلها عليك فمن كفر بعتوبكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحد من العالمين ﴿٣٧﴾ وإذا قال الله لعيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأولي العهدين من دون الله قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بي ﴿٣٨﴾ قلت فقد عذبتهم فاعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت أعلم الغيوب ﴿٣٩﴾ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليه شهوداً ما دمت فيهم فلما توفيتي كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴿٤٠﴾ إن تعدونهم فالتعد عليهم وإن تعدونهم فالتعد عليهم ﴿٤١﴾ قال الله هذا يوم ينفخ الصور صدقهم لهم تحت تجري من تحتها الأنهار خلائين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴿٤٢﴾ لله ملك السموات والأرض وما بينهن وهو على كل شيء قدير ﴿٤٣﴾

المقربة إليه، الجهاد في سبيله، وهو: بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات.

ولأن من قام به، فهو على القيام بغيره أخرى وأولى ﴿لعلكم تفلحون﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصي، وابتغيتم الوسيلة إلى الله، بفعل الطاعات، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته.

والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب، والنجاة من كل مرهوب، فحقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴿يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين بالله يوم القيامة ومآلهم الفظيع، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بمملء الأرض ذهباً ومثله معه ما تقبل منهم، ولا أفاد، لأن محل الافتداء قد فات، ولم يبق إلا العذاب الأليم، الموجع السدائم الذي لا يخرجون منه أبداً، بل هم ماكثون فيه سرمداً.

﴿٣٨-٤٠﴾ ﴿والسارق والسارقة



منه، وذلك أن يكون المال محرزاً، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب.

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت عنه الجناية، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد، فقيّل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيّل: يحبس حتى يموت.

وقوله: ﴿جزاء بما كسبنا﴾ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس.

﴿نكالا من الله﴾ أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: عز وحكم فقطع السارق.

﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب. وذلك أن الله ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصارييف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

﴿٤١ - ٤٤﴾ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم توتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنه فلا بد أن يضل الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم \* سماعون

للكذب أكالون للسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين \* وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين \* إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوا ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون \* كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشد حزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فأرشدته الله تعالى، إلى أنه لا بأس ولا يحزن على أمثال هؤلاء. فإن هؤلاء لا في العير ولا في النكير. إن حضروا لم يفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم - فقال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ فإن الذين يؤسسى ويحزن عليهم، من كان معذوراً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا، فإن الإيمان - إذا خالطت بشاشته القلوب - لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبع به بدلاً.

﴿ومن الذين هادوا﴾ أي: اليهود ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، النبي أمرهم على الكذب والضلال والغنى. وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لم يأتوك﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل وهو تحريف الكلم عن مواضعه، أي: جلب معانٍ للألفاظ ما أرادها الله ولا قصدها، لإضلال الخلق ولدفع الحق، فهؤلاء المنقادون للدغاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا

فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم \* فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم \* ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير \* السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

وجد اليد عند الإطلاق من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسمت في زيت لتتسند العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه: منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة، فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصيباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه. ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز









أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا خَلْ لَكُمْ بعض الذي حرم عليكم﴾.

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل. ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ بتثبيتها والشهادة لها والموافقة. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم الذين يتفهمون بالهدى، ويتعظون بالموعظة، ويرتدعون عما لا يليق.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون \* أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون \* يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: إنزالاً بالحق، ومشتلاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: مشتلاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل

حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿شُرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشريع في جميع الشرائع ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تبعاً للشرعة واحدة، لا يختلف متأخرها ولا مقدمها.

﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويبتلي كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرض على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مستولياً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول

وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزىء في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتم وتكمل، ويحصل بها سبق.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه. ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيئ.

﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ أو أعرض عنهم.

والصحيح: أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مخير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وَأَن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿وَاحْذَرُوا أَن يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: إياك والاعتزاز بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فَاعْلَمُ﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أَن يَصِيبَهُمْ بَبَعْضِ

ذنوبهم ﴿فإن للذنوب عقوبات عاجلة وأجلة، ومن أعظم العقوبات أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه﴾

﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ أي: أفيتطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى.

﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ فالوقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يداً على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون

بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون. فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك. ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن من يدعي الإيمان طائفة تواليهم، فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إناهم للحاجة، فإننا نخشى أن تصيبنا دائرة ﴿أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافؤونا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيئ -: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أو أمر من عنده﴾ يأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿فيصبحوا على ما أسروا﴾ أي: أضمرنا ﴿في أنفسهم نادمين﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالة، ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً،

فبطل كيدهم وبطلت أعمالهم ﴿في الدنيا﴾ فأصبحوا خاسرين ﴿حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن الله عباداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوام نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله يحبهم ويحبونه. ﴿فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد﴾.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله﴾. كما أن من لازم محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبدي] يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت منمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى ،  
والإكثار من ذكره ، فإن المحبة بدون  
معرفة بالله ناقصة جداً ، بل غير  
موجودة وإن وجدت دعواها ، ومن  
أحب الله أكثر من ذكره ، وإذا  
أحب الله عبداً قبل منه اليسير من  
العمل ، وغفر له الكثير من الزلل .

ومن صفاتهم أنهم ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصيحهم لهم، وليتهم ورفقهم وزأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسوله - أعزة قد اجتمعت همهم وعزائهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وقال تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ فالغلظة والشدة على أعداء الله تعالى يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى التدين الإسلامي والتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بِأَمْرِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ ، بِأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ .  
﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ بَلْ يَقْدُمُونَ  
رِضَا رَبِّهِمْ وَالْخَوْفَ مِنْ لَوْمَةِ عَلَى لَوْمِ  
الْمَخْلُوقِينَ ، وَهَذَا يُدِلُّ عَلَى قُوَّةِ هِمِّهِمْ  
وَعَزَائِمِهِمْ ، فَإِنَّ ضَعِيفَ الْقَلْبِ ضَعِيفُ  
الْهِمَّةِ ، تَنْقُصُ عَزِيمَتُهُ عِنْدَ لَوْمِ  
اللَّائِمِينَ ، وَتَفْتَرُ قُوَّتُهُ عِنْدَ عَذْلِ  
الْعَاذِلِينَ . وَفِي قُلُوبِهِمْ تَعَبُدٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ ،  
بِحَسَبِ مَا فِيهَا مِنْ مَرَاغَاةِ الْخَلْقِ  
وَتَقْدِيرِ رِضَاهُمْ وَلَوْمِهِمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ،  
فَلَا يَسْلُمُ الْقَلْبُ مِنَ التَّعَبُّدِ لِّغَيْرِ اللَّهِ ،  
حَتَّى لَا يَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

ولما مدحهم تعالى بما منَّ به عليهم  
من الصفات الجليلة والمناقب العالية،  
المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير -  
أجبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه  
لثلاث يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي  
منَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله،  
وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس  
عليه حجاب، فقال: ﴿ذلك فضل الله  
يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ أي:  
واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن،  
قد عمت زحمته كل شيء، ويوسع على  
أوليائه من فضله، ما لا يكون  
لغيرهم، ولكنه عليهم بمن يستحق  
الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل  
رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿٥٥-٥٦﴾ ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ  
وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ  
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ \*  
وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ  
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ لما نهى عن  
ولاية الكفار من اليهود والنصارى  
وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه  
الخسران المبين، أخبر تعالى مَنْ يجب  
ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك  
ومصلحته فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ  
وَرَسُولُهُ﴾. فولاية الله تدرك بالإيمان  
والتقوى. فكل مَنْ كان مؤمناً تقياً  
كان لله ولياً، وَمَنْ كان ولياً لله فهو  
ولي لرسوله، وَمَنْ تَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
كان تمام ذلك تولى مَنْ تولاه، وهم  
المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً  
وباطناً، وأخلصوا للمعبود، بإقامتهم  
الصلاة بشروطها وفروضها  
ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا  
الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم.  
وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي:  
خاضعون لله ذليلون. فإدانة الخصر في  
قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ تدل على أنه يجب قصر  
الولاية على المذكورين، والتبري من  
ولاية غيرهم.  
ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال:  
﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: ويبدون إليهم.

بِلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ وَلَوْ رَدُّوا عِلَادُوا لَمْ يَشْكُرُوا  
 عَنْهُ وَاتَّبَعُوا لَكُفْرَانًا ﴿١٧﴾ وَقَالُوا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ لَكَاذِبٌ ﴿١٨﴾  
 وَمَنْ يَتَّبِعِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ فَقُلْ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ  
 هَدَى اللَّهُ إِلَى الضَّلَالَةِ ﴿١٩﴾ قُلْ لِلَّهِ الْإِسْلَامُ قُلُوبُهُمْ قُلْ  
 اللَّهُ يَخْتَارُ مَا يَسِّرُ وَيَصْعَقُ ﴿٢٠﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
 الرَّسُولَ قُلْ إِنَّمَا أَسْأَلُكُمْ لِتَتَّقُوا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ  
 مَا يُبْصِرُ الْعَيْنُ لَا يَأْتِي الْهَدْيَ وَلَا يَصْلِحُ وَلَا يُلْطَفُ لَهَا  
 فَهِيَ كَالْحُلِيِّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ قُلْ  
 إِنَّمَا أَسْأَلُكُمْ لِتَتَّقُوا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُبْصِرُ  
 الْعَيْنُ لَا يَأْتِي الْهَدْيَ وَلَا يَصْلِحُ وَلَا يُلْطَفُ لَهَا  
 فَهِيَ كَالْحُلِيِّ

فإن حزب الله هم الغالبون ﴿١﴾ أي : فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى : ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله  
وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة،  
وإن أدبيل عليه في بعض الأحيان  
لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخر أمره،  
الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله  
قيلًا.

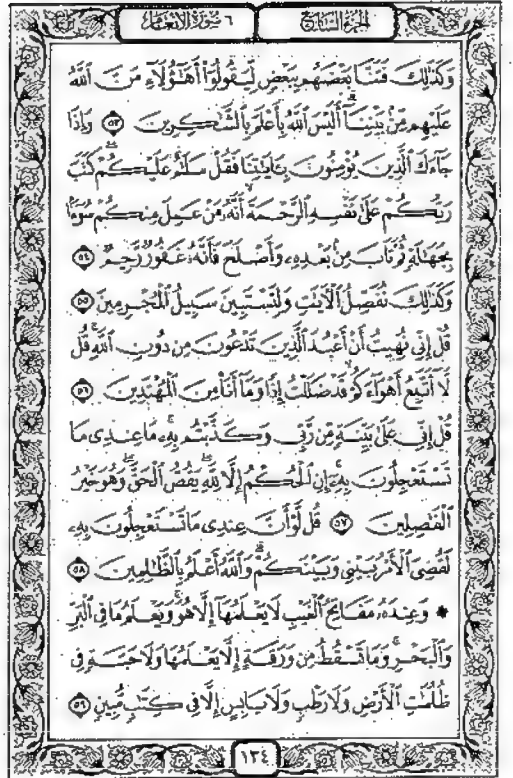
﴿٥٧-٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ \* وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياءً يجبرهم ويتولونهم، ويبعدون لهم <sup>(١)</sup> أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره بما











﴿وإن لم تفعل﴾ أي : لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فما بلغت رسالته﴾ أي : فما امتثلت أمره .

﴿والله يعصمك من الناس﴾ هذه حاية وعصمة من الله لرسوله من الناس ، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ ، ولا يشيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصبيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك ، فانت إنما عليك البلاغ المبين ، فمن اهتدى فلنفسه ، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفقهم للخير ، بسبب كفرهم .

﴿٦٨﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي : قل لأهل الكتاب ، منادياً على ضلالهم ، ومعلنأ بباطلهم : ﴿لستم على شيء﴾ من الأمور الدينية ، فإنكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم ، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم ، ولا بحق تمسكتم ، ولا على أصل اعتمادكم ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي : تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما ، والتمسك بكل ما يدعوان إليه .

﴿و﴾ تقيموا ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾ الذي زياكم ، وأنعم عليكم ، وجعل أجل إنعامه ، إنزال الكتب إليكم . فالواجب عليكم ، أن تقوموا بشكر الله ، وتلتزموا أحكام الله ، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده .

﴿وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ، فلا تأس على القوم الكافرين﴾

﴿٦٩﴾ ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتب<sup>(١)</sup> ، من أهل

القرآن والتوراة والإنجيل ، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد ، وأصل واحد ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر [والعمل الصالح]<sup>(٢)</sup> . فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر ، فله النجاة ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها . وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة .

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وضموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وضموا كثيراً منهم والله بصير بما يعملون﴾ يقول تعالى : ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي : عهدهم الثقيل بالإيمان بالله ، والقيام بواجباته التي تقدم الكلام عليها في قوله : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقياً﴾ إلى آخر الآيات ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ يتوالون عليهم بالدعوة ، ويتعاهدونهم بالإرشاد ، ولكن ذلك لم ينجع فيهم ، ولم يفد ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ من الحق كذبوه وعاندوه ، وعاملوه أقبح المعاملة ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ وحسبوا أن لا تكون فتنة ﴿أي : ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجز عليهم عذاباً ولا عقوبة ، فاستمروا على باطلهم . فعموا وضموا﴾ عن الحق ﴿ثم﴾ نعشهم ﴿و﴾ تاب الله عليهم ﴿حين تابوا إليه وأنابوا﴾ ثم لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة . ﴿فعموا وضموا كثيراً منهم﴾ بهذا الوصف ، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم . ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿٧٢ - ٧٥﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي

الرزق ، ولا مظر عليهم السماء ، وأنت لهم الأرض كما قال تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ .

﴿منهم﴾ أي : من أهل الكتاب ﴿أمة مقتصدة﴾ أي : عاملة بالتوراة والإنجيل ، عملاً غير قوي ولا نشيط ، وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ أي : والسنيء منهم الكثير . وأما السابقون منهم فقليل ما هم .

﴿٦٧﴾ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها ، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه ، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال ، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية . فبلغ ﷺ أكمل تبليغ ، ودعا وأنذر وبشر ، ويستر ، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين ، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسالته . فلم يبق خيراً إلا دل أمته عليه ، ولا شر إلا حذرهما عنه ، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة ، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين .

رجالاً نوحى إليهم ﴿ فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلا شيء اتخذهما النصراني إلهين مع الله؟

وقوله: ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد.

ولما بين تعالى البرهان قال: ﴿ انظر كيف نبين لهم الآيات ﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وإفترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

﴿ ٧٦ ﴾ ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ﴾ أي: ﴿ قل ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿ أتعبدون من دون الله ﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين، ﴿ من لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً ﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ﴿ والله هو السميع ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

﴿ العليم ﴾ بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلية، فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿ ٧٧ - ٨١ ﴾ ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ لمن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم توعدهم بقوله: ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال: ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ﴾ أي: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، عما كانوا يقولونه ﴿ ويستغفرونه ﴾ عن ما صدر منهم ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالغرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ﴾.

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه، الذي هو الحق، فقال: ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي: هذا غايته ومنتهاى أمره، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع، إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم، تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

﴿ وأمه ﴾ مريم ﴿ صديقة ﴾ أي: هذا أيضاً غايتها، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء. والصديقية، هي العلم النافع الثمر لليقين، والعمل الصالح. وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيه، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً. وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبيه، لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا

وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴿ يخبر تعالى عن كفر النصراني بقولهم: ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿ يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

﴿ إنه من يشرك بالله ﴾ أحداً من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره. ﴿ فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له - وهو العبادة الخالصة - لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ ينقذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وهذا من أقوال النصراني المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصراني، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء، والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالى - راداً عليهم وعلى أشباههم -: ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ متصف

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون \* ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون \* يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح، ما تقدم حكايته عنهم.

وكخلوهم في بعض المشايخ، اتباعاً لـ ﴿أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي تقدم ضلالهم. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذين هم عليه. ﴿وَضَلُّوا عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والاضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي طردوا وأبعدوا عن رحمة الله. ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها. ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صناديقاً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهي بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك. وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجباً للعقوبة، لما فيه من المفاصلة العظيمة: منها: أن مجرد السكوت، فعل

معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها. ومنها: أن ذلك يجريء العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرّوا على ما كانوا يقدرّون عليه أولاً.

ومنها: أن - في ترك<sup>(١)</sup> الإنكار للمنكر - يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية - مع تكررها - وصنورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله، حالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟

ومنها: أن السكوت<sup>(٢)</sup> على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فبالإنسان مولع بالاعتداء بأضرابه وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وأخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا بالحقبة والموالة والنصرة.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَمْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ قوتوها

التعظيم المقيم. ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاته، وموالاته أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء الشروط. ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم موالاته أعداء الله.

ثم قال تعالى: ﴿٨٢-٨٦﴾ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين \* وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونقطع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين \* فأتاهم الله بما قالوا جئات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين \* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم.

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم وعيبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾. فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغياً وحسداً وعناداً وكفراً. ﴿لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب: منها: أن ﴿مَنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا﴾ أي علماء مترهدين، وعبياداً في

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

الصوامع متعبدين . والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه ، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة ، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود ، وشدة المشركين .

ومنها : ﴿أنهم لا يستكبرون﴾ أي : ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق ، وذلك موجب لقرينهم من المسلمين ومن محبتهم ، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر .

ومنها : أنهم ﴿إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له ، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي يثقون به ، فلذلك آمنوا وأقرؤا به فقالوا : ﴿ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين﴾ وهم أمة محمد ﷺ ، يشهدون لله بالتوحيد ، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤا به ، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب .

وهم عدول ، شهادتهم مقبولة ، كما قال تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ .

فكانهم ليموا على إيمانهم ومسارعهم فيه ، فقالوا : ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي : وما الذي يمتنعنا من الإيمان بالله ، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا ، الذي لا يقبل الشك والريب ، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين ، فأبي مانع يمتنعنا؟ أليس ذلك موجباً للمسارة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه .

قال الله تعالى : ﴿فأتابهم الله بما قالوا﴾ أي : بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين﴾ . وهذه الآيات نزلت في النصاري الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم . وكذلك لا يزال يوجد فيهم

من يختار دين الإسلام ، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه ، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام .

ولما ذكر ثواب المحسنين ، ذكر عقاب المسيئين قال : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لأنهم <sup>(١)</sup> كفروا بالله ، وكذبوا بآياته المبينة للحق .

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ \* وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون يقول تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ من المطاعم والمشارب ، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم ، فاحمدوه إذا أحلها لكم ، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها ، أو اعتقاد تحريمها ، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب ، وكفر النعمة ، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً ، فإن هذا من الاعتداء .

والله قد نهى عن الاعتداء فقال : ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك ، ثم أمر بضد ما عليه المشركون ، الذين يحرمون ما أحل الله فقال : ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي : كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم ، بما يسره من الأسباب ، إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق ، وكان أيضاً طيباً ، وهو الذي لا خبث فيه ، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث .

﴿واتقوا الله﴾ في امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه ، فإنه لا يتم إلا بذلك . ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه ، من طعام

وشراب ، وسبيرة وأمة ، ونحو ذلك ، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه ، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ الآية . إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار ، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها نفسه ، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه .

﴿٨٩﴾ ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ <sup>(٢)</sup> أي : في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو ، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه ، فإن بخلاف ذلك . ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي : بما عزمتم عليه ، وعقدت عليه قلوبكم . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ ﴿فكفارتهم﴾ أي : كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم

﴿إطعام عشرة مساكين﴾ وذلك الإطعام ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم﴾ أي : كسوة عشرة مساكين ، والكسوة هي التي تجزى في الصلاة . ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي : عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع ، فمضى فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه . ﴿فمن لم يجد﴾ واحداً من هذه الثلاثة ﴿فصيام ثلاثة أيام ذلك﴾ المذكور ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ تكفرها وتحوها وتمتع من الإثم .

﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن الحلف بالله كاذباً ، وعن كثرة الأيمان ، واحفظوها إذا حلفتم عن الحث فيها ، إلا إذا كان الحث خيراً ، فتمام الحفظ : أن يفعل الخير ، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير .

﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ المبينة للحلال من الحرام ، الموضحة للأحكام . ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون . فعلى العباد شكر الله تعالى على ما من به

(١) كذا في ب ، وفي أ : لأنه .

(٢) في ب كتب الآية كاملة .

عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ \* إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴿يَذَمُّ تَعَالَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْقَبِيحَةَ، وَيُخَبِّرُ أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَأَنَّهَا رَجَسٌ. فَاجْتَنِبُوه﴾ أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة وهي الخمر وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره والميسر، وهو: جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها واجتنابها. فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حساً.

والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضاعها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالخمر كل الخمر البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر

والميسر، ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حجاء، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل. وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر، يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه، ويذهل لبه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي: معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟! فهل فوق هذه المفساد شيء أكبر منها؟!.

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفساد - انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتفاء عما نهى الله ورسوله عنه كذلك.

وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن، وقوله: ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين. ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلا تفسككم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه وما حمل به.

﴿٩٣﴾ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه، تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها.

فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعَمُوا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

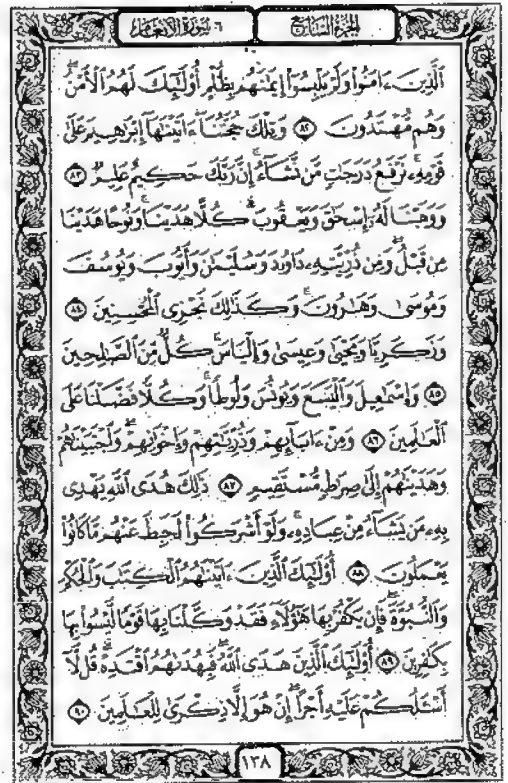
﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشْيَءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ











يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما.

﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين.

﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي: فأسفدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يحسبا ﴿من بعد الصلاة﴾ التي يعظمونها.

﴿فيقسمان بالله﴾ أي: صدقا، وما غيرا ولا بدلا، هذا ﴿إن ارتبتم﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لا نشترى به﴾ أي: بأيماننا ﴿ثمنا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا. ﴿ولو كان ذا قربى﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إنا إذا﴾ أي: إن كتمناها ﴿لمن الآثمين﴾.

﴿فإن عثر على أنهما﴾ أي: الشاهدين ﴿استحقا إثما﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما

خانا ﴿فأخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾.

أي: فليقسم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه. ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا وخانا. ﴿وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين﴾ أي: إن ظلمنا واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها، وردّها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذلك أدنى﴾ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات. ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم. وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعبرين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين. فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما<sup>(١)</sup> بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرأ بذلك من حق يتوجه إليهما.

فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقسم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون. وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «عديم الداري» و «عدي بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام: منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي. ومنها: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتا. ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين. ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين - إذا ارتب منهنما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهم، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيذ اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الرية منهنما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا.

ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون

(١) في النسختين: يحلفونهم.







فيقول الله هذا الكلام لعيسى . فيتبرأ عيسى ويقول : ﴿سبحانك﴾ عن هذا الكلام القبيح ، وعمّا لا يليق بك .

﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي : ما ينبغي لي ، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي ، فإنه ليس أحد من المخلوقين ، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد ، مديرون ، وخلق مسخرون ، وفقراء عاجزون ﴿إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و ﴿أنت علام الغيوب﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه ، فلم يقل عليه السلام : ﴿لم أقل شيئاً من ذلك﴾ ، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف ، وأن هذا من الأمور المحالة ، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه ، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل ، فقال : ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ فأننا عبد متبع لأمر ، لا متجبر على عظمته ، ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي : ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له ، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله ، وبيان أني عبد مريبوب ، فكما أنه ربكم فهو ربي .

﴿وكنتم عليهم شهوداً ما دمت فيهم﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر ، ممن لم يقم به . ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أي : المطلع على سرائرهم وضمائرهم . ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً ، فعلمك قد أحاط بالمعلومات ، وسمعك بالسموعات ، وبصرك بالمبصرات ، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيلاً لأولنا وآخرنا وآية منك﴾ أي : يكون وقت نزولها عيداً وموسماً ، يتذكر به هذه الآية العظيمة ، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته ، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمه ، وفضله وإحسانه عليهم . ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي : اجعلها لنا رزقاً ، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين ، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية ، ومصلحة الدنيا ، وهي أن تكون رزقاً .

﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم ، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عناداً وظلماً ، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد . واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها ، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعد ، ولم يذكر أنه أنزلها ، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يثابروا ذلك ، ويدل على ذلك ، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى ، ولا له وجود . ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ، ويكون عدم ذكرها في الإنجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فسوه .

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً ، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم ، ينقله الخلف عن السلف ، فاكتمى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل ، ويدل على هذا المعنى قوله : ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ . وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ،



﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن المؤمن يحمل ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى ، وأن ينقاد لأمر الله ، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً .

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى ، وإنما لهم مقاصد صالحة ، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها ، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العيانية ، فيكون الإيمان عين اليقين ، كما كان قبل ذلك علم اليقين . كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قال أولم تؤمن؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ . فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت ، ولهذا قال : ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ أي : نعلم صدق ما جئت به ، أنه حق وصدق ، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا ، نشهدها لك ، فتقوم الحجة ، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك ، وعلم مقصودهم ، أجابهم إلى طلبهم في ذلك ، فقال :

(١) في ب : حتى يكون .

﴿إِنْ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾. وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلو لا أنهم عباد متمرّدون لم تعذبهم. ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قال الله﴾ مبيناً لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم واقترائهم، وثمره أعمالهم الفاسدة.

﴿الله ملك السماوات والأرض﴾ لأنه الخالق لهما والمدير لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء متفاداة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الأنعام وهي مكية

﴿١-٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تموتون ﴿هذا إخبار عن حده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة

والجلال عموماً، وعلى هذه المذكورات خصوصاً. فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر. والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك والعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ أي يعدلون به سواء، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساؤوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وذلك بخلق مادتك وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم قضى أجلاً﴾ أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلاً، تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليهم به رسله.

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكركم. ﴿وأجل مسمى عنده﴾ وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.

﴿ثم﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أنتم تموتون﴾ أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادها وتنوع طرقها. ووجد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

﴿٣﴾ ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم

ويعلم ما تكسبون﴾ أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، متعبدون لربهم خاضعون لعظمته، مستكينون لعزّه وجلاله، الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصدّيقون والشهداء والصالحون.

وهو تعالى يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدينكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿٤-٦﴾ ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المثالات، فقال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقيوله ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرف قلوبهم إلى غيرها، وولوها أديارهم.

﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: فسوف يرون ما استهزؤوا به، أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم واقتراءهم، وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى

وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* لبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين \* ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن \* أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأمهلتناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن \* مكناهم في الأرض ما لم نتمكن \* لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية.

﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم \* فينبت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم أنواع اللذات، فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ \* من بعدهم قرناً آخرين \*.

فهذه سُنّة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم.

﴿٧-٩﴾ ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين \* وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون \* ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون \* هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال:

﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم \* وتيقنوه \* لقال الذين كفروا \* ظلماً وعدواناً \* إن هذا إلا سحر مبين \*

فأي: بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كبروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقله دفعه!!

﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنتاً مبيناً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول. ﴿ولو لا

أنزل عليه ملك \* أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه يزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب. ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضى الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم، لأن هذه سُنّة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فأرسل الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين، خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقت قواهم الفانية.

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك. ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون \* أي: وكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق. فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿١٠-١١﴾ ﴿ولقد استهزىء برسلاً من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون \* قل سيرا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يقول تعالى - مسلياً لرسوله، ومصبراً ومتهدداً أعداءه

ومتوعداً. ﴿ولقد استهزىء برسلاً من قبلك﴾ لما جاؤوا أميهم بالبينات كذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به. فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب. ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيحكم ما أصابهم.

فإن شككتهم في ذلك أو ارتبتم، فسيروا في الأرض ثم انظروا، كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين، وأمعاً في المثالات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررراً لهم وملزماً بالتوحيد: ﴿لمن ما في السماوات والأرض﴾ أي: من الخالق لذلك، المالك له المتصرف فيه؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿الله﴾ وهم مقرون بذلك لا يتكرونها، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد!!

وقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبواباً بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم، وقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذا قسم منه،

وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج البينة والبراهين، ما يجعله حق اليقين، ولكن أبى الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضحوا في معاضيه، وتجروا على الكفر به، فخسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾

﴿١٣ - ٢٠﴾ ﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ اعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي ونقلي، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله

فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، وينقمع به الشرك. فذكر أن ﴿له﴾ تعالى ﴿ما سكن في الليل والنهار﴾ وذلك هو المخلوقات كلها، من آدميها وجنّها، وملائكتها، وحيراناتها وجماداتها، فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم القاهر المالك، فهل يصح في عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء المالك، الذي لا نفع عنده ولا ضرر؟ ويترك الإخلاص للخالق المدبر المالك، البضار التافع؟ أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو

إلى إخلاص العباد، والحب والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟!

﴿السميع﴾ لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفطن الحاجات. ﴿العليم﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن؟!

﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿أغير الله اتخذ ولياً﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولاني وينصرتي؟! قل اتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه فاطر السماوات والأرض، أي: خالقهما ومدبرهما. ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ أي: وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن اتخذ ولياً غير الخالق الرزاق، الغني الحميد؟! ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ الله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأنني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي.

﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي: ونهيت أيضاً عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض علي، وأوجب الواجبات.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار، وسخط الخبار، وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، ومن نجاه فيه فهو الفائز حقاً، كما أن من لم ينج منه فهو الهالك الشقي.

ومن أدلة توحيده، أنه تعالى المنفرد بكشف الضر، وجلب الخير والسر، ولهذا قال: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ من فقر، أو مرض، أو عسر، أو غم، أو هم أو نحوه. ﴿فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾. فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية

ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴿لأنذركم الأبصر﴾ وهو بذكرك الأبصر وهو اللطيف الخبير ﴿فدعواكم بصائر من دكركم أبصر فلنفسه ومن عمن فلنفسه وما أناعل بكم يحفظ﴾ وكذلك صرف الآيات ويقولوا درست ولينسنة لقوم يعفون ﴿أتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين﴾ ونساء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ ﴿قل إني أهدى الجماعة فبشركهم بما كانوا يشركون﴾ ﴿والأسسوا بالله عهداً بينهم لين جاءهم به لئلا يكونوا يكافلون﴾ ﴿إنما الآيات عند الله وما يشعرون بها إلا آيات لا يؤمنون﴾ ﴿وقل أفندهم وأصبرهم كما نزلوا وباءة أولئك وكذبهم في طغيانهم ينفهون﴾

والإلهية.

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهوراً، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وهو الحكيم﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب وعاقب، وفيما خلق وقدر. ﴿الخبير﴾ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿قل﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك -: ﴿أي: شيء أكبر شهادة﴾ على هذا الأصل العظيم ﴿قل الله﴾ أكبر شهادة، فهو شهيد بيني وبينكم ﴿فلا أعظم منه شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين﴾ ثم لقطعنا منه الوتين﴾ فالله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً عليه، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن الله أباح له ذمناً من خالفه وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدق بإقراره وفعله، فيؤيده على ما





قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه، فأى شهادة أكبر من هذه الشهادة!!

وقوله: ﴿وَأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن الكريم لمفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم. والندارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب، والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة، التي من قام بها فقد قبل الندارة، فهذا القرآن فيه الندارة لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيدده، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسله: ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لا أشهد﴾ أي: إن شهدوا، فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أركى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك

الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرتهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه<sup>(١)</sup> أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختار لنفسك أي: الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالاعتداء به، فقال: ﴿قل إنما هو إله واحد﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

﴿وانني بريء مما تشركون﴾ به من الأوثان والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه.

لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿يعرفونه﴾ أي: يعرفون صحة التوحيد ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتهون بصحة رسالته ولا يمترون بها، لما عندهم من التيارات به، ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعنيان مثلاً زمان.

قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فهم لا يؤمنون﴾ فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر، الذي يحصل لهم.

﴿٢١﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي: لا أعظم

ظلماً وعناداً ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتمعاً افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته، التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً. ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بادعاء<sup>(٢)</sup> الشريك له والعوين، أو [زعم] أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿٢٢-٢٤﴾ ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ ثم لم تكن فتنهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين. انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون. يخبر تعالى عن مال أهل الشرك يوم القيامة: وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء. ثم لم تكن فتنهم أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال، إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين. انظر متعجباً منهم ومن أحوالهم كيف كذبوا على أنفسهم. أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضر. وضل عنهم ما كانوا يفترون. من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿٢٥﴾ ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك بمجادلونك يقولون الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات، بعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم

(٢) كذا في ب، وفي أ: الدعاء.

(١) في ب على ما خالفوه.









[illegible]

نصرف الآيات ﴿أي﴾: تنوعها، ونأتي بها من كل فن، ولتنوير الحق، وتبيين سبيل المجرمين. ﴿ثم هم﴾ مع هذا البيان التام ﴿يصدقون﴾ عن آيات الله ويعرضون عنها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَيَّ أَخْبَرٍ تُؤْتُونَ﴾  
 أُنَاكُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴿أَيَّ﴾  
 مَفَاجَأَةٍ أَوْ قَدْ تَقَدَّمُ أَمَامَهُ مَقَدِّمَاتُ،  
 تَعْلَمُونَ بِهَا وَقُوعَهُ ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ  
 الظَّالِمُونَ﴾ الَّذِينَ صَارُوا سَبَبًا لِقُوعِ  
 الْعَذَابِ بِهِمْ، بِظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.  
 فَاحْذَرُوا أَنْ تَقِيمُوا عَلَى الظُّلْمِ، فَإِنَّهُ  
 الْهَلَاكُ الْأَبَدِيُّ، وَالشَّقَاءُ السَّرْمَدِيُّ.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾\* والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ يذكر تعالى زيادة ما أرسل به المرسلين، أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشـر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة. والمُنذَرُ والمُنذَرُ به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة.

ولكن الناس انقسموا - بحسب  
اجابتهم لدعوتهم وعدمها - إلى  
قسمين :

﴿فَمَنْ أَمِنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: آمن

بِاللّٰهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَصْلَحَ إِيمَانَهُ وَأَعْمَالَهُ  
وَنِيَّتَهُ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿فِيمَا يَسْتَقْبِلُ﴾  
﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا مَضَى .

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا يُمْسَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: ينالهم ويذوقونه ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: المقترحين<sup>(١)</sup> عليه الآيات، أو القائلين له: إنما تدعوننا للتخذك إلهاً مع الله: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾

أي: مفاتيح رزقه ورحمته. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ وإنما ذلك كله عند الله فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.

﴿ولا أقول لكم إني ملك﴾ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي: هذا غايتي ومنتهاى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

فإذا عرفت منزلي، فلأي شيء  
يبحث الباحث معي، أو يطلب مني  
أمرًا لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان  
بغير ما هو بصده؟

ولأي: شيء إذا دعوتكم، بما أوحى إلي أن تلزموني أني أدعي نفسي غير مرتبتي، وهل هذا، إلا ظلم منك وعناد وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق بين من قبل دعوتي وانقاد لما أوحى إلي وبين من لم يكن كذلك ﴿قل ها يستوي الأعمى والبصير أفا تفكرون﴾ فننزلون الأشياء منازلها وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار؟

﴿٥١ - ٥٥﴾ ﴿وأنذربه الذين الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾ \* ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ \* وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ \* وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ \* وكذلك تفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾ هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم. ﴿ليس لهم من دونه﴾ أي: من دون الله ﴿ولي ولا شفيع﴾ أي: لا من يتولى أمرهم فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء. ﴿لعلهم يتقون﴾ الله بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسأله.

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي : لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص ، رغبة في مجالسة غيرهم ، من الملازمين لدعاء ربهم ، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها ، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره ، وهم قاصدون بذلك وجه الله ، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل ، فهو لاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم ، بل هم مستحقون لموالاتهم ومحبتهم ، وإدنائهم وتقريبهم ، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء ، الأعزاء في الحقيقة وإن كانوا

(١) زاد هنا في طبعة السلفية قبل كلمة المقترحين: (أن يخاطب) المقترحين.



عند الناس أذلاء.

﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ أي: كل له حساب، وله عمله الحسن وعمله القبيح. ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ وقد امثل ﷺ هذا الأمر أشد امثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً [من قريش، أو] من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن تؤمن لك وتتبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإننا نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض، ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم وضيعاً، فإذا من الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل عنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمنعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق.

وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال الله مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم. ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس

بشاكر، فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف، بخلاف من من الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون. ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلام، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهمهم، من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك.

ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها، من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فإذا وجد ذلك كله ﴿فأنه غفور رحيم﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به بما أمرهم به.

﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغنى والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت أمكن اجتنابها والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿٥٦-٥٨﴾ ﴿قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا

من المهتدين﴾ ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتهم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾ ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة، إلا اتباع الهوى الذي أتباعه أعظم الضلال، ولهذا قال: ﴿قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا﴾ أي: إن أتبع أهواءكم ﴿وما أنا من المهتدين﴾ بوجه من الوجوه، وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿على بينة من ربي﴾ أي: على يقين مبين، بصحته وبطالان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق. فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما من الله به عليهم.

﴿و﴾ لكنكم أيها المشركون - ﴿كذبتهم به﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم<sup>(١)</sup> على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إن الحكم إلا لله﴾ فكتمنا أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب، بحسب ما تقتضيه حكمته. فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقص على عباده

(١) كذا في ب، وفي أ: استمررتم.



الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حجته، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة ﴿وهو خير الفاصلين﴾ بين عبادته في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلاً يحمد به عليه، حتى من قضي عليه، ووجه الحق نحوه.

﴿قل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً، ﴿لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ فأوقعته بكم ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الحليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجراً عليه المتجرؤون، وهو يعافهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

﴿٥٩﴾ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴿هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما تحويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وما تسقط من ورقة﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفار، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها. ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذر الخلق، وبذور النوايت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

﴿ولا رطب ولا يابس﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها واشتمل

عليها، وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها.

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع، العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل من إله لا يحصى أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم ينجيكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسين ﴿هذا كله تقرير لإلوهيته، واحتجاج على المشركين به، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال.

ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا آجالهم. فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ لا إلى غيره ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿وهو﴾ تعالى ﴿القاهر فوق عباده﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشيئته

العامّة، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾. ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وهم لا يفرطون﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة بما قدر الله وقضاه ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية.

﴿ثم﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿ألا له الحكم﴾ وحده لا شريك له ﴿وهو أسرع الحاسين﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المتفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونهم بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمته بالإفك والبهتان، وهو يعافهم





وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى. وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب<sup>(١)</sup>، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

﴿٧٠﴾ «وذُرِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لعباً ولهواً وغرماً الحياة الدنيا وذكُرْ به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شرابٌ من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون» المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويذلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه. وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعاً، وجداً لا هزلاً، وإخلاصاً لوجه الله لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما مَنْ زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً. بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه، لأن العمل والسعي إذا كان

لغير الله فهو لعب، فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر، ولا يغتر به، وتنظر حاله، ويحذر من فعالة، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وذكر به﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتحسيناً له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد نهيًا عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجريته على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المرهوب، فذكرها، وعظها، لترتدع وتزجر وتكف عن فعلها.

وقوله: «ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع» أي: قبل [أن] تحيط بها ذنوبها، ثم لا يتفعا أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع «وإن تعدل كل عدل» أي: تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهباً «لا يؤخذ منها» أي: لا يقبل ولا يفيد.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر «الذين أبسلوا» أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك «بما كسبوا، لهم شراب من حميم» أي: ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم «وعذاب أليم بما كانوا يكفرون».

﴿٧١-٧٣﴾ «قل أئندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إهدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين \* وأن أقيموا الصلاة واتقوا وهو الذي إليه تحشرون \* وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب

والشهادة وهو الحكيم الخبير» ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم، مبيناً وشارحاً لوصف آلهتهم، التي يكتفي العاقل بذكر وصفها عن النهي عنها، فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين جزم ببطلانه قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: «أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا» وهذا وصف يدخل فيه، كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر

﴿ونرد على أعقابنا بعد إهدانا الله﴾ أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذورشد، وصاحبها «كالذي استهوته الشياطين في الأرض» أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل له إلى مقصده. فبقي «حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى» والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعيين حائراً وهذه حال الناس كلهم، إلا مَنْ عصمه الله تعالى، فأنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي<sup>(٢)</sup> متعارضة، دواعي<sup>(٣)</sup> الرسالة والعقل الصحيح، والقطرة المستقيمة «يدعونه إلى الهدى» والصعود إلى أعلى عليين.

ودواعي<sup>(٤)</sup> الشيطان ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والتزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس مَنْ يكون مع داعي الهدى في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم مَنْ بالعكس من ذلك. ومنهم مَنْ يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: «قل إن هدى الله هو الهدى» أي: ليس الهدى إلا الطريق

(١) في ب: كان تركه هو الواجب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: دواع.

(٣) كذا في ب، وفي أ: داع.

(٤) كذا في ب، وفي أ: داعي.

التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال وزدي وهلاك. **﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾** بأن نقاد لتوحيد، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت ريق عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم.

**﴿وأن أقيموا الصلاة﴾** أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وستنها ومكملاتها. **﴿وأتقوه﴾** بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى. وهو الذي إليه تحشرون أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

**﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق﴾** ليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم، **﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾** الذي لا مرية فيه ولا مثنوية، ولا يقول شيئاً عبثاً **﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾** أي: يوم القيامة، خضه بالذكر - مع أنه مالك كل شيء - لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا لله الواحد القهار. **﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾** الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابعة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

**﴿٧٤-٨٣﴾** **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾** وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين **﴿إلى آخر القصة﴾** يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثنياً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، إذ قال لأبيه **﴿أزر أتخذ أصناماً آلهة﴾** أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، **﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾** حيث عبدتم من لا يستحق من

العبادة شيئاً، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم ومدبركم.

**﴿وكذلك﴾** حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه **﴿نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾** أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة **﴿وليكون من الموقنين﴾** فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان، والعلم التام بجميع المطالب.

**﴿فلما جن عليه الليل﴾** أي: أظلم **﴿رأى كوكباً﴾** لعله من الكواكب المضئية، لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره، ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة.

**﴿قال هذا ربي﴾** أي: على وجه التنزل مع الخصم، أي: هذا ربي، فهل نظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان.

**﴿فلما أفل﴾** أي: غاب ذلك الكوكب **﴿قال لا أحب الأفلين﴾** أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومدبراً له في جميع شؤونته، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخذه إلهاً إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟! **﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾** أي: طالعا، ورأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها **﴿قال هذا ربي﴾** تنزلاً.

**﴿فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾** فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته فلا معين له.

**﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾** من الكوكب ومن القمر. **﴿فلما أفلت﴾** تقرر حيثئذ الهدى، واضمحل الردى **﴿قال يا**

وَلَا تَسْرُبُوا إِلَى الَّذِينَ هُمْ أَحْسَنُ حَتَّى يَسْمَعُوا شَهَادَةً وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْزِينَةَ بِالْقِسْطِ لَأَنْتُمْ كَانْتُمْ تَسْمُونَ إِلَّا أَوْفُوا وَأَقْلُتْ فَأَعْدِلُوا وَلَا كَانَ دَافِعاً رَيْبُهُمْ أَنَّ أَوْفُوا ذَلِكَ كُمْ وَمَصْرُوفُهُمْ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ ۝ وَإِنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ثُمَّ أَتَيْنَا نَوْمِي الْكُتُبَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفَصَّلَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ لِيَقْلَعَ رَيْبَهُمْ فُتُوتُكُمْ ۝ وَهَذَا كَيْدُكَ أَنْ تَلْزِمَهُ مِثْلُكَ فَأَتَّبِعُوهُ وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْمُونَ ۝ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْأَنْكَبُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ نَجْمِنَ وَإِسْتِغْنَاهُ لَعَلَّيْنِ ۝ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَى الْكُتُبِ لِكُلِّ شَيْءٍ أَهْدَى مِنْهُمْ فَتَدَجَّوْا بَيْنَ رَيْبِهِمْ وَهَدَى وَرَحْمَةً لِمَنْ أَطَاعَ مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا سَجَرَى الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدُقُونَ ۝

قوم إني بريء مما تشركون **﴿حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.**

**﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً﴾** أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه. **﴿وما أنا من المشركين﴾** فثبناً من الشرك، وأدعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان [وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال إنه مقام نظر في حال طفولته فليس عليه دليل<sup>(١)</sup>.

**﴿وحاجه قومه قال: أتأجوني في الله وقد هدان﴾** أي فائدة لم حاجة من<sup>(٢)</sup> لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه - هو بنفسه - يدعو الناس إلى ما هو عليه.

**﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾** فإنها لن تضرني، ولن تمنع عني من النفع شيئاً. **﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً﴾** أفلا تتذكرون **﴿فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية.**

**﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾** وحالها حال العجز وعدم النفع، **﴿ولا**

(١) زيادة من هامش: ب. وهي بخط الشيخ - رحمه الله -.

(٢) كذا في ب، وفي أ: المحاجة لمن.







في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك.

﴿ومن آبائهم﴾ أي: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وذرياتهم وإخوانهم﴾ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم. ﴿واجتنبناهم﴾ أي: اخترناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم.

﴿ذلك﴾ الهدى المذكور ﴿هدى الله﴾ الذي لا هدى إلا هداة. ﴿يهدى به من يشاء من عباده﴾ فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدكم فلا هادي لكم غيره، ومن شاء هدايته هؤلاء المذكورون. ﴿ولو أشركوا﴾ على الفرض والتقدير ﴿لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ فإن الشرك عبط للعمل، موجب للخلود في النار. فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم، فغيرهم أولى.

﴿أولئك﴾ المذكورون ﴿الذين هدى الله فيهداهم اقتده﴾ أي: امش - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم وقد امثل ﷺ، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم.

﴿قل﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي: لا أطلب منكم مغراً ومالاً جزاء عن إبلاغي إياكم، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله.

﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيذرونه ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه. ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة

إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها والشكر عليها.

﴿٩١﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس فجعلونه قراطيس تبذونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة، [من اليهود والمشركون] <sup>(١)</sup> وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح في حكيمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منة امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأى قدح في الله أعظم من هذا؟!!

﴿قل﴾ لهم - ملزماً بفساد قولهم وقرهم، بما به يقرون -: ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿نوراً﴾ في ظلمات الجهل ﴿وهدى﴾ من الضلالة، وهادياً إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملاً ذكره القلوب والأسماع. حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون فيه بما شاؤوا، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك أخفوه وكنموه، وذلك كثير.

﴿وعلمتم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات، فأجب عن هذا السؤال. و ﴿قل الله﴾ الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ذرهم في خوضهم يلعبون ﴿أي:

### سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم  
 ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١



تؤفكون \* فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباً ذلك تقدير العزيز العليم \* وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون \* وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون \* يخبر تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ شامل لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يثبها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنواب، على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه، وغير ذلك. فينتفع الخلق من الآدميين والأنعام والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويربهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويربهم من بدائع صنعته وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحّدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع، النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً، ونحو ذلك.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ أَيُّ:﴾ الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. ﴿فَأَنى تَوْفُكُونَ﴾ أي: فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً!!

ولما ذكر تعالى، مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلق شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشيهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جَعَلَ﴾ الله ﴿الَّيْلَ سَكناً﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك، بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلَ﴾ تعالى ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حِسْبَاناً﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتتضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذَلِكَ﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر. ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير ونظام بديع، تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويخبر في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال تُرى، ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومعالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجهلاء، المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض. ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقته وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقراً، أي: منتهى يتجهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعروا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتحضر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديع، التي لا تستقر

ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار، التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وممر ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبياناته.

﴿٩٩﴾ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دائية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويتعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون وهذا من أعظم منته العظيمة، التي يضطر إليها الخلق من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزان غتهم الجذب واليأس والقحط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبتذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإثابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال: ﴿فأخرجنا منه خضراً نخرج منه﴾ أي: من ذلك النبات الخضراً، ﴿حباً متراكباً﴾ بعضه فوق بعض، من بر وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوته متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿ومن النخل﴾ أخرج الله ﴿من﴾ طلعها وهو الكفرى، والوعاء قبل ظهور القنوم منه، فيخرج من ذلك الوعاء قنوان دائية ﴿أي: قربة سهلة

التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر تناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كُربٌ ومراقى سهل صعودها.

﴿و﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿جنات من أعناب والزيتون والرمان﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنوابت.

وقوله: ﴿مشتبهاً وغير متشابه﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهاً في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والقواكه، وأن بعضها مشتبهاً، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون، ويقتاتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظروا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إلى ثمره﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً النخل إذا أثمر.

﴿ويشع﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً وآيات يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكير في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

﴿١٠٠ - ١٠٤﴾ ﴿وجعلوا الله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ بديع السماوات والأرض أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو

خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به من قریش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «خرق المشركون» أي: اتفكروا وافترخوا من تلقاء أنفسهم لله، بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه!!

ولهذا نزه نفسه عما افترأه عليه المشركون، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وأفة وعيب.

﴿بديع السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما، ومقتن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى



ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ذلكم الذي خلق ما خلق، وقدر ما قدر.

﴿الله ويحكم﴾ أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربي جميع الخلق بالنعيم، وصرف عنهم صنوف النقم. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدْهُ﴾ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه. فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتديره، خلقاً وتديراً وتصريفاً. ومن العلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه. ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها، تابع لموكله.

وأما الباري تبارك وتعالى، فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن لأحد، أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً ولا فطوراً، ولا في تديره نقصاً وعياباً.

ومن وكالته أنه تعالى، توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات والمغيرات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم.

﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لعظمته

وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يشبها بالمفهوم. فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة.

فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال: ﴿لَا تَرَاهُ الْأَبْصَارُ﴾ ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على تقيض قولهم.

﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعه، بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره، بجميع المبصرات، صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا، والخبيا والبواطن.

ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى، من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور التي يكرهها العبد ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لعلمه أن دينه أصلح، وأن كماله متوقف عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

﴿قد جاءكم بضائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ لما بين تعالى من الآيات البينات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قد جاءكم بضائر من ربكم﴾ أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، لما اشتملت عليه من

قَالَ رَبِّنا عَلَّمَنَا الْقُرْآنَ فَأَنزَلْناهُ رَحْمَةً وَتَذْكُراً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَقْبِضُوا عَصَىكُمْ فَعَصَوْا وَكَفَرُوا ﴿١٠٨﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١٠٩﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٠﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٢﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٣﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٤﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٥﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٨﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١١٩﴾ قَالَ رَبِّنا نَسْفَعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَتَسْقُوتُ فِي الْيَمِّ ﴿١٢٠﴾

فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب الذي ربي خلقه يصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبين الآيات، وتوضيح المشكلات.

﴿فمن أبصر﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها ﴿فلنفسه﴾ فإن الله هو الغني الحميد.

﴿ومن عمي﴾ بأن بصر، فلم يتبصر، وزجر، فلم يترجر، وبين له الحق، فما انتقاد له ولا تواضع، فإنما عماه مضرت عليه.

﴿وما أنا﴾ أيها الرسول ﴿عليكم بحفيظ﴾ أحفظ أعمالكم وأراقبها على الدوام، إنما على البلاغ المين وقد أدبته، وبلغت ما أنزل الله إلي، فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فليست موظفاً فيه<sup>(١)</sup>.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزاً، بل مشروعاً في الأصل، وهو سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثاناً وآلهة

(١) انتقل الشيخ - رحمه الله - بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا...﴾ فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: (وكذلك

نصرف الآيات) إلى قوله: (وما أنت عليهم بوكيل) ذات الأرقام (١٠٥ - ١٠٧) فقام النجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من

كلام الشيخ - رحمه الله - انظر طبعة النجار (٢/ ٤٥٠ - ٤٥٢).





مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها.

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيهه جناناً العظيم عن كل عيب، وآفة، وسب، وقدح - نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يحمون لدينهم، ويتعصبون له. لأن كل أمة زين الله لهم عملهم، فأروه حسناً وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمتة في قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية وهي أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تقضي إلى الشر.

﴿١٠٩ - ١١١﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ \* ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون \*

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴿أي﴾: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد ﷺ. ﴿بالله جهد أيمانهم﴾ أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكدوه. ﴿لئن جاءتهم آية﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿ليؤمنن بها﴾ وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم، دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به الرسول قطعاً، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات، والأدلة الواضحات، التي - عند الالتفات لها - لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به، فطلبهم - بعد ذلك - للآيات من باب التعتن، الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم، فإن الله جرت سنته في عبادته، أن المقترحين للآيات على رسلهم، إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها - أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك فليس معلوماً، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال:

﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾.

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة، يتقلب القلوب، والخيولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم. وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح

لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسباً لأحوالهم.

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيتهم وحدهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم ﴿قبلاً﴾ ومشاهدة ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانهم ولكن أكثرهم يجهلون. فلذلك رتبوا إيمانهم، على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ \* ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون ﴿يقول تعالى - مسلياً لرسوله محمد ﷺ - وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات الموهبة، فيعتقدون الحق

باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتصغى إليه﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك، ﴿وليرضوه﴾ بعد أن يصغوا إليه فيصنعون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقتربوا من الأعمال والأقوال ما هم مقتربون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين، بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تحلبهم تلك التموهيات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعوة، فإن كانت حقاً قبلوها وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً، ردوها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه - حيث - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيه المتنافسون.

﴿١١٤ - ١١٥﴾ أفغير الله أتبعي

حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين \* وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم \* أي: قل يا أيها الرسول ﴿أفغير الله أتبعي حكماً﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه. فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم، وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قبلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق، ولهذا توأطأت الأخبارات ﴿فلا﴾ تشكن في ذلك ولا تكونن من الممترين \* ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه لا مبدل لكلماته [حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها] <sup>(١)</sup>.

﴿وهو السميع﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والباطن، والماضي والمستقبل.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون \* إن ربك هو أعلم من يضل

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين \* يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ فإن أكثرهم قد انجرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم، فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمتة أسوة له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قبلاً، وأصدق حديثاً، وهو أعلم من يضل عن سبيله \* وأعلم بمن يهتدي ويهدي. فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجراً، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين﴾ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فضل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين \* يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم، إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها،

(١) زيادة من هامش: ب بخط الشيخ - رحمه الله -

فإن المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة الله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي: فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفستت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهاها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وإن أطعتموهم﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل - بمجردها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، ويعتمد التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصى إلا الله.

﴿١٢٢ - ١٢٤﴾ ﴿أو من كان ميتاً

فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما

الأمور المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده. فنهى الله عباده عن اقتراح الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف.

وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿١٢١﴾ ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر

اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام وآلهتهم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، الحرم بالنص عليه خصوصاً.

ويدخل في ذلك متروك التسمية بما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو للخنم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ولعلها سبب نزول الآية، لقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ بغير علم.

ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام، وذلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة، الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فضله الله فما لم يفضل الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فضله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخضمة، كما قال تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ إلى أن قال: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وإن كثيراً يضلون بأهوائهم﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم بغير علم ولا حجة. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبهة، بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿١٢٠﴾ ﴿وذروا ظاهر الإثم

وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج، من





لهم اعتذاراً، وأما أولياؤهم من الإنس فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي: تمتع كل من الجنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به.

فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له، وعبادته وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، ويلوغه بسبب خدمة الجنّي له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجنّي، فيخدمه الجنّي، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية، أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك، ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي تجازي فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك. وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿النار مثواكم خالدين فيها﴾.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمها، فحكمته الغاية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها.

﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي: وكما ولينا الجن المردة وسلطانهم على إضلال أولياؤهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

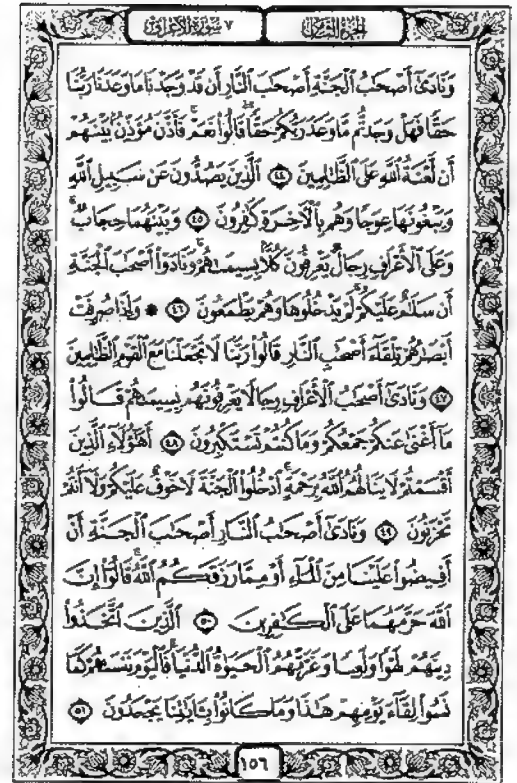
كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيعة أثرها، البالغ خطرها.

والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾. ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة، ولّى عليهم ظلمة يسومونهم سوء

مولاه واتبع هواه، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم \* وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون \* يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين \* ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون \* ولكل درجات بما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون \* وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين \* إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين \* قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون \* يقول تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزوه إلى المعاصي: ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجراتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاريين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الححيم؟

فالיום حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وستزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حينئذ، عما يحل بهم من النكال والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله



فيسره للعسرى

﴿١٢٦ - ١٢٧﴾ وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون \* لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون \* أي: معتدلاً، موصلاً إلى الله وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لقوم يذكرون﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل، فلماذا قال: ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات، ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين، وهم فيها خالدون.

﴿وهو وليهم﴾ الذي تولى تدبيرهم وتربيته، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن



العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محسنيين.

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعايتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاية ظلم واعتساف، ثم يتخ الله جميع من أعرض عن الحق ورده، من الجن والإنس، وبين خطاهم فاعترفوا بذلك، فقال:

﴿يا معشر الجن والإنس ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ الواضحات البينات، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي والخير والشر، والوعد والوعيد.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه، والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضيق ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، ف﴿قالوا﴾ بلى ﴿شهدنا على أنفسنا وخرقناها، ونعيمها، فاطمأنوا بها ورضوا، وألهتهم عن الآخرة، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حيث كل أحد، حتى هم بأنفسهم عدل الله فيهم، فقال لهم: ﴿حكما﴾ عاكما عليهم بالعذاب الأليم: ﴿ادخلوا في﴾ جملة ﴿أسم قد خلث من قبلكم من الجن والإنس﴾ صنعوا كصنيعكم، واستمتعوا بخلاقهم كما استمتعتم، وخاضوا بالباطل كما خضتم، إنهم كانوا خاسرين، أي: الأولون من هؤلاء والآخرين، وأي: خسران أعظم من خسران جنات النعيم، وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟! ولكنهم وإن اشتركوا في الخسران، فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتاً عظيماً.

﴿ولكل﴾ منهم ﴿درجات﴾ مما عملوا بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمبتوع، ولا المرؤوس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في

الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وقنعوا بما جباهم.

فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى، التي أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفوة من أهل وداده.

﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ فيجازي كلا بحسب عمله، وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم وقصداً لمصالحهم، ولأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين.

﴿إن يشأ يذهبكم﴾ بالإهلاك ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشأ﴾ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين. فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم، كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلم اتخذتموها قراراً؟ وتوطئتم بها وتسيتم، أنها دار عمر لا دار مقر. وأن أمامكم داراً، هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟

وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرين، ويرحل نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها، فثم الخلود الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلب، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب، هنالك والله، ما تشتهيهِ الأنفس، وتلد الأعين، ويتنافس فيه المتنافسون، من لذة الأرواح وكثرة الأفراح، ونعيم الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب، فليله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات!! وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة الغيبون!! ولا يستبعد المعرض الغافل، سرعة

ولقد جئتمكم بكل قصصنا على غير هدى ورحمة ليوم يروى هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بأياتهم وآياتهم فسفهاؤا فسفهاؤا لنا أوزر ففعلوا غير الذي كنا نعمل فذخروا أنفسهم وصل عنهم ما كانوا يفعلون ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ ثم استوى على العرش ﴿يشيئ الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرين بأمره ألا له الخلق والأمر بركات الله رب العالمين﴾ ﴿أعوذ بربكم من الضر والمفارقة﴾ ﴿لا يحب الله الغش﴾ ﴿ولا يسهلوا في الأرض بعد إصلاحها وأدعوه خوفاً وطمعاً إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾ ﴿وهو الذي يرسل الرياح ينشأ بين يديهم سحاباً فإذا أغلقت سحباً فإنا لا مفرج لهم﴾ ﴿فأخرجناهم من مكمل السموات﴾ ﴿ذلك نخرج للوفاء لعهودكم﴾ ﴿تذكرون﴾

الوصول إلى هذه الدار، ف ﴿إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾ الله، فارين من عقابه، فإن نواصيك تحت قبضته، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله، وبيئت لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه، فامتنعوا من الانقياد لأمره واتبعوا أهواءهم، واستمروا على شركهم: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي: على حالتكم التي أنتم عليها، ورضيتموها لأنفسكم ﴿إني عامل﴾ على أمر الله، ومتبع لمراضي الله. ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أنا أو أنتم، وهذا من الإنصاف بموضع عظيم حيث بين الأعمال وعامليها، وجعل الجزاء بقروناً بنظر البصير، ضارباً فيه صفحاً عن التصريح الذي يغني عنه التلويع. وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقيب الدار، وأن كل معرض عن ما جاءت به الرسل عاقبته عاقبة سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ فكل ظالم، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهيته [فيه] الاضمحلال والتلف ﴿إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته﴾.

﴿١٣٦ - ١٤٠﴾ ﴿وجعلوا لله ثمناً ذراً من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعيمهم وهذا شركائنا فما كان

أولادهم، وهو: الواد، الذين يذفنون أولادهم الذكور خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنع ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم، ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجاً منه لهم، وإمهالاً لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئاً.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً، وجعلها رزقاً ورحة، يتمتعون بها ويتنفعون، قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام [والحرث] أنهم يقولون فيها: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ أي: محرم. ﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم -.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراءهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها أي: بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهرها، ويسمون بها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ على الله من إحلال الشرب، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع. ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون

محظورين، بل ثلاثة محاذير، منتهم على الله في جعلهم له نصيباً، مع اعتقادهم أن ذلك منهم تبرع، وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذلك، وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا، ولو كان واصلاً إلى الشركاء، وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصل إلى الله منه شيء، وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم - شيء، جعلوه قسمين:

قسماً قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه، ولا يقبل عمل من أشرك به.

وقسماً جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد. فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك، وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لأنفسهم إلى ما جعلوه لله، ردوه إلى محله، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئاً تركته وشركه».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

ومن سفة المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم - أي: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل



لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان الله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون \* وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون \* وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون \* وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم \* قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموها ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين \* يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي ﷺ، من سفاهة العقل وخفة الأحلام، والجهل البليغ، وعدد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم لينبه بذلك على ضلالهم والحدز منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدر فيه أصلاً، فإنهم لا أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ ولشركائهم من ذلك نصيباً، والحال أن الله تعالى هو الذي ذرأه للعباد، وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محذورين

بعض الأنعام ويعينوها - محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿ما في بطن هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركون فيها النساء، ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أي: نساينا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتاً، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سيجزيهم﴾ الله ﴿وصفهم﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فنقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله. ﴿إنه حكيم﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿عليم﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافهم ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٠﴾ ثم بين خسارتهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردى والضلال.

﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿افتراء على الله﴾ أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار. ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أي: قد ضلوا ضلالاً بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿١٤١﴾ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزروع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴿هذا ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام

فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات﴾ أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

﴿معروشات وغير معروشات﴾ أي: بعض تلك الجنات، مجعول له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض. وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنقرش في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرشونها وينمونها.

﴿وأنشأ تعالى﴾ النخل والزروع مختلفاً أكله. أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزروع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. ﴿وأنشأ تعالى﴾ الزيتون والرمان متشابهاً في شجره ﴿وغير متشابهة﴾ في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كلوا من ثمره﴾ أي: النخل والزروع ﴿إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول، لأنه الوقت الذي تشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حيثئذ إخراجه على أهل الزروع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يغيظه ويمقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب

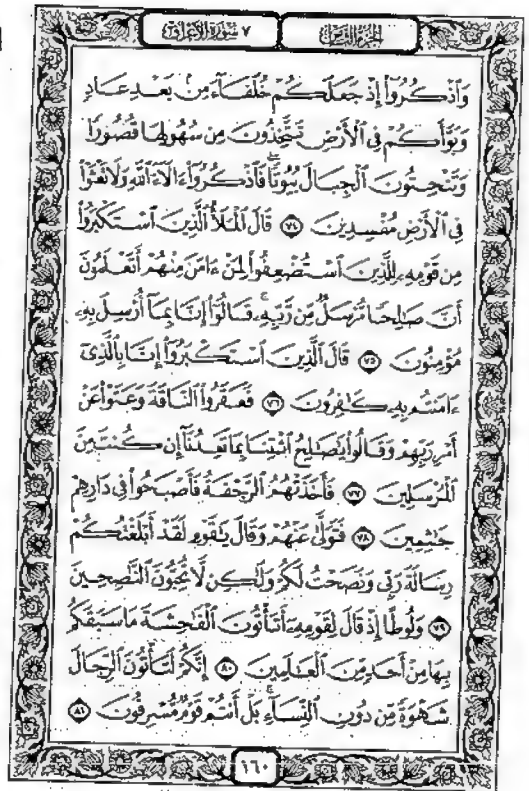
الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزروع، وجذاذ النخل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزروع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبيع خارصاً يخرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

وقد كان النبي ﷺ يبيع خارصاً يخرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿١٤٢ - ١٤٤﴾ ﴿ومن الأنعام حولة وفرساً كلوا مما رزقكم الله ولا تبغوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين \* ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم



ولا الإناث الخالص من الصنفين .  
بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى ، أو على مجهول فقال : ﴿أم﴾ يحرمون ﴿ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي : أنثى الضأن وأنثى المعز ، من غير فرق بين ذكر وأنثى ، فلستم تقولون أيضاً بهذا القول : فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة ، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك ، فإلى أي شيء تذهبون ؟

﴿نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ في قولكم ودعواكم ، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل ، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة . وهم لا يقولون بشيء منها . إنما يقولون : إن بعض الأنعام التي يضطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم ، حرام على الإناث دون الذكور ، أو محرمة في وقت من الأوقات ، أو نحو ذلك من الأقوال ، التي يعلم علماً لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب ، والعقول المختلة المنحرفة ، والآراء الفاسدة ، وأن الله ما أنزل - بما قالوه - من سلطان ، ولا لهم عليه حجة ولا برهان .

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك . فلما بين بطلان قولهم وفساده ، قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته ، إلا في اتباع شرع الله . ﴿أم﴾ كنتم شهداء إذ وصاكم الله ﴿أي : لم يبق عليكم إلا دعوى ، لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها . وهي أن تقولوا : إن الله وصانا بذلك ، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله ، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب ، وهذا افتراء لا يجمله أحد ، ولهذا قال : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾ أي : مع كذبه وافتراءه على الله ، قصده بذلك ، إضلال عباد الله عن سبيل الله ، بغير بينة منه ولا برهان ، ولا عقل ولا نقل . ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا إرادة لهم في

غير الظلم والجور والافتراء على الله . ﴿١٤٥-١٤٦﴾ ﴿قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ وعلى الذين هادوا حرماً كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرماً عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببيعهم وإنا لصادقون﴾ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله ، وأبطل قولهم . أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم ، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال ، من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل ، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله ، وقد قال لرسوله : ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم﴾ أي : محرماً أكله ، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .

﴿إلا أن يكون ميتة﴾ والميتة : ما مات بغير ذكاة شرعية ، فإن ذلك لا يحل . كما قال تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ .

﴿أو دماً مسفوحاً﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها ، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن ، فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم ، ومفهوم هذا اللفظ ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح ، أنه حلال طاهر .

﴿أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أي : فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس ، أي : خبث تنجس مضر ، حرمه الله لطفاً بكم ، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث . ﴿أو﴾ إلا أن يكون ﴿فسقاً أهل لغير الله به﴾ أي : إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله ، من الأوثان والآلهة التي يعبدونها المشركون ، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ، أي : ومع هذا ، فهذه الأشياء المحرمات ، من اضطر إليها ، أي : حلتها الحاجة والضرورة إلى أكل

الظالمين﴾ أي : ﴿و﴾ خلق وأنشأ ﴿من الأنعام حولة وفرساً﴾ أي : بعضها تحملون عليه وتركبونه ، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرهما كالفصال ونحوها ، وهي الفرش ، فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين .

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع ، فإنها كلها تؤكل ويتنفع بها . ولهذا قال : ﴿كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي : طرده وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله . ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مصلحتكم وشقاؤكم الأبدي .

وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده ، وجعلها كلها حلالاً طيباً ، فصلها بأنها : ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين﴾ ذكر وأنثى ﴿ومن المعز اثنين﴾ كذلك ، فهذه أربعة ، كلها داخلة فيما أحل الله ، لا فرق بين شيء منها ، فقل لهؤلاء المتكلفين ، الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء ، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ، ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا ﴿الذكرين﴾ من الضأن والمعز ﴿حرم﴾ الله ، فلستم تقولون بذلك وتطردونه ، ﴿أم الأنثيين﴾ حرم الله من الضأن والمعز ، فليس هذا قولكم ، لا تحريم الذكور الخالص ،



وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ

﴿١٤٨-١٤٩﴾ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرضون \* قل فليله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴿هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويعملون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم﴾

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ الآية.

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تنزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأدافهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذ كانت مستندة إلى مجرد الظن والحرص الذي لا يغني عن الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ فلو كان لهم علم - وهم خصوم الداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم. ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرضون﴾ ومن بنى حججه على الحرص والظن، فهو مبطل

به، وما سوى ذلك فحلال. ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة كله<sup>(١)</sup> من باب التزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم ولهذا، قال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ وذلك كالإبل وما أشبهها وحرمنا عليهم.

﴿من البقر والغنم﴾ بعض أجزائها، وهو: ﴿شحومهما﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والثرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك، فقال: ﴿إلا ما حملت ظهورها أو الخوايا﴾ أي: الشحم المخالط للأعضاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾.

﴿ذلك﴾ التحريم على اليهود ﴿جزيناهم ببغيهم﴾ أي: ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً. ﴿وانا لصادقون﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

﴿١٤٧﴾ ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: فإن كذبك هؤلاء المشركون، فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذو رحمة واسعة﴾ أي: عامة شاملة [لجميع] للمخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمة بأسبابها، التي رأسها وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به.

﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم

شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف ﴿غير باغ﴾ أي: مريد لأكلها، من غير اضطرار ولا متعدي، أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته. ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي: قاله قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم محررات لم تذكر فيها، كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك، فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة.

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط: ﴿فإنه رجس﴾ وصف شامل لكل محرم، فإن المحرمات كلها رجس وخيث، وهي من الخبائث المستفجرة التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله - دل ذلك على أن المشركين، الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله

(١) في ب: كلها.



خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

ومنها: أن الحجة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة<sup>(١)</sup> القاطعة باطل، لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاؤوا فعلوا، وإن شاؤوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مني بضر أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجباً كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم!!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الضائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من

الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ<sup>(٢)</sup>.

﴿١٥٠﴾ ﴿قُلْ هَلْ م شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما: أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما: أن يحضروا أحداً يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أقاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى - ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة - : ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: يسنون به غيره من الأنداد والأوثان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿١٥١ - ١٥٣﴾ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف

نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون \* وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَهُؤَلاءِ الَّذِينَ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرمات، من المأكَل والمشارب والأقوال والأفعال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحداً، مخلصاً لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

ثم بدأ بأكد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ من ذكور وإناث ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجوداً في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منتهين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنهيههم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم من باب أول وأخرى.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

(١) في ب: الآية.

(٢) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطيء.





أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشرىكين.

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾ أي: ذبجي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى.

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي: ما آتته في حياتي، وما يحزبه الله علي، وما يقدر علي في مماتي الجميع ﴿الله رب العالمين لا شريك له﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدعاً أتيت من تلقاء نفسي، بل ﴿بذلك أمرت﴾ أمراً حتماً، لا أخرج من التبعة إلا بامثاله ﴿وأنا أول المسلمين﴾ من هذه الأمة.

﴿قل أغير الله﴾ من المخلوقين ﴿أبغي رباً﴾ أي: أحسن ذلك ويليقي بي، أن اتخذ غيره مربياً ومديراً والله رب كل شيء، فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره!!

فتعين علي وعلى غيري، أن يتخذ الله رباً، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المربوين الفقراء العاجزين.

ثم رغب ورهب بذكر<sup>(١)</sup> الجزاء فقال: ﴿ولا تكسب كل نفس﴾ من خير وشر ﴿إلا عليها﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿ولا تنزر وازرة وزر أخرى﴾ بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء.

﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم

بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية. وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾.

ثم ذكر صفة الجزاء، فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فله عشر أمثالها﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف.

﴿ومن جاء بالسيسة فلا يجزى إلا مثلها﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾.

﴿١٦٥ - ١٦١﴾ ﴿قل إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين \* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين \* قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها

ولا تنزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون \* وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم \* يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الخلفاء، ووالد من بعث من بعده من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلق حينئذ باب التوبة.

ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قل انتظروا إننا منتظرون﴾ فستعلمون أينما أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالأستواء والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى، من غير تشبيه له بصفات المخلوقين.

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير، وفيه أن من جملة أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها. وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه. فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان. فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيسة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة.

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر



القيامة ﴿فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك، أوفى الجزاء.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: يخلف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم، لينظر كيف تعملون.

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في القوة والعافية، والرزق والخلق والخلق. ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ فتفاوتت أعمالكم. ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الميقات.

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والثناء وصلى الله وسلم على نبينا محمد [وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين] (١).

المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لعلمه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

بسم الله الرحمن الرحيم

### تفسير سورة الأعراف مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المص﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يقول تعالى لرسوله

محمد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وأنه أصدق الكلام فليشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تحش لائماً ومعارضاً.

﴿لتنذر به﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجة على المعاندين. ﴿و﴾ ليكون ﴿ذكرى للمؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألفهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿من ربكم﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي، إن اتبعتموه كملت تربيتكم، وتمت عليكم النعمة، وهديتكم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي: تتولونهم وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق.

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ فلو تذكركم وعرفتم المصلحة، لما أترتم الضار على النافع، والعدو على الولي. ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءهم به رسلهم، لئلا يشابهوهم (٢) فقال: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بياتاً أو هم قائلون﴾ أي: في

حين غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى: ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾.

وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أي: لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبت المرسلين﴾ الآيات.

﴿ولنسألن المرسلين﴾ عن تليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أمهم.

﴿فلنقصن عليهم﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بعلم﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ في وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾.

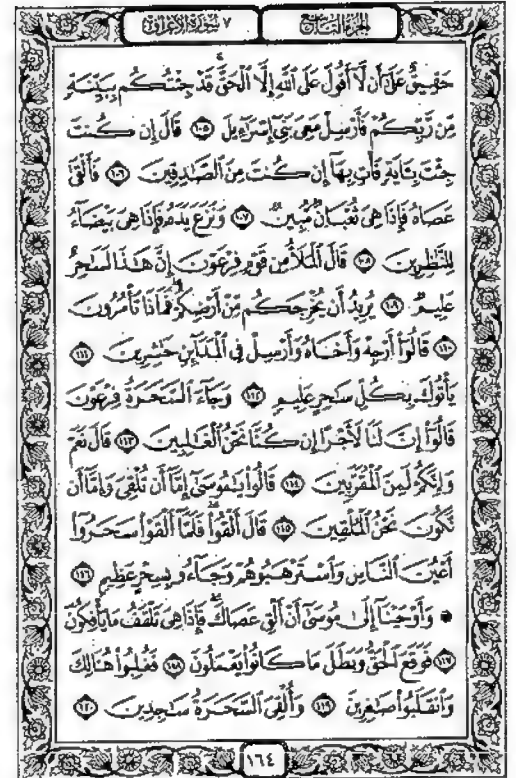
﴿٨-٩﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقيسط، الذي لا جور

(١) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة الموافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة، سنة ١٣٤٥هـ، بقلم الفقير إلى ربه المئان: علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وقد نسخته على نسخة المؤلف غفر الله له وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاه الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران بفضلته وكرمه، إنه قريب مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين ثم آمين يا رب العالمين).

(٢) في ب: فلا يشابهوهم.







ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿ولا تحبذ أكثرهم شاكرين﴾ فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إنما يدعو حربه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وإنما نهى الله على ما قال وعزم على فعله، لئلاخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا، بالطرق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿١٨﴾ قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿اخرج منها﴾ خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام بل ﴿مذؤوماً﴾ أي: مذموماً ﴿مدحوراً﴾ مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير.

﴿لأملأن جهنم﴾ منك ومن تبعك منهم ﴿أجمعين﴾ وهذا قسم منه تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

﴿١٩ - ٢٣﴾ ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فوسوس لهما الشيطان ليدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي:

أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء، التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أَرادَا، إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحرم عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فلم يزالا يمثلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها، وموه عليهما وقال: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ أي: من جنس الملائكة ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاعتزلا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل.

﴿فدلاهما﴾ أي: نزلهما عن ربتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقدما على أكلها.

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ أي: ظهرت غورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار العري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت

عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خجلا وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. ﴿وناداهما ربهما﴾ وهما بتلك الحال موبخاً ومعاتباً: ﴿ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ فلم اقتربتما المنهي، وأطعتمتا عدوكم؟ فحيثذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: قد فعلنا الذنب، الذي نهيتمنا عنه، وضررنا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمخوثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى.

هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه، فمن أشبه آدم بالاغتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه الله وهده.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوها الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، ويتزل عليهم كتبه، حتى يأتيتهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي





بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومنه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولى - بجهله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانته من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿٣١﴾ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴿٣٢﴾ يقول تعالى - بعدما أنزل على بني آدم لباساً يوارى سواتهم وريشاً: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي: استروا عورتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونقلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها، ونظافة البستر من الأدناس والأنجاس.

ثم قال: ﴿وكلوا واشربوا﴾ أي: بما رزقكم الله من الطيبات ﴿ولا تسرفوا﴾ في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشه في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق في المأكول والمشرب واللباس، وإما بتجاوز

الحلال إلى الحرام. ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ فإن السرف يبعثه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

﴿٣٢-٣٣﴾ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون ﴿٣٤﴾ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعملون ﴿٣٥﴾ يقول تعالى منكرأ على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكول ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله!!

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها.

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كذلك تفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لقوم يعلمون﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فضله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾ أي: الذنوب

الكبار التي تستفحش وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك، ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر كالرياء، والخلف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

﴿٣٤﴾ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿٣٥﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿٣٥-٣٦﴾ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون \* والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٣٦﴾ أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم



أحكامه، ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿فمن اتقى﴾ ما حرم الله، من الشرك والكبائر، والصغائر، ﴿وأصلح﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فلا خوف عليهم﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي.

﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي: لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أولئك أصحاب النار﴾ هم فيها خالدون ﴿كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها﴾ أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿٣٧﴾ ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءهم رسنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو القول عليه ما لم يقل، ﴿أو كذب بآياته﴾ الواضحة المينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم، فهو لا وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغف عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً، ثم يعذبون طويلاً، ﴿حتى إذا جاءهم رسنا يتوفونهم﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم. ﴿قالوا﴾ لهم في تلك الحالة توبيخاً وعتاباً ﴿أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة. ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء. ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ مستحقين للعذاب المهيمن الدائم.

فكانت لهم الملائكة ﴿ادخلوا في أمم﴾ أي: في جملة أمم ﴿قد خلقت من قبلكم من الجن والإنس﴾ أي: مضوا

على ما مضيتهم عليه من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الحزني والبوار، كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لعلنا﴾ أختها ﴿كما قال تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾﴾ حتى إذا أذكوا فيها جميعاً أي: اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولين والآخرين، والقادة والرؤساء، والمقلدين الأتباع.

﴿قالت أكرههم﴾ أي: متأخروهم، المتبعون للرؤساء ﴿أولاهم﴾ أي: لرؤسائهم، شاكين إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي: عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنهم أضلونا، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

﴿٣٩﴾ ﴿وقالت أولاهم لأكرههم﴾ أي: الرؤساء قالوا لا تبعاهم: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ أي: قد اشتركتنا جميعاً في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأى: فضل لكم علينا؟ ﴿قال﴾ الله ﴿لكل﴾ منكم ﴿ضعف﴾ ونصيب من العذاب.

﴿فتوفوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال، أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائهم أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ فهذه الآيات ونحوها، دللت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله، مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفارتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافتراءهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك

﴿٤٢﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥١﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦١﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧١﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير من الذين كذبوا بآياتنا﴾

نجزي المجرمين \* لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴿يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بيئات، واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى، أنهم آيسون من كل خير، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن فلا يؤذن لها، كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزء من جنس العمل.

ومفهوم الآية أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله المصدقين بآياته، تفتح لها أبواب السماء حتى تعرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتبتهج بالقرب من ربه والحظوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ وهو البعير المعروف ﴿في سم الخياط﴾ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسماً، في خرق الإبرة، الذي هو من أضيق الأشياء، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال، أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة



قَالَ يَمْشِي إِلَى صَطْفَيْكَ عَلَى الْكَافِرِينَ كَلَّا  
فَقَدْ مَاءَ آيَاتِكَ وَكَرَّمَتْ الشُّكْرَى ۝ وَكَتَبْنَا  
لَهُمُ الْآلُوفَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِدَةً وَتَقْصِيلاً لِكُلِّ  
شَيْءٍ فَخَذَهَا يَمُوتُونَ وَهُمْ لَا يَخْتَارُونَ ۝ وَكَتَبْنَا  
لَهُمُ الْفُتُورَ ۝ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ  
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِمَّنْ يَأْتِيهِمْ  
وَأَنْ يَرَوْا سَيْلًا مِمَّنْ لَا يَخْذَعُونَ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا  
سَيْلًا مِمَّنْ يَخْذَعُونَ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا آيَاتِنَا  
وَكَبَرُوا عَنْهَا ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا آيَاتِنَا  
وَلَقَدْ آتَيْنَاهُمُ الْخَصْرَ وَحِطَّتْ أَعْيُنُهُمْ هَلْ يَجْعَزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ۝ وَأَنفَعُ قَوْمًا مِمَّنْ يَتَذَكَّرُونَ مِنْ ظُلُمِهِمْ  
عَمَلًا حَسَنًا اللَّهُ خَوَّارٌ لِّزُرَّارِهِمْ لَا يَكْفُرُونَ وَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ  
سَبِيلًا أَنفَعُهُمْ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ۝ وَلَمَّا سَيطَرُوا  
فِي أَرْضِهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَنْ نَرْجِعَ حَسَنًا  
رَّبَّنَا وَنَعْرِفَ رَحْمَتَكَ لَعَنَ كُفْرًا مِنَ الْكَافِرِينَ ۝

وماواه النار ﴿٤١﴾ وقال هنا ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴿لما ذكر الله تعالى عقاب العصاة الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ لفظا عاما يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالى: ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه

الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾ ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

﴿أولئك﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي: لا يحولون عنها ولا يبتغون بها بدلا، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجودا في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخوانا متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي: يفجرونها تفجيرا، حيث شاءوا، وأين أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجري في غير أخدود، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿وهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به﴾ قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴿بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا، فأمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم، الذي ابتدأنا بالنعيم، وأسدى من النعم

الظاهرة والباطنة ما لا يحصىه المحصون، ولا يعده العادون، ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من بهدايته واتباع رسله.

﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي: حين كانوا يثمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم، قالوا لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاوزوا به حق اليقين، لا مزية فيه ولا إشكال، ﴿ونودوا﴾ تهنئة لهم وإكراما، وتحية واحتراما، ﴿أن تلکم الجنة أورثتموها﴾ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعا لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بما كنتم تعملون﴾.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون ﴿يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها، وأرانا ما وصفه لنا ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حقا قالوا نعم﴾ قد وجدناه حقا، فتبين للخلق كلهم، بيانا لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلا، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعده الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على

إلى أن قال: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ \* على الأرائك ينظرون ﴿واختلف أهل العلم والمفسرون، من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟

والصحيح في ذلك، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى أدخلهم برحمته الجنة، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

﴿٥٠ - ٥٣﴾ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين \* الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعباً وغرّبهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون \* ولقد جئناهم بكتاب فضّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون \* هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴿أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ، وحين يمسه الجوع المفرط والظما الموجه، يستغيثون بهم، فيقولون: ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إن الله حرمهما﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿على الكافرين﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه.

﴿لهوا ولعباً﴾ أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخرى، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن

يطمعون في دخولها، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ ورأوا منظرأ شنيعاً، وهولاً فظيماً ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ فأهل الجنة. [إذا رآهم أهل الأعراف] <sup>(١)</sup> يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم.

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف، وأموال وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رأوهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا منيئ: ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به المكارة، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا، فاليوم اضمحل، ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك، أي شيء نفعلكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه، ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أهؤلاء﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ احتقاراً لهم وازدراء وإعجاباً بأنفسكم، قد حشتم في إيمانكم، وبدالك من الله ما لم يكن لكم في حساب، ﴿ادخلوا الجنة﴾ بما كنتم تعملون، أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لا خوف عليكم﴾ فيما يستقبل من المكارة ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ على ما مضى، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون

أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب. ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ أي: بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال ﴿أن لعنة الله﴾ أي: بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿على الظالمين﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلماً، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم، وصدوا غيرهم، فضلوا وأضلوا.

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير السالكين إليه، ﴿و﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عوجاً﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل، ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة، عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين وبره شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

﴿٤٦ - ٤٩﴾ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون \* وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين \* ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون \* أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: ﴿الأعراف﴾ لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم، أي: علاماتهم، التي بها يعرفون ويميزون، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أن سلام عليكم﴾ أي: يحيونهم ويسلمون عليهم، وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة، ولكنهم

الدين القيم .

﴿وَعَزَّيْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يزيئتها وزخرفها وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

﴿فَالْيَوْمَ نَسَاءَهُمْ﴾ أي : نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء .

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبيئاته، بل قد ﴿جئناهم بكتاب فصلناه﴾ أي : بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿على علم﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء .

﴿هَذِي وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي : تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغني والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي : الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء .

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا انتقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن .

ولهذا قال : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي : وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ .

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ﴾ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم . مقرين بما أخبرت به الرسل : ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَبُهِلَ لَنَا مِنْ شَفَعَاءٍ فَيُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا .

﴿فَمَا تَتَفَتَّهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم، قال تعالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوْنَا عَنْهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح، وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابته، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا مما تمنىهم أنفسهم به، ويعددهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل .

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ عَلَى عَظَمَةٍ وَسِعَتُهُمَا وَإِحْكَامُهُمَا وَإِتْقَانُهُمَا، وَبَدِيعُ خَلْقَهُمَا .

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿استوى﴾ تبارك وتعالى ﴿على العرش﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال : ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ الْمَظْلَمَ﴾ ﴿النَّهَارَ الْمُنِيرَ﴾، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار .

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب

الليل، وهكذا أبداً على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، ويتقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي : يتسخيره وتديره، الدال على ماله من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له .

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي : له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علوها وسفلها، أعيانها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق : يتضمن أحكامه الكونية القدريّة، والأمر : يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي : عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قال : ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده، المعبود المقصود في الخوائج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال :

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تضرعاً﴾ أي : إلحاحاً في المسألة، ودعواً في العبادة، ﴿وخفية﴾ أي : لا جهراً وعلانية يخاف منها الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى .

﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي : المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل





ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين - ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان ﴿فقال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحده ﴿مالكم من إله غيره﴾ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء سرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد.

﴿٦٠﴾ ﴿قال الملأ من قومه﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، ﴿إنا نراك في ضلال مبين﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبنياً، واضحاً لكل أحد. وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي

الآليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهراً وباطناً، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة، فلم يفد فيهم، ولا نجح ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي: السفينة التي أمر الله نوحاً عليه الصلاة والسلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين وأهله ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها.

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ عن الهدى، أبصروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات البينات، ما بهم يؤمن أولوا الأبواب، فسخروا منه، واستهزؤا به وكفروا.

﴿٦٥ - ٧٢﴾ ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup>. أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد﴾ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿هوداً﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض.

﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ سخطه وعذابه، إن أقمتم على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ رادين لدعوته، قادحين في رأيه: ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي: ما نراك إلا سفيهاً غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين، وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحكم عماهم حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقاً الكاذبون.

وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من

لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهانا تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأ عقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترقق لهم لعلمهم ينقادون له فقال: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾ أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايا وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها، ولهذا قال: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيدة وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون، ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أنه جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله!!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿لينذركم ولتتقوا، ولعلكم ترحمون﴾ أي: لينذركم العذاب

(١) في ب: كتب الآيات كاملة.



لا يغني عنه شيئاً من الأشجار والأحجار!!

وأي كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى!!

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾ بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد، ﴿ولكنني رسول من رب العالمين﴾ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين.

فالأوجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد وطاعة رب العباد.

﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي: واحمدوا ربكم واشكروه، إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم، ﴿و﴾ اذكروا نعمة الله عليكم التي خصكم بها، وهي أن ﴿زادكم في الخلق بسطة﴾ في القوة وكبر الأجسام، وشدة البطش، ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي: نعمه الواسعة، وآياده المتكررة ﴿لعلكم﴾ إذا ذكرتموها بشكرها وأداء حقها ﴿تفلحون﴾ أي: تفوزون بال مطلوب، وتنجون من المهروب، فوعظهم وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا.

﴿فقالوا﴾ متعجبين من دعوته، وخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه:

﴿اجئتنا لنعيد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ قبحهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات وأكمل الأمور، من الأمور التي لا يعارضون بها ما وجدوا عليه آباءهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم، وقالوا: ﴿فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ وهذا استفتاح منهم على أنفسهم.

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي: لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وحان وقت الهلاك ﴿تجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم﴾ أي: كيف تجادلون على أمور لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتوها آلهة، وهي لا شيء من الآلهة فيها، ولا مثقال ذرة و ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه ﴿فانتظروا﴾ ما يقع بكم من العقاب، الذي وعدتكم به ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ وفرق بين الانتظرين، انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والثواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال: ﴿فأنجيناه﴾ أي: هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴿فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحته فأنجاهم برحمته، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت

وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا، وأوحينا إلى موسى إذ استسفنه قومه أن أضرب يديك الحجر فآجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشرقة وظللنا عليهم الغمام وأرأنا عليهم النور والسكران كلاً من طيبت مآزقكم ومسا ظمونا ولا يكون كآؤنا أنسكم بظلموت ﴿وآذ قل لهم أناسكم تراهم في الآخرة وكأولئها حيث شئتم وقولوا حطة وأدعوا الباب فمكناهم لستم خطيتكم سكراناً كذبت ﴿فبذل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأنسنا على من كذبنا السوء بما كانوا يعملون ﴿وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يدعون في السبت إذ تأذيرهم حيث أنهم يوم سبهم شرعاً وقولهم لا يسعون لتأثيرهم كذلك تبلوهم بما كانوا يشفون ﴿

عليهم الحجج، فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والحزى والفضيحة. ﴿وأنبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بغداً لعاد قوم هود﴾.

وقال هنا: ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعناد، ونعتهم الكبر والفساد. ﴿٧٣-٧٩﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم<sup>(١)</sup>. أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى ثمود القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز وجزيرة العرب، أرسل الله إليهم أخاهم صالحاً نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد، ف ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالهكم من إله غيره﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله، ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾ أي: خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها

(١) في ب: كتب الآيات كاملة.



سلط عليكم عدواً يجتاحكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراك الأرزاق وكثرة النسل.

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ وهم الجمهور منهم. ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهو بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ استعملوا قوتهم السبعية، في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً ولا ذمة ولا حقاً، وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفهية التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعدوه إن لم يتابعهم - بالجلء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف «قال» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أو لو كنا كارهين﴾ أي: أننا نكره دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا بطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: حجارة حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الهلاك والخزي الدائم.

﴿٨٥ - ٩٣﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾... إلى آخر القصة<sup>(٢)</sup> أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿شعيباً﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿فإن ترك المعاصي أمثالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿ولا تقعدوا﴾ للناس ﴿بكل صراط﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و ﴿توعدون﴾ من سلوكها ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ من أراد الاهتداء به ﴿وتبغونها حوجاً﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها.

﴿واذكروا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي: نماكُم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكُم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ ﴿ولو طأ إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى آخر القصة<sup>(١)</sup>. أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا ﴿لو طأ﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش، ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بينها بقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أدبار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محل تخرج منه الأنتان والأخباث، التي يستحي من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن فعل الفاحشة. ﴿وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

﴿فأنجيناه وأهلكنا﴾ أي: الباقيين المعبدين، أمره الله أن يسري بأهلكه ليلاً، فإن العذاب أصبح قومه فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

(٢) في ب: أورد الآيات كاملة.

يدعى إليها!!

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أي: أشهدوا علينا أننا إن عدنا فيها بعدما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء من جعل الله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك.

﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فأيسسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأحل المحال.

وحيث إن الله من عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد وسع ربنا كل شيء علماً، فيعلم ما يصلح للعباد وما

يدبرهم عليه. ﴿على الله توكلنا﴾ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه.

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ وفتحته تعالى لعباده نوعان: فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ مخذرين عن اتباع شعيب، ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة الشديدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي: صرعى ميتين هامدين، قال تعالى ناعياً حالهم ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفيثوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارج أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات ولهذا قال: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ أي: الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران

المبين، لا من قالوا لهم: ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾،

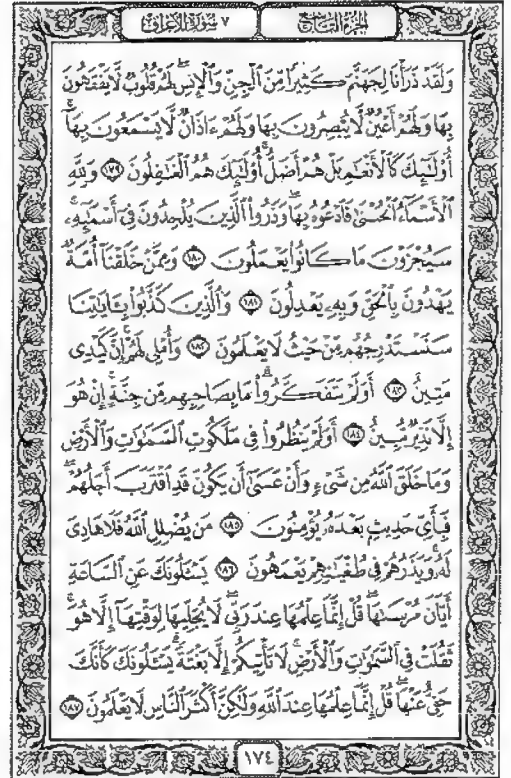
فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وقال﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي﴾ أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم ﴿ونصحت لكم﴾ فلم تقبلوا نصحي، ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم.

﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحققهم، فعياًذا بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم!!

﴿٩٤ - ٩٥﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بفتنة وهم لا يشعرون﴾ يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له: ﴿إلا ابتلاهم الله بالبأساء والضراء﴾ أي: بالفقر والمرض وأنواع البلاء. ﴿لعلهم﴾ إذا أصابتهم، أخضعت نفوسهم فتضرعوا إلى الله واستكانوا للحق. ﴿ثم﴾ إذا لم يقد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم. ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ فأدرك عليهم الأرزاق، وعاقب أيدانهم، ورفع عنهم البلاء ﴿حتى عفوا﴾ أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء. ﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة







للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنَقْلِبَ أَفئدتهم وأبصارهم كما لو يؤمنوا به أول مرة، ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾. كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين عقوبة منه. وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على السنة رسلة.

﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل.

﴿١٠٣-١٧١﴾ ثم بعثنا من

بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه إلى آخر قصته<sup>(١)</sup>. أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جبابرة، وهم فرعون وملئه، من أشrafهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فظلموا بها﴾ بأن لم ينقادوا لحقها الذي من لم ينقد له فهو ظالم، بل استكبروا عنها ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بشن الرصد المرفود، وهذا مجمل فصله بقوله: ﴿وقال موسى﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ﴿يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جللتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر. فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم.

فقال له فرعون: ﴿إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ فألقى موسى عصاه في الأرض

﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي: حية ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها.

﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ من غير سوء، فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقته، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فلهذا ﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي: ماهر في سحره، ثم خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه ﴿يريد﴾ موسى بفعله هذا ﴿أن يخرجكم من أرضكم﴾ أي: يريد أن يجليكم<sup>(٢)</sup> عن أوطانكم ﴿فماذا تأمرون﴾ أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإن ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحيث انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أرجه وأخاه﴾ أي: احبسهما وأمهلهما، وابعث في المداين أناساً يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحر عليم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى.

﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناس ضحى﴾ فتولى فرعون فجمع كيداً ثم أتى وقال هنا: ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا في ﴿قالوا: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾؟ ف ﴿قال فرعون: نعم﴾ لكم أجر ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده، ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قالوا﴾ على وجه التأييد وعدم

(١) في ب: أورد الآيات كاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من.

المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يا موسى إما أن تلقني﴾ ما معك ﴿وإما أن نكون نحن الملحقين﴾ ف ﴿قال﴾ موسى: ﴿ألقوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيتهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ف ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ فألقاها ﴿فإذا هي﴾ حية تسعى، ف ﴿تلقف﴾ جميع ﴿ما يافكون﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

﴿فوقع الحق﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك الجمع، ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ فقلبوا هنالك ﴿أي: في ذلك المقام﴾ وانقلبوا صاغرين ﴿أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿وألقي السحرة ساجدين﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴿رب موسى وهارون﴾ أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

ف ﴿قال﴾ لهم ﴿فرعون﴾ مشهداً على الإيمان: ﴿آمنتكم به قبل أن آذن لكم﴾ كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها وتفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ وقال هنا: ﴿آمنتكم به قبل أن آذن لكم﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ علي.

ثم موه على قومه وقال: ﴿إن هذا لكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر فتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه الضلالة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ ما أحل بكم من العقوبة، ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى. ﴿ثم لأصلبنكم﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أجمعين﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيدوق هذا العذاب، فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إننا إلى ربنا منتقلون﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وما تنقم منا﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إلا أن آمنا﴾ [آيات] ربنا [لما جاءتنا] <sup>(١)</sup> فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ربنا أفرغ﴾ أي: أفض ﴿علينا صبراً﴾ أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه،

ويزول عنه الانزعاج الكثير.

﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي: منقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملاؤه وعامتهم المتبعون للملأ، قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلماً وعلواً، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿ويذرك وأهلك﴾ أي: يدعك أنت وأهلك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

ف ﴿قال﴾ فرعون مجيباً لهم، بأنه سنيذع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا ينمون فيها، ويأمن <sup>(٢)</sup> فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ أي: نستبقيهن فلا نقتلن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

ف ﴿قال موسى لقومه﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، - التي لا يقدرُونَ معها على شيء، ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿استعينوا بالله﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيم أمركم ﴿واصبروا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، مستظرين للفرج.

﴿إن الأرض لله﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿يورثها

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: آمنا بربنا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

من يشاء من عباده ﴿١﴾ أي : يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته ، ولكن العقوبة للمتقين ، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة ، فإن النصر لهم ، ﴿والعاقبة الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد ، أنه عند القدرة ، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ، ما يقدر عليه ، وعند العجز ، أن يصبر ويستعين الله ، وينتظر الفرج .

﴿قالوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون ، وأذيتهم : ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾ فإنهم يسوموننا سوء العذاب ، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ كذلك ذ ﴿قال﴾ لهم موسى مرجياً ﴿لهم﴾<sup>(١)</sup> الفرج والخلاص من شرهم : ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ أي : يمكنكم فيها ، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فينظر كيف تعملون﴾ هل تشكرون أم تكفرون ؟ وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أزاله الله .

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة ، أنها على عادته وسنته في الأمم ، أن يأخذهم بالأساء والضراء ، لعلمهم يضرعون . الآيات :

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أي : بالدهور والجذب ، ﴿ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ أي : يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم ، لعلهم يرجعون عن كفرهم ، فلم ينجع فيهم ولا أفاد ، بل استمروا على الظلم والفساد .

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي : الخصب وإدراك الرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي : نحن مستحقون لها ، فلم يشكروا الله عليها ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ أي : قحط وجذب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي : يقولوا : إنما جاءنا بسبب محبي موسى ، واتباع بني إسرائيل له .

قال الله تعالى : ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي : بقضائه وقدرته ، ليس كما قالوا ، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك ، بل ﴿أكثرهم لا يعلمون﴾ أي : فلذلك قالوا ما قالوا .

﴿وقالوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون ، ولا يزولون عن باطلهم : ﴿مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي : قد تقرر عندنا أنك ساحر ، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر ، فلا نؤمن لك ولا نصدق ، وهذا غاية ما يكون من العناد ، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات ، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل .

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي : الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم ، وأضر بهم ضرراً كثيراً ﴿والجراد﴾ فأكل ثمارهم ، وزروعهم ، ونباتهم ﴿والقمل﴾ قيل : إنه الدباء ، أي : صغار الجراد ، والظاهر أنه القمل المعروف ﴿والضفادع﴾ فملأت أوعيتهم ، وأقلقتهم ، وأذهمت أذية شديدة ﴿والدم﴾ إما أن يكون الرعاف ، أو كما قال كثير من المفسرين ، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً ، فكانوا لا يشربون إلا دماً ، ولا يطبخون إلا بدم .

﴿آيات مفصلات﴾ أي : أدلة وبيّنات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين ، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فاستكبروا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وكانوا﴾ في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى ، بأن أبقاهم على الغي والضلال .

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي : العذاب ، يحتمل أن المراد به : الطاعون ، كما قاله كثير من المفسرين ، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، فإنها رجز وعذاب ، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما

عهد عندك﴾ أي : تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع ، ﴿لئن كشفت عنا الرجز ، لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ وهم في ذلك كذبة ، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب ، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره .

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ أي : إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها ، وليس كشفاً مؤبداً ، وإنما هو مؤقت ، ﴿إذا هم ينكثون﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى ، ووعدوه بالإيمان به ، وإرسال بني إسرائيل ، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل ، بل استمروا على كفرهم يعمهون ، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين .

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي : حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم ، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً ، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فأرسل فرعون في المداين حاشرين﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل ، وقالوا لهم : ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ وإنا لنعظون \* وإنا لجميع حاذرون \* فأخرجناهم من جنات وعيون \* وكنوز ومقام كريم \* كذلك وأورثناها بني إسرائيل \* فأتبعوهم مشرقين \* فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون \* قال كلا إن معي ربي سيهدين \* فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم \* وأزلفنا ثم الآخرين \* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين .

وقال هنا : ﴿فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي : بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق . ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ في الأرض ، أي : بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل

فرعون، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿مشارك الأرض ومفاربها﴾ والمراد بالأرض هاهنا، أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين، أذلين، أي: ملكهم الله جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها ﴿وقمت كلمة ريك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا﴾ حين قال لهم موسى: ﴿استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾.

﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ من الأبنية الهائلة، والمساكن المزخرفة ﴿وما كانوا يعرشون﴾ ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾.

﴿وجاوزنا بني إسرائيل البحر﴾ بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿فأتوا﴾ أي: مروا ﴿على قوم يحكفون على أصنام لهم﴾ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها. ﴿قالوا﴾ من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة كما اتخذها هؤلاء.

﴿قال﴾ لهم موسى: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ وأي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخالقه وأراد أن يسوي به غيره، من لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً!! ولهذا قال لهم موسى: ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها، فالعمل باطل وغايته باطلة.

﴿قال أغير الله أبغىكم إلهاً﴾ أي: أطلب لكم إلهاً غير الله المألوه، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر

بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم ما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾ أي: من فرعون وآله. ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم النجاة من عذابهم ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ أي: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أو: وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى ووعظهم انتهوا عن ذلك. ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، وينتهي لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخلقني في قومي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وأصلح﴾ أي: اتبع طريق الصلاح ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وكلمه ربه﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه ومودة لرؤيته.

﴿قال رب أرني أنظر إليك قال﴾ الله ﴿لن تراني﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبثون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل

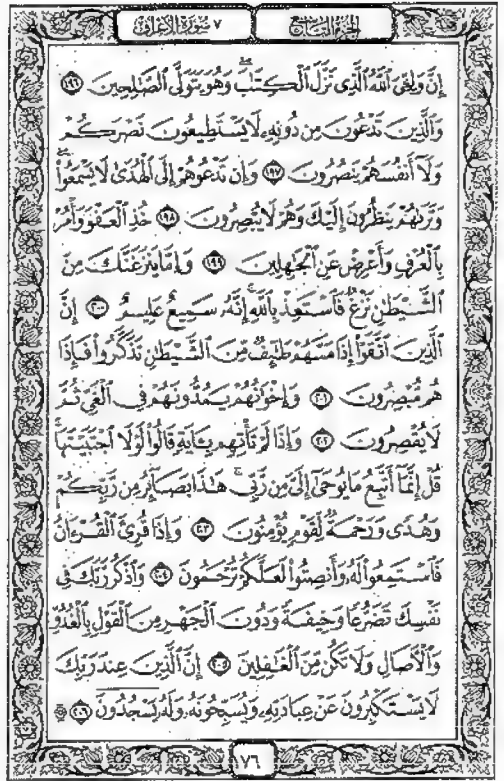
الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقنعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه﴾ إذا تجلى الله له ﴿فسوف تراني﴾.

الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقنعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه﴾ إذا تجلى الله له ﴿فسوف تراني﴾.

﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ الأصم الغليظ ﴿جعلته دكاً﴾ أي: انهال مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها<sup>(١)</sup>، ﴿وخر موسى﴾ حين رأى ما رأى ﴿صمقاً﴾ فتبين له حينئذ أنه إذا لم يشبث الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يشبث لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً و[لذلك]<sup>(٢)</sup> ﴿قال سبحانه﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿تبت إليك﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له مما كان يحمله قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان منشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال: ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس﴾ أي: اخترتك واجتبتك وفضلتك

(١) كذا في ب، وفي أ: وعدم ثبوت.

(٢) زيادة من هامش ب.



وخصصتك بفضائل عظيمة، ومناقب جليلة، برسالاتي التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

وبكلامي إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، فنخذ ما آتيتك من النعم، ونخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانتقاد، وكن من الشاكرين لله على ما خصك وفضلك.

وكتبنا له في الألواح من كل شيء يحتاج إليه العباد موعظة، ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، وتفصيلاً لكل شيء من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق والآداب فنخذها بقوة أي: بجهد واجتهاد على إقامتها، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فإنها أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل شريعة كاملة - عادلة حسنة.

سأريكم دار الفاسقين بعدما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون، وأما غيرهم، فقال عنهم: «سأصرف عن آياتي» أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية، والفهم لآيات الكتاب الذين يتكبرون

في الأرض بغير الحق أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمه الله خيراً كثيراً وحذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

«وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها» لإعراضهم واغتراضهم، ومحادتهم لله ورسوله، «وإن يروا سبيل الرشاد أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته. لا يتخذوه» أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه «وإن يروا سبيل الغي» أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء يتخذوه سبيلاً والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يزداد بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشاد ما أوجب.

«والذين كذبوا بآياتنا» العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا. «ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم» لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه «هل يجزون» في بطلان أعمالهم وحصولاً ضد مقصودهم إلا ما كانوا يعملون فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك اضمحلت وبطلت «واخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجباً جسداً صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فضاز» له خوار وصوت، فعبذوه واتخذوه إلهاً.

وقال «هذا إلهكم وإله موسى فنسي» موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات!!

ولهذا قال مبيناً أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون إلهاً ألم يروا أنه

لا يكلمهم أي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم «ولا يهديهم سبيلاً» أي: لا يدلهم طريقاً دينياً، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية، لأن من التقرر في العقول والفطر، أن اتخاذه لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه، ولهذا قال: «اتخذوه وكانوا ظالمين» حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

«ولما رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم ندموا و«سقط في أيديهم» أي: من الهم والندم على فعلهم، «ورأوا أنهم قد ضلوا» فتنصلوا، إلى الله وتضرعوا و«قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا» فيدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال، «ويغفر لنا» ما صدر منا من عبادة العجل «لنكونن من الخاسرين» الذين خسروا الدنيا والآخرة.

«ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً» أي: ممتلاً غضباً وغيظاً عليهم، لتمام غيرته عليه الصلاة والسلام، وكمال نصحه وشفقته، «قال بشما خلقتُموني من بعدي» أي: بش الحالة التي خلقتُموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدى.

«أعجلتم أمر ربكم» حيث وعدكم بإنزال الكتاب. فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة القبيحة «والقى الألواح» أي: رماها من الغضب «وأخذ برأس أخيه» هارون وحيته «يجره إليه» وقال له: «ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، أن لا تتبعن أفعصيت أمري» لك بقولي: «أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» ف«قال يا ابن أم لا



يَسْأَلُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلُوبُ الْأَنْفَالِ وَالرَّسُولُ فَاسْأَلُوا اللَّهَ  
وَأَسْأَلُوا أَنْتَ بَيْنَكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحُجَّتْ  
أُمُّهُمُ وَآلَاتُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِمُ بَدَّوْا وَآلَاتُهُمْ عَلَىٰ رِجْلِهِمْ  
يَتُوبُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ يَكُنْ عَنْهُمْ  
رَيْبٌ وَغَفِرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمْ كَمَا أَغْفِرُكَ ذُنُوبَكَ  
مِنْ أَمْرِكَ بِالْحَقِّ وَأَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَ رِجْلُونَ  
﴿٣﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ مَعَهُ مَا يَكُنْ كَلَامًا فَاسْأَلُوا إِلَى  
الْمُؤْمِنِينَ وَتَحَرَّوْهُمْ ﴿٤﴾ فَإِذَا يَدْرَأُ اللَّهُ إِذَىٰ الظَّالِمِينَ  
أَنَّهُ لَكُمْ وَفُودُونَ أَنْ تَعْرِضَ الْفُودَ تَكُونُ لَكُمْ  
وَرِيدُ اللَّهِ أَنْ يَحْيَىٰ لَكُمْ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٥﴾  
يَحْيَىٰ أَمْحَىٰ وَيُطِلُّ الْبَيْتَ وَيُكْرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٦﴾

والسلام، يتضرع إلى الله ويتبتل ويقول: «رب لو شئت أهلكتهم من قبل» أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين «أهلكنا بما فعل السفهاء منا» أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله واعتذر بأن المتجربين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال: «إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين» أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى وتفضل، فكان موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبته من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذيتك السببين، ومع هذا فأنت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.

﴿١٥٦﴾ فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم

وكبائر، وصغائر «ثم تابوا من بعدها» بأن ندموا على ما مضى وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا «وآمنوا» بالله وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان «إن ربك من بعدها» أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات، «لغفور» يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قرب الأَرْض «رحيم» بقبول التوبة والتوفيق لأفعال الخير وقبولها.

﴿٥﴾ ولما سكت عن موسى الغضب أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، ف «أخذ الألواح» التي ألقاها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة «وفي نسختها» أي: مشتملة ومتضمنة «هدى ورحمة» أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين [هم] <sup>(٢)</sup> «لربهم يرهبون» أي: يخافون منه ويخشونه، وأما من لم يخف الله ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا اعتواً ونفوراً، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿٦﴾ لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم «اختار موسى» منهم «سبعين رجلاً» من خيارهم، ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاتاً يحضرون فيه، فلما حضروا، قالوا: يا موسى، «أرنا الله جهرة» فتجرؤوا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ف «أخذتهم الرجفة» فصعقوا وهلكوا.

فلم يزل موسى عليه الصلاة

تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، ولم ترقب قولي» و «قال» هنا «ابن أم» هذا تريق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه: «إن القوم استضعفوني» أي: احتقروني حين قلت لهم: «يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، فاتبعوني وأطيعوا أمري» «وكادوا يقتلونني» أي: فلا تظن بي تقصيراً «فلا تشمت بي الأعداء» بنهرك لي، ومسك إياي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجردوا علي عشرة، أو يطالعوا لي على زلة «ولا تجعلني مع القوم الظالمين» فتعاملني معاملة من تعاملهم.

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، عما ظنه فيه من التقصير، و «قال رب اغفر لي ولأخي» هارون «وأدخلنا في رحمتك» أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين من جميع الشرور، وثم كل خير وسرور. «وأنت أرحم الراحمين» أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأنفسنا، قال الله تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه: «إن الذين اتخذوا العجل» أي: إلهاً «سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا» كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره.

«وكذلك نجزي المفترين» فكل مفتر على الله كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك، فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى <sup>(١)</sup>، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكماً عاماً يدخلون فيه هم وغيرهم، فقال: «والذين عملوا السيئات» من شرك

(١) في النسختين: قتلى كثيرة.

(٢) زيادة من هامش ب.



ذنوبهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح.

﴿وفي الآخرة﴾ حسنة وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب.

﴿إننا هدنا إليك﴾ أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا، منيين في جميع أمورنا. ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿عذابي أصيب به من أشاء﴾ ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ من العالم العلوي والسفلي، السبر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ المعاصي، صغارها وكبارها.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ السواجبة مستحقها ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

﴿١٥٧﴾ ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ احتراز عن سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ

والسياق في أحوال بني إسرائيل

وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين، هم أهل الرحمة المطلقة، التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه. وأنه ﴿يأمرهم بالمعروف﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه.

﴿وينهاهم عن المنكر﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفظر، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وير الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فبأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحله وحرّمه، فإنه ﴿يحل لهم الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب، والمناكح.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح، والأفعال والأفعال.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقال.

﴿فالذين آمنوا به وعزروه﴾ أي: عظموه وبجلوه ﴿ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات، ﴿أولئك هم المفلحون﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة،

والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعززه وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أي: عريكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جملتها: أن أرسل إليكم رسولاً عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله، ﴿يحيي ويميت﴾ أي: من جملة تدابير: الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسراً ومنبراً يعبر منه إلى دار البقاء، التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً.

﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿وآتبعوه لعلكم تهتدون﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتُم ضلالاً بعيداً.

﴿١٥٩﴾ ﴿ومن قوم موسى أمة﴾ أي: جماعة ﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم، بقضايهم، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يوقنون﴾ وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى

جعل منهم هداة يهدون بأمره.

وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم، فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معائب بني إسرائيل، المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهتدية.

﴿١٦٠﴾ ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ أي: قسمناهم ﴿اثنتي عشرة أسباطاً أماً﴾ أي: اثنتي عشرة قبيلة متعارفة متوالفة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمَهُ﴾ أي: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى، أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء.

فأوحى الله لموسى إجابة لطلبتهم ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِمِصْرَاكَ الْحِجْرَ﴾ يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس، يشمل أي حجر كان، فضربه ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ أي: انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا جارية سارحة.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبَهُمْ﴾ أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينا، فعلموها واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحة، والمخاصمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم.

﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰ غَمَامٍ غَمَامًا﴾ فكان يستريحون من حر الشمس وأنزلنا عليهم المن وهو الحلوى، ﴿وَالسَّلْوَى﴾ وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور وألذها، فجمع الله لهم بين الظلال، والشراب، والطعام الطيب، من الحلوى واللحوم، على وجه الراحة والطمأنينة.

وقيل لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

حيث فوتوها كل خير، وعرضوها للشكر والنعمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه.

﴿١٦١﴾ ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: ادخلوها لتكون وطناً لكم ومسكناً، وهي «إيلياء» ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار، غزيرة الثمار، رغيدة العيش، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاؤوا.

﴿وَقُولُوا﴾ حين تدخلون الباب: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: احطط عنا خطايانا، واعف عنا.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لربكم مستكيتين لعزته، شاكرين لنعمته، فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل فقال: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من خير الدنيا والآخرة، فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهي، بل ﴿بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل طلب المغفرة، وقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾، (حجة في شعيرة)، وإذا بدلوا القول - مع يسره وسهولته - فتبدلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا وهم يزحفون على أستاههم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذاباً شديداً، إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية.

وما ظلمهم الله بعقابه وإنما كان ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة ألجأتهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامناً في نفوسهم.

﴿١٦٢﴾ ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ أي: اسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي: على ساحله في حال تعددهم وعقاب الله إياهم.



﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً، فابتلاههم الله وامتنحنهم، فكانت الحيتان تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ أي: كثيرة طافية على وجه البحر.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئاً ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم <sup>(١)</sup> الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلزم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق:

﴿١٦٤﴾ ﴿مَعْظَمُهُمْ اعْتَدُوا وَتَجَرَّؤُوا، وَأَعْلَنُوا بِذَلِكَ، وَفِرْقَةٌ أَعْلَنَتْ بِنَهْيِهِمْ وَالْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ.

وفرقه اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم، وقالوا لهم: ﴿لَمْ تَعْظُونَنَا قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم يقولون: لا فائدة في

بعدهم خلف. زاد شرهم ﴿ورثوا﴾ بعدهم ﴿الكتاب﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿ياأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون﴾ مقربين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سيفقر لنا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة.

فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جرائعهم: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم. ﴿والحال أنهم قد درسوا ما فيه﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنوب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم، بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ ما حرم الله عليهم، من المأكَل التي تصاب، وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إثارة، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيماً عظيماً باقياً فأثني له العقل والرأي!!

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿والذين يمسكون

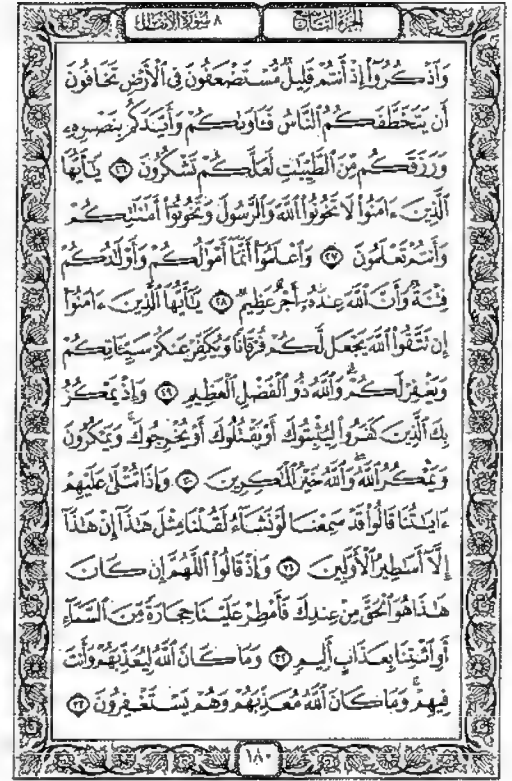
بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لم تعظون قوماً مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

﴿١٦٦﴾ ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ أي: قسوا فلم يلبسوا ولا اتعظوا، ﴿قلنا لهم﴾ قولاً قديماً: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ فانقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وإذا تأذن ربك﴾ أي: أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي: يمينهم ويذلهم.

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن عصاه، حتى إنه يعجل له العقوبة في الدنيا. ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب إليه وأتاب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويثيبه عليها بأنواع المثوبات، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

﴿١٦٨﴾ ﴿وقطعناهم في الأرض أُممًا﴾ أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿منهم الصالحون﴾ القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿ومنهم دون ذلك﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿ويلووناهم﴾ على عاداتنا وسنتنا، ﴿بالحسنات والسيئات﴾ أي: بالخير واليسر.

﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين ضالّح وطالح ومقتصد، حتى خلف من



وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصح للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: تعظهم وننهاهم ﴿معدرة إلى ربكم﴾ أي: لنعذر فيهم. ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نياس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معذرة، وإقامة حجة على الأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي. ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي: تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم.

﴿أنجيناً﴾ من العذاب ﴿الذين ينهون عن سوء﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجاة منها الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بعذاب بئيس﴾ أي: شديد ﴿بما كانوا يفسقون﴾

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين: ﴿لم تعظون قوماً مهلكهم﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك



بالكتاب ﴿أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم. ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات إقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم، مصلحين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن الله بعث رسوله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح، كان أقرب إلى اتباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ حين امتنعوا من قبول ما في التوراة.

فألزمهم الله العمل ونتق فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم ﴿كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾ وقيل لهم: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي: بجهد واجتهاد.

﴿واذكروا ما فيه﴾ دراسة ومباحثة، واتصافاً بالعمل به ﴿لعلكم تتقون﴾ إذا فعلتم ذلك.

﴿١٧٢﴾ ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون

قرناً بعد قرن.

﴿و﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ أي: قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم ومليكنهم.

قالوا: بلى قد أقررنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الخفيف القيم.

فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾

أي: إنما امتحناكم حتى أقررتم بما تقرر عنكم، من أن الله تعالى ربكم، خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لاهون.

فاليوم قد انقطعت حجبتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم.

﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ فقد أودع الله في فطركم ما يدلّكم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاء به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه.

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه، عن حجج الله وبياناته وآياته الأفقية والنفسية، فإعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات.

وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا

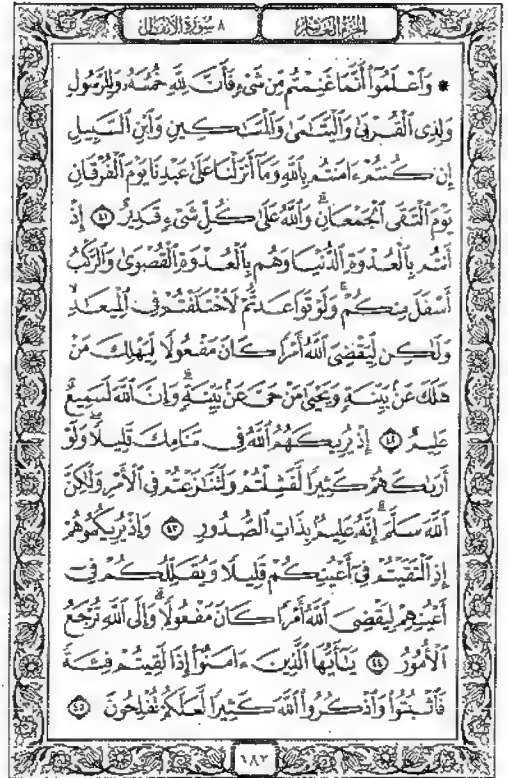
وما لهم ألا يمشي بهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءً إذا أُولوا الآفكون ولكن أكنه ذكرهم لا يملكون ﴿وما كان صلاحهم عند البيت إلا مكاءً وتصديقاً فذوقوا العذاب بما كسبت أفعالكم﴾ ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فمصدّقوها فسدت كون عليهم خمسة عشر ضعفاً﴾ ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ ﴿ليسجد لله الخचित من الطيب وتعمل الخचित تصعب على بعض قسركم جميعاً فيجعلكم في جهنم أولئك هم الخحرون﴾ ﴿قل للذين كفروا إن كانتهم أمة فمآقدهم مآقدهم مسكف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾ ﴿وقلواهم حق لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وإن أنتم أولئك الله بما تعملون بغير﴾ ﴿واتولوا فاعلموا أن الله مولى المؤمنين وهم خير من أولئك﴾

به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك.

فإن هذا العهد والميثاق، الذي ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم كالذر، لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر؟! ولهذا لما كان هذا أمراً راضحاً جلياً، قال تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، ﴿ولعلهم يرجعون﴾ إلى ما أودع الله في فطرهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن القبائح.

﴿١٧٤ - ١٧٨﴾ وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه





آياتنا ﴿أي﴾: علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير والخبر التحرير.

﴿فانسلخ منها﴾، فأتبعه الشيطان ﴿أي﴾: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزله إلى المعاصي أزراً. ﴿فكان من الغاوين﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فلهذا قال تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ بأن نوقفه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

﴿ولكنه﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخذ إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، ﴿واتبع هواه﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فمثله﴾ في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها، ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال

حريصاً حرصاً قاطعاً قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها، لهوائهم على الله، واتباعهم لأهوائهم، بغير هدى من الله.

﴿فانقص القصص لعلمهم يتفكرون﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي: ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي آتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته تنبيهاً للعباد. ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاق العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ثم قال تعالى مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿من يهد الله﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فهو المهتدي﴾ حقاً لأنه أثر هدايته تعالى، ﴿ومن يضل﴾ فيخذه ولا يوفقه للخير ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿١٧٩﴾ ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ يقول تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالين،

المتبعين إبليس اللعين: ﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: أنشأنا وبثنا ﴿لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ ما يتفهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

﴿ولهم أذان لا يسمعون بها﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أولئك﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كالأنعام﴾ أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء أثروا ما يفنى على ما يبقى، فسلخوا خاصية العقل.

﴿بل هم أضل﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصغ قلبه بالإيمان بالله ومحبه، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿١٨٠﴾ ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة

أثمها، ولا من العقل والرأي: إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أفبهذا يا أولي الألباب من جنة؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المين، والمجدد الكريم، والرؤوف الرحيم!! ولهذا قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّبِينٌ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ماله من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرد به بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسبح الموحّد المحبوب.

وقوله: ﴿وَأَنْ حَسْبَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿فَبَأَيَّ﴾ حديث بعده يؤمنون ﴿أَيَّ﴾ إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأَيَّ حديث يؤمنون به!! أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟

ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: متحيرين<sup>(١)</sup> يترددون، لا يخرجون منه ولا يهتدون إلى حق.

﴿١٨٧﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقاتلات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجاء، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّبِينٌ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبَأَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿أَيَّ﴾ والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً، وشرأ إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي بليغ.

﴿١٨٤﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي: أو لم يعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودله وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا

منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

و«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَیْجِزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائهم، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أَنَّ اللَّهَ تَسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا، مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

﴿١٨١﴾ ﴿وَقَوْلُهُ﴾ ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

السموات والأرض لا تأتيكم إلا بفتة يسألونك كأنك خفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿١٨٨﴾ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴿١٨٩﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يسألونك﴾ أي: المكذبون لك، المتعنتون ﴿عن الساعة﴾ أي: إيان مرساها ﴿أي: متى وقتها الذي تحيي به، ومتى تحل بالخلق؟﴾

﴿قل إنما علمها عند ربِّي﴾ أي: إنه تعالى مختص بعلمها، ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿أنقلت في السماوات والأرض﴾ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لا تأتيكم إلا بفتة﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يسألونك كأنك خفي عنها﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستجفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه.

﴿قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم،

ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكره، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من سوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أني لا أعلم لي بالغيب.

﴿إن أنا إلا نذير﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها.

﴿وبشير﴾ بالشواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتنفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريزمات، مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضرر عن من لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا

نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿١٨٩﴾ ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾ فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون ﴿أشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدْعَوْتُكُمْ أَمْ أَمْسَأْتُكُمْ﴾ أي: ﴿هو الذي خلقكم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم. ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.

﴿وجعل منها زوجها﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبة بزمام الشهوة.

﴿فلما تغشاها﴾ أي: تجللتها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحينئذ] <sup>(١)</sup> حملت حملاً خفيفاً، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يثقلها.

﴿فلما﴾ استمرت به و ﴿أنقلت﴾ به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً صحيحاً، سالماً لا آفة فيه <sup>(٢)</sup> [كذلك]، فدعوا ﷻ الله وبهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً أي: صالح

(١) زيادة من هامش ب، وفي أ: فحملت.



الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون \* وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون

أي: أي وقت، وفي أي: حال ينزعنك من الشيطان نزعاً أي: تحس منه بوسوسة وتبسط عن الخير، أو حث على الشر وإيعاز إليه: فاستغذ بالله أي: التجيء واعتصم بالله، واحتتم بحماه فإنه سميع لما تقول. عليهم بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحملك من فتنه، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى قل أعوذ برب الناس إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي: باب أي، ومن أي: مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والחסنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين وأوليائهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الخي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿٢٠٣﴾ وإذا لم تأتكم بآية قالوا لولا اجتبتيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد،

لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿١٩٩﴾ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو بر والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي: مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن أذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿٢٠٠﴾ وإما ينزعنك من الشيطان نزعاً فاستعذ بالله إنه سميع عليم \* إن



لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات من آدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصاراً وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي: رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأي: مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسموات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدرُوا على كيدهم بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتتم بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين



ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد، فإذا جئتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك لم ينقادوا.

﴿وإذا لم تأتكم بآية﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك.

﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ فانا عبد متبع مدبر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده وطلبته حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآتات، فهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم ﴿بصائر من ربكم﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلا فمن آمن، فهو ﴿هدى﴾ له من الضلال ﴿ورحمة﴾ له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠٤﴾ ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين

يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلى عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿٢٠٥ - ٢٠٦﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴿الذكر﴾ الله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً، وغيره تبعاً بذكر ربه، في نفسه، أي: خلصاً خالياً.

﴿تضرعاً﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وخيفة﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وجل القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

﴿ودون الجهر من القول﴾ أي: كن متوسطاً، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً. ﴿بالغدو﴾ أول النهار ﴿والآصال﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرها.

﴿ولا تكن من الشاغلين﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فاتهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة

فإن تريد أن يحسن عملك فارتح حرك الله هو الذي أيدك  
تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين  
﴿٢٠٥﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢٠٦﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢٠٧﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢٠٨﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢٠٩﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٠﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١١﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٢﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٣﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٤﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٥﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٦﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٧﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٨﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢١٩﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾  
﴿٢٢٠﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الشاغلين﴾

والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصاً طرفي النهار، مخلصاً خائفاً متضرعاً، متذللاً، ساكناً، وتواطئاً عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عباداً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادته من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: ﴿إن الذين عند ربك﴾ من الملائكة المقربين، وحلة العرش والكرويين ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ بل يدعون لها وينقادون لأوامر ربهم ﴿ويسبحونه﴾ الليل والنهار لا يفترون.

﴿وله﴾ وحده لا شريك له ﴿يسجدون﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا [على] عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف  
والله الحمد والشكر والثناء

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم



بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله .  
فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في «بدر» بالحق الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه .

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال .

فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق، ومما أمر الله به ورضيه، فبهذه الحال ليس للجدال محل [فيها]<sup>(١)</sup>، لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضح وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان .

هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقبض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها .

وكان أصل خروجهم يتعرضون لغير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة، فلما سمعوا برجوعها من الشام، نذب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاث مئة، وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بعيراً، يعتقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم قريش، فخرجوا لمنع غيرهم، في عدد كثير وعدة وافرة من السلاح والخيل والرجال، يبلغ عددهم قريباً من الألف .

فرعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالغير، أو

بالنفير، فأحبوا الغير لقلة ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات شوكة، ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمراً أعلى مما أحبوا .

أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته، فينصر أهله، ويقطع دابر الكافرين، أي: يستأصل أهل الباطل، ويرى عباده من نصره للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم .

«ليحق الحق» بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، «ويبطل الباطل» بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه «ولو كره المجرمون» فلا يبالي الله بهم .

﴿٩ - ١٤﴾ «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم \* إذ يغشاكم الناس أمة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام \* إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان \* ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب \* ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار \* أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم «فاستجاب لكم» وأغاثكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدكم «بألف من الملائكة مردفين» أي: يردف بعضهم بعضاً، «وما جعله الله» أي: إنزال الملائكة «إلا بشري» أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، «ولتطمئن به قلوبكم» وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عُدَد.

﴿إن الله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا. «حكيم» حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها .

ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاساً «يفشيكم» [أي] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون «أمة» لكم وعلامة على النصر والطمأنينة .

ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من الحدث والخبث، ويطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه .

«وليربط على قلوبكم» أي: يثبتها فإن ثبات القلب، أصل ثبات البدن، «ويثبت به الأقدام» فإن الأرض كانت سهلة دهمسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام .

ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة «أني معكم» بالعون والنصر والتأييد، «فثبتوا الذين آمنوا» أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجرأة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله .

«سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب» الذي هو أعظم جتدل لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم .

«فاضربوا فوق الأعناق» أي: على الرقاب «واضربوا منهم كل بنان» أي: مفصل .

وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يشتوا الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشرؤ القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونه، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة. «ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب» ومن عقابه

تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم. ﴿ذلكم﴾ العذاب المذكور ﴿فدوقوه﴾ أيها المشاققون لله ورسوله عذاباً معجلاً، ﴿وأن للكافرين عذاب النار﴾.

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حقاً. منها: أن الله وعدهم وعداً، فأنجزه لهم.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين﴾ الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب، وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته، ويسررها بأسباب داخلية وخارجية.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهم وبئس المصير ﴿يا أمرتعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقترب بعضهم من بعض، ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ بل اثبتوا لقاتلهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهاباً للكافرين.

﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء﴾ أي: رجع بغضب من الله وماواه ﴿أي: مقره﴾ جهم وبئس المصير. وهذا يدل على أن الفرار من الزحف

من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم يول دبره فاراً، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يضيق فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز إلى فئة غنمه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز، فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمق عاقبة، وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقاتلهم، فيبعد - في هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرخص فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم﴾ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين﴾ يقول تعالى - لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون - ﴿فلم تقتلوهم﴾ بحولكم وقوتكم ﴿ولكن الله قتلهم﴾ حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.

﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه،

فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه، وفمه وعينه منها، فحينئذ انكسر حديهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا. يقول تعالى لنبيه: لنست بقوتك - حين رميت التراب - أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا، ﴿وليبل المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً.

﴿إن الله سميع عليم﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على العباد أقداراً موافقة لعلمه وحكمته ومصلحة عباده، ويجزي كلاً بحسب نيته وعمله.

﴿١٨﴾ ﴿ذلكم﴾ النصر من الله لكم ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ أي: مضعف كل مكر وكيد يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محققاً بهم.

﴿١٩﴾ ﴿إن تستفتحوا﴾ أيها المشركون، أي: تطلبوا من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين.

﴿فقد جاءكم الفتح﴾ حين أوقع الله بكم من عقابه، ما كان نكالاً لكم وعبرة للمتقين ﴿وإن تنتهوا﴾ عن الاستفتاح ﴿فهو خير﴾ لأنه ربما أمهلتكم، ولم يعجل لكم النعمة. ﴿وإن تعودوا﴾ إلى الاستفتاح وقاتل حزب الله المؤمنين ﴿نعد﴾ في نصرهم عليكم.

﴿ولن تغني عنكم فئكم﴾ أي: أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون وتقاتلون، معتمدين عليهم، شيئاً وأن الله مع المؤمنين.

ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفاً قليلاً عدده، وهذه المعية

التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين،  
تكون بحسب ما قاموا به من أعمال  
الإيمان.

فإذا أدبيل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفريطاً من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما انهزم لهم راية [انهزاماً مستقراً]<sup>(١)</sup>، ولا أدبيل عليهم عدوهم أبداً.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عُنُوهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِمَقْتَضَى الْإِيمَانِ الَّذِي يَدْرُكُونَ بِهِ مَعِيَّتَهُ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا...

﴿وَلَا تُولُوا عَنْهُ﴾ أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكُم في هذه الحال من أقبح الأحوال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها، فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال.

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمْ الصَّمِّ الْبِكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ \* وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَحَهُمْ وَلَوْ أَسْمَحَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ \* لَمْ تَفِدْ فِيهِمْ الْآيَاتِ وَالنَّذْرِ، وَهُمْ الصَّمِّ﴾ \* عَنِ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ﴾ الْبِكْمِ﴾ \* عَنِ النَّطْقِ بِهِ﴾ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى مَا يَضُرُّهُمْ،

فهؤلاء شر عند الله من جميع (٢)  
الدواب، لأن الله أعطاهم أسماعاً  
وأبصاراً وأفئدة، ليستعملوها في  
طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه  
وعندموا - بذلك - الخير الكثير، فإنهم  
كانوا يصدد أن يكونوا من خيار البرية.  
فأبوا هذا الطريق، واختاروا  
لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية،  
والسمع الذي نفاه الله عنهم، سمع  
المعنى المؤثر في القلب، وأما سماع  
الحجة، فقد قامت حجة الله تعالى  
عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم  
يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم  
فيهم خيراً يصلحون به لسماع آياته.

﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم  
﴿ولو أسمعهم﴾ على الفرض والتقدير  
﴿لتبؤلوا﴾ عن الطاعة ﴿وهم  
معرضون﴾ لا التفات لهم إلى الحق  
بوجه من الوجوه، وهذا دليل على  
أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير،  
إلا لمن لا خير فيه، الذي لا يزكو لديه  
ولا يثمر عنده. وله الحمد تعالى  
والحكمة في هذا.

﴿٢٤-٢٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ  
لِمَا يَحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ  
الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ \*  
وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ \* يَا مَعْ تَعَالَى عِبَادَهُ  
الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ  
مِنْهُمْ وَهُوَ الِاسْتِجَابَةُ لِلَّهِ  
وَلِلرَّسُولِ ، أَيْ : الْإِقْدَادُ  
لِأَمْرِهِ وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى ذَلِكَ  
وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ ، وَالِاجْتِنَابُ  
لِمَا نَهَى عَنْهُ ، وَالِانْكَفَافُ عَنْهُ  
وَالنَّهْيُ عَنْهُ .

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾  
وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله  
إليه، وبيان لفائده وحكمته، فإن حياة  
القلب والروح، بعبودية الله تعالى  
ولزوم طاعته وطاعة رسوله على  
الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله

[illegible]

وللرسول فقال: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: يا مقلب  
القلوب ثبت قلبي على دينك، يا  
مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى  
طاعتك.

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ﴾ أي: تجتمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

﴿وَانقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، وتقوى<sup>(٣)</sup> هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾  
 لمن تعرض لمساخطه، وجانب رضاه.

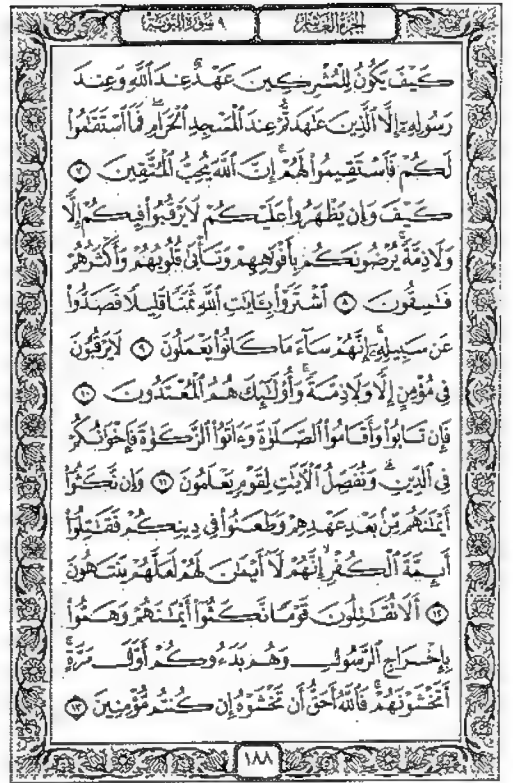
﴿٢٦﴾ ﴿وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ  
مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ

(١) زيادة من هامش ب.

(۲) فی ب: من شرار.

(٣) هكذا في النسختين والمراد ظاهرٌ وهو: أن انقضاء هذه الفتنة يكون بالنهي عن المنكر.





الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وأثر رضاه على هوى نفسه. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾

﴿٣٠﴾ ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر أيها الرسول، ما من الله به <sup>(٢)</sup> عليك. ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا﴾ حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يثبتوه عندهم بالحس ويوثقوه.

وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره.

وإما أن يخرجوه ويحبسوه من ديارهم.

فكل أمدى من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتي ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل فيرضى بنو هاشم [ثم] بديته، فلا يقدرون على مقاومة سائر <sup>(٣)</sup> قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليقعوا به إذا قام من فراشه.

فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذّر على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذّر على رؤوسكم التراب.

فنفذ كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الويل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقضاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتاً لها أكمل الصفات وأعماها، وهي الأمانة.

ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله حبة <sup>(١)</sup> ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطها، وترد لمن استودعها ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾

فإن كان لكم عقل ورأي، فاثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ امثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب البصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴿يقول تعالى ممتناً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة.

﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات﴾ فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبده ولا تشركوا به شيئاً.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ \* واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيته، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

(١) في ب: محبته.

(٢) في النسختين: ما من الله بك عليك.

(٣) في ب: جميع.



يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير \* إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم \* يقول تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فإن لله خسه﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهم، ولل فارس سهمان لفارسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رجة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو (٢): الغريب المنقطع به في غير بلده، أو بعض المفسرين يقول إن خمس الغنمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك

مولاكم نعم المولى ونعم النصير \* هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له.

﴿يفغر لهم ما قد سلف﴾ منهم من الجرائم وإن يعودوا إلى كفرهم وعنادهم ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما حل بالمعاندین، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا يستهزئون، فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين، فقال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي:

شرك وصد عن سبيل الله، ويذعنوا لأحكام الإسلام، ﴿ويكون الدين كله لله﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

﴿فإن انتهوا﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ لا تحفى عليه منهم خافية.

﴿وإن تولوا﴾ عن الطاعة وأرضعوا في الإضاعة ﴿فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم، وييسر (١) لهم منافعهم الدينية والدنيوية، ﴿ونعم النصير﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

ومن كان الله مولاة وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عز له ولا قائمة له.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ فإن لله خسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا

ييسرهم دينهم ويحسنهم ومنه ورضواناً لهم فيها فيهم فيسره ﴿٤١﴾ خلائق فيها آيات الله عنده وأمر عظيم ﴿٤٢﴾ يتألفها الذين آمنوا لا تتخذوا آياته كنهم وأخوانكم أولئك إن استجروا لكم على الإيمان ومن تولاهم نصركم فأولئك هم الظالمون ﴿٤٣﴾ قل إن كان آياتكم وآياتهم وأنتأوتكم وأخوتكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال أقربكموها ونحوه تخشون كسادها ومسكن ربونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيل الله فمؤمنوا حتى تأتوا بأمر الله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿٤٤﴾ لقد نصر الله في مواطن كثيرة ويومئذ إن أنجز لكم كبريتكم فله تفتن عنكم شيئا وصافق عاتيكم الأرض بما رحبت ثم وليته تدبوت ﴿٤٥﴾ ثم أنزل الله سكتته على رسوله وعلى الوحيين وأول جندك رؤسها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿٤٦﴾

سبيل الله \* أي: ليطلوا الحق وينصروا الباطل، ويبطل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿فسيثقفونها﴾ أي: فسيصندرون هذه النفقة، وتحف عليهم لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون عليهم حسرة، أي: ندامة وخزياً وذلاً، ويغلبون فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي: يجمعون إليها، ليدوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبيث والخبيثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحدة على حدة، وفي دار تخصصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص. ﴿فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿٣٨-٤٠﴾ ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير \* وإن تولوا فاعلموا أن الله

(١) كذا في ب، وفي أ: ويسر.

(٢) في ب: وهم.

تبع للمصلحة وهذا هو الأولى<sup>(١)</sup> وجعل الله أداء الخمس على وجهه شرطاً للإيمان، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ وهو يوم «بدر» الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وأظهر الحق وأبطل الباطل.

﴿يَوْمَ التَّقَى﴾ الجمع المسلمين، وجمع الكافرين، أي: إن كان إيمانكم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان، الذي حصل فيه من الآيات والبراهين، ما دل على أن ما جاء به هو الحق. ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يغالبه أحد إلا غلبه.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، وهم بعدوته أي: جانبه البعيدة من المدينة، فقد جمعكم واد واحد.

﴿وَالرَّكْبِ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف وبهذه الحال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لا بد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم أو لهم، يصدقكم عن ميعادكم<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَكِنْ﴾ الله جمعكم على هذه الحال ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدراً في الأزل، لا بد من وقوعه.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ليكون حجة وبينة للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله.

﴿وَيُحْيِيَ مَنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: يزداد المؤمن بصيرة ويقيناً، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الألباب. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات،

على تفنن الحاجات، عليم بالظواهر والضمائر والسرائر، والغيب والشهادة.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وإذ يريكمهم الله في منامك قليلاً ولو أراكمهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور \* وإذ يريكمهم

إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللهم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور \* وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عدداً قليلاً، فبشر بذلك أصحابه، فطمأن قلوبهم وثبتت أفئدتهم.

ولو أراكمهم الله إياهم كثيراً فأخبرت بذلك أصحابك ﴿لَفُشِلْتُمْ﴾ ولتنازعتم في الأمر \* فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم، ومنكم من لا يرى ذلك فوقع من الاختلاف والتنازع ما يوجب الفشل. ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ﴾ فلفظ<sup>(٣)</sup> بكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من ثبات وجزع، وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سبباً لطفه وإحسانه بكم، وصدق الله رؤيا رسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم، قليلاً في أعينهم، ويقللهم - يا معشر المؤمنين - في أعينهم، فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى.

﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين وقتل قادتهم ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد له اسم يذكر، فيتسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفاً بالباقيين، الذين من الله عليهم بالإسلام.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل، الذي لا جور فيه ولا ظلم.

﴿٤٥ - ٤٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

تَذْكُرُوا اللَّهَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكُمْ عَلَىٰ مَنَاسِكِكُمْ وَأَلَّهِ عَمُّوهُنَّ ۚ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ كِبَاسُكُمْ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَأُوا الْحَرَامَ بَعْدَ مَا عَلِمُوا هَٰذَا ۚ وَإِنْ جَفْتُمْ عَمَلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ شَاءَ رَبُّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۚ قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ رِيبَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ مُبْغَضُونَ ۚ وَقَالَتِ الْيَهُودُ غُرَّتْ عَنَّا رِيبُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَتْهُمْ أَتَنُكِّدُونَ ۚ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمُ رِيبًا ثُمَّ لَبَّيْهُمْ دُونَ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ

لعلكم تفلحون \* وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين \* ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط \* وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب \* إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم \* يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم.

﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقاتلها، واستعملوا الصبر وحبس النفس على هذه الطاعة الكبيرة، التي عاقبتها العز والنصر.

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر والثبات والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ في استعمال ما أمرا به، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال.

(٢) في ب: عن ميعادهم.

(٣) في ب: أي: لطف.

(١) زيادة من هامش ب.







﴿ما من دابة إلا هو آخذ ناصيتها﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿ذلك﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين<sup>(١)</sup>، وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقئها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفراً، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

والله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى<sup>(٢)</sup> عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره. ﴿وأن الله سميع عليم﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتحفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

﴿كذاب آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ حين جاءتهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ كل بحسب جرمه.

﴿وأغرقنا آل فرعون وكل﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبيون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أجل بأولئك الفاسقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿إن شر الدواب

عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذا هاب هؤلاء ومحققهم هو المتعين، لثلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال:

﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي: تجندنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به]<sup>(٣)</sup> عبرة لمن بعدهم ﴿لعلهم﴾ أي: من خلفهم ﴿يذكرون﴾ صنعهم، لثلا يصيهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجر لمن عملها أن لا يعاودها.

ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أعطي عهداً لا يجوز خيانه وعقوبته.

﴿٥٨﴾ ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة.

﴿فانبذ إليهم﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك

وبينهم ﴿على سواء﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك.

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بل يبغضهم أشد بغض، فلا بد من أمر بين يبرئكم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة<sup>(٤)</sup> منهم لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿على سواء﴾ وهنا قد كان معلوماً عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

﴿٥٩﴾ ﴿ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إثمهم لا يعجزون﴾ أي: لا يحسب الكافرون برهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيا، فلماذا قال لعباده المؤمنين:

﴿٦٠﴾ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي: ﴿وأعدوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من قوة﴾ أي: كل ما تقدر على عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة

(١) في ب: المكذبة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: على.

(٣) زيادة يقتضيها السياق ليست في النسخين.

(٤) في ب: المحققة.

ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي، والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويتدفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرمي» ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: «ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجوداً<sup>(١)</sup> أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن «ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

وقوله: «ترهبون به عدو الله وعدوكم» ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. «وآخرين من دونهم لا تعلمونهم» ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به «الله يعلمهم» فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله» قليلاً كان أو كثيراً «يؤف إليكم» أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. «وأنتم لا تظلمون» أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

﴿٦٤ - ٦١﴾ «وإن جنحوا للمسلم

فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم» وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين \* وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم \* يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين \* يقول تعالى: ﴿وإن جنحوا﴾ أي: الكفار المحاربون، أي: مالوا «للمسلم» أي: الصلح وترك القتال.

﴿فاجنح لها وتوكل على الله﴾ أي: أجيهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لأجابتهم.

ومنهم: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنهم: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل ونصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدتهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيتهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فل «هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين» أي: أعانك بمعونة

سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة المؤمنين بأن قيضهم لنصرك.

﴿وألف بين قلوبهم﴾ فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا يسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة «ما ألفت بين قلوبهم» لأنه لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى.

﴿ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجعلها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ أي: كافيك «ومن اتبعك من المؤمنين» أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ «يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون» \* الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين \* يقول تعالى لنبيه ﷺ:

﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال﴾ أي: حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط همهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل

(١) في النسختين: إذا كان موجوداً شيئاً.



لم يهاجروا لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء لكنهم ﴿٧٢﴾ إن استنصروكم في الدين ﴿٧٣﴾ أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿٧٤﴾ فعليكم النصر ﴿٧٥﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿٧٦﴾ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴿٧٧﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

﴿٧٨﴾ والله بما تعملون بصير ﴿٧٩﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ والذين كفروا بغضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴿٧٥﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبغضهم أولياء لبعض ﴿٧٦﴾، فلا يواليهم إلا كافر مثلهم.

وقوله: ﴿٧٧﴾ إلا تفعلوه ﴿٧٨﴾ أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين.

﴿٧٩﴾ تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴿٨٠﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تقوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿٧٤﴾ ﴿٧٥﴾ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴿٧٦﴾ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل

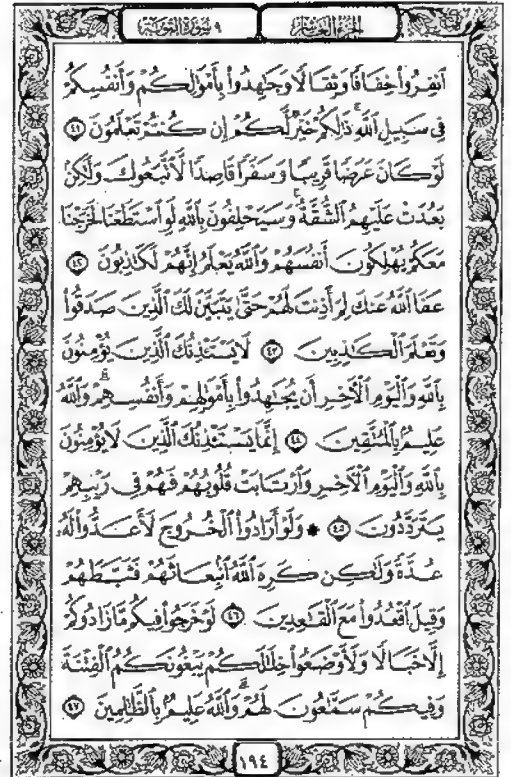
المال، بأن ييسر لكم من فضله، خيراً وأكثر ﴿٨١﴾ مما أخذ منكم.

﴿٨٢﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم الجنة وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿٨٣﴾ وإن يريدوا خيانتك ﴿٨٤﴾ في السعي لحربك ومنابدتك، ﴿٨٥﴾ فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴿٨٦﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿٨٧﴾ والله عليم حكيم ﴿٨٨﴾ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجلييلة الجميلة، وأن تكفل ﴿٨٩﴾ بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿٧٢﴾ ﴿٧٣﴾ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ﴿٧٤﴾ هذا عقد موالاة وعبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتام اتصال بعضهم ببعض.

﴿٧٤﴾ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴿٧٥﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما



عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر.

﴿٨٩﴾ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴿٩٠﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يحلها لأمة قبلها.

﴿٩١﴾ واتقوا الله ﴿٩٢﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكراً لنعم الله عليكم، ﴿٩٣﴾ إن الله غفور ﴿٩٤﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع المعاصي.

﴿٩٥﴾ رحيم ﴿٩٦﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴿٧٢﴾ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم ﴿٧٣﴾ وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لحاظه ومن كان على مثل حاله.

﴿٧٤﴾ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴿٧٥﴾ أي: من

(١) في ب: كثيراً.

(٢) في ب: وقد تكفل.

(٣) في ب: بعض.

تفسير سورة براءة  
ويقال: سورة التوبة،  
وهي مدنية

شيء عليم ﴿الآيات السابقة في ذكر  
عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين  
والأنصار.

وهذه الآيات في بيان مدحهم  
وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا  
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ﴾ أي:  
المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هُمْ  
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم  
بما قاموا به من الهجرة والنصرة  
والمالاة بعضهم لبعض، وجهادهم  
لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

﴿لهم مغفرة﴾ من الله محى بها سيئاتهم، وتضمنحل بها زلاتهم، ﴿و﴾ لهم ﴿رزق كريم﴾ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقرُّ به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم<sup>(١)</sup>.

فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأُنزل الله ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشرعه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائع الدين عليكم ما يناسبها .

تم تفسير سورة الأنفال والله الحمد

﴿١-٢﴾ ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾  
فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ﴿أي: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين، أن لهم أربعة أشهر يسيعون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ولا ميثاق﴾

وهذا لمن كان له عهد مطلق غير  
مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما  
من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة  
أشهر، فإنه يتعين أن يتم له عهده إذا  
لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض  
العهد.

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم، أنهم وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه فإن الله لا بد أن يحزبه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام، إلا من عاند وأصر ولم يبال بوعيد الله له.

﴿٣﴾ ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى  
النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ إِنَّا تَبَتُّمُوهُ فَهُوَ خَيْرٌ  
لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ  
مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ  
أَلِيمٍ﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين، من  
نصر دينه وإعلاء كلمته، وخذلان  
أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا  
الرسول ومن معه من مكة، من  
بيت الله الحرام، وأجلوهم، مما لهم  
التسلط عليه من أرض الحجاز.

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى  
افتتح مكة، وأذل المشركين، وصار  
للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك  
الديار.

(۱) کذا فی ب، وفي أ: له ما لکم وعليہ ما علیکم.

(۲) کذا فی ب، وفي أ: الله.

لَقَدْ أَسْعَى الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَفَعَلْنَا لَكَ الْأَمْزُوجَ حَقًّا  
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَسْرَارُ اللَّهِ وَهُمْ كَرَاهُونَ ﴿٥٠﴾  
يَتَّبِعُهُمْ مِنَ الْغَلْظَةِ إِنْ يَخَافُ الْعَذَابَ الْآخِرَ  
سَقَطُوا مِنْ جِوَاهِرٍ كَاسٍ بِأَلْسِنَةِ الْكُفْرِ ﴿٥١﴾  
إِنْ تُبْصِرْ حَسَنَةً فَنُفِثْهُ وَإِنْ تُبْصِرْ مُصِيبَةً  
يَعُولُوا أَفْأَخَذْنَا مِنْ قَبْلُ وَيَعُولُوا وَهُمْ فَرِحُونَ  
﴿٥٢﴾ قُلْ نَبِيْعِي كُنَا إِيْمَاكُمُ اللَّهُ نَسَاهُمْ مَوْلَانَا  
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ هَلْ يَنْصُرُونَ  
بِنَا إِلَّا أَلْحَدِي الْأَعْمَىٰ يُخْشَىٰ الْعَذَابَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَظِيمَ أَنْ  
يُصِيبَهُمْ اللَّهُ بِمُكْرٍ ذَاكٍ مِنْ عِبَادِهِ وَأَبْلَيْتُمْ أَنْ تَقْرَءُوا آيَاتِنَا  
مَعَهُمْ مُّؤْتَصِفُونَ ﴿٥٤﴾ قُلْ أَتَقُولُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا  
لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ فَمَا أَفْقِيحٌ  
﴿٥٥﴾ وَمَا سَمِعَهُمْ أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَقَدْ كُفِرُوا إِلَّا أَنْفَرُ  
كَرُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَيُّكُمْ الْفَالِقُونَ إِلَّا أَنْفَرُ  
وَهُمْ كَسَالَىٰ وَلَا يَتَّقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرَاهُونَ ﴿٥٦﴾

فأمر النبي <sup>(ص)</sup> مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك ستة تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق  
رضي الله عنه، وأذن ببراءة - يوم  
النحر - ابن عم رسول الله ﷺ  
على بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة ،  
ورهبهم من الاستمرار على الشرك  
فقال : ﴿ فَإِنْ تَبَتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ  
تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ  
مُعْجِزِي اللَّهِ ۖ ۝ ١٠٠ ۚ ۝ ١٠١ ۚ ۝ ١٠٢ ۚ ۝ ١٠٣ ۚ ۝ ١٠٤ ۚ ۝ ١٠٥ ۚ ۝ ١٠٦ ۚ ۝ ١٠٧ ۚ ۝ ١٠٨ ۚ ۝ ١٠٩ ۚ ۝ ١١٠ ۚ ۝ ١١١ ۚ ۝ ١١٢ ۚ ۝ ١١٣ ۚ ۝ ١١٤ ۚ ۝ ١١٥ ۚ ۝ ١١٦ ۚ ۝ ١١٧ ۚ ۝ ١١٨ ۚ ۝ ١١٩ ۚ ۝ ١٢٠ ۚ ۝ ١٢١ ۚ ۝ ١٢٢ ۚ ۝ ١٢٣ ۚ ۝ ١٢٤ ۚ ۝ ١٢٥ ۚ ۝ ١٢٦ ۚ ۝ ١٢٧ ۚ ۝ ١٢٨ ۚ ۝ ١٢٩ ۚ ۝ ١٣٠ ۚ ۝ ١٣١ ۚ ۝ ١٣٢ ۚ ۝ ١٣٣ ۚ ۝ ١٣٤ ۚ ۝ ١٣٥ ۚ ۝ ١٣٦ ۚ ۝ ١٣٧ ۚ ۝ ١٣٨ ۚ ۝ ١٣٩ ۚ ۝ ١٤٠ ۚ ۝ ١٤١ ۚ ۝ ١٤٢ ۚ ۝ ١٤٣ ۚ ۝ ١٤٤ ۚ ۝ ١٤٥ ۚ ۝ ١٤٦ ۚ ۝ ١٤٧ ۚ ۝ ١٤٨ ۚ ۝ ١٤٩ ۚ ۝ ١٥٠ ۚ ۝ ١٥١ ۚ ۝ ١٥٢ ۚ ۝ ١٥٣ ۚ ۝ ١٥٤ ۚ ۝ ١٥٥ ۚ ۝ ١٥٦ ۚ ۝ ١٥٧ ۚ ۝ ١٥٨ ۚ ۝ ١٥٩ ۚ ۝ ١٦٠ ۚ ۝ ١٦١ ۚ ۝ ١٦٢ ۚ ۝ ١٦٣ ۚ ۝ ١٦٤ ۚ ۝ ١٦٥ ۚ ۝ ١٦٦ ۚ ۝ ١٦٧ ۚ ۝ ١٦٨ ۚ ۝ ١٦٩ ۚ ۝ ١٧٠ ۚ ۝ ١٧١ ۚ ۝ ١٧٢ ۚ ۝ ١٧٣ ۚ ۝ ١٧٤ ۚ ۝ ١٧٥ ۚ ۝ ١٧٦ ۚ ۝ ١٧٧ ۚ ۝ ١٧٨ ۚ ۝ ١٧٩ ۚ ۝ ١٨٠ ۚ ۝ ١٨١ ۚ ۝ ١٨٢ ۚ ۝ ١٨٣ ۚ ۝ ١٨٤ ۚ ۝ ١٨٥ ۚ ۝ ١٨٦ ۚ ۝ ١٨٧ ۚ ۝ ١٨٨ ۚ ۝ ١٨٩ ۚ ۝ ١٩٠ ۚ ۝ ١٩١ ۚ ۝ ١٩٢ ۚ ۝ ١٩٣ ۚ ۝ ١٩٤ ۚ ۝ ١٩٥ ۚ ۝ ١٩٦ ۚ ۝ ١٩٧ ۚ ۝ ١٩٨ ۚ ۝ ١٩٩ ۚ ۝ ٢٠٠ ۚ ۝ ٢٠١ ۚ ۝ ٢٠٢ ۚ ۝ ٢٠٣ ۚ ۝ ٢٠٤ ۚ ۝ ٢٠٥ ۚ ۝ ٢٠٦ ۚ ۝ ٢٠٧ ۚ ۝ ٢٠٨ ۚ ۝ ٢٠٩ ۚ ۝ ٢١٠ ۚ ۝ ٢١١ ۚ ۝ ٢١٢ ۚ ۝ ٢١٣ ۚ ۝ ٢١٤ ۚ ۝ ٢١٥ ۚ ۝ ٢١٦ ۚ ۝ ٢١٧ ۚ ۝ ٢١٨ ۚ ۝ ٢١٩ ۚ ۝ ٢٢٠ ۚ ۝ ٢٢١ ۚ ۝ ٢٢٢ ۚ ۝ ٢٢٣ ۚ ۝ ٢٢٤ ۚ ۝ ٢٢٥ ۚ ۝ ٢٢٦ ۚ ۝ ٢٢٧ ۚ ۝ ٢٢٨ ۚ ۝ ٢٢٩ ۚ ۝ ٢٣٠ ۚ ۝ ٢٣١ ۚ ۝ ٢٣٢ ۚ ۝ ٢٣٣ ۚ ۝ ٢٣٤ ۚ ۝ ٢٣٥ ۚ ۝ ٢٣٦ ۚ ۝ ٢٣٧ ۚ ۝ ٢٣٨ ۚ ۝ ٢٣٩ ۚ ۝ ٢٤٠ ۚ ۝ ٢٤١ ۚ ۝ ٢٤٢ ۚ ۝ ٢٤٣ ۚ ۝ ٢٤٤ ۚ ۝ ٢٤٥ ۚ ۝ ٢٤٦ ۚ ۝ ٢٤٧ ۚ ۝ ٢٤٨ ۚ ۝ ٢٤٩ ۚ ۝ ٢٥٠ ۚ ۝ ٢٥١ ۚ ۝ ٢٥٢ ۚ ۝ ٢٥٣ ۚ ۝ ٢٥٤ ۚ ۝ ٢٥٥ ۚ ۝ ٢٥٦ ۚ ۝ ٢٥٧ ۚ ۝ ٢٥٨ ۚ ۝ ٢٥٩ ۚ ۝ ٢٦٠ ۚ ۝ ٢٦١ ۚ ۝ ٢٦٢ ۚ ۝ ٢٦٣ ۚ ۝ ٢٦٤ ۚ ۝ ٢٦٥ ۚ ۝ ٢٦٦ ۚ ۝ ٢٦٧ ۚ ۝ ٢٦٨ ۚ ۝ ٢٦٩ ۚ ۝ ٢٧٠ ۚ ۝ ٢٧١ ۚ ۝ ٢٧٢ ۚ ۝ ٢٧٣ ۚ ۝ ٢٧٤ ۚ ۝ ٢٧٥ ۚ ۝ ٢٧٦ ۚ ۝ ٢٧٧ ۚ ۝ ٢٧٨ ۚ ۝ ٢٧٩ ۚ ۝ ٢٨٠ ۚ ۝ ٢٨١ ۚ ۝ ٢٨٢ ۚ ۝ ٢٨٣ ۚ ۝ ٢٨٤ ۚ ۝ ٢٨٥ ۚ ۝ ٢٨٦ ۚ ۝ ٢٨٧ ۚ ۝ ٢٨٨ ۚ ۝ ٢٨٩ ۚ ۝ ٢٩٠ ۚ ۝ ٢٩١ ۚ ۝ ٢٩٢ ۚ ۝ ٢٩٣ ۚ ۝ ٢٩٤ ۚ ۝ ٢٩٥ ۚ ۝ ٢٩٦ ۚ ۝ ٢٩٧ ۚ ۝ ٢٩٨ ۚ ۝ ٢٩٩ ۚ ۝ ٣٠٠ ۚ ۝ ٣٠١ ۚ ۝ ٣٠٢ ۚ ۝ ٣٠٣ ۚ ۝ ٣٠٤ ۚ ۝ ٣٠٥ ۚ ۝ ٣٠٦ ۚ ۝ ٣٠٧ ۚ ۝ ٣٠٨ ۚ ۝ ٣٠٩ ۚ ۝ ٣١٠ ۚ ۝ ٣١١ ۚ ۝ ٣١٢ ۚ ۝ ٣١٣ ۚ ۝ ٣١٤ ۚ ۝ ٣١٥ ۚ ۝ ٣١٦ ۚ ۝ ٣١٧ ۚ ۝ ٣١٨ ۚ ۝ ٣١٩ ۚ ۝ ٣٢٠ ۚ ۝ ٣٢١ ۚ ۝ ٣٢٢ ۚ ۝ ٣٢٣ ۚ ۝ ٣٢٤ ۚ ۝ ٣٢٥ ۚ ۝ ٣٢٦ ۚ ۝ ٣٢٧ ۚ ۝ ٣٢٨ ۚ ۝ ٣٢٩ ۚ ۝ ٣٣٠ ۚ ۝ ٣٣١ ۚ ۝ ٣٣٢ ۚ ۝ ٣٣٣ ۚ ۝ ٣٣٤ ۚ ۝ ٣٣٥ ۚ ۝ ٣٣٦ ۚ ۝ ٣٣٧ ۚ ۝ ٣٣٨ ۚ ۝ ٣٣٩ ۚ ۝ ٣٤٠ ۚ ۝ ٣٤١ ۚ ۝ ٣٤٢ ۚ ۝ ٣٤٣ ۚ ۝ ٣٤٤ ۚ ۝ ٣٤٥ ۚ ۝ ٣٤٦ ۚ ۝ ٣٤٧ ۚ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝

أي: فائتيه، بل أنتم في قبضته،  
قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾  
أي: مؤلم مفضع في الدنيا بالقتل  
والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار.  
وبش القرار.

﴿٤﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْعاً وَلَمْ  
يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ

(۱) کذا فی ب، وفي أ: له ما لکم وعليہ ما علیکم.

(۲) کذا فی ب، وفي أ: الله.





عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴿١﴾ أي: هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين. ﴿٢﴾ إلا الذين عاهدتم من المشركين واستمروا على عهدهم، ولم يجر منهم ما يوجب النقض، فلا نقضوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء أتموا لهم (١) عهدهم إلى مدتهم، قلت أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء. ﴿٣﴾ إن الله يحب المتقين الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

﴿٤﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴿٥﴾ يقول تعالى: ﴿٦﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم أي: التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التسيير الأربعة، وتنام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿٧﴾ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴿٨﴾ في أي: مكان وزمان، وخذوهم أسرى واحصروهم أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعون في بلاد الله وأرضه التي جعلها [الله] معبداً لعباده.

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شيئاً، لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسوله، المحاربة الذين يريدون أن يخلوا الأرض من دينه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿٩﴾ واقعدوا لهم كل مرصد أي: كل ثنية وموضع يمرّون عليه، ورايطوا في جهادهم وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿١٠﴾ فإن تابوا ﴿١١﴾ من شركهم وأقاموا الصلاة ﴿١٢﴾ أي: أدوها بحقوقها وآتوا الزكاة ﴿١٣﴾ لاستحقاقها فخلوا سبيلهم أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿١٤﴾ إن الله غفور رحيم ﴿١٥﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم. وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿١٦﴾ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴿١٧﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿١٨﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم وأمرأ عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقرب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿١٩﴾ وإن أحد من المشركين استجارك ﴿٢٠﴾ أي: طلب منك أن تحجّره وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام.

﴿٢١﴾ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴿٢٢﴾ ثم إن أسلم فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون،

فربما كان استمرارهم على كفرهم جهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمره أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

﴿٧﴾ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴿٨﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿٩﴾ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله! هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أديتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سعوا في الأرض فساداً؟ فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده ولا عند رسوله.

﴿١٠﴾ إلا الذين عاهدتم من المشركين ﴿١١﴾ عند المسجد الحرام ﴿١٢﴾ فإن لهم في العهد وخصوصاً في هذا المكان الفاضل حرمة، أوجب أن يراعوا فيها.

﴿١٣﴾ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين ﴿١٤﴾ ولهذا قال:

﴿٨-١١﴾ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ﴿١٢﴾ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿١٣﴾ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴿١٤﴾ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

فإخوانكم في الدين ونفضل الآيات لقوم يعلمون ﴿أي﴾: ﴿كيف﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿إن يظهروا عليكم﴾ بالقدرة والسلطة، لا يرحمكم، و ﴿لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة﴾ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يرضونكم﴾ بأفواههم وتأبى قلوبهم ﴿الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبعوضون لكم صدقاً،﴾ وأكثروهم فاسقون ﴿لا ديانة لهم ولا مروءة﴾.

﴿اشترؤا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والالتقاء بآيات الله.

﴿فصدوا﴾ بأنفسهم، وصدوا غيرهم ﴿عن سبيله﴾، إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة﴾ أي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله.

فالوصف الذي جعلهم <sup>(١)</sup> يعادونكم لأجله ويبغضونكم، هو الإيمان، فذبوا عن دينكم، وانصروه واتخذوا من عاداهم عدواً ومن نصره لكم ولياً، واجعلوا الحكم يدور معكم وجوداً وعدمياً، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية <sup>(٢)</sup> تميلون بهما، خيشماً مال الهوى، وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء، ولهذا: ﴿فإن تابوا﴾ عن شركهم، ورجعوا إلى الإيمان ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين، لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبداً حقيقة. لما بين من أحكامه العظيمة ما بين، ووضح منها ما وضح، أحكاماً

وحكماً وحكماً وحكمة قال: ﴿ونفضل الآيات﴾ أي: نوضحها ونميزها ﴿لقوم يعلمون﴾ فإليهم سياق الكلام، وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين.

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك وكرمك [وإحسانك يا رب العالمين].

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾ ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوكم أول مرة اتخسئونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴿يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ أي: نقضوها وحلوها، فقاتلوهم أو أعانوا على قتالكم، أو نقضوكم، ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي: عابوه وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن، ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ أي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جانيتهن، ولأن غيرهم تبع لهم، وليل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ أي: لا عهود ولا مواعيق يلزمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين،

يخلفون بالله لكم إذا شئتموه والله ورسوله يأتين أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴿الذين آمنوا بالله وحادوا الله ورسوله فإن لهم أجرهم حيث خلدوا فيها ذلك الجزى العظيم﴾ يخذوا العفو أن نزل عليهم سورة شئتكم بما في قلوبهم فلنستهنزوا وإن الله يخرج ما تشاءون ﴿ولكن ما تشاءون إنما في أنفسكم﴾ ولعلكم قل أنيأشؤوا أنيأشؤوا ورسوله كنتم تستهنزون ﴿لأنكم إذا كنتم ترضونهم﴾ إن كنتم إن نقض عن طائفة منكم عذبت طائفة يأثمهم كانوا مؤمنين ﴿للمؤمنين والمؤمنات بعضهم من بعض ياترئو بالأسرار وينصرون من المعروف ويخسئون أيديهم سوا الله فيسبهم﴾ ﴿للتفريق﴾ هذه التفريق ﴿وعند الله التفريق﴾ ﴿والمؤمنات﴾ والكفار كان جهنم خلدوا فيها ﴿وإنهم﴾ ﴿خسبهم﴾ ولعلكم الله ولهم عذاب عظيم ﴿١٦﴾

ناكثين للعهد، لا يوثق منهم.

﴿لعلهم﴾ في قتالكم إياهم ﴿ينتهون﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقتضية لقتالهم فقال: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وهم بدوكم أول مرة﴾ حيث نقضوا العهد وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت <sup>(٣)</sup> قريش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿اتخسئونهم﴾ في ترك قتالهم ﴿فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ فإنه <sup>(٤)</sup> أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتركوا أمر الله، ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من

(١) في النسختين: جعلوهم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في ب: طبيعية.

(٣) في ب: أعانت.

(٤) في ب: فالله.



الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله ﴿٢٣﴾

فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وأنفُسهم﴾ بالخروج بالنفس ﴿أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المهوب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يشترهم ربهم﴾ جوداً منه، وكرماً وبراً بهم، واعتناءً ومحبة لهم، ﴿برحمة منه﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير. ﴿ورضوان﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ من كل ما اشتتهه الأنفس، وتلد الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة

واحدة منها لو سعتهم.

﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينتقلون عنها، ولا ينفون عنها حولاً، ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ لا تستغرب كثرة على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أولياء إن استحبوا﴾ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الكفر على الإيمان﴾.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم﴾ في النسب والعشرة<sup>(١)</sup> ﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾ أي: قريباتكم عموماً ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي: اكتسبتموها وتعتبتم

في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحرث، والأنعام، وغير ذلك. ﴿ومساكن ترضونها﴾ من حسننها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾ فأنتم فسقة ظلمة.

﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ الذي لا مرد له.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المتقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وعلاوة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يفوت عليه محبواً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك

على من يشاء والله غفور رحيم ﴿١﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواقع الحروب والهجاء، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف.

﴿إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتم ﴿بِمَا رَحِبتُ﴾ أي: على رحبها

وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَيْتُمْ مَدْبِرِينَ﴾ أي: منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفطعات، مما يشتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يثبتونهم ويبشرونهم بالنصر.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ فتاب الله على كثير من كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نسائهم وأولادهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يأسن أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿٢٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نجس﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي: نجاسة أبلغ من كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً!!

وأعمالهم ما بين محاربة الله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض

لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»، فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب<sup>(١)</sup> منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقدروا منها، تقدّرهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وإن خفتم﴾ أيها المسلمون ﴿عيلة﴾ أي: فقراً وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، وحل واحد، بل لا يغلّق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إن شاء﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إن الله عليم حكيم﴾ أي: علمه

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يغتسل مما أصاب).







عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو لاكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

«وقالت النصارى المسيح عيسى ابن مريم ابن الله» قال الله تعالى «ذلك» القول الذي قالوه «قولهم بأفواههم» لم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي: قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: «يضاهئون» أي: يشابهون في قولهم هذا «قول الذين كفروا من قبل» أي: قول المشركين الذين يقولون: «الملائكة بنات الله» تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

«قاتلهم الله أتى يؤفكون» أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين. وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسلط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم: «اتخذوا أحبارهم» وهم علماءهم «ورهبانهم» أي: العباد المتجردين للعبادة.

«أرباباً من دون الله» يحلون لهم ما

حزم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضاً يغفلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح والدعاء والاستغاثة.

«والمسيح ابن مريم» اتخذوه إلهاً من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله فما «أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو» فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبدوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

«سبحانه» وتعالى «عما يشركون» أي: تنزه وتقدس، وتعالى عظمته عن شركهم وافترائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالی في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصْلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه، أخبر أنهم «يريدون» بهذا «أن يطفئوا نور الله بأفواههم».

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماء الله نوراً، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهو لاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

«ويأبى الله إلا أن يتم نوره» لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريد به بسوء، ولهذا قال: «ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» وسعوا ما أمكنهم في رده

وابطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئاً.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى» الذي هو العلم النافع «ودين الحق» الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرّة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق «ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغواله الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعده الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿٣٤-٣٥﴾ «يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعبذاب أليم \* يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هدايتهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها

فيها منسوخ، أخذاً بعموم نحو قوله تعالى ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئاً.

ويحتمل أن ﴿كافة﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفي على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية. ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بعونه ونصره وتأيدته، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سرركم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

﴿٣٧﴾ ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا

الواجبات و «النهي عن الشيء، أمر بضده».

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله﴾ أي: في قضائه وقدره ﴿اثنا عشر شهراً﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكمه القدري، ﴿يوم خلق الله السماوات والأرض﴾ وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسماً على هذه الشهور الاثني عشر [شهرًا].

﴿منها أربعة حرم﴾: وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرماً لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على منيته بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم<sup>(١)</sup> لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال

ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتاً وظلماً، فإن الناس ما يذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهؤلاء الأخبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصددهم الناس عن سبيل الله.

﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ أي: يمسكونها ﴿ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يوم يحمى عليها﴾ أي: على أموالهم، ﴿في نار جهنم﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته.

﴿فتكوى بها جيابهم وجنوبهم وظهورهم﴾ في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في

القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المخاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم موهوا على الله بزعمهم وعلى عبادهم، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبضها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليوافقوا عدة ما حرم الله﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

﴿زين لهم سوء أعمالهم﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴿اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ نذب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حاراً، والزاد

قليلاً، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي<sup>(١)</sup> اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ف﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إلا قليل﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور، وأيها الحق بالإيثار؟

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكمدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيهم الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُد من أولي الألباب، ثم توعدهم على عدم النفير فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد

عصى الله تعالى وارتكب لنهيته، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قف في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال:

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء أرادته، ولا يغالبه أحد.

﴿٤٠﴾ ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴿أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ﴾، فإله غني عنكم، لا تضرونه شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فأجؤوه إلى أن يخرج.

﴿ثاني اثنين﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إذ هما في الغار﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور<sup>(٢)</sup> في أسفل مكة، فمكثا فيه ليرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يحظر على البال. ﴿إذ يقول﴾ النبي ﷺ ﴿لصاحبه﴾ أي بكر لما حزن واشتد قلقه،

(١) في ب، ودواعي.

(٢) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الصحيح فيبدو - والله أعلم - أنه سبق قلم.

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بعونه ونصره وتأنيده.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للنفوس، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة الكرام، الذين جعلهم الله حرساً له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حذر قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم.

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي: كلماته القدريه وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فدين الله هو الظاهر الغالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هازب، ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويؤخر نصر حزيه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة

الجليلة، والصنحة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صنحة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ \* لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيباً لهم على النفير في سبيله فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفروغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي: منفعة دنيوية سهلة

التناول ﴿وَ﴾ كان السفر ﴿سَفَرًا﴾ قاصداً أي: قريباً سهلاً ﴿لَاتَبِعُوكُ﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تشاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال.

﴿وَسِيحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم أعذاراً، وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال:

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ \* لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين \* إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أي: ساعك وغفر لك ما أجريت.

﴿لَمْ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في التخلف ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر من لا يستحق ذلك.

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث،



فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر.

﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين، أنه أخبر، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك قلت رغبته في الخير، وجبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فهم في ربهم يترددون﴾ أي: لا يزالون في الشك والخيرة.

﴿٤٦-٤٨﴾ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فبطتهم وقيل أقتلوا مع القاعدين﴾ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين﴾ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعدائهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ ﴿لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فبطتهم﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وقيل أقتلوا مع القاعدين﴾ من النساء والمعدورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي: نقصاً.

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي:

ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿وفيكم﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سماعون لهم﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتشبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم.

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من الفساد الناشئة من مخالطتهم. ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال:

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي: حين هاجرتهم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك، ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

﴿٤٩﴾ ﴿ومنهم من يقول أئذني لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿أئذني لي﴾ في التخلف ﴿ولا تفتني﴾ في الخروج، فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس». ومقصوده - قبحه الله - الرياء والنفاق بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفاً عن

الشر.

قال الله تعالى مبيناً كذب هذا القول: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجريء على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

﴿٥٠-٥١﴾ ﴿إن تصيبك حسنة فسرهم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبغضون للدين صرفاً: ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسرهم﴾ أي: تحزنهم وتغمهم.

﴿وإن تصيبك مصيبة﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يقولوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك.

﴿قد أخذنا أمراً من قبل﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما ينجينا من الوقوع في مثل هذه المصيبة.

﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها. قال تعالى راداً عليهم في ذلك ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ.

﴿هو مولانا﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء.

﴿وعلى الله﴾ وحده ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

﴿٥٢﴾ ﴿قل هل تربصون بنا إلا

إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴿٥٧﴾ أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي: شيء يتربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمراً فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنيين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الأخروي والديني. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدينا بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم. ﴿٥٨﴾ فتربصوا بنا الخير إنا معكم متربصون بكم الشر.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين \* وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴿٥٣﴾ يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين، وذاكر السبب في ذلك ﴿٥٤﴾ قل لهم ﴿٥٣﴾ أنفقوا طوعاً من أنفسكم ﴿٥٤﴾ أو كرهاً على ذلك، بغير اختياركم. ﴿٥٣﴾ لن يتقبل منكم شيء من أعمالكم ﴿٥٤﴾ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿٥٣﴾ خارجين عن طاعة الله، ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال: ﴿٥٤﴾ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله. والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿٥٣﴾ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴿٥٤﴾ أي: متشاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿٥٣﴾ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴿٥٣﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس، ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشراح الصدر ثابت

القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبهه بالمنافقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿٥٥﴾ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون \* ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون \* لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلًا لولوا إليه وهم يجمعون ﴿٥٦﴾ يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتها عليهم أن قدموها على مرضي ربهم، وعصوا الله لأجلها ﴿٥٧﴾ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي - لما ألهمهم عن الله وذكره - صارت وبالأعلى عليهم حتى في الدنيا.

ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإراداتهم لا تتعداها، فتكون مثله مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن يتنقلوا من الدنيا ﴿٥٦﴾ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴿٥٧﴾.

فأي: عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والخسارة الملائمة.

﴿٥٥﴾ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم ﴿٥٥﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿٥٦﴾ قوم يفرقون ﴿٥٧﴾ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبيتوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تبرؤوا منهم، فيخطفهم الأعداء من كل جانب.

وأما حال قولي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلغ عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

رضوا بأن يكفوا مع الخوارج وطمع على قلوبهم فهم لا يفتخرون ﴿٥٨﴾ لكن الرسول والذين آمنوا معه جهلوا بأموالهم وأنفسهم وأولادهم الخوارج وأولئك هم المنافقون ﴿٥٩﴾ أعد الله لهم جزاء بما كانوا يعملون ﴿٥٨﴾ فيما ذلك القرآن العظيم ﴿٥٩﴾ ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿٥٨﴾ لا يفتخرون ما يفتخرون ﴿٥٩﴾ إذا نصب حوائجهم ورسوله ما على الحسنيين من سبيل والله غفور رحيم ﴿٥٩﴾ ولا على الذين إذا ما أتواكم لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴿٥٩﴾ وآتواكم فمضت منكم ﴿٥٩﴾ حركاً لا يجحدون ما يفتخرون ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ إنما السبيل على الذين يستعدونك وهم أغنياء ﴿٥٨﴾ رضيوا بأن يكفوا مع الخوارج وطمع على قلوبهم فهم لا يفتخرون ﴿٥٩﴾

ثم ذكر شدة جبنهم فقال: ﴿٥٨﴾ يجدون ملجأ ينجون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿٥٩﴾ أو مغارات يدخلونها فيستقرون فيها ﴿٥٩﴾ أو مدخلًا أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿٥٩﴾ لولوا إليه وهم يجمعون ﴿٥٩﴾ أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون \* ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسينا الله سبؤنا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴿٥٩﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها. ﴿٥٨﴾ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴿٥٩﴾ وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاه وغضبه، تابعاً لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وقال هنا: ﴿٥٨﴾ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴿٥٩﴾ أي: أعطاهم من قليل وكثير. ﴿٥٨﴾ وقالوا حسينا الله



وقصدتهم - قبجهم الله - فيما بينهم، أنهم غير مكترئين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأسأؤوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك إلى الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضاً بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية.

ومنها: قذحهم في عقل النبي ﷺ وعدم إدراكه وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأتمهم إدراكاً، وأتقهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَذْنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً.

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم<sup>(١)</sup>، وامثاله لأمر الله في قوله: ﴿سِيحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعَرْضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾.

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيراً يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم، ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ فإنهم به يبتدون، وبأخلاقه يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم، ﴿وَالَّذِينَ يَبْذُوثَ رُسُلَهُ﴾ بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتميه.

﴿يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ فيسبؤوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها، فغايتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا

مؤمنين﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً على رضا ربه ورضا رسوله، فدل هذا على انتفاء إيمانهم حيث قدموا رضا غير الله ورسوله.

وهذا محادة لله ومشاقة له، وقد توعد من جاده بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ مِحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي<sup>(٢)</sup>: يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله، وتجراً على محارمه.

﴿فَأَن لَّهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عباداً بالله من أحوالهم<sup>(٣)</sup>.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤوا إن الله مخرج ما تحذرون \* ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون \* لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين \* كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أستارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحداها: أن الله ستيّر يحجب البستر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف.

قال الله تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً.

وقال هنا: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾

والتكفوت الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهما ليحسنن نصحكم الله عنهم ورضوا عنه وأعد الله جزاء جزئهم فما أظنكم تذكرون \* وفيما أيد ذلك القول العظيم \* ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلّمهم سيعذبهم الله أو يمدحهم ولئن لم نفرق الله بينهم لضلوا غيلاً ولا يعلمون \* وأخرون أعتزوا بذنوبهم غلطوا غلطا عظيماً وسبوا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم \* حينئذ أمروا بصدقة تطهيرهم وتزكيتهم بها رسول الله وإن صلبك سكراناً والله سميع عليم \* أليسألمنا أن الله هو صلب الوحي عن عباده ولله الصديق وأن الله هو التواب الرحيم \* قل أعملوا الصلوات لله عزكم الله ورسوله والمؤمنين وسردون إلى عيسى الغيب والشهادة فينبشركم بما كنتم تعملون \* وأخرون مرجون لأمرهم ابتاعوا أنفسهم وما توب عليهم الله والله عليم حكيم

أي: تخبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين.

﴿قل استهزؤوا﴾ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية. ﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ وقد وثق تعالى بوعدته، فأنزل هذه السورة التي يبتتهم وفضحتهم وهتكت أستارهم.

﴿ولئن سألتهم﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك «ما رأينا مثل قرآننا هؤلاء - يعنون النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطوناً، [وأكذب أسناً]<sup>(٤)</sup> وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك.

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم، جاؤوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾ أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب.

قال الله تعالى - مبتأ عدم عذرهم وكذبهم في ذلك -: ﴿قل﴾ لهم ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم. فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم

(٤) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: حالهم.

(١) في النسختين: بشأنه.

(٢) في ب: بأن.



وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا أَسْجِدًا دُونَ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِرُسُلِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ قِيلَ لَهُمْ لَا تَخْلُفُوا إِنَّمَا أَنْتُمْ مُنَادُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا قِيلَ لَهُمْ لَا تَقْرُبُوا الْمَسْجِدَ الْمُسَاجِدَ لِلَّهِ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أُولَئِكَ يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ فَخُذُوا بِحَبْلِهِ وَخُذُوا بِحَبْلِ الْإِيمَانِ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ عَنِ الدِّينِ فَقَدْ حُبِطَ الْأَمْرُ بِالدِّينِ أَفَ تَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا قِيلَ لَهُمْ لَا تَقْرُبُوا الْمَسْجِدَ الْمُسَاجِدَ لِلَّهِ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أُولَئِكَ يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ فَخُذُوا بِحَبْلِهِ وَخُذُوا بِحَبْلِ الْإِيمَانِ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ عَنِ الدِّينِ فَقَدْ حُبِطَ الْأَمْرُ بِالدِّينِ أَفَ تَعْلَمُونَ

دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة.

ولهذا لما جاؤوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم.

وقوله: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿نَعَذَّبُ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ بأنهم بسبب أنهم كانوا مجرمين مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، أن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة.

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول أو تنقصه، أنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة في كل ذنب وإن كان عظيماً.

﴿٦٧ - ٦٨﴾ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون \* وعد الله المنافقين

والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم \* يقول تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿يأمرؤن بالمنكر﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وينهون عن المعروف﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة. ﴿ويقبضون أيديهم﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم بالبخل.

﴿نسوا الله﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً، ﴿فنسيهم﴾ من رحمة، فلا يوفقهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين.

﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله والكفر بآياته.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون \* ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين

والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون \* يقول تعالى محذراً للمنافقين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة. ﴿قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات﴾ أي: قرى قوم لوط.

فكلهم ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بالحق الواضح الجلي، البين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجري عليهم ما قض الله علينا، فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم، استمتعتم بخلاقكم، أي: بنصيبكم من الدنيا فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة معرضين عن المراد منه، واستعنتم به على معاصي الله ولم تتعد همتكم وإرادتكم ما خولتم من النعم كما فعل الذين من قبلكم، وخضتم كالذي خاضوا، أي: وخضتم بالباطل والزور وجادلتهم بالباطل لتدحضوا به الحق، فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتعوا بالخلاق وخوضوا بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ما استحق من قبلهم من فعلوا كفعلهم، وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبهم وما خولوا من الدنيا، فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله، وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق لإدحاض الباطل.

قوله: ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث تجرؤوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿٧١ - ٧٢﴾ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم \* وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم \* لما ذكر أن المنافقين





وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ أَصَابَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ  
بِمَآصِحَّتِمْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَشْهُهُمُ وَظَنُوا أَن لَّمْ يَجَأْ  
أَقْبَهُ إِلَّا إِلَهُهُمُ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ  
الرَّحِيمُ ﴿٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا  
مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ  
مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يُرْغَبُوا  
بِأَشْيِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ  
وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْلُونَ مَوْثِقًا يَغْطِي الْكَفَّارَ  
وَلَا يَأْتُونَ مِنَ عَدُوِّ قِيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ  
صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَا  
يُسْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ  
وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِحْمَهُمْ إِنَّ اللَّهَ أَغْنَىٰ مَا كَانُوا  
يَعْتَكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً  
فَلَا تَقْرَئِينَ كُلَّ بَابٍ وَفَتْحٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَفْقَهُوا فِي الدِّينِ  
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٨١﴾

ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿وإن يتولوا﴾ عن التوبة والإنابة يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴿في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فثم أصناف الشز والخسران، والشقاء والحرمان.

﴿٧٨-٧٧﴾ ﴿ومستهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام

الغيوب ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه﴾ لئن آتانا من فضله ﴿من الدنيا فيسطها لنا ووسعها﴾ لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴿فنصل الرحم، ونقري الضيف، ونعين على نوائب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بخلوا به وتولوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وهم معرضون﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ مستمراً ﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف».

فهذا المنافق الذي وعده الله وعاهدته، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة» جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على

النوائب، فدعاه النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تنامي حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقده النبي ﷺ فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاؤوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثاً.

فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بركاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان<sup>(١)</sup>.

﴿٧٩-٨٠﴾ ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حث الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم القليل، فيلمزون المكثرون منهم، بأن قصده بنفقتة الرياء والسمعة، وقالوا

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعفها جهابذة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيتمي، والعراقي، وابن حجر، والسيوطي والمتاوي وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أن في إسنادهما علي بن يزيد، وهو ضعيف كما أن من رواها: معان بن رفاع، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة منتها أيضاً. ينظر المحلى: (٢٠٨/١١)، والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٣٢/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٢١٠/٨)، وقبض القدير (٢٥٧/٤)، وفتح الباري (٨/٣)، ولباب النقول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للعراقي (٣٣٨/٣).

من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿وقالوا﴾ أي: المنافقون ﴿لا تنفروا في الحر﴾ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال، ويذهب البكر<sup>(١)</sup> والأصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ لما أثروا ما يفنى على ما يبقى، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أي: فليتمتعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيكون كثيراً في عذاب أليم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ لغیر هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿فقل﴾ لهم عقوبة ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ فسيغني الله عنكم.

﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فإن المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضاً تعزيز لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من المتنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان

جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.

﴿٨٠﴾ ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴿على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها.

﴿فلن يغفر الله لهم﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿سواء عليهم﴾ استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴿ثم ذكر السبب المانع لغفرة الله لهم فقال: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ والكافر لا يتغفر الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً، بحيث لا يختارون عليه سواء ولا يخشون به بدلاً، يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

﴿٨١-٨٣﴾ ﴿فرح المخلفون بمقعدهم﴾ خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون \* فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴿يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿فرح المخلفون بمقعدهم﴾ خلاف رسول الله ﴿وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم

للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الذين يلمزون﴾ أي: يعيبون ويظعنون ﴿المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ فيقولون: مراؤون، قصدهم الفخر والرياء.

﴿و﴾ يلمزون ﴿الذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فيسخرون منهم﴾.

فقابلهم الله على صنيعهم بأن سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴿فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾.

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى وبغض للدين. ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي [هو] إعانتة وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي: شر أكبر من هذا!!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: ﴿الله غني عن صدقة هذا﴾، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وفي هذا القول من التشييط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان

(١) في ب، عدلت الكلمة إلى البكور.

ذلك توبيخاً لهم، وعاراً عليهم ونكالاً أن يفعل أحد كفعالهم.

﴿٨٤﴾ ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ من المنافقين ﴿ولا تقم على قبره﴾ بعد الدفن لتدعوه، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاععة منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاععة.

﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاععة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصل على عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقدراً في المؤمنين.

﴿٨٥﴾ ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾ أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا﴾.

فيتعجبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهئون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحركة.

﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿وإذا أنزلت سورة آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ رضوا بأن يكونوا مع

الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ يقول تعالى: في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ يؤمرون فيها بالإيمان بالله والجهاد في سبيل الله. ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنيين، أفلا يشكرون الله ويحمدونه، ويقومون بما أوجه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود. ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾.

﴿٨٧﴾ قال تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سيغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿وإذا أنزلت سورة آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ رضوا بأن يكونوا مع

نظير قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾.

وقوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ أي: جاء الذين تهاونوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباينين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدها وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿المعذرون﴾ أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ في الدنيا والآخرة.

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

﴿ليس على الضعفاء﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. ﴿ولا على المرضى﴾

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي<sup>(١)</sup> لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه<sup>(٢)</sup> أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالقارط، أن عليه الضمان.

﴿والله غفور رحيم﴾ من مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ فلم يصادفوا عندك شيئاً ﴿قلت﴾ لهم معذراً: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ فإنهم عاجزون بأذولهم لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله،

وهو أن من نوى الخير، واقترب بنيتة الجازمة سعى فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إنما السبيل﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين<sup>(٣)</sup> يستأذنوك وهم أغنياء قادرون على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بأن يكونوا مع الخوالف﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم.

﴿وإنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية، فهم لا يعلمون﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم سيـ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ من غراتكم.

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره، ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقرر أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾ أي: لا تؤبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إنهم رجس﴾ أي: إنهم قذر خبيث، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيداً فيهم، ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وقوله: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه.

وتأمل كيف قال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ ولم يقل: ﴿فإن الله لا يرضى عنهم﴾ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله

(١) في النسختين: التي.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب واللوم يتأكد على الذين.



يتوب عليهم ويرضى عنهم .

وأما ما داموا فاسقين ، فإن الله لا يرضى عليهم ، لوجود المانع من رضاه ، وهو خروجهم عن ما رضىه الله لهم من الإيمان والطاعة ، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي .

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر ، إذا اعتذروا للمؤمنين ، وزعموا أن لهم أعذاراً في تخلفهم ، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم ، وترضوا وتقبلوا عذرهم ، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم ، فلا حياً ولا كرامة لهم .

وأما الإعراض عنهم ، فيعرض المؤمنون عنهم ، إعراضهم عن الأمور الردية الرجس ، وفي هذه الآيات ، إثبات الكلام لله تعالى في قوله : ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله ، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا ، وفي قوله : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه ، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين ، والغضب والسخط على الفاسقين .

﴿ ٩٧ - ٩٩ ﴾ ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴾ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغمراً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴿ يقول تعالى : ﴿ الأعراب ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴾ أشد كفراً ونفاقاً ﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق ، وذلك لأسباب كثيرة :

منها : أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام ، فهم أحرى ﴿ وأجدر ألا يعلموا حدود

ما أنزل الله على رسوله ﴾ من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي ، بخلاف الحاضرة ، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة ، وإرادات للخير ، الذي يعلمون ، ما لا يكون في البادية .

وفيه من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية ، وبجبال السون أهل الإيمان ، وبجبال طونهم أكثر من أهل البادية ، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية ، وإن كان في البادية والحاضرة ، كفار ومنافقون ، ففي البادية أشد وأغلظ بما في الحاضرة . ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها .

﴿ ٩٨ ﴾ ﴿ فمنهم ﴾ من يتخذ ما ينفق من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك ، ﴿ مغمراً ﴾ أي : يراها خسارة ونقصاً ، لا يحتسب فيها ، ولا يريد بها وجه الله ، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً .

﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ أي : من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم ، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر ، وفجائع الزمان ، وهذا سيتعكس عليهم ، فعليهم دائرة السوء . وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم ، ولهم العقبى الحسنة ، ﴿ والله سميع عليم ﴾ يعلم نيات العباد ، وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره .

وليس الأعراب كلهم مذمومين ، بل منهم ﴿ من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان .

﴿ ويتخذ ما ينفق قربات عند الله ﴾ أي : يحتسب نفقته ، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿ و ﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿ صلوات الرسول ﴾ أي : دعائه لهم ، وتبريكه عليهم ، قال تعالى مبيناً لنفع صلوات الرسول : ﴿ ألا إنما قربة لهم ﴾ تقربهم إلى الله ، وتنمي

أموالهم وتحل فيها البركة .

﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ في جملة عباد الصالحين إنه غفور رحيم ، فيغفر الشيثات العظيمة لمن تاب إليه ، ويعم عبادته برحمته ، التي وسعت كل شيء ، ويخص عباد المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات ، ويحميهم فيها من المخالفات ، ويجزل لهم فيها أنواع الثوبات .

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة ، منهم الممدوح ومنهم المذموم ، فلم يذمهم الله على مجرد تربصهم وباديتهم ، إنما ذمهم على ترك أوامر الله ، وأنهم في مظنة ذلك .

ومنها : أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال .

ومنها : فضيلة العلم ، وأن فاقده أقرب إلى الشر من يعرفه ، لأن الله ذم الأعراب ، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً ، وذكر السبب الموجب لذلك ، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ومنها : أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم ، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، من أصول الدين وفروعه ، كمعرفة حدود الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والتقوى ، والفلاح ، والطاعة ، والبر ، والصلة ، والإحسان ، والكفر ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والزنا ، والخمر ، والربا ، ونحو ذلك . فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأموراً بها <sup>(١)</sup> ، أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها .

ومنها : أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق ، منشراح الصدر ، مطمئن النفس ، ويحرص أن تكون مغنماً ، ولا تكون مغمراً .

﴿ ١٠ ﴾ ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم

(١) في ب : إن كانت مأمورة .

بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴿١٠٠﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة ويدرونها إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله.

﴿من المهاجرين﴾ ﴿الذين﴾ أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون ﴿١٠١﴾ ﴿من الأنصار﴾ ﴿الذين تبوءوا الدار والإيمان﴾ [من قبلهم] يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله.

﴿رضي الله عنهم﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿ورضوا عنه﴾ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار الجارية التي تساق إلى سبقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة.

﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ييغون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه.

﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

﴿١٠١﴾ ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ يقول تعالى: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة أيضاً منافقون﴾ ﴿مردوا على النفاق﴾ أي: تمرنوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً.

﴿لا تعلمهم﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين﴾ يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة. ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن<sup>(١)</sup>، والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

ويحتمل أن المراد سينغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرره.

﴿١٠٢-١٠٣﴾ ﴿وآخر الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم﴾ إن الله غفور رحيم \* خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم \* يقول تعالى: ﴿وآخر﴾ بمن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أي: أقرروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجبرؤ على بعض المجرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.

﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فليؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾.

ومن مغفرتة أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأتابوا ولو قبيل موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية دلت<sup>(٢)</sup> على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمرأله بما يطهر المؤمنين، ويتم إيمانهم: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة.

﴿وتزكيهم﴾ أي: تنميههم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم.

﴿وصل عليهم﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموماً، وخصوصاً عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم.

﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم، ﴿والله سميع لدعائك﴾ سمع إجابة وقبول.

﴿عليم﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبرك.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال

تنمى ويكتسب بها، فمن العذل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والشمار، والماشية المتخذة للنماء والدر والنسل، فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للقنية، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

﴿١٠٤﴾ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴿١﴾ أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه يقبل التوبة عن عباده التائبين من أي: ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر. ﴿٢﴾ ويأخذ الصدقات منهم، أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيريها لأحدهم كما يربي الرجل فلهو، حتى تكون الثمرة الواحدة كالجليل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

﴿٣﴾ وأن الله هو التواب ﴿٤﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية] (١) مراراً. ولا يمل الله من التوبة على

عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا النفاق والشروء عن بابه، ومولاتهم عدوهم.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿١٠٥﴾ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ وسترزون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿وقل﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿اعملوا﴾ ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، وسترزون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿٢﴾ من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿١٠٦﴾ ﴿وأخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ والله عليم حكيم ﴿١﴾ أي: ﴿وأخرون﴾ من الخلفين مؤخرون ﴿٢﴾ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴿٣﴾ ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

﴿والله عليم﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿٤﴾ حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

﴿١٠٧ - ١١٠﴾ ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا

الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ﴿١﴾ لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴿٢﴾ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٣﴾ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴿٤﴾ كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاققة بين المؤمنين، ويعدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيمهم، وأظهر سرهم فقال: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿٥﴾ وكفراً ﴿٦﴾ أي: قصدتهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، ﴿٧﴾ وإرصاداً ﴿٨﴾ أي: إعدداً ﴿٩﴾ لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴿١٠﴾ أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حراهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعيداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيضر بزعمة أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد ومالأة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزيله.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم

الطاعة. تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال الله فيه: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾. ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه. ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونته لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه يعكسه. ومنها: أن الأعمال الحسنة الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات. ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجداً أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى. ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم. والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿١١١﴾ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، ﴿خير أم من أسس بنيانه على شفا﴾ أي: على طرف «جرف هار» أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي: شكاً وريباً ماكثاً في قلوبهم، ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم.

﴿والله عليم﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسرته العباد، وأعلنوه.

﴿حكيم﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به. فله الحمد (١).

وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرر لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرر، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغييره النية، فيقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرر عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين واكتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرر بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحادرة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرر، ونهي عن القيام فيه، وكذلك

الفاسدة في ذلك المسجد ﴿وليحلفن إن أردنا﴾ في بنائنا إياه ﴿إلا الحسنى﴾ أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

﴿لا تقم فيه أبداً﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضراراً أبداً، فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء»، وهو مسجد «قباء»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديماً في هذا عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ وتعبد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويجهد فيما يحب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿والله يحب المطهرين﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه عن الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص ﴿ورضوان﴾ بأن كان موافقاً لأمره،

(١) كذا في ب وفي أ: وأمر به، الحمد.

عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه **﴿اشترى﴾** بنفسه الكريمة **﴿من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾** فهي الثمن والسلعة المبيعة.

**﴿بأن لهم الجنة﴾** التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرات، والخور الحسان، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه **﴿فيقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾** فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

**﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾** التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الرعد الصادق.

**﴿ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا﴾** أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، **﴿ببيعكم الذي بايعتم به﴾** أي: لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.

**﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾** الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبائع، وهو أشرف الرسل، وبأي: كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

**﴿١١٢﴾ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر**

المؤمنين **﴿كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم التائبون﴾** أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

**﴿العابدون﴾** أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

**﴿الحامدون﴾** الله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها ويذكره في آناء الليل وآناء النهار.

**﴿السائحون﴾** فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

**﴿الراكعون الساجدون﴾** أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

**﴿الأمرون بالمعروف﴾** ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

**﴿والناهون عن المنكر﴾** وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

**﴿والحافظون لحدود الله﴾** بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والشواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

**﴿وبشر المؤمنين﴾** لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفيتها فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم، قوة، وضعفاً، وعبلاً بمقتضاه.

**﴿١١٣-١١٤﴾** **﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين**

ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾** يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به **﴿أن يستغفروا للمشركين﴾** أي: لمن كفر به وعبد معه غيره **﴿ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾** فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاء وغضبه، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه **﴿عن موعدة وعدها إياه﴾** في قوله: **﴿سأستغفر لك رب إن كان بي حقيقاً﴾** وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير **﴿تبرأ منه﴾** موافقة لربه وتأديباً معه.

**﴿إن إبراهيم لأواه﴾** أي: رجأع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه.

**﴿حليم﴾** أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستفزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: **﴿لأرجئك﴾** وهو يقول له: **﴿سلام عليك سأستغفر لك رب﴾**.

فعلیکم أن تقتدوا وتتبعوا ملّة إبراهيم في كل شيء **﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لا استغفرن لك﴾** كما نهىكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

**﴿١١٥-١١٦﴾** **﴿وما كان الله**



أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي: يتقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿ليتوبوا﴾ أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والغصيان، ﴿الرحيم﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتّن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وثبتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة. ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالى بالذنوب ولا يخرج إذا فعله، فإن توبته مدخوله، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين. ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خلفوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين

الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تاب على النبي﴾ محمد ﷺ ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، وزقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك»<sup>(١)</sup> وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويسيلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزيّغ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفراً، وإن كان في شرائعه كان يحسب تلك الشريعة التي زاع عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ ومن رأفته ورحمته أن منّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حتى إذا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي: على سعتها وزحبتها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الراسع، والمحجوب الذي لم تجز العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من

ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم﴾ إن الله له ملك السماوات والأرض يحمي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أن الله تعالى إذا منّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحمي ويميت﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بالهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!!

فلهذا قال: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو «نصير» يدفع عنكم المضار.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

(١) في ب: غزوة تبوك.

خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُت في قبول عذرهم أو في رده] <sup>(١)</sup> وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال:

﴿١١٩﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴿١﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، واجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿١﴾ وكونوا مع الصادقين ﴿١﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ الآية.

﴿١٢٠ - ١٢١﴾ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين \* ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴿١﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم -: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴿١﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم. ﴿١﴾ ولا يرغبوا بأنفسهم في بقائها

وراحتها، وسكونه ﴿١﴾ عن نفسه ﴿١﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها، فعلامة تعظيم الرسول ﷺ وعحبته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذلك بأنهم﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿١﴾ لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ﴿١﴾ أي: تعب ومشقة ﴿١﴾ ولا مخمصة في سبيل الله ﴿١﴾ أي: مجاعة.

﴿١﴾ ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ﴿١﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم، ﴿١﴾ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴿١﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنمة لمال ﴿١﴾ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴿١﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿١﴾ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿١﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿١﴾ إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴿١﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها الله، ونصحوها فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿١٢٢﴾ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴿١﴾ يقول تعالى -: ﴿منها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم - ﴿١﴾ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴿١﴾ أي: جميعاً لقتال

عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتفوت به كثير من المصالح الأخرى، ﴿١﴾ فلولا نفر من كل فرقة منهم ﴿١﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿١﴾ طائفة ﴿١﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿ليتفقهوا﴾ أي: القاعدون ﴿١﴾ في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴿١﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجاهل ما لا يعلمون، فأى: منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي: نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتنبه لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿١٢٣﴾ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم

(١) زيادة من هامش ب.

غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ وهذا أيضاً إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي: وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعَنِّكُم وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جداً.

﴿١٢٤ - ١٢٦﴾ ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمتهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ يقول تعالى: مبيئاً حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فمنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً﴾ أي: حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين.

قال تعالى - مبيئاً الحال الواقعة -: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ بالعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر.

﴿وهم يستبشرون﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة

انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكاً إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها، فزاد ذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿و﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿ماتوا وهم كافرون﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

قال تعالى - موبخاً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق -: ﴿أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثم لا يتوبون﴾ عما هم عليه من الشر ﴿ولا هم يذكرون﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

فالله تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجده وينمي، ليكون دائماً في صعود.

﴿١٢٧﴾ وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني: أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾

بآياتهم التي أمروا فيها أن يكونوا من الكفار وليجذوف فيكم غلظة وأعلموا أن الله مع المتقين ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمتهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿و﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿ماتوا وهم كافرون﴾.

سورة الفرقان

متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل صرف الله قلوبهم ﴿أي: صدها عن الحق وخذلها.

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ فقهاً ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾.

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ فإن تولوا فقل حسبني الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﴿في غاية النصيح لهم، والسعي في مصالحهم...﴾

﴿عزيز عليه ما عتتم﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم.

### تفسير سورة يونس مكية

ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون \* إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب بما كانوا يكفرون \* يقول تعالى مبيناً لربوبيته وإلهيته وعظمته : ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.

﴿ثم﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق بعظمته.

﴿يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مدعونون لعزّه (٢)، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذن﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿ذلكم﴾ الذي هذا شأنه ﴿الله ربكم﴾ أي : هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال.

﴿فاعبدوه﴾ أي : أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية، ﴿أفلا تذكرون﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آيات الكتاب الحكيم \* أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ويشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين \* يقول تعالى : ﴿آلر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وهو هذا القرآن، المشمّل على الحكمة والأحكام، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد.

ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله.

﴿وبشر الذين آمنوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ أي : لهم جزاء موفور (١)، وثواب مذكور عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حلهم على الكفر به، ف ﴿قال الكافرون﴾ عنه : ﴿إن هذا لساحر مبين﴾ أي : بين السحر، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم، الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذن ذلكم الله



﴿حريص عليكم﴾ فيجب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويعرض على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ أي : شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيزه، وتوقيره ﴿فإن﴾ آمنوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تولوا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تزل في دعوتك، وقل ﴿حسبي الله﴾ أي : الله كافي في جميع ما أهتمني، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي : لا معبود بحق سواه.

﴿عليه توكلت﴾ أي : اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، ان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه  
فلله الحمد أولاً وآخراً  
وظاهرأ وباطناً

شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم.

﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلى فقال:

﴿وعد الله حقاً﴾ أي: وعده صادق لا بد من إتمامه.

﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات، ﴿بالقسط﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿والذين كفروا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله.

﴿لهم شراب من حميم﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء. ﴿وعذاب أليم﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٥-٦﴾ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون \* إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض آيات لقوم يتقون \* لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لقوم يعلمون﴾ و﴿لقوم يتقون﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل<sup>(١)</sup> على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيوميته، وما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتناؤه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات الربوبيات، المقشورات إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بغين الاعتبار، فإن بذلك تفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجود للذهن والقريحة.

﴿٧-٨﴾ ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون \* أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾

بدلاً عن الآخرة. ﴿واطمأنوا بها﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم<sup>(٢)</sup> ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي: طريق حصلت حصلوها، ومن أي: وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أولئك﴾ الذين هذا وصفهم ﴿مأواهم النار﴾ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها.

﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي، فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿٩-١٠﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم \* دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يهدى ربهم بإيمانهم﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى

(١) في ب: الدلائل.

(٢) في ب: أمرهم.



الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والخير، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنعيمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناكح، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دَعَاوَهُمْ فِيهَا سَبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي: عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح الله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد الله، فالتكليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المأكول اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

﴿وَأَمَّا نَجَّتِهِمْ﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَامٌ﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعَاوَهُمْ فِيهَا سَبْحَانَكَ﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا: سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

فإذا فرغوا قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿١١﴾ ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبأدبرهم بالعقوبة على

ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لمحققتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يمهلهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلیم حكيم.

وقوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم<sup>(١)</sup> على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَا لِحَبِّهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرْهَ مَرَكَّانٍ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْهِهِ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضرر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرْهَ مَرَكَّانٍ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْهِهِ﴾ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأبى: ظلم أعظم من هذا الظلم!! يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه الله حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنًا مستحباً في العقول والفطر.

﴿كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿يَخْبَرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَهْلَكَ الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ بِظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق فلم يقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرب على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسوله، نجوت في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِي بَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ اتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ﴾ يذكر تعالى تعنت الكذابين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تلى عليهم آيات الله القرآنية المينة للحق، أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلماً: ﴿آتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾ فقيحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلماً ورداً لآياته.

فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء، ﴿إِنْ اتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ

(١) كذا في ب، وفي أ: عقوبة منه.

إليّ أي: ليس لي غير ذلك، فإني عبد مأمور، ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامر ربه ووحيه، فكيف هؤلاء السفهاء الضالين، الذين جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم والعناد، والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟!.

فإن زعموا أن قصدهم أن يثبت لهم الحق بالآيات التي طلبوا فهم كذبة في ذلك، فإن الله قد بين من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرفها كيف يشاء، تابعا<sup>(١)</sup> لحكمته الربانية ورحمته بعباده.

﴿قل لو شاء الله ما تلوثه عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمرا طويلا﴾ من قبله أي: قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي حيث لم أقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمرا طويلا تعرفون حقيقة حالي، بأي أمي لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أعلم من أحد؟!.

فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعياء العلماء، فهل يمكن - مع هذا - أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟

فلو عملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتكم جزما لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذ<sup>(٢)</sup> أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو كذب بآياته﴾؟!.

فلو كنتم متقولا لكنتم أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تحف عليكم حالي، ولكنني جئتكم

بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح، ما دمتم كذلك.

ودل قوله: ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ الآية، أن الذي حملهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بقاء الله وعدم رجائه، وأن من آمن بقاء الله، فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

﴿١٨﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: ﴿ويعبدون﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ.

﴿من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي: لا تملك لهم مقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئا.

﴿ويقولون﴾ قولا خاليا من البرهان: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى - مبطلا لهذا القول -: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ أي: الله تعالى هو العالم، الذي أحاط علما بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه، أفأنتم - يا معشر المشركين - تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟ أفتمخرونه بأمر خفي عليه، وعلمتموه؟ أنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أبطل من هذا القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول، فإنه يجزم بفساده وبطلانه: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِمَا لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَتَيْنَا غُلُوبًا ۖ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ أَلَاءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۖ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ فِي جَنَّاتٍ التَّوَارِثُ ۖ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا زَوْجَةٌ مَعًا ۖ وَاللَّائِيْنَ الشَّرَّاسُ يَسْمَعُونَ الْخَيْرَ لِقَاضِي الْإِيمَانِ أَجَلُهُمْ قَدَرُ الْيَوْمِ لَا يَرْجُوتُ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۖ وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانَ أَضْمَرَ دَعْوَانَا لِجَنَّةٍ تَأْوِكَا ۖ وَإِذَا كُنَّا فَكُنَّا عَنْهُ صُحُودًا ۖ إِنَّ رَبَّنَا إِلَهُ صُحُودُهُ ۖ كَذَلِكَ يُرِي لِلْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يُعْمَلُونَ ۖ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجْهَهُمْ لِرَبِّهِمُ الْبَيْتِ وَكَانُوا لِلْأُفْقَى كَالْكُتُوبِ الْعَتِيقَةِ ۖ فَرَجَعْنَا كُنُوزَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۖ

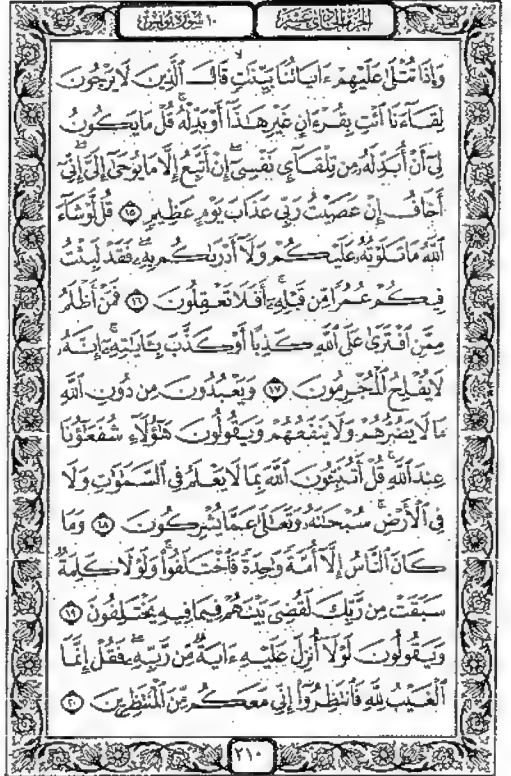
الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه، فإنه باطل عقلا وشرعا وفطرة.

﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلَفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، ﴿لقضي بينهم﴾ بأن ننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقا بينهم ﴿فيما فيه يختلفون﴾.

ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض، ليتبين الصادق من الكاذب.



﴿ويقولون﴾ أي: المكذبون المتعنتون، ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ الآيات.

وكقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات.

﴿فقل﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿إنما الغيب لله﴾ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل، ولا غاية ولا تعليل.

﴿فانظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿٢١﴾ ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.

ولهذا قال: ﴿إذا لهم مكر في

آياتنا﴾ أي: يسعون بالباطل ليطلوا به الحق.

﴿قل الله أسرع مكراً﴾ فإن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إني مرجعكم فتنبتكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تؤيد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال:

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة<sup>(١)</sup> لكم فيها، وهذاكم إليها. ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ السفن البحرية ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ موافقة لما يهونه من غير انزعاج ولا مشقة. ﴿وفرحوا بها﴾ واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك، إذ ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ شديدة الهبوب ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حيثئذ تعلقهم بالخلق، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي:

نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوه في الشدة؟!!

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ أي: غاية ما تؤملون بغيركم وشرودكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها النثر اليسير الذي سينقضي سريعاً، ويمضي جميعاً، ثم تنتقلون عنه بالرغم.

﴿ثم إني مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فتنبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلىء القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿مما يأكل الناس﴾ كالحبوب والثمار ﴿ومما تأكل الأنعام﴾ كأنواع العشب، والكلاً المختلف الأصناف.

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾ أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية

للمتبررين، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أناها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾ أي: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿للقوم يتفكرون﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شوق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

عمّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسول، وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والتفانص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعوا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة

لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبودته على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعل، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم «الحسنى» وهي الجنة الكاملة في حسناتها و«زيادة» وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما<sup>(١)</sup> قال الله عنهم - «تعرف في وجوههم نضرة النعيم» أولئك أصحاب الجنة الملازمون لها ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يحولون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿٢٧﴾ ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها، أي:

(٢) في ب: في وجوههم.

(١) في ب: فكما.

ولما أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهزئة لهم فذكر في آياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا بكمون ما ننكروا ﴿هو الذي يسير في البر والبحر حتى إذا كثرت في الفلك وجوز بهم ريح طيبة وقرحوا بها جنة لها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله فأنشأ لهم من كل مخرج مخرجاً فذلك من الشكر﴾ ﴿فلما أجعلهم نارا هم ينعون في الأرض يغير الله ما يشاء في الأرض إنما يغير عظم على عظم﴾ ﴿منع الحياة الدنيا من الذين آمنوا فماتوا﴾ ﴿فما كنتم تعلمون﴾ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام﴾ ﴿فإن الغلات والأرض تعرفها وإن رزقاها رزقاها وإنهم فلان﴾ ﴿عليها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾ ﴿ذلك نصيب الآتية لغير شك﴾ ﴿والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾

جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

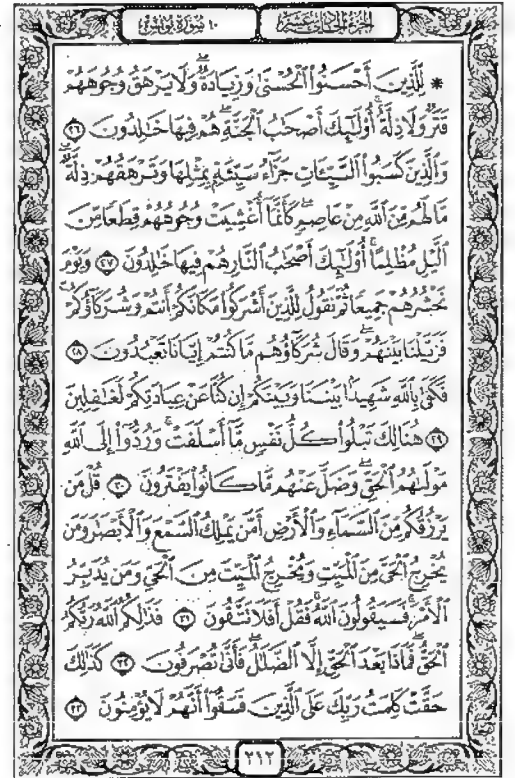
﴿وترهقهم﴾ أي: تغشاهم «ذلة» في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في الوجوه<sup>(٢)</sup>.

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، وما بعد ما بينهما من التفاوت؟! ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ إلى ربها ناظرة ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ ضاحكة مستبشرة ﴿وجوه يومئذ عليها غبرة﴾ ترهقها قتره ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ووردوا إلى الله مولا هم الحق وضل عنهم ما كانوا

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ووردوا إلى الله مولا هم الحق وضل عنهم ما كانوا





يفترون\* يقول تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ أي: نجتمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاءكم﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفضل بينكم وبينهم. ﴿فزيلنا بينهم﴾ أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضاً وعداوة.

وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد. ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لنافلين﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

وقال: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون\* قالوا سبحانه أنت ولينا من دوزهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون\*.

(١) في ب: بعد أن أراهم.

كماخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك، ويخرج الميت من الحي\* عكس هذه المذكورات، ﴿ومن يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فسيقولون الله﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

﴿فقل﴾ لهم إلزاماً بالحجة ﴿أفلا تتقون﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتحلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿فذلكم﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿الله ربكم﴾ أي: المألوه المعبود المحمود، المربي جميع الخلق بالنعم وهو: ﴿الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾.

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

﴿فأني تصرفون﴾ عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نصراً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شراكة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتباً لمن أشرك به، ووبخاً لمن كفر به، لقد عذبوا عقولهم بعد أن عذبوا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم.

ولهذا قال [تعالى] عنهم: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ بعد ما أراهم<sup>(١)</sup> الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الأبصار، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدتهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحيث يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: ﴿هنالك﴾ أي: في ذلك اليوم ﴿تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ أي: تفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

﴿٣١-٣٣﴾ ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر﴾ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون\* فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأني تصرفون\* كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون\* أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً - محتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - ﴿من يرزقكم من السماء والأرض﴾ بأنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟

﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟، وخصهما بالذكر من باب التثنية على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾



﴿٣٤-٣٦﴾ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني تؤفكون \* قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون \* وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ﴿٣٦﴾ يقول تعالى - مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله - : ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾ أي : مبتدئيه ﴿ثم يعيده﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي : ما من أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك .

﴿فأني تؤفكون﴾ أي : تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون .

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ ببيان وإرشاد أو بإلهامه وتوفيقه .

﴿قل الله وحده﴾ يهدي للحق بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق .

﴿أمن لا يهدي﴾ أي : لا يهدي إلا أن يهدي \* لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهدي إلا أن تهدي ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي : أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده .

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافاً معنوية ولا أوصافاً فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب : أن هذا من تزوين

الشیطان للإنسان، أقبح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه وظنه حقاً، وهو لا شيء .

ولهذا قال : وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء أي : ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله، فإنه ليس الله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ فسموها آلهة وعبدوها مع الله، ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ .

﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة .

﴿٣٧-٤١﴾ ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ \* أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين \* بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين \* ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين \* وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴿٤١﴾ يقول تعالى : ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي : غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو كتاب الله الذي تكلم به [رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!﴾

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتقول أحد على رب

العالمين، لعاجله بالعقوبة وبادهه بالنكال .

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين .

أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت .

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة .

﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي : لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين : تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه .

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتغل على سكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

﴿أم يقولون﴾ أي : المكذبون به عناداً وبغياً : ﴿افتراه﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿قل﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما ادعوه، وإلا كان قولهم باطلاً .

﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله .

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة، والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتغل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علماً .

فلو أحاطوا به علماً وفهموه حق فهمه، لأذعنوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال : ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ وهو الهلاك

إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿٤٦﴾ ﴿وإما نريتك بعض الذي نعدهم أو نتوفيتك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

إما في الدنيا فتراه بعينك، وتقر به نفسك.

وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

﴿٤٧ - ٤٩﴾ ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿فإذا جاءهم﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالآيات، صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين ﴿وهم لا يظلمون﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم، فليحذر المكذبون لك من مشاهة الأمم المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك تمتنع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به.

وأما إسماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ فلا يفيد نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

ودل قوله: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين

الذي لم يبق منهم أحداً. فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أخل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على الثبوت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿وإن كذبوك﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون \* إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به، ﴿و﴾ أن ﴿منهم من يستمعون﴾ إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيراً، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرموه من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي المقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم











من نهار. فهذا برهان قاطع، وأية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بادأ<sup>(١)</sup> قومه بتسفيه آرائهم  
وفساد دينهم وعيب آلهتهم . وقد حلوا  
من بغضه وعداوته ما هو أعظم من  
الجبال الرواسي ، وهم أهل القدرة  
والسطوة ، وهو يقول لهم : اجتمعوا  
أنتم وشركاءكم ومن استطعتم ، وأبدوا  
كل ما تقدرون عليه من الكيد ، فأوقعوا  
بي إن قدرتم على ذلك ، فلم يقدرُوا على  
شيء من ذلك .

فَعَلِمَ أَنَّهُ الصَّادِقُ حَقًّا، وَهُمْ  
الْكَاذِبُونَ فِيمَا يَدْعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنْ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ،  
فَلَا مَوْجِبَ لَتَوَلَّيْتُكُمْ، لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ أَنَّكُمْ  
لَا تَوَلُّونَ عَنْ بَاطِلٍ إِلَى حَقٍّ، وَإِنَّمَا  
تَوَلُّونَ عَنْ حَقٍّ قَامَتْ الْأَدْلَةُ عَلَى  
صِحَّتِهِ، إِلَى بَاطِلٍ قَامَتْ الْأَدْلَةُ عَلَى  
فَسَادِهِ.

ومع هذا ﴿فَمَا سَأَلْتَكُمْ مِنْ أَجْرِ﴾  
على دعوتي وعلى إجابتيكم، فتقولوا:  
هذا جاءنا ليأخذ أموالنا، فتمتنعون  
لأجل ذلك .

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي : لا أريد الثواب والجزاء إلا منه ، ﴿و﴾ أيضاً فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده ، بل ﴿أمرت أن أكون من المسلمين﴾ فأنا أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به .

﴿فكذبوه﴾ بعدما دعاهم ليلاً ونهاراً  
سراً وجهاراً، فلم يزدهم دعاؤه إلا  
فرازاً، ﴿فنجيناہ ومن معه في الفلك﴾  
الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له  
إذا فار التور: ف ﴿احمل فيها من كل  
زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه  
القول ومن آمن﴾ ففعل ذلك .

فَأَمَرَ اللَّهُ السَّمَاءَ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرَ  
الْأَرْضَ عَيْنُونًا، فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ  
قَدَّرَ: ﴿وَجَعَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ  
وَذِسْرٍ﴾ تجري بأعيننا، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ

خلائف في الأرض بعد إهلاك  
المكذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل  
ذريته هم الباقين، ونشرهم في أقطار  
الأرض، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا  
بآياتنا﴾ بعد ذلك البيان، وإقامة  
البرهان، ﴿فانظر كيف كان عاقبة  
المنذرين﴾ وهو: الهلاك المخزي،  
واللعنة المتابعة عليهم في كل قرن يأتي  
بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوما، ولا  
تري إلا قدحاً وذمّاً.

فليحذر هؤلاء المكذبون، أن يحل  
بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من  
الهلاك والخزي والنكال.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَعَاوُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَنْطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ المكذبين ، **يَدْعُونَهُمْ إِلَى الْهُدَى** ، ويحذرونهم من أسباب الردى .

﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي: كل نبي  
أيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما  
جاء به.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مرة.

ولهذا قال هنا: ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي: نختم عليها، فلا يدخلها خير، وما ظلمهم [الله]، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم، وتكذيبهم الأول.

﴿٧٥﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ <sup>(٢)</sup> . أَيْ : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَى الْقَوْمِ الْمَكْذِبِينَ

(١) في النسختين : بادىء.

(٢) في ب أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

[illegible]

المهلكين .

﴿موسى﴾ بن عمران كليم  
الرحمن، أحد أول العزم من المرسلين،  
وأحد الكبار المقتدى بهم، المنزل عليهم  
الشرائع المعظمة الواسعة.

﴿و﴾ جعلنا معه آخاه ﴿هارون﴾ وزيراً بعثناهما ﴿إلى﴾ فرعون وملائه ﴿أي﴾: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم تبع للرؤساء.

﴿بِأَيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى، ﴿فَاسْتَكْبِرُوا﴾ عنها ظمناً وعلواً، بعدما استيقنوها.

﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي : وصفهم الإجرام والتكذيب .

﴿٧٦﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو رب العالمين المربي جميع خلقه بالنعيم.

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى، ردّوه فلم يقبلوه، و﴿قالوا إِنَّ هَذَا السَّحَرُ مَبِينٌ﴾ لم يكفهم - قبحهم الله - إعراضهم ولا ردّهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر: الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحراً مبيناً ظاهراً، وهو الحق









لغافلون ﴿٩٤﴾ فلذلك تمر عليهم وتكرر فلا يتفكرون بها لعدم إقبالهم عليها.

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

﴿٩٣﴾ ﴿ولقد بونا بني إسرائيل مسبواً صدق﴾ أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم.

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿فما اختلفوا﴾ في الحق ﴿حتى جاءهم العلم﴾ المرجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة﴾ فيما كانوا فيه يختلفون ﴿يحكمه العدل﴾ الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما

هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين.

والا فإذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصالحهم العامة متفقة، فلا شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدنيوية والدينية ما يفوت، ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟

فنسألك اللهم لطفاً بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

﴿٩٤ - ٩٥﴾ ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ﴾ ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟

﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ أي: اسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعانده، وزدوا عليه دعوته.

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهاناً على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا من عدة أوجه: منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول

الصادقين منهم.

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أخبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» [وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعده] <sup>(١)</sup> و «كعب الأخبار» وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي يتسبون إليه.

فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدقه، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم <sup>(٢)</sup> على إنكار ذلك لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب <sup>(٣)</sup>

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين أثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى، كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم

(١) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف، وقد شطبت في ب الجملة التالية وهي قوله (وكعب الأخبار وغيرهما).

(٢) في النسختين: وآخرهم ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في ب: أهل الكتاب.



أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويجاً لملكهم، وتغويهاً لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئة الظاهرة.

وقوله: ﴿لقد جاءك الحق﴾ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال: ﴿من ربك فلا تكونن من الممتريين﴾ كقوله تعالى: ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾.

﴿٩٥﴾ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عدم الربح أصلاً، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه علماً وعملاً.

فبذلك يكون العبد من الراجحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

﴿٩٦-٩٧﴾ ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم يقول تعالى: ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك﴾ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيهم.

وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم

وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به. فحيث يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً، فيؤمئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٩٨﴾ ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ يقول تعالى: ﴿فلولا كانت قرية﴾ من قرى المكذبين ﴿آمنت﴾ حين رأت العذاب ﴿فنفعها إيمانها﴾ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً، لما قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فقليل له ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾.

وكما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده.

وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإن الإيمان الاضطرابي ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان، لرجع إلى الكفران.

وقوله: ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا﴾ بعدما رأوا العذاب، ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ فهم مستنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم

تدركها أفهامنا.

قال الله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى قوله: ﴿فأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون﴾ فآمنوا فمتعناهم إلى حين. ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر، لبل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه<sup>(١)</sup> والله أعلم.

﴿٩٩-١٠٠﴾ ﴿ولم يشاء ربك لأن آمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويعمل الرجس على الذين لا يعقلون يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ولو شاء ربك لأن آمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين.

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله<sup>(٢)</sup> [على<sup>(٣)</sup> شيء من ذلك].

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي: بإرادته ومشئته وإذنه القدري الشرعي، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهده.

﴿ويعمل الرجس﴾ أي: الشر والضلال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ عن الله وأمره وتواهيته، ولا يلحقون بالالتصاحح ومواظبه.

﴿١٠١-١٠٣﴾ ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانظروا إلي معكم من المنتظرين ﴿ثم نتجى من ربنا والذين

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسختين: غير الله، وكان لا بد من زيادة اللام لتستقيم العبارة.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

للعباد، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذ مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدًا لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرد الله، ولهذا قال: ﴿وإن يردك بخير فلا راد لفضلته﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة، فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾ لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.

﴿الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعمة، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحدًا من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ولهذا - لما بين الدليل الواضح قال بعده: -

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿أي: قل﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق

محمد ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾ أي: في ريب واشتباه، فإنني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئًا من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يعبد ويصلى له ويخضع ويسجد.

﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وأن أقم وجهك للمدين حنيفاً ﴿أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين حنيفاً، أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، ولا تكونن من المشركين﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

- ﴿١٠٦﴾ ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى.

﴿فإن فعلت﴾ بأن<sup>(١)</sup> دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره!!

﴿١٠٧﴾ ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضلته يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق

آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴿يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحتوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الحلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها، ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي: من الهلاك والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين.

﴿قل فانتظروا إنى معكم المنتظرون﴾ فستعلمون لمن تكون له العقوبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست إلا للرسول وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدها.

﴿كذلك حقاً علينا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿ننجي المؤمنين﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه - بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من المكاره.

﴿١٠٤ - ١٠٦﴾ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وأن أقم وجهك للمدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه

### تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام، [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ \* الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير \* ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير \* وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير \* إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير \* يقول تعالى: هذا كتاب عظيم، ونزل كريم، ﴿أحكمت آياته﴾ أي: أتقنت وأحسننت، صادقة أخبارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بنية معانيه.

﴿ثم فصلت﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿من لدن حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خبير﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

﴿٢﴾ فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إنني لكم﴾ أيها الناس ﴿منه﴾ أي: من الله ربكم ﴿نذير﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وبشير﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإتابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به

من ربكم ﴿أي: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تربيته لكم، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغي ولم يبق لأحد شبهة.

﴿فمن اهتدى﴾ بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه، وأثره على غيره، فلنفسه والله تعالى غني عن عبادته، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

﴿ومن ضل﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به، ﴿فإنما يضل عليها﴾ ولا يضر الله شيئاً، فلا يضر إلا نفسه.

﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿واتبع﴾ أيها الرسول ﴿ما يوحى إليك﴾ علماً وعملاً وحالاً، ودعوة إليه، ﴿واصبر﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك واثبت، ﴿حتى يحكم الله بينك وبين من كذبك﴾ وهو خير الحاكمين ﴿فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمد عليه﴾.

وقد امثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان، فله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

ثم تفسير سورة يونس

والحمد لله رب العالمين

(١) في ب: فإنه على كل شيء قدير.



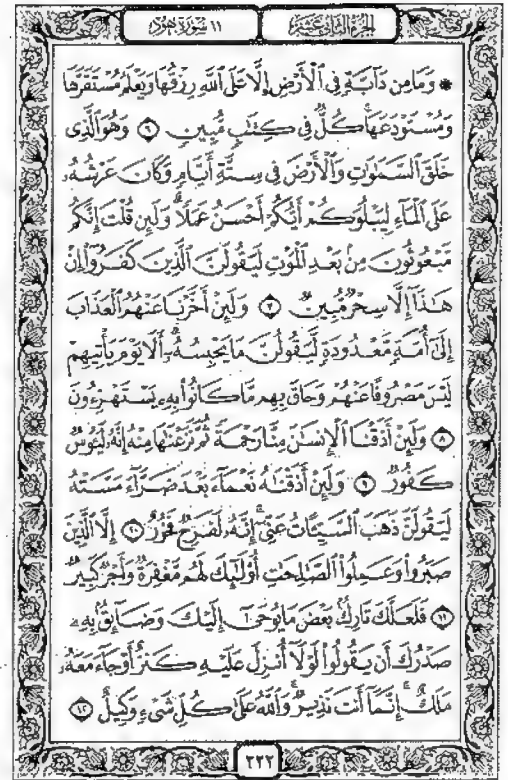
وتستغفرون.

﴿إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿ويؤت﴾ منكم ﴿كل ذي فضل فضله﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وإن تولوا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء<sup>(١)</sup>، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلًا.

﴿٥﴾ ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾ ألا حين يستغفون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴿يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم، أنهم يستغفرون صدورهم﴾ أي: يميلونها ليستخفوا ﴿من الله، فتقع صدورهم



حاجبة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم.

قال تعالى - مبيناً خطأهم في هذا الظن - ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال، التي هي من أخفى الأشياء.

بل يعلم ما يسرون من الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من الإزادات، والوساوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها، سرّاً ولا جهراً، فكيف تخفى عليه خالككم، إذا ثنيت صدوركم لتستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - يثنون صدورهم، أي: يحدوذبون حين يرون الرسول ﷺ يراهم ويسمعهم دعوته، ويعظمهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء!!؟

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿٦﴾ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ أي:

جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي، أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها<sup>(١)</sup> على الله.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها.

﴿كُلٌّ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها، وصفاتها.

﴿٧-٨﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَلْبِذَكُمْ أَتَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ \* وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجِبُ إِلَّا يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿وَ﴾ حين خلق السماوات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السماوات والأرض استوى عليه، يدبر الأمور، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة. ولهذا قال: ﴿لِيَلْبِذَكُمْ أَتَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي: ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

(٢) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب.

«أخلصه وأصوبه».

قيل يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟

فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل.

وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنْ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ، لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد، وأدى ما أمر به، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ لَكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم يصدقوك، بل كذبوك أشد الكذب<sup>(٢)</sup>، وقد حوفاً فيما جئت به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ألا وهو الحق المبين.

﴿وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى وقت مقدر فتباطؤوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿مَا يَجِبُ﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال!!

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم.

﴿وَخَافَ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا

(١) في ب: فرزقهم.

دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ على شيء من ذلكم ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] (٣) لقيام الدليل والمقتضي، وانتفاء المعارض.

﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للالوهية والعبادة، ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: متقادون لألوهيته، مسلمون لعبوديته، وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصنعه اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين.

خصوصاً إذا كان القدح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب. وفيها أن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء، تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها

يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل \* أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين \* فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿ يقول تعالى - مسلماً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب الكاذبين - : ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: لا ينبغي هذا لمثلك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدق عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضيق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً، يؤثر فيه وينقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟

أم عليك حسابهم، ومطالب بهدايتهم جبراً؟ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن؟

فأجابهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أنه قد افتراه (٢)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال

به يستهزؤون﴾ من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

﴿٩-١٠﴾ ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور﴾ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور \* إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلاً، أو خيراً منها عليه.

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور﴾ أي: فرح (١) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشتر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدراؤهم، وأي: عيب أشد من هذا!!

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم يبظروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور. ﴿وأجر كبير﴾ وهو: الفوز بجنت النعيم، التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين.

﴿١٢-١٤﴾ ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن

(١) في ب: يفرح.

(٢) في ب: أي: أنه قد افتراه.

(٣) في ب: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.



وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلٌّ مِنْ كَذِبِ  
عَلَى اللَّهِ، بِنَسْبَةِ الشَّرِيكِ لَهُ، أَوْ وَصْفِهِ  
بِمَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، أَوْ الْإِخْبَارِ عَنْهُ،  
بِمَا لَمْ يَقُلْ، أَوْ ادْعَاءِ النُّبُوَّةِ، أَوْ غَيْرِ  
ذَلِكَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ، فَهَؤُلَاءِ  
أَعْظَمُ النَّاسِ ظُلْمًا ﴿أُولَئِكَ يَعْرِضُونَ  
عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لِيَجْازِيَهُمْ بِظُلْمِهِمْ، فَعِنْدَمَا  
يُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِالْعِقَابِ الشَّدِيدِ ﴿يَقُولُ  
الْأَشْهَادُ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمْ  
بِافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ  
كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى  
الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: لَعْنَةُ لَا تَنْقُطُ، لِأَنَّ  
ظُلْمَهُمْ صَارَ وَصْفًا لَهُمْ مَلَا زِمًا،  
لَا يَقْبَلُ التَّخْفِيفَ.

ثُمَّ وَصَفَ ظُلْمَهُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ  
يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَصَدُّوا  
بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَهِيَ سَبِيلُ  
الرَّسْلِ الَّتِي دَعَا النَّاسَ إِلَيْهَا، وَصَدُّوا  
غَيْرَهُمْ عَنْهَا، فَصَارُوا أَثْمَةً يَدْعُونَ إِلَى  
النَّارِ.

﴿وَيَسْغَوْنَهَا﴾ أَيُّ: سَبِيلَ اللَّهِ  
﴿عُوجًا﴾ أَيُّ: يَجْتَهِدُونَ فِي مِيلِهَا،  
وَتَشْيِينَهَا، وَتَهْجِينَهَا، لِتَصِيرَ عِنْدَ النَّاسِ  
غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ، فَيَحْسِنُونَ الْبَاطِلَ  
وَيَقْبَحُونَ الْحَقَّ، قَبَحَهُمُ اللَّهُ ﴿وَهُمْ  
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي  
الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: لَيْسُوا فَائِزِينَ بِاللَّهِ، لِأَنَّهُمْ  
تَحْتَ قَبْضَتِهِ وَفِي سُلْطَانِهِ.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
أَوْلِيَاءَ﴾ فَيَدْفَعُونَ عَنْهُمْ الْمَكْرُوهَ، أَوْ  
يَحْصِلُونَ لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ تَقَطَّعَتْ  
بِهِمُ الْآسَابُ.

﴿يَضَاعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أَيُّ:  
يَغْلِظُ وَيَزَادُ، لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ  
وَأَضَلُّوا غَيْرَهُمْ.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أَيُّ:  
مِنْ بَغْضِهِمْ لِلْحَقِّ وَنُفُورِهِمْ عَنْهُ، مَا  
كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا آيَاتِ اللَّهِ  
سَمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنْ  
التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ كَأَنَّهُمْ حَرَمُوا  
مُسْتَنْفَرَةً ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿وَمَا  
كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ أَيُّ: يَنْظُرُونَ نَظْرَ

أَوْحَاهُ اللَّهُ وَشَرَعَهُ، وَعَلِمَ بِعَقْلِهِ  
حَسَنَهُ، فَازْدَادَ بِذَلِكَ إِيمَانًا إِلَى إِيْمَانِهِ.

﴿و﴾ ثُمَّ شَاهَدَ ثَالِثٌ وَهُوَ ﴿كِتَابُ  
مُوسَى﴾ التَّوْرَةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ  
﴿إِمَامًا﴾ لِلنَّاسِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ لَهُمْ، يَشْهَدُ  
لِهَذَا الْقُرْآنِ بِالصِّدْقِ، وَيُؤَافِقُهُ فِيمَا جَاءَ  
بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

أَيُّ: أَفَمَنْ كَانَ بِهَذَا الْوَصْفِ قَدْ  
تَوَارَدَتْ عَلَيْهِ شَوَاهِدُ الْإِيْمَانِ، وَقَامَتْ  
لَدَيْهِ أَدْلَةُ الْيَقِينِ، كَمَنْ هُوَ فِي الظُّلُمَاتِ  
وَالْجَهَالَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟!

لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا عِنْدَ  
عِبَادِ اللَّهِ، ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ وَفَّقُوا  
لِقِيَامِ الْأَدْلَةِ عِنْدَهُمْ، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾  
بِالْقُرْآنِ حَقِيقَةً، فَيُشْمَرُ لَهُمْ إِيمَانُهُمْ كُلُّ  
خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿مَنْ  
الْأَحْزَابِ﴾ أَيُّ: سَائِرِ طَوَائِفِ أَهْلِ  
الْأَرْضِ، التَّحْزِيبَةُ عَلَى رَدِّ الْحَقِّ،  
﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ لَا يَدُ مِنْ وَرُودِهِ إِلَيْهَا  
﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ﴾ أَيُّ: فِي أَدْنَى  
شَكٍّ ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ  
النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إِمَّا جَهْلًا مِنْهُمْ  
وَضَلَالًا، وَإِمَّا ظُلْمًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا،  
وَالْأَمْرُ كَانَ قَصْدَهُ حَسَنًا وَفَهْمَهُ  
مُسْتَقِيمًا، فَلَا يَدُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، لِأَنَّهُ  
يَرَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى الْإِيْمَانِ مِنْ كُلِّ  
وَجْهِ.

﴿١٨ - ٢٢﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ  
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يَعْرِضُونَ  
عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ  
كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى  
الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
وَيَسْغَوْنَهَا عُوجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ  
كَافِرُونَ ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ  
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
مِنْ أَوْلِيَاءَ يَضَاعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا  
كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا  
يَبْصُرُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا  
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾  
لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ  
الْخَاسِرُونَ ﴿يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا أَحَدَ  
أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ،  
مِنَ الذَّهَبِ، وَالْبَقْضَةَ، وَالْخَيْلَ  
الْمُسَوْمَةَ، وَالْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ. قَدْ صَرَفَ  
رَغْبَتَهُ وَسَعِيَهُ وَعَمَلَهُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ،  
وَلَمْ يَجْعَلْ لِدَارِ الْقَرَارِ مِنْ إِرَادَتِهِ شَيْئًا،  
فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا كَافِرًا، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ  
مُؤْمِنًا، لَكَانَ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيْمَانِ يَمْنَعُهُ  
أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ إِرَادَتِهِ لِلدَّارِ الدُّنْيَا، بَلْ  
نَفْسُ إِيْمَانِهِ وَمَا تَسَّرَ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ أَثَرٌ  
مِنْ أَثَارِ إِرَادَتِهِ الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَلَكِنْ هَذَا الشَّقِيُّ، الَّذِي كَانَهُ خَلَقَ  
لِلدُّنْيَا وَحْدَهَا ﴿ثَوَفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ  
فِيهَا﴾ أَيُّ: نَعْطِيهِمْ مَا قَسَمَ لَهُمْ فِي أَمِّ  
الْكِتَابِ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ أَيُّ:  
لَا يَنْقُصُونَ شَيْئًا مِمَّا قَدَّرَ لَهُمْ، وَلَكِنْ  
هَذَا مَتْنُهُ نَعْمَتُهُمْ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ  
إِلَّا النَّارُ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يُفَقَّرُ  
عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَقَدْ حَرَمُوا جَزِيلَ  
الثَّوَابِ.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أَيُّ: فِي  
الدُّنْيَا، أَيُّ: بَطُلَ وَاضْمَحَلَّ مَا عَمَلُوهُ  
مِمَّا يَكِيدُونَ بِهِ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ، وَمَا عَمَلُوهُ  
مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ الَّتِي لَا أُسَاسَ لَهَا،  
وَلَا وَجُودَ لَشَرْطِهَا، وَهُوَ الْإِيْمَانُ.

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ  
وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى  
إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ  
بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ  
فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى  
حَالَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ  
مِنْ وَرَثَتِهِ الْقَائِمِينَ بِدِينِهِ، وَحُجَّجَهُ  
الْمَوْقِنِينَ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ لَا يَوْصَفُ بِهِمْ  
غَيْرُهُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِثْلَهُمْ، فَقَالَ:  
﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بِالْوَحْيِ  
الَّذِي أَنْزَلَ<sup>(١)</sup> اللَّهُ فِيهِ الْمَسَائِلَ الْمُهِّمَةَ،  
وَدَلَالَتِهَا الظَّاهِرَةَ، فَتَيَقَّنُ تِلْكَ الْبَيِّنَةُ.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أَيُّ: يَتْلُو هَذِهِ الْبَيِّنَةَ  
وَالْبِرْهَانَ بِرَهَانٍ آخَرَ ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وَهُوَ  
شَاهِدُ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَالْعَقْلُ  
الصَّحِيحُ، حِينَ شَهِدَ حَقِيقَةَ مَا

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: أَنْزَلَهُ.



والأصلح، وتدبرون الأمور.

﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم، فعل ذلك. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن إرادة الله غالبة، فإنه إذا أراد أن يغويكم لزدكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك ينفع لكم شيئاً، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرِمُونَ﴾ أي: كل عليه وزره ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصتها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم للدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

﴿فَإِذَا زَعَمُوا - مَعَ هَذَا - أَنَّهُ افْتَرَاهُ، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي﴾ أي: ذنبي

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: غايتي أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بسر أئركم وبواطنكم ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملأ الذين كفروا ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

﴿إِنِّي إِذَا﴾ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تأسيس منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمتقهم، وتقنع لقومه بالطرق المقنعة للمنصف.

فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فما أجهلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة لئيبهم الناصح.

فهلأ قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشفقت علينا، ودعوتنا إلى أمر لم يتبين لنا فتريد منك أن تبيته لنا لننقاد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك. لكان هذا الجواب المنصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرؤون. ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة.

ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه

أُولَئِكَ تَرْجُو أَرْجَاؤَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لَأَجْرَهُ أَتَمُّ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَحْبَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّبِيحِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِلَى أَنْ يَتُوبَ إِلَيْهِمْ ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي خَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ الْبَاسِ﴾ فَقَالَ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُ زَاكٍ مَكَرٍ قَوْمَهُ مَا زِلْتُ إِلَّا نَبْشُ طَائِفَةٍ وَمَا زِلْتُ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَزْوَاجُ ابْنَيْكَ وَالْأَيُّهَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْكُمْ فَضِيلًا فَلْيَتَّبِعُوا طَائِفًا مِنْكُمْ يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ وَآخَرُكُمْ هُمْ أَتَّبِعُكُمْ فَتَمَّ نَبْشُ رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ عَلَى نَبْشِ رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ عَنْهُمْ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ أَنْزَلُكُمْ وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ ﴿١٢٤﴾

وافتراؤكم علينا صادداً لنا عما كنا عليه.

وإنما غايته أن يكون صادداً لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿أَنْزَلْكُمْ كُفْرًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على دعوتي إياكم ﴿مَالًا﴾ فتستثقلون المغرم.

﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ﴾ فمشيهم على إيمانهم وتقواهم بجنت النعيم.

﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتهم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم إنني بشر مثلكم وأنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ﴾ أي: من يمنعني من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم







فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم، داخل في قوله ﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾ بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿وَأَهْلِكَ﴾.

وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِط بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها.

﴿وَأُمَمٍ سَنُنتَعِمُهُمْ﴾ في الدنيا ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك أحللتنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً، فسيوخذون بعد ذلك.

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسوطة التي لا يعلمها إلا من من عليه برسالاته.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها.

فاحمد الله واشكره، واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم، والصراط المستقيم والدعوة إلى الله ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

﴿٥٠ - ٦٠﴾ ﴿وَالِى عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ إلى آخر القصة (١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادَ﴾ وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف، من أرض اليمن، ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه.

ف ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون﴾ أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره، وتجيزهم لذلك، ووضع لهم وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجاناً.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما أدعوكم إليه، وأنه موجب لقبوله، منتف المانع عن رده.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا لِيَكُمْ﴾ عما مضى منكم ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى.

فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض، وينكثر خيرها.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ فوعدهم أنهم

إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ عنه، أي: عن ربكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ أي: مستكبرين عن عبادته، متجربين على محارمه.

ف ﴿قَالُوا﴾ رادين لقوله: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ إن كان قصدهم بالبيينة البينة التي يقترحونها، فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببيينة تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخير الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه.

بل أهل العقول وأولو الألباب، يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط. ومن آياته وبياناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم، ويعجزهم، ويقول لهم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي طريق كان وهو غير مكترث منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدر أن ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.

وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدُ لَعَادَ قَوْمُ هُودَ﴾.



عن قولك ﴿أي: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بيعة بزعمهم﴾ ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وهذا تأسيس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿إن نقول﴾ فيك ﴿إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ أي: أصابتك بخبال وجنون فصرت تهذي بما لا يعقل. فسبحان من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم.

ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أذى فقال: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً﴾ أي: اطلبوا لي الضرر كلكم، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي: لا تهملوني.

﴿إني توكلت على الله﴾ أي: اعتمدت في أمري كله على الله ﴿ربي وربكم﴾ أي: هو خالق الجميع، ومديرنا وإياكم، وهو الذي ربانا. ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم علي، لم تقدرُوا على ذلك، فإن سلطكم، فلحكمة أرادها.

ف ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ أي: على عدل، وقسط، وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم، التي يحمد ويشني عليه بها. ﴿فإن تولوا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فقد أبلفتكم ما أرسلت به إليكم﴾ فلم يبق علي تبعة من شأنكم. ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾

(١) في ب: الطائعين.

(٢) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لثمود﴾.

يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً ﴿ولا تضروته شيئاً﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم، فالله لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطاعين (١) ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [إن ربي على كل شيء حفيظ].

﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم، التي ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾.

﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ أي: عظيم شديد، أحله الله بعباد، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

﴿وتلك عاد﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم ﴿جحودوا﴾ بآيات ربهم ﴿ولهذا قالوا لهود: جئتنا بيئة﴾ فبين هذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا ﴿وعصوا رسله﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع المرسلين، لأن دعوتهم واحدة.

﴿واتبعوا أمر كل جبار﴾ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، ﴿عنيد﴾ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلهم الله.

﴿واتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذنم يلحقهم ﴿ويوم القيامة﴾ لهم أيضاً لعنة ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم. ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

﴿٦١ - ٦٨﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ إلى آخر قصتهم (٢)، أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾ وهم: عاد الثانية، المعروفون الذين يسكنون

قال يثوب إنهم ليس من أهلك إنما عمل غير صالح فلا تنس ما آتيناك به علماً إن أعطاك أن تكون من المبجلين ﴿٥﴾ قال رب إني أعوذ بك أن أسلك ما ليس لي به علم ولا تغفل عني وتزني أكن من الخاسرين ﴿٦﴾ قال يثوب أحيط بسكرونا وبرككت عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمعنا من أسمعتنا عذاباً أليماً ﴿٧﴾ قال رب إن أبا القريب أوتينا ما كنت تعلم أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العفة أشقى ﴿٨﴾ وإلى عاد أخاهم هوداً قال رب قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غير الله إن أنتم إلا مفلوون ﴿٩﴾ يثوب لا أنشأكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذي فطرنا أفلا تعقلون ﴿١٠﴾ ويثوب أسقفوا رؤسكم ثم تولوا إلى ربهم يسيل السماء عليهم مذراً مطراً وذكروا لكم قوة آل ثمود ولا تتولوا مجرمين ﴿١١﴾ قالوا لهود ما جئناك بشيء مما نحن تاركوا آلهم تنافن قولاك وما نحن لك بمؤمنين ﴿١٢﴾

الحجر، ووادي القرى، ﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿صالحاً﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ف ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: وحدوه، وأخلصوا له الدين ﴿ما لكم من إله غيره﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي: خلقكم فيها ﴿واستعمركم فيها﴾ استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض تبنون وتغرسون وتزرعون، وتحثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فاستغفروهم﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة، ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ونحن

إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَمْرًا لَكَ بِعُضَاءِ الْهَيْتِ سُبُو قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ  
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ٥ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدِي  
جِيْعًا تَرَى لَا تُطْرِقُونَ ٦ إِنْ تَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّي لَأَمْنٌ  
دَائِمٌ إِلَّا هُوَ أَجْزَأُ بِرَبِّهِمَا أَنْ ربي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
٧ إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَلْغَشْنَاكُمْ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا وَتَسْتَعْلِفُونَ  
رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ ربي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
حَفِيطٌ ٨ وَلَئِنْ جَاءَ أَمْرُنَا بِجَنَّتَيْنِ هَوْنًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٩ وَلَئِنْ جَاءَ عَادَ مَحْجُودًا  
وَعَالِيَتٍ رِبْعَهُمْ وَعَصَوُوا رُسُلَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٠  
وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ إِلَّا عَادًا هَرُوفًا  
رَبِّهِمْ لَا يَعْلَمُونَ قَوْمَ هُودٍ ١١ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ صِلُوا  
قَالَ يَزِيدُ اللَّهُ مَالَكُمْ مِنْ لَدُنْهِ وَيُوَسِّطُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ الْأَرْضِ  
وَأَسْتَعْمَرُوا فِيهَا فَاسْتَعْمَرُوا وَهُوَ يُخَوِّذُ الْبِغْيَةَ وَيَجْزِي الْمُجْتَبِينَ  
١٢ قَالُوا لِمَ نَصْلِحُ فَمَنْ نَعْبُدُ فَقَالَ هَذَا نَسْتَعْتَابُ أَنْ نَعْبُدَ  
مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا فِي شَيْءِكُمْ تَذَكُّرًا ١٣ إِلَيْهِ مَرْيَبٌ ١٤

٢٣٨

أقرب إليه من جبل الوريد والقرب الخاص: قربه من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع﴾ وهذا النوع، قرب يقتضي الطافة تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك [قد] كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أنهنا أن نعبد ما يعبد آبائنا﴾

(١) في ب: فيها.

(٢) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين بعبدة﴾.

قلوبهم، ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي: خامدين لا حراك لهم.

﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمتعوا في ديارهم ولا أنسوا بها<sup>(١)</sup>، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمد الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل.

﴿ألا إن ثمود كفروا بربهم﴾ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة، ﴿ألا بعداً لثمود﴾ فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿٦٩ - ٨٣﴾ ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ إلى آخر القصة<sup>(٢)</sup> أي: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿بالبشرى﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

﴿فما لبث﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أن جاء بعجل حنيذ﴾ أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلاً مشوياً على الرضف سميناً، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

ويزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها.

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم تنرى، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿واننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الريب.

ويزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله:

﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: برهان ويقين مني ﴿وأتاني منه رحمة﴾ أي: من علي برسالته ووحيه، أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه؟

﴿فمن ينصري من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تحسير﴾ أي: غير خسار وتباب وضرر ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بعقرها ﴿فياخذكم عذاب قريب، فعقروها فقال﴾ لهم صالح: ﴿تمتموا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ بل لا بد من وقوعه.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ﴾ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة.

﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ العظيمة فقطعت

ف قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وامرأة إبراهيم قائمة تخدم أضيافه فضحككت حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به، تعجباً. فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فتعجبت من ذلك وقالت يا ويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً فهذان مانعان من وجود الولد إن هذا لشيء عجيب.

قالوا أتعجبين من أمر الله فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي: الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وحكمة، وعدل، وقسط.

مجيد، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها.

فلما ذهب عن إبراهيم الروح الذي أصابه من خيفة أضيافه وجاءته البشري بالولد التفت حيثئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها، لننجيته وأهله إلا امرأته.

إن إبراهيم حلیم أي: ذو خلق حسن وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين.

أواه أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، منيب أي: رجاء إلى الله بمعرفته ومحبه، والإقبال عليه، والإعراض عن سواه، فلذلك كان يجادل عن حتم الله بهلاكهم.

فقيل له: يا إبراهيم أعرض عن

هذا الجدل إنه قد جاء أمر ربك بهلاكهم وإنهم آتيهم عذاب غير مردود فلا فائدة في جدالك.

ولما جاءت رسلنا أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا لوطاً سيء بهم أي: شق عليه مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركزهم، لأنهم في صور شباب جرد مرد، في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله.

ف وجاءه قومه يهرعون إليه أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة، التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ومن قبل كانوا يعلمون السيئات أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين.

قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم من أضيافني وهذا كما عرض لسليمان على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق ولعلمه أن بناته ممنوع منالهن ولا حق لهن فيهن والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى فاتقوا الله ولا تحزرون في ضيقي أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيقي، ولا تحزرون عندهم.

أليس منكم رجل رشيد فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

ف قالوا له: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، وقال لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد كقبيلة مانعة لنتحكم.

وهذا بخسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب.

قال يفتور أنه يتم إن كنت على بينة من ربك وإنني منه رحمة فمن نصرني من الله إن عصيته فما تريدوني غير تحسير. ولقوة هذوية ناقة الله لكه أية قدرها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فإخذوا عذاب قريب. فعدوها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكروب. فلما جاء أمرنا بجناتك صليماً والذين آمنوا معهم رحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو أقوى العزير. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصيبوا في ديارهم جناتك. كان لهم نصيباً في الآيات من آياتهم وكانوا يظنون أنهم آية في العباد. ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات وقالوا لكنا آل الله أو بالحق لم يخلقنا من قبلهم ولنا غنى فمن أين لنا أن نكون من أئمة العباد إذا كنا آل الله. فأنزلناهم منازلهم وأوحى إليهم أسرارهم. وقالوا لا تخف إنا أرسلناك قبلك لوطاً. فاضحك فبشرنا بالحق ومن ربك إسحق يعقوب.

قالوا له: إنا رسل ربك أي: أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه، لن يصلوا إليك بسوء.

ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم.

ولا يلتفت منكم أحد أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

إلا امرأتك إنه مصيبتها من العذاب ما أصابهم لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

إن موعدهم الصبح فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له: أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا بنزول العذاب وإحلاله فيهم جعلنا ديارهم عاليها سافلها أي: قلبناها عليهم وأمطرنا عليها حجارة من سجيل أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة منضود أي: متتابعة تتبع من شد عن القرية.

منسومة عند ربك أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، وما هي من الظالمين الذين يشابهون لفعل





﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى﴾ أي: لا تحملنكم مخالفتي ومشاقتي ﴿أن يصيبكم﴾ من العقوبات ﴿مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم بعميد﴾ لا في الدار ولا في الزمان.

﴿واستغفروا ربكم﴾ عما اقترفت من الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح، والإنابة إليه بطاعته، وترك مخالفته.

﴿إن ربي رحيم ودود﴾ لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له، ويتقبل توبته ويحبه، ومعنى الدود من أسماؤه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو «فعول» بمعنى «فاعل» وبمعنى «مفعول».

﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ أي: تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم، فقالوا: ﴿ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه.

﴿وإننا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي: في نفسك لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين، ﴿ولولا رهطك﴾ أي: جماعتك وقبيلتك ﴿لرجفناك وما أنت علينا بعزیز﴾ أي: ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.

﴿ف﴾ قال ﴿لهم مترقفاً لهم﴾: ﴿ويا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ أي: كيف تراعوني لأجل رهطي، ولا تراعوني لله، فصار رهطي أعز عليكم من الله.

﴿واخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به ولا خفتهم منه.

﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء.

﴿ولما أعياه وعجز عنهم قال﴾: ﴿يا قوم اجعلوا على مكانتكم﴾ أي: على حالتكم ودينكم.

﴿إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ ويحل عليه عذاب مقيم

أنا أم أنتم، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب.

﴿وارتقبوا﴾ ما يحل بي ﴿إني معكم رقيب﴾ ما يحل بكم.

﴿ولما جاء أمرنا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ لا تسمع لهم صوتاً، ولا ترى منهم حركة ﴿كان لم يفنوا فيها﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب.

﴿ألا بعداً للدين﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿كما بعدت ثمود﴾ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السجق والبعد والهلاك.

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير.

منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه، لأن شعيباً دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيات والميزان، وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتحشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد، فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزاء من جنس العمل، فمن بخرس أموال الناس يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إني أراكم بخير﴾ أي: فلا تسيبوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقتنع بما آتاه الله ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بقية الله خير لكم﴾ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في

فلما جاء أمرنا جعلنا أكفها ما كان عليها وأما من كان عليها  
حكمة من يعجل تصور ﴿مُسومة عند ربك وما  
هي من الظالمين بعباد﴾ \* وإلى من أخطأ  
شعيباً قال يقر أعبدوا الله ما لكم من الله غير  
ولا تقصوا الكيال واليزان إن أريدكم بحسب  
وإن أخطأ عليكم عذاب عذاب يوم يحيط ﴿وتقو  
أولوا الكيال واليزان بالقسط ولا تحسوا الناس  
أشياء هم ولا تعصوا في الأرض مفريدين ﴿بيئت  
الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم  
بمحيط ﴿قالوا لشعيب أصولك تأمرك أن تترك  
ما تعبد أبائنا أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء إنك  
لأنت الخليل الأرشيد ﴿قال يقو أرأيت إن كنت  
على يتو من رب ورزقي منه رزقا حسا وما أريد  
أن أخالفكم إلى ما أتتكم منه إن أريد إلا الإصلاح  
ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴿

التكالب على الأسباب المحرمة من الحق، وضد البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشراعة، فبإقامتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد حوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه.

ومنها: أن من تكلمة دعوة الداعي وتمامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ ولقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إلم



كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل  
التقوى عند الترغيب والحث على  
التقوى.

ومنها : أن التائب من الذنب كما  
يسمح له عن ذنبه ، ويعفى عنه فإن الله  
تعالى يحب ويوده ، ولا عبرة بقول من  
يقول : «إن التائب إذا تاب ، فحسبه أن  
يغفر له ، ويعود عليه العفو ، وأما عود  
الود والحب فإنه لا يعود» . فإن الله  
قال : ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه  
إن ربي رحيم ودود﴾ .

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الزوابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدينية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدينية، وتحرص على إبادتها، وجعلهم عملةً وخذماً لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام، فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، والله أعلم.

﴿٩٦ - ١٠١﴾ وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ  
مُبِينٍ﴾ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ <sup>(١)</sup> يَقُولُ تَعَالَى :  
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ بَنَ عِمْرَانَ  
﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ ،  
كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَنَحْوَهُمَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي  
أَجْرَاهَا اللَّهُ عَلَى يَدَيْ مُوسَى عَلَيْهِ  
السَّلَامُ .

﴿وسلطان مبین﴾ ای: حجة ظاهرة

بينه، ظهرت ظهور الشمس، ﴿إلى  
فرعون وملئه﴾ أي: أشراف قومه  
لأنهم المتبعون وغيرهم تبع لهم، فلم  
ينقادوا لما مع موسى من الآيات التي  
أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة  
الأعراف، ولكنهم ﴿فاتبعوا أمر  
فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ بل هو  
ضال غاوٍ، لا يأمر إلا بما هو ضرر  
محض، لا جرم - لما اتبعه قومه -  
أرداهم وأهلكهم.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَوْرَدُ﴾ \* وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ آيَ : فِي الدُّنْيَا ﴿لَعْنَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ آيَ : يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

﴿بئس الرفد المرفود﴾ أي: بئس ما  
اجتمع لهم، وترادف عليهم من  
عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع  
رسلهم، قال الله تعالى لرسوله:  
﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾  
لتنذره، ويكون آية على رسالتك،  
وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿منها قائم﴾ لم ي تلف ، بل بقي من  
 آثار ديارهم ما يدل عليهم ، ﴿و﴾ منها  
 ﴿حصيد﴾ قد تهدت مساكنهم ،  
 واضمحلت منازلهم ، فلم يبق لها أثر ،  
 ﴿وما ظلمناهم﴾ بأخذهم بأنواع  
 العقوبات ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾  
 بالشرك والكفر والعدا .

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي  
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ  
أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى  
غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول  
الشدائد.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَتَابُكًا﴾ أي : خسار ودمار ، بالضد عما خطر ببالهم .  
﴿١٠٢﴾ ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي : يقصمهم بالعذاب ويبيدhem ، ولا يتفهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء .  
﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من أخذه

وَيَقُولُ لَا يُحِبُّكُمْ شَقَاؤُكُمْ أَن يُصِيبَكُمْ مَثَلُ مَا صَابَ  
قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمُ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ بِكُمْ  
يَعْلَمُونَ ٥ وَأَسْتَعِزُّ وَأُرِيكُمْ كَيْدَهُ ثُمَّ إِنِّي يَأْتُوكَ لَبِ  
يْئًا وَيَقُولُوا هُوَ مَرْسَلٌ مِّنَّا فَخُذْ كِتَابَ الْإِنشَادِ  
وَلَا تَزِرُكُ فَتَأْخُذَ ۖ وَلَوْ أَن رَّحِمْتُكَ لَرَجَمْتُكَ وَ مَا أَنتَ  
عَلَيْكَ بِعَزِيزٍ ٦ قَالَ يَقُولُونَ كُلِّ بَلْ إِنَّمَا جِئْتُم بِكُمْ  
مِّنَ اللَّهِ وَآتَيْنَاكُمْ وَرَآءَ كُلِّ مَن ظَهَرَ يَأْتِيكُم مِّنَ اللَّهِ  
يَجْزِي ٧ وَيَقُولُوا مَعْزِلُكُمْ عَلَىٰ كُنُوزِكُمْ أَنِي عَمِلْتُ  
مُوقِفًا مُّصُونًا مِّن بَيْنَتِهِ عَذَابٌ مُّجْتَرِبٌ وَمَن هُوَ كَاتِبٌ  
وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَعْزِلِكُمْ رِيبٌ ٨ وَلَئِن جَاءَ أَمْرُنَا بِشِئْسَةٍ  
شُعِيبًا وَلِزَيْنَ أَمْثُلِهِمْ لَيَرْجِعُنَّ وَإِن كُنَّا مُتَعَدِّينَ  
ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ ٩  
كَأَن يَخْتَفِرُوا فِي آيَاتِنَا أَن بَدَأَ الْبَدَأَ كَمَا بَدَأَ تَمُودُ ١٠  
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ١١ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ  
وَمَلَائِكَةٍ فَأَتْبَعُوا قَوْمَهُ فَتَبَعْتَهُمْ فَصَبَّوهُم بِرِسْدٍ ١٢

تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ \* كَبُرَ مَقْتًا  
عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٥٠﴾

ومنها: أن وظيفة الرسل وسمتهم وملتهم، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، ويدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها  
أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم  
الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لموليه ومسيديه، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وما توفiqي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

ومنها: التهريب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

(۱) فی ب: آورد الآیات إلى قوله تعالى: ﴿وما زادوهم غیر ثیب﴾.

للظالمين بأنواع العقوبات، ﴿لَا يَهِيمُ لَكَ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: لعبارة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الأخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين، ﴿وَمَا نُوَخِّرُهُ﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحيثما ينقلهم إلى الدار الآخرة، ويمجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ حتى الأنبياء والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: الخلق ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فالأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله وعصوا أمره، والسعداء هم: المؤمنون المتقون.

﴿وَأَمَّا جَزَاؤُهُمْ﴾ فأما الذين شقوا أي: حصلت لهم الشقاوة والخزي والفضيحة، ﴿فَفِي النَّارِ﴾ منغمسون في عذابها، مشتد عليهم عقابها، ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار التي هذا عذابها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

(١) في ب: لا بد أن يقضي الله بينهم.

﴿إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز، ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ﴾ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

﴿١٠٩﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نصيبهم غير منقوص ﴿يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾.

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء محتج بها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نصيبهم غير منقوص ﴿أَي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو راق في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

﴿١١٠-١١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْنَا بَيْنَهُمْ وَلَهُمْ لَنُفِي

بِقَدَمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسْأَلُونَكَ الْمُرُودَ ﴿١١٠﴾ وَأَنْتَ عَافٍ عَنْهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَسْأَلُونَكَ الرِّقْدَ الْمُرُودَ ﴿١١١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَصَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٢﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمْ تَأْتِ بِهَا بَرَكَةٌ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا بُعْثًا وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا تُؤْمِرُ بِهِ إِلَّا لِلْأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١١٥﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ سَقْوًا إِلَّا بِأُذُنٍ مِمَّنْ شَاءَ سَمِعَ ﴿١١٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ ﴿١١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ فَقَالَ لِمَا يَرِيدُ ﴿١١٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ ﴿١١٩﴾

شك منه مريب \* وإن كلا لما ليو فينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خير \* فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير \* ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون \* يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لَقَضَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك منه مريب.

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وإن كلا لما ليو فينهم ربك أعمالهم﴾ أي: لا بد أن الله يقضي بينهم <sup>(١)</sup> يوم القيامة بحكمه العدل فيجاري كلا بما يستحقه.



﴿إنه بما يعملون﴾ من خير وشر  
﴿خبير﴾ فلا يخفى عليه شيء من  
أعمالهم دقيقها وجليلها.

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي  
أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه  
محمدًا ﷺ ومن معه من المؤمنين أن  
يستقيموا كما أمروا، فيسلوكوا ما  
شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما  
أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا  
يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة،  
ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن  
يتجاوزوا ما حده الله لهم من  
الاستقامة.

وقوله: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾  
أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء،  
وسيجازيكم عليها، ففيه ترغيب  
لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها،  
ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى  
الاستقامة فقال: ﴿ولا تركبوا﴾ أي:  
لا تميلوا إلى الذين ظلموا، فإنكم إذا  
ملتكم إليهم وافقتموهم على ظلمهم، أو  
رضيتهم ما هم عليه من الظلم  
﴿فتمسككم النار﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وما  
لكم من دون الله من أولياء﴾ يمنعونكم  
من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً  
من ثواب الله.

﴿ثم لا تنصرون﴾ أي: لا يدفع  
عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه  
الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم،  
والمراد بالركون الميل والانضمام إليه  
بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما  
هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى  
الظلمة، فكيف حال الظلمة  
بأنفسهم؟! نسال الله العافية من  
الظلم.

﴿١١٤ - ١١٥﴾ ﴿واقم الصلاة﴾  
طرفي النهار وزلفاً من الليل إن  
الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى  
للمذاكرين \* واصبر فإن الله لا يضيع  
أجر المحسنين ﴿يا أمر تعالى بإقامة  
الصلاة كاملة﴾ طرفي النهار ﴿أي:

أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة  
الفجر، وصلاتا الظهر والعصر،  
﴿وزلفاً من الليل﴾ ويدخل في ذلك  
صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك  
قيام الليل، فإنها مما تزلف العبد وتقربه  
إلى الله تعالى.

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾  
أي: فهذه الصلوات الخمس، وما  
ألحق بها من التطوعات من أكبر  
الحسنات، وهي: مع أنها حسنات  
تقرب إلى الله وتوجب الثواب، فإنها  
تذهب السيئات وتمحوها، والمراد  
بذلك الصغائر، كما قيدها الأحاديث  
الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:  
«الصلوات الخمس، والجمعة إلى  
الجمعة، ورمضان إلى رمضان،  
مكفرات لما بينهن ما اجتنب الكبائر»،  
بل كما قيدها الآية التي في سورة  
النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا  
كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم  
وندخلكم مدخلاً كريماً﴾.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من  
لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم  
وعدم مجاوزته وتعبديه، وعدم الركون  
إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة

الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن  
السيئات، الجميع ﴿ذكرى للمذاكرين﴾  
يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم،  
ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة  
للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات،  
ولكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة  
النفس والصبر عليها، ولهذا قال:  
﴿واصبر﴾ أي: احبس نفسك على  
طاعة الله، وعن معصيته، وإلزامها  
لذلك، واستمر ولا تضجر.

﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾  
بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي  
عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما  
كانوا يعملون، وفي هذا ترغيب عظيم  
للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة  
إلى ثواب الله كلما ونت وقرت.

﴿١١٦﴾ ﴿فلولا كان من القرون  
من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد  
في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم  
واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا  
مجرمين﴾ لما ذكر تعالى إهلاك الأمم  
المكذبة للرسول، وأن أكثرهم  
منحرفون، حتى أهل الكتب الإلهية  
وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب  
والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل  
في القرون الماضية بقايا من أهل الخير  
يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد  
والردى، فحصل من نفعهم ما بقيت به  
الأديان، ولكنهم قليلون جداً.

وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم  
المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من  
دينهم، ويكون حجة الله أجراها على  
أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى  
من حي عن بينة<sup>(١)</sup>.

﴿و﴾ لكن ﴿اتباع الذين ظلموا ما  
أترفوا فيه﴾ أي: اتبعوا ما هم فيه من  
التعيم والترف، ولم يغيروا به بدلاً.

﴿وكانوا مجرمين﴾ أي: ظالمين  
باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق  
عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب.  
وفي هذا حث لهذه الأمة أن يكون

(١) جاء في هامش ما نصه: (والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى الذي ذكر هنا، وهو أن هذا بمعنى النفي، أي: إنه لم يكن في  
القرون السالفة أو لوبقية... الخ، ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ أي: لكن بقي قليل بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي  
ذكرنا لكن ما ذكرنا في الأصل...) ثم لم يتضح باقي الكلام لإصابته بالبلل، وهو يسير.

فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إماماً في الدين، إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿أي:

وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرزون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ولولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وثمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموضلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿إلا من رحم ربك﴾ فهذاهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهؤلاء سبق لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم مخذولون موكلون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله،

والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿و﴾ لأنه ﴿ثمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿١٢٠-١٢٣﴾ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين \* وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون \* وانتظروا إنا منتظرون \* والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

﴿وجاءك في هذه﴾ السورة ﴿الحق﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بعدما قامت عليهم الآيات، ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: حالتكم التي أنتم

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وثمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون﴾ ﴿وانظروا إنا منتظرون﴾ ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الرَّبِّكَ إِنَّا ذُكِّرْتُكَ أَنْتَ الْيَقِينُ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ تَحْمِلُ نَفْسُكَ إِلَيْنَ أَهْجًا  
الْقَصَصُ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لِنَاقِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

٢٣٥

عليها ﴿إنا عاملون﴾ على ما كنا عليه ﴿وانظروا﴾ ما يحل بنا ﴿إنا منتظرون﴾ ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد وسلم

[وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت

في ٢١ من شهر

ربيع الآخر ١٣٤٧هـ]

المجلد الرابع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرب المنان لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين





إخونك فيكيدوا لك كيداً ﴿١٠﴾ أي: حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

﴿٧-٩﴾ ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ يقول تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات﴾ أي: عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿للسائلين﴾ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبيانات.

﴿إذ قالوا﴾ فيما بينهم: ﴿ليوسف وأخوه﴾ بنيامين، أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة، ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أي: جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة، ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي: لفي خطأ بين، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها.

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي: يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم، ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي: من بعد هذا الصنيع ﴿قوماً صالحين﴾ أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهلاً لفعله، وإزالة لشأنه، وتشتيتاً من بعضهم لبعض.

﴿١٠﴾ ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾ أي: ﴿قال قائل﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبيعيده: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبيعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبيعيده بأن تلقوه ﴿في غيابة الجب﴾ وتتعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك أبق منكم، لأجل أن يلتقطه بعض السيارة الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحتفظون فيه.

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأي.

﴿١١-١٤﴾ ﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون﴾ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴿أي: قال إخوة يوسف، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون﴾ أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا موجب؟ ﴿والحال﴾ إننا له لناصحون ﴿أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا:

﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ أي: يتنزه في البرية ويستأنس، ﴿وإننا له لحافظون﴾ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده.

فأجابهم بقوله: ﴿إني ليحزنني أن

فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيبت الجب وأوحينا إليهم لتنتههم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴿١٥﴾ وقالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستقي وتركنا يوسف عند متعلنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴿١٦﴾ وجاء وعلم قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴿١٧﴾ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال ليبري هذا غلغلة وأسروه بضعة والله عليكم بما يحلون ﴿١٨﴾ وسروه بمن يحسن درهمه معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴿١٩﴾ وقال الذي أشد به من قهر لا تملأوا أكفكم من ثوبه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله عالم على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٢٠﴾ ولما بلغ أشده وأتته حكماً وعلماً وكذلك تجري الحيسين ﴿٢١﴾

تذهبوا به ﴿أي: مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة بسيرة، فهذا مانع من إرساله﴾ ﴿و﴾ مانع ثان، وهو أني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴿أي: في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.

﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي: جماعة، حريصون على حفظه، ﴿إننا إذا لخاسرون﴾ أي: لا خير فينا ولا نفع يرجي منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿١٥-١٨﴾ ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليهم لتنتههم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ وجاءوا أباهم عشاء بكون ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستقي وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴿أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في

منهم، فاشترؤهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿٢١﴾ وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٢٢﴾ أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا﴾ أي: إما ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴿٢٣﴾ أي: كما يسرنا أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق.

﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعليمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، ﴿والله غالب على أمره﴾ أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿٢٢﴾ ولما بلغ أشده آتيته حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴿٢٣﴾ أي: ﴿لما بلغ﴾ يوسف ﴿أشده﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة، ﴿آتيته حكماً وعلماً﴾ أي: جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً، ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم

أبوهم بذلك، و ﴿قال﴾: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال لومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ﴿٢٤﴾ ما دلّه على ما قال.

﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً، سالماً من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعدهم من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفي.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴿٢١﴾ أي: مكث يوسف في الحب ما مكث، حتى جاءت سيارة ﴿٢٢﴾ أي: قافلة تريد مصر، فأرسلوا واردهم ﴿٢٣﴾ أي: فرطهم ومقدمهم، الذي يعس لهم المياه، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، ﴿فأدلى﴾ ذلك الوارد ﴿دلوه﴾ فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، وأسروه بضاعة ﴿٢٤﴾ وكان إخوته قريباً منه، فاشتراه السيارة منهم، ﴿بثمن بخس﴾ أي: قليل جداً، فسره بقوله: ﴿دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾.

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يسروا أمراً، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق

وَرَدَّتْهُ إِلَى هُوفٍ بَيْنَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَوَّلَى وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِنَّ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ رَأَى كَيْدَ لَيْسَ عَنْهُ الشُّوْءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْخَاصِينَ ﴿٢٦﴾ وَأَسْبَقَ إِلَيْهَا وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيْدَهَا لِدَا الْيَاقُوتِ قَالَتْ مَاجِرَةٌ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ تُسَجِّنَ أَوْ تُعَذِّبَ أَلَيْسَ قَالَ هِيَ زَوْجَتِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدَيْنِ أَهْلِيهَا إِنْ كَانَ قَيْصُكُمْ فَذَرْنِي قُلِي فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ كَانَ قَيْصُكُمْ فَذَرْنِي قُلِي وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ قَدَرْتُهُ قَالَ اللَّهُ مِنْ كَيْدِكِنَّ إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ ﴿٢٩﴾ يُوسُفُ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ لَدُنْكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ يَسُوْفُ وَاللَّيْلِ يَوْمَ آتَاكَ الْمَرْيَمُ زَوْجَتَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣١﴾

الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة، ﴿لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾ ليكون إتيانهم متأخراً عن عادتهم، وبكاؤهم دليلاً لهم، وقريئة على صدقهم، فقالوا - متعذرين <sup>(١)</sup> - بغير كاذب -، ﴿يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ توفيراً له وراحة، ﴿فأكله الذئب﴾ في حال غيبتنا عنه في استباقنا، ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمنعا أن نتعذر بالعذر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم، ﴿و﴾ مما أكدوا به قولهم، أنهم ﴿جاؤوا على قميصه بدم كذب﴾ زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم

(١) في ب: عدلت إلى (متعذرين).

(٢) زيادة من هامش: ب.

علماً نافعاً.

ودل هذا، على أن يوسف وفى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكيم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة.

﴿٢٣ - ٢٩﴾ «ورأودته التي هو

في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي

أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون \*

ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء

والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين \*

واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر

وألфия سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو

عذاب أليم \* قال هي روادتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان

قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين \*

وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين \* فلما رأى

قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم \* يوسف أعرض

عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين \* هذه المخنة العظيمة

أعظم على يوسف من مخنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر

اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها،

وأما مخنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره

التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو

كارهاً، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز،

وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن «رأودته التي هو في

بيتها عن نفسه \* أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر

إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر.

﴿٣٠﴾ زادت المصيبة، بأن «غلقت

الأبواب» وصار المحل خالياً، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب

تغليق الأبواب، وقد دعت إلى نفسها «وقالت: هيت لك \* أي: افعل الأمر

المكروه وأقبل إلي، ومع هذا، فهو

غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير

تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو

شاب عذب، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب

الأيام.

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها همّاً تركه الله، وقدم مراد الله على مراد

النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم

والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد

والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و «قال: معاذ الله \* أي: أعوذ بالله

أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في

حق سيدي الذي أكرم مثواي.

فلا يليق بي أن أقبله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم

لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق

سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه،

وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه

امتنال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه

السوء والفحشاء، لأنه من عباد المخلصين له في عباداتهم، الذين

أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم،

وصرف عنهم من المكروه ما كانوا به من خيار خلقه.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها

ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرته إليه،

وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألфия

سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى

الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: «ما جزاء من أراد

بأهلك سوءاً \* ولم تقل «من فعل

بأهلك سوءاً» تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل.

وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة، «إلا أن يسجن أو عذاب أليم \* أي:

أو يعذب عذاباً أليماً.

فبرأ نفسه بما رمت به، وقال: «هي روادتني عن نفسي» فحيثئذ احتملت

الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما.

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه،

قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة

الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف عليه السلام، فانبثت شاهد من

أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: «إن كان

قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين \* لأن ذلك يدل على أنه هو

المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه

من هذا الجانب.

«وإن كان قميصه قد من دبر، فكذبت وهو من الصادقين \* لأن ذلك

يدل على هزوبية منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب،

«فلما رأى قميصه قد من دبر» عرف بذلك صدق يوسف وبرأته، وأنها هي

الكاذبة.

فقال لها سيدها: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم \* وهل أعظم من هذا

الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف

عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: «يوسف أعرض

عن هذا \* أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلياً للستر على

أهله، «واستغفري» آيتها المرأة «لذنبك إنك كنت من الخاطئين» فأمر

يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

﴿٣٥ - ٣٠﴾ وقال نسوة في

المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه

قد شغفها حباً إننا لرأها في ضلال

مبين \* فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم \* قالت فذلكن الذي لحتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين \* قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين \* فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم \* ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين \* يعني : أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها، ويقلن : «امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حياً» أي : هذا أمر مستقيم، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً.

«قد شغفها حياً» أي : وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسوداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب، «إنا لنراها في ضلال مبين» حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكرراً، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدرح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحقق امرأة العزيز، وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكرراً، فقال : «فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن» تدعوهم إلى منزلها للضيافة.

«وأعتدت لهن متكأ» أي : محلاً مهيباً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المأكلى اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرتة في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، «وأتت كل واحدة منهن سكيناً» ليقطعن فيها ذلك الطعام

«وقالت» ليوسف : «اخرج عليهن» في حالة جماله وبهائه.

«فلما رأيته أكبرنه» أي : أعظمته في صدورهن، ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، «وقطعن» من الدهش «أيديهن» بتلك السكاكين اللاتي معهن، «وقلن : حاش لله» أي : تنزيهاً لله «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم» وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة : «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» أي : امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً.

ولهذا قالت له بحضرتين : «ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين» لتلجته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و «قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه» وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكندنه في ذلك.

فاستخب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، «ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن» أي : أمل إليهن، فإنني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني السوء، «وأكن» إن صبوت إليهن «من الجاهلين» فإن هذا جهل، لأنه أثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعة في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه !؟ فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

«فاستجاب له ربه» حين دعاه «فصرف عنه كيدهن» فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أيسها، وصرف الله عنه كيدها، «إنه هو السميع» لدعاء الداعي «العليم» بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياؤه فإنه لما اشتهر الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح.

«بدا لهم» أي : ظهر لهم «من بعد ما رأوا الآيات» الدالة على براءته، «ليسجننه حتى حين» أي : لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عذمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

٣٦ - ٤٠ «ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خمراً وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين \* قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربّي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون \* واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون \* يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار \* ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» أي : «وما دخل يوسف السجن، كان في جملة من دخل معه السجن فتيان» أي : شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصصها على يوسف ليعبرها، ف «قال أحدهما : إني أراي أعصر خمراً، وقال الآخر : إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً» وذلك الخبر «تأكل الطير منه





تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجاء، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتماً لها غاية، فعبرها يوسف - وقعت عندهم موقعاً عظيماً، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفياه وأوليائه، وقال الذي نجا منهما أي: من الفتيين، وهو: الذي رأى أنه يعصر خيراً، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيلاً بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين، فقال: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها.

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أَقْتْنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ وَسَبْعِ سَنَابِلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرٍ يَابَسَاتٍ لِّعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهتمهم.

يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلِّي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون \* قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون \* ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون \* ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون \* لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

وذلك أنه رأى رؤيا حالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي: منهم وقال: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عَجَافٌ﴾ أي: سبع من البقرات السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كُنَّ نهاية في القوة.

﴿وَرَأَيْتُ سَبْعَ سَنَابِلَاتٍ خُضْرٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ سَنَابِلَاتٍ﴾ أي: سبع سنبلات خضر، ﴿يَابَسَاتٍ﴾ أي: يابسا، ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد، ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فتعبروا، ولم يعرفوا لها وجهاً. و ﴿قَالُوا: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، [بما ليس بعذر] <sup>(١)</sup> ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإننا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم

وَاتَّبَعَتْ مَلَّةَ أَلْبَاءِ عِزْرِهَا وَأَسْحَىٰ وَتَقَوَّبَ مَا كَانَ لَهَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ يَصْحَوِ الْيَسْجَىٰ أَرْسَابًا مُّتَعَرِّفَاتٍ سَبَّحُوا لِلَّهِ الْفَجْرَ ﴿٤٦﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ تَكْفُرْ إِلَّا بِأَمْرٍ أَلَعَدُّوا إِلَّا بِآيَاتِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْقِيَمَةِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ يَصْحَوِ الْيَسْجَىٰ أَرْسَابًا مُّتَعَرِّفَاتٍ سَبَّحُوا لِلَّهِ الْفَجْرَ ﴿٤٨﴾ فَسَبِّحْ رَبَّكَ حَمْدًا وَلَمَّا الْأَخْرَافُ فَصْلَحْ فَتَكُنْ لِلظَّالِمِينَ مِنَ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْ فِي عَذْرِكَ قَائِلَهُ الشَّيْطَانُ وَكَرَّ رُجُوعَهُ فَبَلَغَ فِي الْيَسْجَىٰ بَضْعَ سَنِينَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عَجَافٌ وَسَبْعَ سَنَابِلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرٍ يَابَسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٥١﴾

ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين أي: ﴿وقال﴾ يوسف عليه السلام: ﴿للذي ظن أنه ناج منهما﴾ وهو: الذي رأى أنه يعصر خيراً: ﴿اذكرني عند ربك﴾ أي: اذكر له شأني وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بآتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه.

﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سبباً، كان سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك:

﴿٤٣ - ٤٩﴾ ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤيائي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين \* وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون \* يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

فعبر يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضراء، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحارث منبياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك. وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجذب فقال: ﴿تزرعون سبع سنين دأباً﴾ أي: متتابعات.

﴿فما حصدم﴾ من تلك الزروع ﴿فذرهم﴾ أي: اتركوه ﴿ففي سنبله﴾ لأنه أبقى له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أي: دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿سبع شداد﴾ أي: مجذبات جداً ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهن.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير<sup>(١)</sup> بالسبع

الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿٥٠ - ٥٧﴾ وقال الملك اثتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم \* قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش الله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين \* ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين \* وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم \* وقال الملك اثتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين \* قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم \* وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين \* ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون \* يقول تعالى: ﴿وقال الملك﴾ لمن عنده ﴿اثتوني به﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضروه إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

ف ﴿قال﴾ للرسول: ﴿ارجع إلى ربك﴾ يعني به الملك، ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ فأحضرهن الملك، وقال: ﴿ما خطبكن﴾ أي: شأنكن ﴿إذ راودتن

يوسف عن نفسه﴾ فهل رأيتم منه ما يريب؟

فبرأته و ﴿قلن حاش الله ما علمنا عليه من سوء﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، فـ ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ أي: تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من سوء والتهمة، ما أوجب له السجن<sup>(٢)</sup>. أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين في أقواله وبرأته، ﴿ذلك﴾ الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف، ﴿ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾.

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر مني إلا مجرد المزاودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني، ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيائته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿وما أبرئ نفسي﴾ أي: من المزاودة والهيم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إلا ما رحم ربي﴾ فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، متقادة لداعي الهدى، متعاضية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبد.

﴿إن ربي غفور رحيم﴾ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿رحيم﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في

(٢) كذا في ب وفي أ: لسجن يوسف.

(١) في ب: التعبير.

السجن لم يحضر.

فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك وقال: «أتتوني به أستخلصه لنفسي» أي: أجعله خصيصة لي ومقرباً لدي فأتوه به مكرماً محترماً، «فلما كلمه» أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فقال له: «إنك اليوم لدينا» أي: عندنا «مكن أمين» أي: متمكن، أنين على الأسرار، ف «قال» يوسف طلباً للمصلحة العامة: «اجعلني على خزائن الأرض» أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالها، وكيلاً حافظاً مديراً.

«إني حفيظ عليم» أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه.

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها، قال تعالى: «وكذلك» أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، «مكننا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء» في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاء عريض، «نصيب برحمتنا من نشاء» أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا.

«ولا نضيع أجر المحسنين» ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: «ولأجر الآخرة خير» من أجر الدنيا «للمؤمنين آمنوا وكانوا يتقون» أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال

الجوارح، من الواجبات والمستحبات.

«٥٨ - ٦٨» وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون \* ولما جهّزهم بجهازهم قال إئتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين \* فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون \* قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون \* وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون \* فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون \* قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فإله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين \* ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير \* قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل \* وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكمل التوكلون \* ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* أي: لما تولي يوسف عليه السلام خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً وحفظه، وضبطه ضبطاً تاماً، فلما دخلت السنون المجدية، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر، «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون» أي: لم يعرفوه.

«ولما جهّزهم بجهازهم» أي: كال

لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه، وهو بنيامين.

ف «قال» لهم: «أتتوني بأخ لكم من أبيكم» ثم رغبهم في الإتيان به فقال: «ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين» في الضيافة والإكرام. ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال: «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» وذلك لعلهم باضطرابهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

ف «قالوا» سنراود عنه أباه «دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه، وكان يتسلل به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم «وإنا لفاعلون» لما أمرتنا به.

«وقال» يوسف «لفتياناه» الذين في خدمته: «اجعلوا بضاعتهم» أي: الثمن الذي اشتروا به من الميرة.

«في رحالهم لعلهم يعرفونها» أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم، «لعلهم يرجعون» لأجل التخرج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يسأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

«فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا منع منا الكيل» أي: إن لم ترسل معنا أخانا، «فأرسل معنا أخانا نكتل» أي: ليكون ذلك سبباً لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: «وإنا له لحافظون» من أن يعرض له ما يكره، «قال» لهم يعقوب عليه السلام: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل» أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق

بالله تعالى .

﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم، ثم إنهم ﴿لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قالوا﴾ لأبيهم - ترغيباً في إرسال أخيه معهم -: ﴿يا أبانا ما نبغى﴾ أي: أي: شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفق لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟

﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخيها صار سبباً لكيله لنا، فمرنا<sup>(١)</sup> أهلنا، وأتينا<sup>(٢)</sup> لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، ونحفظ أختانا ونزدداد كيل بغير إرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حل بغير، ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

ف ﴿قال﴾ لهم يعقوب: ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ أي: عهداً ثقيلاً، وتحلفون بالله ﴿لنأتني به إلا أن يحاط بكم﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرון دفعه، ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ على ما قال وأراد ﴿قال﴾ الله على ما نقول وكيل ﴿أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفائه، ثم لما أرسله معهم وصاهم إذا هم قدموا مصر، أن لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء<sup>(٣)</sup> رجل واحد، وهذا سبب.

﴿و﴾ إلا ف ﴿ما أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالقدر لا بد أن يكون، ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: القضاء

قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاؤه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿ولما ذهبوا و دخلوا من حيث أمرهم أبوه﴾ ما كان ذلك الفعل يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وإنه لذو علم﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لما علمناه﴾ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

﴿٦٩-٧٩﴾ ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قالوا تفقد صواع الملك ولن جاء به حمل بغير وأنا به زعيم ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم

قالوا أشعركم أخلك وما نحن بتارويل الأنكلهم يعلمون ﴿وقال الذي تجاوبه وأدكر بعد أمه أنا أنيتك تارويله قاريلون ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابس لعلنا أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴿قال ترزقون سبع سنين دأباً فما حصدم قد رزق في سنبل ولا قليلاً من ثأنا كعون ﴿ترزقون بعد ذلك سبع شذاً دأباً كل ما قد شتم من إلا قليلاً من ثأنا كعون ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه تأت الناس وفيه يصررون ﴿وقال الملك أنزل يوسف وأمره فأجاباه الرسول قال أرجع إلى ربك فتقوله ما بال النسوة التي قطعن أزيهن إن ربك يبيد عيولهن عليم ﴿قال ما خطبك إذ رزق يوسف عن نفسه قلب حسن لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز أني حصصت الحق أنارؤدته عن نفسي والله لئن فرقت لكانت لأحد منكم لئلا يراخه بالغيث وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴿

بيدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون﴾ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي: شقيقه وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به [و] ضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال﴾ إني أنا أخوك فلا تبتئس ﴿أي: لا تحزن﴾ بما كانوا يعملون ﴿فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

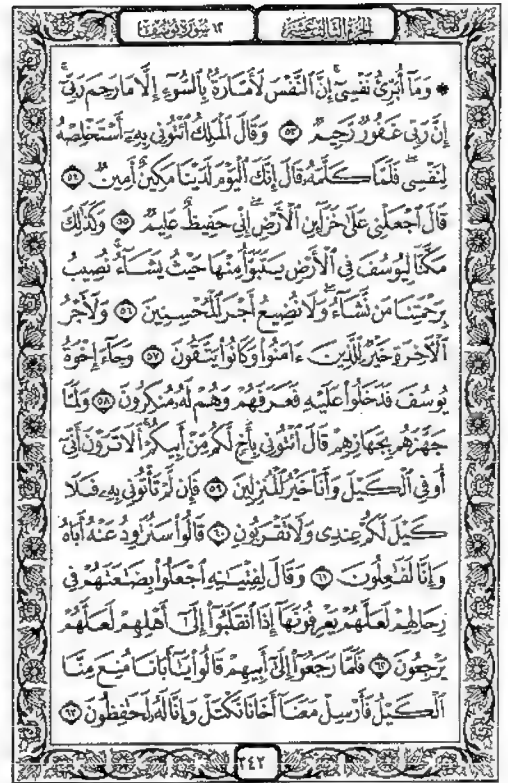
﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾ أي: كان لكل واحد من إخوته، ومن جهتهم أخوه هذا، ﴿جعل السقاية وهو: الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه﴾ في رحل أخيه ثم أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين، ﴿أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قالوا﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وأقبلوا عليهم﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم لهم سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا

(٣) كذا في ب، وفي أ: ابن.

(٢) في ب: ونأتي.

(١) في ب: فتمير.





إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ماذا تفقدون﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة، ﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي: أجرة له على وجدانه ﴿وأننا به زعيم﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنا سارقين﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبوا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قالوا فما جزاؤه﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إن كنتم كاذبين﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جزاؤه﴾ بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿فبدأ﴾ المفتش ﴿بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ وذلك لتزول الريبة التي

يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿استخرجها من وعاء أخيه﴾ ولم يقل «وجدناها» أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحيث تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ما كان لياخذ أخاه في دين الملك﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلوردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليطم له ما أراد.

قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قالوا إن يسرق﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه، ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا.

وفي هذا من الغضب عليهما ما فيه، ولهذا: أسرها يوسف في نفسه ﴿ولم يبدها لهم﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسر الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه ﴿أنتم شر مكاناً﴾ حيث ذمتمونا بما أنتم على أشرف منه، ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أننا براء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.

ف ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً﴾ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ إننا نراك من المحسنين ﴿فأحسن إلينا﴾ وإلى أبينا بذلك، ف ﴿قال﴾ يوسف ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من

وجدنا متاعنا عنده﴾ أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنوب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، ﴿إننا إذا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿لظالمون﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾ قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾ وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴿قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ إنه هو العليم الحكيم ﴿أي﴾ فلما استياس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم ﴿خلصوا نجياً﴾ أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ف ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفرطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي﴾ أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ أي: وأخذ بسرقة، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله، ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في



فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رُق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

﴿٨٩ - ٩٢﴾ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون \* قالوا إنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين \* قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين \* قال لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين \* قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه \* أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: \* إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل \* أو أن الحادث الذي فرق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له، \* إذ أنتم جاهلون \* وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرّفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: \* إنك لانت يوسف؟ قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا \* بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، \* إنه من يتق ويصبر \* أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها \* فإن الله لا يضيع أجر المحسنين \* فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فأثرك الله تعالى ومكنك مما تريد \* وإن كنا لخاطئين \* وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف \* قال \* لهم يوسف عليه السلام، كرمًا وجودًا:

أحوالك، \* حتى تكون حرصاً \* أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً، \* قال \* يعقوب \* إنما أشكو بثي \* أي: ما أثبت من الكلام \* وحزني \* الذي في قلبي \* إلى الله \* وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم \* وأعلم من الله ما لا تعلمون \* من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون \* فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين \* أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: \* يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه \* أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما \* ولا تيأسوا من روح الله \* فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاء، والإيأس: يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، \* إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون \* فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وزوجه، فذهبوا \* فلما دخلوا عليه \* أي: على يوسف \* قالوا \* متضرعين إليه: \* يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا \* أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا \* وجئنا ببضاعة مزجاة \* أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع، \* فأوف لنا الكيل \* أي: مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. \* إن الله يجزي المتصدقين \* بثواب الدنيا والآخرة.

ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا وموathقتنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، \* واسأل \* إن شككت في قولنا \* القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها \* فقد اطلعوا على ما أخبرناك به \* وإنا لصادقون \* لم نكذب ولم نغیر ولم نبذل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمدّه، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و \* قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل \* أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت فقال: \* عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً \* أي: يوسف و «بنيامين»، وأخوهما الكبير الذي أقام في مصر.

﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفريجه ومثنته، واضطراري إلى إحسانه، \* الحكيم \* الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم \* قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرصاً أو تكون من الهالكين \* قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون \* أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمند الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

﴿فهو كظيم﴾ أي: ممتلىء القلب من الحزن الشديد، \* وقال يا أسفى على يوسف \* أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى، فقال له أولاده متعجبين من حاله: \* تالله تفتأ تذكر يوسف \* أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع

﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ أي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿٩٣ - ٩٨﴾ ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ ولما فصلت العير قال أبوه ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويحول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

﴿ولما فصلت العير﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شَمَّ يعقوب ريح القميص، فقال: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنه بهم فقالوا:

﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي: لا تزال تائهاً في بحر الحب لا تدري ما تقول.

﴿فلما أن جاء البشير﴾ بقرع الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿ألقاه﴾ أي: القميص ﴿على وجهه فارتد بصيراً﴾ أي: رجع على حاله الأول بصيراً، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه، ويتعجبون منه منتصراً عليهم، متبجحاً بنعمة الله عليه: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ حيث كنت مترجياً للقاء يوسف، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن.

﴿فأقروا بذنوبهم ونجعوا بذلك﴾ و ﴿قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ف ﴿قال﴾ مجيباً لطلبهم، ومسرعاً لإجابتهم: ﴿سوف أستغفر لكم ربي، إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ أي: ﴿فلما﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنها، فلما وصلوا إليه، و ﴿دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام<sup>(١)</sup> والتبجيل والإعظام شيئاً

عظيماً، ﴿وقال﴾ لجميع أهله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي: على سرير الملك، وجلس العزيز، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي: أبوه، وأمه وإخوته، سجدوا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿وقال﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجدتهم له: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

﴿وقد أحسن بي﴾ إحساناً جسيماً ﴿إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.

﴿فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب﴾، ولا قال: ﴿أحسن بكم﴾ بل قال ﴿أحسن بي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الرهاب، ﴿من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ فلم يقل «نزعت الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، ﴿الحكيم﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه





الأحاديث ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خمرًا، أن الذي يعصر في العادة، يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصبة، والسنين المجذبة، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصالح، وبفساده تفسد، وكذلك البنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقي عليها الماء، وإذا أخصبت السنة سميت، وإذا أجذبت صارت عجافاً، وكذلك السنبال في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً.

يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة، لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تحشى مضرت، لقول يعقوب ليوسف «يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً»

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: «فيكيدوا لك كيداً».

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب» ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وأثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيه.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الخيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبيكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وأثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بتقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَخَذَ الْإِثْمَ وَجَدْنَا مُتَعَانِدِينَ ۖ وَإِنَّا إِذَا لَطَمُوكَ ۖ فَلَمَّا اسْتَيْسَوُا نَفْسَهُ خَلَصُوا بِحَبْلٍ قَالِ كَيْدُهُمْ أَنْ تَقُولُوا لَا نَحْكُمُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُمْ قَوْلًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا قَرِطُمْ فِي يَوْسُفَ فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعَ ۖ حَتَّىٰ يَأْتِيَ إِلَىٰ أَبِيهِ فَيُحْكِمَ اللَّهُ لَهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۖ أَرْجُوا إِلَيَّ أَيْسَرُ قَوْلُهُمْ أَيْتَابًا إِنَّ أَتَكَ سَرَقٌ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِغَيْبِ حَفَظِينَ ۖ وَبَعَثَ الْفَرَسَ الْإِنِّي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمَاقِي قَاتِلَانِي ۖ وَأَنَا لَصَادِقٌ ۖ قَالَ بَلْ سَوَّكُنَا لَكُمُ أَشْهُكُمُ أَمْرًا فَصَبْرٌ حَسْبُ ۖ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۖ وَقَوْلًا عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَيِّدُ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَأَيُّتْ عَيْنَاهُ مِنْ أَمْحُزٍ فَهُوَ كَظِيمٌ ۖ قَالُوا تَأَلَّوْا تَقُولُوا لَكُمُ يَوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۖ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَوَّلَ رُوحَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ

لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: «وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط» وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، وما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتم ذلك بأنه لا يشرب عليهم ولا يعيرهم به.

ثم بره العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً، وقال قائل منهم: «لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب» كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خفف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وضار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه





لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته ببعاً حراماً، لا يجوز، ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراء<sup>(١)</sup>، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهم الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، بما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن «خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى» ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجل دعت امرأة ذات

منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزمياً، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان خلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها - فر هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها، ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تجاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشياء والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة،

وكذلك وجود الرجل يتقياً الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحاكم شاهداً فقال: «وشهد شاهد من أهلها».

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لمتها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم» وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» وقالت بعد ذلك: «الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» وقالت النسوة: «حاش الله ما علمنا عليه من سوء».

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دينية - أن يختار العقوبة الدينية على مراقبة الدتب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد أذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقي في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتسب بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: «والإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلِينَ».

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

(١) كذا في أ، وفي ب: سيداً، ويدبر والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: (وشروه) فسمى الله فعلهم شراء مع كونه

ومنها: أنه كما على العبد عبودية الله في الرخاء، فعليه عبودية في الشدة، فـ «يوسف» عليه السلام لم يزل يدعوا إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقال له: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرأهما متشوفين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهازها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً، أن الذي أوصله إلى الحال التي رآياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وقطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿أذكرني عند ربك﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن

يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحته وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمده على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المراتي داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ وقال الملك: ﴿أفتوني في رؤياي﴾ وقال الفتى ليوسف: ﴿أفتنا في سبع بقرات﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرَ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ يَأْمُرْكُمْ رَبِّي أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا كُنَّا خَاطِلِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ يُسُوفُ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُسُوفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ عَامِلِينَ ﴿٥٢﴾ وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِيبُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا فِيكَ حَافَظًا وَأَخْسَنِ إِذْ أَعْرَضْتَ عَنِ الْعَرْشِ مِنَ الْيَحْيَى وَيَكْرُمُ الْيَهُودُ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْجِعَ الشَّيْطَانُ بِنِيِّ وَيَنْبَغِي لِأَخِي أَنْ يَرْفَعَ لَكَ طَيْفًا مِّنَ الْأَشْيَاءِ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٥٣﴾ قَدْ أَفْتَيْنَاكَ فِي الْمُلْكِ وَكَانَ فِي تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّعَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ الْاَلَمِينَ وَالْآخِرَةُ وَفِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَأَلْحَقْنِي بِالْصَّالِحِينَ ﴿٥٤﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَحْكُمُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ خَرَجْتَ بِسُوءِ مِزَانٍ ﴿٥٦﴾

مصلحة، ولم يقصده العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ وكذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور، ينهي عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملوكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الآخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿ولا أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجبة، وأن هذا غير منافض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله،

ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة «وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم» ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفي بما وعده به، ولا ينافي ذلك، قوله: «إنما أشكو بشي وحزني إلى الله» فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنه ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتي أولياءه بالبشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجده، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: «يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر» ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: «قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى، ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو».

إثم عليه ولا حرج. ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: «يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة».

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن الغلب بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما محمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يجب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: «معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده» ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه<sup>(١)</sup>، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: «وما شهدنا إلا بما علمنا».

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمسة عشر سنة،

وَمَا أَفْتَاهُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجُرٍ إِنَّهُ هُوَ الْوَكِيلُ الْعَالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَكَانَ يَنْتَظِرُ فِي السُّبُورِ وَالْأَرْضِ يَمْشُرُ عَلَيْهَا وَهُوَ عَنْهَا مُعْرِضٌ ﴿٥١﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا دُومًا مُشْرِكُونَ ﴿٥٢﴾ أَفَأَمْرًا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَيِّنَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبِّحَ لِلَّهِ مَا أَنَا مِنَ الشُّرَكِيِّينَ ﴿٥٤﴾ وَمَا أَنَا بِتِلْكَ إِلَّا رَجُلٌ أَوْحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٥﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَيِّنَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبِّحَ لِلَّهِ مَا أَنَا مِنَ الشُّرَكِيِّينَ ﴿٥٦﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا بَاءَتْهُمْ نَصْرُنَا فَنَبِّئْهُمْ مِنْ نَشْرِهِمْ وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَّا إِلَى اللَّهِ فَتُؤْتَى الْقُوَّةَ الْمُجْتَرِبِينَ ﴿٥٧﴾ لَقَدْ كُنَّا فِي قَصْرِ مَعْرُوفٍ إِذْ أُنْزِلَ عَلَيْنَا لَنَذِيرٌ لَكَ كُنَّا فِيهِ كَانَتْ حَوَائِثُ يُفْتَنُ وَاللَّيْلِ نَصْرُهُنَّ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾

ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودينه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته «ألا ترون أنا في الكيل وأنا خير المنزلين».

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده: بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عاجلوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» وقال لهم في الأخ الآخر: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل» ثم لما احتبس يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيههم قال لهم: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفترطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيههم أن قال ما قال، من غير

(١) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلِمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَحْلِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.

فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً متقبلاً، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الرعد، وهي مدنية، وقيل: مكية

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿يَخْبُرُ تَعَالَى أَنْ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ آيَاتُ الْكِتَابِ الدَّالَّةُ عَلَى كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَأَنْ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ مِنْ رَبِّهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، لِأَنْ أَخْبَارَهُ صَدَقَ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَدْلٌ، مُؤَيَّدَةٌ بِالْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ، فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى عِلْمِهِ، كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ، الَّذِي يُوْجِبُ لَهُمْ عِلْمُهُمْ، الْعَمَلُ بِمَا أَحَبَّ اللَّهُ

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً، فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به، لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿٢-٤﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يَدْبُرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ \* وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يفكرون \* وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون \* يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة والسلطان الدال على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ عَلَى عَظَمَتِهَا وَاسْتَوَى بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا﴾ أي: ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد، لرأيتموها، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما خلق السماوات والأرض ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم، ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ بتدبير العزيز العليم، ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ بسير منتظم، لا يفتران ولا ينيان، حتى يجيء الأجل المسمى وهو طي الله هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار، فعند ذلك يطوي الله السماوات، ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها. فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وقوله: ﴿يَدْبُرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيّل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ

الْقُرْآنَ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يَدْبُرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجَاسَاتٍ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَاتٌ مِنْ أُعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صُنَّوَاتٍ وَغَيْرِ صُنَّوَاتٍ يَسْقَى كُلُّهَا مِنْ أَحَدِ نَهْرٍ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿يَخْبُرُ تَعَالَى عَنْ انْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالْعَظَمَةِ وَالسُّلْطَانِ الدَّالُّ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ عَلَى عَظَمَتِهَا وَاسْتَوَى بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا﴾ أَي: لَيْسَ لَهَا عَمَدٌ مِنْ تَحْتِهَا، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا عَمَدٌ، لَرَأَيْتُمُوهَا، ﴿ثُمَّ﴾ بَعْدَ مَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الْمَخْلُوقَاتِ، اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَيُنَاسِبُ كَمَالَهُ.

الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل بيانها وإيضاحها وتمييزها، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية، والآيات القرآنية، ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصاً في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأيضاً فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم عبثاً، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيتهم، فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيهم جزاؤه، فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها، ومهد لها للعباد، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِجَاسَاتٍ﴾ أي: جبالاً عظيماً، لثاميد بالخلق، فإنه لو لا الجبال لما دت بأهلها، لأنها على تيار ماء، لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي جعلها الله أوتاداً لها.



وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالتَّيْنَةِ قُلِ الْحَسَنَةُ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ  
الْأَثْلُكُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ  
لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ  
عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٦﴾  
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَوَّدُ  
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعَقْدَارٍ ﴿٧﴾ عَذَابُ الْعَذِيبِ وَالتَّهْلُوتِ  
الْكَبِيرِ لِلْعَالِ ﴿٨﴾ سَوَاءٌ يَنْصَرُّ عَنْكَ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ  
وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ  
﴿٩﴾ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ دُونِ الَّذِي فِي يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ  
إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَلَا إِذَا  
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ  
﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾  
الْحَسَابُ الْقِتَالُ ﴿١٢﴾ وَيَسْمِعُ الرُّعْدَ بِحَسْبِهِ  
وَاللَّيْلُ كُنْ مِنْ خِفَتِهِ وَيُرْسِلُ الْغَوَّاسَ يُصَيِّبُ  
بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِجَالِ ﴿١٣﴾

﴿٥﴾ جعل فيها «أنهاراً» تسقي  
الآدميين وبهائمهم وحرورهم، فأخرج  
بها من الأشجار والزرور والثمار خيراً  
كثيراً، ولهذا قال: ﴿ومن كل الثمرات  
جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي: صنفين  
ما يحتاج إليه العباد.

﴿٦﴾ يفشي الليل النهار فتظلم  
الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه،  
ويستريحون من التعب والنصب في  
النهار، ثم إذا قضوا ما ربههم من النوم،  
غشى النهار الليل، فإذا هم مصبحون  
منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في  
النهار.

﴿٧﴾ ومن رحمته جعل لكم الليل  
والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله  
ولعلكم تشكرون.

﴿٨﴾ إن في ذلك آيات﴾ على الطالب  
الإلهية ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيها،  
وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن  
الذي خلقها ودبرها وصرفها، هو الله  
الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه،  
وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن  
الرحيم، وأنه القادر على كل شيء،  
الحكيم في كل شيء، المحمود على ما  
خلقه وأمر به تبارك وتعالى.

ومن الآيات على كمال قدرته وبديع  
صنعه، أن جعل ﴿في الأرض قطع  
متجاورات وجنات﴾ فيها أنواع

الأشجار ﴿من أعناب وزرع ونخيل﴾  
وغير ذلك، والنخيل التي بعضها  
﴿صنوان﴾ أي: عدة أشجار في أصل  
واحد، و﴿غير صنوان﴾ بأن كان كل  
شجرة على حدة، والجميع يسقى  
بماء واحد وأرضه واحدة و﴿ونفضل  
بعضها على بعض في الأكل﴾ لونا،  
وطعماً، ونفعاً، ولذة؛ فهذه أرض  
طيبة تنبت الكلاً والغشب الكثير،  
والأشجار والزرور، وهذه أرض  
تلاصقها لا تنبت كلاً ولا تمسك ماء  
وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلاً،  
وهذه تنبت الزرور والأشجار، ولا  
تنبت الكلاً، وهذه الثمرة حلوة، وهذه  
مرة، وهذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟  
أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟  
﴿إن في ذلك آيات لقوم يعقلون﴾  
أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما  
ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم  
ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره  
ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل  
البلاة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي  
غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم  
سبيلاً ولا يعون له قبيلاً.

﴿٥﴾ وإن تعجب فعجب قولهم  
إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك  
الذين كفروا بربههم وأولئك الأغلال في  
أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها  
خالدون﴾ يحتمل أن معنى قوله ﴿وإن  
تعجب﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة  
أدلة توحيده، فإن العجب - مع هذا -  
إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث،  
وقولهم ﴿إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق  
جديد﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع  
بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا تراباً،  
أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم -  
قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق -  
فلما رأوا هذا ممتنعاً في قدرة  
المخلوق، ظنوا أنه ممتنع على قدرة  
الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة  
ولم يكونوا شيئاً.

ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من

قولهم وتكذيبهم للبعث، فإن ذلك من  
العجائب، فإن الذي توضح له  
الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على  
البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم  
ينكر ذلك، فإن قوله من العجائب.

ولكن ذلك لا يستغرب على  
﴿الذين كفروا بربههم﴾ وجحدوا  
وحدانيته، وهي أظهر الأشياء  
وأجلها، ﴿وأولئك الأغلال﴾ المانعة  
لهم من الهدى ﴿في أعناقهم﴾ حيث  
دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض  
عليهم الهدى فلم يهتدوا، فقلبت  
قلوبهم وأفشدهم عقوبة على أنهم لم  
يؤمنوا به أول مرة، ﴿وأولئك أصحاب  
النار هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون  
منها أبداً.

﴿٦﴾ ويستعجلونك بالسيئة قبل  
الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات وإن  
ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن  
ربك لشديد العقاب﴾ يخبر تعالى عن  
جهل المكذبين لرسوله، المشركين به،  
الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت  
عليهم الأدلة فلم ينتقدوا لها، بل  
جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم  
[الله] الواحد القهار عنهم، وعدم  
معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق،  
وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب،  
ويقول قائلهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو  
الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة  
من السماء، أو اثنتا بعذاب أليم﴾.

﴿٧﴾ الحال أنه ﴿قد خلت من  
قبلهم المثلثات﴾ أي: وقائع الله وأيامه  
في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في  
حالهم ويتركون جهلهم، ﴿وإن ربك  
لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي:  
لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره  
وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال  
شرهم<sup>(١)</sup> وعصيانهم إليه صاعداً.

يعصونه فيدعونه إلى بابه،  
ويجرمون، فلا يجرمهم خيره وإحسانه،  
فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، لأنه يحب  
التوابين، ويجب المتطهرين وإن لم يتوبوا  
فهو طبيبتهم، يبتليهم بالنصائب،



ليظهرهم من المعاييب ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم﴾.

﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾ على من لم يزل مصرّاً على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار، فليحذر العباد من عقوباته بأهل الجرائم، فإن أخذه أليم شديد.

﴿٧﴾ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات، التي يعينونها ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ ويجعلون هذا القول منهم، عذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات.

وقد أيدته بالأدلة البينات التي لا تحفى على أولي الأبواب، وبها يهتدي من قصده الحق، وأما الكافر الذي - من ظلمه وجهله - يقترح على الله الآيات، فهذا اقتراح منه باطل وكذب وافتراء<sup>(١)</sup>.

فإنه لو جاءته أي: آية كانت لم يؤمن ولم ينقد، لأنه لم يمتنع من الإيمان، لعدم ما يدل على صحته، وإنما ذلك لهوى نفسه، واتباع شهوته، ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل واتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدل على صحة ما معهم من الهدى.

﴿٨ - ١١﴾ ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال \* سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار \* له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ \* يخبر تعالى بعموم علمه،

وسعة اطلاعه، وإحاطته بكل شيء فقال: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ من بني آدم وغيرهم، ﴿وما تغيض الأرحام﴾ أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضاءل أو يضمحل، ﴿وما تزداد﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها، ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه.

فإنه ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته ﴿المتعال﴾ على جميع خلقه، بذاته وقدره وقهره. ﴿سواء منكم﴾ في علمه وسمعه، وبصره.

﴿من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل﴾ أي: مستقر بمكان خفي فيه، ﴿وسارب بالنهار﴾ أي: داخل سر به في النهار، والسرب هو ما يختفي فيه الإنسان، إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

﴿١١﴾ ﴿له﴾ أي: للإنسان معقبات من الملائكة، يتعاقبون في الليل والنهار.

﴿من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يرئده بسوءه، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تحفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء، ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ بأن يتنقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطربها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها.

وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة، ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً﴾ أي: عذاباً

(١) كذا في ب، وفي أ: وافتراه.

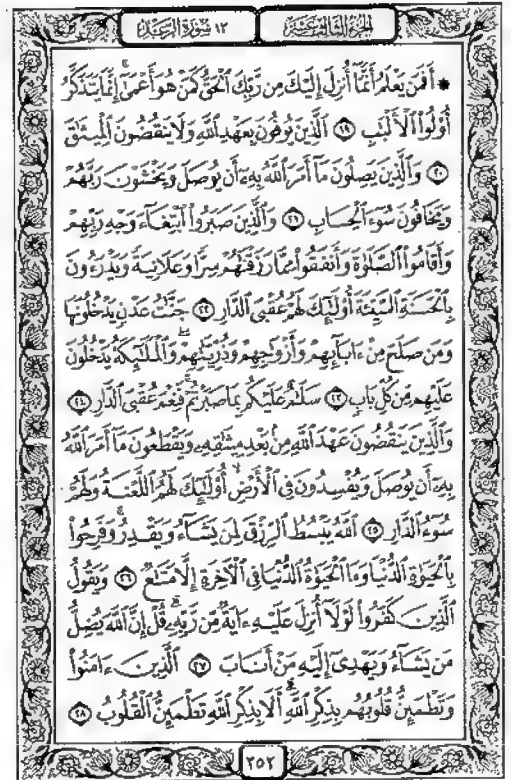
لَمْ دَعَوْهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ لَّهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَيْفَ يَشَاءُ إِلَى الْمَلِكِ لِيَبْلُغَ قَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِيغٍ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥﴾ وَلَهُ يَسْجُدُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظُلُماً لَّهُمْ الْعَذَابُ وَالْأَصَابُ ﴿٦﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَأْتِخَذُونَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْفَ ظَنُّهُمُ تَعْمَافاً لَاحِظاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُوا خَلْقَهُ عَلَيْهِ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الرُّزُّدُ الْقَهَّارُ ﴿٧﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَاباً ثَائِباً وَنَسُوا اللَّهَ فَنَسِوهُ فَاخْلَعَ بَنَاتٍ عَلَيْهِ أَوْ مَسَّحَ زَيْتُونَةً تَلَكَّ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ قَامَا الزَّيْتُدُ فَيَذَرُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٨﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَجْرٌ وَالَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ أَنْ هُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا تَقْدِرُوا بِهِ أُولَئِكَ هُمُ سَوَاءُ الْحِسَابِ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ زُجُجُهُمْ وَمِثْلُهَا ﴿٩﴾

وشدة، وأمرأ يكرهونه، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

﴿ف﴾ إنه ﴿لا مرد له﴾ ولا أحد يمنعهم منه، ﴿وما لهم من دونه من والٍ﴾ يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله، خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقيل﴾ ويستبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾ يقول تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ أي: يخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر، على بعض الثمار ونحوها، ويطمع في خيره ونفعه، ﴿وينشئ السحاب الثقيل﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

﴿ويستبح الرعد بحمده﴾ وهو الصوت، الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد، فهو خاضع لربه مسبح بحمده، ﴿و﴾ تسبح الملائكة من خيفته، أي: خشعاً لربهم، خائفين من سطوته، ﴿ويرسل الصواعق﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب،



الذي لا تناله كفاه لبعده، ﴿ليبلغ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فاه﴾ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه .

كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة، لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة، لأنهم فقراء، كما أن من دعواهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير .

﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم ودعواهم، لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين، كانت عبادته حقاً متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة .

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ .

﴿١٥﴾ ﴿والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طوعاً وكرهاً﴾ فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختياراً كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ .

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد

لربها طوعاً وكرهاً، كان هو الإله حقاً، المعبود المحمود حقاً، وإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿١٦﴾ ﴿قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثاناً وأنداداً يحبونها كما يحبون الله، ويذلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفتأهت عقولكم حتى أخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة، وليسوا بأهل لذلك؟

فإنهم ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضرر؟ فما تستوي عبادة الله وحده، وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور .

فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله، فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس، بالبرهان الدال على توحيد الإله بالوحدانية، فقل لهم: ﴿الله خالق كل شيء﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه .

ومن المحال أيضاً أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلهاً خالقاً لا شريك له في خلقه، لأنه الواحد القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده، فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان، متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر، أن ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة .

﴿فيصيب بها من يشاء﴾ من عباده، بحسب ما شاءه وأراده ﴿وهو شديد المحال﴾ أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يقوته هارب .

فإذا كان هو وحده، الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد، وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ولهذا قال:

﴿١٤﴾ ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: لله وحده ﴿دعوة الحق﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرغبة، والإنابة، لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله .

﴿لا يستجيبون لهم﴾ أي: لمن يدعواها ويعبدها، بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة، ﴿إلا كباسط كفيه إلى الماء﴾

﴿١٧﴾ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يتوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيميكت في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح، بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول، فوإد كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبير يسع علماً كثيراً، وإود صغير يأخذ ماء قليلاً، كقلب صغير، يسع علماً قليلاً، وهكذا.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة.

كذلك الشبهات والشهوات، لا يزال القلب يكرهاها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ وقال هنا: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

﴿١٨﴾ ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب وماوَاهم جهنم وبئس المهاد﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل، ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر

ثوابه، وغير مستجيب، فذكر عقابه فقال: ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم ﴿الحسنى﴾ أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن.

فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال، وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة، ف ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من ذهب وفضة وغيرها، ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾ من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم، وأنى لهم ذلك؟!!

﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ، وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم، وقالوا: ﴿ينا ويلتنا ما لهذا الكتاب﴾ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا جازراً ولا يظلم ربك أحداً ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿وماوَاهم جهنم﴾ الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش الوجيع، والنار الحامية، والزقوم، والزمهرير، والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب، ﴿وبئس المهاد﴾ أي: المقر والسكن مسكنهم.

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويذكرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون

عليهم من كل باب﴾ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴿يقول تعالى: مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ ففهم ذلك وعمل به. ﴿كمن هو أعمى﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به، فبينهما من الفرق، كما بين السماء والأرض، فحقيق بالبعد أن يتذكر ويتفكر، أي الفريقين أحسن حالاً وخير مآلاً، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره.

﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة، الذين هم لب العالم، وصفوة بني آدم، فإن سألت عن وصفهم، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ الذي عهده إليهم، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، والنصح فيها، ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لا ينقضون الميثاق﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله، فدخل في ذلك جميع الموائيق والعهود والأيمان والنذور، التي يعقدها العباد. فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها.

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به ورسوله، ومحبة ومحبة رسوله، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله.

ويصلون آباءهم وأمهاتهم، ببرهم بالقول والفعل، وعدم عقوقهم، ويصلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم قولاً وفعلاً. ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والماليك، بأداء حقهم كاملاً موفراً، من الحقوق الدينية والدنيوية.

والسبب الذي يجعل العبد واصلًا ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿ويخشون ربهم﴾ أي: يخافونه،

فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجسروا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب ورجاءاً للثواب.

﴿والذين صبروا﴾ على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لمرضاة ربه، ورجاءاً للقرب منه، والخطوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

﴿وأقاموا الصلاة﴾ بأركانها، وشروطها ومكملاتها، ظاهراً وباطناً، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سراً وعلانية، ﴿ويدروون بالحسنة السيئة﴾ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.

فيعطون من حرمهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون السيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟

﴿أولئك﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة ﴿لهم عقيب الدار﴾ فسرهما بقوله: ﴿جنان عدن﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يبعثون عنها جولا، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن قام نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم ﴿يدخلونها ومن صلح من آبائهم﴾ من

الذكور والإناث ﴿وأزواجهم﴾ أي: الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحاب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم، ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ يهتئونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم ويقولون: ﴿سلام عليكم﴾ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بما صبرتم﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنان العالية، ﴿فنعم عقبى الدار﴾.

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿٢٥﴾ ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم:

﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض، ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصناد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً، ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي: البعد والذم، من الله وملائكته وعباده المؤمنين، ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي: الجحيم، بما فيها من العذاب الأليم.

﴿٢٦﴾ ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة

الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، ﴿وفرحوا﴾ أي: الكفار ﴿بالحياة الدنيا﴾ فرحاً، أوجب لهم أن يطمئئنا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم، ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ أي: شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلاً طويلاً.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم طوبى وحسن مآب﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله، يتعتنون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وبزعمهم أنها لو جاءت لأمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومنع ذلك فهم كاذبون، ﴿ولو أنزلنازلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك، وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب، ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي: حقيق بها، وخري أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألد



للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة  
خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى  
قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون  
ذكرها له، هذا على القول بأن  
ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح  
وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل : إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين ، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله : أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها ، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين ، وبذلك تطمئن القلوب ، فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم ، وذلك في كتاب الله ، مضمون على أتم الوجوه وأكملها ، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه ، فلا تطمئن بها ، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام . ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله وتدبره ، وتدبر غيره من أنواع العلوم ، فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً ، ثم قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي : آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة ، أعمال القلوب كنسجبة الله وخشيته ورجائه ، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها ، ﴿ طوبى لهم وحسن مآب ﴾ أي : لهم حالة طيبة ، ومرجع حسن .

وذلك بما ينالون من رضوان الله  
وكرامته في الدنيا والآخرة، وأن لهم  
كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة  
ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي  
يسير الراكب في ظلها مئة عام ما  
يقطعها، كما وردت بها الأحاديث  
الصحيحة.

﴿٣٠﴾ ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ  
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهِمُ  
الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ  
بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ  
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ  
مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ إِلَى  
قَوْمِكَ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ، ﴿قَدْ خَلَتْ

من قبلها أمم ﴿﴾ أرسلنا فيهم رسلاً،  
فلمست ببدع من الرسل حتى يستنكروا  
رسالتك، ولست تقول من تلقاء  
نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله التي  
أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب  
وتركي النفوس.

والحال أن قومك يكفرون بالزحمن ، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه - التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا ، وأنزلنا عليك كتاباً - بالقبول والشكر ، بل قابلوها بالإنكار والرد ، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة ، كيف أخذهم الله بذنوبهم ، ﴿ قل هوري لا إله إلا هو ﴾ وهذا متضمن للتوحيدين ، توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية .

فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ  
أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عليه  
توكلت﴾ في جميع أموري ﴿والإله  
مُتَابٌ﴾ أي: أرجع في جميع عباداتي  
وفي حاجاتي.

﴿٣١﴾ ﴿ولو أن قرآننا سيرت به  
الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به  
الموتى بل الله الأمر جميعاً أفلم ييأس  
الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس  
جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما  
صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم  
حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف  
الميعاد﴾ يقول تعالى مبيناً فضل القرآن  
الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ولو  
أن قرآننا﴾ من الكتب الإلهية ﴿سيرت  
به الجبال﴾ عن أماكنها ﴿أو قطعت به  
الأرض﴾ جناناً وأنهاراً ﴿أو كلم به  
الموتى﴾ لكان هذا القرآن. ﴿بل الله  
الأمر جميعاً﴾ فيأتي بالآيات التي  
تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين  
يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل  
لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟

﴿أَفَلَمْ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ  
 يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۚ فَلْيُعْلَمُوا  
 أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ جَمِيعًا ۚ وَلَكِنَّهُ  
 لَا يُشَاءُ ذَلِكَ، بَلْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ  
 وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ۚ﴾ وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا ۚ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، لَا يَتَعَبَّرُونَ  
 وَلَا يَتَعْظُونَ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ يُوَالِيٰ عَلَيْهِم

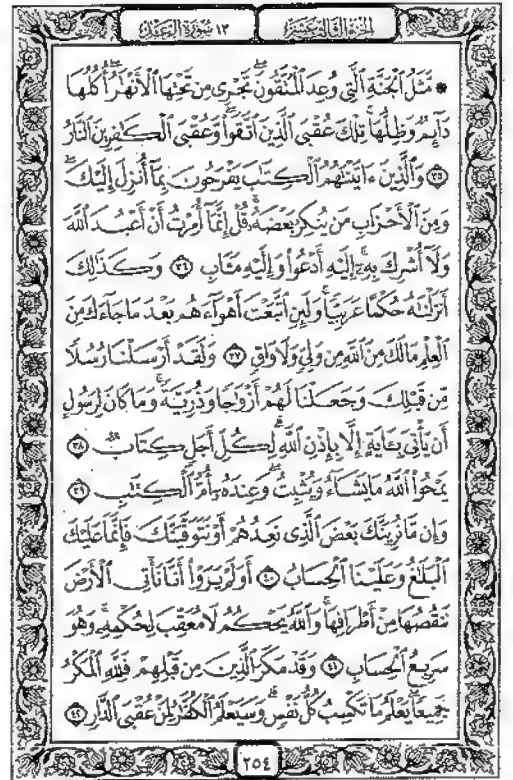
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجِبُ ﴿١٥﴾  
كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أَوَّلِهِ قُلُوبًا مِّن قُلُوبِنَا إِنَّهُ لَشَدِيدُ  
الذِّكْرِ أَوْصِيَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ  
بِالْغُلَامَ الَّذِي بَلَغَ أَوَّلَهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ وَإِلَىٰ يَوْمِ نَا  
سُورَتِ بِهِ إِنجِيلَ أَوْ طُوعْتَ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كُنَّا بِكَ مِنَ الْغُورِ بَل  
لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَا يَتَضَوَّلُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْ يَتُوبُكَ أَفَلَهُ  
لَهُدَى النَّاسُ جَمِيعًا وَلَا نَزَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَنبَشَهُمْ بِمَا صَنَعُوا  
فَإِعْرَاجُ أَوَّلِكُمْ فَيَسْأَلُونَ دَارَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعِدَ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ  
لَا يُخْلِفُ الْعَاهِدَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَسْنَدْنَا رِيسْلَ مِّن قِبَلِكَ فَأَمَلْنَا  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُ لَأَنذَرْنَهُمْ فَيَكْفُرُوا بِكَ عَاقِبَ ﴿١٧﴾ أَتَمَنَ  
هُوَ قَالِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَئِيْلٌ شَرَّاءُ  
قُلْ سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ قَوْلًا لَّا يَهْدِي فِي الْأَرْضِ أَمْ يَرْبُحُونَ  
الْقَوْلَ بَلْ زُفَرٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْ كَرِهَ اللَّهُ مَوْضِعَ وَاعِنَ  
السَّعِيلِ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُنَّ هَادٍ ﴿١٨﴾ هُوَ عَذَابٌ فِي الْحُورِ  
الَّذِينَ أَعْدَابُ الْأَخْرَجَةِ أَشَقُّ وَمَالَهُمْ مِنَ الْكَوِينِ وَاقٍ ﴿١٩﴾

القوارع التي تصيبهم في ديارهم ، أو  
تحل قريباً منها ، وهم مصرّون على  
كفرهم ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ الذي  
وعدهم به ، لنزول العذاب المتصل  
الذي لا يمكن رفعه ، ﴿إن الله  
لا يخلف الميعاد﴾ وهذا تهديد لهم  
وتحذوف من نزول ما وعدهم الله به  
على كفرهم وعنادهم وظلمهم .

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ أَخْذَتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾ ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ - مَثْبُتًا لَهُ وَمُسْلِيًا -﴾ ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿فَلَسْتُ أُولَٰ رَسُولٍ كُذِّبَ وَأَوْذِيَ﴾ ﴿فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿بِرَسُولِهِمْ، أَي: أَهْمَلْتَهُمْ مَدَّةً حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعَذِّبِينَ -﴾ ﴿ثُمَّ أَخْذَتَهُمْ﴾ ﴿بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾ ﴿كَانَ عِقَابًا شَدِيدًا وَعَذَابًا أَلِيمًا، فَلَا يَغْتَرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُواكَ وَاسْتَهْزَؤُوا بِكَ بِأَهْمَالِنَا، فَلَهُمْ أَسُوءَةُ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، فَلْيَحْذَرُوا أَنْ يَفْعَلَ بِهِمْ كَمَا فَعَلَ بِأُولَٰئِكَ﴾

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى  
كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ  
قُلُوبِهِمْ أَمْ تَبْتَغُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي  
الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَضَدُّوا عَنْ  
السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ  
هَادٍ \* لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَلِعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ





من واق ﴿٣٥﴾ يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى كمن ليس كذلك؟

ولهذا قال: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له، ولا ند ولا نظير، ﴿قل﴾ لهم إن كانوا صادقين: ﴿سموهم﴾ لتعلم حالهم، ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً، علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعَلِّمُ الله أن له شريكاً، وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون، ولهذا قال: ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى، أنه بظاهر أقوالكم.

وأما في الحقيقة، فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق يستحق شيئاً من العبادة، ولكن ﴿زين للذين كفروا مكرهم﴾ الذي مكروه، وهو كفرهم وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله، ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء.

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا

وللعذاب الآخرة أشق﴾ من عذاب الدنيا لشدة ودوامه، ﴿وما لهم من الله من واق﴾ يقيهم من عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه.

﴿٣٥﴾ ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ يقول تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخذود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل من جميع أنواع الثمار.

﴿أكلها دائم وظلها﴾ دائم أيضاً، ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ فكم بين الفريقين من الفرق الميِّنة!!

﴿٣٦﴾ ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ ويمعرفته، ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضاً، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين، ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدق.

﴿فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ إنما أنت يا محمد منذر تدعو إلى الله، ﴿قل﴾ إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴿أي: يا خلاص الدين الله وحده، ﴿إليه أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ﴾ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به.

﴿٣٧﴾ ﴿وكذلك أنزلناه حكماً

عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكماً عربياً، أي: محكماً متقناً، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاذه ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعصمته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام، فقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مالك من الله من ولي﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿ولا واق﴾ يقيك من الأمر المكروه.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب﴾ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴿أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك، ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ فلا يعينك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين، فلاي: شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟، وإن طلبوا منك آية اقترحوها فليس لك من الأمر شيء.

﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ والله لا يأذن قبيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه، ﴿لكل أجل كتاب﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجباً لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعال لما يريد.

﴿يمحو الله ما يشاء﴾ من الأقدار ﴿ويثبت﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله،

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في



استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم .  
والله أعلم .

تم تفسير سورة الرعد ،  
والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي مكية

﴿١-٣﴾ **بسم الله الرحمن الرحيم** الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد \* الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد \* الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد \* يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي، إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿بإذن ربهم﴾ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله ومعونه، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم .

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي: الموصول إليه وإلى دار كرامته، المشتغل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر ﴿العزيز

الحميد﴾ بعد ذكر الصراط الموصول إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة .

وليدل ذلك على أن صراط الله، من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتديراً، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، قلما بين الدليل والبرهان، توعدهم من لم ينقد لذلك، فقال: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة .

﴿ويصدون﴾ الناس عن سبيل الله التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه وعلى السنة رسله، فهو لاء قد نابذوا مولا هم بالمعاداة والمحاربة، ﴿ويغونها﴾ أي: سبيل الله ﴿عوجاً﴾ أي: يحرقون على تهجينها وتقييحها، للتفجير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

﴿أولئك﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿في ضلال بعيد﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربوها، فأبى: ضلال أبعد من هذا؟ ١١، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها .

﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من

تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله ﴿فيضل الله من يشاء﴾ من لم ينقد للهدى، ويهدي من يشاء عن اختصاصه برحمته .

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي - من عزته - أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به .

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة بحبوبة الله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها .

إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا قمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم .

﴿٥-٨﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور \* وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم \* وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد \* وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد \* يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم، ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه، ﴿وذكرهم

بأيام الله ﴿أي﴾: بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليذكروا نعمه، وليجذروا عقابه، ﴿إن في ذلك﴾: أي: في أيام الله على العباد ﴿آيات لكل صبار شكور﴾: أي: صبار في الضراء والعسر والضييق، شكور على السراء والنعمة.

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته وعميم إحسانه، وقام عدله وحكمته، ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله فقال: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾: أي: بقلوبكم وألستكم. ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم﴾: أي: يولونكم ﴿سوء العذاب﴾: أي: أشده، وفسر ذلك بقوله: ﴿ويذبون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾: أي: يبقونهم فلا يقتلونهم، ﴿وفي ذلكم﴾: الإنجا ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾: أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا؟

وقال لهم حاثاً على شكر نعم الله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾: أي: أعلم ووعد، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾: من نعمي ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾: ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرافها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك.

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾: فلن تضروا الله شيئاً، ﴿فإن الله لقني حميد﴾: فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

﴿٩٦ - ١٢﴾: ﴿ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءهم من رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في

أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾: قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليفغر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبین ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾: ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴿يقول تعالى مخوفاً عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه فقال: ﴿ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾: وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها، ﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾: من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾: أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به، فلم يرسل الله رسلاً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها، بل استكبروا عنها، ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾: أي: لم يؤمنوا بما جاءوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾.

﴿وقالوا﴾: صريحاً لرسلهم: ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾: أي: موقع في الرية، وقد كذبوا في ذلك وظلموا.

ولهذا ﴿قالت لهم﴾: ﴿رسلهم أفي الله شك﴾: أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلها، فمن شك في الله ﴿فاطر السماوات والأرض﴾: الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور

﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾: ﴿وقال الذين كفروا أرسلهم لئخربكم من أرضكم أول تعبدون في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾: ﴿ولنصيبنكم من الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد﴾: ﴿واستفتشوا خطاب كل جبار عبيد﴾: ﴿من وآبائه جهنم وصفتى من مآء صديد﴾: ﴿يتجرعون ولا يكاد يسيغه﴾: ﴿وبآبائه لؤلؤ من كل مكان وما هو بميت وحي وآبائه عذاب عظيم﴾: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعلمهم كراماً أشدت به ألح فى يوم عاصف لا يدرون مما مكسبوهم على شئ وذلك هو الضلال البعيد﴾

المحسوسة، ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه ﴿يدعوكم﴾: إلى منافعكم ومصالحكم ﴿ليفغر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾: أي: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم.

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿وقالوا﴾: لهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾: أي: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة، ﴿تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾: فكيف نترك رأي: الآباء وسيرتهم لرأيكم؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟

﴿فأتونا بسلطان مبین﴾: أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿قالت لهم رسلهم﴾: مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾: أي: صحيح وحقيقة، أنا بشر مثلكم، ﴿ولكن﴾: ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق، فإن الله يمن على من يشاء من عباده ﴿فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به، فإن كان حقاً فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه





ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: «فأتونا بسلطان مبين» فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

«وما كان لنا أن تأتيناكم بسلطان إلا بإذن الله» فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، «وعلى الله» لا على غيره «فليتوكل المؤمنون» فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويشقون به في تيسير ذلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، «وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا».

أي: أي شيء يمنعا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كإشارة من الرسل

عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: «يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله، فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون» الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: «إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون».

«ولنصبرن على ما آذيتونا» أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

«وعلى الله» وحده لا على غيره «فليتوكل المتوكلون» فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

«١٣ - ١٧» «وقال الذين كفروا لرسولهم لننخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين \* ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد \* واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد \* من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد \* يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ» لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على

ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: «وقال الذين كفروا لرسولهم \* لننخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا» وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمنعونهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟ هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال، ما بقي حيثئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه، «فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين» بأنواع العقوبات.

«ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك» أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء «لمن خاف مقامي» عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، «وخاف وعيد» أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

«واستفتحوا» أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فالله حلیم



لا يعاجل من عصاه بالعقوبة،  
﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي: خسر  
في الدنيا والآخرة من تجبر على الله  
وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر  
في الأرض، وعاند الرسل وشاقهم.

﴿من ورائه جهنم﴾ أي: جهنم لهذا  
الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من  
ورودها، فيذاق حيثث العذاب  
الشديد، ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ في  
لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في  
غاية الحرارة.

﴿يتجرعه﴾ من العطش الشديد  
﴿ولا يكاد يسيغه﴾ فإنه إذا قرب إلى  
وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع  
ما أتى عليه من الأمعاء، ﴿ويأتيه الموت  
من كل مكان وما هو بميت﴾ أي: يأتيه  
العذاب الشديد من كل نوع من أنواع  
العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ  
إلى الموت، ولكن الله قضى أن  
لا يموتوا كما قال تعالى: ﴿لا يُقضى  
عليهم فيموتوا ولا يُخفف عنهم من  
عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾ وهم  
يصطرون فيها.

﴿ومن ورائه﴾ أي: الجبار العنيد  
﴿عذاب غليظ﴾ أي: قوي شديد،  
لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿١٨﴾ ﴿مثل الذين كفروا بربهم  
أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم  
عاصف لا يقدرון مما كسبوا على شيء  
ذلك هو الضلال البعيد﴾ يخبر تعالى عن  
أعمال الكفار التي عملوها: إما أن  
المراد بها الأعمال التي عملوها لله،  
بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها  
كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق  
الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح  
في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه  
لا يبقى منه شيئاً، ولا يقدر منه على  
شيء يذهب ويضمحل، فكذلك  
أعمال الكفار لا يقدرון مما كسبوا  
على شيء، ولا على مثقال ذرة منه،  
لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ حيث  
بطل سعيهم، واضمححل عملهم، وإما  
أن المراد بذلك أعمال الكفار التي  
عملوها ليكيدوا بها الحق، فإنهم

يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم  
عائد عليهم، ولن يضروا الله ورسله  
وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

﴿١٩ - ٢١﴾ ﴿ألم تر أن الله خلق  
السموات والأرض بالحق إن يشأ  
يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ وما ذلك  
على الله بعزير، وبرزوا الله جميعاً فقال  
الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم  
تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله  
من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم  
سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من  
محيص، ينه تعالى عباده بأنه ﴿خلق  
السموات والأرض بالحق﴾ أي:  
ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم  
وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما  
على ماله من صفات الكمال، وليعلموا  
أن الذي خلق السموات والأرض -  
على عظمهما وسعتهما - قادر على أن  
يعيدهم خلقاً جديداً، ليجازيهم  
بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته  
ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولهذا  
قال: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق  
جديد﴾

يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم  
ويأت بقوم غيركم، يكونون أطوع لله  
منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ  
يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقاً  
جديداً، ويدل على هذا الاحتمال ما  
ذكره بعده من أحوال القيامة.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي:  
بممتنع بل هو سهل عليه جداً، ﴿وما  
خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾  
﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو  
أهون عليه﴾.

﴿وبرزوا﴾ أي: الخلائق لله  
جميعاً، حين ينفخ في الصور،  
فيخرجون من الأجداث إلى ربهم،  
فيقفون في أرض مستوية قاع  
صفصف، لا ترى فيها عرجاً  
ولا أمتاً، ويرزون له لا يخفى [عليه]  
منهم خافية، فإذا برزوا صاروا  
يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه،  
ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم  
ذلك؟

فيقول ﴿الضعفاء﴾ أي: التابعون

﴿توت أكلها كل حين بإذن ربها وضرب الله الأمثال  
للناس لعلهم يتذكرون﴾ ومثل كلمة جنة  
كشجرة جنة أخرجت من فوق الأرض لما بين يدي  
﴿بئس الله الذي﴾ أمثال القول الثابت في أمثولة  
الذي وفي الآخرة ويضلل الله الظالمين ويضل الله  
ما يشاء. ﴿ألم تر أن الله﴾ يذلوهم الله الكفرة  
وأهلكوا قلوبهم دار البوار ﴿جهنم﴾ يضربونها ويضرب الله  
﴿وصحوا لله أناداً ليلوا عن سبيله قل غفلوا فإنا  
مصدركم إلى النار﴾ قل ليعاذ الله الذي ﴿أمثوا  
يُسْمُوا الضلالة ويضلوا وما رزقهم سرّاً وعلاجاً  
من قبل أن يأتهم يوم لا يبع فيه ولا جلال﴾ الله الذي خلق  
السموات والأرض والنار من السماء ماء فأخرج من  
بين الثمرات رزقا لكم ويضرب لكم الأمثال لتخبر  
في البحر يأمركم أن تسجدوا لله ﴿وسجدوا لله  
الشمس والقمر والنجوم والجان والإنس﴾

والمقلدون ﴿للذين استكبروا﴾ وهم:  
المتبوعون الذين هم قادة في الضلال:  
﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي: في الدنيا،  
أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا  
فأغويتمونا، ﴿فهل أنتم مغنون عنا من  
عذاب الله من شيء﴾ أي: ولو مثقال  
ذرة، ﴿قالوا﴾ أي: المتبوعون  
والرؤساء ﴿أغويناكم كما غويناه﴾  
و ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ فلا يغني  
أحد أحداً، ﴿سواء علينا أجزعنا من  
العذاب أم صبرنا﴾ عليه، ﴿ما لنا من  
محيص﴾ أي: من ملجأ نلجأ إليه،  
ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿وقال الشيطان لما  
قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق  
ووعدتكم فأخلفتم وما كان لي عليكم  
من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي  
فلا تلموموني ولوموا أنفسكم ما أنا  
بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني  
كفرت بما أشركتمون من قبل إن  
الظالمين لهم عذاب أليم﴾ وأدخل  
الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات  
تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن  
ربهم تحيتهم فيها سلام﴾ أي: ﴿وقال  
الشيطان﴾ الذي هو سبب لكل شريق  
ووقع في العالم، مخاطباً لأهل النار  
ومتبرئاً منهم ﴿لما قضى الأمر﴾ ودخل  
أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.  
﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ على ألسنة  
رسله، فلم تطيعوه، فلو أطعتموه

وَأَتْلَوْهُمُ مِنْ كُلِّ مَآسَاءٍ نَسُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا لَعَلَّكُمْ  
 اللَّهُ لَا تَحْصُوهُمَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٥﴾ وَأَذَى  
 قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ  
 أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٦﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَصْلَابٌ كَثِيرٌ إِنْ  
 النَّاسُ مِنْ تَعْنِي فَإِنَّهُ يَنْبَغِي وَمِنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ  
 رَحِيمٌ ﴿٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي وَإِدْعَائِي دَعَا  
 عِدِّيَّتِكَ لِلْحَرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً  
 مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّرَاثِ لَعَلَّهُمْ  
 يَتَذَكَّرُونَ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَى  
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَفِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٩﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي  
 وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ  
 ﴿١٠﴾ رَبِّي اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا تَقَبَّلْ  
 دُعَاءِي ﴿١١﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ  
 يُنْفَخُ الْحِسَابُ ﴿١٢﴾ وَلَا تَحْشَبْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَائِبٌ  
 الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٣﴾

لأدر كنتم الفوز العظيم، ﴿ووعدتكم﴾  
 الخير ﴿فأخلفتكم﴾ أي: لم يحصل ولن  
 يحصل لكم ما منيتكم به من الأمان  
 الباطلة.

﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾  
 أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إلا أن  
 دعوتكم فاستجبتم لي﴾ أي: هذا نهاية  
 ما عندي، أي دعوتكم إلى مرادي  
 وزينته لكم، فاستجبتم لي أتباعاً  
 لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت  
 الحال بهذه الصورة ﴿فلا تلوموني  
 ولوموا أنفسكم﴾ فأنتم السبب،  
 وعليكم المذار في موجب العقاب،  
 ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي: بمغيثكم من  
 الشدة التي أنتم بها ﴿وما أنتم  
 بمصرخي﴾ كل له قسط من العذاب.  
 ﴿إني كفرت بما أشركتمون من  
 قبل﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي  
 شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله،  
 ولا تجب طاعتي، ﴿إن الظالمين﴾  
 لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لهم عذاب  
 أليم﴾ خالدين فيه أبداً.

وهذا من لطف الله بعباده، أن  
 حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر  
 بمدخله التي يدخل منها على الإنسان  
 ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله  
 النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار  
 وحزبه<sup>(١)</sup>، أنه يتبرأ منهم هذه البراءة،

(١) في ب: وجنده.

ويكفر بشركهم ﴿ولا ينبئك مثل  
 خبير﴾.

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه  
 ليس له سلطان، وقال في آية أخرى  
 ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه،  
 والذين هم به مشركون﴾ فالسلطان  
 الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة  
 والدليل، فليس له حجة أصلاً على ما  
 يدعوا إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم  
 لهم من الشبه والتزيينات ما به  
 يتجرؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبتته، فهو  
 التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه  
 يؤزهم إلى المعاصي أزاً، وهم الذين  
 سلطوه على أنفسهم بموالاة والالتحاق  
 بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على  
 الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ولما ذكر عقاب الظالمين ذكر ثواب  
 الطائعين فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا  
 وعملوا الصالحات﴾ أي: قاموا  
 بالدين، قولاً، وعملاً، واعتقاداً،  
 ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها  
 من اللذات والشهوات، ما لا عين  
 رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على  
 قلب بشر، ﴿خالدين فيها بإذن ربهم﴾  
 أي: لا يحولهم وقوتهم بل بحول الله  
 وقوته ﴿مغيثهم فيها سلام﴾ أي: ينجي  
 بعضهم بعضاً بالسلام، والتحية،  
 والكلام الطيب.

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿ألم تر كيف  
 ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة  
 أصلها ثابت وفرعها في السماء \* تؤتي  
 أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله  
 الأمثال للناس لعلهم يتذكرون \* ومثل  
 كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من  
 فوق الأرض ما لها من قرار﴾ يقول  
 تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً  
 كلمة طيبة﴾ وهي شهادة أن لا إله  
 إلا الله، وفروعها، ﴿كشجرة طيبة﴾  
 وهي النخلة ﴿أصلها ثابت﴾ في  
 الأرض ﴿وفروعها﴾ منتشر ﴿في  
 السماء﴾ وهي كثيرة النفع دائماً،  
 ﴿تؤتي أكلها﴾ أي: ثمرتها ﴿كل حين﴾

بإذن ربها﴾ فكذلك شجرة الإيمان،  
 أصلها ثابت في قلب المؤمن، علماً  
 واعتقاداً. وفروعها من الكلم الطيب،  
 والعمل الصالح، والأخلاق المرضية،  
 والآداب الحسنة، في السمت دائماً،  
 يصعد إلى الله منه من الأعمال  
 والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان،  
 ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره،  
 ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم  
 يتذكرون﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه،  
 فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني  
 المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين  
 المعنى الذي أراده الله غاية البيان،  
 ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته  
 وحسن تعليمه. فله أتم الحمد وأكمل  
 وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد  
 وثباتها، في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر  
 وفروعها، فقال: ﴿ومثل كلمة خبيثة  
 كشجرة خبيثة﴾ المأكول والمطعم،  
 وهي: شجرة الحنظل ونحوها،  
 ﴿اجتثت﴾ هذه الشجرة ﴿من فوق  
 الأرض ما لها من قرار﴾ أي: من  
 ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة  
 صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها  
 ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة  
 الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع  
 في القلب، ولا تثمر إلا كل قول  
 خبيث وعمل خبيث، يستضر به  
 صاحبه ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله  
 منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه ولا  
 ينتفع به غيره.

﴿٢٧﴾ ﴿يثبت الله الذين آمنوا  
 بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي  
 الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله  
 ما يشاء﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده  
 المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم  
 من إيمان القلب التام، الذي يستلزم  
 أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله  
 في الحياة الدنيا، عند ورود الشبهات  
 بالهداية إلى اليقين، وعند عروض  
 الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم  
 ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، وعمحمد نبيي».

﴿ويضل الله الظالمين﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وغذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها، ونيعم القبر وعذابه.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ يقول تعالى - مبيناً حال الكاذبين لرسوله من كفار قريش، وما آل إليه أمرهم: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم.

﴿و﴾ صدّهم غيرهم حتى ﴿أحلوا قومهم دار البوار﴾ وهي النار، حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالا على قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «يذر» ليحاربوا الله ورسوله، فجري عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وضناديدهم في تلك الواقعة.

﴿جهنم يصلونها﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وبئس القرار﴾.

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعواهم إلى عبادتها، ﴿قل﴾ لهم متوعداً:

﴿تمتعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير.

﴿٣١﴾ ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ويتفقوا بما رزقناهم سرّاً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين آمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن يتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يقيموا الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ويتفقوا بما رزقناهم﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سرّاً وعلانية﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة، كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استبدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغيته، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ إن الإنسان لظلم لظلم كفار ﴿يخبر تعالى: أنه وحده﴾ الذي خلق السماوات والأرض ﴿على اتساعهما وعظمتها، وأنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب، ﴿فأخرج﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المختلفة الأنواع ﴿رزقاً لكم﴾ ورزقاً لأنعامكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي: السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر بأمره﴾ فهو الذي يسر لكم صنعته، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

﴿وسخر لكم الأنهار﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزممنتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، ﴿وسخر لكم الليل﴾ لتسكنوا فيه ﴿والنهار﴾ مبصراً، لتبتغوا من فضله.

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلق به أمانيتكم وحاجتكم، بما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إن الإنسان لظلم كفار﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرب على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدغو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، آناء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿٣٥﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال: ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ أي: الحرم ﴿آمناً﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب القيل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿واجنبي وبني أن نعبد الأصنام﴾ أي: اجعلني وإياهم، جانباً بعيداً عن عبادتها، والإمام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيته، بكثرة من افتن وأبتلي بعبادتها، فقال:

﴿٣٦﴾ رَبِّ إِنَّنِي أَضِلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿٣٧﴾ أَيُّ: ضَلُّوا بِسَبِيلِهَا، ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ عَلَى مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لِتَمَامِ الْمَوَافَقَةِ، وَمَنْ أَحَبَّ قَوْمًا وَتَبِعَهُمُ التَّحَقُّقَ بِهِمْ.

﴿وَمِنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَهَذَا مِنْ شَفَقَةِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ دَعَا لِلْعَاصِينَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْحَمُ مِنْهُ بِعِبَادِهِ، لَا يَعْذِبُ إِلَّا مَنْ تَمَرَّدَ عَلَيْهِ.

﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴿٣٨﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَى بِـ «هَاجِر» أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَيَابَنَهَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ فِي الرِّضَاعِ، مِنَ الشَّامِ حَتَّى وَضَعَهُمَا فِي مَكَّةَ، وَهِيَ - إِذْ ذَاكَ - لَيْسَ فِيهَا سَكَنٌ، وَلَا دَاعٍ وَلَا عَجِيبٌ، فَلَمَّا وَضَعَهُمَا دَعَا رَبَّهُ بِهَذَا الدَّعَاءِ، فَقَالَ - مُتَضَرِّعًا مُتَوَكِّلًا عَلَى رَبِّهِ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أَيُّ: لَا كُلَّ ذُرِّيَّتِي، لِأَنَّ إِسْحَاقَ فِي الشَّامِ، وَبَاقِي بَنِيهِ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَسْكَنْ فِي مَكَّةَ إِسْمَاعِيلَ وَذُرِّيَّتَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أَيُّ: لِأَنَّ أَرْضَ مَكَّةَ لَا تَصْلُحُ لِلزَّرَاعَةِ.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيُّ: اجْعَلْهُمْ مُوَحِّدِينَ مُقِيمِينَ الصَّلَاةَ، لِأَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ مِنْ أَحْضَى وَأَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ الدِّينِيَّةِ، فَمَنْ أَقَامَهَا كَانَ مُقِيمًا لِدِينِهِ، ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: تَحْبِبُهُمْ وَتَحِبُّ الْمَوْضِعَ الَّذِي هُمْ سَاكِنُونَ فِيهِ.

فَأَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ مُحَمَّدًا ﷺ، حَتَّى دَعَا ذُرِّيَّتَهُ إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَإِلَى مِلَّةِ آبَائِهِمْ إِبْرَاهِيمَ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ وَصَارُوا مُقِيمِي الصَّلَاةِ.

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرًّا عجيباً جاذباً للقلوب، فهي تحججه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقُّفه، وهذا سرُّ إضافته

تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فَأَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، فَصَارَ يَجِيءُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنَّكَ تَرَى مَكَّةَ الْمُشْرِفَةَ كُلَّ وَقْتٍ، وَالشَّامَ فِيهَا مَتَوَفَّرَةٌ، وَالْأَرْزَاقُ تَتَوَالَى إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

﴿٣٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلَنُ ﴿٣٩﴾ أَيُّ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِنَا مَنَا، فَتَسْأَلُكَ مِنْ تَدْبِيرِكَ وَتَرْبِيَّتِكَ لَنَا أَنْ تيسرَ لَنَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي نَعْلَمُهَا وَالَّتِي لَا نَعْلَمُهَا، مَا هُوَ مُقْتَضِي عِلْمِكَ وَرَحْمَتِكَ، ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ هَذَا الدَّعَاءُ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْ بِهِ الْخَلِيلُ إِلَّا الْخَيْرَ، وَكَثْرَةَ الشُّكْرِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿٣٩﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴿٤٠﴾ فَهَبْ لَهُمْ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ، وَكَوْنُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ فِي حَالِ الْإِيَّاسِ مِنَ الْأَوْلَادِ نِعْمَةً أُخْرَى، وَكَوْنُهُمْ أَنْبِيَاءَ صَالِحِينَ، أَجَلٌ وَأَفْضَلُ، ﴿إِنْ رِئِي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ﴾ أَيُّ: لِقَرِيبِ الْإِجَابَةِ مِنْ دَعَائِهِ، وَقَدْ دَعَوْتَهُ، فَلَمْ يَخِجْ رَجَائِي، ثُمَّ دَعَا لِنَفْسِهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دَعَاءَ﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، إِلَّا أَنَّ دَعَاءَهُ لِأَبِيهِ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَةٍ إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

﴿٤٢﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ مَهْطَعِينَ مُقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءُ ﴿٤٣﴾ هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلظَّالِمِينَ، وَتَسْلِيَةٌ لِلْمُظْلُومِينَ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حَيْثُ أَمْهَلَهُمْ وَأَدَّرَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، وَتَرَكَهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي الْبِلَادِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ، فَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى حَسَنِ حَالِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْمِلِي لِلظَّالِمِ وَيَمْهَلُهُ لِيَزِدَّادَ إِثْمًا، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ

الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وَالظُّلْمُ - هَاهُنَا - يَشْمَلُ الظُّلْمَ فِيمَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَظُلْمَهُ لِعِبَادِ اللَّهِ، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أَيُّ: لَا تَطْرُقُ مِنْ شِدَّةِ مَا تَرَى مِنَ الْأَهْوَالِ وَمَا أَزْعَجُهَا مِنَ الْقَلَاقِلِ.

﴿مَهْطَعِينَ﴾ أَيُّ: مُسْرِعِينَ إِلَى إِجَابَةِ الدَّاعِي حِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْخَضُورِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لِلْحِسَابِ، لَا امْتِنَاعَ لَهُمْ وَلَا عَيْصَ وَلَا مَلْجَأَ، ﴿مُقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ﴾ أَيُّ: رَافِعِيهَا قَدْ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى الْأَذْقَانِ، فَارْتَفَعَتْ لِذَلِكَ رُؤُوسُهُمْ، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءُ﴾ أَيُّ: أَفْتَدَتْهُمْ فَارِغَةً مِنْ قُلُوبِهِمْ، قَدْ صَعِدَتْ إِلَى الْخَنَاجِرِ، لَكُنْهَا مَمْلُوءَةٌ مِنْ كُلِّ هَمٍّ وَغَمٍّ وَحُزْنٍ وَقَلْقٍ.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرِّسْلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ \* وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ \* وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرَهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٥﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أَيُّ: صِفِّ لَهُمْ صِفَةَ تِلْكَ الْحَالِ، وَحَذِّرْهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلْعَذَابِ، الَّذِي حِينَ يَأْتِي فِي شِدَائِهِ وَقَلَاقِلِهِ، ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِالْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي، نَادِمِينَ عَلَى مَا فَعَلُوا، سَائِلِينَ لِلرَّجْعَةِ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا، ﴿رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أَيُّ: رُدُّنَا إِلَى الدُّنْيَا، فَإِنَّا قَدْ أَبْصَرْنَا، ﴿نَجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴿وَتَتَّبِعِ الرِّسْلَ﴾ وَهَذَا كُلُّهُ لِأَجْلِ التَّخْلِصِ مِنَ الْعَذَابِ، وَإِلَّا فَهُمْ كَذِبَةٌ فِي هَذَا الْوَعْدِ ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا نَهَوْا عَنْهُ﴾.

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ عَنِ الدُّنْيَا وَاتِّقَالَ إِلَى الْآخِرَةِ، فَهِيَ قَدْ تَبَيَّنَ حَيْثُكُمْ فِي إِقْسَامِكُمْ،



وكذبكم فيما تدعون، ﴿٥٠﴾ ليس عليكم قاصرٌ في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿٥١﴾ سكتكم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴿٥٢﴾ من أنواع العقوبات؟ وكيف أحل الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

﴿٥٣﴾ وقد مكروا ﴿٥٤﴾ أي: المكذبون للرسول ﴿٥٥﴾ مكروهم ﴿٥٦﴾ الذي وصلت إراداتهم، وقدر لهم عليه، ﴿٥٧﴾ وعند الله مكروهم ﴿٥٨﴾ أي: هو محيط به علماً وقدره، فإنه عاد مكروهم عليهم ﴿٥٩﴾ ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ﴿٦٠﴾.

﴿٦١﴾ وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال ﴿٦٢﴾ أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسول بالحق، وبمن جاء به - من عظمه - لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿٦٣﴾ مكروا مكرًا كَبِيرًا ﴿٦٤﴾ لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.

ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسول، لينصر باطلاً، أو يبطل حقاً، والقصد أن مكروهم لم يغن عنهم شيئاً، ولم يضروا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم.

﴿٤٧ - ٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ فلا تحسبن الله يخلف وعده رسوله إِنَّ الله عزيز ذو انتقام ﴿٥٤﴾ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴿٥٥﴾ وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد ﴿٥٦﴾ سراويلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴿٥٧﴾ ليجزي الله كل نفس ما كسبت إِنَّ الله سريع الحساب ﴿٥٨﴾ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو الله واحد وليذكر أولو الألباب ﴿٥٩﴾ يقول تعالى: ﴿٦٠﴾ فلا تحسبن الله يخلف وعده رسوله ﴿٦١﴾ بنجاتهم، ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم في

الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولاً، على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنة الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه ﴿٦٢﴾ عزيز ذو انتقام ﴿٦٣﴾.

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يقوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة، ﴿٦٤﴾ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴿٦٥﴾ تبدل غير السموات، وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتعد كمد الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه.

﴿٦٦﴾ وبرزوا ﴿٦٧﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿٦٨﴾ الواحد القهار ﴿٦٩﴾ أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتديره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿٧٠﴾ وترى المجرمين ﴿٧١﴾ أي: الذين وصفهم الإجماع، وكثرة الذنوب، في ذلك اليوم ﴿٧٢﴾ مقرنين في الأصفاد ﴿٧٣﴾ أي: يسلسل كل أهل عمل من المجرمين بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب في أذل صورة وأشنعها وأبشعها.

﴿٧٤﴾ سراويلهم ﴿٧٥﴾ أي: ثيابهم ﴿٧٦﴾ من قطران ﴿٧٧﴾ وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها، وتتن ريحها، ﴿٧٨﴾ وتغشى وجوههم ﴿٧٩﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿٨٠﴾ النار ﴿٨١﴾ أي: تحيط بها، وتصلها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظملاً من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿٨٢﴾ ليجزي الله كل نفس ما كسبت ﴿٨٣﴾ من

مطويين مغشى رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم ﴿٨٤﴾ وأفيد لهم هؤلاء ﴿٨٥﴾ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أجرنا إن آجل قربنا نجبت دعوتك ونفيع الرسل أولئك كانوا أنفسهم من قبل ما آلكم من ذل ﴿٨٦﴾ وسكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴿٨٧﴾ وترى المجرمين في الأصفاد ﴿٨٨﴾ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴿٨٩﴾ فلا تحسبن الله يخلف وعده رسوله إِنَّ الله عزيز ذو انتقام ﴿٩٠﴾ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴿٩١﴾ وترى المجرمين في الأصفاد ﴿٩٢﴾ سراويلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴿٩٣﴾ ليجزي الله كل نفس ما كسبت إِنَّ الله سريع الحساب ﴿٩٤﴾ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو الله واحد وليذكر أولو الألباب ﴿٩٥﴾

خير وشر بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿٩٦﴾ إن الله سريع الحساب ﴿٩٧﴾ كقوله تعالى: ﴿٩٨﴾ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴿٩٩﴾ ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:

﴿١٠٠﴾ هذا بلاغ للناس ﴿١٠١﴾ أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿١٠٢﴾ ولينذروا به ﴿١٠٣﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعد الله لأهلها من العقاب، ﴿١٠٤﴾ وليعلموا أنما هو الله واحد ﴿١٠٥﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين، ﴿١٠٦﴾ وليذكر أولو الألباب ﴿١٠٧﴾ أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في تركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضاً طرياً، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى





لأنبيائهم ورسلمهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يَوْمُنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سَنَةُ الْأُولِينَ﴾ أي: عادة الله فيهم، يهلك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ﴾ \* لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصَارِنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة، لم يؤمنوا وكابروا ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَصَارُوا يَعْرَجُونَ فِيهِ، وَشَاهَدُونَهُ عَيْنَانَا بِأَنفُسِهِمْ، لَقَالُوا مِنْ ظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، مُنْكَرِينَ لِهَذِهِ الْآيَةِ﴾: ﴿إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصَارِنَا﴾ أي: أصابها سكر وغشاوة، حتى رأينا ما لم نر، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿١٦ - ٢٠﴾ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزِينَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ \* وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ \* إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾ \* وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوزُونٍ﴾ \* وَجَعَلْنَا نَكْمَ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بُرَازِقِينَ﴾ يقول تعالى - مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه - : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يتهدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وَزِينَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيبة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها والاستدلال بها على بارئها.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ إذا استرق السمع، اتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء، ظاهرها مجملاً بالنجوم النيرات، وباطنها محروساً ممنوعاً من الآفات.

﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: في بعض الأوقات، قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾ أي: بين منير، يقتله أو يجلبه.

فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه، فيقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضمها ويكذب معها مئة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في تواجها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبلاً عظيماً، تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتثبتها أن تزول ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوزُونٍ﴾ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعناب، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بُرَازِقِينَ﴾ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام، لنفعكم ومصلحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة، ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ﴾ أي: المقدر من كل شيء، من مطر وغيره، ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ فلا يزيد على ما قدرة الله، ولا ينقص منه.

﴿٢٢﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: وسخرنا

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ﴾ \* وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ \* إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾ \* وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوزُونٍ﴾ \* وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بُرَازِقِينَ﴾ \* وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ \* وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ وَنُفَيْتُ عَنْ الزَّوْجِ الْكَافِرِ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَضِيرِينَ﴾ \* وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ يُحْشِرُكُمْ إِلَيْهِ﴾ \* وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ \* وَإِنَّمَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَلَمٍ مِنْ تَارِ السَّمُورِ﴾ \* وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ \* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ \* فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ \* إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُكَ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾

الرياح، رياح الرحمة تلقح السحاب، كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواسيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته، ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم، ويسلكه يتابع في الأرض، رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نَحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ \* وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ \* وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ يُحْشِرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو وحده لا شريك له، الذي يحيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ويميتهم لآجالهم التي قدرها ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ \* وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقاً جديداً ويحشرهم إليه.

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء

ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه من ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده منا.

﴿قال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض﴾ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إشارها على الأخرى، حتى يكونوا منقادين لكل معصية.

﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي: أضدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي: الذين أخلصتهم واجتبتيتهم، لإخلاصهم، وإيمانهم، وتوكلهم.

قال الله تعالى: ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾ أي: معتدل موصل إلي، وإلى دار كرامتي.

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ قيلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿إلا من أتبعك﴾ فرضي بولايتك وطاعتك، بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿من الغاوين﴾ والغاوي: ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال: الذي تركه من غير علم منه به.

﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي: إبليس وجنوده، ﴿لها سبعة أبواب﴾ لكل باب أسفل من الآخر، ﴿لكل باب منهم﴾ أي: من أتباع إبليس جزء مقسوم، بحسب أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فكذبوا فيها هم والغاوين، وجنود إبليس أجمعون﴾.

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد، ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم، والنعيم المقيم فقال:

﴿٤٥ - ٥٠﴾ ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ ادخلوها بسلام آمين \* ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين \* لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين \* نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم \* وأن

إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته، فقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ أي: آدم عليه السلام ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ أي: من طين قد ينس، بعدما خمر، حتى صار له صلصلة وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه.

﴿والجان﴾ وهو: أبو الجن أي: إبليس ﴿خلقناه من قبل﴾ خلق آدم ﴿من نار السموم﴾ أي: من النار الشديدة الحرارة، فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة:

﴿إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته﴾ جسداً تاماً ﴿ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فامثلوا أمر ربهم.

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ تأكيد بعد تأكيد، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله، وإكراماً لآدم حيث علم ما لم يعلموا.

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ وهذه أول عداوته لآدم وذريته، قال الله: ﴿يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

﴿قال﴾ الله معاقباً له على كفره واستكباره ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ أي: مطرود مبعد من كل خير، ﴿وإن عليك اللعنة﴾ أي: الذم والعيب، واليعد عن رحمة الله ﴿إلى يوم الدين﴾ ففيها وما أشبهها، دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

﴿قال رب فأنظرنى﴾ أي: أمهلني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٤٧﴾ قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٥١﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٥٢﴾ قَالَ رَبِّ مَا أَغْوَيْتَنِي لَأَذِينَ لَمْ يَخُفْ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ أَمِيعِينَ ﴿٥٣﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٧﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٥٨﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٩﴾ أَذْخَلُوهَا بِسْمِ اللَّهِ أَمِينٍ ﴿٦٠﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٦١﴾ لَا يُسْمِعُ فِيهَا النَّفْثَ وَالْهَمَّ وَنُفُوسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٦٢﴾ وَنُفُوسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٦٣﴾ وَنُفُوسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٦٤﴾ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٦٥﴾ وَيَنْتَهَبُونَ عَنْ صَلَافِ الْبَرِّ هَمَّ

مواضعها، وينزلها منازلها، ويمجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿٢٦ - ٤٤﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ \* والجان خلقناه من قبل من نار السموم \* وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون \* فإذا سوته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين \* فسجد الملائكة كلهم أجمعون \* إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين \* قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين \* قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون \* قال فاخرج منها فإنك رجيم \* وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين \* قال رب فأنظرنى إلى يوم الوقت المعلوم \* قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولا أغوينهم أجمعين \* إلا عبادك منهم المخلصين \* قال هذا صراط علي مستقيم \* إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين \* وإن جهنم لموعدهم أجمعين \* لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم \* يذكر تعالى نعمته وإحسانه على آيينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه









نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم، ﴿فانتقمنا منهم﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وإنهما﴾ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿ليمام مبین﴾ أي: لطريق واضح، يمر بهم المسافرون كل وقت، فبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيعتبر بذلك أولو الأبالب.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ واتيئناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولا فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به، ﴿وأتيئناهم آياتنا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، التي من جملتها تلك الناقة، التي هي من آيات الله العظيمة.

﴿فكانوا عنها معرضين﴾ كبراً وتجبراً على الله، ﴿وكانوا﴾ من كثرة إتمام الله عليهم ﴿ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ من المخاوف، مطمئنين في ديارهم، فلبو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام، لأدرك الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم - لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: ﴿يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾.

﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ فتقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى،

مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ لأن أمر الله إذا جاء، لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

﴿٨٥ - ٨٦﴾ ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفيح الجميل﴾ إن ربك هو الخلاق العليم. أي: ما خلقناهما عبثاً وباطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما إلا بالحق الذي منه، أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له، ﴿وإن الساعة لآتية﴾ لا ريب فيها ﴿خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ ﴿فاصفح الصفيح الجميل﴾ وهو الصفيح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا.

وهو: أن الأمور به هو الصفيح الجميل، أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفيح الذي ليس بجميل، وهو الصفيح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ لكل مخلوق ﴿العليم﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿٨٧ - ٩٣﴾ ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ كما أنزلنا على المقتسمين ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ فوربك

الذين جعلوا القرآن عضين ﴿فوربك لنتنبهن﴾ ﴿أجمعين﴾ عما كانوا يعملون ﴿فاصفح ما أتيتهم من آيات ربهم﴾ ﴿وأنزلنا القرآن﴾ ﴿إن آياتنا للفتنة﴾ ﴿لهم﴾ ﴿الذين يجعلون مع الله آية أخرى﴾ ﴿فما آمنوا﴾ ﴿ولقد علمنا﴾ ﴿أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ ﴿فصفح محذر﴾ ﴿وكن من الساجدين﴾ ﴿وأعد ربك حقاً﴾ ﴿اليقين﴾

#### سورة النحل

##### بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَن أَمْرًا اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ سُبْحَنَهُ وَعِلْمُ رَبِّكَ أَكْبَرُ﴾ ﴿يُرِيدُ الْمَلَكُ الْجَنَّةَ يَأْتِيهِ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَن يَذُرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاقْنُون﴾ ﴿خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْيَوْمَ تَكُونُ عَمَلًا يَشْرِكُونَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُفُثَةٍ فَإِذَا هُوَ حَسِيْدٌ مَبِيْدٌ﴾ ﴿وَأَلَمَسْخَرْنَا لَهَا الْكُرُوفَ وَالزَّيْتُونَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَالْكَرْمَ بِأَجْمَلٍ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ وَالسَّجْوَ﴾

لنساتهم أجمعين ﴿عما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى مُتَمَتِّاً على رسوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ وهن - على الصحيح - السور السبع الطوال: «البقرة» و «آل عمران» و «النساء» و «المائدة» و «الأنعام» و «الأعراف» و «الأنفال» مع «التوبة». أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف «القرآن العظيم» على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجليلة، وتثنيها فيها.

وعلى القول بأن «الفاتحة» هي السبع المثاني، معناه: أنها سبع آيات، تنفي في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ ولذلك قال بعده:

﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي: لا تعجب إعجاباً يملكك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واعتز بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم، ﴿ولا تحزن عليهم﴾ فإنهم لا خير فيهم يَرْجَى، ولا نفع يُرْتَقَب.

فلنك في المؤمنين عنهم أحسن



أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، وماله من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على السنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: ﴿تعالى عما يشركون﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم، فإنه الإله حقاً، الذي لا تنبغي العبادة، والحب والذل لإله تعالى، ولما ذكر خلق السماوات [والأرض] <sup>(١)</sup>، ذكر خلق ما فيهما.

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿خلق الإنسان من نطفة﴾ لم يزل يدبرها، ويرقيها وينميها، حتى صارت بشراً تاماً، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به، من النعم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ آدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلاً متكلماً، ذا ذهن ورأي: يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿والأنعام خلقها لكم﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فيها دفر﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب، والفرش، والبيوت.

﴿ولكم فيها﴾ منافع غير ذلك ﴿ومنها تأكلون﴾ ولكم فيها جبال حين ترجون وحين تسرحون أي: في

وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك، ﴿وتحمل أثقالكم﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ولكن الله ذلها لكم.

فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الانتقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة، ﴿إن ربكم لبرؤوف رحيم﴾ إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿والخيل والبغال والحمير﴾ سخرناها لكم ﴿لتركبوها وزينة﴾ أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيل لا تستعمل في الغالب - للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل، خوفاً من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل.

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير، فإنه لو ذكر لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاحًا أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْكُمْ وَأَنهَذَا وَسِيلًا لَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَعَلَّمَتْ وَاللَّهُ هُمُ الْمَهْتَدُونَ ﴿١١﴾ أَفَنُحِيقَ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصِيهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُعْمَلُونَ وَمَا تُعْمَلُونَ أَيْتَانٍ يَخْتَوُونَ ﴿١٤﴾ الْإِلَهِ إِلَهُكُمْ أَلَمْ يَكُنْ قَائِلًا لِّأَيُّكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فَوَيْلٌ لِّمُكْرِمِكُمْ ﴿١٥﴾ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٦﴾ لَأَجْرُهُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُعْمَلُونَ وَمَا يُعْمَلُونَ إِلَّا لِنَجِّهِ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا قَائِلُونَ ﴿١٨﴾ مَا أَزَلْنَا رُبُّكُمْ قَالُوا اسْتَطِيرَ الْأُولَى ﴿١٩﴾ لِيُحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُحْمِلُونَهُمْ يَحْمِلُهُمُ الْعِلْمُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ قَالُوا اللَّهُ يُبْدِي لَهُمُ الْقُرْآنَ فَنَحْنُ عَلَيْهِمْ أَشَقُّ مِنْ قَوْمِهِمْ وَأَنهَذَا الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾

فكذلك هنا، ذكر ما نعرفه من المراكب، كالخيل، والبغال، والحمير، والإبل، والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاؤون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة، ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولكنه هدى بعضاً كريماً وفضيلاً، ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلاً.

﴿١٠ - ١١﴾ هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون \* ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿١٢﴾ بذلك على كمال قدرة الله، الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، ورحمته حيث جعل فيه ماء



غزيراً منه يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعم الغزيرة.

﴿١٢﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم، بحيث لا تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر، من الضياء والنور، والإشراق، وإصلاح الأشجار والثمار، والنبات، وتخفيف الرطوبات، وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر.

وفيهما وفي النجوم، من الزينة للسماء والهداية، في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تتنوع دلائلها، وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبر والتفكير، فيما هي مهياة له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كمنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم التي لا عقل لها.

﴿١٣﴾ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلَوَانُهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد، من كل ما على وجه الأرض، من حيوان، وأشجار، ونبات، وغير ذلك، مما يختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية على كمال قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿١٤﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هو وحده لا شريك له الذي سخر البحر ﴿وَهَيَّأَ لِمَنَافِعَكُمْ الْمُتَنَوِّعَةَ﴾، لتأكلوا منه لحماً طرياً وهو السمك والحوت الذي يصطادونه منه، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ أي: تمخر البحر العجاج الهائل بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم وأمتعتهم وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي يسر لكم هذه الأشياء وهيئها، وتثنون على الله الذي منَّ بها، فله تعالى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى مما يتمنون، وآتاهم من كل ما سألوه، لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿١٥﴾ ﴿وَالْقُلُوبُ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ أي: ﴿وَالْقُلُوبُ﴾ الله تعالى لأجل عباده ﴿فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾ وهي: الجبال العظام لئلا تميد بهم

وتضطرب بالخلق، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، أنهاراً على وجه الأرض، وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلاً، أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناحية، ﴿لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للساكنين.

﴿١٧﴾ - ﴿٢٣﴾ ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ أَفْلا تَذْكُرُونَ﴾ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴿لَا جِزْمَ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا يَكْسِبُونَ﴾ وما يغفلون إنه لا يحب المستكبرين ﴿لَا ذَكَرَ تَعَالَى مَا خَلَقَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ﴾، وما أنعم به من النعم العظيمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفاء له ولا ند له، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ لا قليلاً ولا كثيراً، ﴿أَفْلا تَذْكُرُونَ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل اخلصوا له الدين، ﴿وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عذداً مجرداً عن الشكر ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ فضلاً عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات،



من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

وكما أن رحمته واسعة، وجوده عميم، ومغفرته شاملة للعباد، فعلمه محيط بهم، ﴿يَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى!!

ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم، ولا غيره، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتباً لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسوا بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكمال من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء، والقدرة العامة، والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال:

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فأهل الإيمان والعقول، أجلته قلوبهم وعظمتهم، وأحبته حباً عظيماً، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته وأفعاله المقدسة، ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مَكْرَةٌ﴾ لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بد

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

﴿٢٤ - ٢٩﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ قَالُوا أَطَائِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَافِلِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴿يَقُولُ تَعَالَى - مُخْبِراً عَنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ﴾ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعتفرون بها، أم تكفرون وتعاذلون؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه، فيقولون عنه: إنه ﴿أَطَائِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قضض: الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعواهم إليه، فيحملون إثم ما دعواهم إليه، وأما الذين يعلمون، فكل مستقل بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي: بشئ ما حملوا من

وقال الذين أشركوا الوشاة لله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فقل على الرسل إلا التلغ الكهنة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَبِئْسَ مَا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرْ وَكَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ إن تحريص على هداهم فإن الله لا يهدي من يشاء وما له من نصيب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِي رَسُولاً مِثْلَ مَا بَعَثْنَاكَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليسين همة الذي يخلفون فيه وتلغ الكهنة كقولهم كادوا كذابين ﴿إِنَّمَا قَوْلُكُمُ اللَّيْلِ إِذَا أَرْتُمُ أَنَّ تَقُولُ لَكُمْ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لئن لم ينته ربهم عن الناس لأفترقنكم من بينهم ولئن لم ينته ربهم عن الناس لأفترقنكم من بينهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ الذين صدقوا وعملوا بتوحيدهم وتوحيدهم

البوزر المثل لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوهم.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، واحتالوا بأنواع الخيل على رد ما جاؤوهم به، وبنوا من مكرهم، قصوراً هائلة، ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذاباً عذبوا به، ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه.

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم، وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدبيرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ﴿هَذَا فِي الدُّنْيَا، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ﴾ أي: يفضيهم على رؤوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون





مخلوقة لعبادة الله، ليكون مآلها إلى  
كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خلقت  
له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء  
الملازم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي : عقوبات أعمالهم وآثارها ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي : نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالغذاب استهزؤوا به ، وسخروا بمن أخبر به ، فعل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه .

﴿٣٥﴾ ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئاً من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام، ونحوها، من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقاً ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاء به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم، وممكنهم من <sup>(١)</sup> القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشیئة تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس، قدرة الإنسان على كل فعل يريده، من غير أن يتنازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية والحسية، ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي: البين الظاهر، الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيهم، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل

من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿ولقد بعثنا في كل  
أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا  
الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم  
من حقت عليه الضلالة فسيروا في  
الأرض فانظروا كيف كان عاقبة  
المكذبين﴾ \* إن تحرص على هداهم  
فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من  
ناصرين ﴿يخبر تعالى أن حجته قامت  
على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة  
أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا،  
وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين  
واحد، وهو عبادة الله وحده  
لا شريك له﴾ ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا  
الطاغوت﴾ فانقسمت الأمم بحسب  
استجابتها لدعوة الرسل وعدمها  
قسمين، ﴿فمنهم من هدى الله﴾  
﴿فاتبعوا المرسلين علما وعملا﴾، ﴿ومنهم  
من حقت عليه الضلالة﴾ فاتبع سبيل  
الغنى.

﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبدانكم  
وقلوبكم ﴿فانظروا كيف كان عاقبة  
المكذبين﴾ فإنكم سترون من ذلك  
العجائب، فلا تجدون مكذباً إلا كان  
عاقبته الهلاك.

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وتبذل  
جهدك في ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ  
يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده  
إلا الله، ﴿وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾  
ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم  
بأسه.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعِثُ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رِجَالًا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يَخْبَرُ تَعَالَى عَنِ الْمَشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ ، أَنَّهُمْ ﴿أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَيْ :

يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَسَمِعُوا فَأَصْوَتُوا كَعَمَلٍ ۝ وَيَجْعَلُونَ  
لِلَّهِ أَعْدَاءُونَ صَبَّأَهُمَا نَارُهُمَا تِلْكَ آتَاتُ الْفَاسِقِينَ ۝ وَعَمَلُونَ  
كَزُورٌ ۝ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُ مَا فِي السَّمُورِ ۝  
وَلَا يُبْرَأُ أَصْحَابُهَا أَتَىٰ عَلَىٰ طَلْعِ نَجْمِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِهَؤُلَاءِ حَكِيمٌ ۝  
يَتَوَلَّىٰ مِنَ الْقَدِيرِ مِنَ سُوءِ مَا بُرِّقُوا بِهٖ أَتَيْبٌ كَمُلَ لَهُمْ أَمْرٌ  
يُدْخِلُهُ الرُّبُوبُ الْأَسَافَةَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
بِالْآخِرَةِ مِثْلُ النُّعْمِ ۝ وَقَدْ آتَيْنَاهُمُ الْأَمْثَلَ ۝ وَهُوَ الْعَمِيرُ الْحَكِيمُ ۝  
وَلَوْ نَوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَاتِهِ  
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَلَآ آخَاءَ لَهُمْ لَا تَسْتَجِيرُونَ  
سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْصِفُونَ ۝ وَيَجْعَلُونَ لَهُ مَا يَكْفُرُونَ  
وَيَصِفُ أَيْسِنَهُمُ الْأَكْثَبُ ۝ إِنَّ لَهُمُ الْحَسَنَىٰ الْأَجْرَ ۝ إِنَّ  
لَهُمُ الْكَارَ وَأَنَّهُمْ مَطْهُورٌ ۝ تِلْكَ آتَاتُ الْفَاسِقِينَ ۝  
مِنْ قَبْلِكَ ۝ وَلَهُمُ الْبَطْلَانُ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ وَرِثَتُهُمْ أَيْسَرُ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَمَا زِلْنَا عَلَيْكَ الْكُتُبَ إِلَّا بِالنِّبَإِ  
لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝

حلفوا أيماناً مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً، قال تعالى مكذباً لهم: ﴿بلى﴾ سيبعثهم ويجمعهم، ليوم لا ريب فيه ﴿وعداً عليه حقاً﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿ليبين لهم الذي يتخلفون فيه﴾ من المسائل الكبار والصغار، فبين حقائقها وبوضحها.

﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم ، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وحين يرون ما يعبدون خطياً لهم ، وتكوز الشمس والقمر ، وتتناثر النجوم ، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات ، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات ، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد ، فإنه إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، من غير منازعة ولا امتناع ، بل يكون على طبق ما أَرَادَهُ وشاءه .

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾

(۱) کذا فی ب، وفي أ: علی.

من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ \* أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين \* أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴿هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلبهم وشغلهم، وعدم خطوط العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العصاة بالعقوبة، بل يمهّلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم<sup>(١)</sup> أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع من السيئات التي تضرهم، ويعدّهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فلنستخرج المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات<sup>(٢)</sup>، ومعاصيه

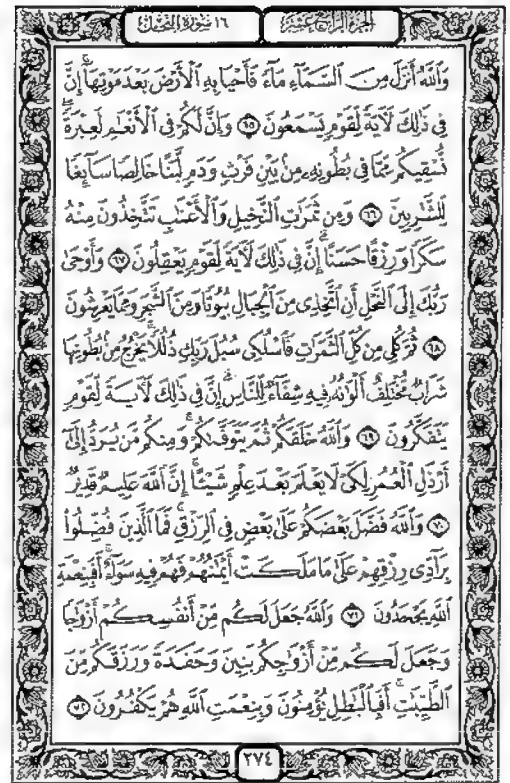
بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلة، وعلى الأذى فيه والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ عابه، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمُ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ \* بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ﴾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا﴾ أي: لست ببدع من الرسل، فلم ترسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كاملين لا نساء، ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ أي: الكتب السابقة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نبي الأولين، وشككتهم هل بعث الله رجالاً؟

فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرروا عندهم، أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل



في الله من بعد ما ظلموا النبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون \* الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿يخبر تعالى بفضل المؤمنين المتحسين﴾ الذين هاجروا في الله ﴿أي: في سبيله وابتغاء مرضاته﴾ من بعد ما ظلموا ﴿بالأذى والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين، ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عياناً، بعدما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أكبر﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ \* يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم \* خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴿وقوله﴾: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان لهم علم يقين

(٢) في ب: الحالات.

(١) كذا في ب، وفي أ: عليهم.

صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَمْهَلُ وَلَا يَهْمَلُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَخَذَ الْعَاصِي أَخْذَهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ، فَلْيُتَّبَعْ إِلَيْهِ وَلْيَرْجَعْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ رَوْوْفٌ رَحِيمٌ.

فالبدار البدار إلى رحمة الواسعة وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ «أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفوق ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داحرون \* والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون \* يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» يقول تعالى: ﴿أولم يروا﴾ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلتها، ﴿عن اليمين﴾ وعن الشمائل سجداً لله أي: كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿وههم داحرون﴾ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله، وتدبيره عنده.

﴿والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿والملائكة﴾ الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وههم لا يستكبرون﴾ أي: عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾.

﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أدلاء تحت قهره.

﴿يفعلون ما يؤمرون﴾ أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره، طوعاً واختياراً، وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً: سجود اضطرار، ودلالة على

ماله من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين، من الملائكة وغيرهم [من المخلوقات].

﴿٥١ - ٥٥﴾ «وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فيأي ياي فارهبون \* وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون \* وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون \* ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون \* ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون» يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية فقال: و ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ أي: تجعلون له شريكاً في إلهيته، وهو ﴿إنما هو إله واحد﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها.

فكما أنه الواحد في ذاته، وأسمائه ونعوته وأفعاله، فليتوحدوه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فيأي ياي فارهبون﴾ أي: خافوني، وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهبي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

﴿وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً﴾ أي: الدين، والعبادة، والذل في جميع الأوقات، لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله، وينصبغوا بعبوديته.

﴿أفغير الله تتقون﴾ من أهل الأرض أو أهل السموات، فإنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، والله المتفرد بالعطاء والإحسان، ﴿وما بكم من نعمة﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فمن الله﴾ لا أحد يشركه فيها، ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿فإليه تجأرون﴾ أي: تضجون بالدعاء والتضرع، لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو

ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿\* ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه وتارزقاً حسناً فهو يفرق منه سراً وجهراً هل يتورع الحمد لله بل أكثره لا يعلمون ﴿\* وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كليل مولاهما الآخر بصير لا يأتي بغير ما يقدر هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴿\* وقبضت السموات والأرض وكأنتا السجدة إلا كضح البصر أو هو أقرب﴾ إن الله على كل شيء وكيل ﴿\* والله آخر حكمكم من بطون أممكم﴾ لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴿\* الزبر والظلم مسخرة في جوار السماء ما يمشيكم﴾ إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿\*﴾

الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

ولكن كثيراً من الناس، يظلمون أنفسهم، ويحمدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء، أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال:

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي: أعطيناهم، حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة، ﴿فتمتعوا﴾ في دنياكم قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة كفركم.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ «ويعلمون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون \* ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون \* وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم \* يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون \* للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيباً مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا الله برزعمهم







أي: ﴿إِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ التي سخرها الله لمنافعكم ﴿لَعِبْرَةً﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرت والدم، فأخرج من بين ذلك لبناً خالصاً من الكدر سائغاً للشاربين، للذته، ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

فأي: شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طرياً ونضيجاً، وحاضراً ومدخراً، وطعاماً، وشراباً يتخذ من عصيرها وينبذها، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حل المسكرات، وأغاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمته، حيث عم<sup>(١)</sup> بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ \* ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلَّلَا بِخُرُوجِ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابًا مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها

ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

﴿٧٠﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم، يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الصبي، ولهذا قال: ﴿لَكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، إن الله عليم قدير ﴿أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينقل به الأدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهذا من أدلة توحيده، وقبح الشرك به، يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مزروقون، إلا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن ساداتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فهم فيه سواء، ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟

هل هذا إلا من أعظم الظلم، والجحود لنعم الله؟! ولهذا قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاهها، لما أشركوا به أحداً.

﴿٧٢﴾ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرِزْقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يخبر تعالى عن منتهى العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر بهم أعينهم، ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من جميع المأكول والمشرب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبيد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟!.

﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه؟!.

﴿٧٣ - ٧٦﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ \* فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ \* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقَانَا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوتِرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ

(١) كذا في ب، وفي أ: عم.

لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴿يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء. لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطراً ولا رزقاً، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات، الذي له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها؟! ﴿

ولهذا قال: ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استواءهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة، ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء؟! ﴿

ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الحمد لله﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فلو علموا حقيقة

العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم. والمثل الثاني مثل ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ لا يسمع ولا ينطق و ﴿لا يقدر على شيء﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وهو كل على مولاه﴾ أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه، فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل، وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلو لا قيام الله بها لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ونذاً لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿٧٧﴾ ﴿والله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة، فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتحلت، لم تكن ﴿إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم يعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

﴿٧٨﴾ ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث ﴿أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ ولا تقدر على شيء ثم إنه ﴿جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاهم

إياها، وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة الثلاثة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

﴿٧٩﴾ ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: لأنهم المنتفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم فإن نظرهم لنظر لغو وغفلة، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على كمال حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ \* والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون \* فإن تولوا فإنما عليك البلاغ البين \* يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾ يذكر تعالى عبادة نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ في الدور والقصور ونحوها، تكتفكم من الحر والبرد وتستركم، أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف<sup>(١)</sup> والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، ﴿وجعل لكم من جلود

(١) في الأصل: البيوت والغرف والبيوت.

الأنعام ﴿إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر.

﴿بيوتاً تستخفونها﴾ أي: خفيفة المحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿و﴾ جعل لكم ﴿من أصوافها﴾ أي: الأنعام وأوبارها وأشعارها أثاثاً وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الأنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك.

﴿ومتاعاً إلى حين﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعتة وعمله.

﴿والله جعل لكم مما خلق﴾ أي: من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها ﴿ظلالاً﴾ وذلك، كأظلة الأشجار والجبال، والآكام ونحوها، ﴿وجعل لكم من الجبال أكنائاً﴾ أي: مغارات، تكنكم من الحر والبرد والأمطار والأعداء.

﴿وجعل لكم سراويل﴾ أي: ألبسة وثياباً ﴿تقيكم الحر﴾ ولم يذكر الله البرد، لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿لكم فيها دفء ومنافع﴾.

﴿وتقيكم بأسكم﴾ أي: وثياباً تقيكم وقت البأس والحرب، من السلاح، وذلك، كالدرع والزرذ، ونحوها، كذلك يتم نعمته عليكم حيث أسبغ عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر ﴿لعلكم﴾ إذا ذكرتم نعمة الله، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه ﴿تسلمون﴾ لعظمته وتقادون لأمره، وتصرفونها في طاعة موليا ومديها، فكثرة النعم من الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبى الظالمون إلا تمرداً وعناداً.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فإن تولوا﴾ عن الله وعن طاعته بعد ما ذكروا بنعمه وآياته، ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أدبت ما عليك، فحسابهم على الله، فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويحذونها، ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصودهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد، كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسوله.

﴿٨٤ - ٨٧﴾ ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون \* وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون \* وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون \* وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون \* يخبر تعالى عن حال الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر، ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تتبرأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ يشهد عليها بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أركى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

ف ﴿لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار، لأن اعتذارهم بعد ما علم يقيناً بظلمهم ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئاً، وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونها، لأنهم لا حساب عليهم لأنهم لا حسنات لهم، وإنما تعد أعمالهم وتخصى، ويوقفون عليها ويقررون بها ويفتضحون.

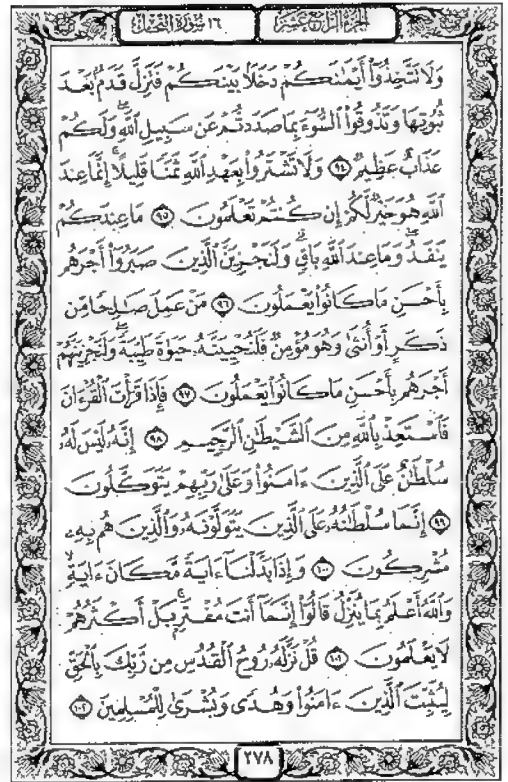
الذين كفروا وصعدوا عن سبيل الله وذنبوا عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجناتنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ ولنا عليك الكتاب يتلى لكل خير وهدى ورحمة ونذير للمسلمين ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ يعظكم لعلكم تتقون ﴿وأوفوا بعهدي إذا عاهدتم ولا تقصروا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلنا الله عليكم حكماً فويلاً للذين يعلمون ما أفعلون ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتذرون أيمانكم يركبها يديكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إيمانكم﴾ الله يهدي وليبين لكم يومئذ ما كنتم فيه تغلطون ﴿ولولا أن الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولست أن عاشر عاصيكم﴾

﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ يوم القيامة وعلموا بظلمهم، ولم يمكنهم الإنكار. ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فنوهم بأنفسهم بظلمهم، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فألقوا إليهم القول﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إنكم لكاذبون﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه، فلم تأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقاً للالهية، فاللوم عليكم. فحيث استسلموا لله، وخضعوا لحكمته، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ فدخلوا النار، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم، ومن خد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿٨٨﴾ ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسوله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿٨٩﴾ ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجناتنا بك﴾



شهاداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴿٢٧٨﴾ لما ذكر فيما تقدم أنه يبعث ﴿في كل أمة شهيداً﴾ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي: على أمتك، تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴿وقوله﴾: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بالفاظ واضحة، ومعان جليلة، حتى إنه تعالى يشني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبدئها بالفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتثمر من

الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالله يهدي ما نالوه به من علم نافع، وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمانينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه، التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿٩٠﴾ ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده، فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدينية، والمركبة منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل مال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاولات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة

مستحب، وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلياً في العموم - لتأكد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريبتهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالبغى كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى، فهي مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغى، فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به، وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يعظكم﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرركم. ﴿لعلكم تذكرون﴾ ما يعظكم به، فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكروته وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:

﴿٩١-٩٢﴾ «وَأَوْفُوا بعهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ إِيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه، من العبادات والنذور والإيمان التي عقدها، إذا كان الوفاء بها براً، ويشمل أيضاً ما تعاهد عليه هو وغيره، كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره، ويؤكد على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعقدها على اسم الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتعاقدان ﴿كَفِيلًا﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك تعظيم لله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين، والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلاً. فكما اتتمنتك وأحسن ظنه فيك، فلتف له بما قلت وأكدته.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَالَّذِي﴾ تغزل غزلاً قوياً، فإذا استحکم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنْكَاثًا﴾ فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمروءة.

وقوله: ﴿تَتَخَذُونَ إِيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾ بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة

أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم، تعقدون الإيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادر على الآخر، أتمها، لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه. وإن كان قوياً، يرى مصلحته الدنيوية في نقضها، نقضها غير مبال بعهْدِ اللَّهِ ويمينه.

كل ذلك دوراناً مع أهوية النفوس، وتقديماً لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية، لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يتليكم الله به حيث قبض من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

﴿وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل بما عمل، ويخزي الغادر.

﴿٩٣﴾ «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ وَلِتَسْأَلُنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أي: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لجمع الناس على الهدى وجعلهم أمة واحدة. ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً. ﴿وَلِتَسْأَلُنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿٩٤﴾ «وَلَا تَتَّخِذُوا إِيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» أي: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا إِيْمَانَكُمْ﴾ وعمودكم ومواثيقكم تبعاً لأهوائكم، متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك، تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم. ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم بما صدتكم عن سبيل الله. حيث ضللتكم وأضللتكم غيركم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مضاعف.

وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنْتُمْ بِتَوَلَّيْتُمْ إِيْمَانَكُمْ بِشَرِّ سَائِرِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَصْحَابِ هَذَا السَّانِ عَرَفُوا مُبَيِّنٌ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَاقِبَةِ اللَّهِ لَا يُهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٦﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَائِلَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ لَا يَمْنُ أَكْثَرُ وَفْقَهُ مُطْعِمٌ بِالْإِيمَانِ وَالْكَفَرِ شَرٌّ بِالْكَفَرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا خَوَافًا لِلنَّاسِ عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَنصَرَجَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَاقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ لَاجِبُهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْكَاسِرُونَ ﴿١٠١﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُضِيَ لَهُمْ جَهْدُا وَصَرَّوْا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَدُّوهُمُ رَجْعًا ﴿١٠٢﴾

﴿٩٥-٩٧﴾ «وَلَا تَتَّخِذُوا بَعْدَ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» \* مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* مَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* يَحْذَرُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ وَالْإِيمَانِ، لِأَجْلِ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا، فَقَالَ:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا بَعْدَ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء. ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب العاجل والاجل لمن أثار رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من حطام الدنيا الزائلة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

فأثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الذي عندكم ولو كثر جداً، لا بد أن ينفد ويفنى، وما عند الله باق ببقائه، لا يفنى ولا يزول، فليس يعاقل من أثار الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَوَثَّرُونَ حَيَاةَ الدُّنْيَا \* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا. خصوصاً الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على





حق الله، فإن هذا الزهد واجب.

ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعو إلى إثارة أعلى الأمرين [وليس الزهد المدحوخ هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر، ونحوها، بل لا يكون العبد زاهداً زهداً صحيحاً حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل، فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع<sup>(١)</sup>].

﴿ولنجزيهم الذين صبروا﴾ على طاعة الله، وعن معصيته، وفطموا نفوسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أفعالاً صالحة، إلا بالإيمان، والإيمان مقتضى لها، فإنه

التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فلنجزيه حياة طيبة﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً، من حيث لا يحتسب. ﴿ولنجزيهم﴾ في الآخرة ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من أصناف اللذات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

﴿٩٨ - ١٠٠﴾ ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله، الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالتطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متدبراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان ﴿ليس له سلطان﴾ أي: تسلط ﴿على الذين آمنوا وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

و ﴿إنما سلطانه﴾ أي: تسلطه ﴿على الذين يتولونه﴾ أي: يجعلونه لهم ولياً، وذلك بتخليهم عن

ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأزهم إلى المعاصي أزاً، وقادهم إلى النار قوداً.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴿يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن، يتتبعون ما يروونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر، لحكمته ورحمته، فإذا رآوه كذلك، قدحوا في الرسول وبما جاء به، و ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ قال الله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشرعه، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب المدح أو القدح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قل نزل به روح القدس﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿بالحق﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتاً بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضاً فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكماً [من الأحكام] ثم نسخه، علموا أنه أبطله بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية.

﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) زيادة من هامش: ب.

الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً. وأيضاً فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة، [أكثر] <sup>(١)</sup> فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه، وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات النفي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿١٠٣ - ١٠٥﴾ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴿١٠٣﴾ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولنهم عذاب أليم ﴿١٠٤﴾ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴿١٠٥﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله ﴿أنهم يقولون إنما يعلمه﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بشر﴾ وذلك البشر، الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصويره.

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها. ﴿لا يهديهم الله﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحزمائه، وخذلان الله لهم. ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾.

﴿إنما يفترى الكذب﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من الذين

لا يؤمنون بآيات الله ﴿كالمعاندين﴾ لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ أي: الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائحتهم، فله تعالى الحمد.

﴿١٠٦ - ١٠٩﴾ ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدر﴾ أفعليهم غضب من الله ولنهم عذاب عظيم ﴿١٠٦﴾ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴿١٠٧﴾ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الخافلون ﴿١٠٨﴾ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿١٠٩﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر، راضياً به مطمئناً، أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء. ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً.

و ﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم، طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدم، لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرموها رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم

الخاسرون﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكره على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿١١٠﴾ أي: ثم إن ربك الذي ربي عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلي دياره وأمواله، طلباً لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله، بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة، على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴿كل يقول نفسي نفسي لا يمهه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير﴾.

﴿وتوفي كل نفس ما عملت﴾ من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون

إلا ما كنتم تعملون ﴿١١٢﴾

﴿١١٢ - ١١٣﴾ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ \* ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴿١١٣﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة، التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنعرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿١١٤﴾ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١١٤﴾

﴿١١٤ - ١١٨﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ \* إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴿١١٥﴾ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴿١١٦﴾ متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴿١١٧﴾ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١١٨﴾ يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار، وغيرها. ﴿حَلالًا طَيِّبًا﴾ أي: حالة كونها متصفة

بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أثرًا عن غضب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعد ﴿١١٩﴾ واشكروا نعمة الله ﴿١٢٠﴾ بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْأَشْيَاءَ الْمُضَرَّةَ تَنْزِيهاً لَكُمْ﴾، وذلك: كـ ﴿الميتة﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك، ميتة الجراد والسمك.

﴿وَالدَّمُ﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ﴾ لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وَمَا أَهْلَ لْغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها، لأنه مقصود به الشرك.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ﴾ - بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً، أي: إذا لم يزد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ولا متعدد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذباً وافتراء على الله وتقولوا عليه.

﴿لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم وإن تمتعوا في الدنيا، فإنه ﴿متاع قليل﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

فإن الله تعالى ما حرم علينا إلا

الخبثات، تفضلاً منه، وصيانة عن كل مستقذر.

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببيغهم وإنا لصادقون﴾.

﴿١١٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنْ رِبْكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنْ رِبْكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا حش من لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة، بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متمسكاً للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه <sup>(١)</sup> وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

﴿١٢٠ - ١٢٣﴾ ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ \* شاكراً لأنعمه اجتباة وهذا إلى صراط مستقيم ﴿١٢١﴾ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴿١٢٢﴾ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿١٢٣﴾ يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً. ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أي: مديماً لطاعة ربه، مخلصاً له الدين. ﴿حَنِيفًا﴾: مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عن سواه. ﴿ولم يك من المشركين﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الختفاء.

﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة

(١) كذا في ب، وفي أ: عزم.





عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴿١٠﴾ كثيراً ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ، ونبوة موسى ﷺ، وبين كتابيهما وشريعتيهما، لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَتَيْنَا موسى الكتاب﴾ الذي هو التوراة ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق.

﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ أي: وقلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك، ليعبدوا الله وحده، وينيبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلاً ومديراً لهم، في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئاً، ولا ينفعونهم بشيء.

﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾ أي: يا ذرية من آمننا عليهم، وحملناهم مع نوح، ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾ ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ<sup>(١)</sup> أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعمة الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولى بأساً شديداً﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

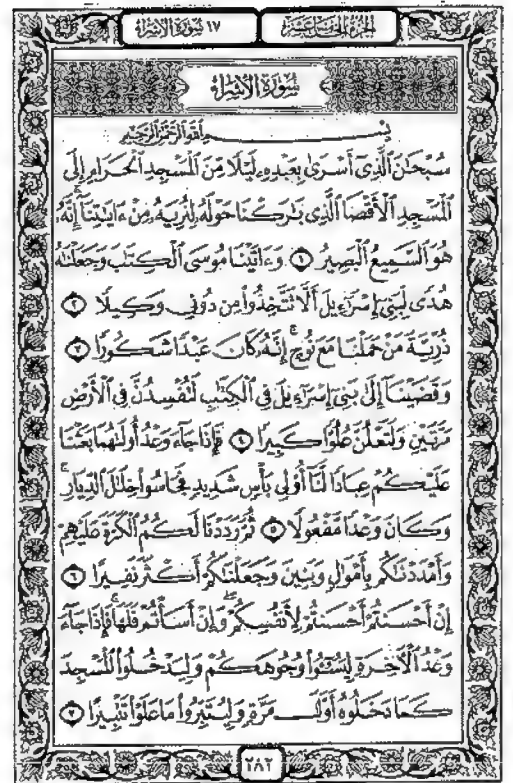
وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والشواب، وحاز من الفاخر تلك الليلة، هو وأمه، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محللاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢-٨﴾ ﴿وَأَتَيْنَا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً﴾ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علواً تتبيرا ﴿



### تفسير سورة بني إسرائيل وهي مكية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، التي من جملتها أن ﴿أسرى بعبده﴾ ورسوله محمد ﷺ، ﴿من المسجد الحرام﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتاً وفرقناً، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعماً فاق بها الأولين والآخرين، وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح، أنه أسري به من بيت أم هانئ، فعلى هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في

(١) في السخين: إذا.



فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه. ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم.

واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلمين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار.

إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي، وتركوا كثيراً من شريعتهم، وطفخوا في الأرض.

﴿ثم رددنا لكم الكثرة عليهم﴾ أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجليتموهم من دياركم. ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم، وكثرتناكم، وقويناكم عليهم، وجعلناكم أكثر نفيراً منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن النفع عائد إليكم، حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي: فلا أنفسكم يعود الضرر، كما أراكم الله من تسلط الأعداء.

﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: المرة الآخرة<sup>(١)</sup> التي تفسدون فيها في الأرض، سلطنا أيضاً عليكم الأعداء. ﴿ليسوؤوا وجوهكم﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم وليدخلوا المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد، مسجد بيت المقدس.

﴿وليتبروا﴾ أي: يخرّبوا ويدمروا ﴿ما علوا﴾ عليه ﴿تنبيرا﴾ فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ فيديل لكم الكثرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وإن عدتم﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمداً ﷺ،

فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ يصلونها ويلازمونها، لا يخرجون منها أبداً. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنة الله واحدة لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسلط الكفرة على المسلمين والظلمة، عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم، عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله، مكن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعدنا لهم عذاباً أليماً. يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه يهدي للتي هي أقوم أي: أعدل وأعلى، من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أمورهم.

﴿وببشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ من الواجبات والسنن، ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾ أعده الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعدنا لهم عذاباً أليماً﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان، والعمل الصالح، والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك.

﴿١١﴾ ﴿ويدع الإنسان بالشكر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾ وهذا من جهل الإنسان وعجلته، حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء، كما يبادر بالدعاء في الخير،

عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدت وعدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً. ﴿٩﴾ ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعدنا لهم عذاباً أليماً. ﴿١٠﴾ ﴿ويدع الإنسان بالشكر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم وتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً. ﴿١١﴾ ﴿وكل إنسان أرذلةً في عقوقه﴾ ويخرج له يوم القيمة كتاباً يلقيه منشوراً ﴿أقرأ كتابك﴾ في نفسك اليوم عليك حبساً ﴿من اهتدى﴾ فإمتهدى إلى الهدى ونفسه ومن ضل فإمتهدى إلى الضلال ولا تزد ولا تزد أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً ﴿لأننا أنزلنا آياتنا في القرآن متريفاً﴾ ففسدوا فيها حقها ﴿القول فدرهمها ثوباً﴾ ﴿وإذا أهلكنا من القرون من بعدك﴾ ونحو ذلك ﴿بأنزلنا عليه خبراً﴾

ولكن الله - بلطفه<sup>(٢)</sup> - يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر. ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾.

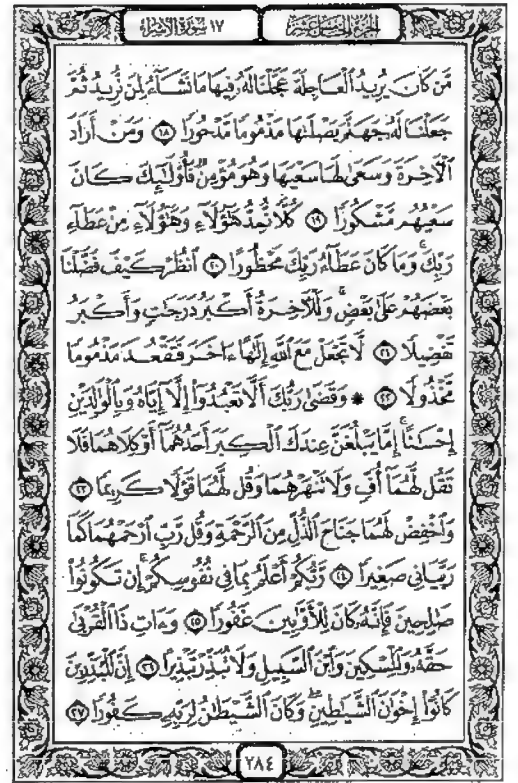
﴿١٢﴾ ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم وتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ يقول تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أي: داليتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿فمحونا آية الليل﴾ أي: جعلناه مظلماً، للسكون فيه والراحة، ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي: مضيئة، ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في معاشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم.

﴿وتعلموا﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر وعدد السنين والحساب فتبتنون عليها ما تشاؤون من مصالحكم.

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه، لتتميز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

(٢) في ب: من لطفه.

(١) في ب: الأخرى.



﴿١٣ - ١٤﴾ «وكل إنسان الزمانه طائر في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً \* اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً \* وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائر في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله. ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً \* فيه ما عمله من الخير والشر حاضراً، صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾»

وهذا من أعظم العدل والإنصاف، أن يقال للعبد: حاسب نفسك، ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

﴿١٥﴾ «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً \* أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى عادل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة.

وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله تعالى لا يعذبه.

واستدل بهذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولاً، لأنه منزّه عن الظلم.

﴿١٦ - ١٧﴾ «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً \* وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً \* يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفيها أمراً قديراً، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم، ﴿فحق عليها القول﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فدمرناها تدميراً﴾»

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم. ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ فلا يخافوا منه ظلماً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿١٨ - ٢١﴾ «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً \* ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً \* كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً \* انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً \* يخبر تعالى أن ﴿من كان يريد الدنيا ﴿العاجلة﴾ المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى، أن الله يعجل له من حظائها ومتاعها ما يشاء ويريد، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له. ثم يجعل له في الآخرة ﴿جهنم يصلاها﴾ أي: يباشر عذابها، ﴿مذموماً مدحوراً﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجتمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿ومن أراد الآخرة﴾ فرضيها وأثرها على الدنيا ﴿وسعى لها سعيها﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ أي: مقبولاً مُمْتَنًى، مدخراً لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلا يمدد الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه. ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلته وإحسانه.

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ في الدنيا، بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسهو، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

فكم بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سحق الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عدّه.

﴿٢٢﴾ «لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً \* أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان، فالله وملائكته ورسله، قد نهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفاً، وأقبحهم نعتاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع

أحداً إلا بإذن الله، وكما أن من جعل مع الله إلهاً آخر له الذم والخذلان، فمن وحده، وأخلص دينه الله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في جميع أحواله.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً \* واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحهما كما ربياني صغيراً لما نهى تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربك﴾ قضاء دينياً، وأمر أمراً شرعياً ﴿أن لا تعبدوا﴾ أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات.

﴿إلا إياه﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القول والفعل، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر.

﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف. ﴿فلا تقل لهما أف﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذيهما أدنى أذية.

﴿ولا تنهرهما﴾ أي: تزجرهما، وتكلم لهما كلاماً خشناً، ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ بلفظ يحبانه، وتأدب وتلطف بكلام لين حسن يلد على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي: تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.

﴿وقل رب ارحهما﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً، جزاء على تربيتكما إياك صغيراً.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية.

﴿٢٥﴾ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إن تكونوا صالحين﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فإنه كان للأوابين﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غفوراً﴾ فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبة ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿٢٦ - ٣٠﴾ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً \* إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً \* وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهن قولاً ميسوراً \* ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً \* إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ يقول تعالى: ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ من البر

والإكرام، الواجب والمسنون، وذلك الحق، يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمنة.

﴿والمسكين﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهى الله عنه وأخبر:

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى، إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

وقال هنا: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل. ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ فتتفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فتقعد﴾ إن فعلت ذلك ﴿ملوماً﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى، مع القدرة والغنى، فأما مع العدم، أو تعسر النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يردوا رداً جميلاً فقال: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فقل لهن قولاً ميسوراً﴾ أي: لطيفاً برفق، ووعد بالجميل، عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبنوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾.

وهذا أيضاً من لطف الله تعالى

بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند اليسر، عبادة حاضرة، لأن الله يفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله يسره له [سبب رجائه] (١).

ثم أخبر تعالى أنه ييسر الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمة منه، «إِنَّه كَانَ بعباده خبيراً بصيراً» فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم، بلطفه وكرمه. ﴿٣١﴾ «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقَدْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا» وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع.

وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيراً، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم والتجرؤ على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

﴿٣٢﴾ «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْنَىٰ إِنَّهٗ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصاً هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه «كَانَ فَاحِشَةً» أي: إثماً يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفساد.

وقوله: «وَسَاءَ سَبِيلًا» أي: بش السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿٣٣﴾ «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهٗ كَانَ مَنْصُورًا» وهذا شامل لكل نفس «حَرَّمَ اللَّهُ» قتلها من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد.

﴿٣٤﴾ «إِلَّا بِالْحَقِّ» كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغية إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿٣٥﴾ «وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا» أي: بغير حق «فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ» وهو أقرب عصباته وورثته إليه «سُلْطَانًا» أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضاً سلطاناً قديراً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعمد العدوان، والمكافأة.

﴿٣٦﴾ «فَلَا يَسْرِفُ» الولي «فِي الْقَتْلِ إِنَّهٗ كَانَ مَنْصُورًا» والإسراف مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل على أن الحق في القتل للولي، فلا يقتض إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص.

وأن ولي المقتول، يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

﴿٣٧﴾ «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم، الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه «إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن «يَبْلُغَ» اليتم «أَشُدَّهُ» أي: بلوغه، وعقله، ورشده، فإذا بلغ أشده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: «فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ

رَشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» وأوفوا بالعهد الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه، فإن وفيتهم، فلكم الثواب الجزيل، وإن لم تفوا (٢)، فعليكم الإثم العظيم.

﴿٣٨﴾ «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ أَسْمَنَ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» وهذا أمر بالعدل وإفاء الكاييل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص، ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن أو مئمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿٣٩﴾ «ذَلِكَ خَيْرٌ» من عدمه «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

﴿٤٠﴾ «وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يُعَدَّ للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص النيتين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿٤١﴾ «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا» كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهًا \* ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً» يقول تعالى: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أي: كبيراً وتهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعظماً على الخلق.

﴿٤٢﴾ «فِي فَعْلِكَ ذَلِكَ» لن تخرق

(٢) في ب: تفعلوا.

(١) زيادة من هامش: ب.



الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً في  
تكبرك بل تكون حقيراً عند الله ومحتقراً  
عند الخلق، مبعوضاً ممقوتاً، قد  
اكتسبت أشر الأخلاق، واكتسبت  
أرذالها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كل ذلك﴾ المذكور الذي نهي الله عنه فيمة تقدم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ والنهي عن عقوق الوالدين، وما عطف على ذلك، ﴿كان سيئته عند ربك مكروهاً﴾ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿ذلك﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجلية، ﴿مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ فإن الحكمة، الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال.

وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات، من الحكمة العالية، التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب، ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتى خيراً كثيراً.

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتحها بذلك فقال:

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

﴿مَلُومًا مَذْحُورًا﴾ أي: قد لحقتك  
اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته  
والناس أجمعين.

﴿٤٠﴾ ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ  
وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ  
قَوْلًا عَظِيمًا﴾ وهذا إنكار شديد على  
من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات  
فقال: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أي:  
اختار لكم الصفوة والقسم<sup>(١)</sup> الكامل،  
واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، حيث  
زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إِنكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فيه أعظم الجرامة على الله، حيث نسبتهم له

الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض  
المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ  
القسمين، وهنّ الإناث، وهو الذي  
خلقكم، واضطفاكم بالذكور،  
فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً  
كبيراً.

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿ولقد صرفنا في  
هذا القرآن ليعذروا وما يزيدهم إلا  
نفورا﴾ \* قل لو كان معه آلهة كما  
يقولون إذا لا ينفخوا إلى ذي العرش  
سبيلا \* سبحانه وتعالى عما يقولون  
علواً كبيراً \* تسبح له السماوات السبع  
والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا  
يسبح بحمده ولكن لا تفقهون  
تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ \* يخبر  
تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن،  
أي: نوع الأحكام ووضحها، وأكثر  
من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه،  
ووعظ وذكر، لأجل أن يتذكروا ما  
ينفعهم فيسلوكوه، وما يضرهم  
فدعوه.

ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن  
آيات الله، لبغضهم للحق، ومحبتهم ما  
كانوا عليه من الباطل، حتى تعصبوا  
لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله لهم  
سمعاً، ولا أقوالها بالآل.

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً، بحيث من أصغى إلى بعضها، لا تدع في قلبه شك ولا ريباً.

ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قُلْ﴾ للمشرِكِينَ الَّذِينَ يُجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أَي: على موجب زعمهم وافترائهم، ﴿إِذَا لَا يَأْتِيهِمُ الْغُيُوبُ﴾ إِذَا لَا يَأْتِيهِمُ الْغُيُوبُ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا أَي: لَا تَحْذُوا سَبِيلًا إِلَى اللَّهِ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّقَرُّبِ وَابْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ، فَكَيْفَ يُجْعَلُ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ الَّذِي يَرَى شِدَّةَ إِفْتِقَارِهِ لِعِبَادِيَّةِ رَبِّهِ،

وَأَمَّا لَعْنَةُ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ سَاعَةً وَلَا تَهْتَبْ لَهُمْ مَتَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ بَدُلُ الْمَالِ خَيْرٌ ۖ وَلَا يَبْسُطُهَا كُلُّ الْبَاسِطِ فَتَعُدُّهُمُ مَعَكُمْ ۚ ﴿١٠١﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيُمْسِكُ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَارِثُ ۚ ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَبْنَاءُكُمْ وَرِثَتُكُمْ ۖ وَأَن تَقْتُلُوهُمْ كَانَ خَطَاكُمْ كَبِيرًا ۚ ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ قُرْشًا وَبِئْسَ مَا كَسَبَ سَاحِلًا ۚ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِثَتِهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الثَّمَنِ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُتَوَّسِرًا ۚ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۚ ﴿١٠٦﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنًا بِالْقِسْطِ ۚ أُولَئِكَ الشَّقِيقُ ۚ ﴿١٠٧﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّهُ يَفْقَهُ مَا تَعْمَلُونَ ۚ ﴿١٠٨﴾ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَآلِفَةَ ۚ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنده مَسْئُولًا ۚ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّكَ إِن تَخِرْقَ الْأَرْضَ وَمِن تَبْلَغَ أَتَعْلَمَ لَوَلَا ۚ ﴿١١٠﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۚ ﴿١١١﴾

إلها مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم  
الظلم وأسفه السفه؟! ..

فعلى هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا  
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ  
أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا  
السَّبِيلَ﴾ \* قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي  
لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ \* .

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلو عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فأما وقد علموا أنهم يقولون أن آلهتهم التي يعبدون <sup>(٢)</sup> من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ ..

﴿سبحانه وتعالى﴾ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عما يقولون﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿علواً كبيراً﴾ فعلاً قدره وعظمه، وجلت كبرياؤه، التي لا تقادر أن

(١) في ب : النصيب .

(۲) فی پ: يدعون.



فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ خَلْقًا مِنْ خَلْقِهِ،

القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة،

الجبال ولكنه امهلهم ، وانعم عليهم ،

يزعمون أنهم أولو العقول والألباب، مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلاها، وأوضحها براهين وأعلاها، ليرى عباده أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانتته، أو الهلاك والضلال.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً:

﴿قل كونوا حجارة أو حديداً \* أو خلقاً مما يكبر﴾ أي: يعظم ﴿في صدوركم﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزى الله، في أي: حالة تكونون، وعلى أي: وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿فسيقولون﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

﴿فسينفضون إليك رؤوسهم﴾ أي: يهزونها، إنكاراً وتعجباً مما قلت، ويقولون متى هو؟ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سفة منهم، وتعجيز. ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

﴿يوم يدعوكم﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور، ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أي: تنقادون لأمره، ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بحمده﴾ أي: هو المحمود تعالى على ما يفعله ويجزي به العباد، إذا جمعهم ليوم التناد.

﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ من

سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿متى هو؟﴾ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً \* ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلاً \* وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً \* وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال، الموجهة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره. وقوله: ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم، لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه، فإنه يدعوهم ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسعى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم، وأن يجمعوا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان

من قبلها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.

﴿ربكم أعلم بكم﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً خيراً في عكسه.

﴿إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيضل عنها، فيستحق العذاب.

﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم.

﴿وربك أعلم بمن في السماوات والأرض﴾ من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كل منهم ما يستحقه تقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال، الحسنة والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحية على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم، من الأوصاف المدحوة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الاتباع، ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم كتاباً، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان مخذوراً ﴿يقول تعالى﴾: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين.

﴿ادعوا الذين زعمتم﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم، أو

لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ علماً وقدرة، فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس.

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿والشجرة الملعونة﴾ التي ذكرت في القرآن وهي شجرة الرقوم، التي تنبت في أصل الجحيم.

والمعنى، إذا كان هذان الأمران، قد صاراً فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقاً للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضاً، من الخوازيق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوازيق الجسيمة؟!!

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله ألفاظاً عامة، تتناول جميع ما يكون.

﴿ونخوفهم﴾ بالآيات ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغياناً كبيراً﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبة، وبغض الخير وعدم

كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

﴿٥٨﴾ ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أبرمه، لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإجابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ \* ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالآولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة، التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه، وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهاه، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية، فغيرها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان، الذي

يدفعون عنكم الضر، فإنهم لا ﴿يملكون كشف الضر عنكم﴾ من مرض، أو فقر، أو شدة، ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ﴿ولا﴾ يملكون أيضاً تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال نافعة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي.

ومن العجيب، أن السفه عند الاعتیاد والممارسة، وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه هو الرأي: السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد، الكامل النعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

ثم أخبر أيضاً، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، فقال:

﴿أولئك الذين يدعون﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدررون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف والرجاء والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلاوة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال





وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ  
وَهَآ أَنْتَ تَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَآزٍ مِّنْهُم مَّا رَاسِلُوا أَفَإِن مِّنْ آيَةٍ إِلَّا تُحْجِثُ بِهَا  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مَنْ يَخْشَىٰ  
الْمَوْتَ فِي الْقُبْرِ إِنَّا نَعْلَمُ مَا نَزِدُّكُمْ إِلَّا غَفْلًا كَذِبًا  
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا  
إِبْلِسَ قَالَ أَنَسْجُودَ لِمَنْ خَلَقْتُ مِنِّي أَنَا قَالَ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَافِرُ  
هَذَا الَّذِي كَذَّبْتَ عَنْ آيَاتِنَا فَخَرْنَاكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
لَا تَحْصِي كُذُوبَكَ إِلَّا إِلَهُكَ قَالَ أَذْهَبَ عَنْ عَيْنِكَ  
وَمِنْهُمْ فَأَن جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مُّوَفًوًّا وَاسْتَغْفِرُ  
مَنْ أَسْتَغْفِرُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ الْوَيْلِ  
وَسَارَكَهُمْ فِي الْأُفُوقِ وَالْأَلْوَالِدِينَ وَمَا يَدْرِي السَّيِّئُونَ  
إِلَّا أَغْوَاً ۚ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَذَّبُوا  
بِرَبِّكَ وَكَذَّبُوا ۚ وَتَبَكَّرَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ لَكَ الْفُلُوكَ  
فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ قَبْلِهِمْ إِنَّكَ كَأَن تَكُونُ رَكْبًا ۚ

ونجاهم إلى البر، نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به، من لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره، فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله، فمن عليه بالعقل السليم، واهتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم، أن الذي يكشف الشدائد، وينجي من الأهوال، هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له سائر الأعمال، في الشدة والرخاء، واليسر والعسر. وأما من خذل، ووكل إلى عقله الضعيف، فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة، وإنجاهه في تلك الحال.

فلما حصلت له النجاة، وزالت عنه المشقة، ظن بجهله أنه قد أعجز الله، ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية، فضلاً عن أمور الآخرة. ولهذا ذكرهم الله ذلك بقوله: ﴿أفأنتم أن تحسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذاباً، من أسفل منكم بالحسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يخصبهم، فيصبحوا هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في

البحر. وإن ظننتم ذلك، فأنتم آمنون<sup>(١)</sup> من ﴿أن يعيدكم﴾ في البحر ﴿تارة أخرى﴾ فيرسل عليهم قاصفاً من الريح ﴿أي: ريحاً شديدة جداً تقصف ما أتت عليه.﴾ فيفرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴿أي: تبعة ومطالبة، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.﴾

﴿٧٠﴾ ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه، الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وحملناهم في البر﴾ على الركاب، من الإبل، والبغال، والحمير، والمراكب البرية. ﴿و﴾ في البحر ﴿في السفن والمراكب﴾ ورزقناهم من الطيبات ﴿من المأكّل والمشارب، والملابس، والمناكح.﴾ فيما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير.

﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل، التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات.

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن النعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه.

﴿٧١-٧٢﴾ ﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون

فتيلاً \* ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديم إلى الرشده، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين:

﴿فمن أوتى كتابه بيمينه﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابته، فكثرت حسناته، وقلت سيئاته ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم. ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ مما عملوه من الحسنات.

﴿ومن كان في هذه﴾ الدنيا ﴿أعمى﴾ عن الحق فلم يقبله، ولم يتقده له، بل اتبع الضلال. ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وأضل سبيلاً﴾ فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها، وهل عملت به أم لا؟

وأنهم لا يؤخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها.

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم.



﴿٧٣ - ٧٧﴾ وإن كـادوا

ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لا تأخذوك خليلاً \* ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً \* إذا لأذنبك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً \* وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً \* سئة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستتنا تحويلاً \* يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا﴾ أي: قد كادوا لك أمراً لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجنيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك.

﴿وإذا﴾ لو فعلت ما يهون ﴿لا تأخذوك خليلاً﴾ أي: حبيباً صفيماً، أعز عليهم من أحبائهم، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأداب، المحبة للقريب والبعيد، والصديق والعدو.

ولكن لتعلم أنهم لم يعنادوك وينابذوك العداوة، إلا للحق الذي جئت به، لا لذاتك، كما قال الله تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

﴿و﴾ مع هذا فـ ﴿لولا أن ثبتناك﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لدعائهم، ﴿لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

﴿إذا﴾ لو ركنت إليهم بما يهون ﴿لأذنبك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي: لأصبنك بعذاب مضاعف، في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال

معرفتكم.

﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾

ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر، فشبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض

ليخرجوك منها﴾ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجلوك منها.

ولو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً، حتى تحل بهم العقوبة، كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته، عاجلها الله بالعقوبة.

ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه، لم يلبثوا إلا قليلاً، حتى أوقع الله بهم بـ «بدر» وقتل صناديدهم، وقض ييئسهم، فله الحمد.

وفي هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه، أن يثبت على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك، لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له:

﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ فكيف بغيره!!! وفيها تذكير الله لرسوله منته عليه، وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لأنعامه عليهم - عند وجود أسباب الشر - بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمه، ويتضاعف جرمه، إذا فعل ما يلام عليه، لأن الله ذكّر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله:

وإذا استكره الصّر في البحر صر من دعون إلا إياه فلأنجكم إلى الله أنتم وكان الإنسان كفوراً \* أقامته أن يخفف لك جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكلاً \* أم أمست أن يبيد كرمه تارة أخرى فترسل عليهم قاصباً من الريح فيحرقكم بها كرمه ثم لا تجدوا لكم علياً يبيدكم \* ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطين والكبرياء ثم علمنا ما كنا نصبراً \* يوم ننفخ في الصور أناس يلطمون فمن أوتي حسنة يبينها فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظنون فيها \* ومن كان في هدى أو أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصل سبيلاً \* وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره \* وإذا لا تأخذوك خليلاً \* ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً \* إذا لأذنبك ضعف الحيوة وضعف الممات ولا تجد لك علينا نصيراً \* ﴿٢٨٩﴾

﴿إذا لأذنبك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾.

وفيها: أن الله إذا أراد إهلاك أمة، تضاعف جرمها، وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.

﴿٧٨ - ٨١﴾ ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ \* ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً \* وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً \* وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً \* يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة تامة، ظاهراً وباطناً، في أوقاتها، ﴿لدلوك الشمس﴾ أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر.

﴿إلى غسق الليل﴾ أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء. ﴿وقرآن الفجر﴾ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآناً، لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة حيث يشهدها الله، وملائكة

أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصور السيئة<sup>(١)</sup>.

فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي بحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل.

﴿٨٣﴾ «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض وثأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوساً» هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم ويظهر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره.

﴿٨٤﴾ «وإذا مسه الشر» كالمريض ونحوه «كان يؤوساً» من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً.

وأما من هداه الله، فإنه عند النعم يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضرر يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿٨٤﴾ «قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً» أي: «قل كل» من الناس «يعمل على شاكلته» أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لزب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخدولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم

غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمد به الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم الله من هم الموقف وكرهه، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيم مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

وقوله: «وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق» أي: اجعل مداخلتي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقة الأمر.

«واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» أي: حجة ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتته وأذره.

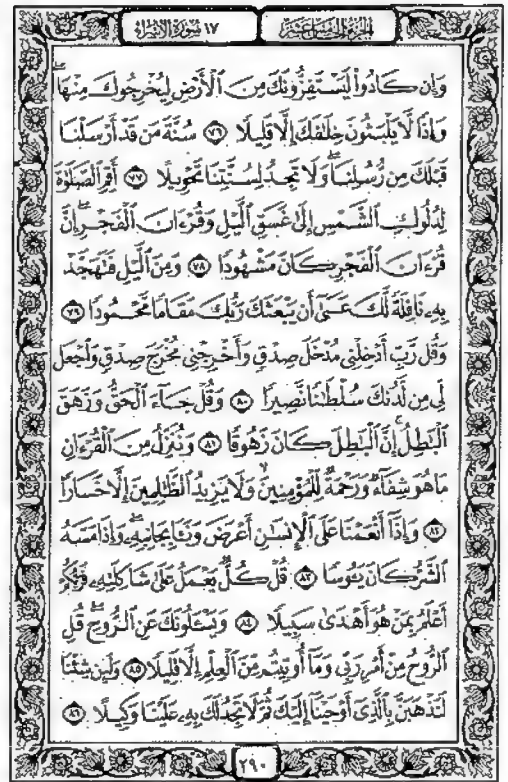
وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً، ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلاً ظاهراً، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل.

وقوله: «وقل جاء الحق وزهق الباطل» والحق هو ما أرحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلم، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى.

«إن الباطل كان زهوقاً» أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك.

ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيئاته.

﴿٨٢﴾ وقوله: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً» فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل



الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية، ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض، لتخصيصها بالأمر.

وفيها: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعذر، لأن الله جمع وقتها جميعاً.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك.

وقوله: «ومن الليل فتهجد به» أي: صل به في سائر أوقاته. «نافلة لك» أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، لكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من

يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم .

﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه .

﴿٨٥﴾ ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد .

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ أي: من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها .

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولي بالمسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه .

﴿٨٦-٨٧﴾ ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾ إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً ﴿نخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله، رحمة منه عليه وعلى عبادته، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبير، لا يقدر قدره .

فالذي تفضل به عليك، قادر على أن يذهب به، ثم لا تجد راداً يرده، ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه .

فَلْتَعْتَبْ بِهِ، وَتَقَرَّ بِهِ عَيْنُكَ، وَلَا يَحْزَنْكَ تَكْذِيبُ الْمَكْذِبِينَ، وَاسْتَهْزَاءُ الضَّالِّينَ، فَإِنَّهُمْ عَرَضَتْ عَلَيْهِمْ أَجَلُ النِّعَمِ، فَردوها لهوانهم على الله وخذلانه لهم .

﴿٨٨﴾ ﴿قل لئن اجتمعت الإنس

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدرُوا عليه .

ووقع كما أخبر الله، فإن دواعي أعدائه المكذبين به، متوفرة على رد ما جاء به بأي: وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة، فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك لفعلوه .

فعلم بذلك، أنهم أذعنوا غاية الإذعان، طوعاً وكرهاً، وعجزوا عن معارضته .

وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسموات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدده من بعده سبعة أبحر مداداً، والأشجار كلها أقلام، لتنفذ المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفذ كلمات الله .

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين ممثلاً لله في أوصافه فكلامه من أوصافه، التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثله شيء، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله تبارك وتعالى .

فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله واختلقه من نفسه .

إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّكَ فَضْلُهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٩﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٩٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩١﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ لِلنَّاسِ الْآرِضُ يَنْبُوعًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ مِنْهَا لَكُمْ أَنْهَارٌ ﴿٩٣﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ سَمَاءٌ كَسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا ﴿٩٤﴾ أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْكَ ذِكْرًا مِنْ رَبِّكَ فَلْيَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامِ حُجَّةٌ ﴿٩٥﴾ وَتَمَسَّ النَّاسُ أَنْ يُلَاقُوا أَهْلَهُمْ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مَطْمَئِنِينَ لَبَرَزْنَا عَلَيْكُمْ السَّمَاءُ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٧﴾ فَلْيَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامِ حُجَّةٌ ﴿٩٨﴾ وَشَهِدَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَنَّهُ كَانَ بَعَادَهُ خَيْرًا ﴿٩٩﴾

﴿٨٩-٩٦﴾ ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً \* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باله والملائكة قبيلاً \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً \* وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً \* قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً \* قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خيراً بصيراً﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثبتنا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد، لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم، الذين سبق لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه، وأما أكثر الناس فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة التي هي أكبر من



جميع النعم، وجعلوا يتعننون عليه [باقترح] (١) آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة.

فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعًا﴾ أي: أنهاراً جارية.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء.

﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كَسُفًا﴾ أي: قطعاً من العذاب، ﴿أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً﴾ أي: جميعاً، أو مقابلة ومعانية، يشهدون لك بما جئت به.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَخْرَفٍ﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ رقياً حسياً، ﴿و﴾ مع هذا فـ ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِيكَ حَتَّىٰ تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُوهُ﴾.

ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات، وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات، أمره الله أن ينزله فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عما تقولون علواً كبيراً، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة.

﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ليس بيدي شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشراً.

وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشراً منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

فلو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴿يُشْبِتُونَ عَلَىٰ رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ وَالتَّلْقِي عَنْهُمْ﴾، لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴿لِيُكَلِّمَهُمُ التَّلْقِي عَنْهُ﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناواه.

فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه التوتين، فإنه خير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿٩٧ - ١٠٠﴾ ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وجْهِهِمْ عَمِيًّا وَبِكُمَا وَصَمًّا مَا وَاهِمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبِتَ زَنَاهُمْ سَعِيرًا \* ذَٰلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا \* أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا \* قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمْلِكُونَ خِزَانِ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، فمن يهده، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضلله، فيخذله، ويكبله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيًا وإهانة، عمياً وبكماً،

لا يبصرون ولا ينطقون.

﴿مَا وَاهِمُ﴾ أي: مفرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمعت كل هم وغم وعذاب.

﴿كُلَّمَا خَبِتَ﴾ أي: نسيات للانطفاء ﴿زَنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: سعيها بهم لا يفتر عنهم العذاب، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم وأنكروا تمام قدرته.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهي أكبر من خلق الناس. ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بلى، إنه على ذلك قدير.

﴿و﴾ ولكنه قد جعل لذلك أجلاً لا ريب فيه ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث.

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ظلماً منهم وافتراء.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمْلِكُونَ خِزَانِ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ التي لا تنفذ ولا تبسّد. ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿١٠١ - ١٠٤﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا \* قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنزِلُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثُورًا \* فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِرَهُمْ



من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً \*  
وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا  
الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم  
لفيقاً \* أي: لست أيها الرسول المؤيد  
بالآيات، أول رسول كذبه الناس،  
فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران  
الكليم، إلى فرعون وقومه، وأتيناها  
﴿تسع آيات نبينا﴾ كل واحدة منها  
تكفي لمن قصده اتباع الحق، كالحية،  
والعصا، والظوفان، والجراد،  
والقمل، والضفادع، والدم، والرجز،  
وفلق البحر.

فإن شككت في شيء من ذلك  
﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له  
فرعون﴾ مع هذه الآيات ﴿إني لأظنك  
يا موسى مسحوراً﴾.

ف ﴿قال﴾ له موسى ﴿لقد علمت﴾  
يا فرعون ﴿ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات  
﴿إلا رب السموات والأرض بصائر﴾  
منه لعباده، فليس قولك هذا بالحقيقة،  
وإنما قلت ذلك ترويحاً على قومك،  
واستخفافاً لهم.

﴿وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً﴾  
أي: محموتاً، ملقى في العذاب، لك  
الويل والذم واللعنة.

﴿فأراد﴾ فرعون ﴿أن يستفزهم من  
الأرض﴾ أن: يجليهم ويخرجهم منها.  
﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾ وأورثنا بني  
إسرائيل أرضهم وديارهم.

ولهذا قال: ﴿وقلنا من بعده لبني  
إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد  
الآخرة جئنا بكم لفيقاً﴾ أي: جميعاً،  
ليجازي كل عامل بعمله.

﴿١٠٥﴾ ﴿وبالحق أنزلناه بالحق  
نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾  
أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم،  
لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم،  
﴿وبالحق نزل﴾ أي: بالصدق والعدل  
والحفظ من كل شيطان رجيم ﴿وما  
أرسلناك إلا مبشراً﴾ من أطاع الله

بالتواب العاجل والآجل ﴿ونذيراً﴾ لمن  
عصى الله بالعقاب العاجل والآجل،  
ويلزم من ذلك بيان ما بشر به وأنذر.

﴿١٠٦ - ١٠٩﴾ ﴿وقرأنا فرقناه  
لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه  
تنزيلاً﴾ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن  
الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى  
عليهم يخرون للأذقان سجداً \*  
ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا  
لمفعولاً \* ويخرون للأذقان يسكنون  
ويزيدهم خشوعاً﴾ أي: وأنزلنا هذا  
القرآن مفزقاً، فارقاً بين الهدى  
والضلال، والحق والباطل. ﴿لتقرأه  
على الناس على مكث﴾ أي: على مهل،  
ليتدبروه ويتفكروا في معانيه،  
ويستخرجوا علومه.

﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ أي: شيئاً فشيئاً،  
مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة.

﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق  
وأحسن تفسيراً﴾ فإذا تبين أنه الحق،  
الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من  
الوجوه ف:

﴿قل﴾: لمن كذب به وأعرض  
عنه: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾  
فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه  
شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم،  
فإن الله عباداً غيركم، وهم الذين  
آتاهم الله العلم النافع: ﴿إذا يتلى  
عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ أي:  
يتأثرون به غاية التأثير، ويخضعون له.

﴿ويقولون سبحان ربنا﴾ عما  
لا يليق بجلاله، مما نسبته إليه  
المشركون. ﴿إن كان وعد ربنا﴾  
بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لمفعولاً﴾  
لا خلف فيه ولا شك.

﴿ويخرون للأذقان﴾ أي: على  
وجوههم ﴿يبكون ويزيدهم﴾ القرآن  
﴿خشوعاً﴾.

وهؤلاء كالذين من الله عليهم من  
مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام  
وغیره، ممن آمن<sup>(١)</sup> في وقت  
النبي ﷺ، وبعد ذلك.

﴿والتحي أنزلناه﴾ وبالحق نزل ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾  
﴿وقرأنا فرقناه﴾ ﴿لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾  
﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى  
عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ ﴿ويقولون سبحان ربنا إن كان  
وعد ربنا لمفعولاً﴾ ﴿ويخرون للأذقان يسكنون ويزيدهم  
خشوعاً﴾ ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن إنا ما ندعوا لله  
الأسماء الحسنى ولا نحتج بصلاتك ولا تخافوننا وأنت تعلم  
ذلك سبيلاً﴾ ﴿وقل الحمد لله الذي أنزلنا هذا القرآن﴾ ﴿وذكر  
شريك في ذلك ولا يكون له من الدليل ركبة﴾ ﴿بكبيراً﴾

### سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً  
﴿فما لئذ ينادي أصحابك﴾ ﴿لئن لم يرهق الغمام﴾ ﴿الذين  
يعلمون الصلوات أن لهم أجراً حسناً﴾ ﴿تذكر﴾  
﴿في أوتار﴾ ﴿ويذكر الذين قالوا الحمد لله ولداً﴾

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿قل ادعوا الله أو  
ادعوا الرحمن أيأ ما تدعوا فله الأسماء  
الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت  
بها وابتغ بين ذلك سبيلاً وقل الحمد لله  
الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك  
الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره  
تكبيراً﴾ يقول تعالى لعباده:

﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ أي:  
أيها شتم. ﴿أيأ ما تدعوا فله الأسماء  
الحسنى﴾ أي: ليس له اسم غير  
حسن، حتى ينهي عن دعائه به، بل  
أي: اسم دعوتوه به، حصل به  
المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في  
كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم.

﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي:  
قراءتك. ﴿ولا تخافت بها﴾ فإن في كل  
من الأمرين محذوراً. أما الجهر، فإن  
المشركين المكذبين به إذا سمعوه سبوه،  
وسبوا من جاء به.

وأما المخافتة، فإنه لا يحصل  
المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء.  
﴿وابتغ بين ذلك﴾ أي: بين الجهر  
والإخفات ﴿سبيلاً﴾ أي: توسط فيما  
بينهما.

﴿وقل الحمد لله الذي﴾ له الكمال  
والثناء والحمد والمجد من جميع  
الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص.





الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴿١﴾ بل الملك كله لله الواحد القهار، فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

﴿٢﴾ ولم يكن له ولي من الدن ﴿٣﴾ أي: لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم

الذين قالوا اتخذ الله ولداً \* ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً \* فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً \* الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته، التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق، إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه

﴿١﴾ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿٢﴾

﴿٣﴾ وكبره تكبيراً أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامع عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن شعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تفسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي<sup>(١)</sup>

### تفسير سورة الكهف وهي مكية

﴿١-٦﴾ ﴿١﴾ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً \* قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً \* ما كثر في أبدأ \* وينذر

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ: محب الدين الخطيب لطابعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، واتبه بخاتمة فيها أصول وكميات من تفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلاً من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبيدها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألجوا لما يروونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا وإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه إنه جواد كريم رءوف رحيم. واتبعت بكلية وأصول من كميات التفسير لاستدراك ما لعله يقوت القارئ في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكميات تبني عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسناً ونعم الوكيل.

(٢) في ب: مقيم.

وتطهرها وتنميتها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

وقوله: ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضاً من نعمه، أن خوف عباده، وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم.

كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾. فمن رحمته بعباده، أن قبض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبينها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها.

﴿وبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشّر المؤمنين به، وبرسله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأرجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة، ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله، الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن، دلالة على أنه لا مكدر فيه ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنه تاماً، ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿ما كثر في أبدأ﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة

للمبشر به، وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبشّر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ من اليهود والنصارى والمشركين، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي: شناعة أعظم من وصفه بالانحاذ للولد<sup>(١)</sup> الذي يقتضي نقصه،

ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية والإلهية، والكذب عليه؟! فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً، ولهذا قال هنا: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي: كذباً محضاً ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج، والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولاً: أنه ﴿ما لهم به من علم ولا لأبائهم﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانياً، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ ثم ذكر ثالثاً مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا تكونوا مؤمنين﴾ وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ وهنا قال ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ أي: مهلكها غماً وأسفاً عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب على الله، وهؤلاء لو

وإذا أنزلناهم وما يعبدون إلا الله فأولئك هم الكافرين  
يشتري لكم وتكونون رحمة من ربكم من أمركم  
مرفقا \* وقرى الشمس إذا طلعت تروى عن كفوفهم  
ذات اليمين واليسار تقرأ عليهم ذات الشمال وهم في فجوة  
منه ذلك من عباد الله من يهدى الله فهو لكاهن ومن ينقلب  
فإن عذابه لم يؤخّر شيئا \* وتحتهم أنظاراً وهم رقدوا  
وتعليقهم ذات اليمين وذات الشمال وكلهم بيده  
بشرهم بالوصد أو أظلمت عليهم أولئك منهم  
فإذا رأوا وليعت منهم نصيبا \* وكذلك يفتنهم  
يستكفون لا يبينهم قال قائل منهم كم لبستم قالوا لئن  
لوأنا أدبنا يوماً أو بعض يوم قائلوا ربكم أعلم بما لبستم قالوا ربكم  
أعلمكم يومئذكم هذه الآية في الحديث فليظن بها  
أنكم طعنا ما قالكم ربكم برزق منه وتلك أظف  
ولا تشعروا بكم أحدا \* إنهم ان يظهروا عليكم  
يخجلون أو يعيدون كسفة ولهم ولن قلوبهم إذا أنكروا

علم الله فيهم خيراً لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم فلم يمددوا، فاشغالك نفسك غماً وأسفاً عليهم، ليس فيه فائدة لك. وفي هذه الآية ونحوها عبرة، فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله، عليه التبليغ والسعي بكل سبب يوصل إلى الهداية، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه، مع التوكل على الله في ذلك، فإن اهتدوا فيها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن ذلك مضعف للنفس، هادم للقوى، ليس له فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كلف به وتوجه إليه، وما عدا ذلك، فهو خارج عن قدرته، وإذا كان النبي ﷺ يقول الله له: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ وموسى عليه السلام يقول: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ الآية، فمن عداهم، من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ \* لست عليهم بمسيطر.

﴿٧-٨﴾ ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا. يخبر تعالى: أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مأكّل لذیذة، ومشارب، ومساکن<sup>(٢)</sup> طيبة،

(١) كذا في ب، وفي أ: الولد.

(٢) في ب: وملابس.



الدنيا منزل عبور، لا محل حبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لدنياء، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!

﴿٩-١٢﴾ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا \* إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهتي لنا من أمرنا رشدا \* فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا \* ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا \* وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي. أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل الله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يري عباده من الآيات في الأفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف، الذي هو الغار في الجبل، والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، لما لامتهم له دعراً طويلاً، ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إذ أوى الفتية﴾ أي: الشباب، ﴿إلى الكهف﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من

فتنة قومهم لهم، ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وهي﴾ لنا من أمرنا رشداً أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم الله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف﴾ أي: أنمناهم ﴿سنين عددا﴾ وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة، ﴿ثم بعثناهم﴾ أي: من نومهم ﴿لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿١٣-١٤﴾ نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى \* وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً \* هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿آمنوا﴾ بإله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختباراً. ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيداً جرداً قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، وورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهو لاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يدها من التفریط والسيئات..

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهر الفرصة في عمره الشريف، فجعل

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من نطفه تعالى بهم وبره، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، ودبرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لقد قلنا إذا﴾ أي: إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شططاً﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿١٥﴾ ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفتوا<sup>(١)</sup> إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وإذا اعتزلتموهم وما

يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقائهم<sup>(٢)</sup> بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، ﴿فأووا إلى الكهف﴾ أي: انضموا إليه واختفوا فيه ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله﴾ يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً \* وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ أي: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وهم في فجوة منه﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والنسيم، ويوزل عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول

المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ﴿ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا زاد لحكمه.

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم [كأنهم]<sup>(٣)</sup> أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً، وهم رقود، ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يمينا وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير قلب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فتاته، هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه جاهد بالربح، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتأ قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم يشترى لهم طعاماً من المدينة، ويقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

(٣) في النسخين: كأنه.

(٢) في النسخين: ولا بقاؤهم.

(١) في ب: والتقوى وهو تصحيف.



﴿١٩ - ٢٠﴾ «وكذلك بعثناهم لیتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعروا بكم أحداً \* إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدأ» يقول تعالى: «وكذلك بعثناهم» أي: من نومهم الطويل «ليتساءلوا بينهم» أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

«قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم» وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فلهذا «قالوا ربكم أعلم بما لبثتم». فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها» فلولاً أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى بينهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدراهم، التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعروا بهم أحداً. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما

الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوه عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال، لا يفلحون أبداً، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن أشبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: «فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه». وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمرؤهم بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه، وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين، لقولهم: «ولن تفلحوا إذا أبدأ»

﴿٢١﴾ «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لننتخذن عليهم مسجداً» يخبر الله تعالى، أنه

أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً، وأمره بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مزية ولا بُعد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم.

و «قالوا ابنوا عليهم بنياناً» الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

«لنتخذن عليهم مسجداً» أي: نعبد الله تعالى فيه، ونشكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والشناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن سلمه الله منها. وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الدل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب «وما عند الله خير للأبرار»

﴿٢٢﴾ «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجاً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً







انفراده بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويسرهم ليسرى، ويحبهم العسرى، ولهذا قال: ﴿لهم من دونه من ولي﴾. أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق.

﴿ولا يشرك في حكمه أحدا﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدر، وخلقاً وتديراً، والحاكم فيهم بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه. ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا من الطريق التي يجبر بها عباده، وكان هذا القرآن، قد اشتمل على كثير من الغيوب، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال:

﴿٢٧﴾ ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ التلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتضديق أخباره، وامتنال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿ومتت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ فلتمامها، استحالة عليها

التغير والتبدل، فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك أو شيء منه، وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه.

﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذاً تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المقتدر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

﴿٢٨﴾ ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، وخالطهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويُقْبِل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره.

﴿واتبع هواه﴾ أي: صار تبعاً

لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ الآية.

﴿وكان أمره﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فرطاً﴾ أي: ضائعة معطلة. فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتثال قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماماً، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، ويتمامه تتم باقي الأقسام. وفي الآية، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرقي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

﴿٢٩ - ٣١﴾ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً﴾ أي: قل للناس يا محمد: هذا الحق من ربكم، أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة

﴿فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقتين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إنا اعتدنا للظالمين﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وإن يستغيثوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفىء ما نزل بهم من العطش الشديد.

﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته.

﴿يشوي الوجوه﴾ أي: فكيف بالأعضاء والبطون، كما قال تعالى ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ ولهم مقامع من حديد.

﴿بش الشراب﴾ الذي يراد ليطفىء العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم.

﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفقاً﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به، فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يُقتر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه.

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره

وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعاً في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيههم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك﴾.

أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيفة، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجدلة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نعم الثواب﴾ للعاملين ﴿وحسنت مرتفقاً﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلد الأعين، من الخبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي: مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره ويساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمان، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان.

وذلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله ﴿يحلون﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

﴿٣٢-٣٤﴾ ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً \* وكان له ثمر﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل، والثواب، ليعتبرا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي: زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين، أي: بستانين جسنين، من أعناب.

﴿وحففناهما بنخل﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حفف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتتجوه، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفاً ﴿و﴾ أنها ﴿لم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وكان له﴾ أي: لذلك الرجل ﴿ثمر﴾ أي: عظيم كما يفيد التكرير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما،

وازجحت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً \* ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً \* وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً \* أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماكرات المعتادة، مفتخراً عليه:

﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأى: افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمان، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته، ف ﴿قال ما أظن أن تبيد﴾ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هذه أبداً﴾ فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي﴾ على ضرب المثل ﴿لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبغضهم خطأً من العقل، فأى: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطى في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه

قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾. فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً \* لئن كان هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً \* ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله \* أي: قال له صاحبه المؤمن، ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب، وهياً لك ما هيا من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتجدد<sup>(١)</sup> نعمته، وتزعم أنه لا يعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق. ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لئن كان هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾ فأقر ببروبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم<sup>(٢)</sup> طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلة ماله وولده، أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرض للزوال والعقوبة عليه والتكال، فقال:

﴿٣٩ - ٤٤﴾ ﴿إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً﴾ فعسى ربي أن يؤثني خيراً

من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً \* أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً \* وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً \* ولم تكن له فئة يتصرونه من دون الله وما كان منتصراً \* هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت علي بكثرة مالك وولذك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً - فإن ما عند الله، خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فعسى ربي أن يؤثني خيراً من جنتك ويرسل عليها﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حسباناً من السماء﴾ أي: عذاباً، بمطر عظيم أو غيره، ﴿فتصبح﴾ بسبب ذلك ﴿صعيداً زلقاً﴾ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها، ﴿أو يصبح ماؤها﴾ الذي مادتها منه ﴿غوراً﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن غضباً لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿وأحيط بثمره﴾ أي: أصابه عذاب أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه، ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه،

(١) في ب: وتجهل.

(٢) في ب: والتزام.



وشره، ولهذا قال: ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾.

قال الله تعالى: ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾ أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً﴾ فلم يدفعوا عنه من هذا العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر، أي: يكون له أنصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدرُوا!!

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب غمده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وأثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثالات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوي والأخروي، خير<sup>(١)</sup> ثواب يرجي ويؤمل، ففي هذه القصة العظيمة، اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً، فإنه يحرمها طويلاً، وأن العبد

ينبغي له - إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده - أن يضيف النعمة إلى موليتها ومسديها، وأن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله» ليكون شاكراً لله متسبباً لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله:

﴿إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً \* فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ وفيها أن المال والولد لا يتفعلان، إن لم يعينا على طاعة الله كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصاً إن فضل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم، وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم في ﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً﴾ أي: عاقبة ومآلاً.

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً يقول تعالى لئيه <sup>ص</sup> أصلاً، ولمن قام بورائته بعده تبعاً: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار، وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فبينما زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ

الآل والبسوت زينة الحيوة الدنيا والقيت الصلاة حث حثرت عند ربك ثواباً وخيراً أملاً ﴿٤٥﴾ ويوم نشر الحجاب ودرى الأرض بارزاً وحشرتهم فله تغارونهم أملاً ﴿٤٦﴾ ويعبروا على ربك حيناً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن نجعل لكم موعداً ﴿٤٧﴾ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه وهم أولون ﴿٤٨﴾ ولما مال هذا الكتاب لا يغادر صدرة ولا كبدية إلا أحصاه ووجدوا ما عملوا حاشراً ولا ينظرون أملاً ﴿٤٩﴾ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴿٥٠﴾ فاستجدوا له وذرّيته وأولاده من دونهم لئلا يكونوا من اللغاة ﴿٥١﴾ وما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المؤمنين عصداً ﴿٥٢﴾ ويوم يقول نادوا شركاءهم الذين زعمتم فدعوههم فله يستجيبونهم وحناناً منهم موقفاً ﴿٥٣﴾ وواللجرون النار فظنوا أنهم مأفونون ولم يجدوا فيها مصرافاً ﴿٥٤﴾

بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيماً تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته، وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سىء أعماله، هنالك يعرض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا يستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قد ربي أنك قد مت، ولا بد أن تموت، فأبي: الحاليتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما

(١) في الجملة إشكال دفع إلى جعلها في بعض الطباعات (شر ثواب) وهي في النسختين (خير ثواب) وظاهر أن المقصود بذلك من كان مؤمناً تقياً، فهو الذي ثوابه خير ثواب.





تشتهيه الأنفس وتلد الأعين؟ فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربه من خسارته، ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة، والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخيراً أملاً، فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويحذ في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته، وهو

المال والبنون ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات. ﴿٤٧-٤٩﴾ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً \* وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً \* ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً \* يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال:

﴿ويوم نسير الجبال﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كتيلاً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضحل وتلاشى، وتكون هباء منبثاً، وتبرز الأرض فتصير قاعاً صفصفاً، لا عوج فيه ولا أمتاً، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا، خلقاً جديداً، فيعرضون عليه صفاً ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال، التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر، التي كسبوها كما قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ وقال هنا، مخاطباً للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عياناً: ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال، ووعد الله ووعيده، فما قد رأيتموه وذقتموه، فحيثما تحضر كُتِبَ الأعمال التي كتبتها الملائكة

الكرام<sup>(١)</sup>، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الضلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رآوها مسطرة عليهم أعمالهم، نحصى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ لا يقدرُونَ على إنكاره ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ فحيثما يجازون بها، ويقررون بها، ويحزون، ويحق عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

﴿٥٠﴾ ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ يخبر تعالى، عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكراماً وتعظيماً، وامثالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك ﴿إلا إبليس كان من الجن، ففسق عن أمر ربه﴾ وقال: ﴿أسجد لمن خلقت طيناً﴾ وقال: ﴿أنا خير منه﴾ فتبين بهذا عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين ﴿أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته. وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد؟! ١١

قال :

﴿٥٥﴾ ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ أي : ما منع الناس من الإيمان ، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق ، بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، قد وصل إليهم ، وقامت عليهم حجة الله ، فلم يمنعهم عدم البيان ، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان ، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله ، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب ، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم ، ورأوه مقابلة ومعينة ، أي : فليخافوا من ذلك ، وليتوبوا من كفرهم ، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له .

﴿٥٦﴾ ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾ أي : لم نرسل الرسل عبثاً ، ولا ليخذلهم الناس أرباباً ، ولا ليدعوا إلى أنفسهم ، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير ، وينهون عن كل شر ، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالشواب العاجل والآجل ، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل ، فقامت بذلك حجة الله على العباد ، ومع ذلك يابى الظالمون الكافرون ، إلا المجادلة بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم ، وفي دحض الحق وإبطاله ، واستهزؤوا برسول الله وآياته ، وفرحوا بما عندهم من العلم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ويظهر الحق على الباطل ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ ومن حكمة الله ورحمته ، أن تقيضه البطلين المجادلين الحق بالباطل ، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد أدلته ، وتبين الباطل وفساده ، فيضدها تبيين الأشياء .

﴿٥٧ - ٥٩﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما

يفرق بينهم وبينهم ، ويبعد بعضهم من بعض ، ويتبين حيثذ عداوة الشركاء لشركائهم ، وكفرهم بهم ، وتبريهم منهم ، كما قال تعالى : ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ .

﴿٥٣﴾ ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي : لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل ، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم ، وحقت كلمة العذاب على المجرمين ، فرأوا جهنم قبل دخولها ، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها ، وهذا الظن قال المفسرون : إنه بمعنى اليقين ، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي : معدلاً يعدلون إليه ، ولا شافع لهم من دون إذنه ، وفي هذا من التخويف والترهيب ، ما ترعد له الأفتدة والقلوب .

﴿٥٤﴾ ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن ، وجلالته ، وعمومه ، وأنه صرف فيه من كل مثل ، أي : من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة ، والسعادة الأبدية ، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك ، ففيه أمثال الحلال والحرام ، وجزاء الأعمال ، والترغيب والترهيب ، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب ، اعتقاداً ، وطمأنينة ، ونوراً ، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة ، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور ، ومع ذلك ، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين ، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿ولهذا قال : ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ أي : مجادلة ومنازعة فيه ، مع أن ذلك غير لائق بهم ، ولا عدل منهم ، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله ، إنما هو الظلم والعدوان ، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه ، وإلا فلو جاءهم العذاب ، وجاءهم ما جاء قبلهم ، لم تكن هذه حالهم ، ولهذا

قال تعالى : ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ وقال تعالى : ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ .

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً يقول تعالى : ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين] ، ﴿خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ أي : ما أحضرتهم ذلك ، ولا شاورتهم عليه ، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك ؟ بل المنفرد بالخلق والتدبير ، والحكمة والتقدير ، هو الله ، خالق الأشياء كلها ، المتصرف فيها بحكمته ، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين ، يوالون ويطاعون ، كما يطاع الله ، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً ، ولم يعاونوا الله تعالى ؟ ولهذا قال : ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي : معاونين ، مظاهرين لله على شأن من الشؤون ، أي : ما يتبغي ولا يليق بالله ، أن يجعل لهم قسماً من التدبير ، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم ، فاللائق أن يقصيههم ولا يدينهم .

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا ، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال ، وحكم بجهل صاحبه وسفه ، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة ، وأن الله يقول لهم : ﴿نادوا شركائي﴾ بزعمكم أي : على موجب زعمكم الفاسد ، وإلا فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض ، ولا في السماء ، أي : نادوهم ، لينفعوكم ، ويخلصوكم من الشدائد ، ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ لأن الحكم والمملك يومئذ لله ، لا أحديمملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره .

﴿وجعلنا بينهم﴾ أي : بين المشركين وشركائهم ﴿موبقاً﴾ أي : مهلكاً ،

قدمت يده إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً \* وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً \* وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً \* يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، من عبد ذكر بآيات الله وتبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب وزغب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يده من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف<sup>(١)</sup> ظلماً من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم من ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه، حالة الشر مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب، \* وفي آذانهم وقراً \* أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل، \* وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً \* لأن الذي يرجي أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه، وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن

ذلك.

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ<sup>(٢)</sup> العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يمهل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ أي: لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا تحيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا \* وجعلنا لمهلكهم موعداً \* أي: وقتاً مقدراً، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون.

﴿٦٠ - ٨٢﴾ \* وإذ قال موسى لفته لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقاً \* فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً \* فلما جاوزا قال لفته اتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً \* قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا \* قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً \* فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً \* قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً \* قال إنك لن تستطيع معي صبراً \* وكيف تصبر على ما لم

تخط به خبراً \* قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً \* قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً \* فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها \* إلى قوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفته - أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك: - ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي: لا أزال مسافراً وإن طالت علي الشقة، ولحققتي المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، \* أو أمضي حقاً \* أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفته هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه.

﴿فلما بلغا﴾ أي: هو وفته \* مجمع بينهما نسيا حوتهما \* وكان معهما خوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فثم ذلك العبد الذي قصده، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي: طريقه في البحر سرباً وهذا من الآيات.

قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً.

فلما جاوز موسى وفته مجمع البحرين، قال موسى لفته: ﴿اتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً فإن

(١) في ب: فإنه أشد، والسياق يدل على ما أثبت.

(٢) في الأصل واخذ.

الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا من التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة، قال له فتاه: ﴿أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت﴾ أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿وانخذ سبيله في البحر عجباً﴾ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه، كان ذلك من العجائب.

قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوث سرياً، ولموسى وفتاه عجباً، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت، وجد الخضر، فقال موسى: ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ أي: نطلب ﴿فارتدا﴾ أي: رجعا على آثارهما قصصاً أي: رجعا يقصان أثرهما، إلى المكان الذي نسيا فيه الحوت فلما وصلا إليه، وجدا عبداً من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبداً صالحاً، لا نبياً على الصحيح.

آتيناه [رحمة من عندنا أي: أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه وحسن عمله ﴿وعلمناه﴾] (١) من لدنا [أي: من عندنا] علماً، وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصاً في العلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق، بالعلم والعمل، وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن بما علمت رشداً﴾ أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير

من الأشياء التي خفيت، حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لن تستطيع معي صبراً﴾ أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيراً﴾ أي: كيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره، وعلمت المقصود منه ومآله؟ فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾

وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء المتحزن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر، فحيث قال له الخضر: ﴿فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ أي: لا تتدثني بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعدته أن يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك نسيته، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾ أي: عظيماً شنيعاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر: ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي: فوق كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسياناً فقال: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ أي: لا تعسر علي الأمر واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

فلما جازا قال لفتاه آتينا عبداً قال لقد آتينا من سفرنا هذا نصياً قال آتيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من ربنا وعلمناه من لدنا علماً قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن بما علمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيراً قال سجدت إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً قال فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً

﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً﴾ أي: صغيراً ﴿فقتله﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً لم يذنب، ﴿قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾ وأي: نكر مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحداً؟! وكانت الأولى من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر معاتباً ومذكراً: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾

فقال [له] موسى: ﴿إن سألتك عن شيء﴾ بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿قد بلغت من لدني عذراً﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر: ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها﴾ أي: استضافاهم، فلم يضيفوهما ﴿فوجد فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فأقامه﴾ الخضر أي: بناه وأعادته جديداً. فقال له موسى: ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي: أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجر، وأنت تقدر عليها؟ فحيث لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر

(١) زيادة من هامش ب.



قَالَ الرَّاقِلُ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ قَالَ بَلْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْبِحُنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۖ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ وَرَاقَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَقْضِيَ قَائِمَتَهُ قَالَ نُوْصِيْتُمْ لَمْ تَنُصِتْ عَلَيْهِ أَمِيرًا ۖ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَصِيَّتِكَ سَأَتُبِّدُكَ بِأَوْبِلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَثَةُ هَرَمٍ بِكَ يَأْخُذُونَ كُلٌّ سَفِينَةً وَنَصِيبًا ۖ وَأَمَّا الْفُلُوكَانِ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۖ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا حِكْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۖ وَمَآ لَكُمْ أَنْ تَرْوِي الْقَالَ وَأَوْبِلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَرِيقَيْنِ قُلْ سَأَلُوا عَنِّي كَثِيرًا مِمَّا لَا يَعْنِيَنَّكُمْ

الخضر منه، فقال له:

«هذا فراق بيني وبينك» فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحة، «سأنتك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا» أي: سأخبرك بما أنكرت علي، وأنتك بما لي في ذلك من المأرب، وما يؤول إليه الأمر.

«أما السفينة» التي خرقتها «فكانت لمساكين يعملون في البحر» يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرفقة بهم. «فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا» أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب غصبها وأخذها ظلما، فأردت أن أخرجها ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

«وأما الغلام» الذي قتلته «فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا» وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغيانا وكفرا، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدهما على ذلك، أي: فقتلته، لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي: فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة!! وهو وإن كان فيه

إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيتهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: «فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما» أي: ولدا صالحا، زكيا، واصلا لرحمه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

«وأما الجدار» الذي أقمته «فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا» أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحتهما، لكنهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضا بصلاح والدهما.

«فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما» أي: فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجانا.

«رحمة من ربك» أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، أتاهما الله عبده الخضر «وما فعلته عن أمري» أي: أتيت شيئا من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

«ذلك» الذي فسرت لك «تأويل ما لم تستطع عليه صبرا»

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله. فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية المؤنة وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريد، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهارا لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقا»

وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، وذلك تبع للمصلحة. ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التحويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى موسى: «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره»

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع أو عطش، إذا لم يكن على وجه التشخط وكان صدقا، لقول موسى: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا»

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكيا فطنا كيسا، ليتم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعا، لأن ظاهر قوله: «أتنا غداءنا» إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعا.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا» والإشارة إلى السفر المجاوز، لمجمع البحرين، وأما الأول، فلم يشك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه: «أتنا غداءنا» فحيث تذكر أنه



نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أن ذلك العبد الذي لقياه، ليس نبياً، بل عبداً صالحاً، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منتهى الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً، لذكر ذلك كما ذكر غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي، وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً﴾.

ومنها: أن العلم الذي يُعَلِّمُه الله [لعباده]<sup>(١)</sup> نوعان:

علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده. ونوع علم لدني، يهبه الله لمن يمتن عليه من عباده لقوله: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام:

﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنتك هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جداً، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للمتعلم ممن دونه، فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للمعلم الذي لم يتمهر فيه، بمن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة.

فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه.

فعلى هذا، لا ينبغي للفقير المحدث، إذا كان قاصراً في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه عن مهر فيه، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله:

﴿تعلمن مما علمت﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق<sup>(٢)</sup> الخير، وتحذير عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أن تعلمن مما علمت رشداً﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم<sup>(٣)</sup>، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول الخضر - يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه - إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علماً وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدرسه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به﴾ خبراً. فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف ما يراود منه، وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء، ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالاً لا يتعلق في موضوع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله، ولا في حقوق العباد، لقوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم، العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسأمة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة، وقتل الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: طريق.

(٣) بدلاً من الجملة: (أنه يفوته... كثير من العلم) جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ مشطوية.

السكوت عنها، في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام ويأمر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه: «يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويراعي أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يقتل أبويه عن دينهما أعظم شراً منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الخضر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً وهي أن: «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير» كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان، بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: «يعملون في البحر» ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكينة، لأن الله أخير أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: «لقد جئت شيئاً نكراً».

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله: «بغير نفس».

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه، بقوله: «فأردت أن أعيبها». وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى، لقوله: «فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك» كما قال إبراهيم عليه السلام: «وإذا مرضت فهو يشفين» وقالت الجن: «وأننا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للمصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجزاها الخضر هي قدر محض أجزاها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً، وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دينه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقدارة المكروهة.

﴿٨٣ - ٨٨﴾ «ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً» \* إنا مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شيء سبباً \* فأتبع سبباً \* حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إنا أن نعذب وإنا أن نتخذ فيهم حسناً \* قال إنا من ظلم فسوف

نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً \* وإنا من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً \* كان أهل الكتاب أو المشركون، سألو رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: «سأتلو عليكم منه ذكراً» فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب.

أي: سأتلو عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم. «إنا مكنا له في الأرض» أي: ملكه الله تعالى، ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض، وانقيادهم له. «وأتيناه من كل شيء سبباً \* فأتبع سبباً» أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه، ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي والعمل به، حصل المقصود، وإن عدما أو أحدهما لم يحصل.

وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم نجبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلماذا لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عددٍ وعددٍ ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها، فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حمئة، أي: سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، وأما تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع، ووجد عندها، أي: عند مغربها قوماً قلنا يا ذا القرنين إنا أن

تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً أي :  
إما أن تعذبهم بقتل ، أو ضرب ، أو أسر  
ونحوه ، وإما أن تحسن إليهم ، فخير  
بين الأمرين ، لأن الظاهر أنهم إما كفار  
أو فساق ، أو فيهم شيء من ذلك ،  
لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق ، لم  
يرخص له في تعذيبهم ، فكان عند ذي  
القرنين من السياسة الشرعية ما استحق  
به المدح والثناء ، لتوفيق الله له لذلك ،  
فقال : سأجعلهم قسمين : «أما من  
ظلم» بالكفر «فسوف نعذبه ثم يرد إلى  
ربه فيعذبه عذاباً نكراً» أي : تحصل له  
العقوبتان ، عقوبة الدنيا ، وعقوبة  
الآخرة ، «وأما من آمن وعمل صالحاً  
فله جزاء الحسنى» أي : فله الجنة  
والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم  
القيامة ، «وستقول له من أمرنا يسراً»  
أي : وسنحسن إليه ، ونلطف له  
بالقول ، ونيسر له المعاملة ، وهذا يدل  
على كونه من الملوك الصالحين والأولياء  
العادلين العاملين ، حيث وافق  
مرضاة الله في معاملة كل أحد ، بما  
يليق بحاله .

﴿٨٩-٩٨﴾ ثم أتبع سبباً \*  
حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها  
تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها  
سترأ \* كذلك وقد أحطنا بما لديه  
خبراً \* ثم أتبع سبباً \* حتى إذا بلغ  
بين السدين وجد من دونهما قوماً  
لا يكادون يفقهون قولاً \* قالوا يا ذا  
القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون  
في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على  
أن تجعل بيننا وبينهم سداً \* قال ما  
مكني فيه ربي خير فأعيتوني بقوة أجعل  
بينكم وبينهم ردماً \* أتوني زبر الحديد  
حتى إذا ساوى بين الصدفين قال  
انفخوا ناراً قال أتوني  
أفرغ عليه قطراً \* فما استطاعوا أن  
يظهروه وما استطاعوا له نقباً \* قال  
هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي  
جعله دكاً وكان وعد ربي حقاً \* أي :  
لما وصل إلى مغرب الشمس كثر زاجعاً ،  
قاصداً مطلعها ، متبعاً للأسباب التي  
أعطاه الله ، فوصل إلى مطلع الشمس  
فوجدتها تطلع على قوم لم نجعل لهم

من دونها سترأ \* أي : وجدها تطلع على  
أناس ليس لهم ستر من الشمس ، إما  
لعدم استعدادهم في المساكن ، وذلك  
لزيادة همجيتهم وتوحشهم ، وعدم  
تمدينهم ، وإما لكون الشمس دائمة  
عندهم ، لا تغرب عنهم غروباً يذكر ،  
كما يوجد ذلك في شرقي أفريقيا  
الجنوبي ، فوصل إلى موضع انقطع عنه  
علم أهل الأرض ، فضلاً عن وصولهم  
إياه بأبدانهم ، ومع هذا ، فكل هذا  
بتقدير الله له ، وعلمه به ، ولهذا قال :  
«كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً»  
أي : أحطنا بما عنده من الخير  
والأسباب العظيمة وعلمنا معه ، حيثما  
توجه وسار .

﴿ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين  
السدين﴾ قال المفسرون : ذهب متوجهاً  
من المشرق ، قاصداً للشمال ، فوصل  
إلى ما بين السدين ، وهما سدان ، كانا  
سلاسل جبال معروفين في ذلك  
الزمان ، سداً بين يأجوج ومأجوج  
وبين الناس ، وجد من دون السدين  
قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ، لعجمة  
ألسنتهم ، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم ،  
وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب  
العلمية ، ما فقه به السنة أولئك القوم  
وفقههم ، وراجعهم وراجعوه ،  
فاشكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج ،  
وهما : أمتان عظيمتان من بني آدم ،  
فقالوا :

﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في  
الأرض﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير  
ذلك .

﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي :  
جعلاً \* «على أن تجعل بيننا وبينهم سداً»  
ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم  
على بنيان السد ، وعرفوا اقتدار ذي  
القرنين عليه ، فبدلوا له أجره ليفعل  
ذلك ، وذكروا له السبب الداعي ،  
وهو : إفسادهم في الأرض ، فلم يكن  
ذو القرنين ذا طمع ، ولا رغبة في  
الدنيا ، ولا تاركاً لإصلاح أحوال  
الرعية ، بل كان قصده الإصلاح ،  
فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من  
المصلحة ، ولم يأخذ منهم أجره ، وشكر

﴿إنما مكناك في الأرض والآلئ من كل شيء سبباً﴾  
﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها غروباً في عين جهنم ووحد  
عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إنما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم  
حسناً﴾ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه  
يعذبه عذاباً نكراً \* وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء  
الحسنى وستقوله من أمرنا يسراً \* ثم أتبع سبباً \* حتى إذا  
بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها  
سترأ \* كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً \* ثم أتبع سبباً \*  
حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون  
يفقهون قولاً \* قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج  
مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا  
وبينهم سداً \* قال ما مكني فيه ربي خير فأعيتوني بقوة أجعل  
بينكم وبينهم ردماً \* أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين  
الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال أفرغ عليه  
قطراً \* فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً \*  
قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً وكان وعد ربي حقاً \*  
لما وصل إلى مغرب الشمس كثر زاجعاً ، قاصداً مطلعها ، متبعاً للأسباب التي  
أعطاه الله ، فوصل إلى مطلع الشمس فوجدتها تطلع على قوم لم نجعل لهم

ربه على تمكينه واقتداره ، فقال لهم :  
«ما مكني فيه ربي خير» أي : مما  
تبدلون لي وتعطوني ، وإنما أطلب منكم  
أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم \* أجعل  
بينكم وبينهم ردماً \* أي : مانعاً من  
عبورهم عليكم .

﴿أتوني زبر الحديد﴾ أي : قطع  
الحديد . فأعطوه ذلك .

﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾  
أي : الجبلين اللذين بني بينهما السد  
﴿قال انفخوا﴾ النار أي : أوقدوها  
إيقاداً عظيماً ، واستعملوا لها المنافع  
لتشتد ، فتذيب النحاس ، فلما ذاب  
النحاس ، الذي يريد أن يلصقه بين زبر  
الحديد ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾  
أي : نحاساً مذاباً ، فأفرغ عليه القطر ،  
فاستحكم السد استحكاماً هائلاً ،  
وامتنع به من وراءه من الناس ، من  
ضرر يأجوج ومأجوج .

﴿فما استطاعوا أن يظهروه وما  
استطاعوا له نقباً﴾ أي : فما لهم  
استطاعة ، ولا قدرة على الصعود عليه  
لارتفاعه ، ولا على نقبه لإحكامه  
وقوته ، فلما فعل هذا الفعل الجميل  
والأثر الجليل ، أضاف النعمة إلى مولياها  
وقال : «هذا رحمة من ربي» أي : من  
فضله وإحسانه علي ، وهذه حاك  
الخلفاء الصالحين ، إذا من الله عليهم  
بالنعم الجليلة ، ازداد شكرهم  
 وإقرارهم ، واعترفهم بنعمة الله ، كما



قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبا مع البعد العظيم، قال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار تزيدهم أشراً وبطراً.

كما قال قارون - لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة - قال: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾.

وقوله: ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جعله﴾ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دكاء﴾ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يمشون﴾ يحتمل أن الضمير، يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يمشون بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يمشون فيه فيكثرون ويمشون بعضهم ببعض، من الأحوال والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿ونفخ﴾

في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴿أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، لسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فأما الكافرون - على اختلافهم - فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

﴿١٠١﴾ ولهذا قال: ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ كما قال تعالى: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾<sup>(١)</sup> أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، ولتتمتعوا بأغلالها وسعيرها، وحميمها، وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له القلوب، وتضم الأذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا ﴿كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى﴾ أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: ﴿قلوبنا في أكنة عما تدعوننا إليه﴾ وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، كما قال تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾.

﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي: لا يقدرون على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن البغض لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انخسبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم<sup>(٢)</sup> سمع ولا بصر، ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم وساءت مصيراً.

﴿١٠٢﴾ ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ وهذا برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء

والأولياء شركاء الله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ أي: لا يكون ذلك ولا يوالي ولي الله معادياً لله أبداً، فإن الأولياء موافقون لله في محبته ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم.

فمن زعم أنه يتخذ ولياً لله، وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، التابذون لرسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء يتصرونهم، ويتفجعونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسبان باطل، وظن فاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس بيدهم من النفع والضرر، شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة. ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها، أن المتخذ من دونه ولياً ينصره ويواليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل لبعض مقصوده.

﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ أي: ضيافة وقرى، فبئس النزل نزلهم، وبئس جهنم ضيافتهم.

﴿١٠٣ - ١٠٦﴾ ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا

(١) في النسختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم.

(٢) في النسختين: له.

واتخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴿١٠٧﴾ أي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟ ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾ أي: بطل واضمححل كل ما عملوه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله ومعاداة؟! فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، ذ ﴿خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المين﴾.

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به وبملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿فحبطت﴾ بسبب ذلك ﴿أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنة لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ لكن تغد أعمالهم وتحصى، ويقررون بها، ويحزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: ﴿ذلك جزاؤهم﴾ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة، ﴿وزناً﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزئون بها، ويستخرون<sup>(١)</sup> منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتعمسوا، وانتكسوا في العذاب. ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

﴿١٠٧-١٠٨﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

الفردوس نزلاً ﴿خالدين فيها لا يغيون عنها حولاً﴾ أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، لهم جنات الفردوس.

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب لمن كمل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون.

ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار المثمرة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نُزِّل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي: ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المفردة المشجية، والمأكّل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والتعفة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التمتع بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فله تلك الضيافة، ما أجملها وأجملها وأدومها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر

(١) في النسختين: ويستخرون.

(٢) كذا في أ، وفي ب: وهت.

## سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَدِّئْهُ خَيْشًا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْمَظْمُ مِنِّي وَأَشْعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَوْ أَكُنْ بِدُعَاكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرْجِيهِ رَبِّي مِن إِلَهٍ يَقُودُ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَزَكِّيَنِي يَا إِنَّا بَشِّرْكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي بَعَثْتُ لِي غُلَامًا وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَدًى وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ نَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ إِنَّكَ عَلَى الْكُفْرِ الشَّاكِلِ فَلْيَسِّرْ لَكَ يَسَارًا سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالآشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحداناً، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتاً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفدت<sup>(٢)</sup>، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: ﴿خالدين فيها﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لا يغيون عنها حولاً﴾ أي: تحولاً ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

﴿١٠٩﴾ ﴿قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ أي: قل لهم تخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لو كان البحر﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مدداً



﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: لست بإله، ولا بي شراكة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، و ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربي، ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحيه الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال:

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد

﴿١٦﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾  
كهيعص \* ذكر رحمة ربك عبده  
زكريا \* إذ نادى ربه نداء خفياً \* قال  
رب إنني وهن العظم مني واشتعل  
الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب  
شقيماً \* وإنّي خفت الموالى من ورأئي  
وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك  
ولياً \* يرثني ويرث من آل يعقوب  
واجعله رب رضياً ﴿أي : هذا﴾ ذكر  
رحمة ربك عبده زكريا ﴿سنقصه  
عليك، ونقصه تفصيلاً يعرف به حالة  
نبیه زکریا، وآثاره الصالحة، ومناقبه  
الجميلة، فإن في قصتها عبرة  
للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن  
في تفصيل رحمته لأوليائه، وبأي :  
سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى  
محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره

﴿وإني خفت الموالى من ورأئي﴾  
 أي : وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي ، أن لا يقوموا بدينك حق القيام ، ولا يدعوا عبادك إليك ، وظاهر هذا ، أنه لم ير فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين ، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه ، وأن طلبه للولد ، ليس كطلب غيره ، قصده مجرد المصلحة الدنيوية ، وإنما قصده مصلحة الدين ، والخوف من ضياعه ، ورأى غيره غير صالح لذلك ، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين ، ومعدن الرسالة ، ومظنة للخير ، فدعا الله أن يرزقه ولداً ، يقوم بالدين

يَلْحَقِي خَدَّ الْكَتَّابِ بِشَوْطٍ وَأَيْتَلُهُ الْخُصَمُ صَيْحًا ⑤  
 وَحَسَا كَأَن لَّدَا وَرَكَّةً وَكَانَ قَيْحًا ⑥ وَرَأَى لَدَيْهِ وَلَدًا  
 يَكُنْ جَسَارًا عَصِيًّا ⑦ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وَلَدٍ وَيَوْمَ مَوْتٍ  
 وَيَوْمَ بَيْعَتِ حَيًّا ⑧ وَأَذْكُرُ فِي الْكَتَّابِ مَرْيَمَ إِذْ  
 أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا ⑨ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ  
 حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ⑩  
 قَالَتْ إِنِّي أَهْوَىٰ بِأَرْحَلٍ مِنْكَ إِن كُنْتَ قَيْحًا ⑪ قَالَ إِنَّمَا  
 أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ⑫ قَالَتْ أَنَّى  
 يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَوْ أَكُفَّيْتَنِي ⑬ قَالَ  
 كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلِلَّهِ الْجَاهُ ⑭ وَلِلَّهِ الْآخِرُ  
 وَالْأَوَّلُ وَكَانَ أَمْرٌ مُّقْتَضِيًّا ⑮ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ  
 بِهٖ مَكَانًا قَاصِيًّا ⑯ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِوْفِ النَّخْلَةِ  
 قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ⑰  
 فَجَاءَهَا مِنْ تَحْتِهَا الْآخِرُ فَبَدَّلَ رَبُّكِ فَخْلًا حَرِيًّا ⑱  
 وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِوْفِ النَّخْلَةِ ثُمَّ لَوَّطَ عَلَيْكَ رَطْبًا حَيًّا ⑲

وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات متقضية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأبى سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة البواسع الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿١١٠﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ  
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن  
كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا  
وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أَى :

من بعده، واشتكى أن امرأته عاقر، أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً، أي: عمراً يندر معه وجود الشهوة والولد، ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ أي: عبداً صالحاً ترضاه وتحبه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولداً، ذكراً، صالحاً، يبقى بعد موته، ويكون ولياً من بعده، ويكون نبياً مرضياً عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولداً صالحاً، جامعاً لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرجه ربه، واستجاب دعوته، فقال:

﴿٧- ١١﴾ يا زكريا إنا نبشرك

بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً \* قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً \* قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً \* قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً \* فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا \* أي: بشاره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماء الله له «يحيى»، وكان اسماً موافقاً لسماء: يحيى حياة حسية، فتم به المنة، ويحيى حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين، ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلاً ومسامياً، فيكون ذلك بشارة بكماله، واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم، وموسى، ونوح عليهم السلام، ونحوهم، من هو أفضل من يحيى قطعاً، فحيث لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه، استغرب وتعجب وقال: ﴿رب أنى يكون لي غلام﴾ والحال أن المانع من

وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليفة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئاً.

﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي: يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكاً في خبر الله، وإنما هو، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تخيي الموتى﴾ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴿فطلب زيادة العلم، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به، ف ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ والمعنى واحد، لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام ومؤداها واحد، وهذا من الآيات العجيبة، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة، بل كان سوياً، لا نقص فيه، من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا، ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح والتهليل، والذكر ونحوه، فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتلأ أمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه فأوحى إليهم، أي: بالإشارة والرمز ﴿أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ لأن البشارة بـ «يحيى» في حق الجميع، مصلحة دينية.

﴿١٢- ١٥﴾ يا يحيى خذ

الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً \* وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً \* وبراً

فكلى واشرب وتري عبداً فإما نرين من البشر أحداً مقولاً: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فأتت يوم قومها تحمله قالوا ليمرن لقد جئت شيكاً فرباً \* يتأخت هكرون ما كان أبوك أمراً سوياً وما كانت أمك بغياً \* فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً \* قال إني عبد الله أتلقى الكتب وأتبع الأوامر \* وجعلنا ميساك أن ما كنت وأوصني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً \* ورأى يولده ولم يجعلنا جباراً شقياً \* والسكندر على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أمت حياً \* ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمتثلون \* ما كان له أن يشهد من ربه ولو سئله إذا قضى أمراً \* فإنما يقول له كن فيكون \* وإن الله رب ربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم \* فاختلف الآخران يوم يسمع قول الذين كفروا من شهد يوم عظيم \* أتبعهم وأصروم بأنوثتنا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين \* ﴿٢٧﴾

بوالديه ولم يكن جباراً عصياً \* وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً \* دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وتربيته، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بجهد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفضيلة، ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال: ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه، ﴿و﴾ آتيناه أيضاً ﴿حناناً من لدنا﴾ أي: رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

﴿وزكاة﴾ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتركى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف الحمودة، ولهذا قال: ﴿وكان تقياً﴾ أي: فاعلاً للمأمور، تاركاً للمحظور، ومن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي، مارتبه الله على التقوى.

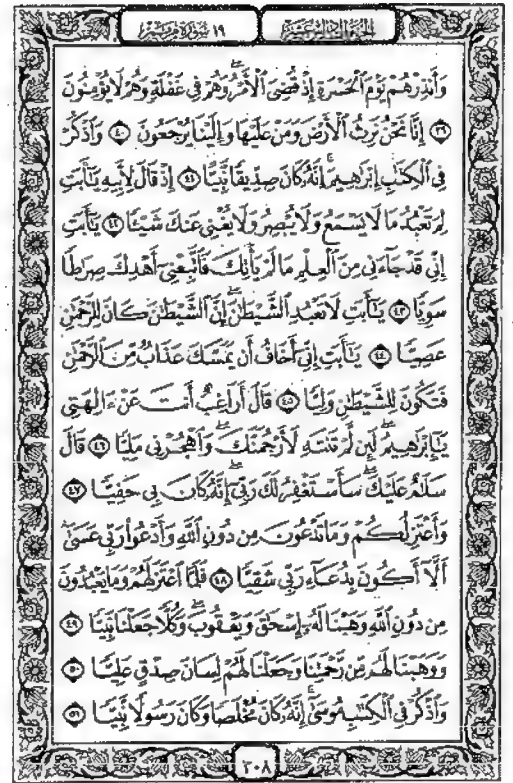
﴿و﴾ كان أيضاً ﴿براً بوالديه﴾ أي:

وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع - من أفضل الأعمال.

ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) فأعاضها الله بعفتها، ولداً من آيات الله، ورسولاً من رسله، فلما رأى جبريل منها الروح والخيفة، قال: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاة يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة، فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك!! قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ﴿تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها، لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿ورحمة منا﴾ أي: ولنجعله رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنّ عليه بما منّ به على أولي العزم، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم، أن بعث فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، ﴿وكان﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة أمراً مقضياً قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها.

انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال: ﴿واذكر في الكتاب﴾ الكريم ﴿مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين ﴿انتبذت﴾ أي: تباعدت عن أهلها ﴿مكناً شرقياً﴾ أي: بمأبى الشرق عنهم، ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي: سترأ ومانعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقتل له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿واذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴿وقوله: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي: كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعادت منه فقالت له: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي: ألتجئ به وأعتصم برحمته، أن تنالني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي: إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،



لم يكن عاقاً، ولا مسيئاً إلى أبيه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل.

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذليلاً، مطيعاً، أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلماذا قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام، فصولات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦ - ٢١﴾ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً \* فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً \* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً \* قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً \* قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً \* قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً \* لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة،

﴿٢٢-٢٦﴾ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً \* فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً \* فنادها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً \* وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً \* فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً \* أي : لما حلت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس مكاناً قصياً \* فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألتها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من حالة الناس، وخافت عدم صبرها، تخنت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحيث سكن الملك روعها وثبت جأشها ونادها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي : لا تجزعي ولا تهتمي، فـ ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي : نهراً تشربين منه، ﴿وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي : طرياً لذيداً نافعاً ﴿فكلي﴾ من التمر، ﴿واشربي﴾ من النهر ﴿وقري عينا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكل والمشرب والهني.

وأما من جهة حالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي : سكوتاً ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي : لا تخاطبهم بكلام لتستريح من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن

الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوى، التي لو أقيم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينه هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٧-٣٣﴾ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرئياً \* يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً \* فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً \* قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً \* وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً \* وبرأ بالذي لم يجعلني جباراً شقيماً \* والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً \* أي : فلما تلعت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالة ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لقد جئت شيئاً فرئياً﴾ أي : عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء<sup>(١)</sup>، حاشاها من ذلك، ﴿يا أخت هارون﴾ الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فنسبوا إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة، ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي : لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يثيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟، وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الصلاح وضده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي : كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن

تقول: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحيث قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فخاطبهم بوضفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إني عبد الله﴾ ومدعون موافقته.

﴿أتاني الكتاب﴾ أي : قضى أن يؤتيني الكتب ﴿وجعلني نبياً﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ أي : في أي : مكان، وأي : زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي : أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عبادته، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي : فأنا ممثّل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، ووصائي أيضاً، أن أبر والدي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿ولم يجعلني جباراً﴾ أي : متكبراً على الله، مترفعاً على عبادته ﴿شقيماً﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذللاً، متواضعاً لعباد الله، سعيداً في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني، فلما تم له الكمال، ومحمد الخصال قال: ﴿والسلام علي يوم

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدل من البغي فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.



ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً \* أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله حقاً.

﴿٣٤-٣٦﴾ \* ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون \* ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون \* وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم \* أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات، عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مرية، بل قول الحق وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً، ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي: يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علواً كبيراً، ف﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغني الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولداً؟! ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه وتقدس عن الولد والنقص، إذا قضى أمراً \* أي: من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فإذا كان قدره ومشيتته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن فيكون﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟! ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره، فقال: ﴿وإن الله

ربي وربكم﴾ الذي خلقنا، وصورنا، ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: طريق معتدل، موصل إلى الله، لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق الغي والضلال.

﴿٣٧-٣٨﴾ \* فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم \* أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين \* لما بين تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يشك فيها ولا يمتري، أخبر أن الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن غال فيه وجاف، فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة ومنهم من لم يجعله رسولاً، بل رماه بأنه ولد بغى كاليهود. وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وأراؤهم فاسدة، مبنية على الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال، فحيث يتبين ما كانوا يخفون ويدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم

وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بعد قوله ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ ولم يقل ﴿فويل لهم﴾ ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق، فقالت في عيسى: ﴿إنه عبد الله ورسوله﴾ فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٩-٤٠﴾ \* وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون \* إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإنا نحن نرث الإنذار هو: الإعلام بالمخوف على وجه التهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقى شقاوة لا سعادة<sup>(١)</sup> بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحيث يتحسر، ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأفئدة، وأي: حسرة أعظم من قوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في







الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إحياء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من اليُمن والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنْ بَوْرِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا﴾ ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحائهم.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحته لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانه عليه.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم.

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفى به، وهذا شامل

للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] <sup>(١)</sup> وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وفى بذلك ومكناً أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تضيق الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي [هي] أكبر من الله على عبده، وأهلها <sup>(٢)</sup> من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فأكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ورفعناه مكاناً علياً أي: اذكر في الكتاب <sup>(٣)</sup> على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفاؤه لوحيه، واختياره لرسالته، ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين،

وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾. أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومئة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين الآية. وأن بعضهم ﴿من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح﴾ أي: من ذريته ﴿ومن ذرية إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لرَبِّهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: وجعله.

(٣) في ب: في الكتاب.

المخلصون<sup>(١)</sup> المتبعون لمراضي ربهم، المتنبون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكمل الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصلوها، وعلى أي: وجه اتفقت تناولوها.

﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من تاب﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقنع عنها ونذم عليها، وعزم عزمها جنازماً أن لا يعاودها، ﴿وأمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يدخلون الجنة﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ من أعمالهم، بل يجودونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والخيور. ﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى

اسمه ﴿الرحمن﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وسمناها تعالى رحمة، فقال: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وأيضاً ففي إضافتها إلى رحمة، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمة، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم وديرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وعد الرحمن﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهده ولم يروه، فأمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا، مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعبادة، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حباً، وأجل شوقاً، ويحتمل أيضاً، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾

من قرأ أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مأثياً﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا غياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية لله، أو قولاً مكدرًا، ﴿إلا سلاماً﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجيرة، من الحور والملائكة والولدان، والنغمات المطربة، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ أي: أرزاقهم من المأكول والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بكرة وعشيا﴾ يعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبعون عنه جِولاً، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيماً \* رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً \* استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: «لو تأتينا أكثر عما تأتينا» - تشوقاً إليه، وتوحشاً

(١) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع

في التعت فلما نص الشيخ - رحمه الله - على ذلك أبقيتها كما هي.

لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله -  
فأنزل الله تعالى على لسان جبريل:  
﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك﴾ أي: ليس  
لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدرنا  
أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال  
عنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم  
ويفعلون ما يؤمرون﴾ فنحن عبيد  
مأمورون، ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا  
وما بين ذلك﴾ أي: له الأمور الماضية  
والمستقبلية والحاضرة، في الزمان  
والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله،  
وأنا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً  
بين: «هل تقتضيه الحكمة الإلهية  
فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟» ولهذا  
قال: ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي: لم  
يكن الله لينساك ويهملك، كما قال  
تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ بل لم  
يزل معتنياً بأمورك، مجرياً لك على  
أحسن عوائده الجميلة، وتدبيره  
الجميلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت  
المعتاد، فلا يحزنك ذلك ولا يهملك،  
واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما  
له من الحكمة فيه، ثم علل إحاطة  
علمه، وعدم نسيانه، بأنه ﴿رب  
السموات والأرض﴾ فربوبيته  
للسموات والأرض، وكونهما على  
أحسن نظام وأكملة، ليس فيه غفلة  
ولا إهمال، ولا سدى، ولا باطل،  
برهان قاطع على علمه الشامل،  
فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها  
بما يفعلك ويعود عليك طائفة، وهو:  
عبادته وحده لا شريك له، ﴿واضطرب  
لعبادته﴾ أي: اصبر نفسك عليها  
وجاهدتها، وقم عليها أتم القيام  
وأكملها بحسب قدرتك، وفي  
الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن  
جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال  
تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا  
به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا  
لنتفنتهم فيه﴾ إلى أن قال: ﴿وأمر أهلك  
بالصلاة واضطرب عليها﴾ الآية. ﴿هل  
تعلم له سميّاً﴾ أي: هل تعلم الله  
مسامياً ومشابهاً ومائلاً من المخلوقين.  
وهذا استفهام بمعنى الثقي، المعلوم

بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً  
ولا مشابهاً، لأنه الرب، وغيره  
مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني  
من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات  
من كل وجه، الكامل الذي له الكمال  
المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص  
ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله  
تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو  
المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته  
حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر  
بعبادته وحده، والاضطراب لها، وعلل  
ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء  
الحسنى.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ ﴿ويقول الإنسان إذا  
مات لسوف أخرج حياً﴾ أولاً يذكر  
الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك  
شيئاً المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر  
للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول -  
مستفهماً على وجه النفي والعناد  
والكفر - ﴿إذا مات لسوف أخرج  
حياً﴾. أي: كيف يعيدني الله حياً بعد  
الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا  
لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب  
عقله الفاسد ومقصد السوء، وعناده  
لرسول الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر،  
وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده  
للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر  
تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً،  
يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال:  
﴿أولاً يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل  
ولم يك شيئاً﴾ أي: أولاً يلفت نظره،  
ويستذكر حاله الأولى، وأن الله خلقه  
أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على  
خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً،  
مذكوراً، أليس بقادر على إنشائه بعد ما  
تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا  
كقوله: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم  
يعيده وهو أهون عليه﴾.

وفي قوله: ﴿أولاً يذكر الإنسان  
دعوة للنظر، بالدليل العقلي، باللفظ  
خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك،  
مبني على غفلة منه عن حاله الأولى،  
والأ فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه،  
لم ينكر ذلك.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿فأمر ربك لنحضرنهم

والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم  
جثياً﴾ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم  
أشد على الرحمن عتياً﴾ ثم لنحن أعلم  
بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أقسم الله  
تعالى وهو أصدق القائلين - ربوبيته،  
ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم  
وشياطينهم فيجمعهم لميقات يوم  
معلوم، ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم  
جثياً﴾ أي: جاثين على ركبهم من شدة  
الأنوال، وكثرة الزلزال، وفظاعة  
الأحوال، منتظرين لحكم الكبير  
المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:  
﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد  
على الرحمن عتياً﴾ أي: ثم لننزعن من  
كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين  
في الظلم والكفر والعتو أشدهم عتواً،  
وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفراً،  
فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم  
إلى العذاب، الأغلظ إثماً، فالأغلظ،  
وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن  
بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم  
لأولاهم: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم  
عذاباً ضعفاً من النار﴾ قال لكل ضعف  
ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم  
لآخرهم فما كان لكم علينا من  
فضل، وكل هذا تابع لعدله وحكمته  
وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ثم  
لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾  
أي: علمنا محيط بمن هو أولى صلياً  
بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم  
واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿وإن منكم إلا  
واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾  
ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها  
جثياً﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق،  
برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم،  
أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار،  
حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به  
عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد  
عن وقوعه.

واختلف في معنى الورود، فقيل:  
ورودها، حضورها للخلائق كلهم،  
حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم  
بَعْدُ، ينجي الله المتقين. وقيل:  
ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين



برداً وسلاماً. وقيل: الورود، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يحطف فيلقى في النار، كل بحسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحذور ﴿ونذر الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فيها جثياً﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم <sup>(١)</sup> الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً \* وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها ومن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أي الفريقين﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خير مقاماً﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وأحسن ندياً﴾ أي: مجلساً. أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة.

والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثير ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال

تعالى:

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثياً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثاً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معبثصمين من العذاب ﴿أفأركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾؟ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

﴿٧٥﴾ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً حتى إذا رآوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمدد منها، ويزيده فيها حباً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿حتى إذا رآوا﴾ أي: القائلون: ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ ما يوعدون إما العذاب بقتل أو غيره ﴿وإما الساعة﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي: فحيث يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، وأضعف جنداً ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيحملون غير عملهم الأول. ﴿٧٦﴾ ويزيد الله الذين اهتدوا

هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً ﴿لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح، زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً أخرى، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسييح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال خير عند ربك ثواباً وخير مرداً أي: خير عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه، فإنه ما ثم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿٧٧ - ٨٠﴾ أفأرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً \* أطلع

(١) كذا في ب، وفي أ: له.

الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً \* كلا  
سنتكتب ما يقول ونمد له من العذاب  
مداً \* ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً \*  
أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر،  
الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه  
الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالا  
وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا  
من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله  
وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية - وإن كانت نازلة في  
كافر معين - فإنها تشمل كل كافر،  
زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة،  
قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أطلع  
الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب،  
حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما  
يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالا  
وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أنه  
نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من  
ذلك، فعلم أنه مَثْقُولٌ، قائل ما  
لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد،  
في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة  
الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له  
خير عند الله في الآخرة، لا يخلو: إما  
أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب  
المستقبل، وقد علم أن هذا الله وحده،  
فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات  
الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من  
رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً  
عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله،  
الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل  
الآخرة، الناجون الفائزون: فإذا انتفى  
هذان الأمران، علم بذلك بطلان  
الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾  
أي: ليس الأمر كما زعم، فليس  
للقائل اطلاع على الغيب، لأنه كافر،  
ليس عنده من علم الرسل شيء،  
ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره  
وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد  
ما تَقَوْلُهُ، وأن قوله مكتوب محفوظ،  
ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال:  
﴿سنتكتب ما يقول ونمد له من العذاب  
مداً﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات،

كما ازداد من الغي والضلال، ﴿ونرثه  
ما يقول﴾ أي: نرثه ماله وولده،  
فيتقل من الدنيا فرداً، بلا مال  
ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان  
﴿ويأتينا فرداً﴾ فيرى من وخيم العذاب  
واليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من  
الظالمين.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿ألم تر أنا أرسلنا  
الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا \*  
فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً \*  
وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم  
يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا  
بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا  
أعداءه، من الشياطين - سلطهم  
عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت  
الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزا،  
وترعجهم إلى الكفر إزعاجاً،  
فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم،  
ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم  
الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم  
ويتشربها، فيسعى فيه سعي الحق في  
حقه، فينصره بجهدته ويحارب عنه،  
ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل،  
وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه  
وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطان،  
ولا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم  
يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى:  
﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا  
وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على  
الذين يتولونه والذين هم به  
مشركون.

﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: على  
هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب  
﴿إنما نعد لهم عداً﴾ أي: أن لهم أياماً  
معدودة لا يتقدمون عنها  
ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم  
مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع  
فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿٨٥ - ٨٧﴾ ﴿يوم نحشر المتقين  
إلى الرحمن وفداً \* ونسوق المجرمين إلى  
جهنم ورداً \* لا يملكون الشفاعة إلا  
من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ يخبر تعالى  
عن تفاوت الفريقين المتقين،

أقره يث الذي كفر بآياتنا وقال لأؤثيقن مالا وولداً \*  
أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً \* كلا سنتكتب  
ما يقول ونمد له من العذاب مداً \* ونرثه ما يقول  
ويأتينا فرداً \* واتخذوا من دون الله الهة ليكفواهم  
عذاباً \* كلا سيكفرون بعبادتهم ويكفون عليهم  
عذاباً \* الرترأنا أرسلنا القبطيين على الكافرين  
تؤزهم أزا \* فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً \*  
يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً \* ونسوق المجرمين  
إلى جهنم ورداً \* لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ  
عند الرحمن عهداً \* وقالوا اتخذ الرحمن ولداً \* لقد  
جئناكم بآية إن كانت السوء تطغى منته وننشؤ  
الأرض ونحدر الجبال هداً \* أن دعوا إلى الجن ولداً \*  
وما يلقى للرحمن أن يتخذ ولداً \* إن كل من في  
السموات والأرض إلا آتى الرحمن عهداً \* لقد أحصم  
وعدهم عداً \* وكلهم آتية يوم القيمة قرأاً \*  
﴿٣١﴾

والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء  
الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى  
موقف القيامة مكرمين، مبجلين  
معظمين، وأن مآلهم الرحمن،  
وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والوافد  
لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء،  
وحسن الظن بالوافد [إليه] <sup>(١)</sup>، ما هو  
معلوم، فالتقون يفقدون إلى الرحمن،  
راجين منه رحمته وعميم إحسانه،  
والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك  
بسبب ما قدموه من العمل بتقواه،  
واتباع مرضيه، وأن الله عهد إليهم  
بذلك الشواب على ألسنة رسله،  
فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين  
بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى  
جهنم ورداً، أي: عطاشاً، وهذا أبشع  
ما يكون من الحالات، سوقهم على  
وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن  
وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال  
ظمأهم ونصبهم يستغيثون  
فلا يغاثن، ويدعون فلا يستجاب  
لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم،  
ولهذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعة﴾  
أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم  
منها شيء، وإنما هي لله تعالى  
﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾. وقد أخبر  
أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم



السموات وما في الأرض وما بينهما  
وما تحت الثرى \* وإن تجهر بالقول فإنه  
يعلم السر وأخفى \* الله لا إله إلا هو  
له الأسماء الحسنى \* طه \* من جملة  
الحروف المقطعة، المفتحة بها كثير من  
السور، وليست اسماً للنبي ﷺ، \* ما  
أنزلنا عليك القرآن لتشقى \* أي : ليس  
المقصود بالوحي، وإنزال القرآن  
عليك، وشرع الشريعة، لتشقى  
بذلك، ويكون في الشريعة تكليف  
يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى  
العاملين . وإنما الوحي والقرآن  
والشرع، شرعه الرحيم الرحمن،  
وجعله موصلاً للسعادة والفلاح  
والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر  
كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء  
للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان،  
فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة  
بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى  
عليه من الخير في الدنيا والآخرة،  
ولهذا قال : ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ إلا  
ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر  
ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب،  
فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن  
الشقاء والخسران، فيهرب منه،  
ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية  
المفصلة، التي كان مستقراً في عقله  
حسنها مجملًا، فوافق التفصيل ما يجده  
في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله  
﴿تذكرة﴾ والتذكرة لشيء كان  
موجوداً، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو  
غير مستحضر لتفصيله، وخص  
بالتذكرة ﴿من يخشى﴾ لأن غيره  
لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم  
يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من  
خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما  
لا يكون، ﴿سيدكر من يخشى﴾  
ويتجنبها الأشقى \* الذي يصلى النار  
الكبرى \* ثم ذكر جلالة هذا القرآن  
العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض  
والسموات، المدبر لجميع المخلوقات،  
أي : فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان  
 والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية  
التعظيم .

وكثيراً ما يقرون بين الخلق والأمر،

كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وذلك أنه الخالق الأمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضاً فإن خلقه للخلق فيه التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئاً عبثاً، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان. فلما بين أنه الخالق المدبر، الأمر الناهي، أخبر عن عظمته وكبريائه، فقال: ﴿الرحمن على العرش﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، ﴿استوى﴾ استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ﴿له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما﴾ من ملك وإنسي وجني، وحيوان، وجماد، ونبات، ﴿وما تحت الثرى﴾ أي: الأرض، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون، مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر﴾  
الكلام الخفي ﴿وأخفى﴾ من السر،  
الذي في القلب، ولم ينطق به. أو  
السر: ما خطر على القلب.  
﴿وأخفى﴾ ما لم يخطر. يعلم تعالى أنه  
يخطر في وقته، وعلى صفته، المعنى:  
أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء،  
دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها،  
فسواء جهرت بقولك أو أسررت،  
فالكل سواء، بالنسبة لعلمه تعالى.

فلما قرر كماله المطلق، بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رحمته، وسعة عظمته، وغلوه على عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه، نتج من ذلك، أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره

وَأَنَا أَتَمَنَّاكَ فَاسْمِعْ يَا مُوسَى ❶ ۞ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا  
فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ❷ ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ  
كَذَلِكَ لَا يَخْفَى الْخُفْيَ كُلِّ شَيْءٍ بِنَافْسِي ❸ ۞ فَلَا يَصُدُّكَ  
عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ❹ ۞ وَمَا لَكَ  
بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى ❺ ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ  
بِهَا عَلَى غُلْحِي وَإِنِّي مُتَوَكِّلٌ عَلَيْهَا ❻ ۞ قَالَ اللَّهُ يَمْوَسَى  
❷ ۞ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ خَيْطٌ مُنَسَّجٌ ❸ ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ  
مُسْتَعِذًا بِرَبِّهَا الْأُولَى ❹ ۞ وَأَضْمَرَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ  
فَخَرَجَ بِخِصْمَةٍ مِنْ عُزْمَتِهِ ❺ ۞ آتَيْنَاكَ الْخُرْقَى ❻ ۞ لِأَنَّكَ مِنْ  
آدَمِ الْكَافِرِينَ ❼ ۞ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ❽ ۞  
قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ❾ ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ❿ ۞ وَلِنُفِيقَهُ  
مِنْ لِسَانِي ❶ ۞ يَقُولُ مَا تَوَلَّى ❷ ۞ وَاجْعَلْ لِي زُورِي ❸ ۞ أَهْلِي  
هَؤُلَاءِ أَمْيُ ❹ ۞ أَشَدُّ دُبْرِي ❺ ۞ وَأَنْذِرْ لِي نَارِي ❻ ۞ لِيُشْجِكَ  
كَيْدِي ❼ ۞ وَتَذَكَّرَ كَيْدِي ❽ ۞ إِنَّكَ كَذِبٌ بَاطِلٌ ❾ ۞ قَالَ قَدْ  
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَى ❷ ۞ وَلَقَدْ سَمِعْنَا عَلَيْكَ شَرَّ أَمْرِي ❸ ۞

باطلة، فقال: ﴿الله لا إله إلا هو﴾  
أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب  
والذل، والخوف والرجاء، والمحبة  
والإنابة والدعاء، إلا هو.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي : له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى ، من حسننها أنها كلها أسماء دالة على المدح ، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد ، ومن حسننها أنها ليست أعلاماً مخفية ، وإنما هي أسماء وأوصاف ، ومن حسننها أنها دالة على الصفات الكاملة ، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها ، ومن حسننها أنه أمر العباد أن يدعوه بها ، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ، ويحب من يحبها ، ويجب من يحفظها ، ويجب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها ، قال تعالى : ﴿وله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ .

﴿٩- ١٢﴾ ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ إذ رأى ناراً فقال لأهله أمكنوا لي أنست ناراً لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴿فلما أتاها نودي يا موسى﴾ ﴿إني أنا ربك﴾ فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ﴾ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ في حاله التي هي مبدأ سعادته، ومشأ نبوته، أنه رأى ناراً من بعيد، وكان قد ضل الطريق، وأصابه







عنها، وقوله تعالى:

﴿١٧ - ٢٣﴾ ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ﴿قال ألقها يا موسى﴾ فألقها فإذا هي حية تسعى ﴿قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾.

لما بين الله لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقربه عينه، ويقوى إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ هذا، مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس آدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، ومنفعة للبهايم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الحبط ونحوه، هش بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاها الغنم. هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

﴿ولي فيها مآرب﴾ أي: مقاصد ﴿أخرى﴾ غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجابه بعينها، ومنفعتها فقال الله له: ﴿ألقها يا موسى﴾ فألقها فإذا هي حية تسعى ﴿انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً، فولى موسى هارباً خائفاً، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى، إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تحييل

لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: ﴿خذها ولا تخف﴾ أي: ليس عليك منها بأس. ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي: هيئتها وصفتها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه - آية، ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أي: أدخل يدك في جيبك، وضم عليك عضدك، الذي هو جناح الإنسان ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي: بياضاً ساطعاً، من غير عيب ولا برص ﴿آية أخرى﴾.

قال الله: ﴿فذلك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا، من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعده الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهاناً لمن أرسلت إليهم.

﴿٢٤ - ٣٦﴾ ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ قال رب اشير لي صدري ﴿ويسر لي أمري﴾ واحلل عقدة من لساني ﴿يفقهوا قولي﴾ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴿هارون أخي﴾ أشد به أوزري ﴿وأشركه في أمري﴾ كي نسبحك كثيراً ﴿ونذكرك كثيراً﴾ إنك كنت بنا بصيراً ﴿قال قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾ لما أوحى الله إلى موسى، ونباه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والفقر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية.

قبحه الله - أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحداً، إلا بعد قيام الحجة بالرسول، فحيث علم موسى عليه السلام أنه تحمل حلاً عظيماً، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مضر من الخلق، وموسى عليه السلام، وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي [هي] <sup>(١)</sup> من تمام الدعوة، فقال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعل، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم. ﴿ويسر لي أمري﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن يسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، كما قاله المفسرون، كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني. ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ أي: معيماً <sup>(٢)</sup> يعاوينني، ويؤازرنني، ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله، لأنه من باب

(٢) في النسختين: عويناً.

(١) زيادة من هامش: ب.







أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فقال: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثم هدى﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة<sup>(١)</sup> المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن<sup>(٢)</sup> به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ فالذي خلق المخلوقات، وأعطاه خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجوداً، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا

الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى: ﴿علمها عند ربّي في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناكها، قد تحققت صدقها وقيمتها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً، ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدتها مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرد في هذا الدليل القاطع، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي: فرأشاً بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للآذراع وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها ممتعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتفنون بأسفارهم، أكثر مما يتفنون بإقامتهم.

﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ أي: أنزل المطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبث بذلك جميع أصناف النوابت على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ وساقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوابت الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضراً، كالسموم ونحوه.

﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتعام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المتفكرون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة. ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن

(١) في ب: الكاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ما يتمكن.

شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربها، تخرج النبات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليعجزنا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على الإعادة عقلياً واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿٥٦ - ٦١﴾ ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾ قال أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴿فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم ضحى ﴿فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى﴾ قال لهم موسى ويلكم لا تفترؤا على الله كذباً فيسحقكم بعداً قد خاب من افترى ﴿يخبر تعالى، أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع، جميع أنواعها العيانة، والأفقية والنفسية، فما استقام ولا ازعوى، وإنما كذب وتولى، كذب الخبر، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس، فقال: ﴿أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليعرضوه، ويسعوا في محاربتة، فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا، واجعل لنا ﴿موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾ أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً ليمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: ﴿موعدكم يوم

الزينة﴾ وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وأن يحشركم الناس ضحى﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، ﴿فتولى فرعون فجمع كيدته﴾ أي: جمع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشركم السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿هل أنتم مجتمعون﴾ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴿فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظمهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿ويلكم لا تفترؤا على الله كذباً فيسحقكم بعداً﴾ أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبيون الحق، وتفترؤا على الله الكذب، فيستأصلكم بعداً من عنده، ويغيب سعيكم وافترؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملائته، ولا تسلمون من عذاب الله، وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن، ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة﴾ فحيث أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم، والنجوى التي أسروها فسرهما بقوله: ﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن

يخرجاك من أرضك من أرضكم بسحرهما﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿ويذهب بطريقتكم المثل﴾ أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتكم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا: ﴿فأجمعوا كيدكم﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم، ﴿ثم اثنوا صفاً﴾ ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام، فله دُرهم ما أصلهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيّدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي عصاك﴾ وإما أن تكون أول من ألقى خيروه، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي: حالة كانت، فقال لهم موسى: ﴿بل ألقوا﴾ فآلقوا حبالهم وعصيهم، ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه﴾ أي: إلى موسى ﴿من سحرهم﴾ البالغ ﴿أنها تسعى﴾ أي: أنها حيات تسعى فلما خيل إلى موسى ذلك، ﴿أوجس في نفسه خيفة موسى﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعده الله ونصره، ﴿قلنا﴾ له تثبيتاً وتطميناً: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويدلوا



لك ويخضعوا.

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي : عصاك  
﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ  
سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾  
أي : كيدهم ومكرهم ، ليس بمثمر لهم  
ولا ناجح ، فإنه من كيد السحرة ،  
الذين يموهون على الناس ، ويلبسون  
الباطل ، ويخيلون أنهم على الحق ،  
فألقي موسى عصاه ، فتلقفت ما صنعوا  
كله وأكلته ، والناس ينظرون لذلك  
الصنيع ، فعلم السحرة علماً يقيناً أن  
هذا ليس بسحر ، وأنه من الله ، فبادروا  
للإيمان .  
﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ قالوا آمنا  
برب العالمين رب موسى وهارون  
فوقع الحق وظهر وسطح ، وبطل  
السحر والمكر والكيد ، في ذلك المجمع  
العظيم .

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين ،  
وحجة على المعاندين في ﴿قَالَ﴾ فرعون  
للسحرة : ﴿أنتم له قبل أن أذن لكم﴾  
أي : كيف أقدمتم على الإيمان من دون  
مراجعة مني ولا إذن ؟

استغرب ذلك منهم ، لأدبهم معه ،  
وذللهم ، وانقيادهم له في كل أمر من  
أمرهم ، وجعل هذا من ذاك .

ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه  
بعد هذا البرهان ، واستخف عقول  
قومه ، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من  
موسى للسحرة ، ليس لأن الذي معه  
الحق ، بل لأنه تعالى هو والسحرة ،  
ومكروا ، ودبروا أن يخرجوا فرعون  
وقومه من بلادهم ، فقبل قومه هذا  
المكر منه ، وظنوه صدقاً ﴿فَاسْتَخَفَّ  
قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ﴾ إنهم كانوا قوماً فاسقين  
مع أن هذه المقالة التي قالها ، لا تدخل  
عقل من له أدنى مسكة من عقل  
ومعرفة بالواقع ، فإن موسى أتى من  
مدین وحيداً ، وحين أتى لم يجتمع بأحد  
من السحرة ولا غيرهم ، بل يادر إلى  
دعوة فرعون وقومه ، وأراهم الآيات ،  
فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به  
موسى فسعى ما أمكنه ، وأرسل في  
مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم .

فجاؤوا إليه ، ووعدهم الأجر

والمنزلة عند الغلبة ، وهم حرصوا غاية  
الحرص ، وكادوا أشد الكيد ، على  
غلبتهم لموسى ، وكان منهم ما كان ،  
فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن  
يكونوا دبرواهم وموسى وافقوا على  
ما صدر ؟ هذا من أحمل المحال ، ثم  
توعد فرعون السحرة فقال :  
﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ  
خِلَافٍ﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي  
بالفساد ، يقطع يده اليمنى ، ورجله  
اليسرى ، ﴿وَلَا أَصْلَبْنَكُمْ فِي جَذْوَعِ  
النَّخْلِ﴾ أي : لأجل أن تستهزؤوا  
وتحتزؤوا ، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَاباً  
وَأَبْقَى﴾ يعني بزعمه هو أو الله ، وأنه  
أشد عذاباً من الله وأبقى ، قلباً  
للحقائق ، وترهيباً لمن لا عقل له .

ولهذا لما عرف السحرة الحق ،  
ورزقهم الله من العقل ما يدركون به  
الحقائق ، أجابوه بقولهم :

﴿لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ  
الْبَيِّنَاتِ﴾ أي : لن نخترك وما وعدتنا  
به من الأجر والتقريب ، على ما أرانا الله  
من الآيات البينات الدالات على أن الله  
هو الرب المعبود وحده ، المعظم المبجل  
وحده ، وأن ما سواه باطل ، ونؤثرك  
على الذي فطرنا وخلقنا ، هذا لا يكون  
﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به  
من القطع ، والصلب ، والعذاب .

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾  
أي : إنما توعدتنا به غاية ما يكون في  
هذه الحياة الدنيا ، ينقضي ويزول ولا  
يضرنا ، بخلاف عذاب الله ، لمن استمر  
على كفره ، فإنه دائم عظيم .

وهذا كانه جواب منهم ، لقوله :  
﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ وفي  
هذا الكلام ، من السحرة ، دليل على أنه  
ينبغي للعاقل ، أن يوازن بين لذات  
الدنيا ، ولذات الآخرة ، وبين عذاب  
الدنيا ، وعذاب الآخرة .

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾  
أي : كفرنا ومعاصينا ، فإن الإيمان  
مكفر للسيئات ، والتوبة تجب ما قبلها ،  
وقولهم ، ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ  
السَّحَرِ﴾ الذي عارضنا به الحق ، هذا  
دليل على أنهم غير مختارين في عملهم

المتقدم ، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً .

والظاهر - والله أعلم - أن موسى  
لما وعظهم كما تقدم في قوله : ﴿وَيْلَكُمْ  
لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ  
بِعَذَابٍ﴾ أثر معهم ، ووقع منهم موقعا  
كثيراً ، ولهذا تنازعوا بغد هذا الكلام  
والموعظة ، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك ،  
وأكرههم على المكر الذي أجروه ،  
ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل  
إتيانهم ، حيث قالوا : ﴿إِنْ هَٰذَا  
لَسَاحِرٌ أَوْ نَجِّنٌ﴾ يريدان أن يخرجكما من  
أرضكم بسحرهما ﴿فَجَرَّوْا عَلَى مَا سَأَهُ  
لَهُمْ ، وَأَكْرَهُهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَعَلَّ هَذِهِ  
النَّكَّةُ الَّتِي قَامَتْ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ كِرَاهَتِهِمْ  
لِمُعَارَضَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَفَعْلِهِمْ ، مَا  
فَعَلُوا عَلَى وَجْهِ الْإِغْمَاضِ ، هِيَ الَّتِي  
أَثَرَتْ مَعَهُمْ ، وَرَحِمَهُمُ اللَّهُ بِسَبَبِهَا ،  
وَوَفَّقَهُمُ لِلْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ﴾ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ  
مِمَّا وَعَدْتَنَا مِنَ الْأَجْرِ وَالْمُنْزِلَةِ وَالْجَاهِ ،  
وَأَبْقَى ثَوَاباً وَإِحْسَاناً لَا مَا يَقُولُ  
فِرْعَوْنُ : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَاباً  
وَأَبْقَى﴾ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى .  
وجميع ما أتى من قصص موسى مع  
فرعون ، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة  
السحرة ، أن فرعون توعدهم بالقطع  
والصلب ، ولم يذكر أنه فعل ذلك ، ولم  
يأت في ذلك حديث صحيح ، والجزم  
بوقوعه أو عدمه ، يتوقف على الدليل ،  
والله أعلم بذلك وغيره ، ولكن توعد  
إياهم بذلك مع اقتداره ، دليل على  
وقوعه ، ولأنه لو لم يقع لذكره الله ،  
ولا اتفاق الناقلين على ذلك .

﴿٧٤ - ٧٦﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِ  
مَجْزِئاً فَإِنْ لَمْ يَهْتُمْ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا  
يَحْيَا﴾ ومن يأتاه مؤمناً قد عمل  
الصالحات فأولئك لهم الدرجات  
العلي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ  
تَزَكَّى﴾ يحبر تعالى أن من أتاه ، وقدم  
عليه مجزئاً - أي : وصفه الجرم من كل  
وجه ، وذلك يستلزم الكفر - واستمر  
على ذلك حتى مات ، فإن له نار  
جهنم ، الشديد نكالها ، العظيمة  
أغلالها ، البعيد قعرها ، الأليم حرها  
وقرها ، التي فيها من العقاب ما يذيب

الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يقتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم، إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإن دعا، أجيب بـ ﴿أخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾. ومن يأت ربه مؤمناً به مصداقاً لرسله، متبعاً لكاتبه ﴿قد عمل الصالحات﴾ الواجبة والمستحبة، ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي: المنازل العليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار البارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وذلك﴾ الثواب، ﴿جزاء من تزكى﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للزكية معنيين، التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، لهذين الأمرين.

﴿٧٧ - ٧٩﴾ ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم \* وأضل فرعون قومه وما هدى \* لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا

في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدر أن يظهر إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض ليعبدوه جهرًا، ويقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى <sup>(١)</sup>، أن سِرْ أو سِرُوا أول الليل، ليمادوا <sup>(٢)</sup> في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا مجيب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدائن، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل ليقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل، فأتبعوهم مشرقين، ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظًا وحنقًا، وموسى مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعد ربه، فقال: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقًا، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطرق ويسارها، وأبىس الله طرقهم التي انفرق عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فبسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه <sup>(٣)</sup>. وهذا عاقبة الكفر

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل ويبدو أنها مشطوبة في أ.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بهلاكهم.



والضلال، وعدم الاهتداء بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه بإياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال.

﴿٨٠ - ٨٢﴾ ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ووعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ \* كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يجلل عليه غضبي فقد هوى \* وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ يذكر تعالى بني إسرائيل منتهى العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعيدته لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب، الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، فتم عليهم النعمة الدينية، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منتهى أيضاً عليهم في التيه، بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: واشكروه على ما



أسدى إليكم من النعم ﴿ولا تطغوا فيه﴾ أي: في رزقه، فتستعملونه في معاصيه، وتبطلون النعمة، فإنكم إن فعلتم ذلك، حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم، ثم عذبتكم، ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عديم الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال: ﴿وإني لغفار﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

﴿ثم اهتدى﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر، للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء فإن التوبة تحب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات، يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة

إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

﴿٨٣ - ٨٦﴾ ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى \* قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري \* فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أظال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي \* كان الله تعالى، قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتها بعشر، فلما تم الميقات، بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعود شوقاً لربه، وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ قال: ﴿هم أولاء على أثري﴾ أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري والذي عجلني إليك يا رب طلباً لقربك ومسارة في رضاك، وشوقاً إليك، فقال الله له: ﴿فإنا قد فتننا قومك من بعدك﴾ أي: بعبادتهم للعجل، ابتليانهم، واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة، كفروا ﴿وأضلهم السامري﴾

﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً﴾ وصاغه فصار ﴿له خوار فقالوا﴾ لهم ﴿هذا الهكم وإله موسى﴾ فنسيه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا، فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف، أي: ممتلئ غيظاً وحنقاً وغماً، قال لهم موبخاً ومقبحاً لفعلهم: ﴿يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾ وذلك بإنزال التوراة، ﴿أظال عليكم العهد﴾ أي: المدة، فتناولتم غيبيتي وهي مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أظال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست

آثارها، فلم تقفوا منها على خبر، فانمحت آثارها لبعده العهد بها، فعبدتهم غير الله، لغلبة الجهل، وعدم العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول؟ أم أردتم بفعلكم، أن يحل عليكم غضب من ربكم؟ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع، ﴿فأخلفتم موعدي﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائباً، ولم تحترموا حاضراً.

﴿٨٧ - ٨٩﴾ ﴿قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري﴾ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي \* أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً \* أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأمننا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم وألقوه، وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع.

وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حيي، فتنة وامتحاناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة عجل، فتحرك العجل، وضار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو هاهنا فنسيه، وهذا من بلادهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جهاداً، فظنوه إله الأرض والسموات.

﴿أفلا يرون﴾ أن العجل ﴿لا يرجع إليهم قولا﴾ أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعون، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدر

ولا يُخَافُ، ولا يُدْعَى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿٩٩-١٠١﴾ ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾ من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ﴿خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة خلا﴾ يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم من دراهم، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقاً، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ أي: عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا. ﴿ذكر﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابله بالإعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الراجية ﴿فإنه﴾ يحمل يوم القيامة وزراً. وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خالدين فيه﴾ أي:

يا سامري ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾ قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً. أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ وهو جبريل عليه السلام، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه، فنبذتها على العجل، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فاذهب﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ فتجاوزى بعملك، من خير وشر، وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً أي: العجل ﴿لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلهاً، لامتنع من يريده بأذى ويسعى له بالاتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى ذاع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿٩٨﴾ ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يحب، ولا يُرجى

على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

﴿٩٠-٩٤﴾ ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا﴾ ألا تتبعن أفعصيت أمري ﴿قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴿أي: إن اتخذهم العجل، ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن، الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾

فأقبل موسى على أخيه لاثماً له، وقال: ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أفعصيت أمري﴾ في قولي ﴿أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾.

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يحره من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يا ابن أم﴾ تريق له، وإلا فهو شقيقه ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴿فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك، لتركت ما أمرتني بلزومته وخشيت لاثمتك، و﴾ أن تقول فرقت بين بني إسرائيل حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء، فنقدم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ ثم أقبل على السامري.

﴿٩٥-٩٧﴾ ف ﴿قال فما خطبك

في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي: بئس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال: ﴿١٠٢-١٠٤﴾ «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً» \* يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً \* نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً»

أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كُلُّ على حسب حاله، فالتقون يحشرون إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يحشرون زرقاً ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إن لبثتم إلا يوماً»

والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوا ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فما قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ \* قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين \* قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم تعلمون﴾

﴿١٠٥-١١٢﴾ «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً \* فيذرهما قاعاً صفصفاً \* لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً \* يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً \* يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً \* وعنت الوجوه

للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً» \* ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ يخبر تعالى عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلقل، فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثاً، فتضمحل وتتلشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعاً صفصفاً، مستوياً لا ترى فيه أيها الناظر عوجاً، هذا من تمام استوائها ﴿ولا أمتاً﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لا عوج له﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً، لجميع الخلق، يسمعون جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافة سراً بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذلل وتخضع، فتري في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يندرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا

يفعل به، قد اشتغل كُلُّ بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فحيثُ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة] <sup>(١)</sup>، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما تعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، وما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ مع قوله ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ مع قوله ﷺ: «إن لله مئة رحمة، أنزل لعباده رحمة، بها يتراحون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع جافرها عن ولدها خشية أن تطأه - أي: - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرخم بها العباد».

مع قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجَلَّ من غني عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا





فَقَالَ اللَّهُ لَكَ الْحَقُّ وَلَا تَجْعَلْ لِلشَّيْطَانِ مِنْ قَوْلٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّكَ بَرِيءٌ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ آدَمُ مِنْ قَبْلِ قَسِيٍّ وَلَمْ نَجْعَلْهُ عَزِيمًا ۖ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۖ وَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّ مَكَانَ الْجَنَّةِ قَبْسَيْنِ ۖ إِنَّ لَكَ الْأَجْمَعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۖ فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ آدَمُ هَلْ أَتَى عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَئِيْلٍ ۖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَاوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۖ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ فَقَاتَبَ عَلَيْهِ وَهَدَى ۖ قَالَ أَهْطَا بَيْنَهُمَا بِمَضْمُونِهِمْ يَتَّبِعُ عَدُوًّا فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ أَتَّبِعْ هَذَا قَالَ فَضِلْ وَلَا تَشْقَى ۖ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۖ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۖ

لك ولزوجك فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى \* إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى \* وأنت لا تظمأ فيها ولا تصحى \* فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى \* فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى \* ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى \* أي : لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له، إكراما وتعظيما وإجلالا، فبادروا بالسجود ممتثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال : «أنا خير منه خلقتني من ناز وخلقته من طين» فتبينت حيث عدوته البليغة لآدم وزوجه، لما كان عدوا لله، وظهر من حسده، ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال : «لا تخرجنكما من الجنة فتشقى» إذا خرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهني، والراحة التامة.

«إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى، وأنت لا تظمأ فيها ولا تصحى» أي : تصيبك الشمس بحرما، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم

التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال : «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» فلم يزل الشيطان يسول لهما، ويزين أكل الشجرة، ويقول : «هل أدلك على شجرة الخلد» أي : الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة. «وملك لا يبلى» أي : لا ينقطع إن أكلت منها، فأناه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فاغتر به آدم، وأكلا من الشجرة فسقط في أيديهما، وسقطت كسوتهما، واتضح معصيتهما، وبدا لكل منهما سواة الآخر، بعد أن كانا مستورين، وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ليستترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم.

«وعصى آدم ربه فغوى» فبادرا إلى التوبة والإنابة، وقالا : «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» فاجتباه ربه، واختاره، ويسر له التوبة «فتاب عليه وهدى» فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره، فتنت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المربط الملازم لهم، ليلا ونهارا «يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون».

﴿١٢٣ - ١٢٧﴾ «قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فيما يأتيكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى \* ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى» قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى \* وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه وللعذاب الآخرة أشد وأبقى»

يخبر تعالى، أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذوا [آدم وبنوه] الشيطان عدوا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويعدوا له عدته ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتبا، ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي : وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهي عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى، لقوله : «فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون». واتباع الهدى، بتصديق الخبر، وعدم معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.

«ومن أعرض عن ذكري» أي : كتابي الذي يتذكر به جميع الطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به «فإن له معيشة ضنكا» أي : فإن جزاءه، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابا.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر. والثانية قوله تعالى : «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم» الآية. والثالثة قوله : «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر». والرابعة قوله عن آل فرعون : «النار يعرضون عليها غدوا وعشيا» الآية.

والذي أوجب لمن فسرهما بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية،

وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين، يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقيدها.

«ونحشره» أي: هذا المعرض عن ذكر ربه «يوم القيامة أعمى» البصر على الصحيح، كما قال تعالى: «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً».

قال على وجه الدل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: «رب لم حشرتني أعمى وقد كنت في دار الدنيا بصيراً» فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة، «قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها» بإعراضك عنها «وكذلك اليوم تنسى» أي: تترك في العذاب، فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشت عنه ونسيته ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أضمت أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب، «وكذلك» أي: هذا الجزاء «نحزيه» من أسرف «بأن تعدى الحدود، وارتكبت المحارم وجاوز ما أذن له» ولم يؤمن بآيات ربه «الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه.

«وللعذاب الآخرة أشد» من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة «وأبقى» لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

«١٢٨» «أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهي» أي: أفلم يهد هؤلاء المكذبين المعرضين،

ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا ربنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟

فما الذي يؤمن هؤلاء، أن يحل بهم، ما حل بأولئك؟ «أفأركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر» أم يقولون نحن جميع منتصر» لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار، خيراً من أولئك، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحق من ذلك، فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم، من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاؤوهم، وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهي، أي: العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والآليات التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

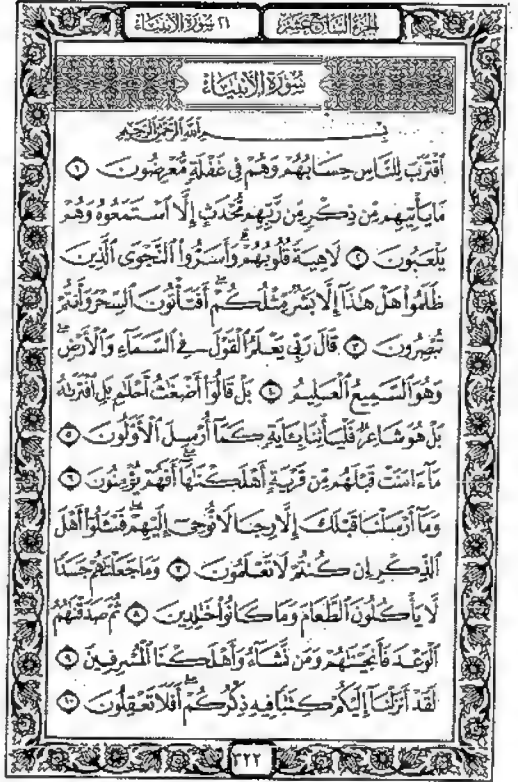
«١٢٩ - ١٣٠» «ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى» فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسيح وأطراف النهار لعلك ترضى» هذا تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات سبباً وناشئاً عن الذنوب، ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ

قال كذلك أنك إن شئت فقل ما أهلكنا من القرون قبلك من أسرف ولزوم يكذب ربه ولقد أتت الآخرة أشد وأبقى» أفأركم خير من أولئك أم يقولون نحن جميع منتصر» لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار، خيراً من أولئك، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحق من ذلك، فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم، من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاؤوهم، وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهي، أي: العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والآليات التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلهم يرجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة.

ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك، ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والأجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر.

«١٣١» «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى» أي: لا تمد عينيك معجباً، ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والمستعين بها، من المأكول والمشرب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء الجميلة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة - القوم الظالمون، ثم تذهب سريعاً، وتمضي جميعاً، وتقتل



محببها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختباراً، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ \* وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً \*

﴿ورزق ربك﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والأجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خير﴾ مما متعنا به أزواجاً، في ذاته وصفاته ﴿وأبقى﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تَوَثَّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ \* والآخرة خير وأبقى \*

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً

بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿واصطبر عليها﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:

﴿نحن نرزقك﴾ أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَى﴾ التي هي فعل الأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٥﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مِنَ الْبُحُورِ الْأُولَى﴾ \* ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا إليك رسولاً فتتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى \* قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى \* أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ \* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهالة والملائكة قبلاً \*

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم،

فإنهم، هم والرسول، بشر عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته، هو الله.

ولأن<sup>(١)</sup> قولهم: ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات القاهرة، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أولم تأتكم﴾ \* إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿بينة ما في الصحف الأولى﴾ أي: هذا القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقوله تعالى:

﴿أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ \* فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعارضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها، ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب العذب، وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لولا أرسلنا إليك رسولاً فتتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ بالعقوبة، فهذا قد جاءكم رسولي ومع آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون، فصدقوه.

قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المنون ﴿قل كل متربص﴾ فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي: الظفر أو الشهادة ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو

(١) في ب: ولما كان.



بأيدينا. ﴿فَتَرَبَّصُوا فَمَا يَعْلَمُونَ مِنَ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي: المستقيم، ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾ بسلوكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب، وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، والله أعلم.

### تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، وهي مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اقترَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ \* مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ \* لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَوُا النُّجُوى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ \* قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* هَذَا تَعْجَبُ مِنْ حَالَةِ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْجَعُ فِيهِمْ تَذْكِيرٌ، وَلَا يَرْعَوْنَ إِلَى نَذِيرٍ، وَأَنَّهُمْ قَدْ قَرَّبَ حِسَابَهُمْ، وَجَازَاتِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ وَالطَّالِحَةِ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ، أَي: غَفْلَةٌ عَمَّا خَلَقُوا لَهُ، وَإِعْرَاضٌ عَمَّا زَجَرُوا بِهِ. كَأَنَّهُمْ لِلدُّنْيَا خَلَقُوا، وَلِلْآخِرَةِ نَدُوا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَزَالُ يُجَدِّدُ لَهُمُ التَّذْكِيرَ وَالْوَعْظَ، وَلَا يَزَالُونَ فِي غَفْلَتِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ يَذْكُرُهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَحْذَرُهُمْ عَلَيْهِ وَمَا يَضُرُّهُمْ، وَيَرْهَبُهُمْ مِنْهُ ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ سَمَاعًا، تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةُ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ \* لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ \* أَي: قُلُوبُهُمْ غَافِلَةٌ مَعْرُضَةٌ لَاهِيَةٌ بِمِطَالِبِهَا الدُّنْيَوِيَّةِ، وَأَبْدَانُهُمْ لَاعِبَةٌ، قَدْ اسْتَغْلَوْا بِشَتَاوِلِ الشَّهَوَاتِ وَالْعَمَلِ بِالْبَاطِلِ، وَالْأَقْوَالِ الرَّدِيَّةِ، مَعَ أَنَّ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا بِغَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ، تَقْبَلُ قُلُوبُهُمْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، وَتَسْتَمِعُهُ اسْتِمَاعًا، تَفْقَهُ الْمُرَادَ مِنْهُ، وَتَسْمَعُ جَوَارِحِهِمْ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، الَّتِي خَلَقُوا لِأَجْلِهَا،

وَيَجْعَلُونَ الْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ مِنْهُمْ عَلَى بَالٍ، فَبِذَلِكَ يَتَمَّ لَهُمْ أَمْرُهُمْ، وَتُسْتَقِيمُ أَحْوَالُهُمْ، وَتَزَكُوا أَعْمَالُهُمْ، وَفِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ آخِرُ الْأُمَمِ، وَرَسُولُهَا آخِرُ الرُّسُلِ، وَعَلَى أُمَّتِهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، فَقَدْ قَرَّبَ الْحِسَابَ مِنْهَا بِالنِّسْبَةِ لِمَا قَبِلَهَا مِنَ الْأُمَمِ، لِقَوْلِهِ ﷺ «بَعَثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وَفَرَّقَ بَيْنَ إِصْبَعِيهِ، السَّبَابَةَ وَالْتِي تَلِيهَا.

والقول الثاني: أَنَّ الْمُرَادَ بِقُرْبِ الْحِسَابِ الْمَوْتَ، وَأَنَّ مِنْ مَاتَ، قَامَتْ قِيَامَتُهُ، وَدَخَلَ فِي دَارِ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَأَنَّ هَذَا تَعْجَبُ مِنْ كُلِّ غَافِلٍ مَعْرُضٍ، لَا يَدْرِي مَتَى يَفْجُوهُ الْمَوْتُ، صَبَاحًا أَوْ مَسَاءً، فَهَذِهِ حَالَةُ النَّاسِ كُلِّهِمْ، إِلَّا مَنْ أَدْرَكَتْهُ الْعَنَاءَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، فَاسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَتَنَاجَى بِهِ الْكَافِرُونَ الظَّالِمُونَ عَلَى وَجْهِ الْعِنَادِ، وَمُقَابِلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَأَنَّهُمْ تَنَاجَوْا، وَتَوَاطَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَنْ يَقُولُوا فِي الرَّسُولِ ﷺ إِنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فَمَا الَّذِي فَضَّلَهُ عَلَيْكُمْ، وَخَصَّهُ مِنْ بَيْنَكُمْ، قُلُوبُ أَدْعَى أَحَدٍ مِنْكُمْ مِثْلَ دَعْوَاهِ، لَكَانَ قَوْلُهُ مِنْ جَنْسٍ قَوْلِهِ، وَلَكِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ، وَيُرَاسُ فَيْكُمْ، فَلَا تَطِيعُوهُ، وَلَا تَصُدِّقُوهُ، وَأَنَّهُ سَاحِرٌ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْقُرْآنِ سِحْرٌ، فَانْفَرُوا عَنْهُ، وَنَفَرُوا النَّاسُ، وَقُولُوا: ﴿أَفْتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ هَذَا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا بِمَا شَاهَدُوا<sup>(١)</sup> مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ مَا لَمْ يَشَاهِدْ غَيْرُهُمْ، وَلَكِنْ حَلَمَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الشَّقَاءِ وَالظُّلْمِ وَالْعِنَادِ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَا تَنَاجَوْا بِهِ، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلُ﴾ أَي: الْخَفِيِّ وَالْجَلِيِّ ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ مَا اخْتَوَتْ عَلَيْهِ أَقْطَارُهَا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِسَائِرِ الْأَصْوَاتِ، بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، عَلَى تَفْنِنِ الْحَاجَاتِ ﴿وَالْعَلِيمُ﴾ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ، وَأَكْنَتِهِ

وَكَرَّصَتَا مِنْ قَبْلِكَ كُنْتَ ظَالِمًا وَأَشَآءَ بِمَدْهَا قَوْمًا  
أَكْبَرُونَ ﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّهُمْ إِذَا هُمْ بِمَنْظُورٍ﴾  
لَا تَرْكَبُوا وَأَرْجُوا إِلَى مَا أُرْسَتْ لَهُمْ وَمَسْكِكُمْ كَمَا لَمَلَكُوا  
تُنَادُونَ ﴿قَالُوا أَيَوْتَلَقَا إِنَّا نَكَاةٌ فَلْيَلَيَنَّ﴾  
دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَالِدِينَ ﴿وَمَا عُلِّفْنَا  
السَّيِّئَةَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْجُو  
أَهْلًا لَأَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كَيْدَ قَوْمِكَ بَلْ تَقْدُوفُ الْخَيْ  
عَلَى الْبَيْلِ وَمَنْعُهُ فَإِذَا هُوَ رَاقٍ وَلَكِنَّ أَوَّلَ مَا تَصِفُونَ  
﴿وَلَهُمْ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ  
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ يُسْتَحِيرُونَ أَيْلَ وَالْمَلَكُ  
لَا يَقْدِرُونَ أَيْرُ أَخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشِيرُونَ  
لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ عَنِ الْعَرْشِ  
عَالِي عَرْشِهِ ﴿لَا تَسْأَلُ عَنْهُمْ وَعَدُّهُمْ يَنْتَوُونَ﴾ أَوْ  
أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا فَلَهُمَا مَا أُرْسَتْ لَهُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَوَى  
وَذِكْرٌ مَنْ قَبِلَ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْخَيْ وَهُم مُعْرِضُونَ ﴿

السراير.

﴿٥-٦﴾ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ \* مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى إِتْنَفَاكَ الْمَكْذِبِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُمْ سَفَهُوهُ<sup>(٢)</sup>، وَقَالُوا فِيهِ الْأَقْوَالُ الْبَاطِلَةُ الْمُخْتَلَفَةُ، فَتَارَةً يَقُولُونَ: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ بِمَنْزِلَةِ كَلَامِ النَّاسِ الْهَازِلِ، الَّذِي لَا يَحْسُ بِمَا يَقُولُ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وَاخْتَلَقَهُ وَقَوْلُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ وَمَا جَاءَ بِهِ شَعْرٌ.

وَكُلٌّ مِنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ بِالْوَاقِعِ، مِنْ حَالَةِ الرَّسُولِ، وَنَظَرَ فِي هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ، جَزَمَ جَزْمًا لَا يَقْبَلُ الشُّكَّ، أَنَّهُ أَجَلُ الْكَلَامِ وَأَعْلَاهُ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ بَعْضِهِ، كَمَا تَحْدَى اللَّهُ أَعْدَاءَهُ بِذَلِكَ، لِيَعَارِضُوا مَعَ تَوْفَرِ دَوَاعِيهِمْ لِمُعَارَضَتِهِ وَعِدَاوَتِهِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ مُعَارَضَتِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَإِلَّا فَمَا الَّذِي أَقَامَهُمْ وَأَقْعَدَهُمْ وَأَقْضَى مُضَاجِعَهُمْ وَبَلَبَلَ أَلْسِنَتَهُمْ إِلَّا الْحَقُّ الَّذِي لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِيهِ - حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ - تَفْهِيمًا عَنْهُ لَمْ

(١) فِي ب: بِمَا يَشَاهِدُونَ.

(٢) فِي ب: تَقُولُوهُ فِيهِ.





السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتكم غيره من الطرق، التي فيها ضَعُتْكُمْ وَخَسَّتْكُمْ في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي: رجيج.

وهذه الآية، مُصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصبحانية فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يمتد به ويتزك به، من المقت والضعة والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالذكر بهذا الكتاب.

﴿١١-١٥﴾ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْئَاتِهِمْ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ يقول تعالى - محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأُمم المكذبة لغيره من الرسل - ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تلفت عن آخرها ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعذاب الله وعقابه، وبأشهرهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهربوا من وقوعه، فقل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ بِهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتُم فيه، من اللذات والمشتهيات، ومسكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، ولذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين

معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً، مسؤولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى، وهيئات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟

ولهذا ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: الدعاء بالويل والشور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم، ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي: بمنزلة النبات الذي قد حصد وأُتِم، قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله فيما يخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمتها، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا نحب أن نريه إياكم، فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو، كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقتنة، فسبحان الخليم الرحيم،

الحكيم في تنزيه الأشياء منازلها. ﴿١٨-٢٠﴾ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجود له، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك ثم قال: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الواصفون الله، بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون ﴿الويل﴾ والندامة والخسران.

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان، ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة، وكيف يجعل الله منها ولد؟ فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ أي: من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة

أبدانهم. ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها ولا خال منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُصرف العبادة لغيره.

﴿٢١-٢٥﴾ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون \* لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون \* لا يسأل عما يفعل وهم يسألون \* أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون \* وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون \* لا بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هم ينشرون﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرُونَ على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلمهم ينصرون﴾ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴿فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله ويبيده الأمر والنفع والضرر، وهذا من عدم توقيقه، وسوء حظه، وتوَقُّر جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد.

ولهذا قال: ﴿لو كان فيهما﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿آلهة إلا الله لفسدنا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما، من المخلوقات. وبيان ذلك: أن العالم العلوي

والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه﴾ الله عما يصفون.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا ابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴿ولهذا قال هاتوا برهاناً﴾ فسبحان الله ﴿أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رب العرش﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبية<sup>(١)</sup> ما دونه من باب أولى، ﴿عما يصفون﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه. ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وهم﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يسألون﴾ عن أفعالهم وأقوالهم،

لعجزهم وفقيرهم، ولكونهم عبيداً، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مثقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجحدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلتها العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها، برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع، يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فهم معرضون﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بينها أتم تبين في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فكل الرسل، الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿٢٦-٢٩﴾ قالوا اتخذ الرحمن

(١) في النسختين: فربوبيته.

ولداً سبحانه بل عباد مكرمون \* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون \* ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين \* يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم عبيد مربيون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامثال لأوامره.

فلا يسبقونه بالقول \* أي: لا يقولون قولاً بما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

وهم بأمره يعملون \* أي: مهما أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فالله قد أحاط بهم علمه، فعلم ما بين أيديهم وما خلفهم \* أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم وارضى من يشفعون فيه، شفّعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، متبعاً فيه الرسول. وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون \* وهم من خشيته مشفقون \* أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله،

وعنت وجوههم لعزه وجماله، فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: إني إله من دون الله \* على سبيل الفرض والتنزل \* فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين \* . وأي: ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه، مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟! **﴿٣٠﴾**

﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا ببرهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود، الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونها رتقاً، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافياً لا قرعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؟ قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت وتحركت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [أليس ذلك] <sup>(٢)</sup> دليلاً على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي: إيماناً صحيحاً، ما فيه شك ولا شرك.

ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية فقال: **﴿٣١-٣٣﴾** ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاًجاً نبلاً لعلهم يهتدون \* وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون \* وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك

وإذا زلزالنا الأرض زلزلةً واحدةً الذي يذكر ألسنتكم وهم يزعمون أنهم كفروا \* خلق الإنسان من عجل سائر يكتم ما بين يديه فلا تفتح قومون \* ويؤمنون بهذا الوعد إن كنت صديقين \* لو علم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينعثون \* بل تكأنيدهم بتكذيبهم ثم فلا يستطيعون ردّها ولا هم يحيطون \* ولقد أرسلنا نوحاً بن قايلاً فاق بالذين كفروا وأمرهم ما كانوا يعملون \* فقل من يكلمكم بالآيات والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون \* أم لهم الهة تنفعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم يتأخرون \* بل متكلمون ولا آية لهم حتى طال عليهم الأمر ألا زلزلنا الأرض فنقتطعها من أصلها ففهم الغاللون \* **﴿٣٥﴾**

يسبحون \* .

أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لثلا تميد بالعباد، أي: لثلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبلاً شامخات، وقُللاً بادخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاًجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حَزَنَةً، لعلهم يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿وجعلنا السماء سقفاً﴾ للأرض التي أنتم عليها ﴿محفوظاً﴾ من السقوط ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع.

﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي: غافلون لا هون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها،

(١) في النسختين: بأنه.

(٢) زيادة من هامش ب.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَئِنْ شِئْتُمْ لَنفَحْنَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ رَّيِّكَ لَيَقُولُنَّ بَلْ يَنْفِثُ بِنَافِثَاتٍ إِنْ كُنَّا عَلَايِكُمْ ﴿٣٥﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ شِقَاقَ حَاجَةٍ مِنْ حَزَنٍ لَّا يَنْفِثْ بِهَا وَكَفَى بِنَافِثَتَيْنِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكَةَ وَقْعِ الْوَاقِعِ ﴿٣٧﴾ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِّنَ الْمُنْقُذِينَ ﴿٣٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرُ مِيسِرِكُمْ أَنزَلْنَاهُ أَفْأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكَلَّمْنَاهُ عَلَيْهِ ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ الْقَتَايِلُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ هَٰذَا عِصْيَانٌ أَتَوْا بِهَا عِبَادَ اللَّهِ عَالِيِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فَاتَّخَذْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿٤٣﴾ قُلُوبًا مَّحْبُوسَاتٍ ﴿٤٤﴾ خَالِدَاتٍ فِي قُلُوبِكُم بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِنَافِثَاتٍ لِّلنَّاسِ عَلِيمٌ ﴿٤٥﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا نُونًا ذِكْرًا لِّلَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِلْكَ الْفُلَ كَانُوا مِنْهَا لَهْجًا رَّيًّا ﴿٤٨﴾ فَاتَّخَذُوا مِنْهَا هُلًّا مُّذْكَرًا ﴿٤٩﴾ وَجَاءَتْهُمْ فِيهَا عَصَادُهُمْ فَيَازِلُونَ عَلَيْهَا خُوفًا مِّنْ عِلَاقِ الْفُلِ ﴿٥٠﴾ فَأَنزَلْنَاهُمْ فِيهَا نَجَاتٍ وَأَخْرَجْنَا لَهُمْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٥١﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٥٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٥٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا هُودَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٥٥﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا يُونُسَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٥٧﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٥٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا زَكَرِيَّا الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٦٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٦١﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا هَارُونَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٦٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٦٥﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا نُونًا ذِكْرًا لِّلَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِلْكَ الْفُلَ كَانُوا مِنْهَا لَهْجًا رَّيًّا ﴿٦٨﴾ فَاتَّخَذُوا مِنْهَا هُلًّا مُّذْكَرًا ﴿٦٩﴾ وَجَاءَتْهُمْ فِيهَا عَصَادُهُمْ فَيَازِلُونَ عَلَيْهَا خُوفًا مِّنْ عِلَاقِ الْفُلِ ﴿٧٠﴾ فَأَنزَلْنَاهُمْ فِيهَا نَجَاتٍ وَأَخْرَجْنَا لَهُمْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٧٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٧٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا هُودَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٧٥﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا يُونُسَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٧٧﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٧٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا زَكَرِيَّا الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٧٩﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٨٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٨١﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٨٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا هَارُونَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٨٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٨٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٨٥﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا نُونًا ذِكْرًا لِّلَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِلْكَ الْفُلَ كَانُوا مِنْهَا لَهْجًا رَّيًّا ﴿٨٨﴾ فَاتَّخَذُوا مِنْهَا هُلًّا مُّذْكَرًا ﴿٨٩﴾ وَجَاءَتْهُمْ فِيهَا عَصَادُهُمْ فَيَازِلُونَ عَلَيْهَا خُوفًا مِّنْ عِلَاقِ الْفُلِ ﴿٩٠﴾ فَأَنزَلْنَاهُمْ فِيهَا نَجَاتٍ وَأَخْرَجْنَا لَهُمْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٩١﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٩٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٩٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا هُودَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٩٥﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا يُونُسَ الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٩٧﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا زَكَرِيَّا الْفُلَّ وَجَعَلْنَا مِثْلَهُ لِهَٰرُونَ ﴿٩٩﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِقَوْمٍ أَلْفَحُوا ﴿١٠٠﴾

وعظمتها، ولونها الحسن، واتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزمًا لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها ما ربه، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا، ستزول وتضمحل، وبقيتها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موقراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ﴿وما جعلنا لبشر من

قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون \* كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر

والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون <sup>(١)</sup> تربصوا به ريب المتن. قال الله تعالى: هذا طريق مسلك، ومعبود منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿من قبلك﴾ يا محمد ﴿الخلد﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسبيل أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أفان مت فهم الخالدون﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليتهم الخلود إذا كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فان، ولهذا قال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليلبواهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ﴿وإلينا ترجعون﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿ومباريك بظلام للعيد﴾ وهذه الآية، تدل على بطلان قول من يقول بقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿٣٦ - ٤١﴾ ﴿وإذا رآك الذين

كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكرون﴾ ﴿أهتكم وهم بذكر الرحمن هم كفرون﴾ ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ سأريكم آياتي فلا تستعجلون \* ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون \* بل تأتيهم بغتة فتبهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون \* ولقد استهزى برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون \* وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا

رسول الله ﷺ، استهزؤا به، وقالوا: ﴿أهذا الذي يذكرون﴾ أي: أهذا المحتقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به.

هذا استهزأؤهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه، إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله، فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا، فذكرهم للرحمن الذي هو أعلى حالاتهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه، ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وهم بذكر الرحمن هم كفرون﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرحمن﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي:

خلق عجولاً، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطؤونها، والكافرون يتولون <sup>(٢)</sup> ويستعجلون بالعذاب، تكذيباً وعناداً، ويقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ والله تعالى يمهل ولا يهمل، ويمهل لهم أجلاً مؤقتاً إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي: في انتقامي ممن كفروا وعصاني ﴿فلا تستعجلون﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قالوا هذا القول، اغتراراً، ولما يحق عليهم

(١) في النسختين: يقولون قل تربصوا.

(٢) في أ الكلمة أقرب إلى أن تكون يقولون وفي ب غير واضحة وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسياق.



العقاب، وينزل بهم العذاب.

ف ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حالهم  
الشيعة حين لا يكفون عن وجوههم  
النار ولا عن ظهورهم، إذ قد أحاط  
بهم من كل جانب، وغشيتهم من كل  
مكان ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي: لا  
ينصرهم غيرهم، فلا نصروا ولا  
انتصروا، ﴿بَلْ تَأْتِيهِمُ﴾ النار ﴿بِغْتَةٍ  
فَتَبْهَتُهُمْ﴾ من الانزعاج والذعر  
والخوف العظيم، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ  
رَدَّهَا﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك.

﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، وخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ سلا، بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم﴾ أي: نزل بهم ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء، أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ \* أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم متايدون \* بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ يقول تعالى - ذاكرأعجز هؤلاء، الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته، شملت البر والفاجر، في ليالهم ونهارهم - فقال: ﴿قل من يكلؤكم﴾ \* أي: يحرسكم ويحفظكم بالليل﴾. إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿وبالنهار﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿من الرحمن﴾ \* أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾  
 فلماذا أشركوا به، وإلا فليؤا قبلوا على  
 ذكر ربهم، وتلقوا نصائحهم، لهدوا  
 لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾  
 أي: إذا أردناهم بسوء، هل من آلهتهم  
 من يقدر على منعهم من ذلك السوء،  
 والشر التازل بهم؟؟

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَنَّا يَصْحِبُونَ﴾ أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانوا من الله، فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة، والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم، وشركهم قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوأ بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقسّت قلوبهم، وعسا طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو ألفتوا أنظارهم إلى مَنْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ، لَمْ يَجِدُوا إِلَّا هَالِكًا، وَلَمْ يَسْمَعُوا إِلَّا صَوْتَ نَاعِيَةٍ، وَلَمْ يَحْسُوا إِلَّا بِقُرُونٍ مُتَتَابِعَةٍ عَلَى الْهَلَاكِ، وَقَدْ نَصَبَ الْمَوْتَ فِي كُلِّ طَرِيقٍ لِاقْتِنَاصِ النُّفُوسِ الْأَشْرَافِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: بموت أهلها وفنائهم، شيئاً فشيئاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أفهم الغاليون﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاعتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يتتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم ليقبض أرواحهم أذعنوا وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى عانة؟

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ  
بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءُ إِذَا مَا  
يُنْذِرُونَ﴾ وَلَنْ مَسْتَهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ  
عَذَابِ رَبِّكَ لِيَقُولُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا  
ظَالِمِينَ ﴿أَي: ﴿قُلْ﴾ يَا عَمَلُ لِلنَّاسِ  
كُلِهِمْ: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أَي:  
إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ، لَا أَتِيكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ  
عِنْدِي، وَلَا عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا

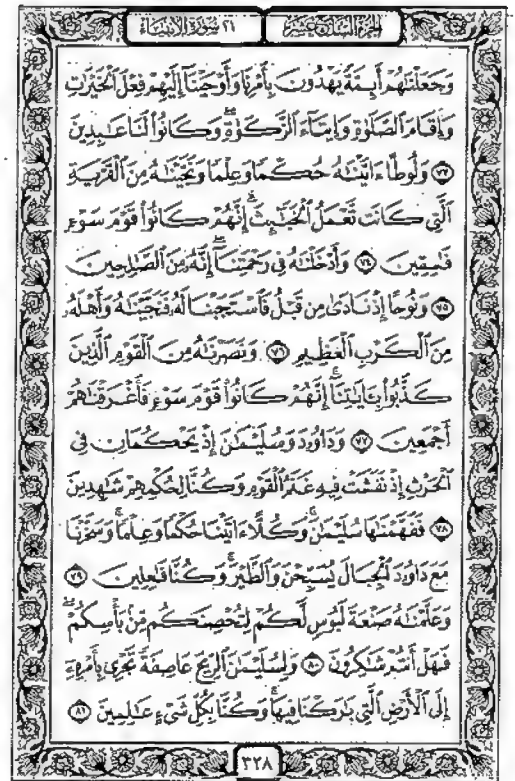
فَجَاءَهُمْ جَدَانَا الْأَكْبَرُ أَمَرَ لَهُمَا الْيَهُودَ ۖ ﴿١٥﴾  
 قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِسْرَافٍ ۖ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الظَّالِمِينَ ۖ ﴿١٧﴾  
 يَمْنَعُ آفَتِي يَدُكَ رَحْمَةً ۖ سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ ۖ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَتَأْتَا  
 بِهِ عَلَىٰ أَهْلِ النَّاسِ لَعْنَهُمْ يُشْهَدُونَ ۖ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَأَنْتَ  
 فَعَلْتَ هَذَا بِإِسْرَافٍ ۖ ﴿٢٠﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبْرُهُمْ  
 هَذَا فَاسْتَوْفُوا إِن كُنْتُمْ إِطِيعُونَ ۖ ﴿٢١﴾ فَوَيْحًا إِلَى  
 أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۖ ﴿٢٢﴾ ذَرِكُوا  
 عَلَىٰ رءُوسِهِمْ لَقَدْ جِئْتُمْ مَاهُذَآ بِطُغْيَانٍ ۖ ﴿٢٣﴾ قَالُوا  
 أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا  
 يَضُرُّكُمْ ۖ ﴿٢٤﴾ أَوَلَيْكُمْ أُولَٰئِكَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ  
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۖ ﴿٢٥﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ  
 فَاعِلِينَ ۖ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا بَلَغَا أَكْثَرَ سَبِيلٍ نَّادَا عَلَيْهِمَا  
 وَارْتَدَّآ إِلَىٰ دِينِهِمَا ۖ ﴿٢٧﴾ قَالَا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ  
 أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ آلِ يُسُفَٰةَ ۚ ﴿٢٨﴾ لَمَّا جَاءَ الْغَمَّاءُ  
 وَجِئْتُهُمَا بِطُغْيَانٍ ۖ ﴿٢٩﴾ قَالَا نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ ۖ ﴿٣٠﴾

أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك،  
وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي، فإن  
استجبت، فقد استجبتم لله، وسيثيبكم  
على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم،  
فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما  
الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُ الدُّعَاءَ﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتاً، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد عمل قابل لذلك، كذلك الوحي سبب حياة القلوب والأرواح، وللققه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء المشركون، صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اعتدائهم، خصوصاً في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا مئهم ألمه.

فلو مسهم ﴿نفخة من عذاب ربك﴾  
 أي: ولو جزء يسيراً ولا يسير من  
 عذابه، ﴿ليقولن يا ويلنا إنا كنا  
 ظالمين﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء  
 بالويل والشبور والتدم، والاعتراف  
 بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم  
 للعذاب.

﴿٤٧﴾ ونضع الموازين القسط  
ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن  
كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى  
بنا حاسبين ﴿٤٨﴾ يخبر تعالى عن حكمه  
العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا  
جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم  
الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل  
الذر، الذي توزن بها الحسنات



والسيئات، ﴿فلا تظلم نفس﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شيئاً﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وإن كان مثقال حبة من خردل﴾ التي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أتينا بها﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وقالوا ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

﴿وكفى بنا حاسبين﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً، أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرنا للمتقين﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ كثيراً ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكراً، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبياناً لوهما التوراة

والقرآن<sup>(١)</sup>، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً، وهارون تبعاً ﴿الفرقان﴾ وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها ﴿ضياء﴾ أي: نور يهدي به المهتدون، ويأتم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية، ﴿وذكراً للمتقين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص ﴿المتقين﴾ بالذكر، لأنهم المتفعلون بذلك، علماً وعملاً، ثم فسر المتقين فقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم، ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

﴿وهذا﴾ أي: القرآن ﴿ذكر مبارك أنزلناه﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكراً يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكراً، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه ﴿مباركاً﴾ يقتضي كثرة خيراته<sup>(٢)</sup> ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكراً مباركاً، وجب تلقيه بالقبول

والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجلييلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به، فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿فأنتم له منكرون﴾.

﴿٥١ - ٧٣﴾ ﴿ولقد أتينا إبراهيم﴾ رثده من قبل وكنا به عالمين ﴿إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وكتابينهما، قال: ﴿ولقد أتينا إبراهيم رثده من قبل﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحداً من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رثداً بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وكنا به عالمين﴾ أي: أعطيناه رثده، واختصصناه بالرسالة والخلعة، واصبطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفء له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر حاجته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل﴾ التي مثلتموها، نحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تنحتون.

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسختين خيره، وغيرت الكلمة لتوافق مع الضمائر التي بعدها.

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ كذلك يفعلون، فسلكننا سبلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضملاً للجميع: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي: ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد!! أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد، ﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيههم وتسفيه آبائهم: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلام لنا، كلام لا عب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما ردّدوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفیه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بين به وجه سفههم وقلة عقولهم فقال: ﴿يَلَّيْكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطوراً مدبراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويدع

عبادة الخالق الرازي المدبر؟

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جازوا به معصوم، لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم، شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأي: شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولى العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيده يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَا كَيْدَ لَأَصْنَامِكُمْ﴾ أي: أكسرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْبَرِينَ﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيئته، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل عمقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: ﴿إِلَىٰ عَظِيمِ الْفَرَسِ﴾ إلى عظيم الروم و﴿نَجْوِ ذَلِكْ﴾ ولم يقل ﴿إِلَىٰ الْعَظِيمِ﴾، وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ ولم يقل: ﴿كَبِيرًا مِنْ أَصْنَامِهِمْ﴾. فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قَالُوا مِنْ فَعَلِ هَذَا بِالْهَتَّا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فرموا إبراهيم

بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: بمرأى منهم ومسمع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس لي شاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مُوعِدْكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنْ بِحُجُرِ النَّاسِ ضَرَفَيْنِ﴾ فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ أي: التكسير ﴿بِالْهَتَّا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي: كسرها غضباً عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْشِقْطُونَ﴾ وأراد الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، أسألوه لأي: شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيئونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى.

﴿فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحوالهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمته

﴿٧٤-٧٥﴾ «ولوطاً أتيناها حكماً وعلماً ونجيناها من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين» \* وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴿٧٤﴾ هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والساداد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم، لأنهم «قوم سوء فاسقين» كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم ومثته.

﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ التي من دخلها، كان من الآمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾

﴿٧٦-٧٧﴾ «ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم» \* ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴿٧٦﴾ أي: وأذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويُبدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، فلما رأهم لا ينجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿رب لا تذرني على الأرض من الكافرين دياراً﴾ \* إنك إن تذرهم

هو العزيز الحكيم ﴿٧٦﴾ ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس. ﴿ووهبنا له﴾ حين اعتزل قومه ﴿إسحاق ويعقوب﴾ ابن إسحق ﴿نافلة﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكللاً﴾ من إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴿جعلنا صالحين﴾ أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً مهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿ورأى إمام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وكانوا لنا﴾ أي: لا لغيرنا ﴿عابدين﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والنقلية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تهكم بنا وتستعزى بنا وتأمرونا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلناً بشركهم على رؤوس الأشهاد، ومبيناً عدم استحقاق أللهتهم للعبادة -: ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ فلا نفع ولا دفع، ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبت الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

فحيث لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ف﴿قالوا حرّوه وانصروا آلهمكم إن كنتم فاعلين﴾ أي: اقتلوه أشنع القتلات، بالإحراق، غضباً لألهتكم ونصرة لها. فتعساً لهم تعساً، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ فكانت عليه برداً وسلاماً، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكرهه.

﴿وأرادوا به كيداً﴾ حيث عزموا على إحراقه، ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

﴿ونجيناه ووطاً﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فتجاه الله، وهاجر إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴿أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق، وقال إني مهاجر إلى ربي إنه



يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا  
كُفَّارًا ﴿١٠﴾. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فَأَغْرَقَهُمْ،  
وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَنَجَّى اللَّهُ نُوْحًا  
وَأَهْلَهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْفُلِّ  
الْمَشْحُونِ، وَجَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ،  
وَنَصَرَهُ اللَّهُ عَلَى قَوْمِهِ الْمُسْتَهْزِئِينَ.

﴿٧٨ - ٨٢﴾ ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾ \* ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين \* وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون \* ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين \* ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾ أي : واذكر هذين النبيين الكريمين «داود» و «سليمان» مثنياً مبجلًا، إذ آتاهما الله العلم الواسع، والحكم بين العباد، بدليل قوله : ﴿إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم﴾ أي : إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفشت فيه غنم القوم الآخرين، أي : رعت ليلًا، فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، فقضى فيه داود عليه السلام، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بذرّها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، تراذًا ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام، ولهذا قال : ﴿ففهمناها سليمان﴾ أي : فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله : ﴿وكلاً﴾ من داود وسليمان ﴿آتينا حكماً وعلماً﴾ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطيء ذلك، وليس

بمعلوم إذا أخطأ مع يذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خص به كلاً منهما فقال : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحاً وتمجيداً ، وكان قد أعطاه [الله] من حسن الصوت ورقته ورخامته ، ما لم يؤته أحداً من الخلق ، فكان إذا سبح وأثنى على الله ، جاوبته الجبال الصم والطيور البهائم ، وهذا فضل الله عليه وإحسانه ، فلهذا قال : ﴿ وكنا فاعلين ﴾

﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ أي : علم الله داود عليه السلام ، صنعة الدروع ، فهو أول من صنعها وعلمها ، وسرت صناعته إلى من بعده ، فالآن الله له الحديد ، وعلمه كيف يسردها ، والفائدة فيها كبيرة ، ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ أي : هي وقاية لكم ، وحفظ عند الحرب واشتداد البأس .

﴿فهل أنتم شاكرون﴾ نعمة الله عليكم، حيث أجراها على يد عبده داود، كما قال تعالى: ﴿وجعل لكم سراييل تقيكم الحجر وسراييل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾.

يَحْتَمِلُ أَنْ تَعْلِمَ اللَّهُ لِدَاوُدَ صِنْعَةَ  
الدَّرُوعِ وَإِلَانتَهَا أَمْرَ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، وَأَنْ  
يَكُونَ - كَمَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ - : إِنْ اللَّهُ  
أَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ، حَتَّى كَانَ يَعْمَلُهُ  
كَالْعَجِينِ وَالطِّينِ، مِنْ دُونِ إِذَابَةٍ لَهُ عَلَى  
النَّارِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَعْلِمَ اللَّهُ لَهُ، عَلَى  
جَارِي الْعَادَةِ، وَأَنْ إِلَانَةَ الْحَدِيدِ لَهُ، بِمَا  
عَلِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ الْآنَ  
لِإِذَابَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، لِأَنَّ اللَّهَ  
أَمَتَّنَ بِذَلِكَ عَلَى الْعِبَادِ وَأَمَرَهُمْ  
بَشُكْرِهَا، وَلَوْلَا أَنْ صَنَعْتَهُ مِنَ الْأُمُورِ  
الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مَقْدُورَةً لِلْعِبَادِ، لَمْ يَمْتَنَ  
عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَيَذْكُرُ فَائِدَتَهَا، لِأَنَّ  
الدَّرُوعَ الَّتِي صَنَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،  
مَتَعَذَّرَ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ أَعْيَانُهَا، وَإِنَّمَا  
الْمُنْتَهَى بِالْجَنْسِ، وَالْإِحْتِمَالُ الَّذِي ذَكَرَهُ  
الْمُفَسِّرُونَ، لَا ذَلِيلَ عَلَيْهِ إِلَّا قَوْلُهُ :  
﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وَلَيْسَ فِيهِ أَنْ الْإِلَانَةَ  
مِنْ دُونِ سَبَبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ .

وَمِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ لِيُتْرَكَ لَكَ إِلهٌ لَّهُمْ شُكُوفٌ ۚ إِنَّكَ كَاشِفُ الْعَذَابِ عَنْهُمْ ۖ إِنَّكَ غَافِلٌ ۚ  
ذَٰلِكَ وَكَفَىٰ الْهَدْمَ حَافِلِينَ ﴿٤٥﴾ \* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ  
رَبَّهُ ۖ وَأَنَّىٰ مَسَىٰ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٤٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا  
لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُ مِمَّا  
مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَمُنَازَاتٍ ۚ وَلِلْعَصِيِّينَ ﴿٤٧﴾  
وَاسْتَجِبْ لَهُمْ يَٰرَبُّهُمْ ۖ وَذَٰلِكَ الْكِتَابُ ۚ وَلِلْمُذْمُومِينَ  
﴿٤٨﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٩﴾  
وَذَٰلِكَ الْتَوْبُ ۖ إِذْ ذَهَبَ عَنْهُمْ ظُلُمَاتٌ ۖ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ  
فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ  
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ فَاسْتَجَبَ لَهُ وَوَحَّيْنَا  
لَهُ أَلْفَ عَمَةٍ ۖ وَكَذَّبَكَ الْمُبْذَمِينَ ﴿٥١﴾ وَكَذَّبَا  
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُمْ ۖ لَا تَدْرِي قَدَا ۖ وَأَن تَحِثُّ الْوَارِثِينَ  
﴿٥٢﴾ فَاسْتَجَبَ لَهُ وَوَحَّيْنَا إِلَيْهِ جَوَابَ ۖ وَأَصْلَحْنَا  
لَهُ زَوْجَهُ ۖ وَآتَيْنَاهُ كَانُوا يُسْكِنُونَ ۖ فِي الْخَبَرَاتِ  
وَيَدْعُونَكَ رَحْبًا وَرَهْبًا ۖ وَكَانُوا الْخَاشِعِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ولسليمان الريح﴾ أي : سخرناها  
﴿عاصفة﴾ أي : سريعة في مرورها ،  
﴿تجري بأمره﴾ حيث دُبرّت امتثلت  
أمره ، غدوها شهر ورواحها شهر ﴿إلى  
الأرض التي باركنا فيها﴾ وهي أرض  
الشام ، حيث كان مقره ، فيذهب على  
الريح شرقاً وغرباً ، ويكون مأواها  
ورجوعها إلى الأرض المباركة ، ﴿وكنّا  
بكل شيء عاقلين﴾ قد أحاط علمنا  
بجميع الأشياء ، وعلمنا من داود  
وسليمان ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا .

﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك﴾ وهذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام، أن الله سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال، التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له في البحر، ويستخرج الدر واللؤلؤ وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس ومات، وهم على عمله، ويقولوا بعده سنة، حتى علموا موته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿وَكُنَالِهِمْ حَاقِظِينَ﴾ أي : لا يقدرّون على الامتناع منه وعصيانه ، بل حفظهم الله له ، بقوته وعزّته ، وسلطانه .

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى﴾





﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أي: الشدة التي وقع فيها.

﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين﴾ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: وأذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لثاقبه وفضائله، التي من حملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نادى ربه رب لا تدركني فرداً﴾ أي: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً﴾ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾.

من هذه الآيات علمنا أن قوله ﴿رب لا تدركني فرداً﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به، ﴿وأنت خير الوارثين﴾ أي: خير الباقيين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه، ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً.

﴿وأصلحنا له زوجه﴾ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد المجلس والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

كلاً على انفراده، أثنى عليهم عموماً فقال: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدللون، ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا للكمال معرفتهم بربههم.

﴿٩١ - ٩٤﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ إن هذه أمكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون﴾ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾ أي: وأذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها مبيناً لقدرها، شامهاً لشرفها فقال: ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها.

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ حيث حملت به، ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها عما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعبرون.

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: ﴿إن هذه أمكم أمة واحدة﴾ أي: هؤلاء الرسل المذكورون، هم أمكم وأئمتكم الذين بهم تأتون، ويهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد.

ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحداً، والنبي واحداً، والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فاعبدون﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أي: إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقا، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كل﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إلينا راجعون﴾ أي: فنجازيهم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءه فيهم، منطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحثت عليها الكتب ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وبرسوله، وما جأؤا به ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة.

﴿وإنا له كاتبون﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف

التي مع الحفظة. أي: ومن لم يعمل من الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم خاسر في دينه ودنياه.

﴿٩٥﴾ ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستردوا ما فرطوا فيه، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

﴿٩٦-٩٧﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْتَ بِأَجُوجَ وَمَاجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين هذا تحذير من الله للناس، أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض، وفي آخر الزمان ينفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله، من كل مكان مرتفع، وهو الحذب، ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلمون عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿واقترب الوعد الحق﴾ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعدته حق وصدق، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفزع والأهوال المزعجة والقلقل المفطعة، وما كانوا يعرفون من جنائياتهم وذنوبهم، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات، ويقولون ل: ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي

لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة، لما توار. ﴿بل كنا ظالمين﴾ اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم، فحيث يؤمر بهم إلى النار، هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

﴿٩٨-١٠٣﴾ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون \* لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون \* إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون \* لا يسمعون حسيها وهم في ما اشتبهت أنفسهم خالدون \* لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، أي: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حصب جهنم﴾ أي: وقودها وحطبها ﴿أنتم لها واردون﴾ وأصنامكم.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جهاد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، ولizard عذابهم، فلهذا قال: ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

﴿لهم فيها زفير﴾ من شدة العذاب ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عبد وهو راض بعبادته، وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ وفي تسييرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة.

﴿أولئك عنها﴾ أي: عن النار ﴿مبعدون﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونون قريباً منها، بل يبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوها حسيها، ولا يروا شخصها، ﴿وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون﴾ من المأكّل، والمشارب، والمناكح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب، ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ أي: لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار، تنغيط على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم، لعلمهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد أمنهم مما يخافون، ﴿وتلقاهم الملائكة﴾ إذا بعثوا من قبورهم، وأتوا على النجائب وفداً لشورهم، مهتين لهم قائلين: ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿١٠٤-١٠٥﴾ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴿يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي: الورقة المكتوب فيها، فتنتثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ أي: إعادتنا للخلق، مثل ابتدائنا لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً، كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وعدنا علينا إنا كنا فاعلين﴾ ننفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ وهو الكتاب المزبور، والمراد الكتب المنزلة، كالطورا ونحوها ﴿من بعد

الذكر\* أي: كتبناه في الكتب المنزلة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أن الأرض﴾ أي: أرض الجنة ﴿يرثها عبادي الصالحون﴾ الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يرثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نبياً من الجنة حيث نشاء﴾.

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ الآية.

﴿١٠٦ - ١١٢﴾ ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ \* وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين \* قل إنما يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد فهل أنتم مسلمون \* فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون \* إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون \* وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين \* قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون \* يشي الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن» وبين كفايته التامة عن كل شيء، وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب. وليس للعابدين، الذين هم أشرف الخلق، وزاءه غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبالدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، المبين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعها، المعروف بعيوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخله على الإنسان، فمن لم يغتنه

القرآن فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله.

ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فهو رحمته المهداة لعباده، فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما من عليهم بهذه النعمة التي فاقت المن.

﴿فإن تولوا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلثات، ونزول العقوبة.

﴿فقل أذنتكم﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿على سواء﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾ بل الآن، استوى علمي وعلمكم لما أذنتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكرم عنكم شيئاً.

﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي: من العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن،

لا تستمعون حبيبكم أو هم في ما أشتهت أنفسكم خلدوت \* لا يحزنهم الفزع الأكبر وتكلمهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم تعدون \* يوم تظوى السمكة كل من ألقى السمكة كما بئنا أول خلقي نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين \* ولقد كذبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون \* إن في هذا لآيات لقوم عاكبين \* وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين \* قل إنما يوحى إلي أنما ألهمكم الله وحده فهل أنتم مسلمون \* فإن تولوا فقل ما أذنتكم على سؤلوهم وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون \* إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون \* وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين \* قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون

سورة الحج

٣٣١

ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته، وقد فعل، والله الحمد.

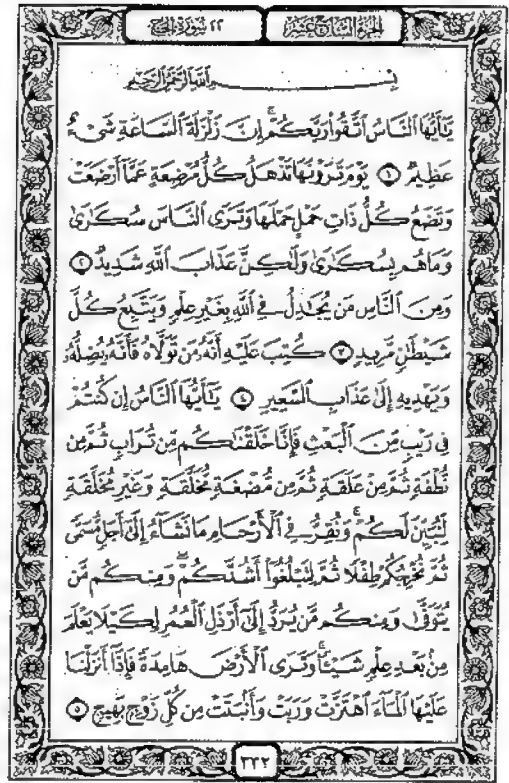
### تفسير سورة الحج قيل: مكية، وقيل: مدنية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم \* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أوامره مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال:

﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها،





وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كشيئاً مهيناً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتشر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل ما تصدع له القلوب، وتجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها.

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾: فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملاها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم، لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

ويومئذ يفر المرء من أخيه \* وأمه وأبيه \* وصاحبته وبنيه \* لكل امرئ

منهم يومئذ شأن يغنيه<sup>(١)</sup>.

وهناك ﴿يعض الظالم على يديه، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ \* يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً \* وتسود حيثذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر، من الخير والشر، وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين. ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ \* وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً \* ويقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾.

وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها، قال: ﴿اخشوا فيها ولا تكلمون﴾. قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها فقيراً ولا قطميراً.

هذا، والمتقون في روضات الجنات يجبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتبهت أنفسهم خالدون، فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يعد له عذته، وأن لا يلهمه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، وحبه الله وذكره، روح أعماله.

﴿٣ - ٤﴾ \* ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ \* كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير \* أي: ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسله، معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين

يدعون إلى النار.

﴿كتب عليه﴾ أي: قدر على هذا الشيطان المريد ﴿أنه من تولاه﴾ أي: اتبعه ﴿فأنه يضله﴾ عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ وهذا نائب إبليس حقاً، فإن الله قال عنه: ﴿إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ فهذا الذي يجادل في الله، قد جمع بين ضلاله بنفسه، وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع، ومقلد لكل شيطان مريد، ظلمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا، جمهور أهل الكفر والبدع، فإن أكثرهم مقلدة، يجادلون بغير علم.

﴿٥ - ٧﴾ \* ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ \* ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير \* وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور \* يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ أي: شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كل واحد منهما، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه: ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾ أي: مني،

(١) صار في هذه الآيات خطأ وتداخل بين آيات سورة المعارج وآيات سورة عبس فأثبت آيات سورة عبس.



وهذا ابتداء أول التخليق، **﴿ثم من علقه﴾** أي: تنقلب تلك النطفة، بإذن الله دماً أحمر، **﴿ثم من مضغه﴾** أي: ينتقل الدم مضغة، أي: قطعة لحم، بقدر ما يمضغ، وتلك المضغة تارة تكون **﴿مخلقة﴾** أي: مصور منها خلق الأدمي، **﴿وغير مخلقة﴾** تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، **﴿لثنين لكم﴾** أصل نشأتكم، مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

**﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾** أي: ونقر، أي: نبقي في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل. **﴿ثم نخرجكم﴾** من بطون أمهاتكم **﴿طفلاً﴾** لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طوراً بعد طور، حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل.

**﴿ومنكم من يتوفى﴾** من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوز به فيرد إلى أرذل العمر، أي: أخسبه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوى، وضعفت.

**﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾** أي: لأجل أن لا يعلم هذا العمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله، فقوة الأدمي مخوفة بضعفين، ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه، كما قال تعالى: **﴿الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾** والدليل الثاني، إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: **﴿وترى الأرض هامدة﴾** أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها، ولا خضر، **﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت﴾** أي: تحركت بالنبات **﴿وربت﴾** أي: ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها، **﴿وأثبتت**

من كل زوج﴾ أي: صنف من أصناف النبات **﴿بهيج﴾** أي: يبهج الناظرين، ويسر المتأملين، فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه.

**﴿ذلك﴾** الذي أنشأ الأدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها، **﴿بأن الله هو الحق﴾** أي: الرب المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة، **﴿وأنه يحيي الموتى﴾** كما ابتداء الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، **﴿وأنه على كل شيء قدير﴾** كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم.

**﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾** فلا وجه لاستبعادها، **﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾** فيجازيكم بأعمالكم حسناتها وسيئها.

**﴿٨-٩﴾** **﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق **﴿المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المريد، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه يجادل في الله﴾** أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق، **﴿بغير علم﴾** صحيح **﴿ولا هدى﴾** أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، **﴿ولا كتاب منير﴾** أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوحىها إليه الشيطان **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾** ومع هذا **﴿ثاني عطفه﴾** أي: لاوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، **﴿ليضل﴾** الناس، أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال، ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: **﴿له في الدنيا خزي﴾** أي: يفرض هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من

ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير **﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾** والله يبعث من في القبور **﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق **﴿ذلك﴾** بما قدمت يدك **﴿وأن الله ليس يظلم للعبيد﴾** **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾** فإن أصابه خير أطمان به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين **﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد﴾** يدعو لمن ضربه أقرب من نفعه لبس المولى ولبس العشير **﴿أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تحالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفاً، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، فإن أصابه خير أطمان به﴾** أي: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكارة شيء، أطمان بذلك الخير، لا بإيمانه. فهذا، ربما أن الله يعافيه، ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه، **﴿وإن أصابته فتنة﴾** من حصول مكروهه، أو زوال محبوب **﴿انقلب على وجهه﴾** أي: ارتد عن دينه، **﴿خسر الدنيا والآخرة﴾** أما في

آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعياً من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعنة، والبغض، والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله.

**﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾** أي: نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يده، **﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾**

**﴿١١-١٣﴾** **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾** فإن أصابه خير اطمان به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين **﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد﴾** يدعو لمن ضربه أقرب من نفعه لبس المولى ولبس العشير **﴿أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تحالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفاً، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، فإن أصابه خير أطمان به﴾** أي: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكارة شيء، أطمان بذلك الخير، لا بإيمانه. فهذا، ربما أن الله يعافيه، ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه، **﴿وإن أصابته فتنة﴾** من حصول مكروهه، أو زوال محبوب **﴿انقلب على وجهه﴾** أي: ارتد عن دينه، **﴿خسر الدنيا والآخرة﴾** أما في

تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول - إن كان ممكناً - انت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلى جبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها، فهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو الرأي: والمكيدة، وأما ما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ورسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأيس الكافرين، الذين يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون، أي: وسعوا مهما أمكنهم.

﴿١٦﴾ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا، جعلناه آيات بينات واضحات، دالات على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد الله، فمن أراد الله هدايته، اهتدى بهذا القرآن، وجعله إماماً له وقُدوة، واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة عليه.

﴿١٧ - ٢٤﴾ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد \* ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء \* هذان خصمان اختصموا في ربهم إلى قوله:

﴿١٤﴾ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على قسمين، مقلد، وداع، ذكر أن المتسمي بالإيمان أيضاً على قسمين، قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم، والقسم الثاني: المؤمن حقيقة، صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه <sup>(١)</sup> يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وسميت الجنة جنة، لاشتغالها على المنازل والقصور والأشجار والنوابت التي تجن من فيها، ويستريح بها من كثرتها، ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ فما أراده تعالى فعله من غير عمانع ولا معارض، ومن ذلك، إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿١٥﴾ من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل، فإن النصر من الله ينزل من السماء ﴿فليمدد﴾ ذلك الظان بسبب أي: جبل ﴿إلى السماء﴾ وليرقى إليها ﴿ثم ليقطع﴾ النصر النازل عليه من السماء <sup>(٢)</sup>.

﴿فلينظر هل يذهبن كيده﴾ أي: ما يكيد به الرسول، ويعمله من عمارته، والحرص على إبطال دينه، ما يغيظه من ظهور دينه، وهذا استفهام بمعنى التفي [وأنه]، لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمل من الأسباب.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله، أن سعيه سيفيده شيئاً، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي

وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد  
إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى  
والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم  
القيامة إن الله على كل شيء شهيد \* ألم تر أن الله  
يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر  
والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس  
وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم  
إن الله يفعل ما يشاء \* هذان خصمان اختصموا  
في ربهم فالذين كفروا قطع لهم رقاب من تدار  
يصب عن فوق رؤسهم لئليهم \* يذهب به ما في  
بطونهم والجلود \* وهم مقلعون من عديده \* كلما  
أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب  
الحريق \* إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات  
جنات تجري من تحتها الأنهار تجري من تحتها  
أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها كبر

الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأساً لماله، وعوضاً عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهر، حزم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي: الواضح البين.

﴿يدعوا﴾ هذا الراجع على وجهه من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال: ﴿يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه﴾ فإن ضرره في العقل والبدن والدنيا والآخرة معلوم ﴿لبئس المولى﴾ أي: هذا المعبود ﴿ولبئس العشير﴾ أي: القرين الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير، حصول النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

(١) في النسختين: أنهم.

(٢) في هامش ب ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾ النصر عن الرسول.

﴿وهذوا إلى صراط الحميد﴾ يخبر تعالى  
عن طوائف أهل الأرض، من الذين  
أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود  
والنصارى والصابئين، ومن المجوس،  
ومن المشركين أن الله سيجمعهم  
جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم  
بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم  
التي حفظها وكتبها وشهدها، ولهذا  
قال: ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾  
ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله:  
﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾  
كل يدعى أنه الحق.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشمل كل كافر،  
من اليهود، والنصارى، والمجوس،  
والصابئين، والمشرّكين.

﴿قُطِعَ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أي :  
يُجْعَلُ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ قِطْرَانٍ ، وَتَشْعَلُ  
فِيهَا النَّارُ ، لِيُعَذِّبَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ جَمِيعِ  
جَوَانِبِهِمْ .

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾  
الماء الحار جداً، يصهر به ما في بطونهم  
من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة  
حره، وعظيم أمره، ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ  
حَدِيدٍ﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد،  
تضربهم فيها وتقمعهم، ﴿كَلِمًا أَرَادُوا  
أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ عَمٍ أَعِيدُوا فِيهَا﴾  
فلا يُفْتَرُ عنهم العذاب، ولا هم  
ينظرون، ويقال لهم توبيخاً: ﴿ذُوقُوا  
عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: المحرق للقلوب  
والأبدان، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ومعلوم أن هذا الوصف  
لا يصدق على غير المسلمين، الذين  
آمَنُوا بجميع الكتب، وجميع الرسل،  
﴿يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾  
أي: يُسَوَّرُونَ في أيديهم، رجالهم  
ونسأؤهم أساور الذهب.

﴿ولباسهم فيها حرير﴾ فتم نعيمهم  
بذكر أنواع المأكولات اللذيذات  
المشتمل عليها، لفظ الجنات، وذكر  
الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن  
والعسل والخمر، وأنواع اللباس،  
والحلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم

(۱) کذا فی ب، وفی أ: ظنهم.

﴿وهذوا إلى الطيب من القول﴾ الذي  
أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم  
سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله،  
أو إحسان إلى عباد الله، ﴿وهذوا إلى  
صراط الحميد﴾ أي: الصراط  
المحمود، وذلك، لأن جميع الشرع كله  
عنتو على الحكمة والحمد، وحسن  
المأمور به، وقبح المنهي عنه، وهو  
الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط،  
المشتمل على العلم النافع والعمل  
الصالح. أو: وهذوا إلى صراط الله  
الحميد، لأن الله كثيراً ما يضيف  
الصراط إليه، لأنه يوصل صاحبه  
إلى الله، وفي ذكر ﴿الحميد﴾ هنا،  
ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم  
ومنته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة:  
﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا  
لننتدي لولا أن هدانا الله﴾ واعترض  
تعالى بين هذه الآيات بذكر سجود  
المخلوقات له، جميع من في السماوات  
والأرض، والشمس، والقمر،  
والنجوم، والجبال، والشجر،  
والدواب، الذي يشمل الحيوانات  
كلها، وكثير من الناس، وهم  
المؤمنون، ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾  
أي: وجب وكتب، لكفره وعدم  
إيمانه، فلم يوفقه الله للإيمان،  
لأن الله أهانه، ﴿ومن بين الله فما له  
من مكرم﴾ ولا راداً لما أراد، ولا  
معارض لمشيئته، فإذا كانت المخلوقات  
كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته،  
مستكنة لعزته، عانية لسلطانه، دل  
على أنه وحده، الرب المعبود، والملك  
المحمود، وأن من عدل عنه إلى عبادة  
سواه، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر  
خساراً ميئاً.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُونَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي  
جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ  
وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِجَادِ يَظْلَمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ  
أَلِيمٍ﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ شِنَاعَةِ مَا عَلَيْهِ  
الْمُشْرِكُونَ الْكَافِرُونَ بِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ جَمَعُوا  
بَيْنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَبَيْنَ الصَّدِّ

وَهُدُوا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ الْقَوْلُ فِي قُلُوبِهِمْ وَهُدُوا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ  
 ⑤ إِنْ أَرَادْتَ خَلْفَكَ مَثَلًا وَنَضَحْتُمْ عَنْ كَيْسٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَالْشَّيْءِ  
 تَحْمِلُهُ الْإِذَى جَعَلْتَهُ الْفَاسِ سَوَاءً الْعَاقِبَةُ فِيهِ  
 وَالْبَادُ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْعَادِ يُعَذِّبُهُ بِذُنُوبِهِ مَنْ عَذَابٍ  
 أَلِيمٍ ⑥ وَذُو الْقُرْبَىٰ الْأَنْثَرِ مِنْ مَكَاتِ الْيَتَامَىٰ أَنْ لَا  
 تُشْرِكُوا فِي شَيْءٍ وَطَهَّرَ سَمِيًّا لِلْعَاقِبَةِ وَالْقَائِمِينَ  
 وَالرَّكْعَ الْحُجُودِ ⑦ وَأَذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحُجُوعِ يَا تَوَكَّلْ  
 رَجُلًا وَحَلَّى كَلِّ حَامِلٍ يَأْتِيكَ مِنْ كَلِّ لَمْ يَغْنَمِ ⑧  
 يُشْهِدُوا مَتَاعَ حُمْرٍ وَذَكَرُوا أَنْتُمْ اللَّهُ فِي بَابٍ مَعْلُومٍ  
 عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا  
 أَمْرَ الْبَاقِي ⑨ ثُمَّ لَقِضُوا أَنْفُسَهُمْ وَلَوْ لَا تَذَكَّرُوا  
 وَيَنْظُرُوا إِلَى الْيَتَامَى الْعَتِيقِ ⑩ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُضْلِهِ  
 حُرْمَتِ اللَّهِ فَيُخْرِجْهُ عَنْ عَهْدِهِ يُرِيدُ أَنْ يُلَاقِيَكُمْ  
 الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يَشِئُ عَلَىٰ عَهْدِكُمْ وَأَجْتَنِبُوا  
 الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ⑪

عن سبيل الله ومنع الناس من  
الإيمان، والصد أيضاً عن المسجد  
الحرام، الذي ليس ملكاً لهم ولا  
لآبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم  
فيه، والطارئ إليه، بل صدوا عنه  
أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال  
أن هذا المسجد الحرام، من حرمة  
واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه  
يأجحد بظلم نذقه من عذاب أليم.

فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في  
الحرم، موجب للعذاب، وإن كان  
غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل  
الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم  
الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن  
سبيله، ومنع من يريده بزيارة، فما  
ظنكم<sup>(١)</sup> أن يفعل الله بهم!!

وفي هذه الآية الكريمة، وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعالها.

﴿٢٦ - ٢٩﴾ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَظَهَرَ يَتِيُّ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ \* وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ \* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا



منها وأطعموا البائس الفقير \* ثم ليقتضوا نفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق \* يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمته بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنائه، فبناه على تقوى الله، وأسمه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئاً، بأن يخلص لله أعماله، ويبنيه على اسم الله.

﴿وطهر بيتي﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفضلة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿والركع السجود﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي

تشوش على المتعبدين، بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد.

﴿وأذن في الناس بالحج﴾ أي: أعلمهم به، وأدعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجاً وعمَّاراً، رجالاً، أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿وعلى كل ضامر﴾ أي: ناقه ضامر، تقطع المهامه والمفاوز، وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿من كل فج عميق﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبدى في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركباناً من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغبا فيه فقال: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي: لينالوا ببيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه، ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية، أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكراً لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ أي: شديد الفقر، ﴿ثم ليقتضوا نفثهم﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام، ﴿وليوفوا نذورهم﴾ التي أوجبوها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا، ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتق: من تسلط الجبابرة عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالناسك عموماً، لفضله، وشرفه، ولكونه المقصود، وما

قبله وسائل إليه.

ولعله - والله أعلم أيضاً - لفائدة أخرى، وهو: أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً للنسك، أم مستقلاً بنفسه.

﴿٣٠ - ٣١﴾ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور \* حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴿ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم من تلكم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها، لأن تعظيم حرمات الله، من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه الله ثواباً جزيلاً، وكانت خيراً له في دينه، ودنياه وأخراه عند ربه.

وحرمات الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها، كالناسك كلها، وكالحرم والإحرام، والهدايا، والعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها، فتعظيمها وإجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متناقل، ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده، من بهيمة الأنعام، من إبل وبقرة وغنم، وشرعها من جملة المناسك، التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين، ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ الآية، ولكن الذي من رحمته بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تزكية لهم، وتطهيراً من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ أي: الخبث القذر ﴿من الأوثان﴾ أي: الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس، والظاهر أن ﴿من﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون



منهياً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً، ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور.

أمرهم أن يكونوا ﴿حنفاء لله﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه.

﴿غير مشركين به ومن يشرك بالله﴾ فمثله ﴿فكانما خر من السماء﴾ أي: سقط منها ﴿فتخطفه الطير﴾ بسرعة ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبلبات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودينه.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ﴿أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرمانه وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿لكم فيها﴾ أي: [في] الهدايا ﴿منافع إلى أجل مسمى﴾ هذا في الهدايا المسوقة، من البدن ونحوها، ينتفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها ﴿إلى أجل

مسمى﴾ مقدر، موقت وهو ذبحها إذا وصلت محلها وهو البيت العتيق، أي: الحرم كله ﴿منى﴾ وغيرها، فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً ليدذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين﴾ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴿أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكاً، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولتنظر أيكم أحسن عملاً، والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به ولهذا قال: ﴿فله أسلموا﴾ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وبشر المخبتين﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمحبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات، لحوفهم ووجلهم من الله وحده، ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ من البأساء والضراء وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربه، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره، ﴿والمقيمي الصلاة﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع

وجوهها، وأتى بـ ﴿من﴾ المفيدة للتبويض، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه. فإياها المرزوق من فضل الله، أنفق بما رزقك الله ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴿هذا دليل أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة. وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره، فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره، البدن، أي: الإبل، والبقر، على أحد القولين، فتعظم وتستسمن، وتستحسن، ﴿لكم فيها خير﴾ أي: المهدي وغيره، من الأكل، والصدقة، والانتفاع، والشواب، والأجر، ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾ أي: عند ذبحها قولوا «بسم الله» واذبحوها، ﴿صواف﴾ أي: قائمات، بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر.

﴿فاذا وجبت جنوبها﴾ أي: سقطت في الأرض جنوبها، حين تسليخ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض، فحيث قد استعدت لأن يؤكل منها، ﴿فكلوا منها﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وأطعموا القانع والمعتر﴾ أي: الفقير الذي لا يسأل، تقنعاً، وتحققاً، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيهما.

﴿كذلك سخرناها لكم﴾ أي: البدن ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيرها لها، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحساناً إليكم،



فاحدوه .

وقوله : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَآؤُهَا﴾ أي : ليس المقصود منها ذبحها فقط . ولا ينال الله من لحومها ولا دماؤها شيء ، لكونه الغني الحميد ، وإنما يناله الإخلاص فيها ، والاحتساب ، والنية الصالحة ، ولهذا قال : ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ففني هذا حث وتغيب على الإخلاص في النحر ، وأن يكون القصد وجه الله وحده ، لا فخراً ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مجرد عادة ، وهكذا سائر العبادات ، إن لم يقتزن بها الإخلاص وتقوى الله ، كانت كالحشور الذي لا لب فيه ، والجسد الذي لا روح فيه .

﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتَكْبِرُوا اللَّهَ﴾ أي : تعظموه وتجلوه ، ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي : مقابلة لهديته إياكم ، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد ، وأعلى التعظيم ، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة الله بأن يعبدوا الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فليعبدوه ، معتقدين وقت عبادتهم اطلاعاً عليهم ، ورؤيته إياهم ، والمحسنين لعباد الله ، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال ، أو علم ، أو جاة ، أو نصيح ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، أو كلمة طيبة ونحو ذلك ، فالمحسنون لهم البشارة من الله ، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم ، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .

﴿٣٨﴾ ﴿إِنْ اللَّهَ يَدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله ، للذين آمنوا ، أن الله يدافع عنهم كل مكروه ، ويدفع عنهم كل شر . بسبب إيمانهم . من شر الكفار ، وشر وسوسة الشيطان ، وشرور أنفسهم ، وسيئات أعمالهم ، ويحمل عنهم عند نزول المكروه ، ما لا يتحملون ، فيخفف عنهم غاية التخفيف . كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه ، فمستقل ومستكثر .

﴿إِنْ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي : خائن في أمانته التي حمله الله إياها ، فيبغض حقوق الله عليه ، ويخونها ، ويخون الخلق .

﴿كَفُورٍ﴾ لنعم الله ، يوالي عليه الإحسان ، ويتوالى منه الكفر والعصيان ، فهذا لا يحبه الله ، بل يبغضه ويمقتة ، وسيجازه على كفره وخيائته ، ومفهوم الآية ، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته ، شكور لمولاه .

﴿٣٩-٤١﴾ ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والله عاقبة الأمور ﴿كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ مَمْنُوعِينَ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ، وَمَأْمُورِينَ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمْ ، لِحُكْمَةِ إِلَهِيَّةٍ ، فَلَمَّا هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَوْذُوا ، وَحَصَلَ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَقُوَّةٌ ، أَذِنَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين ، فأذن الله لهم بقتال الذين يُقاتِلُونَ ، وإنما أذن لهم ، لأنهم ظلموا ، بمنعهم من دينهم ، وأذيتهم عليه ، وإخراجهم من ديارهم .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستنصروه ، وليستعينوا به ، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال : ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي : أُلْجُوا إِلَى الْخُرُوجِ بِالْأَذْيَةِ وَالْفِتْنَةِ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ ذَنْبَهُمُ الَّذِي نَقَمَ مِنْهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ﴾ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ﴿أَي : إِلَّا أَنَّهُمْ وَخَدُوا اللَّهَ ، وَعَبَدُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَإِنْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا ، فَهُوَ ذَنْبُهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا يدل على حكمة الجهاد ، وأن المقصود منه إقامة دين الله ، وذُبُّ الْكُفَّارِ الْمُؤْذِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، الْبَادِئِينَ لَهُمْ بِالْإِعْتَدَاءِ ، عَنْ

ظلمهم واعتدائهم ، والتمكن من عبادة الله ، وإقامة الشرائع الظاهرة ، ولهذا قال : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ في دفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين ، ﴿لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ﴾ أي : لهدمت هذه المعابد الكبار ، لطوائف أهل الكتاب ، معابد اليهود والنصارى ، والمساجد للمسلمين ، ﴿يَذْكُرُ فِيهَا﴾ أي : في هذه المعابد ﴿اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات ، وتلى فيها كتب الله ، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر ، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لاستولى الكفار على المسلمين ، فخربوا معابدهم ، وقتنوهم عن دينهم ، فدل هذا ، أن الجهاد مشروع ، لأجل دفع الصائل والمؤذي ، ومقصود لغيره ، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله ، وعمرت مساجدها ، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها ، من فضائل المجاهدين وبركتهم ، دفع الله عنها الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

فإن قلت : ترى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تحرب ، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة ، وحكومة غير منظمة ، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج ، بل ترى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة ، وأهلها آمنون مطمئنون ، مع قدرة ولائهم من الكفار على هدمها ، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت هذه المعابد ، ونحن لا نشاهد دفعا .

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال ، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها ، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها ، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها ، وداخل في حكمها ، تعتبر عضواً من أعضاء المملكة ، وجزء من أجزاء الحكومة ، سواء كانت تلك الأمة

مقتدرة بَعْدُهَا أو عُدُّهَا، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتحشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار..

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من [كثيراً]<sup>(١)</sup> ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يرى عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت - والله الحمد - أسبابه [بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل]<sup>(٢)</sup>، فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا. ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم، فأبشروا، يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عددكم وعددكم، وقوي عدد عدوكم وعدتهم<sup>(٣)</sup>، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وقوموا،

أيها المسلمون، بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾.

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، ﴿أقاموا الصلاة﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

﴿وأتوا الزكاة﴾ التي عليهم خصوصاً، وعلى رعيتهم عموماً، أتوها أهلها، الذين هم أهلها، ﴿وأمروا بالمعروف﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق الآدميين، ﴿ونهاوا عن المنكر﴾ كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

﴿والله عاقبة الأمور﴾ أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أجز أن العاقبة للتقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه،

أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴿الذين أحرموا من دينهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله لا نعبد الله ولا دافع الله الناس بعضهم ببعض هذمت صوابهم وسع وصاوتهم وسجدوا ذكروا اسم الله كبراً﴾ ولينصرك الله ممن ينصره وإن الله لقيوم عزيز ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولهم عاقبة الأمور﴾ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلكم قبلاً نوح وعاد وثمود ﴿وقوم إبراهيم وقوم لوط﴾ وأحبت مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴿فكأن كان نكير﴾ فكأن بين قرية أهلكتها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها ﴿فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود﴾ وقوم إبراهيم وقوم لوط ﴿وأصحاب مدين﴾ أي: قوم شعيب.

فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشيؤومة، وعاقبته مذمومة.

﴿٤٦ - ٤٧﴾ ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود﴾ وقوم إبراهيم وقوم لوط ﴿وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾ فكأن من قرية أهلكتها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها ﴿فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود﴾ وقوم إبراهيم وقوم لوط ﴿وأصحاب مدين﴾ أي: قوم شعيب.

﴿وكذب موسى فأمليت للكافرين﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في أ: وعدتكم، وهو سبق قلتم - والله أعلم -.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٠﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَتَيْنَاهَا لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَالْكَلْبِشَ ﴿٥١﴾ قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِنَّهَا أَنَا لَأَكْبَرُ نَذِيرٌ مِثْلُ ﴿٥٢﴾ قَالُوا بَلَىٰ ءَأَمَلْنَا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مَغْفِرَةٌ يُرِيقُكَ اللَّهُ فِي الْيَمِّ سَعْرًا وَفِي آيَاتِنَا مَعْجُونَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْآخِرَةِ ﴿٥٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَوَلَّى سَافِرٌ فَاسْتَغْنَوْا فِي أَنْبِيَاءِهِمْ يَنْسَخُ اللَّهُ مَا تَلَوَّى الْكَلْبِشُ ثُمَّ يُجْزِيهِ اللَّهُ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٤﴾ لِيَجْزَلَ مَا يَلْقَى السَّافِرُونَ مِنْكَ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٥﴾ وَلِلَّهِ الْأَرْضُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنَاجِدُ فِي رَبِّكَ قِيُومًا نَوَافِلَهُمْ فَتَحَبَّبَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَزَلِ الْأَرْضُ كَفَرًا فِي رِيْقَتِهِ حَتَّىٰ يُؤْتِيَهُمُ الْبَاسَ بَعَثَ أَتَانَهُمْ عَذَابٌ يُرْغِقُهُمْ ﴿٥٧﴾

وشربهم يزدادون، ﴿ثم أخذتهم﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿فكيف كان نكير﴾ أي: إنكارى عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأفطح المثالات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلكت بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال: ﴿فكأين من قرية﴾ أي: وكم من قرية ﴿أهلكناها﴾ بالعذاب الشديد، والخزي الدنيوي، ﴿وهي ظالمة﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا، ﴿فهي خاوية على عروشها﴾ أي: فديارهم متهدمة، قصورها، وجدرانها، قد سقطت عروشها، فأصبحت خراباً بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آنسة، ﴿ويثر معطلة وقصر مشيد﴾ أي: وكم من بشر، قد كان

يزدحم عليه الخلق، لشربهم وشرب مواشيهم، ففقد أهله، وعدم منه الوارد والصادر، وكم من قصر، تعب عليه أهله، فشيدوه، ورفعوه، وحصنوه، وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبدة لمن اعتبر، ومثلاً لمن فكر ونظر.

ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا، ويعتبروا فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أو أذان يسمعون بها﴾ أخبار الأمم الماضية، وأنباء القرون المعذنين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى الرئيات، وأما عمى البصر، فغايبته بلغة، ومنفعة دنيوية.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ وكأين من قرية أُمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴿أي: يستعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب، لجهلهم، وظلمهم، وعنادهم، وتعجزاً لله، وتكدياً لرسله، ولن يخلف الله وعده، فما وعدهم به من العذاب، لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع، وأما عجلته، والمبادرة فيه، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزك عجلتهم وتعجزهم إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال:

﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ من طوله، وشدته، وهوله، فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم، لا بد أن يدرّكهم.

ويحتمل أن المراد: أن الله حلّيم، ولو استعجلوا العذاب، فإن يوماً عنده كألف سنة مما تعدون، فالمدّة، وإن تطاولتموها، واستبطأتم فيها نزول العذاب، فإن الله يمهّل المدد الطويلة ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم.

﴿وكأين من قرية أُمليت لها﴾ أي: أمهلها مدة طويلة ﴿وهي ظالمة﴾ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم، موجباً لمبادرتنا بالعقوبة، ﴿ثم أخذتها﴾ بالعذاب ﴿وإلي المصير﴾ أي: مع عذابها في الدنيا، سترجع إلى الله، فيعذبها بذنوبها، فلنحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ (١) يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يخاطب الناس جميعاً، بأنه رسول الله حقاً، مبشراً للمؤمنين بشواب الله، منذراً للكافرين والظالمين من عقابه، وقوله: ﴿مبين﴾ أي: بين الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالخوف، وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به، ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال: ﴿فالذين آمنوا﴾ بقلوبهم إيماناً صحيحاً صادقاً ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم ﴿ففي جنات النعيم﴾ أي: الجنات التي يتنعم بها بأنواع النعيم من المأكّل والمشرب والمناكح والصور والأصوات والتنعم برؤية الرب الكريم وسماع

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجمع بينها وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا

الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم) ثم فسرها بما يوافق الذي كتب، فعدلت الآية

وصوبتها، وأبقيت التفسير كما هو.

كلامه ﴿والذين كفروا﴾ أي: جحدوا نعمة ربهم وكذبوا رسله وآياته فأولئك أصحاب الجحيم أي: الملازمون لها، المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتر عنهم لحظة من عقابها.

﴿٥٢-٥٧﴾ ﴿وما أرسلنا من

قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم \* ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد \* وليعلم الذين آمنوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم \* ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب يوم عقيم \* الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم \* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين \* يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في قراءته، من طرده ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتهه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويذهبه وينبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، والله عزيز ﴿أي: كامل القوة

والاقتدار، فبكمال قوته، يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقى الشياطين، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته، مكن الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾ لطائفتين من الناس، لا يبالي الله بهم، وهم الذين ﴿في قلوبهم مرض﴾ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿والقاسية قلوبهم﴾ أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي: مشاقة الله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقي الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وليعلم الذين آمنوا العلم أنه الحق من ربك﴾ لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، ولعلموا أن الله حكيم، يقيض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فيؤمنوا به﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه.

﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿وإن الله لهادي الذين

الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين كفروا أصحاب الجحيم \* والذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم \* ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب يوم عقيم \* الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم \* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين \* يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في قراءته، من طرده ومكايده، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشتهه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويذهبه وينبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، والله عزيز ﴿أي: كامل القوة

آمنوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿إلى صراط مستقيم﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات، فنيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته ﷺ: ﴿والنجم﴾ فلما بلغ ﴿أفرايتم اللات والعزى﴾ ومناة الثالثة الأخرى ﴿ألقى الشيطان في قراءته: «تلك الغرائيق العلى، وإن شفاعتهن»<sup>(١)</sup> لترجي، فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿٥٥-٥٧﴾ ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب يوم عقيم \* الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم \* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جنتهم به يا محمد، لعنادهم، وإعراضهم، وأنهم<sup>(٢)</sup> لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿حتى تأتيهم

(١) كذا في ب، وفي أ: شفاعتهم.

(٢) في النسختين: وأنه.



عليه وظلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم، فإن بُغِيَ عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يُبغَى عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلم وجني عليه، فالتنصر إليه أقرب.

﴿إن الله لعفو غفور﴾ أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿ذلك بأن الله يُولِج الليل في النهار ويُولِج النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو الغلي الكبير ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف، في تقديره وتديره، الذي ﴿يُولِج الليل في النهار﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك، قيام الفصول، ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وأن الله سميع﴾ يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿بصير﴾ يرى ديبب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾.

خير الرازقين \* ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حلیم هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهداً في سبيل الله، ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المعنى <sup>(١)</sup>: أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيداً، فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيراً، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتبروا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس، ويكون على هذا القول، قوله: ﴿ليدخلنهم مدخلا يرضونه﴾ إما ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع ﴿وإن الله لعليم﴾ بالأمور، ظاهرها، وباطنها، متقدمها، ومتأخرها، ﴿حليم﴾ يعصيه الخلائق، ويبارزونه بالعظائم، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿٦٠﴾ ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرته﴾ إن الله لعفو غفور ذلك بأن من جنى

أَوْتَرَأَنَّ اللَّهَ سَخِرَ لَكُمْ تِلْكَ الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجَرَّى فِي الْفَجْرِ بَرِّهِ، وَيُخَسِّدُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَارِدًا زَيْدًا إِنَّ اللَّهَ بِالتَّائِبِينَ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَخْبَارَكُمْ تَوَعَّدَكُمْ مَعَكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٠﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُهُ فَلَا يُحِصُونَ فِي الْآخِرِ وَأَدْعَى الْإِنْسَانُ أَنْ يُكَلِّفَهُ اللَّهُ تَعْلِيلًا هَذَا مُتَقَرِّبٌ ﴿٦١﴾ وَإِنْ جَدُّكَ قَتَلَ ابْنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَنَافِلٌ عَلَيْهِ تَعْلِيلًا هَذَا مُتَقَرِّبٌ ﴿٦٢﴾ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كُنْتُمْ فَعَلْتُمْ ﴿٦٣﴾ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ تِلْكَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ مِنْ شَيْءٍ ﴿٦٥﴾ وَأَنَّا نَسْتَأْذِنُكَ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَ تَبْتَغِي فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَذِكْرِكُمْ كَذُوبٌ يَسْطُورُنَّ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَتَأْتِيكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ أَمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ شَرُّهُ صَبْرٌ

الساعة بغتة﴾ أي: مفاجأة ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة، فإذا جاءتهم الساعة، أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم التندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلاً، ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم.

﴿الملك يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الله﴾ تعالى، لا لغيره، ﴿يحكم بينهم﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل، ﴿فالذين آمنوا﴾ بالله ورسله، وما جاؤوا به ﴿وعملوا الصالحات﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿في جنات النعيم﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الراصفون، ولا تدركه العقول.

﴿والذين كفروا﴾ بالله ورسله وكذبوا بآياته الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها، ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ لهم، من شدته، وألمه، وبلوغه للأفئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو



﴿ذلك﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وأن ما يدعون من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات، ﴿هو الباطل﴾ الذي، هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فإن، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها، ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السموات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السموات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾ له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ﴿هذا حدث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالات على

وحدانيته، وكماله فقال: ﴿ألم تر﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وببصيرتك ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر، فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها، وبس ما فيها، من شجر ونبات، فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج كريم، وضار لها بذلك منظر بهيج، إن الذي أحيها بعد موتها وهموها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميمًا.

﴿إن الله لطيف خبير﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر<sup>(١)</sup>، بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده، عزته في انتقامه وكماله اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك، ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، ويذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم الخلائق فنبت منه أنواع النبات، ﴿خبير﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وعبداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكماله اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء.

﴿وإن الله لهو الغني﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه، ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة، ومن غناه، أنه اتخذ صاحبة ولا ولداً، ومن غناه، أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يُطعم ولا يُطعم، ومن غناه، أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إيمانهم، وإعدادهم، وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السموات ومن في الأرض، الأحياء منهم

والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانيتهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء، ومن غناه، أن يده سخاء بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس، ومن غناه وكرمه، ما أودعه في داز كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿الحميد﴾ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه، لكونها حسنى، وفي صفاته، لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله، لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه، لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يملأ ما في السموات والأرض، وما بينهما، وما شاء بعدها، الذي لا يحصى العبادثناء على حمده، بل هو كما أثني على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور ﴿أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة، وأياديه الواسعة، و﴿أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لبني آدم، حيواناتها، لركوبه، وحمله، وأعماله، وأكله، وأنواع انتفاعه، وأشجارها، وثمارها، يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها، يستخرجها، ويستفح بها، ﴿والفلك﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن

(١) في ب: (عباده الخير ويدفع عنهم الشر).

﴿تجري في البحر بأمره﴾ تحملكم، وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمته بكم أنه ﴿يمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضرر، ومن رحمته، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿وهو الذي أحياكم﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثم يميتكم﴾ بعد أن أحياكم، ﴿ثم يحييكم﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿إن الإنسان﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿لكفور﴾ لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرته ربه.

﴿٦٧ - ٧٠﴾ ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون \* الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون \* ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿منسكاً﴾ أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ الآية، ﴿هم ناسكوه﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأميين أهل الشرك والجهل المبين، فإنه إذا ثبت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول

والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به، يعقلونهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: «تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله»، وكقولهم «إنما البيع مثل الربا» ونحو ذلك من اعتراضاتهم، التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحااجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالإقتصار على هذه، دليل أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعتضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك ﴿على هدى مستقيم﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم، وآرائهم، ويوقفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾. مع أن في قوله: ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ إرشاداً لأجوبة المعارضين على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى: ما تحصل به الهداية، من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسننها وعدلها وحكمتها بالعقل والنفطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل الأمور والنتائج.

ولهذا أمره الله بالعدل عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾

أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكماً بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم، قال له: «اكتب» قال: ما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

﴿إن ذلك على الله يسير﴾ وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها، فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطاناً، أي: حجة تدل عليه وتجوزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه، ثم توعده الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ ينصرونهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل. وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصدي في اتباع

الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم  
راضون بما هم عليه من الباطل؟ ذكر  
ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾  
التي هي آيات الله الجليلة، المستلزمة  
لبیان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها،  
ولم يرفعوا بها رأساً، بل ﴿تَعْرِفُ فِي  
وَجْوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ من بغضها  
وكرهتها، ترى وجوههم مُعْبِئَةٌ،  
وأشارهم مكفهرة، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ  
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي:  
يكادون يوقعون بهم القتل والضرب  
البليغ، من شدة بغضهم وبغض الحق  
وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بشئ  
الحالة، وشرها بشئ الشر، ولكن ثَمَّ ما  
هو شر منها، حالتهم التي يؤولون  
إليها، فلهذا قال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفَرُوا  
مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
وَبَشِّرِ الْمُضِيرِ﴾ فهذه شرها طویل  
عريض، ومكروها وآلامها تزداد على  
الدوام.

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ  
ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ  
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ  
اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا  
لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ  
وَالْمَطْلُوبُ﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ  
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿هَذَا مِثْلُ  
ضَرْبِهِ اللَّهُ لَقَمِيعَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَبَيَانَ  
نَقْصَانِ عَقُولِ مَنْ عِبَدَهَا، وَضَعْفِ  
الْجَمِيعِ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هَذَا  
خَطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِ، الْمُؤْمِنُونَ  
يَزِيدُونَ عِلْمًا وَبَصِيرَةً، وَالْكَافِرُونَ  
تَقُومُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، ﴿ضَرْبٌ مِثْلُ  
فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أَيُّ: أَلْقُوا إِلَيْهِ  
أَسْمَاعَكُمْ، وَتَفْهَمُوا مَا احْتَوَى عَلَيْهِ،  
وَلَا يَصَادَفُ مِنْكُمْ قُلُوبًا لَا هِيَةَ،  
وَأَسْمَاعًا مَعْرُضَةً، بَلْ أَلْقُوا إِلَيْهِ الْقُلُوبَ  
وَالْأَسْمَاعَ، وَهُوَ هَذَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ  
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شَمِلَ كُلَّ مَا  
يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا﴾  
الَّذِي هُوَ مِنْ أَحَقَّرِ الْمَخْلُوقَاتِ  
وَأَخْسَعِهَا، فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِهِ خَلْقُ هَذَا  
الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ، فَمَا فَوْقَهُ مِنْ بَابٍ

أولى، ﴿ولو اجتمعوا له﴾ بل أبلغ من ذلك لو ﴿يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز. ﴿ضعف الطالب﴾ الذي هو المعبود من دون الله ﴿والمطلوب﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين.

فهذا ما قدر ﴿الله حق قدره﴾ حيث  
سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه،  
بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى  
من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعاً  
ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة  
ولا نشوراً، بمن هو النافع الضار،  
المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف  
فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي : كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته، أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيغة واحدة، ومن كمال قوته، أنه أهللك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه.

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿الله يصطفي من  
الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع  
بصير﴾ يعلم ما بين أيديهم وما  
خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴿لما بين  
تعالى كماله وضعف الأصنام، وأنه  
المعبود حقاً، بين حالة الرسل،  
وتمييزهم عن الخلق بما تميزوا به من  
الفيضات فقال: ﴿الله يصطفي من  
الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ أي: يختار  
ويختبى من الملائكة رسلاً، ومن الناس  
رسلاً، يكونون أزكى ذلك النوع،  
وأجمعه لصفات المجد، وأحقه  
بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ حَرِبٌ مِثْلَ قَاتِسْتَعْمُوا إِلَهُ الَّذِينَ تَدْعُونَ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا يَكُونُ أَجْنَحُوا وَإِنَّ يَسْلُفُ  
الذُّبَابُ شَيْخًا لَا يَسْتَقْدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّلَاطِ  
وَالطَّلُوبِ ﴿٣٦﴾ مَا قَدْ رَأَى اللَّهُ حَقَّ قُدْرَتِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ  
عَزِيزٌ ﴿٣٧﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ  
النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ أَلَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٣٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ  
وَمَا خَلْفَهُمْ وَاللَّهُ شَرِيعُ الْأُمُورِ ﴿٣٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ  
آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا  
الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ ﴿٤٠﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ  
حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي  
الْيَمِينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَأَ أَيْسَكُمْ بِإِذْنِهِ هُوَ سَمْعُكُمْ السَّمِيعُ  
مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذِهِ الْيَكُونُ سَهْدًا عَلَيْهِمْ ذِكْرُ مَا  
شَهِدُوا عَلَى النَّاسِ فَأَقْبُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ  
وَأَعْتَصِمُوا بِآلِهِ هُمْ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤١﴾

صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم وأصطفاهم<sup>(١)</sup>، ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإنما المصطفى لهم، السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعته وبصره بجميع الأشياء، فاخياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي: هو يرسل الرسل، يدعون الناس إلى الله، فمنهم المجيب، ومنهم الزاد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم التاكل، فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال، فمصيورها إلى الله، فلا تعدم منه فضلاً أو عدلاً.

﴿٧٧ - ٧٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ \* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا بِيَكُمُ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يَا مُرَّ تَعَالَى عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَاةِ، وَخَصَّ مِنْهَا الرُّكُوعَ

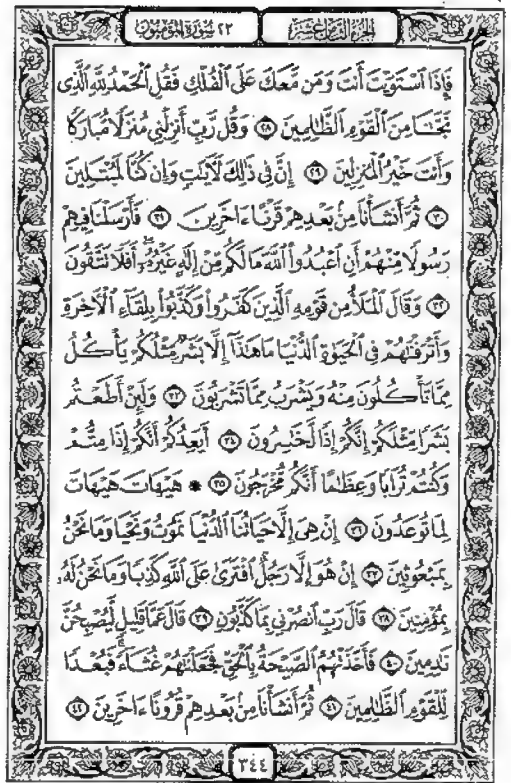
(۱) فی ب: واجتباہم:











بعد مضي أربعين يوماً من النطفة، ثم خلقنا العلقه بعد أربعين يوماً مضفة أي: قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها، فخلقنا المضغة اللينة عظماً صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها، فكسونا العظام لحماً أي: جعلنا اللحم، كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عماداً للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ثم أنشأناه خلقاً آخر نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جباداً، إلى أن صار حيواناً، فبارك الله أي: تعالى وتعظم وكثر خيره أحسن الخالقين الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون فخلقكم كله حسناً، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

ثم إنكم بعد ذلك الخلق، ونفخ الروح ليبتون في أحد أطواركم وتشقلا تكم، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون فتجاوزون بأعمالكم، حسناتها

وسيتها. قال تعالى: «أيحسب الإنسان أن يترك سدى \* ألم يك نطفة من مني يمى \* ثم كان علقه فخلق فسوى \* فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى \* أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى».

«١٧ - ٢٠» ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين \* وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون \* فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون \* وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للأكليين لما ذكر تعالى خلق آدمي، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال:

«ولقد خلقنا فوقكم سقفاً للبلاد، ومصلحة للعباد سبع طرائق» أي: سبع سماوات طباقاً، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع، وما كنا عن الخلق غافلين فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلنا أيضاً محيط بما خلقنا، فلا تغفل مخلوقاً ولا نساء، ولا نخلق خلقاً فنضيعه، ولا تغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها وكثيراً ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله: «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» «بلى وهو الخلاق العليم» لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

«وأنزلنا من السماء ماء» يكون رزقاً لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند الضرر من

دوامه، «فأسكناه في الأرض» أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرته منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضاً معداً في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلاً، حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره، «وإنا على ذهاب به لقادرون» إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب نازلاً لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدرُوا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين».

«فأنشأنا لكم به» أي: بذلك الماء جنات أي: بساتين من نخيل وأعناب خص تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما، التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: «لكم فيها» أي: في تلك الجنات فواكه كثيرة ومنها تأكلون من تين، وأترج، ورماني، وتفاح وغيرها، وشجرة تخرج من طور سيناء وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها، خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله: «تنبت بالدهن وصيغ للأكليين» أي: فيها الزيت، الذي هو دهن، يستعمل<sup>(١)</sup> استعماله من الاستصباح به، واصطبغ بالأكليين، أي: يجعل إداماً للأكليين، وغير ذلك من المنافع.

«٢١ - ٢٢» وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك محملون أي: ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام، الإبل والبقر، والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين نسقيكم مما في بطونها من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ للشاربين، ولكم فيها منافع كثيرة من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من

(١) كذا في النسختين، وقد شطبت كلمة يستعمل في ب، وكتب فوقها بخط مغاير: يكثر. وهي كذلك في الطبقات المختلفة للتفسير.

جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿ومنها تأكلون﴾ أفضل المأكّل من لحم وشحم.

﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون عليها أنفالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلاً [كان] أو كثيراً، فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدر علينا من خيره المدرار، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

﴿٢٣ - ٣٠﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ إلى آخر القصة وهي قوله ﴿إن في ذلك لآياتٍ وإن كنا لمبطلين﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: أخلصوا له العبادة، لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها. ﴿مالك من إله غيره﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى، لأنه الخالق الرازق، الذي له الكمال كله، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أفلا تتقون﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، التي صورت على صور قوم صالحين، فعبدوها مع الله، فاستبهر على ذلك، يدعوه سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم لا يزدادون إلا عتواً ونفورا.

﴿فقال الملائ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبوعون - على وجه المعارضة لنبههم نوح، والتحذير من اتباعه -: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أي: ما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن

يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعاً، وإلا فما الذي يفضل عليكم، وهو من جنسكم؟ وهذه المعارضة ما زالت موجودة في مكذبي الرسل، وقد أجاب الله عنها بجواب شاف، على السنة رسله كما في قوله: ﴿قالوا﴾ أي: لرسولهم ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴿فأخبروا أن هذا فضل الله ومنته، فليس لكم أن تحجروا على الله، وتغنوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا هنا: ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ وهذه أيضاً معارضة بالمشيئة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس آدميين، لأن الملك لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان.

وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي: بإرسال رسول ﴿ففي آياتنا الأولين﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آياتهم الأولين؟ لأنهم لم يحيطوا علماً بما تقدم، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولا، فلما أن يكونوا على الهدى، فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على غيره، فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم، ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم للإحسان إليهم.

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي: مجنون ﴿فتربصوا به﴾ أي: انتظروا به ﴿حتى حين﴾ إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبهة التي أوردوها<sup>(١)</sup>، معارضة لنبوة نبههم، دالة على شدة كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية

الجهل والضلال، فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه، كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة. فقوله: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أثبتوا أن له عقلاً يكيدهم به، ليعلوهم ويسودهم، ويحتاج - مع هذا - أن يحذر منه لئلا يغتر به، فكيف يلتزم مع قولهم: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ وهل هذا إلا من مشبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق اتفق له، غير عالم بما يقول؟! وبأي الله إلا أن يظهر خزي من عاداة وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فراراً ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ فاستنصر ربه عليهم، غضباً لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله وقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴿قال تعالى: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾.

﴿فأوحينا إليه﴾ عند استجابته له، سبباً ووسيلة للنجاة، قبل وقوع أسبابه، ﴿أن اصنع الفلك﴾ أي: السفينة ﴿بأعيننا ووحينا﴾ أي: بأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك.

﴿فإذا جاء أمرنا﴾ بإرسال الطوفان الذي غذبوا به ﴿وفار الثنور﴾ أي: فارت الأرض، وتفجرت عيوناً، حتى محل النار، الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء، ﴿فأسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات، ذكراً وأنثى، تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات، التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض، ﴿وأهلك﴾ أي: أدخلهم ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ كابنه، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي: لا تدعني أن أنجيهم، فإن القضاء والقدر، قد حتم أنهم مغرقون.

(١) كذا في ب، وفي أ: أوردوها.

بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر.

وهذا نظير قولهم: ﴿قَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٌ وَسَعْرٌ \* أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال فقتلوا: ﴿أَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمُ مَخْرُجُونَ \* هِيَ هَاتِ هِيَ هَاتِ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ أي: بعيد بعيد ما يعذبكم به، من البعث، بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً، فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالتسبي إلى قدرهم غير ممكن، فقاسوا قدرة الخالق بقدرهم، تعالى الله. فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم، فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه، وكلاهما هين لديه، فلم لا ينكروا أول خلقهم، ويكابرون المحسوسات، ويقولون: إنا لم نزل موجودين، حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث، وينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟

وهنا دليل آخر، وهو: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير، وثم دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ \* إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقال في جوابهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: في البلى، ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ (٢) فلهذا أتى بما أتى به، من توخيد الله،

بمبعوثين \* إن هو إلا رجل افتري على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين (١) \* قال رب انصربي بما كذبون \* قال عما قليل ليصبحن نادمين \* فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غشاً فيعدا للقوم الظالمين \* لما ذكر نوحاً وقومه، وكيف أهلكهم قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ الظاهر أنهم «ثمود» قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد عن اشمئزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أمهم ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أمهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ربكم، فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ، وَأُتِرْنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً وتحذيراً منه: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: من جنسكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ إنكم إذا لخاسرون ﴿أَي: إِنْ تَبِعْتُمُوهُ وَجَعَلْتُمُوهُ لَكُمْ رَئِيسًا، وَهُوَ مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ لَمُسْلُوبُو الْعَقْلِ، نَادِمُونَ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ. وَهَذَا مِنَ الْعَجَبِ، فَإِنْ الْخُسَارَا وَالنَّدَامَةُ حَقِيقَةٌ لِمَنْ لَمْ يَتَابِعْهُ وَلَمْ يَنْقُدْ لَهُ. وَالْجَهْلُ وَالسَّفَهَةُ الْعَظِيمُ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَنِ الْانْقِيَادِ لِبَشَرٍ، خَصَّهُ اللَّهُ

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ﴾ أي: علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحمدوا الله على النجاة والسلامة. فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وهذا تعليم منه له ولمن معه، أن يقولوا هذا شكراً له وحمداً على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن ينسر الله لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وَقَضَى الْأَمْرَ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ الآية.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هذه القصة ﴿لَايَاتٌ﴾ تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض. والفلك أيضاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَذْكَرٍ﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾

﴿٣١-٤١﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فإرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون \* وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون \* ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون \* أيعذبكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون \* هيهات هيهات لما توعدون \* إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) وهذا سبق قلم منه - رحمه الله -، وسيفسرها فيما يلي على نحو مما أثبت وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

(٢) ينظر التعليق السابق.





اكتسبوه، فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم، متفقون على إباحة الطيبات من المأكّل، وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح وإن تنوعت بعض أجناس الأمور، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح، ولكن تفاوتت الأئمة .

ولهذا، الأعمال الصالحة، التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى، والْحُتُوُ والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى له رقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء، الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ أَيْ: جَاعَتُكُمْ - يَا مَعْشَرَ الرِّسْلِ - جَاعَةٌ وَوَاحِدَةٌ﴾ متفقة على دين واحد، وربكم واحد.

﴿فَاتَّقُونَ﴾ بامثال اوامري ،  
واجتناب زواجري : وقد أمر الله  
المؤمنين بما أمر به المرسلين ، لأنهم بهم  
يقتدون ، وخلفهم يسلكون ، فقال :  
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا  
رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ  
تَعْبُدُونَ﴾ فالواجب من كل المنتسبين إلى  
الأنبياء وغيرهم ، أن يمثلوا هذا ،  
ويعملوا به ، ولكن أبى الظالمون  
المفترقون إلا عصياناً ، ولهذا قال :  
﴿فَنَقُطِعْ عُواثَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي :  
تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء  
﴿أمرهم﴾ أي : دينهم ﴿بينهم﴾ أي :  
أي : قطعاً ﴿كل حزب بما لديهم﴾

المهلكين ﴿ في الغرق في البحر ، وبنو  
اسرائيل ينظرون .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ بعدما  
أهلك الله فرعون، وخلص الشعب  
الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حيث  
من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار  
شعائره، وعده الله أن ينزل عليه  
التوراة أربعين ليلة، فذهب لملاقات  
ربه، قال الله تعالى ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي  
الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا  
لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. ولهذا قال هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ  
يَسْتَدُونَ﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر  
والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون  
ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿٥٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾  
 أي: وأمّتنا على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى، ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستقر وراحة ﴿وَمَعِينٍ﴾  
 أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿فَدَجَعَلْ رَبِّكَ تَحْتِكَ﴾ أي: تحت المكان الذي أُنْتُ فيه، لارتفاعه، ﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهراً وهو المعين ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بَجَذِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ فكلي واشربي وقرى عينا.

﴿٥١-٥٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسَالُ كُلُوا  
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا  
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَمُكُمْ أُمَّةٌ  
وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونُ ﴿فَتَقَطَّعُوا  
أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ  
فَرِحُونَ ﴿فَلِذُرِّهِمْ فِي غَيْرِهِمْ حَتَّى  
حِينَ﴾ أَجْسَبُونَ أَنَّمَا نُمْدِدْهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ  
وَبَنِينَ ﴿نَسَارِعْ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ  
لَا يَشْعُرُونَ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ  
بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، الَّتِي هِيَ الرِّزْقُ الطَّيِّبُ  
الْحَلَالُ، وَشُكْرُ اللَّهِ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ،  
الَّذِي بِهِ يَصْلَحُ الْقَلْبُ وَالْبَدَنُ، وَالدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةُ. وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ  
عَلِيمٌ، فَكُلْ عَمَلْ عَمَلُوهُ، وَكُلْ سَعَى

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مَا آتَا أَوْفَوْا بِهِمْ وَعِلَّةُ إِلَهُكُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَجُوعٌ ﴿٥١﴾  
أُولَٰئِكَ يَرْجِعُونَ فِي الْحُكْمِ وَهُمْ لَهَا شَاقُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَكُنْ  
تَسَاءِلًا إِلَّا وَصْعَهَا وَلِتُمَكِّنَ كِتَابَ يَسْقِي بَاطِنًا وَمَنْ لَا يُظَلِّمُونَ  
﴿٥٣﴾ فَلَا يُؤْتِيهِمْ فِي عَمْرَوْهِمْ هَذَا وَهُمْ آخِذُونَ بِذُنُوبِ ذَٰلِكَ  
هُمْ لَهَا عَاقِلُونَ ﴿٥٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَفِيقَهُ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ  
يَجْتَهُونَ ﴿٥٥﴾ لَأَجْتَعِلُنَّ الْآخِرَ أَكْبَرًا لَّأَسْمُرُونَ ﴿٥٦﴾ كَذَٰ  
كَانَ آيَاتِي تَسْلِي عَلَىٰ كُفْرِهِمْ عَلَىٰ أَفْعَادِهِمْ كَسَحُورٍ ﴿٥٧﴾  
مُسْتَكْرَبِينَ بِهِ سَكِرَاتُ الْهَجَرُونَ ﴿٥٨﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَلَمْ جَاءَهُمْ  
مَا آتَايَاتُ آبَائِهِمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٩﴾ أَمْ لَمْ يَأْتِ سُلَيْمَانَ رُسُلُهُ فَعَلِمَهُ  
مُذَكَّرُونَ ﴿٦٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوهُ  
لِلْحَقِّ كَاذِبُونَ ﴿٦١﴾ وَلَوْ أَسْمِعُ كُلِّ آهْوَاءٍ هُمْ لَمُسَدِّدَاتُ السُّنُونِ  
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا لَأَيْتَهُمْ بِذِكْرِ هُمْ فَهَمُّ عَنْ ذِكْرِهِمْ  
مُعْرِضُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَلَمْ تَعْلَمْ خَرَجْنَا مِنْ رِبَاعٍ مَعْرُوفٍ وَهُوَ  
خَيْرُ الْبَرِيقِ ﴿٦٣﴾ وَأَنَّا لَنَبْعَثُكُمْ فِي الصَّيْرِ بِرُسُلٍ تَتَّبِعُونَ ﴿٦٤﴾  
وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّيْرِ لَكُنُوزٌ ﴿٦٥﴾

وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين \*  
إلى فرعون وملئيه ﴿١٠﴾ ك «هامان» وغيره  
من رؤسائهم، ﴿١١﴾ فاستكبروا ﴿١٢﴾ أي :  
تكبروا عن الإيمان بالله ، واستكبروا  
على أنبيائه ، ﴿١٣﴾ وكانوا قوماً عالين ﴿١٤﴾  
أي : وصفهم الغلو ، والقهر ، والفساد  
في الأرض ، فلهذا صدر منهم  
الاستكبار ، ذلك غير مستكثر منهم .

﴿فَقَالُوا﴾ كِبَرُاُ وَتِيهًا، وَتَحْذِيرًا  
لِضَعْفِ الْعَقُولِ، وَتَمْوِيًا: ﴿أَنُؤْمِنُ  
بِشَرِّينَ مِثْلَانِ﴾ كَمَا قَالَ مَنْ قَبْلَهُمْ سَوَاءٌ  
بِسَوَاءٍ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ فِي الْكُفْرِ،  
فَتَشَابَهَتْ أَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ، وَجَعَدُوا  
مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا بِالرَّسَالَةِ.

﴿وقومهما﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿لنا عابدون﴾ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة، كما قال تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظير قولهم، قول قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾. من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاودة.

ولهذا قال: ﴿فكذبوهما فكانوا من



أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فرحون﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم، من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون.

﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم <sup>(١)</sup> المحقون. ﴿حتى حين﴾ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿أحسبون أننا نمدهم به من مال وبئس نسارع لهم في الخيرات﴾ أي: أيعظون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بل لا يشعرون﴾ أننا نملي لهم ونمهلهم ونمددهم بالنعم، ليزدادوا إثماً، ولتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾.

﴿٥٧ - ٦٢﴾ ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون \* والذين هم بآيات ربهم يؤمنون \* والذين هم بربهم لا يشركون \* والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون \* أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون \* ولا تكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً

أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي: إذا تلئت عليهم آياته زادتهم إيماناً، ويتفكرون أيضاً في الآيات القرآنية ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه، وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

ويتفكرون أيضاً في الآيات الأفقية، كما في قوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الأبصار﴾ إلى آخر الآيات.

﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي: لا شركاً جلياً، كاتخاذ غير الله معبوداً، يدعوهم ويرجوهم ولا شركاً خفياً، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله، في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدر عليهم، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك، ﴿و﴾ مع هذا ﴿قلوبهم وجلة﴾ أي: خائفة ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال

الخير، همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسواهم. ولما كان السابق لغيره المسارع قد يسبق لحده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال:

﴿وهم لها﴾ أي: للخيرات ﴿سابقون﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعييل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون. ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم وأهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نفساً إلا وسعها﴾ أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه. ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقاً، ﴿وهم لا يظلمون﴾ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون \* حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون \* لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون \* قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون \* مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يبتدون به، ولا يصل

إلى قلوبهم منه شيء. ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴿فَلَمَّا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْهُ، عَمِلُوا بِحَسَبِ هَذَا الْحَالِ، مِنْ الْأَعْمَالِ الْكَفَرِيَّةِ، وَالْمَعَانِدَةِ لِلشَّرْعِ، مَا هُوَ مُوجِبٌ لِعِقَابِهِمْ، ﴿وَلَكِنْ لَكُمْ أَصْعَابٌ مِنْ دُونِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ﴾ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهّلهم ليعملوا هذه الأعمال، التي بقيت عليهم مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها، انتقلوا بشر حاله إلى غضب الله وعقابه.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ أي: متنعيمهم، الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهة والنعيم، ولم تحصل لهم المكارة، فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ ووجدوا منه ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصُرُونَ﴾ وإذا لم تأتكم النصر من الله، وانقطع عنهم <sup>(١)</sup> الغوث من جانبه، لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل ﴿كُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ﴾ أي: راجعين القهقري إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجَرُونَ﴾ قال المفسرون معناه: مستكبرين به، الضمير يعود إلى البيت، المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى، ﴿سَامِرًا﴾ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت

﴿تَهْجَرُونَ﴾ أي: تقولون الكلام الهجر الذي هو القبيح في <sup>(٢)</sup> هذا القرآن. فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن، الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ وقال الله عنهم: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ﴾ وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ﴾

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيث ينقذهم، ويبريخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولنعيم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن، يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أفتالها.

﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أو منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرفضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك، ولهذا قالوا: هم ومن أشبههم من الكفار، ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قَالَ أُولَئِكَ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق، فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أو منعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً ﷺ، غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله ونسأل عنه من له به خبرة، أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين» فلم لا يصدقونه، حين جاءهم بالحق العظيم، والصدق المبين؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، فلهذا قال ما قال، والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه، لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف.

قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الثابت، الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق، وأيضاً فإن في هذا الانتقال مما تقدم، أي: بل الحقيقة التي منعهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العباداة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله، وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فيكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكاً ولا تكديماً للرسول، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يُحْجِدُونَ﴾ فإن قيل: لم لم يكن الحق موافقاً لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو تبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل،

﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾  
شقاوة منهم، وعدم توفيق ﴿نسوا الله﴾  
فأنسواهم ﴿نسوا الله﴾ فأنسواهم  
أنفسهم ﴿فالقرآن ومن جاء به، أعظم﴾  
نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا  
بالرد والإعراض، فهل بعد هذا  
الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا  
نهاية الخسران؟

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ كُلَّ سَبَبٍ مُوجِبٍ لِلْإِيمَانِ، وَذَكَرَ الْمَوَانِعَ، وَبَيْنَ فُسَادِهَا، وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَذَكَرَ مِنَ الْمَوَانِعِ أَنْ قُلُوبَهُمْ فِي غَمْرَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَدْبُرُوا الْقَوْلَ، وَأَنَّهُمْ اقْتَدَوْا بِآبَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا: بِرَسُولِهِمْ جَنَّةَ، كَمَا تَقْدُمُ الْكَلَامَ عَلَيْهَا، وَذَكَرَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَوْجِبَةِ لِلْإِيمَانِ، تَدْبِيرَ الْقُرْآنِ، وَتَلْقَى نِعْمَةَ اللَّهِ بِالْقَبُولِ، وَمَعْرِفَةَ حَالِ

الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجرًا، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، من قرب حنيفية سمحة، حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم ﴿عن الصراط لناكبون﴾. متجنبون منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

﴿٧٥ - ٧٧﴾ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفِ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ \* وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبِيلُونَ﴾  
هذا بيان لشدة عردهم وعنادهم ، وأهم إذا أصابهم الضر ، دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا ، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه . إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا ، أي : استمروا في طغيانهم يعمهون ، أي : يحولون في كفرهم ، حائرين مترددين .

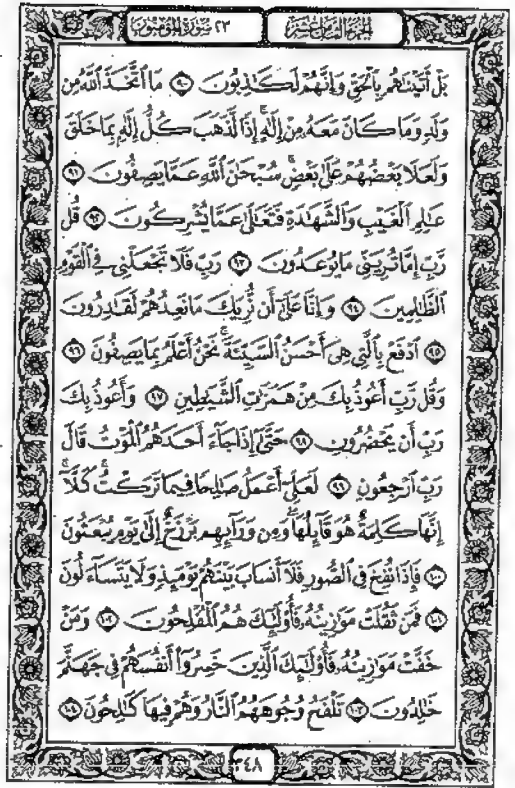
كما ذكر الله حالهم عند زكوب  
القلل، وأهم يدعونه مخلصين له الدين،  
وينسون ما يشركون به، فلما أوجاههم إذا  
هم يبيعون في الأرض بالشرك وغيره.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم

[illegible]

بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم يتجمع فيهم، ولا نجح منهم أحد، ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي: خضعوا وذلوا ﴿وما يتضرعون﴾ إليه ويفتقرون، بل مَرَّ عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزلوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد﴾ كالقتل يوم بدر وغيره، ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فَلْيَحْذَرُوا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أُلْقِعَ عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدَّب الله بها عباده. قال تعالى فيها: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

﴿٧٨ - ٨٠﴾ ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ \* وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون \* وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴿يخبر تعالى بمننه على عباده الداعية﴾<sup>(١)</sup> لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: ﴿وهو الذي أنشأ لكم



السمع لتدركوا به المسموعات،  
فتنتفعوا في دينكم ودنياكم،  
والأبصار لتدركوا بها المبصرات،  
فتنتفعوا بها<sup>(١)</sup> في مصالحكم.

والأفئدة أي: العقول التي  
تدركون بها الأشياء، وتميزون بها عن  
البهائم، فلو عدمتم السمع،  
والأبصار، والعقول، بأن كنتم صماً  
عمياً بكماً ماذا تكون حالكم؟ وماذا  
تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟  
أفلا تشكرون الذي منّ عليكم بهذه  
النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟  
ولكنكم، قليل شكركم، مع توالي  
النعم عليكم.

وهو تعالى الذي ذراكم في  
الأرض أي: بثكم في أقطارها،  
وجهاتها، وسلطكم على استخراج  
مصلحتها ومنافعها، وجعلها كافية  
لمعاشكم ومساكنكم، وإليه  
تحشرون بعد موتكم، فيجازيكم بما  
عملتم في الأرض، من خير وشر،  
وتحدث الأرض التي كنتم فيها  
بأخبارها، وهو تعالى وحده الذي  
يحيي ويميت أي: المتصرف في الحياة  
والموت، هو الله وحده، وله  
اختلاف الليل والنهار أي: تعاقبهما

وتناوبهما، فلو شاء أن يجعل النهار  
سرمداً، من إله غير الله يأتكم ليل  
تسكنون فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل  
سرمداً، من إله غير الله يأتكم بضياء  
أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل  
لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا  
من فضله ولعلكم تشكرون.

ولهذا قال هنا: «أفلا تعقلون»  
فتعرفون أن الذي وهب لكم من  
النعم، السمع، والأبصار، والأفئدة،  
والذي نشركم في الأرض وحده،  
والذي يحيي ويميت وحده، والذي  
يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك  
موجب لكم، أن تخلصوا له العبادة  
وحده لا شريك له، وتركوا عبادة من  
لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف  
بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو  
كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

٨١-٨٣ «بل قالوا مثل ما قال  
الأولون \* قالوا أءأذا متنا وكنا تراباً  
وعظاماً أئنا لمبعوثون \* لقد وعدنا نحن  
وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير  
الأولين \* أي: بل سلك هؤلاء  
المكذبون مسلك الأولين من المكذبين  
بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد  
وقالوا: «أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً  
أئنا لمبعوثون» أي: هذا لا يتصور،  
ولا يدخل العقل، بزعمهم.

لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من  
قبل أي: ما زلنا نعهد بأن البعث  
كائن، نحن وآباؤنا، ولم نره، ولم يأت  
بعد، «إن هذا إلا أساطير الأولين»  
أي: قصصهم وأسمارهم، التي  
يتحدث بها وتلهي، وإلا فليس لها  
حقيقة، وكذبوا - قبحهم الله -  
فإن الله أراهم، من آياته أكبر من  
البعث، ومثله، «لخلق السماوات  
والأرض أكبر من خلق الناس».

وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال  
من يحيي العظام وهي رميم \* الآيات  
وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها

الماء اهتزت وربت \* الآيات.

٨٤-٨٩ «قل لمن الأرض \*  
ومن فيها إن كنتم تعلمون \* سيقولون  
للّٰه قل أفلا تذكرون \* قل من رب  
السماوات السبع ورب العرش  
العظيم \* سيقولون لله قل أفلا  
تتقون \* قل من يده ملكوت كل شيء  
وهو يحير ولا يحار عليه إن كنتم  
تعلمون \* سيقولون لله قل فأنى  
تسحرون \* أي: قل لهؤلاء المكذبين  
بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجاً  
عليهم بما أثبتوه، وأقروا به من توحيد  
الربوبية، وانفراد الله بها، على ما  
أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة،  
وبما أثبتوه من خلق المخلوقات  
العظيمة، على ما أنكروه من إعادة  
الموتى، الذي هو أسهل من ذلك.

«لن الأرض ومن فيها» أي: من  
هو الخالق للأرض ومن عليها، من  
حيوان، ونبات، وجماد، وبحار،  
وأنهار، وجبال، المالك لذلك، المدبر  
له؟ فإنك إذا سألتهم<sup>(٢)</sup> عن ذلك،  
لا بد أن يقولوا: لله وحده، فقل لهم  
إذا أقروا بذلك: «أفلا تذكرون» أي:  
أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما  
هو معلوم عندكم، مستقر في فطركم،  
قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات،  
والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم،  
بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك،  
هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو  
ملوك، أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما  
هو أعظم من ذلك، فقال: «قل من  
رب السماوات السبع» وما فيها من  
النيرات، والكواكب السيارات،  
والثوابت «ورب العرش العظيم»  
الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها  
وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك  
ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟  
«سيقولون لله» أي: سيقرون بأن الله  
رب ذلك كله.

قل لهم حين يقرون بذلك: «أفلا  
تتقون» عبادة المخلوقات العاجزة،

(١) كذا في ب، وفي أ: لتدركوا به المبصرات، فتنتفعون به.

(٢) في أ: سألتهم.

وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أفلا تذكرون﴾ ﴿أفلا تتقون﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى. ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره؟

و «الملكوت»: صيغة مبالغة، بمعنى الملك. ﴿وهو يغير﴾ عباده من الشر، ويدفع عنهم المكروه، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ولا يجار عليه﴾ أي: لا يقدر أحد أن يغير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿سيقولون لله﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه.

﴿قل﴾ لهم حين يقرون بذلك، منزماً لهم، ﴿فأني تسحرون﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿٩٠ - ٩٢﴾ ﴿بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ﴿عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم

ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون﴾.

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إذا﴾ أي: لو كان معه إلهة كما يقولون ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها، ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة، والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً، ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربين!!

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ قد نطق بلسان حالها، وأفهمت ببدیع أشكالها، أن المدبر لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد اقتضت إليه جميع المخلوقات، في ربوبيته لها، وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك، لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والممكنات، ﴿والشهادة﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فتعالى﴾ أي: ارتفع وعظم، ﴿عما يشركون﴾ به، من لا علم عنده، إلا ما علمه الله<sup>(١)</sup>.

﴿٩٣ - ٩٥﴾ ﴿قل رب إما تريني

ما يوعدون﴾ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يدعوا لها، حق عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون﴾ أي: أي وقت أريتنني عذابهم، وأحضرتني ذلك، ﴿رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ أي: اعصمني واحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضاً من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم: ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ ولكن إن أخرناه فليحكمة، وإلا، فقد رتبنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿٩٦ - ٩٨﴾ ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنه تحف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، ولتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وما يلقاها﴾ أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ

(١) في ب: شطب حرف الجر (من) وغيرت الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله).



عظيم ﴿

وقوله: ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فأنت - يا محمد - ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه <sup>(١)</sup> وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حربه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة في مقابله، أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿وقل رب أعوذ بك﴾ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي ﴿من همزات الشياطين﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسمهم، ومن الشر الذي يسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه <sup>(٢)</sup> استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها، الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسمه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه ينديم في تلك الحال، إذا رأى ماله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول:

﴿لعلني أعمل صالحاً فيما تركت﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كلا﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون،

﴿إنها﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كلمة هو قائلها﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نبي عنه.

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فلْيُعدوا له عُدته، وليأخذوا له أهبة.

﴿١٠١ - ١١٤﴾ ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آما فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ فاتخذتهم سخرى حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فأسأل العادين﴾ قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير

الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه \* وأمّه وأبيه \* وصاحبته وبنيه \* لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ <sup>(٣)</sup>

وفي القيامة مواضع، يشتد كرها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر، ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿ومن خفت موازينه﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿في جهنم خالدون﴾ لا يخرجون منها أبد الأبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين

(١) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٢) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٣) في النسختين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتها منها.

فقال: ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهاها عن وجوههم، ﴿وهن فيها كالحون﴾ قد عبت وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم - توبيخاً ولوماً -: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا، ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ ظلماً منكم وعناداً، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبيّنات للمحق والمبطل، فحيث أقرّوا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع ﴿وكنا قوماً ضالين﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾.

﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ ولم يُبقِ الله لهم حجة، بل قطع أعمارهم، وعمرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه [من] المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لسؤالهم: ﴿اخشَوْا فيها ولا تكلمون﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم، ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آتنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت

خير الراحمين ﴿ فجمعوا بين الإيمان  
المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء  
لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه  
بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان،  
والإخبار بسعة رحمته، وعموم  
إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على  
خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم  
لربهم، وخوفهم ورجائهم .

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم،  
﴿فَاتَّخَذُوهُمْ﴾ أيها الكفرة الأنذال  
ناقصو العقول والأحلام ﴿سَخِرِيَا﴾  
تمزؤن بهم وتحتقروهم، حتى اشتغلتم  
بذلك السفه.

﴿حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم  
تضحكون﴾ وهذا الذي أوجب لهم  
نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء  
بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم  
على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد  
الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟!  
﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾  
على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى  
وصلوا إلي .

﴿أنهم هم الفائزون﴾ بالنعيم المقيم،  
والنجاهة من الجحيم، كما قال في الآية  
الأخرى: ﴿فالיום الذين آمنوا من  
الكفار يضحكون﴾ الآيات.

﴿قَالَ﴾ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ اللُّومِ ، وَأَنَّهُمْ  
سَفَهَاءُ الْأَحْلَامِ ، حَيْثُ اكْتَسَبُوا فِي هَذِهِ  
الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ كُلَّ شَرٍّ أَوْصَلَهُمْ إِلَى غَضَبِهِ  
وَعَقُوبَتِهِ ، وَلَمْ يَكْتَسِبُوا مَا اكْتَسَبَهُ  
الْمُؤْمِنُونَ [مِنْ] الْخَيْرِ ، الَّذِي يُوَصِّلُهُمْ  
إِلَى السَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ وَرِضْوَانِ رَبِّهِمْ .

﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴾  
 قالوا لبنا يوماً أو بعض يوم ﴿كلامهم  
 هذا، مبني على استقصاؤهم جداً، لمدة  
 مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا  
 يفيد مقداره، ولا يعينه، فلهذا قالوا:  
 ﴿فاسأل العادين﴾ أي: الضابطین  
 لعدده، وأما هم، ففي شغل  
 شاغل<sup>(١)</sup>، وعذاب مذهل، عن معرفة  
 عدده، فقال لهم: ﴿إن لبثتم إلا

(١) كذا في ب، وفي أ: كلمة غير واضحة كأنها: متاغل.

أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آتِيهِ نَسْلًا عَلَيْهِ سَمْعُكَ يُؤْنَسُ ۝ بِهَاتِكَ ذُرِّيُّونَ ۝  
 قَالُوا رَبَّنَا غَشَبَتْ عَلَيْنَا شِفَاتُ غُرُبَاتِكُمْ وَنَاوَمْنَا فِيهَا كَافَكُنَّ ۝  
 رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَأَلَا تَطَّارِكُنَّ ۝ قَالُوا اخْسَئُوا  
 فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝ إِنَّهُ كَانَ مِنْ عِبَادِي يَتَّبِعُونَ ۝  
 رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ فَافِرًا ذَلِيلًا وَأَتَيْنَاكَ عَبْدًا رَاجِعًا ۝  
 فَانْخَرِطْهُمْ فِي سَنِيَّتِهِمْ أَصْوَرُكُمْ ۝ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ بِهِمْ ۝  
 نَضَعُ كُرْسِيَّ ۝ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ۝ إِنَّهُمْ هُمُ  
 الْكَافِرُونَ ۝ قَتَلَ كَمُؤْتِي الْأَرْضِ عَدُوَّ سَيْنَ ۝  
 قَالُوا لَيْسَ آلَؤُمًا أَذِيْعُضُّ وَهُمْ قَتَلُوا الْعَادُونَ ۝ قُلْ إِنْ لَيْتُمْ  
 إِلَّا قَلِيلًا لَأَوَازِكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ أَعْيَبْتُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝  
 عَسَى أَنْ تُكَلَّفُوا أَنْ لَا تُحْسِنُوا ۝ فَعَلَى اللَّهِ الْكَلَامُ ۝  
 لَا إِلَهَ إِلَّا الْهُدُورُ الْعَرِيسُ الْكَرِيمُ ۝ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ  
 مَخْرَجًا ۝ وَلَهُنَّ أَجْرٌ ۝ وَأَمَّا حَسْبُهُمْ رَيْبُؤُهُمْ أَنْ لَا يُفْعِلُ  
 الْكَافِرُونَ ۝ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٣٤٩

قليلًا ﴿ سواء عيشتم عدده، أم لا ﴾ ﴿ لو  
أنكم كنتم تعلمون ﴾ .

﴿١١٥-١١٦﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿أَيُّهَا الْخَلْقُ﴾ ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ ﴿أَيُّ سِدَىٰ وَبَاطِلًا، تَأْكُلُونَ وَتَشْرَبُونَ وَتَمْرَحُونَ، وَتَتَمَتَّعُونَ بِلَذَاتِ الدُّنْيَا، وَتَتْرَكُكُمْ لَا نَأْمُرُكُمْ، وَلَا [لَا] نَنْهَاكُمْ وَلَا نُنشِئُكُمْ، وَنَعَاقِبُكُمْ؟ وَلِهَذَا قَالَ﴾ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ لَا يَخْطُرُ هَذَا بِأَلْبَابِكُمْ، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ ﴿أَيُّ تَعَاظُمَ وَارْتَفَعَ عَنْ هَذَا الظَّنَّ الْبَاطِلَ، الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى الْقَدَحِ فِي حِكْمَتِهِ﴾ ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فَكُونَهُ مَلِكًا لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ حَقًّا، فِي صَدَقَةٍ، وَوَعْدَةٍ، وَوَعِيدَةٍ، مَأْلُوهَا مَعْبُودًا، لِمَا لَهُ مِنَ الْكَمَالِ ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فَمَا دُونَهُ مِنْ بَابِ أُولَى، يَمْتَنِعُ أَنْ يَخْلُقَكُمْ عَبَثًا.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿وَمَنْ يَدْعُ  
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا  
حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
الْكَافِرُونَ﴾ \* وَقُلْ رَبِّ اغْضُرْ وَارْحَمِ  
وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَى: وَمَنْ دَعَا

صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنثى زانية، تناسب حالة حالها، أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله، والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه، مع تحريم الله لذلك، لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والنكاح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً، لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقترانات والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي: قرنأهم، فحرم الله ذلك، لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، والحاق الأولاد، الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم<sup>(١)</sup>، وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم المدح، الذي هو الإيمان المطلق.

﴿٤ - ٥﴾ ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴿لما عظم تعالى أمر

رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وفرضناها﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أحكاماً جلية، وأوامر وزواجر، وحكماً عظيمة ﴿لعلمكم تذكرون﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿٢ - ٣﴾ ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾.

هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مئة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهما، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فتحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليستهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص، والله أعلم.

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ هذا بيان لرديلة الزنا، وأنه يندنس عرض



مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر، ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿وقل﴾ داعياً لربك مخلصاً له الدين ﴿رب اغفر﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير.

﴿وأنت خير الراحمين﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبد من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين،  
من فضل الله وإحسانه

### تفسير سورة النور وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ أي: هذه ﴿سورة﴾ عظيمة القدر ﴿أنزلناها﴾

الزاني<sup>(١)</sup> بوجوب جلده، وكذا رجمه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا فقال: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾** أي: النساء الأحرار العفائف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرَّمْي الرَّمْيُ بالزنا، بدليل السياق، **﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾** على ما رموا به **﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ﴾** أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً، **﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾** بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإتلاف، وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقتوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير.

**﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾** أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حُدَّ على القذف، حتى يتوب كما يأتي، **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثُر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، وعجبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

وقوله: **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** فالتوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه، أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء، فإذا تاب القاذف وأصلح عمله بدل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح، فإن الله غفور رحيم يغفر

الذنوب جميعاً، لمن تاب وأناب، وإنما يجلد القاذف، إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً، فإن كان زوجاً، فقد ذكر بقوله:

**﴿٦- ١٠﴾** **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين \* ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين \* والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين \* ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم

وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دائرة عنه الحد، لأن الغالب، أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يدنس ما يندسها إلا إذا كان صادقاً، ولأن له في ذلك حقاً، وخوفاً من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره فقال: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾** أي: الحرائر<sup>(٢)</sup> لا المملوكات.

**﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾** على رميهم بذلك **﴿شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾** بأن لم يقيموا شهداء، على ما رموه به **﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** سماها شهادة، لأنها نائبة مناب الشهود، بأن يقول: «أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به».

**﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾** أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات، بأن يدعو على نفسه، باللعة إن كان كاذباً، فإذا تم لعانه، سقط عنه حد القذف، ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعاً لها. وهل يقام عليها الحد، بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل، أنه يقام عليها الحد، بدليل قوله: **﴿وَيُدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ**

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُنْ بَلًا مَكْرَهاً لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠ ١١ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَظَنَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِنَّ حَرِيصَاتٍ قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ١٢ وَلَئِنْ جَاءَ وَعْدُ رَبِّكُمْ شَيْءٌ فَلَأَتَاُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٣ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَكْتُمْ فِي مَا أَفْسَقْتُمْ فِيهِ وَبَلَغْتُمْ فِيهِ عِشْرِينَ مِائَةً وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُمْ وَعَدِ اللَّهُ الْعَذَابَ عَظِيمٌ ١٤ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ فَلَمَّ تَاكُونَ لَأَنَّ تَكْمِلَةَ هَذَا سَبْعُ خُفٍّ هَذَا هَيِّئًا لَكُم بِهِ يَعْظَمُ أَنْ تَعُوذُوا بِاللَّهِ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ كَافِرِينَ ١٥ وَإِنَّ اللَّهَ لَكُمُ الْآيَاتُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٦ إِنَّ الَّذِينَ يُبَيِّنُ أَنْ تُشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٨ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ وَفٍ رَحِيمٌ ١٩

تشهد إلى آخره، فلو لا أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه، لم يكن لعانها درأاً له.

ويدرأ عنها، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج، بشهادات من جنسها.

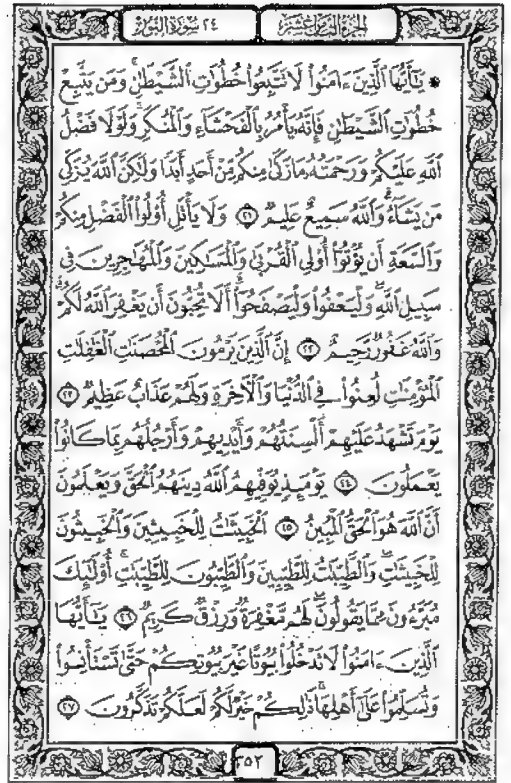
**﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾** وتزيد في الخامسة، مؤكدة لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه، وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

**﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾** وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي: لأجل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما، ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله، ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه، وأن بين

(١) في أ: الزنا، وفي ب: الكلمة مشطوبة.

(٢) في النسختين: الأحرار ولعل الصواب ما أثبت.





لكم شدة الزنا وفظاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

﴿١١ - ٢٦﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا**

بِالْإِفْكَ عَصَبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. إلى آخر الآيات وهو قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الرمي بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحيح والسنن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فأنجبت في طلبه ورحلوا جهلاً وهو دجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش زاحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل

الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ.

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكَ﴾ أي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين «عصبة منكم» أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه ولكنه اغتر بترويج المنافقين] (١) ومنهم المنافق.

﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين وتزاتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم، ففيه أن المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم، واجتماعهم على مصالحهم، كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد، أن يقدح في أخيه المؤمن، الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحه. **﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾** وهذا وعيد للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا

من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، «والذي تولى كبره» أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول - لعنه الله - «له عذاب عظيم» ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، «وقالوا» بسبب ذلك الظن «سيحانك» أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبلي أصفياءك بالأمور الشنيعة، «هذا إفك مبين» أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء، وأبينها. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بَأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: هلا جاء الرامون على ما رموا به، بأربعة شهداء أي: عدول مرضيين. «فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال: «فأولئك عند الله هم الكاذبون» ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون»، وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم، «لمسكم فيما أفضتكم» أي: خضتم فيه. «من شأن الإفك عذاب عظيم» لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته، أن



شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ أي: تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل. ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم، ﴿وتحسبونه هيناً﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك، ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وهذا فيه الزجر البليغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يقيد حسبانته شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقفته مرة أخرى.

﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ أي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قلتم﴾ منكبين لذلك، معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هذا بهتان﴾ أي: كذب عظيم. ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾ أي: لنظيره، من زعمي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا ﴿إن الله نعماً يعظكم به﴾. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات. ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ المشتملة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جلياً. ﴿والله عليم﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته، أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشيع الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة.

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فلذلك علمكم، وبيّن لكم ما تجهلون.

﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ورحمته﴾ عليكم ﴿وأن الله رؤوف رحيم﴾ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليلة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي، ما لئن تحصوه، أو تعدوه.

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموماً فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: طريقه ووساوسه. وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب، واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى، أن بين الحكم، وهو: النهي عن اتباع خطوات الشيطان. والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه، من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال: ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه﴾ أي: الشيطان ﴿يأمر بالفحشاء﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب

العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. ﴿والمنكر﴾: هو ما تنكره العقول ولا تعرفه. فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك، فنهي الله عنها للعباد، نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم، أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى سوء أمارته به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلى وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتركى منكم من تركى.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»، ولهذا قال: ﴿ولكن الله يزكى من يشاء﴾ من يعلم منه أن يزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿والله سميع عليم﴾.

﴿ولا يأتل﴾ أي: لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسعة﴾ أن يؤثروا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ﴿كان من جملة الخائضين في الإفك﴾ مسطح بن أثاثه وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال.

فنزلت هذه الآية، ينهاهم<sup>(١)</sup> عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعده بمغفرة الله إن غفر له، فقال:

(١) كذا في النسختين.

حيث قال «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، «وتسلموا على أهلها» وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أدخل»؟

«ذلكم» أي: الاستئذان المذكور «خير لكم لعلكم تذكرون» لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

«فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا» أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبير والاشمئزاز من هذه الحال، «هو أركى لكم» أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميتكم بالحسنات. «والله بما تعملون عليم» فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

«ليس عليكم جناح» أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم،

للخبثات» أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبث، وموافق له، ومقترب به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترب به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء - خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي؟! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، خبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لبطل مقالا، ولا لشك وشبهة مجالا، فقال: «أولئك مبرؤون مما يقولون» والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً «لهم مغفرة» تستغرق الذنوب «ورزق كريم» في الجنة صادر من الرب الكريم.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ «يا أيها الذين آمنوا

لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون» فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أركى لكم والله بما تعملون عليم» ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ،

«ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» إذا عاملتم عبيده، بالعمو والصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية -: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: «إن الذين يرمون المحصنات» أي: العفاف عن الفجور «الغافلات» التي لم يخطر ذلك بقلوبهن «المؤمنات» «لعنوا في الدنيا والآخرة» واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين «ولهم عذاب عظيم» وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة عقوبته.

وذلك العذاب يوم القيامة «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم، «يومئذ يوفيه الله دينهم الحق» أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً» ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون أنحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعدته ووعيده، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا ثم حق، إلا في الله وما من الله.

«الخبثات للخبثين والخبثون

وفيه حرج ﴿أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ وهذا من احترازا للقرآن العجيب، فإن قوله: ﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها ساكن، فأسقط الخرج في الدخول إليها، ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ أحوالكم الظاهرة والخفية، وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية.

﴿٣٠﴾ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خير بما يصنعون﴾ أي: أزكى المؤمنين، وقل لهم: الذين معهم إيمان، يمنهم من وقوع ما يخل بالإيمان: ﴿يغضوا من أبصارهم﴾ عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبية، وإلى المردان، الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور.

﴿ويحفظوا فروجهم﴾ عن الوطء الحرام، في قبل أو ذبر، أو مادون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها. ﴿ذلك﴾ الحفظ للأبصار والفروج ﴿أزكى لهم﴾: أظهر وأطيب، وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذي تطلع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه، ومن غص بصره عن المحرم، أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظاً، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما، أوقعا في

بلايا ومحن، وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً، لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يغضوا من أبصارهم﴾ أتى بأداة «من» الدالة على التبعض، فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة، كنظر الشاهد والعامل والمخاطب، ونحو ذلك. ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿٣١﴾ ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناءهن أو إخواتهن أو بني إخوانهن أو بناتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ لما أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج، أمر المؤمنات بذلك، فقال: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ عن النظر إلى العورات والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع، ﴿ويحفظن فروجهن﴾ من التمكين من جماعها، أو مسها، أو النظر المحرم إليها. ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ كالثياب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة، لا بد لها منها، قال: ﴿إلا ما ظهر منها﴾ أي: الثياب الظاهرة، التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ وهذا لكمال الاستتار، وبدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبدائها، يدخل فيها جميع البدن، كما ذكرنا. ثم كرر النهي عن إبداء زينتهن، ليستثني منه قوله: ﴿إلا لبعولتهن﴾ أي: أزواجهن ﴿أو

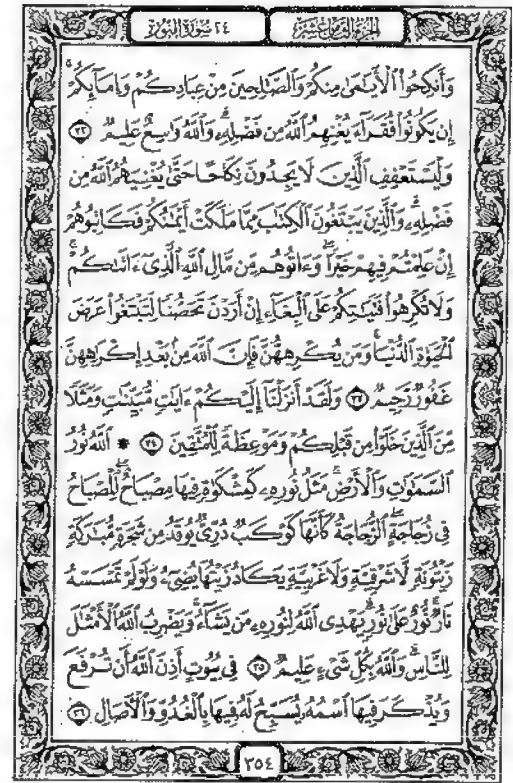
﴿فإن لم تجدوا فيها حكماً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم أنرجعوا فأرجعوا هو أذن لكم﴾ والله بما تعملون عليه. ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون. ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خير بما يصنعون﴾ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناءهن أو إخواتهن أو بني إخوانهن أو بناتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾

آبائهن أو آباء بعولتهن﴾ يشمل الأب بنفسه، والجد وإن علا، ﴿أو آبائهن أو أبناء بعولتهن﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا ﴿أو إخوانهن أو بني إخوانهن﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم. ﴿أو بني أخواتهن أو نسائهن﴾ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقاً، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية، أي: النساء المسلمات، اللاتي من جنسكم، ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذمية.

﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ فيجوز للمملوك إذا كان كله للأثني، أن ينظر لسيدته، ما دامت مالكة له كله، فإن زال الملك أو بعضه، لم يحز النظر.

﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ أي: أو الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم، من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة، كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنيد الذي لم يبق له شهوة، لا في قرجه، ولا في قلبه، فإن هذا لا محذور من نظره.

﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ أي: الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء



الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد ودل هذا، أن المميز تستتر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حلي، كخلائل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة، فقال:

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ لأن المؤمن يدعو إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾ فلا سبيل إلى

الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى: ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وتوبوا إلى الله﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكثرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياذ، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى وهم: من لا أزواج لهم، من رجال، ونساء ثيب، وأبكار، فيجب على القريب وولي التيمم، أن يزوج من يحتاج للزواج، ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى.

﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفساد بالزنا، منهى عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصلاح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد

عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للزواج المحتاجون إليه<sup>(١)</sup>، من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه، قبل حاجته إلى الزواج. ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إن يكونوا فقراء﴾ أي: الأزواج والمتزوجين ﴿يغنهم الله من فضله﴾ فلا يمنعكم ما تنهون، من أنه إذا تزوج، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على الزواج، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿والله واسع﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عليم﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، بمن لا يستحق، فيعطي كلاً ما علمه واقتضاه حكمه.

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الذين لا يجدون نكاحاً﴾ أي: لا يقدرُونَ نكاحاً، إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم [وليس لهم]<sup>(٢)</sup>، من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير، أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح»، وجعلوا المضاف إليه نائباً مضاف المضاف، فإن في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف.

والثاني: كون المعنى قاصراً على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا. ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ وعد

(١) في النسختين: الصالحين للزواج المحتاجين إليه.

(٢) زيادة من ب بخط مغاير، وقد حذف بعدها حرف (من).

للمستعفف أن الله سيغنيه وييسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لئلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه، ﴿إن علمتم فيهم﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خيراً﴾ أي: قدرة على التكسب، وصلاً في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه. وربما جد واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعاونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿من مال الله الذي آتاكم﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا لعباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يبتدئ بكتابته، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس، ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر

بكتابته، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾ أي: إماءكم ﴿على البغاء﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إن أردن تحصناً﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصناً فإنها تكون بغياً، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهى لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيراً منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض ثم يزول.

فكسبكم النزاهة، والنظافة، والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ فليتب إلى الله، وليقبل عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ هذا تعظيم وتقدير لهذه الآيات، التي تلاها على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مينات﴾ أي: واضحات الدلالة، على كل أمر تحتاجون إليه، من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة، ﴿و﴾ أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم تعتبرونه مثلاً ومعتبراً، لمن فعل

مثل أفعالهم أن يجازى مثل ما جوزوا. ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿٣٥﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ الحسي والمعنوي، وذلك نه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لطفه، لأحرقت سيجات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكبرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره فثم الظلمة والخصر، ﴿مثل نوره﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والنور في قلوب المؤمنين، ﴿كمشكاة﴾ أي: كوة ﴿فيها مصباح﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿المصباح في زجاجة الزجاجة﴾ من صفاتها وبهاؤها ﴿كأنها كوكب دري﴾ أي: مضيء إضاءة الدر. ﴿يوقد﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة البدرية ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي تارة من أنور ما يكون، ﴿لا شرقية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿ولا غربية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس [أولاً] (١) النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام،

(١) في النسختين آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبتته، ثم إن الكلمة معدلة من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.



لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن تجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيباً وترهيباً - فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالشواوب لا يكون إلا على العمل الحسن، كقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عَد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جداً.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهَا حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴿هَذَانِ مَثَلَانِ، ضَرَبَهُمَا اللَّهُ لِأَعْمَالِ الْكَافَرِ فِي بَطْلَانِهَا وَذَهَابِهَا سَدًى وَتَحْسَرِ عَامِلِيهَا مِنْهَا

بالغدو والأصال \* رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار \* ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب.

أي: يتعبد لله ﴿فِي بَيُوتٍ﴾ عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. ﴿أُذُنَ اللَّهِ﴾ أي: أمر ووصى ﴿أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها، بناؤها، وكسبها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المخائين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

﴿وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، وتفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين. ثم مدح تعالى عمارتها بالعبادة فقال: ﴿يَسْبَحُ لَهُ﴾ إخلاصاً ﴿بِالْغَدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ آخره ﴿رِجَالٌ﴾. خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادها عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها لله، رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، ﴿لَا تَلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام،

تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع له نور القطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك، قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علماً واضحاً، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء، فَلَتَعْلَمُوا أَنَّ ضَرْبَهُ الْأَمْثَالِ، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فَلْيَكُنْ اشْتَغَالُكُمْ بِتَدَبُّرِهَا وَتَعَقُّلِهَا، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها منها بها فقال:

﴿٣٦ - ٣٨﴾ ﴿فِي بُيُوتٍ أُذُنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمَهُ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا

فقال: ﴿والذين كفروا﴾ برهم وكذبوا رسله ﴿أعمالهم كسراب بقيعة﴾ أي: بقاع، لا شجر فيه ولا نبت.

﴿يحسبه الظمان ماء﴾ شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حساب باطل، فيقصده ليزيل ظمأه، ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، تَرَى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور، أعمالاً نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها، ويحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها بل مضطراً إليها، كاحتياج الظمان للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وجد الله عنده فوفاه حسابه﴾. لم يخف عليه من عمله تقير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً، ﴿والله سريع الحساب﴾ فلا يستبطن الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقيعة، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني، لبطلان أعمال الكفار ﴿كظلمات في بحر لجي﴾ بعيد قعرة، طويل مداه ﴿ينفash موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾ ظلمة البحر اللجي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك، ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جداً، بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ مع قربها إليه، فكيف بغيرها، كذلك الكفار، تراكمت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة، التي لا خير

فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك، ظلمة الجهل، وفوق ذلك، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره، ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ لأن نفسه ظلمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور، إلا ما أعطها مولاه، ومنحها ربها. يحتمل أن هذين المثالين، لأعمال جميع الكفار، كل منهما، منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال، لطائفة وفرقة. فالأول، للمتبعين، والثاني، للتابعين، والله أعلم.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾ \* والله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير ﴿ينبه تعالى عباده على عظمتهم، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها فقال: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض﴾ من حيوان وجاد ﴿والطيور صافات﴾ أي: صافات أجنحتها، في جو السماء، تسبح ربها. ﴿كل﴾ من هذه المخلوقات ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالأجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها<sup>(١)</sup> شيء، وسيجزيهم بذلك، فيكون على هذا، قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

(١) في النسختين (منه).

(٢) في النسختين: خالقها، ولعل الصواب ما أثبتته.

رجال لأنهم هم جنة ولا يبع عن ذكر الله وأقارن الصلوة وأيتاء الزكاة يخافون يوماً أنقلب فيه القلوب والأفئدة ﴿ليربهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾ والله يرفق من يشاء بعز حساب ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾ والله سريع الحساب ﴿أو ظلمات في بحر لحي﴾ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ والله عليم بما يفعلون ﴿وقوله ملك السموات والأرض﴾ قال الله المصير ﴿ألم تر أن الله يربح حساباً﴾ يولف يئته ﴿يجمعهم كما شاء﴾ الآية ﴿فخرج من حلاله﴾ ويرزقهم من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأسفار ﴿يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾ يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها، إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

فلما بين عبوديتهم وافتقارهم إليه - من جهة العبادة والتوحيد - بين افتقارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال:

﴿والله ملك السماوات والأرض﴾ خالقهما<sup>(٣)</sup> ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [والقدرى]<sup>(٤)</sup>، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، بدليل قوله: ﴿والى الله المصير﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، لينجز بهم بأعمالهم.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿ألم تر أن الله يربح حساباً﴾ ثم يولف بينه ثم يجعله ركاباً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأسفار \* يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي

(٤) زيادة من هامش: ب.

والهتدي من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كُمل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿ليهلك﴾ بعد ذلك ﴿من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، ﴿والله يهدي من يشاء﴾ من سبقت لهم سابقة الحسن، وقدم الصدق، ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإشاره والعمل به. عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممثنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.

﴿٤٧ - ٥٠﴾ ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون \* وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين \* أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴿يخبر تعالى عن حالة الظالمين، من في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بالسنتهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلَّى عَظِيماً، بدليل قوله: ﴿وهم معرضون﴾ فإن التولي، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تَوَلَّى عنه، وهذا التولي معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجده هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً: العبادات التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ أي: إذا صار بينهم وبين أحد

المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم.

﴿٤٥﴾ ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ ينسب عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، ﴿من ماء﴾ أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾.

فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة، حين يلحق الذكر الأنثى. والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبداً، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة، ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ كالحية ونحوها، ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالآدميين، وكثير من الطيور، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها. فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي: من المخلوقات، على ما يشاؤه من الصفات، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي: لقد رحنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات مبينات، أي: واضححات الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحموده، والمعارف الرشيدة، فاتضح بذلك السبيل، وتبين الرشيد من الغي،

يُخَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٦﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٧﴾ وَيَتَوَلَّى عَمَّا يُآمَنُ بِاللَّهِ وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ أَطْعَامًا نَتَوَلَّى فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ فِي شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَمْ يَقُولُوا نَحْنُ خَائِفُونَ ﴿٦٠﴾

الآبصار﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف ﴿يزجي﴾ أي: يسوق ﴿سحاباً﴾ قطعاً متفرقة ﴿ثم يؤلف﴾ بين تلك القطع، فيجعله سحاباً مترامكماً، مثل الجبال.

﴿فتسرى الودق﴾ أي: النوايل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطاً متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتبتدق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب برداً يتلف ما يصيبه.

﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يحمد عليها، ﴿يكاد سنا بركة﴾ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته ﴿ينذهب بالآبصار﴾ أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع ويتقي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

﴿يقرب الله الليل والنهار﴾ من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، من ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويبدل الأيام بين عباده، ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية. فالبصير ينظر إلى هذه

حكومة، ودعوا إلى حكم الله ورسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع، ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى حكم الشرع ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا بمدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين، لأن العبد حقيقة، من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد على الحقيقة، قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: علة، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته، فصار بمنزلة المريض، الذي يعرض عما ينفعه، ويقبل على ما يضره، ﴿أَمْ ارْتَابُوا﴾ أي: شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق، ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وفي هذه الآيات، دليل على أن الإيمان، ليس هو مجرد القول حتى يقترب به العمل، ولهذا نفى الإيمان عما تولى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من ينقله دل على مرض في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين، فقال:

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون.

أي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجينا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً، في جميع الأحوال، فقال: ﴿وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما، ﴿وَيُخْشِ اللَّهَ﴾ أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ بترك المحظور، لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها، فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله، بترك معاصيه، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ جَعَلُوا بَيْنَ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَخَشْيَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ﴾، هم الفائزون بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة، واشتملت هذه الآية، على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى،

وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُؤْمِنُوا وَتُوقِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بِكُورَةٍ وَأُصِيلًا﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ تُخْرِجَنَّ قُلَّ لَا تَقْسَمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ إِنْ خَيْرَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قُلَّ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين، ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله، ﴿لَنْ تُخْرِجَنَّ قُلَّ لَا تَقْسَمُوا﴾ أي: لا نحتاج إلى أقسامكم ولا إلى أعتذاركم، فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة، لا تخفى علينا، قد كنا نعرف متكم الثاقل والكسل من غير عذر، فلا وجه لعذركم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك، من كان أمره محتملاً، وحاله مشبهة، فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم فكلًا ولما، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إِنْ خَيْرَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا قال:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ وسعادتكم<sup>(١)</sup>، وإن تولوا فإنما عليه ما حمل من الرسالة، وقد أداها. ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الطاعة، وقد بانث حالكم وظهرت، فإن ضلالكم وغيبكم واستحقاقكم العذاب. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إلى الصراط المستقيم،

(١) في ب: كان حظهم وسعادتهم.

قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي: تبليغكم البين الذي لا يبقى لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿٥٥﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولممکن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ هذا من أو عاده<sup>(١)</sup> الصادقة، التي شوهد تأويلها ونخبها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه

الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنتهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويُبدلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ التمكن والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا الصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك. ودلت هذه الآية، أن الله قد مكن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين \* ونمكن لهم في الأرض﴾.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وماؤاهم النار وليئس المصير ﴿يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بأركانها وشروطها وآدابها، ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذا أكبر الطاعات وأجلها، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى

العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ وذلك بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿لعلكم﴾ حين تقومون بذلك ﴿ترحمون﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتمنٍ كاذب، وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ فلا يغرك ما مُتّعوا به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أمهلهم فإنه لا يمهلهم ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿وماؤاهم النار ولبئس المصير﴾ أي: لبئس المآل، مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنهم مما يليقهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم. قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة، قيده بقوله: ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي: للقائلة، وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال، يكون المماليك والأولاد الصغار وغيرهم، لا يُمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما

(١) كذا في النسخين، ولعل الصواب: وعوده.



ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طوافون عليكم بعضكم على بعض﴾ أي: يشتردون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ بياناً مقروناً بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعه وحكمته، ولهذا قال: ﴿والله عليم حكيم﴾ له العلم المحيط بالواجبات والمستحبات والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بينها وبين ما أخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ وهو إنزال المني بقطة أو مناماً، ﴿فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم، هم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأسوا﴾ الآية.

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ ويوضحها، ويفصل أحكامها ﴿والله عليم حكيم﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير، مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم﴾ الآية، ولا يمكن ذلك، إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾.

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن

المحل والمكان، الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهى عن الاغتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط، ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقليلة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يُمكن من رؤية العورة، ولا يجوز أن تُرى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم، إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضاً، لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بين الحكم المذكور - علله بقوله: ﴿ثلاث عورات لكم﴾.

ومنها: أن الصغير والعبد، مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب لقوله: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقيء، لقوله تعالى: ﴿طوافون عليكم﴾ مع قول النبي ﷺ حين سئل عن الهرة: «إنها ليست بتنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات».

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده، من الأطفال على وجه

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْإِلْعَادُ الْعَلِيدُ ﴿٥٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسَّخِرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٠﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا الْيَوْمَ لَيَبْغِيَنَّكَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا تَفَضُّلاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلْمِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ ﴿٧٠﴾

معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: ﴿طوافون عليكم﴾.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنابت للعانة، والله أعلم.

﴿٦٠﴾ ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم﴾ والقواعد من النساء أي: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ أي: لا يطمعن في النكاح، ولا يُطمعُ فيهن، وذلك لكونها عجوزاً لا تُشتهي، أو دميمة الخلقة لا تُشتهي ولا تُشتهي<sup>(١)</sup>، ﴿فليس عليهن جناح﴾ أي: حرج وإثم ﴿أن يضعن ثيابهن﴾ أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾. فهو لاء،

(١) كذا في النسختين، ولعل في الكلام قلباً فالأقرب أن يقال: (عجوزاً لا تُشتهي ولا تُشتهي، أو دميمة الخلقة لا تُشتهي).



طيبة ﴿أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت، تحية من عند الله ﴿أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، «مباركة» لا شتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، طيبة﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال:

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، ﴿لعلمكم تعقلون﴾ عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، وتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد به العقل، وينمو به القلب، لكون معانيها أجل المعاني، وأدائها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: «أن العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ». فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو

متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿٦٢ - ٦٤﴾ ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنتكم لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴿ألا إن الله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبتهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين، أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع، أي: من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم، فالؤمن بالله ورسوله حقاً، لا يذهب لأمر من الأمور، لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان، عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين:

أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له.

والثاني: أن يشاء الإذن له فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالآذن، قال:

﴿فإذا استأذنتكم لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه﴾ ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنتكم لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله﴾ ﴿إن الله غفور رحيم﴾ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴿ألا إن الله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبتهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الدَّاعِيَ إِلَى عَدُوِّ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الدَّاعِيَ إِلَى عَدُوِّ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الدَّاعِيَ إِلَى عَدُوِّ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان، ولهذا قال: ﴿واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر.

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم ودعائكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً، حتى إنه تجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً يجب على الأمة قبول قوله والعمل به، إلا الرسول، لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحْيِيكم﴾ وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: «يا محمد» عند ندائكم، أو «يا محمد بن عبد الله» كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتمييزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله.

﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾ لما مدح المؤمنين بالله ورسوله، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه، توعد من لم

وَأَنذَرُوا مِن دُونِهِ، اللَّهُ لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُوَ يُخْلَقُ  
وَلَا يَكُونُ لَآئِهِ مِثْلٌ شَيْءٌ وَلَا يَكُونُ مِثْلًا  
لَا حِجَابٌ وَلَا نُشُورٌ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا  
إِنَّا أَفْتَرَيْنَاهُ وَأَعْلَىٰ لَدُنْهُ قَوْمٌ أَخْسَرُونَ فَقَدْ هُمُوطًا  
وَذُلًّا ۝ وَقَالُوا أَأَسْطُرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ فِي سَمَائِ  
عِلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَمِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ  
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا نَّجِيمًا  
۝ وَقَالُوا إِنَّمَا هَذَا رَسُولٌ مِّثْلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ  
كَانُوا قَبْلَهُ قُلُوا لَوْلَا أَنزَلَ إِلَهُكُمُ آيَاتًا  
مِّنَ السَّمَاءِ لَكُمُ الْفَصْلُ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ  
مِّثْلُكُمْ وَأَكْتُبُ الْبَيِّنَاتِ وَأُنذِرُ الْفَاسِقِينَ ۝  
قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَأَكْتُبُ الْبَيِّنَاتِ وَأُنذِرُ  
الْفَاسِقِينَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَأَكْتُبُ  
الْبَيِّنَاتِ وَأُنذِرُ الْفَاسِقِينَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ  
مِّثْلُكُمْ وَأَكْتُبُ الْبَيِّنَاتِ وَأُنذِرُ الْفَاسِقِينَ ۝

ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر  
العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿والله  
بكل شيء عليم﴾

### تفسير سورة الفرقان وهي مكية عند الجمهور

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى  
عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ  
مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا  
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ  
شَيْءٍ فَقَدْ رُءُوهُ تَقْدِيرًا ۝﴾ هذا بيان لعظمته  
الكاملة، وتفرد [بالوحدانية] <sup>(١)</sup> من  
كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه،  
فقال: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعظيم، وكملت  
أوصافه، وكثرت خيراته ونعمه، أن نزل هذا  
القرآن الفارق بين الحلال والحرام،  
والهدى والضلال، وأهل السعادة من  
أهل الشقاوة، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ  
الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع  
المرسلين، ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال  
للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾  
ينذرهم بأس الله ونقمة، ويبين لهم  
مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن  
من قبل نذارته وعمل بها، كان من  
الناجين في الدنيا والآخرة، الذين  
حصلت لهم السعادة الأبدية، والمملك  
السرمدية، فهل فوق هذه النعمة وهذا  
الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي  
هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيها  
وحده، وجميع من فيها ممالك وعبيد  
له، مذعنون لعظمته، خاضعون  
لربوبيته، فقراء إلى رحمته، الذي لم  
يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في  
الملك، وكيف يكون له ولد أو  
شريك، وهو المالك، وغيره مملوك،  
وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو  
الغني بذاته من جميع الوجوه،  
والمخلوقون مفتقرون إليه، فقراً ذاتياً

من جميع الوجوه!!  
وكيف يكون له شريك في الملك،  
ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا  
يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون  
إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علواً  
كبيراً، فلم يقدره حق قدره من قال فيه  
ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾  
شمل العالم العلوي، والعالم السفلي،  
من حيواناته، ونباتاته، وجماداته،  
﴿فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي: أعطى كل  
مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من  
الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك،  
بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل  
الصحيح أن يكون بخلاف شكله  
وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو  
من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير  
محل الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿سُبْحِ  
اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ  
فَسْوَى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَقَالَ  
تَعَالَى ۝ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ  
خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۝﴾ ولما بين كماله  
وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك  
مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب  
المألوه العظيم، المفرد بالإخلاص  
وحده، لا شريك له ناسب أن يذكر  
بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿٣﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً  
لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا  
يَمْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا  
يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝﴾  
أي: من أعجب العجائب، وأدل  
الدليل على سفاهتهم، ونقص عقولهم،  
بل أدل على ظلمهم وجورهم على  
ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في  
كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق  
شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما  
عملته أيديهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ  
ضُرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا قليلاً ولا  
كثيراً، لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا  
نُشُورًا﴾ أي: بعثاً بعد الموت، فأعظم  
أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها  
وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء

يفعل ذلك وذهب من غير استئذان،  
فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه  
خفي، وهو المراد بقوله: ﴿يَتَسَلَّلُونَ  
مِنْكُمْ لَئِذَا﴾ أي: يلوذون وقت  
تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن  
العيون، فإله يعلمهم، وسيجازيهم على  
ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم  
بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ  
أَمْرِ﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم  
عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم  
يذهب إلى شأن من شؤونهم!! وإنما  
ترك أمر الله من دون شغل له.

﴿أَن تَصِيبَهُم فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك وشر  
﴿أَوْ يَصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لََّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم  
بحكمه القدري، وحكمه الشرعي.  
﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: قد أحاط  
علمه بما أنتم عليه، من خير وشر،  
وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه،  
وجرى بها قلمه، وكتبته عليكم  
الحفظة الكرام الكاتبون.

﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ﴾ في يوم  
القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم  
بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها،  
إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد  
عليهم أعضاؤهم، فلا يعلمون منه  
فضلاً أو عدلاً.

(١) زيادة من هامش ب.



للخالق لسائر المخلوقات، من غير مشارك له في ذلك، الذي بيديه النفع والضرر، والعطاء والمنع، الذي يحيي ويميت، ويبعث من في القبور، ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين، دار الشقاء والخزي والنكال، لمن اتخذ معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم، لمن اتخذ وحده معبوداً.

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة، وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال:

﴿٤-٦﴾ «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً \* وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً \* قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً»

أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم، أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب، كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون.

فرد الله عليهم ذلك، بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ، وكمال صدقه، وأمانته، وبره الثام، وأنه لا يمكنه، لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن، الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجمع بأحد يعينه على ذلك، فقد جاؤوا بهذا القول ظلماً وزوراً.

ومن جملة أقاويلهم فيه، أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﷺ أساطير الأولين اكتتبها أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد، استنسخها محمد ﷺ فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً وهذا القول منهم فيه عذة عظام:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب، والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن - الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله - بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك، أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه، للمخلوق الكامل من كل وجه، بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حالته، وهم أشد الناس علماً بها، أنه لا يكتب، ولا يجمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك.

فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ أي: أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة، والجرى والسر، كقوله: ﴿وانه لتنزيل رب العالمين \* نزل به الروح الأمين \* على قلبك لتكون من المنذرين﴾.

ووجه إقامة الحجة عليهم، أن الذي أنزله، هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويتقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه، ويمكنه من رقابهم وبلادهم، فلا يمكن أحداً أن ينكر هذا القرآن، إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم، سوى الفلاسفة الدهرية.

وأيضاً، فإن ذكر علمه تعالى العام، ينههم ويحضرهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا، لرأوا فيه من علمه وأحكامه، ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة، ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم، أنه لم يدعهم وظلمهم، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة، إن هم تابوا ورجعوا، فقال: ﴿إنه كان غفوراً﴾ أي: وصفه بالمغفرة، لأهل الجرائم والذنوب، إذا فعلوا أسباب المغفرة،

إذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴿١٥﴾ وإذا ألقيوا منها مكالاً ضيقاً مقرئاً ﴿١٦﴾ دعوا هنالك ثبوراً ﴿١٧﴾ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا اليوم ثبوراً كثيراً ﴿١٨﴾ قل أن ذلك خير مما تحبذون اتخذوا من دونه آلها فويل للذين كفروا من أجل ذلك ﴿١٩﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٠﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢١﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٢﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٣﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٤﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٥﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٦﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٧﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٨﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٢٩﴾ ألم يعلموا أن الله أطلعهم على الكتاب قبل أن يزلزلوه ﴿٣٠﴾

وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها. ﴿رحيماً﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محاماً سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الرجوع إليه بعد شروده، والمقبل عليه بعد إعراضه، إلى حالة المطيعين المنيين إليه.

﴿٧-١٤﴾ «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً \* أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً \* انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً \* تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً \* بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً \* إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً \* وإذا ألقيوا منها مكالاً ضيقاً مقرئاً دعوا هنالك ثبوراً \* لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا اليوم ثبوراً كثيراً ﴿١﴾ هذا من مقالة المكذبين للرسول، التي قدحوا بها في رسالته، وهو أنهم اعترضوا بأنه: هلا كان ملكاً أو ملكاً، أو يساعده ملك، فقالوا: ﴿ما لهذا الرسول﴾ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة؟ تهكمًا منهم





واستهزاء. «يا أكل الطعام» وهذا من خصائص البشر، فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، ويمشي في الأسواق للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولا، مع أن الله قال: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق».

«لولا أنزل إليه ملك» أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه، فيكون معه نذيراً، وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوره وقدرته القيام بها.

«أو يلقي إليه كنز» أي: مال مجموع من غير تعب، «أو تكون له جنة يأكل منها» فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

«وقال الظالمون» جلهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم، «إن تبعون إلا رجلاً مسحوراً» هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن. ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: «انظر كيف ضربوا لك الأمثال» وهي: أنه هلا كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان

مسحوراً.

«فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً» قالوا أقوالاً متناقضة، كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدر في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها، يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن زدها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: «تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك» أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: «جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً» مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشئته، لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة - أعطى منها أولياءه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقترح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجراءة.

ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً، وتكذيباً بالحق، فقالوا ما بقلوبهم من ذلك، ولهذا قال: «بل كذبوا بالساعة» والمكذب المتعنت، الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلهذا قال: «وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيراً» أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها. «إذا رأيتم من مكان بعيد» أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم، «سمعوا لها تغيظاً» عليهم «وزفيراً» تعلق منه الأفتدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لها لزيادة كفرهم وشركهم.

«وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً

مقرنين» أي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتزاحم السكان، وتقرينهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس، وحسوا في أشر حبس «دعوا هنالك ثوراً» دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: «لا تدعوا اليوم ثوراً واحداً ودعوا ثوراً كثيراً» أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

«١٥ - ١٦» «قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً» لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً.

أي: قل لهم - مينا لسفاهة رأيهم، واختيارهم الضار على النافع - «أذلك» الذي وصفت لكم من العذاب «خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون» التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى، فالله قد وعده إياها، «كانت لهم جزاء» على تقواهم «ومصيراً» موثلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

«لهم فيها ما يشاؤون» أي: يطلبون، وتتعلق بهم أمانيتهم ومشيتهم، من المطاعم، والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات، والحدائق المرجحة، والفواكه التي تسر ناظرها وأكلها، من حسناتها وتنوعها، وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاؤوا يصرفونها، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل مصفى، وروائع طيبة، ومسكن

مزخرفة، وأصوات شجية، تأخذ من حسناتها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحاب، وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه، والخطوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على عمر الأوقات، وتعاقب الآثات ﴿كان﴾ دخولها والوصول إليها ﴿على ربك وعداً مسؤولاً﴾ يسأله إياها، عياده المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأبي: الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي: العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولى الألباب؟

لقد وضح الحق، واستنار السبيل، فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل، فخرجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء، وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء، ونسألك المعافاة منها.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ﴿فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أنصبرون وكان ربك بصيراً ﴿يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ويوم يحشرهم﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وما يعبدون من دون الله فيقول﴾ الله مخاطباً للمعبودين على وجه التقرير لمن عبدتهم: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا

السبيل﴾ هل أمرتموهم بعبادتهم، وزينتم لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قالوا سبحانه﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك، ﴿ما كان ينبغي لنا﴾ أي: لا يليق بنا، ولا يحسن منا، أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم، ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو، سبحانه عن ﴿أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم الآية.

وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ فلما نزهوا أنفسهم، أن يدعوا العبادة غير الله، أو يكونوا أضلواهم، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبها النفسية، ﴿حتى نسوا الذكر﴾ اشتغالا في لذات الدنيا، واكباباً على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي: بائرين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبور، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم مقتضي للهدى، وهو:

أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرؤوا منهم، قال الله توبيحاً وتقريراً للعابدين<sup>(١)</sup>: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم، وضاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب، ﴿فما تستطيعون صرفاً﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفعده، أو غير ذلك، ﴿ولا نصراً﴾ لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير. وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿ومن يظلم منكم﴾ بترك الحق ظلماً وعناداً ﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾ لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة. وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين<sup>(٢)</sup>، والرسول فتنة للفقير والفقير للغني فتنة للفقير، والخلق فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة ﴿أنصبرون﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبية، فيثيبكم مولاكم<sup>(٣)</sup>، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟

﴿وكان ربك بصيراً﴾ يعلم أحوالكم، ويصطفى من يعلمه يصلح

(٣) كذا في ب، وفي أ: مولاهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: المعاصي.

(١) في ب: للمعاندن.

منه شيء، لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿٢٥ - ٢٩﴾ «يوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً \* الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً \* ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً \* يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً \* لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً» يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: «ويوم تشق السماء بالغمام» وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتفطر له السماوات وتشق، وتنزل الملائكة كل سماء فيقفون صفّاً صفّاً، إما صفّاً واحداً محيطاً بالخلائق، وإما كل سماء، يكونون صفّاً، ثم السماء التي تليها صفّاً، وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخلق، مدعين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصاً الذي بارز مالهكة بالعظائم، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجوز، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: «وكان يوماً على الكافرين عسيراً» لصعوبته الشديدة، وتعسر أمره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل.

«يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً \* ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً».

وقوله: «الملك يومئذ» أي: يوم القيامة «الحق للرحمن» لا يبقى لأحد من المخلوقين، مُلك ولا صورة مُلك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له

الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون». ثم في القبر، حين يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبیهم ودينهم، فلا يجيبون جواباً ينجيهم، فيحلون بهم النقرة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لحزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحيث يتعوذون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

«ويقولون حجراً محجوراً» «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان».

«وقدمنا إلى ما عملوا من عمل» أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيراً وتعبوا فيها، «فجعلناه هباء منثوراً» أي: باطلاً مضمحلاً، قد خسروه وحرّموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان، وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسول، المتبع لهم فيه.

﴿٢٤﴾ «أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً» أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال «أصحاب الجنة» الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحاً، واثقوا ربهم «خير مستقراً» من أهل النار «وأحسن مقيلاً» أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتغال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقراً ومقيلاً وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر

لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿٢١ - ٢٣﴾ «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً \* يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً \* وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً» أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعدته، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

«لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو.

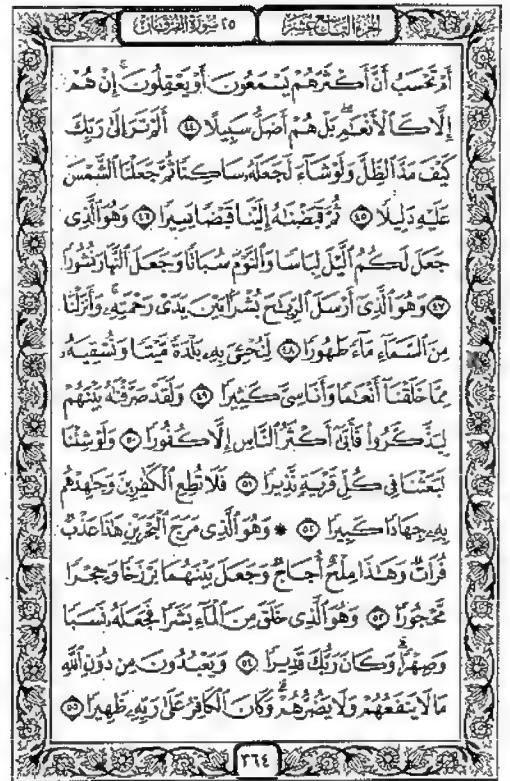
«لقد استكبروا في أنفسهم» حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروا هذه الجرأة، فمن أنتم بنا فقراء، وبنا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي: كبر أعظم من هذا؟

«وعتوا عتواً كبيراً» أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين، فلذلك لم يتجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم، وآيات الله البينات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأى: عتوا أكبر من هذا العتو؟! ولذلك، بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرّموا غاية الحرمان.

«يوم يرون الملائكة» التي اقترحوا نزولها «لا بشرى يومئذ للمجرمين» وذلك أنهم لا يرونها، مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم، إلا لعقوبتهم، وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند







ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم، يدبر أمر الخلق فكلما حدث موجب، أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلمين، من الجهمية ونحوهم، ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً.

﴿٣٤﴾ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً. يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله، وسوء مآلهم، وأنهم يحشرون على وجوههم. أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويجرونهم إلى جهنم. الجامعة لكل عذاب وعقوبة. ﴿أولئك﴾ الذين بهذه الحالة ﴿شر مكاناً﴾ ممن آمن بالله وصدق رسوله، ﴿وأضل سبيلاً﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في

الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿٣٥ - ٤٠﴾ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً \* فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً \* وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً \* وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً \* وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تبيراً \* ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً \* أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات أخر، ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قريباً منهم، ويعرفون قصصهم بما استفادوا واشتبهوا عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عياناً، كقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء، بحجارة من سجيل، يمرون عليهم مصبحين، وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شراً منهم، ورسولهم ليسوا خيراً من رسول هؤلاء. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر \* ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات، ما لا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا ارتياب.

﴿٤١ - ٤٤﴾ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا \* إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً \* رأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً \* أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم

أضل سبيلاً \* أي: وإذا رآك يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات [الله] <sup>(١)</sup>، المستكبرون في الأرض، استهزؤوا بك واحتقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار -: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، وقلبيهم الحقائق، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ فهذا الكلام، لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عناداً، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم وهماهم، ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والرزانة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم، وكل خلق فاضل، وأن المحتقر له، والشانيء له، قد جمع من السفة والجهل والضلال، والتناقض، والظلم، والعدوان، ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلاً وضلالاً، أن يقدح بهذا الرسول العظيم، والهامم الكريم.

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به، تصليبهم على باطلهم، وغروراً لضعفاء العقول <sup>(٢)</sup>، ولهذا قالوا: ﴿إن كاد﴾ هذا الرجل ليضلنا عن آلهتنا \* بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً \* لولا أن صبرنا عليها \* لأضلنا، زعموا - قبحهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك، فلماذا تواصوا بالصبر عليه... وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم.

وهنا قالوا: ﴿لولا أن صبرنا

(٢) المراد: (وتغريراً بضعفاء العقول).

(١) زيادة مني يقتضيها السياق.



عليها ﴿ والصبر يحمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع، فإنه صبر على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم. وأما المؤمنون، فهم كما قال الله عنهم: ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ولما كان هذا حكماً منهم، بأنهم المهتدون والرسول ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم، توعدهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذلك الوقت ﴿ حين يرون العذاب ﴾ يعلمون علماً حقيقياً ﴿ من ﴾ هو ﴿ أفضل سبيلاً ﴾ ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ الآيات.

وهل فوق ضلال من جعل إلهه  
معبوده [هواه] <sup>(١)</sup>، فما هويه فعله،  
فلهذا قال: ﴿أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ  
هَوَاهُ﴾ ألا تعجب من حاله، وتظنر ما  
هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه  
بالمنازل الرفيعة؟

﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ أي :  
لست عليه بمسيطر مطلق ، بل إنما  
أنت منذر ، وقد قمت بوظيفتك ،  
وحسابه على الله .

ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ ،  
بأن سلبهم الحقوق والأسماع ،  
وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة ،  
التي لا تسمع إلا دعاء ونداء ، صم  
بكم عمي فهم لا يعقلون ، بل هم  
أضل من الأنعام ، لأن الأنعام يهديها  
راعيا فتتهدي ، وتعرف طريق هلاكها  
فتجنبه ، وهي أيضاً أسلم عاقبة من  
هؤلاء ، فتبين بهذا ، أن الرامي للرسول  
بالضلال أحق بهذا الوصف ، وأن كل  
حيوان بهيم فهو أهدي منه .

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه ذليلاً﴾ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴿أي: ألم تشاهد يبصرك وبصيرتك، كمال قدرة ربك، وسعة رحمته، أنه مدَّ على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس﴾ ثم جعلنا الشمس عليه ﴿أي: على الظل

﴿دليلاً﴾ فلولا وجود الشمس، لما عرف الظل، فإن البُذ يعرف بضده. ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ فكُلما ارتفعت الشمس، تقلص الظل شيئاً فشيئاً، حتى يذهب بالكلية، فتوالي الظل والشمس على الخلق، الذي يشاهدونه عياناً، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك من أدل دليل على كمال قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود، المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام.

﴿٤٧﴾ ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً﴾ أي: من ربهته بكم ولطفه، أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه، وتهذؤوا بالنوم، وتسبت حركاتكم، أي: تنقطع عند النوم، فلولاً الليل، لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمروا أيضاً الظلام، لتعطلت عليهم معاشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشوراً ينتشرون فيه، لتجاراتهم وأستقارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿وهو الذي أرسل  
الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من  
السماء ماءً طهوراً﴾ \* لنحيي به بلدة  
ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي  
كثيراً \* ولقد صرفناه بينهم ليزكروا  
فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي: هو  
وحده الذي رحم عباده، وأدرّ عليهم  
رزقه، بأن أرسل الرياح مبشرات بين  
يدي رحمته، وهو: المطر، فثارت بها  
السحاب وتألف، وصار كسفاً،  
والقحته، وأدرته بإذن أمرها والمتصرف  
فيها، ليقع استبشار العباد بالمطر قبل  
نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم  
دفعة واحدة.

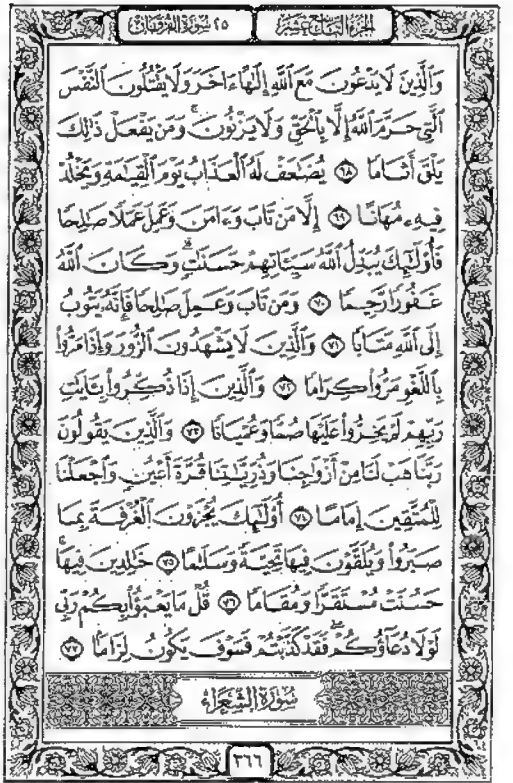
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَنْتُمْ شَاءْتُمْ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ إِلَى رَبِّهِ سُبُلًا ﴿٦﴾ وَقَدْ كُنَّا عَلَى الْغَيْبِ الْقَدِيمِ لَا نُؤْمِنُ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَكُنَّا بِبُيُوتِنَا عَابِدِينَ ﴿٧﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا لَكُمْ فِتْنَةً أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ﴿٨﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ يُظَاهَرُونَ ﴿٩﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا لَكُمْ فِتْنَةً أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ﴿١٠﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ يُظَاهَرُونَ ﴿١١﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا لَكُمْ فِتْنَةً أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ﴿١٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ يُظَاهَرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّمَا كُنَّا لَكُمْ فِتْنَةً أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ﴿١٤﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ يُظَاهَرُونَ ﴿١٥﴾

يظهر من الحدث والخبث، ويظهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته، أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتاً، فتختلف أصناف النوايت والأشجار فيها، مما يأكل الناس والأنعام. ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي: نسقيكموه، أنتم وأنعامكم، أليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهوراً مباركاً، فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وخده، ولا يشرك معه غيره؟

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة، وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه، مع ذلك أبى أكثر الخلق إلا كفوراً، لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً \* فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وأنه لو شاء لبعث في كل قرية نذيراً، أي: رسولاً ينذرهم ويحذرهم، فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد - يا محمد - أن أرسلك إلى جميعهم، أحرهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، إنسهم وجنهم، ﴿فلا تطع الكافرين﴾ في ترك شيء مما أرسلت

(١) زيادة مني يقتضيها السياق مع العلم أن كلمة هواه كتبت في ب بدلاً عن معبوده ثم شطبت.



الحق، وعبادة غيره باطلة، لقوله:

﴿٥٥﴾ «ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً» أي: يعبدون أصناماً وأموالاً، لا تضر ولا تنفع، ويعملونها أنداداً لمالك النفع والضرر والعتاء والمنع، مع أن الواجب عليهم، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذاببن عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد، أعداء لله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربها، وصار عدواً لربه، مبارزاً له في العداوة والحرب، هذا، وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بجهله - مستمر على هذه المعادة والمبارزة.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ «وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً \* قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً \* وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً \* الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً \* وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً \* يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمداً ﷺ، مسيطراً على الخلق، ولا جعله ملكاً، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله «مبشراً» يبشر من أطاع الله، بالثواب العاجل والآجل «ونذيراً» ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألهم على إيلagهم القرآن والهدى أجراً، حتى يمنعمهم ذلك من اتباعك، وتكلفون من الغرامة. «إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً» أي: إلا من شاء، أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست

أجبركم عليه، وليس أيضاً أجراً لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم، ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به، فقال: «وتوكل على الحي الذي لا يموت الحياة الكاملة المطلقة» الذي لا يموت وسبح بحمده» أي: اعبدوه وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق. «وكفى به بذنوب عباده خبيراً» يعلمها، ويجازي عليها، فأنت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله، بيد الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى» بعد ذلك «على العرش» الذي هو سقف المخلوقات، وأعلاها، وأوسعها، وأجلها «الرحمن» استوى على عرشه، الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات. فأثبت بهذه الآية، خلقه للمخلوقات، وإطلاعه على ظاهرهم وباطنهم، وعلوه فوق العرش، ومبايسته إياهم.

﴿فاسأل به خبيراً﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته، ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك، ولهذا قال: «وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن» أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم. «قالوا» جحداً وكفراً: «وما الرحمن» بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إلهاً آخر، يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك، كما قال تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيأ ما تدعوا فله الأسماء الحسنی» فأسماؤه تعالى كثيرة، لكثرة أوصافه، وتعدد كماله،

به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به. «وجاهدكم» بالقرآن «جهاداً كبيراً» أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم، ولا تترك إيلagهم لأهوائهم.

﴿٥٣﴾ «وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً» أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، «وجعل بينهما برزخاً» أي: حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما «وحجراً محجوراً» أي: حاجزاً حصيناً.

﴿٥٤﴾ «وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً» أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق آدمي، من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: «وكان ربك قديراً» ويدل على أن عبادته هي

النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله و لعباده. ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل، وإسناده لهذا الوصف، ﴿قالوا سلاماً﴾ أي: خاطبهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدح لهم، بالحلل الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والغفو عن الجاهل، ورزاقه العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ أي: يكثر من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون.

﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعداب. ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي: ملازماً لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه. ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ وهذا منهم، على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، ولتذكروا مئة الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفضاعتها، يعظم وقعها ويشد الفرح بصرفها.

﴿والذين إذا أنفقوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لم يسرفوا﴾ بأن يزيدوا على الحد، فیدخلوا في قسم التذير، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿ولم يقتصروا﴾ فیدخلوا في باب البخل والشح ﴿وكان﴾ إنفاقهم ﴿بين ذلك﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قواماً﴾ يذلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من

ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله ورد من الليل أو النهار، فمن فاته وزدّه من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويكرر، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات، تتكرر بتكرار الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبد مهمة غير همته التي كسبت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمدّه، فلولا ذلك لذوى غرس الإيمان ويبس. فلله أتم حمد وأكمل على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيريه، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات، التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال:

﴿٦٣ - ٧٧﴾ ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً﴾ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴿إلى آخر السورة الكريمة.

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربوبون مدبرون ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ وعبودية لألوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل

فكل واحد منها، دل على صفة كمال. ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي: لمجرد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، ﴿وزادهم﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نفوراً﴾ هرباً من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴿كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تبارك﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم، أنها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه. وهذه السورة، فيها من الاستدلال على عظمته، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيراته، الدينية والدنيوية، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن، فقال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ وهي: النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعلولة للحراسة، فإنها رجوم للشياطين.

﴿وجعل فيه سراجاً﴾ فيه النور والحرارة، وهو: الشمس. ﴿وقمراً منيراً﴾ فيه النور، لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمته، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنتظم، والجمال العظيم، دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع، دليل على كثرة خيراته.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، هكذا أبداً، لا يجتمعان، ولا يرتفعان، ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما

غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه.

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾ وهي نفس المسلم، والكافر المعاهد، ﴿إلا بالحق﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله. ﴿ولا يزنون﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يلقى أثاماً﴾ ثم فسر بقوله: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه﴾ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد، على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناول الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إلا من تاب﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقبل عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود، ﴿وآمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم

حسنات﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم، التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

ورود في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعدها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب، إن لي سيئات لا أراها هاهنا» والله أعلم.

﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة. ﴿رحيماً﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿ومن تاب وحصل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: فلنعلم أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فلْيُخْلِصْ فيها، وليُخْلِصْها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا، الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه فيوفيه<sup>(١)</sup> أجره، بحسب كمالها.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: البسوس والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس، المشتملة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجidal الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخله في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولية، ﴿وإذا مروا باللغو﴾ وهو الكلام الذي

لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مروا كراماً﴾ أي: نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربؤوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتمام بها، ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم أذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيمانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واعتباطاً.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿وذرياتنا قررة أعين﴾ أي: تقر بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عالمين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هب لنا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير من يتعلق بهم، وينتفع بهم.



﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والأكمل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم، ويطمأن لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون..

ومن المعلوم، أن الدعاء ببلوغ شيء، دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾. فهذا الدعاء، يستلزم من الأعمال، والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام، الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، خيراً كثيراً، وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل. ولهذا، لما كانت همهم ومطالبهم عالية، كان الجزء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ أي: المنازل الرفيعة، والمساكن الأنيفة الجامعة لكل ما يشتهي وتلذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم، نالوا ما نالوا، كما قال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ \* سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. ولهذا قال هنا: ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾ من ربهم، ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له وعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك - وإذا كانوا قتصدين في الإنفاق، الذي جرت

العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى - والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم، ورفعة أنفسهم عن كل خسيس، قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها، والتفهم لمعانيها، والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، ويستفح به من يتعلق بهم، ويستفح به المسلمون، من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك، سعيهم في تعليمهم وروعهم ونصحهم، لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه، لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصديقية.

فله، ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصنفوة، وأتقى هؤلاء السادة!!

والله، فضل الله عليهم ونعمته، ورحمته التي جلتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

والله، مئة الله على عباده، أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هياتهم، وبين لهم همهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبدلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي من عليهم وأكرمهم، الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

فألهم لك الحمد، وإليك

طسّر ١٠ تلك الكتب الذين ١١ لك بضع نفسك  
الآنكروا مؤمنين ١٢ إن شأنا نزل عليهم من السماء آية  
فقلت أعتقهم لها خضعين ١٣ وما يأتهم من ذكر من  
الرحمن محمد بن الأكواعه مخرجين ١٤ فقد كذبوا فسألتهم  
أنبؤا ما كانوا يدعون من ربهم ١٥ أو ليسوا إلى الأرض كم  
أنبؤا من قبل ربي ١٦ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم  
مؤمنين ١٧ ولما نزلت لهم الرسل من ربهم ١٨ وإن نزلت رسلهم  
أن أتت الرسل الظالمين ١٩ فمؤمنون ٢٠ قال رب  
إني لكأتأت كذابون ٢١ ويصيق صدري ولا يطلق لساني  
فأرسل إلى هرون ٢٢ ولما نزلت فأتاهم أن يقولون ٢٣  
قال كلاً فاذها بآياتنا إننا نكفر بك ٢٤ قال رب  
مؤمنون ٢٥ أن أنزل من رب العالين ٢٦ أن أنزل من ربهم  
إسراء ٢٧ قال الرسل فأتاهم فأتاهم فأتاهم فأتاهم  
٢٨ فأتاهم فأتاهم فأتاهم فأتاهم فأتاهم فأتاهم

المشكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تيسر ذلك لنا، فإننا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفه عين، وكلثنا إلى ضعف وعجز وخطيئة، فلا نشق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا، وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، وصرفت عنا من النقم، فأرحمنا رحمة تغنيها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سالك ورجاك.

ولما كان الله تعالى، قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته، واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم، أنه وأيضاً غيرهم، فلم لا يدخل في العبودية؟

فأخبر تعالى، أنه لا يبالي ولا يعبا بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ما عبأ بكم ولا أحبككم فقال: ﴿قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً﴾ أي: عذاباً يلزمكم، لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان،  
فله الحمد والثناء والشكر أبداً



حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿١٠ - ٦٨﴾ «وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين» إلى آخر القصة قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ \* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال: «وإذ ذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونبأه وأرسله، فقال:

«أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية، «قوم فرعون ألا يتقون» أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة «أَلَا تَتَّقُونَ» الله الذي خلقكم ورزقكم، فتتقون ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام، معذراً من ربه، ومبيناً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: «قال رب إني أخاف أن يكذبون \* ويضيق صدري ولا ينطلق لساني».

فقال: «رب اشرح لي صدري \* ويسر لي أمري \* واحلل عقدة من لساني» يفقها قولي \* واجعل لي وزيراً من أهلي \* هارون أخى» «فأرسل إلى هارون» فأجاب الله طلبته، ونبأ أخاه هارون كما نبأه «فأرسله معي زده» أي: معاوناً لي على أمري أن يصدقني.

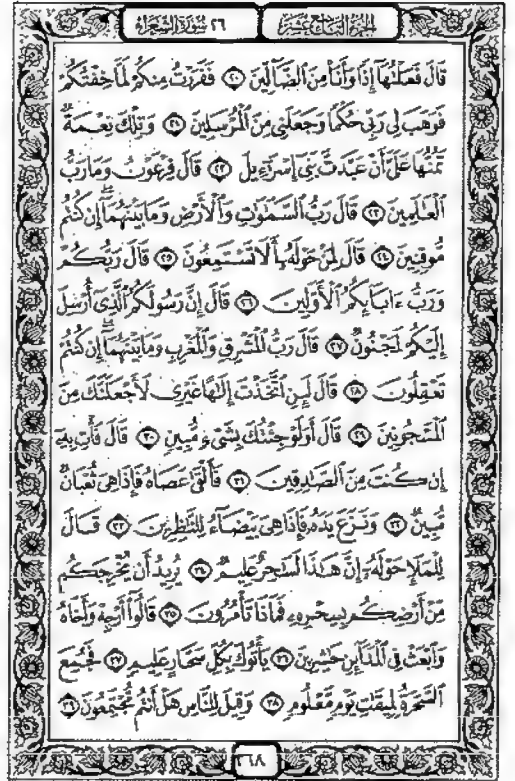
«ولهم علي ذنب» أي: في قتل القبطي «فأخاف أن يقتلون».

«قال كلا» أي: لا يتمكنون من قتلك، فإننا سنجعل لك سلطاناً، فلا يصلون إليك بآياتنا أنتم ومن اتبعكمما الغالبون. ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع متابذته له غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه، «فأذهب بآياتنا» الدالة على

«أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أدبت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليؤمنوا [بها]، فإنه كاف شاف، لمن يريد الهداية، ولهذا قال: «إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً» أي: من آيات الاقتراح، «فظلت أعناقهم» أي: أعناق المكذبين «لها خاضعين» ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا إِلَّا آيَةً».

«وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث» يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم. «إلا كانوا عنه معرضين» بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث، الذي جرت العادة، أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا، لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ، ولهذا قال: «فقد كذبوا» أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجية، لا تتغير ولا تتبدل، «فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون» أي: سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب. قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوج كَرِيمٍ» من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها، «إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ» على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها «وما كان أكثرهم مؤمنين» كما قال تعالى: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين».

«وإن ربك لهو العزيز» الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي، «الرحيم» الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل



### تفسير سورة الشعراء وهي مكية عند الجمهور

﴿١ - ٩﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم طسم \* تلك آيات الكتاب المبين \* لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين \* إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين \* وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين \* فقد كذبوا فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون \* أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم \* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك لهو العزيز الرحيم» يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعلقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ يذره الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهنّدي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: «لعلك باخع نفسك» أي: مهلكها وشاق عليها،





﴿وَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتختزوا، وتذلوا. فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته - :  
﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مَنْقَلِبُونَ﴾ \* إنا نطمح أن يغفر لنا ربنا خطايانا من الكفر والسحر وغيرهما ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه، لئن كشف الله عنهم، ليؤمنن به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون، فلما يش موسى من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿أَن أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: أخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم. ﴿إِنَّكُمْ مَتَّبِعُونَ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

ورفع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعا لقومه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَشُرْدَمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ \* وإنهم لنا لغائطون ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أبغوا منا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَافِرُونَ﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار، الذين منهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ﴾ أي: بساتين مصر

وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيتهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

﴿ومقام كريم﴾ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين، تمتعوا به دهرًا طويلاً، وقضوا بلذاته وشهوته عمراً مديداً، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد والته العظيم.

﴿كذلك وأورثناها﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، ﴿بني إسرائيل﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويدل من يشاء بمعصيته.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحقن قادرين.

﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي: رأى كل منهما صاحبه، ﴿قال أصحاب موسى﴾ شاكين لموسى وحزنين: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ف ﴿قال﴾ موسى مثبثاً لهم، وخبراً لهم بوعد ربه الصادق: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، ﴿إِن مَّعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ اثني عشر طريقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ﴾ أي: الجبل العظيم ﴿فَدَخَلَهُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ ﴿وَأَزَلَقْنَاهُمْ﴾ في ذلك المكان ﴿الْآخِرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه، قربانهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى وقومه.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد، ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً عَظِيمَةً﴾ على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع هذه الآيات المقتضية

﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ \* وأجعلني من ورثة جنّة النعيم \* وأغفر لى الله كان من الصّالين \* ولا تخزني يوم تبعثون \* يوم لا تنفع مال ولا بنون \* إلا من آمن أن الله يقبل سليم \* وألقى النجاة للفقير \* ونزلت المحجّم لقارون \* وقيل للملوك ما كنتم تعتدون \* من دوت الله هل يضرونكم أو ينصرون \* فليكنوا فيها غرّاً والقارون \* وشقوا ليلهم آمنون \* فأروهم فيها خصمون \* فأنه إن كنا لفي حلكم حين \* إذ شقوكم رب العالمين \* وما أضلنا آل الجرمون \* فالتأمين شقيعين \* ولا يصيب حميم \* فلو أن لنا كرة ففكروا من المؤمنين \* إن في ذلك لآية وما كانت آية تفر مؤمنين \* وإن ذلك هو العزيز الرحيم \* كتب قوم من الرسل \* إذ قال لهم أخوهم نوح أن لا تكونوا زكراً لعلكم ترحمون \* فأتوا الله وأطيعوه \* وما أنتم لذكر عليه من آيات أخرى إلا على رب العالدين \* فأتوا الله وأطيعوه \* قالوا أوؤمن لك واتبك الأوثان \* ﴿

للإيمان، لفساد قلوبكم، ﴿وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

﴿٦٩ - ١٠٤﴾ ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴿إلى آخر هذه القصة﴾ وإن ربك لهُوَ العزيز الرحيم ﴿أي: واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الخليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته وقومه، وعاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ قالوا: متبعين بعبادتهم: ﴿تعبد أصناماً﴾ نحتها ونعملها بأيدينا. ﴿ففظل لها عاكفين﴾ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتها، فقال لهم إبراهيم، مبيناً لعدم استحقاقها للعبادة: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟

﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمح دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها وقال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ قالوا له: ﴿لقد علمت ما





هؤلاء ينطقون \* أي : هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك، فلجؤوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا : «بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» فتبعناهم على ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم : أنتم وآباؤكم، كلكم خصوم في هذا الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

«أفرأيتم ما كنتم تعبدون \* أنتم وآباؤكم الأقدمون \* فإنهم عدو لي» فليضروني بأذى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرون.

«إلا رب العالمين \* الذي خلقني فهو يهدين» هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية، للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال : «والذي هو يطعمني ويسقيني \* وإذا مرضت فهو يشفين \* والذي يميتني ثم يحيين \* والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين»

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم، ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة،

لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى : «وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدانا الآيات».

ثم دعا عليه السلام ربه فقال : «رب هب لي حكماً» أي : علماً كثيراً، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنعام، «والحقني بالصالحين» من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

«واجعل لي لسان صدق في الآخرين» أي : اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وأحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً، معظماً مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى : «وتركنا عليه في الآخرين» \* سلام على إبراهيم \* إنا كذلك نجزي المحسنين \* إنه من عبادنا المؤمنين».

«واجعلني من ورثة جنة النعيم» أي : من أهل الجنة، التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

«واغفر لأبي إنه كان من الضالين» وهذا الدعاء، بسبب الوعد الذي قال لأبيه : «سأستغفر لك ربي إنه كان يي حفياً» قال تعالى : «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم» «ولا تخزي يوم يبعثون» أي : بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي «لا ينفع» فيه «مال ولا بنون» \* إلا من أتى الله بقلب سليم» فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجوه من العقاب، ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم، معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم

من سلامته مما ذكر، اتصافه بأضدادها، من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبه تابعة لمحبة الله، وهواه تبعاً لما جاء عن الله، ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم، وما فيه من الثواب والعقاب فقال : «وأزلفت الجنة» أي : قربت «للمتقين» بهم، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه.

«وبرزت الجحيم» أي : برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، «للعاوين» الذين أوضاعوا في معاصي الله، وتجروا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاءوهم به من الحق «وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون \* من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون» بأنفسهم أي : فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. «فككبوا فيها» أي : ألقوا في النار «هم» أي : ما كانوا يعبدون، «والغاوون» العابدون لها، «وجنود إبليس أجمعون» من الإنس والجن، الذين أرهم إلى المعاصي أزاً، وتسلب عليهم بشرتهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعاة، والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته، ومجيب لهم ومقلد لهم على شركهم.

«قالوا» أي : جنود إبليس الغاوون، لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها : «تالله إن كنا لفي ضلال مبين \* إذ نسويكم برب العالمين» في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حيثئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسووه برب العالمين، إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم : «رب العالمين» إثم مقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم.

«وما أضلنا» عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي



والفسق، ﴿إلا المجرمون﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، ﴿فما لنا﴾ حيثئذ ﴿من شافعين﴾ يشفعون لنا، لينقذونا<sup>(١)</sup> من عذابه، ﴿ولا صديق حميم﴾ أي: قريب مصاف، ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا، فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها ﴿فنكون من المؤمنين﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيهات هيهات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون.

﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿آية﴾ لكم ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع نزول الآيات.

﴿١٠٥ - ١٢٢﴾ كذبت قوم نوح المرسلين ﴿إلى آخر القصة﴾. يذكر تعالى، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ جميعهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم، تكذيب بجميع ما جاؤوا به من الحق، كذبوه ﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب ﴿نوح﴾ وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشمئزوا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بالطف خطاب - كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم - ﴿ألا تتقون﴾ الله تعالى، فتركوا ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصهم بهذا

الرسول الكريم، وكونه أميناً، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فأتقوا الله وأطيعون﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم، أميناً، فلذلك رتب به بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ فتكلفون من المغمم الثقيل، ﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾ أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل، وأما أنتم فمئيتي، ومنتهى إرادتي منكم، النصح لكم وسلوكم الصراط المستقيم.

﴿فأتقوا الله وأطيعون﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ وقال: ﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ فلم يزد دعائي إلا فراراً ﴿الآيات﴾ فقالوا رداً لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأرذلهم وسقطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - بين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك، ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل، من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، بقطع

إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠٥﴾ وَمَنْ عَنِ الْمُدَّيْنِ ﴿١٠٦﴾ فَكَذَّبُوا فَأَهْلَكْتُمْ مِثْلَهُنَّ وَلَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ آلِيكَ وَمَا كَانَ أَكْثَرُ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ وَإِنْ رَيْدَكَ لَهْوُ الْعَرَبِ الرَّجِيمِ ﴿١٠٨﴾ كَذَّبْتَ مُؤَدِّكَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ إِنْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ الْأَتَقُونَ ﴿١١٠﴾ إِنْ لَمْ تُؤْمَرْ لِمَنْ ﴿١١١﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا عَنِ الرَّحْمَةِ ﴿١١٣﴾ أَتَرَى لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُ الْأُمُورَ ﴿١١٤﴾ وَتَرَى جُنُودَ اللَّهِ تُجَاهِلُ الْأُمُورَ ﴿١١٥﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٦﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمَرْفُوقِ ﴿١١٧﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١١٨﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٩﴾ إِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْ آلِيكَ قَاتِلُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالَهُمْ نَأْتِي بِكَ بِتَافُوتٍ وَلَكَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَا تَسْأَلُهُمْ فِي شَيْءٍ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا عَنِ الرَّحْمَةِ ﴿١٢٢﴾ أَكْثَرُ هُمْ فُتُونًا ﴿١٢٣﴾ وَإِنْ رَيْدَكَ لَهْوُ الْعَرَبِ الرَّجِيمِ ﴿١٢٤﴾

١٢٤

النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ فبنوا على هذا الأصل، الذي كل أحد يعرف فساد ردهم دعوته - عرفنا أنهم ضالون مخطؤون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: ﴿وما علمي بما كانوا يعملون﴾ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴿أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما على التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئكم به الحق، فانقادوا له، وكل له عمله.

﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ كأنهم - قبضهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبراً وتجبراً، ليؤمنوا، فقال: ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي والفعل، كما قال تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾.

﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصيح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.





العمل، ولا يُفْتَر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ آيَةٌ﴾ ذالة على صدق  
شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان  
رد قومه عليه، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ  
مُؤْمِنِينَ﴾ مع رؤيتهم الآيات، لأنهم  
لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم ﴿وَمَا  
أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق. ﴿الرحيم﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها، جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له. ومن عزته، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته، أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿١٩٢ - ٢٠٣﴾ ﴿وإنه لتنزِيل رب العالمين﴾ \* نزل به الروح الأمين \* على قلبك لتكون من المنذرين \* بلسان عربي مبين \* وإنه لفي زبر الأولين \* أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل \* ولو نزلناه على بعض الأعجمين \* فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين \* كذلك سلكناه في قلوب المجرمين \* لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم \* فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون \* فيقولوا هل نحن منظرُونَ ﴿لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعوهم، و [ما]﴾<sup>(١)</sup> ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة.

ذكر هذا الرسول الكريم، والنبى  
المصطفى العظيم، وما جاء به من  
الكتاب، الذى فيه هداية لأولى  
الألباب، فقال: ﴿وإنه لتنزىل رب  
العالمين﴾ فالذى أنزله، فاطر الأرض  
والسماوات، المربى جميع العالم،  
العلوى والسفلى، وكما أنه رباهم  
بهديتهم لمصالح دنياههم وأبدانهم، فإنه  
يربهم أيضاً، بهديتهم لمصالح دينهم  
وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به،  
إنزال هذا الكتاب الكريم، الذى

وقد أجابت عنها الرسل بقولهم : ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ .

﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطوا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعباً عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾  
أي: قطع عذاب تستأصلنا. ﴿إِنْ كُنْتُ  
مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ كقول إخوانهم ﴿وَإِذْ  
قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ  
عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ  
أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أو أنهم طلبوا  
بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم  
تتميم مطلوب من سألها.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّي  
أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: نزول  
العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست  
أنا الذي أتى بها وأنزلها بكم، وليس  
عليّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت،  
وإنما النذي يأتي بهاري، العالم  
بأعمالكم وأحوالكم، الذي يحازيكم  
ويحاسبكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي : صار التكذيب لهم وصفاً ، والكفر لهم ديناً ، بحيث لا تفيدهم الآيات ، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب .

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾  
أظلمتهم سحابة فاجتمعوا تحتها  
مستلذين، لظلمتها غير الظليل،  
فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها  
خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار  
الشفاء والعذاب نازلين.

﴿إِنَّهٗ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾  
لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْمُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَمَا أَهْلَكَ نَارَ قَهْرِهِ إِلَّا مَا أَشْرَوْهُ ﴿٥١﴾ ذُكِّرُوا وَلَمْ يَتُوبُوا ﴿٥٢﴾ وَاللَّيْلُ يَنْسُجُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴿٥٣﴾ وَالنَّارُ تَلْقَىٰ فِيهَا الْبُحُورَ ﴿٥٤﴾ إِنَّهُمْ فِي السَّعِيرِ مُقَرَّنُونَ ﴿٥٥﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٥٧﴾ وَخُفِيفُ حِمْلِكَ لِمَنْ أَتَيْكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ عَصَاكَ هِيَ إِلَهُ لِمَنْ آمَنَ ﴿٥٩﴾ وَمُؤَكَّدٌ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحِيمُ ﴿٦٠﴾ الَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٦١﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ ﴿٦٢﴾ إِنَّهُمْ فِي السَّعِيرِ النَّارِ ﴿٦٣﴾ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ سَنَدٍ مِّنْ ذُرَى السَّيْطَانِ ﴿٦٤﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ كُلِّ آثَانٍ أَتَيْتُ بِهِ يَقُولُونَ السَّعِيرُ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَاجِدُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَصَلُوا إِلَىٰ الْوَلَدِ وَمَنَعُوا ﴿٦٩﴾ وَكَذَّبُوا عَنْ آلِهِمْ وَأَنْصَرُوا إِلَىٰ بَنَدٍ مَّا ظَلَمُوا مِنْ آلِهِمْ فَمَا لَهُمْ مِّنْ مَّغْلَبٍ ﴿٧٠﴾

ويغضبه، من الكفر والمعاصي، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعوه، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكايل والموازين، فلذلك قال لهم: ﴿أوفوا الكيل﴾ أي: أتموه وأكملوه ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان، ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي: بالميزان العادل، الذي لا يميل، ﴿واتقوا الذي خلقكم والجنة الأولى﴾ أي: الخليفة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعيم، فقابلوه بشكره.

قالوا له، مكذبين له، راؤين لقوله : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ فَأَنْتَ تَهْدِي وَتَتَكَلَّمُ كَلَامَ الْمَسْحُورِ ، الَّذِي غَايَتُهُ أَنْ لَا يَأْخُذَ بِهِ .

﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فليس  
فيك فضيلة اختصاص بها علينا، حتى  
تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من  
قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا  
الرسول بهذه الشبهة، التي لم يزالوا  
يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها،  
لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم.



طول المدة. القصد أن الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿٢٠٨ - ٢١٢﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون \* ذكرى وما كنا ظالمين \* وما تنزلت به الشياطين \* وما ينبغي لهم وما يستطيعون \* إنهم عن السمع لمعزولون﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، ويدعوهم إلى الهدى، وينبهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

﴿ذكرى﴾ لهم وإقامة حجة عليهم. ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزاهته عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وما تنزلت به الشياطين \* وما ينبغي لهم﴾ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وما يستطيعون﴾ ذلك. ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحرم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

﴿٢١٣ - ٢١٦﴾ ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين \* وأنذر عشيرتك الأقربين \* واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين \* فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ ينهى تعالى رسوله أصلاً، وأتمه أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدى، لكونه

أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض الكفر والعناد، وأمر قد توارثه الأمم المكذبة، فلهذا قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمناه في قلوب أهل الإجماع، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والتكال بهم.

﴿فيقولوا﴾ إذ ذاك: ﴿هل نحن منظرون﴾ أي: يطلبون أن يُنظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يفتر ساعة.

﴿٢٠٤ - ٢٠٧﴾ ﴿أفبعذابنا يستعجلون \* أفرايت إن متعناهم سنين \* ثم جاءهم ما كانوا يوعدون \* ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا﴾ الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به ولا يحتقر، ﴿يستعجلون﴾ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

﴿أفرايت إن متعناهم سنين﴾ أي: أفرايت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب.

ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون من اللذات والشهوات، أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت، وبطلت، واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند

اشتغالهم على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، ﴿الأمين﴾ الذي قد آمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿على قلبك﴾ يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق البغي.

﴿بلسان عربي﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعث إليهم، وبأشرف دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح. وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفارقة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أولم يكن لهم آية﴾ على صحته، وأنه من الله ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدرّون على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فقرأه﴾ عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴿يقولون﴾ ما نفقه ما يقول، ولا ندري ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان



شركاً، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار والنهي عن الشيء أمر بضده، فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفاً، ورجاء، وذلاً، وإنابة إليه في جميع الأوقات. ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له «أحسن إلى قرابتك»، فيكون هذا خصوصاً<sup>(١)</sup> دالاً على التأكيد وزيادة الحق، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعى سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يبق ﷺ من مقدوره شيئاً، من نصحتهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد. فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعة؟ [وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداينة، وقد كمل نفسه

ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحبهم، وأبذل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه، وهذا لدفع، احتراز وهم من يتوهم، أن قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

﴿٢١٧ - ٢٢٠﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الذي يراك حين تقوم ﴿وَتُقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ إنه هو السميع العليم ﴿أَعْظَمَ مُسَاعِدَ الْعَبْدِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ بِهِ، الْاعْتِمَادَ عَلَى رَبِّهِ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِمَوْلَاهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِلْقِيَامِ بِالْأُمُورِ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك. ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ وتقلب في الساجدين ﴿أَي: يَرَاكَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ، وَقَدْ قِيَامُكَ وَتَقْلِبُكَ رَاكِعًا وَسَاجِدًا خَصَّهَا بِالذِّكْرِ، لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا، وَلأنَّ مِنْ اسْتِحْضَارِهَا قُرْبَ رَبِّهِ، خُشْعَ وَذَلَّ، وَأَكْمَلَهَا، وَتَكْمِيلَهَا يَكْمَلُ سَائِرَ عَمَلِهِ، وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى جَمِيعِ أُمُورِهِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب

والشهادة. فاستحضار العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، بما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿٢٢١ - ٢٢٧﴾ ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلِ الشَّيَاطِينُ﴾ تنزل على كل أفك أثيم ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ هذا جواب لمن قال من مكذب الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان. وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ أَيِّ أَخْبَرَكُمْ الْخَبَرَ الْحَقِيقِي الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا شَبْهَةَ، عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ، أَي: بِصِفَةِ الْأَشْخَاصِ، الَّذِينَ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ. ﴿تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل، ﴿أَثِيمٌ﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟

﴿يَلْقَوْنَ﴾ عليه ﴿السَّمْعَ﴾ الذي يسترقونه من السماء، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب<sup>(٢)</sup>، فيصدق واحدة، ويكذب معها مئة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه<sup>(٣)</sup> صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.

وأما محمد ﷺ، فحالُه مبينة لهذه الأحوال أعظم مبينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال

(١) وفي ب: الخصوص.

(٢) في النسخين: كذباً.

(٣) في النسخين: هذا.

ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له.

فهل تناسب حاله حالة الشعراء، أو يقاربه؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

ولما وصف الشغراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحاً، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة  
وأثار إيمانهم، لاشتماله على مدح أهل  
الإيمان، والانتصار من أهل الشرك  
والكفر، والذَّبُّ عن دين الله، وتبيين  
العلوم النافعة، والحث على الأخلاق  
الفاضلة، فقال :

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا  
ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ  
يَنْقَلِبُونَ﴾ يتقلبون إلى موقف وحساب،  
لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا  
أحصاها، ولا حقاً إلا استوفاه.  
والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النمل  
وهي مكية

﴿١٦ - ٢٦﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ طس تلك آيات القرآن وكتاب  
مبين ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴿  
الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة  
وهم بالآخرة هم يوقنون ﴿ إن الذين  
لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم  
فهم يعمهون ﴿ أولئك الذين لهم سوء  
المذاب وهم في الآخرة هم  
الأخسرون ﴿ وإنك لتلقى القرآن من  
لدى حكيم عليم ﴿ ينهى تعالى عباده على  
عظمة القرآن ، ويشير إليه إشارة دالة  
على التعظيم ، فقال : ﴿ تلك آيات  
القرآن وكتاب مبين ﴿ أي : هي أعلى  
الآيات ، وأقوى البينات ، وأوضح

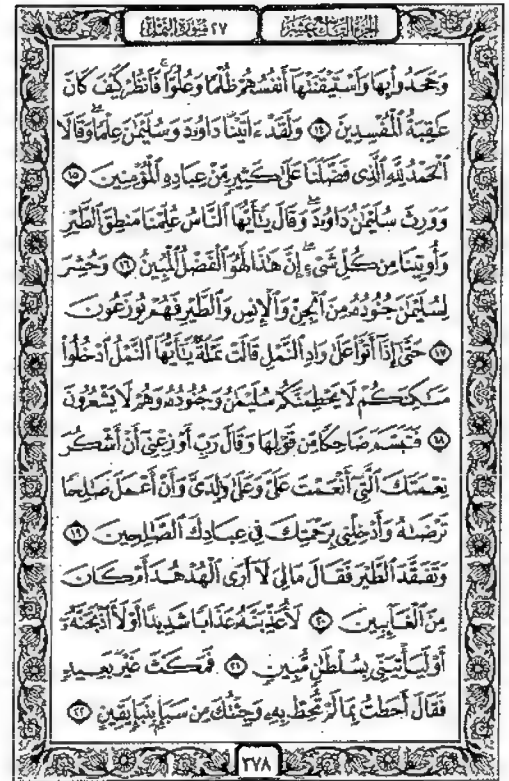
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ بِكَ إِلَهَ الْفَرُوسِ وَكَابِ عَيْنِ ① هُدًى وَنُورِ  
الْبُحُورِ ② الَّذِينَ يَصِفُونَ الصُّلُوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ  
بِالْآخِرَةِ خَرُورُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَا يَتَأَمَّلُوهُ  
أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ فِي سَمْعٍ هَوُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ  
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ خَرُورُونَ ⑤ وَأَنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ لَمَّا لَدُنَّ  
حَكِيمٍ عَلَيْهِ ⑥ إِنْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ فَأَرْسَلَكُمْ  
مِنْهَا خَيْرَ أَوْلِيَاءِكُمْ يَنْهَابُ قَبْسَ لَعَلِّكُمْ تَضِلُّونَ ⑦ فَلَمَّا  
جَاءَهَا أُولَى أَنْ يُرَكَّبَ مِنْ فِي التَّارُوتِ حَوْطًا وَشَبَحَ اللَّهُ رَبَّ  
الْعَالَمِينَ ⑧ يَدْعُو إِلَى إِيَّاهُ ⑨ اللَّهُ الْغَنِيُّ الْفَكِيرُ ⑩ وَاللَّهُ عَصَاكَ  
فَلَا رَهْ أَهَانَتْ كَأَنَّمَا حَانَ وَلَّى مَذْزَارُكَ يُعْقِبُ يَسْئَلُونَ لِيُخَفِّفَ  
إِلَى لِيَخَفَ لَدُنَّ الَّذِينَ سَلُّونَ ⑪ الْإِنَّمَا ظَلَمَ رَبُّكَ لَكَ خُسْبَاءَ مُوسَى  
فَلْيَقْضُوا تَوَجُّعَهُمْ ⑫ وَأَدْعِلْ بِكَ فِي حَيْكٍ تَخْرُجُ مِنْهُمْ مَنْ عَرَسُوا  
فِي تَبَعِ ⑬ إِلَيْكَ إِلَى رَحْمَتِهِ وَقَوْمِهِ أَفْتَرُ كَانُوا قَوْمًا فَلْيَقْضُوا  
⑭ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَلَيْتُمْ مَجْرَةً ⑮ قَالَ أَلَيْتُمْ مَجْرَةً ⑯

الدلالات، وأبينها على أجل المطالب،  
وأفضل المقاصد، وخير الأعمال،  
وأزكى الأخلاق، آيات تدل على  
الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة،  
والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق  
ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها  
للبصائر النيرة، مبلغ الشمس  
للأبصار، آيات دلت على الإيمان،  
ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت  
عن الغيوب الماضية والمستقبلية، على  
طريق ما كان ويكون. آيات دعت إلى  
معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى  
وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات  
عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى  
كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع  
هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين، ولم  
يهتد بها جميع المعاندين، صوناً لها عن  
من لا خير فيه ولا صلاح، ولا زكاء  
في قلبه، وإنما اهتمدى بها، من  
خصهم الله بالإيمان، واستنارت  
بذلك قلوبهم، وصفت سرائرهم.

فلماذا قال: ﴿هَدَىٰ وَبَشَّرِ  
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تهديهم إلى سلوك  
الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي  
أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشّرهم  
بثواب الله المرتب على الهداية لهذا  
الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو  
الإيمان، فهل يقبل من كل أحد ادّعى



أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق، فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يقيمون الصلاة﴾ فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها، وشروطها، وواجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة، وهو الخشوع الذي روحها ولبها، باستحضار قرب الله، وتدبر ما يقول المصلي ويفعله.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الواصل إلى القلب، الداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة، يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من جاء بإثباتها، ﴿زيننا لهم أعمالهم﴾ فهم يعمهون ﴿حائرين مترددين﴾ مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً، والحق باطلاً.

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي: أشده وأسوأه وأعظمه، ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعاهم إليه الرسل.

﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك وتلقفه وتلقته، ينزل من عند ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها. ﴿عليم﴾ بأسرار الأمور<sup>(١)</sup> وبواطنها، كظواهرها. وإذا كان من عند ﴿حكيم عليم﴾<sup>(٢)</sup> علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟

﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً﴾ إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه، واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إني آنست ناراً﴾ أي: أبصرت ناراً من بعيد ﴿سأتبكم منها بخبر﴾ عن الطريق، ﴿أو أتاكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ أي: تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي: ناداه الله تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك، ومن بركته، أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله. ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أي: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى ﴿إني أنا الله لا

إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ﴿العزيز﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته، أن أرسل عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه. ومن عزته، أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله، وحركاتهم وسكنهم بتدبيره.

﴿وألقي عصاك﴾ فألقاها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ وهو ذكر الحيات، سريع الحركة، ﴿ولي مدبراً ولم يعقب﴾ ذعراً من الحية التي رأى، على مقتضى الطبائع البشرية، فقال الله له: ﴿يا موسى لا تخف﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والخطوة بتكليمه.

﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون، فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

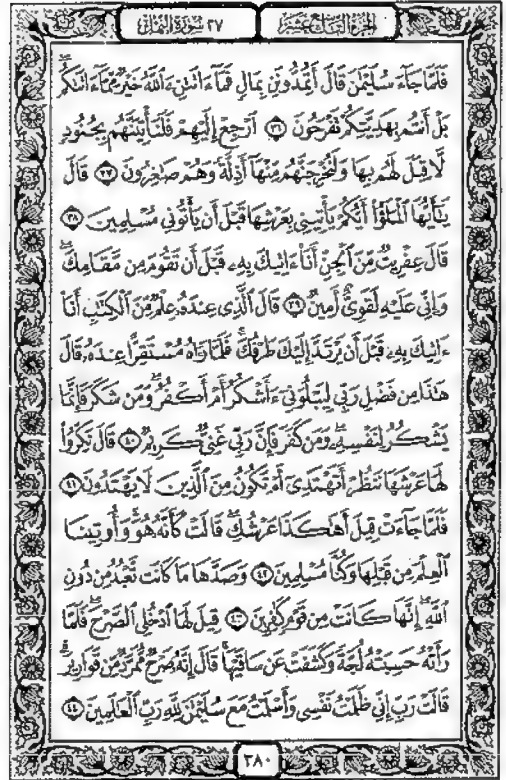
﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضاً من غير سوء﴾ لا برص ولا نقص، بل بياض يبهز الناظرين شعاعه. ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من

(١) في ب: الأحوال.

(٢) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (حكيم خير) فصحتها، وأبقيت التفسير كما هو.







قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴿ مِنْبَهَةٌ لِرَفَقَتِهَا وَبَنِي جَنَسِهَا ﴾: «يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» فنصحت هذه النملة، وأسمعت النمل، إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعاً خارقة للعادة، لأن التنبيه للنمل، الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة، من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل، ثم سرى الخبر من بعضهم لبعض حتى بلغ الجميع، وأمرتهم بالجلد، والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهم.

وعرفت حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم، أنهم إن حطموكم، فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه، «فتبسم ضاحكاً من قولها» إعجاباً منه بفصاحتها<sup>(١)</sup> ونصحها، وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول ﷺ جلُّ ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب عما يمتعجب منه، يدل على شراسة الخلق

(١) في ب: بنصح أمتها.

والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك.

وقال شاكر الله الذي أوصله إلى هذه الحال: «رب أوزعني» أي: ألهمني ووفقني «أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي» فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته، الدينية والدنيوية، عليه وعلى والديه، «وأن أعمل صالحاً ترضاه» أي: ووفقني أن أعمل صالحاً ترضاه، لكونه موافقاً لأمرك، مخلصاً فيه، سالماً من المفسدات والمنقصات، «وَادْخُلْنِي بِرَحْمَتِكَ» التي منها الجنة «فِي» جملة «عبادك الصالحين» فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها.

ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير، فقال: «وتفقد الطير» دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور، والنظر: هل هي موجودة كلها، أم مفقودة منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئاً من قال: إنه تفقد الطير، لينظر أين الهدهد منها<sup>(٢)</sup>، ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي، فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات، أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك، لذكره الله، لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي، فلو أريد هذا المعنى، لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقده قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد»، أو: «بحث عنه» ونحو

(٢) في ب: منه.

ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير، لينظر الحاضر منها والغائب، ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضاً، فإن سليمان عليه السلام، لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت، ما يخفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟!!

وهذه التفاسير التي توجد، وتشتهر بها أقوال، لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللييب القطن، يعرف أن هذا القرآن الكريم، العربي المبين، الذي خاطب الله به الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكير في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني، التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها، لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى، أو لفظاً أو معنى، ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد، أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد، يدل على كمال حزمه وتدبيره الملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير «فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين» أي: هل عدم رؤيتي إياه، لقلة فطنتي به، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟ فحينئذ تغيب عليه وتوعده، فقال:



﴿لأعذبه عذاباً شديداً﴾ دون القتل،  
﴿أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾  
أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا  
من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم  
على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل،  
لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب،  
وغيبته قد تحمل أنها لعذر واضح،  
فلذلك استثناءه، لورعه وفطنته.

﴿فمكث غير بعيد﴾ ثم جاء، وهذا  
يدل على هيبته<sup>(١)</sup> جنوده منه، وشدة  
اثمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد،  
الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على  
التخلف زمناً كثيراً، ﴿فقال﴾  
لسليمان: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾  
أي: عندي من العلم علم ما أحطت  
به، على علمك الواسع، وعلو درجتك  
فيه، ﴿وجئتك من سبأ﴾ القبيلة  
المعروفة في اليمن ﴿ببنا يقين﴾ أي:  
خير متيقن.

ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿إني  
وجدت امرأة تملكهم﴾ أي: تملك قبيلة  
سبأ، وهي امرأة، ﴿وأوتيت من كل  
شيء﴾ يؤتاه الملوك، من الأموال،  
والسلاح، والجنود، والحصون،  
والقلاع، ونحو ذلك. ﴿ولها عرش  
عظيم﴾ أي: كرسي ملكها الذي تجلس  
عليه، عرش هائل، وعظم العروش  
تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان  
وكثرة رجال الشورى.

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس  
من دون الله﴾ أي: هم مشركون  
يعبدون الشمس. ﴿وزين لهم الشيطان  
أعمالهم﴾ فرأوا ما هم عليه هو الحق،  
﴿فهم لا يهتدون﴾ لأن الذي يرى أن  
الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته  
حتى تتغير عقيدته.

ثم قال: ﴿ألا﴾ أي: هلا  
﴿يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في  
السموات والأرض﴾ أي: يعلم الخفي  
الخبئي، في أقطار السموات، وأنحاء  
الأرض، من صغار المخلوقات،  
وبذور النباتات، وخفايا الصدور،  
ويخرج خبء الأرض والسماء، بإنزال

المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء  
الأرض عند النفخ في الصور وإخراج  
الأموات من الأرض، ليجازيهم  
بأعمالهم ﴿ويعلم ما تخفون وما  
تعلنون﴾.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا تنبغي  
العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا  
له، لأنه المألوه، لما له من الصفات  
الكاملة، والنعمة الموجبة لذلك. ﴿رب  
العرش العظيم﴾ الذي هو سقف  
المخلوقات، ووسع الأرض  
والسموات، فهذا الملك عظيم  
السلطان، كبير الشأن، هو الذي يدل  
له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم  
الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ  
العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي  
عليه.

وقال مثبتاً لكمال عقله وورزنته:  
﴿سننظر أصدقت أم كنت من  
الكاذبين﴾ اذهب بكتابي هذا، وسيأتي  
نصه ﴿فألقه إليهم ثم تول عنهم﴾ أي:  
استأخر غير بعيد ﴿فانظر ماذا  
يرجعون﴾ إليك وما يراجعون به.

فذهب به فألقاه عليها، فقالت  
لقومها: ﴿إني ألقى إلي كتاب كريم﴾  
أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك  
الأرض.

ثم بينت مضمونه فقالت: ﴿إنه من  
سليمان وإنه بسم الله الرحمن  
 الرحيم﴾ ألا تعملوا علي وأتوني  
مسلمين؟ أي: لا تكونوا فوق، بل  
اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا  
لأوامري، وأقبلوا إلي مسلمين.

وهذا في غاية الوجازة مع البيان  
التام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو  
عليه، والبقاء على حالهم التي هم  
عليها، والانقياد لأمره، والدخول  
تحت طاعته، وجميعهم إليه، ودعوتهم  
إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء  
الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم  
في أول عنوان الكتاب، فمن حزمها  
وعقلها، أن جمعت كبار دولتها ورجال  
مملكها، وقالت: ﴿يا أيها الملأ أفتوني

ولقد أرسلنا آل شموذاً أخاهم صليحاً أن أعبدوا الله فإذا  
هذه قرية كان خصيصة ﴿قال﴾ وقالوا له لا تستعجلون  
بالسنة قبل الحجة ولا تستعجلوا الله لعلمكم  
تؤمنون ﴿قالوا﴾ أظننا بك ومن معك قال لهم  
عند الله أنتم قوم شقوت ﴿وكان في المدينة  
سعة﴾ نهيض يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿  
قالوا﴾ انصروا الله لئن كنتم أولي أدلة لئن كنتم  
ما شهدنا هؤلاء أهله وإن الصدوق ﴿مكروا  
مكراً ومكراً مكراً﴾ والله لا يشعرون ﴿فألق  
كيف كان عقيقه مكروهم أنما دترت لهم وقومهم  
أجمعين ﴿فقال﴾ يوشع حاكوب بما ظلموا  
إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴿وأجمعاً الذين  
أمنوا وكأولئك ﴿ولو طأ إذا قال لقومهم  
أنا أولئك الحجة وأنتم شقوت ﴿إنكم لتأولون  
الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾

في أمري﴾ أي: أخبروني، ماذا نجيبه  
به؟ وهل ندخل تحت طاعته وننقاد؟ أم  
ماذا نفعل؟ ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى  
تشهدون﴾ أي: ما كنت مستبدة بأمر  
دون رأيكم ومشورتكم.

فـ ﴿قالوا﴾ نحن أولو قوة وأولو بأس  
شديد﴾ أي: إن رددت عليه قوله، ولم  
تدخلي في طاعته، فإننا أقرباء على  
القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي،  
الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم  
أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا:  
﴿الأمر إليك﴾ أي: الرأي: ما رأيت،  
لعلمهم بعقلها وحزمها، ونصحها لهم  
﴿فانظري﴾ نظر فكر وتدبر ﴿ماذا  
تأمرين﴾.

فقالت لهم - مقنعة لهم عن رأيهم،  
ومبينة سوء مغبة القتال - ﴿إن الملوك  
إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ قتلاً،  
وأسراً، ونهباً لأموالها، وتخريباً  
لديارها، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾  
أي: جعلوا الرؤساء السادة أشراف  
الناس من الأذلين، أي: فهذا رأي:  
غير شديد، وأيضاً، فلست بمطيعه له  
قبل الاختيار وإرسال من يكشف عن  
أحواله ويتدبرها، وحيث تكون على  
بصيرة من أمرنا، فقالت: ﴿وإني  
مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع  
المرسلون﴾ منه. هل يستمر على رأيه

(١) كذا في ب، وفي أ: هيته.

\* فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَعْمَحُ جَاءَهُمُ الْوَيْلُ  
 مِنْ قَوْمِهِمْ إِنَّهُمْ أَتَمَّنُّوا أَسْمًا سَاطِعًا فِي زُرُوتِ ٥١ وَأَمَّا جِبَّتُهُ  
 وَآهْلُهُ إِلَّا أَمْسَتْ أَهْلَهُ وَقُرْهُمَا مِنَ الْعَالِيَيْنِ ٥٢ وَأَمَّا طِفْلُهُ  
 عَلَيْهِمْ مَطَرٌ فَسَاءَ مَطَرُ السُّنْدِيِّ ٥٣ فَلَمَّا أَخَذَتْهُ  
 وَسَلَّمَ عَلَى عِيَادِهِ الْبَرِّ أَصْطَفَى اللَّهُ خَيْرَ أُمَّةٍ يُرِيدُونَ  
 ٥٤ أَمَّا خَلْقُ السَّمَكَيْنِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمُ مِنَ السَّمَاءِ  
 مَاءً فَأَنْبَتَ بِهِ خَلْقًا كَذَاتِ بَهْجَةٍ فَاكُلُوا كَثْرَةً أَنْ  
 تَلْبِسُوا أَسْبَاحَهَا ٥٥ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْوُثَلِ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٥٦  
 أَمَّا جِبِلُّ الْأَرْضِ فَرَأَى وَجِبِلُّ خَلْقَهَا أَهْزَأَ وَجِبِلُّ لَمَّا  
 رَوَى وَجِبِلُّ يَنْبُكُ الْبَحْرَيْنِ حَاسِرًا ٥٧ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ  
 أَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٨ أَمَّا نُجُوبُ الْمُضْطَرُونَ ٥٩  
 دَعَا وَبُكَيْفُ الشَّوْءِ وَجِبِلُّكُمْ خَلْفَهُ الْأَرْضُ  
 ٦٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قِيلَ لَا مَانِدَ كَرُمُونَ ٦١ أَمَّا يَهْيُودِيكُمْ  
 فِي طَائِفَتَيْنِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ رُسُلُ الْيَمِينِ مُدَارِيَةً يَنْتَقِي  
 رَحْمَةً ٦٢ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ لَوْلَا أَنَّ شَرِكُونَ ٦٣

وقوله؟ أم تخدعه الهدية، وتبدل فكرته، وكف أحواله وحيوده؟

فأرسلت له هدية مع رسل من  
عقلاء قومها، وذوي الرأي: منهم،  
﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: جاءه الرسل  
بالهدية ﴿قال﴾ منكرأ عليهم ومتغيطاً  
على عدم إجابتهم: ﴿أعذونن بما ل فمأ  
آتاني الله خير مما آتاكم﴾ فليست تقع  
عندي موقعاً، ولا أفرج بها، قد  
أغناني الله عنها، وأكثر علي النعم،  
﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ لحبكم  
للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما  
أعطاني الله.

ثم أوصى الرسول من غير كتاب، لما رأى من عقله، وأنه سينقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾ أي: بهديتك ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾ أي: لا طاقة لهم ﴿ولنخرجنهم منها أدلة وهم صاغرون﴾ فرجع إليهم، وأبلغهم ما قال سليمان، وتحجروا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي: لأجل أن نتصرف فيه قبل أن يسلموا، فتكون أموالهم محترمة، ﴿قال عفريت من الجن﴾ والعفريت: هو القوى المشيط جداً:

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِينٌ﴾ وَالظَّاهِرُ أَنَّ سَلِيمَانَ إِذْ ذَاكَ فِي الشَّامِ، فَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبَأَ نَحْوَ مَسِيرَةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، شَهْرَانِ ذَهَابًا، وَشَهْرَانِ إِيَابًا، وَمَعَ ذَلِكَ، يَقُولُ هَذَا الْعَفْرِيتُ: أَنَا أَلْتَزِمُ بِالْمَجِيءِ بِهِ، عَلَى كِبَرِهِ وَثِقَلِهِ وَبُعْدِهِ، قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ. وَالْمَعْتَادُ مِنَ الْمَجَالِسِ الطَّوِيلَةِ، أَنْ تَكُونَ مَعْظَمُ الضُّحَى، نَحْوَ ثَلَاثِ يَوْمٍ، هَذَا نِهَايَةُ الْمَعْتَادِ، وَقَدْ يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ، أَوْ أَكْثَرَ، وَهَذَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، الَّذِي عِنْدَ أَحَادِ رَعِيَّتِهِ هَذِهِ الْقُوَّةُ وَالْقُدْرَةُ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هُوَ رَجُلٌ عَالِمٌ صَالِحٌ، عِنْدَ سَلِيمَانَ يُقَالُ لَهُ: «أَصْفَ بْنَ بَرْخِيَا» كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ.

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ  
طَرْفُكَ﴾ بَأَنْ يَدْعُو اللَّهَ بِذَلِكَ الْأَسْمِ،  
فِيحْضُرُ حَالًا، وَأَنَّهُ دَعَا اللَّهَ فَحْضُرَ.  
فَاللَّهُ أَعْلَمُ [هَلْ هَذَا الْمُرَادُ أَمْ أَنْ عِنْدَهُ  
عِلْمًا مِنَ الْكِتَابِ يَقْتَدِرُ بِهِ عَلَى جَلْبِ  
الْبَعِيدِ وَتَحْصِيلِ الشَّدِيدِ] <sup>(١)</sup>.

﴿فلما رآه﴾ سليمان ﴿مستقراً﴾ عنده ﴿حمد الله تعالى على إقداره﴾ وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قال﴾ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴿أي﴾: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿ومن شكر﴾ فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴿غني﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها، ثم قال لمن عنده: ﴿نكروا لها عرشها﴾ أي: غيرهه بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿ننظر﴾ نختبرين

لعقلها ﴿أتهدي﴾ للمصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.

﴿فلما جاءت﴾ قادمة على سليمان ،  
عرض عليها عرشها ، وكان عهدا به ،  
قد خلفته في بلدنا ، و ﴿قيل لها  
أهكذا عرشك﴾ أي : أنه استقر عندنا  
أن لك عرشاً عظيماً ، فهل هو كهذا  
العرش الذي أحضرناه لك ؟ ﴿قالت  
كانه هو﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها ، لم  
تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتكبير ،  
ولم تنف أنه هو ، لأنها عرفته ، فأنت  
بلفظ محتمل للأمرين ، صادق على  
الحالين ، فقال سليمان متعجباً من  
هدايتها وعقلها ، وشاكراً لله أن أعطاه  
أعظم منها : ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾  
أي : الهداية ، والعقل ، والحزم ، من  
قبل هذه الملكة ، ﴿وكننا مسلمين﴾  
وهي الهداية النافعة الأصلية .

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ :  
«وأوتينا العلم عن ملك سليمان  
وسلطانه، وزيادة اقتداره، من قبل هذه  
الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار  
العرش من المسافة البعيدة، فأذعنا له،  
وجئنا مسلمين له، خاضعين  
لسلطانه».

قال الله تعالى: ﴿وَضَعْنَهَا مَا كَانَتْ  
تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: عن الإسلام،  
والإِلا، فلها من الذكاء والفطنة ما به  
تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد  
الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّمَا  
كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فاستمرت على  
دينهم، وانفراد الواحد عن أهل  
الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله  
من ضلالهم وخطئهم، من أنذر ما  
يكون، فلهذا لا يستغرب بقاؤها على  
الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من  
سلطانته ما يبهر العقول، فأمرها أن  
تدخل الصرح، وهي المجلس المرتفع  
المتسع، وكان مجلساً من قوادر، تجري  
تحت الأنهار.

فـ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً مَاءً، لَأنَّ الْقَوَارِيرَ شَفَافَةٌ،

يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء، وكشفت عن ساقبها للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام، وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك من حالة السوء، بعد ما رأت ما رأت.

فلما استعدت للخوض قيل لها: **«إنه صرح عمرد أي: مجلس من قوارير فلا حاجة منك لكشف الساقين. فحيث لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها، و «قالت رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»**

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها، أو أكثرها، ليس كذلك، فالجزم كل الجزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفاسير، والله أعلم.

**﴿٤٥ - ٥٣﴾** ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون **﴿٥٤﴾** إلى آخر القصة. يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان، **﴿٥٥﴾** فإذا هم فريقان يختصمون **﴿٥٦﴾** منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

**﴿٥٧﴾** قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة أي: لم تبادروا فعل السيئات وتحرضون عليها، قبل فعل الحسنات، التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب

لفعل السيئات؟ **﴿٥٨﴾** لولا تستغفرون الله **﴿٥٩﴾** بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم، **﴿٦٠﴾** لعلكم ترحون **﴿٦١﴾** فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

**﴿٦٢﴾** قالوا لنبيهم صالح، مكذبين ومعارضين: **﴿٦٣﴾** اطيرنا بك وبمن معك **﴿٦٤﴾** زعموا - قبحهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سبباً لمتغ بعض مطالبهم الدنيوية، فقال لهم صالح: **﴿٦٥﴾** طائركم عند الله أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم، **﴿٦٦﴾** بل أنتم قوم تفتنون **﴿٦٧﴾** بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تقلعون وتتوبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به.

**﴿٦٨﴾** وكان في المدينة التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه **﴿٦٩﴾** تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون **﴿٧٠﴾** أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح والطعن في دينه، ودعوة قومهم إلى ذلك، كما قال تعالى: **﴿٧١﴾** فاتقوا الله وأطيعون **﴿٧٢﴾** ولا تطيعوا أمر المسرفين **﴿٧٣﴾** الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون **﴿٧٤﴾**.

فلم يزلوا بهذه الحال الشيعة، حتى إنهم من عداوتهم **﴿٧٥﴾** تقاسموا **﴿٧٦﴾** فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر: **﴿٧٧﴾** لنبيته وأهله **﴿٧٨﴾** أي: نأثيه **﴿٧٩﴾** ليلاً، هو وأهله، فلنقتلهم، **﴿٨٠﴾** ثم لنقولن لوليه **﴿٨١﴾** إذا قام علينا، وأدعى علينا أننا قتلناه، ننكر ذلك، وننفيه ونحلف **﴿٨٢﴾** إنا لصادقون **﴿٨٣﴾** فتواطؤوا على ذلك، **﴿٨٤﴾** ومكروا مكراً **﴿٨٥﴾** دبوا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى [من] قومهم، خوفاً من أوليائه، **﴿٨٦﴾** ومكروا مكراً **﴿٨٧﴾** بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين **﴿٨٨﴾** وهم لا يشعرون **﴿٨٩﴾**.

أَمِنْ يَدِ الْخَافِ قَرَيْبُهُمْ مِنْ رُزْقِ رَبِّكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ  
لَهُ اللَّهُ مَعَهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
قُلْ لَا يَأْتِيهِمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ النَّفْسُ إِلَّا بِالْإِذْنِ  
وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ  
بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عُمُونَ  
قَالَ الَّذِينَ  
كَذَّبُوا أَهْلَ تَابُوكَ كَذِبًا وَأَبْكَاءُ إِنَّا لَنَجْزِيكَ  
وَعِدَتَنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُ قَوْمٍ قَدْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا  
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُجْرِمِينَ  
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ  
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أُنْكِرْتُمْ هَذَا فَانظُرُوا  
وَأَنْ تَكُونَ لَكُمْ آيَةٌ مِمَّا تَكْفُرُونَ  
عَلَيْكُمْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الْأَنْبَاءُ  
يَقُصُّ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ يَتْلُو

**﴿٩٠﴾** فانظر كيف كان عاقبة مكرهم هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر، ولهذا قال: **﴿٩١﴾** أنادمرناهم وقومهم أجمعين **﴿٩٢﴾** أهلكناهم، واستأصلنا شأفتهم، فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم. **﴿٩٣﴾** فذلك بيوتهم خاوية **﴿٩٤﴾** قد تهدمت جدرانها على سقوفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من تازليها، **﴿٩٥﴾** بما ظلموا **﴿٩٦﴾** أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيهم في الأرض. **﴿٩٧﴾** إن في ذلك لآية لقوم يعلمون **﴿٩٨﴾** الحقائق، ويتدبرون وقائع الله، في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

ولهذا قال: **﴿٩٩﴾** وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون **﴿١٠٠﴾** أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

**﴿١٠١ - ١٠٨﴾** ولوطاً إذ قال لقوته أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون **﴿١٠٢﴾** إلى آخر القصة. أي: وأذكر عبدنا وزموتنا لوطاً، ونبأه الفاضل، حين قال

وهباته وعدله، وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين، وذلك لرفع ذكرهم، وتنويعاً بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب.

﴿الله خير أما يشركون﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: الله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم الألفاظ، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعبادها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة [ما] سواه هي الباطل، فقال:

﴿٦٠﴾ «أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون».

أي: من خلق السماوات وما فيها، من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وأنزل لكم﴾ أي: لأجلكم ﴿من السماء ماء فأنبتنا به حدائق﴾ أي:

بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتنوعها، وحسن ثمارها، ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ لولا منة الله عليكم بإنزال المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل هذه الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟ ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

﴿٦١﴾ «أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي

فكانه قيل: ما نقيمت منهم، وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج، فقالوا: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن اللواط وأدبار الذكور. فقبحهم الله، جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجهم، والبلاء موكل بالمتطهرين، فهم قالوا: ﴿أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾.

ومفهوم هذا الكلام: «وأنتم متلوثون بالخبث والقذر، المقتضي لنزول العقوبة بقريبتكم، ونجاة من خرج منها».

ولهذا قال تعالى: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاؤوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جليلة الحال، وأنهم جاؤوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمره أن يسري بأهله ليلاً، إلا امرأته فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصبّحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ميسومة عند ربك.

ولهذا قال هنا: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ أي: بشس المطر مطرهم، وبشس العذاب عذابهم، لأنهم أنذروا وخوفوا، فلم ينزجروا ولم يرتدعوا، فأجل الله بهم عقابه الشديد.

﴿٥٩﴾ «قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى إله خير أم ما يشركون﴾ أي: قل «الحمد لله الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء، لكمال أوصافه، وجيل معروفه،

وأنشدني ورحمة المؤمنين ﴿٥٨﴾ إني أنذرك بقضييتهم يحكيوه، وهو العزيز العليم ﴿٥٧﴾ فوكل على الله إني أنذرك على الحق المبين ﴿٥٦﴾ إني أنذرك بقضييتهم ﴿٥٥﴾ وما أنت بهدي العبي عن صلاتهم ﴿٥٤﴾ إن شيعهم إلا من يؤمن بإياتنا وهم مشركون ﴿٥٣﴾ ولما وقع القول عليهم أخرجناهم من أمة من آلهم من آلهم من آلهم ﴿٥٢﴾ كانوا ياتينا لا يؤفون ﴿٥١﴾ ويؤفون كل أمة فوجاءت ﴿٥٠﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٩﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٨﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٧﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٦﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٥﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٤﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٣﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٢﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤١﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤٠﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٩﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٨﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٧﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٦﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٥﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٤﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٣﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٢﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣١﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣٠﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٩﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٨﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٧﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٦﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٥﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٤﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٣﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٢﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢١﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢٠﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٩﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٨﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٧﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٦﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٥﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٤﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٣﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٢﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١١﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١٠﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٩﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٨﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٧﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٦﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٥﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٤﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٣﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿٢﴾ ياتينا لا يؤفون ﴿١﴾ ياتينا لا يؤفون

لقومه - داعياً لهم إلى الله وناصحاً - : ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الفعل الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع ﴿وأنتم تبصرون﴾ ذلك، وتعلمون قبحه، فعانذتم، واركتبتم ذلك، ظلماً منكم وجراً على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة، فقال: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال، وأدبارهم محل الغائط والنجس والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء، من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس إلى الميل إليها وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن، ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ متجاوزون لحدود الله، متجرؤون على محارمه.

﴿فما كان جواب قومه﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده. فما كان جواب قومه ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ وفسرها على هذا، فصححت الآية، وأبقيت التفسير كما هو.



وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿أي: هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي جعل الأرض قراراً﴾ يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحرث، والبناء، والذهاب، والإياب. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي: جعل في خلال الأرض، أنهاراً ينتفع بها العباد، في زرعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم.

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبالاً ترسيها وثبتتها، لثباتها، وتكون أوتاداً لها، لثباتها. ﴿وجعل بين البحرين البحر المالح والبحر العذب﴾ حاجزاً يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون بالله، تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئاً.

﴿٦٢﴾ ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمدلكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمته، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سيميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما

تذكرون﴾ أي: قليل تذكركم وتذبركم للأمور، التي إذا تذكروها اذكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما أروعيتم ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد، قبل نزول المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده، الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تعاليم وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، وابتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض، بالمطر والنبات؟ ﴿إله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حجتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له، في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدقوها بالبرهان، وإلا، فاصرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ ﴿قل لا يعلم من في

السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾ بل اذكر علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم عنها عمون ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبائنا أئنا لمخرجون﴾ لقد وعدنا هذا نحن وأبائنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بعلم غيب السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وكقوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المتفرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال:

﴿وما يشعرون﴾ أي: وما يدرون ﴿أيان يبعثون﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا، ﴿بل اذكر علمهم في الآخرة﴾ أي: بل ضعف، وقل ولم يكن يقيناً، ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهؤه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعف، وإنما هم في شك منها ﴿أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك، ﴿بل هم عنها﴾ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبائنا أئنا لمخرجون﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرتهم الضعيفة، ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي: البعث ﴿نحن وأبائنا من قبل﴾ أي:



معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لحفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها، وهو العزيز الذي قهر الخلائق فأذعنوا له، العليم بجميع الأشياء العليم بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلا بما علمه فيه.

﴿٧٩-٨١﴾ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ \* إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ \* وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً إذا ولوا مدبرين فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون

لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم بعض الذي تستعجلون من العذاب.

﴿٧٣-٧٥﴾ ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ \* وَإِنْ رَبُّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ \* وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ \* ينه عباده، على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا، فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم. ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ أي: تنطوي عليه صدورهم وما يعلنون، فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلي أو خفي، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَاقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ \* وَإِنَّهُ لَهْدِي وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقضى هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبين الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بين أن نفعه ونوره وهده، يختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدِي﴾ من الضلالة والغي والشبه ورحمة تتلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية للمؤمنين به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في

فلم يحشوا، ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأخبارهم، التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمى، ثم الإخبار بأنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه الأحوال ترجل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فحسروا دنياهم وأخراهم.

﴿٦٩﴾ ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠-٧٢﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين، وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فيهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. ويقول المكذبون بالمعاد، وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدره، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى محذراً





شيعاً أي: طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته.

﴿يستضعف طائفة منهم﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل، الذين فضّلهم الله على العالمين، الذين له أن يكرمهم ويحلّهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أرادهم فيهم، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم خوفاً من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك.

﴿إنه كان من المفسدين﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوهم. ﴿ونجعلهم أئمة﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، ﴿ونجعلهم الوارثين﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة. ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلق بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته، ﴿و﴾ كذلك نريد أن نري فرعون وهامان ووجنودهما التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا منهم أي: من هذه الطائفة المستضعفة. ﴿ما كانوا يحذرون﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محل ذلك، فكل هذا قد أَرَادَهُ اللهُ، وإذا أراد أمراً سهّل أسبابه، ونهّج طرقه، وهذا الأمر كذلك، فإنه قدّر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود، فأول ذلك، لما أوجد الله رسوله

موسى، الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة، التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

﴿فإذا خفت عليه﴾ بأن أحسست أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿فألقيه في اليم﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مخلق، ﴿ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولا.

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشائر لأم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالى حتى ﴿التقطه آل فرعون﴾ فصار من لقطهم، وهم الذين يباشروا وجدانه، ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قُبِضَ اللهُ أن يكون زعيمهم، يتربى تحت أيديهم، وعلى نظرهم، وبكفالتهم.

وعند التدبير والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع، إنه لا بد أنه يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمّة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادهم، ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض، كما سيأتي بيانه.

وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى

وَاللَّهُ أَشَدُّ وَاسْتَوَىٰ أَيْمَنُهُ وَكُنْهُ وَكَذَلِكَ يُخْرِجُ الْخَبِيرِينَ ﴿٥٥﴾ وَجَلَّ لِلْكُفْرَةِ عَلَىٰ حِينٍ عَقْلًا مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَيْنِ شَيْعَتَهُ وَهَٰذَيْنِ عَدُوَّهُ فَاسْتَعَاذَ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَانِ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٥٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَبِلْهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَيْتُكَ بِطُغْيَانٍ وَكَافُورٍ ﴿٥٨﴾ فَأَصْبَحَ فِي الدِّيَارِ حَافِيًا رَقِيبًا فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُوا بِآلِ مُوسَىٰ يُضْطَرُّونَ قَالَ الْمُسَوِّمُونَ إِنَّكَ لَتَوَسَّيْتَنِي ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَنْطَرِفَ الَّذِي هُوَ عَدُوُّهُمَا قَالَ يَمْوَسِيَّ أَرِيدُ أَنْ تُنْفِثَنِي كَمَا فُتِنْتُ نَفْسًا بَآلِ الْفِرْعَوْنَ إِنْ كُنْتُ الرَّحِيمَ ﴿٦٠﴾ أَنْ تَكُونَ جِجَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَتُكُونَ مِنَ الْمُنْصَلِحِينَ ﴿٦١﴾ وَمِمَّا رَضِيَ اللَّهُ لِي أَنَا وَاللَّيْلَةُ يَقُولُ قَالَ يَمْوَسِيَّ إِنَّكَ لَتَكُونُ لِي بِك يَوْمَ تَقُودُ فَخَرَجَ وَمَا حَافِيًا رَقِيبًا قَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ الْمُسَوِّمِينَ ﴿٦٢﴾ فَخَرَجَ وَمَا

من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: ﴿إن فرعون وهامان ووجنودهما كانوا خاطئين﴾ أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطيئهم<sup>(١)</sup> ونكيدهم جزاءً على مكرهم وكيدهم.

فلما التقطه آل فرعون، حثن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة «آسية» بنت مزاحم «وقالت» هذا الولد «قرة عين لي ولك لا تقتلوه» أي: أبقه لنا، ليقر به أعيتنا، ونستربه في حياتنا.

﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا، أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولداً لنا، ونكرمه، ونجعله.

فقدر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون، التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرة عين لها، وأحبه حباً شديداً، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونباه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات

(١) كذا في ب، وفي أ: نعاقبهما على خطيئهما.





[والمقاولات] في شأن موسى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده.

﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي: بما في قلبها ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ فثبتناها، فصبرت، ولم تبد به. ﴿لتكون﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿من المؤمنين﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه.

﴿وقالت﴾ أم موسى ﴿لأخته قصيه﴾ أي: اذهبي [فقصى الأثر عن أخيك] وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصيه [فصبرت به عن جنب وهم لا يشعرون] أي: أبصرت على وجهه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرت، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، وربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله.

ومن لطف الله بموسى وأمه، أن

منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمة به، ولعل أحداً يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال ﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾

وهذا جُلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حباً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتعلة على الترغيب في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالاته والنصح له، بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

﴿فرددناه إلى أمه﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كي تقرر عينها ولا تحزن﴾ بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه أمانة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فإذا رأوا السبب متشوشاً، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمّه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أمّاً، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحقاً.

﴿ولما بلغ أشده﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿واستوى﴾ كملت فيه تلك الأمور، ﴿أتيناه حكماً وعلماً﴾ أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً.

﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار. ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ أي: يتخاصمان ويتضاربان ﴿هذا من شيعته﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿وهذا من عدوه﴾ القبط.

﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان.

﴿فوكزه موسى﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثته الإسرائيلي، ﴿فقضى عليه﴾ أي: أمانته من تلك الوكزة، لشدها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ أي: من تزيينه ووسوسته، ﴿إنه عدو مضل مبين﴾ فلذلك أجزيت ما أجزيت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه ف ﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ خصوصاً للمخبتين، المبادرين للإتابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

ف ﴿قال﴾ موسى ﴿رب بما أنعمت عليّ بالتوبة والمغفرة والنعمة الكثيرة، فلئن أكون ظهيراً﴾ أي: معيناً ومساعداً ﴿للمجرمين﴾ أي: لا أعين أحداً على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب مئة الله عليه، أن لا يعين مجرمًا، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

﴿ف﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه ﴿أصبح في المدينة خائفاً



فلسطين، حيث لا ملك لفرعون،  
 ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء  
 السبيل﴾ أي: وسط الطريق المختصر،  
 الموصل إليها بسهولة ورفق، فهداه الله  
 سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة  
من الناس يسقون﴾ مواشيهم، وكانوا  
أهل ماشية كثيرة ﴿ووجد من دونهم﴾  
أي: من دون تلك الأمة ﴿أمرأتين  
تذودان﴾ غنمهما عن حياض الناس،  
لعيجزهما عن مزاحمة الرجال ويخلهن،  
وعلم مروءتهم عن السقى لهما.

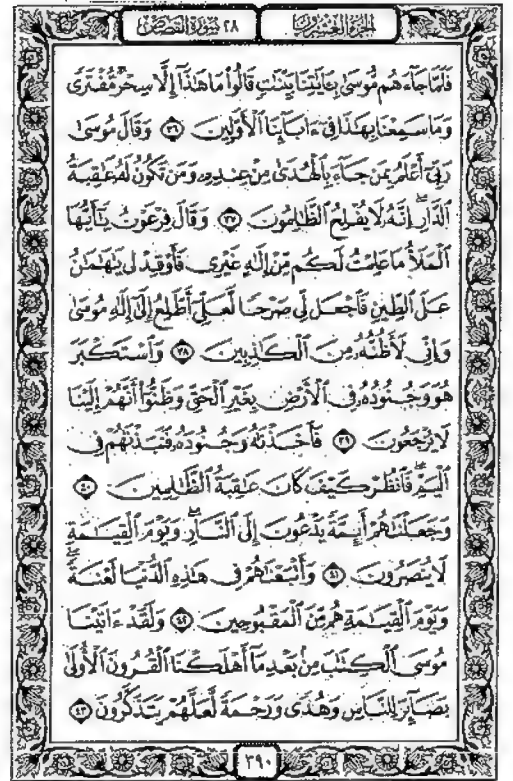
﴿قال﴾ لهما موسى ﴿ما خطبكما﴾  
أي : ما شأنكما بهذه الحالة ، ﴿قالتا﴾  
لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴿أي﴾ : قد  
جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي  
حتى يصدر الرعاء مواشيهم ، فإذا خلا  
لنا الجوسقينا ، ﴿وأبونا شيخ كبير﴾  
أي : لا قوة له على السقي ، فليس فينا  
قوة نقندر بها ، ولا لنا رجال يزاحمون  
الرعاء . فرق لهما موسى عليه السلام  
ورحمهما ﴿فسقى لهما﴾ غير طالب  
منهما الأجرة ، ولا له قصد غير  
وجه الله تعالى ، فلما سقى لهما ، وكان  
ذلك وقت شدة حر ، وسط النهار ،  
بدليل قوله : ﴿ثم تولى إلى الظل﴾  
مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب .

﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي :  
قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبي

حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما  
أوجب لها الحياء منه، ف ﴿قالت﴾ له:  
﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت  
لنا﴾ أي: لا يمين عليك، بل أنت  
الذي ابتدأنا بالإحسان، وإنما قصده  
أن يكافئك على إحسانك، فأجابها  
موسى.

﴿قَالَ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إحدى ابنتيه  
﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيراً  
عندك، يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنْ  
خَيْرٌ مِّنْ اسْتَأْجَرْتُ الْقَوِيَ الْآمِينَ﴾ أي:  
إِنْ موسى أَوْلَى مِّنْ اسْتَوْجِرَ فَإِنَّهُ جَمَعَ  
القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر،  
مِنْ جَمْعِهِمَا، أي: القوة والقدرة على ما  
استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم  
الخيانة، وهذان الوصفان، ينبغي  
اعتبارهما في كل مَنْ يتولى للإنسان  
عملاً، بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدتهما أو  
فقد إحدهما، وأما اجتماعهما، فإن  
العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك،  
لأنها شاهدت من قوة موسى عند



السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجي نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى، **﴿قال﴾** صاحب مدين لموسى: **﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني﴾** أي: تصير أجيراً عندي **﴿ثماني حجج﴾** أي: ثمان سنين. **﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾** تبرع منك، لا شيء واجب عليك. **﴿وما أريد أن أشق عليك﴾** فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعباء لا شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه **﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾** فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

**﴿قال﴾** موسى عليه السلام - عجباً له فيما طلب منه -: **﴿ذلك بيني وبينك﴾** أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك. **﴿أيمنا الأجلين قضيت فلا عدوان علي﴾** سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها **﴿والله**

على ما نقول وكيل﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه.

وهذا الرجل، أبو المراتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين.

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه!! ولو كان ذلك الرجل شعيباً، لذكره الله تعالى، ولسمته المراتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي **﴿عليه السلام﴾** (١).

**﴿فلما قضى موسى الأجل﴾** يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفائه، اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه. **﴿سار بأهله﴾** قاصداً مصر، **﴿أنس﴾** أي: أبصر **﴿من جانب الطور نارا﴾** قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون **﴿وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق﴾**.

**﴿٣٠﴾** فلما أتاها نودي **﴿يا موسى﴾** إني أنا الله رب العالمين **﴿فأخبره بالوحيته وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن**

يأمره بعبادته وتألوه، كما صرح به في الآية الأخرى **﴿فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾**. **﴿وأن ألق عصاك﴾** فآلقاها **﴿فلما رآها تهتز﴾** تسعى سعياً شديداً، ولها صورة مهيبة **﴿كأنها جان﴾** ذكر الحيات العظيم، **﴿ولي مدبراً ولم يعقب﴾** أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: **﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾** وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف.

فإن قوله: **﴿أقبل﴾** يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: **﴿ولا تخف﴾** أمر له بشئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: **﴿إنك من الأمنين﴾** فحيث أن دفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئن، واثقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون **﴿٣١﴾** أجراً له وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى فقال: **﴿اسلك يدك﴾** أي: أدخلها **﴿في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾** فسلكها وأخرجها، كما ذكره الله تعالى.

**﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾** أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف. **﴿فذا لك﴾** انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء **﴿برهانان من ربك﴾** أي: حجتان قاطعتان من الله، **﴿إلى فرعون وملته إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾** فلا يكفهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت. **﴿قال﴾** موسى عليه السلام،

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.







الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها، [ولا دنياها] (٣) ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى، وتهوينه عليها المصيبة بالشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والهم البالغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه مطمئن به نفسها، وتقر به عينها، وترداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك وبطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، و [أعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي

من هذا وصفه!! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فقبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، راحة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقاً راحة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟

### فصل في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعاب الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هيباً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى

فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر. ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بهما طلباً للحق، واتباعاً لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟

قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿فَأَتُوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبياناً، ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق (١).

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هَدًى مِنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء (٢)، فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاق.

(٣) زيادة من هامش: ب.



أمر بها، ولا يكون ذلك متافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك، اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهيب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ على وجه التقرر له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك تميمة - بل قد يكون واجباً - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له ومحذراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداها، أنه

ترتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب<sup>(١)</sup> إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يد] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله. كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على من يعرف ومن لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها، لأنه تعالى، يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسى: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾.

ومنها: أن الحياء - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق المدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيره لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل

[يعمل] للإنسان، أن يكون قوياً أميناً. ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يحسن خلقه لأجيره وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد، لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البيّنات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الفرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيّناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً، وتأصيلاً موافقاً، قصه قصاً، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذر والرسل غافلين.

فصلوات الله وسلامه، على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة، أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقته خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمه، حتى بلغ دينه مبلغ

(١) كذا في ب، وفي أ: ويذهب.

الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان.

ولم تزل الأمم المعاندة، والملوك الكفرة المتعاضدة، ترميه بقوس واحدة، وتكيد له المكائد، وتمكر لإطفائه وإخفائه، وإخماده من الأرض، وهو قد بهرهما وعلاهما، لا يزداد إلا نمواً، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكل وقت من الأوقات، يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونور وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿٥٢-٥٥﴾ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون \* وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين \* أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون \* وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين \* يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقه وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه ويؤمنون به ويقرون بأنه الحق، فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ وهم أهل التوراة، والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿هم به﴾ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يؤمنون﴾.

﴿وإذا يتلى عليهم﴾ استمعوا له وأذعنا و ﴿قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة.

وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل الصنف<sup>(١)</sup>، وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة، فضلاً عن الحجة، لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق.

قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً﴾ الآيات.

وقوله: ﴿إنا كنا من قبله مسلمين﴾ فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول.

﴿أولئك﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يؤتون أجرهم مرتين﴾ أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني، ﴿بما صبروا﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تززعهم عن ذلك شبهة، ولا تناههم عن الإيمان رياسة ولا شهوة.

﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة، التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم يدرؤن بالحسنة السيئة أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، لعلهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿وإذا سمعوا اللغو﴾ من جاهل خاطبهم به، ﴿قالوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولى الآليات: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي: كل سيجازي بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء. ولزم من ذلك، أنهم يتبرؤون مما عليه الجاهلون، من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سلام عليكم﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ من كل وجه.

﴿٥٦﴾ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم

(٢) كذا في ب، وفي أ: يززعهم من.

(١) في ب: الخبرة.

وَمَا أَوْتِيتُمْ شَيْءًا فَتَحْتَمِلُوا إِلَيْهَا وَيَتَّبِعُوا مَا عِنْدَ اللَّهِ حَزَنًا وَإِنْ أَقْلًا تَقُولُونَ ﴿٥٨﴾ آمَنَ وَعَدَنَ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيمٌ كَذِبٌ مِّنْهُ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ الَّذِينَ كُنْتُمْ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاكَ شَأْنًا إِنَّكَ فَاعِلٌ مَا تُكِيدُ فَعْدُكُمْ فَادْعُهُمْ وَأَلْهِمَهُمْ زُرَّاءَ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٢﴾ هُتِفَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يُؤْمِرُوهُمْ لَا تَسْأَلُونَ ﴿٦٣﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَعَلْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٤﴾ وَرَبُّكَ يَقُولُ مَا يَسْكُرُهُمْ وَنَجَّاهُمْ مَّا كَانُوا لَهُمْ أَعْيُنٌ رَّءَوْا اللَّهَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٦﴾

بالمهتدين ﴿يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه تعالى، يهدي من يشاء، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا، لو كان قادراً عليها، لهدى من وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

﴿٥٧-٥٩﴾ وقالوا إن ننبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون \* وكما أهلكنا من قرية



غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه، ﴿كمن تمتعته متاع الحياة الدنيا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بدنياه عن آخرته، ولم يرفع يهدي الله رأساً، ولم ينقذ للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيثار.

﴿٦٢-٦٦﴾ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون \* قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبارنا إليك ما كانوا إيتانا يعبدون \* وقيل ادعوا شركاءكم فدعوههم فلم يستجيبوا لهم وادعوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون \* ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين \* فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون \* هذا إخبار من الله تعالى، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾ وليس الله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم واقترائهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فأين هم، بذواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟

ومن المعلوم أنه<sup>(١)</sup> يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا

منه، فيقرّون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشرك، مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء﴾ التابعون ﴿الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿تبارنا إليك﴾ من عبادتهم، أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيتانا يعبدون﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ على ما أملت فيهم من النفع فأمرؤا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر فيه العابد إلى من عبده.

﴿فدعوههم﴾ لينفعوهم، أو يدعوا عنهم من عذاب الله من شيء. ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به منكرين له.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ هل صدقتموهم، [واتبعتموهم] أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينجلي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا

يجيبون به، ولو كان كذباً.

﴿٦٧﴾ ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المقلحين﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسوله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسل، ﴿فعسى أن يكون﴾ من جمع هذه الخصال ﴿من المقلحين﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿٦٨-٧٠﴾ ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون \* وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر، [والأزمان] والأماكن، وأن أحداً<sup>(٢)</sup> ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركونه به، من الشريك، والظهير، والعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلته، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿والله

(١) في ب: أنهم.

(٢) في هامش أ: كل.

ترجمون ﴿ فيجازي كلاً منكم بعمله، من خير وشر. ﴾

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلمكم تشكرون﴾ ﴿هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقة، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليتبتغوا من فضل الله، وينتشلوا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهيؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده.﴾

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات، فتستنير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم.

وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعون﴾ وفي النهار: ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار. وفي هذه الآيات، تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وزن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنّة، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال. وعمي قلبه عن الثناء على الله، بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر أو لا ذكراً.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعملموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ ﴿أي: يوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعلون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة، أراد الله أن يظهر جرائعهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم<sup>(١)</sup> لأنفسهم ف ﴿يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ﴿أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

فإذا حضروا وإياهم، نزع ﴿من كل أمة﴾ من الأمم المكذبة ﴿شهيداً﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخفين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ حجتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية<sup>(٢)</sup>، وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فعملموا﴾ حيث بطلان قولهم وفساده، و ﴿أن الحق لله﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجتهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿٧٦-٨٢﴾ ﴿إن قارون كان من قوم موسى فيبغى عليهم﴾ ﴿إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل] وفعل به ونصح ووعد، فقال: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ ﴿أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيته من الأموال العظيمة المطغية.﴾ ﴿وأتيناه من الكنوز﴾ ﴿أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة [أولي القوة] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك.﴾ ﴿أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟﴾ ﴿إذ قال له قومه﴾ ﴿ناصحين له محذرين له عن الطغيان.﴾ ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ ﴿أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكبين على محبتها.﴾

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ ﴿أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصديق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿ولا تنس نصيحتك من الدنيا﴾ ﴿أي: لا تأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بأخرتك، ﴿وأحسن﴾ ﴿إلى عباد الله﴾ ﴿كما أحسن الله﴾ ﴿عليك هذه الأموال، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم، ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فـ ﴿قال﴾ قارون - راداً لنصيحتهم، كافراً لنعمة ربه -: ﴿إنما

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية.



أوتيته على علم عندي ﴿ أي : إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب ، وحذقي ، أو على علم من الله بحالي ، يعلم أي أهل لئلك ، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى ؟ قال تعالى مبيناً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي : ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ﴾ فما المانع من إهلاك قارون ، مع مضي عادتنا وستتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم ، إذ فعل ما يوجب الهلاك ؟

﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾  
بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك دافعاً عنهم من العذاب شيئاً، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنتكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً قد أعجبته نفسه، وغره ما أوتيته من الأموال، ﴿فخرج﴾ ذات يوم ﴿في زينته﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت برؤته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

ف قال الذين يريدون الحياة الدنيا  
أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها،  
وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم  
إرادة في سواها، ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا  
أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها  
وزهرتها ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾  
وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان  
الأمر منتهياً إلى رغباتهم، وأنه ليس

وراء الدنيا، دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم<sup>(١)</sup> بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم، بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها، بل أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية والمطالب العالية.

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر<sup>(٢)</sup> أولئك إلى طاهرها: ﴿ويلكم﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالتهم: ﴿ثواب الله﴾ العاجل، من لذة العبادة ومحبتة، والإنابة إليه، والإقبال عليه. والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهي النفس وتلذ الأعين ﴿خير﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذا حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلقَى ذلك ويوفق له ﴿إلا الصابرون﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقذاره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وأزَّيَّت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغيته العذاب ﴿فَحَسَنَّا بِهِ﴾ وبسداره الأرض ﴿جِزَاءَ مَنْ جَنَسَ عَمَلَهُ﴾، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه ومताعه.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أي : جماعة ،  
وعصبة ، وخدم ، وجنود ﴿يَنْصُرُونَهُ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾  
أي : جاءه العذاب ، فما انتصر

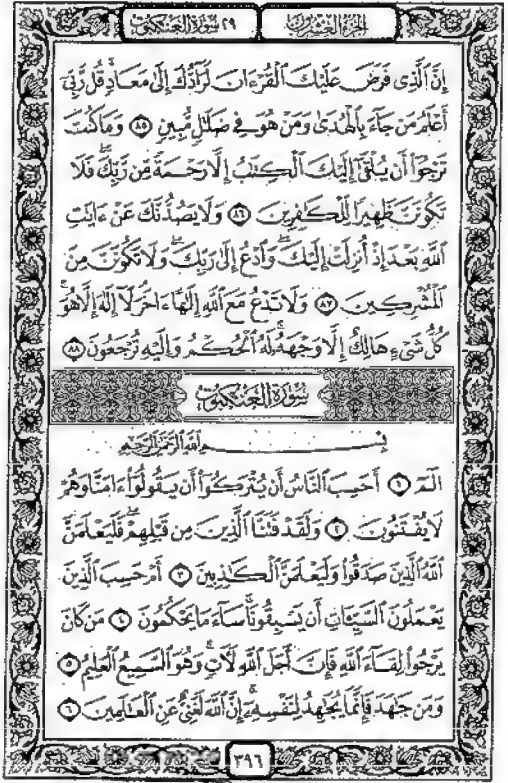
(١) كذا في ب، وفي أ: التعميم.

(۲) کذا فی ب، وفي أ: نظروا.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ  
مِن قَبْلِهِ مِنَ الصُّورِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْبَرَ جُحُومًا  
وَلَا يَسْئَلُ عَنْ دُونِهِمُ النَّارَ ۚ يَوْمَ ۙ ﴿٥١﴾ فَخُجَّ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي  
رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَيْسَ لَنَا مِثْلُ  
مَا أُوتِيَ قَوْمٌ إِنَّهُمْ وَحِطَّ عَلَيْهِمْ ﴿٥٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْعِلْمَ وَتِلْكَ كُتُوبُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَدِلَ سُلُوكًا  
وَلَا يَلْمِزُهَا إِلَّا الصُّلُوبُ ۚ ﴿٥٣﴾ فَخَسَفْنَا بِهٖ وَبَدَّارُهُ الْأَرْضَ  
فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَصْرُمُ لَهُمْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ  
لِّلْمُتَصِرِينَ ﴿٥٤﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُمُ الْأَرْضِ  
يَسْتَوُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ يَشْفُقُ عَلَى الَّذِينَ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ  
وَيَقْدِرُ ۚ لَوْلَا أَنْ تَرَ اللَّهُ عَيْنَافَ الْخَفِيفِ بِنَاوِكَاهُ لَأَفْلَحَ  
الْكُفْرُ ۚ ﴿٥٥﴾ وَتِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ۚ نَجْمَعُهَا لِلَّذِينَ  
لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ  
﴿٥٦﴾ ثُمَّ جَاءَ الْحَمْدُ فَلَمْ يَخْشَوْهَا وَنَ جَاءَ بِالسَّيْفَةِ فَلَمْ يَخْشَوْهَا  
الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ۚ إِنَّا مَّا كُنَّا نُوَاظِمُهُمْ ۚ ﴿٥٧﴾

ولا انتصر .  
﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ  
بِالْأَمْسِ﴾ أي : الذين يريدون الحياة  
الدنيا ، الذين قالوا : ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ  
مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ مترجمين  
ومعتبرين ، وخائفين من وقوع العذاب  
بهم : ﴿وَيَكُنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي : يضيق  
الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، فَعَلِمْنَا حَيْثُذَ أَنْ  
يَسْطُو لِقَارُونَ ، لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى خَيْرٍ  
فِيهِ ، وَأَنَا غَالِطُونَ فِي قَوْلِنَا : ﴿إِنَّهُ لَنُؤْ  
حِظُ عَظِيمٌ﴾ و ﴿لَوْلَا أَنَّ مَنَّ اللَّهُ  
عَلَيْنَا﴾ قَلِمَ يِعَاقِبُنَا عَلَى مَا قَلْنَا ، فَلَوْلَا  
فَضْلُهُ وَمَتْنُهُ ﴿لَخَسَفَ بَنَاهُ﴾ فَصَارَ هَلَاكُ  
قَارُونٍ عَقُوبَةً لَهُ ، وَعِبْرَةً وَمَوْعِظَةً  
لِغَيْرِهِ ، حَتَّى إِنْ الَّذِينَ غَبَطُوهُ ، سَمِعَتْ  
كَيْفَ نَدِمُوا ، وَتَغَيَّرَ فِكْرُهُمُ الْأَوَّلُ .  
﴿وَيَكُنْ لَهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي :

لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴿٨٥﴾ لما ذكر تعالى قارون وما أوتيته من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالنسب الموصول إليها فقال: ﴿تلك الدار الآخرة﴾ التي أخبر الله بها



في كتبه وأخبرت [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، «نجعلها» داراً وقراراً «للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً» أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق، «ولا فساداً» وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: «والعاقبة» أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب<sup>(١)</sup>.

﴿٨٤﴾ «من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون»

يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وتمازج عدله، فقال: «من جاء بالحسنة» شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجيء بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق<sup>(٢)</sup> عباده، «فله خير منها» [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى «فله عشر أمثالها»]<sup>(٣)</sup>.

هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: «والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» بحسب حال العامل وعمله، ونفعه وعمله ومكانه، «ومن جاء بالسيئة» وهي كل ما نهى الشارع عنه نهياً تحريماً: «فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون» كقوله تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون».

﴿٨٥-٨٨﴾ «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين \* وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا راحة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين \* ولا يصدك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكلمن من المشركين \* ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» يقول تعالى: «إن الذي فرض عليك القرآن» أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يزدك إلى معاد، يجازي فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمعصيتهم.

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك والقدح بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل. ولهذا قال: «قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين» وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

«وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب» أي: لم تكن متحزياً لتزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً: «إلا راحة من ربك» بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزله إليك راحة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه، فإنه راحة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

«فلا تكونن ظهيراً للكافرين» أي: معيماً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة. «ولا يصدك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك» بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

«وادع إلى ربك» أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارفضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: «ولا تكونن من المشركين» لا في شركهم، ولا في فروعهم وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

(١) في ب: حظ.

(٢) في ب: وحقوق العباد.

(٣) زيادة من هامش: ب.

﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ بل  
أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿لا إله  
إلا هو﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله  
ويحب ويعبد، إلا الله الكامل الباقي  
الذي ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾  
وإذا كان كل شيء هالكاً مضمحلاً،  
سواه فعبادة الهالك الباطل باطلة  
ببطلان غايتها، وفساد نهايتها. ﴿له  
الحكم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وإليه﴾  
لا إلى غيره ﴿ترجعون﴾ فإذا كان ما  
سوى الله باطلاً هالكاً، والله هو  
الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله  
الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع  
الخالق كلهم، يجازيهم بأعمالهم،  
تعيّن على مَنْ له عقل، أن يعبد الله  
وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه  
ويدينه، ويحذر من سخطه وعقابه،  
وأن يقدم على ربه غير تائب، ولا مقلع  
عن خطئه وذنبه.

تم تفسير سورة القصص

— ولله الحمد والثناء

والمجد دائماً أبداً -

تفسير سورة العنكبوت  
وهي مكية

﴿١٣﴾ ﴿١٣﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرحيم أَلَمْ \* أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا  
أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ \* وَلَقَدْ  
فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ  
صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١٤﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى  
عَنْ [تَمَام] حُكْمَتِهِ، وَأَنْ حُكْمَتَهُ  
لَا تَقْتَضِي أَنْ كُلَّ مَنْ قَالَ «إِنِّه مُؤْمِنٌ»  
وَادْعَى لِنَفْسِهِ الْإِيمَانَ، أَنْ يَبْقُوا فِي  
حَالَةٍ يَسْلُمُونَ فِيهَا مِنَ الْفِتَنِ وَالْمُخَنِّ،  
وَلَا يَعْرِضُ لَهُمْ مَا يَشُوشُ عَلَيْهِمْ  
إِيمَانَهُمْ وَفُرُوعَهُ، فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ  
كَذَلِكَ، لَمْ يَتَمَيَّزِ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ،  
وَالْمُحَقِّقُ مِنَ الْمُبْطَلِ، وَلَكِنْ سُنَّتُهُ وَعَادَتُهُ  
فِي الْأَوَّلِينَ وَفِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ  
بِالسَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ،  
وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ،  
وِإِدَالَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ  
الْأَحْيَانِ، وَبِجَاهِدَةِ الْأَعْدَاءِ بِالْقَوْلِ

والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشهوات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فَمَنْ كان عند ورود الشهوات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها<sup>(١)</sup> بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

وَمَنْ كَانَ عِنْدَ وَرُودِ الشَّيْهَاتِ تَوَثَّرَ فِي قَلْبِهِ شُكًّا وَرَيْبًا، وَعِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّهَوَاتِ تَصَرَّفَهُ إِلَى الْمُعَاصِي أَوْ تَصَدَّقَهُ عَنِ الْوَاجِبَاتِ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ إِيْمَانِهِ وَصِدْقِهِ .

والناس في هذا المقام درجات  
لا يحصيها إلا الله، فمستقل  
ومستكثر، فنأل الله تعالى أن يشتتنا  
بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي  
الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه،  
فلا ابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة  
الكبر، يخرج خشها وطبها.

﴿٤﴾ ﴿٤﴾ أم حسب الذين يعملون  
السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون ﴿٥﴾  
أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات  
وارتكاب الجنايات، أن أعمالهم  
ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو  
يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل  
عليهم عملها؟

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي : ساء حكمهم ، فإنه حكم جائر ، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته ، وأن لديهم قدرة يمتنون بها من عقاب الله ، وهم أضعف شيء وأعجزه .

﴿٥-٦﴾ ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾ \* ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾ يحيى: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقاءه، وسر نحوه،

(١) كذا في ب وفي أ: ويدفعه.

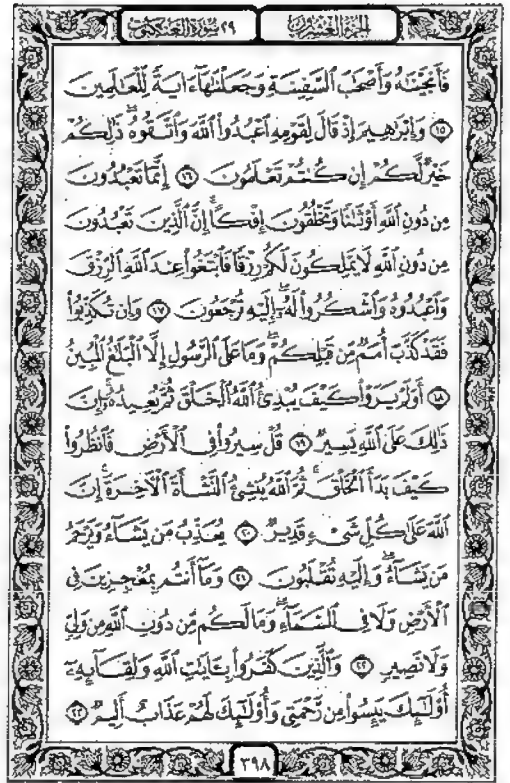
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ  
وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا ۚ وَلَنُجْزِيَ الَّذِينَ كَانُوا لَا يَعْلمُونَ  
بِقَوْلِ اللَّهِ حَقًّا وَلَنُجْزِيَ الَّذِينَ كَانُوا لَا يَشْعُرُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ  
عَمَلٌ فَلَنُطَهِّرَنَّهُمُ إِلَىٰ مَرَجِعِهِمْ فَلَنُنَكِّمَهُمُ أَكْثَرُ تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ  
﴿٦﴾ وَبَيْنَ الَّذِينَ مِنْهُمْ أَهْلُ آبَةٍ فَقَدْ أَهْوَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ  
فِتْنَةُ الْفَاسِقِينَ كَذَلِكَ الْوَلَوُّ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ  
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَرَبُّنَا يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾  
﴿٨﴾ وَرَبُّنَا اللَّهُ الْأَعْلَى ۖ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الشَّاقِقُونَ ﴿٩﴾  
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ  
خَطَايَكُمْ وَمَا عَلَيْكُمْ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ  
لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَلَنَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقُوا لَعْنَةَ اللَّهِ  
الَّتِي لَهَا وَلِلْعَالَمِينَ يَوْمَ الْبَاقِ ۚ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ  
﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ  
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَنذَرَهُ الظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ مُصْرَقُونَ ﴿١٢﴾

مستصحباً الرجاء، مؤملاً الوصول إليه، ولكن، ما كل مَنْ يَدْعِي يُعْطَى بدعواه، ولا كل مَنْ تَمْنَى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فَمَنْ كَانَ صَادِقاً فِي ذَلِكَ أَنَا لَهُ مَا يَرْجُو، وَمَنْ كَانَ كَاذِباً لَمْ تَنْفَعِهِ دَعَاؤُهُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَنْ يَصْلِحُ لِحَبِّهِ وَمَنْ لَا يَصْلِحُ.

﴿وَمَنْ جَاهَدْ﴾ نفسه وشیطانہ ، وعدوه الکافر ، ﴿فَإِنَّمَا يَجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه راجع إلیه ، وثمرته عائده إلیه ، و الله غني عن العالمین ، لم یأمرهم بما أمرهم به لیتفیع به ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلایمهم .

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج  
المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتأقل  
بطبعها عن الخير، وشيطانها ينهاه عنه،  
وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه،  
كما ينبغي، وكل هذا معارضات تحتاج  
إلى مجاهدات وسعي شديد.

﴿٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي



الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ \* وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا بَدَ أَنْ يَمْتَحِنَ مَن ادَّعَى الْإِيمَانَ، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تغيير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل، ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: يجعلها صناداً له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صناداً عما هو سببه.

﴿وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ حيث خبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته.

﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: فلذلك قد رُحِّمْنَا وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرد، لأنهم قد محتجون على الله، أنهم لو ابتلوا لثبتوا.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِّنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴿يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ولنحمل خطاياكم. وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِّنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه «أن لا تزر وازرة وزر أخرى».

ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِّنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قد يتوهم منه أيضاً، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه، ولو كانوا الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال: [تخبراً عن هذا الوهم] <sup>(١)</sup> ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها ﴿وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرائمهم، فالذنب الذي فعله التابع [لكل من التابع]، والمتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع [لأنه] تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنه إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب. ﴿وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الشر وتزيينه، [وقولهم] <sup>(٢)</sup> ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ \* فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آيةً للعالمين ﴿يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة <sup>(٣)</sup> الأمم المكذبة،

كانوا يعملون ﴿وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضاً، وغيرها.

﴿٨﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكَ فَأَنْبِئُكَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه حسناً، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله.

﴿وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك، ﴿فلا تطعهما﴾ أي: مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴿فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتهم، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله.

(٣) في ب: عقوبات.



وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فلبث فيهم نبياً داعياً﴾ ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿وهو لا ينبي بدعوتهم، ولا يفتر في نصيحهم، يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا ولم يهتدوا، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ فأخذهم الطوفان﴾ أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة وهم ظالمون مستحقون للعذاب.

﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به. ﴿وجعلناها﴾ أي: السفينة، أو قصة نوح ﴿آية للعالمين﴾ يعتبرون بها، على أن من كذب الرسل، آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

وجعل الله أيضاً السفينة، أي: جنسها آية للعالمين، يعتبرون بها راحة ربهم، الذي قitz لهم أسبابها، وتسر لهم أمرها، وجعلها تحملهم وتحمل متاعهم من محل إلى محل ومن قطر إلى قطر.

﴿١٦- ٢٢﴾ ﴿وإبراهيم إذ قال

لقومه اعبدا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أولم يروا كيف يبدى الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير﴾ قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل

شيء قدير﴾ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال [لهم]: ﴿اعبدوا الله﴾ أي: وحده، وأخلصوا له العبادة، وامثلوا ما أمركم به، ﴿واتقوه﴾ أن يغضب عليكم، فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي، ﴿ذلكم﴾ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خير لكم﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق «أفعل التفضيل» بما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه، لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ذلك، فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أولى بالإيثار، فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً﴾ تحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتخلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك، ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿لا يملكون لكم رزقاً﴾ فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى من هذا مثال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تألهه وتسأله حوائجها، فقال - حاثاً لهم على من يستحق العبادة - ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ فإنه هو

الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه<sup>(١)</sup>، ﴿واعبدوه﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير، ﴿واشكروا له﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿إليه ترجعون﴾ يجازيكم على ما عملتم، وينشكم بما أسرتم وأعلنتم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه، ويشيكم - عند القدوم - عليه.

﴿أولم يروا كيف يبدى الله الخلق ثم يعيده﴾ يوم القيامة ﴿إن ذلك على الله يسير﴾

كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾. ﴿قل﴾ لهم، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: ﴿سيروا في الأرض﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فأنظروا كيف بدأ الخلق﴾ فإنكم ستجدون أمماً من آدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجودون النبات والأشجار، كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجودون السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجدها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة، فأنظر





يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم.

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن لعل من أسرار ذلك، أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلمهم] وأجلهم، فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري بسببه عذاباً عاماً.

ومما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله أعلم بالخال.

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ أي: بعدما هاجر إلى الشام ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وهذا [من] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وأمن المؤمنون، وصلاح الصالحون. ﴿وأتيناها أجره في الدنيا من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد، الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبتة، والإنابة إليه.

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلاهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿٢٨ - ٣٥﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ أئذكتم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في

ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴿قال رب انصرنى على القوم المفسدين﴾ إلى آخر القصة. تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم.

فقوله تعالى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ وإن كان عاماً، فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً وهو ليس من ذريته، لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم.

فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطيع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قبائحها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يراعوا ولم يذكروا. ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾

فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و ﴿قال رب انصرنى على القوم المفسدين﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إن فيها لوطاً﴾ فقالوا له: ﴿لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطاً، فساء مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من

قومه، فقالوا له: ﴿لا تخف ولا تحزن﴾ وأخبروه أنهم رسل الله. ﴿إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجلاً أي: عذاباً ﴿من السماء بما كانوا يفسقون﴾ فأمروه أن ينسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا، قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَراً من الأسفار، وعبرة من العبر، ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون﴾ أي: تركنا من ديار قوم لوط، أثراً بيّنة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم، [فيتفكرون بها]، كما قال تعالى: ﴿وانكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ وبالليل أفلا تعقلون.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعبياً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعشوا في الأرض مفسدين﴾ فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿أي:﴾ ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شعبياً﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس الكاييل والموازن، والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء

تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وأثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم.

﴿وَرَيْنَ لَهُمِ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران، بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم يتقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله فأذلّوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدرُوا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة] ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ الله، ولا فائتين، بل سلّموا واستسلموا.

﴿فَكَلَّا﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة أخذنا بذنبه ﴿على قدره، ويعقوبة مناسبة له، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: عذاباً يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾.

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ كقوم صالح، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿وما كان الله﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق. ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ منعوها حقها التي هي بصده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضرروا غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿٤١-٤٣﴾ ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وأن

الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتاً يقيها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾. فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً، ولا إلهاً له حقيقة، كقوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ وقوله: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي له القوة جميعاً، التي قهر بها جميع المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل

شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بنبيها، فهي مصلحة لعموم الناس.

﴿و﴾ لكن ﴿ما يعقلها﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إلا العالمون﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى. ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿٤٤﴾ ﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي: لم يخلقها عبثاً ولا سدى، ولا لغير فائدة، وإنما خلقها، ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره، ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوهم وإلههم. ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ على كثير من

المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

﴿٤٥﴾ «اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون» يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته اتباعه، بامثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخله في تلاوة الكتاب. فيكون قوله: ﴿وأقم الصلاة﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وأثارها الجميلة، وهي ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس.

والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمسك لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدد رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق<sup>(١)</sup> لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾.

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج

الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

﴿٤٦﴾ «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحسب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد﴾ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم [على وجه] يحصل به<sup>(٢)</sup> القبح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقبح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً. وأيضاً، فإن بناء

وَقَدْ رُتِّبَتْ وَفَرَعَتْ وَهَكَذَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِالْهُدَى  
فَأَسْتَجَبُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِطِينَ  
فَكَيْفَ لَا نَقْدًا يَذَرُونَهُمْ مِنْ أَرْكَانِنَا عَلَيْهِ حَالِيْنَا  
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ اللَّهُ الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفَتْ أَيْدِيهِ  
الْأَرْضِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانُوا اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ  
وَالَّذِينَ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ  
أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ  
أَتَعْبُدُونَ يَتْلُوهُنَّ الْأَيْتُونَ بَيِّنَاتٍ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ  
تُكَيِّدُونَ أَوْ يَنْفَكُونَ إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ عَادُوهُ مِنْ  
دُونِهِمْ مِنْ خَوْفٍ وَهُوَ أَلَمٌ عَظِيمٌ  
الْأَمْثَلُ نُصْرَتُهُمَا لِلنَّاسِ وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ  
عَلَى اللَّهِ السُّكُونُ وَالْأَرْضُ بِالْحُجْرَاتِ فِي ذَلِكَ  
آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَتَى مَا أَرْسَلْنَاكَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ  
وَأَقْبَرُ الصَّلَاةِ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ  
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ

مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني، دون الكتاب الفلاني وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالكذب، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

وأيضاً، فإن كل طريق تثبت به<sup>(٣)</sup> نبوة أي: نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقبح بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره، فثبت بطلانها في حقه ﷺ. أظهر وأظهر.

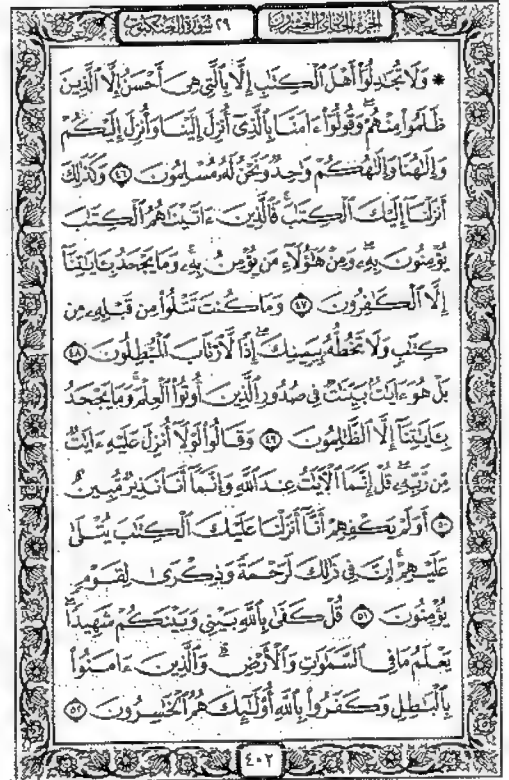
وقوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي: منقادون مستسلمون لأمره. ومن آمن

(٣) وفي ب: بها.

(٢) في أ: بها.

(١) في ب: العباد.





به، واتخذها إلهاً، وأمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

﴿٤٧-٤٨﴾ «وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون \* وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون» أي: «وكذلك أنزلنا إليك يا محمد، هذا الكتاب الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

«فالذين آتيناهم الكتاب» فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى. «يؤمنون به» لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح، والصدق والكذب.

«ومن هؤلاء» الموجودين «من يؤمن به» إيماناً على بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبة. «وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون» الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له. وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق،

والأ، فكل من له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل من له عقل، أو ألقى السمع وهو شهيد.

وما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال، من أظهر البينات القاطعة، التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: «وما كنت تتلو» أي: تقرأ «من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا» لو كنت بهذه الحال «لارتاب المبطلون» فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك، كتاباً جليلاً، تحدثت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر، لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿٤٩﴾ «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون» أي: «بل هذا القرآن آيات بينات» لا خفيات، «في صدور الذين أوتوا العلم» وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والأكمل منهم.

فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: «وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون» لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿٥٠-٥٢﴾ «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين \* أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون \* قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون» أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عنيوها، كقولهم: «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً» الآيات. فتعين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي<sup>(١)</sup> أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء. ولهذا قال: «قل إنما الآيات عند الله» إن شاء أنزلها أو منعها «وإنما أنا نذير مبين» وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلماً وجوراً، وتكبيراً على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: «أولم يكفهم» في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به «أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد وهو أُمِّي، من أكبر الآيات على صدقه.

(١) كذا في ب، وفي أ: وينفي.



ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم<sup>(١)</sup>، آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين<sup>(٢)</sup>، والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول [ثم مسامرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به]<sup>(٣)</sup>.

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له<sup>(٤)</sup>، فلذلك قال: «إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

«قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً» فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذباً، أحل بي ما به تعترون، وإن كان إنما يؤيدني وينصرني ويسر لي الأمور،

فلتكفيكم هذه الشهادة الجلية من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلاً، فإنه «يعلم ما في السماوات والأرض». ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم<sup>(٥)</sup>، فلو كنت متقلاً عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبتي، لكان [قدحاً في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم لقطعنا منه الوتين».

«والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون» حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، ففسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

«٥٣ - ٥٥» «ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون \* يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين \* يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون» يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين»؟

يقول تعالى: «ولولا أجل مسمى \* مضروب لنزوله، ولم يأت بعد، لجاءهم العذاب» بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلو أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن - مع ذلك - فلا يستبطلون<sup>(٦)</sup> نزوله، فإنه سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا «بدر» بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون

على مقصودهم، فأهانهم<sup>(٧)</sup> الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون. هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الآخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عرجل بعذاب الدنيا أو أمهل.

«وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

«يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون» فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

«٥٦ - ٥٩» «يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فيأيي فاعبدون \* كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون \* والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوءنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين \* الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» يقول تعالى: «يا عبادي الذين آمنوا» بي وصدقوا رسولي «إن أرضي واسعة فيأيي فاعبدون» فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها، واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيقة الجامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون.

(٧) في النسخين: فأهانهم، ولعلها كما

أثبت والله أعلم.

(٤) في ب: فإنه رحمة له وخير.

(٥) كذا في ب، وفي أ: ومقالكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يستعجلون.

(١) في ب: وتحديهم إياه.

(٢) في ب: السالفين.

(٣) زيادة من هامش: ب.

فـ ﴿نعم﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أجر العاملين﴾ الله، ﴿الذين صبروا﴾ على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في ذلك. فصبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلاً في الصبر، لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿٦٠﴾ ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴿أي: الباري تبارك وتعالى، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويم وعاجزهم، فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض، ضعيفة القوى، ضعيفة العقل. ﴿لا تحمل رزقها﴾ ولا تدخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق، في كل وقت بوقته.

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم، ﴿وهو السميع العليم﴾ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ الله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد

موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن يدير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولن الله﴾ وحده، ولا غترقوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً، وسجل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً، وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا ينضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، ووسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

﴿٦٤ - ٦٩﴾ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليمتنعوا فسوف يعلمون﴾ أولم يروا أننا جعلنا خرمًا آمنًا ويخطف الناس من حولهم أقبال الباطل يؤمنون وينعمة الله يكفرون ﴿ومن أظلم ممن افترى على

الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه اليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴿يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾ في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المطلة الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها محبة إلا على الندم والخسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿الحيوان﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشرب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة<sup>(١)</sup> الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى<sup>(٢)</sup> من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال<sup>(٣)</sup> عنهم مشقة. فهلا أخلصوا الله الدعاء في حال

(١) في ب: حال.

(٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم.

(٣) كذا في ب، وفي أ: زال.

الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه.

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون غاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم.

﴿فسوف يعلمون﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف وأليم العقوبة.

ثم امتن عليهم بحرمه الآمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخططون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة. ﴿وبنعمة الله﴾ هم يكفرون، فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث أثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله، ﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾ على يد رسوله محمد ﷺ.

ولكن هذا الظالم العنيد، أمامه جهنم ﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم، الذين لا يخرجون منه.

﴿والذين جاهدوا فينا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، ﴿لنهديهم سبلنا﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون.

﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ بالنعون

والنصر والهداية. دل هذا، على أن أخرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور الهيبة، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت

بحمد الله وعونه

### تفسير سورة الروم وهي مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم﴾ غلبت الروم \* في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون \* في بضع سنين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون \* بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم \* وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال، ما يكون بين الدول المتوازنة.

وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون - لاشتراكهم والفرس في الشرك - يحبون ظهور الفرس على الروم.

وَسَنَعْلَمُكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَمَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ يَتَّبِعُونَكَ بِالْعَذَابِ فَإِنْ جَاءَهُمْ لَحِطَةٌ مِنَ الْكُفْرِ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَعْلَمُهُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ وَيَقُولُ: دُفُّوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ يَلْعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ أَرْضِي وَرِيعَةً فَإِلَىٰ قَاعِ عَدُونَ ﴿٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْعَذَابِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَبَدَّلُوا صِلَتُهُمْ مِنَ الْخَيْرَةِ غَرَابِطٍ مِنَ تَحْتِهَا الْآخِرَةُ خَالِدِينَ فِيهَا تِلْكَ آخِرَةُ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَوَكِّلُونَ ﴿٦﴾ وَلَكِنَّ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ زَنْجَبَرًا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ وَلَيْسَ سَأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَقَوْلِهِ اللَّهُ فَإِنْ يَوْفُونَ ﴿٨﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكْسِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ﴿٩﴾ وَلَيْسَ سَأَلُهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَقَوْلِهِ اللَّهُ فَإِنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

فظهر الفرس على الروم، فغلبوهم غلباً لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم <sup>(١)</sup> أن الروم ستغلب الفرس. ﴿في بضع سنين﴾ تسع، أو ثمان، ونحو ذلك، مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم، ثم غلبة الروم للفرس، كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿الله الأمر من قبل ومن بعد﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿ويومئذ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم ﴿يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء﴾ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفاراً، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء. ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين، حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم، ما

(١) كذا في ب، وفي أ: بوعده.

ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها بالإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير<sup>(٦)</sup>].

﴿٨-١٠﴾ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس يلقاء ربهم لكاफرون \* أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون \* ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن \* أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿في أنفسهم﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون<sup>(٧)</sup> بها، أن الذي أوجدهم من العدم، سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نقطة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين، لا ينهون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [أي] ليلوكم أيكم أحسن عملاً. ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا، ونجى به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

﴿وإن كثيراً من الناس يلقاء ربهم لكاफرون﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلت على البعث والأجزاء،

أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويرزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية<sup>(١)</sup> والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فظنوا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون<sup>(٢)</sup>. نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم<sup>(٣)</sup> نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] حرموا من العقل العالي، فعرفوا<sup>(٤)</sup> أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا<sup>(٥)</sup> ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،



لا يدخل في الحساب.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عینوها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بنوع الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف

(٤) في ب: عدلت إلى: لعرفوا.

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية.

(٥) في ب: عدلت إلى ولخافوا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يترددون.

(٦) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها وقد نقلته من طبعة السلفية.

(٣) هكذا في النسختين، وقد شطب الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو).



ولهذا نبههم على السير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم، ممن هم أشد من هؤلاء قوة، وأكثر آثاراً في الأرض، من بناء قصور ومصانع، ومن غرس أشجار، ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم، حين كذبوا رسلهم الذين جاؤوهم بالبينات الدالات على الحق، وصحة ما جاؤوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك، لم يجدوا إلا أعماً بائدة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة، وذم من الخلق عليهم متتابع. وهذا جزاء معجل، نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأ له.

وكل هذه الأمم المهلكة، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم، وتسبوا في هلاكها.

﴿ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى﴾ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ﴿فهذا عقوبة لسوءهم وذنوبهم﴾.

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب، يكون سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثالات.

﴿١١-١٦﴾ ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين﴾ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون﴾ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴿يحبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أي: يقوم الناس لرب العالمين،

ويردون القيامة عياناً، يومئذ يبلس المجرمون ﴿أي: يأسون من كل خير. وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجماع، وهي الذنوب، من كفر وشرك ومعاصي، فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب، أيسوا وأبلسوا وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه، من نفع شركائهم، وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾ التي عبدوها مع الله ﴿شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين﴾ تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون، وقالوا: ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ والتعنوا وابتعدوا، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افترت أعمالهم في الدنيا.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ آمنوا بقلوبهم، وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فهم في روضة﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتيات، ﴿يحبرون﴾ أي: يسرون، وينعمون بالماكل اللذيذة، والأشربة، والخور الحسان، والخدم، والولدان، والأصوات المطربات، والسماع المشجي، والمناظر العجيبة، والروائح الطيبة، والفرح والسرور، واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه.

﴿١٦﴾ ﴿وأما الذين كفروا﴾ وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم وقطع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين!!

﴿١٧-١٩﴾ ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ وله الحمد

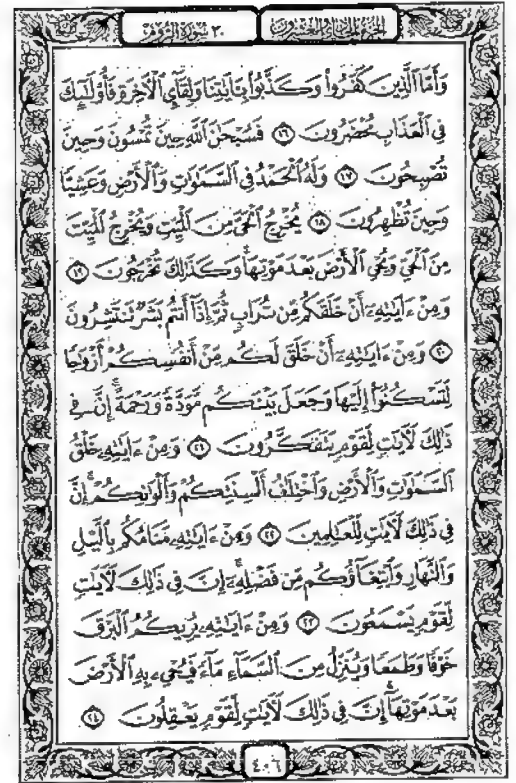
وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَغُورًا مِّنَ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿١٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢١﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنَّهُمْ مَعَ اللَّهِ الشُّكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا إِلَّا يَوْمٌ يُسْئَلُ عَنْ كَيْدِهِم مِّنَ النَّاسِ لِقَائِي يُعْطَوْنَ كَفْرًا﴾ ﴿٣٠﴾

في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص، وتقديسه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يستحوه حين يمسون وحين يصبحون، ووقت الظهيرة.

فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك، الواجب منه، كالمشملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب، كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل، لأن هذه الأوقات التي اختارها الله [لأوقات المفروضات هي] أفضل من غيرها [فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها] بل العبادة، وإن لم تشمل على قول «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل، أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج





النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿ويخرج الميت من الحي﴾ بعكس المذكور ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ﴿وكذلك تخرجون﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ \* ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفرادة بالإلهية، وكمال

عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة اقتداره، وجميل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة] <sup>(١)</sup> وبثكم في أقطار الأرض [وأرجائها] ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبثكم في أقطار الأرض <sup>(٢)</sup> هو الرب المعبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾ تناسبكم وتناسبونهم، وتشاكلكم وتشاكلونهم، ﴿لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ يعملون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء إلى شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ إن في ذلك لآياتٍ للعالمين﴾ والعالمون: هم أهل العلم، الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة،

وكمال حكمته، لما فيها من الإتقان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿ألا يعلم من خلق﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد، الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده، الذي يستحق أن يعبد ويوحد، لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿اختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ومخرج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقيين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز.

وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

ولمن <sup>(٣)</sup> عنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف، لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاكم من فضله إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون﴾ أي: سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك.

إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى،

كما قال: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت، ليستريحوا به <sup>(٤)</sup> ويستجموا <sup>(٥)</sup>، وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك، هو المستحق للعبادة.

﴿٢٤﴾ ﴿ومن آياته يريكم البرق

(١) زيادة بخط المؤلف من هامش أ.

(٢) زيادة من ب.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) زيادة من أ.

(٥) الكلمة غير واضحة في النسختين وكأنها (ويجموا) وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا.

خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته، أن ينزل عليكم المطر، الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريككم قبل نزوله مقدماته، من الرعد والبرق، الذي يخاف ويطمع فيه.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتقانه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها. ﴿لقوم يعقلون﴾ أي: لهم عقول، تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ \* وله من في السماوات والأرض كل له قانتون \* وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿٢٧﴾ أي: ومن آياته العظيمة، أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة، التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الكل خلقه ومماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أهون عليه﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت <sup>(١)</sup> قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى. ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به

يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبة، والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم. فالمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحق بالاتصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتزبه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته، أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات، وحكمته، أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون \* بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴿٢٩﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى، لقبح الشرك وعجيبته، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما

رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتهمهم ورزقتهمهم، وهم أيضاً مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه، وتجعلونه بمنزلته، وعديلاً له في العباد، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟ هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه] <sup>(٢)</sup> من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتخذ باطل مضمحل، ليس مساوياً لله، ولا له من العباد شيء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لقوم يعقلون﴾ الحقائق ويعرفون، وأما من لا يعقل، فلو فصلت له الآيات، ويثبت له البينات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال، أن من اتخذ من دون الله شريكاً يعبد ويتوكل عليه في أمور، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه وظهر برهانه؟ [لقد] <sup>(٣)</sup> أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلماذا قال: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ هويت أنفسهم الناقصة، التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمراً يحزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادهم إليه.

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله، لأنه ليس أحد معارضاً لله، أو منازعاً له في ملكه.

﴿وما لهم من ناصرين﴾ يتصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتنقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾

(١) في النسختين: كان.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين \* من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون \* يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان، بأن تشوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى (١) إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفاً﴾ أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ ووضع في عقولهم حسنها، واستفحاح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ذلك﴾ الذي أمرنا به ﴿الدين القيم﴾ أي: الطريق المستقيم الموصول إلى الله، وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيفاً، فإنه سالك الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه، ﴿ولكن أكثر

الناس لا يعلمون﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه. ﴿منيبين إليه واتقوه﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك، حمل (٢) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿واتقوه﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات. وخص من المأمورات الصلاة، لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فهذا إعادتها على التقوى.

ثم قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فهذا حثها على الإنابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ لكون الشرك مضاداً للإنابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومنازلة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كل حزب بما لديهم﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقاء، كل فريق يتعصب لما معهم من حق

وباطل، فيكونون مشايين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية، قد عقدتها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يلغى، ويبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كادها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق، المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟

ولما أمر تعالى بالإنابة إليه - وكان المأمور بها، هي الإنابة الاختيارية، التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإنابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكربه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿٣٣ - ٣٥﴾ ﴿وإذا مسَّ الناس ضرراً دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون \* أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون؟

﴿وإذا مسَّ الناس ضرراً﴾ مرض، أو خوف من هلاك، ونحوه. ﴿دعوا ربهم منيبين إليه﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمة﴾ شفاهم من مرضهم، وأمنهم من خوفهم، ﴿إذا فريق منهم﴾ ينقضون تلك الإنابة

التي صدرت منهم، ويشركون به مَنْ لا دفع عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكل هذا كفر بما آتاهم الله وَمَنْ به عليهم، حيث أنجاهم، وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلاً قايلاً هذه النعمة الجليلة، بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟

﴿أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي :  
حجة ظاهرة ﴿فهو﴾ أي : ذلك  
السلطان ، ﴿يتكلم بما كانوا به  
يشركون﴾ ويقول لهم : اثبتوا على  
شرككم ، واستمروا على شرككم ، فإن  
ما أنتم عليه هو الحق ، وما دعتكم  
الرسل إليه باطل .

فهل ذلك السلطان موجود عندهم ،  
حتى يوجب لهم شدة التمسك  
بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية ،  
والكتب السماوية ، والرسل الكرام ،  
وسادات الأنام ، قد نهوا أشد النهي عن  
ذلك ، وحذروا من سلوك طريقه  
الموصلة إليه ، وحكموا بفساد عقل  
ودين من ارتكبه؟

فشرک هؤلاء بغير حجة ولا برهان،  
وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات  
الشیطان.

﴿٣٦-٣٧﴾ وإذا أذقنا الناس  
رحمة فرحوا بها وإن نصبهم سيئة بما  
قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴿٣٦﴾ أولم  
يروا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر  
إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿٣٧﴾ يخبر  
تعالى عن طبيعة أكثر الناس، في حالي  
الرخاء والشدّة، أنهم إذا أذاقهم الله منه  
رحمة، من صحّة، وغنى، ونصر ونحو  
ذلك، فرحوا بذلك فرح بطر، لا فرح  
شكر وتبجح بنعمة الله.

﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: حال  
تسروهم، وذلك ﴿بما قدمت أيديهم﴾  
من المعاصي. ﴿إذا هم يقنطون﴾  
يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض،  
ونحوه. وهذا جهل منهم وعدم  
معرفة.

﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سعته

وضيقه من تقديره، ضائع ليس له محل. فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهم الذين يعتبرون بسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك، حكمة الله ورحمته وجوده، وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ﴿فَاتِذَا الْقُرْىٰنُ حَقَّهٖ  
وَالْمَسْكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ ذٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِيْنَ  
يُرِيْدُوْنَ وَجْهَ اللّٰهِ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ  
الْمُفْلِحُوْنَ﴾ \* وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَّبٍّ لَّيْرٍ وَفِي  
أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوْا عِنْدَ اللّٰهِ وَمَا آتَيْتُمْ  
مِنْ زَكَاةٍ تُرِيْدُوْنَ وَجْهَ اللّٰهِ قَاوُلَتْكُم مِّنْ  
الْمُضَعِفُوْنَ﴾ أَي: فَأَعْطِ الْقَرِيْبَ مِنْكَ -  
عَلَى حَسَبِ قُرْبِهِ وَحَاجَتِهِ - حَقَّهُ الَّذِي  
أَرْجَاهُ الشَّارِعَ، أَوْ حَضَّ عَلَيْهِ، مِنْ  
النَّفَقَةِ الْوَاجِبَةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْهَدِيَّةِ،  
وَالْبِرِّ، وَالسَّلَامِ، وَالْإِكْرَامِ، وَالْعَفْوِ  
عَنْ زَلَّتِهِ، وَالْمَسَاحَةِ عَنْ هَفْوَتِهِ .  
وَكَذٰلِكَ [أَنْتَ] الْمَسْكِيْنَ، الَّذِيْ أَسْكَنَتْهُ  
الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ، مَا تُزِيلُ بِهِ حَاجَتَهُ،  
وَتُدْفَعُ بِهِ ضَرُوْرَتَهُ، مِنْ إِطْعَامِهِ وَسَقْيِهِ  
وَكِسْوَتِهِ .

﴿وابن السبيل﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة، لأنه لا مال معه، ولا كسب قد دبر نفسه به [في] سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه وإن لم يكن له مال، ولكن لا بد - في الغالب - أن يكون في حرفة، أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصّة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذلك﴾ أي : إيتاء ذي القربى  
والمسكين وابن السبيل ﴿خير للذين  
يريدون﴾ بذلك العمل ﴿وجه الله﴾  
أي : خير عزيز ، وثواب كثير ، لأنه من  
أفضل الأعمال الصالحة ، والنفع  
المتعدي ، الذي وافق محله المقرون به  
الإخلاص .

فَإِنْ لَمْ يَرْدِّهِ وَجْهَ اللَّهِ، لَمْ يَكُنْ خَيْرًا  
لِلْمُعْطَى، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا وَنَفْعًا لِلْمُعْطَى  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ  
نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ

[illegible]

أو إصلاح بين الناس ﴿٤﴾ . مفهومها، أن هذه المثبتات خير لنفعها المتعدي، ولكن مَنْ يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً .

وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿هم المفلحون﴾ الفائزون بثواب الله، الناجون من عقابه.

ولما ذكر العمل الذي يقصده به وجهه، [من النفقات] ذكر العمل الذي يقصده به مقصد دنيوي، فقال: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس﴾ أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربو، أي: يزيد في أموالكم، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله، لكونه معدوم الشرط، الذي هو الإخلاص. ومثل ذلك العمل الذي يراد به الزيادة في الجاه، والرياء عند الناس، فهذا كله لا يربو عند الله.

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ أي: مال  
يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويطهر  
أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع  
حاجة المغطى. ﴿تَرِيدُونَ﴾ بذلك  
﴿وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الضَّعِيفُونَ﴾  
أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو  
نفقاتهم عند الله، ويربّيها الله لهم،  
حتى تكون شيئاً كثيراً.









(۱) زیادة من : ب.

المكاره، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقل صبرهم، فإنك أن يستخفك هؤلاء، فإنك إن لم تجعلهم (١) منك على بال وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفوس تتناعدهم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة (٢)، وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف [العقل] (٣) خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.

### تفسير سورة لقمان وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم \* تلك آيات الكتاب الحكيم \* هدى ورحمة للمحسنين \* الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون \* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير. من إحكامها، أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها. ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار (٤) السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء [ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت

عليه] (٥).

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر [حكيمته] (٦) فائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعادل به النفوس الخيرة وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجدد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام، ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبهر عقله، وذهل لبه، من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هدى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم، ﴿ورحمة﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والثواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: الصلاة المشتملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة

بسم الله الرحمن الرحيم  
التر \* تلك آيات الكتاب الحكيم \* هدى ورحمة  
للمحسنين \* الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم  
بالآخرة هم يوقنون \* أولئك على هدى من ربهم وأولئك  
هم المفلحون \* ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل  
عن سبيل الله ويعر غير ويخذها ههنا وأولئك لهم عذاب  
مؤبد \* ولما نزل عليه آياتنا وإلى مستكبراً كان لا  
يسمعها كان في آذنيه وقراً فبصره عذاب أليم \* إنك  
الذين آمنوا وعملوا الصالحات كملوا الصالحات كملوا الصالحات  
فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم \* خلق السموات  
وبعد سميرتها وألقى في الأرض ركاماً أن يمد يكم  
وتب فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا  
فيها من كل زوج كريم \* هذا خلق الله فأروني ماذا  
خلق الذين من دونه بل ألقوا في سبيل يوريب \*

على سائر الأعمال، والزكاة التي تزي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبة للمال، فيخرجه محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

ف ﴿أولئك﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾ أي: عظيم، كما يفيد التذكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿من ربهم﴾ الذي لم يزل يريهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والآخروي، وسلموا من سخطه وعقابه. وذلك لسلكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

﴿٦-٩﴾ ﴿ومن الناس من يشتري

(٥) زيادة من: ب.

(٦) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في أ: الأحكام والتصويب من: ب.

(١) كذا في ب وفي أ: تجعل.

(٢) كذا في ب وفي أ: والمرافقة.





فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿يَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: جلي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢-١٩﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم إلى آخر القصة. يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق] <sup>(١)</sup> على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه. والله غني [عنه] <sup>(٢)</sup> حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، ويئن له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أظفَع وأبشع من سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لم يُنعم بمثل ذرة [من النعم] <sup>(٣)</sup> بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء!!؟

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أخس المراتب] <sup>(٤)</sup> جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِأَيْ: عَهْدْنَا إِلَيْهِ، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيائه ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما [وإكرامهما] <sup>(٥)</sup> وإجلالهما، والقيام بمؤونتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيائه هذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه

الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَلَّتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فَصَالَهُ فِي غَمٍّ﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ أي: اجتهد والداك ﴿عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ولم يقل: «وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعهما»، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيون إليه.

وإتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الطائع والمعاصي والمنيب، وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(١) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.



﴿يَا بُنَيَّ إِنَّمَا إِنْ تَكْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي: جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قل أو كثر.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه. والأمر بما لا يتم بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهي.

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تمَلْه وتعبس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضماً.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أي: بطراً، فخرًا بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾<sup>(١)</sup> في نفسه وهيئته وتعاضمه

﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مَشْيَ البطر والتكبر، ولا مشي التماوت. ﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أفظعها وأبشعها ﴿لِلصَّوْتِ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومتناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبين له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محل برهما وامتنال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها. ولهذا من مئة الله عليه وعلى سائر عباده، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمَنِ النَّاسُ مِنْ مُجَادِلٍ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عتمكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تحفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيقتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وضرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿وَلَكِنْ مَعَ تَوَالِي هَذِهِ النِّعَمِ، مِنَ النَّاسِ مَنْ﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [غير مبين للحق فلا معقول ولا مثقول ولا اقتداء بالمهتدين]<sup>(٢)</sup> وإنما جداله في الله مبني

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.

مضلین۔  
 علی تقلید آباء غیر مہتدین، بل ضالین

ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على أيدي رسله، فإنه الحق، وبُيِّنَتْ لَهُمْ أدلته الظاهرة ﴿قَالُوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آبائنا لقول أحد، كائنًا مَنْ كَانَ.

قال تعالى في الرد عليهم وعلى  
آبائهم: ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم  
إلى عذاب السعير﴾ فاستجاب له  
آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من  
تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم  
الحيرة.

فهل هذا موجب لاتباعهم لهم  
ومشيهم على طريقتهم، أم ذلك  
يرهبهم من سلوك سييلهم، وينادي  
على ضلالهم وضلال مَنْ اتبعهم.

وليس دعوة الشيطان لأبائهم  
ولهم، محبة لهم ومودة، وإنما ذلك  
عداوة لهم ومكر بهم، وبالحقيقة أتباعه  
من أعدائه، الذين تمكن منهم وظفر  
بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب  
السعير بقبول دعوته.

﴿٢٢-٢٤﴾ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور \* ومن كفر فلا يحزنك كفره إنا مرجعهم فننبتهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور \* نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴿٢٥﴾ ومن يسلم وجهه إلى الله أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه. ﴿٢٦﴾ وهو محسن في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعاً، قد اتبع فيه الرسول ﷺ أ: ومن يسلم وجهه إلى الله، بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها، بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

أرومن يسلم وجهه إلى الله، بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم.

من جهة [اختلاف] <sup>(١)</sup> مورد اللفظتين،  
وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع  
شرائع الدين، على وجه تقبل به  
وتكمل، فمن فعل ذلك فقد أسلم  
﴿استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي:  
بالعروة التي من تمسك بها، يوثق  
ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل  
خير.

وَمَنْ لَمْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ لِلَّهِ أَوْ لَمْ يَحْسَنْ لِمَ  
يَسْتَمْسِكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَإِذَا لَمْ  
يَسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، لَمْ يَكُنْ ثَمَّ  
إِلَّا الْهَلَاكُ وَالْبَوَارُ. ﴿وَالِىَ اللَّهُ عَاقِبَةُ  
الْأُمُورِ﴾ أَي: رَجُوعُهَا وَمَوْتُهَا  
وَمُنْتَهَاها، فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ، وَيَجَازِيهِمْ  
بِمَا آتَتْ إِلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ، وَوَصَلَتْ إِلَيْهِ  
عَوَاقِبُهُمْ، فَلْيَسْتَعِدُّوا لِدَلَالَةِ الْأَمْرِ.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ﴾  
لأنك أديت ما عليك، من الدعوة  
والبلاغ، فإذا لم يهتد، فقد وجب أجرك  
على الله، ولم يبق للحزن موضع على  
عدم اهتدائه، لأنه لو كان فيه خير  
لهذه الله.

ولا تحزن أيضاً، على كونهم تجرؤوا عليك بالعداوة وناذوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما يودروا بالعذاب.

فَإِنْ عَلِمُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ،  
وَسَعِيهِمْ فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ وَأَذَى  
رَسُولِهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ التي  
ما نطق بها الناطقون، فكيف بما ظهر،  
وكان شهادة!!

﴿نمتعهم قليلاً﴾ في الدنيا، ليزداد  
إثمهم، ويتوفر عذابهم، ﴿ثم  
نضطرهم﴾ أي: [نلجئهم] <sup>(٢)</sup> ﴿إلى  
عذاب غليظ﴾ أي: انتهى في عظمه  
وكبره وفضاعته وألمه وشدته.

﴿٢٥-٢٨﴾ وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ

أَفَرَأَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ رِيحَهُ طَيِّبَةً وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَوَاتِ مَاءً  
يَخْرُجُ مِنْهُ نَهْرٌ وَلَهُدًى وَلَا حَيْبَ تُبِيرُ ❶ فَلَا أَقْبَلَ  
لَهُمْ أَجْرًا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَحْنُ مَرْجُومُونَ ❷ مَا وَجَدَ عَلَيْهِ أَسْمَاءُ  
أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ❸ وَنَ  
يُبْرِئُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَفَوْحٌ مِّنْ قُدْرَةِ اسْتِمْسَاكِ بِالْعَصْوَةِ  
الْوَقْفِ وَاللَّيْلِ عَلَيْهِ الْأُمُورُ ❹ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ  
كَفْرُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ وَفَيَسِّرُ اللَّهُ مَخْلُوقًا لِّرَبِّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ  
بِدَاتِ الْغُيُوبِ ❺ مُبْعِدُهُمْ قِيلًا نَدْنُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ  
عَلِيظٍ ❻ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْخَلْقُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ❼ لِلَّهِ  
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ❽ وَلَوْ أَنَّمَا  
فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَكَلَهُ وَالْجِبَالُ يَدْعُونَ بِعَبْوَةٍ سَبْعَةَ مِائَةِ  
مَآفِقَةٍ كَلِمَتِ الْإِنِّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ❾ مَا ظَلَمَ كُ  
وَلَا يَبْغُزُ الْإِكْفَانِ وَكَذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ❿

هو الغني الحميد \* ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم \* ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير \* أي : ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذابين بالحق \* من خلق السماوات \* لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئاً من ذلك ، وليادروا بقولهم الله الذي خلقهما وحده .

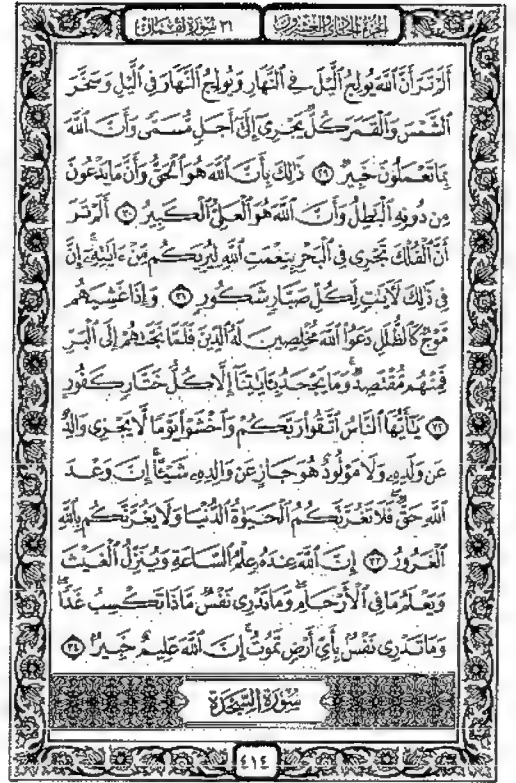
ف ﴿قُل﴾ لهم ملزماً لهم، ومحتجاً عليهم بما أقروا به، على ما أنكروا: ﴿الحمد لله﴾ الذي بينَّ النور، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، فلو كانوا يعلمون، لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير، هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد.

ولكن «أكثرهم لا يعلمون»  
 فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا  
 بتناقض ما ذهبوا إليه، على وجه الحيرة  
 والشك، لا على وجه البصيرة، ثم  
 ذكر في هاتين الآيتين نموذجاً من سعة  
 أوصافه، ليدعو عباده إلى معرفته ومحبه  
 وإخلاص الدين له.

فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في  
السموات والأرض - وهذا شامل  
لجميع العالم العلوي والسفلي - أنه  
ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.



القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد محاليك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. ﴿وما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾.

وأن أعمال النبيين والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظيمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتخير فيه الأفتدة، وتسيح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ يكتب بها

﴿والبحر يملؤه من بعده سبعة أبحر﴾ مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله تعالى، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضالهم وأعلمهم بربه: «لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت <sup>(١)</sup> بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاده، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاد له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾.

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله

وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاها للمخلوق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم وديرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال:

﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات، فقال:

﴿إن الله سميع بصير﴾ ﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿لم تر أن الله يولج

الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير وهذا فيه أيضاً، انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما،

ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون ويتفكرون.

و ﴿كل﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مسمى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة.

﴿وأن الله بما تعملون﴾ من خير وشر ﴿خبير﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

و ﴿ذلك﴾ الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين ﴿بأن الله هو الحق﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسوله حق، ووعدته حق، ووعدته هي الحق.

﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ في ذاته وصفاته، فلولاً لإيجاد الله له لما وجد، وللولاً إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً، كانت عبادته أبطال وأبطل.

﴿وأن الله هو العلي﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم، ﴿الكبير﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده، أن سخر البحر، تجري فيه الفلك بأمره القدري

[ولطفه وإحسانه، ﴿ليريكم من آياته﴾ ففيها الانتفاع والاعتبار] (١).

﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فهم المتفكرون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدنيوية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلل فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [لله] (٣) والعبادة: ﴿فلما نجاهم إلى البر﴾ انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار﴾ (٤) أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر، ولم يف بذلك، ﴿كفور﴾ بتعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

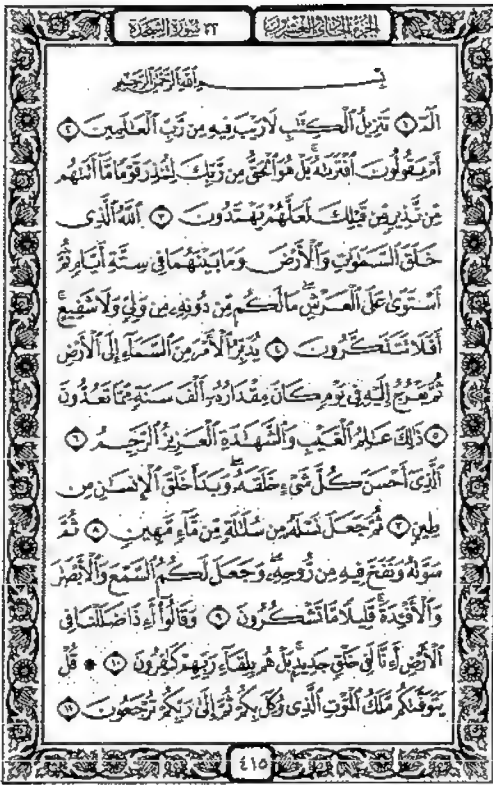
﴿٣٣﴾ ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجه، ويستلقتهم خشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد لا يهيم إلا نفسه، ف ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: كالظلل.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) كذا في ب، وزاد في أ: قوله تعالى: ﴿كفور﴾.



فلقت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إن وعد الله حق﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن.

﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن الله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتناء، والشيطان



بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟  
فيقضى الله ما يشاء.

﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا﴾  
 من كسب دينها ودنياها، ﴿وما تدري  
 نفس بأي: أرض تموت﴾ بل الله تعالى  
 هو المختص بعلم ذلك جميعه .

ولا خصص هذه الأشياء، عَمَّم  
علمه بجميع الأشياء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عَيِّطَ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ،  
وَالْخَفَايَا وَالْخَبَايَا وَالسَّرَائِرَ، وَمَنْ  
حَكَمْتَهُ التَّامَّةُ، أَنَّ أَخْفَى عِلْمِ هَذِهِ  
الْخَمْسَةِ عَنِ الْعِبَادِ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ  
الْمَصَالِحِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَدَبَّرَ  
ذَلِكَ.

تم تفسير سورة لقمان  
بفضل الله وعونه ، والحمد لله

تفسير سورة السجدة  
وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ أَلَمْ \* نُنزِلِ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ  
فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ  
بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا  
مَنْ أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ  
يَتَذَكَّرُونَ﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ  
الْكَرِيمَ ، أَنَّهُ تَنْزِيلُ نَزَلَ مِنْ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ ، الَّذِي رِيَاهُمْ بِنِعْمَتِهِ .

ومن أعظم ما رباهم به، هذا الكتاب، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ، بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق.

وكل واحد من هذه الأمور العظام، قال الله - راداً على من قال: افتراء: - ﴿يَلْهُو الْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ﴿من

(۲) فی ب: بخبر غیر مطابق للواقع.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْخَضِرُ مَوْتًا تَاجِسُوا بِهِ غَبَرَةً وَإِنَّا مُنْشِرُونَ ٥١  
أَمِيرًا وَنَحْنُ أَكْبَرُ فَكَانَ جَعْفَرٌ تَقْصِلُ صِلَاهُ إِذَا مَوْتٌ ٥٢  
وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْيَتَامَىٰ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ مِنْهُنَّ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ الْقَوْلِ وَيَنْهَوْنَ  
لَا تَقْلُدَنَّ جَعْفَرَ مِنَ الْيَتَامَىٰ وَالْيَتَامَىٰ لَكُمْ حَقٌّ فَذُرُوا ٥٣  
بِمَا تَحِبُّونَ لَمَّا قَامَ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُنْفِكُ بَيْنَهُمْ وَرَبُّهُمُ اقْدِ  
الْخُلُقَ إِنَّمَا يَكُن لَّكُم مَعْلُومٌ ٥٤ إِذَا مَوْتٌ بِأَيْتَانِ الْيَتَامَىٰ  
إِذَا ذَكَرُوا بِهَا أَخْرَجُوا إِلَيْهَا لِيُحْكَمَ فِيهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٥٥  
تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ بِهِمْ حَقًّا وَطَعْمًا وَخِذَا رَافَعُ يَتَفَكَّرُونَ ٥٦  
فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ٥٧ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ٥٨  
إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَوَالِي  
ثَلَاثًا ٥٩ أَفَمَن كَانَ يَمُورًا لَّا يَمُورُ ٦٠ وَأَمَّا الْيَتَامَىٰ فَهُوَ أَقْرَبُ مِنْهُم  
أَلَسَّ كُنْتُمْ أَعْيُنًا أَوْ أَنصُرُوا مَوَالِيَهُمْ ٦١ أَوْفُوا بِوَعْدِكُمْ  
وَلَوْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ٦٢

الموسوس المَسْئُول، فنهى تعالى عباده أن  
تقرهم الدنيا أو يقرهم بالله الغرور  
يقرهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان  
الإغوراء.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه [الأمور]<sup>(١)</sup> الخمسة، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: يعلم متى مرساها، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَتَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ الآية.

﴿وينزل الغيث﴾ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله.

﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى، ولهذا يسأل الملك الموكل

(١) زيادة من : ب.

ربك ﴿ أنزله رحمة للعباد ﴾ لتتذروا ما  
أنهتكم من نذير من قبلك ﴿ أي : هم في  
حال ضرورة وفاقاة لإرسال الرسول  
وانزال الكتاب ، لعدم النذير ، بل هم  
في جهلهم يعمهون ، وفي ظلمة  
ضلالهم يترددون ، فأنزلنا الكتاب  
عليك ﴿ لعلهم يتدبرون ﴾ من ضلالهم ،  
فيعرفون الحق فيؤثرونه .

وهذه الأشياء التي ذكرها الله، كلها مناقضة لتكذيبهم له، وإنها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو كونه ﴿من رب العالمين﴾ وأنه ﴿الحق﴾ والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿لا ريب فيه﴾ بوجه من التوجوه، فليس فيه ما يوجب الريبة، لا بخبر لا يطابق للمواقع <sup>(٢)</sup>، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

﴿٤ - ٩﴾ ﴿الله الذي خلق  
السموات والأرض وما بينهما في ستة  
أيام ثم استوى على العرش ما لكم من  
دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾  
يدير الأمر من السماء إلى الأرض ثم  
يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة  
ما تعدون﴾ ذلك عالم الغيب والشهادة  
العزیز الرحیم﴾ الذي أحسن كل  
شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من  
طين﴾ ثم جعل نسله من سلالة من ماء  
مهيّن﴾ ثم سواه ونفخ فيه من روحه  
وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة  
قليلا ما تشكرون﴾ يخبر تعالى عن  
كمال قدرته بخلق ﴿السموات  
والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ أولها  
يوم الأحد وآخرها الجمعة، مع قدرته  
على خلقها بلحظة، ولكنه تعالى رفيق  
حكيم.

﴿ثم استوى على العرش﴾ الذي هو  
سقف المخلوقات، استواء يليق  
بجلاله. ﴿ما لكم من دونه من ولي﴾  
يتولاكم في أموركم فينفعكم  
﴿ولا شفيع﴾ يشفع لكم إن توجه  
عليكم العقاب.

(٢) في ب: بخبر غير مطابق للواقع.







٤١٨

ثبوتاً لا تغير فيه .

﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي .

﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي : يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستدركوا ما فاتهم، قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك، أي : بما عرضتم عنه وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه .

﴿إننا نسيناكم﴾ أي : تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسينكم، ووذوقوا عذاب الخلد﴾ أي : العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التفتيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعادنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها .

﴿بما كنتم تعملون﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي .

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم

لا يستكبرون \* تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون \* فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال : ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ [أي : (١)] إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم : ﴿الذين إذا ذكروا﴾ بآيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن، وأنتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودُعوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و ﴿خروا سجداً﴾ أي : خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته .

﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ لا يقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، والتسليم وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم .

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي : ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى .

ولهذا قال : ﴿يدعون ربهم﴾ أي : في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارها . ﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي : جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه .

﴿ومما رزقناهم﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿ينفقون﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على الغموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء

وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم .

وأما جزاؤهم، فقال : ﴿فلا تعلم نفس﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي . أي : فلا يعلم أحد ﴿ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله : ﴿أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر﴾ .

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال : ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾

﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستويون﴾ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون \* وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ ينه تعالى العقول على ما تقرر فيها، من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال : ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ قد عمّر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي (٢) يضر وجودها بالإيمان .

﴿كمن كان فاسقاً﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بنفسه عن طاعة الله .

أفيستوي هذان الشخصان؟ ﴿لا يستويون﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة .

﴿أما الذين آمنوا وعملوا

(٢) كذا في ب وفي أ: الذي .

(١) زيادة من : ب .

الصالحات ﴿من فروض ونوافل﴾ فلهم جنات المأوى ﴿أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نزلاً﴾ لهم، أي: ضيافة وقرى ﴿بما كانوا يعملون﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بسالجنود والخدم، ولا بسالولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي: مقرهم ومحل خلودهم، النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُقَرَّرُ عنهم العقاب ساعة.

﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب. ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

﴿٢١﴾ ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾

أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ ثم

يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالاتها ظاهرة، فإنه قال: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾ أي: لا أحد أظلم وأزيد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد العقوبة، ولهذا قال: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾.

﴿٢٣-٢٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي

قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما، ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل.

﴿وجعلناه﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه<sup>(١)</sup>، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق، في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكمالهم وعلوهم ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾.

﴿وجعلنا منهم﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أئمة يهدون بأمرنا﴾ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جاحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات.

﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعليماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتي وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وتم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمداً، والله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة فيما

(١) في النسختين: وفروعه، ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.

كانوا فيه يختلفون ﴿ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عده مما خالفه باطل.

﴿ ٢٦ - ٢٧ ﴾ ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ يعني: أولم يتبين لهؤلاء الكاذبين للرسول، ويهدمهم إلى الصواب. ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من القرون ﴾ الذين سلكوا مسلكهم، ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح، وقوم لوط.

﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، ويطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، فعمل بهم كما فعل بأشياءه من قبل.

وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد. ﴿ أفلا يسمعون ﴾ آيات الله فيعونها فيتفتعون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة<sup>(١)</sup> يجزم بها بالهلاك.

﴿ أولم يروا ﴾ بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا ﴿ أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار. ﴿ فنخرج به زرعاً ﴾ أي: نباتاً مختلف الأنواع ﴿ تأكل منه أنعامهم ﴾ وهو نبات البهائم، ﴿ وأنفسهم ﴾ وهو طعام الآدميين.

﴿ أفلا يبصرون ﴾ تلك المنة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهددون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك

بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

﴿ ٢٨ - ٣٠ ﴾ ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاندة.

﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعدينا على زعمكم ﴿ إن كنتم ﴾ أيها الرسل ﴿ صادقين ﴾ في دعواكم.

﴿ قل يوم الفتح ﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إيمانكم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾ لأنه صار إيمان ضرورة، ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿ فأعرض عنهم ﴾ لما وصل خطايبهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿ وانتظر ﴾ الأمر الذي يحل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿ إنهم منتظرون ﴾ بك رب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للفقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله  
ومنه لله تعالى كمال الحمد  
والثناء والمجد

### تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ ﴿ واتبع ما يوحى إليك من

ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى عبادته وحيه، وابذل النصيحة للخلق.

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يزدك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعهم في بعض الأمور، التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب.

﴿ ولكن ﴾ ﴿ اتبع ما يوحى إليك من ربك ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خير، يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل تقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماداً من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

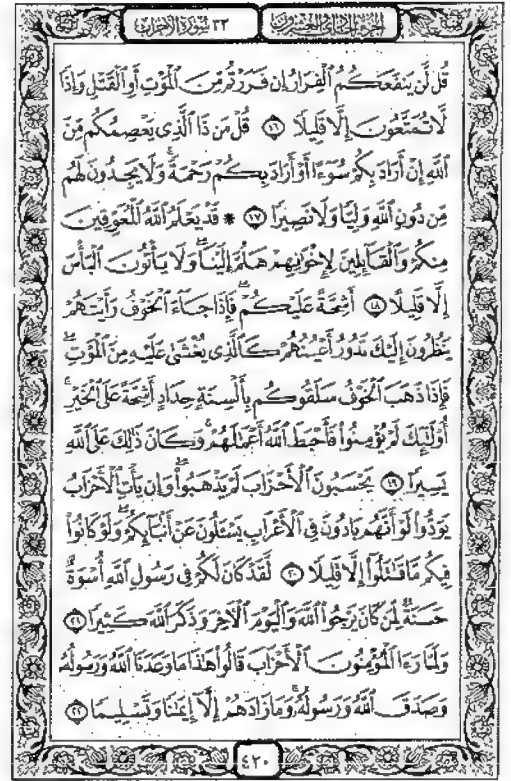
﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصليح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عيده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه، ومن والديه، وأرأف به من كل أحد،

(١) كذا في ب، وفي أ: على حالة لم يجزم، والصواب - والله أعلم - حذف لم.









﴿ولكن﴾ يؤاخذكم بما ﴿تعمدت قلوبكم﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم، فله الحمد تعالى.

﴿٦﴾ ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة والسلام، بذل لهم من النصيح والشفقة والرأفة، ما كان به أرحم الخلق وأرفهم، فرسول الله أعظم الخلق مئة عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسيه.

فلذلك، وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس،

مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد، كائناً من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه. وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يري الولد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان قبل يدعى: «زيد بن محمد» حتى أنزل الله ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ فقطع نسيبه وانتسابه منه، فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يجوز ولا بأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا يحملن لأحد من بعده، كما الله صرح<sup>(١)</sup> بذلك: ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾.

﴿وأولوا الأرحام﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [أي: <sup>(٢)</sup> في حكمه، فيرتب بعضهم بعضاً، ويبر بعضهم بعضاً، فهم أولى من الخلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب، دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك وجعله للأقارب، لطفاً منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة، لحصل من الفساد والشر والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير.

﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وهذه الآية حجة

على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات، كولايات النكاح والمال، وغير ذلك.

﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعاً وتعطوهم معروفاً منكم، ﴿كان﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من نفوذه.

﴿٧-٨﴾ ﴿وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون - خصوصاً، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم، محمد ﷺ، وأمر الناس بالافتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

﴿٩-١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقبوا

(٢) زيادة من: ب.

(١) في: ب: كما سيصرح بذلك.

وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق. وما لأنهم [طوائف] <sup>(١)</sup> اليهود الذين حوالى المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.

وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحاصروا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته.

﴿هَنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الفتنة العظيمة ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ بالخوف والقلق والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيمانهم، فظهر - والله الحمد - من إيمانهم وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وهناك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة <sup>(٢)</sup>، ويصدق ظنه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُنَافِقِينَ﴾ بعدما جزعوا وقل صبرهم، صاروا أيضاً من المخذلين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من

شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾، فنادوهم باسم الوطن النبيء [عن التسمية] <sup>(٣)</sup>، فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك، مجرد الخور الطبيعي.

﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة، فهذه الطائفة تحذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمرونهم بترك القتال، فهذه الطائفة أشد الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخللوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعداء الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن غيب عنها، فأذن لنا نرجع إليها، فنحرسها، وهم كذبة في ذلك.

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يَرِيدُونَ﴾ أي: ما قصدهم إلا فراراً ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذراً. [لهم] <sup>(٤)</sup> فهؤلاء قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ﴾ من أقطارها أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها - لا كان ذلك - ﴿ثُمَّ سئلَ هَؤُلَاءُ﴾ الفتنة أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين ﴿لَا تَوْهَا﴾ أي: لأعطوها مبادرين.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم، هذه حالهم.

والحال أنهم قد عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً سيألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذا برهم؟

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم، لانتمأ على فرارهم، وغبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً ﴿لَن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فلو كنتم في بيوتكم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت <sup>(٥)</sup> كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه.

﴿وَإِذَا﴾ حين فررتهم لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعموا في الدنيا فإنكم ﴿لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ متاعاً لا يسوى فراركم، وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي، في النعيم السرمدى.

ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أَرَادَهُ اللهُ بسوء، فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ أي: يمنعكم من الله إن أراد بكم سوءاً أي: شرّاً، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع <sup>(٦)</sup> ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ينصرهم، فيدفع عنهم المضار.

فَلْيَمْتَثِلُوا طاعة المنفرد بالأمور كلها، الذي نفذت مشيئته، ومضى قلبه، ولم يتفع مع ترك ولايته ونصرته ولي ولا ناصر.

ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين، وعندهم فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْقُوقِينَ﴾ عن الخروج لمن [لم] <sup>(٧)</sup> يخرجوا والقائلين لإخوانهم الذين خرجوا:

(٦) في ب: المنافع.

(٧) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: بطل.

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: الحاضرة.

(٣) زيادة من: ب.

﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

وهم مع تعويقتهم وتحذيلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم أشد الناس حرصاً على التخلف، لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجبن، من الشقاق وعدم الإيمان.

﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ﴾ بأبدانهم عن القتال، وأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ نظر المغشي عليه ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من شدة الجبن الذي خلغ قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ وَصَارُوا فِي حَالِ الْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ﴾ سلقوكم بالسنة ﴿أَي: خَاطَبُوكُمْ وَتَكَلَّمُوا مَعَكُمْ بِكَلَامٍ حَدِيدٍ، وَدَعَاوَى غَيْرَ صَحِيحَةٍ﴾.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، ﴿أَشْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم، ﴿وَكُنَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووقفهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿يُحْسِنُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي:

يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم.

﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ﴿يُودُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، وذو هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنباءكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبأ لهم، وبعداً فليسوا عن يبالى<sup>(١)</sup> بحضورهم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وياشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه!!

فتأسوا به في هذا الأمر وغيره. واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ، فإن المتأسي به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم.

وأما الأسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار<sup>(٢)</sup> حين دعتهم الرسل للتأسي [بهم]<sup>(٣)</sup>: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾.

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، مَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، فَإِن مَّا مَعَهُ<sup>(٤)</sup> من الإيمان،

وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسي بالرسول ﷺ. لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف،

ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف، ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فإنما رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأديار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: وفوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارع في قضاء ما عليه، وفاء نحبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكمله، ساج في ذلك مجد.

﴿وَمَا يَبْدُلُوا تَبْدِيلًا﴾ كما بدّل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن<sup>(٥)</sup> عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهريهم وباطنيهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

(٥) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب

ما أثبتته.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

(١) في ب: يقال.

(٢) في ب: المشركين.







أي: فاحمدوا ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتتزكى نفوسكم، ولتظهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله، القرآن، والحكمة، أسرارها، أو سنة رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكير فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك أسرار<sup>(٥)</sup> الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر.

فلطفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً<sup>(٦)</sup> إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش<sup>(٢)</sup> لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويمجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليعرف أن ذلك مرض.

فليجتهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديئة، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لكن، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها [الحاجة]<sup>(٣)</sup> النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِيعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمراً به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمركن به، ونهيكن بما<sup>(٤)</sup> نهاكن عنه، ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: الأذى والشر والخبث، يا أهل البيت ويطهركم تطهيراً حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

الصحيح<sup>(١)</sup>، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدعوه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاضى عليه، فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بلين خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: «فلا تلين بالقول» وذلك لأن النهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً ليناً ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للمخضوع، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ وقال موسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى.

ودل قوله: ﴿فِي طَمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد

(١) زيادة من: ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: عما.

(٥) في ب: سرائر.

(٦) زيادة من: ب.

عظيماً لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن [لو قدر عدم الامتثال]<sup>(١)</sup> وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.

ولما كان حكمهن والرجال واحداً، جعل الحكم مشتركاً، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قاطنين بها. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ أي: المطيعين لله ولرسوله ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ في مقالهم وفعالهم ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ والصابرين على الشدائد والمصائب ﴿وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصاً في عباداتهم، خصوصاً في صلواتهم ﴿وَالْخَاشِعَاتِ﴾ والمتصدقين قرضاً وتفضلاً ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ شمل ذلك القرض والنفل. ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ والذاكرين الله كثيراً أي: <sup>(٢)</sup> في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد المفيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعدد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بالمغفرة

لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة. ﴿وَإِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحثماً به والزمّاً به ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاً بينه وبين أمر الله ورسوله.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا﴾ أي: بيتاً، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والنكال.

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، وكان زيد بن حارثة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ ف قيل له: «زيد بن حارثة».

وكانت تحت زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوجها، فقدّر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعق<sup>(٣)</sup>، حين جاءك مشاوراً في فراقها: فقلت له ناصحاً ونخبراً بمصلحته<sup>(٤)</sup>، مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى تحت على الصبر وتأمر به.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد لتزوجها ﷺ.

﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ <sup>(٥)</sup> وأن لا تباليهم شيئاً، فلما قضى زيد منها وطراً أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها. ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وإنما

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في هامش ب: والإرشاد والتعليم.

(٤) في هامش ب: مقدماً لها على رغبتك.

(٥) في هامش ب: فإن خشيتك جالبة لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).

فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي:  
«لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم» حيث رآوك تزوجت زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل يتسبب إليك.

ولما كان قوله: «لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم» عاماً في جميع الأحوال وكان من الأحوال، ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: «إذا قضوا منها وطراً وكان أمر الله مفعولاً» أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد، منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين أحدهما: أن الله سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره.

والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن، ظاهراً وباطناً، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن المعتق في نعمة المعتق. ومنها: جواز تزوج زوجة الدعي، كما صرح به.

ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القول، خصوصاً إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، لغير زوجته ومملوكته ومخارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يائمه عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته، أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئاً مما أوحى إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه عتابه.

وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير<sup>(١)</sup>، ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشار على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي: الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: [أنه يتعين]<sup>(٢)</sup> أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السغي فيه وفي أسبايه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره، حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، وهي في عصمتها، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً \* الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً \* هذا دفع لطعن من طعن في الرسول ﷺ، في كثرة أزواجه، وأنه طعن بما لا مطعن فيه، فقال: «ما كان على النبي من حرج» أي: إثم وذنوب. «فيما فرض الله له» أي: قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال:

وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٣٨﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخَوِّفِي فِي فَتْيِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ يَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ اللَّهُ عَنِ الْفَوَاحِشِ لَأَفْعَلُوا فَمَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ عَلَى النَّبِيِّ وَلَا عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي الْأُمُورِ الْحَالِيَةِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَكْثَرُ نَكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَيُجَنَّبُكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكُمْ وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْكُمْ عَلَى بُرُكَاكُمْ وَمَا لَكُمْ لَا تُحَرِّمُ الْمُنَافِقِينَ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾

«سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً» أي: لا بد من وقوعه. ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعاداتهم، وأنهم «الذين يبلغون رسالات الله» فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله «ويخشونه» وحده لا شريك له «ولا يخشون أحداً» إلا الله.

فيذا كان هذا سنة في الأنبياء المعصومين، الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله، والخشية منه وحده، التي تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل محذور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه.

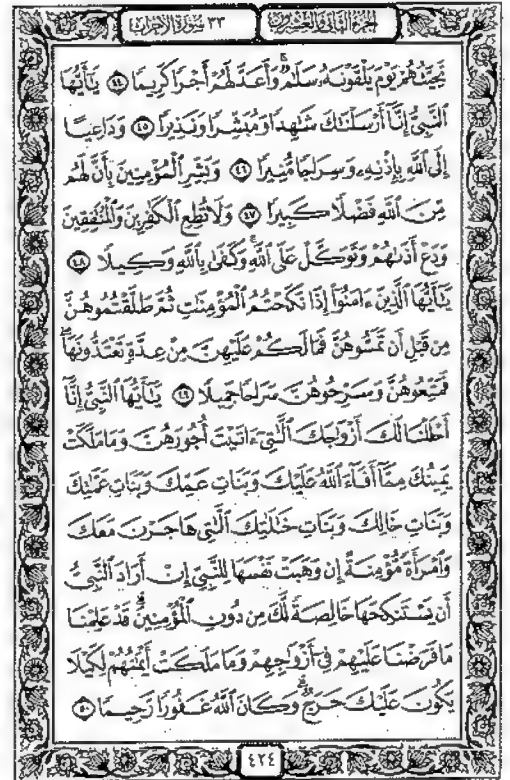
«وكفى بالله حسيباً» محاسباً عباده، مراقباً أعمالهم. وعلم من هذا، أن النكاح من سنن المرسلين.

﴿٤٠﴾ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً \* أي: لم يكن الرسول «محمد» «أباً أحد» من رجالكم «أيها الأمة» فقطع انتساب زيد بن حارثة منه، من هذا الباب.

ولما كان هذا النفي عاماً في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمستشار، ولعل الصواب ما أثبت - والله أعلم -.

(٢) زيادة من: ب.



ظاهرة، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور، فقال: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له، الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من بره [ونصحه]<sup>(١)</sup>، كأنه أب لهم.

﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿٤١ - ٤٤﴾ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا \* وسبحوه بكرة وأصيلًا \* هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً \* تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً \* يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكرًا كثيرًا، من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قرينة إلى الله، وأقل ذلك، أن يلازم الإنسان أورد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.

وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات، على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

﴿وسبحوه بكرة وأصيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره، لفضلها وشرفها، وسهولة العمل فيها.

﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حلة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمدهم ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعا أسيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ \* ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم \* وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم.

فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف كنهه، إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \*

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً \* وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً \* ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً \* هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه ﴿شاهداً﴾ أي: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً \* فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني، والثالث: كونه ﴿مبشراً ونذيراً﴾ وهذا يستلزم ذكر البشر والمندر، وما يبشر به وينذر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمبشر هم: المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشري في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور، من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والمندر، هم: المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم، وفي الآخرة، بالعقاب الوبيل، والعذاب الطويل.

وهذه الجملة تفصيلها، ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل على ذلك.

الرابع: كونه ﴿داعياً إلى الله﴾ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم<sup>(٢)</sup> لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم

(٢) في ب: يشوقهم.

(١) زيادة من: ب.

الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا محل له.

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أوضح قولي العلماء.

ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخير به عن المؤمنين، على وجه لم يلزمهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازها قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول.

وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء، كما هو مجمع عليه؟ أو وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول تنصّف المهر، وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلاً، يحمد فيه كل منهما الآخر.

ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج، لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ﴾ دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة [وعلى أن المفارقة

يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المرتبة على ما يرهيب منه، ليكون عوناً على الكف عما حرم الله.

ولما كان ثم طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان، وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهي الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْعَمُوا كَافِرِينَ وَنَافِقِينَ﴾ أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، [بل لا تطعمهم] ﴿وَدَعُوا إِلَى قَبُولِ الْإِسْلَامِ، وَإِلَى كَفِّ كَثِيرٍ مِنْ أَذْيَتِهِمْ لَهُ وَلِأَهْلِهِ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك، ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تُوَكَّلْ إِلَيْهِ الْأُمُورُ الْمَهْمَةُ، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿٤٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدنها<sup>(٣)</sup> أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعنهن<sup>(٤)</sup> بهذه الحالة، بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً، من غير خاصمة ولا مشاقمة ولا مطالبة، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح. فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فجعل

بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يبتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها<sup>(١)</sup>، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضللاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ ذكر في هذه الجملة البشّر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر البشّر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدائرة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به

(١) كذا في ب، وفي أ: جهاتها.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في النسختين ولعل الصواب تعتدنها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بتمتعن.



بالوفاة تعدد مطلقاً لقوله: ﴿ثم طلقتموهن﴾ الآية<sup>(١)</sup>.

وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿٥٠﴾ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً يقول تعالى، ممتناً على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون، وما ينفرد به ويختص: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي: أعطيتهن مهورهن، من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين [فإن المؤمنين]<sup>(٢)</sup>، كذلك يباح لهم ما<sup>(٣)</sup> آتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿٥١﴾ كذلك أحللنا لك وما ملكت يمينك﴾ أي: الإماء التي ملكت مما أفاء الله عليك من غنمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحلات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة

النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿٥٢﴾ أحللنا لك امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ بمجرد هبتها نفسها.

﴿٥٣﴾ إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ يعني: إباحة المؤهبة<sup>(٤)</sup>. وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿٥٤﴾ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وأباحت لك يا أيها النبي ما لم ينبح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع على غيرك، ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿٥٥﴾ وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لم

يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، ويتزل على عباده من مغفرتة ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿٥٦﴾ ترجي من تشاء منهم وتتويي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهم﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبين عندها]<sup>(٥)</sup>، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها وتبين عندها.

﴿٥٧﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر من ابتغيت﴾ أي: تؤويها ﴿فلا جناح عليك﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها والله أعلم]<sup>(٦)</sup>.

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذلك﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لازم.

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: المؤهوبة.

(٥) زيادة من ب.

(٦) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة : ﴿وما كان لكم﴾ يا معشر المؤمنين ، أي : غير لائق ولا مستحسن منكم ، بل هو أقبح شيء ﴿أن تؤذوا رسول الله﴾ أي : أذية قولية أو فعلية ، بجميع ما يتعلق به ، ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا﴾ هذا من جملة ما يؤذيه ، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام ، وتزوج زوجاته

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأرجبه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ \* والذي يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴿٥٨﴾ لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ، والصلاة والسلام عليه، نهى عن أذيته، وتوعد عليها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى. ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم [في الدنيا] <sup>(٤)</sup>، أنه يحتمل قتل من شتم الرسول ﷺ وأذاه.

﴿وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ جزاء له على أذاه، أن يؤذى بالعذاب الأليم، فأذية الرسول ليست كأذية غيره، لأنه - ﷺ - لا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله ﷺ. وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان، ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره.

وإن كانت أذية المؤمنين عظيمة، وإثمها عظيماً، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغير ما اكتسبوا﴾ أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا﴾ على ظهورهم ﴿بهتاناً﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها.

ولهذا كان سبب آحاد المؤمنين موجباً للتعزير، بحسب حالته وعلو مرتبته، فتعزير من سب الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿٥٩-٦٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ

احتجابين عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى، المصروفة بذكر العم والخال مقدمة، على ما يفهم من هذه الآية.

وقوله: ﴿وَلَا نَسْأَلُهُنَّ﴾ أي: لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نسائهن، أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً للنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه.

ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي، فقال: ﴿وَإِتَّقِينَ اللَّهَ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ﴾ عليه، أي: يشي الله عليه بين الملائكة، وفي الملائكة الأعلى، لمحبتة تعالى له، وتشني عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم، وتكفيراً من سيئاتكم وأفضل هيئات الصلاة عليه الصلاة والسلام، ما علم به أصحابه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَلَئِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغير مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَإِذْ جِئْتُكَ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ رَبِّكَ فَلَا تُؤْذِينِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتَ اللَّهِ فَهُمْ فِي سبِيلٍ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَيْمَانِ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٦٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّخَذُوا فَتُنَادُوا لَهُمْ نَبَاتًا وَمَا بِكُم مِّنْ حَافِظٍ يَنصِرُكُمْ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ هَذِهِ السُّبُلَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّخَذُوا فَتُنَادُوا لَهُمْ نَبَاتًا وَمَا بِكُم مِّنْ حَافِظٍ يَنصِرُكُمْ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ هَذِهِ السُّبُلَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

[بعده] <sup>(١)</sup> محل هذا المقام.

وأيضاً، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته. ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، والله الحمد والشكر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ أي: تظهروه ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ يعلم ما في قلوبكم وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه.

﴿٥٥﴾ ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نَسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَإِتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أنهم لا يسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عاماً [لكل أحد] <sup>(٢)</sup>، احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم.

ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال، لأنهم إذا لم يحتجب عن عمتهم ولا <sup>(٣)</sup> خالاته، من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهم عليهم، فعدم

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في ب: بدون (لا) وهو الأقرب. (٥) في ب: يتحتم.

(٤) زيادة من: ب.

لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدين عليهن من جلابيهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً \* لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً \* ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً \* سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً \* هذه الآية التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بنزواته وبناته، لأنهن أكد من غيرهن، ولأن الأمر [الغيره] <sup>(١)</sup> ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾.

أن «يدين عليهن من جلابيهن» وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحقة وخمار ورداء ونحوه، أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن.

ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ دل على وجود أذية إن لم يحتجبن، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذين، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لطامع الطامعين فيهن.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم، بأن بين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتهن.

وأما من جهة أهل الشر فقد توعدهم بقوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: مرض شك أو شهرة «والمرجفون في المدينة» أي: المخوفون المريبون الأعداء، المحدثون <sup>(٢)</sup> بكثرتهم وقوتهم، وضعف

المسلمين.

ولم يذكر المعمول الذي يتتهون عنه، ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من الشر، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لنغرينك بهم﴾ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم.

وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون «ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً» أي: مبغدين أين وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر <sup>(٣)</sup> لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يحبسوا، أو يعاقبوا.

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أن من تبادى في العصيان، وتجراً على الأذى، ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة. ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي: تغييراً، بل سنة الله تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها <sup>(٤)</sup>.

﴿٦٣ - ٦٨﴾ ﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً \* خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً \* يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول \* وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا

يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً \* إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً \* خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً \* يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول \* وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً \* ربنا انهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبرياً \* يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبأنه الله سبحانه قالوا وكان عند الله وجيهاً \* يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً \* يسئلكم عنكم ولتقتلنكم وتزنيكم وتكونوا من طيع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً \* إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان فإنه كان ظلوماً جهولاً \* لعن الله الموثقين والمنفقين والمشركين والمستركين وتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكانت الله غفوراً رحيماً \* ﴿٦٧﴾

وكبراءنا فأضلونا السبيلاً \* ربنا آثم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ أي: يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكديماً لوقوعها، وتعجيزاً للذي أخبر بها. ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما علمها عند الله﴾ أي: لا يعلمها إلا الله، فليس لي ولا لغيري بها علم، ومع هذا، فلا تستبطؤوها.

﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ ومجرد تحجيء الساعة، قريباً وبعداً، ليس تحته نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة والخسار والربح، والشقاء <sup>(٥)</sup> والسعادة، هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها.

فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب، لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ [أي: <sup>(٦)</sup> الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسوله، وبما جاؤوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقاباً، وأعد لهم سعيراً﴾ أي: ناراً موقدة، تسع

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا يقرر.

(٥) كذا في النسختين ولعله والله أعلم

المقتضية لمسياتها.

(٦) كذا في ب، وفي أ: قد.

(٧) في ب: والشقاوة.

(٨) زيادة من: ب.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: المتحدثون.

(٣) في ب: حيث.



القول الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول الشديد، لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقول القول الشديد فقال: ﴿يصلح لكم أعمالكم﴾ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً] بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلال بالتقوى والقول الشديد، سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

﴿ويغفر لكم﴾ أيضاً ﴿ذنوبكم﴾ التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

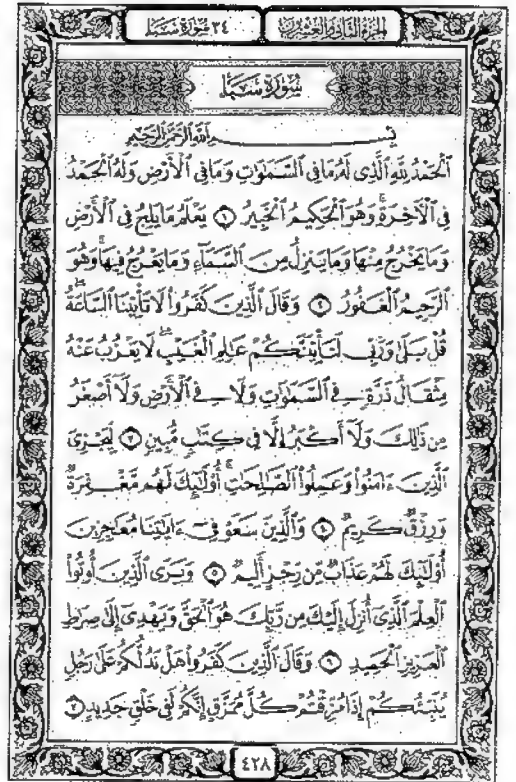
﴿٧٢ - ٧٣﴾ ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً يعظم تعالى شأن الأمانة التي اتّمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه

مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا عن أضلوهم، فقالوا: ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ فيقول الله لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿٦٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أظهر الله لهم براءته.

والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عبادة المخلصين، فلم يجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى<sup>(١)</sup> لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: ﴿إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه أدر﴾ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فاهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمّر به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً﴾ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول الشديد، وهو



في أجسامهم، ويبلغ العذاب أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يفتر عنهم ساعة.

ولا يجدون لهم ولياً فيعطيهما ما طلبوه ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع عنهم العذاب، بل قد تحلى عنهم الولي والنصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾ فيذوقون حرها، ويشد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب. ولكن أمانة فات وقتها، فلم تفدهم إلا حسرة وندماً، وهماً، وغماً، وألماً.

﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾ وقلدناهم على ضلالهم، ﴿فأضلونا السبيلاً﴾.

كقوله تعالى: ﴿يوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم



تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنت إن قُمت بها وأديتها على وجهها فلك الثواب، وإن لم تقومي بها [ولم تؤديها] فعليك العقاب.

﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصياناً لربهن، ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل - فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام:

منافقون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قائمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾. فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب

بحمد الله وعونه

### تفسير سورة سبأ وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴿الحمد: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة، فله تعالى الحمد، لأن جميع صفاته يحمد عليها، لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي

يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه.

وحد نفسه هنا، على أن ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحمده. ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه، ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم ورأى الناس والخلق كلهم، ما حكم به، وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب، فذلك شيء قد تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي، فإنهم في الجنة، يرون من توالي نعم الله، وإدراك خيره، وكثرة بركاته، وسعة عطايه، التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة، إلا وقد أعطي، فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم، ولم يخطر بقلوبهم.

فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال، مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع، التي تقطع عن معرفة الله ومحبه والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم، وألذ عليهم من كل لذة، ولهذا إذا رأوا الله تعالى، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم، أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنفس، متواصلاً في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت، من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله، ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه.

﴿وهو الحكيم﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿الخبير﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: من مطر، ويذر، وحيوان ﴿وما يخرج منها﴾ من

أفترى على الله كذباً أريباً، فإنه لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والعقاب البعيد ﴿أفترى إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن لنا أخف بهم الأرض أو نشوط عليهم كسائين السماء إن شئنا ذلك آية لعلهم يرجعون﴾ \* ولقد آتينا داود منا فضلاً ليجال آتينا معه الظفر والناالة الحديد ﴿إن أعجلنا كسيت وقدر في الشدة وأعملوا أصلياً إن يأمركم بصير﴾ \* ولما بين الربيع عذوها كسيت وزواجرها شهور وأسكننا الموضع القطر ومن آتينا من يعمل بين يديه ياذن ربهم ومن بين يديهم عن أمرنا نذره من عذاب السعير ﴿يؤمنون للملائكة من غير تحيز ولا قبل ولا عتاب وقد ورثنا بيتاً أعلموا آل داود شكرنا وقليل من عبادنا الشكور﴾ \* فلما قضيت عليه الموت ما دله على موته إلا آتاه الأرض تأكل منسأته فلما خسر بين الجن أن لو كانوا آمنون بالكتب ما لبثوا في العذاب المهين ﴿٢٩﴾

أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك.

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تنزل آثارها تنزل على عباده كل وقت، بحسب ما قاموا به من مقتضياتها.

﴿٣ - ٥﴾ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصفر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ \* ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم \* والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم ﴿لما بين تعالى عظمتها بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر ربها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمتها، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: بالله وبرسله، وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْجِدِهِمْ آيَةٌ جِئَانُ عَيْنَ يَمِينٍ وَبَنَاءٍ لِ  
كُلِّ امْرِئٍ رِزْقٍ رَزَقُوا وَاشْكُرُوا لِلَّهِ الْبَلَدَ طَيِّبَةً وَرَبِّ عَمْرٍوس  
فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَمْرِىَ فَوَيْلٌ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ  
جِئْتَنِي دُونَ أَكْلِ خَطْبٍ وَأَنَّى يُؤْتَى مِن يَدِ قَلِيلٍ  
ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَأْكفُرُوا وَعَلَى عَذَابٍ إِلَّا لِيُؤْذِنُوا  
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَنَكُمَا فَيَنْتَظِرُونَ  
وَقَدْ زَانُوا فِيهَا السَّيْرُ سَيْرُوا فِيهَا أَيْلًا وَآيَآمًا آمِنِينَ  
فَقَالُوا لَوْلَا جِئَانُ بَعْدَ بَيْنِ أَشْقَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَعَمَلُهُمْ  
أَحَادِيثٌ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْزُقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ  
صَبَّارٍ كَوَّيرٍ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ مَا لَبِيسٌ فَلَمَّا بَلَغُوا  
إِلَاقَةَ رِيَاقِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ  
شَاطِنٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ الْآخِرَةَ مِن هُوْنَهَا فِي شَأْنِكِ  
وَرَبَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَفَعْتُمْ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا  
فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شَيْءٍ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله،  
ويقسم على البعث، وأنه سيأتيهم،  
واستدل على ذلك بدليل من أقر به،  
لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو  
علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿عالم  
الغيب﴾ أي: الأمور الغائبة عن  
أبصارنا وعن علمنا، فكيف  
بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لَا يَغْرِبُ﴾

أي: لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ  
فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي:  
جميع الأشياء بدواتها وأجزائها، حتى  
أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو  
المثاقيل منها.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا  
فِي كِتَابٍ مَّبِينٍ﴾ أي: قد أحاط به  
علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه  
الكتاب المبين، الذي هو اللوح  
المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه  
مِثْقَالُ الذَّرَّةِ فما دونه، في جميع  
الأوقات، ويعلم<sup>(١)</sup> ما تنقص الأرض  
من الأموات، وما يبقى من أجسادهم،  
قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس  
بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال:  
﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم،  
صدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقاً  
جازماً، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تصديقاً

لإيمانهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾  
لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم،  
يندفع بها كل شر وعقاب. ﴿وَرَزَقَ  
كَرِيمٌ﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل  
مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾  
أي: سعوا فيها كفراً بها، وتعجيزاً لمن  
جاء بها، وتعجيزاً لمن أنزلها، كما  
عجزوه في الإعادة بعد الموت.  
﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ الْيَمِّ﴾  
أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿٦﴾ ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ  
الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ  
وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ لما  
ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم  
يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق،  
ذكر حالة الموقنين من العباد، وهم أهل  
العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على  
رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه  
من الأخبار هو الحق، أي: الحق  
منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه  
باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى  
درجة اليقين.

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه  
﴿يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾  
وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به  
من وجوه كثيرة: من جهة علمهم  
بصدق ما أخبر به، ومن جهة موافقته  
للأمور الواقعة، والكتب السابقة،  
ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها،  
التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون  
من الآيات العظيمة الدالة عليها في  
الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها  
لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها  
تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن  
للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي  
الأجزاء، وتفيد التعامل وغيره،  
كالصدق، والإخلاص، وبر  
الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان  
إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنتهي  
عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس،  
وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر،

من الشرك، والزنا، والربا، والظلم  
في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة،  
وعلاوة لهم، وأنه كلما كان العبد  
أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به  
الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره  
ونواهيه، كان من أهل العلم الذين  
جعلهم الله حجة على ما جاء به  
الرسول، احتج الله بهم على المكذبين  
المعانددين، كما في هذه الآية وغيرها.

﴿٧-٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ  
نَدْلُكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْتُكِمُ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ  
مِزْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفترى  
على الله كذباً أم به جنة بل الذين  
لا يؤمنون بالآخرة في العذاب  
والضلال البعيد. ﴿أفلم يروا إلى ما بين  
أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض  
إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط  
عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك  
لآية لكل عبد منيب﴾ أي: ﴿وقال  
الذين كفروا﴾ على وجه التكذيب  
والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه  
الاستبعاد.

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هل  
نَدْلُكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْتُكِمُ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ  
مِزْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعنون  
بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه  
رجل أتى بما يستغرب منه، حتى  
صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون  
عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه  
كيف يقول: ﴿إنكم مبعوثون﴾ بعدما  
مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم،  
واضمحلّت أعضاؤكم؟! فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل

﴿أفترى على الله كذباً﴾ فتجراً عليه  
وقال ما قال، ﴿أم به جنة﴾؟ فلا  
يستغرب منه، فإن الجنون فتون،  
وكل هذا منهم، على وجه العناد  
والظلم، ولقد علموا أنه أصدق  
خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم  
أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا  
أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه،  
فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم

(١) كذا في ب، وفي أ: وعلم.

- يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغروا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ.

ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، وليبتم دعوته، ولكن «ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة، ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب، وأي: شقاء وضلال، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزأهم به، وجزمهم بأن ما جاؤوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدى. ثم نبههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمتته ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتهما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذاك خبر غيبي إلى الآن، ما شاهدوه، فلذلك كذبوا به.

قال الله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقُطْ عَلَيْهِمُ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لَايَةٌ لِّكُلِّ عِدٍّ مِّنِّي﴾ فكليما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم،

لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّعْلَ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ \* أن تعمل سابعات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير \* أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والنعم الدينية والدينية، ومن نعمه عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال والحيوانات، من الطيور، أن تؤوب معه، وتُرجع التسبيح بحمد ربها مجاوبة له، وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتمجيده، كان ذلك مما يبيح على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجّع التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل من سمعه، من الإنس والجن، حتى الطيور والحيوانات، وسبحت بحمدها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبيح تبعاً له. ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنّعه، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره خلقاً، ويصنّعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ

لَكُمْ لَتَحْصَنَكُمْ مِنْ بِأَسْكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدَوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ الْجِنُّ مِنْ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ \* يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور \* فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرت بينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين \* لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جداً في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين. ﴿غَدَوْهَا شَهْرٌ﴾ أي: أول النهار إلى الزوال ﴿وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ من الزوال، إلى آخر النهار ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها.

وسخر الله له أيضاً الشياطين والجن، لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره، ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وأعمالهم، كل ما شاء سليمان عمله، ﴿مَنْ مَحَارِيبٍ﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة، ﴿وَتَمَاثِيلٍ﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتقان صنعتهم،

وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان، ﴿وجفان كالجواب﴾ أي: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره، ﴿و﴾ يعملون له قدوراً راسيات لا تزول عن أماكنها، من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال: ﴿اعملوا آل داود﴾ وهم داود وأولاده وأهله، لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم. ﴿شكراً﴾ لله على ما أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم. ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النقم.

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى، وصونها عن صرفها في المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، وأتكا على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حياً، وهابوه.

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاهما، حتى باد وسقط، فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا موت سليمان، الذي هم أحرز شيء عليه، ليسلموا مما هم فيه.

﴿١٥ - ٢١﴾ ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ فأعرضوا فأرسلنا

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴿وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة من هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ﴾ سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها «مأرب»، ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً، وبالعراب خصوصاً، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب ويشاهد آثاره ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾ والآية هنا: ما أدرك الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتبه سيول كثيرة، وكانوا ينو سداً محكماً، يكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتبه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتُغل لهم تلك الجنتان العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدركها عليهم من وجوه كثيرة، منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أوقاتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخبثها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم،

ولهذا قال: ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾. ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها: [قرى صنعاء] قاله غير واحد من السلف، وقيل إنها الشام - هيا لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير﴾ أي: [سيراً] مقدراً يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿ليالي وأياماً آمنين﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن النعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً.

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطعتهم، فأبادهما عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سدهم، وأتلف جنتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنتان ذات الحداثق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ﴿خبط وأثل وشيء من سدر قليل﴾ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - وإلا من كفر بالله وبطر النعمة؟

فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا



وَعَزَّوْا، بَعْدَمَا كَانُوا مُجْتَمِعِينَ،  
وَجَعَلَهُمُ اللَّهُ أَحَادِيثَ يَتَحَدَّثُ بِهِمْ،  
وَأَسْمَارًا لِلنَّاسِ، وَكَانَ يَضْرِبُ بِهِمُ  
الْمَثَلَ، فَيَقَالُ: «تَفَرَّقُوا أَيُّدِي سِبَا» فَكُلُّ  
أَحَدٍ يَتَحَدَّثُ بِمَا جَرَى لَهُمْ، وَلَكِنْ  
لَا يَنْتَفِعُ بِالْعِبْرَةِ فِيهِمْ إِلَّا مَنْ قَالَ اللَّهُ:  
﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ  
شَكُورٍ﴾ صَبَّارٌ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ،  
يَتَحَمَّلُهَا لِوَجْهِ اللَّهِ وَلَا يَتَسَخَّطُهَا بَلْ  
يَصْبِرُ عَلَيْهَا. شُكُورٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى  
يُقَرِّبُهَا وَيُعْتَرِفُ، وَيَشْنِي عَلَى مَنْ  
أَوَّلَاهَا، وَيَصْرِفُهَا فِي طَاعَتِهِ. فَهَذَا إِذَا  
سَمِعَ بِقِصَّتِهِمْ، وَمَا جَرَى مِنْهُمْ  
وَعَلَيْهِمْ، عَرَفَ بِذَلِكَ أَنَّ تِلْكَ الْعُقُوبَةُ  
جَزَاءٌ لِكُفْرِهِمْ نِعْمَةَ اللَّهِ، وَأَنَّ مَنْ فَعَلَ  
مِثْلَهُمْ فَعِلَ بِهِ كَمَا فَعَلَ بِهِمْ، وَأَنَّ  
شُكْرَ اللَّهِ تَعَالَى حَافِظٌ لِلنِّعْمَةِ، دَافِعٌ  
لِلنِّقْمَةِ، وَأَنَّ رَسَلَ اللَّهِ صَادِقُونَ فِيمَا  
أَخْبَرُوا بِهِ، وَأَنَّ الْجَزَاءَ حَقٌّ، كَمَا رَأَى  
أَنْمُودُجُهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدق عليهم إبليس ظنه، حيث قال لربه: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ \* إلا عبادك منهم المخلصين. وهذا ظن من إبليس، لا يقين، لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأت خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين، إلا من استثنى، فهؤلاء وأمثالهم، ممن صدق عليه إبليس ظنه، ودعاهم وأغواهم، ﴿فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾ \* من لم يكفر بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

ثم ابتداء فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

ثم قال تعالى: ﴿وما كان له﴾ أي:  
لإيليس ﴿عليهم من سلطان﴾ أي:  
تسلط وقهر، وقسر على ما يريد  
منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت

(۱) فی پ: عابدیہا۔

تسلیطہ و تسوئلہ لبني آدم.

﴿لَنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف مَنْ كان إيمانه صحيحاً يثبت عند الامتحان والاختبار واللقاء الشبه الشيطانية، من إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزل بأقل داع يدعوهُ إلى ضده، فالله تعالى جعله امتحاناً، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب.

﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾  
يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم،  
ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهم إياها  
كاملة موفرة.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَلَا تُنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، مِلْزَمًا لَهُمْ بَعِزُّهَا، وَمَبِينًا لَهُمْ بَطْلَانِ عِبَادَتِهَا: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: زَعَمْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ اللَّهِ، إِنْ كَانَ دَعَاؤُكُمْ يَنْفَعُ، فَإِنَّهُمْ قَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهِمْ أَسْبَابُ الْعِجْزِ وَغَدَمُ إِجَابَةِ الدَّعَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَإِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ أَدْنَىٰ مُلْكٍ وَلَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿عَلَىٰ وَجْهِ الْإِسْتِقْلَالِ، وَلَا عَلَىٰ وَجْهِ الْإِشْتِرَاكِ، وَلِهَذَا قَالَ﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أَي: لَتِلْكَ الْأَلِهَةِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴿فِيهِمَا﴾ أَي: فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ﴿مِنْ شِرْكَ﴾ أَي: لَا شِرْكَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، فَلَيْسَ لَهُمْ مُلْكٌ، وَلَا شَرِكَةٌ مُلْكٌ.

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعواناً للمالك ووزراء له، فدعائهم يكون نافعا، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون جوائج

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ  
عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ  
الْكَبِيرُ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَآتَاوَانَا كُفُّمَ لَعَلَّ هٰذِي أَوْفِي ضَلَالِي  
ثُبِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرُ وَمَا لَنَا لَسْأَلُ عَمَّا أَعْمَلُ  
﴿١٧﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا يَابِجِي وَهُوَ الْفَتَّاحُ  
الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا شُرَكَاءَ  
لَهُمُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَلَامًا  
لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ  
﴿٢٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾  
قُلْ لَّكُمْ فِعْلٌ آلَوْمَرِ لَا تَسْتَعْجِلُون عَنهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْبِلُون  
﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُّؤْمِنَ بِهٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي  
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ سَأَلْنَا إِذِ الْكَلْبُومِ مَوْفُوعًا عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ  
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَيْنَا مِنْهُمُ  
لَئِنْ لَّمْ يَأْتِ الْوَعْدُ لَنَنصَبَنَّ عَلَيْكُمْ نَارًا مِّنَ السَّمَاءِ

من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿مَنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿مَنْ ظَهَرَ﴾ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير.

فلم يبقَ إلا الشفاعة، فنفاها بقوله : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ فهذه أنواع التعلقات، التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم، من البشر والشجر وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها تبيناً حاسماً لمواد الشرك، قاطعاً لأصوله، لأن المشرك إنما يدعو ويبعد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء، هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان مَنْ يدعو [غير الله]، لا مالكاً للنفع والضرر، ولا شريكاً للمالك، ولا عوناً وظهيراً للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء وهذه العبادة، ضللاً في العقل، باطلة في الشرع.

بل ينعكس على المشرق مطلوبه  
ومقصوده، فإنه يريد منها التفع،  
فبين الله بطلانه وعدمه، وبين في آيات  
آخر ضرره على عابديه<sup>(١)</sup>، وأنه يوم  
القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن  
بعضهم بعضاً، وماواهم النار ﴿وَإِذَا  
حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا  
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾





ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله، فهو يدعو مَنْ هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي مَنْ أخلص الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله الذين جاؤوا بالإخلاص لله وحده، تبيّن<sup>(١)</sup> لك أي: الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿قل﴾ لهم [لا تسألون عما أجرنا، ولا نسأل عما تعملون] أي: كل منا ومنكم له عمله أنتم [لا تسألون] عن إجرنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويحجب الباطل، وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكام الحاكمين، ويفصل بين المختصين، أعدل العادلين.

ولهذا قال: ﴿قل﴾ يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا أي: يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للشواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين. ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك.

﴿ويعبدون من دون الله ما

لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم﴾ الآية ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا أيها المشركون أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل بالله ﴿شركاء﴾.

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد. ﴿بل هو الله﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو ﴿العزیز﴾ الذي قهر كل شيء، فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مذبذبة. ﴿الحكيم﴾ الذي أتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى<sup>(٢)</sup> بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف، وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة!!

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ، إلا يبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم. ومن عدم علمهم، جعلهم عدم

الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجباً لرد دعوته.

فمما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا ظلم منهم. فأى: ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو ينتهر الفرصة منهم ويعدو لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم. فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟

هذا، والمخير يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل عزيمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!

﴿قل﴾ لهم - مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه -: ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

﴿٣١-٣٣﴾ ﴿وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له

(١) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يكفى، ولعل الصواب ما أثبت.

أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿٣٤﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنت لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهو لا جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، فـ ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للبذين استكبروا﴾ وهم القادة: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ ولكنكم حلثتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر [أن]، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ مستفهمين لهم وخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ أي: بقوتنا وقهرنا لكم. ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبرتموه من المكر، في الليل والنهار، إذ تحسون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقذحون في الحق وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا، حتى أغويتمونا وفتنتمونا.

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿أسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق،

[وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم، خوفاً من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار، يظهرون ذلك الندم جهراً.

﴿ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾ الآيات.

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ يغفلون كما يغفل المسجون الذي سبهان في سجنه كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ الآيات. ﴿هل يجزون﴾ في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقيل ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿٣٤ - ٣٩﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴿قل إن ربي ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون﴾ قل إن ربي ييسر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴿نخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولاً في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها.

﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي: ممن اتبع الحق ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي: أولاً، لئلا يبعوثين،

فإن بُعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن ييسر الرزق وتضييقه، ليس دليلاً على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء ييسره لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليس الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتريات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا، والتكذيب، فـ ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿ييسر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك، فهو﴾ تعالى ﴿يخلفه﴾ فلا تشوهوا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وهو خير الرازقين﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: العابدين لغير الله

والمعبودين من دونه، من الملائكة .  
 ﴿ثم يقول﴾ الله ﴿للملائكة﴾ على وجه  
 التبويض لمن عبدتهم : ﴿أهؤلاء إيناكم  
 كانوا يعبدون﴾ فبأروا من عبادتهم .  
 و ﴿قالوا سبحانك﴾ أي : تنزيهاً  
 لك وتقديساً ، أن يكون لك شريك أو  
 ند ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ فنحن  
 مفتقرون إلى ولايتك ، مضطرون إليها ،  
 فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف  
 نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء  
 وشركاء ؟ !!

ولكن هؤلاء المشركون ﴿كانوا  
يعبدون الحُجْنَ﴾ أي: الشياطين،  
يأْمُرُونَ<sup>(١)</sup> بعبادتنا أو عبادة غيرنا،  
فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي  
عبادتهم، لأن العبادة الطاعة، كما قال  
تعالى مخاطباً لكل من اتخذ معه آلهة ﴿ألم  
أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا  
الشیطان إنه لكم عدو مبين﴾ \* وأن  
اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴿

﴿أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أَي: مُصَدِّقُونَ لِلْحَقِّ، مُنْقَادُونَ لَهُمْ، لِأَنّ إِيْمَانَهُ هُوَ التَّصَدِيقُ الْمَوْجِبُ لِلانْقِيَادِ. فَلَمَّا تَبَرَّأُوا مِنْهُمْ، قَالَ تَعَالَى [مُخَاطَباً] لَهُمْ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ الْأَسْبَابُ، وَانْقَطَعَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي - بَعْدَمَا نَدْخُلُهُمُ النَّارَ - ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ فَالْيَوْمَ عَاقِبَتُهُمْ وَدَخَلْتُمُوهَا، جَزَاءً لَتَكْذِيبِكُمْ، وَعُقُوبَةً لِّمَا أَحْدَثْتُمْ ذَلِكَ التَّكْذِيبَ، مِنْ عَدَمِ الْهَرَبِ مِنْ أَسْبَابِهَا.

﴿٤٣-٤٥﴾ ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ  
آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ  
أَنْ يَصْطَكِبَ عَلَيْنَا مَا كَانَ لِآبَائِكُمْ وَقَالَ الَّذِينَ  
مِنْ هَذَا إِلَّا أَفْكٌ مَّفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ  
كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ  
مُبِينٌ \* وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا  
وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ \*  
وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا يُلْقُوا  
مَعْشَارٌ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ

كان نكير ﴿١﴾ يخبر تعالى عن حالة  
المشركين، عندما تتلى عليهم آيات الله  
البينات، وحججه الظاهرات،  
وبراهينه القاطعات، الدالة على كل  
خير، الناهية عن كل شر، التي هي  
أعظم نعمة جاءتهم، ومِنَّة وصلت  
إلهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان  
والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم  
يقابلونها بضد ما ينبغي، ويكذبون مَنْ  
جاءهم بها ويقولون: ﴿٢﴾ ما هذا إلا رجل  
يريد أن يصدكم عما كان يعبد  
آبائكم ﴿٣﴾ أي: هذا قصده حين يأمركم  
بالإخلاص لله، لتتركوا عوائد آبائكم  
الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا  
الحق بقول الضالين، ولم يوردوا ﴿٤﴾  
برهاناً ولا شبهة.

فأي : شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق، فادّعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟ وهذه السفاهة، ورد الحق بأقوال الضالين، إذا تأملت كل حق رد، فإذا هذا مآله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة، والصابئين، والملحدين في دين الله المارقين، فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آبائهم، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا بالحق، ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به. ﴿وقال الذين كفروا للحق ما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي: سحر ظاهر بين لكل أحد، تكذيباً بالحق، وترويحاً على السفهاء.

ولما بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً أن تكون حجة، ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتاج لهم، فإنهم لا مستند لهم، ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها﴾ حتى تكون عمدة لهم ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به

وَقَدْ نَحْنُ مِنْهُمْ جَمِيعًا فَمَنْ يَقُولُ الْعَمَلُكَ أَهْلًا وَلَا يَأْتِيكُمْ  
كَأُولَئِكَ دُونَ ❶ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ  
كَأُولَئِكَ دُونَ الَّذِينَ أَكْفَرُوا بِهِمْ وَقُوْعُ ❷ قَالَتِمْ لَا يَمْلِكُ  
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ شَيْعًا وَلَا مِرًا وَقَوْلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا دُونُوا  
عَذَابَ آلِ الْوَالِدِ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تَكْفُرُونَ ❸ وَلَا تَأْتِي عَلَى عِيْهِ  
أَلَيْسَ يَتَبَيَّنُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا لَأَعْمِلُ مِنْكُمْ بِضْعَتُمْ عَنَّا  
كَانَ صُغْدًا ❹ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَنْفُكَ مَقْدَرًا وَقَالَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا الْيَحْيَىٰ لَمَّا جَاءَهُمْ أَن هَذَا إِلَّا الْأَيْسَرُ خَيْرٌ مِنْ ❺  
وَمَا أَتَيْتُ الْهَرُونَ كُتِبَ بِذَرِّ مَوْتِهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ  
قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ❻ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بُلَّغُوا مِنْشَرِّ  
مَا أَتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ \* قُلْ إِنَّمَا  
أَعِطْتُكُمْ وَحِدَةً أَنْ تَقُولُوا لِلَّهِ مُشْرِكٌ وَقَدْ دَلَّىٰ ثُمَّ يَتَفَكَّرُوا  
مَا يَصْلَحُ لَكُمْ مِنْ حَيْثُ أَنْ هُوَ لَا يَدْرِي لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ  
❽ قُلْ مَا سَأَلَ كَرَمٌ أَجْرَهُمْ لَوْ كَرِهَ الْإِنْسَانُ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ وَهْدٌ ❾ قُلْ إِنِّي أَخْشَىٰ عَذَابَ الرَّحْمَنِ عَذَابَ الْعُيُوبِ ❿

ما جئتهم به ، فليس عندهم علم ، ولا  
أثارة من علم .

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين  
 [قبلهم] فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ  
 قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا﴾ أي: ما بلغ هؤلاء  
 المخاطبون ﴿مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾  
 ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي: الأمم الذين من قبلهم  
 ﴿رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي:  
 إنكاري عليهم، وعقوبي إياهم. قد  
 أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن  
 منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه  
 بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة،  
 وبالحسف بالأرض، وبإرسال  
 الحاصب من السماء، فاحذروا يا  
 هؤلاء المكذبون، أن تدوموا على  
 التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من  
 قبلكم، ويصيكم ما أصابهم.

﴿٤٦ - ٥٠﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ  
بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ  
تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ  
إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ \*  
قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ  
أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
شَهِيدٌ \* قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـٰمَ  
الْغُيُوبِ \* قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ  
الْبَاطِلُ وَمَا يَعْمِدُ \* قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا  
أَضَلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا  
يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ \* أَي :

(۲) کذا فی ب، وقی أ: ولم یردوا.

(١) في ب: يأمرونهم.



وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان **«علام الغيوب»** الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، وبينها لهم، ولهذا قال: **«قل جاء الحق»** أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه. **«وما يبدىء الباطل وما يعيد»** أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدىء ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به.

وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره.

**«وإن أهديت»** فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي، وإنما هدايتي بما **«يوحى إلى ربي»** فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري. إن ربي **«سميع»** للأقوال والأصوات كلها **«قريب»** عن دعاه وسأله وعبده.

**«٥١ - ٥٤»** **«ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب»** وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد **«وقد كفروا به من قبل ويقدفون بالغيب من مكان بعيد»** وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشباعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب **«يقول تعالى: «ولو ترى»** أيها الرسول، ومن قام مقامك، حال هؤلاء المكذبين، **«إذ فرعوا»** حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مفضعاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب.

الخلق، أدباً، وسكينة، وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون [إلا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً، وتركى النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وترهب <sup>(٢)</sup> عن مساوىء الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رمقته العيون، هبة وإجلالاً وتعظيماً.

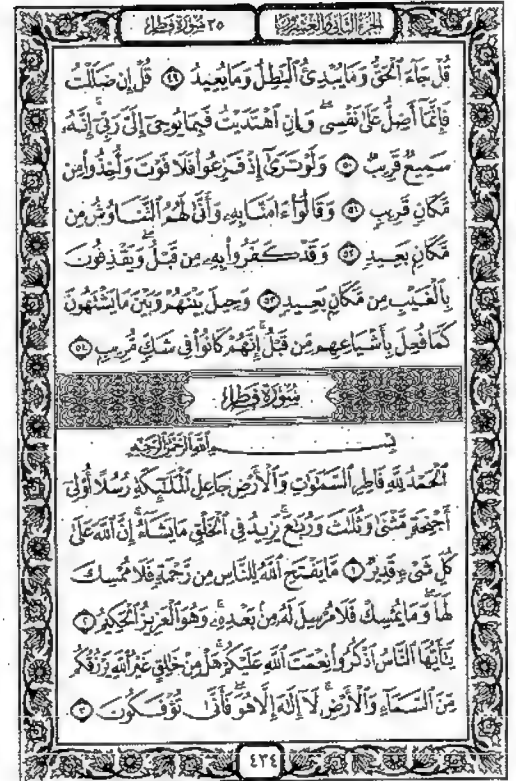
فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم!!

فكل من تدبر أحواله، ومقصده استعمال هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، ونبيه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وثم مانع للنفوس آخر من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته. فبين الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر، فقال: **«قل ما سألتكم من أجر»** أي: على اتباعكم للحق **«فهو لكم»** أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم، **«إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد»** أي: محيط علمه بما أدعوا إليه، فلو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن **«يقذف بالحق»** على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لأنه بين من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبرة للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم



**«قل»** يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذابين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: **«إنما أعظكم بواحدة»** أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: **«أن تقوموا لله مثنى وفرادى»** أي: تنهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله مثنى وفرادى، استعملتم فكركم وأجلموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيئاته <sup>(١)</sup> ليست كهيات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل

(١) في ب: هيئته.

(٢) في ب: وترجز.



فليس لهم عنه مهرب ولا فوت،  
﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: ليس  
بعيداً عن محل العذاب، بل يؤخذون  
ثم يقذفون في النار.

﴿وَقَالُوا﴾ في تلك الحال: ﴿أَمَّا﴾  
بالله وصدقنا ما به كذبنا ﴿و﴾ لكن  
﴿أَتَى لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾ أي: تناول  
الإيمان ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد خيل  
بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة  
في هذه الحالة، فلو أنهم آمنوا وقت  
الإمكان، لكان إيمانهم مقبولاً،  
ولكنهم ﴿كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ وَيَقْذِفُونَ﴾  
أي: يرمون ﴿بِالْقَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾  
يقذفهم الباطل، ليدحضوا به الحق،  
ولكن لا سبيل إلى ذلك، كما لا سبيل  
للترامي من مكان بعيد إلى إصابة  
الغرض، فكذلك الباطل، من المحال  
أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون  
له صولة، وقت غفلة الحق عنه، فإذا  
برز الحق وقاوم الباطل قمعه.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾  
من الشهوات واللذات، والأولاد،  
والأموال، والخدم، والجنود، قد  
انفردوا بأعمالهم، وجاؤوا فرادى كما  
خُلِقُوا، وتركوا ما خولوا وراء  
ظهورهم، ﴿كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ من  
الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك،  
حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون. ﴿لَهُمْ﴾  
كانوا في شك مريب ﴿أَي: يحدث﴾  
الريبة وقلق القلب، فلذلك لم يؤمنوا،  
ولم يعتبوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ - والله الحمد والمثنة  
والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل،  
وبه الثقة

### تفسير سورة فاطر وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾  
الحمد لله فاطر السماوات والأرض  
جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى  
وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء  
إن الله على كل شيء قدير \* ما يفتح  
الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما  
يمسك فلا مرسل له من بعده وهو  
العزیز الحكيم \* يمدح الله تعالى نفسه

الكريمة المقدسة، على خلقه السماوات  
والأرض، وما اشتملتا عليه من  
المخلوقات، لأن ذلك دليل على كمال  
قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته،  
وبديع حكمته، وإحاطة علمه.

ولما ذكر الخلق، ذكر بعده ما  
يتضمن الأمر، وهو: أنه ﴿جَاعِلُ﴾  
الملائكة رسلاً في تدبير أوامره  
القدرية، ووسائل بينه وبين خلقه، في  
تبليغ أوامره الدينية.

وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلاً،  
ولم يستثن منهم أحداً، دليل على كمال  
طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره، كما  
قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾  
وفعلون ما يؤمرون.

ولما كانت الملائكة مذيبرات  
بإذن الله، ما جعلهم الله موكلين فيه،  
ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم،  
بأن جعلهم ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ﴾ تطير بها،  
فتسرع تنفيذ ما أمرت به. ﴿مثنى﴾  
وثلاث ورباع \* أي: منهم من له  
جناحان وثلاثة وأربعة، بحسب ما  
اقتضته حكمته. ﴿يزيد في الخلق ما﴾  
يشاء \* أي: يزيد بعض مخلوقاته على  
بعض، في صفة خلقها، وفي القوة،  
وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء  
المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذة  
التغيمات.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾  
فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا  
يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة  
مخلوقاته بعضها على بعض.

ثم ذكر انفرادة تعالى بالتدبير  
والعطاء والمنع، فقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ﴾  
للناس من رحمة فلا ممسك لها وما  
يُمسك \* من رحمته عنهم ﴿فَلا مَرْسَلُ﴾  
له من بعده ﴿فَهَذَا يُوْجِبُ التَّعَلُّقَ بِاللَّهِ﴾  
تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه،  
وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف  
ويرجى إلا هو. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي  
قهر الأشياء كلها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي  
يضع الأشياء مواضعها وينزلها  
منازلها.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا﴾  
نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله

وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور  
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّوكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾  
ولا يغركم بالله الغرور \* إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه  
عدواً إنما يدعوكم ليكره أن أصحاب السعير \* الذين  
كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات  
لهم مغفرة وأجر كبير \* ﴿أَفَنْزِلُكَ لَهُمْ سُلَيْمًا وَعِلْمًا وَمَعَهُ قُوَّةٌ حَسَنًا﴾  
﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَغُرُّكُمُ الْهَيْبَةُ﴾  
عليهم حيرت إن الله عليه ما ترضون \* ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَوْسَلَ﴾  
الرياح فغير محبب ففتنته إلى بلد قريش فأخبرنا بما لا أرض  
بعد موتها ذلك الشور \* ﴿كَانَ يَدُ الْعِزَّةِ لَهُ الْعِزَّةُ﴾  
﴿جَعَلْنَا إِلَهُهُ صُغْدًا ظَلَمًا وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ رُفْعَةً﴾  
﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ النَّيَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ﴾  
هو يور \* ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنُفْسٍ ثُمَّ لَعَنَهُمْ ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾  
﴿أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُكُمْ﴾  
﴿وَلَا يَبْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا  
هو فأنى تؤفكون \* وإن يكذبوك فقد  
كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع  
الأمور \* يأمر تعالى جميع الناس أن  
يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل  
لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناء،  
وبالجوارح انقياداً، فإن ذكر نعمته تعالى  
داع لشكره، ثم نبههم على أصول  
النعم، وهي الخلق والرزق، فقال:  
﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من﴾  
السماء والأرض.

ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد  
يخلق ويرزق إلا الله، نتج من ذلك،  
أن كان ذلك دليلاً على الوهية  
وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾  
فأنى تؤفكون \* أي: تصرفون من عبادة  
الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

﴿وإن يكذبوك﴾ يا أيها الرسول،  
فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين،  
﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فأهلك  
المكذبون، ونجى الله الرسل  
وأتباعهم. ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾

﴿٥ - ٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ﴾  
الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا  
يغرنكم بالله الغرور \* إن الشيطان لكم  
عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه  
ليكونوا من أصحاب السعير \* الذين  
كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا  
وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر  
كبير \* يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ



وعند الله ﴿بالبعث والجزاء على الأعمال﴾، ﴿حق﴾ أي: لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً، فتهيؤوا له، وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الذي هو ﴿الشيطان﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فاتخذوه عدواً﴾ أي: لتكون منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربته كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ هذا غايته ومقصوده فمن تبعه، أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما، فقال: ﴿الذين كفروا﴾ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لهم عذاب شديد﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبداً.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وعملوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم،

الأعمال ﴿الصالحات لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿أجر كبير﴾ يحصل به المطلوب.

﴿٨﴾ ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليهم بما يصنعون ﴿يقول تعالى﴾: ﴿أفمن زين له﴾ عمله السيئ القبيح، زين له الشيطان، وحسنه في عينه. ﴿فرآه حسناً﴾ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟

فالأول: عمل السيئ، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

والثاني: عمل الحسن، ورأى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم﴾ أي: على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصددهم الشيطان عن الحق ﴿حسرات﴾ فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله [هو] الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾

﴿٩﴾ ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت﴾ فأنزله الله عليها ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾.

فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، وزعت في تلك الخيرات، ﴿كذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الله الأموات من قبورهم، بعدما مزقهم البلى، فيسوق إليهم مطراً، كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزل عليهم فتحيا الأجداد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

﴿١٠﴾ ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون

السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴿أي: يا من يريد العزة، اطلبها من هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله﴾: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد وتهليل، وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه، ويشي الله على صاحبه بين الملأ الأعلى، ﴿والعمل الصالح﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يرفعه﴾ الله تعالى إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولاً، ولهذا قال: ﴿والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد﴾ يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل.

﴿١١﴾ ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه الأطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها.

﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي: لم يزل ينقلكم، طوراً بعد طور، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكراً يتزوج أنثى، ويزاد بالزواج، الذرية والأولاد، فهو وإن كان الشكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلوه، ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ وكذلك أطوار الآدمي، كلها بعلمه وقضائه.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: عمر الذي كان معمرًا عمرًا طويلاً ﴿إِلَّا﴾ بعلمه تعالى، أو وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر، كالزنا، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر.

والمعنى : أن طول العمر وقصره ، بسبب وبغير سبب ، كله بعلمه تعالى ، وقد أثبت ذلك ﴿ في كتاب ﴾ حوى ما يجري على العبد ، في جميع أوقاته وأيام حياته .

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي :  
إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة ،  
وإحاطة كتابه فيها ، فهذه ثلاثة أدلة من  
أدلة البعث والنشور ، كلها عقلية ،  
نبه الله عليها في هذه الآيات : إحياء  
الأرض بعد موتها ، وأن الذي أحياها  
سيحيي الموتى ، وتنقل الآدمي في تلك  
الأطوار .

فالذي أوجده ونقله، طبقاً بعد طبق، وحالاً بعد حال، حتى بلغ ما قدر له، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم، العلوي والسفلي، دقيقها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنّة التي في البطون، وزيادة الأعمال ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب. فالذي كان هذا [نعمته]<sup>(١)</sup> يسيراً عليه، فأعادته للأمم أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيرهِ، ونبيّه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم ومعادهم.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿وما يستوي  
البحران هذا عذب فرات مائع شرابه  
وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً  
طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى  
الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله  
ولعلكم تشكرون﴾ \* يولج الليل في  
النهار ويولج النهار في الليل وسخر

الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى  
ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون  
من دونه ما يملكون من قطمير \* إن  
تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو  
سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة  
يكفرون بشركم ولا ينبئك مثل  
خبير ﴿ هذا إخبار عن قدرته وحكمته  
ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح  
العالم الأرضي كله، وأنه لم يسوِّ  
بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون  
الأنهار عذبة فرائاً، سائغاً شربها،  
لينتفع بها الشاربون والفارسون  
والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً  
أجاجاً، لئلا يفسد الهواء المحيط  
بالأرض بروائح ما يموت في البحر من  
الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري،  
فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون  
حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال :  
﴿ ومن كل ﴾ من البحر الملح والعذب  
﴿ تأكلون لحماً طرياً ﴾ وهو السمك  
التيسر صيده في البحر،  
﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ من  
لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في  
البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضاً والمنافع في  
البحر، أن سخره الله تعالى يحمل  
الفلك من السفن والمراكب، فتراها  
تمخر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم  
إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل،  
فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم،  
فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه  
شيء كثير، ولهذا قال: ﴿ولتبتغوا من  
فضله ولعلكم تشكرون﴾

ومن ذلك أيضاً، إيلاجه تعالى الليل بالنهار والنهار بالليل، يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر، ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم.

وكذلك ما جعل الله في تسمخير الشمس والقمر، الضياء والتور،

وَمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا الْإِنْسَانَ وَالْحَصِيرَ ❶ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ  
❷ وَلَا الظِّلُّ وَلَا السَّكْرُ ❸ وَمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا الْإِنْسَانَ  
وَلَا الْأُمُوتَ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ  
فِي الْقُبُورِ ❹ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ❺ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا  
وَنَذِيرًا وَلَئِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ لَا أَلْحَافَ عَلَيْهِمْ ❻ وَأَنْ يَكُونُوا وَفْقَهُ  
كَلَّمَ الَّذِينَ مِنْ قِبَلِهِمْ أَنِ اعْبُدُوا رُسُلَهُمْ بِالْهَيْبَةِ وَالْزُّبُرِ  
وَالْكَتِيبِ الْإِنشِرِ ❼ فَرَأَيْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَيفَ  
كَانَ نَكِيرُ ❶ الْوَسْوَاسِ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ  
مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ  
بَيْضٌ وَخُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَصَوْنِي سُوءٌ ❷ وَمِنَ النَّاسِ  
وَالْبَقَرِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى  
اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ❸ إِنَّ الَّذِينَ  
يَسْتَلُونَ حِكْمًا أَقْبَوْا الْأَصْلَاحَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ أَعْلَمُ ❹  
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُوتُ تَحِيَّةً أَنْ يَكُونُ ❶ لِيُؤْتِيَهُمْ  
أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ❷

والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيح الثمار وتخفيف ما يحفف<sup>(٢)</sup>، وغير ذلك مما هو من الضروريات، التي لو فقدت لَلَحِقَ الناس الضرر.

وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾  
أي: كل من الشمس والقمر، يسيران  
في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا  
جاء الأجل، وقرب انقضاء الدنيا،  
انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما،  
وخسف القمر، وكورت الشمس،  
وانتثر النجوم.

فلما بين تعالى ما بين من هذه  
المخلوقات العظيمة ، وما فيها من العبر  
الدالة على كماله وإحسانه ، قال :  
﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ أي : الذي  
انفرد بخلق هذه المذكورات  
وتسخيرها ، هو الرب المألوه المعبود ،  
الذي له الملك كله .

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، حتى ولا القطمير الذي هو أحققر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه، فكيف يُدْعَوْنَ، وهم غير مالكين لشيء من ملك السموات والأرض؟

(١) هنا جاءت كلمة (نعته) في الهامش ولم يتضح لي محلها بدقة والأقرب أنه هنا.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: وتخفيف ما يخفف.





العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: وَمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالتَّنْقِي من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلّ بالأخلاق الجميلة، من الصدق والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق، فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء.

﴿وإلى الله المصير﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿١٩- ٢٤﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ ولا الظلمات ولا النور \* ولا الظل ولا الحرور \* وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور \* إن أنت إلا نذير \* إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير \* يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى فَاقِدَ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرُ﴾ ولا الظلمات ولا النور \* ولا الظل ولا الحرور \* وما يستوي الأحياء ولا الأموات \* فكما أنه من المقرر عندكم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت مراتب، وميزت الأشياء، وبيان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإيثار.

﴿إِن الله يسمع مَنْ يشاء﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ إنا أرسلناك بالحق أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموح من السبل، واندراس من العلم، وضرورة عظيمة إلى بعثتك، فبعثك الله رحمة للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم، والصراط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به، من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم، حق وصدق. ﴿بَشِيرًا لِّمَنِ أَطَاعَكَ﴾ بثواب الله العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا لِّمَنِ عَصَاكَ﴾ بعقاب الله العاجل والآجل، ولست بيدع من الرسل.

فما ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِيَهْلِكَ مِنْ هَلَكٍ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْتَةٍ﴾.

﴿٢٥- ٢٦﴾ ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير \* أي: وإن يكذبك أيها الرسول، هؤلاء المشركون، فلست أول رسول كُذِّب، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به، ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، إياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والحزي الوخيم.

﴿٢٧- ٢٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور \* يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته ويبدع حكمته.

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفة، والنباتات المتنوعة، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض، تجدها جبالاً مشتبكة، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحر، وفيها غرابيب سود، أي: شديدة السواد جداً.

ومن ذلك: الناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالابصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدره الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضاً، ما هو معلوم.

وذلك أيضاً، دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث مَنْ في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا يتحدث له



التذكر، وإنما ينتفع بها مَنْ يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكل مَنْ كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عمّ، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والندور والصدقات. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في جميع الأوقات. ﴿يَرْجُونَ﴾ [بذلك] ﴿تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ أي: لن تكسند وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بعزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون<sup>(١)</sup> بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ أي: أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ زيادة عن أجورهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿٣١ - ٣٥﴾ ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تتبرموا منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يزد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب والرسول، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحد أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله. ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها،

ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسلاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع، الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا، لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالمعاصي، [التي] هي دون الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مَّقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، الكثير من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب، لأن المراد بورثة الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لثلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي:

جنان مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد.

والعدن «الإقامة» فجنان عدن أي: جنان إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها.

﴿يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الحلبي الذي يجعل في اليدين، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيَلْبَسُونَ فِيهَا لَوْلُؤًا﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم. ﴿وَيَلْبَسُونَ فِيهَا حَرِيرًا﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

﴿وَمَا تَمَّ نَعِيمُهُمْ، وَكَمَلَتْ لَذَّتُهُمْ﴾ قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم، فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد الآباد.

﴿إِنْ رَبَّنَا لَعَفُورٌ﴾ حيث عفر لنا الزلات ﴿شُكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِي أَحْلَلْنَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار. ﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال ﴿مَنْ فَضَّلَهُ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولاً فضله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا﴾

فيها لغوب ﴿أَي: لَا تَعْبُ فِي الْأَبْدَانِ وَلَا فِي الْقُلُوبِ وَالْقَوَى، وَلَا فِي كَثْرَةِ التَّمَتُّعِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ أَبْدَانَهُمْ فِي نَشْأَةٍ كَامِلَةٍ، وَيَهَيِّئُ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ عَلَى الدَّوَامِ، مَا يَكُونُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، بِحَيْثُ لَا يَمَسُّهُمْ نَصَبٌ وَلَا لَغُوبٌ، وَلَا هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة، لأن النوم فائده زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿لَا ذَكَرَ تَعَالَىٰ حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهِمْ، ذَكَرَ حَالُ أَهْلِ النَّارِ وَعَذَابِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب. ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشدّة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآت واللحظات.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وهم يصطرخون فيها ﴿أَي: يَصْرُخُونَ وَيَتَصَايَحُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ وَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنوبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا﴾ أي: دهرأ وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ أي: يتمكن فيه مَنْ أراد التذكر من العمل، متعناكم في

الدنيا، وأدّرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا<sup>(١)</sup> لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتبينوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تغد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وقت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتهم الرجعة؟ هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم عذاب الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصروهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، وإطلاعه على غيب السموات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كل ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون، فمن كفر بالله وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثم وعقوبة، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له ويغضه إياه، وأي: عقوبة أعظم

(١) كذا في: ب، وفي أ: مدينا.

من مقت الرب الكريم؟  
﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهلهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والخزي عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿٤٠﴾ ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ يقول تعالى مُعْجِزاً لآلهة المشركين، ومبيناً نقصها، وبطلان شركهم من جميع الوجوه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أرأيتم﴾ أي: أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، فـ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا حيواناً، أو خلقوا جناداً؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة في السموات في خلقها وتديرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة.

فإذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً متنفذ، فلماذا قال: ﴿أم آتيهم كتاباً﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فهم﴾ في شركهم ﴿على بينة﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإننا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا

نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلّ على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفتنة؟

أجاب تعالى بقوله: ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأمانى منّاها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضلل.

﴿٤١﴾ ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتعام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما.

ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بامهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما

زادهم إلا نفوراً﴾ استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين قلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي: وأقسم هؤلاء، الذين كذبوك يا رسول الله، قسماً اجتهدوا فيه بالآيمان الغليظة: ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.

﴿فلما جاءهم نذير﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾ زيادة ضلال وبغي وعناد.

وليس إقسامهم المذكور، لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوقفوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهرجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.

﴿ولا يحيق المكر السيئ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، ومآله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إلا بأهله﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نجورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء، ما فعل بأولئك.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٥﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا









وَمَا أَتَيْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ  
وَمَا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ إِن كُنْتُمْ إِلَّا صِغَرةً كَبِيرَةً فَلَا تُحِصُوا  
حُكْمَهُمْ ۝ وَيَحْضَرُ عَلَى الْعَرْشِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا  
كَأَنَّهُمْ يَنْفَعُونَ ۝ الَّذِينَ قَالُوا هَٰؤُلَاءِ نَارُ اللَّهِ تَحْمِلُ  
الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَٰهٌ لَا يَمُوتُونَ ۝ وَإِنْ كُلُّ لِقَائِهِمْ  
لَنَبَأٍ مَنصُورٍ ۝ وَإِلَٰهَهُمْ أَتْرَافُ الْأَرْضِ إِلَٰهَةً أَحْيَا نَهَا  
وَأَخْرَجَاهَا حَيًّا وَفَنَّا كُنُوزَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ حُطْحُوتَ  
مِنْ عُيُولٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا  
مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝ سُبْحَانَ  
الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَمَا تَشَاءُ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا  
وَمَا لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَإِلَٰهَهُمْ أَتْرَافُ السَّمْعِ وَمِنَ الْبَصَرِ  
فَلَا ذَاهُمْ مُظِلُّونَ ۝ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا  
ذَٰلِكَ تَسْوِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ وَالْقَمَرَ دَرَرَةً مَنَالًا حَتَّىٰ  
عَادَ كَالْعُرْوَنِ الْاُولَىٰ ۝ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ  
تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝

بأنواع المثوبات والمسرات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِم مِّن بَعْدِهِ مِّن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم. ﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي: كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله، ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجيرهم عليهم.

قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيخة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!

(۱) کذا فی ب، وفي أ: فأصايبها.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿ألم يروا كم أهلكنا  
قبلهم من القرون أنهم إليهم  
لا يرجعون﴾ وإن كل لما جميع لدينا  
محضرون ﴿يقول تعالى: ألم ير هؤلاء  
ويعتبروا بمن قبلهم من القرون  
الماضية، التي أهلكها الله تعالى وأوقع  
بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك،  
فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها،  
وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً،  
ويعتصمهم بعد موتهم، ويحضرون بين  
يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل  
الذي لا يظلم مثقال ذرة،﴾ وإن تك  
حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً  
عظماً﴾.

﴿٣٣ - ٣٦﴾ ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ  
الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ  
يَأْكُلُونَ﴾ \* وجعلنا فيها جنات من  
نخيل وأعناب وفجرنا فيها من  
العيون \* ليأكلوا من ثمره وما عملته  
أيديهم أفلا يشكرون \* سبحانه الذي  
خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض  
ومن أنفسهم وما لا يعلمون﴾ أي :  
﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ﴾ على البعث والنشور،  
والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على  
الأعمال، هذه ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾  
أنزل الله عليها المطر، فأحياها<sup>(١)</sup> بعد  
موتها، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ  
يَأْكُلُونَ﴾ من جميع أصناف الزروع،  
ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله  
أنعامهم، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي : في  
تلك الأرض الميته ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي :  
بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً  
النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف  
الأشجار، ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي : في  
الأرض ﴿مِنَ الْعَيْنِ﴾

جعلنا في الأرض تلك الأشجار،  
والنخيل والأعناب، ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ  
ثمره﴾ قوتاً وفاكهة، وأدماً ولذة،  
﴿وَلِيَعْلَمَ أَنَّ تِلْكَ الثَّمَارَ﴾ ما عملته  
أيديهم ﴿لَوْ لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ صَنَعٌ، وَلَا  
عَمَلٌ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا صَنَعَةُ أَحْكَمِ  
الْحَاكِمِينَ، وَخَيْرِ الرَّازِقِينَ، وَأَيْضاً فَلَمْ  
تَعْمَلْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بطبخ ولا غيره، بل

أوجد الله هذه الثمار، غير محتاجة لطبخ ولا شيء، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم، أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأنبث فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها للذي الثمار، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعينون، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل، إنه على كل شيء قدير.

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾  
أي: الأصناف كلها، ﴿عما تنبت الأرض﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده. ﴿ومن أنفسهم﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخلقهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة. ﴿وما لا يعلمون﴾ من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد، فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمي، أو شبيه، أو مثل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يزيده.

﴿٣٧ - ٤٠﴾ ﴿وَأَيَّةَ لَهُمَ اللَّيْلِ  
نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مَظْلُومُونَ﴾ \*  
والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير  
العزیز العليم ﴿والقمر قدرناه منازل  
حتى عاد كالعرجون القديم﴾ \*  
لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر  
ولا الليل سابق النهار وكل في فلك  
يسبحون ﴿أي﴾: ﴿وَأَيَّةَ لَهُم﴾ على نفوذ  
مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه  
الموتى بعد موتهم. ﴿الليل نسلخ منه  
النهار﴾ أي: نزيل الضياء العظيم الذي  
طبق الأرض، فببدله بالظلمة، ونحلها  
محلّه ﴿فإذا هم مظلومون﴾ وكذلك نزيل  
هذه الظلمة، التي عمتهم وشملتهم،  
فتطلع الشمس، فتضيء الأقطار،  
وينتشر الخلق لمعاشهم ومضالحهم،  
ولهذا قال: ﴿والشمس تجري لمستقر

لها [أي: دائماً تجري لمستقر لها] قدره الله لها، لا تتعدها، ولا تقصر عنه، وليس لها تصرف في نفسها، ولا استعصاء على قدرة الله تعالى. ذلك تقدير العزيز الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة، بأكمل تدبير، وأحسن نظام. العليم الذي بعلمه، جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

والقمر قدرناه منازل ينزل بها، كل ليلة ينزل منها واحدة، حتى يصغر جداً، فيعود كالمرجوجون القديم أي: عرجون النخلة، الذي من قدمه نش وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك، ما زال يزيد شيئاً فشيئاً، حتى يتم [نوره] ويتسق ضياؤه.

وكل من الشمس والقمر، والليل والنهار، قدره [الله] تقديراً لا يتعدها، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد عدم الآخر، ولهذا قال: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر أي: في سلطانه الذي هو الليل، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ولا الليل سابق النهار فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه، وكل من الشمس والقمر والنجوم في فلك يسبحون أي: يترددون على الدوام، فكل هذا دليل ظاهر، وبرهان باهر، على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع.

٤١ - ٥٠ ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ \* وخلقنا لهم من مثله ما يركبون \* وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون \* إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين \* وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحون \* وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين \* وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله

أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين \* ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون \* فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون \* أي: ودليل لهم وبرهان، على أن الله وحده المعبود، لأنه المنعم بالنعمة، الصارف للنقم، الذي من جملة نعمه ﴿أنا حملنا ذريتهم﴾ قال كثير من المفسرين: المراد بذلك: آباؤهم.

وخلقنا لهم أي: للموجودين من بعدهم من مثله أي: من مثل ذلك الفلك، أي: جنسه ما يركبون به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن، لأن النعمة عليهم، نعمة على الذرية. وهذا الموضع من أشكال المواضع علي في التفسير، فإن ما ذكره كثير من المفسرين، من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام، وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده.

وتم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية [بني] آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكميلاً للمعنى، تأباه فصاحة القرآن.

فإن أريد بقوله: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ الإبل، التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضاً، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وآية لهم أنا حملناهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال:

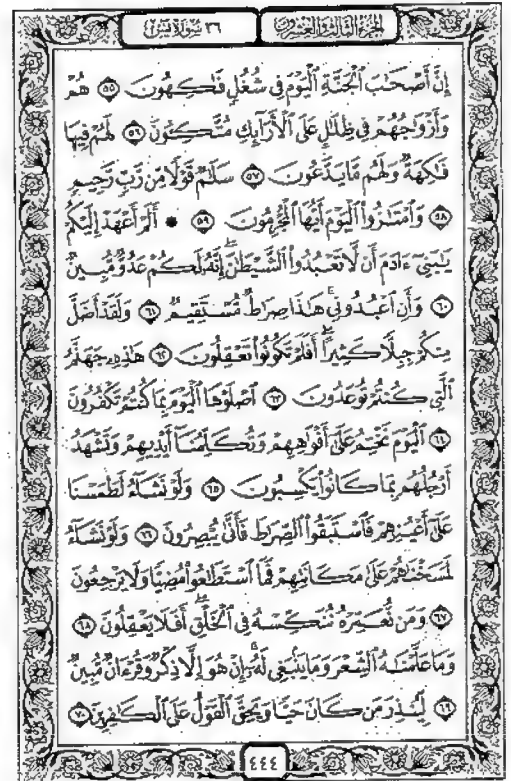
﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ \* وخلقنا لهم من مثله ما يركبون \* وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون \* إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين \* وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحون \* وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين \* وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين \* ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون \* فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون \* ونفع في الصور فإنهم من الأحداث إلى أنهم يسيرون \* قالوا لو نزلنا من سفينتنا هذا ما وعدك الله فنحن لا نحمل حملهم \* إن كانت الآية كآية واحدة فإذ هم جميع ذلك فمخبرون \* قالوا لعلنا لنظلم أنفسنا شيئاً ولا ننجوز إلا ما كنتم نعصون \* ﴿٤١﴾

الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع، ظهر لي معنى ليس بعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه، للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلية، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن.

فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم [صنعة] الفلك [البحرية] الشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، [والمراكب البرية] مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية، تبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ أي: المملوء ركباً وأمتة.

فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها، من



الغرق، و [لهذا] نبههم على نعمته عليهم حيث <sup>(١)</sup> أنجاهم مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿ولا هم ينقذون﴾ مما هم فيه، ﴿إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾ حيث لم نغرقهم، لطفاً بهم، وتمتعاً لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم.

﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ أي: من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات ﴿لعلكم ترحمون﴾ أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأساً، ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾. وفي إضافة الآيات إلى ربهم، دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بياناً.

وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما يتفهم في دينهم ودنياهم.

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: حين.

معارضين للحق، محتجين بالمشيئة: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم﴾ أيها المؤمنون ﴿إلا في ضلال مبين﴾ حيث تأمرونا بذلك.

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة ليست حجة لعاص أبداً، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم وقهراً.

﴿ويقولون﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك، فإنه [عن] قريب ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ وهي نفخة الصور ﴿تأخذهم﴾ أي: تصيبهم ﴿وهم يغمضون﴾ أي: وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة، وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا ينظرون ولا يمهملون ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ أي: لا قليلة ولا كثيرة ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾

﴿٥١ - ٥٤﴾ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ النفخة الأولى، هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور، فإذا نفخ في الصور، خرجوا من الأجداث والقبور، ينسلون إلى ربهم، أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر، وفي تلك الحال، يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون:

﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ أي: من رقدتنا في القبور، لأنه ورد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور، فيجأبون، فيقال [لهم]: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأي عين.

ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يحيط به على الظنون، ولا حسب به الحاسيون، كقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ ورخشعت الأصوات للرحمن ﴿ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿إن كانت﴾ البعثة من القبور ﴿إلا صيحة واحدة﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد، ﴿فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ الأولون والآخرين، والإنس والجن، ليحاسبوا على أعمالهم.

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها، ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿٥٥ - ٥٨﴾ ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾ سلام قولاً من رب رحيم [لما ذكر تعالى] أن كل أحد لا يجازي إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿في شغل فاكهون﴾ أي: في شغل مفكه للنفس، مُلذَّ لها، من كل ما تنهواه النفوس، وتلذذ العيون، ويتمناه المتمنون.

ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات، كما قال: ﴿هم وأزواجهم﴾ من الجور العين، اللاتي قد



كانوا يكسبون ﴿٦٧﴾ أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء.

﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم. ﴿فاستبقوا الصراط﴾ أي: فبادروا إليه، لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة، ﴿فأنى يبصرون﴾ وقد طمست أبصارهم.

﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكائنتهم﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ إلى الأمام ﴿ولا يرجعون﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار. والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما ثمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿٦٨﴾ ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ يقول تعالى: ﴿ومن نعمره﴾ من بني آدم ﴿ننكسه في الخلق﴾ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة. ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الآدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أن يكون شاعراً، أي: هذا من

المجرمون ﴿٦٩﴾ أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم: ﴿ألم أعهد إليكم﴾ أي: آمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، [وأقول لكم]: ﴿يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿و﴾ أمرتكم ﴿أن اعبدوني﴾ بامثال أوامري وترك زواجري، ﴿هذا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صراط مستقيم﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين، أي: فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ف ﴿أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي: خلقاً كثيراً. ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاته ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك، فإذا أطمعتم الشيطان، وعاديتم الرحمن، وكذبتم ببلقائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عياناً، فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفرع الأكبر.

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي: ادخلوها على وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسول الله.

قال الله تعالى في بيان وصفهم الفظيع في دار الشقاء: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرّون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب. ﴿وتكلمنا أيديهم﴾ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما

جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق. ﴿ففي ظلال على الأرائك﴾ أي: على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن. ﴿متكئون﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

﴿لهم فيها فاكهة﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين وزمان، وغيرها، ﴿ولهم ما يدعون﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

ولهم أيضاً ﴿سلام﴾ حاصل لهم ﴿من رب رحيم﴾ ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قولا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، فلولا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك.

فترجورينا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿٥٩ - ٦٧﴾ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين \* وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم \* ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون \* هذه جهنم التي كنتم توعدون \* اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون \* اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون \* ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون \* ولو نشاء لمسخناهم على مكائنتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾ لما ذكر تعالى جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿امتازوا اليوم أيها



جنس المحال أن يكون شاعراً، لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى جسم جميع الشبه التي يتعلّق بها الضالون على رسوله، فحسب أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له، «إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب، جميع المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم احتمال، وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح.

«وقرآن مبين» أي: مبين لما يطلب بيانه. ولهذا حذف المفعول، ليدل على أنه مبين لجميع الحق، بأدلته التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه، أنزله الله كذلك على رسوله. «لينذر من كان حياً» أي: حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية. «ويحق القول على الكافرين» لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدلّون بها.

«٧١-٧٣» «أولم يروا أنا خلقنا لهم فما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون \* وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون \* ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون» يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلّلها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومعاملتهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفاء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها، «أفلا

يشكرون» الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة.

«٧٤-٧٥» «واتخذوا من دون الله آلهة لهم ينصرون \* لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون» هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي <sup>(١)</sup> اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها، فإنها في غاية العجز «لا يستطيعون نصرهم» ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة [والقدرة] <sup>(٢)</sup>، فإذا استطاع، يبقى: هل يريد نصره من عبده أم لا؟ فتقضي الاستطاعة، ينفي الأمرين كليهما.

«وهم لهم جند محضرون» أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرى بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والتفيع والضر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟

«٧٦» «فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون» أي: فلا يحزنك يا أيها الرسول، قول الكاذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدرحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم «إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون» فتجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً.

«٧٧-٨٣» «أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين \* وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم \* قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم \* الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون \*

أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم \* إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون \* فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون» هذه الآيات الكريمة، فيها [ذكر] شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: «أولم ير الإنسان» المنكر للبعث والشاك فيه، أمراً يفيد اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه «من نطفة» ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب، «فإذا هو خصيم مبين» بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم، قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق، من باب أولى.

«وضرب لنا مثلاً» لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق.

فسر هذا المثل [بقوله]: «قال» ذلك الإنسان «من يحيي العظام وهي رميم» أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت.

هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلقته بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فوجد عياناً، لم يضرب هذا المثل.

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف، فقال: «قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

(١) كذا في ب، وفي أ: الذي.

(٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقيّة كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك.





﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم، معد لهم، كتمردهم عن طاعة ربهم.

ولولا أنه [تعالى] استثنى، لكان ذلك دليلاً على أنهم لا يستمعون شيئاً أصلاً، ولكن قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة، ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ أي: تابعها إلى أوليائه، فيقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مئة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فَاسْتَفْتَهُمْ﴾ أي: أسأل منكري خلقهم بعد موتهم، ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقاً وأشق؟ ﴿أَمْ مِنْ خَلْقِنَا﴾ من [هذه] المخلوقات؟ فلا بد أن يقرروا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

فيلزمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

صلصالٍ من حمٍ مسنونٍ﴾.

﴿١٢- ٢١﴾ ﴿بَلْ عَجِبْتَ

وَيَسْخَرُونَ \* وَإِذَا ذُكِّرُوا

لَا يَذْكُرُونَ \* وَإِذَا رَأَوْا آيَةً

يَسْتَسْخَرُونَ \* وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُبِينٌ \* أَعِزَّنَا وَكُنَّا تَرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا

لَمَبْعُوثُونَ \* أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ \* قُلْ

نعم وأنتم داخرون \* فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون \* وقالوا

يا ويلنا هذا يوم الدين \* هذا يوم

الفصل الذي كنتم به تكذبون \* ﴿بَلْ

عَجِبْتَ﴾ يا أيها الرسول وأيها الإنسان،

من تكذيب من كذب بالبعث، بعد أن

أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة

المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب

واستغراب، لأنه عما لا يقبل الإنكار،

﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه،

أنهم ﴿يسخرون﴾ ممن جاء بالخبر عن

البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى

زادوا السخرية بالقول الحق:

﴿و﴾ من العجب أيضاً أنهم ﴿إذا

ذُكِّرُوا﴾ ما يعرفون في فطرتهم

وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم

إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك، فإن كان

جهلاً، فهو من أدل الدلائل على شدة

بلادتهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو

مستقر في الفطر، معلوم بالعقل،

لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً

وعناداً، فهو أعجب وأغرب:

ومن العجب [أيضاً] أنهم إذا أتيتم

عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي

يخضع لها فحول الرجال وألباب

الآباء، يسخرون منها ويعجبون:

ومن العجب أيضاً، قولهم للحق لما

جاءهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو

الحق، في رتبة أخس الأشياء

وأجفها.

ومن العجب أيضاً، قياسهم قدرة

رب الأرض والسماوات، على قدرة

الآدمي الناقص من جميع الوجوه،

فقالوا استغادوا وإنكاراً: ﴿إِذَا مَتَّأ وَكُنَّا

تَرَاباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ \* أَوْ أَبَاؤُنَا

الأولون﴾

ولما كان هذا منتهى ما عندهم،

وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن

يحييهم بجواب مشتمل على

ترهيبهم<sup>(١)</sup>، فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾

ستبعثون، أنتم وأبائكم الأولون

﴿وأنتم داخرون﴾ ذليلون صاغرون،

لا تمتنعون، ولا تستعصون على

قدرة الله:

﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ

إسرافيل فيها في الصور ﴿فإذا هم﴾

مبعوثون من قبورهم ﴿ينظرون﴾ كما

ابتدى خلقهم، بعثوا بجميع

أجزائهم، حفاة عراة غرلاً، وفي تلك

الحال، يظهر الندم والخزي

والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾

فقد أقرروا بما كانوا في الدنيا به

يستهوون.

فيقال لهم: ﴿هذا يوم الفصل﴾ بين

العباد فيما بينهم وبين ربهم من

الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من

الخلق.

﴿٢٢- ٢٦﴾ ﴿احْشَرُوا الَّذِينَ

ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ \*

مَنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ

الْجَحِيمِ \* وَقَفُوهمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ \*

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ \* بَلْ هُمْ الْيَوْمَ

مَسْتَسْلِمُونَ﴾ أي: إذا أحضروا يوم

القيامة، وعاینوا ما به يكذبون، ورأوا

ما به يستسخرون، يؤمرهم إلى النار،

التي بها كانوا يكذبون، فيقال:

﴿احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم

بالكفر والشرك والمعاصي،

﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الذين من جنس

عملهم، كل يضم إلى من يجانسه في

العمل.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ من

دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد التي

زعموها، فاجعوهم جميعاً ﴿فاهْدُوهُمْ

إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: سوقوهم

سوقاً عنيفاً إلى جهنم، وبعد ما يتعين

أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل

(١) كذا في ب، وفي أ: تربيتهم.

دار البوار، يقال: ﴿وقفوههم﴾ قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿إنهم مسؤولون﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: ﴿مالكم لا تنصرون﴾ أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرقكم لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم وتشفع لكم عند الله، فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا للعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا.

ولهذا قال: ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾.

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون﴾ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون﴾ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ ويقولون ﴿أنا لناركونا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم، وهدوا إلى صراط الجحيم، ووقفوا، فسئلوا، فلم يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم، يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وإضلالهم، فقال الأتباع للمتبعين الرؤساء: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ أي: بالقوة والغلبة، ففضلونا، ولولا أنتم لكاننا مؤمنين.

﴿قالوا﴾ لهم: ﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ أي: ما زلتُم مشركين، كما نحن مشركون، فأبي شيء فضلكم علينا؟ وأي شيء يوجب لومنا؟

﴿والحال أنه﴾ ما كان لنا عليكم من سلطان ﴿أي: قهر لكم على اختيار الكفر﴾ بل كنتم قوماً طاغين ﴿متجاوزين للحد﴾.

﴿فحق علينا﴾ نحن وإياكم ﴿إنا لذائقون﴾ العذاب، أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق العذاب، ونشترك في العقاب ﴿فذلك﴾ أغويناكم إنا كنا غاوين ﴿أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلوموننا ولوموا أنفسكم.

قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿في العذاب مشتركون﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب

جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بعجزائه، ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه ﴿يستكبرون﴾ عنها وعلى من جاء بها.

﴿ويقولون﴾ معارضة لها: ﴿إنا لناركونا آلهتنا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وأبائنا ﴿ل﴾ قول ﴿شاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ. فلم يكفهم قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى، ناقضاً لقولهم: ﴿بل جاءهم﴾ عمداً ﴿بالحق﴾ أي: بحجته حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وصدق المرسلين﴾ [أي: وحجته صدق المرسلين] فلو لا حجته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به

ما لكانوا نصرون ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون ﴿قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون﴾ فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ ويقولون ﴿إنا لناركونا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ بل جاءهم بالحق وصدق المرسلين ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم، وهدوا إلى صراط الجحيم، ووقفوا، فسئلوا، فلم يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم، يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وإضلالهم، فقال الأتباع للمتبعين الرؤساء: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ أي: بالقوة والغلبة، ففضلونا، ولولا أنتم لكاننا مؤمنين.

٤٤٧

ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أمهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم حجته، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم.

وصدق أيضاً المرسلين، بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: ﴿إنا لذائقون﴾ قولاً صادراً منهم، يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي: المؤلم الموجه، ﴿وما تجزون﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟

ولما كان هذا الخطاب لفظه عاماً، والمراد به المشركون، استثنى تعالى المؤمنين فقال:

﴿٤٩-٤٩﴾ ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أولئك لهم رزق معلوم ﴿فواكه وهم مكرمون﴾ في جنات النعيم ﴿على سرر متقابلين﴾ يطاف عليهم بكأس من معين ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ لا فيها غول ولا هم عنها



ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه.

﴿عين﴾ أي: حسن الأعين  
جميلاً، ملاح الحدق، ﴿كأنهن﴾  
أي: الحور ﴿بيض مكنون﴾ أي:  
مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن  
وكون ألوانهن أحسن الألوان وأباها،  
ليس فيه كدر ولا شين.

﴿٥٠ - ٦١﴾ ﴿فَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ \* قال قائل منهم إني كان لي قريبن \* يقول أأنك لمن المصدقين \* إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمدينون \* قال هل أنتم مطلعون \* فاطلع فرآه في سواء الجحيم \* قال تالله إن كدت لتردين \* ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين \* أفما نحن بميتين \* إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين \* إن هذا لهو الفوز العظيم \* لمثل هذا فليعمل العاملون ﴿لما ذكر تعالى نعيمهم وتعام سرورهم، بالآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿إني كان لي قريبن﴾ في الدنيا ينكر البعث، ويؤمنني على تصديقي به، و ﴿يقول﴾ لي ﴿أأنك لمن المصدقين﴾ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمدينون﴾ أي: مجازون بأعمالنا؟ أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا تراباً وعظاماً، أننا نبعث ونُعَاد، ثم نحاسب ونُجَازَى بأعمالنا؟!﴾

أي : يقول صاحب الجنة لإخوانه :  
هذه قصتي ، وهذا خبري ، أنا  
وقريني ، ما زلت أنا مؤمناً مصداقاً ،  
وهو ما زال مكذباً منكراً للبعث ، حتى  
متنا ، ثم بعثنا ، فوصلت أنا إلى ما ترون  
من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل ،  
وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب .  
فـ ﴿ هل أنتم مطلعون ﴾ لنظر إليه ،  
فتزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه ،  
ويكون ذلك رأي عين ؟ والظاهر من  
حال أهل الجنة ، وسرور بعضهم

الفاخرة، المزخرفة الجميلة، فهم متكثون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح. ﴿مقابلين﴾ فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على تقابل قلوبهم، وتأدب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾  
أي : يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم  
بالأشربة اللذيذة ، بالكاسات الجميلة  
المنظرة ، المترعة من الرحيق المختوم  
بالمسك ، وهي كأسات الخمر .

وتلك الخمر، تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها **بيضاء** من أحسن الألوان، وفي طعمها **لذة** للشاربين يتلذذ شاربيها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم، وعموم النعيم وتفاصيله داخله في قوله: **﴿جنات النعيم﴾**.

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم  
فتشتاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم  
فقال: ﴿وعندهم قاصرات الطرف  
عين﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في  
محلّاتهم القريبة، حور حسان، كاملات  
الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها  
قصرت طرفها على زوجها، لعفتها  
وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها  
وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة  
سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها  
قصرت طرف زوجها عليها، وذلك  
يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي  
أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها،  
وقصر الطرف أيضاً، يدل على قصر  
النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين  
عمتل، وكلاهما صحيح، و [كل]  
هذا يدل على جمال الرجال والنساء في  
الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً، محبة  
لا يطمح إلى غيره، وشدة عفّتهم  
كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباعض

الْمَدَنِيَّةُ وَالْمَدَنِيَّةُ ٢٧ سورة الصافات

يَقُولُ أَلَمْ يَكُنْ لِلصَّادِقِينَ ﴿١٠﴾ أَمْ دَامَتْ أَوْ كُنْتُمْ أَتَانَا وَعَظَمًا  
أَمْ تَالِيَهُنَّ ﴿١١﴾ قَالَ حَلَّ أَسْمُهُمْ مُطْلَعُونَ ﴿١٢﴾ فَاطْلَعُوا قَوْلَهُ فِي  
سَرَةٍ أَنَجِمُوا ﴿١٣﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ ﴿١٤﴾ وَلَوْلَا بَعْدُ  
رَبِّي لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ أَفَمَا تَحْزَنُونَ بِمَيْتَةٍ ﴿١٦﴾ إِنْ أَمَرْنَا  
الْأُولَىٰ وَمَا تَحْزَنُونَ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْءُوذٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾  
يُخِلُّ هَذَا فَبِأَيِّ حِيلٍ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ حَبِّ الْبُرَّةِ وَالْزُّوْفِ  
﴿٢٠﴾ إِنْ جَعَلْنَاهُمْ نَارًا لِّلْطَّاغُوتِ ﴿٢١﴾ إِنَّهَا خَيْرٌ لِّمَنْ تَخْرِجُ فِي أَصْلٍ  
الْحَبِيبِ ﴿٢٢﴾ طَلَعْنَا هَٰكَ أَهْلَهُ وَمِنْ الشَّيْطَانِ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ خَشِ  
لَا كَلُونَ وَمِنْهَا أَمَّا الْبُؤْسُ وَمِنْهَا الْبُؤْسُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ لَمْ يَلْمِ عَلَيْهِمَا  
لَشَوَّائِينَ وَيَسِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ لَمْ يَرِجِعْهُمَا لِإِلَٰلِ الْحَبِيبِ ﴿٢٦﴾  
إِنَّهُمْ أَتَوْا أَبَا هَٰمَ صَلَاتِينَ ﴿٢٧﴾ فَهُمْ عَدَاةُ اللَّهِ فِي هَٰؤُلَاءِ  
﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ عَنْهُمْ أَكْثَرُ الْآلَاءِ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ  
مُرْسِلِينَ ﴿٣٠﴾ فَاسْتَظَرُّوكَ كَانِ عَظِيمَةِ الْمُنْذِرِينَ ﴿٣١﴾  
إِلَّا بِرَادِ اللَّهِ الْغُلَامِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٍ فَلَجَعَهُ  
الْمُجْسِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَبَيْنَهُ وَأَهْلُكَ مِنَ الْكَفَرِ الْعَظِيمِ ﴿٣٤﴾

٤٤٨

ينزفون \* وعندهم قاصرات الطرف  
عين \* كأنهن بيض مكنون \*

يقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم، لأنهم أخلصوا الله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه، فسرّه بقوله: ﴿فَوَاكِهَ﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تشفك بها النفس، للذتها في لوتها وطعمها. ﴿وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ لا مهانون محتقرون، بل معظمون مجلون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهشونهم ببلوغ هنا الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي: الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعتها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل خل بنعيمها، من جميع المكدرات والمنغصات.

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضاً، أنهم على ﴿سرر﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزيّنة بأنواع الأكسية



بعض، وموافقة بعضهم بعضاً، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له، للاطلاع على قرينه، ﴿فاطلع﴾ فرأى قرينه ﴿في سواء الجحيم﴾ أي: في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.

ف ﴿قال﴾ له لا تمأ على حاله، وشاكراً لله على نعمته أن نجاه من كيد: ﴿تالله إن كدت لتردين﴾ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشبه بزعمك، ﴿ولولا نعمة ربي﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لكنت من المحضرين﴾ في العذاب معك ﴿أفما نحن بميتين﴾ إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴿أي: يقول المؤمن مبتهجاً بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب استقهام بمعنى الإثبات والتقرير﴾ أي: يقول لقرينه المعذب: أفترغم أننا لسنا نموت بنوى الموتة الأولى، ولا بعث بعدها ولا عذاب<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال.

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوق العاملين، وحثهم على العمل، فقال: ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل مخذور ومكروه، فهل فوز يطلب

فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، واستروا برويته، وطربوا لكلامه؟

﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة، أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشغول بالعمل الذي يقرب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطايا به إلى دار البوار؟!.

﴿٦٢ - ٧٤﴾ ﴿أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم﴾ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ طلوعها كأنه رؤوس الشياطين ﴿فإنهم لآكلون منها فمالثون منها البطون﴾ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴿ثم إن مرجعهم لآلى الجحيم﴾ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴿فهم على آثارهم يهرعون﴾ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴿الآ عباد الله المخلصين﴾ ﴿أذلك خير﴾ أي: ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأبى: الطعامين أولى؟ الذي وصف في الجنة ﴿أم﴾ طعام أهل النار؟ وهو ﴿شجرة الزقوم﴾ إنا جعلناها فتنة ﴿أي: عذاباً ونكالاً للظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي. ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ أي: وسطه، فهذا مخرجها، ومعدنها أشر المعادن وأسوأها، وشر المغرس يدل على شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به، وبما ذكر من صفة ثمرتها.

وأنا كـ ﴿رؤوس الشياطين﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم ويطوئهم، وليس لهم عنها مندوحة ولا معذل<sup>(٢)</sup>.

وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُمُ الْياقوتَ ﴿٦٢﴾ وَتَرَكَّا عَظْمًا فِي الْأَخْيَرِ ﴿٦٣﴾ سَكَمًا عَلَى نَجْوَى الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ إِنَّكَ لَكَيْدٌ فَكِرٌ الْحَسْبُ الْيَقوتَ ﴿٦٥﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أَفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٦٧﴾ وَاتَّكَ مِنْ يَمِينِهِمْ لَمْ يَرَهُمْ ﴿٦٨﴾ إِذْ جَاءَهُمْ رَبُّهُمْ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ مِنْهُمْ ﴿٦٩﴾ أَفَكَيْفَ أَهْلَهُ دُونَ اللَّهِ قَالَ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُ قَوْمٍ بِمَا وَعَدُوا رَبَّهُمْ ﴿٧٠﴾ فَأَنظِرْهُمْ فِي النَّارِ ﴿٧١﴾ فَتَنَّاكَ يَاقوتَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ فَتَنَّا نَفْسَهُ فِي النَّارِ ﴿٧٣﴾ فَقَالَ إِنِّي سَكَمٌ عَلَى نَجْوَى الْعَالَمِينَ ﴿٧٤﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٧٥﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٧٦﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٧٧﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٧٨﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٧٩﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٠﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨١﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٣﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٤﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٥﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٦﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٧﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٨﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٨٩﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٠﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩١﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٢﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٣﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٤﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٥﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٧﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٨﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿٩٩﴾ تَاللَّهِ لَآ أُفْرَأَى الْآخَرِينَ ﴿١٠٠﴾

ولهذا قال: ﴿فإنهم لآكلون منها فمالثون منها البطون﴾ فهذا طعام أهل النار، فبئس الطعام طعامهم، ثم ذكر شرابهم فقال: ﴿ثم إن لهم عليها﴾ أي: على أثر هذا الطعام ﴿لشوباً من حميم﴾ أي: ماء جاراً، قد انتهى، كما قال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾ وكما قال تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾.

﴿ثم إن مرجعهم﴾ أي: مآلهم ومقرهم ﴿وما وأهم﴾ لآلى الجحيم ﴿ليذوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم، ما ليس عليه مزيد من الشقاء، وكأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إنهم ألفوا﴾ أي: وجدوا ﴿آباءهم ضالين﴾ فهم على آثارهم يهرعون ﴿أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب، ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾. ﴿ولقد ضل قبلهم﴾ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أكثر الأولين﴾ وقليل منهم آمن واهتدى. ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾

(١) ما بين الخاصرتين زيادة من: ب، وما بعد الحاصرة الثانية شطب عليه فيها، ورأيت إبقاء لعدم شطبه في: أ.

(٢) كذا في: ب، وفي: أ: معذل.



﴿فألقوه في الجحيم﴾ جزاء على ما فعل من تكسير ألتهم.

﴿فأرادوا به كيداً﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، ﴿قال إني ذاهب إلى ربي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصداً إلى الأرض المباركة أرض الشام. ﴿سيهدين﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وأعزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوري عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾.

﴿رب هب لي﴾ ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم يرف فيهم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته، فاستجاب الله له وقال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة [بإسحاق] ولأن الله تعالى قال في بشره بإسحاق ﴿فبشرناها﴾ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو ينضمّن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عمن جنى﴾.

﴿فلما بلغ الغلام معه السعي﴾ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنّاً يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعة، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا<sup>(١)</sup> الأنبياء وحي، ﴿فانظر ماذا ترى﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، ﴿قال﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بالده: ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿ستجدني إن﴾

شاء الله من الصابرين﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فلما أسلما﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازماً بقتل ابنه وثمره فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وتله للحين﴾ أي: تل إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿ونادينا﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيم﴾ قد صدقت ﴿أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه،﴾ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم﴾.

﴿إن هذا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلّة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحجوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وده ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدم حب الله، وأثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلماذا قال: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ وفديناه بذبح عظيم ﴿أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم﴾

القيامة.

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إبراهيم ﴿أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه [فيه] محبوب معظم مثني عليه.

﴿سلام على إبراهيم﴾ أي: تحيته عليه كقوله: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾.

﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرح عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴿هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورثته يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعاقل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلها محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

﴿١١٤ - ١٢٢﴾ ولقد منّا على

(١) كذا في: ب، وفي أ: ورأي.

موسى وهارون ﴿إلى آخر القصة يذكر تعالى مثته على عبديه ورسوله موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواظع وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومن عليهما بسلوكة.

﴿وتركنا عليهما في الآخرين \* سلام على موسى وهارون﴾ أي: أبقى عليهما ثناء حسناً، ونحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين \* إنهما من عبادنا المؤمنين﴾.

﴿١٢٣ - ١٣٢﴾ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين \* إذ قال لقومه ألا تتقون \* أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين \* الله ربكم ورب آبائكم الأولين \* فكذبوه فأنهم لمحضرون \* إلا عباد الله المخلصين \* وتركنا عليه في الآخرين \* سلام على إل ياسين \* إنا كذلك نجزي المحسنين \* إنه من عبادنا المؤمنين﴾ يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل»، وتركهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورياهم فأحسن تربيتهم، وأدر عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم!! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغنى!!

﴿فكذبوه﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فأنهم لمحضرون﴾ أي: يوم القيامة

في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية. ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: الذين أخلصهم الله ومنهم عليهم باتباع نبينهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿وتركنا عليه﴾ أي: على إلياس ﴿في الآخرين﴾ ثناء حسناً، ﴿سلام على إل ياسين﴾ أي: تحية من الله وسن عباده عليه.

﴿إنا كذلك نجزي المحسنين \* إنه من عبادنا المؤمنين﴾ فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين \* إذ نجيناه وأهله أجمعين \* إلا عجوزاً في الغابرين \* ثم دمرنا الآخرين \* وإنكم لتمررون عليهم مصبحين \* وبالليل أفلا تعقلون﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً فنجوا.

﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾ أي: الباقيين المعذبين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه. ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ بأن قلنا عليهم ديارهم ﴿فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ حتى همدوا وخدوا.

﴿وإنكم لتمررون عليهم﴾ أي: على ديار قوم لوط ﴿مصبحين \* وبالليل﴾ أي: في هذه الأوقات يكثرون ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية. ﴿أفلا تعقلون﴾ الآيات والعبر، وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟

﴿١٣٩ - ١٤٨﴾ ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى آخر القصة. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إذ أبق﴾

أي: من ربه مغاضباً له، ظاناً أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقبض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أبق لجأ ﴿إلى الفلك المشحون﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاخن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن من قرع وغلب، ألقي في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما اقترعوا أصابت القرعة يونس ﴿فكان من المدحضين﴾ أي: المغلوبين، فألقي في البحر ﴿فالتقمه الحوت وهو﴾ وقت التقامه ﴿مليم﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

﴿للبت في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد. ﴿فنبذناه بالعراء﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿وهو منقيم﴾ أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ المعوط من البيضة.

﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرة باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.



ثم لطف به لطفاً آخر، وامتنن عليه  
مئة عظمى، وهو أنه أرسله إلى مئة  
الف من الناس أو يزيدون عنها،  
والمعنى أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا،  
فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فأمنوا﴾ فصاروا في موازينه، لأنه  
الداعي لهم، ﴿فمتعنهم﴾ إلى حين  
بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما  
انعدت أسبابه، قال تعالى: ﴿فلولا  
كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم  
يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب  
الخنزير في الحياة الدنيا ومنتعنهم إلى  
حين﴾.

﴿١٤٩-١٥٧﴾ ﴿فاستفتهم  
ألربك البنات ولهم البنون﴾ أم خلقنا  
الملائكة إناثاً وهم شاهدون \* ألا إنهم  
لكاذبون \* أصطفى البنات على  
البنين \* ما لكم كيف تحكمون \*  
أفلا تذكرون \* أم لكم سلطان  
مبين \* فأتوا بكتابكم إن كنتم  
صادقين \* يقول تعالى لنبيه ﷺ:  
﴿فاستفتهم﴾ أي: أسأل المشركين بالله  
غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا  
أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله  
ووصفه بما لا يليق بجلاله، ﴿ألربك  
البنات ولهم البنون﴾ أي: هذه قسمة  
ضيزى، وقول جائر، من جهة جعلهم  
الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أرباً  
القسمين وأخسهما له وهو البنات التي  
لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال في  
الآية الأخرى ﴿ويجعلون لله البنات  
سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ ومن جهة  
جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم  
بذلك.

قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿أم  
خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾  
خلقهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم  
ما شهدوا خلقهم، فدل على أنهم قالوا  
هذا القول بلا علم، بل افتراء  
على الله، ولهذا قال: ﴿ألا إنهم من  
إفكهم﴾ أي: كذبهم الواضح.

(١) كذا في ب، وفي أ: لم يكن.

﴿ليقولون﴾ ولد الله وإنهم  
لكاذبون﴾.

﴿أصطفى﴾ أي: اختار البنات  
على البنين \* ما لكم كيف تحكمون \*  
هذا الحكم الجائر ﴿أفلا تذكرون﴾  
وتعيزون هذا القول الباطل الجائر،  
فإنكم لو تذكروتم لم تقولوا هذا القول.  
﴿أم لكم سلطان مبين﴾ أي: حجة  
ظاهرة على قولكم، من كتاب أو  
رسول.

وكل هذا غير واقع، ولهذا قال:  
﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ فإن  
من يقول قولاً لا يقيم عليه حجة  
شرعية، فإنه كاذب متعمد، أو قائل  
على الله بلا علم.

﴿١٥٨-١٦٠﴾ ﴿وجعلوا بينه  
وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم  
لمحضرون﴾ سبحانه الله عما  
يصفون \* إلا عباد الله المخلصين \*  
أي: جعل هؤلاء المشركون بالله  
بين الله وبين الجنة نسباً، حيث زعموا  
أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم  
سروات الجن، والحال أن الجنة قد  
علمت أنهم محضرون بين يدي الله،  
[ليجازيهم] عباداً أذلاء، فلو كان بينهم  
وبينه نسب لم يكونوا<sup>(١)</sup> كذلك.

﴿سبحان الله﴾ الملك العظيم،  
الكامل الخليم، عما يصفه به المشركون  
من كل وصف أوجب كفرهم  
وشركهم.

﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ فإنه لم  
ينزه نفسه عما وصفوه به، لأنهم لم  
يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك  
كانوا مخلصين.

﴿١٦١-١٦٣﴾ ﴿فإنكم وما  
تعبدون﴾ ما أنتم عليه بفاتنين \* إلا  
من هو صال الجحيم﴾ أي: إنكم أيها  
المشركون ومن عبدتموه مع الله،  
لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً، إلا  
من قضى الله أنه من أهل الجحيم،  
فينفذ فيه القضاء الإلهي، والمقصود من

﴿فإنكم وما تعبدون﴾ إلا عباد الله المخلصين \*  
وذكرت عائشة في الأخرى: ﴿سأله عن إنايين﴾ إنا  
ذلك تجري المخلصين \* إنهم من عبادنا المؤمنين  
﴿وإن لوطاً من الرسل﴾ إذ نجته وأهله وأخوه  
﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ فذكرنا الأخرى \* والذكر  
لشؤونهم مضمينين \* وإنا لآل أفلا تعقلون \*  
﴿وإن يوسف من الرسل﴾ إذ أنقذ إلى القلعة المخلصين  
﴿فما هم بآية من آيات الله﴾ فالقصة الحوت وهو ميسر  
﴿فلولا أنكم كنتم من السبعين﴾ لنت في بطنه إلى  
يوم يموتون \* ﴿فبذلناه بالمرءة وهو ميسر﴾ وأبنتنا  
عليه سحرة من يفتنون \* وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون  
﴿فأمنوا ففزعهم من الآحين﴾ فاستفتهم أربك  
البنات ولهم البنون \* أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم  
شاهدون \* ألا إنهم من إفكهم ليقولون \* ولله  
فأنهم لكاذبون \* أصطفى البنات على البنين \*  
(١٥١)

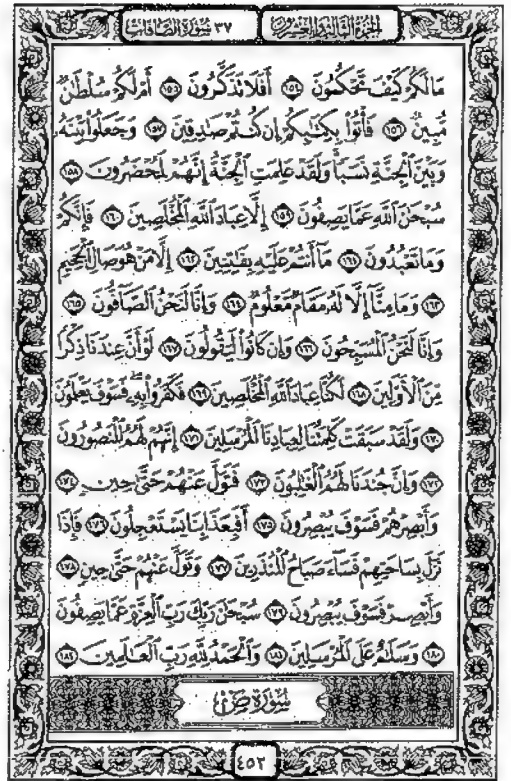
هذا، بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن  
إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله  
تعالى، أي: فلا تطمعوا بإضلال  
عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿١٦٤-١٦٦﴾ ﴿وما منا إلا له  
مقام معلوم﴾ وإنا لنحن الصّافون \*  
وإنا لنحن المسبحون﴾ هذا [فيه] بيان  
براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله  
فيهم المشركون، وأنهم عباد الله،  
لا يعصونه طرفة عين، فما منهم من  
أحد إلا له مقام وتبدير قد أمره الله به،  
لا يتعداه ولا يتجاوز، وليس لهم  
من الأمر شيء.

﴿وإنا لنحن الصّافون﴾ في  
طاعة الله وخدمته ﴿وإنا لنحن  
المسبحون﴾ لله عما لا يليق به.  
فكيف - مع هذا - يصلحون أن  
يكونوا شركاء لله؟! تعالى الله.

﴿١٦٧-١٨٢﴾ ﴿وإن كانوا  
ليقولون﴾ لو أن عندنا ذكراً من  
الأولين \* لكننا عباد الله المخلصين \*  
فكفروا به فسوف يعلمون \* ولقد  
سبقك كلمتنا لعبادنا المرسلين \* إنهم  
لهم المنصورون \* وإن جندنا لهم  
الغالبون \* فتول عنهم حتى حين \* إلى  
آخر السورة. يخبر تعالى أن هؤلاء  
المشركين يظهرون التمني، ويقولون:  
لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء





الأولين، لأخلصنا لله العباد، بل لكننا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق، فسوف يملكون العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم. ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: نزل عليهم، وقريباً منهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال. ثم كرر الأمر بالتولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من

أقوالهم الشيعة التي وصفوه بها، تنزه نفسه عنها فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به، وسلام على المرسلين] لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات.

والحمد لله رب العالمين ﴿الْأَلْفِ وَاللَّامِ لِلْإِسْتِغْرَاقِ، فَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الْحَمْدِ مِنَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأَفْعَالِ الَّتِي رَبَّى بِهَا الْعَالَمِينَ، وَأَدْرَ عَلَيْهِمْ فِيهَا النَّعْمَ، وَصَرَفَ عَنْهُمْ بِهَا النِّقَمَ، وَدَبَّرَهُمْ تَعَالَى فِي حَرَكَاتِهِمْ وَسُكُونِهِمْ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، كُلِّهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَهُوَ الْقُدُّوسُ عَنْ النِّقَمِ، الْمَحْمُودُ بِكُلِّ كَمَالٍ، الْمَحْبُوبُ الْمَعْظَمُ، وَرَسُولُهُ سَالِمُونَ مُسْلِمٌ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ فِي ذَلِكَ لَهُ السَّلَامَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. [وَأَعْدَاؤُهُ لَهُمُ الْهَلَاكُ وَالْعَطَبُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] (١).

#### تم تفسير سورة الصافات

في ٦ شوال سنة ١٣٤٣ هـ على يد جامعهم وكتابه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المجلد السابع من تفسير التكريم المئاني في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

#### تفسير سورة ص وهي مكية

﴿١١-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ص وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ \* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ \* كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَرْحَمْنَاهُمْ وَقَالُوا لَوْلَا نُفِثَ فِيهِمْ لَأَخَذُوا مِنْهُمْ أَهْلًا \* أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إلهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا إِلَّا شَيْءٌ عَجَابٌ \* وَأَنْطَلِقُ الْمُلَآءُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا

لشيء يراد \* ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق \* أنزل عليه الذكر من بيننا بل لما يذوقوا عذاب جهنم خزانة رحمة ربك العزيز البواب \* أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليترققوا في الأسباب \* جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب \* هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن، وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: ﴿ص وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه.

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر، أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن، المرصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه.

فهدي الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم ﴿عِزَّةً وَشِقَاقٍ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولكن ﴿لَاتِ حِينٌ مِثْلَ هَذَا﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فليحذر هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب، أن جاءهم منذر منهم، ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر عليهم، ونظام الانقياد له.

ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هذا ساحر كذاب﴾ وذببه - عندهم - أنه: ﴿أجبل الآلهة إلهاً واحداً﴾ أي: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العباد لله وحده. ﴿إن هذا الذي جاء به﴾ لشيء عجباً: أي: يقضي منه العجب لبطلانه وفساده. ﴿وانطلق الملائمة﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك. ﴿أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدنكم عن عبادتها صاد. ﴿إن هذا الذي جاء به محمد، من النهي عن عبادتها﴾ لشيء يراد: أي: يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق، لا يرد قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده، من الخجج والبراهين، وهم قصدهم، أن محمداً، ما دعاكم إلى ما دعاكم، إلا ليرأس فيكم، ويكون معظماً عندكم، متبوعاً ما سمعنا بهذا القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿في الملة الآخرة﴾ أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم، فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه، وكذب افتراه، وهذه أيضاً شبهة من جنس شبهتهم الأولى، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه

آباؤهم الضالون، فأين في هذا ما يدل على بطلانه؟

﴿أنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي: ما الذي فضله علينا، حتى ينزل الذكر عليه من دوننا، ويخصه الله به؟ وهذه أيضاً شبهة، أين البرهان فيها على رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف، يُمْنُ الله عليهم برسالته، ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله، ولهذا لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول، أخبر تعالى من أين صدرت، وأنهم ﴿في شك من ذكري﴾ ليس عندهم علم ولا بينة.

فلما وقعوا في الشك وارتضوا به، وجاءهم الحق الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الاتفاك منهم.

ومن المعلوم، أن من هو بهذه الصفة يتكلم عن شك وعناد، إن قوله غير مقبول، ولا قادح أدنى قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الذم واللعن بمجرد كلامه، ولهذا توعدهم بالعذاب، فقال: ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ أي: قالوا هذه الأقوال، وتجروا عليها، حيث كانوا عمتين في الدنيا، لم يصيبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه لم يتجروا.

﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ فيعطون منها من شاؤوا، ويمنعون منها من شاؤوا، حيث قالوا: ﴿أنزل عليه الذكر من بيننا﴾ أي: هذا فضله تعالى ورحمته، وليس ذلك بأيديهم حتى يتحجروا على الله.

﴿أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ بحيث يكونون قادرين على ما يريدون. ﴿فليبرقوا في الأسباب﴾ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله، فكيف يتكلمون، وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟! أم قصدهم

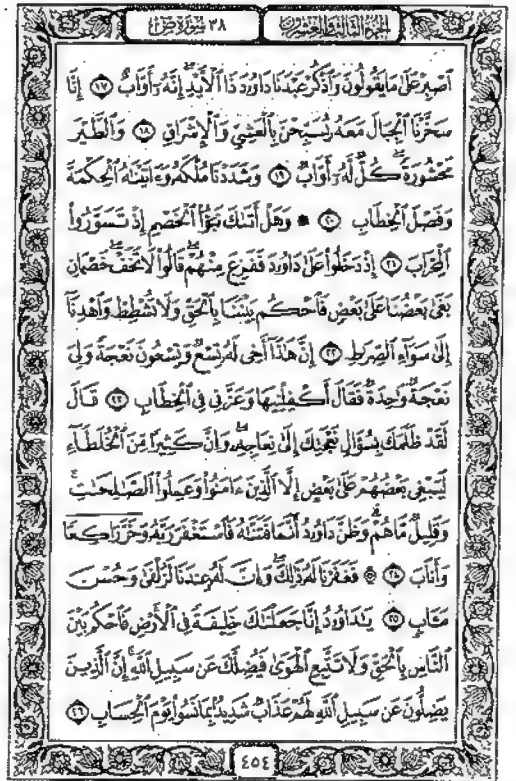
من القرآن ذي الذكر ﴿لن الذين كفروا في عز وشقاق﴾ ﴿وأهل كافرين قلوبهم فزقنا قلوباً مناسراً﴾ ﴿وكنوا أن جدهم من ذنوبهم وقال الكفرون هذا من عندنا﴾ ﴿أجعل الآلهة إلهاً وحداً إن هذا لشيء عجائب﴾ ﴿وانطلق الملائمة﴾ ﴿أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾ ﴿إن هذا لشيء يراد﴾ ﴿أي: يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق، لا يرد قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده، من الخجج والبراهين، وهم قصدهم، أن محمداً، ما دعاكم إلى ما دعاكم، إلا ليرأس فيكم، ويكون معظماً عندكم، متبوعاً ما سمعنا بهذا القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه﴾ ﴿في الملة الآخرة﴾ ﴿أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم، فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه، وكذب افتراه، وهذه أيضاً شبهة من جنس شبهتهم الأولى، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه

التحزب والتجند، والتعاون على نصر الباطل وخذلان الحق؟ وهو الواقع فإن هذا المقصود لا يتم لهم، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم، ولهذا قال: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد﴾ ﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب﴾ ﴿إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب﴾ ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ يحذرهم تعالى أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزباً على الباطل، ﴿قوم نوح وعاد﴾ قوم هود ﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾ أي: الجنود العظيمة، والقوة الهائلة، ﴿وثمود﴾ قوم صالح، ﴿وقوم لوط وأصحاب الأيكة﴾ أي: الأشجار والساتين الملتفة، وهم قوم شعيب، ﴿أولئك الأحزاب﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعددهم وعددهم على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئاً.

﴿إن كل من هؤلاء﴾ ﴿إلا كذب الرسل فحق﴾ عليهم ﴿عقاب﴾ الله، وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك.

فلينتظروا ﴿صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ أي: من رجوع ورد، تهلكهم



وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿١٦-١٧﴾ وقالوا ربنا جعل لنا

قطنا قبل يوم الحساب \* اصبر على ما يقولون \* أي: قال هؤلاء المكذبون، من جهلهم ومعادنتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿ربنا عجل لنا قطنا﴾ أي: قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً \* قبل يوم الحساب \* ولجوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد، إن كنت صادقاً، فعلامه صدقك أن تأتينا بالعذاب، فقال لرسوله: ﴿اصبر على ما يقولون﴾ كما صبر من قبلك من الرسل، فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً، ولا يضرورك في شيء، وإنما يضررون أنفسهم.

﴿١٧-٢٠﴾ واذكر عبدنا داود ذا

الأيد إنه أواب \* إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق \* والظير محشورة كل له أواب \* وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب \* لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾.

ومن أعظم العابدين، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذا الأيد﴾ (١) أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في بدنه وقلبه. ﴿إنه أواب﴾ أي: رجأع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء، رجأع إليه عندما يقع منه بعض الخلل، بالإقلاع والتوبة النصوح.

ومن شدة إجابته لربه وعبادته، أن سخر الله الجبال معه، تسبح معه بحمد ربها ﴿بالعشي والإشراق﴾ أول النهار وآخره.

﴿و﴾ سخر ﴿الظير محشورة﴾ معه مجموعة ﴿كل﴾ من الجبال والظير، الله تعالى ﴿أواب﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه والظير﴾ فهذه مئة الله عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وشددنا ملكه﴾ أي: قوته بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدد والعدد التي بها قوى الله ملكه، ثم ذكر منته عليه بالعلم، فقال: ﴿وآتيناه الحكمة﴾ أي: النبوة والعلم العظيم، ﴿وفصل الخطاب﴾ أي: الخصومات بين الناس.

﴿٢١-٢٦﴾ ﴿وهل أتاك نبأ

الخصم إذ تسوروا المحراب﴾ إذ دخلوا على داود ففرغ منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط \* إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب \* قال لقد ظلمك بسؤال ثمجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأواب \* فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب \* يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن

سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب \* لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه وغفر له، وقبض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إذ تسوروا﴾ على داود ﴿المحراب﴾ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب، فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة، فرغ منهم وخاف، فقالوا له: نحن ﴿خصمان﴾ فلا تخف ﴿بغى بعضنا على بعض﴾ بالظلم ﴿فاحكم بيننا بالحق﴾ أي: بالعدل، ولا تمل مع أحدنا ﴿ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾

والمقصود من هذا، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصريح، وإذا كان ذلك، فسيقضيان عليه نياهما بالحق، فلم يشمتزني الله داود من وعظهما له، ولم يؤثبهما.

فقال أحدهما: ﴿إن هذا أخي﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضاها عدم البغى، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره. ﴿له تسع وتسعون نعجة﴾ أي: زوجة، وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله. ﴿ولي نعجة واحدة﴾ فطمع فيها ﴿فقال أكفلنيها﴾ أي: دعها لي، واخلها في كفالتني. ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي: غلبنني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلماذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: ﴿لم يحكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر﴾؟

(١) كذا في ب، وفي الأصل: ذو الأيد.

(٢) في النسختين: فيقصون.

﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ وهذه عادة الخلق والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وإن كثيراً من الخطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾ لأن الظلم من صفة النفوس. ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يتمتعهم من الظلم. ﴿وقليل ما هم﴾ كما قال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾. ﴿وظن داود﴾ حين حكم بينهما ﴿أنما فتناه﴾ أي: اختبرناه ودبرناه عليه هذه القضية ليتنبه ﴿فاستغفر ربه﴾ لما صدر منه، ﴿وخز راكم﴾ أي: ساجداً ﴿وأنا﴾ الله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿فغفرنا له ذلك﴾ الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿وخسناً مآب﴾ أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، ﴿ولا تتبع الهوى﴾ فتميل مع أحد، لقربة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر ﴿فيضلك﴾ الهوى ﴿عن سبيل الله﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم، ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ خصوصاً المتعمدين منهم، ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من

النار \* أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار \* كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب \* يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً، أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة. ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾ برهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن السبعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر، ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ هذا غير لائق بحكمنا وحكمنا.

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله.

﴿ليدبروا آياته﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على

أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿٣٠ - ٤٠﴾ ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد \* فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب \* ردها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق \* ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب \* قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب \* فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب \* والشياطين كل بناء وغواص \* وآخرين مقرنين في الأصفاد \* هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب \* وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ لما أثنى تعالى على داود، وذكر ما جرى له ومنه، أثنى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ أي: أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه.

﴿نعم العبد﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إنه أواب﴾ أي: رجأع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء.

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات، أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظر رائق، وجمال معجب، خصوصاً للمحتاج إليها كالمملوك، فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديماً لحب الله على حب غيره: ﴿إني أحببت حب الخير﴾ وضمن «أحببت» معنى «أثرت» أي: أثرت حب الخير، الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد الخيل. ﴿عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾



﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ فردوها ﴿فَطْفَقَ﴾ فيها ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ أي: شيطانياً قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكاً﴾ لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴿فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَغَفَرَ لَهُ﴾ ورد عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، بينون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والخلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوثقه.

﴿وَقُلْنَا لَهُ﴾ ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ فَرَّبَهُ عَيْنًا ﴿فَامْتِنْ﴾ على مَنْ شئت، ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ مَنْ شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ لَهُ عُنْدُنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

### فصل فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا - في هذا الموضع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيسلي به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمِ﴾ اقتده.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهم، يجاوبنه إذا رجع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفياه عند ما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويأدرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام [كان] في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه

بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو «باغ علي» لقولهما: «خصمان بغى بعضنا على بعض».

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يغضب ولا يشتم، بل يجاديه بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشتم ولم يغضب، ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص للدرجتين عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في



قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزير على الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخوارج خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن ممن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده، أن يهب له ولداً صالحاً، فإن كان علماً، كان نوراً على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبده، أن يمن عليهم بصلاح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يشي عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء.

ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشرؤوم مذموم، فليأفقه وليقبل على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه» فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافيات المحبوبة للنفوس، تقديماً لمحبة الله، فعوضه الله خيراً من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجزي بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر

ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها آدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام، كان ملكاً نبياً، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

﴿٤١ - ٤٤﴾ واذكر عبدنا أيوب إذا نادى ربه أي منى الشيطان بنصب وعذاب \* اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب \* ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب \* وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحثث \* إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب \* أي: ﴿واذكر﴾ في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عبدنا أيوب﴾ بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشك لغيره، ولا لجأ إلا إليه.

في ﴿نادى ربه﴾ داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: رب \* أي منى الشيطان بنصب وعذاب \* أي: بأمر مشق متعب مغتذب، وكان سبط على جسده فتفخ فيه حتى تفرح، ثم تفتح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

ف قيل له: ﴿اركض برجلك﴾ أي: اضرب الأرض بها، لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى.

﴿ووهبنا له أهله﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿ومثلهم معهم﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالا عظيماً ﴿رحمة منا﴾ بعبدنا أيوب، حيث صبر فأنبأه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وأجلاً. ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يشبه ثواباً عاجلاً

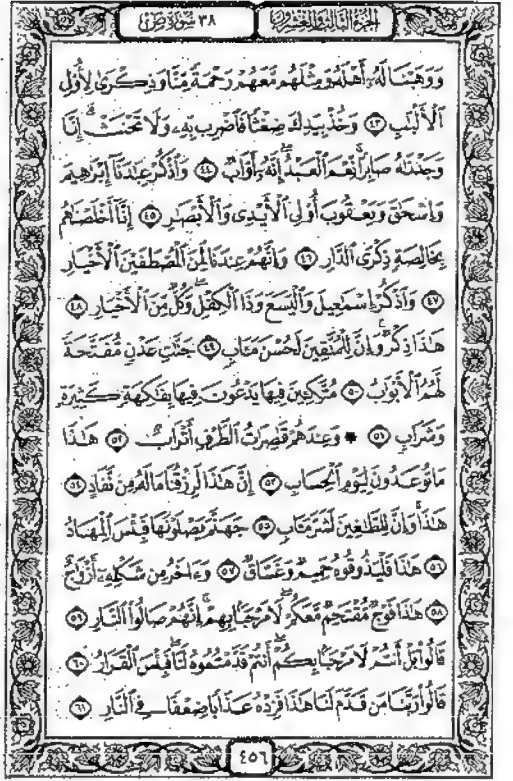
ومما خلقنا النساء والأرض وما بينهما خيلاً ذلك على الذين كفروا ﴿قوله الذين كفروا من النار﴾ أم يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالنبيين في الأرض أم يجعل المؤمنين كالكفار ﴿كذلك أنزلنا إليك مكرنا﴾ أي: ما كنا نرى ولا نتخبر أولاً ﴿ألباب﴾ ووجهنا لداود سليمان بنحو العبد إنه أواب ﴿إذ عرض عليه بالعبيد الصابرين الخياد﴾ فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ﴿رؤوها﴾ على طوق مسما الشوق والأفئدة ﴿ولقد كنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ قال ربي أغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره ريحاً عاصفاً﴾ والخبيلين كل يوم وعواصم ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ هكذا عطاؤنا فاقن أو أقميك بغير حساب ﴿وإن لم نجدك إلا للزلازل ومنه مناب﴾ واذكر عبدنا أيوب إذا نادى ربه أي منى الشيطان بنصب وعذاب ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾

وأجلاً، ويستجيب دعاءه إذا دعا.

﴿وخذ بيدك ضغثاً﴾ أي: حزمة شماريخ ﴿فاضرب به ولا تحثث﴾ قال المفسرون: وكان في مرضه وضربه قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لمن شفاه الله ليضربها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفتاه أن يضربها بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فبصر في يمينه.

﴿إنا وجدناه صابراً﴾ أي: أيوب ﴿صابراً﴾ أي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى. ﴿نعم العبد﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء. ﴿إنه أواب﴾ أي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة والتأله.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ واذكر عبدنا إبراهيم وإسماعيل ويعقوب أولي الأيدي والأبصار \* إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار \* وإنا هم عندنا لمن المصطفين الأخيار \* يقول تعالى: ﴿واذكر عبدنا﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً، ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿وإسماعيل﴾ ابنه ﴿ويعقوب﴾ أولي الأيدي، أي: القوة على عبادة الله تعالى ﴿والأبصار﴾ أي:



البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي ﴿ذكرى الدار﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه، ﴿الأخيار﴾ الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿وإذ ذكر اسماعيل﴾ واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار هذا ذكر أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السديدة.

﴿هذا﴾ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم، ﴿ذكر﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما من الله عليهم به من الأوصاف

الزكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية.

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير، ومن أنواع الذكر، ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال:

﴿٤٩ - ٥٤﴾ ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴿متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾ وعندهم قاصرات الطرف أتراب ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ إن هذا الرزقنا ما له من نفاذ أي: ﴿وإن للمتقين﴾ ربهم، بامثال الأوامر واجتتاب التواهي، من كل مؤمن ومؤمنة، ﴿لحسن مآب﴾ أي: لمآباً حسناً، ومرجعاً مستحسناً.

ثم فسره وفصله، فقال: ﴿جنات عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ينبغي صاحبها بدلاً منها، من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين.

﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضاً على الأمان الثام، وأنه ليس في جنات عدن، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿متكئين فيها﴾ على الأرائك المزينات، والمجالس المزخرفات. ﴿يدعون فيها﴾ أي: يأمرون خدامهم، أن يأتوا بفاكهة كثيرة وشراب من كل ما تشتهي نفوسهم، وتلذه أعينهم، وهذا يدل على كمال النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة، وتمام اللذة.

﴿وعندهم﴾ من أزواجهم، الخور العين ﴿قاصرات﴾ طرفهن على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا ينبغي بصاحبه بدلاً، ولا عنه عوضاً. ﴿أتراب﴾ أي: على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

﴿هذا ما توعدون﴾ أيها المتقون ﴿ليوم الحساب﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿إن هذا الرزقنا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿ماله من نفاذ﴾ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآلات.

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم، الرؤوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه، ولا يحاط ببعض بزه.

﴿٥٥ - ٦٤﴾ ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ وآخر من شكله أزواج ﴿هذا فوج مقتحم مصكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾ قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴿اتخذناهم سخرى﴾ أم زأغت عنهم الأبصار ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ ﴿هذا﴾ الجزء للمتقين ما وصفناه ﴿وإن للطاغين﴾ أي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لشر مآب﴾ أي: لشر مرجع ومنقلب، ثم فصله فقال: ﴿جهنم﴾ التي جمع فيها كل عذاب، واشتد حرها، وانتهى قهرها يصلونها أي: يعذبون فيها عذاباً يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل.

﴿فبئس المهاد﴾ المعد لهم مسكناً ومستقراً ﴿هذا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد، والخزي والفضيحة والنكال. ﴿فليذوقوه حميم﴾ ماء حار، قد اشتد حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم. ﴿وغساق﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قيح وصدید، مر المذاق، كرهه الرائحة.

﴿وآخر من شكله﴾ أي: من نوعه ﴿أزواج﴾ أي: عدة أصناف من

أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ النار ﴿لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار﴾.

﴿قالوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه﴾ أي: العذاب ﴿لنا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم وتسبيكم: ﴿فبئس القرار﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغوين لهم ف ﴿قالوا﴾ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار. وقال في الآية الأخرى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وقالوا﴾ وهم في النار: ﴿مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ أي: كتبنا نزعهم منهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟

﴿أتخذناهم سخرى﴾ أم زأغت عنهم الأبصار؟ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين:

إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ فاتخذتموهم سخرى حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون.

والأمر الثاني: أنهم لعلمهم زأغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم، وصارت صبغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إن ذلك﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لحق﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿فخاصم أهل النار﴾.

﴿٦٥ - ٨٨﴾ ﴿قل إنما أنا نذير وما من إله إلا الله الواحد القهار﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴿قل هو نبي عظيم﴾ أنتم عنه معرضون ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون﴾ إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين﴾ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من المنظرين ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ قال فبعتك لأعوينهم أجمعين ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ قال فالحق والحق أقول ﴿لأملأن جهنم منك ومنك﴾ تبمك منهم أجمعين ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إنما أنا نذير﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فله تعالى، ولكني أمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليه. ﴿وما من إله

إلا الله﴾ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿الواحد القهار﴾ هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي: خالقهما، ومربيهما، ومدبرهما<sup>(١)</sup>

بجميع أنواع التدابير. ﴿العزيز﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿الغفار﴾ لجميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقبح منها.

فهذا الذي يجب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قل﴾ لهم، مخوفاً ومخذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هو نبي عظيم﴾ أي: ما أنبأكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله، ولكن ﴿أنتم عنه معرضون﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتهم في قولي، وامتريتهم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فأخبرني بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، أكبر شاهد لصدقي، وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى﴾ أي: الملائكة ﴿إذ يختصمون﴾ لولا تعليم الله إياي، وإجأؤه إلي، ولهذا قال: ﴿إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين﴾ أي: ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.

ثم ذكر اختصاص الملائكة بالأعلى فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه الإخبار ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ أي: مادته من طين ﴿فَإِذَا سُوِّيْتَهُ﴾ أي: سويت جسمه وتم، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ ففعلوا له ساجدين ﴿فَوُطِّنَ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامَ أَنفُسَهُمْ عَلَى ذَلِكَ﴾ حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، أمثالاً لربهم، وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنحى الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد ﴿استكبر﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وكان من الكافرين﴾ في علم الله تعالى.

ف ﴿قَالَ﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ أي: شرفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

ف ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء والمحل الكريم. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مبعث مدحور. ﴿وإن عليك لعنتي﴾ أي: طردي

وإبعادي ﴿إلى يوم الدين﴾ أي: دائماً أبداً.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

ف ﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى يوم الوقت المعلوم حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

فلما علم أنه منظر، بادى ربه، من خبئه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن الباء للقسمة، وأنه أقسم بعزة الله ليغويهم كلهم أجمعين.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

علم أن الله سيحفظهم من كيده. ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمته، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربتة وعداوته، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تحجب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على دعائي إياكم ﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أدعي أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعالمين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغيين. فلماذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ - ﴿وَإِذْ كُنَّا عِبَادَنَا﴾ - ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدَنَا وَذِكْرًا﴾ - ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾.

اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنته تعالى وعونه.

### تفسير سورة الزمر وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴿يَجْزِيكَ تَعَالَى عَنْ عِظْمَةِ الْقُرْآنِ، وَجَلَالَةُ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَنَزْلُ مَنْهُ، وَأَنَّهُ نَزَلَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، أَيْ: الَّذِي وَصَفَهُ الْإِلَهِ لِلْخَلْقِ، وَذَلِكَ لِعِظْمَتِهِ وَكَمَالِهِ، وَالْعِزَّةِ الَّتِي قَهَرَ بِهَا كُلَّ مَخْلُوقٍ، وَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَالْحِكْمَةُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.﴾

فالقُرْآنُ نازل من هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى







رأى من آياته العظيمة، ثم تاب وأناب.

ومن عزته أن ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ على كثرتكم وانتشاركم، في أنحاء الأرض، ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة. ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾ أي: خلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم. ﴿ثمانية أزواج﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين.

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أبينا وأما، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق﴾ أي: طوراً بعد طور، وأنتم في خال لا يد خلقكم منكم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿في ظلمات ثلاث﴾ ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، ﴿ذلكم﴾ الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿الله ربكم﴾ أي: المألوه المعبود، الذي رباكم وديركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو فأنى تصرفون﴾ بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمر شيء.

﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم﴾ لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم. ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ لكمال إحسانه بهم،

مقهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه.

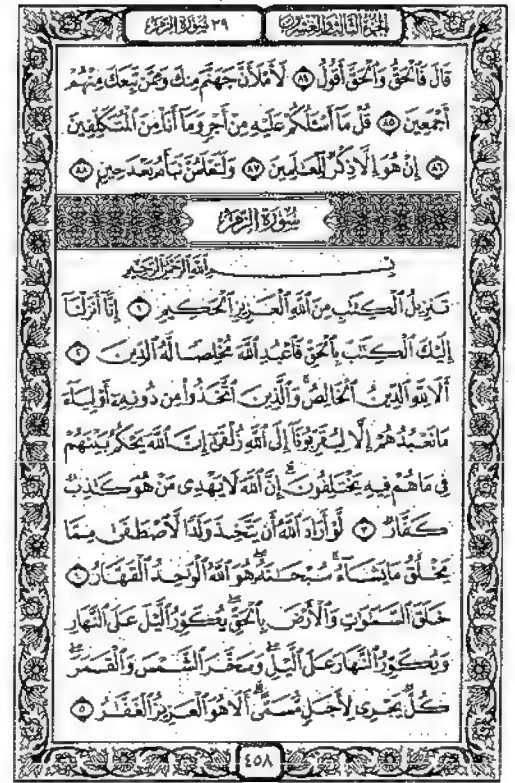
ووحده تعالى وقهره مثلاً زمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

﴿٥٥ - ٧﴾ ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴿يخبر تعالى أنه﴾ ﴿خلق السماوات والأرض﴾ أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد ويتوهم، ويثيبهم ويعاقبهم.

﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ أي: يدخل كلا منهما على الآخر، ويجعله محله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما عزل الآخر عن سلطانه.

﴿وسخر الشمس والقمر﴾ بتسخير منظم، وسير مقنن. ﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري﴾ متأثراً عن تسخيرته تعالى ﴿لأجل مسمى﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلتها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار.

﴿ألا هو العزيز﴾ الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري بأمره. ﴿الغفار﴾ لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ ثم اهتدى. ﴿الغفار لمن أشرك به بعدما



يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار. ﴿إن الله لا يهدي﴾ أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿من هو كاذب كفار﴾ أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتية المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدنها ويكفر بها ويكذب، فهذا أتى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن!!

﴿٤٤﴾ ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً﴾ لا صطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿أي: لو أراد الله أن يتخذ ولداً﴾ كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق. ﴿لا صطفى مما يخلق ما يشاء﴾ أي: لا صطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ صاحبة. ﴿سبحانه﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبته إليه الملحدون. ﴿هو الله الواحد القهار﴾ أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه.

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن



عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب. فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغب تشاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذّره من العمل لغيره<sup>(١)</sup> غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ \* الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ \* لَمَّا ذَكَرَ حَالُ الْمُجْرِمِينَ ذَكَرَ حَالُ الْمُتَّقِينَ وَثَوَابِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوا في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرف دواعيهم من عبادة الأضنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه يريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانته في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ \* الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ﴾ وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إثارة

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴿أي﴾: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأنني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من ائتمر بما أمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، ومن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى. ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ فاعبدوا ما شئتم من دونه. كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ \* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ \* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ \* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ \* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ \* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

﴿قُلْ إِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ حقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث حرموها الثواب، واستحققت بسببهم وخيم العقاب ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فرّق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته، ﴿يَخَافُ﴾ الله به عباده يا عباد فاتقون ﴿أي﴾: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ \* وَأُنذِرَ لَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ \* قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ \* قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي \* فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي خَشِيتُ الْمَاسِيَةَ إِذَا خَسِرْتُ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ \* أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ \* لَمْ يَنْفَعْهُمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يَخَافُ اللَّهُ يَوْمَ كَذِبُ الْفَالِقِينَ \* وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ \* الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ \* أَفَرَأَيْتُمْ كَيْفَ الْعَذَابِ أَفَأَنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِي النَّارِ \* لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ عِلْدَهُ \* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ فَجَعَلْنَا بِهِ نَخْلًا مَخْتَلِفًا أَلْوَانُهُمْ يَنْبُوعٌ فَتَرَاهُ يَنْبُوعًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حَبْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما منعتهم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعده الله الصابرين أجراً بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذلك إلا لفضيلة الصبر وحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿١١-١٦﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ \* وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ \* قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ \* قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي \* فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنْ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ \* لَهُمْ مِنْ

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذرهم من العمالة.

مما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولى الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولى الألباب؟

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه  
﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً  
متشابهاً﴾ الآية.

﴿الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه﴾، أولئك الذين هداهم الله لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وأولئك هم أولو الألباب﴾ أي: العقول الزاكية.

ومن لبهم وحزمهم ، أنهم عرفوا  
الحسن من غيره ، وأثروا ما ينبغي إيثاره  
على ما سواه ، وهذا علامة العقل ، بل  
لا علامة للعقل سوى ذلك ، فإن الذي  
لا يميز بين الأقوال ، حسنها  
وقبحها ، ليس من أهل العقول  
الصحيحة ، أو الذي يميز ، لكن غلبت  
شهوته عقله ، فبقي عقله تابعاً لشهوته  
فلم يؤثر الأحسن ، كان ناقص العقل .

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ  
كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تَنْقُذُ مَنْ فِي  
النَّارِ﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ  
غُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تُجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ  
الْمِيعَادَ ﴿أَيُّ أَفَمَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ  
الْعَذَابِ بِاسْتِمْرَارِهِ عَلَى غِيهِ وَعِنَادِهِ  
وَكُفْرِهِ، فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ لَكَ فِي هِدَايَتِهِ،  
وَلَا تَقْدِرُ تَنْقُذُ مَنْ فِي النَّارِ لَا مُحَالَةَ،  
لَكِنَّ الْغَنَى كُلَّ الْغَنَى، وَالْفَوْزُ كُلَّ  
الْفَوْزِ، لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ  
الْكَرَامَةِ وَأَنْوَاعِ النِّعَمِ مَا لَا يَقْدِرُ  
قُدْرُهُ.....

﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ أي: منازل عالية

مزخرفة، من حسناتها وبهائها وصفائها،  
أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من  
ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها،  
[أنها] <sup>(١)</sup> ترى كما يرى الكوكب الغابر  
في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا  
قال: ﴿من فوقها غرف﴾ أي: بعضها  
فوق بعض ﴿مبنية﴾ بذهب وفضة،  
وملاطها المسك الأذفر.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المتدفقة؛  
المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار  
الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة،  
والفاكهة النضجة.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾  
وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد  
من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى،  
ليوفى بهم أجورهم.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُوراً أَلَمْ يَجْعَلْهُ حَطَآمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكر تعالى أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ من بر وذرة، وشعير وأرز، وغير ذلك. ﴿ثُمَّ يَهْبِيجُ﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فَتَرَاهُ مَصْفُوراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حَطَآمًا﴾ متكسراً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء، وخزنه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم. ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

اللهم اجعلنا من أولي الألباب،  
الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما  
أعطيتهم من العقول، وأريتهم من  
أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل  
إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿۲۲﴾ ﴿أَفَمِنْ شَرِّهِ﴾

أَحْسَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ بِالْإِسْلَامِ فَوَعَدَ عَلَى نُورِهِ أَنْ يُؤْتِيَ  
 لِلْقَائِمَةِ قُلُوبَهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَلْوَنًا فِي حَبْلِ الْيَمِينِ ⑤  
 اللَّهُ تَعَالَى أَحْسَنَ الْخَبِيرِينَ كَتَبَ لِنَفْسِهَا مَا تَشَاءُ مِنْ نَفْسٍ  
 جُلُودًا أَلْوَنًا يَحْمَرُّونَ بِهَمْ تَعْرِينَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى  
 ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بَعْدَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلْ  
 اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ⑥ أَمَّا نَسْتَعِي بِرُوحِهِ مَوْتَ الْعَذَابِ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ⑦  
 كَذَّبَ الْيَهُودَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ  
 ⑧ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْحَزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابَ الْأَلِيمَ  
 أَكْثَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ⑨ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا  
 الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ⑩ وَوَأَنَّا  
 عَرِيسًا عِزًى ذِي صُورٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ⑪ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِكُلِّ  
 فِرْعَوْنٍ شَرِكَةٍ مُشْكِكُونَ وَرَضُوا كَمَا رَضِيَ كُلُّ يَسْتَوِيٍّ  
 مَثَلًا لِمَنْ يُؤْتِي أَكْثَرَهُمْ لَعْنًا ⑫ إِنَّكَ مِثْلُ قَائِمِهِمْ  
 يَتَّقُونَ ⑬ ثُمَّ لَقَوْهُمْ فِي الْعَمَةِ عَذْرَاءً ذَاتَ حُجُرٍ مَقْشُورَتٍ ⑭

للإسلام فهو على نور من ربه قيل  
للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في  
ضلال مبين ﴿١٠﴾ أي: أفيستوي مَنْ  
شرح الله صدره للإسلام، فاتسع  
تلقّي أحكام الله والعمل بها، منشراحاً  
قريب العين، على بصيرة من أمره، وهو  
المراد بقوله: ﴿فهو على نور من ربه﴾  
كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿قويل  
للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي:  
لا تلين لكتابيه، ولا تذكر آياته،  
ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن  
ربها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم  
الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أولئك في ضلال مبين﴾ وأي:  
ضلال أعظم من ضلال مَنْ أعرض عن  
وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال  
عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على  
كل ما يضره؟ ١١

﴿٢٣﴾ ﴿الله نزل أحسن الحديث  
كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود  
الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم  
وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله  
يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له  
من هاد﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزل  
أنه ﴿أحسن الحديث﴾ على الإطلاق،  
فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن  
الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن،  
وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه







سهل المعاني، خصوصاً على العرب .  
 ﴿غير ذي عوج﴾ أي: ليس فيه خلل  
 ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في  
 ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم  
 كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى:  
 ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده  
 الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ ﴿قيماً﴾ .

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً﴾ أي: عبداً. ﴿فيه شركاء متشاكسون﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي: هذان الرجلان ﴿مِثْلًا؟﴾ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء  
متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو  
هذا، فتراه لا يستقر له قرار،  
ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد  
مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة  
لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل  
طمأنينة، ﴿هل يستويان مثلاً  
الحمد لله﴾ على تبيين الحق من الباطل،  
وإرشاد الجاهل. ﴿بل أكثرهم  
لا يعلمون﴾

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ آي :  
كلكم لا بد أن يموت ﴿وما جعلنا  
لبشر من قبلك الخلد أفإن مِت فهم  
الخالدون﴾ .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ  
تَخْتَصِمُونَ﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل  
بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلًّا ما  
عمله ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

(۳۲-۳۵) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن﴾

كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه  
أليس في جهنم مثوى للكافرين \*  
والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك  
هم المتقون \* لهم ما يشاؤون عند ربهم  
ذلك جزاء المحسنين \* ليكفر الله  
عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم  
بأحسن الذي كانوا يعملون \* يقول  
تعالى، محذراً وخبراً: أنه لا أظلم  
وأشد ظلماً \* **﴿مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾** إما  
بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء  
النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال  
كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا  
وهو كاذب، فهذا داخل في قوله  
تعالى: **﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا  
لَا تَعْلَمُونَ﴾** إن كان جاهلاً، وإلا فهو  
أشنع وأشنع،

﴿وَكَذَّبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ (١)  
 أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد  
 بالبينات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم  
 منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن  
 كان جامعاً بين الكذب على الله  
 والتكذيب بالحق، كان ظلاماً على ظلم.  
 ﴿أليس في جهنم مثوى للكاافرين﴾  
 يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ  
 حق الله من كل ظالم وكافر. ﴿إن  
 الشرك لظلم عظيم﴾.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنابته  
وعقوبته، ذكر الصادق المصدق  
وثنائه، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاء  
بِالصِّدْقِ﴾ في قوله وعمله، فدخل في  
ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن  
صدق فيما قاله عن خير الله وأحكامه،  
وفيما فعله من خصال الصديق.

﴿وَصَدَّقْ بِهِ﴾ أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يُصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين وقفوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمْ الْمُتَّقُونَ﴾ فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق

(١) في النسختين: أو كذب بالحق لما جاءه.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّمَا تَأْمُرُ بِأَعْيُنِ  
 نَفْسِكَ وَمَنْ حَرَلَ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ  
 بِرَكِيبٍ ۝ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝ مَوْءَاظٍ عَلَى أَوَائِدِ  
 فِي مَكَرِهِمْ قُلْ لِيُحْكَمَ مِنْ أَتَى عَلَيْهِمُ الْقَوْتُ وَتَرَى بِمَوَازِئِهِمْ  
 إِلَهُ الْجَلِيلِ ۝ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَنُ فَمَا يَكُونُ لَكُمْ بِهِمْ  
 ۝ أَمْ أَنْتُمْ مِنْ مُدْبِرِينَ أَمْ تُشْرِكُونَ قُلْ أُولَئِكَ مُرْتَكَفُوكُمْ  
 لِأَتْيَاكُمْ سَبْعَ سَاعَاتٍ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْلُتُونَ ۝ قُلْ لِلَّهِ الشُّعْبَةُ  
 جَمِيعُ الْمَرْمُوكِ السُّكُوتِ وَالْأَرْضُ شَعْبُ الْيَوْمِ وَتُحْمَرُونَ  
 ۝ وَإِنَّا ذَكَرْنَاهُ وَحَدَّثْنَاكُمْ عَنْ قُلُوبِ الْآدَمِ  
 لَا تَفْهَمُونَ إِلَّا أَخْبَرَكُمْ وَإِنَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَتُحْمَرُونَ  
 إِذَا هُمْ يَنْتَبِهُونَ ۝ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغُيُوبِ أَتَيْتَهُمْ تَحْمِلُوكَ مِنْ عِبَادِكَ  
 فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَلَوْلَا الْإِنْفِاطُ عَلَى كَمَا  
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِنْهُ مَعْلَافٌ وَلَئِنْ مِنْكُمْ مِنَ الْعَذَابِ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبِمَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ تَارِكِينَ لَا تَحْكُمُونَ ۝

والتصدق به .

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من  
الشباب، مما لا عين رأت، ولا أذن  
سمعت، ولا خطر على قلب بشر.  
فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيتهم،  
من أصناف اللذات والمشتهيات، فإنه  
حاصل لهم، معد مهياً، ﴿ذلك جزاء  
المحسنين﴾ الذين يعبدون الله كأنهم  
يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراههم  
﴿المحسنين﴾ إلى عباد الله.

﴿لَيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا  
وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا  
يَعْمَلُونَ﴾ عمل الإنسان له ثلاث  
حالات

إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ  
ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها، فهذا التفصيل يتبين معنى الآية، وأن قوله: ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، ﴿ويجزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي: بحسناتهم كلها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَظْعَفْهَا وَيُوْثِرْ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

الظلم والعناد حال بينهم وبين  
الإيمان.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ  
لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلْنَفْسِهِ وَمَنْ  
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ  
بِرُكُوبٍ﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ  
الْكِتَابَ الْمَشْتَمِلَ عَلَى الْحَقِّ، فِي أَخْبَارِهِ  
وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، الَّذِي هُوَ مَادَّةُ  
الْهُدَايَةِ، وَبِلَاغٍ لِمَن أَرَادَ الْوَصُولَ  
إِلَى اللَّهِ وَإِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، وَأَنَّهُ قَامَتْ بِهِ  
الْحُجَّةُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ﴾ بِنُورِهِ وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ ﴿فَإِنْ﴾ إِنْ نَفَعَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى نَفْسِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ لَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا، وَتَجِيرُهُمْ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مَبْلَغٌ تُوَدِّي إِلَيْهِمْ مَا أَمَرْتَ بِهِ.

﴿٤٢﴾ ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة  
الفعل إلى نفسه، لا ينافي أنه قد وكل  
بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال  
تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي  
وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ  
الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾  
لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه،  
باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى  
أسبابها، باعتبار أن من سننه تعالى  
وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور  
سبباً.

وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾  
وهذه المومة الصغرى، أي: ويمسك  
النفس التي لم تمت في منامها،  
﴿فِيَمْسِك﴾ من هاتين النفسين النفس  
﴿الَّتِي قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ﴾ وهى نفس

أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئاً. ﴿ليقولن الله﴾ الذي خلقها وحده. ﴿قل﴾ لهم مقرر أعجز آلهتهم، بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أفأنتم﴾ أي: أخبروني ﴿ما تدعون من دون الله إن أرادن الله بضر﴾ أي: ضرر كان.

﴿هل هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّه﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أو أرادني برحمة﴾ يوصل إلي بها منفعة في ديني أو دنيائي. ﴿هل هُنَّ مُسكات رحمة﴾ وموانعها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع  
على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق  
للمخلوقات، النافع الضار وحده،  
وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق  
والنفع والضرر، مستجلباً كفايته،  
مستدفعاً مكرهم وكيدهم: ﴿قل  
حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾  
أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب  
مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي  
بيده - وحده - الكفاية هو حسبي،  
سيكفني كل ما أمني ومالا أهتم به.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ \* من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴿أَي: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أَي: عَلَىٰ حَالَتِكُمْ الَّتِي رَضِيتُمُوهَا لِأَنفُسِكُمْ، مِنْ عِبَادَةِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادَةِ شَيْئًا وَلَا لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

﴿إني عامل﴾ على ما دعوتكم إليه ،  
من إخلاص الدين لله تعالى وحده .

﴿فسوف تعلمون﴾ لمن العاقبة و ﴿ومن﴾  
يأتيه عذاب يخزيه ﴿في الدنيا﴾ و ﴿ويحل﴾  
عليه ﴿في الآخرة﴾ ﴿عذاب مقيم﴾  
لا يحول عنه ولا يزول، وهذا تهديد  
عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم  
المستحقون للعذاب المقيم، ولكن

وَبَدَأَ لَهُمْ فِيهَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ فَلَمَّا مَسَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْكُمْ أَشْرَ إِذَا حُوسِبُهُ  
يَوْمَهُمْ فَكَانُوا أَقْبَالًا أَوْ يَسْتَرْجِعُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ  
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ فَذَاقُوا الْعَذَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَأَعْرِضْ عَنْهُمْ  
مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠٣﴾ فَأَمَّا لَهُمْ فِيهَا مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾ فَذَاقُوا الْعَذَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكُنْ لَهُمْ مَكْرُومًا  
وَمَا لَهُمْ مُعْجِزُونَ ﴿١٠٥﴾ أَوْ لَوْ كُنْتُمْ آلَ اللَّهِ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ لَرَأَيْتُمْ  
أَيُّكُمْ يُكَفِّرُ وَلَ يَرَى الَّذِينَ لَا أَشْرَفُوا عَلَى شَيْءٍ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٠٦﴾  
• قُلْ يَحْيَى ابْنُ زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسَّعُ الْكَلِمَاتُ لَا يَسْمَعُ  
وَلَا يَعْصِي أَمْرًا وَلَا يَنْفُذُ فِي شَيْءٍ لَمْ يَلَمْسْهُ لَوْلَا أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
يَكُونُ مِنْكُمْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ ﴿١٠٧﴾ فَلَمَّا نَبَا خَبْرَ ابْنَيْكَ عَنْ  
الْعِزِّ ابْنِكِ أَنْ نَبَأَ ابْنَيْكِ مِنْ قَبْلِكِ وَأَيُّكُمْ يَخْشَى ﴿١٠٨﴾ فَلَمَّا  
بَشَّرْنَا ابْنَ عِمْرَانَ بِوَصْفِهِ إِنَّا نَبَأَ خَبْرَ ابْنَيْكَ عَنْ  
الْعِزِّ ابْنِكِ أَنْ نَبَأَ ابْنَيْكِ مِنْ قَبْلِكِ وَأَيُّكُمْ يَخْشَى ﴿١٠٩﴾ فَلَمَّا  
بَشَّرْنَا ابْنَ مَرْيَمَ بِوَلَدِكِ الْمَكِينِ فَانْحَرِكْ فَاسْتَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكِ  
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّكَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ الْحَقُّ يَوْمَ تَكُونُ  
الْأَشْيَاءُ ذُبُحًا نَبَأَ ابْنَيْكِ مِنْ قَبْلِكِ وَأَيُّكُمْ يَخْشَى ﴿١١١﴾ فَلَمَّا  
بَشَّرْنَا ابْنَ مَرْيَمَ بِوَلَدِكِ الْمَكِينِ فَانْحَرِكْ فَاسْتَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكِ  
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّكَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَكِيمٌ ﴿١١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَ الْحَقُّ يَوْمَ تَكُونُ  
الْأَشْيَاءُ ذُبُحًا نَبَأَ ابْنَيْكِ مِنْ قَبْلِكِ وَأَيُّكُمْ يَخْشَى ﴿١١٣﴾

﴿٣٦-٣٧﴾ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد \* ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴿٣٧﴾ أليس الله بكاف عبده ﴿أي﴾: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده، الذي قام بعبوديته، وامثل أمره واجتنب نهيه، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناواه

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾  
 الأصنام والأبداد أن تتألك بسوء،  
 وهذا من غيهم وضلالهم.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾  
 وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴿لَأنه﴾  
 تعالى الذي بيده الهداية والاضلال،  
 وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم  
 يكن. ﴿أليس الله بعزيز﴾ له العزة  
 الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبِعزته  
 يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم. ﴿هذي﴾  
 انتقام من عصاه، فاحذروا موجبات  
 نقمته.

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ  
أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ  
أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ  
ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ  
رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ  
الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

مَنْ كَانَ مَاتَ، أَوْ قُضِيَ أَنْ يَمُوتَ فِي مَنَامِهِ.

﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: إِلَى اسْتِكْمَالِ رِزْقِهَا وَأَجَلِهَا. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ عَلَى كَمَالِ اقْتِدَارِهِ، وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ وَالنَّفْسَ جَنَسٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، مُخَالَفٌ جَوْهَرُهُ جَوْهَرِ الْبَدَنِ، وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مَدْبُورَةٌ، يَتَصَرَّفُ اللَّهُ فِيهَا فِي الرِّفَاةِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، وَأَنَّ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ تَتَلَاقَى فِي الْبِرْزَخِ، فَتَجْتَمِعُ فَتَتَحَدَّثُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ، وَيَمْسِكُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ.

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبُهُمْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قُلُوبُهُمْ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴿يَنْكُرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ وَيُعْبِدُهُمْ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ - مَبْنًى جَهْلُهُمْ، وَأَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ - ﴿أَوَّلُوا كَانُوا﴾ أَي: مَنْ اتَّخَذَ مِنَ الشُّفَعَاءِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أَي: لَا مُنْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ، بَلْ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَمْدَحُوا بِهِ، لِأَنَّهَا جِبَادَاتٌ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْجَارٍ وَصُورٍ وَأَمْوَاتٍ، فَهَلْ يَقَالُ: إِنْ لَمْ نَتَّخِذْهَا عَقْلًا؟ أَمْ هُوَ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَعْظَمِهِمْ ظُلْمًا؟

﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿اللَّهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَكُلُّ شَفِيعٍ فَهُوَ بِخَافِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا أَرَادَ رَحْمَةً عِنْدَهُ، أَذِنَ لِلشَّفِيعِ الْكَرِيمِ عِنْدَهُ أَنْ يَشْفَعَ، رَحْمَةً بِالْآثِنِينَ. ثُمَّ قَرَّرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: جَمِيعُ مَا فِيهِمَا مِنَ الذِّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ. فَالْوَاجِبُ أَنْ تَطْلُبَ الشَّفَاعَةَ مَنْ يَمْلِكُهَا، وَتَخْلُصَ لَهُ الْعِبَادَةُ. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ فَيَجَازِي الْمَخْلُصَ لَهُ بِالشَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَمَنْ

أَشْرَكَ بِهِ بِالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَأَمْرٌ بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَتَرْكُ مَا يَعْبُدُونَ دُونَهُ، أَنَّهُمْ يَشْمَتُونَ وَيَنْفَرُونَ، وَيَكْرَهُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْكَرَاهَةِ.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، وَدَعَا الدَّاعِيَ إِلَى عِبَادَتِهَا وَمَدَحُهَا، إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بِذَلِكَ، فَرَحًا بِذِكْرِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وَلِكُونِ الشَّرِكِ مُوَافِقًا لِأَهْوَائِهِمْ، وَهَذِهِ الْحَالُ أَشْرَ الْحَالَاتِ وَأَشْنَعُهَا، وَلَكِنْ مَوْعِدُهُمْ يَوْمَ الْجَزَاءِ. فَهَذَا يُوْخِذُ الْحَقَّ مِنْهُمْ، وَيَنْظُرُ: هَلْ تَنْفَعُهُمُ الْهَتَمُ الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا؟

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي: خَالَقَهُمَا وَمَدَبَرَهُمَا، ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ الَّذِي غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا وَعِلْمِنَا، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الَّذِي نَشَاهِدُهُ.

﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وَإِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْاِخْتِلَافِ اِخْتِلَافُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فِي مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ دُونِ الْحَقِّ، وَإِنْ لَهُمُ الْحَسَنَى فِي الْآخِرَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِكَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، وَسَوَّوْا فِيكَ مَنْ لَا يَسْوَى شَيْئًا، وَتَنْقُصُوكَ غَايَةَ التَّنْقِصِ، وَاسْتَبْشَرُوا عِنْدَ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ، وَاشْمَتُوا عِنْدَ ذِكْرِكَ، وَزَعَمُوا مَعَ هَذَا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وَقَدْ أَخْبَرْنَا بِالْفَصْلِ بَيْنَهُمْ بَعْدَهَا

بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودِ ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴿فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ، بَيَانٌ عَمُومٌ خَلَقَهُ تَعَالَى وَعَمُومٌ عِلْمُهُ، وَعَمُومٌ حُكْمُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَقُدْرَتُهُ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا الْمَخْلُوقَاتِ، وَعِلْمُهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، دَالٌ عَلَى حُكْمِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَبَعْثُهُمْ، وَعِلْمُهُ بِأَحْصَائِهِمْ، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، وَبِمُقَادِيرِ جَزَائِهِمْ، وَخَلَقَهُ دَالٌ عَلَى عِلْمِهِ﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ؟

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وَيَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَذَكَرَ مَقَالَ الْمُشْرِكِينَ وَشَنَاعَتَهُمَا، كَأَنَّ النُّفُوسَ تَشَوَّقَتْ إِلَى مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَي: أَشَدَّهُ وَأَفْظَعَهُ، كَمَا قَالُوا أَشَدَّ الْكُفْرِ وَأَشْنَعَهُ، وَأَنَّهُمْ عَلَى - الْفُرْضِ وَالتَّقْدِيرِ - لَوْ كَانَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، مِنْ ذَهَبِهَا وَفُضَّتِهَا وَلُؤْلُؤِهَا وَحَيَوَانَاتِهَا وَأَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَجَمِيعِ أَوَانِيهَا وَأَنْثَائِهَا وَمِثْلِهِ مَعَهُ، ثُمَّ بَذَلُوهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَفْتَدَوْا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَنَجَّوْا مِنْهُ، مَا قَبِلَ مِنْهُمْ، وَلَا أَغْنَى عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقُلُوبٍ سَلِيمٍ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أَي: يَظُنُّونَ مِنَ السَّخَطِ الْعَظِيمِ، وَالْمَقْتِ الْكَبِيرِ، وَقَدْ كَانُوا

يحكمون لأنفسهم بغير ذلك ﴿٤٩﴾ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴿٥٠﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم. ﴿٥١﴾ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿٥٢﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

﴿٤٩ - ٥٢﴾ ﴿٥٢﴾ فإذا مس الإنسان ضرر دعانا ثم إذا حولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٥٣﴾ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿٥٤﴾ فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمُعْزِزِينَ ﴿٥٥﴾ أولم يعلموا أن الله يمسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿٥٦﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسّه ضرر، من مرض أو شدة أو كرب، ﴿٥٧﴾ دعائنا ﴿٥٨﴾ ملحاً في تفريج ما نزل به ﴿٥٩﴾ ثم إذا حولناه نعمة منا ﴿٦٠﴾ فكشفنا ضرره وأزلنا مشقته، عاد بربه كافراً، ولمعرفته منكراً، و ﴿٦١﴾ قال إنما أوتيته على علم ﴿٦٢﴾ أي: علم من الله، أني له أهل، وأنى مستحق له، لأنى كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿٦٣﴾ بل هي فتنة ﴿٦٤﴾ يتلى الله به عباده، لينظر من يشكره من يكفره. ﴿٦٥﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٦٦﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتهيه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿٦٧﴾ قد قالها الذين من قبلهم ﴿٦٨﴾ أي: قولهم ﴿٦٩﴾ إنما أوتيته على علم ﴿٧٠﴾ فما زالت متوازية عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون ﴿٧١﴾ حين جاءهم العذاب.

﴿٧٢﴾ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴿٧٣﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتخزئه. ﴿٧٤﴾ والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴿٧٥﴾ فليسوا خيراً من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿٧٦﴾ يمسط الرزق لمن يشاء ﴿٧٧﴾ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿٧٨﴾ ويقدر ﴿٧٩﴾ الرزق، أي: يضيقه على من يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. ﴿٨٠﴾ إن في ذلك، لآيات لقوم يؤمنون ﴿٨١﴾ أي: يمسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده، فقد يضيق عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيًا في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

﴿٨٢ - ٨٩﴾ ﴿٨٢﴾ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴿٨٣﴾ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴿٨٤﴾ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بفتنة وأنتم لا تشعرون ﴿٨٥﴾ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنسب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴿٨٦﴾ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴿٨٧﴾ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كسرة فأكون من المحسنين ﴿٨٨﴾ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿٨٩﴾ يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿٩٠﴾ قل يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿٩١﴾ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴿٩٢﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.

﴿٩٣﴾ لا تقنطوا من رحمة الله ﴿٩٤﴾ أي: لا تأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق

يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الذالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿٩٥﴾ إنه هو الغفور الرحيم ﴿٩٦﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسح يده من الخيرات آباء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿٩٧﴾ وأنبيوا إلى ربكم ﴿٩٨﴾ بقلوبكم ﴿٩٩﴾ وأسلموا له ﴿١٠٠﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿١٠١﴾ إلى ربكم وأسلموا له ﴿١٠٢﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً. ﴿١٠٣﴾ من قبل أن يأتيكم العذاب ﴿١٠٤﴾ مجيئاً لا يدفع ﴿١٠٥﴾ ثم لا تنصرون ﴿١٠٦﴾. فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿١٠٧﴾ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴿١٠٨﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك، ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة،



والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم، ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾ وكل هذا حث على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم ﴿أن﴾ لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، و﴿تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾ أي: في جانب حقه، ﴿وإن كنت في الدنيا لمن الساخرين﴾ في إتيان الجزاء، حتى رأيته عياناً.

﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ و«لو» في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

﴿أو تقول حين ترى العذاب وتجزم بوزوده﴾ «لو أن لي كسرة» أي: رجعة إلى الدنيا لكنت من المحسنين. قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمانى باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لؤ رد، بيان بعد البيان الأول.

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ الدالة دلالة لا يمتري فيها على الحق ﴿فكذبت بها واستكبرت﴾ عن اتباعها ﴿وكنت من الكافرين﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث، ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

﴿٦٠ - ٦١﴾ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ليس في جهنم مثوى للمتكبرين \* وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون \* يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف،

فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما سودوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ عن الحق، وعن عبادة ربهم، المفتريين عليه؟ بلى والله، إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين، ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة. ﴿لا يمسهم السوء﴾ أي: العذاب الذي يسوؤهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ فنفى عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نظرة النعيم، ويقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل \* له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكماله، الموجب لخسران من كفر به فقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد على كل من قال بتقديم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بتقديم الأرض والسماوات، وكالقائلين بتقديم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٠﴾  
أَوْ تَقُولُ لَئِنْ تَرَى إِلَهَكَ كَذَابًا لَئِنْ كُنْتُ فَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦١﴾ بَلَى قَدْ جَاءَكَ إِلَهُ قَدْ كَذَّبْتَ بِهَا  
وَأَنْتَ كَذِبٌ وَكَتَمْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى  
الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مَسْوَدَةٌ أَلْسِنَهُمْ فِي جَهَنَّمَ  
مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٣﴾ وَيَسْمَعُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا  
يَمُكِّنُ لَهُمْ أَسْمَاءَ وَيُسَمِّيهِمْ أَشْوَءَ وَلَا هُمْ يُحْزِنُونَ ﴿٦٤﴾ اللَّهُ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ وَهَّابٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٥﴾ لَهُ مَقَالِيدُ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ  
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٦﴾ قُلْ أَفَعَدَّ اللَّهُ تُسَارُوتَ أَنْ يَأْتِيَهَا  
الْجَحِيمُ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَالِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ  
لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٨﴾  
بَلَى اللَّهُ قَاعِدٌ وَكَرِيمٌ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٩﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ  
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ  
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَنْ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٠﴾

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة، ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن الله تعالى منزّه عن كل نقص في صفة من صفاته، فأخبره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿٦٣﴾ ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي: مفاتيحها، علماً



فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق  
الرب العظيم، الذي من عظمته  
الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع  
الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن  
السموات - على سعتها وعظمتها -  
مطويات يمينه، فلا عظمه حق عظمته  
من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾  
أي: تنزهه وتعظيمه عن شركهم به.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ ﴿وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ ﴿وفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ ﴿لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم ورهبهم فقال﴾ ﴿ونفخ في الصور﴾ ﴿وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فصعق﴾ أي : غشي أو مات ،  
على اختلاف القولين : ﴿مَنْ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي :  
كلهم ، لما سمعوا نفخة الصور  
أزعجتهم من شدتها وعظمتها ، وما  
يعلمون أنها مقدمة له . ﴿إِلَّا مَنْ  
شَاءَ اللَّهُ﴾ من ثبَّته الله عند النفخة ،  
فلم يصعق ، كالشهداء أو بعضهم ،  
وغيرهم . وهذه النفخة الأولى ، نفخة  
الصعق ونفخة الفزع .

﴿ثم نفخ فيه﴾ النفخة الثانية نفخة  
البعث ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي :  
قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم ،  
قد شئت منهم الخلقة الجديدة  
والأرواح ، وشخصت أبصارهم  
﴿ينظرون﴾ ماذا يفعل الله بهم .

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ علم  
من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب  
يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك،  
فإن الله أخبر أن الشمس تكور،

من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ من جميع الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا حبط عنهم ما كانوا يعملون﴾.

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دينك  
وأخرك، فبالشرك تحبط الأعمال،  
ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بل الله فاعبد﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يُشكر ويُثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿٦٧﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره  
والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة  
والسماوات مطويات بيمينه سبحانه  
وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى : وما  
قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره ،  
ولا عظموه حق تعظيمه ، بل فعلوا ما  
يناقض ذلك ، من إشراكهم به مَنْ هو  
ناقص في أوصافه وأفعاله ، فأوصافه  
ناقصه من كل وجه ، وأفعاله ليس عنده  
تنفع ولا ضرر ، ولا عطاء ولا منع ،  
ولا يملك من الأمر شيئاً .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ  
إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِنَّا لَهُمْ قِيَامٌ نَّظَرُونَ  
﴿١٥﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْأَرْضِ بُيُوتًا وَوَضِعَ الْعَرْشَ وَجَاءَ  
بِالْيَسْعِ وَالشَّهَدَاءَ وَفُتِحَ يَدُهُمْ فَأَتَىٰهُمْ وَأَمَّا قَوْمُ  
﴿١٦﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ  
وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُرْسَلِينَ إِذْ جَاءَهُمْ  
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَيْسَ لَكُم مَّا وَعَدْنَاهُ  
يَكُونُ عَلَيْكُمْ وَلَبِئْسَ لَكُم مَّا كُنْتُمْ تُوعَدُونَ لَكُمُ الْوُدُكُ  
هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ  
﴿١٧﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا قُلُوبُكُمْ مَّثْوِيَةٌ  
أَلَيْسَ لَكُم مَّا كُنْتُمْ تُوعَدُونَ وَسِيقَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ  
أَبْوَابِ مُرْسَلِينَ إِذْ جَاءَهُمْ وَقَدْ وَفَّقَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ  
خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَابَ مَا كُنْتُمْ عَامِلِينَ  
﴿١٨﴾ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ  
لَتَبْلُغُنَّ أَجْرَهُمْ حِينَ تَقَعُ أُنْحَالُ الْعَالَمِينَ

وتدبيراً، ف ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿قل أفغير الله﴾  
تأمروني أعبد أيها الجاهلون \* ولقد  
أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن  
أشركت ليعططن عملك ولتكونن من  
الخاسرين \* بل الله فاعبدوكن من  
الشاكرين ﴿قل﴾ يا أيها الرسول  
لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى  
عبادة غير الله: ﴿أفغير الله﴾ تأمروني  
أعبد أيها الجاهلون ﴿أي﴾: هذا الأمر  
صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم  
علم بأن الله تعالى الكامل من جميع  
الوجوه، مسدي جميع النعم، هو  
المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً

بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قالوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بلى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم. ﴿ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي: بسبب كفرهم وخبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاء به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿قيل﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خالدين فيها﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فيئس مثوى المتكبرين﴾ أي: بشئ المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب. ﴿إلى الجنة زمراً﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة والمنازل الأنيقة، وهبّ عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها. ﴿وفتحت﴾ لهم ﴿أبوابها﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تهنئة لهم وترحيباً: ﴿سلام عليكم﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم. ﴿طيبم﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿فادخلوها خالدين﴾

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين \* قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فيئس مثوى المتكبرين \* وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين \* وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين \* وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين \* لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ أي: سوقاً عنيماً، يضربون بالسياط الموجهة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زمراً﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضاً، ويبرأ بعضهم من بعض. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فتحت﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أبوابها﴾ لقدومهم وقرى لنزولهم.

﴿وقال لهم خزنتها﴾ مهنيين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ التي أرسلهم الله

والقمر يخسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَفُوزُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿ووضع الكتاب﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فتسرى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾. ويقال للعمال من تمام العدل والإنصاف: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

﴿وجيء بالنبئين﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أمهم، ويشهدوا عليهم. ﴿والشهداء﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض. ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر من لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمتهم وعلمهم وحكمتهم ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾.

﴿٧١-٧٥﴾ ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾

لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار: ﴿فتحت أبوابها﴾ وفي الجنة: ﴿وفتحت﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير انتظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم حرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحققهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومن عليهم وهداهم: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله، إن آمنا وصلحنا، فوق لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مآنا. ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي: أرض الجنة ﴿نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾ أي: ننزل منها أي: مكان شئنا، ونتناول منها أي: نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنا شيء نريده. ﴿فنعم أجر العاملين﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورخصها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبني أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وترى الملائكة﴾ أيها الرائي ذلك

اليوم العظيم ﴿حافين من حول العرش﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بالحق﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق. ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه

### تفسير سورة المؤمن مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ حم ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴿يخبر تعالى عن كتابه العظيم، بأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله، العزيز﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق، ﴿العليم﴾ بكل شيء، ﴿غافر الذنب﴾ للمذنبين ﴿وقابل التوب﴾ من التائبين، ﴿شديد العقاب﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذي الطول﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجياً لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾.

وجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني.

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعيمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذي الطول﴾.

وإما إخبار عن نعيمه الشديدة، وعمّا يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شديد العقاب﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادهما، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إليه المصير﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿٤-٦﴾ ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يفرك قلبهم في البلاد﴾ كذبت قلوبهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فلا يفرك﴾

تقلبهم في البلاد أي : ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد، أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه من لا علم ولا عقل له.

ثم هدد مَنْ جادل بآيات الله ليُظْلَمَها، كما فعل مَنْ قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليُظْلَموه، وعلى الباطل لينصروه، ﴿و﴾ أنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿هت كل أمة﴾ من الأمم ﴿برسولهم ليأخذوه﴾ أي: يقتلوه. وهذا أبلغ ما يكون الرسل الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا بقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فأخذتهم﴾ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فكيف كان عقاب﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة، أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم، فإذا هم خامدون.

﴿وكذلك حقّت كلمة ربك على  
الذين كفروا﴾ أي: كما حقّت على  
أولئك، حقّت عليهم كلمة الضلال  
التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا  
قال: ﴿أنهم أصحاب النار﴾

﴿ ٧ - ٩ ﴾ الذين يحملون العرش  
ومن حوله يسبحون بحمد ربهم  
ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا  
وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر  
للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب  
الجحيم \* ربنا وأدخلهم جنات عدن  
التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم  
وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز  
الحكيم \* وقهم السيئات ومن تق  
السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو  
الفوز العظيم ﴿

لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿الذين يحملون العرش﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾.

﴿ومن حوله﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون الغيد يصرفها لغيره، وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العيد: «سبحان الله ويحمده» فهو داخل في ذلك، وهو من جملة العبادات.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفوائده الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ثم ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غاية مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿وَبِنَا وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ

وَسَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ خَوْفِ الْعَرُوفِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأُفْوِىَ بَيْنَهُمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

مِرَاقَةُ الرَّخْرِ الرَّحِيمِ

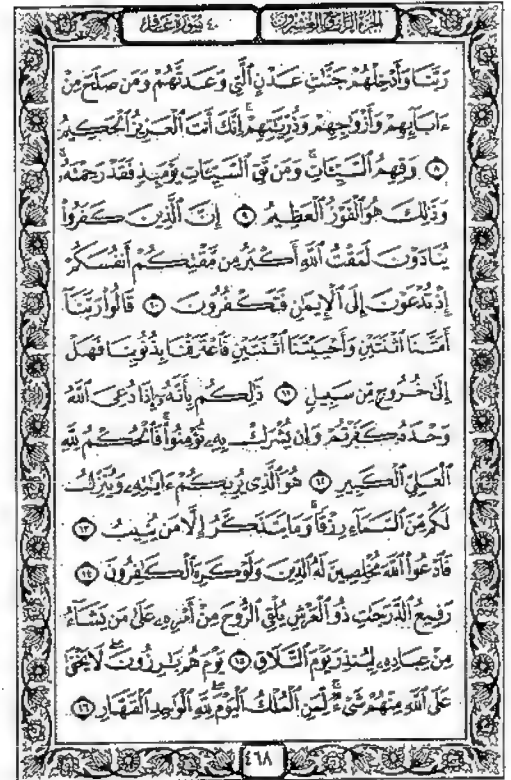
حَمْدُ ١ تَزِيلُ الْمَكْتَبِ مِنَ اللَّهِ الْعَمِيرِ الْعَلِيمِ ٢ عَافِي  
الذَّنْبِ وَقَائِلُ التَّوْبِ سَيِّدُ الْعِقَابِ ذِي الظُّلُمِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
إِلَهُ الْكَسْبِ ٣ تَأْجِلُ وَفَتْ يَلْبِ اللَّهُ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا  
وَلَا يَتَذَكَّرُ فِي أَلِيلِهِ ٤ كَذَبَتْ وَأَنَّهُمْ قَوْمٌ نَاجٍ  
وَالْآخَرِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ نَحَسَّ كُلُّ أَشْهُمٍ بِرِشْوِهِمْ بِأَلْفِدُونَ  
وَكَذَلُوا بِالْبَاطِلِ لِإِحْضَائِهِ الْغَىٰ فَأَخَذَهُمُ الْكَفْكُفُ  
كَانَ عِقَابُ ٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ ذَلِيلٍ عَلَى الَّذِينَ  
كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ٦ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ  
وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأُكْرِمُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ  
لِلَّذِينَ آمَنُوا زُبُرًا وَيَسِفُ كُلُّ قَوْمٍ بِقِيَمَتِهِمْ وَأَعْلَانُ عَافِي  
لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّخَذُوا لِسَانَ اللَّهِ وَفِيهِ عَذَابُ الْحَرِيمِ ٧

٤٦٧

رحمة وعلماء ﴿ فعلمك قد أحاط بكل شيء ﴾ ، لا يخفى عليك خافية ، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ورحمتك وسعت كل شيء ، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم ، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه . ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿ واتبعوا سبيلك ﴾ باتباع رسلك ، بتوحيديك وطاعتك . ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي : قهم العذاب نفسه ، وقهم أسباب العذاب .

﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ على السنة رسلك ﴿ومن﴾  
الصالح ﴿أي﴾: صلح بالإيمان والعمل  
الصالح ﴿من آبائهم وأزواجهم﴾  
زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم  
ورفقائهم ﴿وذرياتهم﴾ ﴿إنك أنت﴾  
العزیز ﴿القاهر لكل شيء﴾، فبعزتكم  
تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور،  
وتوصلهم به إلى كل خير ﴿الحكيم﴾  
الذي يضع الأشياء مواضعها،  
فلا نسألك يا ربنا أمراً تقتضي حكمتك  
خلافه، بل من حكمتك التي أخبرت  
بها على السنة رسلك، واقتضاها  
فضلك، المغفرة للمؤمنين ﴿وقهم﴾  
السيئات ﴿أي﴾: الأعمال السيئة  
وجزاءها، لأنها تسوء صاحبها. ﴿ومن﴾  
ثق السيئات يومئذ ﴿أي﴾: يوم القيامة





﴿فقد رحمته﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقبته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وذلك﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يجب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُنلّي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها،

واجتهدوا اجتهد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يحبهم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله: ﴿يستغفرون للمؤمنين﴾ التنبية اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون التدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب له الجزم بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من تواب المعنى والمتوقف عليه.

الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحاً، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا.

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير التأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآئات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصل رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي

تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿ومن صلح﴾ فحيث لا يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لحقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يشرِك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَحِقْتُ اللَّهَ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: حين دعيتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له،

وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا أكبر من مقتكم أنفسكم ﴿أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع، و﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين﴾ يريدون الموت الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم



المحض قبل إيجادهم، ثم أمانتهم بعدما أوجدتهم، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾ الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذَلِكَ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: إذا دُعي الله وحده، أي: إذا دُعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كُفَرْتُمْ﴾ به واشتمأزت لذلك قلوبكم ونفرتكم غاية النفور. ﴿وَإِنْ يَشْرِكْ بِهِ تَأْمِنُوا﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل، وبوأكم هذا المقييل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة. تؤثرن سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساري بين المتقين والفجار.

﴿الْكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المنتزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿١٣-١٧﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق. يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب. يذكر تعالى نعمه العظيمة على

عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يري عباده من آياته النفسية والافاقية والقرآنية، الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم يبق الحق مشتبهاً، ولا الصواب ملتبساً، بل نوع الدلالات ووضح الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة وكلما كانت المسائل أجمل وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

ولما ذكر أنه يري عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مطراً، به ترتزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه، فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها. والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتضير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

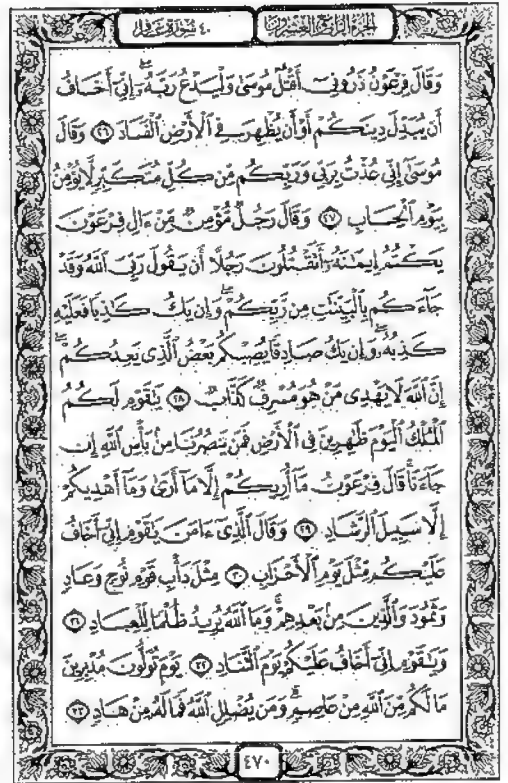
ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخلص

اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب. وأندبهم يوم الآخرة إذا القلوب لدى الحساير كظلمين ما للظالمين من حيلة ولا شفيع يطاع. بعد حياضة الأعين وما تحفى الصدور. والله يقضى بالحق والآيات تدعون من دونه لا يقصرون يتقون إن الله هو السميع العليم. \* أو تيسر وأني الأرض سطر وأكيف كان عقبة الذين كانوا قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وإن كان في الأرض فأنهم الله يدعونهم وما كان لهم من الله من راق. ذلك بأنهم كانت آياتهم شاهداً بالبينات فكفروا فأخذهم الله أخذ قوي. سيد العقبات. ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا استرجع كذاب. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستنجبوا نسبهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال.

القصد لله تعالى في جميع العبادات الراجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده. أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه.

﴿ولو كره الكافرون﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يشكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالى ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الظاهر المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يلقي الروح﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يلقي الروح من أمره﴾ الذي فيه



نفع العباد ومصلحتهم.

﴿على مَنْ يشاء من عباده﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوجيه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لينذر﴾ مَنْ ألقى الله إليه الوحي ﴿يوم التلاق﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه «يوم التلاق»، لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

﴿يوم هم بارزون﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمث فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر.

﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لمن الملك اليوم﴾ أي: مَنْ هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب،

ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿الله الواحد القهار﴾ أي:

المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿القهار﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه، ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لا ظلم اليوم﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: لا تستبطثوا ذلك اليوم، فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿٢٠-١٨﴾ ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع \* يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور \* والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير \* يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها وقلقلها وزلازلها، ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أنفدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كاظمين﴾ لا يتكلمون إلا مَنْ أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروح الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿ما للظالمين من حيم﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فإله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها. ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وما تخفي

الصدور﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فإله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿والله يقضي بالحق﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أوليائه وأحبابه.

﴿والذين يدعون من دونه﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير وأستطاعتهم لفعله.

﴿إن الله هو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾<sup>(١)</sup> بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿أولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق \* ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿أولم يسيرا في الأرض﴾ أي: بقلوبهم وأبصارهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العدد والعدد وكبر الأجسام. ﴿و﴾ أشد آثارا في

(١) في النسختين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير).

الأرض ﴿من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمتعها﴾. فأخذهم الله ﴿بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها، إنه قوي شديد العقاب﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿من أشد منا قوة﴾ أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسل، وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿٢٣-٤٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى آخر القصة.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿موسى﴾ ابن عمران، ﴿بآياتنا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقيقة ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة بيّنة، تتسلط على القلوب فتدفع لها، كالحجة والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسى، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿فرعون وهامان﴾ وزيره ﴿وقارون﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾. فلما جاءهم بالحق من عندنا وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقووا، ويقوا في رقهم وتحت عبوديتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما

قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

وتدبر هذه النكتة التي يكثُر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سبق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

فلهذا لم يقل «وما كيدهم إلا في ضلال» بل قال: ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾

و ﴿قال فرعون﴾ متكبراً متجبراً مغرراً لقومه السفهاء: ﴿ذرّوني أقتل موسى وليدع ربه﴾ أي: زعم - قبحه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ الذي أنتم عليه ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾. وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويع، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

﴿وقال موسى﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعيناً بربه: ﴿إني عُذْتُ بربي وربكم﴾ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقبض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون

ولقد جاءكم من ميثم من قبل ما لستم في شك من حاجته منكم يود حينئذ أن هلك فأنشأ لكم الله من بعده رسولا كذلك يعيد الله من هو مستر منكم ﴿٥﴾ الذين يجدون في آيات الله وعبره سلطاناً أندهم كبر مقتداً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جباراً ﴿٦﴾ وقال فرعون: ﴿لئن لم يرجعوا عن آياتي أو يأمرني الله بما لا أفعل فإني لأظننهم كذابين﴾ ﴿٧﴾ وكذلك نزلنا فرعون سوء عقوبة وشدنا عليه سجناً وما كان يدعوهم إلى عبادة الله إلا لتبكيه ﴿٨﴾ وقال الذين آمنوا: ﴿يقرئهم آياتهم﴾ ﴿٩﴾ ﴿فما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ ﴿١٠﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى آخر القصة.

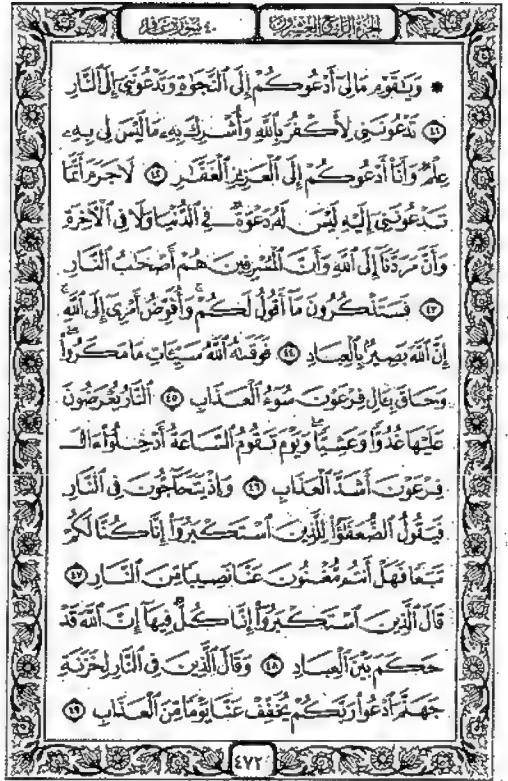
(٤٧)

وملئه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قریش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبلاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنب وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البينات، ولهذا قال: ﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلاً أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرت: هل يحل قتله إذا ظهرت عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه،



فبينكم وبين حل قتلته مفاوز تنقطع بها أعناق الطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي: حالة قدرت، فقال: **﴿وإن يك كاذباً فعلياً كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم﴾** أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبيات، وأخبركم أنكم إن لم تحيروه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: **﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف﴾** أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. **﴿كذاب﴾** بنسبته ما أسرف فيه إلى الله. فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله،

ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: **﴿يا قوم لكم الملك اليوم﴾** أي: في الدنيا **﴿ظاهرين في الأرض﴾** على رعيبتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم، **﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾** أي: عذابه **﴿إن جاءنا﴾**؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: **﴿فمن ينصرنا﴾** وقوله: **﴿إن جاءنا﴾** ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف **﴿قال فرعون﴾** معارضاً له في ذلك، ومغرراً لقومه أن يتبعوا موسى: **﴿ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾** وصدق في قوله: **﴿ما أرىكم إلا ما أرى﴾** ولكن ما الذي رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستقناً له.

وكذب في قوله: **﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾** فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال.

**﴿وقال الذي آمن﴾** مكرراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يرددهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: **﴿يا قوم إنني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾** يعني

الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال: **﴿مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾** أي: مثل عاداتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، **﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾** فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الآخورية، فقال: **﴿يا قوم إنني أخاف عليكم يوم التناد﴾** أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: **﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾** إلى آخر الآيات.

**﴿ونادي أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾**

وحين ينادي أهل النار مالكا **﴿ليقض علينا ربك﴾** فيقول: **﴿إنكم ماكثون﴾**. وحين ينادون ربهم: **﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾** فيجيبهم: **﴿أخسروا فيها ولا تكلمون﴾**. وحين يقال للمشركين: **﴿ادعوا شركاءكم﴾** فدعوه فلم يستجيبوا لهم.

فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول، وتراجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: **﴿يوم تولون مدبرين﴾** أي: قد ذهب بكم إلى النار **﴿مالكم من الله من عاصم﴾** لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد **﴿يوم تبلى السرائر﴾** فما له من قوة ولا ناصر.

**﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾** لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لحثه، فلا سبيل إلى هدايته.

**﴿ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من قبل إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له،﴾** فما



زلتم في شك مما جاءكم به ﴿ في حياته ﴾ حتى إذا هلك ﴿ ازداد شككم وشرككم ﴾ و ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسابكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسلا، وظن أن الله لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلماً وعلواً، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾.

﴿ ٣٥ ﴾ ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت من ظهورها - بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبتلوها ﴿ بغير سلطان أثام ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارضه بدليل شرعي أو عقلي أصلاً، ﴿ كبير ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿ مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ فالله أشد بغضاً لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص

خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه، ﴿ كذلك ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿ يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿ وقال فرعون ﴾ معارضاً لموسى ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ أي: بناء عظيماً مرتفعاً، والقصد منه لعلي أطلع ﴿ إلى إله موسى وإنني لأظنه كاذباً ﴾ في دعواه أن لنا رباً، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً، ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿ وصدد عن السبيل ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿ وما كيد فرعون ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿ إلا في تباب ﴾ أي: خسارة ووبار، لا يفنده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ ٣٨ ﴾ وقال الذي آمن ﴿ معيداً نصيحته لقومه ﴾: ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد. ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل: ﴿ فلا تغربكم وتخذعنكم عما خلقتم له ﴾ وإن الآخرة هي دار القرار التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتحملوها عملاً يسعدكم فيها.

﴿ من عمل سيئة ﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿ فلا يجزى إلا

قالوا أولئك نبيكم أرسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعوا الكافرين إلا في ضلال ﴿ ٤٠ ﴾ إنا لننصر سكتنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴿ ٤١ ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولاهم اللعان وهم سوء الدار ﴿ ٤٢ ﴾ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب ﴿ ٤٣ ﴾ فأصبروا وعد الله يخبر الله الذين يريدون ويسمى محمد ذلك بالعتي واليذكر ﴿ ٤٤ ﴾ إن الذين يجادلون في آيات الله يخبر سلطان أنهم من في صدورهم إلا كبر ما هم بيلغيه فاستعدوا الله إنه هو السميع العليم ﴿ ٤٥ ﴾ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ ٤٦ ﴾ وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا الذين كفروا ﴿ ٤٧ ﴾

مثلها ﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويجزئه لأن جزاء السيئة السوء.

﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿ فأولئك يدخلون الجنة يبرزون فيها بغير حساب ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿ ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة ﴾ بما قلت لكم ﴿ وتدعونني إلى النار ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام. ثم فسر ذلك فقال:

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها، ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء. ﴿ الغفار ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساحطه ثم إذا تابوا وأنبأوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿ لا جرم ﴾ أي: حقاً يقيناً ﴿ أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ أي: لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعا



إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَالَّذِينَ لَا كُفْرَ الْتَابِينَ  
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ  
إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَذَابِي سَيَكُونُونَ مِنِّي  
بِحَسْبِ خَيْرٍ ﴿٥١﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْزِيلَ  
لِتُذَكَّرُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مَبِينٌ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ  
عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتُمُ النَّاسَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾  
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ لَكَ بِشَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُهُ  
فَإِنَّكَ كَائِدٌ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ الْكَافِرُ كَانُوا يَكِيدُونَ  
لِغِيظِ اللَّهِ أَن يُغَيِّبَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِهِ فَمَا لَهُمْ  
مَنْعَةٌ ﴿٥٤﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ  
قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَمَوَازِينَ قَاسِحِينَ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ  
رَبِّكَ إِنَّكَ أَتَيْتَ الظَّالِمِينَ ذِكْرَ اللَّهِ وَلَقَدْ كُفِرْتُمْ فَتَبَارَكَ  
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ  
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ  
إِنِّي بُهِتٌ أَن أُعْبِدَ إِلَّا اللَّهَ تَدْعُونَنِي لَدُنِّي وَاللَّهُ لَعَلَّيْ  
أَتَيْتُكُمْ مِنْ رَبِّي وَأَعِزَّتْ أَنْ أَشْرِكَ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾

ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة،  
ولا نشوراً.

﴿وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى  
فسيجازي كل عامل بعمله. ﴿وَأَنْ  
المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهم  
الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ<sup>(١)</sup>  
على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون  
غيرهم.

فلما نصحهم وحذّره وأنذرهم،  
ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم:  
﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه  
النصيحة، وسترون مغية عدم قبولها  
حين يحل بكم العقاب، وتحرمون  
جزيل الثواب.

﴿وَأَفْوضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ألجأ  
إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها  
لديه، وأتوكل عليه في مضالجي ودفع  
الضرر الذي يصيبني منكم أو من  
غيركم. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ يعلم  
أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي  
وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني  
شركي، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون  
إلا بإرادته ومشئته، فإن سلطكم علي،  
فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته  
ومشيئته صدر ذلك.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ أي:  
وقى الله القوي الرحيم، ذلك الرجل  
المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون

وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه  
بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم  
الموافقة التامة لموسى عليه السلام،  
ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى،  
وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم  
القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد  
حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً،  
فحفظه الله من كيدهم ومكرهم  
وانقلب كيدهم ومكرهم، على  
أنفسهم، ﴿وَحَاقَ بِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ  
الْعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة  
واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿النَّارُ يَرْضُونَ عَلَيْهَا  
غَدَاً وَعَشِيًّا﴾ يوم تقوم الساعة أدخلوا  
آل فرعون أشد العذاب ﴿فهذه  
العقوبات الشنيعة، التي تحمل بالمكذبين  
لرسول الله، المعاندين لأمره.

﴿٤٧-٥٠﴾ ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي  
النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا  
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا  
مِّنَ النَّارِ﴾ قال الذين استكبروا إِنَّا كُل  
فيها إِن اللَّه قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ \* وَقَالَ  
الَّذِينَ فِي النَّارِ لِحِزَّةٍ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ  
يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ \* قَالُوا أَوَلَمْ  
تَكُن تَأْتِيكُم رُسُلِكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى  
قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي  
ضَلَالٍ \* يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ تَخَاصُمِ أَهْلِ  
النَّارِ، وَعَتَابِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا،  
وَاسْتَغَاثَتِهِمْ بِخِزْنَةِ النَّارِ، وَعَدَمِ الْفَائِدَةِ  
فِي ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي  
النَّارِ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين،  
ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فَيَقُولُ  
الضَّعِيفُ﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿لِلَّذِينَ  
اسْتَكْبَرُوا﴾ على الحق، ودعوههم إلى ما  
استكبروا لأجله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾  
أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا  
الشرك والشر، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا  
نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: ولو قليلاً.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ مبينين  
لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في  
الجميع: ﴿إِنَّا كُلٌ فِيهَا﴾ إِنَّ اللَّه قَدْ حَكَمَ  
بَيْنَ الْعِبَادِ \* وَجَعَلَ لِكُلِّ قِسْطِهِ مِّنَ  
الْعَذَابِ، فَلَا يَزَادُ فِي ذَلِكَ وَلَا يَنْقُصُ

منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.  
﴿وقال الذين في النار﴾ من  
المستكبرين والضعفاء ﴿لِحِزَّةٍ جَهَنَّمَ  
ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخَفَّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ  
الْعَذَابِ﴾ لعله تحصل بعض الراحة،  
فـ ﴿قَالُوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن  
شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاهم  
لا يفيدهم شيئاً: ﴿أَوَلَمْ تَكُن تَأْتِيكُم  
رُسُلِكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي تبيّن بها الحق  
والصراط المستقيم، وما يقرب من الله  
وما يبعد منه؟

﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد جاؤنا بالبينات،  
وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا  
وعاندنا الحق بعدما تبين. ﴿قَالُوا﴾  
أي: الحزنة، لأهل النار، متبرئين من  
الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم  
ولكن هذا الدعاء، هل يغني شيئاً أم  
لا؟

قال تعالى: ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا  
فِي ضَلَالٍ﴾ أي: باطل لاغ، لأن  
الكفر يحبط لجميع الأعمال، صاذاً  
لإجابة الدعاء.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا  
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ  
الْأَشْهَادُ﴾ يوم لا ينفع الظالمين  
معدرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿لَمَّا ذُكِّرُوا  
بِعَقَابِهِمْ﴾ أي: فرعون في الدنيا،  
والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة  
أهل النار القضيعة، الذين نابذوا رسله  
وحاربوهم، قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا  
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي:  
بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة  
بالحكم لهم، ولأتباعهم بالثواب، ولمن  
حاربهم بشدة العقاب.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ﴾  
حين يعتذرون ﴿ولهم اللعنة ولهم سوء  
الدار﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء  
نازليها.

﴿٥٣-٥٥﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى  
الْهُدَى وَأَوْثَرْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾  
هدى وذكرى لأولي الألباب ﴿فَاصْبِرْ  
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ  
بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ لما ذكر

(١) في النسختين (بالتجري).





والإهانة، جزاء على استكبارهم.

﴿٦١-٦٥﴾ **﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾** إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون \* **﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾** كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون \* **﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين﴾** هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين \* تدبر هذه الآيات الكريمات، الدالة على سعة رحمة الله تعالى وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتعام زبوبيته وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء، فينتج من ذلك، أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبية شيئاً، وينتج من ذلك، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى

ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخرية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فات كل خير وحضر كل شر.

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاضمه سؤال، ولا يحفيه نوال.

فقوله تعالى: **﴿الله الذي جعل لكم الليل﴾** أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلماً، **﴿لتسكنوا فيه﴾** من حركاتكم، التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه، ويسكن أيضاً، كل حبيب إلى حبيبه، ويجمع الفكر، وتقل الشواغل.

**﴿وجعل تعالى النهار مبصراً﴾** منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نجوها من الصناعات، وهذا لسفره براً وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصلح حيواناته.

**﴿إن الله لذو فضل﴾** أي: عظيم، كما يدل عليه التنكير **﴿على الناس﴾**. حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره، **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** بسبب جهلهم وظلمهم. **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

**﴿ذلكم﴾** الذي فعل ما فعل **﴿الله ربكم﴾** أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية، لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته، **﴿لا إله إلا هو﴾** تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، **﴿خالق كل شيء﴾** تقرير لربوبيته.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: **﴿فأنى تؤفكون﴾** أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل وأثار لكم السبيل!!

**﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون﴾** أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعتديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: **﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾**.

**﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾** أي: قارة ساكنة، مهية لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

**﴿والسماء بناء﴾** سقفاً للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تتصفون به من الأنوار والعلامات التي يتهدى بها في ظلمات البر والبحر، **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾** فليس في جسس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم، كما قال تعالى: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾**.

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضواً عضواً، هل تجد عضواً من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضاً، إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجل الصور.

**﴿ورزقكم من الطيبات﴾** وهذا شامل لكل طيب، من مأكّل،

ومشرب، ومنكح، ومفلس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده، ويسر لهم أساليبها، ومنعهم من الخبائث التي تضادها، وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم، ﴿ذلكم﴾ الذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿الله ربكم﴾ ﴿فتبارك الله رب العالمين﴾ أي: تعظم وكثر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه.

﴿هو الحي﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع، والبصر، والقدرة، والعلم، والكلام، وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلالة.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا وجهه الكريم. ﴿فادعوه﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي: جميع المحامد والمدايح والثناء، بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله، وتما نعمه.

﴿٦٦-٦٨﴾ ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيانات، صرح بالهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قل﴾ يا أيها النبي ﴿إني نهيت أن أعبد الذين

تدعون من دون الله﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله.

ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق، كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق، ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم، والمطور لخلقكم، فكما خلقكم وحده فاعيدوه وحده، فقال: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلقهم أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم من نطفة﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار، من العلقة، فالنطفة، فالعظام، فنفخ الروح، ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ ثم هكذا تتبطلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة. ﴿ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل﴾ بلوغ الأشد ﴿ولتبلغوا﴾ بهذه الأطوار المقدرة إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم. ﴿ولعلكم تعقلون﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه. ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير.

﴿فإذا قضى أمراً﴾ جليلاً أو حقيراً ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ لا رد في ذلك، ولا مشوية، ولا تمنع.

﴿٦٩-٧٦﴾ ﴿لم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴿إذ الأغلال في

أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون﴾ من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴿لم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله الواضحة البينة متعجباً من حالهم الشنيعة. ﴿أنى يضربون﴾ أي: كيف ينعبدون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شبهاً توافق أهواءهم، ويصولون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولاً، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فسوف يعلمون﴾ إذ الأغلال في أعناقهم التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿والسلاسل﴾ التي يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿يسحبون﴾ في الحميم ﴿أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿ثم في النار يسجرون﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون بها، ثم يويخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿لهم أين ما كنتم تشركون﴾ من دون الله هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كذلك يضل الله



تتكفرون ﴿٧٦﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام:

منها: منافع الركوب عليها والحمل.

ومنها: منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها.

ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع.

﴿ولتبلفوا عليها حاجة في صدوركم﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها. ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي: على الرواحل البرية والفلك البحرية يحملكم الله الذي سخرها وهيا لها ما هيا من الأسباب التي لا تتم إلا بها.

﴿ويريكم آياته﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه، حيث أشهد عباده آياته النفسية، وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعددها عليهم، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه.

﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقررون عندكم، أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجب لذوي الألباب بذل الجهد، واستفراغ الوسع، للاجتهاد في طاعته والتبذل في خدمته والانقطاع إليه.

﴿٨٢ - ٨٥﴾ ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأكثر آثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك

والآخرة، ولهذا قال: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ في الدنيا فذاك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل عقوبتهم ﴿فإلينا يرجعون﴾ فنجازيهم بأعمالهم، ﴿فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾. ثم سلاة وصبره يذكر إخوانه المرسلين فقال:

﴿٧٨﴾ ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً﴾ كثيرين إلى قومهم، يدعوهم ويصبرون على أذاهم. ﴿ومنهم من قصصنا عليك﴾ خبرهم. ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾. وكل الرسل مدبرون، ليس يدهم شيء من الأمر.

وما كان لأحد منهم أن يأتي بآية من الآيات السمعية والعقلية إلا بإذن الله أي: بمشيئته وأمره، فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم وتعنّت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به. ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم، والفتح. ﴿قضي﴾ بينهم ﴿بالحق﴾ الذي يقع الموضع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، ولهذا قال: ﴿وخسر هنالك﴾ أي: وقت القضاء المذكور ﴿المبطلون﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاؤوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة، فلنحذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم فيخسروا كما خسر أولئك، فإن هؤلاء لا خير منهم، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿٧٩ - ٨١﴾ ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون﴾ ولكم فيها منافع وتبلفوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴿ويريكم آياته فأي آيات الله

الكافرين﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ الآيات.

ويقال لأهل النار ﴿ذلكم﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتكم بها علوم الرسل وتفرحون على عباد الله، بغيا وعدوانا وظلماً وعصياناً، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾.

وكما قال قوم قارون له: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾.

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح المدحوح الذي قال الله فيه: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله. ﴿خالدين فيها﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ مثوى يخزون فيه ويهانون ويحبسون ويعذبون وترددون بين حرها وزمهريرها.

﴿٧٧﴾ ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴿أي: ﴿فاصبر﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿إن وعد الله حق﴾ سينصر دينه، ويغلي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك أيضاً، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا







لا يسمعون ﴿١﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

﴿وقالوا﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قلوبنا في أكثثة﴾ أي: أغطية مغلشة ﴿بما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر﴾ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلا نراك.

القصود من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

﴿قل﴾ لهم يا أيها النبي: ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾ أي: هذه صفتي ووظيفتي، أي بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضّلني الله عليكم وميّزني وخصّني بالوحي الذي أوحاه إلي وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه.

﴿فاستقيموا إليه﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى،

بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: ﴿إليه﴾ تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار التضمن للتوبة فقال: ﴿واستغفروه﴾ ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ودنسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها. ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة. ﴿لهم أجر﴾ أي: عظيم ﴿غير ممنون﴾ أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتبهات.

﴿٩ - ١٢﴾ ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً﴾ ذلك رب العالمين ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ ثم استوى إلى السماء وهي

دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً﴾ ذلك تقدير العزيز العليم ﴿ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار، فكمل خلقها، ودحاها، وإخراج أقواتها، وتوابع ذلك ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ عن ذلك، فلا ينبئك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

﴿ثم﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿استوى﴾ أي: قصد ﴿إلى﴾ خلق ﴿السماء وهي دخان﴾ قد ثار على وجه الماء، ﴿فقال لها﴾ ولما كان هذا التخصيص يومهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: ﴿وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ أي: انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه. ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ ليس لنا إرادة تخالف إرادتك. ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ فتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيتته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رقيق، فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النزاعات، لما ذكر خلق السماوات قال: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق الأرض وصورتهما

متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي الأرض بأن «أخرج منها ماءها ومرعاها» \* والجبال أرساها \* متأخر عن خلق السماوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: «والأرض بعد ذلك دحاها» \* أخرج منها \* إلى آخره ولم يقل: «والأرض بعد ذلك خلقها».

وقوله: «وأوحى في كل سماء أمرها» أي: الأمر والتدبير اللائق بها، التي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين. «وزينا السماء الدنيا بمصابيح» هي النجوم يستنار بها ويبتدى، وتكون زينة وجمالاً للسماء ظاهراً، وجمالاً لها باطناً، بجعلها رجوماً للشياطين، لئلا يسترى السمع فيها. «ذلك» المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها «تقدير العزيز العليم» الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات. «العليم» الذي أحاط علمه بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فَتَزَكُّ المشركون الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أنداداً يسوونهم به، وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب، ولا دواء لهؤلاء إن استمر إعراضهم، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية، فلهذا خوفهم بقوله:

﴿١٣ - ١٤﴾ «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» \* إذ جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم «فقل أنذرتكم صاعقة» أي: عذاباً يستأصلكم ويحتاجكم، «مثل صاعقة

عاد وثمود» القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحتهم العذاب، وجل عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.

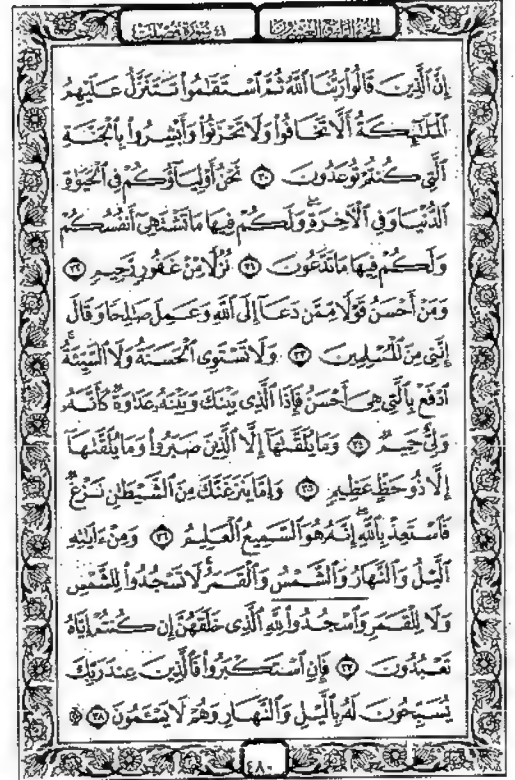
حيث «جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم» أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة. «ألا تعبدوا إلا الله» أي: يأمرهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبوهم، و«قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة» أي: وأما أنتم فبشر مثلنا «فإنا بما أرسلتم به كافرون» وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين [من الأمم]، وهي من أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، فليُقدِّحوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

﴿١٥ - ١٦﴾ «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يعجبون» \* فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون» هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين، عاد وثمود. «فأما عاد» فكانوا - مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله - مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبهم قوتهم. «وقالوا من أشد منا قوة» قال تعالى رداً عليهم بما يعرفه كل أحد: «أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة» فلو لا خلقه إياهم، لم يوجدوا فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً، لم يغتروا بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها.

وَقَالُوا الْيَوْمَ هَرَمْنَا شَيْئاً فَلَمَّا طَغَى الْغَمَامُ طَمَعُوا فِيهِ وَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُمُ الْأَعْلَى فَقِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أَصَابَهُمْ لُطُفٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا كَثُرَتْ قُلُوبُهُمْ وَطَمَعُوا بِرَبِّهِمْ قِيلَ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ طَمَأَتْهُمْ إِذَا لَمْ يَمْسَسْهُمْ قَارِعَةٌ أُخْرَىٰ لَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ ذُكُرُكُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

«فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً» أي: ريحاً عظيمة، من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم «سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية» «نحسات» فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم. وقال هنا: «لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا» الذي اختزوا به واقتضحوا بين الخليفة. «وللعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون» أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا يمتنون أنفسهم.

﴿١٧ - ١٨﴾ «وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا للعمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون» \* وأما ثمود وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك وآثامه الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يوماً، ويشربون من الماء يوماً، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: «وأما ثمود فهديناهم» أي:



هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم - من ظلمهم وشركهم - استحبوا العمى - الذي هو الكفر والضلال - على الهدى - الذي هو العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظملاً من الله لهم. ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون. أي: نجي الله صالحاً عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾ حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم

من المعتبين ﴿يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون. ﴿إلى النار فهم يوزعون﴾ [أي]: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون، ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾ أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ عموم بعد خصوص: ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

فيما شهدت عليهم عاتبوها، ﴿وقالوا لجلودهم﴾ هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: ﴿لم شهدتم علينا﴾ ونحن ندافع عنكم؟ ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستغصي عن مشيئته أحد.

﴿وهو خلقكم أول مرة﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضاً صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿وإليه ترجعون﴾ في الآخرة، فيجزىكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ أي: وما كنتم تخفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. ﴿ولكن ظننتم﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم

بربكم﴾ الظن السيئ، حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله. ﴿أرداكم﴾ أي: أهلككم، ﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحققت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة.

﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ فلا جلد عليها ولا صبر، وكل حالة قدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسعين ضعفاً، وعظم غليان حيمها، وزادت من صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغللالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خزانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختم ذلك سحق الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾.

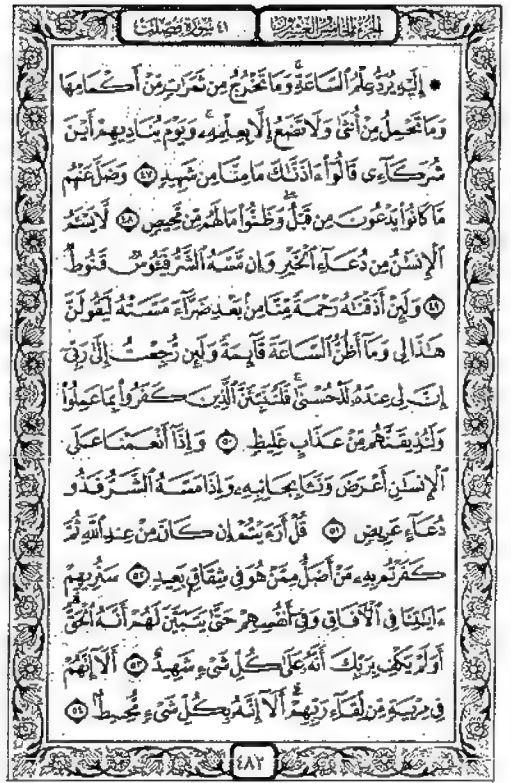
﴿وإن يستعتبوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب ويرجعوا إلى الدنيا ليستأنفوا العمل. ﴿فما هم من المعتبين﴾ لأنه ذهب وقته، وعمروا ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم مع أن استعتابهم كذب منهم ﴿ولورودوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ أي: وقيضنا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قرناء﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ أي: تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم. فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوههم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلكوا ما شاؤوا من محاربة الله ورسله، والآخرة بعثوها









عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ويقولون لهم أيضاً: ﴿ولكم فيها﴾ أي: في الجنة ﴿ما تشتهي أنفسكم﴾ قد أعد وهبى: ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والتعظيم المقيم، نزل وضيافة ﴿من غفور﴾ غفر لكم السيئات، ﴿رحيم﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات ثم قبلها منكم. فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب.

﴿٣٣﴾ ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المقرر أي: لا أحد أحسن قولاً. أي: كلاماً وطريقة، وحالة ﴿ممن دعا إلى الله﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقييده بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه، الدعوة إلى أصل دين الإسلام

وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الدعوة إلى الله، تحببه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلى الله، الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم والعمروض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفرادها، مما يشمل الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وعمل صالحاً﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يرضي ربه. ﴿وقال إنني من المسلمين﴾ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا على تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل، كما أن من أشرف الناس قولاً، من كان من دعاة الضالين<sup>(١)</sup> السالكين لسبيله.

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون﴾.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي

حميم﴾ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك قصيلة، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابل، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك وترك خطابك فطيب له الكلام، وبذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وما يلقاها﴾ أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إلا الذين صبروا﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان!!

فإذا صبر الإنسان نفسه، وأمثلة أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بخش عملة لا يفيد شيئاً، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك مثلاً مستحلياً له.

﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب (من دعاة الضلال).

لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿٣٥-٣٩﴾ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴿لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الخبيث، وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره، فقال: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ أي: أي وقت من الأوقات، أحسنت بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشر، وتكسيه عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فاستعذ بالله﴾ أي: أسأله، مفتقراً إليه، أن يعيذك ويعصمك منه، ﴿إنه هو السميع العليم﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن ﴿من آياته﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿الليل والنهار﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه. ﴿والشمس والقمر﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان. ﴿واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ أي:

اعبدوه وحده لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى. ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿فإن استكبروا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضرروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فالذين عند ربك﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أنك ترى الأرض خاشعة﴾ أي: لا نبات فيها ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء﴾ أي: المطر ﴿اهتزت﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وربت﴾ ثم: أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد.

﴿إن الذي أحياها﴾ بعد موتها وهودها، ﴿لمحيي الموتى﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم ﴿إنه على كل شيء قدير﴾ فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿٤٠-٤٢﴾ ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معانٍ لها ما أرادها الله منها.

فتوعّد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على

ظاهره وباطنه، وسيجزيه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أفمن يلقى في النار﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والآخورية، المغلي لقدر من اتبعه، ﴿لما جاءهم﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. ﴿والحال﴾ ﴿إنه لكتاب﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عزيز﴾ أي: منيع من كل من أرادته بتحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾.

﴿تنزيل من حكيم﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزلها منازلها. ﴿حميد﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

﴿٤٣﴾ ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة

وذو عقاب أليم ﴿٤١﴾ أي: ﴿ما يقال لك﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿إلا ما قد قيل للرسول من قبلك﴾ أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسول، من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾.

واقترحهم على رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم، وصير الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي فقال: ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي: عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أفلح وتاب ﴿وذو عقاب أليم﴾ لمن أصر واستكبر.

﴿٤٢﴾ ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربياً، على الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآناً أعجمياً بلغه غير العرب، لا عترض المكذبون وقالوا: ﴿لولا فصلت آياته﴾ أي: هلا بينت آياته، ووضحت وفسرت. ﴿أعجمي وعربي﴾ أي: كيف يكون محمد عربياً، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون فنفي الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: ﴿قل هو للذين آمنوا

هدى وشفاء﴾ أي: يهديهم لطريق الرشd والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفي القلب.

﴿والذين لا يؤمنون﴾ بالقرآن ﴿في آذانهم وقر﴾ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وهو عليهم عمى﴾ أي: لا يبصرون به رشداً، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عماهم، وغياً إلى غيهم.

﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادى وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا ينتفعون به، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴿يقول تعالى﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ كما آتينا الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى، لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لقضي بينهم﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال، لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿من عمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فلنفسه﴾

نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة، ﴿ومن أساء فعليها﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حث على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ فيحمل أحداً فوق سيئاتهم.

﴿٤٧﴾ - ﴿٤٨﴾ ﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد﴾ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ﴿هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال﴾ ﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلا وهو يعلمها علماً تفصيلاً.

﴿وما تحمل من أنثى﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿ولا تضع﴾ أنثى حملها. ﴿إلا بعلمه﴾ فكيف سوى المشركون به تعالى من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟

﴿ويوم يناديهم﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أين شركائي﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم وجادلتم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قالوا﴾ مقرين بظلال إلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿آذناك ما منا من شهيد﴾ أي: أعلمناك ياربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بظلال عبادتنا، وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون﴾ من دون الله، أي:

فإن قلتم، أو شككتهم بصحته وحقيقته، فسيقم الله لكم ويرىكم من آياته في الآفاق، كالأيات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق.

﴿وفي أنفسهم﴾ عما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثالات في المكذبين، ونصر المؤمنين. ﴿حتى يتبين لهم﴾ من تلك الآيات، بياناً لا يقبل الشك. ﴿أنه الحق﴾ وما اشتمل عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء.

﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متضمناً لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ علماً وقدره وعزة.

تم تفسير سورة السجدة

— بسمه تعالى —

### تفسير سورة الشورى مكية

﴿١ - ٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم عسق﴾ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم \* له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم \* تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم \* والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم

ثم قال تعالى: ﴿ولئن أذقناه﴾ أي: الإنسان الذي لا يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ﴿رحمة﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطغى، ويقول: ﴿هذا لي﴾ أي: أناني لأني له أهل وأنا مستحق له ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له. ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة وهذا من أعظم الجبرأة والقول على الله بلا علم، فلهذا توعدده الله بقوله: ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ أي: شديد جداً.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما، ﴿أعرض﴾ عن ربه وعن شكره ﴿ونأى﴾ أي: ترفع ﴿بجانبه﴾ عجباً وتكبراً. وإن مسه الشر ﴿أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما﴾ فذو دعاء عريض ﴿أي: كثير جداً، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومن عليه.

﴿٥٢ - ٥٤﴾ ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد \* ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله﴾ من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ أي: معاندة الله ولرسوله، لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفتوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم وتدفع عنهم العذاب وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئاً ﴿وظنوا﴾ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، يبينها الله لعباده ليحذروا الشرك به.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ \* وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

﴿وإن مسه الشر﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلاء ﴿فيؤوس قنوط﴾ أي: يئس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضى عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدراجاً وإمهالاً، وإن أصابهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم يئسوا.



بوكيل \* وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير \* ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير \* أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير \* يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاؤوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من اتصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تديرته القدري والشرعي.

وأنة العلي بذاته، وقدره، وقهره. العظيم الذي من عظمته تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن على عظمها وكونها جماداً، والملائكة الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته. يسبحون بحمد ربهم ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ويستغفرون لمن في الأرض عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو الغفور الرحيم الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى هذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - أجمعين - خصوصاً، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من

معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: **والذين اتخذوا من دونه أولياء** يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. **الله حفيظ عليهم** يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها. **وما أنت عليهم بوكيل** فتسال عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أدبت وظيفتك.

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله **قرآناً عربياً** بين الألفاظ والمعاني **تنذر أم القرى** وهي مكة المكرمة **ومن حولها** من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق. **وتنذر الناس** يوم **الجمع** الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه **لا ريب فيه** وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين **فريق في الجنة** وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، **وفريق في السعير** وهم أصناف الكفرة الكاذبين.

**٨٠** **ولو شاء الله** لجعل الناس، أي: جعل الناس أمة واحدة على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لضالح، فإنهم محرومون من الرحمة، **فما لهم من دون الله** من ولي يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب **ولا نصير** يدفع عنهم المكروه.

**والذين اتخذوا من دونه أولياء** يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أقبح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما

أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عموماً بتدبيره ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عبادة المؤمنين خصوصاً، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

**وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير** أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

**١٠ - ١٢** **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب \* فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يدرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير \* له مقاليد السماوات والأرض ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم \* يقول تعالى: **وما اختلفتم فيه من شيء من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه فحكمه إلى الله** يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكمنا به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل. **ذلكم الله ربي** أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: **عليه توكلت** أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقاً به تعالى في الإسعاف بذلك. **إليه أنيب** أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته



## سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ  
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
 وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْ فَوْقَيْهِ  
 وَالْكَوْكَبُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِ وَيَسْتَعِزُّ مِنْ قُوَّتِهِ  
 الْأَرْضُ الْأَسْفَلُ اللَّهُ هُوَ الْمَوْزُونُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا  
 دُونَهُ آلِهَةً لَيْسَ بِهِمْ حِفْظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أُنْتِظَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ كَيْدُ  
 وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فُتُورًا وَلِتُنَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
 وَتُنَادِيَهُمْ بِالْحَجِّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَذَرُوا آلِهَتَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ  
 وَلَا يَمْسُكُهُمْ شَيْءٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَلَا تَمْسُكْ لَهُمْ  
 فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نصِيرٍ ﴿٦﴾ أَمْ  
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُتَوَكِّلُونَ وَهُمْ عَلَى  
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمْهُ  
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨﴾

٥٨٣

ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾  
 أي: أُمِرْكُمْ أَنْ تَقِيمُوا جَمِيعَ شُرَائِعِ  
 الدِّينِ أَصُولُهُ وَفُرُوعُهُ، تَقِيمُونَهُ  
 بِأَنْفُسِكُمْ، وَتَجْتَهِدُونَ فِي إِقَامَتِهِ عَلَى  
 غَيْرِكُمْ، وَتَعَاوِنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى  
 وَلَا تَعَاوِنُونَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ:  
 ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أَي: لِيَحْصُلَ مِنْكُمْ  
 الْإِتِّفَاقُ عَلَى أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ،  
 وَاحْرَصُوا عَلَى أَنْ لَا تَتَفَرَّقَ الْمَسَائِلُ  
 وَتَحْزَبَكُمْ أَحْزَابًا، وَتَكُونُونَ شِيعًا  
 يُعَادِي بَعْضُكُمْ بَعْضًا مَعَ إِتِّفَاقِكُمْ عَلَى  
 أَصْلِ دِينِكُمْ.

ومن أنواع الاجتماع على الدين  
 وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من  
 الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج  
 والأعياد، والجمع والصلوات الخمس  
 والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي  
 لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها  
 وعدم التفرق.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ  
 إِلَيْهِ﴾ أَي: شَقَّ عَلَيْهِمْ غَايَةُ الْمَشَقَّةِ،  
 حَيْثُ دَعَوْهُمْ إِلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ  
 وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ عَنْهُمْ: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ  
 وَحْدَهُ اشْتِمَأَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ  
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ  
 دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وَقَوْلُهُمْ:  
 ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا  
 لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾

والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة.  
 فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب  
 مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل  
 الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر  
 شيء.

والله تعالى هو المعطي المانع، الضار  
 النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا  
 منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و﴿ما  
 يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها  
 وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ  
 يَشَاءُ﴾ أَي: يَوْسَعُهُ وَيُعْطِيهِ مِنْ أَصْنَافِ  
 الرِّزْقِ مَا شَاءَ، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أَي: يَضِيقُ  
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ، حَتَّى يَكُونَ بِقَدْرِ  
 حَاجَتِهِ، لَا يَزِيدُ عَنْهَا، وَكُلُّ هَذَا تَابِعٌ  
 لِعِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ  
 شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فَيَعْلَمُ أَحْوَالَ عِبَادِهِ،  
 فَيُعْطِي كُلَّ مَا يَلِيقُ بِحُكْمَتِهِ وَتَقْتَضِيهِ  
 مَشِئَتِهِ.

﴿١٣﴾ ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا  
 وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا  
 وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ  
 أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى  
 الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ  
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ هَذِهِ  
 أَكْبَرُ مَنَّةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ، أَنْ  
 شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ خَيْرَ الْأَدْيَانِ  
 وَأَفْضَلُهَا، وَأَرْكَأَهَا وَأَطْهَرُهَا، دِينَ  
 الْإِسْلَامِ، الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لِلْمُصْطَفِينَ  
 الْمُخْتَارِينَ مِنْ عِبَادِهِ، بَلْ شَرَعَهُ اللَّهُ  
 لِحَيَارِ الْخِيَارِ، وَصَفْوَةِ الصَّفْوَةِ، وَهُمْ  
 أَوْلُو الْعِزِّ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْمَذْكُورِينَ فِي  
 هَذِهِ الْآيَةِ، أَعْلَى الْخَلْقِ دَرَجَةً،  
 وَأَكْمَلُهُمْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَالَّذِينَ الَّذِينَ  
 شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُمْ، لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا  
 لِأَحْوَالِهِمْ، مُوَافِقًا لِكَمَالِهِمْ، بَلْ إِنَّمَا  
 كَمَلَهُمُ اللَّهُ وَاصْطَفَاهُمْ، بِسَبَبِ قِيَامِهِمْ  
 بِهِ، فَلَوْلَا الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ، مَا ارْتَفَعَ  
 أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، فَهُوَ رُوحُ السَّعَادَةِ،  
 وَقُطْبُ رَحَى الْكَمَالِ، وَهُوَ مَا تَضَمَّنَتْهُ  
 هَذَا الْكِتَابُ الْكَرِيمُ، وَدَعَا إِلَيْهِ مِنَ  
 التَّوْحِيدِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ  
 وَالْآدَابِ.

الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما،  
 كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
 نَسْتَعِينُ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ  
 عَلَيْهِ﴾.

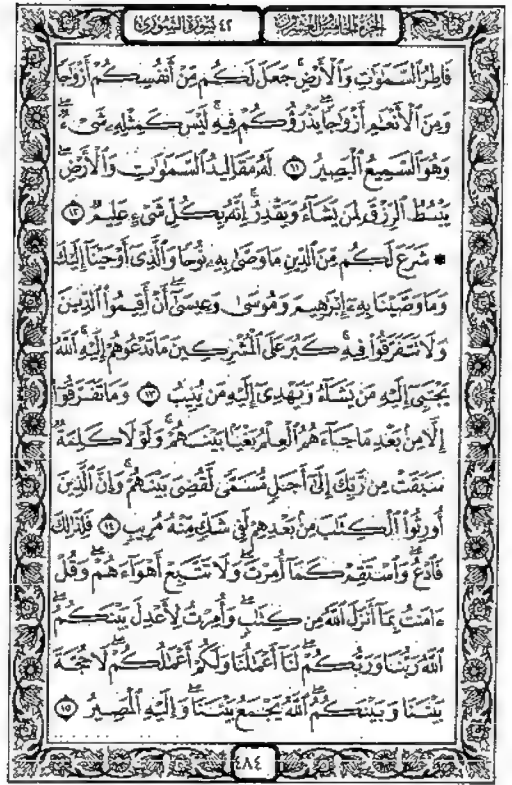
﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي:  
 خَالِقُهُمَا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِئَتِهِ وَحُكْمَتِهِ.  
 ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾  
 لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَتَنْتَشِرَ مِنْكُمْ الذَّرِيَّةُ،  
 وَيَحْصُلَ لَكُمْ مِنَ النِّفْعِ مَا يَحْصُلُ.  
 ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أَي: وَمِنْ  
 جَمِيعِ أَصْنَافِهَا نَوْعَيْنِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى،  
 لَتَبْقَى وَتَنْمُوَ لِنَافِعِكُمُ الْكَثِيرَةِ، وَلِهَذَا  
 عَدَاهَا بِاللَّامِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّعْلِيلِ، أَي:  
 جَعَلَ ذَلِكَ لِأَجْلِكُمْ، وَلِأَجْلِ النِّعْمَةِ  
 عَلَيْكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾  
 أَي: يَبْشُرُكُمْ وَيَكْثُرُكُمْ وَيَكْثُرُ مَوَاشِيَكُمْ،  
 بِسَبَبِ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ،  
 وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أَي: لَيْسَ  
 يَشْبِهُهُ تَعَالَى وَلَا يَمِثُّلُهُ شَيْءٌ مِنْ  
 مَخْلُوقَاتِهِ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ،  
 وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَعْمَالِهِ، لِأَنَّ  
 أَسْمَاءَهُ كُلَّهَا حَسَنَى، وَصِفَاتُهُ صَفَةً<sup>(١)</sup>  
 كِمَالٍ وَعِظْمَةٍ، وَأَعْمَالُهُ تَعَالَى أَوْجَدُهَا  
 الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ،  
 فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لِانْفِرَادِهِ وَتَوْحِيدِهِ  
 بِالْكَمَالِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ. ﴿وَهُوَ  
 السَّمِيعُ﴾ لَجَمِيعِ الْأَصْوَاتِ، بِاخْتِلَافِ  
 اللُّغَاتِ، عَلَى تَفْنِنِ الْحَاجَاتِ.  
 ﴿الْبَصِيرُ﴾ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السُّودَاءِ،  
 فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ، عَلَى الصَّخْرَةِ  
 الصَّمَاءِ، وَيَرَى سَرِيانَ الْقُوْتِ فِي  
 أَعْضَاءِ الْحَيَوَانَاتِ الصَّغِيرَةِ جَدًّا،  
 وَسَرِيانَ الْمَاءِ فِي الْأَغْصَانِ الدَّقِيقَةِ.

وهذه الآية ونحوها، دليل للمذهب  
 أهل السنة والجماعة، من إثبات  
 الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات.  
 وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ  
 كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَعَلَى الْمُعْظَلَةِ فِي قَوْلِهِ:  
 ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ﴾ أَي: لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ، وَبِيَدِهِ مِفْتَاحُ الرَّحْمَةِ

(١) كذا في النسختين ولعل الصواب: (صفات).



﴿الله يجتبي إليه مَنْ يشاء﴾ أي .

يختار من خلقته مَنْ يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته ومنه أن اجتبي هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها .

﴿ويهدي إليه مَنْ يَنْتِيب﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحسب مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ .

وفي هذه الآية، أن الله يهدي إليه مَنْ يَنْتِيب مع قوله: ﴿واتبع سبيل مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين .

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وما تفرقوا إلا من

بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا

وإليه المصير﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فإتهم تباعضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم .

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي: بتأخير العذاب القاضى ﴿إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم .

﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ أي: الذين ورثوهم وصاروا خلفاً لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لفي شك منه مريب﴾ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعدواناً، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم .

﴿فلذلك فادع﴾ أي: فللذين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه مَنْ لم يقبله، ﴿واستقم﴾ بنفسك ﴿كما أمرت﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك .

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمة إذا لم يرد تخصيص له .

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: ﴿ولا تتبع دينهم﴾ لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم،

ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً .

﴿وقل﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليهم جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصداقاً بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته .

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا كتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم .

وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿الله ربنا وربكم﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ من خير وشر ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي: بعدما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ وإنما المراد ما ذكرنا .

﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ يوم القيامة، فيجزى كلا بعمله، ويتبين حيثذ الصادق من الكاذب.

﴿١٦﴾ ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم، فأخبر هنا أن ﴿الذين يحاجون في الله﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة ﴿من بعد ما استجيب له﴾ أي: من بعد ما استجاب الله أولو الألباب والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهو لاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حججتهم داحضة﴾ أي: باطلة مدفوعة ﴿عند ربهم﴾ لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل.

﴿وعليهم غضب﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبياناته وتكذيبها. ﴿ولهم عذاب شديد﴾ هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿١٧- ١٨﴾ ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بيّنة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بينات، وأدلة واضحة، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعسل،

والأحكام والحكم، داخله في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما أشبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ الموهمة، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاقه وخلافه بيان.

ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة التكرين لها، فقال: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، خوف وجبتها. ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ عناداً وتكديباً، وتعجيزاً لربهم. ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ الذي لا مزية فيه، ولا شك يعترية ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة﴾ أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق، وأي بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمدي، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وقضله وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها، وهي دار عبور وعمر، لا محل استقرار.

﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب لهم حجته﴾ داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة﴾ أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق، وأي بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمدي، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وقضله وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها، وهي دار عبور وعمر، لا محل استقرار.

فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة، التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزرهم علماً، وأعظمهم فطنة وفهماً.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾ من كان يريد حرث الآخرة نزل له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نزلته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴿يخبر تعالى بلطفه بعباده لينعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللفظ من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، عن فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية، التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث همهم، ويحصل منهم التنافس



على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قتيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يرزق من يشاء﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وهو القوي العزيز﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة﴾ أي: أجرها وثوابها، فأمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿تزد له في حرثه﴾ بأن تضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿ومن كان يريد حرث الدنيا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يحش عقابها. ﴿نؤته منها﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية، شبيهة بقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾. إلى آخر الآيات.

﴿٢١-٢٣﴾ ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشترون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهوائهم.

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف هؤلاء الفسقة المشركين هم وأباؤهم على الكفر.

﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾ أي: لولا الأجل المنتمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل، لأن المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

وفي ذلك اليوم ﴿ترى الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين ﴿مما كسبوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه ﴿واقع بهم﴾ العقاب الذي خافوه،

لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الإنظار والإمهال.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم بالله وكتبته ورسله وما جاؤوا به، ﴿وعملوا الصالحات﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿في روضات الجنات﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمناذمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً، ﴿لهم ما يشاؤون﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قل لا أسألكم عليه﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه. ﴿أجراً﴾ فليست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إلا المودة في القربى﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجراً إلا أجراً واحداً هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني



الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير \* وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد \* هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتعام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿ويعفو عن السيئات﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويجب ويوفقه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور. وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به ورسله، فـ ﴿لهم عذاب شديد﴾ في الدنيا والآخرة، ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة، تضر بأديانهم فقال: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي: لغفلوا

على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرؤون على هذا الكذب الصراح؟

بل تجرؤوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكنتك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنته الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئاً ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿ويحق الحق بكلماته﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعدته الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الأبواب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يقبض له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبياناته، فظهر من نوره وهدهد ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به من خير وشر، وما أكتته ولم تبده.

﴿٢٥-٢٨﴾ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون \* ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد \* ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في

في القرابة، أي: لأجل القرابة. ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ورسول الله ﷺ، فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إلا المودة في القربى﴾ أي: في التقرب إلى الله، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجراً بالكلية، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وقولهم: «ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك».

﴿ومن يقترف حسنة﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نزد له فيها حسناً﴾ بأن يشرح الله صدره، وييسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿إن الله غفور شكور﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستتر العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافاً كثيرة.

﴿٢٤﴾ ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ ويصحح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ يعني أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿افترى على الله كذباً﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء



عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيهم نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً.

﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ يحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته. إنه بعباده خبير بصير. كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض، ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير».

﴿وهو الذي ينزل الغيث﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، ﴿من بعد ما قنطوا﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسروا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث وينشر به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو الولي﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿الحميد﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

﴿٢٩﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم، ﴿خلق﴾ هذه السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وما بث فيهما﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده. ﴿وهو على جمعهم﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة. إذا يشاء قدير. فقدرته ومشيبته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير. يخبر تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون. ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. وليس إله إلا الله تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم. ﴿وما لكم من دون الله من ولي نصير﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿٣٢-٣٥﴾ ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور. أو يوقهن بما كسبوا ويعف عن كثير. ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص. أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده. ﴿الجوار في البحر﴾ من السفن، والمراكب النارية والشرعية، التي من عظمها كالأعلام. وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التظام الأمواج، وجعلها تحملك وتحميكم وتمتكنكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة

على ذلك.

ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ التي جعلها الله سبباً لمشيتها، ﴿فيظللن﴾ أي: الجوار. ﴿رواكد﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيتها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المضايك عن التسلخ، ﴿شكور﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي يتفجع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه مغرض أو معاند لا يتفجع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا﴾ ليطلوها بباطلهم. ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

﴿٣٦-٣٩﴾ ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والذي يحتسبون كباثراً الإثم والنفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون. والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فما أوتيتم من شيء﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية. ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ لذة منغصة منقطعة. ﴿وما عند الله﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم. ﴿خير﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما. ﴿وأبقى﴾





فخير، وإن شراً فشر. تم تفسير سورة الشورى، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

### تفسير سورة الزخرف مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم \* والكتاب المبين \* إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون \* وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم \* أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين \* هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة. ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لعلكم تعقلون﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وإنه﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لدينا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لعلي حكيم﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه ومجده، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم يخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:

﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً﴾ أي: أفنعرض عنكم، ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن أنتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

﴿٦ - ٨﴾ ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين \* وما يأتيهم من نبي إلا

إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً. ﴿أو﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿من وراء حجاب﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كلمه الرحمن.

﴿أو﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، ف﴿يرسل رسولا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فيوحي بإذنه﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إنه﴾ تعالى على الذات، على الأوصاف، عظيمها، على الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع. ﴿وكذلك﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿ما كنت تدري﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿ما الكتاب ولا الإيمان﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تحط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ أي: تبينه لهم وتوضحه، وتيسره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه، ثم فسر الصراط المستقيم فقال:

﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته، ﴿إلا إلى الله تصير الأمور﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازى كلاً بحسب عمله، إن خيراً

﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوهما ﴿بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿٤٩ - ٥٠﴾ ﴿الله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور \* أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذه تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومته، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق من يهب له إناثاً، ومنهم من يهب له ذكوراً، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له.

﴿إنه عليم﴾ بكل شيء ﴿قدير﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، ويقدرته في مخلوقاته.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم \* وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لنتهدي إلى صراط مستقيم \* صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ لما قال المكذبون لرسول الله، الكافرون بالله: ﴿لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه.

إما ﴿أن يكلمه الله وحياً﴾ بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير



كانوا به يستهزؤون \* فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين \* يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هملاً، فكم \* أرسلنا من نبي في الأولين \* يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم.

وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون \* جحداً لما جاء به، وتكبراً على الحق.

فأهلكنا أشد \* من هؤلاء \* بطشاً \* أي: قوة وأفعالاً وأثراً في الأرض، \* ومضى مثل الأولين \* أي: مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيننا لكم منها ما فيه عبرة ومزدرج عن التكذيب والإنكار.

٩ - ١٤ \* ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم \* الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون \* والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون \* والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون \* لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* وإنا إلى ربنا لمنقلبون \* يخبر تعالى عن المشركين، أنك لو \* سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن \* الله وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يُميت ولا يحيي؟! \*

ثم ذكر أيضاً من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قراراً للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

وجعل لكم فيها سبلاً \* أي:

جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار. \* لعلكم تهتدون \* في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

والذي نزل من السماء ماء بقدر \* لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: \* فأنشربنا به بلدة ميتاً \* أي: أحييناها بعد موتها، \* كذلك تخرجون \* أي: فكما أحيأ الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعدما تستكملون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

والذي خلق الأزواج كلها \* أي: الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك. \* وجعل لكم من الفلك \* أي: السفن البحرية، الشراعية والنازية، ما تركبون \* و \* من الأنعام ما تركبون \* لتستووا على ظهوره \* وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، أي: لتستقروا عليها، \* ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه \* بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: \* وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* أي: لولا تسخيرنا ما سخر من الفلك، والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلّلها ويسر أسابها.

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد.

١٥ - ٢٥ \* وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين \* أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم

بالبنين \* وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم \* أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين \* وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهدتهم ويسألون \* وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون \* أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون \* بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون \* وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون \* قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون \* فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين \* يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه:

منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مبين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهن بالبنين، ويفضلهم بها؟! فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرهما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك \* إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً \* من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

ومنها: أن الأنثى ناقصة في







فقال تعالى: ﴿بل تمتعت هؤلاء وآباءهم﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يترى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حتى جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ولا مريبة ولا اشتباه. ﴿ورسول مبين﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وببفس دعوته ﷺ.

﴿ولما جاءهم الحق﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما تمتعهم الله به وآباءهم.

﴿وقالوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي: معظم عندهم، مبجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله ردّاً لاقتراحهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أي: أهم الخزان

لرحمة الله، ويذهب تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاؤون، ويمنعونها ممن يشاؤون؟

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿والحال أن رحمة ربك خير مما يجمعون من الدنيا.﴾

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيسقط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكيمته، فرحمته الدنيوية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته...

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينيها ودنيويها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلطهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟! ومن جرمه ومنتهى حقه، أن جعل إلهه الذي يعبد ويدعوه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل

السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ أي: ليشخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتاج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدنيوية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾.

﴿٣٣ - ٣٥﴾ ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ ولببوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون﴾ وزخرفاً وإن كل ذلك لا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لو سح الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل ﴿لببوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي: درجاً من فضة ﴿عليها يظهرون﴾ على سطوحهم.

﴿ولببوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زخرفاً﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، متغصّة، مكدرة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامثال أوامره

واجتناب نواهيهِ ، لأنَّ نعيمها تام كامل  
من كل وجه ، وفي الجنة ما تشتهيهِ  
الأنفُس وتلد الأعين ، وهم فيها  
خالدون ، فما أشدَّ الفرق بين  
الدارين !!

﴿٣٦ - ٣٩﴾ ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ  
الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ  
قَرِينٌ \* وَإِنَّهُمْ لَيَصْدُونَهم عَنِ السَّبِيلِ  
وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ \*﴾ حتى إذا  
جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد  
الشرقين فبئس القرين \* ولن ينفعكم  
اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب  
مشتركون ﴿يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَقُوبَتِهِ  
الْبَلِيغَةُ، لَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ، فَقَالَ:  
﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ أي: يعرض ويصد  
﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الذي هو القرآن  
العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها  
الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ، فَمَنْ قَبِلَهَا، فَقَدْ قَبِلَ  
خَيْرَ الْمَوَاهِبِ، وَفَازَ بِأَعْظَمِ الْمَطَالِبِ  
وَالرَّغَائِبِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا وَرَدَّهَا،  
فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ خَسَارَةً لَا يَسْعُدُ  
بَعْدَهَا أَبَدًا، وَقِيضَ لَهُ الرَّحْمَنُ شَيْطَانًا  
مَرِيدًا، يَقَارِنُهُ وَيَصَاحِبُهُ، وَيَعِدُّهُ  
وَيَمْنِيهِ، وَيُوْزُهُ إِلَى الْمَعَاصِي أَزًّا،  
﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصْدُونَهم عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي:  
الصرط المستقيم، وَالِدِينَ الْقَوِيمِ،  
﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين  
الشَّيْطَانِ لِلْبَاطِلِ وَتَحْسِينِهِ لَهُ،  
وإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، فَاجْتَمَعَ هَذَا  
وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغنى، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء به في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرئ من قرينه، ولهذا قال

تعالى ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني  
وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ .

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلائكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم أيضاً، روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

﴿٤٠ - ٤٥﴾ ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَمَ  
أَوْ تَهْدِي الْعُمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ  
مُبِينٍ﴾ فَإِنَّمَا تَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ  
مُنْتَقِمُونَ ﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ  
فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ فَاستَمْسِكْ  
بِالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَدُنْكَ وَلَقَوْمَكَ  
وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ﴾ واسأل من أرسلنا  
من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون  
الرحمن آلِهَةً يَعْبُدُونَ ﴿يَقُولُ تَعَالَى  
لِرَسُولِهِ﴾، مسلياً له عن امتناع  
المكذِبين عن الاستجابة له، وأنهم  
لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم  
إلى الهدى: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَمَ﴾  
أي: الذين لا يسمعون ﴿أَوْ تَهْدِي  
الْعُمَى﴾ الذين لا يبصرون، أو تهدي  
﴿مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: بين  
واضح، لعلمه بضلاله، ورضاه به.

فكما أن الأصم لا يسمع  
الأصوات، والأعمى لا يبصر،  
والضال ضالاً مبيناً لا يهتدي،  
فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم،  
بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا

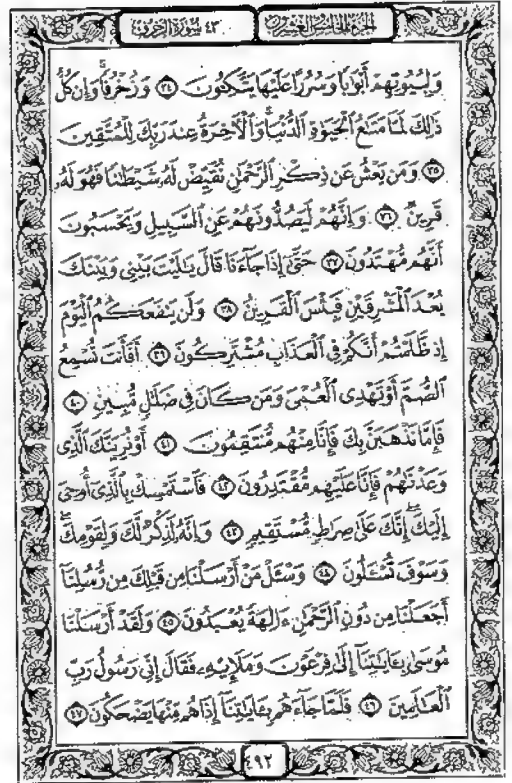
وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ لَهُ مُتُوعًا  
إِنَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ تَأَنُّسًا وَوَلَّى الْمَثَلِينَ ۝ قَالُوا أَتُوعَدُونَ ۝  
قَالَ أَوْلَوْجُودُكُمْ بِآيَاتِنَا وَمَا وَدَّعْتُمْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا كَذَّبُوا  
بِآيَاتِنَا أَنْزِلْنَاهُمْ بِوُجُوهِكُمْ ۝ قَالَتْ قِسْمَتَانِ مِنْهُ فَنَظَرَنِي فَمَا  
كَانَ عَلَيْهِ إِلَّا كِبْرًا ۝ وَإِذْ قَالَ الرَّسُولُ إِنَّ رَبِّي لَمَعَ لِي  
بَرْقَةٌ فَأَنْزَلَنِى فَأَصْحَبُ ۝ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَمِيعٌ ۝  
وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَازِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ بَرَاءَتٌ  
هَذِهِ ۝ وَأَبَاهُ يُرْسِلُ بِآيَاتِهِ فَهُمْ لَنْ مُنِينَ ۝ وَلَمَّا  
جَاءَهُمُ الْغَمُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُؤْتَايَهُمْ كَذَّبُوا ۝ وَقَالُوا  
لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْقَرِّينَ عَظِيمٍ ۝  
أَمْ يَقْسِمُونَ رَبَّنَا بِأَنَّكَ تُخْلِقُ مَا نَشَاءُ ثُمَّ لَا تَحْمِلُ فِيهِ  
الْأَثْرَ ۝ أَلَيْسَ لَنَا بِمَنْعَةٍ مِنْكَ فَقَبْضَةٍ تَرْجِعُ فِيهِ الْأَثْرَ  
بَعْضًا سِحْرًا وَمِنْهُمْ رَبَّنَا رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمِلُونَ ۝ وَلَوْلَا أَنْ  
يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ۝ بَلْ كَرَّمُوا الْقَوْمَ  
الْمُسْلِمِينَ بِمَقَالَتِهِمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝

عقائد فاسدة، وصفات خبيثة، تمتعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الازدياد من الردى، فهو لاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فإِذَا نَذِهْنُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أننا منهم منتقمون.

﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيرها، فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين.

وأما أنت ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك﴾ فعلاً واتصافاً، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه في نفسك وفي غيرك. ﴿إنك على صراط مستقيم﴾ موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق، تكون بانياً على أصل أصيل، إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام، والظلم والجور.

﴿وإنه﴾ أي : هذا القرآن الكريم  
﴿لذكر لك ولقومك﴾ أي : فخر لكم ،  
ومنتبة جليلة ، ونعمة لا يقادر قدرها ،  
ولا يعرف وصفها ، ويذكركم أيضاً ما  
فيه الخير الدنيوي والأخروي ، ويحثكم



عليه، ويذكركم الشر ويهيبكم عنه،  
﴿وسوف تسألون﴾ عنه، هل قمتم به  
فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به  
فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه  
النعمة؟

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من  
رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة  
يعبدون﴾ حتى يكون للمشركين نوع  
حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل،  
فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن  
أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى  
اتخاذ إله آخر مع الله مع أن كل  
الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون  
إلى عبادة الله، وحده لا شريك له.  
قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة  
رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا  
الطاغوت﴾ وكل رسول بعثه الله،  
يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله  
غيره، فدل هذا، أن المشركين ليس لهم  
مستند في شركهم، لا من عقل  
صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿٤٦- ٥٦﴾ ﴿ولقد أرسلنا موسى  
بآياتنا إلى فرعون وملئه﴾ إلى آخر  
القصة (١) لما قال تعالى:

﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا  
أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾  
يبين تعالى حال موسى ودعوته، التي  
هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل،

(١) وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخرها.

ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في  
كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال:  
﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ التي دلت  
دلالة قاطعة على صحة ما جاء به،  
كالعصا، والحية، وإرسال الجراد،  
والقمل، إلى آخر الآيات.

﴿إلى فرعون وملئه﴾ فقال إني رسول  
رب العالمين ﴿فدعاهم إلى الإقرار  
بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه،  
﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها  
يضحكون﴾ أي: ردوها وأنكروها،  
واستهزؤا بها، ظلماً وعلواً، فلم يكن  
لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها،  
ولهذا قال: ﴿وما نريهم من آية إلا هي  
أكبر من اختها﴾ أي: الآية المتأخرة  
أعظم من السابقة، ﴿وأخذناهم  
بالعذاب﴾ كالجراد، والقمل،  
والضفادع، والدم، آيات مفصلات.  
﴿لعلهم يرجعون﴾ إلى الإسلام،  
ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم.

﴿وقالوا﴾ عندما نزل عليهم  
العذاب: ﴿يا أيها الساحر﴾ يعنون  
موسى عليه السلام، وهذا، إما من  
باب التهكم به، وإما أن يكون هذا  
الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه  
بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون  
أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا:  
﴿يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد  
عندك﴾ أي: بما خصك الله به،  
وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن  
يكشف عنا العذاب ﴿إننا لمعتدون﴾ إن  
كشف الله عنا ذلك، ﴿فلما كشفنا  
عنهم العذاب إذا هم ينكتون﴾ أي: لم  
يقفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا  
على كفرهم. وهذا كقوله تعالى:  
﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد  
والقمل والضفادع والدم آيات  
مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً  
مجرمين﴾ ولما وقع عليهم الرجز قالوا  
يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك  
لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك  
ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴿فلما  
كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه

إذا هم ينكتون﴾. ﴿ونادى فرعون في قومه قال﴾  
مستعجلاً بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه  
ماله وجنوده: ﴿يا قوم أليس لي ملك  
مضرب﴾ أي: أليس المالِك لذلك،  
المتصرف فيه، ﴿وهذه الأنهار تجري من  
تحتي﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل،  
في وسط القصور والبساتين. ﴿أفلا  
تبصرون﴾ هذا الملك الطويل العريض،  
وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر  
بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر  
بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿أم أنا خير من هذا الذي هو  
مهين﴾ يعني - قبحه الله - بالمهين،  
موسى بن عمران، كليم الرحمن،  
الوجيه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو  
الذليل المهان المحقر، فأينا خير؟ ﴿و﴾  
مع هذا فلا ﴿يكاد يبين﴾ عما في  
ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح  
اللسان، وهذا ليس من العيوب في  
شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو  
كان ثقيلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: ﴿فلولا ألقى عليه  
أسورة من ذهب﴾ أي: فهل كان  
موسى بهذه الحالة، أن يكون مزيناً  
مجملاً بالخلي والأساور؟ ﴿أو جاء معه  
الملائكة مقترنين﴾ يعاونونه على  
دعوته، ويؤيدونه على قوله.

﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ أي:  
استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه  
الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من  
جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً  
على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا  
على ضعفاء العقول.

﴿فأي: دليل يدل على أن فرعون  
محق، لكون ملك مصر له، وأنهاره  
تجري من تحته؟

﴿وأي: دليل يدل على بطلان ما جاء  
به موسى، لقلة أتباعه، وثقل لسانه،  
وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملاً  
لا يعقول عندهم، فمهما قال اتبعوه،  
من حق وباطل، ﴿إنهم كانوا قوماً  
فاسقين﴾ فبسبب فسقهم، قيسض لهم



فرعون، يزين لهم الشرك والشر. ﴿فلما آسفونا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴿ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون﴾.

﴿٥٧-٦٥﴾ ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ \* وقالوا آللهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ \* إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل﴾ \* ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلقون﴾ \* وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾ \* ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ \* ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون﴾ \* إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ \* فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ يقول تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً﴾ أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد. ﴿إذا قومك﴾ المكذبون لك﴾ منه﴾ أي: من أجل هذا المثل المضروب، ﴿يصدون﴾ أي: يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم، وأفلجوا.

﴿وقالوا أللهتنا خير أم هو﴾ يعني : عيسى ، حيث نهي عن عبادة الجميع ، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم ، ونزل أيضاً قوله تعالى : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ .  
ووجه حجتهم الظالمة : أنهم قالوا : قد تقرر عندنا وعندك يا محمد ، أن عيسى من عباد الله المقربين ، الذين لهم العاقبة الحسنة ، فلمَ سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع ؟ فلولاً أن حجتك باطلة لم تنقض .

وَلَمْ قُلْتُ: ﴿إِنْ كُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَازِدُون﴾. وهذا لفظٌ بزعمهم، يعم الأصنام، وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها، هذا أنهي ما يقررون به هذه الشبهة [الذي]<sup>(١)</sup> فرحوا بها واستبشروا. وجعلوا يصدون ويتباشرون.

وهي - والله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأبي: شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟

وليس تفضيل عيسى عليه السلام،  
وكونه مقرباً عند ربه ما يدل على الفرق  
بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو  
كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا  
عَلَيْهِ﴾ بالنسبة والحكمة والعلم  
والعمل، ﴿وَجَمَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي  
إِسْرَآئِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى  
على إيجاده من دون أب.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن قوله: ﴿إنا كنم وما  
تعبدون من دون الله﴾ أن «ما» اسم لما  
لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

الثاني: أن الخطاب للمشرّكين،  
الذين بمكة وما حولها، وهم إنما  
يعبدون أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون  
المسيح.

الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فلا شك أن

(١) في النسختين (الذي) ولعل الصواب (التي).

[illegible]

عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء،  
داخلون في هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ أي: لجعلنا بدلکم ملائکة یخلفونکم فی الأرض، ویكونون فی الأرض حتی نرسل إلیهم ملائکة من جنسهم، وأما أنتم یا معشر البشر، فلا تطیعون أن ترسل إلیکم الملائکة، فمن رحمة الله بکم، أن أرسل إلیکم رسلاً من جنسکم، تتمکثون من الأخذ عنهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام، للدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو وإن عيسى عليه السلام، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة ﴿فَلَا تَحْتَرَنَّ﴾ بها أي: لا تشكن في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر. ﴿وَاتَّبِعُون﴾ بامتنال ما أمرتكم، واجتنب ما نهيتكم، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله عز وجل، ﴿وَلَا يَصْدَنُكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عما أمركم الله به، فإن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ خَرِصٌ﴾ على إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به،



بها، وبما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها. ﴿وكانوا مسلمين﴾ الله متقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ادخلوا الجنة﴾ التي هي دار القرار ﴿أنتم وأزواجكم﴾ أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم. ﴿تخبرون﴾ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبّر الألسن عن وصفه.

﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ أي: تدور عليهم خدامهم، من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وفيها﴾ أي: الجنة ﴿ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرّة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح، ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم مounقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾ ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿وتلك الجنة﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي ﴿التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

﴿لكم فيها فاكهة كثيرة﴾ كما في الآية الأخرى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾. ﴿منها تأكلون﴾ أي: مما تتخبرون من تلك الفواكه الشهية،

عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿قويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!!

﴿٧٣-٦٦﴾ ﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴿يقول تعالى: ما ينظر المكذبون، وهل يتوقعون﴾ إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴿أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها، وإن الأخلاء يومئذ، أي: يوم القيامة، المتخالفين على الكفر والتكذيب ومعصية الله، بعضهم لبعض عدو﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة. ﴿إلا المتقين﴾ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله، ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي: وصفهم بالإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق



من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات. ﴿قال﴾ لبني إسرائيل: ﴿قد جئتكم بالحكمة﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. ﴿فأتقوا الله وأطيعون﴾ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهي، وآمنوا بي وصدقوني وأطيعوني.

﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصاري: «إنه ابن الله»، أو ثالث ثلاثة، والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، مرصّل إلى الله وإلى جنته.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿اختلف الأحزاب﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿من بينهم﴾ كل قال بعيسى

والثمار اللذيذة تأكلون<sup>(١)</sup>.

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿٧٤-٧٨﴾ **﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ \* لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مَبْلُوسُونَ \* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ \* وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِبْكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُثْتُونَ \* لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾**

**﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾** الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم **﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾** أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، **﴿خَالِدُونَ﴾** فيه، لا يخرجون منه أبداً، و **﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ﴾** العذاب ساعة، بإزالته، ولا بتهوين عذابه، **﴿وَهُمْ فِيهِ مَبْلُوسُونَ﴾** أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون بهم فيقولون: **﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾** قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

**﴿وَنَادُوا﴾** وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، **﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِبْكَ﴾** أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. ف **﴿قَالَ﴾** لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه - أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم - **﴿إِنَّكُمْ مَا كُثْتُونَ﴾** أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: **﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾** الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفزتم وسعدتم، **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾** فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها. **﴿٧٩-٨٠﴾** **﴿أَمْ أَمْرًا أَمْرًا فَإِنَّا مَبْرُمُونَ \* أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ**

سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ يقول تعالى: أم أبرم المكذبون بالحق المعاندون له **﴿أَمْ أَمْراً﴾** أي: كادوا كيداً، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، **﴿فَإِنَّا مَبْرُمُونَ﴾** أي: محكمون أمراً، ومدبرون تدبيراً يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله، وهو ما قَبَضَهُ اللهُ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْأَدْلَةِ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ، كما قال تعالى: **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾**.

**﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾** بجهلهم وظلمهم **﴿أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾** الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم **﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾** أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: **﴿بَلَى﴾** أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم، **﴿وَرَسَلْنَا﴾** الملائكة الكرام، **﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾** كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

**﴿٨١-٨٣﴾** **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ \* سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ \* فَذَرِهِمْ يَخوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾** أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد.

**﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾** لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمور المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقاً إليه وتكميلاً له، وكل شر

فهم أول الناس تركاً له. وإنكاراً له ويُعداً منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله، أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة النقولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً، لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلاً ونقلاً. **﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** من الشريك والظهير، والغوين والولد، وغير ذلك، مما نسبته إليه المشركون. **﴿فَذَرِهِمْ يَخوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾** أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلموهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزيكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: **﴿حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾** فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

**﴿٨٤-٨٩﴾** **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ \* وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ \* وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ \* وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ \* فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** يخبر تعالى، أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة (أ) مقدماً على تفسير الآية السابقة (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون).

لجلاله، ويفتقرون لكماله.

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ﴿والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾.

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعين مختارين، وكارهين. وهذه كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ أي: ألوهيته ومحبه فيهما. وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿العليم﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفراد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تحيى الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿والله ترجعون﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: كل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة

وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعته الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فأنى يؤفكون﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وقيل له يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلیم، يمهل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يُقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم ﴿قالوا سلاماً﴾ فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب

الجميل.

فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم، الذي فُضِّل به أهل الأرض والسما، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: غبّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

### تفسير سورة الدخان مكية

﴿١-١٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ والكتاب المبين ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴿أمرأ من عندنا إنا كنا مرسلين﴾ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿بل هم في شك يلعبون﴾ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴿يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴿هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوماً عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيؤوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الآخروي، ولهذا قال: ﴿إنا كنا منذرين﴾ فيها ﴿أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن﴾ يفرق كل أمر حكيم ﴿أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدري وشرعي، حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان،

الذي يكون في ليلة القدر، أحد<sup>(١)</sup> الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول، الذي كتب الله به مقادير الخلائق وأجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكل به كراماً كاتبين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه، وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتناؤه تعالى بخلقه **﴿أمرأ من عندنا﴾** أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا، **﴿إنا كنا مرسلين﴾** للمرسل، ومتزلين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل، وتخبر بأقداره، **﴿رحمة من ربك﴾** أي: إن إرسال الرسول وإنزال الكتب، التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه، **﴿إنه هو السميع العليم﴾** أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومن عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

**﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾** أي: خالق ذلك ومديره، والمتصرف فيه بما يشاء.

**﴿إن كنتم موقنين﴾** أي: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: **﴿لا إله إلا هو﴾** أي: لا معبود إلا وجهه، **﴿يحيي ويميت﴾** أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزىكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، **﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾** أي: رب الأولين

والآخرين، مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان **﴿في شك يلعبون﴾** أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر، **﴿فارتقب﴾** أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وأن أوانه، **﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾** يغشى الناس، أي: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: **﴿هذا عذاب أليم﴾**

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعدهم الكفار والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم، ويؤيده أيضاً، أنه قال في هذه الآية: **﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾** وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: **﴿اللهم أعني عليهم بسنتين كسني يوسف﴾**، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون - على هذا - قوله: **﴿يوم تأتي السماء بدخان﴾** أن ذلك بالنسبة

إلى المجرمين في عذاب جهنم، لا في الدنيا، ومما ظنهم أنهم ولكن كما أوامر الظالمين، وتادوا بذلك ليقض عذابهم، قال: **﴿إنكم تكفرون﴾** لقد جئتكم بالحق والذكر، وتركوا كفرهم، أم أبوتوا أمراً فإنا نمرؤن، أم نجسبون أننا لا نشع سرهم ونجوههم، بل ونسلك لنهم بكفرون، قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العباد، سبحان رب السموات والأرض رب العرش العظيم، قد همم بغيره وأولعوا حتى يهلكوا، أو همم الذي وعدهم، وهو الذي في السماء، الله وفي الأرض، الله وهو متحكم العليم، وبذلك الذي لكم ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده أمر الساعة، وإليه ترجعون، ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفعة، لأن من شهد بالحق وحدهم، ولين سألهم من ظلمهم، يقولون الله فأنفكوا، وقيل: يترتب أن هؤلاء قوم لا يؤمنون، فأصعق عنهم، وقيل: سلك مشقوق يعذبون.

١٩٥

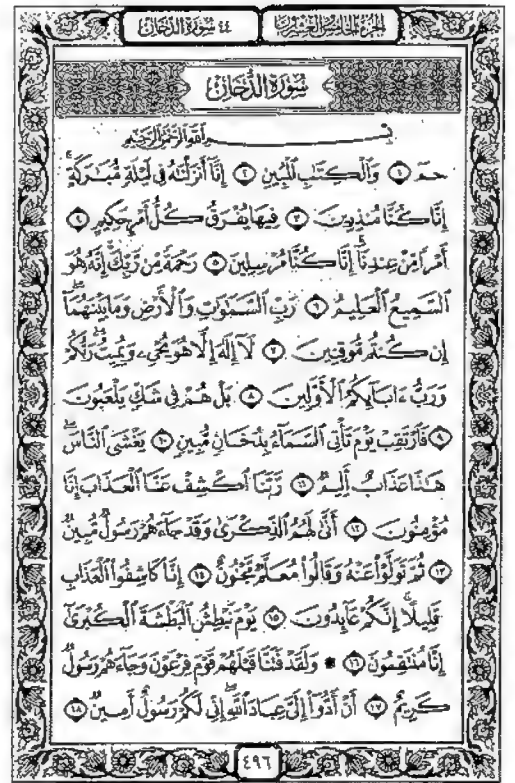
إلى أبصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ، وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعا ربه، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: **﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾** إخبار بأن الله سيصرفه عنهم وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوق، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أشرط الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾** يغشى الناس هذا عذاب أليم، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون، أن هذا كله يكون يوم القيامة، وأن قوله تعالى: **﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾** يوم نبطش البطشة الكبرى

(١) في النسختين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).





إنا منتقمون ﴿١﴾ أن هذا ما وقع لقريش  
كما تقدم.

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين  
المعتين، لم تجد في اللفظ ما يمنع من  
ذلك.

بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة،  
وهذا الذي يظهر عندي ويرجح، والله  
أعلم.

﴿١٧- ٣٣﴾ ﴿١﴾ ولقد فتنا قبلهم قوم  
فرعون ﴿٢﴾ إلى آخر القصة <sup>(١)</sup> لما ذكر  
تعالى تكذيب من كذب الرسول  
محمدًا ﷺ، ذكر أن لهم سلفاً من  
المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى،  
وما أحل الله بهم، ليرتدع هؤلاء  
المكذبون عن ما هم عليه، فقال:  
﴿٣﴾ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴿٤﴾ أي:  
ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا  
موسى بن عمران إليهم، الرسول  
الكريم، الذي فيه من الكرم ومكارم  
الأخلاق ما ليس في غيره، ﴿٥﴾ أن أدوا  
إلي عباد الله ﴿٦﴾ أي: قال لفرعون  
وملئه: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم:  
بني إسرائيل، أي: أرسلوهم،  
وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم  
سوء العذاب، فإنهم عشتري، وأفضل  
العالمين في زمانهم.  
وأنتم قد ظلمتموهم،

واستعبدوهم بغير حق، فأرسلوهم  
ليعبدوا ربهم، ﴿٧﴾ إني لكم رسول أمين ﴿٨﴾  
أي: رسول من رب العالمين، أمين على  
ما أرسلني به، لا أكتكم منه شيئاً،  
ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب  
تمام الانقياد له.

﴿٩﴾ وأن لا تعملوا على الله ﴿١٠﴾  
بالاستكبار عن عبادته، والعلو على  
عباد الله، ﴿١١﴾ إني أتاكم بسلطان مبين ﴿١٢﴾  
أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به  
من المعجزات الباهرات، والأدلة  
القاهرات، فكذبوه وهما بقتله، فلجأ  
بالله من شرهم، فقال: ﴿١٣﴾ وإني عدت  
بربي وربكم أن ترجون ﴿١٤﴾ أي: تقتلونني  
أشر القتلات، بالرجم بالحجارة.

﴿١٥﴾ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴿١٦﴾ أي:  
لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو  
مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم  
هذه المرتبة، فاعتزلوني، لا علي  
ولا لي، فاكفوني شركم، فلم تحصل  
منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم  
يزالوا متمردين عاتين على الله، محاربين  
لنبيه موسى عليه السلام، غير ممكنين له  
من قومه بني إسرائيل، ﴿١٧﴾ فدعا ربه أن  
هؤلاء قوم مجرمون ﴿١٨﴾ أي: قد أجزموا  
جرماً، يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا  
دعاء بالخال، التي هي أبلغ من المقال،  
كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿١٩﴾ رب  
إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴿٢٠﴾  
فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً،  
وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه،  
﴿٢١﴾ وأترك البحر رهوا ﴿٢٢﴾ أي: بنحاله  
وذلك أنه لما سري موسى ببني إسرائيل  
كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون،  
فأمر الله موسى أن يضرب البحر،  
فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار  
الماء من بين تلك الطرق كالجبال  
العظيمة، فسلكه موسى وقومه.

فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه  
رهوا، أي: بنحاله، ليسلكه فرعون  
وجنوده ﴿٢٣﴾ إنهم جند مغرقون ﴿٢٤﴾ فلما  
تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم

فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى أن  
يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم،  
وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا،  
وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا  
مستعبدين لهم، ولهذا قال: ﴿٢٥﴾ كم  
تركوا من جنات وعيون ﴿٢٦﴾ وزروع  
ومقام كريم ﴿٢٧﴾ ونعمة كانوا فيها  
فاكهين ﴿٢٨﴾ كذلك وأورثناها ﴿٢٩﴾ أي:  
هذه النعمة المذكورة ﴿٣٠﴾ قوماً آخرين ﴿٣١﴾  
وفي الآية الأخرى: ﴿٣٢﴾ كذلك وأورثناها  
بني إسرائيل ﴿٣٣﴾.

﴿٣٤﴾ فما بكت عليهم السماء  
والأرض ﴿٣٥﴾ أي: لما أتلفهم الله  
وأهلكهم، لم تبك عليهم السماء  
والأرض، أي: لم يحزن عليهم، ولم  
يؤس على فراقهم، بل كل استبشر  
بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء  
والأرض، لأنهم ما خلفوا من آثارهم  
إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم  
اللعة والمقت من العالمين.

﴿٣٦﴾ وما كانوا متظرين ﴿٣٧﴾ أي: مهملين  
عن العقوبة، بل اضطلمتهم في الحال.  
ثم امتن تعالى على بني إسرائيل،  
فقال: ﴿٣٨﴾ ولقد نجينا بني إسرائيل من  
العذاب المهين ﴿٣٩﴾ الذي كانوا فيه ﴿٤٠﴾ من  
فرعون ﴿٤١﴾ إذ يذبح أبناءهم، ويستحيي  
نساءهم.

﴿٤٢﴾ إنه كان عالياً ﴿٤٣﴾ أي: مستكبراً في  
الأرض بغير الحق، ﴿٤٤﴾ من المسرفين ﴿٤٥﴾  
المتجاوزين لحدود الله، المتجربين على  
محارمه.

﴿٤٦﴾ ولقد اخترناهم ﴿٤٧﴾ أي:  
اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿٤٨﴾ على علم ﴿٤٩﴾ منا  
بهم، وباستحقاقهم لذلك الفضل  
﴿٥٠﴾ على العالمين ﴿٥١﴾ أي: عالمي زمانهم ومن  
قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة  
محمد ﷺ، ففضلوا العالمين كلهم،  
وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس،  
وامتن عليهم بما لم يمتن به على  
غيرهم.

﴿٥٢﴾ وآتيناهم ﴿٥٣﴾ أي: بني إسرائيل  
﴿٥٤﴾ من الآيات الباهرة، والمعجزات  
الظاهرة، ﴿٥٥﴾ ما فيه بلاء مبين ﴿٥٦﴾ أي:

(١) في نسخة (ب) ذكر الآيات كاملة.



واضحات، على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه، إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتفتعون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألباهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تزك قلبه، ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل فقال:

﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعالة.

وأخبر أن له غذاباً أليماً، وأن من ورائهم جهنم تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه لا يغني عنهم ما كسبوا من الأموال ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نقعوا.

فلما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية، أنه هدى، فقال: ﴿هذا هدى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه، وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمتهدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا، ﴿والذين كفروا

﴿لعلهم يتذكرون﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

﴿فارتقب﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر، ﴿إنهم مرتقبون﴾ ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

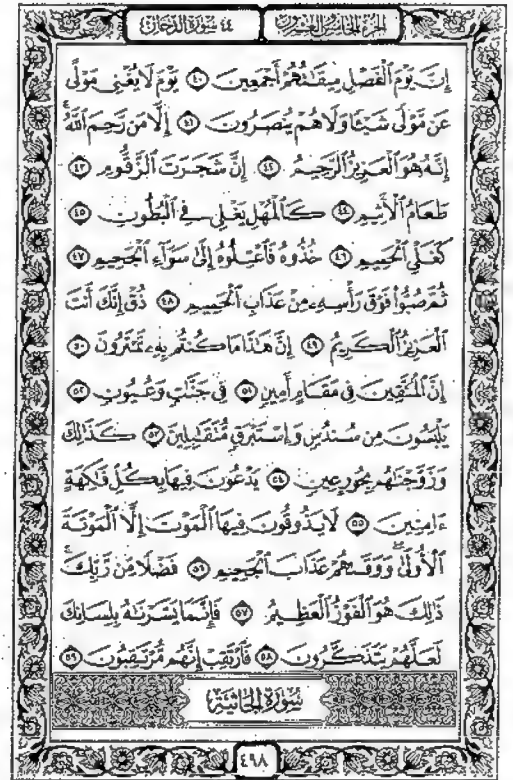
تم تفسير سورة الدخان،

ولله الحمد والمنة

### تفسير سورة الجاثية مكية

﴿١-١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿إن في السماوات والأرض لايات للمؤمنين﴾ وفي خلقكم وما بين من دابة آيات لقوم يوقنون ﴿واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين﴾ من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴿هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم﴾ يخبر تعالى خيراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ ﴿من الله﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء، الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة



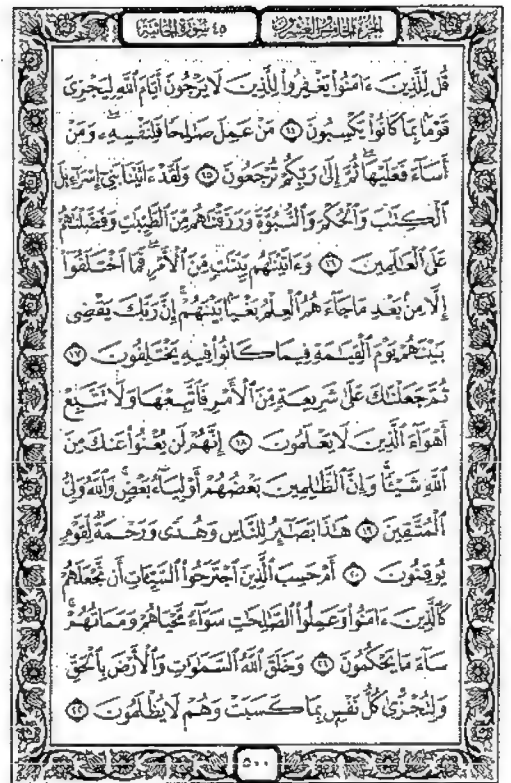
يحار الطرف في تحسهن، وينهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن، ﴿عين﴾ أي: ضحام الأعين حسنها.

﴿يدعون فيها﴾ أي: الجنة ﴿بكل فاكهة﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿آمنين﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرتهم، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ فضلاً من ربك ﴿أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

﴿فإنما يسرناه﴾ أي: القرآن ﴿بلسانك﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فتيسر به لفظه، وتيسر معناه.







الاختلاف، وإنما حملهم على  
الاختلاف البغي من بعضهم على  
بعض، والظلم.

﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة  
فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فيميز المحق  
من المبطل، والذي حمله على  
الاختلاف، الهوى أو غيره.

﴿١٨- ١٩﴾ ثم جعلناك على  
شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء  
الذين لا يعلمون \* إنهم لن يغنوا  
عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم  
أولياء بعض والله ولي المتقين \* أي: ثم  
شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل  
خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا  
الشرعي ﴿فاتبعها﴾ فإن في اتباعها  
السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح،  
﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾  
أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة  
للعلم، ولا ماضية خلفه، وهم كل من  
خالف شريعة الرسول ﷺ هو  
إرادته، فإنه من أهواء الذين  
لا يعلمون.

﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾  
أي: لا يتفَعُونكَ عند الله، فَيُحْصِلُوا  
لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن  
اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن  
توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم  
متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿والله  
ولي المتقين﴾ يخرجهم من الظلمات إلى  
النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿٢٠﴾ ﴿هذا بصائر للناس وهدى  
ورحمة لقوم يوقنون﴾ أي: ﴿هذا﴾  
القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بصائر  
لنَّاسٍ﴾ أي: يحصل به التبصرة في  
جميع الأمور للناس، فيحصل به  
الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

﴿لقوم يوقنون﴾ فيهدون به إلى  
الصراط المستقيم، في أصول الدين  
وفروعه، ويحصل به الخير والسرور،  
والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي  
الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به  
عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم،  
وتقوم به الحاجة على من أصر وعاند.

﴿٢١﴾ ﴿أم حسب الذين اجترحوا  
السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا  
وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم  
سواء ما يحكمون﴾ أي: أم حسب  
المسيؤون، المكثرون من الذنوب،  
المقصرون في حقوق ربهم.

﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا  
الصالحات﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم،  
واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين  
رضاء على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا  
أن يكونوا ﴿سواء﴾ في الدنيا  
والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء  
ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة  
أحكم الحاكمين، وخير العادلين،  
ويناقض العقول السليمة، والفطر  
المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب،  
وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع  
القطعي، أن المؤمنين العاملين  
الصالحات، لهم النصر والفلاح  
والسعادة والثواب، في العاجل  
والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن  
المسيئين لهم الغضب والإهانة،  
والعذاب والشقاء، في الدنيا والآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿وخلق الله السموات  
والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما  
كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي:  
خلق الله السموات والأرض  
بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له،  
ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته،  
وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة،  
هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالأمور؟  
أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿٢٣- ٢٦﴾ ﴿أفرأيت من اتخذ  
إلهه هواه وأضله الله على علم وختم  
على سمعه وقلبه وجعل على بصره  
غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا  
تذكرون﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا  
الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر  
وما لهم بذلك من علم إن هم إلا  
يظنون \* وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات  
ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا  
إن كنتم صادقين \* قل الله يجزيكم ثم  
يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة  
لا ريب فيه ولكن أكثر الناس  
لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿أفرأيت﴾  
الرجل الضال الذي ﴿اتخذ إلهه هواه﴾  
فما هويه سلكه، سواء كان يرضي الله  
أو يسخطه. ﴿وأضله الله على علم﴾  
من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية،  
ولا يزكو عليها. ﴿وختم على سمعه﴾  
فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وقلبه﴾  
فلا يعي الخير، ﴿وجعل على بصره  
غشاوة﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فمن  
يهديه من بعد الله﴾ أي: لا أحد  
يهديه، وقد سد الله عليه أبواب  
الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما  
ظلمه الله، ولكن هو ظلم نفسه،  
وتسبب لنزع رحمة الله عليه ﴿أفلا  
تذكرون﴾ ما يتفَعَمُ فتسلكونه، وما  
يضركم فتجتنبونه.

﴿وقالوا﴾ أي: منكرو البعث ﴿ما  
هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما  
يهلكنا إلا الدهر﴾ أي: إن هي إلا  
عادات، وجزي على رسوم الليل  
والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس،  
ومامات فليس براجع إلى الله،  
ولا مجازيه بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم  
﴿إن هم إلا يظنون﴾ فأنكروا المعاد  
وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل  
دلهم على ذلك ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستيعادات  
خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى:  
﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان  
حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم  
صادقين﴾ وهذا جراءة منهم على الله،

حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بأبائهم، وأنهم لو جاؤوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وتبؤوا له.

﴿٢٧ - ٣٧﴾ ﴿والله مـلـك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون﴾ وتري كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴿وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قومًا مجرمين﴾ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وما أواكم النار وما لكم من ناصرين ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ فله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه ﴿يوم تقوم الساعة﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على

اليم العقاب.

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وتري﴾ أي الرائي لذلك اليوم ﴿كل أمة جاثية﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن.

﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فامة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازي بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومستحبات، ﴿فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي: المفاض والنجاة والربح، والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

﴿وأما الذين كفروا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ وقد دلتم على ما فيه صلاحكم، وغتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو

وفقتم لها، ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرتم بها، فجنيتم أكبر جناية، وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم﴾ منكرين لذلك: ﴿ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾.

فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، وردة قول من جاء به. قال تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: نزل بهم العذاب، الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به وبوقوعه وبمن جاء به. ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ فإن الجزء من جنس العمل، ﴿وما أواكم النار﴾ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذلكم﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿ب﴾ سبب ﴿أنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ مع أنها موجهة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وغرتم الحياة الدنيا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملتكم لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فله الحمد﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رب السماوات ورب الأرض رب العالمين﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعيم الظاهرة والباطنة، ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، ومحبته تعالى وإكرامه،

أنبتوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟

لا شيء من ذلك، بإقرارهم بأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله، فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقل، فقال: ﴿اتنوني بكتاب من قبل هذا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك، ﴿أو أثارة من علم﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك. من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم، ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وكل رسول قال لقومه: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فعلم أن جدال المشركين في شركهم، غير مستندين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وآراء كاسدة، وعقول فاسدة.

بدلك على فسادهما استقرار أحوالهم، وتتبع علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو في الآخرة؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به بمثل ذرة، ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشركهم. ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾ يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

﴿٧-١٠﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما

سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهروب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى أجل مسمى.

فلما أخبر بذلك - وهو أصدق القائلين وأقام الدليل، وأثار السبيل أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوا عن دعوة الرسل، فقال: ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر.

﴿٤-٦﴾ ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرؤي ماذا خلقوا من السماوات اتنوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، أوثنائاً وأنداداً، لا تملك نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم - مبيناً عجز أوثنائهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة - ﴿أرؤي ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات﴾ هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبلاً؟ هل أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل

والكبرياء فيها عظمته وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين، محبة الله، والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وهو العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الأحقاف، والله الحمد  
والنعمة والفضل

### تفسير سورة الأحقاف مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن﴾ وكما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ خلق السماوات والأرض بالحق ﴿فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنتهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسوله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سيتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والبدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار،

يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين ﴿١٠٠﴾ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١٠١﴾ أي: وإذا تتلى على المكذبين ﴿آياتنا بينات﴾ بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحققها، لم تفدهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافتراءهم ﴿للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أي: ظاهر لا شك فيه، وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعف العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ وبين السحر من المنافة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعاً على الأفلاك، وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهجة؟

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله.

﴿قل﴾ لهم: ﴿إن افتريته﴾ فإله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟ فهل ﴿تملكون لي من الله شيئاً﴾ إن أرادني الله بضرب، أو أرادني برحمة ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويثيبكم جزيل الأجر.

﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي: لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلاي: شيء تنكر رسالتي؟ ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست إلا بالشيء من عندي، ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبتكم دعوتي، فهو حظكم ونصيبي في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ أي: أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموقنون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به واعتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء، واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿١١١ - ١٢﴾ ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشري للمحسنين ﴿أي: قال الكفار بالحق معاندين له، ورادين لدعوته: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به، وسابق إليه، وهذا من البهجة في مكان، فأني دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أركى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزّون به أنفسهم

أفريت من اتخذ الله هونه وأحسبه الله على عباده وحمل على بصيرة من يهتدون بعد الله فلا تذكرون ﴿١٠٠﴾ وقالوا ما نحن إلا بنياننا الذي نؤمن ونكفر وما نعلم كتماناً إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴿١٠١﴾ ولما نزل عليهم آياتنا يتكلمون ما كان جنتهم إلا أن قالوا اتفوا عابثاً إنكم صرتمون ﴿١٠٢﴾ قل الله يحكم فيكم فترى شكاؤهم جحشاً إلى نوره الآية لا يثبتون ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿١٠٣﴾ وفي ذلك آية للذين آمنوا والآيات للذين كفروا ﴿١٠٤﴾ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴿١٠٥﴾ ولما نزلهم آياتنا يتكلمون ما كان جنتهم إلا أن قالوا اتفوا عابثاً إنكم صرتمون ﴿١٠٦﴾ قل الله يحكم فيكم فترى شكاؤهم جحشاً إلى نوره الآية لا يثبتون ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿١٠٧﴾ وفي ذلك آية للذين آمنوا والآيات للذين كفروا ﴿١٠٨﴾ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴿١٠٩﴾ ولما نزلهم آياتنا يتكلمون ما كان جنتهم إلا أن قالوا اتفوا عابثاً إنكم صرتمون ﴿١١٠﴾ قل الله يحكم فيكم فترى شكاؤهم جحشاً إلى نوره الآية لا يثبتون ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿١١١﴾

بمترلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصاً، أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إماماً ورحمة﴾ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وهذا القرآن﴾ كتاب مصدق ﴿للكتب السابقة﴾، شهد بصدقها، وصدقها، بموافقتها لها، وجعله الله ﴿لساناً عربياً﴾ ليسهل تناوله، ويتيسر تذكره، ﴿لينذر الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الويل، ويشر المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالشواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها، والأعمال التي يشر بها.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴿أي: إن الذين أقرؤا برهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته



غيرها: ﴿وتتجاوز عن سيئاتهم﴾ في جملة ﴿أصحاب الجنة﴾ فحصل لهم الخير والمحجوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين \* ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون \* لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿والذي قال لوالديه﴾ إذ دعواه<sup>(١)</sup> إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعوا إلى ما فيه سعاده الأبدية، وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿أف لكما﴾ أي: تبأ لكما ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أتعدانني أن أخرج﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿وهما﴾ أي: والداه ﴿يستغيثان الله﴾ عليه، ويقولان له: ﴿ويلك آمن﴾ أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريك، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿إن وعد الله حق﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد

وما قاسته من المكارة وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثلاثون شهراً﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي ستان - إذا سقطت منها الستان، بقي ستة أشهر، مدة للحمل، ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿وبلغ أربعين سنة﴾ قال رب أوزعني ﴿أي: ألهمني ووفقني﴾ أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ﴿أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته مئته، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الشناء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصاً بنعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً عما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويشيب عليه. ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح. الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وأصلح لي﴾.

﴿إني تبت إليك﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وإني من المسلمين﴾.

﴿أولئك﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الذين تنقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً



وداموا على ذلك، و ﴿استقاموا﴾ مدة حياتهم ﴿فلا خوف عليهم﴾ من كل شر أمامهم، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلّفوا وراءهم، ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ أي: أهلها الملائمون لها، الذين لا يبغون عنها حولا، ولا يريدون بها بدلا، ﴿خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ أولئك الذين تنقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴿هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والتفقه، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها















يجب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعاصيهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿والله يعلم متقلبكم﴾ أي: تصرفاتكم وحرركاتكم، وذهابكم ومجيئكم، ﴿ومشواكم﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٢٠-٢٣﴾ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأول لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم \* فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم \* أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ من كراحتهم لذلك، وشدته عليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

ثم نذبه تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فأول لهم طاعة

وقول معروف﴾ أي: فأول لهم أن يمثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، ويفرخوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم الأمر جدي، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لكان خيراً لهم﴾ من حالهم الأول، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتت الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه<sup>(١)</sup> عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿أولئك الذين﴾ أفسدوا في

ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة وإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأول لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم \* فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم \* أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا أنزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لعنهم الله﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله: ﴿فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلم يأتوا، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيانات.

﴿٢٤﴾ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلتهم على كل خير، وحذرتهم من كل شر، ولما قلوبهم من الإيمان، وأفشتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسدها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربه، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويل.

﴿أم على قلوب أقفالها﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت،

(١) في ب: وتوعد نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل ثم شطبها الشيخ - رحمه الله - وعذّلها إلى: وطن نفسه.





فلا يدخلها خير أبدا؟ هذا هو الواقع.

﴿٢٥-٢٨﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا**

على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأملى لهم \* ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم \* فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم \* ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: **﴿يَعْدَهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾**

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و **﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ﴾** من المبارزين العداوة لله ولرسوله **﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾** أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

**﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾** فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

**﴿فَكَيْفَ﴾** ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة **﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ**

الملائكة﴾ الموكلون بقبض أرواحهم، يضربون وجوههم وأدبارهم **﴿بِالْمَقَامِ الشَّدِيدِ؟﴾**

**﴿ذَلِكَ﴾** العذاب الذي استحقوه ونالوه. **﴿بِ﴾** سبب **﴿أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾** من كل كفر وفسوق وعصيان.

**﴿وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ﴾** فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدينهم منه، **﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾** أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، وينضاعف أجره وثوابه.

﴿٢٩-٣١﴾ **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي**

قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم \* ولو شاء لأرسلناهم فلعرقتهم بسيمهم \* ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾ ولنبلونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ يقول تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن رده على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من البغض، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه تعالى قال: **﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمُ فُلُوعَرَّتْهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾** أي: بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم.

**﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾** أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بقلبات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر. **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾** فيجازيكم عليها.

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله،

فقال: **﴿وَلَنَبْلُونَكُمْ﴾** أي: نختبر إيمانكم وصبركم، **﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾** فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿٣٢﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرِّسَالَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يُضْرُوا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾** هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه.

**﴿وَشَاقُوا الرِّسَالَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾** أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغبي وضلال، فإنهم **﴿لَن يُضْرُوا اللَّهُ شَيْئًا﴾** فلا ينقص به ملكه.

**﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾** أي: مساعيتهم التي بذلوا في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿٣٣﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرِّسَالَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على التوجه بالمأمور به بالإخلاص وتتمام المتابعة.

وقوله: **﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾** يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من من بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضحل معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها، كلها داخلة في هذا، ومنتهى عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع



ثم قال: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿الغني وأنتم الفقراء﴾ محتاجون إليه في جميع أوقاتكم، لجميع أموركم.

﴿وإن تتولوا﴾ عن الإيمان بالله، وامتنال ما يأمركم به ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ في التولي، بل يطيعون الله ورسوله، ويحيون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

تم تفسير سورة القتال،  
والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الفتح وهي مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾  
إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً \* ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر  
ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً \* وينصرك الله نصراً عزيزاً  
هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قریش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود

في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك<sup>(١)</sup> الفتح، وزتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ﴿ويتم نعمته عليك﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى.

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي: قوياً لا يتضعض فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلبهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال: ﴿٤-٦﴾ ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السماوات والأرض وكان الله عليهم حكيماً﴾ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً \* ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً.

يخبر تعالى عن مثبته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الأبواب، وتضعف النفوس، فمن

نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿والله جنود السماوات والأرض﴾ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر. ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات. ﴿وكان ذلك﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريم ما يسوؤهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وغضب الله عليهم﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿ولعنهم﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

﴿٧﴾ ﴿والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ كرر









وهو الذي كذب آياتهم وعكروا آياتكم عندهم بطن مكة  
من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله تاعلمون بصيرا  
١٥ هـ الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام  
والهدى معكم ما أن يبلغ حلاله ولا رجال مؤمنون ورسالة  
مؤمنين أتعلمون أن شكوهم قصيبكم منهم معا  
يعبر على نيل الله في رحمته من شكه لولا العذبة  
الذين كفروا ومنه عذاب اليم ٢٥ إذ جعل الذين  
كفروا في قلوبهم الخبيثة حجة الجاهلية قالوا الله  
سكتته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة  
الشكوى وكانوا أخويا وأهلاما وكان الله ينجي  
منه عيسا ٣٥ لقد صدق الله رسوله آل الله بيان  
لتنجس المسجد الحرام إن شاء الله العيون عطف  
رؤوسكم ومقصور لا تخافون فعمل ما تعلموا فعمل  
من دون ذلك فها قريب ٤٥ هو الذي أرسل رسوله بالهدى  
وربين الحق ليظهره على الدين كله ولكن بالله شهيد ٥

من كثير من المعاصي، ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللائمين.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي  
«لا إله إلا الله» وحقوقها، ألزمهم  
القيام بها، فالتزموها وقاموا بها،  
﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَوُكِّلُوا﴾  
كانوا ﴿أَهْلُهَا﴾ الذين استأهلوها لما  
يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من  
الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ  
شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ  
رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ  
الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ  
رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا  
لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً  
قَرِيباً﴾ \* هو الذي أرسل رسوله بالهدى  
ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى  
بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ  
صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ وذلك  
أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا  
أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة  
ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم  
الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير  
دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام

منهم، حتى إنهم قالوا ذلك  
لرسول الله ﷺ: ألم نخبرنا أنا سنأتي  
البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه  
العام؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم  
ستأتونه وتطوفون به»، قال الله هنا:  
﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾  
أي: لا بد من وقوعها وصدقها،  
ولا يقدح في ذلك تأخر تأويلها،  
﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله  
آمنين مخلقين رؤوسكم ومقصرين﴾  
أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا  
البيت الحرام، وأدائكم للنسك،  
وتكميله بالخلق والتقصير، وعدم  
الخوف، ﴿فعلم﴾ من المصلحة والمنافع  
﴿ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك  
الدخول بثلث الصفه﴾ ﴿فتحاً قريباً﴾

ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومتفعتها، وهكذا سائر أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

﴿وَدِينُ الْحَقِّ﴾ أي: الدين  
الموصوف بالحق، وهو العدل  
والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مُزَكٍّ<sup>١</sup>  
للقلوب، مطهر للنفوس، مُرَبٍّ<sup>٢</sup>  
للأخلاق، مُعَالٍ<sup>٣</sup> للأقدار.

﴿ليظهره﴾ بما بعثه الله به ﴿على الدين كله﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان.

﴿٢٩﴾ ﴿محمد رسول الله والذين  
معه أشداء على الكفار رحاء بينهم  
تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله  
ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر  
السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم  
في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره  
فاستغلف فاستوى على سوقه يعجب  
الزرع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين  
آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة  
وأجراً عظيماً﴾ يخبر تعالى عن  
رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين

والأنصار، أنهم بأكمل الصفات،  
وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أشداء على  
الكفار﴾ أي: جادون ومجتهدون في  
عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية  
جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة  
والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم،  
وانكسروا، وقهرهم المسلمون،  
﴿رحاء بينهم﴾ أي: متحابون  
متراحون متعاطفون، كالجسد الواحد،  
يجب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه،  
هذه معاملتهم مع الخلق، وأما  
معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿تراهم  
ركعاً سجداً﴾ أي: وصفهم كثرة  
الصلاة، التي أجل أركانها الركوع  
والسجود.

﴿يَسْتَعِينُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَفَضَّلَا﴾  
 من الله ورضواناً أي: هذا  
 مقصودهم بلوغ رضا ربه، والوصول  
 إلى ثوابه.

﴿سَيَمَاهُمْ فِي وجوههم من أثر السجود﴾ أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت [بالجلال] ظواهرهم.

﴿ذلك﴾ المذكور ﴿مثلهم في  
التوراة﴾ أي: هذا وصفهم الذي  
وصفهم الله به، مذكور بالتوراة  
هكذا.

وأما مثلهم في الإرجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كزراع أخرج شطأه فآزره﴾ أي: أخرج فراخه، فآزرته فراخه في الشباب والاستواء.

﴿فاستغلظ﴾ ذلك الزرع أي : قوي  
وعلظ ﴿فاستوى﴾ ﴿على سوقه﴾ جمع  
ساق، ﴿يعجب الزراع﴾ من كماله  
واستوائه، وحسنه واعتداله، كذلك  
الصحابة رضي الله عنه، هم كالزرع  
في نفعهم للخلق واحتياج الناس  
إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة  
قوة عروق الزرع وسوقه، وكون  
الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق  
الكبير السابق ووازره وعاونه على ما هو  
عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه،

ولم نجىء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا»، فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغيم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغيره الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهموها»، ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكروا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله ما زال يحيش لهم بالري حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عُمَاراً، وأدعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجلاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق

عشرة مئة، قال: يرحمه الله وهم، وهو جدثني أنهم كانوا خمس عشرة مئة، قلت: وقد صبح عن جابر القولان، وصرح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربع مئة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربع مئة، وغلظ غلظاً بيئاً من قال: كانوا سبع مئة، وعذره<sup>(١)</sup> أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربع مئة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربع مئة.

### فصل

فلما كانوا بذى الحليفة، قلد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عينا له بين يديه من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عسفان، أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جوعاً، وهم مقاتلونك وصادقوك عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانواهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا متورين محزونين، وإن نجوا تكن عتفاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين،

كالزعر الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ، ولهذا قال: «ليغيظ بهم الكفار» حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك التزال، ومعامع القتال. «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا» فالصحابه رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة. ولنسق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدى النبوي»، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكلم على معانيها وأسرارها، قال - رحمه الله تعالى -:

### فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقاتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمس مئة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربع مئة، وفيهما، عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاث مئة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مئة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع

(١) في ب: وعذرهم.



كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخري يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غدر، أولست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه. وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضع، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحذون إليه النظر، تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي: قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحذون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشدي فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: آته.

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت فقام مكرز بن

عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجىء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم، فإن شاؤوا أماددهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره»، قال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعت يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشدي، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: آته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ: نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، أرايت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً من الناس، خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما

عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عماراً، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ حاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتمن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بثسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعيتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجند بن قيس، وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه

حفص، وقال: دعوني آتة، فقالوا: آتة، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتهموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته علينا.

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه، أن ترده، فقال النبي ﷺ: «إننا لم نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً، فقال

النبي ﷺ: «فأجزه لي»، فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأثيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألسنتي نبي الله؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتكم أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

قال: فأثيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلّي الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالا.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بذلك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر يده، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ﴾ حتى بلغ ﴿بَعْضُهُنَّ الْكَوَافِرُ﴾ فطلق عمر

محمد رسول الله وآل الذين معه وأشداه على الكفار رحماء بينهم  
ترجمهم رجلاً سجداً يتبعون فضلاً عن الله ورسولاً يسماهم  
في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهن في التوراة وما كنهم  
في الإنجيل كزجاج أخرج شطه ففازره فاستغلق فاستوى  
على سويقه ينجب الزرع ليغيب بهما الكفار وعد الله الذين  
آمنوا وأعمالوا الصالحات وبهتة مغفرة وأجر عظيم

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَقْرَبُوا  
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الصَّوْغَةَ  
فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ  
فَإَسْمَعُوا أَسْمَعُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
لَا تَتَّبِعُوا الْوَعْدَ بَيْنَكُمْ وَأَنذَرْتُمْ بِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخِشْيَةِ  
فَأَسْمَعُوا أَسْمَعُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
لَا تَتَّبِعُوا الْوَعْدَ بَيْنَكُمْ وَأَنذَرْتُمْ بِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخِشْيَةِ  
فَأَسْمَعُوا أَسْمَعُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝

٥١٥

يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة.

وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة.

[وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥. وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين. بقلتم الفقير إلى ربه سليمان بن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات] (١).

المجلد الثامن من تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعد.

العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب<sup>(٤)</sup>، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحّض وتمحّض للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿٤ - ٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴿نزلت هذه الآيات الكريمة في أناس من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد [أي: أخرج إلينا]، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب.

فأدب العبد، عنوان عقله، وأن الله يريد به الخير، ولهذا قال ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالأدب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثالات.

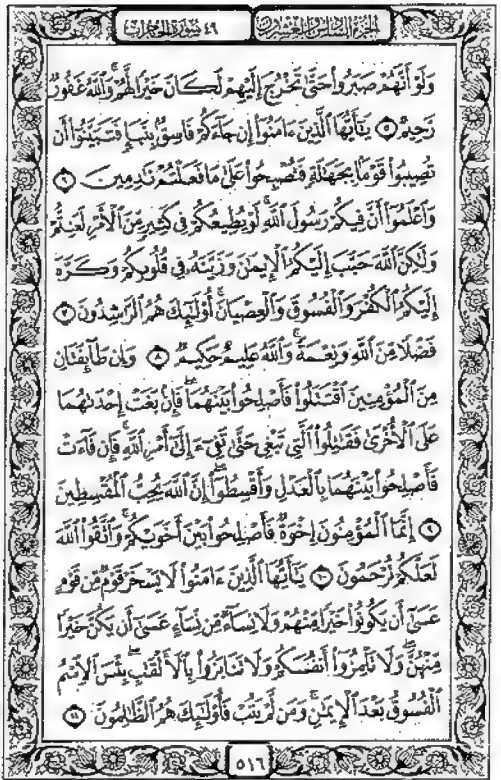
وفلأجله، وبفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدى، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبان سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنًا ما كان<sup>(١)</sup>.

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تحشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات<sup>(٢)</sup>.

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال<sup>(٣)</sup>.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق الصوت، ولا يجهر له بالقول، بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً، وخشية أن يحبط عمل



### تفسير سورة الحجرات وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلَتَقُومُوا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، و[أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمرؤا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد

(١) في ب: من كان.

(٢) في ب: والجائزات.

(٣) في ب: عن ضده.

(٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فيها ونعمت، وإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله<sup>(١)</sup> أي: ترجع إلى ما حذر الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال، [وقوله] «فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل» هذا أمر بالصلح، وبالعديل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقربة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، «إن الله يحب المقسطين» أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

«إنما المؤمنون إخوة» هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ «أمرأ بأحقق الأخوة الإيمانية: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن،

وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإجابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب<sup>(٢)</sup>، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له<sup>(٣)</sup>.

«أولئك» أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان «هم الراشدون» أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصراط المستقيم. وضدهم الغاؤون، الذين حبيب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما «زاغوا أزاغ الله قلوبهم» ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: «فضلاً من الله ونعمة» أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم.

«والله عليم حكيم» أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوقفه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

«٩ - ١٠» «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين» إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاثل<sup>(٣)</sup> بعضهم بعضاً، وأنه

﴿٦٦﴾ «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يشتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كذب ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

﴿٧ - ٨﴾ «وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون» فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم» أي: ليكن لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته،

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار.

(٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

(٣) في ب: ويقتل.



لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره<sup>(١)</sup>.  
وقال ﷺ<sup>(٢)</sup>: «المؤمن للمؤمنين كالبنیان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لفرق القلوب وتباغضها [وتدابرها]، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شأنهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة [فقال: ﴿لعلكم ترحمون﴾]، وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيتهم خاصة، دون أموالهم.

﴿١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُن خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، أن ﴿لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، كما هو<sup>(٣)</sup> الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتليء من مساوئ الأخلاق، مُتَحَلٍّ بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يعيب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهى عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ الآية، وسمى الأخ المؤمن<sup>(٤)</sup> نفساً لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه<sup>(٥)</sup>، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي: بشما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فهذا [هو] الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستخلاله والاستغفار، والمدح له مقابلة [على] ذمه.

﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ فالتاس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا تَمَّ قسم ثالث غيرهما.

﴿١٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ نهي تعالى عن كثير من الظن السوء<sup>(٦)</sup> بالمؤمنين، ف﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا<sup>(٧)</sup> المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله<sup>(٨)</sup>، التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

(١) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تناحشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه) متفق عليه.

(٢) في ب: وفيهما عن النبي ﷺ.

(٣) في ب: وهو الغالب.

(٤) في ب: المسلم.

(٥) في ب: بلقب يكره أن يقال فيه.

(٦) في ب: النسيء.

(٧) في ب: ودعوا.

(٨) في ب: عن زلاته.

﴿ولا يفتب بعضكم بعضاً﴾  
والغيبه كما قال النبي ﷺ «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه».

ثم ذكر مثلاً منفراً عن الغيبه، فقال: ﴿أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ شبه أكل لحمه ميتاً المكروه للنفوس [غايه الكراهه] باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً، فاقد الروح، فكذلك [فلتكرهوا] غيبته وأكل لحمه حياً.

﴿واتقوا الله إن الله ثواب رحيم﴾  
والتواب الذي يأذن بتوبه عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبه، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبه، وأن الغيبه من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾  
إن الله عليم خبير يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوازي، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحقوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أشرفهم نسباً، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلا بما يستحق.

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك.

﴿١٤-١٨﴾ ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾  
﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾  
﴿إن الله غفور رحيم﴾  
﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾  
﴿قل أتعلمون الله وما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم﴾  
﴿يؤمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾  
﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾  
﴿يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا أي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهراً وباطناً، كاملاً.

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصرنا على ذلك.

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه ﴿لما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ وإنما أمتتم خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم، وفي قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم، من الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ بفعل خير، أو ترك شر ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي: لا ينقصكم منها مثقال

ذرة، بل يوفيكُم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: غفور لمن تاب إليه وأتاب، رحيم به، حيث قبل توبته.

﴿إنما المؤمنون﴾ أي: على الحقيقة ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم التريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدى، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإثباته وثيقه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾  
﴿والله بكل شيء عليم﴾ وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جلتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن

### تفسير سورة ق وهي مكية

وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأى ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿إِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقاموا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم، وهذا استدلال بكمال علمه، وسعته التي لا يحيط بها إلا هو، على قدرته على إحياء الموتى.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي: ﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي: مختلط مشتبه، لا يشتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة<sup>(٦)</sup> ولا قرار، [فتري أموره متناقضة متفككة] كما أن من اتبع الحق

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴿إِذَا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴿يَقْسَمُ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَي: وَسِيعِ الْمَعَانِي عَظِيمِهَا، كَثِيرِ الْوُجُوهِ كَثِيرِ الْبَرَكَاتِ، جَزِيلِ الْمِبْرَاتِ. وَالْمَجْدُ: سَعَةُ الْأَوْصَافِ وَعَظَمَتُهَا، وَأَحَقُّ كَلَامٍ يَوْصَفُ بِهِ، هَذَا الْقُرْآنُ، الَّذِي قَدْ احْتَوَى عَلَى عُلُومِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، الَّذِي حَوَى مِنَ الْفَصَاحَةِ أَكْمَلَهَا، وَمِنِ الْأَلْفَاظِ أَجْزَلَهَا، وَمِنِ الْمَعَانِي أَعْمَهَا وَأَحْسَنَهَا، وَهَذَا مُوجِبٌ لِكَمَالِ اتِّبَاعِهِ وَ[سُرْعَةِ] الْانْقِيَادِ لَهُ، وَشُكْرِ اللَّهِ عَلَى الْمُنَّةِ بِهِ.

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجَبُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.

فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم<sup>(٥)</sup>.

﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: إما صادقون في [استغرابهم و] تعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم،

يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنّة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له [وتبرعوا] بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تحمّل بما لا يحمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به<sup>(١)</sup>، فإن المنّة لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمن<sup>(٢)</sup> عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم<sup>(٣)</sup> من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كَمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جئ الليل أو واره النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحيات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مبین﴾.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيك إياها، ويميزكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

ثم تفسير سورة الحجرات، بعون الله ومنه وجوده وكرمه، فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه، ومن الجود أفضله وأعمه<sup>(٤)</sup>.

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله.

(٢) في ب: هو المان.

(٣) في ب: أفضل.

(٤) في ب: بعد قوله وكرمه: والحمد لله.

(٥) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقلوبهم وعقولهم.

(٦) في ب: وجه.

أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْيَيْنَاهُ بِلَدَّةٍ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

ولما ذكرهم هذه الآيات السماوية والأرضية، خوَّفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿١٢ - ١٥﴾ ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ \* وعاد وفرعون وإخوان لوط \* وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد \* أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد \* أي: كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام وأنبياءهم العظام، كـ «نوح» كذبه قومه [وثمود كذبوا صالحاً] <sup>(١)</sup>، وعاد كذبوا «هوداً»، وإخوان لوط كذبوا «لوطاً»، وأصحاب الأيكة كذبوا «شعياً»، وقوم تبع، وتبع كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام <sup>(٢)</sup> فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول، وأي: تُبِعَ من التبابعة، لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند العرب لكونهم من العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل، الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً عنهم، ولا

الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن التخييل الباسقات أي: الطوال، التي يطول <sup>(٣)</sup> نفعها وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواسيهم وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض، والتي تحتها من حب الحصيد، أي: من الزرع المحصود، من بُرٍّ وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿تبصرة﴾ يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿وذكرى﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل ﴿لكل عبد منيب﴾ إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذب أو المعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة، دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلقة <sup>(٤)</sup>، دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلقة وبديع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً

وصديق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قيله.

﴿١١ - ٦﴾ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ \* والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج \* تبصرة وذكرى لكل عبد منيب \* ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد \* والتخل باسقات لها طلع نضيد \* رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الْخُرُوجُ \* لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته <sup>(١)</sup> الأفقية، كي يعتبروا، ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحه، لا ترى فيها عيباً، ولا فروجاً، ولا خللاً، ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿و﴾ إلى ﴿الْأَرْضِ كَيْفَ مَدَدْنَاهَا﴾ ووسعناها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار <sup>(٢)</sup>، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال، لتستقر من الزلزل والتموج، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقر عين رامقها، لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم ومنافعهم، وخص من تلك المنافع بالذكر، الجنات المشتملة على

(١) كذا في ب، وفي أ: آيات الله.

(٢) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلقة.

(٥) زيادة من هامش ب.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق يقال له تبع.



رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.

ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول<sup>(١)</sup> - على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما<sup>(٢)</sup> أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرمم، فقال: ﴿أفعمينا﴾ أي: أفعمجرتنا وضعفت قدرتنا بالخلق الأول؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونغي عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، وإنما هم في ليس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل لليس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

﴿١٦ - ١٨﴾ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد \* إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد \* ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد \* يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق<sup>(٣)</sup> جنس الإنسان، ذكورههم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره، ويوسوس في صدره<sup>(٤)</sup>، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق<sup>(٥)</sup> المكتنف لثغة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه<sup>(٦)</sup> في جميع

أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عن اليمين﴾ يكتب الحسنات، ﴿و﴾ الآخر ﴿عن الشمال﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قعيد﴾ بذلك متبهيء لعمله الذي أعد له، ملازم له<sup>(٧)</sup>، ما يلفظ من قول خير أو شر إلا لديه رقيب عتيد أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين \* كراماً كاتبين \* يعلمون ما تفعلون﴾.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد \* ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد \* وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد \* لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي: ﴿وجاءت﴾ هذا الغافل المكذب بنآيات الله ﴿سكرة الموت بالحق﴾ الذي لا مرد له ولا مناص، ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي: تتأخر وتنكص<sup>(٨)</sup> عنه، ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ﴿وجاءت كل نفس معها سائق﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا

يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿وشهيد﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ونجاراتهم لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً أي: لقد كنت مكذباً بهذا، تاركاً للعمل له فالآن ﴿كشفنا عنك غطاءك﴾ الذي غطى قلبك، فكشرك تومك، واستمر<sup>(٩)</sup> إعراضك، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للعبد فإنه في الدنيا في غفلة<sup>(١٠)</sup> عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويحول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿٢٣ - ٢٩﴾ وقال قرينه هذا ما لدي عتيد \* ألقيا في جهنم كل كفار عنيد \* مناع للخير معتد مريب \* الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد \* قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد \* قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد \* ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد \* يقول تعالى: ﴿وقال قرينه﴾ أي: قرين هذا المكذب

(١) في ب: النشأة الأولى.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وأنه كما أنه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق.

(٤) في ب: وتوسوس به نفسه.

(٥) في ب: العظم.

(٦) في ب: إليه.

(٧) في ب: لذلك.

(٨) كذا في ب، وفي أ: تحيد.

(٩) كذا في ب، وفي أ: ودام.

(١٠) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

تلوموني ولوموا أنفسكم... الآية (٤).

قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيََّ أَيُّ: لَا فائدة في اختصاصكم﴾ (٥) عندي، ﴿و﴾ الحال أي: ﴿قد قدمت إليكم بالوعيد﴾ أي: جاء تكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حججتكم، وقدمتم علي بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿ما يبدل القول لدي﴾ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قилаً، ولا أصدق حديثاً.

﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٣٥-٣٥﴾ ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ \* وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد \* هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ \* من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود \* لهم ما يشاؤون فيها ولدنيا مزيد \* يقول تعالى مخوفاً لعباده: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت﴾ وذلك من كثرة ما ألقى فيها، ﴿وتقول هل من مزيد﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضباً لربها، وغضباً على الكافرين.

وقد وعدنا الله ملاها، كما قال تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه،

المعرض، من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه، من حفظه وحفظ عمله، فيجازي بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عتيد﴾ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكشور من المعاصي، المجترى على المحارم والمأثم.

﴿منع للخير﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده (١)، الذي أعظمه الإيمان بالله [وملائكته] (٢) وكتبه ورسله منع، لنفع ماله وبدنه، ﴿معتد﴾ على عباد الله، وعلى حدوده (٣)، ﴿مريب﴾ أي: شاك في وعد الله ووعديه، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب والشح، واتخاذ الآلية من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿فألقياها﴾ أيها الملكان القرينان ﴿في العذاب الشديد﴾ الذي هو معظما وأشدّها وأشنعها.

﴿قال قرينه﴾ الشيطان، متبرئاً منه، حاملاً عليه إثمهم: ﴿ربنا ما أطغيته﴾ لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا

(١) في ب: قِيلَ.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في أ زيادة هنا هي (أثم) أي كثير الإثم) ويبدو أن الشيخ سبق قلمه لآيات سورة القلم. وقد شطبت الزيادة من ب.

(٤) في ب وقف عند قوله: (فأخلفتكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: خصامكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يزيد.

(٧) في ب: أثم.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا أَكْثَرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَحْتَسِبُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ أَنَّهُ مُحَدَّثُونَ يَا كُلُّ لَحْمٍ أَحِيهِ مَيْتًا فَكُفُّوا عَنْهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ رَاغِبِينَ أَفَعْلَمْتُمْ كَيْفَ ذَكَرُوا نَبِيَّ وَحَدَّثَكُمْ شُعْرًا وَقِيلَ لَهُمْ لَعَنُوا إِنْ أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ وَعَدُ اللَّهُ أَنَّكُمْ مَكْرُمُونَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٦﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَسْأَلْكُمْ فِي الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ قُلْ لِمَ تُظَاهَرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْعَنُكُمُ اللَّهُ إِنَّكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ شَعْرًا لَمْ يَرَوُا يُحْجِدُوا بِأُمُورِهِمْ فَيَقُولُوا هِيَ نَفْسُنَا وَنَحْنُ كَذِبُونَ ﴿٨﴾ قُلْ أَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنْ تُؤْمِنُوا فَلَا يَكْفُرْ بَالِكُمْ شَيْءٌ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩﴾ يَتُوبُ عَلَيْكَ أَنَّ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُونُوا عَلَئِنَّ أَسْلَمْتُمْ كَيْفَ يَعْلَمُ إِنَّ اللَّهَ يَكْتُبُكُمْ أَنْ هَذَا نَكْرٌ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بَالْعَمَلُونَ ﴿١١﴾

فينزوي بعضها على بعض، وتقول قط قط، قد اكتفيت وامتلات، ﴿وأزلفت الجنة﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والخبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له، ويقال لهم على وجه التهنية: ﴿هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ﴾ أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، هي التي وعد الله كل أبواب أي: رجاء إلى الله في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه وخوفه ورجائه.

﴿حفيظ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل (٧) الوجوه، حفيظ لحدوده، ﴿من خشى الرحمن﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على



أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجله وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتمتع بقربه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦-٣٧﴾ «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص» \* إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد يقول تعالى - غموا للمشركين المكذبين للرسول -: «وكم أهلكنا قبلهم من قرن» أي: أمما كثيرة هم أشد من هؤلاء بطشاً أي: قوة وأثاراً في الأرض.

ولهذا قال: «فنقبوا في البلاد» أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرقيقة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، فـ «هل من محيص» أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم، «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب» أي: قلب عظيم حي ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع فارتفع<sup>(٢)</sup>، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعاً يسترشد به، وقلبه «شهيد» أي: حاضر، فهذا له أيضاً ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى.

وأما المعرض، الذي لم يلق<sup>(٣)</sup> سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيد شيئاً، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.

﴿٣٨-٤٠﴾ «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب» \* فاصبر على ما يقولون وسيح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب \* ومن الليل فسيحها وأدبار السجود» وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشيتته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات «السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام» أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدها - على كبرها وعظمتها - قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى، «فاصبر على ما يقولون» من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسيبته، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالى مُسَلِّ للنفوس، مؤنس لها، مهوّن للصبر.

﴿٤١-٤٥﴾ «واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب» \* يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج» \* إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير \* يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير \* نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» أي: «واستمع» بقلبك نداء المنادي وهو إسماعيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور «من مكان قريب» من الخلق<sup>(٤)</sup> «يوم يسمعون الصيحة» أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة «بالحق» الذي لا شك فيه ولا امتراء.

«ذلك يوم الخروج» من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء، ولهذا قال: «إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير» \* يوم تشقق الأرض

خشية الله في حال غيبه أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر<sup>(١)</sup>.

«وجاء بقلب منيب» أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب نواحيه إلى مرضاه، ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: «ادخلوها بسلام» أي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص، «ذلك يوم الخلود» الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات، «لهم ما يشاؤون فيها» أي: كل ما تعلق به مشيئتهم فهو حاصل فيها ولهم فوق ذلك «مزيد»

(١) من قوله: ويحتمل إلى: هذا هو الظاهر ليس في ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وارتفع.

(٣) في ب: لم يصغ.

(٤) في ب: من الأرض.

عنهم ﴿١﴾ أي: عن الأموات (١).

﴿سراعاً﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة، ﴿ذلك حشر علينا يسيراً﴾ أي: هيناً (٢) على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة، ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتاؤنا بك، وتيسيرنا لأمورك، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرفق من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والثأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ ولهذا قال: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر، من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجاوبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾.

آخر تفسير سورة ق، والحمد لله أولاً  
وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الذاريات  
مكية

﴿١٦-١٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الْكَرِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا \* فَالْحَامِلَاتِ  
وَقَرَأَ \* فَالْجَارِيَاتِ يَسْرًا \* فَالْمُقْسِمَاتِ \* وَإِنَّ  
الَّذِينَ لَوَاقِعَ \* هَذَا قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ  
الصَّادِقِ فِي قِيلِهِ، بِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ  
الْعَظِيمَةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ  
وَالْمَنَافِعِ مَا جَعَلَ عَلَى أَنْ وَعَدَهُ صَدَقَ،  
وَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْجَزَاءِ  
وَالْمَحَاسِبَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ، لَوَاقِعٌ لَا  
مَحَالَةَ، مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ، فَإِذَا أَخْبَرَهُ  
الصَّادِقُ الْعَظِيمُ وَأَقْسَمَ عَلَيْهِ، وَأَقَامَ  
الْأَدْلَةَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكْذِبْ بِهِ

المكذبون، ويعرض عن العمل له  
العاملون.

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي  
تذروا في هبوبها ﴿ذُرُوءًا﴾ بليتها،  
ولطفها، وقوتها، وإزعاجها،  
﴿والحاملات وقرأ﴾ السحاب، تحمل  
الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد  
والعباد، و﴿الجاريات يسراً﴾: النجوم  
التي تجري على وجه اليسر والسهولة،  
فتزين بها السماوات، ويهتدى بها في  
ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار  
بها، ﴿والمقسمات أمراً﴾: الملائكة التي  
تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل  
منهم قد جعله الله على تدبير أمر من  
أمر الدنيا وأمر الآخرة، لا يتعدى  
ما قدر له وما أخذ ورسم، ولا ينقص  
منه.

﴿٧-٩﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحَبْكِ﴾ \* إنكم لفي قولٍ مختلفٍ \*  
يؤفك عنه من أفكٍ \* أي : والسماء ذات الطرائق الحسنه ، التي تشبه حبك الرمال ، ومياه الغدران ، حين يحركها النسيم ، ﴿إنكم﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ ، ﴿لفي قولٍ مختلفٍ﴾ منكم من يقول ساحر ، ومنكم من يقول كاهن ، ومنكم من يقول مجنون ، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفه ، الداله على حيرتهم وشكهم ، وأن ما هم عليه باطل ، ﴿يؤفك عنه من أفكٍ﴾ أي : يصرف عنه من صرف عن الإيمان ، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينيه وبراهينه ، واختلاف قولهم دليل على فساده وطلانه ، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ ، متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا اختلاف ، وذلك دليل على صحته ، وأنه من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ .

﴿١٠-١٤﴾ ﴿قتل الخراصون﴾ \* الذين هم في غمرة ساهون \* يألون أنان يوم الدين \* يوم هم على النار يفتنون \* ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴿يقول تعالى﴾ ﴿قتل

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّا آؤُنَّ إِلَى الْإِنْسَانِ  
 مِنْ خَلْقٍ الرَّحِيمِ ٥ إِنْ يَدْعُوا إِلَى الْيَقِينِ مِنَ الْيَقِينِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْفَدُ  
 ٥ تَائِبًا غَضَبِينَ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنِدُ ٥ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ  
 الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ٥ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ  
 يَوْمُ الْوَعْدِ ٥ وَكَانَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَهْدٌ ٥ لَقَدْ كُنْتَ  
 فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَفَفْنَا عَنْكَ غَفْلَتَكَ فَوَجَدَكَ كَفُورًا ٥  
 وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِدُ ٥ الْيَقِينُ جَهَنَّمَ كُلُّ هَذَا عَيْنِدُ  
 ٥ مُتَجَاعٍ لِلْخَيْرِ غَيْرُ مُبْدِرٍ ٥ الَّذِي جَعَلَ مَعَ آتِلِ الْهَامِ لَمْ  
 فَأَلْقَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ٥ \* قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْعَيْتَهُ وَهَذَا  
 كَانَ فِي ضَلَالٍ حِيدٍ ٥ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْهِ وَقَدْ قَدَفْتُ إِلَيْكُمْ  
 بِالْوَعْدِ ٥ سَائِدُ الْقَوْلِ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعِيدِ ٥ يَوْمَ  
 نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَدَّتْ وَقَوْلُ هَازِلٍ مِنْ رَبِّهِ ٥ وَالْوَلَقَاتِ الْآتِيَةِ  
 إِلَى الْمُقِينِ عَنْ رَبِّهِ ٥ هَذَا مَا تُوَسْوِسُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ٥  
 مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ قَلْبُ شَيْبٍ ٥ ادْخُلُوا هَاهُنَا مُسْلِمِينَ  
 ذَلِكَ يَوْمُ التَّحْوِيلِ ٥ هَهُمَا مَا يَآمِرُونَ بِهِمَا وَلَيْسَ آمِرِدُ ٥

الخراصون ﴿أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ﴿الذين هم في غمرة﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ساهون﴾ ﴿يسألون﴾ على وجه الشك والتكذيب أيا ن يبعثون أي: متى يبعثون، مستبشرين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم]: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتنوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال، ﴿هذا﴾ العذاب، الذي وصلتكم إليه، [هو] ﴿الذي كنتم به تستمعجلون﴾ فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿١٥-١٩﴾ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ \* كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ \* وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ \* وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم ، التي أوصلتهم <sup>(٣)</sup> إلى

(۳) فی ب: وصلوا بها.

(۲) فی ب: سہل۔

(١) في ب: عن الخلائق.





ذلك الجزاء: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دثارهم، ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ مشتملات على جميع [أصناف] الأشجار والفواكه التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يحط على قلوب العباد<sup>(١)</sup>، ﴿وَعِيُونَ﴾ سارحة، تشرب منها البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجييراً، ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك، راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا يبيعون عنه حولاً، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد، ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم أخذون ما آتاهم الله، من الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها بالرحب واتسراح الصدر، متقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل

الوجوه، ولما نهى عنه، بالانزجار عنه الله، على أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا، التي حقها أن تتلقى بالشكر [الله] عليها والانتقاد.

والمعنى الأول ألصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿مُحْسِنِينَ﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا عباد الله بهذا النفع والإحسان، من مال، أو علم، أو جاه، أو نصيحة، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان<sup>(٢)</sup>، وطرق الخيرات.

حتى إنه يدخل في ذلك، الإحسان بالقول، والكلام اللين، والإحسان إلى الممالك، والبهاائم المملوكة وغير المملوكة<sup>(٣)</sup>، ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق، صلاة الليل، الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُوا﴾ أي: المحسنون ﴿قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل قليلاً، وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع، ﴿وَبِالْأَسْحَارِ﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ﴿وَفِي

أموالهم حق﴾ واجب ومستحب للساائل والمحروم﴾ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم<sup>(٤)</sup>.

﴿٢٠-٢٣﴾ ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿يَقُولُ تَعَالَى - دَاعِيًا عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ -: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات، تدل المتفكر فيها، التأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن. وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد<sup>(٥)</sup> الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والديني، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار، فلما بين الآيات ونبه عليها تبييناً يتنبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء [لنا] وهو النطق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت<sup>(٦)</sup>.

﴿٢٤-٣٧﴾ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ

(١) في ب: قلب بشر.

(٢) في ب: من وجوه البر.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك.

(٤) في ب: والذين لا يسألونهم.

(٥) في ب: أن الله واحد أحد.

(٦) في ب: فكذلك ينبغي أن لا يعتريكم الشك في البعث والجزاء.

### فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم<sup>(٣)</sup>، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي<sup>(٤)</sup> وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضاً عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام<sup>(٥)</sup>، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: «قوم منكرون» ولم يقل: «أنكرتكم» [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي

معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً، فثم مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: «وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب».

«قالوا كذلك قال ربك» أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى «إنه هو الحكيم العليم» أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا حكمه، واشكروه على نعمته.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: «فما خطبكم أيها المرسلون» الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر<sup>(١)</sup> أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

«٣٢» قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

«لنرسل عليهم حجارة من طين» مسومة عند ربك للمسرفين» أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه<sup>(٢)</sup>، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: «يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود».

«فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين» فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين» وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

«وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم» يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون صدوقون.

فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون \* فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين \* فقربه إليهم قال ألا تأكلون \* فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم \* فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم \* قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم \* [قال فما خطبكم أيها المرسلون \* قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين \* لنرسل عليهم حجارة من طين \* مسومة عند ربك للمسرفين \* فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين \* فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين \* وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم] يقول تعالى: «هل أتاك» أي: أما جاءك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

«إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال» نجياً لهم «سلام» أي: عليكم «قوم منكرون» أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم، «فجاء بعجل سمين» فقربه إليهم وعرض عليهم الأكل، ف«قال ألا تأكلون» فأوجس منهم خيفة حين رأى أيديهم لا تصل إليه، «قالوا لا تخف» وأخبروه بما جاءوا له «وبشروه بغلام عليم» وهو إسحاق عليه السلام، فلما سمعت المرأة البشارة «أقبلت» فرحة مستبشرة «في صرة» أي: صيحة «فصكت وجهها» وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، «وقالت عجوز عقيم» أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد

(١) كذا في ب، وفي أ: علم.

(٢) في ب على كل حجر اسم صاحبه.

(٣) في ب ليعتبروا بهم.

(٤) أمر الله محمداً وأمه.

(٥) في ب: في ابتداء السلام.

قد أعدت لغير الضيف الحاضر<sup>(١)</sup>، إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضراً عنده<sup>(٢)</sup>، وفي بيته معداً، لا يحتاج إلى أن يأتي به<sup>(٣)</sup> من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير من ضيف الضيفان.

ومنها: أنه قرّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: «تفضلوا، أو ائتوا إليه» لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أو: ﴿أَلَا تَفْضُلُونَ عَلَيْنَا وَتَشْرَفُونَا وَتَحْسِنُونَ إِلَيْنَا﴾، ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان<sup>(٥)</sup> لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرتها غير

المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغيلام عليم.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ \* فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملأه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى<sup>(٦)</sup> بذلك السلطان المين، فتولى فرعون ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إن موسى، لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعبذة<sup>(٧)</sup> ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا، خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [ظلماً وغلوا] وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض﴾ [بصائر] الآية، ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: مذنب طاع، عات على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿وَفِي عاد إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم<sup>(٨)</sup> أي: ﴿وَفِي عاد﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة<sup>(٩)</sup> ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ دُخَانًا﴾

كالرميم<sup>(٩)</sup> أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المتقم بمن عصاه.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ \* فَتَعَاوَنَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ فَآخَذَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ \* فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية عظيمة، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزداهم ذلك إلا عتوا ونفورا.

فقيل ﴿لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة<sup>(١٠)</sup> أي: الصيحة العظيمة المهلكة<sup>(١١)</sup> وهم ينظرون<sup>(١٢)</sup> إلى عقوبتهم بأعينهم، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ لأنفسهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وستته فيمن عصاه.

﴿٤٧ - ٥١﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ \* وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنُعَمِّمُ الْمَاهِدُونَ \* وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ \* فَقَرُّوا إِلَىٰ اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ \* وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها.

﴿بِأَيْدٍ﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة

(٨) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام.

(٦) كذا في ب، مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون.

(٧) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذة.

(١) كذا في ب، وفي أ: الخاص.

(٢) في ب: لديه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أن يستلحقه.

(٤) في ب: وسيد.

(٥) في ب: من أحد.

﴿وإنا لموسعون﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون [أيضاً] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات، ﴿والأرض فرشنا﴾ أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش قد يكون صالحاً للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فتعم الماهدون﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته و] رحمته وإحسانه، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ [أي: صنفين]، ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلكم تذكرون﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم] <sup>(١)</sup> في تقدير ذلك، وحكيمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية

المراد <sup>(٢)</sup> والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن [والسرور] والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، وخوف بين النذارة، ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿٥٢-٥٣﴾ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون \* أتواصوا به بل هم قوم طاغون \* يقول الله مسلياً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزّه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أم هم قوم طاغون﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال

الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وظليه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿٥٤-٥٥﴾ فتول عنهم فما أنت بمعلوم \* وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يقول تعالى أمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فتول عنهم﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أديت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول <sup>(٣)</sup>، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإشارة، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير، أن يذكر ما في الأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو <sup>(٤)</sup> معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع منهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى: ﴿فذكر إن تنفع الذكرى \* سيذكر من يخشى \* ويتجنبها

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

(٢) في ب: غاية المراد.

(٣) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ما.



الاشقى ﴿ وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدھا المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿٥٦-٥٨﴾ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، ويبحث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، وذلك يتضمن<sup>(١)</sup> معرفته تعالى، فإن تمام العباداة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذو القوة المتين﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مرقهم الليل، وعصفت بترابهم<sup>(٢)</sup> الرياح، وابتلعهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يقوته

منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

﴿٥٩-٦٠﴾ ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴿ أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا<sup>(٣)</sup> محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذنوباً﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فلا يستعجلون﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله يوم القيامة، فقال: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيب لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

### تفسير سورة الطور، مكية

﴿١-١٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الطور﴾ وكتاب مسطور ﴿ في رق منشور﴾ والبيت المعمور ﴿ والسقف المرفوع﴾ والبحر المسجور ﴿ إن عذاب ريك لواقع﴾ ماله من دافع ﴿ يوم تمور السماء موراً﴾ وتسير الجبال سيراً ﴿ فويل يومئذ للمكذبين﴾ الذين هم في خوض يلعبون ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴿ أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿ يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، المشتملة على الحكم الجلية، على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور الذي هو الجبل الذي

كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمته التي لا يقدر العباد لها على عد ولا ثمن.

﴿وكتاب مسطور﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب<sup>(٤)</sup>، أنزله الله محتوياً على نبأ الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿في رق﴾ أي: ورق ﴿منشور﴾ أي: مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تحفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿والبيت المعمور﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك [يتعبدون فيه لربهم ثم]، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وحقيق بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنأ، أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿والسقف المرفوع﴾ أي: السماء، التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنازلها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿والبحر المسجور﴾ أي: المملوء

(١) في ب: وذلك متوقف.

(٣) في ب: بتكذيبهم.

(٢) في ب: عصفت بهم.

(٤) في ب: الكتب.

ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليغيش من على وجه الأرض، من أنواع الحيوان وقيل: إن المراد بالمسجور، الموقد الذي يوقد [ناراً] يوم القيامة، فيصير ناراً تلظى، ممتلئاً على عظمته وسعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿ما له من دافع﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يقوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه العذاب، فقال: ﴿يوم تقوم السماء موراً﴾ أي: تدور السماء وتضطرب، وتندوم حركتها بانزعاج وعدم سكون، ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟! ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ والويل كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب

بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يوم يدفون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرير: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

أما كونه سحراً، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف<sup>(٢)</sup> للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجلية.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: ﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحرٌ أم عدم بصيرة بكم، حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق،

وأن حجة الله قامت عليهم<sup>(٣)</sup>. ﴿اصلوها﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم<sup>(٤)</sup>، وتطلع على أفئدتكم.

﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست<sup>(٥)</sup> من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال] ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون \* متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين \* لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إن المتقين﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿في جنات﴾ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة، والأنهار المتدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة، ﴿ونعيم﴾ [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿فأكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب،

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به.

(٢) في ب: المنافي.

(٣) بعد قوله والصراط المستقيم جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص ما في ب: (أي: أفتصور من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا).

(٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: وليس.

ونجاهم من المهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه ويأباه. ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: مما تشتهي أنفسكم، من [أصناف] المأكّل والمشرب اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: متهئين بتلك المأكّل والمشرب<sup>(١)</sup> على وجه الفرح والسرور والبهجة والخيور. ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتُم ما نلتُم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقول لكم المستحسنة، ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض<sup>(٢)</sup>، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المأكّل والمشرب [اللذيذة]، والمجالس الحسنة الأنيقة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن<sup>(٣)</sup>، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائنها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحرن بحسنة الناظرين، ويسلن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش<sup>(٤)</sup> شوقاً إليهن، ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٢٨-٢١﴾ ﴿والذين آمنوا واتبعتم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين﴾ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون \* يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها

ولا تأثيم \* ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون \* وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون \* قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين \* فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم \* إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم \* وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله [بهم] ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهوؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لأبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً، ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرتب بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من قوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وأمددناهم﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بفاكهة﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿ولحم مما يشتهون﴾ من كل ما طلبوه واشتهه أنفسهم، من لحم الطير وغيرها. ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت

الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المناداة، ولا يسمعون من ربههم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [ومحبته لهم].

﴿وطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي: خدم شباب ﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه<sup>(٥)</sup>، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قالوا﴾ في [ذكر] بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الخبرة والسرور: ﴿إنا كنا قبل﴾ أي: في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فمن الله علينا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ أي: العذاب الحار الشديد حرة.

﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات<sup>(٦)</sup>، وتدعوه في سائر الأوقات، ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ فمن برّه بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿٢٩-٤٣﴾ ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ أم يقولون شاعر تربص به ريب المنون \* قل تربصوا فإني معكم من المتربصين \* أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغوت \* أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون \* فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين \* أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون \* أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون \*

(٥) في ب: وقضاء أشغالهم.

(٦) في ب: العبادات.

(٣) في ب: إلا بهن.

(٤) في ب: تطير.

(١) في ب: متهئين بذلك على وجه.

(٢) في ب: وملاطفه بعضهم بعضاً.







﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾

﴿أهم هم المصيطرون﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء، ﴿أهم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أي: ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟

﴿فليات مستمعهم﴾ المدعي لذلك ﴿يسلطان ميين﴾ وأئني له ذلك؟

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحدًا] (١) إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعدته، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغى والعناد، فأئني المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصاً

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

(٣) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم.

والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره (٢) عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة.

وقوله: ﴿أهم له البنات﴾ كما زعمتم ﴿ولكم البنون﴾ فتجمعون بين المحذورين؟ جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟

﴿أهم تسألهم﴾ يا أيها الرسول ﴿أجراً﴾ على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة، على قبول رسالتك، والاستجابة [لأمرك] ودعوتك، وتعطي المؤلفة قلوبهم [ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم].

﴿أهم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يُطلع عليه أحدًا من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض، وقوله: ﴿أهم يريدون﴾ بقدهم فيك وفيما جئتهم به ﴿كيداً﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟

﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أي: كيدهم في تحورهم، ومضرته غائدة

إليهم، وقد فعل الله ذلك - والله الحمد - فلم يُبق الكفار من مقدورهم من المكر شيئاً إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم (٣)، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿أهم لهم إله غير الله﴾ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالى؟ ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم﴾ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون \* يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ يقول تعالى في [ذكر] بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق] وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، وخالفوه وعاندوه، ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب ﴿يقولوا سحاب مركوم﴾ أي: هذا سحاب متراكم على العادة أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه

تفسير سورة النجم  
[وهي] مكية

يصعقون ﴿ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم ﴾ [فيه] من العذاب والنكال، ما لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره.

﴿يَوْمَ لَا يَغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾  
أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في  
الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشتون به  
زماً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل  
كيدهم، وتبطل مساعيهم،  
ولا ينتصرون من عذاب الله  
﴿وَلَا هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾

﴿٤٧ - ٤٩﴾ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ \* واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسيح بحمد ربك حين تقوم \* ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم \* لما ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذاباً دُونَ عذاب يوم القيامة <sup>(١)</sup>، وذلك شامل لعذاب الدنيا، بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب.

ولما بين تعالى الحجج والبراهين على  
بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ  
أن لا يعابهم شيئا، وأن يصبر لحكم  
ربه القنطري والشرعي بلزومه  
والاستقامة عليه، ووعد الله بالكفاية  
بقوله: ﴿فإنك بأعيننا﴾ أي: بمراى  
منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن  
يستعين على الصبر بالذكر والعبادة،  
فقال: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾  
أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل ، أو حين تقوم  
إلى الصلوات الخمس ، بدليل قوله :  
﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾  
أي : آخر الليل ، ويدخل فيه صلاة  
الفجر ، والله أعلم .

تم تفسير سورة الطور والحمد لله

﴿١٨-١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ \* مَا ضَلَّ  
صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ \* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ  
الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ \*  
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ \* ذُو مِرَّةٍ  
فَاسْتَوَىٰ \* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ \* ثُمَّ دَنَا  
فَتَلَّىٰ \* فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ \*  
فَأَرْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ \* مَا كَذَبَ  
الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ \* أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا  
يَرَىٰ \* وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ \* عِنْدَ  
سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ \* عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ \* إِذْ  
يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ \* مَا زَاغَ  
الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ \* لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ  
رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ يَقْسِمُ تَعَالَىٰ بِالنَّجْمِ عِنْدَ  
هُوْيِهِ أَي: سَقُوطِهِ فِي الْأَفُقِ فِي آخِرِ  
الَّيْلِ عِنْدَ إِدْبَارِ اللَّيْلِ وَإِقْبَالِ النَّهَارِ،  
لَأَن فِي ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ، مَا  
أَرْجَبَ أَنْ أَقْسِمَ بِهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ  
النَّجْمَ، اسْمُ جَنْسٍ شَامِلٍ لِلنَّجُومِ  
كُلِّهَا، وَأَقْسَمَ بِالنَّجُومِ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا  
جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ  
الْإِلَهِيِّ، لِأَن فِي ذَلِكَ مَنَاسِبَةً عَجِيبَةً،  
فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ النَّجُومَ زِينَةً  
لِلسَّمَاءِ، فَكَذَلِكَ الْوَحْيُ وَأَثَارُهُ زِينَةٌ  
لِلْأَرْضِ، فَلَوْلَا الْعِلْمُ الْمُرَوِّثُ عَنِ  
الْأَنْبِيَاءِ، لَكَانَ النَّاسُ فِي ظُلْمَةٍ أَشَدَّ مِنْ  
الَّيْلِ الْيَهُيمِ.

والمقسم عليه، تنزيه الرسول ﷺ  
عن الضلال في علمه، والغني في  
قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً  
في علمه، هادياً، حسن القصد،  
ناصحاً للأمة<sup>(٢)</sup>، بعكس ما عليه أهل  
الضلال من فساد العلم، وفساد  
القصد<sup>(٣)</sup>، وقال ﴿صاحبكم﴾ لينبهم  
على ما يعرفونه منه، من الصدق  
والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره،  
﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي: ليس  
نطقه صادراً عن هوى نفسه، ﴿إن هو

كَلَيْكُمَا أَلَيْسَ الَّذِيْنَ مِنْ قِبَلِهِمُ الرَّسُوْلُ اِلَّا قَالُوْا سِحْرٌ قَدُوْنٌ ﴿٥٠﴾  
اَوْ اَنْصَابٌ يُّرْوٰى عَنْهُمْ فَزَادُوْا سِحْرَهُمْ ﴿٥١﴾ فَاَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْرِمُوْنَ ﴿٥٢﴾  
وَذَكَرْنَا لِلْكَافِرِيْنَ اَنْفُسَهُمْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٥٣﴾ وَمَا حَقَّتْ لِي الْجَنَّةُ  
وَالْاَرْضُ اِلَّا اَلْعِبَادُوْنَ ﴿٥٤﴾ مَا اُرِيْدُ مِنْهُمْ مِنْ زَكٰى وَمَا اُرِيْدُ  
اَنْ يُّطَاعُوْا ﴿٥٥﴾ اِنَّ اِلٰهَهُمْ لَوَّكٌ دُوْءُ الْقَوَمِ الْمَعِيْنَ ﴿٥٦﴾ فَاِنْ  
لِّلَّذِيْنَ ظَلَمُوْا اُتُوْا بِذِكْرِ ذٰلِكَ اَنْصَحٰهُمْ فَلَا تَسْمَعُوْنَ لَوْلِيٍّ  
﴿٥٧﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِيْ يُوعَدُوْنَ ﴿٥٨﴾

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ❶ وَكَانَ مَشْهُورًا ❷ فِي رَبِّهِ مَشْهُورًا ❸  
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ❹ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ❺ وَالنَّارِ الْمَشْهُورِ ❻  
إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ❼ مَا لَكُمُ دَاعِيَ ❽ يَوْمَ تَوَدُّوا أَنَّ  
مَوْتَكَ ❾ وَتَدْرِي الْجِبَالُ سَبْعًا ❿ هَوَّلَ يَوْمٍ فَتُكْفَرُونَ  
الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزٍ يَلْعَبُونَ ❸ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ  
جَهَنَّمَ دَعَاً ❶ كَذَلِكَ الْكَارِهُ ❷ كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ❸

الإله وحى يوحى \* أي : لا يتبع إلا ما  
أوحى الله إليه من الهدى والتقوى ،  
في نفسه وفي غيره .

ودل هذا على أن السنة وحي من الله  
لرسوله ﷺ، كما قال تعالى:  
﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾  
وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى  
وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن  
هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى،  
ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو  
جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة  
[الكرام] وأقوامهم وأكملهم، فقال:  
﴿علمه [شديد القوى]﴾ أي: نزل  
بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه  
السلام، ﴿شديد القوى﴾ أي: شديد  
القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ  
ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال  
الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من  
اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه  
ماليس منه، وهذا من حفظ الله  
لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول  
القوي الأمين.

﴿ذَوِ مِرَّةٍ﴾ أي: قوة، وخلق  
حسن، وجمال ظاهر وباطن.

﴿فَاسْتَوَى﴾ جبریل علیہ السلام

(١) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب... .

(۲) فی ب: للخلق.

(۳) فی لب : ورسوء .

طغى أي : وما تجاوز البصر ، وهذا  
كمال الأدب منه ضلوات الله وسلامه  
عليه ، أن قام مقاماً أقامه الله فيه ، ولم  
يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه ،  
وهذا أكمل ما يكون من الأدب  
العظيم ، الذي فاق فيه الأولين  
والآخرين ، فإن الإخلال يكون بأحد  
هذه الأمور : إما أن لا يقوم العبد بما  
أمر به ، أو يقوم به على وجه التفريط ،  
أو على وجه الإفراط ، أو على وجه  
الحيدة يميناً وشمالاً ، وهذه الأمور  
كلها مستتمة عنه ﷺ .

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾  
من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور  
التي رآها ﷺ ليلة أُسْرِىَ بِهِ.

﴿١٩٥ - ٢٥﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ  
وَالْعِزَّىٰ﴾ وَمِنَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ \*  
الْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ \* تِلْكَ إِذَا قُسِمَ  
ضَبْرِي \* إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُوهَا  
فُنْتُمْ وَأَبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ  
إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا هُوَ إِلَّا نَفْسُ  
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ \* أَمْ  
لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَىٰ \* فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ  
وَالْأُولَىٰ ﴿لَمَّا زَكَّيْنا تَعَالَىٰ مَا جَاءَ بِهِ  
مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ،  
وَالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، ذَكَرَ  
بَطْلَانَ مَا عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِبَادَةٍ مِنْ  
لَيْسَ لَهُ مِنْ أَوصَافِ الْكَمَالِ شَيْءٌ،  
وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَإِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ  
فَارِغَةٌ عَنِ الْمَعْنَى، سَمَّاها الْمُشْرِكُونَ هَمْ  
وَأَبَاؤُهُمُ الْجَهَالُ الضَّلَالُ، ابْتَدَعُوا لَهَا  
مِنَ الْأَسْمَاءِ الْبَاطِلَةَ الَّتِي لَا تَسْتَحِقُّهَا،  
فَخَدَعُوا بِهَا أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ  
الضَّلَالِ، فَالْإِلَهَةُ الَّتِي يَهْدِي هَذِهِ الْحَالُ،  
لَا تَسْتَحِقُّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ،  
وَهَذِهِ الْأَنْدَادُ الَّتِي سَمَّوْهَا بِهَذِهِ  
الْأَسْمَاءِ، زَعَمُوا أَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ  
أَوْصَافٍ هِيَ مُتَصِفَةٌ بِهَا، فَسَمَوْا  
«اللَّاتَ» مِنْ «الْإِلَهَةِ» الْمُسْتَحَقَّةِ لِلْعِبَادَةِ،  
وِ «الْعِزَّى» مِنْ «الْعَزِيزِ»، وَ «مِنَا» مِنْ  
«الْمَنَانِ»، الْخَادِأُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَتَجْرِئاً  
عَلَى الشِّرْكِ بِهِ، وَهَذِهِ أَسْمَاءُ مُتَجَرِّدَةٌ

أسري به، من آيات الله العظيمة، وأنه  
تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو]  
الصحيح في تأويل الآية الكريمة،  
وقيل: إن المراد بذلك رؤية  
الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء،  
وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من  
العلماء رحمهم الله، فأثبتوا بهذا رؤية  
الرسول ﷺ لربه في الدنيا، ولكن  
الصحيح القول الأول، وأن المراد به  
جبريل عليه السلام، كما يدل عليه  
السياق، وأن محمداً ﷺ رأى جبريل  
في صورته الأصلية [التي هو عليها]  
مرتين، مرة في الأفق الأعلى، تحت  
السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية  
فوق السماء السابعة ليلة أسري  
برسول الله ﷺ، ولهذا قال: ﴿ولقد  
رأه نزلة أخرى﴾ أي: رأى محمد  
جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

﴿عند سدرۃ المنتهى﴾ وهي شجرة عظيمة جداً، فوق السماء السابعة، سميت سدرۃ المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق<sup>(٣)</sup> إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في علوها<sup>(٤)</sup>، أو لغير ذلك، والله أعلم.

فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة ﴿جنة المأوى﴾  
 أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث  
 كانت محلاً تنتهي إليه <sup>(٥)</sup> الأمانى،  
 وترغب فيه الإرادات، وتأوى إليها  
 الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في  
 أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة.

﴿إذ يَغْشى السدرة ما يَغْشى﴾ أي :  
يغشاها من أمر الله ، شيء عظيم  
لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل .

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ أَي: مَا  
زَاغَ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً عَنْ مَقْصُودِهِ ﴿وَمَا

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا وَلَا تُصَبِّرُوا  
 سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنْ مَا تُخْرَجُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝  
 إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَفِيهَا رِجٌّ ۝ فَلَكَهِنَّ زِينَةُ أَلَسِنِهِنَّ وَرُحُمٌ  
 وَوَقْلُهُنَّ وَهِنَّ فِي الْجَنَّةِ الْخَالِدِينَ ۝ كَلُوا وَأَشْرَبُوا مِنْهُنَّ بِمَا  
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُجٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ  
 بِحُورٍ مُضِيِّينَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآلَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ  
 يَوْمَ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ شَيْءٍ وَلِكُلِّ رِجٍّ مَكَكٌ  
 زَعِينٌ ۝ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِطَلْحٍ وَنُجْمٍ وَأَشْجَثٍ ۝  
 يُنَادُونَ فِيهَا كَأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُعْجُوزِينَ \* وَيَطُوفُ  
 عَلَيْهِمْ غُلَامٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا نَحْوَكُورٍ ۝ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى  
 بَعْضٍ سِكِّينًا ۝ قَالَ إِنَّا كَاذِبُونَ ۝ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ قُلْ  
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَذَابُ السَّعِيرِينَ ۝ إِنَّا كَانُوا مِنْ قَبْلُ  
 نَدْعُوهُ أَتَذْكُرُونَ ۝ فَذَكَّرْنَاهُمْ أَنْتِ بَعْضُ  
 رَبِّكَ يَكْفِيهِمْ وَلَا يُجِيبُونَ ۝ أَمْ يَتْلُونَ شِيعَةً يَخْتَصِمُونَ  
 أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ مَكِينًا ۝ قُلْ تَرَبَّصُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْصَبِينَ

«وهو بالأفق الأعلى» أي: أفق السماء الذي هو أعلى من <sup>(١)</sup> الأرض، فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

﴿ثم دنا﴾ جبريل من النبي ﷺ ،  
لإيصال الوحى إليه .

﴿فقتل﴾ عليه من الأفق الأعلى  
﴿فكان﴾ في قربه منه ﴿قاب قوسين﴾  
أي: قدر قوسين؛ والقوس معروف،  
﴿أو أدنى﴾ أي: أقرب من القوسين،  
وهذا يدل على كمال المباشرة<sup>(٢)</sup>  
لِلرَّسُولِ ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة  
بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿فَأَوْحَى﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مَا أَوْحَى﴾ أي : الذي أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ ، وَالنَّبَأِ الْمُسْتَقِيمِ .

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي :  
اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على  
الوحي الذي أوحاه الله إليه ، وتواطأ  
عليه سمعه وقلبه وبصره ، وهذا دليل  
على كمال الوحي الذي أوحاه الله  
إليه ، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه  
ولا شبهة ولا ريب ، فلم يكذب فؤاده  
ما رأى بصره ، ولم يشك بذلك .  
ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة

(١) كذا في ب، وفي أ: الأعلى على.

(۲) فی ب: میاشرتہ.

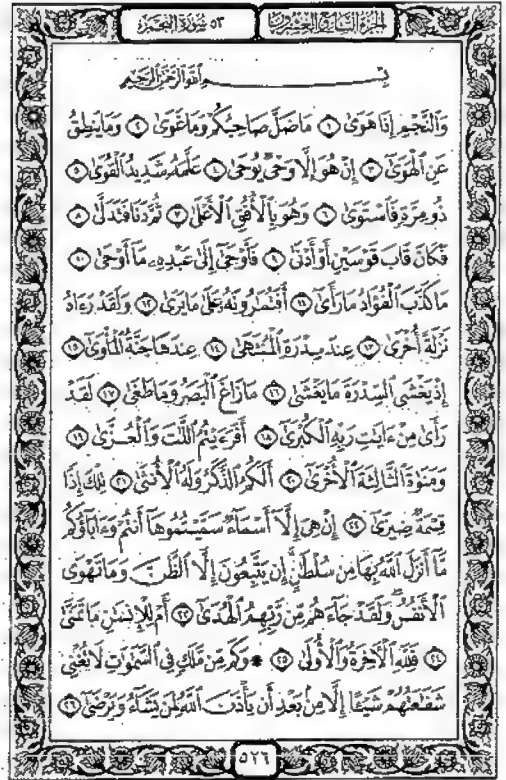
(٣) في ب: علم المخلوقات.

(۴) کذا فی ب، وفي أ: علومها:

(٥) كذا قى ب، وفى أ: إليها.







ذلك فيكمله إلى نفسه، ويخذه، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١ - ٣٢﴾ **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾** الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجزي عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزى الذين أساءوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا

من أعمال الشر بالعقوبة البليغة<sup>(١)</sup>. **﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾** في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع **﴿بِالْحَسَنَى﴾** أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة<sup>(٢)</sup>.

ثم ذكر وصفهم فقال: **﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾** أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، **﴿إِلَّا اللَّغْمَ﴾** وهي الذنوب الصغار، التي لا يضر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلّة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرباً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: **﴿إِنْ رَيْكَ وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ﴾** فلولاً مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»، [وقوله:] **﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ﴾** أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض<sup>(٣)</sup> المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

موجود مشاهد منكم حين أنشأكم<sup>(٤)</sup> الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلكم تعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآفات، وفراره من الذنوب التي يتمت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلته بعد الفلته، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين<sup>(٥)</sup>، أرحم عباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: **﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾** أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح<sup>(٦)</sup>.

**﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾** [فإن التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئاً].

﴿٣٣ - ٦٢﴾ **﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾** وأعطى قليلاً وأكدى \* أعنده علم الغيب فهو يرى \* أم لم يتبأ بما في صحف موسى \* وإبراهيم الذي وفى \* ألا تزر وازرة وزر أخرى \* وأن ليس للإنسان إلا ما سعى \* وأن سعيه سوف يرى \* ثم يجزاه الجزاء الأوفى \* وأن إلى ربك المنتهى \* وأنه هو أضحك وأبكى \* وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى \* من نطفة إذا تمنى \* وأن

(١) في ب: الفضيعة.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

عليه النشأة الأخرى ﴿أفرايت﴾ قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يخل ويكدي ويمنع.

فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة<sup>(١)</sup>، بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجري على الجمع بين الإساءة والتزكية<sup>(٢)</sup>، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أم لم ينبا﴾ هذا المدعي ﴿بما في صحف موسى﴾ وإبراهيم الذي وفي ﴿أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴿أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ في الآخرة فيميز حسنة من سيئه، ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوئ، والمشوب بحسبه، جزاء تقرر بعدله

وإحسانه الخليفة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ من يرى أن القرب لا يفيد<sup>(٣)</sup> إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فوصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهده ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإنه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات، ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا،

﴿وأنه خلق الزوجين﴾ فسر الزوجين<sup>(٤)</sup> بقوله: ﴿الذكر والأنثى﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيما، فهو المنفرد بخلقها، ﴿من نقطة إذا تمنى﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نقطة ضعيفة<sup>(٥)</sup> من ماء مهين، ثم نماها وكمّلها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار آدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عِلين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبداء على الإعادة، فقال: ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾ فيعيد العباد من الأحداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات، ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأقنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يضيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى<sup>(٦)</sup>، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، ﴿وأنه هو رب الشعري﴾ وهي النجم المعروف بالشعري العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مربوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله<sup>(٧)</sup>، ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً.

(٢) فتجري عليه جامع بين المحذورين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتكم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله<sup>(٦)</sup>، وأنه سر العبادة ولها، فإن ليسها الخشوع لله<sup>(٧)</sup> والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد<sup>(٨)</sup>، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ثم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصى ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثنى عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

### تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وأنشأ القمر \* وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر \* وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر \* ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر \* حكمة بالغة فما تغني النذر \* يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحين وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريمهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟

﴿أزفت الأزفة﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعّد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون؟﴾ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتعملونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن<sup>(٤)</sup> العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً و يقيناً والذي<sup>(٥)</sup> ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهة وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وأنتم سامدون﴾ أي:

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم<sup>(١)</sup> الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم<sup>(٢)</sup>، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أهوى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي: غشيها من العذاب الأليم الرخيم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فبأي: آلاء ربك تتماوى﴾ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعوا إليه، فلاي: شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟<sup>(٣)</sup>

(١) في ب: لهم.

(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.

(٣) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.

(٤) في ب: القرآن.

(٥) في ب: بل الذي.

(٦) في ب: يدل على فضله.

(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.

(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به] صدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقين، فلقه على جبل أبي قبيس، وفلقه على جبل قيعقان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى<sup>(١)</sup> الكائنة في الغمام العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخيل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففرغوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم<sup>(٢)</sup> إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا<sup>(٣)</sup> يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: «سحر مستمر» سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل<sup>(٤)</sup> والرد لها، ولهذا قال: «وإن يروا آية يعرضوا» ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: «وإن يروها بل قال: «وإن يروا آية يعرضوا» وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: «وكذبوا واتبعوا أهواءهم» كقوله تعالى: «فإن لم

يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم» فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لأمّنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه<sup>(٥)</sup> من البيّنات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، «وكل أمر مستقر» أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى: «مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى: «ولقد جاءهم من الأنباء» أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة» ما فيه مزدجر» أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك «حكمة» منه تعالى «بالغة» أي: لتقوم حجته على المخالفين<sup>(٦)</sup>، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، «فما تنفي النذر» كقوله تعالى: «ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

﴿٦-٨﴾ «فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر» خشعاً أبصارهم يخرجون من الأحداث كأنهم جراد منتشر» مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر» يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال: «فتول عنهم» وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين

إذ الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون للكفر كما تشبه الأنثى ﴿١﴾ وما لهم يومئذ عليهم إن يشعرون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴿٢﴾ فأعرض عن من قول عن ذكركم ولا تفرقوا إلا النحر الدنيا ﴿٣﴾ ذلك مبتليهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن عمل من سيئاته وهو أعلم بمن أخذت ﴿٤﴾ والله مآقي التوراة وما في الأرض من شيء إلا نحن أشقوا بما عملوا ونجزي الذين أحسنوا الحسن ﴿٥﴾ الذين يحسبون كذبنا الإله والقوحي إلا أنهم إن ربك واسع العبرة هو أعلم بما كذبوا أنشأكم من الأرض وإن أنتم آية في بطون أنتم كرم فلا تذكروا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴿٦﴾ آية التي تولى ﴿٧﴾ وأعطى قلائداً وكفى ﴿٨﴾ آية عرعر الغيب فهو ربي أم لا ربنا بما في صفي موسى ﴿٩﴾ وآية ربه الذي وفي ﴿١٠﴾ أنزل وأزاد وذرأته ﴿١١﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴿١٢﴾ وأن سعيه سوف يرى ﴿١٣﴾ ثم يجزيه الجزاء الأولي ﴿١٤﴾ ولأن ربك للشفيع ﴿١٥﴾ وأنه هو المحك وأبكى ﴿١٦﴾ وأنه هو أمات وألحقا ﴿١٧﴾

«يدعو الداع» إسرافيل عليه السلام «إلى شيء نكر» أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظرأ أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، «خشعاً أبصارهم» أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

«يخرجون من الأحداث» وهي القبور، «كأنهم» من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض «جراد منتشر» أي: مبثوث في الأرض، متكاثراً جداً، «مهطعين إلى الداع» أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي<sup>(٧)</sup>، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، «يقول الكافرون» الذين قد حضر عذابهم: «هذا يوم عسر» كما قال تعالى «على الكافرين غير يسير»

(١) في ب: العظيمة.

(٢) في ب: من ورد.

(٣) في ب: لم.

(٤) في ب: بالكذب.

(٥) كذا في النسختين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.

(٦) في ب: العالمين.

(٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.



والواح ودرسر\* أي: ونجينا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدرسر أي: المسامير [التي] قد سميرت [بها] ألواحها وشدها أسرها<sup>(٢)</sup>، تجري بأعيننا\* أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ [منه] لها عن الغرق [ونظر]، وكلائه منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل، جزءا لمن كان كفر\* أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزءا له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرد عنه راد، ولا صده عنه<sup>(٣)</sup> صاد، كما قال [تعالى] عنه في الآية الأخرى: قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك\* الآية.

ويحتمل أن المراد: أنا أهلكنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والحزى، جزءا لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف، ولقد تركناها آية فهل من مدكر\* أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعانداهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، وأن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده<sup>(٤)</sup> نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمة بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، ويديع صنعته، فهل من مدكر\* أي: فهل متذكر<sup>(٥)</sup> للآيات، ملق ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟ فكيف كان عذابي ونذر\* أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحد عليه حجة.

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر\* أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا

ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون\* لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: وازدجر\* أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: (أي مغلوب) لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، فانتصر\* اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً\* الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر\* وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر\* وحملناه على ذات ألواح ودرسر\* تجري بأعيننا جزءا لمن كان كفر\* ولقد تركناها آية فهل من مدكر\* فكيف كان عذابي ونذر\* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر\* لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً\* ولا يغوث ويعوق ونسراً\* ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً



[مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين]<sup>(١)</sup>

٩٦ - ١٧\* كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر\* فدعاه ربه أن يغلبهم فانتصر\* ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر\* وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر\* وحملناه على ذات ألواح ودرسر\* تجري بأعيننا جزءا لمن كان كفر\* ولقد تركناها آية فهل من مدكر\* فكيف كان عذابي ونذر\* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر\* لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً\* ولا يغوث ويعوق ونسراً\* ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً

(٣) في ب: ولا صده عن ذلك صاد.

(٤) في ب: لرسوله.

(٥) في ب: فهل من متذكر.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها.

القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدق معني، وأبينه تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان [عليه]؟ ولهذا يدعوا الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فهل من مدكر﴾.

﴿١٨ - ٢٢﴾ ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر﴾ \* ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر﴾ \* ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ \* ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ \* ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ﴿وعاد﴾ هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ريحاً صرصراً﴾ أي: شديدة جداً، ﴿في يوم نحس﴾ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم، ﴿مستمر﴾ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، ﴿تنزع الناس﴾ من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ أي: كأن جشهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته <sup>(١)</sup> الريح فسقط على الأرض، فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره، ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ كان [والله] العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ كرر تعالى ذلك رحمة بعباده

وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح  
دنياهم وأخراهم.

﴿٢٣ - ٣٢﴾ ﴿كذبت ثمود  
بالنذر \* فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه  
إنا إذا لفي ضلال وسعر \* ألقي الذكر  
عليه من بينا بل هو كذاب أشر \*  
سيعلمون غداً من الكذاب الأشر \* إنا  
مرسلو الناقة فبئنا لهم فارتقبهم  
واضطرب \* ونبتهم أن الماء قسمة بينهم  
كل شرب محتضر \* فنادوا صاحبهم  
فتعاطى فعقر \* فكيف كان عذابي  
ونذر \* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة  
فكانوا كهشيم المحتظر \* ولقد يسرنا  
القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي :

كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر، نبههم صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه، فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا - كثيراً - وتبها -: ﴿ابشراً منا واحداً نتبعه﴾ أي: كيف نتبع بشراً، لا ملكاً منا، لا من غيرنا، عن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إننا إذا﴾ أي: إن اتبعناه وهو بهذه الحال ﴿لنفي ضلال وسعراً﴾ أي: إننا لنضالون أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم وشقاقهم، فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور ﴿القي الذكر عليه من بيننا﴾ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأي: مزية خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به، ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأمتهم: ﴿قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحية،

خُشَعًا أَصْبَحَ مُرَحِّمٌ حُونَ مِنَ الْإِحْدِيَاثِ كَانَهُمْ جَدَّ مُنْتَهِي ١  
مُطِيعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَلِمَةَ وَهَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ • كَذَبَتْ  
لَهُمْ قَوْمٌ نَوْجٌ كَذَبُوا عِبَادًا نَاقًا وَلَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا دُجْرًا ٢  
رَبَّهُ أَوْ مَعْلُوبًا فَاسْتَصْرَحُوا ٣ فَتَنَّا آيَاتِ السَّمَاءِ بِمَا يَشْعَبُونَ  
٤ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ حَبُوبًا وَأَلْقَيْنَا عَلَى الْفِرْعَوْنَ دُودًا ٥ وَجَعَلْنَاهُ  
عَلَى ذَايَ الْوَجْهِ دُوسًا ٦ نَجَّى بِأَيُّهَا حَارُونَ كَانَ هَرُ ٧  
وَلَقَدْ رَكَنَاهُ إِلَى هَيْكَلٍ مِنْ مَذْكُورٍ ٨ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابَ وَنَدَّرَ  
٩ وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقَوْمَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَذْكُورٍ ١٠ كَذَبَتْ  
عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابَ وَنَدَّرَ ١١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا  
صَّارِفَةً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَعِيرٍ ١٢ تَرَى النَّاسَ كَانَهُمْ زُرُوعًا يُحْزَلُ  
مُنْقَرٍ ١٣ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابَ وَنَدَّرَ ١٤ وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقَوْمَانَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَذْكُورٍ ١٥ كَذَبَتْ قَوْمًا لِلنَّارِ ١٦ فَقَالُوا أَكْثَرَ  
فَتَنًا رَجِدًا لَنَلْعَبَنَّهُ ١٧ إِنَّا إِنَّا لَنُضْلِيهِمْ وَسُعْمٍ ١٨ أَمْ لِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ  
مِنْ بَيْنِنَا لَوْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ ١٩ سَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ الْكَافِرِ الْأَشْرَ ٢٠  
٢١ إِنَّا أَمَرْنَا سُلَاطِمَ النَّاسِ فَتَنَّا هُمْ فَارْتَضَاهُمْ وَأَصْطَلَمَ ٢٢

ومن رحمته وحكمته أن كانوا من  
البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن  
البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من  
الملائكة لعاجل الله المكذبين لهم  
بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من  
ثمود لنبيهم صالح، تكذيبه، ولهذا  
حكموا عليه بهذا الحكم الجائر،  
فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشرف﴾ أي:  
كثير الكذب والشر، فبيحهم الله ما  
أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم  
مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب  
الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد  
طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي  
من أكبر النعم عليهم، آية من  
آيات الله، ونعمة يحتلبون من  
ضرعها<sup>(٢)</sup> ما يكفيهم أجعين، ﴿فتنة  
لهم﴾ أي: اختباراً أمته لهم وامتحاناً  
﴿فارتقبهم واصطبر﴾ أي: اصبر على  
دعوتك إياهم، وارتقب ما يحل بهم،  
أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟  
﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أي:  
أخبرهم أن الماء أي: موردهم الذي  
يستعدون به، قسمة بينهم وبين الناقة،  
لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر  
معلوم، ﴿كل شرب مختصر﴾ أي:  
محضره من كان قسمته، ويحظر على من

(۱) فی ب: اقلعته۔

(۲) فی ب: درها۔

من العبر ما لم يشهد عليه أحداً غيرهم<sup>(٣)</sup>، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده<sup>(٤)</sup>.

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس و] المكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصيبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شراً منهم، فليسوا بخير منهم، أم لكم براءة في الزبر؟ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نحن جميع منتصرون﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾. فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من<sup>(٥)</sup> صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به<sup>(٦)</sup>، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين. ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع ببلذاته، ولهذا قال: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ أي:

عن الشرك والفاخشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاؤوهم<sup>(١)</sup> مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبهم بطشة الله وعقوبته ﴿فتماروا بالنذر﴾. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر. قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿٤١-٥٥﴾ ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر \* أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر \* أم يقولون نحن جميع منتصرون \* سيهزم الجمع ويولون الدبر \* بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر \* إن المجرمين في ضلال وسعر \* يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر \* إنا كل شيء خلقناه بقدر \* وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر \* ولقد أهلكنا أشياءكم فهل من مذكر \* وكل شيء فعلوه في الزبر \* وكل صغير وكبير مستطر \* إن المتقين في جنات ونهر \* في مقعد صدق عند مليك مقتدر \* أي: ﴿ولقد جاء آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النذر﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرة<sup>(٢)</sup>، وأشهدهم



ليس بقسمة له.

﴿فنادوا صاحبهم﴾ الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة ﴿فتماطى﴾ أي: انقاد لما أمره به من عقرها ﴿فنعقر﴾ فكيف كان عذابي ونذر \* كان أشد عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿٣٣-٤٠﴾ ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر \* نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر \* ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر \* ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر \* ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر \* فذوقوا عذابي ونذر \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر \* أي: ﴿كذبت قوم لوط﴾ لوطاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم

(١) في ب: جاءوا.

(٢) في ب: بالآيات اللينات، والمعجزات الباهرات.

(٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم.

(٤) في ب: فأغرقه وجنوده في اليم.

(٥) في ب: وقتلت.

(٦) في ب: فاذلوا.

أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال<sup>(١)</sup>.

﴿إن المجرمين﴾ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿في ضلال وسعر﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي يتجهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم، ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبا.

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وخذ خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها<sup>(٢)</sup>، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهذا قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ فإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿ولقد أهلكنا أشياءكم﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتهم ﴿فهل من مدكر﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين. ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدريّة ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء

والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

﴿إن المتقين﴾ الله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر.

﴿في جنات ونهر﴾ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار الياقة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمأكول والمشارب اللذيذة، والخور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم، ولا حرماناً خيراً ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة اقترت،  
والله الحمد والشكر

### تفسير سورة الرحمن [وهي] مكية

﴿١-١٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الرحمن \* علم القرآن \* خلق الإنسان \* علمه البيان \* الشمس والقمر بحسبان \* والنجم والشجر يسجدان \* والسماء رفعها ووضع الميزان \* ألا تظفروا في الميزان \* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان \* والأرض وضمها للأنام \* فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام \* والريحان \* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه «الرحمن» الدال على سعة

﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ ولقد أهلكنا أشياءكم ﴿فهل من مدكر﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين. ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدريّة ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء

#### سورة الرحمن

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الرحمن \* علم القرآن \* خلق الإنسان \* علمه البيان \* الشمس والقمر بحسبان \* والنجم والشجر يسجدان \* والسماء رفعها ووضع الميزان \* ألا تظفروا في الميزان \* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان \* والأرض وضمها للأنام \* فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام \* والريحان \* فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾

رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية [والآخوية وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾].

فذكر أنه ﴿علم القرآن﴾ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿خلق الإنسان﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البديع تعالى<sup>(٣)</sup> خلقه أي اتقان، وميزه على سائر الحيوانات، بأن ﴿علمه البيان﴾ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به آدمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه، ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ أي: خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما مجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر،

(١) في ب: في الخيال.

(٢) في ب: خلقه.

(٣) في ب: قد أتقن الباري تعالى البديع خلقه.





﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿وَلَا تَخْسَرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف [أوصافها] أحوالها ﴿لِلْأَنْعَامِ﴾ أي: للخلق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفراشاً يبنون بها، ويعرثون ويغرسون ويحفرون ويسلكون سبلها فجاجاً، وينتفعون بمعادنها وجميع ما فيها، مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿وَالنَّخْلَ ذَاتَ الْأَكْمَامِ﴾ أي: ذات الرعاء الذي يتفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتاً يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذیذة من أحسن الفواكه، ﴿وَالْحَبَّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أي: ذو الساق الذي يداس، فيتفقع ببنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البسر والشعير والذرة [والأرز] والدخن، وغير ذلك، ﴿وَالرِّيحَانَ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من بناب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتنَّ على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن الله امتنَّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح،

رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب، ﴿وَالنَّجْمَ وَالشَّجَرَ يَسْجُدَانِ﴾ أي: نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعترف ربه وتسجد له، وتطيع وتخشع<sup>(١)</sup>، وتنقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ سقفاً للمخلوقات الأرضية، ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وخده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

وتشرح لها النفوس: ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فَبَإْيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله: ﴿فَبَإْيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا<sup>(٢)</sup>: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي<sup>(٣)</sup> للعبد إذا تليت عليه نعم الله والآؤه، أن يقربها ويشكر، ويحمد الله عليها.

﴿١٤ - ١٦﴾ ثم قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وخلق الجن من مارج من نار \* فبأي آلاء ربكما تكذبان.

وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿خُلِقَ﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿من صلصال كالفخار﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم به وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار<sup>(٤)</sup>، ﴿وَخُلِقَ الْجَانُ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين<sup>(٥)</sup> ﴿من مارج من نار﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان، وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزاة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجن وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك<sup>(٦)</sup>، وكان ذلك منه [تعالى]

(١) في ب: وتخضع.

(٢) في ب: فكلما مر بقوله: ﴿فَبَإْيِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا.

(٣) في ب: فهكذا ينبغي.

(٤) في ب: وهو الطين المشوي.

(٥) في ب: لعنه الله.

(٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين.

في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجزيها على عبادته مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفناهم الله تعالى (٤)، وأراد تعالى أن ينقذ فيهم أحكام الجزاء، ويربهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحّدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرغ حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

﴿٣١-٣٢﴾ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴿٣١﴾ فبأي: آلاء ربكما تكذبان ﴿٣٢﴾ أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿٣٣﴾ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴿٣٣﴾ أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض﴾ أي: تجدون منفذاً مسلكاً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرته، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والممالك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء.

﴿٢٦-٢٨﴾ ﴿٢٦﴾ كل من عليها فان ﴿٢٧﴾ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴿٢٨﴾ فبأي: آلاء ربكما تكذبان ﴿٢٦﴾ أي: كل من على الأرض، من إنس وجن، ودواب، وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبعد ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذو الجلال والإكرام﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويحل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أوليائه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويجلونه، ويعظمونه، ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه، ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن ﴿٣٠﴾ فبأي: آلاء ربكما تكذبان ﴿٢٩﴾ أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ يعني فقيراً، ويحبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه إلحاج الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآتات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها

على عباده (١)، قال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿١٧﴾ رب المشرقين ورب المغربين ﴿١٨﴾ فبأي: آلاء ربكما تكذبان ﴿١٧﴾ أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كان فيه] فهي تحت (٢) تدبيره وربوبيته، وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً، ومغربها كذلك (٣).

﴿١٩-٢١﴾ ﴿١٩﴾ مرج البحرين يلتقيان ﴿٢٠﴾ بينهما برزخ لا يبغيان ﴿٢١﴾ فبأي: آلاء ربكما تكذبان ﴿١٩﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والمالح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴿٢٥﴾ فبأي: آلاء ربكما تكذبان ﴿٢٤﴾

أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارى، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها آدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

(١) في ب: عليهم.

(٢) فالجميع تحت ..

(٣) في ب: وثناهما هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً والله أعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وأنى الله الخلق.

﴿٣٥-٣٦﴾ ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم<sup>(١)</sup>، فقال: ﴿يرسل عليكم شواظ من نار [ونحاس] فلا تنظران فيأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: يرسل عليكم [لهب] صافٍ من النار.

﴿ونحاس﴾ وهو اللهب، الذي قد خالطه الدخان، والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم<sup>(٢)</sup>، فقال: ﴿فيأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿فإذا انشقت السماء﴾ [أي] يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها، وانتثرت نجومها، ﴿فكانت﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿وردة كالدهان﴾ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه ﴿فيأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان<sup>(٣)</sup> أي: سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾.

﴿٤١﴾ وقال هنا: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد

أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

﴿٤٣-٤٥﴾ ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ يطوفون بينها وبين حميم آن<sup>(٤)</sup> فيأي آلاء ربكما تكذبان<sup>(٥)</sup> أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعد حين تسعر الجحيم: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم<sup>(٦)</sup>، ﴿يطوفون بينها﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وبين حميم آن﴾ أي: ماء حار جداً قد انتهى حره، وزمهير قد اشتد برده وقره، ﴿فيأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿٤٦-٤٧﴾ ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان﴾ فيأي آلاء ربكما تكذبان إلى آخر السورة. أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات، ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر<sup>(٧)</sup> أن<sup>(٨)</sup> فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اللينة الكثيرة اللذيذة، أو ذوات أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف.

وفي تلك الجنتين ﴿عينان تجريان﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون، ﴿فيهما من كل فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زوجان﴾ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنبوع الآخر، ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ هذه صفة فرش

أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها، [أي: جلوس تمكن واستقرار [وراحة]، كجلوس من الملوك على الأسرة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟!<sup>(٩)</sup>

﴿وجنى الجنتين دان﴾ الجنى هو الثمر المستوي أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يتاله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهم لهم، وقصرن أيضاً طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصالحهن، ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي: لم يتلهن قبلهم أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحبيات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبده، إلا أن يحسن إليه بالشواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين، ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من فضة بنيانهما وأنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مدهامتان﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

﴿٦٦﴾ ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي: فوارتان، ﴿فيهما فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما، ﴿فيهن﴾ أي: في الجنات كلها ﴿خيرات حسان﴾ أي: خيرات

(١) في ب: في ذلك اليوم.

(٢) في ب: ذكر مته بذلك.

(٣) في ب: جزاء لهم على تكذيبهم.

(٤) زيادة من هامش: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: أي.

(٦) في ب: التي يباشرون.

الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن، وحسن الخلق والخلق، ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأرواجهن، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن [المخدرات] الخفريات، ﴿لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان﴾ فبأي: آلاء ربكما تكذبان \* متكئين على رفرف خضر \* أي: أصحاب هاتين الجنتين، متكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي فوق (١) المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصارت لها رفرقة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿وعبقري حسان﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعمومة اللمس، وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله على ذلك بقوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الآخرين، فقال في الأوليين: ﴿فيهما عينان تجريان﴾ وفي الآخرين: ﴿عينان نضاختان﴾. ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة.

وقال في الأوليين: ﴿ذواتا أفنان﴾ ولم يقل ذلك في الآخرين.

وقال في الأوليين: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ وفي الآخرين: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأوليين: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان﴾ ولم يقل ذلك في الآخرين، بل قال: ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾.

وقال في الأوليين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فيهن قاصرات

الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان﴾ وقال في الآخرين: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأوليين (٢): ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الآخرين.

ومجرد تقديم الأوليين على الآخرين، يدل على فضلهم.

فيهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الآخرين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد الله الصالحين، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهي النفس وتلد الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كلاً (٣) منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً منه، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه]. ولما ذكر سعة فضله وإحسانه، قال: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ أي: تعظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمن،

والله الحمد والشكر

والثناء الحسن

### تفسير سورة الواقعة

[وهي] مكية

﴿١- ١٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا وقعت الواقعة \* ليس لوقعتها كاذبة \* خافضة رافعة \* إذا رجت الأرض رجاً \* وبست الجبال بساً \* فكانت هباء منبثاً \* وكنتم أزواجاً ثلاثة \* فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة \* وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة \* والسابقون

يعرف المقربون ميسمهم فوجدوا النور والآخرين \* فبأي: آلاء ربكما تكذبان \* ﴿هذه جنتنا التي كنتم بها المقربون﴾ ﴿وطرفون فيها من جنة عدن﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿ولم يخال مقام ربنا جنتنا﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿ذواتا أفنان﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿فيهما عينان تجريان﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿شكوى على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن﴾ ﴿إنس قبلهم ولا جان﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿كأنهن اللؤلؤ والنيرا﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿شكوى على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ﴿فيهما عينان تجريان﴾ ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾

السابقون \* أولئك المقربون \* في جنات النعيم﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بد من وقوعها، وهي القيامة التي ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي: لا شك فيها، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية، ودلت عليها حكمته تعالى، ﴿خافضة رافعة﴾ أي: خافضة لأناس في أسفل سافلين، رافعة لأناس في أعلى عليين، أو خففت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعت فأسمعت البعيد. ﴿إذا رجت الأرض رجاً﴾ أي: حركت واضطربت، ﴿وبست الجبال بساً﴾ أي: فتتت، ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمناً، ﴿وكنتم﴾ أيها الخلق ﴿أزواجاً ثلاثة﴾ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة، ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾ تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم، ﴿وأصحاب المشأمة﴾ أي: الشمال، ﴿وما أصحاب المشأمة﴾ تهويل لحالهم. ﴿والسابقون السابقون﴾ أولئك

(١) في ب: تحت.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الآخرين ويبدو

أنه سبق قلم.

(٣) في ب: كل واحد منهم.



العين في الأنثى، من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

﴿كأَمْثَالِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي:

كأهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن العين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كأمثال الأوصاف، جميلات النعوت.

فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر<sup>(٣)</sup> ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا

وَلَا نَذِيمًا﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاماً يؤثم صاحبه، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيّب كلام، وأسره للنفوس<sup>(٤)</sup>، وأسلمه من كل لغو واثم، نسال الله من فضله.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين<sup>(٥)</sup>، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي: شأنهم عظيم، وحالهم جسيم، ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان [الرديئة] المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب، وللسدر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ والطلح معروف، وهو شجر [كبار] يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي، ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ أي: كثير

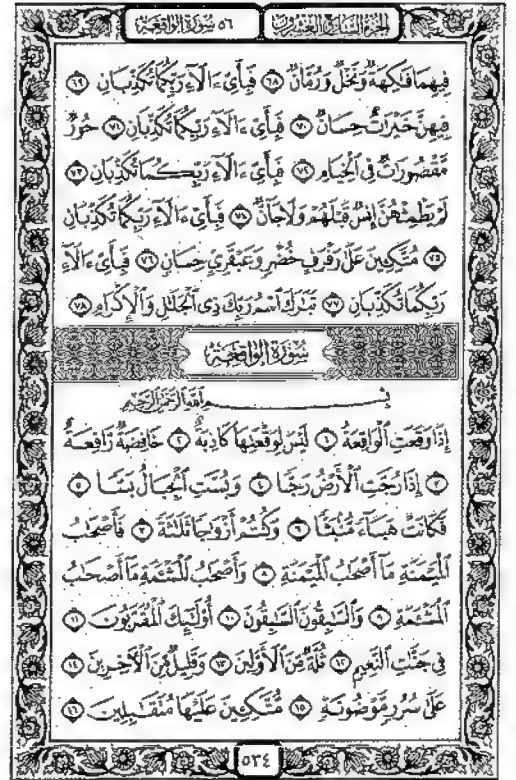
مخلدون﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، ﴿كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُ مَكْنُونٌ﴾ أي: مستور، لا يناله ما يغيره، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآية شراهم ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهي التي لا عرى لها، ﴿وَأُبَارِيقٍ﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيها، ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خرة الدنيا رأس شاربها.

ولا هم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمّر الدنيا.

والحاصل: أن جميع<sup>(١)</sup> ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهت نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه، ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي: جنس من لحمه أرادوا، وإن شاقوا مشوياً، أو طبخاً، أو غير ذلك.

﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾ كأَمْثَالِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان العين وضخامها<sup>(٢)</sup>، وحسن



المقربون﴾ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ أي: مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ والجوهر، وغير ذلك من [الحلي] الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿مُتَكئين عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك السُرر، جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم.

﴿١٧﴾ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ

(١) في ب: كل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ضخام العين.

(٣) في ب: القلب.

(٤) في ب: للقلوب.

(٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

وعدد كثير من الآخرين .

﴿٤١-٤٨﴾ «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال \* في سموم وحيم \* وظل من محموم \* لا بارد ولا كريم \* إنهم كانوا قبل ذلك مترفين \* وكانوا يصرون على الحث العظيم \* وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون \* أو أباؤنا الأولون﴾

المراد بأصحاب الشمال [هم : أصحاب النار ، والأعمال المشؤومة ، فذكر الله] لهم من العقاب ، ما هم حقيقون به ، فأخبر أنهم «في سموم» أي : ربح حارة من خرنار جهنم ، يأخذ بأنفاسهم ، وتقلقهم أشد القلق ، «وحيم» أي : ماء حار يقطع أمعاءهم ، «وظل من محموم» أي : لهب نار يختلط بدخان ، «لا بارد ولا كريم» أي : لا برد فيه ولا كرم ، والمقصود أن هناك الهم والغم ، والحزن والشر ، الذي لا خير فيه ، لأن نفي الضد إثبات لفضده . ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء ، فقال : «إنهم كانوا قبل ذلك مترفين» أي : قد ألهمهم دنياهم ، وعملوا لها ، وتنعموا وتمتعوا بها ، فآلهاهم الأمل عن إحسان العمل ، فهذا الشرف الذي ذمهم الله عليه ، «وكانوا يصرون على الحث العظيم» أي : وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها ، ولا يندمون عليها ، بل يصرون على ما يسخط مولاهم ، فقدموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة] .

وكانوا ينكرون البعث ، فيقولون استبعاداً لوقوعه : «إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون \* أو أباؤنا الأولون» أي : كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا ، فكنا تراباً وعظاماً [هذا من المحال] «أئنا لمبعوثون أو أباؤنا الأولون» قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم (٢) : «قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم» ، أي : قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم ،

من العيون والأنهار السارحة ، والمياه المتدفقة ، «وفاكهة كثيرة \* لا مقطوعة ولا ممنوعة» أي : ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع في وقت من الأوقات ، وتكون ممنوعة [أي : متعسرة] على مبتغيها ، بل هي على الدوام موجودة ، وجناها قريب يتناوله العبد على أي : حال يكون ، «وفرش مرفوعة» أي : مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً ، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله . «إنا أنشأناهن إنشاء» أي : إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا ، نشأة كاملة لا تقبل الفناء ، «فجعلناهن أبكاراً» صغارهن وكبارهن ، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا ، وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال ، كما أن كونهن «عرباً أتراباً» ملازم لهن في كل حال ، والعروب : هي المرأة المتحبة إلى بعلها بحسن لفظها ، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها [ومحبتها] ، فهي التي إن تكلمت سبت العقول ، وود السامع أن كلامها لا ينقضي ، خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والتغيمات المطربة ، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحاً وسروراً ، وإن برزت (١) من محل إلى آخر ، امتلاً ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً ، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع .

والأتراب اللاتي على سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة ، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب ، فتساوهم عرب أتراب ، متفقات مؤلفات ، راضيات مرضيات ، لا يحزن ولا يحزن ، بل هن أفراح النفوس ، وقرة العيون ، وجلاء الأبصار ، «لأصحاب اليمين» أي : معدات لهم مهينات ، «ثلة من الأولين \* وثلة من الآخرين» أي : هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين ،

(١) في ب : وإن انتقلت .

(٢) في ب : قال تعالى في جوابهم .

يطوف عليهم ولئن تولدوا \* بأصحاب وآبارق وكأبرقن معين \* لا يصعدون عنها ولا يترفون \* وفلكهم ما يعززون \* وأزهرهم ما يشعرون \* وجوهرهم \* كأنهم اللؤلؤ الكون \* جنة بما كانوا يعملون \* لا يستعرون فيها الفوا ولا تلبسوا \* إلا قلائد سلكنا \* وأصحاب اليمين ما أصحب اليمين \* في يمين محمور \* وتلج مضجور \* وظل من محمور \* وما من مشروب \* وفلكهم كفرة \* لا مقطوعة ولا ممنوعة \* وفرش مرفوعة \* إنا أنشأناهن إنشاء \* فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً \* لأصحاب اليمين \* الله يوم الأولين \* ولئن الأولين \* وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال \* في سموم وكريم \* وظل من محمور \* لأبرار ولا كريمة \* إنا أنشأناهن إنشاء \* وكانوا يصرون على الحث العظيم \* وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون \* أو أباؤنا الأولون \* قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم .

الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم ، قدره الله لعباده ، حين تنقضي الخليقة ، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف .

«ثم إنكم أيها الضالون» عن طريق الهدى ، التابعون لطريق الردى ، «المكذبون» بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد ، «لا تكون من شجر من زقوم» وهو أقبح الأشجار وأخسها ، وأنتنها ريحاً ، وأبشعها منظرأ ، «فماثلون منها البطون» والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة - الجوع المفرط ، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أئدتهم .

هذا الطعام الذي يدفعون به الجرع ، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .

وأما شرابهم ، فهو يشرب الشراب ، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب الإبل الهيم أي : العطاش ، التي قد اشتد عطشها ، أو [أن الهيم] داء يصيب الإبل ، لا تروى معه من شراب الماء .

«هذا» الطعام والشراب «نزلهم» أي : ضيافتهم «يوم الدين» وهي

وبأي: سبب دهيتهم، فتقولون: ﴿بل نحن محرومون﴾ فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكماله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿أفرايتم الماء الذي تشربون﴾ \* أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون \* لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون \* إنا لمغرمون \* بل نحن محرومون ﴿ وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرُونَ أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقرره بمنته، فقال: ﴿أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثماراً نضيجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين، فقال: ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ أي: فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظلمتم﴾ أي: فضررتم بسبب جعله حطاماً، بعد أن تعبت فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تفكهون﴾ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويحول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: ﴿إنا لمغرمون﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا.

﴿٧١ - ٧٤﴾ ﴿أفرايتم النار التي توروون﴾ \* أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون \* نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين \* فسبح باسم ربك العظيم ﴿ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقرره تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرُونَ أن ينشؤوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفئوها وأخذوها.

﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطاً يسوق به عباده إلى دار النعيم، ﴿والمقوين﴾ أي: [المنتفعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره، ولعل

للتناسل، ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال<sup>(١)</sup> بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم، قادر على إعادتكم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿أفرايتم ما تحرثون﴾ \* أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون \* لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون \* إنا لمغرمون \* بل نحن محرومون ﴿ وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرُونَ أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقرره بمنته، فقال: ﴿أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثماراً نضيجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين، فقال: ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ أي: فتاتاً متحطماً، لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظلمتم﴾ أي: فضررتم بسبب جعله حطاماً، بعد أن تعبت فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة ﴿تفكهون﴾ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويحول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: ﴿إنا لمغرمون﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا.

ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم،

﴿١﴾ في ب: بالاستدلال.

الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وأثروها على ضيافة الله لأوليائه.

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ \* خالدون فيها لا يبغون عنها حولا.

ثم ذكر الدليل العقلي على البعث، فقال: ﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أفليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير، ولهذا ويخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿٥٨ - ٦٢﴾ ﴿أفرايتم ما تمنون﴾ \* أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون \* نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين \* على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون \* ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ أي: أفرايتم ابتداء خلقكم من المني الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة والنها من الذكر والأنثى، وهدي كلا منهما لما هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب

ولا يخفى، بل يصدع به ويعلن.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي: تجعلون مقابلة مئة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم.

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ وأنتم حيثئذ تنظرون ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون، ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي: فهلا إذا كنتم ترعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتم صادقين﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحيثئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿٨٨-٩٦﴾ ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ فروح وريحان وجنة نعيم ﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين﴾ فنزل من هميم ﴿وتصلية جحيم﴾ إن هذا لهو حق اليقين ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار.

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فأما إن كان﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا

مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله<sup>(٢)</sup>، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم<sup>(٣)</sup> على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه، ﴿لا يمسسه إلا المطهرون﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلث الآية بتبيينها<sup>(٤)</sup>، على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل أن الآية خبر بمعنى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمة الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربي بها عباده، إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً، وبما يجب عليهم أن يقوموا به<sup>(٥)</sup>، ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تحتفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به

السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكراً لهم بدار القرار، فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده<sup>(١)</sup>، فقال: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ويُطاع فلا يُعصى.

﴿٧٥-٨٧﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴿إنه لقرآن كريم﴾ في كتاب مكنون ﴿لا يمسسه إلا المطهرون﴾ تنزيل من رب العالمين ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ وتجمعون رزقكم أنكم تكذبون ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ وأنتم حيثئذ تنظرون ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغارباها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا المقسم به، فقال: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ وإنما كان القسم عظيماً، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبراً لا يمكن حصرها، وأما المقسم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه، ﴿في كتاب مكنون﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن

(١) في ب: وتعظيمه.

(٢) في ب: لوحه ورسالته.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لها.

(٤) في ب: تبيينها.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن

يقوموا به.



المحرمات والمكروهات<sup>(١)</sup> وفضول المباحات، ﴿فَذَلِكُمْ لَكُمْ رُوحٌ﴾ أي: راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿وَرِيحَانٌ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المأكول والمشروب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام<sup>(٢)</sup>.

﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاختصار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾.

وقد أول قوله<sup>(٣)</sup> تبارك تعالى: ﴿لَكُمْ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أن هذه البشارة المذكورة، هي البشـرى في الحياة الدنيا.

[وقوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، و [إن] حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم، ﴿فَذَلِكُمْ يُقَالُ لأَحَدِهِمْ﴾: ﴿سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: سلام حاصل يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين، الذين

سلموا من الذنوب الموبقات.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى، ﴿فَنَزَلَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وتصلية جحيم ﴿أي: ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ﴾ يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾.

﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي ذكره الله تعالى، من جزاء العباد بأعمالهم، خيرها وشرها، وتفاصيل ذلك ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه، وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنهم ذائقون له مشاهدون له<sup>(٤)</sup>، فحمدوا الله تعالى على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

### تفسير سورة الحديد [وهي] مدنية

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴿٤﴾ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَسَعَةِ سُلْطَانِهِ، أَنْ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ النَّاطِقَةِ وَالصَّامِتَةِ وَغَيْرِهَا، [وَالْجَوَامِدِ] تَسْبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا، وَتَنْزِّهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ لِرَبِّهَا، مُنْقَادَةٌ لِعِزَّتِهِ، قَدْ ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره، ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء، ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والسرائر والخفايا، والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله، فوق جميع خلقه، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من حب وحيوان ومطر،

(١) في ب: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله المتقرين إليه بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

(٢) في ب: فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه.

(٣) في ب: فسر.

(٤) في ب: مشاهدون لحقيقته.

وغير ذلك .

﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك ، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الملائكة والأقذار والأرزاق .

﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح ، والأدعية والأعمال ، وغير ذلك .

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ كقوله : ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ .

وهذه المعية ، معية العلم والاطلاع ، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله : ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي : هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال ، وما صدرت عنه تلك الأعمال ، من بر وفجور ، فمجازيكم عليها ، وحافظها عليكم ، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً ، يتصرف فيهم بما شاء من أوامره القدرية والشرعية ، الجارية على الحكمة الربانية ، ﴿والإلى الله ترجع الأمور﴾ من الأعمال والععمال ، فيعرض عليه العباد ، فيميز الخبيث من الطيب ، ويجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

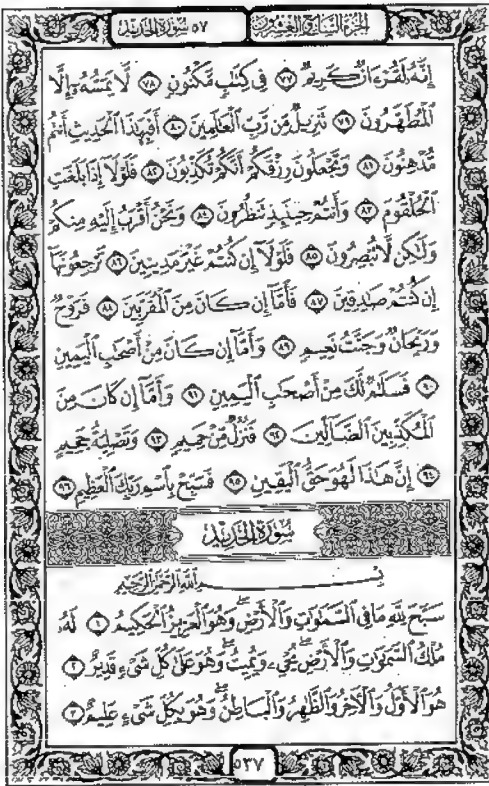
﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي : يدخل الليل على النهار ، فيغشيهم الليل بظلامه ، فيسكنون ويهدؤون ، ثم يدخل النهار على الليل ، فيزول ما على الأرض من الظلام ، ويضيء الكون ، فيتحرك العباد ، ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم ، ولا يزال الله يكور الليل على النهار ، والنهار على الليل ، ويداول بينهما ، في الزيادة والنقص ، والطول والقصر ، حتى تقوم بذلك الفصول ، وتستقيم الأزمنة ، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك ، فتبارك الله رب العالمين ، وتعالى الكريم الجواد ، الذي

أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة ، ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ أي : بما يكون في صدور العالمين ، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك ، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهذابته <sup>(١)</sup> .

﴿٧- ١١﴾ ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا ببركم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميرات السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به ، وبالنفقة في سبيله ، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها ، لينظر كيف يعملون ، ثم لما أمرهم بذلك ، رغبهم وحشهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب ، فقال : ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا﴾ أي : جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، والنفقة في سبيله ، لهم أجر كبير ، أعظمه [وأجله] رضا ربهم ، والفوز بدار كرامته ، وما فيها من النعيم المقيم ، الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين ، ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان ، وعدم المانع منه ، فقال : ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا ببركم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي : وما الذي يمنعكم من الإيمان ، والحال أن الرسول محمداً ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم ، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته ،

(١) كذا في ب ، وفي أ ونخذل من يعلمه لا يصلح .

(٢) في ب : على صحة جميع ما جاء به .



والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به ، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين ، ومع ذلك ، من لطفه وعنايته بكم ، أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم ، بل أيدته بالمعجزات ، ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات ، فلهذا قال : ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي : ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به <sup>(٢)</sup> ، وأنه حق اليقين ، ﴿ليخرجكم﴾ بإرسال الرسول إليكم ، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة .

﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي : من ظلمات الجهل والكفر ، إلى نور العلم والإيمان ، وهذا من رحمته بكم ورأفته ، حيث كان أرجم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾ .

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميرات السماوات والأرض﴾ أي : وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله ، وهو طرق الخير كلها ، ويوجب لكم أن تبخلوا ، ﴿والحال أنه ليس لكم شيء﴾ بل ﴿الله ميرات السماوات والأرض﴾ فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون



عنها، ثم يعود الملك إلى ماله تبارك وتعالى، فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجا، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدر على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجراً وثواباً ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد

يتوهم منه نقص وقبح في المفضل، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم]، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كلاً منكم على ما يعلمه من عمله، ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، ويدل الأموال في التجهيز له، فقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزء الحسن، ولذلك قال:

﴿١٢- ١٥﴾ ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرَبَ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴿ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور﴾ فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴿يقول تعالى - مينا لفضل الإيمان واغبط أهل به يوم القيامة -﴾ ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ أي: إذا

كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحيث ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذا لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب]، ونجوا من كل شر ومرهوب، فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به<sup>(١)</sup>، وهم قد طفيء نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ ﴿قيل لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾ أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فضرب﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بسور﴾ أي: حائط منيع، وحصن حصين، ﴿له باب باطنه فيه الرحمة﴾ وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحاً: ﴿ألم نكن معكم﴾ في الدنيا نقول: ﴿لا إله إلا الله﴾، ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟

﴿قالوا بلى﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم [في الظاهر] مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية [صادقة] صالحة، بل ﴿فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم﴾ أي: شككتكم في خير الله الذي لا يقبل شكاً، ﴿وغرركم الأماني﴾ الباطلة، حيث<sup>(٢)</sup> تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿حتى

(١) في ب: يمشون بنورهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: التي.





أذهبها<sup>(٤)</sup> من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فتباً لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي: حال الآخرة، ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأحوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجراً على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وأما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله<sup>(٥)</sup> به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي: إلا متاع يتمتع به ويتمتع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور.

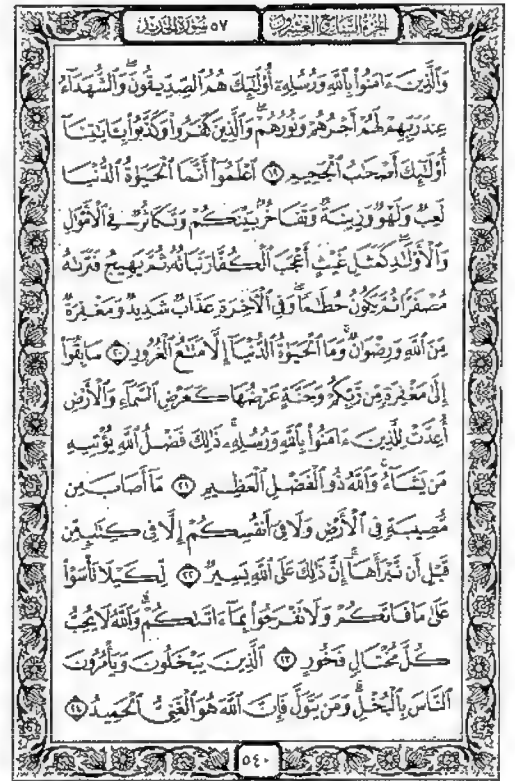
ثم أمر بالسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسايرة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ والإيمان بالله ورسوله<sup>(٦)</sup>، يدخل فيه أصول الدين وفروعها، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: هذا

أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله<sup>(١)</sup>، وعمّا أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل اليقظة وعمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله]: ﴿وزينة﴾ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. [وغير ذلك] ﴿وتفاخر بينكم﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله<sup>(٢)</sup>، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصرُوا همهم ونظرهم إلى الدنيا<sup>(٣)</sup> جاءها من أمر الله [ما أتلّفها] فهاجت ويبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رُوي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبتها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما



بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصديقون هم الذينكملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله [لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

ويبقى قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المخزومات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية

(١) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم.

(٢) في ب: إلى ذلك.

(٣) في ب: همهم ونظرهم.

(٤) في ب: فأذهبها.

(٥) في ب: من أحله عليه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: ورسوله.

﴿والميزان﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والذين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود [والمواريث وغير ذلك]، وذلك ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ قياماً بدين الله، وتخصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك.

﴿ومنافع للناس﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والآواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حيثئذ يكون ضرورياً.

﴿إن الله قوي عزيز﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يقوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتي أولياءه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى في هذا (٣) الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،

إذا حوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة﴾.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويشنى ويعظم.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقيقته.

﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم،

الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم (١)، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده (٢).

﴿٢٢ - ٢٤﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الأبواب، ولكنه على الله يسير، وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبتوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بظروا، ولعلهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثم

(١) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل، والثواب الجميل.

(٢) في ب: أحد من خلقه.

(٣) في ب: بهذا.

وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله.

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين، ﴿فمنهم﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مهتد﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشدين بهداهم.

﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء<sup>(١)</sup>، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿ثم قفينا﴾ أي: أتبعنا ﴿على آثارهم برسلاً﴾ وقفينا بعيسى ابن مريم خيراً الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصاري، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿وأتيناها الإنجيل﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصاري ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ الآيات.

ولهذا كان النصاري ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.

﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدتهم بذلك رضا الله

تعالى، ومع ذلك ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصرُوا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم.

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ أي: الذين آمنوا آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وكثير منهم فاسقون﴾.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإتياء مرة بعد أخرى.

﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ أي: يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات.

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فلا يستكثر<sup>(٢)</sup> هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك. [وقوله] ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم<sup>(٣)</sup> بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغباً على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يقادر قدره.

تم تفسير سورة الحديد،

والله الحمد والمنة، والحمد لله

### تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإن الله لعفو غفور \* الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير

(٣) في ب: لأجل أن يكون عند أهل

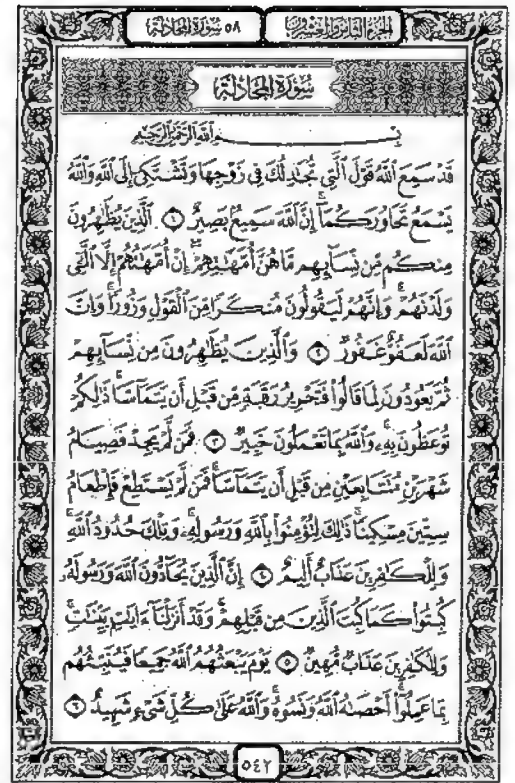
الكتاب علم.

(١) في ب: طاعة رسله.

(٢) في ب: فلا يستغرب كثرة.







الوقوف فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿ولللكافرين عذاب أليم﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال: ﴿من نسائهم﴾ فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علّقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿ما هن أمهاتهم﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسمّيها<sup>(١)</sup> باسم محارمه،

بقوله: «يا أُمّي»، «يا أُختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزىء في كفارة الرقة، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن<sup>(٢)</sup> كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدهى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فإطعام ستين مسكيناً﴾.

﴿٥﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بيناتٍ ولللكافرين عذاب مهين ﴿تحادة الله ورسوله: مخالفتهم ومعصيتهم خصوصاً في الأمور الفطرية، كمخادة الله ورسوله بالكفر، ومعادة أولياء الله.

وقوله: ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ﴿ولللكافرين﴾ بها ﴿عذاب مهين﴾ أي: يهينهم ويذلهم، كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم. ﴿٦-٧﴾ يوم يبعثهم الله جميعاً

فينبئهم بما علموا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد \* ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴿يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق جميعاً﴾ فيقومون من أجدانهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿والله على كل شيء شهيد﴾ بالظواهر<sup>(٣)</sup> والسرائر، والخبائيا والخفايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل.

وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسرّوه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ثم قال تعالى:

﴿٨-٩﴾ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحبك به الله ويقولون في أنفسهم هم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير \* يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴿النجوى هي التناجى بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة،

(٣) في ب: على الظواهر.

(٢) في ب: إذا.

(١) في ب: ويدعوها.

وقيام بحق الله ولعباده<sup>(١)</sup>، والتقوى، وهي [هنا]: اسم جامع لترك جميع المحارم والمأثم، فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمناققين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: يسيئون الأدب معك في تحيتهم لك، ويقولون في أنفسهم: أي: يسرون في أنفسهم ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يَعْزِبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور، قال تعالى في بيان أنه يمهّل ولا يهمل: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُونَهَا فَبئس المصير﴾ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب [عليهم]، تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فبئس المصير﴾ وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيراً<sup>(٢)</sup>، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلموا على النبي ﷺ، قالوا: «السلام عليك يا محمد» يعنون بذلك الموت.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّمَا النُّجُوى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا

النُّجُوى﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمكر والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيدته ضعيف ومكره غير مفيد.

﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده، وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا، فإن ضرر ذلك<sup>(٤)</sup> عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: ليعتمدوا<sup>(٥)</sup> عليه ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه ودينه<sup>(٦)</sup>.

﴿١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا تأديب<sup>(٧)</sup> من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسيح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للمجالس<sup>(٨)</sup> شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض،

الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ وَأُولُوهُمْ أَلَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا فَتَنُوا الْمُكْرِهِينَ وَلَا تَجْعَلُوا فِي الْمَدِينَةِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَلَا تَقْضُوا فِيهِمْ مَالَكُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ وَفَّاهُم مَّا كَانُوا فِيكُمْ يَحْتَمِلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ وَأُولُوهُمْ أَلَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا فَتَنُوا الْمُكْرِهِينَ وَلَا تَجْعَلُوا فِي الْمَدِينَةِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَلَا تَقْضُوا فِيهِمْ مَالَكُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ وَفَّاهُم مَّا كَانُوا فِيكُمْ يَحْتَمِلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يُكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ وَأُولُوهُمْ أَلَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا فَتَنُوا الْمُكْرِهِينَ وَلَا تَجْعَلُوا فِي الْمَدِينَةِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَلَا تَقْضُوا فِيهِمْ مَالَكُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ وَفَّاهُم مَّا كَانُوا فِيكُمْ يَحْتَمِلُونَ

﴿فانشُرُوا﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات، بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان.

﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بأدابه والعمل بمقتضاه.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أشفقتم أن تقدّموا بين يدي نَجْوَاكُمْ صدقاتٍ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما

(١) في ب: بحق الله وحق عباده.

(٢) في ب: يسرون فيها.

(٣) كذا في ب، وفي أ: والخطاب للرسول ﷺ الذي يوهمون به أنهم أرادوا خيراً.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن ضررهم.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.

(٦) في ب: وكفاه أمر دينه ودينه.

(٧) في ب: هذا أدب.

(٨) في ب: للفساح.



المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهلهم.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين﴾ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز. هذا وعد ووعد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصوره.

ووعده لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريد.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا

عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ يقول تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان<sup>(١)</sup> ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي النفس وتلد الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية<sup>(٢)</sup>.

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُسَوِّد لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان<sup>(٣)</sup> وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله، بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً

(٢) في ب: ولا وراءه.

(٣) في ب: لمن نبذ.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ اللَّهِ عَنْهُمْ وَقَدْ رَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَمِعَ اللَّهُ مَنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنَ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوعِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبْنَاكَ فِي الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ عَذَابٌ نَّكَارٌ ﴿٣﴾

### تفسير سورة الحشر [وهي] مدنية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَمِعَ اللَّهُ مَنَ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوعهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ إلى آخر القصة.

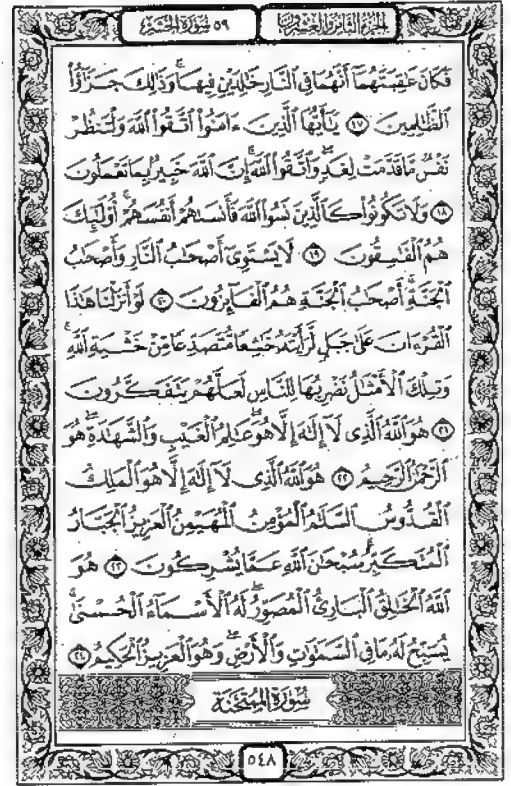
هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [وقعة] بدر ستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعنا يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،

(١) في ب: إيمانه.









المقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر  
الفيء في هؤلاء المعينين لـ ﴿كي  
لا يكون دولة﴾ أي: مدوالة  
واختصاصاً ﴿بين الأغنياء منكم﴾ فإنه  
لو لم يقدره، لتداولته الأغنياء الأقوياء،  
ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه  
شيء، وفي ذلك من الفساد ما  
لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع  
أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل  
تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة  
الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وما  
أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه  
فانتهوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين  
وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء  
به الرسول يتعين على العباد الأخذ به  
واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص  
الرسول على حكم الشيء كنص الله  
تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له  
في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد  
على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة  
القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]،  
وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم،  
وبإصاعتها الشقاء الأبدى والعذاب  
السرمدى، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله  
شديد العقاب﴾ على من ترك التقوى،  
وآثر اتباع الهوى.

﴿٨﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب

والهجرة.

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو  
كان بهم خصاصة﴾ أي: ومن أوصاف  
الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا  
بها على من سواهم، الإيثار، وهو  
أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار  
بمحاب النفس من الأموال وغيرها،  
وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع  
الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون  
إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى  
مقدمة على محبة شهوات النفس  
ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري  
الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه  
بطعامه وطعام أهله وأولاده وبناتوا  
جياً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار  
محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من  
خصال البخل والشح، ومن رزق  
الإيثار فقد وقى شح نفسه ﴿ومن يوق  
شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾  
ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها  
الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقى  
العبد شح نفسه، سمحت نفسه  
بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً  
منقاداً، منشرحاً بها صدره، وسمحت  
نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان  
محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه،  
وسمحت نفسه ببذل الأموال في  
سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك  
يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم  
يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير،  
الذي هو أصل الشر ومادته، فهذا<sup>(١)</sup>

الصنفان الفاضلان الزكيان هم  
الصحابة الكرام والأئمة الأعلام،  
الذين حازوا من السوابق والفضائل  
والمناقب ما سبقوا به من بعدهم،  
وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان  
المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات  
المتقين<sup>(٢)</sup>.

وحسب من بعدهم من الفضل أن  
يسير خلفهم، ويأتهم بهداهم، ولهذا  
ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم  
وسائر خلفهم فقال: ﴿والذين جاؤوا  
من بعدهم﴾ أي: من بعد المهاجرين

الموجب لجعله تعالى الأموال أموال  
الفيء لمن قدرها له، وأنهم يحققون  
بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم،  
وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا  
المحبيات والمألوفات، من الديار  
والأوطان والأحباب والخلان  
والأموال، رغبة في الله ونصرة  
لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء  
هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى  
إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم  
الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من  
ادعى الإيمان وهو لم يصدق بالجهاد  
والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين  
أنصار وهم الأوس والخزرج الذين  
آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة  
واختياراً، وأووا رسول الله ﷺ،  
ومنعه من الأحمر والأسود، وتبوؤوا  
دار الهجرة والإيمان حتى صارت  
موثلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون،  
ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه  
المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان  
حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار  
الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر  
الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً  
فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحوا  
القلوب بالعلم والإيمان والقرآن،  
والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة  
أنهم ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ وهذا  
لمحبتهم لله ورسوله، أحبوا أحبابه،  
وأحبوا من نصر دينه.

﴿ولا يجادلون في صدورهم حاجة  
مما أوتوا﴾ أي: لا يجسدون المهاجرين  
على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به  
من الفضائل والمناقب التي هم أهلها،  
وهذا يدل على سلامة صدورهم،  
وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل  
من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر،  
وأخبر أن الأنصار لا يجادلون في  
صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على  
أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار  
ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء.

والأنصار ﴿يقولون﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين<sup>(١)</sup>، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره<sup>(٢)</sup>، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سبقونا بالإيمان﴾ دليل على المشاركة في الإيمان<sup>(٣)</sup>، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائياً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على

كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملة، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهل الذين هم أهلهم، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعدلنا أو يخوفنا، ﴿وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والحب يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لئن أخرجوا﴾ من ديارهم جلاء ونفيًا ﴿لا يخرجون معهم﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم<sup>(٤)</sup>.

﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوج ما كانوا إليهم.

﴿ولئن نصروهم﴾ على الفرض والتقدير<sup>(٥)</sup> ﴿ليولن الأديار ثم لا ينصرون﴾ أي: ليحصل منهم

الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك<sup>(٦)</sup>، أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أشد رهية في صدورهم من الله﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾

مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾

أي: في حال الاجتماع ﴿إلا في قري محصنة أو من وراء جدر﴾ أي: لا يشنون لقتالكم<sup>(٧)</sup> ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذا ذلك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، بأسهم بينهم شديد، أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿نحسبهم جميعاً﴾ حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قلوبهم شتى﴾ أي: متباغضة متفرقة متشتتة.

﴿ذلك﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.

(٢) في ب: لقليله وكثيره.

(٣) في ب: المشاركة فيه.

(٤) في ب: بالوعد.

(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.

(٦) في ب: حملهم على ذلك.

(٧) في ب: على قتالكم.



كانت لهم عقول، لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخدولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعونة ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ [وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون] الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا «بذراً» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانتهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير، ﴿فكان عاقبتهم﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أنهما في النار

خالدين فيها﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدلهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم ونحى عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأبذر، وأخبر بمقاصده وغاياته ونهايته، فالقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون \* لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون \* لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون \* يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجهه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سراً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبله قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجهد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة

العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدتها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين من الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غيباً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربه وأوضاعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرين هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم<sup>(١)</sup> ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم.

النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف<sup>(١)</sup> لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

﴿٢٢- ٢٤﴾ هو الله الذي لا إله

إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم \* هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون \* هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم \* هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه<sup>(٢)</sup> فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، ويعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم الهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مدبرون.

﴿القدوس السلام﴾ أي: المقدس

السلام من كل عيب وآفة ونقص، المعظم المجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿المؤمن﴾ أي: المصدق لرساله

وأنبأته بما جاءوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿العزيز﴾ الذي لا يغالب

ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، ﴿الجبار﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، ﴿المتكبر﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المنتزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سبحان الله عما يشركون﴾ وهذا

تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده، ﴿هو الله الخالق﴾ لجميع المخلوقات ﴿البارئ﴾ للمبررات ﴿المصور﴾ للمصنوعات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفراد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ أي: له

الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسناتها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها.

ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته، ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون،

(١) كذا في ب وفي أ: وأقلها تكلفاً.

(٢) في ب: غيره.

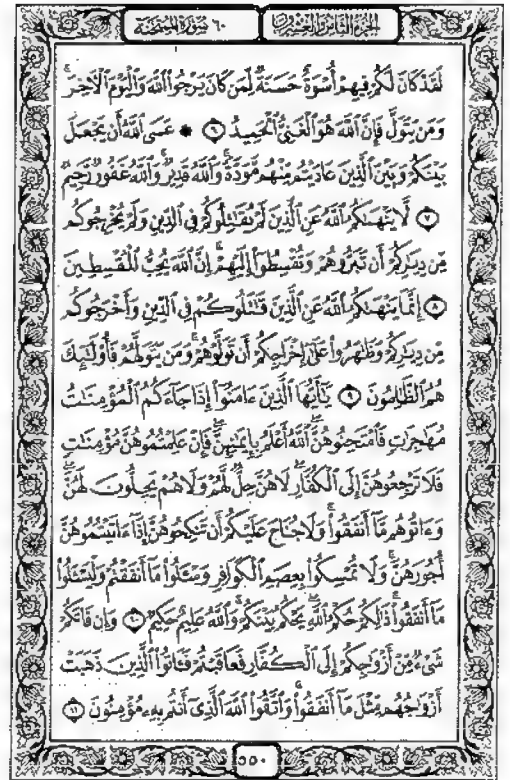
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ  
إِلَهُهُمُ الْمَوْدَةُ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَيَقُولُونَ  
أَنْ تَوَدُّوا آلَ اللَّهِ زَكَاةً أَنْ تُحَرِّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُوا  
مَرْحِلَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمَوْدَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ  
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ  
يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُرُ اللَّهُ لَهُمْ أَسْمَاءً يُحِبُّهَا وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ  
رِزْقًا كَثِيرًا ۝ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَشَاءُ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ بَصِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ  
حَسَنَةٌ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ بُرْهَانَ  
رَبِّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَذِبًا يُفْتَنُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ  
أَعْلَمُ بِالَّذِينَ اسْتَفْتَوْهُ ۝ وَمَا أَمَّا إِلَهُكُمْ أَنَّ مِنْ أَلْوَمِينَ عَنِ رَبِّكُمْ  
وَكُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ إِلَهُكُمْ أَنْبَاءُ إِلَهُكُمْ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا  
فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ عَنَّا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝

ولا يكون شيئاً إلا الحكمة ومصلحة.

تم تفسير سورة الحشر،  
فله الحمد على ذلك،  
والمنة والإحسان

### تفسير سورة الممتحنة [وهي] مدنية

﴿١- ٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ  
تَلْقَوْنَ إِلَهُهم بِالْمَوْدَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا  
جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ  
وَيَقُولُونَ أَنْ تَوَدُّوا آلَ اللَّهِ زَكَاةً أَنْ  
تُحَرِّمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَابْتَغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَهُهم بِالْمَوْدَةِ  
وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ  
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ  
السَّبِيلِ ۝ إِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُوا لَكُمْ  
أَعْدَاءً وَيَسْطُرُ اللَّهُ لَهُمْ أَسْمَاءً يُحِبُّهَا  
وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ رِزْقًا كَثِيرًا ۝ لَنْ تَنفَعَكُمْ  
أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
يَفْعَلُ بِكُمْ مَا يَشَاءُ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
بَصِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ  
فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا  
لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ بُرْهَانَ رَبِّكُمْ وَمَا  
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَذِبًا يُفْتَنُكُمْ  
بِهِ إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ اسْتَفْتَوْهُ ۝  
وَمَا أَمَّا إِلَهُكُمْ أَنَّ مِنْ أَلْوَمِينَ عَنِ  
رَبِّكُمْ وَكُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ إِلَهُكُمْ أَنْبَاءُ  
إِلَهُكُمْ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ عَنَّا رَبَّنَا إِنَّكَ  
أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ۝



النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك منافي للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعها النصر والموالة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟! وما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضاللون على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق<sup>(٢)</sup>، يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم

﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما عرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقسم به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأئى دين، وأئى مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلى﴾ وابتغاء مرضاتى﴾ أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله<sup>(٣)</sup>، فاعملوا بمقتضى هذا، من موالة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله<sup>(٤)</sup>، وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويتغنون به رضاه.

﴿تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلمت﴾ أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!، فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿ومن يفعله منكم﴾ أي: موالة الكافرين بعدما حذرهم الله منها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تبيحاً للمؤمنين على عداوتهم، ﴿إن يثقفوكم﴾ أي: يجدوكم، وتسنع لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يكونوا لكم

من شيء ربنا عليك توكلتا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ ربنا لا نجعلنا فتنه للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الفنى الحميد﴾ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم﴾ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ ذكر كثير من المفسرين [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش<sup>(١)</sup> يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم لا [شكاً و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(٣) في ب: وابتغاء رضاه.

(٤) في ب: هذا من أعظم الجهاد في سبيله.

أعداء ﴿ظاهرين﴾ ويبسطوا إليكم أيديهم ﴿بالقتل والضرب، ونحو ذلك﴾.

﴿وألستهم بالسوء﴾ أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، ﴿وودوا لو تكفروا﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتجاجتم وقتلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضرركم موالاتهم، قد كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أسوة حسنة﴾ أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم، ﴿في إبراهيم والذين معه﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين وما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كفرنا بكم وبداء﴾ أي: ظهر وبان ﴿بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أبداء﴾ ما دمت مستمرين على كفركم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلكنم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إلا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قول إبراهيم لأبيه﴾ أزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لأستغفرن لك﴾ والحال أني لا ﴿أملك لك من الله من شيء﴾ لكنني أدعو ربي عسى أن لا أكون

بدعاء ربي شقياً، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

ولكنم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينقنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿واليك أنبنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فتحن في ذلك ساعون، ويفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك<sup>(١)</sup>، ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعوننا عما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويشتتون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفر لنا﴾ ما اقترفتنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، ﴿ربنا إنك أنت العزيز العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فيعزتك<sup>(٢)</sup> وحكمتك انصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه

كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطراً إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسل الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه]، ﴿الحميد﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة<sup>(٣)</sup> الإنسانية ترجع، فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان، ﴿والله قدير﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، ﴿والله غفور رحيم﴾ لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا يكره عليه عيب أن يستره، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب

(١) في ب: ما يزلنا إليك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

(٣) في ب: والمودة.



المقسطين ﴿١﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركون، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصروا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة<sup>(١)</sup>، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

[وقوله: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولن قام به، ﴿وأخرجوكم من دياركم وظاهروا﴾ أي: عاونوا غيرهم ﴿على إخراجكم﴾ نهاكم الله ﴿أن تولوهم﴾ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بتناول للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين، وغيرهم.

﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولى تاماً، صار<sup>(٢)</sup> ذلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿١٠- ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهن ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم

حكيم ﴿٣﴾ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من إيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار، ﴿لا هن حل لهن ولا هم يحلون لهن﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح خيتن على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ وإذا نهى عن الإمساك

بعصمتها<sup>(٣)</sup>، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿واسألوا ما أنفقتم﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم<sup>(٤)</sup> إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج مقوم، فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم<sup>(٥)</sup>، ﴿والله عليم حكيم﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة<sup>(٦)</sup>.

وقوله: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهن مثل ما أنفقوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنمة بدل ما أنفق<sup>(٧)</sup>.

﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام. ﴿١٢﴾ ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبایعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «مبايعة النساء» اللاتي [كن] يبایعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

(٧) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنمة بدل ما أنفق.

(٥) في ب: وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه.

(٦) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

(١) في ب: ولا تبعة.

(٢) في ب: كان ذلك.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بعصمتها.

(٤) في ب: زوجاتهم.

بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليم لهم كيف يصنعون وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقفهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم<sup>(٥)</sup>، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله: ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر<sup>(٦)</sup>، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يئسوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حيثئذ منهم الإقدام على مساخت الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يئس الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة،  
والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الصف [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وذو جميع الخلق<sup>(٧)</sup> له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءت النساء يبايعنه، والتزم بهن هذه الشروط يبايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير<sup>(١)</sup>، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ بأن<sup>(٢)</sup> يفرذن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء.

﴿ولا يزنين﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن<sup>(٣)</sup>، أو سواء تعلقت ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهم [لك] في النهي عن النباحة، وشق الثياب، وخش الوجوه، والدعاء بدعاء<sup>(٤)</sup> الجاهلية.

﴿فبايعهن﴾ إذا التزمين بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن﴾ الله عن تقصيرهن، وتطيباً لخواطرهن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.

(٢) في ب: بل.

(٣) في ب: مع أزواجهن.

(٤) في ب: بدعوى.

(٥) في ب: وشركهم.

(٦) في ب: وشاهدوا.

(٧) في ب: الخلق له.

(٨) في ب: يحصل.

الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هذا سحر مبين﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت آيئاً من شمس النهار، يجعل ساحراً بيناً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم<sup>(٥)</sup> من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾ ويبين له براهينه وبياناته، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم نهي ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردون بها الحق، وهي<sup>(٦)</sup> لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة<sup>(٧)</sup> نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراهتهم كل سبب يتوصلون<sup>(٨)</sup> به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزله من ينفخ عین

مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين \* ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين \* يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون \* هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون \* يقول تعالى خيراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، [وأيدني بالبراهين الظاهرة]، ونما يدل على صدقي، كوني ﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوّة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقاً لما بين يدي من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشريت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعيسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء<sup>(٩)</sup>، يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فلما جاءهم﴾ محمد ﷺ الذي بشره عيسى ﴿بالبينات﴾ أي: الأدلة الواضحة،

لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [أي: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذونني﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والالتقياد<sup>(١٠)</sup> بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجرأة والزيف عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدتهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يلبق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا<sup>(١١)</sup> لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلماً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال<sup>(١٢)</sup> والزيف الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾

﴿٦٩ - ٩٠﴾ ﴿وإذ قال عيسى ابن

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.

(٤) في ب: كسائر الأنبياء.

(٥) في ب: أبلغ.

(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٧) في ب: وإظهار.

(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.





الجميل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهّر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جملتها، أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها<sup>(٢)</sup>، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هنامهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بألمها، وسرورها<sup>(٣)</sup> بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولا، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تَحِبُّونَهَا﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، [إذا قام غيرهم بالجهاد]<sup>(٤)</sup> فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَيُشِرُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ

ومن نصردين الله، تَعَلَّمُ كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر].

ثم هيّج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: قال لهم عارضا ومنهضا<sup>(٧)</sup>: من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، ﴿فَأَمْنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين، ﴿وَكُفِرَتْ طَائِفَةٌ﴾ منهم، فلم يتقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: قويناهم ونصرناهم عليهم.

﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم وقاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد

وَأَذًا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ يَرْحَلُونِي إِلَى الْيَمِينِ فَقَالَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ تَارِكِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَكَرَهِتُمْ أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْغَيْبِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِنِّي أَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَفِي ظَنِّي إِنَّهُمْ رَجَمُونَ ﴿١٠﴾ وَيُؤَيِّدُ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٢﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَزَنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ ﴿١٣﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَزَنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ ﴿١٤﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَزَنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ ﴿١٥﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَزَنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ ﴿١٦﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَزَنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ ﴿١٧﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَزَنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ ﴿١٨﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَزَنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ ﴿١٩﴾ يَتْلُو آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حَزَنٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ ﴿٢٠﴾

عليين، يتراءهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفاتها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواسفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يلدركوه حتى يتروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يشني عليه عباده<sup>(١١)</sup>، وتبارك

(١) في ب: أحد من خلقه.

(٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة.

(٣) في ب: وفرحها.

(٤) زيادة من هامش ب.

(٥) في ب جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم.

(٦) في ب: تنفيذه.

(٧) في ب: قال لهم منها.

كونوا أنصار الله ودعاة دينه،  
ينصركم الله كما نصر من قبلكم،  
ويظهركم على عدوكم.  
تمت والله الحمد<sup>(١)</sup>

### تفسير سورة الجمعة [وهي] مدنية

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَسْبَحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾  
أي: يسبح لله وينقاد لأمره، ويتألهه  
ويعبده، جميع ما في السماوات  
والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له  
ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع  
مما يليه وتحت تدبيره، ﴿الْقُدُّوسِ﴾  
المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص،  
﴿الْعَزِيزِ﴾ القاهر للأشياء كلها،  
﴿الْحَكِيمِ﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة مما تدعو  
إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿٢-٤﴾ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي  
الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ  
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ  
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لُفْي ضَلَالٍ مُبِينٍ \*  
وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحِقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ  
الْحَكِيمُ \* ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ  
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ المراد  
بالأُمِّيِّينَ: الذين لا كتاب عندهم،  
ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم،  
ممن ليسوا من أهل الكتاب، فأمّن الله  
تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته  
على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم  
والخير، وكانوا في ضلال مبين،  
يتعبدون للأشجار والأصنام  
والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع  
الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد  
كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء،

فبعث الله فيهم رسولاً منهم، يعرفون  
نسبه وأوصافه الجميلة وصدقته، وأنزل  
عليه كتابه، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾  
القاطعة الموجبة للإيمان واليقين،  
﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بأن يحثهم على الأخلاق  
الفاضلة، ويفصلها لهم، ويذجرهم  
عن الأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: علم القرآن<sup>(٢)</sup>  
وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم  
الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا  
التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل  
كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل  
الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً،  
اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم،  
فصاروا أئمة المهتدين، وهذه  
المؤمنين<sup>(٣)</sup>، قلله عليهم بيعته هذا  
الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجل  
منحة، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا  
يُلْحِقُوا بِهِمْ﴾ أي: وامتن على آخرين  
من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن  
يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما  
يلحقوا بهم أي: فيمن باشر<sup>(٤)</sup> دعوة  
الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم  
في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما  
يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل،  
فكلا المعنيين صحيح، فإن الذين  
بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه  
وباشروا دعوته، حصل لهم من  
الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً  
أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته  
وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً  
ولا سدى، بل ابتعث فيهم الرسل،  
وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله  
العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من  
عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم  
بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك  
من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة  
الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة  
الأبدية.

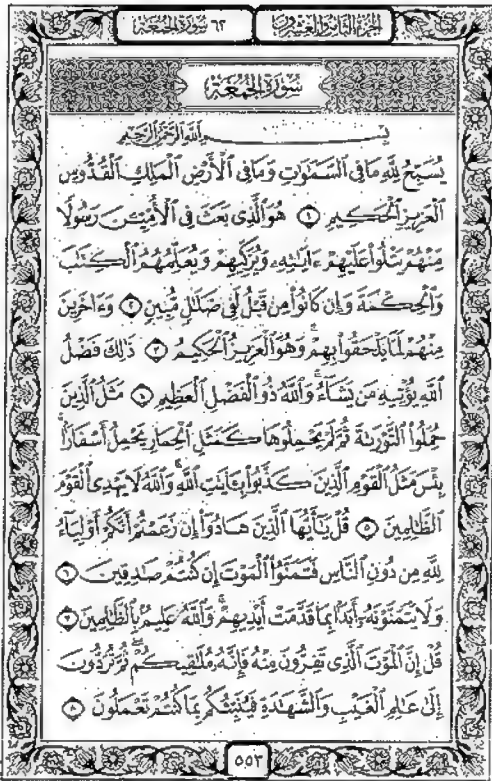
(١) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.

(٢) في ب: علم الكتاب.

(٣) في ب: وقادة المتقين.

(٤) كذا في ب، وفي أ: باشروا.

(٥) في ب: ويعملوا بها.



﴿٥-٨﴾ ﴿مِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا  
التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ  
أَسْفَارًا يَتَّبِعُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا  
بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ \* قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ  
زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ  
فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \*  
وَلَا يَتَمَنُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ  
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ \* قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي  
تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأْتُكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى  
عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر الله منته غلى هذه  
الأمة، الذين ابتعث فيهم النبي الأمي،  
وما خصهم الله به من المزايا والمناقب،  
التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمة  
الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين،  
حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم  
العلماء الربانيون والأخبار المتقدمون،  
ذكر أن الذين جعلهم الله التوراة من  
اليهود وكذا النصراني، وأمرهم أن  
يتعلموها ويعملوا بما فيها<sup>(٥)</sup>، وأنهم لم  
يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم  
لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل  
الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً

الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة، ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي: في حال قيامكم وعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لعلكم تفلحون﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو و [تلك] التجارة، وتركوا الخير، ﴿وتركوك قائماً﴾ تخطب الناس، وذلك: [في] يوم جمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب، ﴿قل ما عند الله﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿خير من اللهو ومن التجارة﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مقوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مقوتاً للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان<sup>(٤)</sup> يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد

التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن غنوه، وكذبهم<sup>(٢)</sup> إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون بطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿والله عليم بالظالمين﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون<sup>(٣)</sup> منه [غاية الفرار]، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿٩ - ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون \* وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العُدُو الذي قد نهي عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: ﴿وذروا البيع﴾ أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ذلكم خير لكم من اشتغالكم بالبيع، وتقويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكد الفروض.

﴿إن كنتم تعلمون﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على



من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود<sup>(١)</sup>، الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء الله: ﴿فتمنوا الموت﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا

(١) في ب: علماء أهل الكتاب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

(٣) في ب: بل يفرون.

(٤) في ب: فريضة.

نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذلك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين<sup>(١)</sup> يوم الجمعة، ودم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للغيب المقبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو [والتجارات] والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة،

ولله الحمد والثناء<sup>(٢)</sup>

### تفسير سورة المنافقين<sup>(٣)</sup> مدنية

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ \* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ \* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَجَّبَكْ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُو فَاذْرَهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ \* سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ \* لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز

الإسلام بها<sup>(٤)</sup>، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرن الإيمان ويبطنن الكفر، ليبقى جاههم، وتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾ على وجه الكذب: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن الله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: ترساً يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهموا صدقهم، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿بِ﴾ سبب أنهم لا يثبتون على الإيمان.

بل ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبداً، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَجَّبَكْ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح، شيء، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض، ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ \* سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ \* هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَقُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ \* يَقُولُونَ لَنْ نَجْعَزَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَنُخْرِجَنَّكَ الأَعْرَابُ مِنهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الأَعْرَابُ وَرَسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَقْوَالَكُمْ وَلَا أُولَئِكَ كُفَرُوا فِي اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ \* وَأَتَوْهُم مِّنَ مَّوَارِثِهِمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ \* وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

سُورَةُ النِّفَاقِ

صبيحة عليهم. وذلك لجنتهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم<sup>(٥)</sup> يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء هم العدو على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع مكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين، فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعدما تبين أدلته واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ المنافقين ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و﴿لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ﴾ امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق بغضاً له ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباعه بغياً وعناداً، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم، فإنه

(١) كذا في ب، وفي أ: الخطبة.

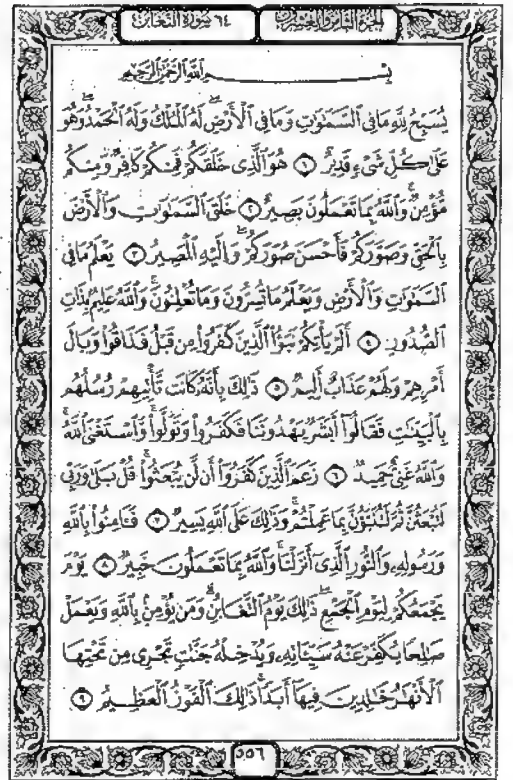
(٢) في ب: بسم الله وعونه والحمد لله رب العالمين.

(٣) كذا في النسختين.

(٤) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

(٥) وفي ب: وضعف قلوبهم وريبها.





سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم قلن  
يعفّر الله لهم، وذلك لأنهم قوم  
فاسقون، خارجون عن طاعة الله،  
مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك  
لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو  
استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿استغفر  
لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم  
سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾  
﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

﴿٧-٨﴾ هم الذين يقولون  
لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى  
ينفضوا والله خزائن السماوات والأرض  
ولكن المنافقين لا يفقهون \* يقولون  
لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز  
منها الأذل والله العزة والرسولة  
وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون \*  
وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ  
والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه  
وائتلافهم، ومسايرتهم في مرضاة  
الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد:

﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله  
حتى ينفضوا﴾ فإنهم - بزعمهم - لولا  
أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما  
اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من  
أعجب العجيب، أن يدعي هؤلاء  
المنافقون الذين هم أحرص الناس على

خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل  
هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على  
من لا علم له بحقائق الأمور<sup>(١)</sup>،  
ولهذا قال الله رداً لقولهم: ﴿والله  
خزائن السماوات والأرض﴾ فيؤتي  
الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء،  
ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها  
على من يشاء، ﴿ولكن المنافقين  
لا يفقهون﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة،  
التي مضمونها أن خزائن الرزق في  
أيديهم، وتحت مشيئتهم.

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة  
ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ وذلك في  
غزوة المريسيع، حين صار بين بعض  
المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر  
الخواطر، ظهر حيثئذ نفاق المنافقين،  
وأظهروا ما في نفوسهم<sup>(٢)</sup>.

وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن  
سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني  
المهاجرين - إلا كما قال القائل: «غذ  
كلبك يأكلك»<sup>(٣)</sup>.

وقال: لئن رجعنا إلى المدينة  
﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ بزعمه  
أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون،  
وأن رسول الله ومن معه<sup>(٤)</sup> هم  
الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا  
النافق، فلهذا قال [تعالى]: ﴿والله العزة  
ولرسوله وللمؤمنين﴾ فهم الأعداء،  
والمنافقون وإخوانهم من الكفار [هم]  
الأذلاء. ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾  
[ذلك] فلذلك زعموا أنهم الأعداء،  
اغتراراً بما هم عليه من الباطل، ثم قال  
تعالى:

﴿٩-١١﴾ يا أيها الذين آمنوا  
لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن  
ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم  
الخاسرون \* وأنفقوا من ما رزقناكم  
من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول  
رب ليولا أخرجتني إلى أجل قريب  
فأصدق وأكن من الصالحين \* ولن  
يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير

بما تعملون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين  
بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح  
والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم  
أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن  
ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة  
عليها أكثر النفوس، فتقدمها على  
محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة،  
ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾  
أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله  
﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ للسعادة  
الآبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما  
يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إنما  
أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر  
عظيم﴾ وقوله: ﴿وأنفقوا مما  
رزقناكم﴾ يدخل في هذا، النفقات  
الراجعة، من الزكاة والكفارات<sup>(٥)</sup>،  
ونفقة الزوجات، والماليك، ونحو  
ذلك، والنفقات المستحقة، كبدل المال  
في جميع المصالح، وقال: ﴿مما  
رزقناكم﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى، لم  
يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق  
عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء<sup>(٦)</sup> مما  
رزقهم الله الذي يسره لهم<sup>(٧)</sup> ويسر  
لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة  
إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك،  
الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن  
يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال:  
﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت  
فيقول﴾ متحسراً على ما فرط في وقت  
الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي  
محال: ﴿رب ليولا أخرجتني إلى أجل  
قريب﴾ أي: لا تدارك ما فرطت فيه،  
﴿فأصدق﴾ من مالي، ما به أنجو من  
العذاب، وأستحق به جزيل الثواب،  
﴿وأكن من الصالحين﴾ بأداء المأمورات  
كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في  
هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال  
والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن  
تداركه، ولهذا قال: ﴿ولن يؤخر الله  
نفساً إذا جاء أجلها﴾ المحتزم لها والله

(٧) في ب، مما رزقهم ويسره ويسر

(٤) في ب: ومن اتبعه.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة.

(٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء.

(١) في ب: بالحقائق.

(٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم.

(٣) في ب: سمّن كلبك.

خبير بما تعملون ﴿من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

ثم تفسير سورة المنافقين،

ولله الحمد

### تفسير سورة التغابن [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير \* هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير \* خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير \* يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ هذه الآيات [الكريمات]، مشتملات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمدها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام، وأسده من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريد، وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فأيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلما ذكر خلق الإنسان المكلف بالمأمور والمنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خلق السماوات

والأرض﴾ أي: أجرامهما، [وجميع] ما فيهما فأحسن خلقهما، ﴿بالحق﴾ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظراً. ﴿والإله المصير﴾ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أولاكموه<sup>(١)</sup>، هل قمتم بشكره، أم لم تقموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال: ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾ أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة. ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليمًا بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿٥-٦﴾ ﴿ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم \* ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد﴾ لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، وينبذل الجهد في مرضاته، وتجنب مساخطه، أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضية، الذين لم تزل أنباؤهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل<sup>(٢)</sup> بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في [الدار] الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: ﴿ذلك﴾ النكال والوبال، الذي أحللتناه بهم

بأنهم ﴿كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي: بالآيات الواضحات، الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، فقالوا: ﴿أبشر يهودنا﴾ أي: فليس لهم فضل علينا، ولاي شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحيار والأشجار ونحوها ﴿فكفروا﴾ بالله ﴿وتولوا﴾ عن طاعة الله، ﴿واستغنى الله﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً، ﴿والله غني حميد﴾ أي: هو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿٧﴾ ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وذلك على الله يسير﴾ فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت<sup>(٣)</sup> على إحياء ميت [واحد]، ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾.

﴿٨﴾ ﴿فأمّنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم] موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة

(٣) كذا في ب، وفي أ: اجتمعوا.

(٢) في ب: رسلهم.

(١) في ب: أولاكم.

والشقاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه<sup>(١)</sup>، وسماه الله نوراً، فإن النور<sup>(٢)</sup> ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدي بها في ظلمات الجهل المذلّمة، ويمشي بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي<sup>(٣)</sup>، «والله بما تعملون خبير» فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿٩- ١٠﴾ «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم \* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير»  
يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينبئهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل الهم والنغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: «ذلك يوم التغابن».

أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغيب المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،

وأنتهم هم الخاسرون، فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: «ومن يؤمن بالله» [أي: إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ويعمل صالحاً] من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده. «يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار» فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، «خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم» والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أي: كفروا [بها] من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبيّنات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

«أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير» لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

﴿١١- ١٣﴾ «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم \* وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتهم فإنما على رسولنا البلاغ المبين \* الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون»  
يقول تعالى: «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله» وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله [تعالى]، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله

قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن<sup>(٤)</sup> لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها<sup>(٥)</sup>

والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب<sup>(٦)</sup>، كما قال تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكفه الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلق بقوله: «ومن يؤمن بالله يهد قلبه» في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به من<sup>(٧)</sup> الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله<sup>(٨)</sup>، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يثبتهم الله<sup>(٩)</sup> في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: «ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله: «وأطيعوا الله وأطيعوا

(٨) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

(٩) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين.

(١) في ب: الإيمان به، ورسوله، وكتابه.

(٢) في ب: لأن النور.

(٣) في ب: النواهي.

(٤) في ب: ممن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عندها.

(٦) في ب: من الأجر العظيم.

(٧) في ب: وهو.

الرسول ﴿أي﴾: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح، ﴿فلن توليتم﴾ [أي] عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً يبين لكم ويتضح وتقوم<sup>(١)</sup> به عليكم الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: فليعتمدوا<sup>(٢)</sup> عليه في كل أمر ناهيهم، وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك<sup>(٣)</sup> إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويشق به في كفايته الأمر الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل<sup>(٤)</sup>.

﴿١٤-١٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴿هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاعتزاز بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر من هذا وصفه<sup>(٥)</sup>، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فتصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي<sup>(٦)</sup>، ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم

مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب العالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ لأن الجزاء من جنس العمل.

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره.

﴿١٦-١٨﴾ ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ إن ترضوا الله قرصاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾ يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويقيد<sup>(٧)</sup> ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر، وقوله: ﴿واسمعوا﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له، ﴿وأطيعوا﴾ الله ورسوله في جميع

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هَلْ يَخْلُجُونَ فِيهَا وَيَسْأَلُونَ الْمَصِيرَ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ سُبُلَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فِئْتَاكُم مَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ لَا آمَنُوا إِنَّهُمْ أُورِثُوا مِنْكُمْ وَأُولَادُهُمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأُولَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ قَاسِمٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرَ الْأَنْفِقِينَ وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿إِنْ تَقَرُّضُوا اللَّهَ فَرَضًا خَيْرٌ لَّكُمْ وَلَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿سُورَةُ الْقَلَّادِ

أموركم، ﴿وأنفقوا﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى، وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله، في مخالفة ذلك.

ولكن ثم آفة تمنع كثيراً من الناس، من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شر شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ لأنهم أدرخوا المطلوب، ونجوا من المهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منشحة لشرع الله، طالبة لمرضاة الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مرضى الله

(٦) في ب: التي فيها محذور شرعي.

(٧) في ب: وقيد.

(٤) في ب: يكون توكله قوة وضعفاً.

(٥) في ب: هذه صفته.

(١) في ب: بلاغاً بيناً واضحاً فتقوم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لذلك.





تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ثم رغب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يضاعفه لكم﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَمَعَ الْمُضَاعَفَةِ﴾ أيضاً يغفر لكم بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبِ السَّيِّئَاتِ﴾.

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عساه، بل يمهله ولا يهمله، ﴿وَلَوْ يَؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. والله تعالى شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويمحيزهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء<sup>(١)</sup> بالتكاليف الثقيل، ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات، ﴿العزيم﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير التغابن [والله الحمد]

### تفسير سورة الطلاق [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا \* فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَاْمَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوْعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا \* وَبِزَوْجِهِ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ \* إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا \* يَقُولُ تَعَالَى خَاطِبًا لِنَبِيِّهِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾

أي: أردتم طلاقهن ﴿ف﴾ التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿طلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بيّنة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب بتلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو

طلقها في طهر وطىء فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين و [لا] يتضح بأي: عدة تعد، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً، فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، [وحقها في النفقة ونحوها] فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزوج]<sup>(٢)</sup>، وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها، وقوله: ﴿واتقوا الله ربكم﴾ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات، ف ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ مدة العدة، بل يلزم من بيوتهن<sup>(٣)</sup> الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿ولا يخرجن﴾ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها، فلأن<sup>(٤)</sup> المسكن يجب على الزوج للزوجة<sup>(٥)</sup>، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.

وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لحاظها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها<sup>(٦)</sup>، وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع

(٦) في ب: عليها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة.

عليه.

(١) في ب: وأنواع التكاليف.

(٢) زيادة من هامش: ب.

(٣) في ب: بل تلزم بيتها.





ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجره المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه<sup>(١)</sup>، عيّن تعالى على وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن<sup>(٢)</sup> أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته، ثم قدر تعالى النفقة، بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء. ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ أي: ضيق عليه ﴿فلينفق بما آتاه الله﴾ من الرزق. ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلاً بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً.

﴿٨ - ١١﴾ ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً﴾ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً \* أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً \* رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسول أن كثرتهم وقوتهم، لم تنفعهم<sup>(٣)</sup> شيئاً، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من

العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة،  
ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم  
في الآخرة عذاباً شديداً، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ  
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا ذوي العقول،  
التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن  
الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم،  
أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين  
الطائفتين، ثم ذكر عباده المؤمنين بما  
أنزل عليهم من كتابه، الذي أنزله على  
رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من  
ظلمات الكفر والجهل والعصية، إلى  
نور العلم والإيمان والطاعة، فمن  
الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن  
[به]، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ  
صَالِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿وَخَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿١٢﴾ ﴿الله الذي خلق سبع  
سموات ومن الأرض مثلهن ينزل  
الأمربينهن لتعلموا أن الله على كل  
شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء  
علماً﴾ [ثم] أخبر [تعالى] أنه خلق  
الخلق من السماوات السبع ومن فيهن  
والأرضين السبع ومن فيهن، وما  
بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع  
والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله  
لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك  
الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها  
الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد  
ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها،  
وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا  
عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه  
الحسنى، وعبدوه وأحبوه وقاموا  
بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق  
والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك  
الموفقون من عباد الله الصالحين،  
وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون  
[تم تفسيرها والحمد لله]

(۱) فی ب: لا خروج له منه.

(۲) فی ب: يتمكن.

(۳) قی ب: تغن عنهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ تَوْبَةً كَثِيرَةً وَخُذُوا عَمَلَكُمْ بِرِزْقِكُمْ أَنْ يَبْسُطَ إِلَيْكُمْ يَدَيْهِ وَيُعَذِّبَكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحْزَنْكَ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَاللَّهُ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٢﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ لَوْ هِيَ صِرَاطًا لَكُنَّا عَنْهَا صَاغِرِينَ ﴿١٠٣﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ لَوْ هِيَ صِرَاطًا لَكُنَّا عَنْهَا صَاغِرِينَ ﴿١٠٤﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ لَوْ هِيَ صِرَاطًا لَكُنَّا عَنْهَا صَاغِرِينَ ﴿١٠٥﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ لَوْ هِيَ صِرَاطًا لَكُنَّا عَنْهَا صَاغِرِينَ ﴿١٠٦﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ لَوْ هِيَ صِرَاطًا لَكُنَّا عَنْهَا صَاغِرِينَ ﴿١٠٧﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ لَوْ هِيَ صِرَاطًا لَكُنَّا عَنْهَا صَاغِرِينَ ﴿١٠٨﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ لَوْ هِيَ صِرَاطًا لَكُنَّا عَنْهَا صَاغِرِينَ ﴿١٠٩﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ لَوْ هِيَ صِرَاطًا لَكُنَّا عَنْهَا صَاغِرِينَ ﴿١١٠﴾

تفسير سورة التحريم  
[وهي] مدنية

﴿١٥ - ٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرحيم يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله  
لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور  
رحيم﴾ قد فرض الله لكم تحلة  
يمانكم والله مولاكم وهو العليم  
الحكيم ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض  
أزواجه حديثاً فلما نبات به وأظهره الله  
عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض  
فلما نبأها به قالت من أنباك هذا قال  
نباي العليم الخبير﴾ إن تتوبا إلى الله  
فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه  
فإن الله هو مولاہ وجبريل وصالح  
المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾  
عسي ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً  
خيراً ممنكن مسلمات مؤمنات قانتات  
تائبات عابدات سائحات ثيبات  
وأبكار﴾ هذا عتاب من الله لنبيه  
محمد ﷺ ، حين حرم على نفسه سريره  
«مارية» أو شرب العسل ، مراعاة لحاظ  
بعض زوجاته ، في قصة مغروفة ،  
فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات ﴿يا أيها  
النبي﴾ أي : يا أيها الذي أنعم الله عليه  
بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لم تحرم ما  
أحل الله لك﴾ من الطيبات التي  
أنعم الله بها عليك وعلى أمتك .





الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿٦﴾ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿٦﴾ أي: يا من من الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

﴿٧﴾ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴿٧﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بالزمامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيته اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل [والأولاد] بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل<sup>(١)</sup> تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ كما قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي: غليظة أخلاقهم، عظيم<sup>(٢)</sup> انتهارهم، يفرعون بأصواتهم، ويخيفون<sup>(٣)</sup> بمرأهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون<sup>(٤)</sup> فيهم أمر الله، الذي حُتم عليهم العذاب<sup>(٥)</sup> وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿٧﴾ يا أيها الذين كفروا

لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿٨﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ [أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه].

﴿٨﴾ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴿٩﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضياءه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي تعطي المنافقين، ويسألون الله، أن يتمم<sup>(٦)</sup> لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما<sup>(٧)</sup> معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه<sup>(٨)</sup> والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿٩﴾ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وماؤاهم جهنم وبئس المصير ﴿١٠﴾ يأمر [الله] تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحججة [عليهم ودعوتهم] بالموعظة الحسنة<sup>(٩)</sup>، وإبطال

ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولى، فتكون بالنبي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم] وأعلى جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿١٠﴾ يا أيها الذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴿١١﴾ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴿١٢﴾ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴿١٣﴾ هذان المثالان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيد شيئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع قيامه بالواجب عليه.

فكان في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئاً مع الإساءة، فقال:

﴿١٠﴾ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا ﴿١١﴾ تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴿١٢﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿١٣﴾ فخانتاهما ﴿١٤﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفرش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه

(٨) في ب: إلا وجه الله.

(٩) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحججة

والموعظة الحسنة.

(٥) في ب: بالعذاب.

(٦) في ب: يتم.

(٧) في ب: بما.

(١) في ب: وفيمن يدخل.

(٢) في ب: شديد.

(٣) في ب: ويزعجون.

(٤) في ب: ويفقدون.

بغياً، ﴿فلم يغنيا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عنهما﴾ أي: عن امرأتهما ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [وقوله]: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿ففنفخنا فيه من روحنا﴾ بأن نفخ جبريل [عليه السلام] في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم [عليه السلام]، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، [ولهذا قال] ﴿وكانت من القانتين﴾ أي: المطيعين لله، المداومين على طاعته<sup>(١)</sup> بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فأجاب رضي الله عنها صديقة، والصديقية:

هي كمال العلم والعمل .  
تمت والله الحمد

### تفسير سورة الملك [وهي] مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي: تعظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض.

وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فإن<sup>(٢)</sup> الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سيتقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانتادت له المخلوقات.

﴿الغفور﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستريح عيوبهم، ولو كانت

ملء الدنيا، ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى، وليس طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها، قال:

﴿فارجع البصر﴾ أي: أعده إليها، ناظراً معتبراً ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: نقص واختلال، ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسناتها، فقال:

﴿٥ - ١٠﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿إذا لقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير.

أي: ولقد جملنا ﴿السماء الدنيا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بمصابيح﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة

(٢) في ب: وذلك أن.

(١) في ب: أي المداومين على

طاعة الله.

للسماء [وجمالاً]، ونوراً وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا يتأفي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافه، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها، **﴿وجعلناها﴾** أي: المصابيح **﴿رجوماً للشياطين﴾** الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب التي ترمى من النجوم، أعدها الله في الدنيا للشياطين، **﴿واعتدنا لهم﴾** في الآخرة **﴿عذاب السعير﴾** لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فلماذا قال: **﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾** الذي يهان به أهله <sup>(١)</sup> غاية الهوان، **﴿إذا ألقوا فيها﴾** على وجه الإهانة والذل **﴿سمعوا لها شهيقاً﴾** أي: صوتاً عالياً فظيعاً، **﴿تكاد تميز من الغيظ﴾** أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: **﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾** أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تحذروا عنها، ولم تحذركم النذر منها، **﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾** فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله ولم يفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً، فأئى عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟

(١) في ب: التي يهان بها أهلها.

(٢) في ب: ذكر وصف الأبرار السعداء.

**﴿وقالوا﴾** معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: **﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾** فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع [لهم] ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم - في الإيمان - بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم:

**﴿١١﴾** **﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾** أي: بعداً لهم وخسارة وشقاء.

فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!

**﴿١٢﴾** **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾** لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار <sup>(٢)</sup>، فقال: **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾** أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به <sup>(٣)</sup>، **﴿لهم مغفرة﴾** لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم، وقاهم شرها، ووقاهم عذاب

(٣) في ب: ولا يقصرون عما أمرهم

وأمرنا أن نجهروا به **﴿إنه يعلم بذات الصدور﴾** **﴿الأنعام﴾** من خلق وهو اللطيف الخبير **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذللاً لا تمشوا في مكائدها وتكلموا من رزقه﴾** **﴿والله الشكور﴾** **﴿أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾** **﴿أم أشركن في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف ندير﴾** **﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾** **﴿أولئك هم الذين كفروا إلى الظن وهم ضلالت مبين﴾** **﴿ولا الذين آمنوا بكل شيء﴾** **﴿أمن هذا الذي هو جند لكم يضرركم من دون الرحمن إن الكافرين إلا في ضلال﴾** **﴿أمن هذا الذي يرفعكم أن اسكروا لله أن لا تكونوا في عتو قومي﴾** **﴿أمن يخشى فكاكاً وتجهت أهدى أن يخشى سواك على صراط مستقيم﴾** **﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأفؤدة﴾** **﴿قل لا تأتواكم الساعة﴾** **﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض وأبى﴾** **﴿تخسروا﴾** **﴿وقولون متى هذا الوعد إن كنتم صدقون﴾** **﴿قل إنما أهلك عند الله ولا كائن أن يذير ميت﴾**

الجحيم، ولهم أجر كبير وهو ما أعد الله لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات [المتواصلات] والمشتهيات، والقصور [والمنازل] العاليات، والحدود الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن، الذي يحله الله على أهل الجنان <sup>(٤)</sup>.

**﴿١٣ - ١٤﴾** **﴿وأسرأ قولكم أو اجهرأ به إنه عليم بذات الصدور﴾** \* ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه، فقال: **﴿وأسرأ قولكم أو اجهرأ به﴾** أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، ف **﴿إنه عليم بذات الصدور﴾** أي: بما فيها من النيات والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟! <sup>(٥)</sup>

ثم قال - مستدلاً بدليل عقلي على علمه -: **﴿ألا يعلم من خلق﴾** فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! **﴿وهو اللطيف الخبير﴾** الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبائيا [والخفايا] والغيوب **﴿وهو الذي يعلم السر﴾**

(٤) في ب: الذي يحله على ساكني الجنان.



﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور﴾ ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ أي: ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد، لم يتفعوه مثقال ذرة، على أيّ عدو كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفة.

﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدر على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرازق المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لجوا﴾ أي: استمروا ﴿في عتو﴾ أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿ونفور﴾ أي: شرود عن الحق.

﴿٢٢﴾ ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ أي: أي الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿٢٣ - ٢٦﴾ ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ قل هو

نذير \* ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير \* هذا تهديد ووعد لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿أأنتم من في السماء﴾ وهو الله تعالى، العالي على خلقه.

﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ بكم وتضطرب، حتى تلتفكم وتهلككم (١)

﴿أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي: عذاباً من السماء يحصبكم، وينتقم الله منكم ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أن أمركم من الله أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان (٢) أو قصر، فإن من قبلكم، كذبوا كما كذبتهم، فأهلكهم الله تعالى، فانظروا كيف إنكار الله عليهم، عاجلهم بالعقوبة الدنيوية قبل عقوبة الآخرة، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿١٩﴾ ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾ وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن (٣) في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تبغي العبادة إلا له، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقضيه حكمته.



وأخفى \* ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكارة، ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة.

﴿١٥﴾ ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذلّلها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فامشوا في مناكبها﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً، وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

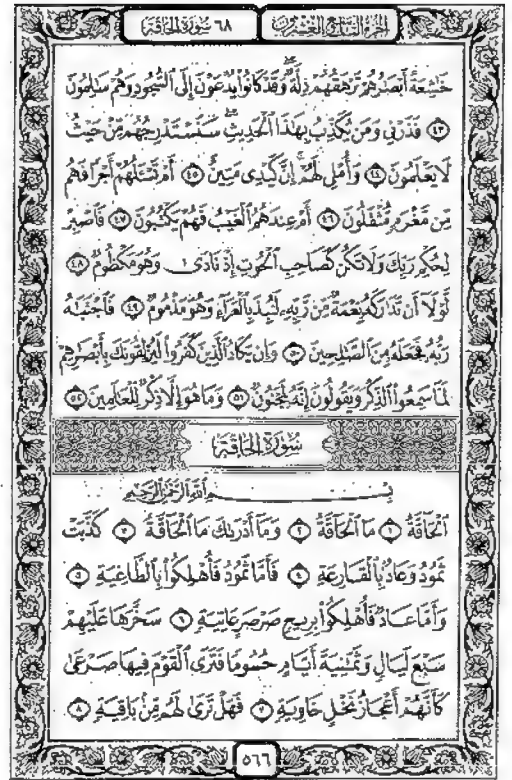
﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف

(١) في ب: حتى تهلكوا وتلتفوا.

(٢) في ب: الأمد.

(٣) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها.





براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبته إليه أعداؤه من الجنون، فنفي عنه الجنون<sup>(١)</sup>، بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منّ عليه بالعقل الكامل، والرأي: الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وإن لك لأجراً﴾ أي: عظيماً، كما يفيدته التنكير، ﴿غير محنون﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال: ﴿وانك لعلی خلق عظیم﴾ أي: عالياً به، مستعلياً بخلقك الذي منّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرته به أم المؤمنين [عائشة] رضي الله عنها - لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾ ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ [الآية]، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم

الأخلاق، و [الآيات] الحائثات على الخلق العظيم<sup>(٢)</sup>، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً ليناً، قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سألته، لا يجرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشرة، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذ به بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ بأيكم الفتون، وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس [وشر الناس]<sup>(٣)</sup> للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلّوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

و ﴿هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿٨-١٦﴾ ﴿فلا تطع المكذبين﴾ ودوا لو تدهن فيدهنون \* ولا تطع كل حلاف مهين \* هــماز مشاء بنميم \* مناع للخير معتد أثيم \* عتل بعد ذلك زنيم \* أن كان ذا مال وبنين \* إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير

الأولين \* سنسمه على الخراطوم﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿فلا تطع المكذبين﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرؤن إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالطبع لهم مُقدِّم على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿ودوا﴾ أي: المشركون ﴿لو تدهن﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو بالفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿فيدهنون﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يصاده، وعيب ما يناقضه، ﴿ولا تطع كل حلاف﴾ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو مهين. أي: خسيس النفس، ناقص الهممة، ليس له همة<sup>(٤)</sup> في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة. ﴿هــماز﴾ أي: كثير العيب [للناس] والظعن فيهم<sup>(٥)</sup>، بالغية والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿مشاء بنميم﴾ أي: يمشي بين الناس بالتميمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، ﴿مناع للخير﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿معتد﴾ على الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض<sup>(٦)</sup> ﴿أثيم﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿عتل بعد ذلك﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿زنيم﴾ أي: دعي، ليس له أصل و [لا] مادة

(١) في ب: عنه ذلك.

(٢) في ب: على كل خلق جميل.

(٣) زيادة من هـامش ب.

(٤) في ب: ليس له رغبة.

(٥) كذا في ب، وفي أ: في الناس.

(٦) في ب: يظلمهم في دماءهم

وأموالهم وأعراضهم.

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنة أي: علامة في الشر يعرف بها. وحاصل هذا، أن الله تعالى نهي عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سييء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: «أن كان ذا مال وبين \* إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين» أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم تواعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطوم<sup>(١)</sup> في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿١٧ - ٢٣﴾ «إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين \* ولا يستثنون \* فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون» إلى آخر القصة يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلتهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشعرون<sup>(٢)</sup>، فاغترارهم بذلك نظير

اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها.

﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وهم نائمون﴾ فأبادها وأتلفها ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ فأنطلقوا قاصدين له<sup>(٣)</sup> ﴿وهم يتخافتون﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: ﴿لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي: يذكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة، خوفاً أن يسمعه أحد، فيخبر الفقراء. ﴿وغدوا﴾ في هذه الحالة الشيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿على حرث قادرين﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها، ﴿فلما رأوها﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿قالوا﴾ من الحيرة والانزعاج. ﴿إنا لضالون﴾ أي: تائهون [عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، ف ﴿قال أوسطهم﴾ أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة،

فلولا استثنيتكم فقلتم: «إن شاء الله»، وجعلتم مشيئكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا ﴿سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة، ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ أي: متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤلته.

قال تعالى مبيناً<sup>(٤)</sup> ما وقع: ﴿كذلك العذاب﴾ [أي: [الندبيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه.

﴿وللعذاب الآخرة أكبر﴾ من عذاب الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فإن من علم ذلك، أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب<sup>(٥)</sup>.

﴿٣٤ - ٤١﴾ «إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم \* أفنجعل المسلمين كالمجرمين \* ما لكم كيف تحكمون \* أم لكم كتاب فيه تدرسون \* إن لكم فيه ما تغثرون \* أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم ما تحكمون \* سلهم أيهم بذلك زعيم \* أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ يخبر تعالى بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب

ويحرم الثواب.

(٣) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.



النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكيمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين<sup>(١)</sup> القانتين لربهم، المتقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسوئهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه<sup>(٢)</sup> فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتحيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها<sup>(٣)</sup>.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴿أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل [والزلازل] والأحوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا

يسجدون لله، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزجج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يوجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤ - ٥٢﴾ ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ \* وأمل لهم إن كيدي متين \* أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون \* أم عندهم الغيب فهم يكتبون \* فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم \* لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم \* فاجتبه ربه فجعله من الصالحين \* وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون \* وما هو إلا ذكر للعالمين ﴿أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، ف سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ فمندهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغثروا ويستمرروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ<sup>(٤)</sup>.

﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾ أي: ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقابل بالقبول والتسليم، والالتقاء التام لأمره.

وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابه في الحال التي أوصلته، وأوجب له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب في البحر، فافتزع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكى تخف بهم، فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم، [وقوله] ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبث الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

صرعى ﴿أي: هلكني موتى﴾، ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض، ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المقرر.

﴿٩-١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴿إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية﴾ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن وإعية ﴿أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات اللينات، ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذبين، والمؤتفكات﴾ أي: قرى قوم لوط، الجميع جاؤوا بالخاطئة ﴿أي: بالفعل الطاغية، وهي (٧) الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش (٨) والفسوق، فعصوا رسول ربهم﴾ وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذب ﴿الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع﴾ أخذ رابية ﴿أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى الماء على وجه الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿في الجارية﴾ وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم

خاوية ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ الخاقعة ﴿من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، وغيبات الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كثره من قوله: الخاقعة ﴿ما الخاقعة﴾ وما أدراك ما الخاقعة ﴿إن لها شأنًا عظيمًا، وهو لا جسيماً، ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل﴾ (٣)، ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما (٤) أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله [وحدوا]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر (٥) به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل (٦): ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، ﴿عاتية﴾ أي: عتت على خزائنها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح، ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ أي: نحساً وشرأ فظيماً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فترى القوم فيها

بالعراء﴾ أي: لطرخ في العراء، وهي الأرض الخالية وهو مذموم ولكن الله (١) تغمدته برحمته، فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فاجتنباه ربه﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فجعل من الصالحين﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة والعاقبة للمتقين ﴿ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي: يصيبوه (٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحى إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الخاقعة وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الخاقعة﴾ ما الخاقعة ﴿وما أدراك ما الخاقعة﴾ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبوهم.

(٣) من هامش أ.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ومما.

(٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.

(٦) في ب: العاجل.

(٧)

في ب: هو.

(٨)

في ب: المعاصي.

(٩)

في ب: كذبوا.

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيدِهِ، ولهذا قال: ﴿لنَجْعَلَهَا﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها، لكم ﴿تذكِرة﴾ تذكركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكور بأصله.

وقوله: ﴿وتعِيا أذن واعية﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله<sup>(١)</sup>.

﴿١٣-١٨﴾ وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ وحلت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة\* فيومئذ وقعت الواقعة\* وانشقت السماء فهي يومئذ واهية\* والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية\* يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية\* لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ إذا تكاملت الأجساد نابذة، ﴿نفخة واحدة﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أي: فتت الجبال

واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتتشقق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهأها وأضعفها.

﴿والملك﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تعرضون﴾ على الله ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ لا من أجسادكم وأجسادكم<sup>(٢)</sup>، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاةً عراةً غُرلاً، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فجئت بجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩-٢٤﴾ ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابه﴾ أي: ظننت أني ملاق حسابيه\* فهو في عيشة راضية\* في جنة عالية\* قطوفها دانية\* كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية\* وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تميزاً لهم، وتنوياً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم،

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومجة أن يطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أرسلني إلى هذه الحال، ما من الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلد الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿في جنة عالية﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قطوفها دانية﴾ أي: ثمرها وجناتها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: من كل طعام لذيق، وشراب شهيق، ﴿هنيئاً﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة<sup>(٣)</sup> - من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لتعيمها، وأصلاً لسعادتها.

﴿٢٥-٣٧﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابه\* ولم أدر ما حسابيه\* يا ليتها كانت القاضية\* ما أغنى عني ماليه\* ملك عني سلطانيه\* خذوه فقلوه﴾ ثم

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (وترك الأعمال السيئة) بين جملة: (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك... في الطبقات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.





### تفسير سورة سأل سائل وهي مكية

﴿١ - ٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ \* لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ \* مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ \* تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ \* فَأَصْبَحَ صَبْرًا جَمِيلًا \* إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا \* وَنَرَاهُ قَرِيبًا \* يَقُولُ تَعَالَى مِثْنًا لَجَهْلِ الْمُعَانِدِينَ، وَاسْتَعْجَالِهِمْ لِعَذَابِ اللَّهِ، اسْتَهْزَاءً وَتَعْتًا وَتَعْجِيزًا:

﴿سأل سائل﴾ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بعذاب واقع﴾ للكافرين ﴿ليس له دافع﴾ من الله أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل، من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين<sup>(٤)</sup>، فقال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة<sup>(٥)</sup>، فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمتهم، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولا تسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمتهم ما يضاد أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ \* تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ \* فَأَصْبَحَ صَبْرًا جَمِيلًا \* إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا \* وَنَرَاهُ قَرِيبًا \* يَقُولُ تَعَالَى مِثْنًا لَجَهْلِ الْمُعَانِدِينَ، وَاسْتَعْجَالِهِمْ لِعَذَابِ اللَّهِ، اسْتَهْزَاءً وَتَعْتًا وَتَعْجِيزًا:

﴿وانه﴾ أي: القرآن الكريم ﴿لنذكره للمتقين﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها، ويعملون عليها، يذكرهم العقائد الدينية، والأخلاق المرصية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين، ﴿وانا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة، ﴿وانه لحسرة على الكافرين﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسروا إذ لم يمتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الشواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وانه لحق اليقين﴾ أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الشايت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:

أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.

ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.

ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

وهذا القرآن الكريم، بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقُدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على كماله وأفضاله وعدله.



البشر<sup>(١)</sup>، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده، وأيضاً، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته فإنه لو تقول عليه<sup>(٢)</sup> وافتري ﴿بعض الأقاويل﴾ الكاذبة، ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ ثم لقطعنا منه الوتين<sup>(٣)</sup> وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع، مات<sup>(٣)</sup> منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول - حاشا وكلا - تقول على الله، لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير، فجحمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته، وقوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي: لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

(١) في ب: قولاً للبشر.

(٢) في ب: علينا.

(٣) في ب: هلك.

(٦) في ب: بما جعلها.

(٤) في ب: المكذبين.

(٥) في ب: وإما أن يدخر لهم في الآخرة.



إليها ومسها، ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً، وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم﴾ أي: سرياتهم ﴿فإنهم غير ملومين﴾ في وطنهم، في المحل الذي هو محل الحرث، ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله، ودلت هذه الآية على تحريم [نكاح] المتعة، لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار، وكذلك العهد، شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه، ويكون القصد بها<sup>(٢)</sup> وجه الله.

قال تعالى: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾.

﴿والذين هم على صلاتهم محافظون﴾ بمداومتها على أكمل وجوها، ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿في جنات مكرمون﴾ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

مكرمون﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع. وفسر الهلوع بأنه: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وإذا مسه الخير منوعاً﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء. ﴿إلا المصلين﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

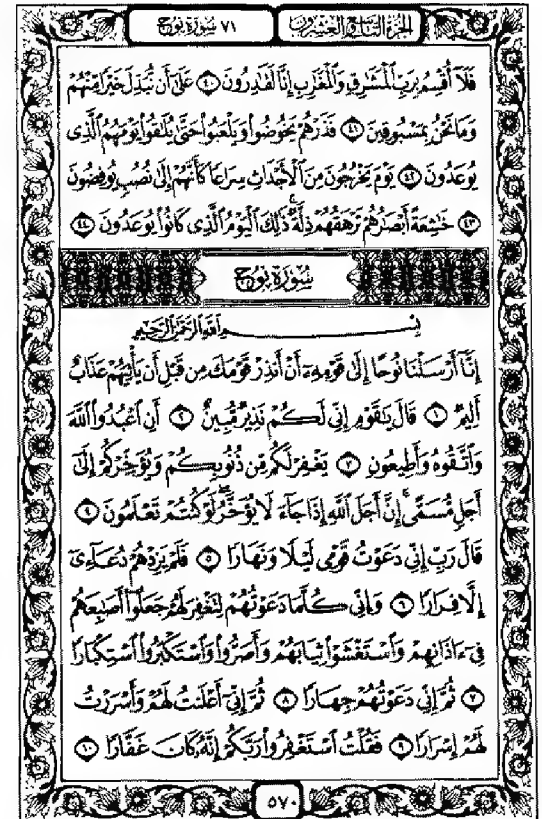
وقوله: [في وصفهم] ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.

وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص. ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ من زكاة وصدقة ﴿للسائل﴾ الذي يتعرض للسؤال، ﴿والمحروم﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يفتن له، فيتصدق عليه.

﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أي: يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين، يلزم منه التصديق بالرسول، وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقر به من عذاب الله. ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ فلا يطفون بها وطاً محرماً، من زنى، أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك، ويحفظونها أيضاً من النظر



﴿إنها لظي \* نزاعة للشوى﴾ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها<sup>(١)</sup>.

﴿تدعوا﴾ إليها<sup>(٢)</sup> ﴿من أدبر وتولى \* وجمع فأوعى﴾ أي: أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها، فلم ينفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

﴿١٩ - ٣٥﴾ ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً \* إذا مسه الشر جزوعاً \* وإذا مسه الخير منوعاً \* إلا المصلين \* الذين هم على صلاتهم دائمون \* والذين في أموالهم حق معلوم \* للسائل والمحروم \* والذين يصدقون بيوم الدين \* والذين هم من عذاب ربهم مشفقون \* إن عذاب ربهم غير مأمون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم راعون \* والذين هم بشهاداتهم قائمون \* والذين هم على صلاتهم محافظون \* أولئك في جنات

(٢) في ب: تدعو إلى نفسها.

(٣) في ب: القصد بإقامتها.

(١) في ب: أي: النار التي تلتظي تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة.

تعالى أنه أرسله<sup>(٥)</sup> إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً لهم من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً، فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: **﴿يا قوم إني لكم نذير مبين﴾** أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي: شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به<sup>(٦)</sup>، فقال: **﴿أن اعبدوا الله واتقوه﴾** وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالشواب، **﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾** أي: يمتدكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أي: مقدر [البقاء في الدنيا] بقضاء الله وقدره [إلى وقت محدود]، وليس المتاع أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: **﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾** لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربه: **﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً \* فلم يزدهم دعائي إلا فراراً﴾** أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، **﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم﴾** أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا، غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفوراً عن الحق، **﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾** حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، **﴿واستغشوا ثيابهم﴾** أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق وبغضاً له، **﴿وأصروا﴾** على كفرهم وشركهم، **﴿واستكبروا﴾** على

والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: **﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾** **﴿وما نحن بمسبوقين﴾** أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله **﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾** أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا **﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾** فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والويل ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم<sup>(٣)</sup> الذي يوعدون، فقال: **﴿يوم يخرجون من الأجداث﴾** أي: القبور، **﴿سراعاً﴾** مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها **﴿كأنهم إلى نصب يوفضون﴾** أي: [كأنهم إلى علم] يؤمون ويسرعون<sup>(٤)</sup> أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام، بين يدي رب العالمين. **﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾** وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل، هو يومهم **﴿الذي كانوا يوعدون﴾** ولا بد من الوفاء بوعد الله [تمت والحمد لله].

### تفسير سورة نوح عليه السلام وهي مكية

**﴿١ - ٢٨﴾** **﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك﴾** إلى آخر السورة لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، فأخبر

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم<sup>(١)</sup>، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

**﴿٣٦ - ٣٩﴾** **﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين \* عن اليمين وعن الشمال عزين \* أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم \* كلا إنا خلقناهم مما يعلمون﴾** يقول تعالى، مبيناً اغترار الكافرين: **﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾** أي: مسرعين **﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾** أي: قطعاً متفرقة، وجماعات متوزعة<sup>(٢)</sup>، كل منهم بما لديه فرح.

**﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾** بأي: سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر، والجحود برب العالمين، ولهذا قال: **﴿كلا﴾** [أي: ليس الأمر بأمانيتهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم].

**﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾** أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرأ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

**﴿٤٠ - ٤٤﴾** **﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون \* على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين \* فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون \* يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون \* خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾** هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغارب، للشمس والقمر

(١) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٢) في ب: متنوعة.

(٣) في ب: اليوم.

(٤) في ب: ويقصدون.

(٥) في ب: أنه أرسل نوحاً.

(٦) في ب: وأمرهم بأصل ذلك.



الحق **﴿استكباراً﴾** فشرهم ازداد، وخيرهم بُعد.

**﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾** أي: بمسمع منهم كلهم، **﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾** كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود<sup>(١)</sup>، **﴿فقلت استغفروا ربكم﴾** أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

**﴿إنه كان غفاراً﴾** كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم بمغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من حصول الثواب، واندفاع العقاب.

ورغبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل، فقال: **﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾** أي: مطراً متتابعاً، يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد. **﴿ويمدكم بأموالٍ وبنيانٍ﴾** أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، **﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾** وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

**﴿مالكم لا ترجون الله وقاراً﴾** أي: لا تخافون الله عظمة، وليس الله عندكم قدر، **﴿وقد خلقكم أطواراً﴾** أي: خلقاً [من] بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق<sup>(٢)</sup>، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدل أيضاً عليهم بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: **﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾** أي:

كل سماء فوق الأخرى، **﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾** لأهل الأرض **﴿وجعل الشمس سراجاً﴾**.

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى، **﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾** حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه، **﴿ثم يعيدكم فيها﴾** عند الموت **﴿ويخرجكم إخراجاً﴾** للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور، **﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾** أي: مبسوطة مهياة للانتفاع بها، **﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾** فلولاً أنه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

**﴿قال نوح﴾** شاكياً لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد: **﴿إنهم عصوني﴾** فيما أمرتهم به **﴿واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً﴾** أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملام والأشراف الذين لم تزددهم أموالهم ولا أولادهم إلا خساراً أي: هلاكاً وتفويتاً للأرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! **﴿ومكروا مكراً كباراً﴾** أي: مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحق.

**﴿وقالوا﴾** لهم داعين إلى الشرك مزينين له: **﴿لا تذرنا آلهتكم﴾** فدعوههم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آبائهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم، فقالوا: **﴿ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾** وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم، لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا

رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم، أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة<sup>(٣)</sup>.

**﴿وقد أضلوا كثيراً﴾** أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق، **﴿ولا تزد الظالمين إلا ضللاً﴾** أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالاً أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لصلاحهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال:

**﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾** في اليم الذي أحاط بهم **﴿فأدخلوا ناراً﴾** فذهبت أجسادهم في الفرق، وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئاتهم، التي أتاهم نبينهم نوح ينذرهم عنها، ويحبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، **﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾** ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

**﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾** يدور على وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك، فقال: **﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾** أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح - عليه السلام - ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جرم أن الله استجاب دعوته<sup>(٤)</sup>، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

**﴿رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين﴾**

(١) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود.

(٢) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

(٣) في ب: هذه الأصنام.

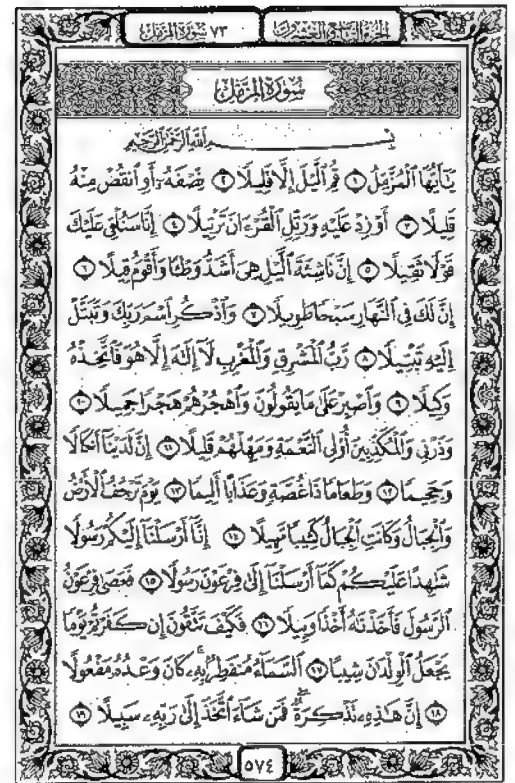
(٤) في ب: فلهذا استجاب الله له دعوته.











وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيا له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إِنْ نَاشَأَ اللَّيْلَ﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقرب إلى تحصيل (١) مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن (٢) القلب واللسان، وتقل الشواغل،

وفيهما ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود (٣)، ولهذا قال: ﴿إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي: ترددًا على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه التفرغ التام، ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشرق والمغرب [كلها]، فهو تعالى رب المشرق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومديره.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومديراً لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل (٤) من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونهم ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصده عنه صاد، ولا يردده راد، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم (٥) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره

بجدالهم بالتي هي أحسن. ﴿وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أمهلهم، وقوله: ﴿أُولِي النِّعْمَةِ﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾ استغنى ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿١٢-١٤﴾ ﴿إِنْ لَدَيْنَا أَنْكَالٌ وَجَحِيمٌ﴾ وطمعاً ذا غصة وعذاباً أليماً ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ أي: إن عندنا أنكالا (٦) أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب (٦) ﴿وَجَحِيمًا﴾ أي: ناراً حامية ﴿وِطْعَامًا ذَا غِصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً مفضعاً، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ الراسيات الصم الصلاب ﴿كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ فمصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً يقول تعالى: احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا هذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه،

(١) في ب: حصول.

(٢) في ب: عليه.

(٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.

(٤) في ب: وفعل المشق.

(٥) في ب: بل يعاملهم.

(٦) في ب: على ما يغضب الله.



يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل (٢)

### تفسير سورة المدثر [وهي مكية]

﴿١-٧﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ \* وَرَبِّكَ فَكْبِرْ \* وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ \* وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ \* وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ \* وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ \* تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ، بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة (٣)، والصدع بالإنذار، فقال: ﴿قُمْ﴾ [أي] بجِد ونشاط ﴿فأَنْذِرْ﴾ الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود. وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه، ﴿وَرَبِّكَ فَكْبِرْ﴾ أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ﴾ يحتمل أن المراد بشيابه، أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بشيابه، الثياب

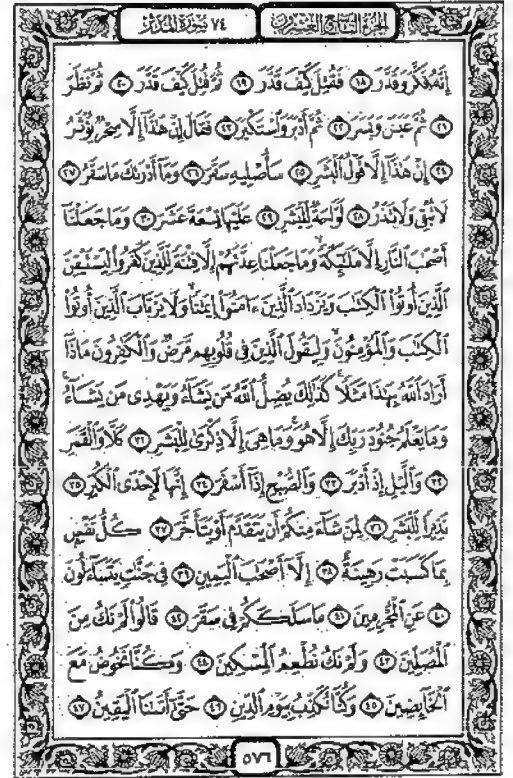
المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها وما نسب إليها من قول أو عمل. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها (٤)، ظاهرها وباطنيتها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾ أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتكثر (٥) بتلك المنّة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنّة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وأنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحداً شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: احتسب بصبرك، واقصديه وجه الله تعالى، فامثل رسول الله ﷺ لأمر به، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله (٦) من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنّة على الناس - بعد منّة الله - من غير أن يطلب منهم



وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها (١).

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم

(١) في ب: أرحم بها من نفسها.

(٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.

(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

(٤) في ب: صغارها وكبارها.

(٥) في ب: فتستكثر.

(٦) في ب: وهجر كل ما يعبد من دون الله وما يبعد منه.







لا تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئاً إلا وبلغته، ﴿لَوْ أَهْلَ لِلْبُشْرِ﴾ أي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقرها.

﴿عليها تسعة عشر﴾ من الملائكة، خزانة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ وذلك لشدتهم وقوتهم.

﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، [كما قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾] ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعدتهم، إلا لتعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا، ما ذكر بعده في قوله: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في

كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلاً لهذه القوائد<sup>(١)</sup> الجليلة، وميزاً للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ وهذا على وجه الخيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إلا هو﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، ﴿وما هي إلا ذكري للبشر﴾ أي: وما هذه الموعظة والتذكير مقصوداً به العتب واللعب، وإنما المقصود به، أن يتذكر [به] البشر ما يتفهم في فعلونه، وما يضرهم في تركونه.

﴿٣٢-٥٦﴾ ﴿كلا والقمر﴾ والليل إذ أدبر \* والصبح إذا أسفر \* إنها لإحدى الكبر \* نذيراً للبشر \* لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر \* كل نفس بما كسبت رهينة \* إلا أصحاب اليمين \* في جنات يتساءلون \* عن المجرمين \* ما سلككم في سقر \* قالوا لم نك من المصلين \* ولم نك نطعم المسكين \* وكنا نخوض مع الخائضين \* وكنا نكذب بيوم الدين \* حتى أتانا اليقين \* فما لهم عن التذكرة معرضين \* كأنهم حمر مستنفرة \*

فرت من قسورة \* بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة \* كلا بل لا يخافون الآخرة \* كلا إنه تذكرة \* فمن شاء ذكره \* وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة \* ﴿كلا﴾ هنا بمعنى: حقاً، أو بمعنى «ألا» الاستفاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه والمقسم عليه قوله: ﴿إنها﴾ أي: النار ﴿لإحدى الكبر﴾ أي: لإحدى العظام الطامة والأمور الهامة، فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدنيه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر [عما خلق له] و[عما يحبه الله ويرضاه]، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ الآية.

﴿كل نفس بما كسبت﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رهينة﴾ بها مؤثقة بسعيها، قد ألزم عتقها، وغل في رقبته، واستوجبت به العذاب، ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم لم يرتكبوا، بل أطلقوا وفرحوا ﴿في جنات يتساءلون﴾ عن المجرمين.

أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وعت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي: حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟ فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: ﴿ما سلككم في سقر﴾ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي: ذنب استحققتموها؟ فـ ﴿قالوا لم نك من

[ولا زائدة] وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.

فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم، ﴿ولا أقسم بالنفوس اللوامة﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُميت «لوامة» لكثرة ترددتها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت<sup>(١)</sup>، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء.

ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾؟ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع] ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب<sup>(٢)</sup> بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

﴿كلا إنه تذكرة﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة، ﴿فمن شاء ذكره﴾ لأنه قد بين له السبيل، ووضح له الدليل.

﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئته<sup>(٣)</sup> نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته، ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر،  
ولله الحمد<sup>(٥)</sup>

### تفسير سورة القيامة [وهي] مكية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بيوم القيامة﴾ ولا أقسم بالنفوس اللوامة ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه﴾ بل قادرين على أن نسوي بنانه ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ يسأل أتيان يوم القيامة ﴿ليست﴾ [لا] [ها] هنا نافية،

المصلين ﴿ولم نك نطعم المسكين﴾ فلا إخلاص للمعبود، [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

﴿وكنا نخوض مع الخائفين﴾ أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق، ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ هذا آثار الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لساائر الخلق.

فناستمرينا على هذا المذهب الفاسد<sup>(١)</sup> ﴿حتى أتانا اليقين﴾ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانستدفتي وجوههم باب الأمل، ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم<sup>(٢)</sup>.

فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب بما<sup>(٣)</sup> يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ أي: صادين غافلين عنها.

﴿كأنهم﴾ في نفرتهم الشديدة منها ﴿همر مستنقرو﴾ أي: كأنهم همز وحش نفرت فنفر بعضها بعضاً، فزاد عدوها، ﴿فرت من قسورة﴾ أي: من صائد ورام يريد بها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوى الكبار. ﴿يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم

(١) في ب: الباطل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم.

(٣) في ب: وبين ما يفعل بهم.

(٤) في ب: فإن مشيئة الله.

(٥) في ب: تمت والله الحمد والمنة.

(٦) في ب: على ما فعلت.

(٧) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال :

﴿٧-١٥﴾ ﴿فإذا برق البصر﴾

وخسف القمر \* وجمع الشمس والقمر \* يقول الإنسان يومئذ أين المفر \* كلا لا وزر \* إلى ربك يومئذ المستقر \* ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر \* بل الإنسان على نفسه بصيرة \* ولو ألقى معاذيره \*

أي : إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم ، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى : ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء \* وخسف القمر \* أي : ذهب نوره وسلطانه ، وجمع الشمس والقمر \* وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى ، فيجمع الله بينهما يوم القيامة ، ويخسف القمر ، وتكور الشمس ، ثم يقذفان في النار ، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران ، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين .

﴿يقول الإنسان﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات : ﴿أين المفر﴾ ؟ أي : أين الخلاص والفرار مما طرقتنا وأصابنا ؟<sup>(١)</sup>

﴿كلا لا وزر﴾ أي : لا ملجأ لأحد دون الله ، ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ لسائر العباد ، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع ، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله ، ولهذا قال : ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ أي : بجميع عمله الحسن والسيئ ، في أول وقته وآخره ، وينبأ بخبر لا ينكره ، ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي : شاهدا ومحاسباً ، ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ فإنها معاذير لا تقبل ، ولا تقابل ما يقرر به العبد<sup>(٢)</sup> ، فيقرُّ به ، كما قال تعالى :

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ .

فالعبد وإن أنكر ، أو اعتذر عما عمله ، فإنكاره واعتذاره يقيدانه شيئاً ، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل ، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه : ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ .

﴿١٦-١٩﴾ ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ \* إن علينا جمعه وقرآنه \* فإذا قرأناه فاتبع قرآنه \* ثم إن علينا بيانه \* كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي ، وشرع في تلاوته عليه ، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه ، فنهاه الله عن هذا ، وقال : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ .

وقال هنا : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ، ويجمعه الله في صدره ، فقال : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ فالحرص الذي في خاطرك ، إنما الداعي له حذر القوات والنسيان ، فإذا ضمنه الله لك ، فلا موجب لذلك .

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي : إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله<sup>(٣)</sup> إليك ، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه . ثم إن علينا بيانه \* أي : بيان معانيه ، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه ، وهذا أعلى ما يكون ، فامتثل ﷺ لأدب ربه ، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا ، أنصت له ، فإذا فرغ قرأه .

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم ، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من<sup>(٤)</sup> المسألة التي شرع فيها ، فإذا فرغ منها سأل عما أشكل عليه ، وكذلك إذا

كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان ، أن لا يبادر برده أو قبوله ، حتى يفرغ من ذلك الكلام ، ليتبين ما فيه من حق أو باطل ، ليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه .

وفيها : أن النبي ﷺ كما بين للأمة ألفاظ الوحي ، فإنه قد بين لهم معانيه .

﴿٢٠-٢٥﴾ ﴿كلا بل تحبون العاجلة﴾ \* وتذرون الآخرة \* وجوه يومئذ ناضرة \* إلى ربها ناظرة \* وجوه يومئذ باسرة \* تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي : هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تحبون العاجلة﴾ وتسعون فيما يحصلها ، وفي لذاتها وشهواتها ، وتؤثرونها على الآخرة ، فتدرون العمل لها ، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة ، والإنسان مولع بحب العاجل ، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم ، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها ، كأنكم لم تخلقوا لها ، وكأن هذه الدار هي دار القرار ، التي تبذل فيها نفائس الأعمار ، ويسعى لها آناء الليل والنهار ، وهذا انقلبت عليكم الحقيقة ، وحصل من الخسار ما حصل .

فلو آثرتم الآخرة على الدنيا ، ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتكم ، وريحتم ربحاً لا خسارة معه ، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه .

ثم ذكر ما يدعو إلى إشار الآخرة ، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها ، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أي : حسنة بهية ، لها رونق ونور ، عما هم فيه من نعيم القلوب ، وبهجة النفوس ، ولذة الأرواح ، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي : تنظر إلى ربها<sup>(٥)</sup> على حسب مراتبهم : منهم

(١) في ب : والفكاك مما طرقتنا وألم بنا .

(٢) في ب : بل يقرر بعمله .

(٣) في ب : إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك .

(٤) في ب : أن لا يبادر المتعلم للمعلم قبل أن يفرغ المعلم .

(٥) في ب : أي ينظرون إلى ربهم .

خلق الإنسان هذه [وطوره إلى] الأطوار المختلفة ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾ بل إنه على كل شيء قدير.

تم تفسير سورة القيامة، والله الحمد والمنة، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤<sup>(٧)</sup>.

المجلد التاسع من تفسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لعامة الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين.

### تفسير سورة هل أتى على الإنسان وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً \* إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً \* إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها.

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم بل ليس مذكوراً.

ثم لما أراد الله تعالى خلقه، خلق [آباه] آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿من نطفة أمشاج﴾ أي: ماء مهين مستقذر ﴿نبتليه﴾ بذلك، لنعلم هل يرى حاله الأولى، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟

فأنشأه الله، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة، كالسمع والبصر، وسائر الأعضاء، فأتمها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده.

ثم أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وهدهد الطريق الموصلة

ولكن القضاء والقدر، إذا حتم وجاء فلا مرد له، ﴿وظن أنه الفراق﴾ للدنيا.

﴿والتفت الساق بالساق﴾ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألقت البدن<sup>(٤)</sup> ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها.

فهذا الزجر، [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها.

ولكن المعاند الذي<sup>(٥)</sup> لا تنفع فيه الآيات، لا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده.

﴿فلا صدق﴾ أي: لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿ولا صلي﴾ ولكن كذب ﴿بالحق في مقابلة التصديق﴾، ﴿وتولى﴾ عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه، بل يذهب ﴿إلى أهله يتمطى﴾ أي: ليس على باله شيء، توعده بقوله: ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى ﴿وهذه كلمات وعيد، كررها لتكرير وعيده، ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول، فقال: ﴿أيمحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ أي: معطلاً<sup>(٦)</sup>، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يُثاب ولا يُعاقب؟ هذا حسابان باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته.

﴿ألم يك نطفة من مني يمني﴾ ثم كان ﴿بعد المنى﴾ علقة ﴿أي: دماً، فخلق﴾ الله منها الحيوان وسواه أي: أتقنه وأحكمه، ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ أليس ذلك الذي

من ينظره كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من البلدة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، وازدادوا جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم.

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة: ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ أي: معبسة ومكدرة<sup>(١)</sup>، خاشعة ذليلة ﴿نظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي: عقوبة شديدة، وعذاب أليم، فلذلك تغيرت وجوههم وعيس.

﴿٢٦-٤٠﴾ ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ وقيل من راق ﴿وظن أنه الفراق﴾ والتفت الساق بالساق ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ فلا صدق ولا صلي ﴿ولكن كذب وتولى﴾ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴿أولى لك فأولى﴾ ثم أولى لك فأولى ﴿أيمحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ألم يك نطفة من مني يمني ﴿ثم كان علقة فخلق فسوى﴾ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ يعظ تعالى عباده، بذكر حال المحتضر عند السياق<sup>(٢)</sup>، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لشجرة النحر، فحيثئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وقيل من راق﴾ أي: من يرقيه، من الرقية، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية<sup>(٣)</sup>.

(١) في ب: كدرة.

(٢) في ب: بذكر المحتضر حال السياق.

(٣) في ب: فتعلقوا بالأسباب الإلهية.

(٤) في ب: أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته.

(٥) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٦) في ب: أي مهملاً.

(٧) في ب: والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم.



إلى الله<sup>(١)</sup>، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورغبه منها، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكركم لنعمة الله عليه، قائم بما حبله الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردّها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال:

﴿٤- ٢٢﴾ **﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً﴾** \* إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً \* إلى آخر الثواب أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجراً على المعاصي **﴿سلاسل﴾** في نار جهنم، كما قال تعالى: **﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾**.

**﴿وأغلالاً﴾** تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها.

**﴿وسعيراً﴾** أي: ناراً تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها أبدانهم، **﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، ليذوقوا العذاب﴾** وهذا العذاب دائم لهم أبداً، يخلدون فيه سرمداً.

وأما **﴿الأبرار﴾** وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الجميلة، فبرت جوارحهم<sup>(٢)</sup>، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم **﴿يشربون من كأس﴾** أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط بكافور، ليرده ويكسر حدته، وهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا،

فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة<sup>(٣)</sup>.

كما قال تعالى: **﴿في سدر مخضود \* وطلح منضود﴾** \* وأزواج مطهرة \* **﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾** وفيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين.

**﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾** أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاذه، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيراً، أنى شأؤوا، وكيف أرادوا، فإن شأؤوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات الموثقات.

وقد ذكر<sup>(٤)</sup> جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: **﴿يوفون بالنذر﴾** أي: بما ألزموا به أنفسهم الله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب<sup>(٥)</sup> عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى، **﴿ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾** أي: منتشرأفاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك، **﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾** أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم، **﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾**.

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: **﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾** لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً أي:

لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً.

**﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً﴾** أي: شديد الجهمة والشر **﴿قمطيراً﴾** أي: ضنكاً ضيقاً، **﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾** فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتلقاهم الملائكة [هذا يومكم الذي كنتم توعدون].

**﴿ولقاهم﴾** أي: أكرمهم وأعطاهم **﴿نفرة﴾** في وجوههم **﴿وسروراً﴾** في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن، **﴿وجزاهم بما صبروا﴾** على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلة، فلم يتسخطوها، **﴿جنة﴾** جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، **﴿وحريراً﴾** كما قال [تعالى: ] **﴿ولباسهم فيها حرير﴾** ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، النال على حال صاحبه.

**﴿متكئين فيها على الأرائك﴾** الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك هي السرر التي عليها اللباس المزين، **﴿لا يرون فيها﴾** أي: في الجنة **﴿شمساً﴾** يضرهم حرها، **﴿ولا زمهرياً﴾** أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تألم من حر ولا برد.

**﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾** أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريباً ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويضاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان<sup>(٦)</sup> **﴿بآنية من فضة﴾** وأكواب كانت قواريراً \* قوارير من فضة أي: منادتها من فضة،

(١) في ب: الطريق الموصلة إليه وبينها.

(٢) في ب: أعمالهم.

(٣) في ب: الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة.

(٤) في ب: ثم ذكر.

(٥) في ب: الذي هو غير واجب.

(٦) في ب: **﴿ويطاف عليهم﴾** أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.

[وهي] على صفاء القوارير، وهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة، من صفاء جوهرها، وطيب معدنها، على صفاء القوارير.

﴿قدروها تقديراً﴾ أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر ربهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف برهم<sup>(١)</sup>.

ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم، ويسقون فيها<sup>(٢)</sup> أي: في الجنة، من كأس، وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق، ﴿كان مزاجها﴾ أي: خلطها ﴿زنجيلاً﴾ ليطيب طعمه وريحه.

﴿عيناً فيها﴾ أي: في الجنة، تسمى سلسبيلاً سميت بذلك لسلستها ولذتها وحسنها.

﴿ويطوف﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم وخدمتهم.

﴿ولدان مخلصون﴾ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إذا رأيتهم﴾ من منشرين في خدمتهم ﴿حسبتهم﴾ من حسنهم ﴿لؤلؤاً مثوراً﴾ وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدامهم الولدان المخلصون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون وتطلبه نفوسهم، ﴿وإذا رأيت ثم﴾ أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم<sup>(٣)</sup>. ﴿رأيت نعيماً ملكاً كبيراً﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار

الجارية، والرياض المعجبة، والطيور المطربة [المشجية]، ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.

وعنده من الزوجات، اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سروراً، ولذة وحبوراً، وحوله من الولدان المخلصين، والخدم المؤيدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.

ثم علاوة ذلك ومعظمه، الفوز برؤية<sup>(٤)</sup> الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قرب، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفذ خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه، فلا نهاية لبره وإحسانه، ﴿عاليتهم ثياب سندس خضر﴾ أي: قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق الأخضران، اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من الديباج<sup>(٥)</sup>، والاستبرق: ما رق منه.

﴿وحلوا أساور من فضة﴾ أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم، وهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولاً، لأنه لا أصدق منه قيلاً ولا حديثاً. وقوله: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿إن هذا﴾ الجزء الجزيل والنعطاء الجميل ﴿كان لكم جزاء﴾ على ما أسلفتموه من الأعمال، ﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾ أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن

عَيْنَا رَبِّ عَالَمَاتٍ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامِ ﴿يُؤْتُونَ يَأْتُونَ وَيَخْفُونَ﴾ ﴿يَوْمَ كَانَ سُورٌ مُسْتَوِيًّا﴾ ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ وَنَحْنُ﴾ ﴿وَيَسْمَعُونَ أَسْرَارًا﴾ ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ فَبِأَنِّكُمْ لَا تَزِيدُكُمْ حَزَنًا وَلَا تَنْفَكُكُمْ﴾ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَسْرَارُ﴾ ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكِ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَجَنَّةَ عِلِّيِّينَ﴾ ﴿مُنْجِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ لَا يَزُولُ فِيهَا سَمْسَارٌ وَلَا يَنْهَرُ بَرٌّ﴾ ﴿وَرَبَّانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَرْبَابُهَا لَا يَمُوتُ فِيهَا أَزْدِلَالٌ﴾ ﴿وَيَسْمَعُونَ فِيهَا مِنْ حَسْبٍ قَوَارِيرَ﴾ ﴿فَوَارُونَ مِنْ حَيْثُ يَنْفَخُ الْقَارُورُ﴾ ﴿وَيَسْمَعُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُرَّادٌ مَخْلُودُونَ إِذَا رَأَوْهُمْ عَلَى ثِيَابٍ شَدِيدٍ خَضِرَ وَأَسْبَقَ وَنُورٍ أَسْوَدَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ إِلَهُكُمْ أَنْ تَقُولُوا رَبُّكُمْ إِلَّا نَحْنُ﴾ ﴿وَأَذْكُرَ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

حصره.

وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾ فيه الوعد والوعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك.

ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً﴾ أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق.

﴿ولا تطع﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿أثماً﴾ أي: فاعلاً إثمياً ومعصية ولا ﴿كفوراً﴾ فإن طاعة الكفار والفجار والفساق، لا بد أن تكون في المعاصي، فلا يأمرهم<sup>(٥)</sup> إلا بما تنهوا أنفسهم.

ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله<sup>(٦)</sup>، والإكثار من ذكره، أمره الله بذلك، فقال: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك، الصلوات

(١) في ب: لم تكفهم لربهم.

(٢) في ب: أي رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل.

(٣) في ب: برضا.

(٤) في ب: ما غلظ الحرير.

(٥) في ب: لا بد أن تكون معصية لله لأنهم لا يأمرهم.

(٦) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله.

على الهدى ﴿أعد لهم عذاباً أليماً﴾  
[بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان،  
ولله الحمد والمنة<sup>(٤)</sup>

### تفسير سورة المرسلات وهي مكية

﴿١٥ - ١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرحيم والمرسلات عرفاً \* فالعاصفات  
عصفاً \* والناشرات نشرأ \*  
فالفارقات فرقاً \* فالملقيات ذكراً \*  
عذراً أو نذراً \* إنما توعدون لواقع \*  
فيذا النجوم طمست \* وإذا السماء  
فرجت \* وإذا الجبال نسفت \* وإذا  
الرسل أقتت \* لأي: يوم أجلت \*  
ليوم الفصل \* وما أدراك ما يوم  
الفصل \* ويل يومئذ للمكذبين \*  
أقسم تعالى على البعث والجزاء  
بالأعمال<sup>(٥)</sup>، بالمرسلات عرفاً، وهي  
الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه  
القدرية وتدبير العالم، وبشئونه  
الشرعية ووحيه إلى رسله.

و ﴿عرفاً﴾ حال من المرسلات  
أي: أرسلت بالعرف والحكمة  
والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي [أيضاً]  
الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها  
بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره،  
كالريح العاصف، أو: أن العاصفات،  
الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها،  
﴿والناشرات نشرأ﴾ يحتمل أنها  
الملائكة<sup>(٦)</sup>، تنشر ما دبرت على نشره،  
أو أنها السحاب التي يُنشر بها الله  
الأرض، فيحييها بعد موتها،  
﴿فالملقيات ذكراً﴾ هي الملائكة، تلقي  
أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي

﴿٢٨﴾ ثم استدلل عليهم وعلى  
بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء،  
فقال: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي:  
أوجدناهم من العدم، ﴿وشددنا  
أسرهم﴾ أي: أحكمنا خلقتهم  
بالأعصاب، والعروق، والأوتار،  
والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم  
الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما  
يريده، فالذي أوجدهم على هذه  
الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم  
لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار  
إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم  
سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون،  
ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا  
قال:

﴿بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي:  
أنشأناكم للبعث نشأة أخرى،  
وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم  
أمثالهم.

﴿إن هذه تذكرة﴾ أي: يتذكر بها  
المؤمن، فيتفجع بما فيها من التخويف  
والتغريب.

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾  
أي: طريقاً موصلاً إليه، فالله يبين الحق  
والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء  
بها أو التفور عنها، مع قيام الحجة  
عليهم<sup>(٣)</sup>، ﴿وما تشاؤون إلا أن  
يشاء الله﴾ فإن مشيئة الله نافذة،  
﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فله  
الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال  
الضال.

﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾  
فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب  
السعادة ويهديه لطرقها.

﴿والظالمين﴾ الذين اختاروا الشقاء

ومن أئبل فانسجده لموسى ليلاً طويلاً ﴿إن  
هؤلاء يجحون العاجلة ويؤخرون﴾ ﴿وما قيل  
لهم عذابهم ومصدقاً أسرهم﴾ ﴿وإذا شئنا بدلنا  
أمثالهم تبديلاً﴾ ﴿إن هؤلاء للحكمة من شاة الله إلى ربهم سبيلاً﴾  
﴿وما نشاءون إلا أن يشاء الله﴾ ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾  
﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ ﴿والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾

#### سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ وَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾  
وَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٥﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٦﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٧﴾  
وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٨﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٩﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٠﴾  
وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١١﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٢﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٣﴾  
وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٤﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٥﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٦﴾  
وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٧﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٨﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿١٩﴾  
وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٠﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢١﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٢﴾  
وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٣﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٤﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٥﴾  
وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٦﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٧﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٨﴾  
وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٢٩﴾ وَالْمَلَقَاتِ ذُكْرًا ﴿٣٠﴾

٥٨١

المكتوبات وما يتبعها من النوافل،  
والذكر، والتسبيح، والتهليل،  
والتكبير في هذه الأوقات.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ أي: أكثر  
[له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا  
بالإكثار من الصلاة<sup>(١)</sup>.

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وقد تقدم  
تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿ينا أيها  
المزمل﴾ قم الليل إلا قليلاً الآية<sup>(٢)</sup>:  
[وقوله] ﴿إن هؤلاء﴾ أي: المكذبين  
لك أيها الرسول بعدما بينت لهم  
الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك،  
لم يقد فيهم ذلك شيئاً، بل لا يزالون  
يؤثرون ﴿العاجلة﴾ ويطمنون إليها،  
﴿ويدرون﴾ أي: يتركون العمل  
ويحملون ورائهم﴾ أي: أمامهم  
﴿يوماً ثقيلاً﴾ وهو يوم القيامة، الذي  
مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون،  
وقال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم  
عسر﴾.

فكانهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة  
فيها.

(١) في ب: وذلك متضمن لكثرة الصلاة.

(٢) في ب: أكمل الآيات نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه.

(٣) في ب: إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(٤) في ب: تمت ولله الحمد.

(٥) في ب: على الأعمال.

(٦) في ب: يحتمل أن المراد بها الملائكة.

يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم، تلقية إلى الرسل، **﴿عذراً أو نذراً﴾** أي: إغذاراً وإنذاراً للناس، تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف، وتقطع معذرتهم<sup>(١)</sup>، فلا يكون لهم حجة على الله.

**﴿إنما توعدون﴾** من البعث والجزاء على الأعمال **﴿لواقع﴾** أي: متحتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

إذا وقع حصل من التغير للعالم والأحوال الشديدة ما يزعج القلوب، وتشتد له الكروب، فتطمس النجوم أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، وذلك اليوم هو اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:

**﴿لأي: يوم أُجِّلْت﴾** استفهام للتعظيم والتفخيم والتهويل.

ثم أجاب بقوله: **﴿ليوم الفصل﴾** [أي: بين الخلاق، بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفرداً، ثم توعده المكذب بهذا اليوم، فقال: **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم يصدقوه، فاستحقوا<sup>(٢)</sup> العقوبة البليغة.

**﴿١٦-١٩﴾** **﴿ألم نهلك الأولين﴾** ثم تتبعهم الآخرين \* كذلك تفعل بالمجرمين \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما أهلكنا المكذبين السابقين، ثم تتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لا بد من عذابه<sup>(٣)</sup>، فلم لا تعتبرون بما ترون

وتسمعون؟ **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** بعدما شاهدوا من الآيات البيّنات، والعقوبات والمثالات.

**﴿٢٠-٢٤﴾** **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾** فجعلناه في قرار مكين \* إلى قدر معلوم \* **﴿فقدروا فنعم القادرون﴾** \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما خلقناكم أيها الآدميون **﴿من ماء مهين﴾** أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله **﴿في قرار مكين﴾** وهو الرحم، به يستقر وينمو **﴿إلى قدر معلوم﴾** ووقت مقدر، **﴿فقدروا﴾** أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

**﴿فنعم القادرون﴾** [يعني بذلك نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابِعاً للحكمة، موافقاً للحمد<sup>(٤)</sup>.

**﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبيّنات.

**﴿٢٥-٢٨﴾** **﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾** \* **﴿أحياء وأمواتاً﴾** \* وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** أي: أما امتننا<sup>(٥)</sup> عليكم وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها **﴿كفاتاً﴾** لكم، **﴿أحياء﴾** في الدور، **﴿وأمواتاً﴾** في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده وممنته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وستر لهم، عن كون أجسادهم بادية للسياح وغيرها.

**﴿وجعلنا فيها رواسي﴾** أي: جبلاً

أزغلفكم من قار مهين \* فجعلنا في قرار مكين \* إلى قدر معلوم \* **﴿فقدروا فنعم القادرون﴾** \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** \* **﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾** \* **﴿أحياء وأمواتاً﴾** \* وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** \* **﴿أنطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** \* **﴿لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾** \* **﴿إنها ترمي بشرراً كالقصر﴾** \* كأنه جملة صفر \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** \* **﴿هذا يوم الفصل﴾** جمعكم والاولين \* **﴿إن كان لكم كوكب فكدون﴾** \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** \* **﴿إن اللّٰهون في الظلّ رعون﴾** \* **﴿وقوله ما يشعرون﴾** \* **﴿كواشرا ههنا﴾** \* **﴿يا كافر تعلمون﴾** \* **﴿إنا كذلك نجزي المشركين﴾** \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** \* **﴿كواشرا قليلاً﴾** \* **﴿إنكم فخر موت﴾** \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** \* **﴿فادفناهم فادفناهم﴾** \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** \* **﴿فأبى حشر بعدة يوم موت﴾**

ترسي الأرض، لثلاث تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات أي: الطوال العراض، **﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾** أي: عذباً زلالاً، قال تعالى: **﴿أفأريتم الماء الذي تشربون﴾** \* **﴿أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾** \* لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون.

**﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** مع ما أراهم الله من النعم، التي انفرد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالكذب.

**﴿٢٩-٣٣﴾** **﴿أنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** \* **﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** \* لا ظليل ولا يغني من اللهب \* **﴿إنها ترمي بشرراً كالقصر﴾** \* كأنه جملة صفر \* **﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾** هذا من الويل الذي أعد [للمجرمين] للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: **﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾** ثم فسر ذلك بقوله: **﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾** أي: إلى ظل نار جهنم، التي تتمايز في

(١) في ب: أعدارهم.

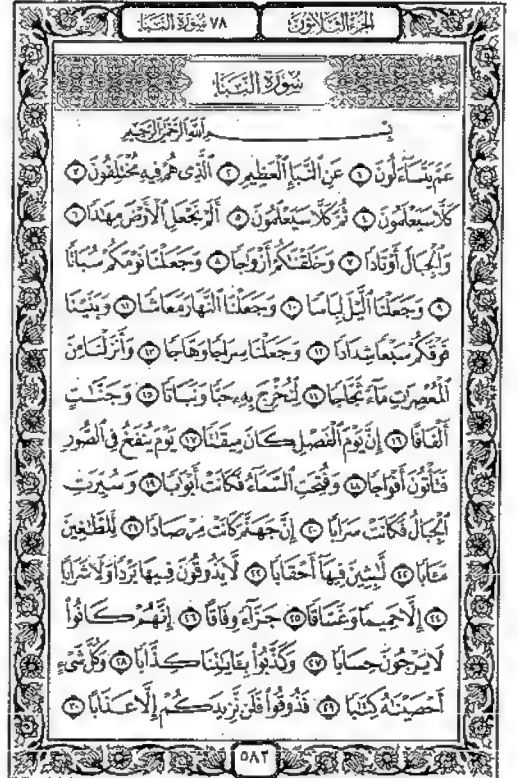
(٢) في ب: فذلك استحقوا.

(٣) في ب: عقابه.

(٤) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد.

(٥) في ب: أمانتنا.





خلاله ثلاث شعب أي: قطع من النار أي: تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به.

﴿لا ظليل﴾ ذلك الظل أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿ولا يغني﴾ من مكث فيه ﴿من اللهب﴾ بل اللهب قد أحاط به، يمته ويسرة ومن كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾.

﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾.

ثم ذكر عظم شر النار، الدال على عظمها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال:

﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ كأنه جملة صفر، وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة، لهبها وجهرها وشرورها، وأنها سوداء، كرية المرأى<sup>(١)</sup>، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها [من الأعمال المقربة منها].

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾

﴿٣٥ - ٤٠﴾ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون \* ويل يومئذ للمكذبين \*

(١) في ب: كرية المنظر.

(٢) في ب: ثواب.

هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين \* فإن كان لكم كيذ فكيدون \* ويل يومئذ للمكذبين \* أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد، ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا: ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾.

﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ لفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق، ﴿فإن كان لكم كيذ﴾ تقدرون على الخروج من ملكي، وتنجون به من عذابي، ﴿فكيدون﴾ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾.

﴿٤١ - ٤٥﴾ ﴿إن المتقين في ظلال وعيون﴾ وفواكه فما يشتهون \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون \* إنا كذلك نجزي المحسنين \* ويل يومئذ للمكذبين \* لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر ثواب<sup>(٢)</sup> المحسنين، فقال: ﴿إن المتقين﴾ [أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات].

﴿في ظلال﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية. ﴿وعيون﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرهما، ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي: من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم: ﴿كلوا واشربوا﴾ من المأكّل الشهيّة،

والأشربة اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ولا زائل، ﴿بما كنتم تعملون﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم<sup>(٣)</sup> المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين \* ويل يومئذ للمكذبين﴾ ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرماناً وخسراً<sup>(٤)</sup>.

﴿٤٦ - ٥٠﴾ ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ \* ويل يومئذ للمكذبين \* وإذ قيل لهم اركعوا لا يركعون \* ويل يومئذ للمكذبين \* فبأي: حديث بعده يؤمنون \* هذا تهديد ووعد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستنقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم الثبعات، ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿اركعوا﴾ امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟!!

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويجرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

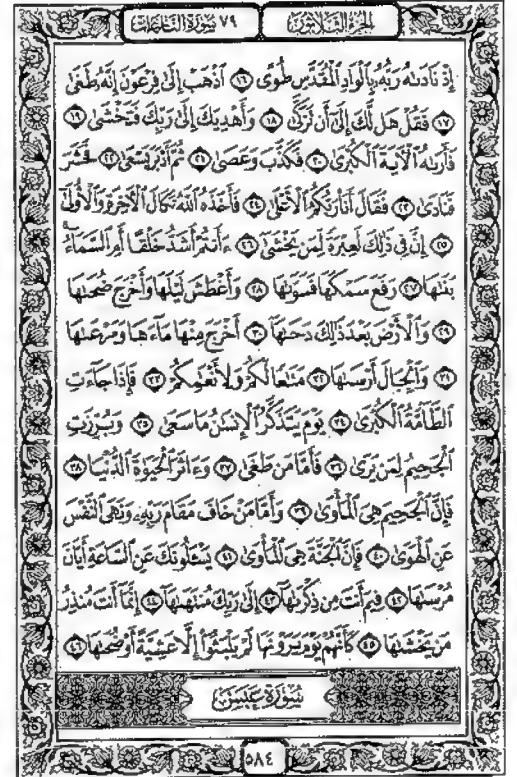
﴿فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾ ألباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مين؟

فليس بعد النور المبين إلا دياجي

(٤) في ب: حزناً وحرماناً.

(٣) في ب: إلى جنات النعيم.





جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم.

﴿إلا هيماً﴾ أي: ماء حاراً، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، وغساقاً وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية النتن، وكراهة المذاق، وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم ووفقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليهم، لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

هيماً وغساقاً \* جزاء وفاقاً \* إنهم كانوا لا يرجون حساباً \* وكذبوا بآياتنا كذاباً \* وكل شيء أحصيناه كتاباً \* فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويحجده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿ميقاناً﴾ للخلق ﴿ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له الوليد، وتنزعج له القلوب، فتسير الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث، وتشقق<sup>(١)</sup> السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجوز، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعددها للطاغين، وجعلها مثوى لهم ومآباً، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، و «الحق» على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة. وهم إذا وردوها<sup>(٢)</sup> ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً﴾ أي: لا ما يبرد

﴿٣١-٣٦﴾ ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ \* حدائق وأعناباً \* وكواعب أتراباً \* وكأساً دهاقاً \* لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً \* جزاء من ربك عطاء حساباً لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال: ﴿إن المتقين مفازاً﴾ أي<sup>(٤)</sup>: الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه<sup>(٥)</sup> فلهم مفاز ومنجى، ويغد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم ﴿حدائق﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية، في الثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق.

﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ أي: كذبوا بها تكديباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وكل شيء﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أحصيناه كتاباً﴾ أي: كتبناه<sup>(٣)</sup> في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أننا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾.

﴿فذوقوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم ﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿كواعب﴾: وهي: النواهد اللاتي لم يتكسر ثديهن من شبابهن، وقوتهن، ونضارتهن<sup>(٦)</sup>.

﴿والأتراب﴾: اللاتي على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكن متآلفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب<sup>(٧)</sup>.

﴿وكأساً دهاقاً﴾ أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين، ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا فائدة فيه ﴿ولا كذاباً﴾ أي: إثماً.

كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ إلا قبيلاً سلاماً سلاماً.

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] ﴿جزاء من ربك﴾ لهم ﴿عطاء حساباً﴾ أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها<sup>(٨)</sup>.

(١) في ب: وتنشق.

(٢) في ب: فإذا وردوها.

(٣) في ب: أثبتناه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين.

(٥) في ب: عن معصيته.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم يتكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها.

(٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب.

(٨) في ب: وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته.





يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

﴿٢٧ - ٣٣﴾ «أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها» \* رفع سمكها فسواها \* وأغطش ليلها وأخرج ضحاها \* والأرض بعد ذلك دحاهها \* أخرج منها ماءها ومرعاها \* والجبال أرساها \* متاعاً لكم ولأنعامكم \* يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لمنكري البعث ومستعدي إعادة الله للأجساد:

﴿أأنتم﴾ أيها البشر «أشد خلقاً أم السماء» ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر «بناها» الله، «رفع سمكها» أي: جرمها وصورتها، «فسواها» بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب، «وأغطش ليلها» أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، «وأخرج ضحاها» أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد<sup>(٣)</sup> الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿والأرض بعد ذلك﴾ أي: بعد خلق السماء «دحاهها» أي: أودع فيها منافعها.

وفسر ذلك بقوله: «أخرج منها ماءها ومرعاها \* والجبال أرساها» أي: ثبتها في الأرض.

فدُخِيَ الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة].

وأما خلق نفس الأرض، فمقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ إلى أن قال: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا

والأولى \* إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ يقول [الله] تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

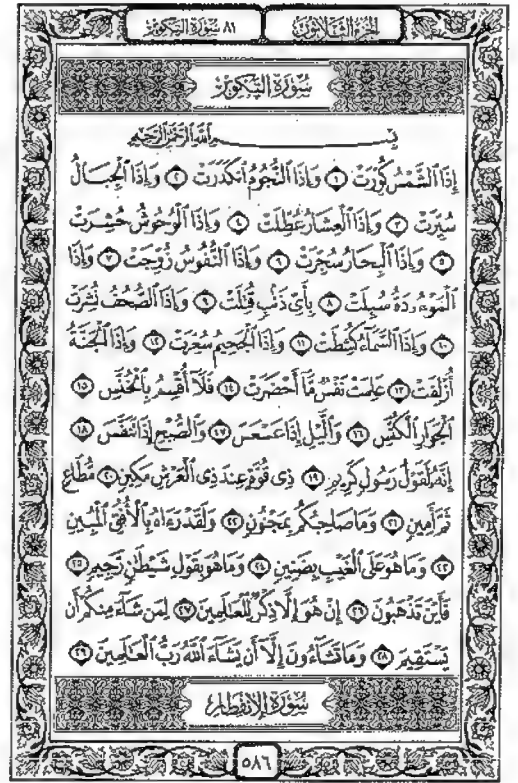
أي: هل أتاك حديثه «إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى» وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتدَّ عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء<sup>(١)</sup> فقال له: «أذهب إلى فرعون إنه طغى» أي: فأنه عن طغيانه وشركه وعصيانه، يقول لين، وخطاب لطيف، لعله «يتذكر أو يخشى»

﴿فقل﴾ له: ﴿هل لك إلى أن تزكى﴾ أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكى نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

﴿فتخشى﴾ الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

﴿فأراه الآية الكبرى﴾ أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تبعدها «فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين» \* ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين \* «فكذب» بالحق «وعصى» الأمر، «ثم أدبر يسعى» أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته، «فحشر» جنوده أي: جمعهم «فنادى» فقال لهم: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ فأذعنوا له، وأقروا بباطله حين استخفهم، «فأخذه الله نكال الآخرة والأولى» أي: صارت عقوبته<sup>(٢)</sup> دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة، «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» فإن من



وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف [واستولت عليهم] الحسرة.

يقولون أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ أي: بالية فتاتا.

﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾ أي: استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً [منهم] بقدرة الله، وتجبروا عليه.

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ فيها في الصور.

فإذا الخلائق كلهم «بالساهرة» أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويمجازيهم.

﴿١٥ - ٢٦﴾ «هل أتاك حديث موسى» \* إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى \* أذهب إلى فرعون إنه طغى \* فقل هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك إلى ربك فتخشى \* فأراه الآية الكبرى \* فكذب وعصى \* ثم أدبر يسعى \* فحشر فنادى \* فقال أنا ربكم الأعلى \* فأخذه الله نكال الآخرة

(١) في ب: وابتعته بالوحي واجتباء.

(٢) في ب: أي جعل الله عقوبته.

(٣) في ب: فانشر.

طائمين<sup>(١)</sup>.

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسن، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزاء<sup>(٢)</sup>، فقال:

﴿٣٤ - ٤١﴾ فإذا جاءت الطامة

الكبرى \* يوم يتذكر الإنسان ما سعى \* وبرزت الجحيم لمن يرى \* فأما من طفئ \* وأثر الحياة الدنيا \* فإن الجحيم هي المأوى \* وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى \* فإن الجنة هي المأوى \* أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه [وكل محب عن حبيبه]. و ﴿يتذكر الإنسان ما سعى﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي:

جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت<sup>(٣)</sup> لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فأما من طفئ﴾ أي: جاوز الحد،

بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وأثر الحياة الدنيا﴾ على الآخرة،

فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ [له] أي:

المقر والمسكن لمن هذه حاله، ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه. فنهى نفسه عن هواها الذي يقيد<sup>(٤)</sup>ها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصاذين عن الخير، ﴿فإن الجنة﴾ [المتصلة على كل خير وسرور ونعيم] هي المأوى لمن هذا وصفه.

﴿٤٢ - ٤٦﴾ يسألونك عن

الساعة أتيان مرساها \* فيم أنت من ذكراها \* إلى ربك منتهاها \* إنما أنت منذر من يخشاها \* كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها \* أي:

يسأل المتعنتون المكذبون بالبعث عن الساعة متى وقوعها و ﴿أتيان مرساها﴾ فأجابهم الله بقوله: ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال:

﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي: إليه ينتهي

علمها، كما قال في الآية الأخرى:

﴿يسألونك عن الساعة أتيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يحليها لوقتها إلا

هو ثقلت في السماوات والأرض

لا تأتيكم إلا بغته يسألونك كأنك

حفي عنها قل إنما علمها عند الله

ولكن أكثر الناس لا يعلمون<sup>(٥)</sup>.

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي:

إنما نذراتك [نفعها] لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتبعته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه الحكيم عنه [تحت] والحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة عبس وهي مكية

﴿١ - ١٠﴾ بسم الله الرحمن

الرحيم عبس وتولى \* أن جاءه الأعمى \* وما يدريك لعله يزكى \* أو يذكر فتنتفه الذكري \* أما من استغنى \* فأنت له تصدى \* وما عليك ألا يزكى \* وأما من جاءك يسعى \* وهو يخشى \* فأنت عنه تلهى \* وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاء رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيتة، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: ﴿عبس﴾ [أي: في وجهه] ﴿وتولى﴾ في بدنه، لأجل مجيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وما يدريك لعله﴾ أي: الأعمى. ﴿يزكى﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿أو يدكر فتنتفه الذكري؟﴾ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل<sup>(٦)</sup> بتلك الذكرى.

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ وصواب ذلك ما أثبت.

(٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء.

(٣) في ب: هيئت.

(٤) في ب: الذي يصددها.

(٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة (أ) ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأتممتها.

(٦) في ب: فينتفع.

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فأقبالك على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك<sup>(١)</sup>، هو الأليق الواجب، وأما تصديقك وتعرضك للبغي المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة»، وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿٣٢ - ١١﴾ ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ \* فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ \* فِي صَحْفٍ مُكْرَمَةٍ \* مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ \* بِأَيْدِي سَفَرَةٍ \* كِرَامٍ بَرَرَةٍ \* قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ \* مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ \* مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ \* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ \* ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ \* ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ \* كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ \* فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ \* أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا \* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا \* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا \* وَعَبْنَا وَقَضَبًّا \* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا \* وَحَدائقَ غَلَبًّا \* وَفَاكِهَةً وَبَآءًا \* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ \* يَقُولُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك ﴿فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: عمل به، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾.

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها، فقال: ﴿فِي صَحْفٍ مُكْرَمَةٍ \* مَرْفُوعَةٍ﴾ القدر والرتبة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ [من الآفاق و] عن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾: وهم الملائكة [الذين هم] السفراء بين الله وبين عباده، ﴿كِرَامٍ﴾ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿بَرَرَةٍ﴾ قلوبهم وأعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ﴾.

لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ أي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهذه السبيل، [وبينه] وامتحنه بالأمر والنهي، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي: بعثه بعد موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكير في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره له، فقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ \* أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا \* أَيُّ أَنْزَلْنَا الْمَطَرَ عَلَى الْأَرْضِ بَكْشَرَةً \* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ لَلْنَبَاتِ شَقًّا \* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا \* أَصْنَافًا مُصَنَّفَةً مِنْ أَنْوَاعِ الْأَطْعَمَةِ اللَّذِيذَةِ، وَالْأَقْوَاتِ الشَّهِيَةِ﴾ حَبًّا وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، ﴿وَعَبْنَا وَقَضَبًا﴾: وهو القث، ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ وخص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها.

﴿وَحَدَائِقَ غَلَبًا﴾ أي: بساتين فيها

الأشجار الكثيرة الملتفة، ﴿وَفَاكِهَةً وَبَآءًا﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.

والآب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم، أوجب له ذلك شكره، وبذل الجهد في الإجابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

﴿٣٣ - ٤٢﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاحَةُ \* يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ \* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ \* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ \* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ \* وَجَوَهِ يَوْمَئِذٍ مَسْفُورَةٌ \* صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ \* وَجَوَهِ يَوْمَئِذٍ غَيْرُهُ \* تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ \* أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ﴾ أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماع، وتزعج لها الأفتدة يومئذ، مما يرى الناس من الأحوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال، ﴿يَقْرَأُ الْمَرْءُ﴾ من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، ﴿مِنْ أَخِيهِ \* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ \* وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ وذلك لأنه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، أي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحيثما ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء، فوجوههم [يومئذ] ﴿مُسْفُورَةٌ﴾ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم، ﴿صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ \* وَجَوَهِ الْأَشْقِيَاءِ يَوْمَئِذٍ غَيْرُهُ \* تَرَهَقَهَا﴾ أي: تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذا الوصف هم الكفرة الفجرة، أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله، وتجروا على محارمه.

(١) في ب: مفتقراً لذلك مقبلاً.

نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم [والحمد لله رب العالمين].

### تفسير سورة التكويد [وهي] مكية

﴿١- ١٤﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ \* وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ \* وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ \* وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ \* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ \* وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ \* وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ \* وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ \* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ \* وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ \* وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ \* وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ \* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضِرَتْ \* أَيُّ إِذَا حُصِلَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْهَائِلَةُ، تَمِيزُ الْخَلْقَ، وَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ مَا قَدِمَهُ لِآخِرَتِهِ، وَمَا أَحْضَرَهُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَكْوِيرِ الشَّمْسِ أَيُّ: تَجْمَعُ وَتَلْفُ، وَيُخَسَفُ الْقَمَرُ، وَيَلْقِيَانِ فِي النَّارِ، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أَيُّ: تَغَيَّرَتْ، وَتَسَاقَطَتْ <sup>(١)</sup> مِنْ أَفْلَاكِهَا، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أَيُّ: صَارَتْ كَثِيبًا مَهِيلًا، ثُمَّ صَارَتْ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ وَصَارَتْ هَبَاءً مَنِيئًا، وَسِيرَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أَيُّ: عَطِلَ النَّاسُ حَيْثُ نَفَاسِ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَهْتَمُّونَ لَهَا وَيُرَاعَوْنَهَا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، فَجَاءَهُمْ مَا يَذْهَلُهُمْ عَنْهَا، فَتَبَّهَ بِالْعِشَارِ، وَهِيَ النُّوقُ الَّتِي تَتَّبِعُهَا أَوْلَادُهَا، وَهِيَ أَنْفُسُ أَمْوَالِ الْعَرَبِ إِذْ ذَاكَ عِنْدَهُمْ، عَلَى مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا مِنْ كُلِّ نَفِيسٍ.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أَيُّ: جُمِعَتْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِيَقْتَصَّ اللَّهُ مِنْ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ، وَيَرَى الْعِبَادَ كِمَالِ عَدْلِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقْتَصُّ مِنَ الْقُرْنَاءِ لِلْجَمَاءِ <sup>(٢)</sup>، ثُمَّ يَقُولُ لَهَا: كُونِي تَرَابًا. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أَيُّ:

أَوْقَدَتْ فَصَارَتْ - عَلَى عَظَمَتِهَا - نَارًا تَتَوَقَّدُ.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أَيُّ: قَرُنَ كُلُّ صَاحِبٍ عَمَلٍ مَعَ نَظِيرِهِ، فَجُمِعَ الْأَبْرَارُ مَعَ الْأَبْرَارِ، وَالْفُجَّارُ مَعَ الْفُجَّارِ، وَزُوجَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْخُورِ الْعَيْنِ، وَالْكَافِرُونَ بِالشَّيَاطِينِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ﴾ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ تَفْعَلُهُ مِنْ دَفْنِ الْبَنَاتِ وَهُنَّ أَحْيَاءُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، إِلَّا خَشْيَةُ الْفَقْرِ، فَتَسْأَلُ: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا ذَنْبٌ، فَبِأَيِّ هَذَا تَوْبِيخٍ وَتَقْرِيعٍ لِقَاتِلِيهَا <sup>(٣)</sup>.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ تُنشَرُ﴾ الْمُشْتَمَلَةُ عَلَى مَا عَمِلَهُ الْعَامِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ تُنْشَرُ وَفُرِقَتْ عَلَى أَهْلِهَا، فَأَخَذَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَأَخَذَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، أَوْ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أَيُّ: أزيلت، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أَيُّ: أَوْقَدَ عَلَيْهَا فَاسْتَعْرَتْ، وَالتَّهَبَّتِ التَّهَابًا لَمْ يَكُنْ لَهَا قَبْلَ ذَلِكَ، ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أَيُّ: قُرِّبَتْ لِلْمُتَّقِينَ، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أَيُّ: كُلُّ نَفْسٍ، لِإِتْيَانِهَا فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ.

﴿مَا أُحْضِرَتْ﴾ أَيُّ: مَا حَضَرَ لَدَيْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ [الَّتِي قَدِمَتْهَا] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾. وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنَ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَنْزَعُ لَهَا الْقُلُوبَ، وَتَشْتَدُّ مِنْ أَجْلِهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ \* وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ \* وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ \* وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ \* وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ \* وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ \* وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ \* وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ \* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ \* وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ \* وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ \* وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ \* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضِرَتْ \* أَيُّ إِذَا حُصِلَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْهَائِلَةُ، تَمِيزُ الْخَلْقَ، وَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ مَا قَدِمَهُ لِآخِرَتِهِ، وَمَا أَحْضَرَهُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَكْوِيرِ الشَّمْسِ أَيُّ: تَجْمَعُ وَتَلْفُ، وَيُخَسَفُ الْقَمَرُ، وَيَلْقِيَانِ فِي النَّارِ، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أَيُّ: تَغَيَّرَتْ، وَتَسَاقَطَتْ <sup>(١)</sup> مِنْ أَفْلَاكِهَا، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أَيُّ: صَارَتْ كَثِيبًا مَهِيلًا، ثُمَّ صَارَتْ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ وَصَارَتْ هَبَاءً مَنِيئًا، وَسِيرَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أَيُّ: عَطِلَ النَّاسُ حَيْثُ نَفَاسِ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَهْتَمُّونَ لَهَا وَيُرَاعَوْنَهَا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، فَجَاءَهُمْ مَا يَذْهَلُهُمْ عَنْهَا، فَتَبَّهَ بِالْعِشَارِ، وَهِيَ النُّوقُ الَّتِي تَتَّبِعُهَا أَوْلَادُهَا، وَهِيَ أَنْفُسُ أَمْوَالِ الْعَرَبِ إِذْ ذَاكَ عِنْدَهُمْ، عَلَى مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا مِنْ كُلِّ نَفِيسٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ \* وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ \* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ \* وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ \* وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ \* وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ \* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضِرَتْ \* أَيُّ إِذَا حُصِلَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْهَائِلَةُ، تَمِيزُ الْخَلْقَ، وَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ مَا قَدِمَهُ لِآخِرَتِهِ، وَمَا أَحْضَرَهُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَكْوِيرِ الشَّمْسِ أَيُّ: تَجْمَعُ وَتَلْفُ، وَيُخَسَفُ الْقَمَرُ، وَيَلْقِيَانِ فِي النَّارِ، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أَيُّ: تَغَيَّرَتْ، وَتَسَاقَطَتْ <sup>(١)</sup> مِنْ أَفْلَاكِهَا، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أَيُّ: صَارَتْ كَثِيبًا مَهِيلًا، ثُمَّ صَارَتْ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ وَصَارَتْ هَبَاءً مَنِيئًا، وَسِيرَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أَيُّ: عَطِلَ النَّاسُ حَيْثُ نَفَاسِ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَهْتَمُّونَ لَهَا وَيُرَاعَوْنَهَا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، فَجَاءَهُمْ مَا يَذْهَلُهُمْ عَنْهَا، فَتَبَّهَ بِالْعِشَارِ، وَهِيَ النُّوقُ الَّتِي تَتَّبِعُهَا أَوْلَادُهَا، وَهِيَ أَنْفُسُ أَمْوَالِ الْعَرَبِ إِذْ ذَاكَ عِنْدَهُمْ، عَلَى مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا مِنْ كُلِّ نَفِيسٍ.

الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وترجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين، فليندبر سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

﴿١٥- ٢٩﴾ ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ \* الْجَوَارِ الْكُنَسِ \* وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَسَ \* إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ \* ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ \* مَطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ \* وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ \* وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمِينِ \* وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ \* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ \* فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ \* لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ \* وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَقْسَمُ تَعَالَى ﴿بِالْخَنَسِ﴾ وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الَّتِي تَخْنَسُ أَيُّ: تَتَأَخَّرُ عَنْ سِيرِ الْكَوَاكِبِ الْمُتَعَادِ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ، وَهِيَ النُّجُومُ السَّبْعَةُ السَّيَّارَةُ: «الشَّمْسُ»، و «القَمَرُ»، و «الزُّهْرَةُ»، و «المَشْتَرِي»، و «المَرْيَخُ»، و «زُحْلٌ»، و «عِطَارْدٌ»، فَهَذِهِ السَّبْعَةُ

(١) في ب: وتناثرت.

(٢) في ب: حتى إنه يقتص للشاء الجماء من الشاة القرناء.

(٣) في ب: ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتليها.



يزيد فيه أو يقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشخ بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ لما ذكر جلالة كتابه <sup>(١)</sup> وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي: في غاية البعد عن الله وعن قربه، ﴿فأين تذهبون﴾ أي: كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزيت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون [وأرذل] وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق.

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والردائل [والأمثال]، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدريّة والشرعية والجزائية، وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ بعدما

وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، ﴿ذي قوة﴾ على ما أمره الله به.

ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم.

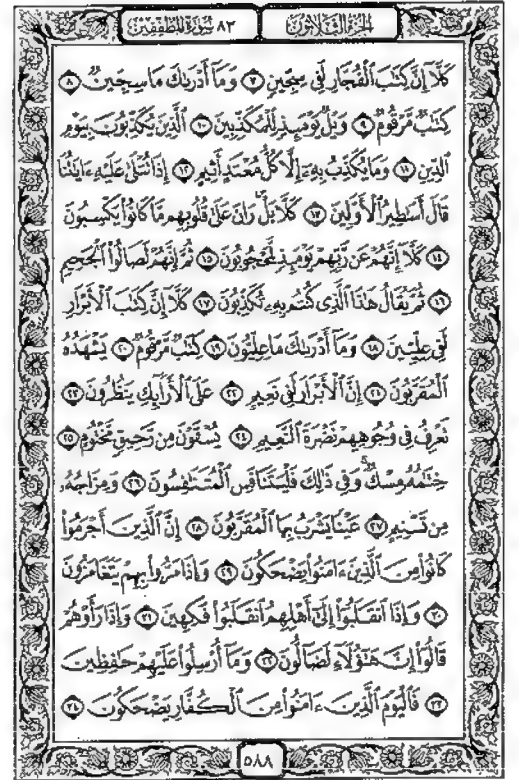
﴿عند ذي العرش﴾ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مكين﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿مطاع ثم﴾ أي: جبريل مطاع في الملائكة، لديه <sup>(٢)</sup> من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رايه، ﴿أمين﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حُد له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة. والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال: ﴿وما صاحبكم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بمجتون﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يُطفقوا بها ما جاء به ما شأوا وقدروا عليه، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم



لها سيران.

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك <sup>(١)</sup>، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها.

فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم <sup>(٢)</sup> الكواكب السيارة وغيرها.

﴿والليل إذا عسعس﴾ أي: أدبر، وقيل: أقبل، ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي: بانت <sup>(٣)</sup> علائم الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس، وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن <sup>(٤)</sup> وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ نزل به الروح الأمين \* على قلبك لتكون من المنذرين.

ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه،

(١) في ب: مع سائر الكواكب والفلك.

(٢) في ب: الكواكب.

(٣) في ب: بدت.

(٤) في ب: أقسم الله عليها لقوة سند القرآن.

(٥) في ب: لأنه.

(٦) كذا في ب، وفي أ: جلالته.

تبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال.

﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أي: فمشيئته نافذة، لا يمكن أن تعارض أو تمنع.

وفي هذه الآية وأمثالها، رد على فرقتي القدرة النفاة، والقدرة المجبرة كما تقدم مثلها [والله أعلم والحمد لله].

### تفسير سورة الانفطار [وهي] مكية

﴿١-٥﴾ بسم الله الرحمن الرحيم إذا السماء انفطرت \* وإذا الكواكب انتثرت \* وإذا البحار فجرت \* وإذا القبور بعثرت \* علمت نفس ما قدمت وأخرت \* أي: إذا انشقت السماء وانفطرت، وانتثرت<sup>(١)</sup> نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار فصارت بحراً واحداً، وبعثرت القبور بأن أخرجت<sup>(٢)</sup> ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال.

فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسائر، هنالك يغض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي<sup>(٣)</sup>.

و [هنالك] يفوز المتقون، المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿٦-١٢﴾ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم \* الذي خلقك فسواك فعدلك \* في أي: صورة ما شاء ركبك \* كلابل تكذبون

بالدين \* وإن عليكم لحافظين \* كراماً كاتبين \* يعلمون ما تفعلون \* يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصر في حق ربه، المتجريء على مساخطه<sup>(٤)</sup>: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ أتأولنا منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

اليس هو الذي خلقك فسواك في أحسن تقويم؟ ﴿فعدلك﴾ وركبك تركيباً قوياً معتدلاً، في أحسن الأشكال، وأجل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟

إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات [فلماذا قال تعالى ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾]

[وقوله: ﴿كلابل تكذبون بالدين﴾] أي: مع هذا الوعظ والتذكير، لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.

وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراماً يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمون أفعالكم، ودخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرمهم وتجلوهم وتحترمهم.

﴿١٣-١٩﴾ إن الأبرار لفي نعيم \* وإن الفجار لفي جحيم \* يصلونها يوم الدين \* وما هم عنها بغائبين \* وما أدراك ما يوم الدين \* يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله \* المراد بالأبرار، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملائمون

على الأوامر، يطهرون \* كل ذنب الكفار ما كانوا يعملون

#### سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم إذا السماء انشقت \* وأنتظرونها وحقت \* وثبتت ما فيها وحقت \* وأوتيت ربه وحقت \* يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فتليق \* فأتأمن أم لا \* أوفى كذبت سيئته \* فسوف يحاسب حساباً يسيراً \* ويقيمك إلى أهله مضموراً \* وأتأمن أم لا \* أوفى كذبت سيئته \* فسوف يدعو سبوراً \* وصلى سبوراً \* إنك كادح في أهله مضموراً \* إنك لظن أن لن يحور \* بل إن ربك كان يومه بصيراً \* فلا أفيء بالشقى والعليل \* وما وسق \* والقصر إذا أنش \* أنكرن طباقن من عندى \* فألهم لا يؤخرون \* وإذا فرغ عليهم القرآن أن لا يسجدوا \* بل الذين كفروا يكتفون \* والله أعز منكم وأعز غوث \* فبشرهم عذاب أليم \* ألا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لنجزيهم غير ممتنون

للبر، في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا [وفي دار البرزخ و] في دار القرار.

﴿وإن الفجار الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فجرت قلوبهم، فجرت أعمالهم ﴿لفي جحيم﴾ أي: عذاب أليم، في دار الدنيا و [دار البرزخ و] في دار القرار يصلونها﴾ ويعذبون [بها] أشد العذاب ﴿يوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال.

﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي: بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها. ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين؟ ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يخير الأذهان.

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ ولو كانت لها قريبة [أو حبيبة] مصافية، فكل مشغل بنفسه لا يطلب الفكاك غيرها.

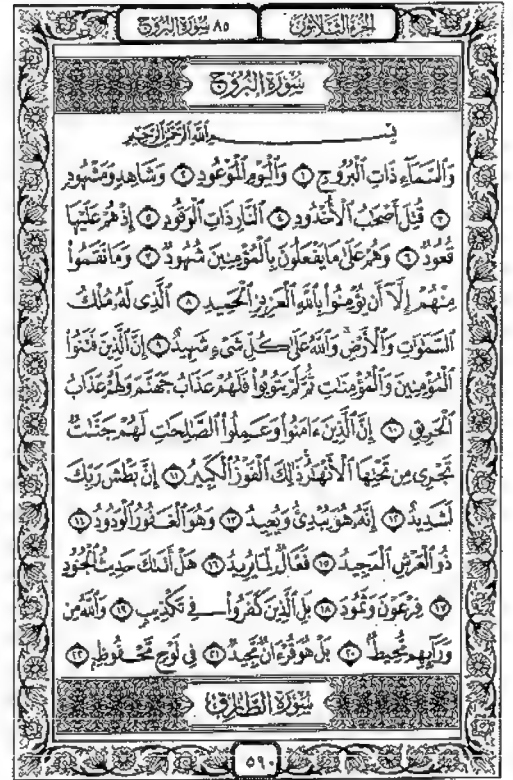
﴿والأمر يومئذ لله﴾ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه [والله أعلم].

(١) في ب: وتناثرت.

(٢) في ب: بأن أخرج.

(٣) في ب: إذا رأى ما قدمت يده وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي.

(٤) في ب: المقصر في حقه المتجريء على معاصيه.



### تفسير سورة المطففين وهي مكية (١)

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
ويل للمطففين \* الذين إذا اكتالوا على  
الناس يستوفون \* وإذا كالوهم أو  
وزنوهم يخسرون \* ألا يظن أولئك  
أنهم مبعوثون \* ليوم عظيم \* يوم  
يقوم الناس لرب العالمين \* ويل  
كلمة عذاب، ووعيد (٢) \* للمطففين \*  
وفسر الله المطففين بقوله (٣) \* الذين إذا  
اكتالوا على الناس \* أي: أخذوا منهم  
وفاء عما ثبت لهم قبلهم يستوفونه  
كاملاً من غير نقص.  
﴿١﴾ وإذا كالوهم أو وزنوهم \* أي:  
إذا أعطوا الناس حقهم، الذي  
للناس (٤) عليهم بكيل أو وزن،  
﴿يخسرون﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما  
بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء  
المكيال والميزان، أو نحو ذلك، فهذا  
سرقة [لأموال] الناس (٥)، وعدم  
إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد (٦) على الذين  
يبخسون الناس بالمكيال والميزان،  
فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة،

أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة، على أن  
الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له،  
يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من  
الأموال والمعاملات، بل يدخل في  
[عموم هذا] (٧) الحجج والمقالات، فإنه  
كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن  
كل واحد [منهما] يحرص على ما له من  
الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما  
لخصمه من الحجج (٨) [التي  
لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه  
كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا  
الموضع يعرف إنصاف الإنسان من  
تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره،  
وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق  
لكل خير.

ثم تواعد تعالى المطففين، وتعجب  
من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه،  
فقال: ﴿ألا يظن أولئك أنهم  
مبعوثون \* ليوم عظيم \* يوم يقوم  
الناس لرب العالمين﴾ فالذي جزأهم  
على التطفيف عدم إيمانهم باليوم  
الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم  
يقومون بين يدي الله، يحاسبهم (٩) على  
القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك  
وتابوا منه.

﴿٧-١٧﴾ ﴿كلا إن كتاب الفجار  
لفي سجين \* وما أدراك ما سجين \*  
كتاب مرقوم \* ويل يومئذ  
للمكذبين \* الذي يكذبون بيوم  
الدين \* وما يكذب به إلا كل معتد  
أثيم \* إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير  
الاولين \* كلا بل ران على قلوبهم ما  
كانوا يكسبون \* كلا إنهم عن ربهم  
يومئذ لمحجوبون \* ثم إنهم لصالوا  
الجحيم \* ثم يقال هذا الذي كنتم به  
تكذبون﴾ يقول تعالى: ﴿كلا إن كتاب  
الفجار﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من  
أنواع الكفرة والمنافقين، والفاستقين

﴿لفي سجين﴾ ثم فسر ذلك بقوله:  
﴿وما أدراك ما سجين \* كتاب  
مرقوم﴾ أي: كتاب مذكور فيه  
أعمالهم الخبيثة، والسجين: المحل  
الضييق الضنك، و «سجين» ضد  
«عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار،  
كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل  
الأرض السابعة، مأوى الفجار  
ومستقرهم في معادهم.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ثم بين  
المكذبين بأنهم (١٠) ﴿الذين يكذبون  
بيوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء، يوم  
يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

﴿وما يكذب به إلا كل معتد﴾ على  
محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

﴿أثيم﴾ أي: كثير الإثم، فهذا  
الذي يحمله عدوانه على التكذيب،  
ويحمله [عدوانه على التكذيب] ويوجب  
له [كبره رد الحق، ولهذا] ﴿إذا تتلى عليه  
آياتنا﴾ الدالة على الحق، و [على]  
صدق ما جاءت به رسله، كذبا  
وعاندها، ﴿وقال﴾: هذا أساطير  
الاولين \* أي: من ترهات المتقدمين،  
وأخبار الأمم الغابرين، ليس من  
عند الله تكبراً وعناداً.

وأما من أنصف، وكان مقصوده  
الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم  
الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة  
القاطعة، والبراهين الساطعة، ما يجعله  
حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل  
الشمس للأبصار (١١)، بخلاف من ران  
على قلبه كسبه، وغطته مغاصيه، فإنه  
محجوب عن الحق، ولهذا جوزي على  
ذلك، بأن حجب عن الله، كما  
حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله،  
﴿ثم إنهم﴾ مع هذه العقوبة البليغة  
﴿لصالوا الجحيم﴾ ثم يقال لهم توبيخاً

(١٠) في ب: ثم بينهم بقوله.

(١١) في ب: وصار لبصائرهم بمنزلة  
الشمس للأبصار.

(٦) في ب: وعيداً.

(٧) في ب: يدخل في ذلك.

(٨) في ب: الحجة.

(٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله

فيحاسبهم.

(١) في ب: وهي مدنية.

(٢) في ب: وعقاب.

(٣) في ب: بأنهم.

(٤) في ب: لهم.

(٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس.

وتقريباً: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من بعض<sup>(١)</sup> عقوبات الذنوب.

﴿١٨ - ٢٧﴾ ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين \* وما أدراك ما عليون \* كتاب مرقوم \* يشهده المقربون \* إن الأبرار لفي نعيم \* على الأرائك ينظرون \* تعرف في وجوههم نضرة النعيم \* يسقون من رحيق مختوم \* ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون \* ومزاجه من تسنيم﴾ لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقتها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأفسحها وأن كتابهم المرقوم ﴿يشهده المقربون﴾ من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، ويؤوه الله بذكرهم في الملاء الأعلى، و ﴿عليون﴾ اسم لأعلى الجنة، فلما ذكر كتابهم، ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿على الأرائك﴾ أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسان.

﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من

النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، ﴿تعرف﴾ أيها الناظر إليهم ﴿في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي: بهاء النعيم<sup>(٢)</sup> ونضارته ورونقه، فإن توالي اللذة والسرور<sup>(٣)</sup>، يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة.

﴿يسقون من رحيق﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة والأذها، ﴿مختوم﴾ ذلك الشراب، ﴿ختامه مسك﴾ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة، ﴿وفي ذلك﴾ النعيم المقيم، الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله، ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ أي: يتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تراجعت للوصول إليه فحول الرجال.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عين ﴿يشرب بها المقربون﴾ صِرْفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، ومزوجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿٢٩ - ٣٦﴾ ﴿إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون \* وإذا مروا بهم يتغامزون \* وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين \* وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون \* وما أرسلوا عليهم حافظين \* فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون \* على الأرائك ينظرون \* هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ لما ذكر تعالى جزاء المجرمين

وجزاء المؤمنين<sup>(٤)</sup>، و [ذكر] ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزؤون بهم، ويضحكون منهم، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، اختقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا يخطر الخوف على بالهم، ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ صباحاً أو مساءً ﴿انقلبوا فكهين﴾ أي: مسرورين مغتبطين<sup>(٥)</sup>، وهذا من أعظم<sup>(٦)</sup> ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن<sup>(٧)</sup> في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجوراً على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم، قال تعالى: ﴿فاليوم﴾ أي: يوم القيامة، ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿على الأرائك﴾ وهي السرر المزينة، ﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم<sup>(٨)</sup> في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

(٦) في ب: وهذا أشد.

(٧) في ب: مع الأمن.

(٨) في ب: حين رأوهم.

والمسرات والأفراح.

(٤) في ب: المحسنين.

(٥) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين.

(١) في ب: من أعظم.

(٢) في ب: أي بهاءه.

(٣) في ب: فإن توالي اللذات



نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

### تفسير سورة الانشقاق وهي مكية

﴿١٥-١٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ \* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ \* وَإِذَا الْأَرْضُ مَدَّتْ \* وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ \* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ \* يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمِلَاقِيهِ \* فَأَمَّا مِنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ \* فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا \* يَسِيرًا \* وَيُنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا \* وَأَمَّا مِنْ أَوْتَى كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ \* فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا \* وَيَصْلِي سَعِيرًا \* إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا \* إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ \* بَلَى إِنْ ربه كَانَ بِهِ بَصِيرًا \* يَقُولُ تَعَالَى مَبِينًا لِمَا يَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَجْرَامِ الْعَظَامِ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاحت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مَدَّتْ﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدّها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز.

﴿وَتَخَلَّتْ﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون

على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية ﴿أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقيماً﴾<sup>(١)</sup>.

ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وهم أهل السعادة.

﴿٨﴾ ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى] له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم».

﴿وَيُنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ﴾ في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالشواب، ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله من خلفه<sup>(٢)</sup>.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، ﴿وَيَصْلِي سَعِيرًا﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا ﴿كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولم<sup>(٣)</sup> يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بَلَى إِنْ ربه كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿١٦-٢٥﴾ ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشَّفَقِ \* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ \* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ \* لَتَرْكُنَ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ \* فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ \* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ \* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوْعُونَ \* فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ \* إِلَّا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غير ممنون﴾ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح الليل، ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي: امتلاً نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكُنَ﴾ [أي: أيها الناس] ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً، ثم مميزاً، ثم يحري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: لا يخضعون للقرآن، ولا يتقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا حيلة فيه، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوْعُونَ﴾ أي: بما يعملونه وينوونه سراً، فالله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشرية سروراً أو غماً.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله، فأمنوا بالله، وقبلوا ما جاءهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي: غير

(١) في ب: جزاء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعقوبة إن كنت شقيماً.

(٢) في ب: من وراء ظهره.

(٣) في ب: ولا.

مقطوع، بل هو أجرد دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

تم تفسير السورة ولله الحمد

### تفسير سورة البروج وهي مكية

﴿١- ٢٢﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والسماء ذات البروج \* واليوم الموعود \* وشاهد ومشهود \* قتل أصحاب الأخدود \* النار ذات الوقود \* إذ هم عليها قعود \* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود \* وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد \* الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد \* إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الخريق \* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير \* إن بطش ربك لشديد \* إنه هو يبدى ويعيد \* وهو الغفور الودود \* ذو العرش المجيد \* فعال لما يريد \* هل أتاك حديث الجنود \* فرعون وثمود \* بل الذين كفروا في تكذيب \* والله من ورائهم محيط \* بل هو قرآن مجيد \* في لوح محفوظ \* والسماء ذات البروج \* أي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿واليوم الموعود﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي

لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد.

﴿وشاهد ومشهود﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مبصر ومُبْصَر، وحاضر ومَحْضور، وراء ومُزَيَّي.

والمقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

و «الأخدود»: الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قوماً كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فرادوهم للدخول<sup>(١)</sup> في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدوداً [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا العنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النار ذات الوقود \* إذ هم عليها قعود \* وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إقائهم فيها، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة<sup>(٢)</sup> يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والسماء والطارق \* وما أدراك ما الطارق \* النجم الذي إذا سجدت نظرنا عليها خافط \* فليست إلا كنز من كنز \* خلق من ماله داني \* يخرج من بين الصلب والكرب \* إنه على كل شيء قدير \* يوم تبنى العركرير \* قاله من قومه ولا تدير \* والسماء ذات النجوم \* والارض ذات السبع \* إنه يقول قتل \* وما هو إلا نمل \* إنهم يكيدون كيداً \* وأكيد كيداً \* قتل الكافرين أمهاتهم ربياً

#### سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سبح اسمك العظيم الخلق \* الذي خلق سموات \* والذي قدر قهراً \* والذي أخرج المعنى \* فجعله غفلة أعوى \* سقم ذلك ولا تنسى \* إلهنا الله الذي لا يذلهم والذين لا يندرون \* فذكر أن نعمت الذكرى \* سيدكر من ينسى \* ويستمع الأسمى \* الذي يضل النار الكبرى \* ولا يمشى فيها ولا ينسى \* قد أفلح من ذكرى \* وذكر اسم ربه فصل

العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ خلقاً وعبيداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه<sup>(٣)</sup>، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم عماليك لله<sup>(٤)</sup>، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم<sup>(٥)</sup>؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى<sup>(٦)</sup> عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الخريق﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أوليائه

(١) في ب: على الدخول.

(٢) في ب: حالة.

(٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء.

(٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم عماليك لله.

(٥) في ب: مجازيهم عليها.

(٦) في ب: والجاهل في عمى وضلال.







المتنفس المكدر الزائل على الآخرة،  
[والآخرة خير وأبقى] وللاخرة  
خير من الدنيا في كل وصف مطلوب،  
وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء،  
والدنيا دار فناء، فالمؤمن العاقل  
لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع  
لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا  
وإثارها على الآخرة رأس كل خطيئة،  
[إن هذا] المذكور لكم في هذه السورة  
المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار  
المستحسنة [لפי الصحف الأولى] \*  
صحف إبراهيم وموسى اللذين هما  
أشرف المرسلين، سوى النبي محمد  
صلى الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها  
عائدة إلى مصالح الدارين، وهي  
مصالح في كل زمان ومكان.  
تم تفسير سورة سيج، والله الحمد

### تفسير سورة الغاشية وهي مكية

﴿١٦-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ هل أتاك حديث الغاشية \*  
وجوه يومئذ خاشعة \* عاملة ناصية \*  
تصلي ناراً حامية \* تسقى من عين  
أنية \* ليس لهم طعام إلا من ضريع \*  
لا يسمن ولا يغني من جوع \* وجوه  
يومئذ ناعمة \* لسعيها راضية \* في  
جنة عالية \* لا تسمع فيها لاغية \*  
فيها عين جارية \* فيها سرر  
مرفوعة \* وأكواب موضوعة \*  
ونمارق مصفوفة \* وزرابي مبثوثة \*  
يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها  
من الأهوال الطامّة، وأنها تغشى  
الخلائق بشدائدّها، فيجازون  
بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين:  
فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

حصل من الذكرى جميع المقصود أو  
بعضه.

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع  
الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في  
الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن  
الذكرى مأموراً بها، بل منهياً عنها،  
فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين:  
منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون، فقد ذكرهم بقوله:  
﴿سيدكر من يخشى﴾ الله تعالى، فإن  
خشية الله تعالى، وعلمه بأن سيجازيه  
على أعماله<sup>(٥)</sup>، توجب للعبد الانكفاف  
عن المعاصي<sup>(٦)</sup> والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين، فذكرهم بقوله:  
﴿ويتجنّبها الأشقى﴾ الذي يصلي النار  
الكبرى وهي النار الموقدة، التي تطلع  
على الأفئدة، ثم لا يموت فيها  
ولا يحيى أي: يعذب عذاباً أليماً،  
من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم  
يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال  
تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا  
ولا يخفف عنهم من عذابها﴾.

﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي: قد فاز  
وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك  
والظلم ومساوئ الأخلاق، وذكر  
اسم ربه فصلي أي: اتصف  
بذكر الله، وانصغ به قلبه، فأوجب له  
ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً  
الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا  
معنى الآية الكريمة، وأما من فر  
قوله: ﴿تزكى﴾ بمعنى أخرج زكاة  
الفطر، وذكر اسم ربه فصلي، أنه صلاة  
العيد، فإنه وإن كان داخلاً في اللفظ  
وبعض جزئياته، فليس هو المعنى  
وحده.

﴿بل تؤثر الحياة الدنيا﴾ أي:  
تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها



استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى  
نباته، وضوّح عشبه، فجعله غشاء  
أحوى أي: أسود أي: جعله هشيماً  
رميماً، ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا  
امتّن الله بأصلها ومنشأها<sup>(١)</sup>، وهو  
القرآن، فقال: ﴿ستفرك فلا تنسى﴾  
أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من  
الكتاب، ونوعه قلبك، فلا تنسى منه  
شيئاً، وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده  
ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه  
علماً لا ينساه، ﴿إلا ما شاء الله﴾ مما  
اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة  
بالغة، ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾  
ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي:  
فلذلك يُشرع ما أراد، ويحكم بما  
يريد<sup>(٢)</sup>، ﴿وتيسر لليسرى﴾ وهذه  
أيضاً بشارة كبيرة<sup>(٣)</sup>، أن الله ييسر  
رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره،  
ويجعل شرعه ودينه يسراً<sup>(٤)</sup>.

﴿فذكر﴾ بشرع الله وآياته ﴿إن  
نفعت الذكرى﴾ أي: ما دامت الذكرى  
مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء

(١) في ب: ومادتها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد.

(٣) في ب: أخرى.

(٤) كذا في ب، وفي أ: يسراً.

(٥) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال.

(٦) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله.

(٧) في ب: بعد.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار: ﴿وجوه يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خاشعة﴾ من الذل والفضيحة والحزي.

﴿عاملة ناصبة﴾ أي: تابعة في العذاب، تجرّ على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ عاملة ناصبة في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباءً منثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها<sup>(١)</sup>؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تصلى ناراً حامية﴾ أي: شديداً حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿تسقى من عين أنية﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ فهذا شرابهم.

وأما طعامهم، فـ ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ لا يسمن ولا يغني من جوع. وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخساسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير، فوجوههم يوم

القيامة ﴿ناعمة﴾ أي: قد جرت عليهم نصرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، ﴿لسعياً﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، ﴿راضية﴾ إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحمدت عقابه، وحصل لها كل ما تمنناه، وذلك أنها ﴿في جنة﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عالية﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿قطوفها ذاتية﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة. ﴿لا تسمع فيها﴾ أي: الجنة ﴿لاغية﴾ أي: كلمة لغو وباطل، فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى، وذكر نعمه المتواترة عليهم، و [على] الآداب المستحسنة<sup>(٢)</sup> بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور.

﴿فيها عين جارية﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأنّى أرادوا.

﴿فيها سرر مرفوعة﴾ و «السرر» جمع «سرير»، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

﴿وأكواب موضوعة﴾ أي: أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم،

يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والالتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، وتصفوها بأنفسهم.

﴿١٦﴾ ﴿وزرائي مبثوثة﴾ والزرابي [هي]: البسط الحسان، مبثوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿١٧ - ٢٦﴾ ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ وإلى السماء كيف رفعت ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت﴾ وإلى الأرض كيف سطحت ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ إلا من تولى وكفر ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ إن إلينا إيابهم ﴿ ثم إن علينا حسابهم﴾ يقول تعالى حقاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذلكها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿ وإلى الجبال كيف نصبت﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض<sup>(٣)</sup> وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿ وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي: مدت مداً واسعاً، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق<sup>(٤)</sup> على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبتيان فيها، وسلوك الطرق الموصلة<sup>(٥)</sup> إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا يتنافى أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك

(١) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

(٢) في ب: الحسنة.

(٣) في ب: الاستقرار للأرض.

(٤) في ب: العباد.

(٥) في ب: طرقها.

النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر<sup>(١)</sup> الناس، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيط إنما ينافي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة<sup>(٢)</sup>، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي: ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبغوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.

وقوله: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ أي: الشديد الدائم، ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي: رجوع الخليقة<sup>(٣)</sup> وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة الفجر وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والفجر \* وليال عشر \* والشفع والوتر \* والليل إذا يسر \* هل في ذلك قسم لذي حجر \* الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مهنماً، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل

وإقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدير<sup>(٤)</sup> لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليالي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما رُئي الشيطان أحقر ولا أذحر منه في يوم عرفة، لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة، مستحقة لأن يقسم الله بها.

﴿والليل إذا يسر﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمثون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هل في ذلك المذكر﴾ المذكر ﴿قسم لذي حجر﴾ أي: [الذي] عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٦-١٤﴾ ﴿ألم تر كيف فعل ربك يعاد \* إرم ذات العماد \* التي لم يخلق مثلها في البلاد \* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد \* وفرعون ذي الأوتاد \* الذين طغوا في البلاد \* فأكثروا فيها الفساد \* فصب عليهم ربك سوط عذاب \* إن ربك ليالمصاد \* يقول تعالى: ﴿ألم تر﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إرم﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذات العماد﴾ أي: القوة

الشديدة، والعتو والتجبر، ﴿التي لم يخلق مثلها﴾ أي: مثل عاد ﴿في البلاد﴾ أي: في جميع البلدان [في القوة والشدة]، كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ أي: وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور، فاتخذوها مساكن، ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: [ذي] الجنود الذين ثبتوا ملكه، كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وأذوا عباد الله، في دينهم ودنياهم، ولهذا قال: ﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب، ﴿إن ربك ليالمصاد﴾ لمن عصاه<sup>(٥)</sup> يمهله قليلاً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿١٥-٢٠﴾ ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن \* وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن \* كلا بل لا تكرمون التيم \* ولا تحاضون على طعام المسكين \* وتأكلون التراث أكلاً لما \* وتحبون المال حباً جماً \* يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿قدر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله

(١) في ب: كثير.

(٢) في ب: الخلائق.

(٣) في ب: لمن يعصيه.

(٤) في ب: وأنه تعالى هو المدير.

(٥) في ب: الذي هو كبير جداً واسع.

له، فرد الله عليه هذا الحساب : بقوله ﴿كَلَّا﴾ أي : ليس كل من نَعَّمْتُهُ في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيق، ابتلاء من الله، وامتحان يمتحن به العباد، ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك فينقله إلى العذاب الويل.

وأيضاً، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لا مهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال : ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي : لا يحض بعضكم بعضاً على إطعام المحايوج من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال : ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثُ﴾ أي : المال المخلف ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي : ذريعاً، لا تبقون على شيء منه.

﴿وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمٍّ﴾ أي : كثيراً شديداً، وهذا كقوله تعالى : ﴿بَلْ تَوَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

﴿٢١-٣٠﴾ ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴿وَجِيءَ يَوْمُئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمُئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ يقول يا ليتني قدمت حياتي ﴿فِيَوْمِئِذٍ لَا يَعْذِبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ ﴿وَلَا يُوَثِّقُ وِثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ يا أيُّها النفس المطمئنة ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾ فادخلي في

عبادي \* وادخلي جنتي ﴿كَلَّا﴾ أي : ليس [كل] ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات، بباقي لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، وتجيء الملائكة الكرام، أهل السماوات كلهم، صفاً صفاً أي : صفاً بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفاً، يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار، ﴿وَجِيءَ يَوْمُئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل.

فإذا وقعت هذه الأمور ﴿فِيَوْمِئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ فقد فات أوانها، وذهب زمانها، يقول متحسراً على ما فرط في جنب الله : ﴿يَا لَيْتَنِي قَدِمْتُ حَيَاتِي﴾ الدائمة الباقية، عملاً صالحاً، كما قال تعالى : ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ \* يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها<sup>(١)</sup>، وفي تسميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء، ﴿فِيَوْمِئِذٍ لَا يَعْذِبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له، ﴿وَلَا يُوَثِّقُ وِثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ فإنهم يقرنون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين، وأما من اطمأن إلى الله وآمن به وصدق رسله، فيقال له : ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله. ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من

يَسْمُوعُ وَنَحْنُهَا ۖ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۖ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۖ وَالْأَيُّلُ إِذَا بَعَثَهَا ۖ وَالنَّسَاءُ وَمَا بَدَّنَهَا ۖ وَالْأَخْبَرُ وَمَا طَخَّنَهَا ۖ وَتَقَرَّبْنَ وَمَا سَوَّيْنَهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْنَاهَا ۖ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۖ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ فَكَذَّبُوهُ فَعَبَّوْهُمَا ۖ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَوَّاهَا ۖ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۖ

يَسْمُوعُ وَنَحْنُهَا ۖ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۖ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۖ وَالْأَيُّلُ إِذَا بَعَثَهَا ۖ وَالنَّسَاءُ وَمَا بَدَّنَهَا ۖ وَالْأَخْبَرُ وَمَا طَخَّنَهَا ۖ وَتَقَرَّبْنَ وَمَا سَوَّيْنَهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْنَاهَا ۖ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۖ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۖ فَكَذَّبُوهُ فَعَبَّوْهُمَا ۖ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَوَّاهَا ۖ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۖ

أوليائه وأحبابه ﴿رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾ أي : راضية عن الله، وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وادخلي جنتي. وهذا مخاطب به الروح يوم القيامة، وتخطب به في حال الموت<sup>(٢)</sup> [والحمد لله رب العالمين].

### تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد<sup>(٣)</sup> مكية

﴿١-٢٠﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لا أقسم بهذا البلد \* وأنت حل بهذا البلد \* ووالد وما ولد \* لقد خلقنا الإنسان في كبد \* أيجنب أن لن يقدر عليه أحد \* يقول أهلكم ما لا لبدا \* أيجنب أن لم يره أحد \* ألم نجعل له عينين \* ولساناً وشفقتين \* وهديناه النجدين \* فلا اقتحم العقبة \* وما أدراك ما العقبة \* فك رقبة \* أو إطعام في يوم ذي مسغبة \* يتيماً ذا مقربة \* أو مسكيناً ذا متربة \* ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة \* أولئك أصحاب الميمنة \* والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة \* عليهم نارٌ مؤصدة ﴿هذا البلد﴾ يقسم تعالى ﴿هذا البلد﴾

(٣) في ب: سورة البلد.

(٢) في ب: وقت السياق والموت.

(١) في ب: السعي في كمالها



فكها من الرق، بعثتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكأك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ أي: مجاعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة، ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ أي: جامعاً بين كونه يتيماً، فقيراً ذا قرابة، ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة، ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾<sup>(٥)</sup> أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم من كل قول<sup>(٦)</sup> وفعل واجب أو مستحب، ﴿وتواصوا بالصبر﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضاً على الانقياد لذلك، والإتيان به كاملاً منشرحاً به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿وتواصوا بالرحمة﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به]، ولا عملوا صالحاً، ولا رحموا عباد الله، ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾ عليهم نار مؤصدة<sup>(٧)</sup> أي: مغلقة، في عمد ممددة،

أن لن يقدر عليه أحد، ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه، ف ﴿يقول أهلك ما لا لبدا﴾ أي: كثيراً، بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً، لأنه لا ينفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أحسب أن لم يره أحد﴾ أي: أحسب<sup>(٨)</sup> في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟

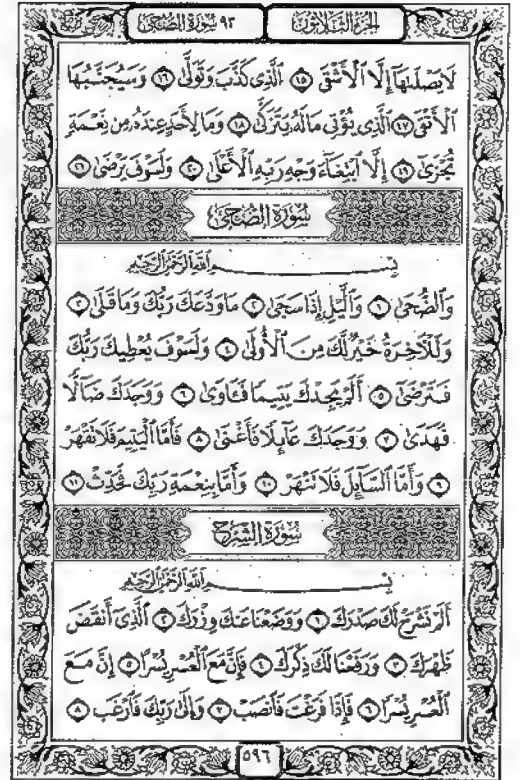
بل قد رآه الله، وحفظ عليه أعماله، ووكّل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ \* ولساناً وشفتين \* للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.

فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه<sup>(٩)</sup>، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿١١﴾ ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته<sup>(١٠)</sup>.

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم فسر [هذه] العقبة بقوله: ﴿فك رقبة﴾ أي:



الأمين، الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ووالد وما ولد﴾ أي: آدم وذريته.

والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريجه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقة، مقدر<sup>(١١)</sup> على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعاقبة وتجبر على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينزعزل، ولهذا قال تعالى: ﴿أحسب

(١) في ب: يقدر.

(٢) في ب: أيلن.

(٣) في ب: على معاصي الله.

(٤) في ب: لهواه.

(٥) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وعملوا الصالحات﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأبقيت التفسير.

(٦) في ب: فدخل في هذا كل قول.

قد مدت من ورائها، لئلا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة [والحمد لله].

### تفسير سورة الشمس وضحاها وهي مكية

﴿١-١٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا \* وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا \* وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا \* وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا \* وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا \* وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا \* وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا \* كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَفْوَاهَا \* إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا \* فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا \* فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا \* وَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا \* أَقْسَمُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، عَلَى النَّفْسِ الْمَفْلُحَةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ النَّفُوسِ الْفَاجِرَةِ، فَقَالَ:

﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَاهَا﴾ أي: نورها، ونفعها الصادر منها، ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً.

فتعاقب الظلمة والضيء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام<sup>(١)</sup> لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه فباطل.

﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسما والبنائها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسما وبنائها، الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي: مدها ووسعها، فتمكن

الخلق حيثئذ من الانتفاع بها، بجميع وجوه<sup>(٢)</sup> الانتفاع.

﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.

وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقة بالإقسام بها<sup>(٣)</sup>، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه<sup>(٤)</sup> آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالردائل، والدنو من العيوب والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَفْوَاهَا﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعثوها على رسل الله<sup>(٥)</sup>، ﴿إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قادر بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمره فأمر لهم.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام مخذراً: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحاً ففعلوا، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم<sup>(٦)</sup> أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من

#### سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْثِّينَ وَالزَّيْتُونَ \* وَطُورِ سِينِينَ \* وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ \* لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ \* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ \* فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الذِّكْرِ \* لَقَدْ أَنشَأْنَاكَ مِثْلَ الْأَكْثَرِ

#### سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَوَّلَ نَسَمٍ ذَكَرَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ \* كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاجِفٌ \* إِذْ عَلَّمْنَاهُ الْإِسْمَ الْكَبِيرَ \* ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَالِقَةً \* فَلَمَّا عَلَّمْنَاهُ الْقَوْلَ \* كَذَّبَ وَتَوَلَّى \* ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ نَافِثَةً \* فَكَذَّبَ وَأَطَاعَ \* ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ سَافِلَةً \* كَلَّا لَا طُغْيَاءَ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ

فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيئاً.

﴿فسواها﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة<sup>(٦)</sup> ﴿ولا يخاف عقابها﴾ أي: تبعها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت والله الحمد

### تفسير سورة الليل وهي مكية

﴿١-٢١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى \* وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى \* وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى \* إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى \* فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى \* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى \* فَسَنِيَرِهِ لِلْيسرى \* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى \* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى \* فَسَنِيَرِهِ لِلْعُسرى \* وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى \* إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى \* وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى \* فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى \* لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى \* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى \* وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى \* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى \* وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى \* إِلَّا ابْتِغَاءً

(٥) في ب: على رسولهم.

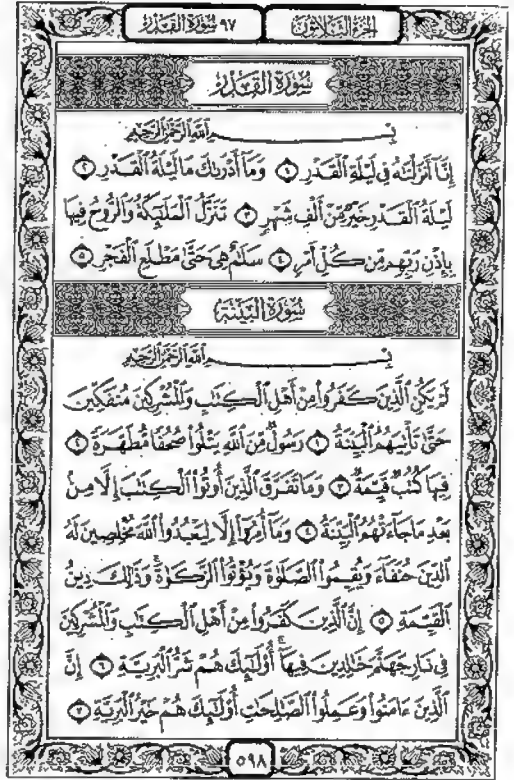
(٦) في ب: في العقوبة.

(٣) في ب: يحق الإقسام بها.

(٤) في ب: على ما هي عليه.

(١) كذا في ب، وفي أ: وانتظام.

(٢) في ب: أوجه.



وجه ربه الأعلى \* ولسوف يرضى  
هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه  
أفعال العباد على تفاوت أحوالهم،  
فقال: ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: يعم]  
الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه  
ومسكنه، ويستريح العباد من الكد  
والتعب، ﴿والنهار إذا تجلى﴾ للخلق،  
فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في  
مصالحهم، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾  
إن كانت «ما» موصولة، كان إقساماً  
بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه <sup>(١)</sup> خالق  
الذكور والإناث، وإن كانت مضمرية،  
كان قسماً بخلقه للذكر والأنثى،  
وكمال حكمته في ذلك أن خلق من  
كل صنف من الحيوانات التي يريد  
بقاءها ذكراً وأنثى، ليبقى النوع  
ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى  
الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا  
منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله  
أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا  
[هو] المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها  
المكلفون لتفاوت تفاوتاً كثيراً، وذلك

بحسب تفاوت نفس الأعمال  
ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب  
الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو  
وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي  
له <sup>(٢)</sup> بقاءه، وينتفع به صاحبه، أم هي  
غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي  
ببطلانها، ويضمحل باضمحلها؟

وهذا كل عمل يقصده به غير  
وجه الله تعالى، بهذا الوصف، ولهذا  
فصل الله تعالى العاملين، ووصف  
أعمالهم، فقال: ﴿فأما من أعطى﴾  
[أي] ما أمر به من العبادات المالية،  
كالزكوات، والكفارات والنفقات،  
والصدقات، والإنفاق في وجوه  
الخير، والعبادات البدنية كالصلاة،  
والصوم ونحوهما.

والمركبة منهما، كالحج والعمره،  
[ونحوهما] ﴿واتقى﴾ ما نهي عنه، من  
المحرمات والمعاصي، على اختلاف  
أجناسها.

﴿وصدق بالحسنى﴾ أي: صدق  
بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه، من  
جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها  
من الجزاء الأخروي.

﴿فسنيسره لليسرى﴾ أي: نسهل  
عليه أمره، ونجعل له ميسراً <sup>(٣)</sup> كل  
خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى  
بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وأما من بخل﴾ بما أمر به، فترك  
الإنفاق الواجب والمستحب، ولم  
تسمح نفسه بأداء ما وجب لله،  
﴿واستغنى﴾ عن الله، فترك عبوديته  
جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار  
إلى ربه، الذي لا نجاة لها ولا فوز  
ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها  
ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه،  
﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بما  
أوجب الله على العباد التصديق به من

العقائد الحسنة، ﴿فسنيسره لليسرى﴾  
أي: للحالة اليسرة، والخصال  
الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما  
كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي،  
نسأل الله العافية.

﴿وما يغني عنه ماله﴾ الذي أطغاه  
واستغنى به، وبخل به إذا هلك  
ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله  
الصالح <sup>(٤)</sup>.

وأما ماله [الذي] لم يخرج منه  
الواجب [فإنه] يكون وبالاً عليه، إذ لم  
يقدم منه لآخرته شيئاً.

﴿إن علينا للهدى﴾ أي: إن الهدى  
المستقيم طريقه، يوصل إلى الله، ويدني  
من رضاه، وأما الضلال، فطرق  
مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها  
إلا للعذاب الشديد.

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ ملكاً  
وتصرفاً، ليس له فيهما مشارك،  
فليرغب الراغبون إليه في الطلب،  
ولينقطع رجاءهم عن المخلوقين،  
﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾ أي: تستعر  
وتتوقد، ﴿لا يصلاحها إلا الأشتى﴾  
الذي كذب بالخير ﴿وتولى﴾ عن  
الأمر.

﴿وسيجنبها الأتقى﴾ الذي يؤتي  
ماله يتزكى، بأن يكون قصده به تركية  
نفسه، وتطهيرها من الذنوب  
والعيوب <sup>(٥)</sup>، قاصداً به وجه الله  
تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن  
الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين  
ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل  
تكون عطيته مردودة عند كثير من  
العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب  
يفوت عليه الواجب.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾  
أي: ليس لأحد من الخلق على هذا  
الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأها،

(١) في ب: بكونه.

(٢) في ب: العمل له.

(٣) في ب: أي يسر له أمره، ونجعله سهلاً عليه.

(٤) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح.

(٥) في ب: والأدناس.

وربما بقي له الفضل والمئة على الناس، فتمحض عبداً لله، لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي<sup>(١)</sup> عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن الله ورسوله المنة على كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ \* ولسوف يرضى ﴿هذا الأتقى﴾ بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والثوبات، والحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة الضحى وهي مكية

﴿١- ١١﴾ \* بسم الله الرحمن الرحيم والضحى \* والليل إذا سجى \* ما ودعك ربك وما قلى \* وللاخرة خير لك من الأولى \* ولسوف يعطيك ربك فترضى \* ألم يجداك يتيماً فأوى \* ووجدك ضالاً فهدى \* ووجدك عائلاً فأغنى \* فأما اليتيم فلا تقهر \* وأما السائل فلا تنهر \* وأما بنعمة ربك فحدث \* أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا سجد وأدلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ

رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وما قلا﴾ ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج<sup>(٢)</sup> الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبل، فقال: ﴿وللاخرة خير لك من الأولى﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي<sup>(٣)</sup>، ويمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل<sup>(٤)</sup> إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرة العين، وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله<sup>(٥)</sup> [الخاصة] فقال: ﴿ألم يجداك يتيماً فأوى﴾ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قدمات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.



﴿ووجدك عائلاً﴾ أي: فقيراً ﴿فأغنى﴾ بما فتح الله عليك<sup>(٦)</sup> من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال:] ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، وأصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام<sup>(٧)</sup> يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرة بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

(٧) في ب: لا يصدر منك كلام للسائل.

(٤) في ب: ما وصل.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الأحوال.

(٦) في ب: فأغناك الله بما فتح عليك.

(١) في ب: بقيت.

(٢) في ب: درجات.

(٣) في ب: درجات.



فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك تمت والله الحمد.

### تفسير سورة التين وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ \* وَطُورِ سِينِينَ \* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ \* لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ \* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلِمُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ \* فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْبَلَدَيْنِ \* أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿التين﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزيتون﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وطور سينين﴾ أي: طور سيناء، محل نبوة موسى عليه السلام، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات<sup>(٢)</sup> وأشرفها.

والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً أو باطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قدرضوا أنفسهم بأسافل الأمور، وسفاسف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من آمن بالله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فليهم﴾

﴿الذي أنقض﴾ أي: أثقل ﴿ظهرك﴾ كما قال تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾. ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الشئ الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلی الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبياً عن أمته.

وقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وكما قال النبي ﷺ: ﴿وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً﴾.

وتعريف «العسر» في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

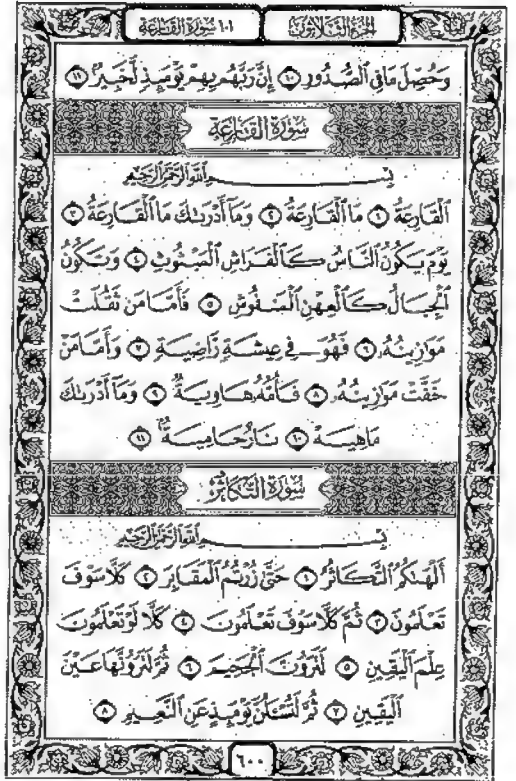
وفي تعريفه بالآلف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له.

ثم أمر الله رسوله أصلاً، والمؤمنين تبعاً، بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي: إذا فرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء.

﴿وإلى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك<sup>(١)</sup>.

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى قوله: فإذا



﴿وأما بنعمة ربك﴾ [وهذا يشمل]

النعم الدينية والدينية ﴿فحدث﴾ أي: أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

والأ فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على حبة المحسن.

### تفسير سورة ألم نشرح [لك صدرك] وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ \* وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ \* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ \* وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ \* فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا \* فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ \* وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ يقول تعالى - ممتناً على رسوله -: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: توسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقاً حرجياً، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطاً.

﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي: ذنبك

(٢) في ب: أفضل الأنبياء وأشرفهم.

(١) في ب: دعواتك.

بذلك المنازل العالية، و «أجر غير ممنون» أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها، «فما يكذبك بعد بالدين» أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيء مما أخبرك به، «أليس الله بأحكم الحاكمين» فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يشابون ولا يعاقبون؟

أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورياهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمنون. تمت والله الحمد.

### تفسير سورة اقرأ [وهي] مكية

﴿١-١٩﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم \* كلا إن الإنسان ليطغى \* أن رآه استغنى \* إن إلى ربك الرجعى \* أرأيت الذي ينهى \* عبداً إذا صلى \* أرأيت إن كان على الهدى \* أو أمر بالتقوى \* أرأيت إن كذب وتولى \* ألم يعلم بأن الله يرى \* كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية \* ناصية كاذبة خاطئة \* فلیدع ناديه \* سندع الزبانية \* كلا لا تطعه واسجد واقترب \* هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ،

فامتنع، وقال: «ما أنا بقارىء» فلم يزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» عموم الخلق، ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه «من علق» فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسول إليهم<sup>(١)</sup>، وإنزال الكتب عليهم، ولهذا ذكر<sup>(٢)</sup> بعد الأمر بالقراءة، خلقه<sup>(٣)</sup> للإنسان.

ثم قال: «اقرأ وربك الأكرم» أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم<sup>(٤)</sup>. و «علم بالقلم» علم الإنسان ما لم يعلم فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم، فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرון لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً، طغى وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسى أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرّد العاتى: «أرأيت» أيها الناهي للعبد إذا صلى «إن كان» العبد المصلي «على الهدى» العلم بالحق والعمل به، «أو أمر» غيره «بالتقوى».

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

(١) في ب: بإرسال الرسل.

(٢) في ب: ولهذا أتى.

(٣) في ب: بخلقه.

(٤) في ب: بأنواع العلوم.

(٥) في ب: العذاب.



«أرأيت إن كذب» الناهي بالحق، «وتولى» عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ «ألم يعلم بأن الله يرى» ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: «كلا لئن لم ينته» عما يقول ويفعل «لنسفن بالناصية» أي: لنأخذن بناصيته، أخذاً عنيماً، وهي حقيقة بذلك، فإنها «ناصية كاذبة خاطئة» أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

«فلیدع» هذا الذي حق عليه العقاب<sup>(٥)</sup> «ناديه» أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينه على ما نزل به، «سندعوا الزبانية» أي: خزنة جهنم، لأخذة وعقوبته، فلينظر أي: الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعده به من العقوبة، وأما حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي ولا يتقاد لنهيه، فقال: «كلا لا تطعه» [أي: ] فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين، «واسجد» لربك «واقترَب» منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدني من رضاه وتقرب منه.

وهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي

هم خير البرية \* جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه \* يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: [من] اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم.

﴿منفكّين﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين<sup>(٥)</sup> إلا كفراً.

﴿حتى تأتيهم البينة﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويذكّهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مَطْهُرَةً﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحيثما يتبين طالب الحق من ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك بيد من ضلّاهم وعنادهم، فإنهم ما تفرّقوا واختلّفوا وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبينة﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم، لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا أعمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد، فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿اللَّهُ﴾ مخلصين له الدين \* أي:

﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر [خالية منها]، وهذا مما تتحير فيه<sup>(٣)</sup> الألباب، وتندبش له العقول، حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً، نيافاً وثمانين سنة.

﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ أي: يكثّر نزولهم فيها ﴿من كل أمر﴾ سلام هي \* أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿حتى مطلع الفجر﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر<sup>(٤)</sup>.

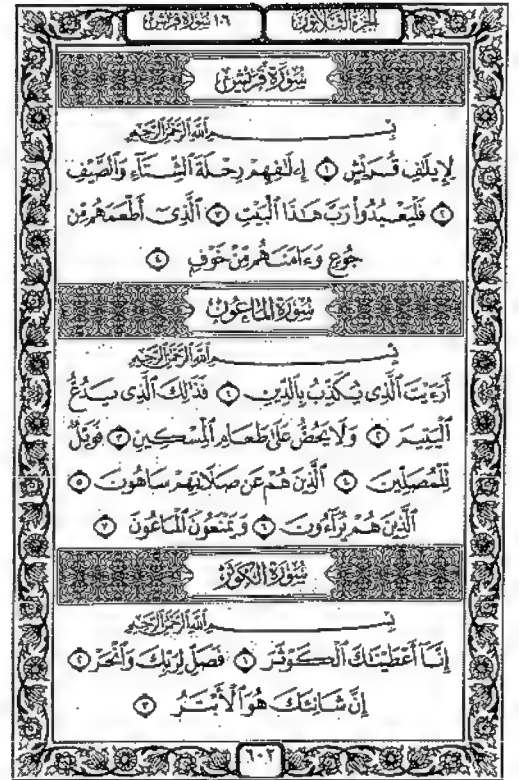
وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتارها، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان، رجاء ليلة القدر [والله أعلم].

### تفسير سورة لم يكن وهي مدنية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة \* رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة \* فيها كتب قيمة \* وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة \* وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة \* إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية \* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك

(٤) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.



عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة، وعبث به<sup>(١)</sup> وآذاه. تمت والله الحمد

### تفسير سورة القدر وهي مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إنا أنزلناه في ليلة القدر \* وما أدراك ما ليلة القدر \* ليلة القدر خير من ألف شهر \* تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر \* سلام هي حتى مطلع الفجر \* يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وذلك أن الله [تعالى]، ابتداءً بإنزاله<sup>(٢)</sup> في رمضان [في] ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكراً.

وسميت ليلة القدر، لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الأجل والأرزاق والمقادير القدرية.

ثم فخم شأنها، وعظم مقدارها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ أي: فإن شأنها جليل، وخطرها عظيم،

(١) في ب: وعذبه.

(٢) في ب: ابتداءً بإنزال القرآن.

(٣) كذا في ب، وفي أ: به.

(٥) في ب: الأوقات.

الأشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [روجدوا ما عملوا حاضراً].

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

### تفسير سورة العاديات وهي مكية

﴿١- ١١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتُ ضَبْحًا \* فَالْمُورِيَاتُ قَدْحًا \* فَالْمُغِيرَاتُ صُبْحًا \* فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا \* فَوسْطَنَ بِهِ جَمْعًا \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ \* وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ \* وَإِنَّهُ لَحَبَّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ \* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ \* وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ \* إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ \* أَقْسَمُ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْخَلِيلِ، لَمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ، وَنِعْمَ الظَّاهِرَةُ، مَا هُوَ مَعْلُومٌ لِلْخَلْقِ.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتُ ضَبْحًا﴾ أي: العاديات عدواً بليغاً قوياً، يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو<sup>(٥)</sup>. ﴿فَالْمُورِيَاتُ﴾ بحوافرهن ما يطان عليه من الأحجار ﴿قَدْحًا﴾ أي: تقدح<sup>(٦)</sup> النار من صلابة حوافرهن [وقوتهن] إذا عدون، ﴿فَالْمُغِيرَاتُ﴾ على الأعداء ﴿صُبْحًا﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحاً، ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ﴾ أي: بعدوهن وغارتهم ﴿نَقْعًا﴾ أي: غباراً، ﴿فَوْسَطَنَ بِهِ﴾ أي: براكبهن ﴿جَمْعًا﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي: لمنوع للخير الذي

### تفسير سورة إذا زلزلت وهي مدنية

﴿١- ٨﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا \* وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا \* وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا \* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا \* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا \* يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لَّيْرًا أَعْمَالَهُمْ \* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ \* يَغْيُرُ تَعَالَىٰ عَمَّا يُكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ تَزَلْزَلُ وَتَرْجَفُ وَتَرْتَجِ، حَتَّىٰ يَسْقُطَ مَا عَلَيْهَا مِنْ بَنَاءٍ وَعَلَمٍ<sup>(٣)</sup>.

فتندك جبالها، وتُسَوَّى تلالها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: ما في بطنها، من الأموات والكنوز، ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك: ﴿مَا لَهَا؟﴾ أي: أي شيء عرض لها؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ الْأَرْضُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [أي] وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي لأمره<sup>(٤)</sup>.

﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسَ﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: فرقاً متفاوتين. ﴿لَّيْرًا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ليربهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويربهم جزاءه موفراً.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر

قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حَنَفَاءَ﴾ أي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخص الصلاة والزكاة، [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لْيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون، ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة، ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته<sup>(١)</sup>.

[تمت والحمد لله]

(١) في ب: بما أوجب عليه.

(٢) في ب: الزلزلة.

(٣) في ب: وعَلَمٌ.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا ستعصي.

(٥) في ب: عذوها.

(٦) في ب: تنقدح.



عليه لربه<sup>(١)</sup>. فطبيعة [الإنسان] وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤذيها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بإداء الحقوق، **﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾** أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يحجده ولا ينكره، لأن ذلك أمرٌ بين واضح. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه ككنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

**﴿وإنه﴾** أي: الإنسان **﴿الحب الخبير﴾** أي: المال **﴿لشديد﴾** أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق<sup>(٢)</sup> ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حاثاً له على خوف يوم الوعيد:

**﴿أفلا يعلم﴾** أي: هلاً يعلم هذا المغتر **﴿إذا بعث ما في القبور﴾** أي: أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم.

**﴿وحُصِّل ما في الصدور﴾** أي: ظهر وبان [ما فيها] ما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

**﴿إن ربهم يومئذ خبير﴾** أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها. وخص خبره<sup>(٣)</sup> بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد

بذلك، الجزاء بالأعمال<sup>(٤)</sup>، الناشئ عن علم الله وإطلاعه.

### تفسير سورة القارعة [وهي مكية]

**﴿١-١١﴾** **﴿بسم الله الرحمن الرحيم القارعة﴾** ما القارعة \* وما أدراك ما القارعة \* يوم يكون الناس كالفرش المبثوث \* وتكون الجبال كالعهن المنفوش \* فأما من ثقلت موازينه \* فهو في عيشة راضية \* وأما من خفت موازينه \* فأمه هاوية \* وما أدراك ما هي \* نارٌ حامية \* **﴿القارعة﴾** من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تقرع الناس وترزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: **﴿القارعة﴾** ما القارعة \* وما أدراك ما القارعة \* يوم يكون الناس \* من شدة الفزع والهول، **﴿كالفرش المبثوث﴾** أي: كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض، والفرش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافتت إليها للضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب، فتكون **﴿كالعهن المنفوش﴾** أي: كالصوف المنفوش، الذي بقي ضعيفاً جداً، تطير به أدنى ريح، قال تعالى: **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾** ثم بعد ذلك تكون هباء منثوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، **﴿فأما من ثقلت موازينه﴾** أي: رجحت حسناته على سيئاته **﴿فهو في عيشة راضية﴾** في جنات النعيم. **﴿وأما من خفت موازينه﴾** بأن لم

تكن له حسنات تقاوم سيئاته، **﴿فأمه هاوية﴾** أي: مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: **﴿إن عذابها كان غراماً﴾**.

وقيل: إن معنى ذلك، فأمر دماغه هاوية في النار أي: يلقي في النار على رأسه.

**﴿وما أدراك ما هي﴾** وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرهما بقوله هي: **﴿نار حامية﴾** أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

### تفسير سورة الهالك المتكاثر وهي مكية

**﴿١-٨﴾** **﴿بسم الله الرحمن الرحيم الهالك المتكاثر﴾** حتى زرتم المقابر \* كلا سوف تعلمون \* ثم كلا سوف تعلمون \* كلا لو تعلمون علم اليقين \* لترون الجحيم \* ثم لتسألن يومئذ عن النعيم. يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفة، والإنابة إليه، وتقديم محبته على كل شيء: **﴿الهالك﴾** عن ذلك المذكور **﴿المتكاثر﴾** ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى<sup>(٥)</sup>.

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] **﴿حتى زرتم المقابر﴾** فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن

(١) في ب: لله عليه.

(٢) في ب: على رضا ربه.

(٣) في ب: خبرهم.

(٤) في ب: المراد بهذا الجزاء على الأعمال.

(٥) في ب: وليس المقصود منه وجه الله.

بعدهما تعذر عليكم استثنائه .

ودل قوله : ﴿ حتى زُرم المقابر ﴾ أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية<sup>(١)</sup> ، لأن الله سماهم زائرين ، ولم يسمهم مقيمين .

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال<sup>(٢)</sup> ، في دار باقية غير فانية ، ولهذا توعدهم بقوله : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ثم كلا سوف تعلمون \* كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي : لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب ، لما ألهاكم التكاثر ، ولبادرتكم إلى الأعمال الصالحة .

ولكن عدم العلم الحقيقي ، صيركم إلى ما ترون ، ﴿ لترون الجحيم ﴾ أي : لتردن القيامة ، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين .

﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أي : رؤية بصرية ، كما قال تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا ، هل قمتم بشكره ، وأديتم حق الله فيه ، ولم تستعينوا به على معاصيه ، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل .

أم اغتررت به ، ولم تقوموا بشكره ؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله ، فيعاقبكم على ذلك ، قال تعالى : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ الآية .

### تفسير سورة العصر [وهي] مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والعصر ﴾ إن الإنسان لفي خسر \* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر ﴾ أقسم تعالى بالعصر ، الذي هو الليل والنهار ، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر ، والخاسر ضد الرابح .

والخسار مراتب متعددة متفاوتة :

قد يكون خساراً مطلقاً ، كحال من خسر الدنيا والآخرة ، وفاته النعيم ، واستحق الجحيم .

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض ، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان ، إلا من اتصف بأربع صفات :

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به ، ولا يكون الإيمان بدون العلم ، فهو فرع عنه لا يتم إلا به .

والعمل الصالح ، وهذا شامل لأفعال الخير كلها ، الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بحق الله وحق عباده<sup>(٣)</sup> ، الواجبة والمستحبة .

والتواصي بالحق ، الذي هو الإيمان والعمل الصالح أي : يوصي بعضهم بعضاً بذلك ، ويحثه عليه ، ويرغبه فيه .

والتواصي بالصبر على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله المؤلمة .

فبالأميرين الأولين يكمل الإنسان<sup>(٤)</sup> نفسه ، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره ، ويتكامل الأمور الأربعة ، يكون الإنسان قد سلم من الخسار ، وفاز بالريح [العظيم] .

### تفسير سورة الهمة وهي مكية

﴿ ١ - ٩ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ويل لكل همزة لمزة ﴾ الذي جمع مالا وعدده \* يحسب أن ماله أخذه \* كلا لينبذن في الحطمة \* وما أدراك ما الحطمة \* نار الله الموقدة \* التي تطلع على الأفئدة \* إنما عليهم مؤصدة \*

في عمدة ممددة ﴾ ويل ﴾ أي : وعيد ، وويل ، وشدة عذاب ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ الذي يهزم الناس بفعله ، ويلمزمهم بقوله ، فالهماز : الذي يعيب الناس ، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل ، واللاماز : الذي يعيهم بقوله .

ومن صفة هذا الهماز اللماز ، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعيده والغبطة به ، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ، ونحو ذلك ، ﴿ يحسب ﴾ بجهله ﴿ أن ماله أخذه ﴾ في الدنيا ، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله ، الذي يظن أنه ينمي عمره ، ولم يدرك أن البخل يقصف الأعمار ، ويحرب الديار ، وأن البر يزيد في العمر .

﴿ كلا لينبذن ﴾ أي : ليطرحن ﴿ في الحطمة ﴾ وما أدراك ما الحطمة تعظيم لها ، وتهويل لشأنها .

ثم فسرنا بقوله : ﴿ نار الله الموقدة ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿ التي ﴾ من شدتها ﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ أي : تنفذ من الأجسام إلى القلوب .

ومع هذه الحرارة البليغة هم عبوسون فيها ، قد أيسوا من الخروج منها ، ولهذا قال : ﴿ إنما عليهم مؤصدة ﴾ أي : مغلقة ، ﴿ في عمدة ﴾ من خلف الأبواب ﴿ ممددة ﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ .

[نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية] .

### تفسير سورة الفيل وهي مكية

﴿ ١ - ٥ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل \* ألم يجعل كيدهم في تضليل \* وأرسل عليهم طيراً أبابيل \* فجعلهم

(٣) في ب : بحقوق الله وحقوق عباده .

(٤) في ب : العبد .

(١) في ب : الآخرة .

(٢) في ب : على الأعمال .

الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ

ولهذا وصف الله هؤلاء بالنرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿الذين هم يراؤون﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رثاء الناس.

﴿٧﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي:

يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به<sup>(٧)</sup>.

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة، الحث على إكرام<sup>(٨)</sup> اليتيم، والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] في جميع الأعمال. والحث على [فعل المعروف] وبذل الأمور الخفيفة، كعارية الإناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

### تفسير سورة الكوثر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فصل لربك وانحر ﴿إِنْ شِئْتَ هُوَ أَبْتَرُ﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممتناً عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته، ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له «الكوثر»، ومن الحوض<sup>(٩)</sup>.

طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أنيته كنجوم<sup>(١٠)</sup> السماء في

ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: ليؤحدوه ويخلصوا له العبادة، ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة، وخص الله بالربوبية البيت<sup>(٢)</sup>، لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

### تفسير سورة الماعون [وهي] مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ﴾ \* فذلك الذي يدع اليتيم \* ولا يحض على طعام المسكين \* فويل للمصلين \* الذين هم عن صلاتهم ساهون \* الذين هم يراءون \* ويمنعون الماعون﴾ يقول تعالى ذاماً لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخشى<sup>(٣)</sup> عقاباً.

﴿ولا يحض غيره﴾ على طعام المسكين \* ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، ﴿فويل للمصلين﴾ أي: الملتزمون<sup>(٤)</sup> لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها<sup>(٥)</sup>، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم<sup>(٦)</sup>، وأما السهو في

كعصف مأكول﴾ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بنجم لا قبل للعرب به، من الحشنة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالغرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة محممة من سجيل، فرمتهم بها، وتبعث قاصيهم ودانيهم، فحمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، وأوقستهم معروفة مشهورة [وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ] فصارت من جملة إرهابات دعوته، ومقدمات<sup>(١)</sup> رسالته، فله الحمد والشكر.

### تفسير سورة لإيلاف قريش وهي مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لإيلاف قريش﴾ \* لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف \* فليعبدوا رب هذا البيت \* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب.

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي: سفر أرادوا،

(٩) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض الذي يقال له: الكوثر.

(١٠) في ب: عدد نجوم السماء.

(٥) في ب: مخلون بأركانها.

(٦) في ب: الذم والوعيد.

(٧) في ب: يبذله والسماح به.

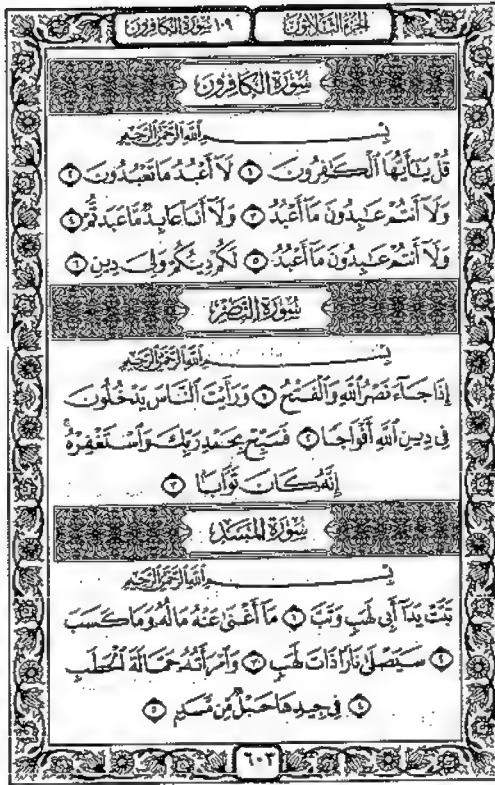
(٨) في ب: إطعام.

(١) في ب: أدلة.

(٢) في ب: الربوبية بالبيت.

(٣) في ب: يخاف.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون.



دين ﴿ كما قال تعالى ﴾: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾.

### تفسير سورة النصر وهي مدنية (٢)

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ \* ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ \* فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المشر به، وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين (٣)، ويزداد عند حصول التسيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاههم الله (٤) بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

[ومع هذا] فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا

كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظما بعدها أبداً.

ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: ﴿ فصل لربك واتحر ﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشع به.

﴿ إن شائتك ﴾ أي: مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿ هو الأبر ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقاً، الذي له النكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

### تفسير سورة الكافرون

﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل يا أيها الكافرون ﴾ \* لا أعبد ما تعبدون ﴾ \* ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ \* ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ \* ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ \* لكم دينكم ولي دين ﴾ أي: قل للكافرين معلنا ومصرحاً ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهراً وباطناً.

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ لعدم إخلاصكم لله في عبادته (١)، فعبادتكم له المقتربة بالشرك لا تسمى عبادة، ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً.

ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿ لكم دينكم ولي

يخطر بالبال، أو يدور في الخيال. وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به. وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك.

فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد وتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يحده صلوات الله وسلامه عليه.

فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثّر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي».

### تفسير سورة تبت [وهي] مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ \* ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ \* سيصلي

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله.

(٢) في ب: وهي مكية.

(٣) في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين.

(٤) في ب: فابتلوا.



ومن شر النفاثات في العقد \* ومن شر حاسد إذا حسد \* أي: \* قل \* متعوذاً \* (أعوذ \* أي: ألتجأ وألوذ، واعتصم \* برب الفلق \* أي: فائق الحب والنوى، وفائق الإصباح \* \* \* \* \* من شر ما خلق \* وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها، ثم خضع بعدما علم، فقال: \* (ومن شر غاسق إذا وقب \* أي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية.

\* (ومن شر النفاثات في العقد \* أي: ومن شر السواحر، اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدن على السحر.

\* (ومن شر حاسد إذا حسد \* والحاسد: هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر، عموماً وخصوصاً.

ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه [ومن أهله].

### تفسير سورة الناس وهي مدنية<sup>(١)</sup>

\* (١ - ٦) \* بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الناس \* ملك الناس \* إله الناس \* من شر الوسواس الخناس \* الذي يوسوس في صدور الناس \* من الجنة والناس \* وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة

برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها وماذنها، الذي من فتنته وشره، أنه

زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مبد، وعلى كل، ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا يبد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

### تفسير سورة الإخلاص [وهي] مكية

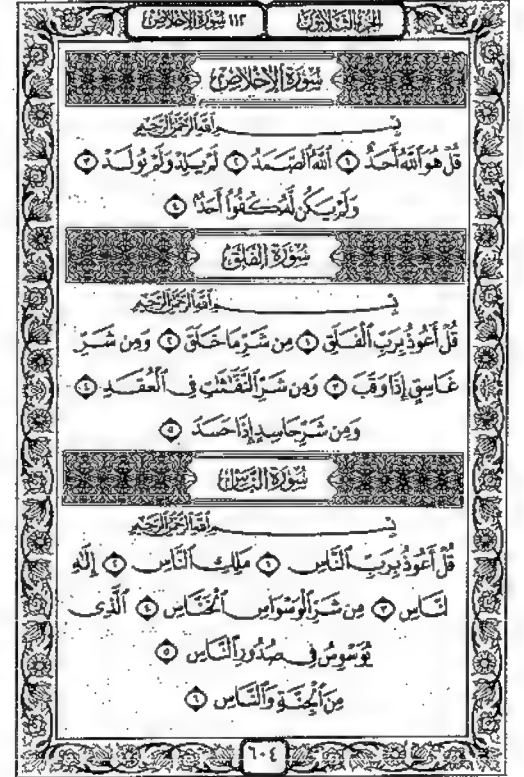
\* (١ - ٤) \* بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد \* الله الصمد \* لم يلد ولم يولد \* ولم يكن له كفواً أحد \* أي: \* قل \* قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، \* هو الله أحد \* أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثل.

\* الله الصمد \* أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الخليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه \* لم يلد ولم يولد \* لكمال غناه، \* ولم يكن له كفواً أحد \* لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

### تفسير سورة الفلق [وهي] مكية

\* (١ - ٥) \* بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الفلق \* من شر ما خلق \* ومن شر غاسق إذا وقب \*



ناراً ذات لهب \* وامرأته حمالة الحطب \* في جيدها حبل من مسد \* أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حمية للقرابة - قبحه الله - فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

\* ثبت يدا أبي لهب \* أي: خسرت يده، وشقي \* وتب \* فلم يربح، \* ما أغنى عنه ماله \* الذي كان عنده وأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به، \* سيصلى ناراً ذات لهب \* أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو \* وامرأته حمالة الحطب \*.

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً \* من مسد \* أي: من ليف.

أو أنها تحمل في النار الحطب على

(١) عدلت بخط مغاير في ب إلى: مكية.

يوسوس في صدور الناس، فيحسن [لهم] الشر، ويربهم إياه في صورة حسنة، وينشط إراداتهم لفعله، ويقبح لهم الخيز ويثبطهم عنه، ويربهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه الحال يوسوس ويخنس أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه.

فينبغي له أن [يستعين و] يستعيز ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم.

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها.

وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم

وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿من الجنة والناس﴾.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ، وظاهراً وباطناً.

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوباً لنا حالت<sup>(١)</sup> بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته.

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا، فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا

يقنط من رحمته إلا القوم الضالون. وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائماً متواصلين أبداً الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه، على يد جامع وكاتبه، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>

والمسلمون في كل وقت ومن كل مكان، والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(١) في ب: ذنوبنا التي حالت.

(٢) في ب: ووقع النقل في شعبان ١٣٤٥ ربحنا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم.

## الملاحق

١- أصول وكميات من أصول التفسير وكمياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان.





## أصول وكتابات

من أصول التفسير وكتباته لا يستغني عنها المفسر للقرآن<sup>(١)</sup>

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعم، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب».

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تنزل تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن، أنه يدعوا إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرد بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين.

ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلق السموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه في الأمم، ووقوع المثالات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيز وحقق وجد شراً وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير، إذا فهمت ما دلّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لا تتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به،

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة للاتقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسوله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات؛ أنه إذا وضح الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المثقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المتفعلون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنها المتفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبدُ مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع<sup>(١)</sup>].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة. والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه. العدل، هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق، هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك. حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾، ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -

الحكمة والقوام فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.  
والإسراف والتبذير، مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة.  
المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه.  
الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام.  
مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة.  
النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي.  
القرآن، كله مُحْكَمٌ، وأُحْكِمَت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابه، من جهة اتفاه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاه.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني. ومحكمه، واضح مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه.  
معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.  
ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللفظ، والتأييد.  
الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله.  
ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.  
الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب والمكاسب. والخبيث ضد ذلك.

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>.

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.  
وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المتفعلون بالآيات. هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حجر، ولُب، ونهى، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها.

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل.  
لفظ «الأمة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به «الطائفة من الناس» وهو الغالب. ويراد به «المدة»،

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، ويتمها يتضح مراده، وتماها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَيُضِلَّكُمْ سَبِيلًا﴾ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد.

ويراد به «الدين» و«الملة»، ويراد به «الإمام» في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُذِّي «على» كان معناه العلو والارتفاع، «ثم استوى على العرش».

وإن عُذِّي «إلى» فمعناه قصد، كقوله: «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات».

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمَل»، كقوله تعالى «ولما بلغ أشده واستوى».

«التوبة» ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

### فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبية إلى معانيها الجامعة، فنقول:

قد تكرر اسم «الرب» في آيات كثيرة.

و«الرب»: هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم. وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم. ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

«الله»: هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

«الملك، المالك»: الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

«الواحد، الأحد»: وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك. ويجب على العبيد توحيده، عقلاً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرد بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

«الصمد»: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضرورتها وأحوالها، لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

«العليم، الخبير»: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

«الحكيم»: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون». فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره وجزائه.



والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

«الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب».

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته. وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية.

والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه. وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

«السميع» لجميع الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

«البصير» الذي يبصر كل شيء وإن دق وصغر، فيبصر ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. ويبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السموات السبع. وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

«الحميد» في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

«المجيد، الكبير، العظيم، الجليل» وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى. وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله، والخضوع له والتذلل لكبريائه.

«العفو، الغفور، الغفار» الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالعفوان والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوهِ ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾.

«التواب» الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

«القدوس، السلام» أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتنزه عن جميع العيوب، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ ﴿هل تعلم له سمياً﴾ ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾.

فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله.

«العلي الأعلى» وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر. فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى. وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

«العزیز» الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليفة وخضعت لعظمته.

«القوي، المتين» هو في معنى العزيز.

«الجبار» هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لاذ به ولجأ إليه.

«المتكبر» عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

«الخالق، البارئ، المصور» الذي خلق جميع الموجودات وبرأها وسوّأها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

«المؤمن» الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاءوا به.

«المهيمن»: المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

«القدير» كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبّرها، وبقدرته سوّأها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون»، وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد.

«اللطيف» الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والباطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخير» وبمعنى «الرؤوف».

«الحسيب» هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، يحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليها.

«الرقيب» المطلع على ما أكتته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

«الحفيظ» الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

«المحيط» بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً.

«القهار» لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

«المُقيت» الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته

وحمده.

«الوكيل» المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أولياءه، فيسرهم ليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور.

«ذو الجلال والإكرام» أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود، والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجلونه ويعظمونه ويحبونه.

«الودود» الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودأ وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

«الفتاح» الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدريّة، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلفظه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفته ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده».

«الرزاق» لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البرّ والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

«الحكم، العدل» الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾.

«جامع الناس» ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

«الحي القيوم» كامل الحياة والقائم بنفسه، القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، ف«الحي»: الجامع لصفات الذات، و«القيوم» الجامع لصفات الأفعال.

«النور» نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدأته، وهو الذي أثار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

«بديع السموات والأرض» أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

«القابض الباسط» يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

«المعطي، المانع» لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

«الشهيد» أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

«المبدئ، المعيد» قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، ابتداء خلقهم ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإنساءتهم. وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

«الفعال لما يريد» وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فأرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

«الغني، المغني» فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته. كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة. المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

«الحليم» الذي يدبر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم، ويستعتبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

«الشكور، الشكور» الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة،

تقرب الله منه أكثر.

«القريب، المجيب» أي: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص، من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده. ومن آثاره الإجابة للداعين، والإجابة<sup>(١)</sup> للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً.

«الكافي» عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

«الأول، والآخر، والظاهر، والباطن».

قد فسرها النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

«الواسع» الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يخصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم.

«الهادي، الرشيد» أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه متقادة لأمره. وللرشيد معنى بمعنى الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

«الحق» في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾.

﴿وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين آمين.

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإجابة) والله أعلم.





﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ فإن خفتم فرجالاً أو ركبناً فإذا أمتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عموماً، وعلى الصلوة الوسطى وهي العصر خصوصاً.

والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع،

﴿٢٣٩﴾ وقوله: ﴿فإن خفتم﴾ حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا، ﴿رجالاً﴾ ماشين على أرجلكم.

﴿أو ركبناً﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فإذا أمتمتم فاذكروا الله﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكراً له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم آخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم﴾.

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، وأن الأمر

كان على الزوجة، أن تربص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيئون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط النسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشراً، على وجه التحريم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخطرها، وبراً بميتهم، ولهذا قال: ﴿وصية لأزواجهم﴾، أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يتوصوا بزوجه، ويمتنعوا ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾، أي: من التجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها الثلاثة بها.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ وللמطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ لما بين في الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يتمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم ينسج لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره.

وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى. وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء. ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: ﴿حقاً على المتقين﴾، والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أثنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقته للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وفهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿٢٤٣﴾ ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوباء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فراراً من الموت، فلم ينجمهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك، بفضل له وإحسانه، وهو لا زال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرافها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلاً متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء، وجنباً عن لقائهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد، وترهيباً من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئاً. ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

﴿٢٤٤-٢٤٥﴾ ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله

﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليه﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضاً، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمددهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخراً، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالنفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق مناً ولا أذى ولا مبطلاً ومتقصاً.

﴿٢٤٦﴾ ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعت لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ إلى آخر القصة. يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليزغبوا في الجهاد، ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقاتل مقال.

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم

الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وأنه عتبن لهم نبيهم طالوت ملكاً، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالا﴾.

فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليكم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والتجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

﴿٢٤٨﴾ ﴿ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إن آية ملكه أن يأتاكم التابوت فيه سكتة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾، فحيثئذ سلموا وانقادوا.

﴿٢٤٩﴾ ﴿فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم، ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم، ما يحتاج إلى تمييز الضاير من الناكل، فقال: ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ تمررون عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فمن شرب منه فليس مني﴾، أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، وفور جزعه، ﴿ومن لم يطعمه فإياه مني﴾ لصدقه وصبره، ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾، أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا﴾ أي: الناكلون أو الذين عبروا:

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

فإن كان القائلون هم الناكلين، فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وقتل داود﴾ و﴿جالوت﴾ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم.

﴿وآتاه الله﴾، أي: داود ﴿الملك والحكمة﴾ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

﴿٢٥١﴾ ﴿ثم بين تعالى، فائدة الجهاد فقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

﴿٢٥٢﴾ ﴿فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيعبون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء، أنه ينبغي للأمير للجيش،

أن يتفقدوها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيذه، أو خوف الضرر بصحته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله الثبوت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفوس، هو الرضا الحقيقي.

﴿٢٥٣﴾ وقوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل، واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخص عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبدته صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلم الناس في

المهد صبياً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وأيدهم بروح منه﴾، لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيداه الله بإعائته ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخبر عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم، لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسيباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعه، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون.

﴿٢٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ يحث الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول، يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم، بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التبقيض؛ فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق.

ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله في يوم لا تفيد

فيه المعاوضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتنقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا، وهم في الغرفات آمنون﴾، ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر، والفسوق، والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿الله﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فاللوهية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿الحي﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿القيوم﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقيائها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه

﴿لا تأخذه سنة﴾، أي: نعامس  
﴿ولا نوم﴾؛ لأن السنة والنوم، إنما  
يعرضان للمخلوق، الذي يعثره الضعف،  
والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي  
العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات  
والأرض، فكلهم عبيد لله ممالك،  
لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إن  
كل من في السموات والأرض إلا آتي  
الرحمن عبداً﴾، فهو المالك لجميع  
الممالك، وهو الذي له صفات الملك  
والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يشفع عنده﴾  
أحد ﴿إلا بإذنه﴾، فكل الوجهاء والشفعاء  
عبيد له ممالك، لا يقدمون على شفاعته  
حتى يأذن لهم. ﴿قل لله الشفاعة جميعاً،  
له ملك السموات والأرض﴾ والله لا يأذن  
لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى،  
ولا يرتضى إلا توحيد، واتباع رسله،  
فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة  
نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه  
يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور  
المستقبلية، التي لا نهاية لها ﴿وما  
خلفهم﴾ من الأمور الماضية التي لا حد  
لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم  
خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من  
علم الله ومعلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ منها  
وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية  
والقدرية، وهو جزء يسير جداً مضمحل  
في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم  
الخلق به، وهم الرسل والملائكة:  
﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾.

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن  
كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد  
حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب  
والنظامات، التي جعلها الله في  
المخلوقات.

ومع ذلك فـ ﴿لا يؤوده﴾، أي: يثقله  
حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة  
حكيمته في أحكامه.

﴿وهو العلي﴾ بذاته، على جميع  
مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو  
العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له  
الموجودات، وخضعت له الصعاب،

وذلت له الرقاب.

﴿العظيم﴾ الجامع، لجميع صفات  
العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي  
تجته القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف  
العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت  
عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب  
عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي  
أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات  
القرآن، ويحق لمن قرأها، متديراً متفهماً،  
أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان  
والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من  
شرور الشيطان.

﴿٢٥٦﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين  
الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت  
ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى  
لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ هذا بيان  
لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال  
براهينه، واتضح آياته، وكونه هو دين  
العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة،  
ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق  
والرشد، فلكناله رقبول القطرة له،  
لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه  
إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى  
مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه  
وآياته، وإلا فمن جاء هذا الدين، ورده  
ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق  
لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله،  
ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات  
الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر  
بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء  
المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض  
مع النبر والبفاجر، وأنه من الفروض  
المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي.  
فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية  
تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة  
فقوله ضعيف، لفظاً ومعنى، كما هو  
واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما  
نهى عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين:  
قسم آمن بالله وحده لا شريك له،  
وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي  
الإيمان بالله من الشرك وغيره -، فهذا قد  
استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام  
لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح،

حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.

ويؤخذ القسم الثاني، من مفهوم الآية،  
أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن  
بالطاغوت، فإنه هالك هلاكاً أبدياً،  
ومعذب عذاباً سرمدياً.

وقوله: ﴿والله سميع﴾، أي: لجميع  
الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن  
الحاجات، وسميع لدعاء الداعين،  
وخضوع المتضرعين.

﴿عليم﴾ بما أكتنه الصدور، وما خفي  
من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب  
ما يعلمه، من نياته وعمله.

﴿٢٥٧﴾ ﴿الله ولي الذين آمنوا  
يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين  
كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من  
النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار  
هم فيها خالدون﴾ هذه الآية مترتبة على  
الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس،  
وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله،  
وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات  
الإيمان، وترك كل ما ينافية، أنه وليهم،  
يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم،  
فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر  
والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور  
العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال  
الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه  
فيها من نور الوحي والإيمان، ويسرهم  
للسرى، ويجنهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير  
وليهم، ولأهم الله ما تولوا لأنفسهم،  
وخذلهم، ووكلمهم إلى رعاية من تولاهم،  
ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم  
وأشقّوهم، وحرّموهم هداية العلم النافع  
والعمل الصالح، وحرّموهم السعادة،  
وصارت النار مثواهم، خالدون فيها  
مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت.  
﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذين حاج  
إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال  
إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا  
أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي  
بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب  
فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم  
الظالمين﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل  
والسالفين، ما به تبين الحقائق، وتقوم  
البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرود<sup>(١)</sup> البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاكته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره ملكه وأطفاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال إبراهيم مناظراً له: «ربي الذي يحيي ويميت»، أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتاً: «أنا أحيي وأميت»، وعنى بذلك أنني أقتل من أردت قتله، وأستقي من أردت استبقاءه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وخيلة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردها على الأموات، وأنه هو الذي يميت العباد والحيوانات بأجلها، بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فيهد الذي كفر»، أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقلاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويح والتزوير والتويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

﴿٢٥٩-٢٦٠﴾ ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء، فقال: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال بل لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير \* وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم».

هذان دليلان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحد أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميراً، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟»، أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدة الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: «كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم» وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: «بل لبثت مائة عام»، والظاهر أن هذه المجاورة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فيعدها عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه»، أي: لم يتغير في هذه المدة الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب -

خصوصاً ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن يتغير، وهذا قد حفظه الله، مائة عام، وقيل له: «انظر إلى حمارك»، فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظاماً نخرة.

«وانظر إلى العظام كيف ننشزها»، أي: نرفع بعضها إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت، «ثم نكسوها» بعد الالتئام «لحماً»، ثم نعيد فيه الحياة.

«فلما تبين له» رأي عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه، «قال أعلم أن الله على كل شيء قدير».

فاعترف بقدرة الله على كل شيء، وصار آية للناس، لأنهم قد عرفوا موته وموت حمارة، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى، هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل، مؤمن أو نبي من الأنبياء، إما عزيز أو غيره، وأن قوله: «أنى يحيي هذه الله بعد موتها»، يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خراباً، وأن الله أماته، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق، وأنها عمرت في هذه المدة، وتراجع الناس إليها، وصارت عامرة، بعد أن كانت دامرة - فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل يتنافى، ولا يدل عليه المعنى.

فأي آية وبرهان، يرجع البلدان الدامرة إلى العمارة، وهذه لم تزل تشاهد، تعمر قرى ومساكن، وتخرّب أخرى، وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء حمارة، وإبقاء طعامه وشرابه، لم يتعفن ولم يتغير.

ثم قوله: «فلما تبين له» صريح في أنه لم يتبين له إلا بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

﴿٢٦٠﴾ وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: «أولم تؤمن» ليزيل الشبهة عن خليله.

«قال إبراهيم: «بلى» يا رب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنتك تحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد

(١) كذا في الأصل وسيأتي بعد قليل تسميته بـ (نمرود).



أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قال: فخذ أربعة من الطير﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فصرهن إليك﴾ أي: ضمنهن، واذبحهن، ومزقهن.

﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادهن، يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمه، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخض الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفوس المبطله، فجعلن متعذرات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نجاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الخيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمازج عدله وفضله.

﴿٢٦١-٢٦٢﴾ ﴿مثل الذين يتفقون أموالهم في ميل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.

وقد يجتمع الأمران، فيكون في الثقة

دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومضالغ متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمتقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه مئاً منهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية.

فهؤلاء ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تناله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فنفي عنهم المكروه الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

﴿٢٦٣﴾ ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المنفق مئاً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو: الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة، عن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطي، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشرأ.

فالخير المحض - وإن كان مفضولاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحق والجهل.

﴿والله﴾ تعالى ﴿غني﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عبادته.

﴿حليم﴾ مع كمال غناه، وسعة عطايه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافهم ويرزقهم، ويدبر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

﴿٢٦٤-٢٦٦﴾ ﴿ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأنت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظل والله بما تعملون بصير﴾ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمتفق ابتغاء وجهه، ولم يتبع نفقته مئاً ولا أذى، وللمن أتبعها مئاً وأذى، وللمرائي.

﴿٢٦٥﴾ ﴿فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام﴾ ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم، أي: يتفقون، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كمثل جنة بربوة﴾، وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل ظل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لثمورها وأزدهارها وإثمارها. ولهذا ﴿أنت أكلها ضعفين﴾، أي: متضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

﴿٢٦٦﴾ ﴿وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته مئاً وأذى، أو عمل عملاً، فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلط عليها ﴿إعصار﴾ وهو الريح الشديدة ﴿فيه نار فاحترقت﴾، وله ذرية ضعفاء، وهو

ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أظفح الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أبود أحدكم﴾، إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإنتاج ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يراي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر، الذي أصابه الوبال الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلباً.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله يطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿٢٦٧-٢٦٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾ يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض،

من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة التقدين، والعروض كلها، المعدة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والثمار، ويدخل في عمومها الفرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخيث، وهو الرديء الذون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالأوجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزىء عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المتفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لتفهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطايه، فهو الحميد فيما يشعره لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

﴿٢٦٨﴾ فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعين:

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا، فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأتفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب المعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به. وختم الآية بأنه ﴿واسع عليم﴾، أي: واسع الصفات، كثير الهيات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعلیم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿٢٦٩﴾ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ لما ذكر أحوال المتفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم. ﴿إلا أولوا الألباب﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس».

﴿٢٧٠-٢٧١﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المتفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

﴿٢٧١﴾ وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وفي قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فائدة لطيفة، ومن أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفاءها، بل هنا قواعد الشرع، تدل على مراعاة المصلحة، فزبما كان الإظهار خيراً، لحصول الأمانة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمان:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والشواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات. ﴿والله بما تعملون خبير﴾، فيجازي كلاً بعمله، بحسب حكمته.

﴿٢٧٢﴾ «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقون من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فيد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتركية للمؤمنين،

ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص، وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده مثقال ذرة: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٢٧٣-٢٧٤﴾ «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم» الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلاية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء لا يسألون الناس إلحافاً، فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراباً، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

﴿٢٧٤﴾ ومع ذلك، فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاريج حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلاية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

فإن الله يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات.

وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾، أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقوعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل العظيم».

﴿٢٧٥-٢٨١﴾ «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما

البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» يمحى الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والخطيئات، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين، عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم لا يقومون من قبورهم، إلى يوم بعثهم ونشورهم. ﴿إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾، أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة، وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾، فجمعوا - بخراءتهم - بين ما أحل الله، وبين ما حرم الله، واستباحوا بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾، بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فانتهى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فله ما سلف﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وأمره إلى الله﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته، فالله لا يضع أجر المحسنين.

﴿ومن عاد﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها، وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للخوارج، كغيرها من آيات الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان، من النار. ومن استحقاق هذه الموبيقات لدخول النار، إن لم يتب منها.

﴿٢٧٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه يمحى مكاسب المرابين، ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيد، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتنال أمره.

فالمتجرىء على الربا، يعاقبه بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة، ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾.

﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾، وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد مئة ربه، وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية، أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء، تائباً من المآثم والذنوب.

﴿٢٧٧﴾ ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهي قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، الآية، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم، وإساءة عليهم.

﴿٢٧٨﴾ ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ويذروا ما بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصّر عليه، محارباً لله ورسوله.

﴿٢٧٩﴾ ثم قال: ﴿وإن تبتم﴾ يعني من المعاملات الربوية.

﴿فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾

الناس بأخذ الربا ﴿ولا تظلمون﴾ بيخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملاته سالفه، فله ما سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملاته موجودة، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة، فقد تجرأ على الربا.

وفي هذه الآية، بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة، وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم.

﴿٢٨٠﴾ ولهذا قال: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾، أي: وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح، أن يوفي ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو خير له، ويهون على العبد، التزام الأمور الشرعية، واجتناب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة، كما ختم هذه الآية بقوله:

﴿٢٨١﴾ ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون﴾.

﴿٢٨٢-٢٨٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سقيماً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أحسب عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء

عليم \* وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتبها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾.

احتوت هاتان الآيتان، على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة.

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه، فكله جائز، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المدائيات وحلول الإجازات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً، فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون. وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية، كأموال اليتامى، والأوقاف، والوكلاء، والأمناء، وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحضاً للعبد، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال والمقتضية لذلك.

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى.

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يميل مع أحدهما لقربة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما، وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك، فليحسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل، معروفاً بالعدل، لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معترفاً عدلاً عند الناس رضى، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلاً بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، والمعروف في هذا المقام، اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابته حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾.

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره، أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك بمقامه.

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب، ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنته في معاملة، وفوضته فيها، فقله في ذلك مقبول، وهو نائب منابك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله، ولا يبخرس الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباطنين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجليلة والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقضها.

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المديونات، فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعسر، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة، فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق، وأتواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

فياب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين، ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين، قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والقنوت - فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً، وقوة حافظته الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أن تفضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾، ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد، ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمضى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو

للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصلحتها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب، ولا بالشاهد، بأن يدعى في وقت أو حالة، تضرهما.

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين، وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضاً نهى للكتاب والشاهد، أن يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكاتب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحصيلهم ما لا يطيقون، فـ ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾؟

وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا، أن يتم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت، لأنه حق أوجهه الله على الكاتب والشاهد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع النزاع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾، وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كما علمه الله﴾، ومع هذا: «فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته».

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب، فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فانتهم فساق» أو «فاسقون»، بل قال: «فإنه



فسوق بكم ﴿ فيقدر خروج العبد عن طاعة ربه، فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ أن تقوى الله، وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، أي: علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضاً، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى، حفظ على العباد أمور دينهم وديارهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

﴿٢٨٣﴾ ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون والضمانات، التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل براً أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن، أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً، تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضاً، فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن، صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلولاً أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، ولا شهود، لقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال، من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمن معاملته، فقد عمل معه معروفاً عظيماً، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق، أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامتنالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه، الذي رضي بأمانته، ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها، كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضراً وسفراً - فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشهود.

وختم الآية بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخبر تعالى، بعموم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه ﴿إِنَّهٗ كَانَ لِلْأَبَاسِينَ غَفُورًا﴾.

ويعذب من يشاء، وهو المصّر على المعاصي، في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفر، عما حدث به العبد نفسه، ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تحدث بها النفوس، التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير، وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: استقر فيها وثبت، من العزائم والأوصاف.

وأخبر أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فمن تمام قدرته، محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿٢٨٥ - ٢٨٦﴾ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَخْذٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴿ ثبت عنه ﷺ

أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه، أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتاه عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، الآية.

وأخبر في هذه الآية، أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة، وبجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض، وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ، والإخبار عنهم جميعاً بخير واحد، شرف عظيم للمؤمنين.

وفيه أنه ﷺ مشارك للأمة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، هذا التزام من المؤمنين، عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت».

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذه في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحميلهم من المشاق، والأصار، والأغلال، ما حملة على من قبلهم، ولم يحميلهم فزق طاقتهم، وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فتسأل الله تعالى، بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك، وأن يتجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ، في

العبادات، وفي حقوق الله تعالى. وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم، وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإتيان بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان، والعمد.

تم تفسير سورة البقرة، والله الحمد والثناء، وصلى الله على محمد وسلم.

### تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

﴿١-٦﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم آمَنَ \* الله لا إله إلا هو الحي القيوم \* نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل \* من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام \* إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء \* هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم \* آمَنَ \* من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله

﴿٢-٣﴾ فأخبر تعالى أنه «الحي» كامل الحياة، «القيوم» القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق «مصدقاً لما بين يديه» من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك «أنزل التوراة والإنجيل» ﴿٤﴾ «من قبل» هذا الكتاب «هدى للناس».

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والشواب العاجل والآجل.

و«إن الذين كفروا بآيات الله» التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله «لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام» ممن عصاه.

﴿٥﴾ ومن تمام قيوميته تعالى، أن علمه محيط بالخلائق «لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» حتى ما في بطون الجوامل.

﴿٦﴾ فهو «الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء» من ذكر وأنثى، وكامل الخلق ونقصه، متقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتبين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

«لا إله إلا هو العزيز» الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بدم «الحكيم» في خلقه وشرعه.

﴿٧-٨﴾ «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب \* ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» يخبر تعالى عن عظمته، وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشبهه غيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردا، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في

غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لنقص العلم، ونقص المعرفة.

فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكماً، ويقولون: «آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر» للأمور النافعة، والعلوم الصائبة «إلا أولوا الألباب»، أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا، من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصود السيئة.

وقوله: «وما يعلم تأويله إلا الله»: إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على «إلا الله» حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام، كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين، دعا الله تعالى أن يشبههم على الإيمان، فقالوا: «ربنا لا تزغ قلوبنا»، أي: لا تملأها عن الحق إلى الباطل.

«بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة»، تصلح بها أحوالنا «إنك أنت الوهاب»، أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين، أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات أخر الأسباب التي بها تزغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: «فلما زاعوا أزاع الله قلوبهم»، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم.

«ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة» فالعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختاره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاع قلبه، عقوبة له على زيغه، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأتاة بالسوء، والله أعلم.

﴿٩﴾ «ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد» هذا

من تنمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعده، وذلك يستلزم موجه ومقتضاه، من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء، أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، للذين هما أساس الخيرات.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ كذاب آك فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿لَمَّا ذَكَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَ أَنَّ جَمِيعَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَكَذَّبَ رَسُولَ اللَّهِ، لَا بَدَّ أَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ وَيَصْلُوهَا، وَأَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ سَيَجْرِي عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَخْذَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، مَا جَرَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَسَائِرِ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ فأخذهم الله بذنوبهم ﴿وَعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةَ، مُتَّصِلَةً بِالْعُقُوبَاتِ الْآخِرِيَّةِ.

﴿والله شديد العقاب﴾، فإياكم أن تستهنوا بعقابه، فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ قد كان لكم آية في فتنين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴿وهذا خبر وبشرى للمؤمنين، وتخويف للكافرين، أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بذر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق، وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم، وفئة الكافرين، يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزمهم بإذن الله، ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

قلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمححل الباطل لكان -

بحسب الأسباب الحسية - الأمر بالعكس.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ قل أوئبثكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴿أخبر تعالى في هاتين الآيتين، عن حالة الناس في إشار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم، والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم، ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل، منقضى في مدة سيرة.

فهذا ﴿متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات، والنعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة، من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق، لأن النقي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات، مستلزم لوصفها بالكمالات.

﴿والله بصير بالعباد﴾ فييسر كلاً منهم لما خلق له، أما أهل السعادة، فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمثون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي: هؤلاء

الراسخون في العلم، أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبيل الخيرات، وعلى الفقراء، وأهل الحاجات، وبالاستغفار، خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿١٨﴾ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته، توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده، بصفات العظمة والكبرياء، والمجد، والعز، والقدرة، والجلال، وتنوعت النجود، والبر والرحمة، والإحسان، والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق، أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الشاء عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوايعها، والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسئية، كله قسط وعدل.

﴿قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله﴾، فتوحيد الله، ودينه، وجزاؤه، قد ثبت

معدودة حددوها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدير الملك راجع إليهم، حيث قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، ومن المعلوم أن هذه أمانى باطلة، شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترتوا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم - إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا، وجرى عدل الله في عبادته، فهناك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

﴿٢٦-٢٧﴾ ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً، وغيره تبعاً - أن يقول عن ربه، معلناً بفردته بتصريف الأمور، وتبدير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق، والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأمانى أهل الكتاب، ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتبدير له، فليس له معارض في تبديره، ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمدولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿٢٧﴾ ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا، ما ينقص من هذا، ليقيم بذلك مصالح خلقه.

ويخرج الحي من الميت، كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر، والميت من الحي.

كما يخرج الحبوب والنوى، والزروع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي

شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة، فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك، أن يقول ويعلم: أنه قد أسلم وجهه، أي: ظاهره وباطنه، لله، وأن من اتبعه كذلك، قد وافقه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم، من أهل الكتاب، والأميين، أي: الذين ليس لهم كتاب، من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم﴾ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴿أي الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى، الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والعقول.

﴿٢٢﴾ ﴿فهؤلاء قد حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾، واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

﴿٢٣-٢٥﴾ ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وعزهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾، و ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ الذي يصدق ما أنزله على رسله.

﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ عن اتباع الحق، فكأنه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع، وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً

ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين، والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبعون، وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يقادر قدره.

﴿١٩﴾ ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ يخبر تعالى ﴿إن الدين عند الله﴾، أي: الدين الذي لا دين لله سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿الإسلام﴾، وهو الانقياد لله وحده، ظاهراً وباطناً بما شرعه على السنة رسله، قال تعالى: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، فمن دان بغير دين الإسلام، فهو لم يدن لله حقيقة، لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على السنة رسله.

ثم أخبر تعالى، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فأنحرفوا عنه عناداً وبغياً، وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغى والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾، أي: فليتظروا ذلك فإنه آت، وسيجزئهم الله بما كانوا يعملون.

﴿٢٠﴾ ﴿فإن حآجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد

وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فأتقون﴾، فرأفته ورحمته، سهلت لهم الطرق، التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته، حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق، التي تفضي بالكها إلى الجحيم.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ \* قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ هذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلمة محبة الله، اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعتة وجميع ما يدعو إليه، طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك، أحبه الله، وجزاه جزء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكانه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتهما؟

﴿٣٢﴾ فأجاب بقوله: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ باستثال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخير، ﴿فإن تولوا﴾ عن ذلك، فهذا هو الكفر، والله لا يحب الكافرين﴾.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ إلى آخر القصة.

الله تعالى من عباده أصفاء، يصطفاهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية، والنعمت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كمال الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير، تسلسل في ذرايعهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا

تبعه النصرة.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد، وقد أخذ بنواصيرهم، وإليه يرجعون وسيصيرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاءه، على غيره بالشواب الجزيل، ويعاقب الكافرين، ومن تولاهم بالعذاب الويل.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ \* يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد، أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء، في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه، فهو العظيم القدير على كل شيء، الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

﴿٣٠﴾ ولما ذكر لهم من عظمت وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضاً، داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم - حينئذ - من خير وشر - محضرة.

فحينئذ يغتبط أهل الخير، بما قدموا لأنفسهم، ويتخسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فيذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه، ويلاقي سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقي من الأعمال التي توجب القضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمتة، وكمال عدله وشدة نكاله، ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته، أنه خوف العباد،

يخرج المتضادات، بعضها من بعض، وقد انتقادت له جميع العناصر<sup>(١)</sup>.

وقوله ﴿بيدك الخير﴾، أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفاً، ولا اسماً، ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر، كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاء، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: ﴿بيدك الخير والشر﴾، بل يقال: ﴿بيدك الخير﴾ كما قاله الله، وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾، وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي يُنال بها رزقه كقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق، إلا من الله، ويسمعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

﴿٢٨﴾ ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ هذا نهي من الله، وتحذير للمؤمنين، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ التولي، ﴿فليس من الله في شيء﴾، أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾.

وقوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾، أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين، فلكم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة، لا في التولي الذي هو محبة القلب، الذي

(١) قدم الشيخ - رحمه الله - هذا الجزء من الآية، وقد آثرت إبقاءه على ما هو عليه، مع التنبيه إلى هذا التقديم.



من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه .  
 ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم من يستحق  
 الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث  
 اقتضت حكمته .

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فلما قرر عظمة هذه  
 البيوت، ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ،  
 وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة،  
 وكيف تنقلت بهما الأحوال، من ابتداء  
 أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران،  
 قالت - متضرعة إلى ربها، متقرية إليه بهذه  
 القرية التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته  
 وملازمة طاعته - : ﴿إني نذرت لك ما في  
 بطني محرراً﴾، أي: خادماً لبيت العبادة،  
 المشحون بالمتعبدين .

﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل، أي: اجعله  
 مؤسماً على الإيمان والإخلاص، مثمراً  
 للخير والشواب، ﴿إنك أنت السميع  
 العليم﴾ فلما وضعتها قالت رب إني  
 وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس  
 الذكر كالأنثى .

كان في هذا الكلام، نوع تضرع منها،  
 وانكسار نفس حيث كان نذرهما بناء على  
 أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة  
 والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل  
 القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله  
 قلبها، وتقبل الله نذرهما، وصارت هذه  
 الأنثى، أكمل وأتم من كثير من الذكور،  
 بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد،  
 أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً  
 حسناً﴾، أي: ربيت تربية عجيبة، دينية،  
 أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها،  
 وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها  
 كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلاً .

وهذا من منة الله على العبد، أن يجعل  
 من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين .  
 ﴿٣٧ - ٣٩﴾ ثم إن الله تعالى أكرم  
 مريم وزكريا، حيث يسر لمريم من الرزق  
 الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة  
 أكرمها الله به .

إذ ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾  
 وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة  
 صلاتها وملازمتها لمحرابها، ﴿وجد عندها  
 رزقاً﴾، هنيئاً معداً .

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو  
 من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير

حساب﴾ .

فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر  
 واللطف من الله بها، ذكره أن يسأل الله  
 تعالى حصول الولد، على حين اليأس  
 منه، فقال: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية  
 طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة  
 وهو قائم يصلي في المحراب أن الله  
 يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله،  
 اسمه أي: الكلمة التي من الله «عيسى ابن  
 مريم» .

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم،  
 تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم،  
 والتصديق له، والشهادة له بالرسالة .  
 فهذه الكلمة من الله، كلمة شريفة،  
 اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي  
 من جملة كلماته التي أوجد بها  
 المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إن مثل  
 عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب،  
 ثم قال له كن فيكون﴾ .

وقوله: ﴿وسيداً وحسوراً﴾، أي: هذا  
 المبشر به وهو يحيى، سيد من فضلاء  
 الرسل وكرامهم: «والحضور»، قيل: هو  
 الذي لا يولد له، ولا شهرة له في النساء،  
 وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب  
 والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين .

﴿ونبياً من الصالحين﴾، الذين بلغوا في  
 الصلاح ذروته العالية .

﴿٤٠﴾ ﴿قال رب أنى يكون لي غلام  
 وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟﴾، فهذا  
 مانعان، فمن أي طريق - يا رب - يحصل  
 لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟! .

﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾،  
 فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور  
 بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك،  
 لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت  
 الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته  
 وإرادته، فلا يتعاضى على قدرته شيء من  
 الأسباب، ولو بلغت في القوة، ما بلغت .

﴿٤١﴾ ﴿قال رب اجعل لي آية﴾  
 ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنت -  
 يا رب - متيقناً ما أخبرتنى به، ولكن  
 النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات  
 الرحمة واللطف .

﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا  
 رمزا﴾، ﴿و﴾ في هذه المدة «اذكر ربك  
 كثيراً وسبح بالعشي والإبكار»، أول النهار

وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة،  
 فكان في هذا، مناسبة لحصول الولد من  
 بين الشيخ الكبير، والمرأة العاقر .

وكونه لا يقدر على مخاطبة آدميين،  
 ولسانه منطلق بذكر الله، وتسبيحه، آية  
 أخرى .

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار،  
 وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح  
 بالعشايا والأبكار .

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت  
 عمران، على زكريا، فإن ما من الله به  
 عليها، من ذلك الرزق الهنيئ، الذي  
 يحصل بغير حساب، ذكره وهيبه على  
 التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل  
 بالنسب والمسبب، ولكنه يقدر أموراً  
 محبوبة على يد من يحبه، ليرفع الله قدره،  
 ويعظم أجره .

﴿٤٢﴾ ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم،  
 وأنها بلغت في العبادة والكمال، مبلغاً  
 عظيماً، فقال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة  
 يا مريم إن الله اصطفاك﴾، أي: اختارك،  
 ووهب لك من الصفات الجلييلة،  
 والأخلاق الجميلة .

﴿وطهر﴾ من الأخلاق الرذيلة،  
 «واصطفاك على نساء العالمين»، ولهذا  
 قال ﷺ: «كملت من الرجال كثير، ولم  
 يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران،  
 وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد،  
 وفضل عائشة على النساء، كفضل الشريد  
 على سائر الطعام» .

﴿٤٣﴾ فنادتها الملائكة عن أمر الله لها  
 بذلك، لتعطي بنعم الله، وتشكر الله،  
 وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا  
 قالت الملائكة: ﴿يا مريم انتني لربك﴾،  
 أي: أكشري من الطاعة، والخضوع  
 والخشوع لربك، وأديمي ذلك «واسجدي  
 واركعي مع الرَّاكعين»، أي: صلي مع  
 المصلين، فقامت بكل ما أمرت به،  
 وبرزت، وفاقته في كمالها .

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر  
 الأدلة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر  
 بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا  
 نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله  
 المميز الحكيم، لا يتعلم من الناس - قال  
 تعالى - : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه  
 إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم  
 أيهم يكفل مريم﴾، حيث جاءت بها أمها،

فاختصموا أيهم يكفلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فآلقوا أقلامهم مقترعين، فأصاب القرعة زكريا، رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها، فتقصها على الناس، وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبعث وغيرها من الأصول الكبار.

﴿٤٥﴾ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، أي: له الوجاهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلامهم درجة، وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

ومن تمام هذه البشارة أنه: يكلم الناس في المهد، فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالخلق، ﴿و﴾ كذلك يكلمهم كهلاً، أي: في حال كهولة، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهد، فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته، فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم، في وحيه، وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو من الصالحين الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحيه، وألستهم بالشقاء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

﴿٤٧﴾ قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر، وهذا من الأمور المستغربة قال كذلك الله يخلق ما يشاء ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته.

﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ ويعلمه الكتاب، أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس،

ويعطيه النبوة.

﴿٤٩﴾ ﴿و﴾ يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، ويؤيده بالآيات البيّنات، والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أنى قد جئتكم بآية من ربكم﴾ تدلّكم أنى رسول الله حقاً.

وذلك ﴿أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه، وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينه، والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك المذكور ﴿آية﴾ لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، فأئده الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة، والدين الذي جاء به، وأنه دين التوراة، ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين، لخالف ما جاء به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضاً فقوله: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾، أي: ولأخفف عنكم بعض الأصار، والأغلال.

﴿٥١﴾ فأتقوا الله وأطيعون \* إن الله ربي وربكم فاعبدوه، وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل، عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعتهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات التعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

﴿٥٢﴾ فلما أحسن عيسى منهم الكفر والاتفاق على رد دعوته، قال: نادياً لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿من أنصاري إلى الله، قال الحواريون﴾، أي: الأنصار.

﴿نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾، وهذا من مئة الله عليهم، وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين، الإيمان به، والانقياد لطاعته،

والنصرة لرسوله.

﴿٥٣﴾ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول، وهذا التزام تام للإيمان، بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فأكتبنا مع الشاهدين﴾ لك بالوحدانية، ولنيك بالرسالة، ولدينك بالحق والصدق.

﴿٥٤﴾ وأما من أحسن عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مكروا﴾ بعيسى ﴿ومكروا الله﴾ بهم، ﴿والله خير الماكرين﴾، فاتفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم شبه عيسى.

﴿٥٥﴾ فقبضوا على من شبه لهم به، وقال الله لعيسى: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾، فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، ظانين أنه عيسى، وباؤوا بالاثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم، في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به، ونصرهم الله على من انجرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ، فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾، الآية.

ولكن حكمة الله عادلة، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين، نصره الله النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه، ونبذ شرعه، وتجرأ على معاصيه، إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء، ﴿والله عزيز حكيم﴾.

وقوله: ﴿ثم إلي مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

﴿٥٦-٥٧﴾ فقد بين ما يفعله بهم، فقال: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ \* وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم والله لا يحب

الظالمين ﴿٥٨﴾.

وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف، من جميع أهل الأديان السابقة. ثم لما بعث سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ونسخت رسالته، الرسالات كلها، ونسخ دينه، جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين، من الهالكين.

﴿٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾. أي: هذا القرآن العظيم، الذي فيه نبأ الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿٥٩-٦٢﴾ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴿٥٩﴾ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴿٦٠﴾ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفوسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴿٦١﴾ إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴿٦٢﴾ لما ذكر قصة مريم وعيسى وبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية، فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى ﷺ، فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذها إلهاً، شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإن خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم، على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل الدعاوى.

﴿٦٠﴾ وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾، وكان قد قدم على النبي ﷺ وقد نصارى نجران، وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهيته.

﴿٦١﴾ فوصلت به وبهم الحال، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد

اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتعصب منعهم منه.

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى، أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم - إن باهلوهم - هلكوا، هم وأولادهم وأهلهم، فصالحوه ويدلوا له الجزية، وطلبوا منه المواعدة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يرحبهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾، أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وإن الله لهو العزيز﴾، الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات، وأذعنت له سكان الأرض والسموات.

ومع ذلك فهو ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها<sup>(١)</sup>.

﴿٦٤﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قولوا آمنا بالله﴾، الآية.

ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا.

و ﴿إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا

مسلمون﴾، كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخرها.

﴿٦٥-٦٨﴾ ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٦٥﴾ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴿٦٦﴾ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴿٦٧﴾ كانت الأديان كلها، اليهود والنصارى، والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم، يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد ﷺ وأتباعه، وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بريء منهم، ومن ولايتهم، لأن دينه، الحنيفية السمحة، التي فيها الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى، أنهم على ملة إبراهيم، فقد علم أن اليهودية والنصرانية، التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر، الذي يعلم به كذبهم وافترائهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾، فكلما قوي إيمان العبد، تولاها الله بلطفه، ويسره ليسرى، وجنبه العسرى.

﴿٦٩-٧٤﴾ ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ ﴿٧٤﴾ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴿٧٥﴾ يا أهل الكتاب لم تليسون الحق بالباطل

(١) لم يفسر - رحمه الله - الآية الثالثة والستين، وقد قام التجار بإضافة تفسيرها من عنده.

ذلك، ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغبتهم.

﴿٧٩-٨٠﴾ ﴿ما كان ليشتر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴿أي: يتمتع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف، وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!﴾

هذا من الممتنع، لأن حاله وما هو عليه، وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص، تقتضي العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران، حين تبادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر، أن قالوا: أتأمرنا - يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبين الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿٨١-٨٢﴾ ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ فمن تولى بعد ذلك فأرلثك هم الفاسقون ﴿هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة، المقتضي للقيام التام، بحق الله وتوفيته، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم، بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به، وينصرونه.

فأقروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم، قد اتفقت وتعاهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق، بالإيمان،

الكثير، يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة، يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾، أي: ليس علينا جناح إذا خناهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال تعالى: ﴿بلى﴾، أي: ليس الأمر كما قالوا.

فإنه ﴿من أوفى بعهده واتقى﴾، أي: قام بحقوق الله، وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقي، والله يحبه.

أي: ومن كان بخلاف ذلك، فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمتقه، وسيجزيه على ذلك أعظم النكال.

﴿٧٧﴾ ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحطام القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالإيمان الكاذبة، والعهود المنكوثة، فهؤلاء ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾، أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه، وحرما ثوابه، ومنعوا من التزكية، وهي التطهير.

بل يردون القيامة، وهم يتلبثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظام.

﴿٧٨﴾ ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في

وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المكرات الخبيثة.

فقلت طائفة منهم: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾، أي: أوله، وأرجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم، ولا يوافق الكتب السابقة، لم يرجعوا.

هذا مكرهم، والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل، يختص به من يشاء، فخصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم.

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق، وإذا وصلت حقيقته إلى القلوب، لم يزد ضاحيه - على طول المدى - إلا إيماناً و يقيناً.

ولم تزد الشبه، إلا تمسكاً بدينه، وحمداً لله، وثناء عليه حيث من به عليه.

وقولهم: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾، يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة، الحسد والبغي، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا، حَسِداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، الآية.

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴿يخبر تعالى عن أهل الكتاب، أن منهم طائفة أمناء، بحيث لو أمنتهم على قناطير من القود، وهي المال

والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم، فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم، وأقروا به واعترفوا.

فمن تولى عن اتباع محمد، ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحجة والبرهان، على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسولهم، الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿٨٣-٨٥﴾ «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون» قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون \* ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين \* قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها، فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه، ورغب عنه، فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

﴿٨٦-٩١﴾ «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين» أولئك جزأؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين \* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون \* إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم \* إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون \* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملة الأرض ذهباً ولو افتدى به

أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين \* يعني: أنه يبعد كل البعد، أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه، وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم، ناكسين ناكثين؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فتركه، والباطل فأثّره، فولاه الله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء \* عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين \* خالدين في اللعنة والعذاب \* لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون \* إذا جاءهم أمر الله لأن الله، عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد، التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم، فإن الله يعفو لهم ما قدموه، ويعفو عنهم ما أسلفوه.

﴿٩١﴾ ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزد إلا كفراً حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملة الأرض ذهباً ليفتدوا به، لم ينفعهم شيئاً، فعياًذاً بالله من الكفر وفروعه.

﴿٩٢﴾ «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم» يعني: لن تنالوا وتدرخوا البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقدير محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووفقه أعمالاً وأخلاقاً، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا

الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأخرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، فإن الله به عليم.

وسيجزي كل منفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

﴿٩٣-٩٤﴾ «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» \* فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون \* من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنسبة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة، فيها من التحريمات التي نسخت، ما كان حلالاً قبل ذلك شيء كثير.

قل لهم - إن أنكروا ذلك - «فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.

وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انتقاد للحق، فهو الواجب، وإن أبى ولم يشق بعد هذا البيان، تبين كذبه وافتراؤه، وظلمه وطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿٩٥﴾ «قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قبلاً وحديثاً، وقد بين في هذه الآيات، من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ، وبراهين دعوته، وطلان ما عليه المشركون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله، وردوا دعوته، فقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك، ببراهين وحجج، تتصدع لها الجبال، وتخضع لها الرجال.



عظيم ﴿ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فججمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتبع هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿ يدعون إلى الخير ﴾ وهو الذين، أصوله، وفروعه وشرائعه.

﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

﴿ وينهون عن المنكر ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بتضيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبيئات، الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، ففارقوا واختلفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - وبخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصدهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أثم الجزاء وأوفاه.

﴿ ١٠٠ - ١٠١ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴿ لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - والله الحمد - أنتم - يا معشر المؤمنين - بعدما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفوائده، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله، الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب.

﴿ ومن يعتصم بالله ﴾، أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿ فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾، وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿ ١٠٢ - ١٠٥ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿ ولكن منكم أمة بدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب

فتمين عند ذلك على الناس كلهم، اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿ ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴿ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتسرّع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن<sup>(١)</sup> الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودينياً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿ ٩٨ - ٩٩ ﴾ ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ قل يا أهل الكتاب لم تصدقوا عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴿ لما أقام فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك، يعرفون

(١) مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمن. وقد غيرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله.

وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيء، وبغي من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿١٠٦-١٠٧﴾ ثم بيّن متى يكون هذا العذاب العظيم، ويمسهم هذا العذاب الأليم، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون.

يخبر تعالى، بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى، يدخلهم الجنات ويقبض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة، الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يوبخون، فيقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور، يشني تعالى، على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعد لهؤلاء من الثواب، وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله، وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم يقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه، أو يحمل عليه وزر غيره.

ولما ذكر أن له الأمر والشرع، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، فيجازي المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بعصيانهم.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجمعة بين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدورية والأحكام الشرعية،

والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة.

ومن سواه من المخلوقات، منحكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿١١٠-١١١﴾ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون، هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس، نصحاء، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليماً، وإرشاداً، وأمرأ بالمعروف، ونهيأ عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب، لو آمنوا بمثل ما آمنتم به، لاهتدوا وكان خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير، فهم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك، فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم، لولوا الأدبار، ثم لا ينصرون.

وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين، ولوا الأدبار، ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿١١٢﴾ ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا لَا يَحِجِلُ مِنَ اللَّهِ وَحِجِلٌ مِنَ النَّاسِ وَيَأْؤُوهَا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما تفقوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، ومسيب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

أو ﴿يَحِجِلُ مِنَ النَّاسِ﴾، أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، كما شوهد

خالهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى، وتمهيدهم لهم كل سبب<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَأْؤُوهَا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: قد غضب الله عليهم، وعاقبهم بالذلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، أي ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغي وعناد.

تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيتهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسل، وجنایاتهم الفظيعة.

﴿١١٣-١١٥﴾ ﴿لَيْسَ سَوَاءٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِمُوسَى إِذَا جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكَ قُلْ إِنِّي رَسُولُ رَبِّي وَإِنِّي أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْكُفْرَ لَا يَنْجِي﴾.

﴿وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والمسارة إلى الخيرات، قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه، من خير قليل أو كثير، فإن الله تعالى سيقبله، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص، ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾، يعني: لن يتكر ما عملوه، ولن يهدر.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، وهم الذين قاموا بالخيرات، وتركوا المحرمات،

(١) قد يشكل - على القارئ - هذا الموضع إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ ألف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجملة الموضوعية بين القوسين المركنين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

لقصد رضا الله، وطلب ثوابه.

﴿١١٦-١١٧﴾ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴿يَبَيِّنُ تَعَالَى: أَنَّ الْكَافِرَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَبُوا رُسُلَهُ، أَنَّهُ لَا يَنْقُذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَقْذُ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ نَافِعٌ، وَلَا يَنْشِفُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ شَافِعٌ، وَأَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، الَّتِي كَانُوا يَعْدُونَهَا لِلشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ، لَا تَفِيدُهُمْ شَيْئاً، وَأَنَّ نَفَقَاتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي الدُّنْيَا، لَنْصَرِّ بِأَطْلَهُمْ، سَتَضْمَحَلْ.

وَأَنَّ مِثْلَهَا «كَمِثْلٍ» حَرِثَ أَصَابَتْ «رِيحٌ» شَدِيدَةٌ «فِيهَا صَرٌّ»، أَي: بَرْدٌ شَدِيدٌ، أَوْ نَارٌ مُحْرِقَةٌ، فَأَهْلَكَتْ ذَلِكَ الْحَرِثَ، وَذَلِكَ بِظُلْمِهِمْ فَلَمْ يَظْلَمَهُمُ اللَّهُ وَيُعَاقِبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ».

﴿١١٨-١١٩﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَقْوَائِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغِيْطِ قُلْ مَوْتُوا بِغِيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَنْوِكُمْ وَإِنْ تَصْبِكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿هَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَنْ وَلَايَةِ الْكَافِرِ، وَاتِّخَاذِهِمْ بَطَانَةً، أَوْ خَصِيصَةً وَأَصْدِقَاءَ، يَسْرُونَ إِلَيْهِمْ، وَيُفَضُّونَ لَهُمْ بِأَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ، فَوْضَحَ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، الْأُمُورَ الْمَوْجِبَةَ لِلْبِرَاءَةِ مِنْ اتِّخَاذِهِمْ بَطَانَةً بِأَنَّهُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالاً، أَي: هُمْ حَرِيصُونَ غَيْرَ مُقْصِرِينَ، فِي إِصْصَالِ الضَّرَرِ بِكُمْ، وَقَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ كَلَامِهِمْ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ، مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ، أَكْبَرُ مِمَّا ظَهَرَ لَكُمْ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَهْوَةٌ وَعَقُولٌ، فَقَدْ وَضَحَ اللَّهُ لَكُمْ أَمْرَهُمْ.

وَأَيْضاً، فَمَا الْمَوْجِبُ لِمَحَبَّتِهِمْ وَاتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ وَبَطَانَةً، وَقَدْ تَعْلَمُونَ مِنْهُمْ الْإِنْحِرَافَ الْعَظِيمَ فِي الدِّينِ وَفِي مَقَابِلَةِ إِحْسَانِكُمْ؟

فَأَنْتُمْ مُسْتَقِيمُونَ عَلَى أَدْيَانِ الرُّسُلِ، تُوْمِنُونَ بِكُلِّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِأَجَلٍ الْكُتُبِ، وَأَشْرَفِ الرُّسُلِ، وَأَنْتُمْ تَبْذُلُونَ لَهُمْ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالْمَحَبَّةِ، مَا لَا يَكْفُتُونَكُمْ عَلَى أَقْلِ الْقَلِيلِ مِنْهُ. فَكَيْفَ تَحِبُّونَهُمْ، وَهُمْ لَا يَحِبُّونَكُمْ، وَهُمْ يَدَاهُونَكُمْ وَيَنَافِقُونَكُمْ، فَيُؤَاخِذُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا مَعَ بَنِي جَنَسِهِمْ، عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ، مِنْ شِدَّةِ الْغِيْظِ وَالْبَغْضِ لَكُمْ وَلِدِينِكُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغِيْظِكُمْ﴾، أَي: سَتَرُونَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ وَذَلِّ الْكُفْرِ مَا يَسُوُّوْكُمْ، وَتَمُوتُونَ بِغِيْظِكُمْ، فَلَنْ تَدْرُكُوا شَفَاءَ ذَلِكَ بِمَا تَقْصِدُونَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فَلِذَلِكَ يَبَيِّنُ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صُدُورُ أَعْدَاءِ الدِّينِ مِنَ الْكُفَرِ وَالْمُنَافِقِينَ.

﴿إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً﴾ عِزٌّ وَنَصْرٌ وَعَافِيَةٌ وَخَيْرٌ ﴿تَسُوُّهُمْ﴾، وَإِنْ تَصْبِكُمْ سَيِّئَةً ﴿مِنْ إِدَالَةِ الْعَدُوِّ، أَوْ حَصُولِ بَعْضِ الْمَصَائِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ﴾ يَفْرَحُوا بِهَا، وَهَذَا وَصْفُ الْعَدُوِّ الشَّدِيدِ عِدَاوَتِهِ.

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى شِدَّةَ عِدَاوَتِهِمْ، وَشَرَحَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْخَبِيْثَةِ، أَمَرَ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ، وَلِزُومِ التَّقْوَى، وَأَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِذَلِكَ، فَلَنْ يَضُرَّهُمْ كَيْدُ أَعْدَائِهِمْ شَيْئاً، فَإِنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِهِمْ وَبِأَعْمَالِهِمْ وَبِمَكَائِدِهِمْ، الَّتِي يَكِيدُونَكُمْ فِيهَا.

وَقَدْ وَعَدَكُمْ عِنْدَ الْقِيَامِ بِالتَّقْوَى، أَنَّهُمْ لَا يَضُرُّونَكُمْ شَيْئاً، فَلَا تَشْكُوا فِي حَصُولِ ذَلِكَ.

﴿١٢١-١٢٣﴾ «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ»، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَذَلِكَ يَوْمَ «أَحَدٍ» حِينَ خَرَجَ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ، حِينَ وَصَلَ الْمُشْرِكُونَ - بِجَمْعِهِمْ - إِلَى قَرِيبٍ مِنْ «أَحَدٍ». فَتُرْزَلُهُمْ ﷺ مَنَازِلُهُمْ، وَرَتَبُهُمْ فِي مَقَاعِدِهِمْ، وَنَظْمُهُمْ نَظْمِيّاً عَجِيباً، يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ رَأْيِهِ وَبِرَاعَتِهِ الْكَامِلَةِ فِي فَنُونِ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ، كَمَا كَانَ كَامِلاً فِي كُلِّ الْمَقَامَاتِ.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا﴾ وَهُمَا بَنُو سُلَيْمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ، لَكِنْ تَوَلَّاهُمَا الْبَارِي بِلُطْفِهِ وَرِعَايَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾ فَإِنَّهُمْ إِذَا تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، كَفَّاهُمْ وَأَعَانَهُمْ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ وَقُوعِ مَا يَضُرُّهُمْ، فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رُحُوها، وَجُوبُ التَّوَكُّلِ وَأَنَّهُ عَلَى حَسَبِ إِيمَانِ الْعَبْدِ، يَكُونُ تَوَكُّلُهُ، وَالتَّوَكُّلُ هُوَ اعْتِمَادُ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ فِي حَصُولِ مَنْفَعَتِهِ، وَدَفْعِ مُضَارِّهِ، فَلَمَّا ذَكَرَ حَالَهُمْ فِي «أَحَدٍ» وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَصِيبَةِ، أَدْخَلَ فِيهَا تَذْكِيرَهُمْ بِنَصْرِهِ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ «بَدْرٍ» لِيَكُونُوا شَاكِرِينَ لِرَبِّهِمْ، وَلِيُخَفِّفَ هَذَا هَذَا، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فِي عِدَدِكُمْ وَعِدَدِكُمْ، فَكَانُوا ثَلَاثِمِائَةٍ، وَبِضْعَةَ عَشَرَ، فِي قَلَّةٍ ظَهَرَتْ، وَرِثَاةٍ سَلَّاحٍ، وَأَعْدَاؤُهُمْ يَنْهَازُونَ الْأَلْفَ، فِي كِمَالِ الْعِدَّةِ وَالسَّلَاحِ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ﴾ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِنَصْرِهِ.

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مُبَشِّرٌ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُبَشِّراً لَجَنَّتِهِمْ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ بِكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا، أَي: مِنْ حَمَلَتِهِمْ هَذِهِ بِهَذَا الْوَجْهِ.

﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، أَي: مُعَلِّمِينَ عِلْمَةَ الشُّجْعَانِ.

وَإِخْتَلَفَ النَّاسُ، هَلْ كَانَ هَذَا الْإِمْدَادُ حَاصِلٌ فِيهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مُبَاشَرَةً لِلْقِتَالِ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ تَثْبِيْتُ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِلْقَاءُ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وَفِي هَذَا أَنَّ الْأَسْبَابَ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ، بَلْ يَعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ.

وَإِنَّمَا الْأَسْبَابُ وَتَوَفُّرُهَا، فِيهَا طَمَآنِينَةٌ لِلْقُلُوبِ، وَثَبَاتٌ عَلَى الْخَيْرِ.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، أَي: نَصَرَ اللَّهُ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ قِطْعاً لَطَرَفِ



## فهرس أسماء السور

٦٩٢	تفسير سورة يس	٣٩	تفسير سورة الفاتحة
٧٠٠	تفسير سورة الصافات	٤٠	تفسير سورة البقرة
٧٠٩	تفسير سورة ص	١٢١	تفسير سورة آل عمران
٧١٧	تفسير سورة الزمر	١٦٣	تفسير سورة النساء
٧٣١	تفسير سورة المؤمن (غافر)	٢١٨	تفسير سورة المائدة
٧٤٤	تفسير سورة فصلت	٢٥٠	تفسير سورة الأنعام
٧٥٢	تفسير سورة الشورى	٢٨٣	تفسير سورة الأعراف
٧٦٢	تفسير سورة الزخرف	٣١٥	تفسير سورة الأنفال
٧٧١	تفسير سورة الدخان	٣٢٨	تفسير سورة براءة (التوبة)
٧٧٥	تفسير سورة الجاثية	٣٥٧	تفسير سورة يونس
٧٧٩	تفسير سورة الأحقاف	٣٧٦	تفسير سورة هود
٧٨٤	تفسير سورة القتال (محمد ﷺ)	٣٩٣	تفسير سورة يوسف
٧٩١	تفسير سورة الفتح	٤١٢	تفسير سورة الرعد
٧٩٩	تفسير سورة الحجرات	٤٢١	تفسير سورة إبراهيم
٨٠٣	تفسير سورة ق	٤٢٩	تفسير سورة الحجر
٨٠٨	تفسير سورة الذاريات	٤٣٥	تفسير سورة النحل
٨١٣	تفسير سورة الطور	٤٥٣	تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
٨١٨	تفسير سورة النجم	٤٦٩	تفسير سورة الكهف
٨٢٣	تفسير سورة اقترت (الانشقاق)	٤٨٩	تفسير سورة مريم
٨٢٨	تفسير سورة الرحمن	٥٠١	تفسير سورة طه
٨٣٢	تفسير سورة الواقعة	٥١٨	تفسير سورة الأنبياء
٨٣٧	تفسير سورة الحديد	٥٣٢	تفسير سورة الحج
٨٤٣	تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة)	٥٤٧	تفسير سورة المؤمنون
٨٤٨	تفسير سورة الحشر	٥٦١	تفسير سورة النور
٨٥٤	تفسير سورة الممتحنة	٥٧٧	تفسير سورة الفرقان
٨٥٨	تفسير سورة الصف	٥٨٩	تفسير سورة الشعراء
٨٦٢	تفسير سورة الجمعة	٦٠٠	تفسير سورة النمل
٨٦٤	تفسير سورة المنافقون	٦١١	تفسير سورة القصص
٨٦٦	تفسير سورة التغابن	٦٢٦	تفسير سورة العنكبوت
٨٦٩	تفسير سورة الطلاق	٦٣٦	تفسير سورة الروم
٨٧٢	تفسير سورة التحريم	٦٤٦	تفسير سورة لقمان
٨٧٥	تفسير سورة الملك (تبارك)	٦٥٣	تفسير سورة السجدة
٨٧٨	تفسير سورة ن (القلم)	٦٥٧	تفسير سورة الأحزاب
٨٨٢	تفسير سورة الحاقة	٦٧٤	تفسير سورة سبأ
٨٨٥	تفسير سورة سأل سائل (المعارج)	٦٨٤	تفسير سورة فاطر



٩٢٩	تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح)
٩٢٩	تفسير سورة التين
٩٣٠	تفسير سورة اقرأ (العلق)
٩٣١	تفسير سورة القدر
٩٣١	تفسير سورة لم يكن (البينة)
٩٣٢	تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة)
٩٣٢	تفسير سورة العاديات
٩٣٣	تفسير سورة القارعة
٩٣٣	تفسير سورة الهاكم التكاثر (التكاثر)
٩٣٤	تفسير سورة العصر
٩٣٤	تفسير سورة الهمزة
٩٣٤	تفسير سورة الفيل
٩٣٥	تفسير سورة لإيلاف قريش (قريش)
٩٣٥	تفسير سورة الماعون
٩٣٥	تفسير سورة الكوثر
٩٣٦	تفسير سورة الكافرون
٩٣٦	تفسير سورة النصر
٩٣٦	تفسير سورة تبت (اللهب)
٩٣٧	تفسير سورة الإخلاص
٩٣٧	تفسير سورة الفلق
٩٣٧	تفسير سورة الناس

٨٨٨	تفسير سورة نوح
٨٩٠	تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن)
٨٩٢	تفسير سورة المزمل
٨٩٥	تفسير سورة المدثر
٨٩٨	تفسير سورة القيامة
٩٠٠	تفسير سورة الإنسان (الدهر)
٩٠٣	تفسير سورة المرسلات
٩٠٦	تفسير سورة عم (النبأ)
٩٠٨	تفسير سورة عبس
٩١٠	تفسير سورة التكوير
٩١٢	تفسير سورة الانفطار
٩١٤	تفسير سورة المطففين
٩١٥	تفسير سورة الانشقاق
٩١٨	تفسير سورة البروج
٩١٩	تفسير سورة الطارق
٩٢٠	تفسير سورة سبح (الأعلى)
٩٢١	تفسير سورة الغاشية
٩٢٣	تفسير سورة الفجر
٩٢٤	تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد)
٩٢٦	تفسير سورة والشمس وضحاها (الشمس)
٩٢٦	تفسير سورة الليل
٩٢٨	تفسير سورة الضحى